موسوعة

عصر سلاطين المماليك

ونتاجه العلمي والأدبي

للأستاذ الدكتور

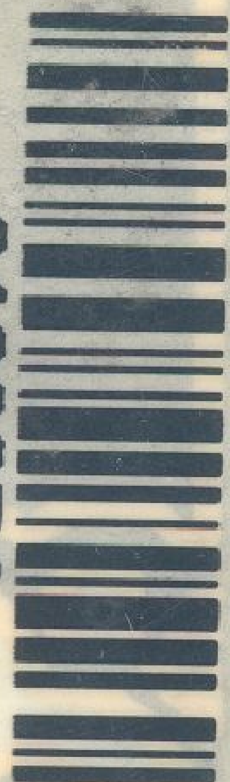
محمود رزق سليم

المجلد الثالث

الناشر

مكتبة الآداب

٤٢ ميدان الأوبرا - ت: ٢٩٠٠٨٦٨



عصر سلاطين المماليك

ونتاجه العلمي والأدبي

تأليف

محمود رزق سليم
ماجستير في الآداب
أستاذ مساعد بكلية اللغة العربية

المجلد الخامس

وهو القسم الأول من الجزء الثالث

١٣٧٤ هـ — ١٩٥٥ م

الناشر — مكتبة الآداب ومطبعتها بالجماميز ت : ٤٢٧٧٧

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله والصلاة والسلام على رسوله الكريم ، وبعد فهذا هو المجلد الخامس من كتاب « عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمى والأدبى » . ويتألف منه ومن المجلد السادس ، الجزء الثالث من هذه الموسوعة التى تؤرخ العصر المذكور وبخاصة ناحيتاه العلمية والأدبية .

وفى هذا الجزء الثالث بمجلديه ، أتحدث عن « النثر الفنى » أى الكتابة الإنشائية وما يتصل بها من ألوان النثر .

وقد كانت النية متجهة عند نبدء فى طبع هذه الموسوعة ،إلى أن يكون الحديث فى الجزء الثالث منها عن الشعر والشعراء ، وفى الجزء الرابع عن النثر الفنى . ولكن ظروف التأليف والطبع معا قد أدت عكس ذلك .

وقد تقدمت بالجزء الثالث المذكور إلى كلية دار العلوم — جامعة القاهرة — لنيل درجة الماجستير ، فنلتها بتقدير ممتاز . وكانت لجنة المناقشة برئاسة الأستاذ الجليل عبد الحميد حسن وعضوية الأستاذين الفاضلين على الجندى وعمر الدسوقى .

وقد اقتضى هذا التقدم أن أصب هذا الجزء فى قالب جامعى فيه دقة وعمق واستقصاء وشمول ، وتحليل وتدليل وحسن ربط ، إلى غير ذلك ، مع استيفاء شكلياته ، مما جعل له منهجاً قد يخالف المنهج الذى اتبعته فى المجلدات السابقة من بعض الوجوه .

وقسمت الحديث فيه ستة أبواب ، يتقدمها جميعا باب تمهيدى ذو ثلاثة فصول :

فى الفصل الأول منه عرفت بعصر المماليك من الناحية التاريخية ، وتكلمت عن أصلهم وتربيتهم ونظام الحكم فى عهدهم وعن عنايتهم بالعلوم والآداب — وهذه الموضوعات طرقتها فى المجلدات السابقة . ولكننى ، وأنا بصدد « بحث » جامعى مستقل ، رأيته من الضرورى أن أتحدث عنها استكمالا له . أما هنا فلا ضرورة إلى إثبات هذه

الموضوعات ، لذلك حذفت هذا الفصل. وفى الفصل الثانى بينت معنى النثر الفنى ، فأثبته هنا لجدته وطرافته .

والفصل الثالث ذو خلاصتين : الأولى فى النثر الفنى منذ الجاهلية إلى انتهاء الدولة العباسية ، فى الحجاز والشام والعراق ، والثانية فى النثر الفنى بمصر منذ الفتح العربى إلى أول عصر المماليك .

والخلاصتان طويلتان وبهما كثير من النصوص . واضطرتنى إليهما ضرورة الربط بين نثر المماليك وما قبله . وقد رأيت هنا أن أكتفى منهما بصفوة وجيزة من سطورهما تفى بالغرض ، وحذفت منهما كثيرا من النصوص . وحولت كل خلاصة إلى فصل مستقل ، وبهذا كله تحول الباب التمهيدى إلى ثلاثة فصول .

أما أبواب البحث الستة فهى على الترتيب : باب الرسائل ، والوصف ، والقصص والخطب وما يتصل بها ، والنقد الأدبى ، ثم باب الخصائص . وكل باب منها مستوفى فى موضوعه ، دقيق فى ترتيبه ونظامه وتقسيمه .

ولا أرتاب فى أن القارىء سيقدر الجهد والزمن اللذين صرفا فى إتمام هذا البحث ، وسيشعر بمقدار الضوء الكاشف الذى ألقاه على نثر المماليك ، وعلى الناحية الأدبية فى عصرهم . وبقيمة الإضافات العلمية التى استفيدت منه ، وبصدق النتائج التى أجملتها فى أعقابه ، وفى مقدمتها أن النثر الفنى فى عصر المماليك حفظ أمانته وأدى رسالته وشارك فى شتى نواحى الحياة .

وقد يكون من المفيد أن أنوه بالمنهج الذى أنتهجته فى تأليف هذا الجزء . فقد رأيت أمامى منهجين اصطنعهما بعض الباحثين المحدثين :

أما المنهج الأول فأن أتخذ من كتاب العصر عماداً للبحث ، وبيان ما فى النثر من فنون وخصائص ، فأتحدث عنهم كاتباً كاتباً مع ترتيب الحديث عنهم ترتيبا زمنياً ، أو تبعا للفنون التى برع فيها كل منهم . فأتحدث مثلا عن كتاب المقامات ، ثم عن كتاب الرسائل ، ثم عن كتاب المذهبيات ، وهلم جرا ، وأبين عند الحديث عن كل واحد منهم خصائصه ومميزاته وألوان فنه .

وهذا المنهج هو الذى اتبعه المرحوم الدكتور زكى مبارك فى كتابه القيم « النثر الفنى فى القرن الرابع الهجرى » . وقد عاونه على سلوكه أنه كان يتحدث عن النثر فى قرن

واحد وذلك أعون على حصر كتابه ، وأدعى إلى تقسيمهم طوائف بحسب الفنون التى برزت فيهـــا كل طائفة .

ولكننى عدلت عن سلوك هذا المنهج فى بحثى . لأنى رأيته يؤدى إلى إبراز خصائص كل كاتب على حدة ، فتضيع فى ثنايا ذلك خصائص النثر فى العصر كله باعتباره وحدة . أو على الأقل تتبعثر هذه الخصائص دون أن تجمعها جامعة قوية تركزها وتلون العصر كله .

واعتقادى أن كل عصر أدبى له خصائصه ومميزاته ، وله توجيهاته لأدبائه وتأثيراته فيهم ، فهم يخضعون لها ، وإن لم ننس ما لكل منهم من خصوصيات فردية . ومن أهم ما رميت إليه فى هـــذا البحث إبراز خصائص العصر ومميزاته الفنية وبيان موحياته وتأثيراته فى أدبائه ، مما لون أدبهم جميعا بألوان مشتركة . وإن لم أنس خصوصياتهم الفردية .

لهذا وجدت سلوك المنهج المذكور لا يعيننى على بلوغ ما أهدف إليه .

أما المنهج الثانى فأن آخذ النثر نفسه بفنونه وخصائصه مداراً للدراسة ، وأن تكون الدراسة ذات مراحل زمنية مرتبة من أول العصر إلى آخره ، مع إبراز هذه الخصائص فى كل مرحلة منها ، وتعليل ذلك ، وربطه بالمرحلة السابقة ، وهلم جرا .

وهذا المنهج منهج جامعى محبوب ، ولا أنكر أنه نافع وقيم فى مثل هذا البحث ، وأنه يساعد على بيان تطور أحوال النثر فى خلال العصر .

غير أنى وجدته لا يسعفنى أيضاً على الوصول إلى ما أرى إليه ، لأنه يظهر العصر مفكك الأواصر متباعد الأوصال مشعث الروابط ، وهذا لا يعين على إبراز خصائصه إبرازا كاملا .

وقد يكون هذا المنهج منتجا إذا كانت مؤثرات العصر الأدبية ومقتضياته ، قد أصابها التغير من فترة إلى أخرى . ولكننى نظرت فى العصر الذى أنا بصدده ، فوجدت مؤثراته ومقتضياته ، واحدة من أوله إلى آخره على وجه التقريب . وقد بينت ذلك فى بحثى فى أكثر من مكان ، ولا سيما عند الحديث عن البيئات المختلفة التى عاش فيها النثر الفنى فى مصر طول هذا العصر ، فاصطناع هذا المنهج يوقعنا حتما فى تكرار ممل ، عند ذكر الأسباب والنتائج والأمثلة ، ورأيت أن لا طائل من بذل المجهود فى سبيله . لهذا عدلت عن سلوكه .

أما منهجي ، فهو أني اتخذت فنون النثر دعائم للحديث عنه ، باعتبار العصر كله وحدة متماسكة متشابهة الأجزاء ، إلا لماما لماما ، كما بينته أيضاً فى أكثر من موضع فى بحثى .

ثم أعقبت الحديث عن الفنون بالحديث عن الخصائص . ورأيت أن أمهد للبحث كله بهذا الباب التمهيدى الذى أشرت إليه . والذى تحول هنا إلى فصول ثلاثة .

هذا . على أنى كنت أنتهز المناسبات فأعرف ببعض الكتاب فى صلب البحث ، أو الهامش ، استيفاء لما تتطلبه . وتحدثت عن بعض المخطوطات ونشرت شيئا من نصوصها وأثبت المراجع بالهامش عندما تعن حاجة إلى هذا الإثبات .

ولا زلت عند عقيدتى التى رددتها فى أكثر من مناسبة ، وهى أن أدب هذا العصر — عصر المماليك — لا يزال مجهولا مغموراً . ولا تزال مخطوطاته مغتربة ، أو مجفوة فى دور الكتب ، ولو أتيح لها النشر لتغير وجه الحكم على أدب العصر المذكور .

وقد وضعت نصب عينى وأنا أطبع هـــذه الرسالة الطويلة توصيات حضرات الأساتذة الأجلاء أعضاء لجنة المناقشة ، فصححت الخطأ وشرحت الغامض وبسطت المجمل حسبما أشارت إليه ورأيت صوابه .

والله سبحانه وتعالى هو الموفق للسداد ، الهادى إلى سبيل الخير . المعين على العمل الصالح ، أرجوه عوناً لى ولغيرى من كرام الباحثين على خدمة هذا الوطن العزيز مصر المجيدة ، فى ظل جمهوريتها الفتية الرشيدة إنه سميع مجيب ؟

المؤلف

فصـــــل
في بيان معنى النثر الفني

لـكل أمة من الأمم فى شتى عصورها الأدبية ، ألوان من الكلام ، تستخدمها فى شئونها المختلفة . وكل لون منها يناسب مايؤديه من شئون . فنها المحادثة ، ومنها الشعر ، ومنها النثر العلمى ، ومنها النثر الفنى .

والنثر الفنى — بين أنواع النثر — هو مايقابل الشعر ويماثله ، إذ الشعر بطبيعته عمل فنى ، حتى ولو بدا فى أردأ صوره ، وأخس حالاته — فله من قيود الوزن والقافية موسيقى ، خاصة تدخله فى حظيرة الفن .

أما النثر فقد يمسه الفن فيصبح نثرا فنيا أولا يمسه وينأى بجانبه عنه ، فيصبح للنثر حينئذ صفات أخرى غير الفنية التى نقصدها هنا .

فالنثر العلمى ، مثلا ، الخالص للعلم ، لايعنى إلا بحقائق العلوم ونظرياتها . ويعرض الفكرة عرضا سافرا غير مشوب بنزعة نفسية خاصة ، فإذا تساوى عدد من العلماء فى هذا العرض بحيث لم تبد خلاله « شخصية » أحدهم ، بل تساووا جميعا فيه كأنهم نقلة آثار ، ورواة نصوص وحملة أخبار ، كان هذا النثر علميا محضا . ومن الأمثلة لذلك ، منطوق النظريات الهندسية وحلولها التقليدية ، ومثل درس فى تشريح الجسم الإنسانى . وكوصف مجموعة نباتية وبيان فصائلها وأجزائها الطبيعية . وكوصف ظاهرة كيميائية كتكوين صدأ النحاس . أو تركيب الماء من عنصريه .

ويقول بعضهم إن الأسلوب العلمى الخالص ، يندر وجوده ، ذلك لأنه مامن شخص كائنا من كان ، يستطيع أن يبرىء حديثه وأسلوبه من مظنة عاطفته ، ومن شائبة شعوره ، حتى الكيميائى الذى يتصدى لتحليل العناصر أو تكوينها أو

اختبارها ، فإن لابد له بين آونة وأخرى أن يلون حديثه بلون عاطفى ، معبرا عن ذوقه وإحساسه إزاء مايقوم به من تجارب ، وربما نقد غيره من المجربين وآخذه ببعض هناته ، ووازن بينه وبين سواه . . . إلى غير ذلك مما يجعل له «شخصية» فى أحاديثه . وبهذا تبدو الألوان الفنية على أسلوبه .

ومما سبق يتبين لنا معنى النثر الفنى . فهو نثر تلونه العاطفة والذوق الشخصى ، ويثب فيه الشعور ، مع سمو فى معانيه وروعة فى أخيلته. وهذه الألوان العاطفية الذوقية تتخذ لها مسالك أسلوبية تصبح خصائص للنثر تكسبه فنيته .

وليس النثر الفنى كالحديث المتبادل بين الناس فى شتى شئونهم اليومية المعتادة المكرورة الرتيبة . وإنما يبدو فيه عمق التفكير ولطف التعبير ودقة التصوير ، وصبغ الذوق . سواء أكان من عمل البديهة والارتجال ، أم من صنع الروية والتهذيب . وبهذه المناسبة نذكر أن الطبائع مختلفة . والاستعداد الفطرى أنواع ومن الناس من لابديهة له ، وله روية . ومن لا روية له ، وله بديهة .

وأنت قد تسمع شيئا من النثر العلمى ، فتتابعه بذهنك وتسايره بعقلك . أما شعورك وعاطفتك فنى واد آخر . ولو لم يكن لك من جميل الصبر وسعة الحلم نصيب، لقطعت بينك وبينه الصلة . أما النثر الفنى فتتابعه بنفسك وتسايره بوجدانك ،فتزداد بينك وبينه الصلة وتطلب منه المزيد . دون حاجة إلى صبر جميل أو حلم واسع . وما ذلك إلا لطرافة موضوعه وروعة تصويره .

ألا ترى إلى كثير من الطلاب فى فصولهم ، وصوت المعلم يشق أجواز الفضاء، ينصرفون عنه إلى رواية ساقطة فى يدهم يقرءونها ، أو مجلة تافهة يتصفحونها . . . ذلك لأنهم يجدون فيها — على تفاهتها — غـــذاء نفسيا وروحيا حبيبا إليهم أثيرا عندهم .

فالنثر الفنى يطن فى أذنك ، ولكن لا كالطبل ، ويسمن فى ذوقك ولكن لا كالورم . إنه النغم المتناسق المحبوب . والطعام الشهى المطلوب : يغريك بالعود إليه بين آن وآن ، لتستعيد به اللذة النفسية التى متعك بها أول مرة . لقد انتهيت

منه ، ونفسك لم تنته . إنها تراودك على معاودته . وكلما عاودته بدا لك فى أثواب جديدة ، ومعان وليدة .

والنثر الفنى تتوافق فواصله ، وتنسجم قرائنه ، وتوافى عباراته كما تتوقعها الآذان الموسيقية السليمة الحساسة . فإذا بلغ إليها ، أصابت ببلوغه ، طمأنينة وراحة فيها لها اللذة والمتعة ، غير شاعرة منه بنبو ولا قلق . وهذه ميزة فنية ، وخصوصية ذوقية ، لا يؤتاها إلا الراسخون فى النثر . .

وأحيانا يكون منطقيا متصل الحلقات متعاقب الأجزاء يبدأ بالأهم فالمهم ، ويستعين بالمقدمة وحسن العرض الوصول إلى النتيجة ، ويقرن بعض الأشباه إلى بعض . وهكذا تبدو عليه سمة العقل والنظام .

وهذه فى الواقع صفات النثر العلمى . فإذا سكبت عليه العاطفة من صوبها ، والنفس من ذوبها ، ولونه الذوق بأصباغه كان فنيا . وكلما زاد نصيبه من هذه الأصباغ ، كان أدخل فى باب الفن ، وكان أروع فى مجال الصناعة . لأنه يكون بذلك قد جمع بين الحسنيين . حسنى المعرفة ، وحسنى الذوق .

ومن هنـــا نشعر أن النثر الفنى من خير الأدوات لعرض حقائق العلوم واضحة ، كما هو من أفضل الوسائل لعرض خلجات النفس قوية . وإن كان العمل الأخير هو وظيفته الأولى .

فالعالم مؤرخا أو اجتماعيا أو فيلسوفا ، أو أى صنف آخر ، إذا عرض معلوماته على طريقته الخاصة محاولا أن يؤثر بها فى السامع ، ويصل إلى مرحلة الاقتناع ، كان رجل فن ، بجانب أنه رجل علم . ويكون قد اتخذ النثر الفنى وسيلة إلى ذيوع معلوماته ، وضمان الثقة بها .

ولهذا يتبين أن الناثر الفنى ينبغى أن يكون ممتزجا بموضوعه مؤمنا به ، مقدرا لنفسية سامعه أو قارئه . ممتلكا ناصية العبارة . لإخراج موضوعه مخرجا كلاميا شائقا شاملا لتصوره له ، حتى يحل من نفس مخاطبه محله من نفس قائله .

وقد أشرنا إلى أن الوظيفة الأولى للنثر الفنى هى عرض خلجات النفس قوية، وتصويرها كما طفرت إلى صفحة الشعور . وليس معنى ذلك أنه يصور انفعالات وعواطف ، وجدانيات فحسب . لا . وإنما لابد للنثر الفنى من حقائق إنسانية يعتمد عليها ويتخذها وسيلة إلى غايته . لايكتفى بأن يضعها أمام مخاطبه سافرة عارية ، بل يخاطب بها نفسه وشعوره ليوقظه ، وخياله ليحركه . وعاطفته لتنفعل بها [1]

والنثر الفنى فيه مرونة تسمح له بتنوع مسالكه ودعائمه ، وتسوغ له قبول خصائص الشعر — فيما عدا الوزن — ولهذا تجمل فيه الأخيلة والتشابيه .ويحلو التعبير العاطفى المشبوب وتزدان الزخارف المعنوية وغير المعنوية [2] .

وترى من هذا كله مبلغ دلالة هذا النثر على حضارة الأمة ونضجها العقلى وسموها النفسى .

ومن هذا وذاك ترى أن للنثر الفنى صفات وسمات ، هى بمثابة القيود التى ينبغى رعايتها ،كل منها على حسب المقام والمقتضى .

وقد التزم بعض الكتاب — مثلا — شيئا من هذه القيود ، فأصبحت صبغا دائما من أصباغ أسلوبه فى كل مقام. وتابعه بعض الأدباء فى ذلك. كالتزام الصاحب ابن عباد للسجع ، وميل القاضى الفاضل للفقرات الطويلة. وابن نباته للتورية مثلا... وهذا الالتزام هو موضع المؤاخذة . ولكن ليس معناه أن نخرج نثرهم من دائرة الفن ، بل لعل ذلك أدخل إليه وأكثر إمعانا .

هــــذه الصفات والسمات تجعل من النثر الفنى ، مجالا واسعا للدراسات البلاغية . وعناية علماء البلاغة .

---

١ — الأسلوب ص ١٣ — للأستاذ الشايب .

٢ — يفرق الاستاذ عبد الحميد حسن فى كتابه « الأصول الفنية للأدب » ص١٨٦ تحت عنوان « الأسلوب » بين النثر الفنى والأسلوب الشعرى ، ويقصر الأخير على الاسلوب الذى تتغلب فيه العاطفه وتبرز . على أنه يجعل للأول النصيب الأوفى من الخيال وجمال العبارة ومايتطلبه من الإبانه من تشبيه وتمثيل ومجاز .

وإن أبلغ أمثلة النثر الفنى . أساليب القرآن الكريم ، لأنه يتخير لموضوعه القالب التعبيرى الذى يناسبه .

فالدعوة إلى الجديد وتسفيه القديم ، ومس العقائد التى ألفتها النفس وآمنت بها القلوب ، تحتاج إلى أسلوب خطابى تتوافق فيه الفواصل ، وتقصر الفقرات ، وتتلاحق النغمات ، وتختار ألفاظه وتراكيبه من ذات الدوى والجلبة .

أما تقرير المبدأ وتقنينه وتفصيل تشريعه ، فيحتاج إلى أسلوب مرسل تطول عباراته وتكثر إشاراته ، وتختار ألفاظه محدودة المعانى واضحة المرامى ، لاتحتمل تفصيلا جديدا ، ولا تأويلا . . . وهكذا

والقرآن الكريم له مختلف هذه الأغراض . فاختلفت لذلك أساليبه . وهذه إحدى مظاهر إعجازه .

ومن أفضل الأمثلة كذلك ، حديث الرسول عليه السلام ، الذى أوتى جوامع الكلم وفصل الخطاب . وكان أبلغ العرب ، شرفا فى المعنى ودقة فى الأداء بغير نقص أو زيادة ، دون غاية بلاغية . ورعاية تامة للمناسبة . فى عبارة طلية عذبة خفيفة فى السمع واللسان ، سهلة فى الحفظ . — وكثيرا ما يسترسل الرسول عند التشريع ويسجع عند النصيحة والدعوة إلى الفضائل الخلقية والآداب الاجتماعية ، ويوازن عند الرغبة فى التأثير ، ويجنح إلى الخيال والتمثيل حينما يريد الإيضاح والتوكيد ، مع رعاية دقيقة للنظير ، وميل لطيف إلى المجانسة أو المطابقة أو المقابلة ، انسيابا مع المعنى ، وبذلك يكسب الحديث رونقا وحسن قبول .

وللنثر الفنى ألوان متعددة . فهو يحتوى أحيانا على النادرة الطريفة والفكاهة الخفيفة والتورية الظريفة ، فى لفظ وجيز وعبارة قصيرة سهلة المثونة . تتوافد من ورائها على خيال السامع ، شتى المعانى والصور الممتعة . حتى ليشعر كأن أصواتاً تهمس فى أذنه ، وأطيافا تتحرك أمام عينيه ، ونفوساً تتخالج مع نفسه . وهو يرقبه يكشف خلجاتها ، وعواطف تتماوج مع عواطفه ، وهو يتابع موجاتها . كل ذلك

من حوادث الحياة التى تبدو فيها فوارق عجيبة تبعث على الضحك أو العظة ، أو تغرى بالسرور وترسم العبرة . ولاتى تتواثب معانيها وأخيلتها هذه، كلما وثبت إلى بؤرة الشعور ..

ومن ألوان النثر الفنى : المقالة والوصف والقصة والنادرة والرسالة والخطبة والعظة ، والمناظرة والجدل ، والنقد والتاريخ . ولكل صنف منها مسلك أسلوبى خاص يناسب عمله ويختلف كثيرا أو قليلا عن أسلوب سواه . وليس من الضرورى أن توجد كلها فى عصر واحد ، بل كل صنف منها رهن بعوامله ومولداته . فنها مايطفر إلى الوجود ، ومنها ما يفتر ، ومنها ما يموت . فالمقالة لم يكن لها وجود فى العصر الجاهلى ونشطت فى العصر العباسى والعصر الحاضر . والخطبة أهملت فى العصر العثمانى ، وكانت مزدهرة فى صدر الإسلام وعصر بنى أمية . والرسائل الديوانية أينعت فى العصور الوسطى ، وضعفت شوكتها فى العصر الحديث ، ومثلها أيضا الإخوانيات والمقامات . فقد اختفى هذان المظهران الأديبان الجيلان فى العصر الحديث إلا لماما . وهلم جرا . .

وفى العصر الحديث ، لما انتعشت الحالة الفكرية . وتيقظت النفوس إلى حقوق الوطن المسلوبة ، ونشطت الحركات الثورية ، برز الأسلوب الخطابى الحماسى ، وطغى على غيره من الأساليب الهادئة المتزنة . وكانت خطابة سعد زغلول مثلا رائعاً لهذا المنهج الأسلوبى الجديد . وأخذ هذا المنهج الخطابى بتلابيب الناس وسرى بين الأدباء — خطباء وغير خطباء — مسرى الكهرباء ، حتى اصطنعه الجميع فيما يتكلمون . حتى العوام فى باطن الريف . . .

وكنا — منذ أكثر من ربع قرن ، والثورة المصرية على أشدها — نسمع أحد الخطباء يدوى صوته فى الأرجاء ويطن فى الآذان . ونحن فى عجب به . نحييه بين آونة وأخرى بالتصفيق والهتاف المتواصل . . عند بعض مقاطعه الرائعة المؤثرة . . وكنا — فى الحق — لا نفهم شيئا مما يقول ! . وأغلب الظن أنه هو أيضاً لا يدرى ماذا يقول ! ولكنها حمى الخطابة رفعت حرارة حماسته ، وأطلقت

عقال لسانه فراح يهدر كما يهدر البعير .. ونحن يروعنا منه جرس صوته واتساق مقاطعه، وتوافق فواصله، ورنين سجعه، وترديده المثير لكلمات: الحرية والاستقلال، والدماء والجلاء ...

وهكذا ترى أن سياق الحوادث، ومنطق العصر، يوحيان بلون خاص — أو ألوان — من الأسلوب تطفر فيه مسالك أسلوبية خاصة، توافق مزاج العصر وذوقه، وتمسك بزمام الأسلوب

وعلى هذا نستطيع ترديد القول: إن لكل عصر نثرا فنيا خاصاً به؛ تتركز فيه خصائص، هي من فعل هذا العصر وبيئاته ومؤثراته المختلفة، اجتماعية وثقافية وغيرها، يخضع لها كتاب العصر على الإطلاق، بحكم اتحادهم فى الاتصال بهذه المؤثرات. وقد ... لكل واحد منهم على حدة، خصائص ذاتية، تلون نثره أيضا، مع تلك الخصائص العامة، نتيجة لاختلافه الضرورى عن غيره، فى الطبيعة والاستعداد والذوق والمزاج ومقدار التأثر.

فالحياة الأدبية بالأندلس، وما اكتنفها حينا من جمال طبيعة، وكثرة خير، ورغد حياة، وطمأنينة بال، وترف فى تناول العيش، وانتشار غناء، وسعة أنس، وإقبال على اللهو، واختلاف إلى الرياض والبساتين، إلى غير ذلك، قد تأثرت بذلك كله أساليب الأدباء فيها، ووثبت إليها سمات وصفات أسلوبية، وليدة لتلك الملابسات: ومنها حسن التخلص والتعليل، وروعة الوصف والاندماج مع الطبيعة بوصفها أو استمداد الوصف منها.

وفى العصر العباسى، لما تلاقحت الثقافات، وأقبل الناس على حياض العلم ظمأى ينهلون. وتعمقوا فى فهم حقائق الكون على نسق فلسفى معلل، وانتشرت المترجمات، من كتب الحكماء والمناطقة، أخذ الأدباء يعللون الأشياء والحوادث والأخلاق بعلل عقلية منظمة، حتى القضايا الشعرية كانوا يعللونها ويدعمونها بأمثلة ملموسة قوية، ويقيسونها قياسا منطقيا بارزا.

وفى العصر المملوكى، كان الشعب محروما خيرات بلاده وثمرات أرضه وفى

مقدمته أدباؤه الذين حرموا طيب العيش وسعة الجاه ونفوذ المنصب ، واستأثر بذلك ذوو الحول والطول من الترك والجركس المستبدين الطغاة ؛ ومن يلوذ برحابهم ويتمسح بأعتابهم . فذاعت بين النفوس حالة من الحقد والمرارة ، والخوف والصبر معا ، أنتجت يأسا يشوبه الأمل ، ونقدا لم يخل من اللذع والسخرية . ودعاهم ذلك إلى التماس السلوى والعزاء . فانبعثت حينئذ جملة مناهج أدبية لطيفة مناسبة ، احتلت مكانة مرموقة فى عالم أدبهم منها : التورية والإبهام والإلغاز . وصبغته بصبغتها اللامعة . ـ وقد تكون هذه المناهج سابقة فى وجودها على هذا العصر . ولكن ظروفه مكنت لها فى أدبه ، بما لم تمكن لها ظروف من قبل .

وهكذا . ترى لكل عصر منهجا أسلوبيا تسوده صفات خاصة ، يخضع لها أكثر أدبائه ، إن لم يكن جميعهم .

وقد ساد فى القرن الثالث الهجرى أسلوب نثرى مرسل ـ غالبا ـ لغوى مدرسى استطرادى ، فيه طرف من النزعة الموسوعية ومنه كلام الجاحظ والمبرد وابن قتيبة . وساد فى القرن الرابع أسلوب بديعى يهتم بالسجع والازدواج والترصيع . والفقرات القصيرة ، والاقتباس والتوجيه ، ومنه كلام ابن العميد والخوارزمى والبديع وابن عباد . وساد فى القرن الثامن أسلوب بديعى يلتزم السجع ويطيل الفقرات ويكلف بالتورية والاستخدام والتضمين ، وغيرها ، ومنه كلام ابن نباته وابن فضل الله العمرى ، والصفدى . وهلم جرا . . .

فهكذا ترى أن لكل عصر — أو قرن — منهجا وأسلوبا ، واتجاها أدبيا ، وأن الظروف الاجتماعية التى تمر بها الأمة ، وما فيها من ثقافيات واقتصاديات وغيرها ، تتفاعل وتلد هذا المنهج والاتجاه وتكسبه ألوانه ، ومن هنا تحكم أن النثر الفنى وليد الحضارة الفكرية ، وثمرة اليقظة النفسية وأنه لابد لأدباء عصر . فى وضع أصباغها ، واختيار ألوانها ـ غالبا ـ من تلقاء أنفسهم .

هذه مسألة جديرة بالدراسة الجديدة المستفيضة . وقد تناول بعض الأدباء قديما وحديثا الكلام عن المؤثرات الموجهة للأدب ، كالبيئة والثقافة والحكم

والاقتصاديات والأديان وصلات الأمم بعضها ببعض ، إلى غير ذلك . ولكنى أحسب أن أحدا منهم لم يعن بها العناية الكافية ، ولم يبحث البحث المستقل عن أثر هذه العوامل فى «الأسلوب» وحده وفيما يتنابه من أعراض . . . مثل هذا البحث يكون نافعا جدا ، لو اتجهت إليه عناية الأدباء . ونشير إلى ذلك مرة أخرى فى مناسبة ثانية .

* * *

والناشىء المتأدب ، فى حاجة قصوى إلى معرفة مسالك المتقدمين فى أساليبهم . وإلى حفظ كثير من نصوصهم لأن ذلك يبسط أمامه أمثلة لا تعد ، لطرق الكلام وفنون الحديث العربى ويشجع خاطره ، ولسانه ، ويفصح منطقه ، ويجرئه على القول ، ويعوده حسن العبارة ولطف الإشارة .

وإذا هو أكثر من القراءة لأحد الأدباء ، وأدمن حفظ نثره مثلا لمصادفة ، أو التام هوى . فانسجمت نفساهما . وتوافق ذوقاهما ، لا يلبث أن يتخرج بهذا الأديب فى فن القول ، فيلحب لحبه ، ويسلك طريقه ، ويكون له نعم المعين على الإنشاء . وكلما كبر واشتد ساعده . أخذت مؤثرات بيئته ، وخصوصياته تلون هذا الإنشاء بأصباغها .

وقد نبه كثير من النقاد السابقين على ضرورة اطلاع الناشىء المنشىء . على القرآن مع العناية بحفظه ، وعلى حديث الرسول ، وأدب العرب ، وشعر الفحول منهم . نص على ذلك ابن خلدون ، وضياء الدين بن الأثير والشهاب محمد الحلبى وتقى الدين بن حجة الحموى — وسنشير إلى ذلك فى مناسبة أخرى — .

وكذلك أول ما ينبغى للناثر أن يتأهل به ، ويتكمل ، أن يكون ذا حظ محمود من متن اللغة ونحوها وصرفها . وتلك أدواته الأولية ووسائله البدائية التى لا غنى له عنها : والتى ينبغى له رعايتها . وإلا خرج عن أن يكون أديبا عربيا .

والناثر الفنى — حقا — ليس نحوياً ولا صرفيا ولا بلاغيا ولا لغوياً . ولكنه ينبغى أن يكون ذا حظ محمود من ذلك كله — كما أشرنا — ثم هو حين يعرض

لعمله الفني ينطلق حرا لا يلوى على شيء — عدا ما استقر فى نفسه من هذه الدعائم الأولية . . وهو فى انطلاقه يطيع حافزه ويستجيب لذات نفسه ، إثر انفعالاته العاطفية الثائرة وكأنما يريد بذلك أن يضع عن كاهل خاطره ما يثقله من تصوراته الوليدة ، كما تضع المنجبة جنينها عند اكتماله .

هذه الحرية والانطلاق يدفعانه إلى التجديد دون وعى منه ، التجديد فى التصور وفى التصوير وفى التعبير . وبمقدار حظه من دقة الملاحظة وقوة الإدراك وسعة المعرفة وصدق العاطفة وشرف الانفعال وسمو الشعور وجمال التصوير ودقة التعبير ، يكون نصيبه من الأدب ، وحظه من الفن ، ودنوه من الكمال .

وإذا اكتملت الفنية الناثرة فى ذوق أديب ، رأيته ينظم المعانى الثائرة من نفسه إلى صفحة ذهنه ، فى قوالب تعبيرية يصبها فيها ، تتسق معها وتنم عنها ، مراعيا فيها قوانين البلاغة ، بأوسع حدودها وأدقها ، دون عمد أو تعمل . بل ينطلق انطلاق الجواد المطيع . والسيف المعود ، ويجود لسانه جود الغريزة . فيفصل فى مواضع الفصل ، ويصل فى مواضع الوصل . ويوجز إذا استدعى المقام إيجازاً ، ويطنب إذا اقتضى إطنابا ، ويؤكد فى مقام الإنكار : ويبهم فى مواطن السخرية ، ويكنى للتدليل ، ويشبه للتوضيح . . وهلم جرا . . .

والحق أن الناثر الفنى المكتمل الأداة والوسيلة ، تستقر فى نفسه ومزاجه — بعد الدأب والممارسة — خصائص تلون نتاجه ، وتكون «شخصيته» — وقد نوهنا بذلك — وتستقر فى لسانه وقلمه . وقلما يحيد عنها إلا لمؤثرات جديدة . وتصبح كأنها «قيود» له لا يستطيع الفكاك منها ، وهو عنها راض كل الرضا . وقد يعجب كيف يستطيع أحد النقاد أن يرى فيها عيوبا وسيئات يكشف عنها — ولكن الناقد — على كل حال — أوسع منه حرية ، وأطلق منه نظرا ، وأكثر منه تصرفا فى معرفة خصائص الأساليب ، وفيما ينبغى منها وما لا ينبغى .

والناثر كلما كان أحرص على أن يهيء لأسلوبه عناصر الكمال ، كان أفضل وأبلغ . وليس جميع الناثرين متساوين فى نصيبهم منها بل هم متفاوتون . وهذا التفاوت

والنقص هو الذى يغرى الناقد بنقده ، ويشق أمامه السبيل لبيان الحسنات والسيئات.

بقيت كلمة نحب أن نبديها . وهى أن فنية الأديب إنما تكتمل وتتضح بمقدار قدرته على الاندماج فى قومه وعشيرته ، واستمداد إحساساته من إحساساتهم . والانفعال لهم ، والتعبير بعواطفه عن عواطفهم . واصطناع خصائصهم الأسلوبية فى عباراته تأثرا بهم ، ودلالة على قوة صلته بهم . — وعلى الرغم من أنه يكون — عادة — فى مستوى ثقافى ونفسى أرفع من مستوى عامتهم ودهمائهم ، تتضح خصائصهم الأسلوبية على أسلوبه ، وهى التى تقدره على دقة تصويرهم فى أدبه ، وتعينه على توضيح غامضهم وتفسير متشابه إحساساتهم . وهذه هى إحدى سمات الفن الأصيلة — فى رأينا —

هذا وإنما نرسم هنا ، المثل الأعلى للناثر الفنى ، أو نحاول أن نرسمه . ولكل ناثر منه حظ ونصيب ، وبمقداره يوزن أدبه وتعرف قيمته .

وبعد . فهل كان للعصر المملوكى نثر فنى ، كما كان لغيره من عصور العربية . ؟ وما ألوانه وأصباغه وفنونه ؟ وما مبلغها من القوة وحظها من الاستجابة لمؤثرات العصر ، أو من وحى التقليد ؟ هذه الأسئلة وغيرها نحاول أن نجد لها جوابا فى الأبواب القادمة . لعلنا بذلك ننصف أدباء هذا العصر ، ونقدم إليهم بعض الاعتذار .

فصل

فى النثر الفنى قبل المماليك ، فى الحجاز والشام والعراق

— أ —

نثر الجاهلية

نعنى بنثر الجاهلية ، النثر الفنى الذى عاش قبل الإسلام . وهو يتمثل فى عدة قصص تتخللها أحيانا أمثال أوحكم ، وجملة من الوصايا والعظات ، وعدد من المنافرات والمفاخرات ، والخطب والأمثال المفردة ، والحكم المنثورة ، وشىء من سجع الكهان .

وبما روى من ذلك فى كتاب الأمالى لأبى على القالى :

١ — المفاخرة بين طريف بن العاصى والحرث بن ذبيان عند بعض أقيال حمير .

٢ — حديث النسوة اللاتى أشرفن على تربية بنت الملك ثم أشرن عليها بالتزوج ووصفن لها محاسن الزوج

٣ — المفاخرة بين سبيع بن الحرث وميثم بن مثوب بمجلس مرثد الخير بن ينكف .

وبما يروى من ذلك أيضا فى كتاب العقد الفريد لأحمد بن عبدربه :

١ — خطب وفد العرب إلى كسرى ، وقد أوفدهم إليه النعمان بن المنذر ، ومنهم : أكثم بن صيفى ، وحاجب بن زرارة التميميان ، والحرث بن عباد البكرى ، وعمرو ابن الشريد السلمى ، وخالد بن جعفر الكلابى : وعلقمة بن علاثة العامرى ، وقيس ابن مسعود الشيبانى ، وعامر بن الطفيل العامرى ، وعمرو بن معد يكرب الزبيدى ، والحرث بن ظالم المرى .

٢ — وفود قريش على سيف بن ذى يزن ، بعد ظفره بالحبشة ، يهنئونه ، وخطبة عبد المطلب بن هاشم بين يديه .

٣ — وفود عبد المسيح على سطيح الكاهن .

هذا إلى جملة خطب - خطبة قس بن ساعدة الإيادى فى سوق عكاظ ، وجملة من الأمثال فى كتاب العقد وغيره من كتب الأمثال كمجمع الميدانى .

ومن أشهر خطباء الجاهلية عدا من ذكرنا : كعب بن لؤى الجد السابع للنبى عليه الصلاة والسلام وقيس بن خارجة بن سنان خطيب حرب داحس والغبراء ، وخويلد بن عمرو الغطفانى خطيب يوم الفجار - وكانت بين قريش وهوازن[1] - .

وإليك مثلا من هذا النثر :

١ — المفاخرة[2] بين طريف بن العاصى ، والحرث ذبيان بن لجأ بن منهب .

- هو أحد المعمرين - عند بعض مقاول حمير :

«اجتمع طريف بن العاصى الدوسى ، وهو جد طفيل ذى النورين بن عمرو بن طريف والحرث بن ذبيان ، لجأ بن منهب - وهو أحد المعمرين - عند بعض مقاول حمير . فتفاخرا . فقال الملك للحرث ياحارث :

« ألا تخبرنى بالسبب الذى أخرجكم عن قومكم حتى لحقتم بالنمر بن عثمان . ؟

فقال : « أخبرك أيها الملك خرج هجينان منا يرعيان غنماً لهما ، فتشاولا بسيفيهما ، فأصاب صاحبهم عقب صاحبنا فعاث فيه السيف فنزف فمات فسألونا أخذ دية صاحبنا دية الهجين - وهى نصف دية الصريح - فأبى قومى . وكان لنا ربه عليهم . فأبينا إلا دية الصريح وأبوا إلا الهجين . فكان اسم هجيننا ذهين بن زبراء . واسم صاحبهم عنقش بن مهيرة - وهى سوداء أيضا — فتفاقم الأمر بين الحيين فقال رجل منا :

حلومكم يا قوم لا تعزبنها ولا تقطعوا أرحامكم بالتدابر

---

[1] — حذفنا كثيرا من الأمثلة من أصل الرسالة لعدم الحاجة إليها هنا .

[2] — عن أمالى القالى

«أدوا إلى الأقوام عقل ابن عمهم   ولا ترهقوهم سبة فى العشائر
فإن ابن زبراء الذى قاد لم يكن   بدون خليف أو أسيد بن جابر
فإن لم تعاطوا الحق فالسيف بيننا   وبينكم والسيف أجور جائر

فتظافروا علينا حسدا . فأجمع ذوو الحجا منا أن نلحق بأمنع بطن من الأزد . فلحقنا بالنمر بن عثمان. فوالله ما فت فى أعضادنا . فأبنا عنهم وقد أثأرنا صاحبنا وهم راغمون».

فوثب طريف بن العاصى من مجلسه فجلس بازاء الحرث ثم قال :

«تالله ما سمعت اليوم قولا أبعد من صواب . ولا أقرب من خطل ، ولا أجلب لقذع ، من قول هذا . ! والله أيها الملك ! ماقتلوا بهجينهم بذخا ، ولا رقوا به درجا ، ولا أنطوا به عقلا ولا اجتفئوا به خشلا . ولقد أخرجهم الخوف عن أصلهم وأجلاهم عن محلهم . حتى استلانوا خشونة الانزعاج ، ولجئوا إلى أضيق الولاج ، قلا وذلا . » .

فقال الحرث :

«أتسمع ياطريف إنى والله ما إخالك كافا غرب لسانك ، ولا منهنها شرة نزواتك ، حتى أسطو بك سطوة تكف طماحك . وترد جماحك . وتكبت تنزعك ، وتقمع تسرعك . »

فقال طريف :

«مهلا ياحارث ! لا تعرض لطحمة استنانى ، وذرب سنانى ، وغرب شبابى ، وميسم سبابى ، فتكون كالأظل الموطوء ، والعجب الموجوء . »

فقال الحرث :

«إياى تخاطب بمثل هذا القول ! فوالله لو وطئتك لأسختك . ولو وهصتك لأوهطتك ولو نفحتك لأفدتك . »

فقال طريف متمثلا .

«وإن كلام المرء فى غير كنهه   لكالنبل تهوى ليس فيها نصالها

أما والأصنام المحجوبة ، والأنصاب المنصوبة . لئن لم تربع على ظلعك ، وتقف عند قدرك . لأدعن حزنك سهلا ، وغمرك ضحلا ، وصفاك وحلا » .

فقال الحرث :

« أما والله لو رمت ذلك لمُرِّغت بالحضيض ، وأغصصت بالجريض . وضاقت عليك الرحاب . وتقطعت بك الأسباب . ولألفيت لقى تهاداه الروامس ، بالسهب الطامس . »

فقال طريف :

« دونك ماناجتك به نفسك : مقارعة أبطال . وحياض أهوال . وحفزة إعجال . يمنع منه تطامن الإمهال » .

فقال الملك :

« إيها عنكما . فما رأيت كاليوم مقال رجلين لم يقصبا ولم يتلبا . ولم يلصُوا ، ولم يقفوا ».[1]

---

٢ — خطابة الحرث بن ظالم المرى ، بين يدى كسرى وكان بين وفد العرب إليه . قال :

« إن من آفة المنطق الكذب . ومن لؤم الأخلاق الملق . ومن خطل الرأى خفة الملك المسلط . فإن أعلمناك أن مواجهتنا لك عن ائتلاف ، وانقيادنا لك عن تصاف . ما أنت لقبول ذلك منا بخليق ولا للاعتماد عليه بحقيق . ولكن الوفاء بالعهود . وإحكام ولث العقود . والأمر بيننا وبينك معتدل . مالم يأت من قبلك

---

١ — الهجين : العربي ابن الأمة، أو من أبوه خير من أمه . — البذخ : الكبر — أنطى : أعطى — العقل : الدية — اجتفئوا : قلعوا — الحثل : نوع من الشجر — طحمة استنانى « الطاء مثلثة » : دفعة غضبى — الأنل : بطن الإصبع والمنسم — العجب بفتح فسكون : أصل الذنب — الموجوء : المضروب — وهصه : كسره — أوهطه : أضعفه — نفحه : هب عليه كالريح — أفاده أهلكه — السهب : الفلاة — يقصب : يشتم — يتلب : يحمر — يلص : يقذف لم يقفوا : لم يقذفوا .

ميل أو زلل . . . »[1] .

ونستطيع أن نجمل خصائص النثر الجاهلي فيما يلي :

١ — الميل إلى الترسل والانطلاق بغير سجع أو أى قيد ، حينما يكون المقام مقام قص وسرد حوادث أو مثل أو حكمة .

٢ — الجنوح إلى الترادف وتكرار الجمل المتقاربة المعانى ؛ عند الرغبة فى الإيضاح والتوكيد .

٣ — تفضيل السجع والعناية بالتقفية . عندما ترتفع درجة الحماسة ، ويتقد الإباء ويشيع الوعيد .

٤ — استخدام الفواصل ذات المعانى الحاسمة المنتهية ، وذلك فى مجال الاحتجاج وإبراز حجة وإبطال أخرى .

٥ — تفضيل الفقرات القصيرة لأنها أوقع فى النفس ، وأسرع فى التأثير .

٦ — الميل إلى شىء من البديع لا جفاء فيه كالطباق والمقابلة ، وكالجناس . حتى الخطى أو المصحف منه .

٧ — الميل إلى الإطالة إلا فيما يتصل بالمثل والحكمة ؛ فطبيعتهما الإيجاز .

٨ — شيوع شىء من الخيال الشعرى ، والتجوز والتشبيه . وبخاصة عند الحماسة والدفاع عن الكرامة .

٩ — الحرص على سوق أبيات من الشعر فى أول الحديث أو وسطه أو آخره .

١٠ — الإكثار من غريب اللفظ .

١١ — ويختص كلام الكهان بالجنوح إلى إبهام المعنى ، والتزام السجع ، رغبة فى التأثير . حتى ليخل أحدهم بقيود النحو فى سبيل السجع .

١٢ — كثرة العبارات الجامعة بين كلام الجاهليين . ولعل سبب ذلك خفة متونها وسهولة علوقها بالأذهان ، فبقيت أكثر من غيرها — كخطب أكثم بن صيفى .

---

١ — عن العقد الفريد .

١٣ — ومن هذه الكلمات الجامعة ما يتفق وكلام القرآن والحديث ، مثل : لكل أجل كتاب ، ولكل نبإ مستقر ، ومثل : لو تكاشفتم ماتدافنتم — ولا ريب فى أن هذا من دس الرواة .

والنثر الجاهلى حديث طويل . وهو كما ترى ، يتجلى فيه — على قلته — كثير من عادات العرب ، كالشجاعة والحذر والحمية والاباء ، وحب الظهور والفخر ، والمغامرة والاعتزاز بالنفس ، والدفاع عن القبيلة ، وتصديق الأباطيل والخرافات ولعل ذلك كان بتأثير من وثنيتهم وانقطاعهم فى جزيرتهم ؟

وكذلك يدل على مستواهم العقلى والنفسى . ويكشف عن أنهم بلغوا من ذلك حدا لا بأس به ، وعرفوا شيئا من طبائع النفوس ودقائق الحياة ، ونظم الدول ، إلى غير ذلك . ومنه نستنبط أن العرب كانوا ذوى ألباب راجحة وعقول خصبة ، وألسنة طيعة مطبعة ، عودتها التجارب والمراس ، حنكة فى المنطق وكياسة فى التعبير .

فإذا صحت رواية هـــذا النثر ، استدللنا منه على أن العرب قبل إسلامهم لم يكونوا جهلاء ، كما يصورهم بعضهم . ولابد أن يكونوا قد مروا فى أدوار تهذيبية طويلة متعددة ، حتى بلغوا هذا المبلغ . وحتى نضح تهذيبهم على لسانهم ، فترجم عنه هذا النثر ولابد أن تكون لغتهم — واللغة مرآة خاطر الأمة — قد درجت فى أطوار تهذيبية متوالية ، وأن يكون بعض أبناء العرب قد صقلوا بألوان البيان حتى أوتوا منها نصيباً محموداً . وأنهم ألانوا لغتهم لحاجاتهم المعاشية والعقلية والنفسية ، فطاعت لهم وسايرت ركبهم . وأصبحوا وقد أسلمتهم مقاد فصاحتها وأسرار بيانها . وبصرتهم بمواطن بلاغتها ومواطن إعجازها .

هذا هو أقرب ما نستطيع تصوره وتصديقه معا ، لحالة العرب قبل الإسلام وذلك لأن عرب الجاهلية هم الذين أرسل إليهم النبي عليه الصلاة والسلام ، ومعه معجزته البيانية الكبرى ، وهى القرآن الكريم .

وكيف تتحدى قوما جهلاء ؟ لا يعرفون فنون القول ، ولا كنه البيان ، بكتاب هو المثل الأعلى فى الفن والبيان ؟ إن أى كتاب آخر فى مستوى بيانى أقل من مستوى القرآن يصلح أيضا لمثل هذا التحدى . لأنه لمس فيهم عقلا صافيا وقلبا واعيا ، ففهموه بليغا فوق مكنة البشر ، فبه آمنوا ، ولبلاغته أسلموا .

هؤلاء العرب لم يتأثروا بالقرآن على نمط من تأثر عوام زماننا ، الذين نرى من تأثرهم كل يوم بالقرآن ما نرى ، عندما يتلوه قارىء مجيد فإن لإيمانهم السابق ولإسلامهم الموروث أثراً ودخلا كبيرا فى هذا التأثر ، لأنه لم يصدم فيهم عقيدة ولم يسفه لهم حلما ، ولم يقبح عادة . بل هو — على العكس — كتاب دينهم المحبوب المقدس ، وهم إلى جانب ذلك لا يتذوقون من حلاوة بلاغته إلا النزر اليسير .

أما عرب الجاهلية فقد صدم منهم عقيدة ، وسفه عادة ، وقبح أصنامهم ، وطعن فى آلهتهم فكان حريا بأن يقاوم ويكافح ويرد وكان القرآن أحد أسلحة النبي عليه السلام . ولكن كافحوا كل سلاح للنبي إلا القرآن فقد خضعوا له وآمنوا به . لقد قالوا عنه إنه سحر أو شعر ، وهذه عندى ، بوادر الإيمان به والاستسلام له . ذلك أنه غزاهم فى أمنع حصونهم وأرفع قلاعهم ، وهى بلاغتهم ففهموه أبلغ منها ، فدانوا له ، واعترفوا أنه فوق مقدور البشر . — ولكنه هو أيضاً أثبت ضمنا أن لهم بلاغة وأن فيهم بيانا وأن لهم تذوقا . وهذا مما يؤكد لنا ينع الأدب الجاهلى شعرا ونثرا .

ومن الأدباء من يرتاب فى هذا النثر المروى عن عرب الجاهلية ، ويشك فيه ويزيفه . ويرى أنه من وضع الرواة فى العصر العباسى وضعوه بقصد التعليم أو التسلية أو الأسمار أو الظهور بالعلم أو غير ذلك من أسباب . ولهم على هذا أدلة وبراهين .

ولسنا هنا فى مجال الحديث عن هذا الموضوع ، ولا النظر فى أدلته وبراهينه وهب هذا النثر منحولا للجاهليين ، أفلا يدل على مقدار تصور الرواة لنثر الجاهلية؟ وقد كانوا أقرب إليه وأحفظ له وأروى . ثم ألا يدل على مقدار فهم أدباء

الصدر العباسي للمستوى العقلي والنفسي لعرب الجاهلية .

ثم إن نحله لا يدل على فراغ الجاهلية من نثر فني يكون على غرار هذا النثر المروي ، نتيجة لحياة نفسية وعقلية ، فيها إدراك ونزوع إلى السمو ، يؤهلانهم للقاء القرآن .

وجملة النثر المروي — بصرف النظر عن المطاعن الموجهة إليها — قليلة ضئيلة لا تناسب حياة أمة عظيمة كالأمة العربية . عاشت — قبل الإسلام — أجيالا فى باديتها ، حتى نضجت نضجها المحمود ، فاشتهرت بعقول رجالها وصفاء خيالها ، وبلاغة خطبائها وافتنان شعرائها .

والمشاهد فى الأمم الحية أن نتاجها النثرى يربو على نتاجها الشعرى ، لأن النثر أدخل من الشعر فى حيويات الأمم وأعجل منه اضطلاعا بحاجاتها . وتأدية لها .

وكان من المرتقب لأمة ، سيجابهها القرآن ، ويتحدى بلغاءها ، أن يسبقه فيها نتاج نثرى فنى عظيم الشأن ، يكون تمهيدا للقرآن من ناحية ، ومحلا للموازنة بينه وبينه من ناحية أخرى ، حتى يتبين الخبيث من الطيب . وهذه هى السبيل الفطرية لمثل تلك الأحداث الكبرى ولتبيان كنه القرآن والاستشعار بإعجازه — وإنما يعرف الفضل من الناس ذووه . .

ولا نشك فى أنه كان للجاهليين نثر فنى ، ونثر ناضج ، ونثر كثير . ونعتقد أن هذه مسألة تنزل الآن من العقول منزلة البدهيات ، التى لم تعد تحتمل جدلا . ولكن أين هو ؟ إن لم يكن هذا المروى جزءاً منه . . . ؟ ونقول إن الأمية الضاربة والحوادث الصاخبة ، وطبيعة النثر وثقله فى الرواية . كل ذلك ، وغيره ، مكن ليد الضياع منه .

والزمن وحوادثه ، كانا ولا يزالان حتى اليوم ، يعيثان بآثار الأدباء . فأين هى مؤلفات رجال العصر العباسى فى زهاء خمسة قرون ؟ وأين — على الأقل — ما سجله منها ومن أخبارها ابن النديم فى الفهرست ، وهو المتوفى فى نحو سنة

٣٨٥ هـ - وأين ذخائر العصرين الفاطمى والأيوبى ؟ وأين كتب الشيعة وفقهائها ؟ بل أين مؤلفات رجال العصر المملوكى أنفسهم ؟ أن ما بين أيدينا منها لا يعدو قطرة من بحر مما يحدثنا به التاريخ - لقد أودت بكل أولئك حوادث الزمن ، من إحراق وإغراق وإبادة وسلب وتفريط .

بل أزعم - ولست مبالغاً فى زعمى - أن كثيرا من آثار الأدباء فى العصر الحديث ينالها الفقد والضياع بسبب الإهمال والنسيان . ونحن فى عصر النور والطباعة ... إذا فليس قليلا على النثر الفنى الجاهلى أن يضيع ...

— ٢ —

نثر القرآن الكريم

القرآن كتاب الله تعالى ، أنزله على رسوله محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم كتابا هادياً ليخرج الناس من الظلمات إلى النور ، ويهديهم إلى صراط مستقيم ويعد المؤمنين منهم ثواباً من الله جزيلا ، ويتوعد الكافرين بنار يصلونها سعيرا . ويبين للناس أصول دينهم القويم ، وطرق عبادة الله التى ارتضاها لعباده ويسن لهم من شرائع الحياة ما يؤدى بهم إلى السعادة التى ينشدونها . ويضع لهم من فضائل النفس والمجتمع ما فيه كمالهم وجمال حياتهم . إلى غير ذلك .

وقد كان القرآن الكريم ، أمضى أسلحة النبى عليه السلام وأبلج حججه ، وأبهر معجزاته . تحدى به العرب - وقد نزل بلغتهم - أن يأتوا بمثله أو بعشر سور من مثله ، أو بآية من مثله ، فعجزوا وطاعوا لبيانه وسحر بلاغته ، أكثر مما طاعوا لشىء سواه .

وطاعة العرب للقرآن الكريم - وعلى رأسهم بلغاؤهم وأهل البيان فيهم - وهم الجفاة الغلاظ الذين لا يقتنعون فى يسر ، ولا يرضون عن عجلة . التياهون بما

أوتوا من بلاغة وبيان ، كانت حدث الأحداث ومعجزة الدهر الحاسمة فى تاريخ القرآن .

ولسنا هنا بصدد الحديث عن تاريخ القرآن ونزوله وطرق إعجازه ، ولكننا نقف وقفة خاطفة للحديث عن أسلوبه لما لذلك من الصلة ببحثنا . فنقول :

جاء القرآن الكريم مخاطبا عرب الجاهلية ، فاصطنع لغتهم المختارة . وهى لغة قريش غالبا . قال تعالى : « وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم » .

وأول دليل أيضاً على أنه نزل بلغتهم هذه . اقترانه بتحدى العرب وبلغائهم ، أن يأتوا - حتى بآية من مثله . لأنه لا سبيل إلى التحدى بين طرفين ، ولا معنى له . مالم يكن نتاجهما من واد واحد ، ومن صناعة واحدة ، حتى تتفق الموازنة ويصدق الحكم .

نزل القرآن ، إذاً بلغة العرب ، أى لغة أهل الجاهلية ، فهو لذلك ، أصدق الأمثلة على النثر الجاهلى ، لأنه أقرب إليه صلة ومتانا ، وأنك لتلتمس فيه الجاهلية فتجدها .

وقد شغل علماء المسلمين منذ القديم بالقرآن وطرق إعجازه . فقالوا معجز بما فيه من دعوة إلى الله مع أدلتها . أو بما فيه من تشريع كامل ، أو بما فيه من قصص أو بما أخبر عنه من غيب ، أو بما احتوى عليه من جديد المعانى ، أو لأنه مطابق لمقتضى الحال . أو غير هذا وذاك .

واعتقادنا أن المعانى الجزئية أو الأغراض العامة أو مجرد قص القصة أو نحو ذلك ، لايجزىء وحده فى الإعجاز . وإنما الإعجاز هو فى موافقة هذه الأمور للأحوال التى ألقيت فيها ، ثم فى طريقة تأديتها أداء لفظيا . فليس الإعجاز فى المعنى من حيث هو معنى ،ولكن من ناحية مناسبته لمقامه ، وليس الإعجاز فى اللفظ من حيث هو لفظ ، ولكن من ناحية مناسبته للمعنى ، ومناسبته للمقام .

ولكل معنى أو فكرة ، أسلوب من الكلام يناسبها ، ويتسق مع روحها ،

وينسجم فى أدائها ، وهو كالثوب الذى يبرز جمال الجسم ، وينسجم مع ذوق الحفل الذى يبدو فيه مثل هذا الأسلوب يبرز المعنى أجمل ما يبرز ، ويبديه أقوى ما يبدو . فالفكرة الذهنية تحتاج إلى نوع من الأسلوب لا يصلح للمعانى النفسية . وتشريع القوانين غير الابتهال . وأسلوب القصص يختلف عن الوعد والوعيد . وطريقة التقرير غير طريقة التصوير . وحديث الوعظ غير حديث التهكم والسخرية ، ومخاطبة الكافر غير مخاطبة المؤمن . وهكذا . . . فلكل مقام مقال ، كما قال الأقدمون .

والقرآن الكريم يحتوى على شتى من هذه الموضوعات ، وقد حدد فيه كل موضوع منها أسلوبه أو قالبه اللفظى الذى ينبغى أن يصب فيه . وإعجاز القرآن يتجلى أقوى ما يتجلى ، فى صب هذه المعانى والموضوعات فى قوالبها اللفظية التى تناسبها . وهو ما عجز بلغاء العرب عن مجاراته — وهم أهل بلاغة — فشعروا أن هذه القدرة خصوصية إلهية ، فوق طاقة البشر . وبذلك أقروا بعجزهم وأسلموا . .

ويتبين من هذا ، أن فى القرآن جملة من مختلف الأساليب ، وعدة من فنون القول وهذا محل إعجاز آخر .

والرجل البليغ — مع افتراض بلاغته والتسليم بها — لا يجيد من فنون القول إلا فنا واحدا ولا يسلك فى تعبيره غير مسلك أسلوبى واحد ، لا يتعداه ، أولا يكاد يتعداه . وتبدو فى أسلوبه هذا ، خصائصه ومميزاته ودعائمه الخاصة المشخصة التى تبرز بها شخصيته . فكل المعانى والموضوعات الكلية أو الجزئية التى يعرض لها ، يصبها فى هذا القالب الأسلوبى الخاص ، لا يكاد يخرج بها عن دائرته ، ودائرة قيوده ، وبذلك ينقص من كمال بلاغته دون وعى منه .

أما القرآن فقد أوتى حرية فى التعبير ومرونة فى التغيير ، لم يؤتها أى أديب . لذا تصرف فى معانيه وموضوعاته ، وصب كلا منها فى أنسب قوالبه اللفظية ، فتعددت بذلك مناهجه وأساليبه وهذا ضرب — ولا ريب — هام ، من ضروب إعجازه إن لم يكن أهمها جميعا .

ثم لنا بعدُ ، كلمة فى سجع القرآن . وقــد وقف سجعه مثار نزاع بين علماء الإعجاز وأدبائه .

ويذهب بعض المتحدثين فى الإعجاز — كالباقلانى — [1] إلى أن القرآن فواصل فحسب ، لقوله تعالى « كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير » . فليس سجعا ، وليس مرسلا !

ويقول ابن خلدون فى ذلك ، فى مقدمته [2]

« وأما القرآن ، وإن كان من المنثور ، إلا أنه خارج عن الوصفين . وليس يسمى مرسلا مطلقا ، ولا مسجعا ، بل تفصيل آيات ينتهى إلى مقاطع ، يشهد الذوق بانتهاء الكلام عندها ، ثم يعاد الكلام فى الآية الأخرى بعدها . ويثنى من غير التزام حرف يكون سجعا ولا قافية . وهو معنى قوله تعالى : « الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثانى تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم » . وقال : « قد فصلنا الآيات » . ويسمى آخر الآيات منها « فواصل » إذ ليست أسجاعا ، ولا التزم فيها مايلتزم فى السجع ، ولاهى أيضا قواف . » .

فترى هؤلاء ينفون وجود السجع فى القرآن ، إذ السجع محسن لفظى ، مقتضاه أن يأتى المعنى فيه تابعا للفظ — وحاشا للقرآن الكريم أن يعنى بالألفاظ ويقهر المعانى على أن تتبعها . وأن يقصد إلى توافق الفواصل فى حروفها الأخيرة ، فهذا ينأى به عن مطابقة الحال ، التى هى ميزان بلاغة الكلام . وما السجع وأشباهه إلا صناعة إنشائية مقصودة لذاتها ولما فيها من الزخرف . وينبغى أن ينزه عنها القرآن .

ويفسر هؤلاء ماورد فى القرآن سجعا ، بأنه ليس سجعا ، وإنما هو شىء شبيه بالسجع ، استلزمه المعنى فجاء هكذا قوافى متشابهة . . .

---

١ — راجع اعجاز القرآن للباقلانى .

٢ — مقدمه ابن خلدون تحت عنوان « فصل فى انقسام الكلام إلى فنى النظم والنثر .

ويذهب آخرون ومنهم أبو هلال العسكرى صاحب الصناعتين وابن سنان الخفاجي وضياء الدين بن الأثير صاحب المثل السائر الذى بالغ فى تأثره بمذهب بى هلال ، وغيرهما ، إلى أن ماورد فى القرآن من تقفية إنما هو السجع بعينه . قال ابن الأثير : [١]

« المسجع : وحدُّه أن يقال : تواطؤ الفواصل فى الكلام المنثور على حرف واحد. وقد ذمه بعض أصحابنا من أرباب هذه الصناعة ولا أرى لذلك وجها سوى عجزهم أن يأتوا به . وإلا فلوكان مذموما لما ورد فى القرآن الكريم . فإنه قد أتى منه بالكثير . حتى إنه ليؤتى بالسورة جميعها مسجوعة . كسورة الرحمن وسورة القمر ، وغيرهما . وبالجملة فلم تخل منه سورة من السور . » .

فابن الأثير يرى أن ماجاء فى القرآن من توافق الفواصل ، هو السجع . وإن كان يشترط فى السجع — لكى يكون بليغا — أن تأتى ألفاظه تابعة لمعانيه . فإذا تساوى تعبيران عن معنى واحد . وأحدهما مسجوع والآخر مطلق، كان المسجوع — فى رأيه — أبلغ . كما يشترط أن تكون ألفاظ السجع . . « حلوة حادة طنانة رنانة لاغثة ولا باردة » . وقال : « وأما إذا كان محمولا على الطبع غير متكلف ، فإنه يجيء فى غاية الحسن . وهو أعلى درجات الكلام » .

وقد رد ابن الأثير على من اعترض عليه بأن السجع ، إذا كان أعلى درجات الكلام ، كان ينبغى ان يأتى القرآن كله مسجوعا . وليس الأمر كذلك ، بل منه المسجوع ومنه غير المسجوع . قال :

« وإن أكثر القرآن مسجوع ، حتى إن السورة لتأتى جميعها مسجوعة ، ومامنع أن يأتى القرآن كله مسجوعاً إلا أنه سلك مسلك الإيجاز والاختصار . والسجع لا يؤاتى فى كل موضع من الكلام ، على حد الإيجاز والاختصار . فترك استعماله فى جميع القرآن لهذا السبب وههنا وجه آخر هو أقوى من الأول . ولذلك ثبت أن المسجوع من الكلام أفضل من غير المسجوع . وإنما تضمن القرآن غير المسجوع

---

١ — راجع المثل السائر تحت عنوان الكلام عن السجع .

لأن ورود غير المسجوع معجزا أبلغ فى باب الإعجاز من ورود المسجوع . ومن أجل ذلك تضمن القرآن القسمين جميعاً » .

فابن الأثير بعد أن قرر أن السجع ـ بشروطه ـ أعلى درجات الكلام ، يحتج لعدم اطراده فى القرآن بأمرين : الأول : ميل القرآن إلى الإيجاز أحيانا . والإيجاز قد لا يتسق مع السجع . الثانى أن ورود غير المسجوع معجزا أبلغ فى باب الإعجاز . . .

وفى حجته الثانية نظر لأننا مادمنا أثبتنا أن السجع أعلى درجات الكلام . فالعدول عنه إلى المطلق نزول بالكلام عن أعلى درجاته . وإذا كانت غاية القرآن الإعجاز ، فما هو ذا السجع سبيله . . أما العدول عنه حينئذ إلى غيره ، فحيلة لا يلجأ إليها بليغ ، للدلالة على بلاغته . ثم إن هذا الرأى يجعلنا نتساءل من جديد : ما وجه إعجاز المطلق ؟

وهكذا نرى أن كلا الفريقين مغال فى مذهبه ، إذ القران الكريم فواصل ـ ما فى ذلك شك ـ وتكتفى كل فاصلة بمعناها . ويحسن السكوت عليها غالبا . ومع هذا ففيه سجع ، وسجع مقصود أيضا ! وما فى ذلك شك . . . فإن ورود سورة كسورة القمر ، تحتوى على نحو أربع وخمسين آية ، كلها فواصل كريمة ، مسجوعة ، على قافية واحدة ملتزمة ، وهى حرف الراء ، وراء من نوع خاص ، وهى المسبوقة بمتحركين وربما بثلاثة ، لا يكون اتفاقا ، ودون قصد . . . وكذلك القول فى سورة الرحمن فإن قافيتها الملتزمة فى جميع آياتها النون المسبوقة بألف مد ، وكذلك سورة محمد ، فقافيتها الملتزمة ، الميم المسبوقة ـ غالبا ـ باللام المتحركة وهاء الغيبة أو كاف الخطاب . ولم يتخلف فى هذه السجعات ، إلا قافيتان متباعدتان . ومع تباعدهما فيهما توافق . ! فالأولى تنتهى بلفظ « أمثالها » وتنتهى الثانية بلفظ « أقفالها » وفى اللفظين أكثر من السجع ، فيهما أربعة أحرف مشتركة فى المنطق والشكل . هذا عدا الاتفاق فى الوزن ، بين اللفظين .

هذا أيضا عدا ما ينتشر فى سور القرآن من سجع .

وابن سنان الخفاجي أيد في كتابه « سر الفصاحة » وجود السجع في القرآن ؛ وعندما ذكر السجع قال إن منه مايحمد ، ومنه ما يستكره . ولولا أن منه مايحمد ما ورد في القرآن والحديث وكلام الفصحاء . وأما القرآن فلم يرد فيه إلا من القسم المحمود لعلوه في الفصاحة ـ ورأى أنه لا يوجد مانع شرعي يمنع وجود السجع في القرآن .

ونحب أن نقف بين الطرفين موقفاً وسطا ، فنقول : إن القرآن به سجع . ولكن هل سجعه مقصود ولذاته أم غير مقصود ؟ وهل جاء زينة وحلية ، والمعنى تابع له ؟ أو أنه منقاد للمعنى المستفاد من لفظه ؟

ويبدو أن هذا الفهم المنطقي البحت . جاء من أن البديعيين جعلوا السجع محسنا لفظيا . وأنه ـ في باب الصناعة ـ يقصد لذاته ، فينبغي أن ينزه القرآن عنه... ـ ولكن وجود السجع ـ فعلا ـ في القرآن ، أحرج البلاغيين ، ففسره بعضهم بأنه فواصل تنتهي كل منها بما يتمم معناها . وفسره بعضهم بأنه سجع مطبوع غير متكلف طلبه المعنى .

ونحب أن نقول إن السجع القرآني محسن معنوي يتطلبه المعنى مراراً بل يصرخ المعنى صرخات مدوية طالبا أن تبدو ألفاظه مسجوعة . ولكن أي معنى هذا ؟ .

هذا المعنى هو الرغبة في التأثير في السامعين ، بعد أن يتضمن الكلام حقا لا باطل فيه ، وصدقا لا زيغ فيه ، حتى يفترق بذلك سجع القرآن عن سجع الكهان .

إن السجعات اللطيفة والتقفيات الخفيفة ، ذات أثر بالغ في النفوس والقلوب لا بمعناها المستفاد من لفظها ، ولكن برنينها وتجانس جرسها . ذلك لأن هذا الاتساق الصوتي حبيب إلى كل نفس ، قريب إلى كل قلب . فإذا اصطنعتها الحقائق والمعاني الصادقة وسيلة إلى الوصول إلى هذه النفوس والقلوب ، لإثارتها ، والاستقرار فيها مع إيمانها بها ، فلا غبار عليها .

ولا يكفى أن تخاطب الناس بالحق عاريا ، وبالصدق مجرداً ، لكى يؤثر أثره المرجو فيهم . ذلك أن الجماهير لا تعيش بعقولها وتفكيرها فحسب ، ولكن تعيش بعواطفها ووجداناتها أكثر مما تعيش بالعقول والتفكير . فإذا كان الباطل قد اصطنع السجع وسيلة إلى التأثير والاستفزاز . فأولى بالحق أن يستخدم هذه هذه الأسلحة نفسها ليحارب الباطل بسلاحه . . . ولهذا لم ينه النبي عن السجع ، وإنما نهى عن سجع الكهان لما فيه من أحكام باطلة ، وتخرص بالغيب .

والرغبة فى التأثير فى السامعين ، أحد المعانى العامة الشائعة فى القرآن الكريم . ونعنى به التأثير الوجدانى ، والسجع من أهم أدواته . لما فيه من وزن وقافية ، وتوافق موسيقى ، ورنين صوتى متناغم ، يجعله كالشعر أو كالسحر . لهذا يقصد السجع تحقيقا لهذه الغاية ، وهنا يصبح السجع فى صميم البلاغة ، لأن أسلوبه يكون مطابقا لمقتضى الحال . . .

إذا ففى القرآن سجع ، وسجع مقصود ، لا لبيان ما يحتمله اللفظ من المعانى فحسب ، بل أيضا ، لتستخدم موسيقاه أداة للتأثير . والتأثير نعتبره جزءا من المعنى .

وبعد فلعل هذا التوجيه يحل إشكال السجع القرآنى ، اللهم إلا إذا اعترض معترض على الرغبة فى التأثير ، وعلى نسبتها إلى القرآن .

إن الذين ينزهون القرآن عن الرغبة فى التأثير بموسيقاه ، وجرس ألفاظه وعذوبتها ، واتساق عباراته وحلاوتها ، وحسن إيقاعه وتنغيمه ، وجمال تقاطيعه وتقسيمه ، يجردونه من ميزة من أهم مميزاته ودعامة من دعائم روحانيته ، وكأنهم يفترضون القرآن كتاب علم يخاطب العقول ، فحسب ، لا كتاب أدب . أيضا ، وكتاب عاطفة وروح ، يخاطب الشعور والأحاسيس . وهو ربما خاطبها وأثر فيها أكثر مما يخاطب العقول ويؤثر فيها . وهذه طبيعة الأديان وطبيعة ما يمت إلى العقيدة القلبية بصلة . تلك مسائل فى أغلب أمرها ، روحية تستسلم لها الجماهير استسلام استجابة روحية ، وإيمان وجـــدانى ، لا عن بصر دقيق أو إدراك عميق ، لما تحتوى من تفاصيل ومقولات وفلسفات .

وقد تدرك الجماهير من الأديان معانيها الكلية. أما جزئياتها فمن الغلو غير المقبول الادعاء بأنها تدرك منها شيئا. وإنما يدركها الراسخون في العلم، وقليل ماهم.

ومتى تبين لنا هذا، ووضعنا نصب أعيننا أن القرآن كتاب دين، فهمنا السر في سريان هذه الروحانية في مختلف آياته وسوره. وهو يتخير من أدوات هذه الروحانية، ووسائل التأثير بها ماينبغي له من الأعراض الأسلوبية، وفي مقدمتها السجع.

إن طريقة نظم القرآن، واتساق جرسه وروعة تصويره، وحسن إخراجه للمعاني، وشغله الحواس النفسية بما في صوره من حياة وحركة، وما في تراكيبه من نغم، سحر بلاغة وآية بيان، انقاد بها كثير من عرب الجاهلية إلى الإسلام. وفي مقدمة وسائل اتساق نغمه، سجعه.

والعامة — في جملتهم — تتأثر بالسجع أكثر من غيره — غالبا — ألا تراهم يهشون ويبشون وينتشون للسور والآيات المسجوعة، أكثر من سواها؟ ألا تراهم يكثرون من التهليل والتكبير، عندما يتلو عليهم أحد المقرئين سورة الرحمن أو القمر أو النجم أو المدثر مثلا؟ ألا تراهم يرددون الآيات المسجوعة في دعواتهم وصلواتهم وابتهالاتهم أكثر من ترديد سواها؟. ومن من العامة — أو حتى من الخاصة — يكثر في ابتهالاته من قراءة آيات الميراث والوصية والتداين والطلاق؟ وأمثالها من الآيات المرسلة المطلقة التي تضمن — غالبا — أحكاما شرعية..؟

وبعد. فإليك أمثلة من الآيات المسجوعة التي يلذ لك مافيها من سجع لطيف وتقفية عذبة ساحرة، تترقرق فيها روحانية مشرقة جذابة. فمنها:

قول الله تعالى في سورة النجم:

« والنجم إذا هوى ماضل صاحبكم وما غوى وما ينطق عن الهوى. إن هو إلا وحي يوحى. علمه شديد القوى. ذو مرة فاستوى. وهو بالأفق الأعلى ثم دنا فتدلى. فكان قاب قوسين أو أدنى. فأوحى إلى عبده مايوحى. ماكذب الفؤاد مارأى أفتمارونه على مايرى..»... الخ

وقوله تعالى من سورة طه:

« طه . ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى . إلا تذكرة لمن يخشى . تنزيلا ممن خلق الأرض والسموات العلى . الرحمن على العرش استوى . له ما فى السموات وما فى الأرض ، وما بينهما وما تحت الثرى » .

وقوله تعالى من سورة القمر :

« اقتربت الساعة وانشق القمر وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر . وكذبوا واتبعوا أهواءهم وكل أمر مستقر . ولقد جاءهم من الأنباء ما فيه مزدجر ، حكمة بالغة فما تغنى النذر » .

وقبل أن نترك هذا الموضوع . لانرى بدا من الإشارة إلى أن القرآن ، كان له أثر ضخم فى حياة الأمم الإسلامية ، ومن تأدب بآدابهم من الأمم الأخرى . له أثر فى النفسية ، وأثر فى فهم الحياة ، وأثر فى الاتجاه الفكرى . وفى نشأة العلوم وتوجيه الثقافات ، وفى بقاء العربية ، وفى معاملات الناس ، وكل موضوع منها يحتاج إلى بحث مستقل . وتتحدث عنها عادة كتب تاريخ الأدب .

هذه موضوعات ، لانعرض لها فى بحثنا هنا إلا بالإشارة . ولكن أمرا واحدا من بينها هو الذى نحب أن نلفت النظر إليه ، لماله من الصلة بهذا البحث . وهو أن الأساليب القرآنية كانت ذات أثر كبير جدا فى توجيه أساليب أدباء العربية ، منذ فجر الإسلام إلى اليوم . فلم يزن خطباؤهم ومنشئوهم وشعراؤهم ينهجون النهج القرآنى البديع فى شتى مناسباتهم الكلامية ، كلما واتتهم الفرصة لذلك ، وأمكنتهم المناسبة . وكان أسلوب القرآن إمامهم ومثلهم الأعلى الذى به يحتذى . لقد انتفعوا به أيما انتفاع ، طورا بطريق الاقتباس أو التضمين . وطورا بحل الآيات ، أو نظم الكلام على نمط من فواصله وأسجاعه أو ترسله أو ازدواجه ، أو تصويره الفنى أو خياله الشعرى وتشبيهاته وتجوزاته وكناياته ، إلى غير ذلك .

ويبدو لنا أن أدباء العربية . كانوا كلما تراخى بهم الزمن ، وتطاول عليهم العمر ، وبعدت بهم الأيام عن صدر الإسلام ، متأثرين به بالثقافات المختلفة ،

يزدادون تمسكا بالاقتداء بنظم القرآن، وتوخى قياس أساليبهم على أساليبه، والنظر فى نظمه واستنباط قوانينه، وسنها قوانين للكلام يجرى على نمط منها .

وفضلا عن أن بعضهم دعا الناشئين من المنشئين إلى حفظه تهذيبا لإنشائهم. واشترط فى الكلام أن يحتوى على شىء من القرآن، نرى بعضهم — كابن الأثير — لما قنن للسجع ونظام الفقرات، احتج لذلك بسجع القرآن ونظام فقراته . وقد اتبعه كثيرون من بعده، كالشهاب الحلبى والتقى بن حجة الحموى . وسنشير بعد إلى ذلك بتفصيل —

ويبدو للمرء لأول وهلة عند مطالعة رأى ابن الأثير — مثلا — فى نظام الفقرات المسجوعة، وفى أن الفقرة الثانية ينبغى أن تطول عن الأولى، وفى أن الفقرة الثالثة — إن وجدت — ينبغى أن تطول، ولا تطول عن المثل، مع تساوى الفقرتين الأوليين قبلها، ثم فى تحديد عدد كلمات الفقرة الثالثة مثلا بكذا من الكلمات . . . أقول: عندما نقرأ ذلك لأول وهلة، نعجب من تكلف الرجل إلى هذا الحد. ومن تعسفه فى تقنين هذا النظام . ولكن يزول العجب عندما نراه يضرب لنا الأمثال لذلك، بآى القرآن الكريم — وسنشير إلى ذلك فى مناسبة أخرى .

ولا نغلو إذا قلنا — والحالة هذه — إن الأساليب القرآنية، وانكباب البلاغيين على دراستها، واستخراج أنواع البلاغة منها، قد عاون على ينع البديع فى القرآن الكريم .

لقد كان لهؤلاء البلاغيين حرص شديد على استمداد شواهدهم من آى القرآن . وحقا، كان أهم غاياتهم من دراسة أساليبه، إبراز خصائصها وألوان بلاغتها . ولكنهم باستنباط كل ما عن لهم من هذه الخصائص والألوان — وهى أكثر متاتا إلى البديع — فتحوا أبواب البديع على مصاريعها . لذلك نقول إن الثقافة القرآنية كانت فى مقدمة عوامل نضج البديع، وإغراء الأدباء بالتمسك بأساليبه . فإذا كان أدباء العصر المملوكى قد ساروا تحت لواء البديع فهذه الثقافة فى جملة الدوافع إلى

ذلك . فهم أمعنوا فى إنشائهم ، فى محاذاة القرآن وتقليده . وتقليد القرآن ليس عيبا ، وإنما العيب فى الإخفاق فى التقليد . ولعلنا فى الأبواب القادمة نرى أنهم لم يخفقوا في كثير مما كتبوه .

ومن لطيف مايحضرنى بهذه المناسبة ، ماقاله[1] ابن حجة الحموى فى الخزانة عند كلامه عن « المذهب الكلامى » قال :

« وقيل إن ابن المعتز قال لاأعلم ذلك فى القرآن — يعنى المذهب الكلامى — وليس عدم علمه مانعا علم غيره . ولم يستشهد على المذهب الكلامى بأعظم من شواهد القرآن » .

هذا ، والمذهب الكلامى — وقد نسبت تسميته إلى الجاحظ — هو أن يأتى البليغ على صحة دعواه وإبطال دعوى خصمه بحجة قاطعة عقلية ، تصح نسبتها إلى علم الكلام . إذ علم الكلام عبارة عن إثبات أصول الدين بالبراهين العقلية القاطعة .

ومن شواهد ابن حجة عليه ، قوله تعالى : « لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا » ثم أورد أمثلة أخرى من الحديث النبوى والشعر .

وإلى هنا نكتفى بالحديث عن نثر القرآن ، منتقلين الى الحديث عن نثر الرسول صلوات الله عليه

— ٢ —

نثر النبوة وصدر الاسلام

أرسل الله رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله . وبعثه عليه السلام ليكون للناس بشيرا ونذيرا . فدعا قومه إلى عبادة الله واتباع دينه .

---

١ — الخزانة ص ١٦٥ باب (المذهب الكلامى) .

وكانت دعوته عامة تناولت شتى شئون الحياة . فكانت عقيدة دينية ونظاما اجتماعيا وناموسا خلقيا . وليس إلا الخطابة والأحاديث ، أدنى وسائل التعبير للقيام بمهمة هذه الدعوة. فهما أيسر الأدوات وأفضلها مقدرة على النهوض بأعبائها. ومن هنا كان النبي عليه السلام خطيبا عظيم الشأن . ومحدثا رائع الحديث. عرفت له تطورات دعوته الكريمة ومراحلها . مئات من المواقف الخطابية وآلافا من الأحاديث ، التي بلغ بها دعوته الى الناس ، ودافع عنها وبين مزاياها ومراميها ، ووضح غامضها ، وكشف خفيها ، وفصل مجملها ، وبذلك أدى الأمانة خير الأداء . فكان أفضل معلم لهذه الأمة ، وأحرص مهذب أضاء لها الطريق إلى مواطن السعادة وقد صدق الله العظيم حيث يصفه فيقول «وما ينطق عن الهوى» .

وترجحت خطبه عليه السلام ، بين الطول والقصر ، وكذلك أحاديثه . وكان وجيزها من جوامع الكلم وخوالد الحكم .

ولا نرتاب فى أن كثيرا من أحاديثه عليه السلام قد روى بمعناه أو تغير شيء من لفظه أو أدخل فيه مالا ليس منه ، وذلك لطول العهد حتى عصر التدوين ، ولظهور الزنادقة والوضاع . ولكننا لا نرتاب بجانب ذلك ، فى أن كثيرا من أحاديثه عليه السلام قد سلم من كل هذا العبث . وقد جهد مسجلو الحديث فى عصر بني العباس فى التمحيص والتدقيق وتزييف الزائف ونفى الدخيل ، حتى سلمت لهم فى كتبهم جملة مما صحت روايته عنه عليه السلام ، وفى مقدمة الكتب الصحيحة ، صحيح البخارى

وكلام الرسول — وإن لم يقصد منه التحدى والإعجاز — أبلغ كلام العرب ، بعد كلام الله سبحانه وتعالى . وطبعى أن يجرى فى موضوعاته على نمط من القرآن الكريم فهو يبشر وينذر ، ويعد ويتوعد . ويقص ويعلم ، ويحث على الجهاد فى سبيل الله ، والكفاح فى سبيل الحياة . ويدعو إلى مكارم الأخلاق ويحض على الألفة والتعاون والموادة والنصيحة ، إلى غير ذلك مما هو معروف .

وأكثر أساليبه سهل عذب اللفظ قوى التركيب جزل الديباجة واضح المرامى

قوى التصوير محكم التشبيه رائع القص، طلق الفاصلة حر القافية، مرسل لا قيد فيه ولا محسن إلا مادعت إليه ضرورة المعانى وانساق اليه الطبع بلا إكراه ولا نبو.

وتراه فى بعض الأحيان جانحا إلى السجع. وربما راعى التوازن بين لفظين. على أن النبي عليه السلام قد نهى عن السجع. ولكن السجع المنهى عنه هو سجع الكهان الذى يدعى أنه من صنع الجن، وأنه لا مؤدى له، وأنه يكتنفه الغموض، ويزعم به الغيب وأنه يراد به التأثير فى الناس بالباطل.

هذا، وتراه أحيانا جانحا إلى مايعتبر غريبا فى لفظه، وتدعو إلى ذلك مناسبات، ومنه كلامه فى كتابه إلى وائل بن حجر الكندى أحد أقيال حضرموت يخاطبه بلغته قال عليه السلام:

« إلى الأقيال العباهلة والأرواع المشابيب. » ومنه يشرع لهم:

« وفى التِّيعة شاة. لا مقورة الألياط ولا ضناك وأنطُوا الثَّبَجَة »(1). . الخ

وهذه خصوصية اختصه الله بها ليستطيع مخاطبة كل قبيلة بألفاظها وطرق أدائها.

وقد عمل النبي عليه السلام على أن يتعلم أصحابه الكتابة الخطية. وطلب إلى أسرى بدر ممن يعرفون القراءة والكتابة، أن يفتدى الواحد نفسه بأن يعلم عشرة من صبيان القراءة والكتابة ومن ثم اتخذ كتابا لوحيه سجلوا القرآن الكريم، وكتبوا رسائله إلى عماله وإلى الملوك المجاورين. فكانت هذه الرسائل بذرة كريمة لذلك الغرس اليانع، وأعنى به كتابة الرسائل الديوانية. ولكن رسائله عليه السلام كانت على نمط من أحاديثه، تجرى مع الفطرة وتتحرى الغرض أكثر من أى شيء آخر ومن هنا كانت وجيزة. ويبدأ فيها بسم الله ومن محمد عبد الله ورسوله إلى فلان، وتنتهى بمثل قوله « والسلام على من اتبع الهدى ». .

---

١ ـ الأقيال: الملوك ـ العباهلة: المقرون فى ملكهم ـ الأرواع: ذوو الروعة ـ المشابيب: ذوو المظهر الجميل ـ التيعة. اربعون شاة ـ المقورة: المسترخية ـ الضناك: السمينة ـ أنطوا: اعطوا الثبجة. الوسط

مما سبق نرى أن النثر الفنى شهد بوجود الرسول عليه السلام عهداً عظيم الخطر فياض الأثر إذ علا شأن الخطابة وارتفع منارها، وقررها الشرع فى مناسبات عدة كالجمع والأعياد. فضلا عن ميلاد الكتابة الفنية وكتابة الرسائل الديوانية.

وكانت مدرسة النبوة واسعة الأفق، سرى فيح شذاها إلى الصحابة الكرام. هذا فضلا عن أثر النزاع الدينى نفسه فى العرب ولاسيما خاصتهم. فزاد بذلك كله عدد الخطباء، وامتلأ عصر صدر الإسلام بهم. وفى مقدمتهم الخلفاء الراشدون ولاسيما على كرم الله وجهه. وخطباء الوفود وغيرهم. وكان من الخطباء: المغيرة ابن شعبة والحباب بن المنذر وبشير بن سعيد والأحنف بن قيس وسعد بن عبادة.

وقد استخدم الخلفاء الخطابة أداة فاصلة فى ملماتهم وخلافاتهم ومشروعاتهم وفتوحاتهم ووعظياتهم، إلى غير ذلك. فاتسع لها بذلك، مجال القول، وتعددت موضوعاتها. خطب أبو بكر يوم سقيفة بنى ساعدة، وخطب عمر بعد أن ولى الخلافة، وخطب على فى كثير من مواقفه ولاسيما فى عهد خلافته حينما وقع النزاع بينه وبين معاوية، وحينما وقع الشغب فى صفوف أتباعه.

وقد جمع الشريف الرضى — أو المرتضى — خطب على فى ديوان هو «نهج البلاغة»، ومهما قيل فيه وفيما دس إليه من كلام ليس لعلى. فلا ريب أنه قد سلمت منه جملة صالحة من الخطب هى من قول على وتضعه فى الصف الأول من خطباء العرب بعد النبى عليه السلام.

وجملة القول فى خطبهم أنها كانت على نمط من خطب النبى عليه السلام، جزالة لفظ وقوة تركيب، وحنكة فى التعبير عن أدق المعانى، وترسلا فى أكثر السطور، وتقربا إلى الطبع، واقتباسا من القرآن الكريم.

واستمرت العناية بالكتابة الإنشائية مطردة. لشعور الدولة العربية الناشئة بحاجتها إليها فاصطنع الخلفاء عدداً من الكتاب على نمط ما كان متبعا فى عهد الرسول وظلت المكاتبات — الديوانية — على وجازتها غالبا. وبلغ بعضها فى وجازته حد

الترقيع واتسع نطاق موضوعاتها تدرجا مع اتساع نطاق الدولة ، واشتملت على العهود والوصايا .

— ٤ —

النثر فى عصر بنى أمية

ظل النثر يسير فى الطريق الذى رسم له فى عصر صدر الإسلام وجدّ له فى عصر بنى أمية من العوامل ما زاد فى نشاطه ووسع من محيطه وذلك باتساع الدولة وبدء أخذها بأسباب الحضارة ، وبإقبال الناس على تدبر القرآن ورواية الأدب والأخبار . وبتعدد الدواوين لضبط شئون الدولة . هذا إلى النشاط الحزبى الذى جعل هذه الدولة القصيرة العمر كالأتون المستعر . فطغى لذلك سيل الخطابة واتخذت فى مقدمة الأسلحة التى يستعان بها على مـــلافاة الأمور وبث الدعاية واصطناع الأنصار وإرهاب الأعداء .

. ومن هنا تعدد الخطباء ومنهم : معاوية ، وعبد الملك بن مروان ، وعمر بن عبدالعزيز ، وزياد والحجاج وخالد القسرى ، والحسين والحسن أبناء على . وقطرى ابن الفجاءة . والمختار الثقفى ، وأبو حمزة الخارجي . وعبدالله بن الزبير وأخوه مصعب وغيرهم .

وتنوعت موضوعات الخطابة . فمنها الحزبية التى كانت تفيض بالدعاية والوعد والوعيد ، وبسط السياسة وطرق الحكم . ومنها خطب الوعاظ وكانت ملأى بالعبر والعظات وضرب الأمثال وذكر السلف والتذكير بأيام الله ، ومنها خطب الوفود وكانت تفيض بالحمد والثناء وبسط الأمل والمعاهدة على الطاعة . هذا عدا خطابة الجمع والأعياد .

وامتزجت أساليب الخطباء بالنزعة الدينية وبالروح العاطفية أحيانا ، ويكثر

ذلك فى خطباء الأمويين من علويين وخوارج وزبيريين ووعاظ ، ومن هنا كثر الاقتباس فيها والاستشهاد بآى القرآن الكريم .

وكان الخطباء وكثير من ولاتهم يلون الخطابة بأنفسهم ولا سيما خطابة الجمعة ونحوها ، وكان لذلك أثر كبير فى ازدهاء رونق الخطابة المنبرية .

ونشير إلى أن معاوية اتخذ كتابا لرسائله فينشئها الخليفة من إملائه ، أو ينشئها كاتبه بوحى منه ومن هنا سميت كتابة الرسائل « الكتابة الإنشائية » وسمى كتابها « المنشئين » . وكان هذا أساساً لما أنشىء بعد من دواوين ، سواء أكان ذلك فى الدولة العباسية أم فى الدولة المتفرعة عنها ، وظل وجوده تقليدا صالحاً متبعاً فى الدول الإسلامية حتى بعد استعجام كثير منها . يتطلع إلى مناصبه ذوو الكفاية من الأدباء .

واتخذ معاوية ، عبيد الله بن أوس الغسانى كاتباً له . فلما كان عصر هشام كتب له مولاه سالم . وهو فارسى جمع إلى علمه بالفارسية علمه بالعربية واليونانية . فكان له أثر بالغ فى هذه الصناعة الناشئة — وهى صناعة كتابة الرسائل — التى أخذت بفضله تدخل فى طور جديد . وقد نضج هذا الطور ورسخ وزهت ألوانه على يد عبد الحميد بن يحيى بن سعيد الذى تخرج بختنه سالم المذكور . وكان عبد الحميد أيضا فارسيا خبيرا بالعربية ذا ذوق ومعرفة . فكتب لمروان بن محمد آخر خلفاء بنى أمية ، وأخذ يفتن فى كتابة الرسائل ماشاءت له ملكته الخصبة وقلمه الطيع . حتى صارت الكتابة صناعة عتيدة لها أصول وقواعد ورسوم فى بدئها وختامها ، وقصاراها إبراز المعنى بأوضح عبارة وأجزل تركيب مع الاستعانة على تثبيته بالترادف .

هذا إلى إطالة التحميدات وتنويع عبارات البدء والختام بما يناسب موضوع الرسالة . والترجح بين الإطالة والإيجاز حسب مقامات الكلام . — وبهذا وذاك أخذ الفن يجد فى النثر العربى ميداناً جديداً لجولاته ومخترعاته .

ولم يبعد النثر الأموى فى جملته عن نهجه فى صدر الإسلام ، فكان بعيدا عن الحوشى والغريب ، مختار الألفاظ ، جزل التراكيب واضح المعانى ، فيه ترادف يؤكدها ويثبتها ، وسجع فطرى ، وطباق ومقابلة هينان يدعو إليهما الطبع . أما الاقتباس فكان كثير الذيوع . وقل أن خلت منه رسالة أو خطبة ، مع رعاية الدقة فى الاستشهاد بما ينسجم مع المناسبة ، وترجح بين الطول والقصر فإن لعبد الحميد موجزات فى توقيعاته ، كما أن له المطولات وذلك فى مقام التهديد والوعيد مثلا ، وذكر الفتوح والحث على الجهاد ولقاء العدو . قالوا إن عبد الحميد بعث إلى أبى مسلم رسالة حملت على بعير ، لو قرأها لترك دعوة العباسيين ، ولكنه لما بلغته خشى مغبة بلاغة عبد الحميد فأحرق الرسالة وكتب على جذاذة منها إليه :

محا السيف أسطار البلاغة وانتحى عليك ليوث الغاب من كل جانب

واعتمد فى تصوير بعض معانيه على المجاز والاستعارة والكناية . والذى نلحظه فيها أنها مرتجلة صاغتها البديهة . ولا عبرة بما ورد فيها من ألوان الفن والبديع ، فليست هذه الألوان وقفا دائما على الإعداد . بل كثيرا ما تتركز فى الأذواق حتى تجرى على ألسنة المرتجلين مجرى الطبع . ونشاهد ذلك فى كثير من خطباء العصر الحديث ، المرتجلين . — على أن هناك دليلا على ارتجالها ، وهو عدم تسلسل معانيها تسلسلا دقيقا . ولو كانت معدة ، لكانت أكثر ترتيبا وتسلسلا وإناقة . وهذه الملاحظة عامة فى خطب هذا العصر . وهى سمة واضحة أيضا فى الحجاج ، على الرغم من أنه كان يتمثل فى خطبه بأبيات الشعر أحيانا . وهو لا يبعد كثيرا عن منهج زياد .

ومما كتبه عبد الحميد وهو منهزم مع مروان بن محمد ، إلى أهله ، قوله :

« أما بعد فإن الله جعل الدنيا محفوفة بالمكاره والشرور . فمن ساعده الحظ فيها سكن إليها . ومن عضته بنابها ذمها ساخطا عليها وشكاها مستزيدا لها . وقد

كانت أذاقتنا أفاويق استحلبناها ثم جمحت بنا نافرة ورمحتنا مولية . فملح عذبها وخشن لينها. فأبعدتنا عن الأوطان وفرقتنا عن الإخوان . فالدار نازحة والطير بارحة . وقد كتبت والأيام تزيدنا منكم بعدا وإليكم وجدا . فإن تتم البلية إلى أقصى مدتها يكن آخر العهد بنا وبكم . وإن يلحقنا ظفر جارح من أظفار من يليكم نرجع إليكم بذل الإسار والذل شر جار . نسأل الله تعالى الذى يعز من يشاء ويذل من يشاء أن يهب لنا ولكم ألفة جامعة فى دار آمنة تجمع سلامة الأبدان والأديان ، فإنه رب العالمين وأرحم الراحمين » .

ورسائل عبد الحميد نمط عال من أمثلة الكتابة الفنية . وبها اعتبر شيخا لكتاب الرسائل. وقد اصطنع فيها عبد الحميد جملة من دعائم فنه الكتابى ، منها الاستعارة والكناية والطباق . ومنها السجع والازدواج. ومنها الاقتباس . هذا إلى عباراته فى البدء وعباراته فى الختام وكلها تناسب موضوع الرسالة. وإلى براعة استهلاله وختامه وإلى تخير ألفاظه وتراكيبه مع جزالتها وإلى وضوح المعانى وإسفار الأفكار ، والبعد عن التعقيد ، والتقديم والتأخير . مع ترتيب المعانى الجزئية ترتيبا يدعو إليه طبيعة الذوق والموضوع . هذا إلى أن بعض رسائل عبد الحميد كان بدءا للإخوانيات التى أخذت سبيلها إلى الازدهار .

والذى نريد أن نسجله هو أن الكتابة الفنية أخذت فى عصر بنى أمية ، ولا سيما فى أواخره، على يد عبد الحميد ، تشق طريقها نحو حياة جديدة واسعة ، تقاسم الأمم العربية فيها وتعاونها على أداء حاجاتها فى ميدانها . وأن هذه النقلة تطور طبعى اقتضته ملابسات العصر وسياق الحياة فيه ، إذ أخذ الناس حينذاك يسيرون نحو حضارة منتظرة ومدنية واسعة مرجوة ، هى - فى الحق - أثر بارز لتلك الدفعة الواثبة التى دفع الإسلام العرب فيها . ولعبد الحميد رسالة بين فيها للكتاب شرف صناعتهم وما ينبغى أن يتحلوا به ، أو يدعوه .

— ٥ —

النثر في صدر عصر بني العباس

نقصد في المدة التي تنتهي بأواخر القرن الثالث الهجري. وقد شهدت تكوين الدولة العباسية وعظمتها وازدهارها وانبساط سلطان خلفائها، إلى أن أخذ الضعف يدب إليها بسبب استفحال خطر الفرس والترك.

في هذه الفترة أسست بغداد قريبة من فارس، ووسطا بين الأمم الإسلامية، وصارت عاصمة للخلافة، ومحورا للعلوم والآداب الإسلامية. ونشطت فيها حركة التأليف والترجمة والتعليم، وهوم إليها الأدباء من كل فج، ونعم العصر نسبيا، بحياة حرة، كان لأبناء الشعوب غير العربية، نصيب منها كبير. وامتزج العرب بغيرهم زواجا ومجاورة ومعاملة. وبدأ بذلك جيل جديد يظهر في الأفق. جيل مولد له سمات وصفات من هذه الشعوب المتمازجة ذات الحضارات المختلفة. ودخلت الدولة في دور حضارة واسع المدى. وازدانت بعدد من الخلفاء ذوي شكيمة وقوة وعلم ورأي وسياسة وحزم ومغامرة، أمثال أبي جعفر والرشيد والمأمون.

وكان لذلك صداه في اللغة، فشهدت طورا من حياتها جديدا، فاتسع نطاقها، وامتدت آفاقها. وتنوعت أغراضها. وتهذبت أساليبها وعذبت تراكيبها، وعمقت معانيها ودقت أفكارها، وتوسع في مدلولات معجمها، إلى غير ذلك من ضروب التجديد الذي كان للنثر الفني منه نصيب موفور.

ويتمثل نثر هذه الفترة في الخطب والكتابة.

أما الخطب فقد لازمتها نحو قرن، وجدت خلاله أسبابا لنشاطها. إذ أن الدولة قامت على أساس من تأليف العصابات ومخاطبة الجماهير، دعاية إلى مذهبها الجديد، ونعيا على سياسة بني أمية. فكان قيامها انقلابا عظيما وثورة جامحة واسعة المدى

والمرمى ، وفى مثل هذه المناسبات تجود الخطابة ، لأنها الأداة الطبيعية التى بها يبلغ القادة والزعماء أهدافهم .

وكان بنو العباس أنفسهم خطباء هذا الانقلاب ، فاستمروا منذ إنشاء دولتهم على نهجهم الخطابى الذى انتهجوه فى مخاطبة الجماهير ، على المنابر وغيرها . طلبا لطاعتهم ومعاضدتهم ، باذلين لهم الوعود مهددين من تحدثهم نفوسهم بالغدر ، مبينين سوء سياسة الأمويين .

ومن هنا ترى أن الخطب حينذاك صفحة ناصعة وضحة المعالم تصور سياسة هذا العصر واتجاهه الاجتماعى . وشاركتها العظات البالغة ، والقصص الزاجرة ، والمحاورات النافعة ، فى نشاطها ، وكل منها فى ميدانه.

ولكن بعد أن ضعفت الأحزاب السياسية وتشتت أتباعها ،وبعد أن جيشت الجيوش ووضعت لها النظم الدقيقة ، وتذوقت الدولة طعم الاستقرار ، ووكل أمر دووانيها إلى وزراء عرفوا بالدهاء وحسن السياسة وإصالة الرأى والبلاغة والمقدرة الإنشائية، وأخذوا يكتبون هم أوكتابهم المنشورات السياسية التى كانت تتلى على الناس فى محافلهم ، بعد هذا كله فتر أمر الخطابة بعد أن ازدهرت زهاء مائة عام . ولعل من أسباب فتورها أيضا ، ضعف العناصر العربية بين جنود الدولة ، وضعف ملكة الارتجال بدافع الحضارة ونظمها وبدافع الاستقرار .

وما انتهى صدر العصر حتى كانت الخطابة العربية البليغة المرتجلة قد طوى بساطها وانفض سامرها . بعد أن شهدت عدداً من بلغاء الخطباء أمثال السفاح وأبى جعفر والرشيد والمأمون ، وداود بن على وكثير من إخوته وأبنائهم . وجعفر البرمكى والفضل بن سهل وطاهر بن الحسين وابنه عبد الله بن طاهر وخالد بن صفوان وشبيب بن شيبة وموسى بن سيار الأسوارى الواعظ القاص .

والأسلوب الخطابى هنا امتداد لما كان منه فى العصر الأموى . فيه القوة والبرهان والوعد والوعيد والجزالة والطلاوة ، والسهولة والوضوح ، وضروب

من الزينة والحلية لا يتأبى عليها الطباع ، ولا تتجافى عنها الأذواق من سجعات قصيرة وفيقة ، ومطابقات دقيقة . واقباسات غاية فى رعاية المناسبة .

ومن أمثل خطبهم ، خطبة داود بن على عم السفاح ، وهى التى خطبها على منبر الكوفة يوم مبايعة الناس للسفاح .

وهى خطبة عصماء جيدة النسج اعتمد الخطيب فيها على الكنايات المأثورة فى إيضاح معانيه وعلى الترادف سبيلا إلى الإطناب . وبنائها على الفقرات القصيرة تارة مسجوعة وتارة مرسلة . مع سوق الأدلة والبراهين ، وحسن اختيارها لما له أثر سريع فى نفوس السامعين . مع ازدواج هين لا كلفة فيه . وعلى هـــذا النهج أو قريب منه سارت الخطابة حتى عفا أثرها وطوى ذكرها ، ولم يعد منها إلا بقية تتمثل فى العظات والخطب المنبرية .

أما الكتابة فهذه الفترة أزهى فترات حياتها الطويلة . وأعمر أيامها الناضرة ، بلغت فيها قمة مجدها وذروة بلاغتها ، وحصف فيها الكتاب حتى ضربت بهم الأمثال فى البلاغة وسمو المعانى وجدتها وحنكة الأسلوب ومقدرته ، وسعة الموضوعات وإحاطتها . فأورثوا العربية بذلك جمالا لا تزال تزدان به ، ويلهج الناس بذكره ، وصار القدوة والمثال لكل كاتب ومنشىء .

وفى مقدمة أسباب ذلك ، هذا التطور الجاد الذى حدث فى حياة الأمـــة العربية ، إذ أخذت تسير قدما فى ميدان الحضارة ، وتصطنع من الأساليب ما يوائم حاجاتها فيه . مستعينة بالعناصر الأجنبية كلما وجدت إلى الاستعانة بهـا سواء أكان ذلك فى تنظيم شئونها أم تدوين علومها ، أم ترجمة كتب فارس والهند واليونان .

وكان لذلك رجعه الطبيعى فى نفوس أدبائها ، وفى مقدمتها الكتاب ، فمثلوا ، بما أنشئوا من رسائل شائقة ومقالات بليغة وفصول ممتعة ومؤلفات ومترجمات شتى ، فى مختلف نواحى الحياة العقلية والأدبية ، عظمة هذه الدولة العظيمة الفتية.

واتسع نطاق الدواوين وأدخلت عليها نظم جديدة وأهمها فى موضوعنا ، ديوان الرسائل بقسميه : ديوان الخاتم وديوان التوقيع . إذ عظمت منزلته واتسع اختصاصه . وكان يليه مع سائر دوواين الدولة — عدا ديوان الجيش — وزير الدولة فيتولاه أو يكل أمره إلى أحد نوابغ المنشئين. وقد اتسع نفوذ الوزير الأديب الفضل بن سهل ، إذ وكل إليه المأمون . «ديوان الجيش» فى جملة دوواين الدولة ، وبهذا اجتمعت له رياسة القلم والسيف . ولقب « ذا الرياستين ، وجعل له علم على سنان ذى شعبتين وكتب على سيفه من جانب « رياسة الحرب » ومن جانب «رياسة التدبير» .

وكان الوزراء والكتاب فى الديوان يختارون من الأذكياء الأكفاء ذوى الفضل والتجربة وذوى الشهرة فى العلم والأدب والإنشاء . ولهذا تنافس الكتاب وجودوا إنشاءهم ووسعوا من أفق معارفهم، حتى يكون ذلك لهم شفيعا إلى مناصب الديوان حيث الغنى والجاه والسلطان .

ولهذا سعد العصر بجمهرة منهم ندر أن اجتمع مثلها فى عصر ، ومنهم العربى والأعجمى . وتوالوا طبقات : طبقة ابن المقنع ويحي بن زياد وعمارة بن حمزة ، وأبى أيوب المورياني ، وكتبوا للمنصور ثم طبقة أبى عبيد الله معاوية ، ويعقوب ابن داود وزيرى المهدى ، ثم يحيى بن برمك ويوسف بن القاسم ممن كتبوا للمهدى والهادى والرشيد . ثم طبقة جعفر بن يحيى وأخيه الفضل ، واسماعيل بن صبيح ، والفضل بن سهل والحسن بن سهل. وأحمد بن يوسف ، وعمرو بن مسعدة ، وأحمد بن أبى خالد الأحول ، ممن كتب للرشيد والأمين والمأمون ثم طبقة ابن الزيات وابراهيم الصولى وسعيد بن حميد والحسن بن وهب وسليمان بن وهب ، وبنى المدبر والحسن بن مخلد ، ممن كتب للمعتصم والواثق والمتوكل والمنتصر والمستعين والمعتز والمهتدى والمعتمد .

ثم طبقة عبدالله بن سليمان بن وهب ، وأبى العباس بن ثوابة وأبى الحسن على

ابن الفرات وعلى بن الجراح ممن كتب للمعتمد والمعتضد والمكتفى والمقتدر . —
وقد امتد عهد المقتدر إلى ما وراء القرن الثالث الهجرى[1].

وفى ديوان الرسائل تكتب رسائل الخليفة ، وإليه ترد رسائله من الخارج .
وتنوعت صنوف هذه الرسائل الصادرة فكان منها بيعات الخلفاء وأولياء العهد ،
وعهود الولاة والقضاة ، والمنشورات السياسية إلى غير ذلك مما يستلزمه ضبط
أمور الدولة وحاجاتها .

ولوحظ فيها الميل إلى الإطالة والتفصيل فى تدبيج أساليبها والتنويع فى عبارات
بدئها وختامها واصطناع الألقاب والنعوت. ونعتبر ذلك كله اندفاعا فى التيار الذى
بدأ يتحرك فى عصر بنى أمية وعاون على استمرار حركته وسرعتها ، السير فى طريق
الحضارة والأخذ بألوان الثقافة والامتزاج بالأعاجم . غير أن طول الرسائل كان
أناقة ووسامة ، لا تكلفا وثقلا .

أما الإيجاز فاختصت به التوقيعات وبعض الرسائل الإخوانية ، وكانت
التوقيعات بليغة فى إيجازها طلية فى سجعها الملتزم وفقراتها القصيرة ، وازدواجاتها
ومقابلاتها ، وتنافس فى ذلك الكتاب والوزراء .

ولم يقل نشاط الأدباء خارج الديوان عنه داخله . بل ربما كان أوسع نطاقا
وأبعد آفاقا . لقد أخذوا تحت تأثير سياق الحياة وفيض الحضارة وتدفق الثقافة
وجدة المترجمات ، يكتبون وينشئون ويترجمون ويبدعون من فنون القول وألوان
الكتابة ما شاءت لهم فطرهم السليمة وبراعتهم الحكيمة وقلبهم الطيع . مما بهر
العقول وخلب الألباب .

وكانت أساليبهم ناهجة نفس النهج الديوانى من جزالة لفظ وعذوبة أسلوب
وجمال تصوير ، وابتكار معنى ، وميل إلى الإطالة غالبا ، وإلى الترادف والتقسيم

---

١ — راجع الأدب العربي فى العصر العباسى للاستاذ أحمد الإسكندرى

والتبويب . فكتبوا الإخوانيات والمقـالات الوصفية والموازنات والقصص. ووصفوا الآداب والعادات والتقاليد والأخلاق ، وصف دارس وناقد .

ونستطيع القول إن مناهج التعبير كانت متغايرة . ومادمنا فى مقام غير مقام التفصيل والموازنة ، نستطيع أن نجمل وصفها بأنها تمثلت فى منهجين بارزين هما . منهج ابن المقفع ومنهج الجاحظ . والأول يمثل الأسلوب السائد فى أوائل هذه الفترة . والثانى يمثل الأسلوب السائد فى أوسطها إلى أخرياتها ، على وجه التقريب. وكلا المنهجين تطور طبعى لأساليب الإنشاء دعت إليه مقتضيات الحياة المتحضرة . وإن لم ننكر أثر المزاج الشخصى فى أى منهج .

وأبرز مايتسم به منهج ابن المقفع الذى كان يحذق العربية والفارسية وآدابهما . — وقيل إنه كان أيضا عالما باليونانية — أنه كان يتوخى المفردات المتداولة ولكنه يسلكهافى تراكيب تضفى عليها منعة، وتعصمها من الابتذال . وبذلك تتضح معانيه وتستساغ تراكيبه لبعدهاعن الحوشى والغريب وبراءتهامن أسباب الغموض والإبهام. وكان يلجأ إلى التفصيل والتقسيم إذا تصدى لوصف حالة خلقية أو اجتماعية مثلا ، ويميل إلى الإطالة فى التحميدات وغيرها دون لجوء إلى التكرار والترادف. ومن هنا كان كثير من معانيه جديدا سجل بها صورا نفسية وافرة . ويجنح إلى الإيجاز إذا لم يكن وراء الإطالة ما يغنى . غير متباعد عن رشيق اللفظ وعذب التركيب ليسهل تناولها . فإن البلاغة فى رأيه . هى التى يظن الجاهل أنه يحسن مثلها . ويقول: «إياك والتتبع لوحشى الكلام طمعا فى نيل البلاغة . فإن ذلك هو العى الأكبر» .

وكان ابن المقفع يترسل غير ملتزم نوعا من البديع أو مقادير معينة فى طول الفقرات ، ومن هنا ترجحت فقراته بين الطول والقصر ، ولايحذها عنده إلا جمال المقطع وطيب الوقف وحسن الانتهاء . ونزع إلى الحكمة والمثل أحيانا ، وإلى الحديث عن الأخـلاق والاجتماع ، وهنا قد تعانى عباراته شيئا من القلق والغموض ويبدو أن ذلك من آثر معاناته الترجمة الحرفية ، ولا سيما فى أول

عهد العرب بالترجمة[1]

وقد كتب ابن المقفع الرسائل لأبى جعفر ولغيره من أقاربه . ودبج الإخوانيات وترجم كليلة ودمنة ، وأضفى عليه جدة من شباة قلمه وألبسه ثوبا قشيبا من بيانه . وكتب المقالات والرسائل الأدبية الضافية ، ومنها الأدب الكبير والأدب الصغير واليتيمة فى طاعة السلطان ، ورسالة الصحابة وغير ذلك ، مما له فضل عظيم على العقلية العربية .

ومن فقراته فى رسالته « اليتيمة » يصف أحوال الناس وأخلاقهم :

« وقد أصبح الناس إلا قليلا ممن عصم الله ، مدخولين منقوصين . فقائلهم باغ . وسامعهم عياب . وسائلهم متعنت . ومجيبهم متكلف . وواعظهم غير محقق لقوله بالفعل . وموعوظهم غير سليم من الهزء والاستخفاف . ومستشيرهم غير موطن نفسه على إنفاذ ما يشار به عليه ، ولا مصطبر للحق مما يسمع . ومستشارهم غير مأمون على الغش والحسد . وأن يكون مهتا كا للستر ، مشيعا للفاحشة . مؤثرا للهوى . والأمين منهم غير متحفظ من ائتمان الخونة . والصدوق غير محترس من حديث الكذبة . وذو الدين غير متورع عن تقريظ الفجرة . »[2]

ومن رسائله الموجزة يعزى عن بنت :

« لا ينقص الله عددك . ولا ينزع عنك نعمته التى ألبسك . وأحسن العوض لك وجعل الخلف لك خيرا مما رزأك به . وما أعطاك خيرا مما قبض منك . » .

وأما منهج الجاحظ — وهو أديب عصره وكاتب جيله — فهو مظهر لما اكتمل لصاحبه من أدب وعلم . إذ كان الجاحظ عظيم الاطلاع واسع المعرفة ذواقة . يستبطن الأمور ويكتنهها بنظر ثاقب وفحص دائب . واستنباط صائب وقد قرأ

---

١ — راجع الفن ومذاهبه فى النثر العربى للدكتور شوقى ضيف ص ٤٨

٢ — راجع كتاب اختيار المنظوم والمنثور لابن أبى طاهر طيفور ج ٢ ظهر الورقة رقم ١٠٠ مخطوط بدار الكتب المصرية .

كثيرا من علوم عصره . وهى كثيرة بالنسبة لمن تقدمه . إذ بينه وبين جيل ابن المقفع ما يقارب مائة عام ، كانت رسائل العلوم والآداب والمترجمات ، خلالها قد توافر عددها وغمر فيضها . فأثر ذلك — ولا ريب — فى أسلوب الجاحظ الذى نصب نفسه معلما لجيله ومن بعده . ولهذا صار أسلوبه مدرسيا فيه الحوار والجدل ، وفيه التعليل والاستدلات . وفيه المقدمات والاستطرادات والهزليات يخلطها بالجديات ، بعثا لشوق القارىء . وفيه استقصاء لجزئيات الموضوع ، نشرا للثقافة . وفيه الإطالة عن طريق التكرار والترادف للمعانى . هذا فضلا عن سمات كثيرة من منهج ابن المقفع أهمها السهولة والوضوح وجزالة التراكيب ، وحسن الانتهاء عند مقاطع الفقرات .

سوى أن الجاحظ آتى منه . وأكثر احتفالا بمفرداته وتراكيبه ، وأميل إلى تنسيق عباراته وتنظيم فقراته حتى يطيب مظهرها وتقبلها الأسماع لموافقاتها الصوتية . فهو يسجع أحيانا ويزاوج أحيانا ، ويطابق مرة ويجانس أخرى . مفضلا فى أكثر ما يكتب قصار الفقرات التى ينتهى كل منها بمعناه ، باعثا لبعض الغريب رجاء الانتفاع به فى تأدية المعنى ، ورجاء بعثه . متخيرا أشهى الموضوعات وأدقها وأغربهـــا للكتابة عنه فكتب الإخوانيات ووصف الحيوان وطبائع الإنسان ، وأرخ للأدب ، ووضع دعائم للنقد والبلاغة ، وحرر القصص فى شىء من التحليل . إلى غير ذلك مما ألف فيه أكثر من مائة وسبعين كتابا منها البيان والتبيين وكتاب الحيوان . والبخلاء . والمحاسن والأضداد . وديوان رسائله .

ومن كلامه فى مفتتح كتاب الحيوان قوله يدعو :

« جنبك الله الشبهة وعصمك من الحيرة . وجعل بينك وبين المعرفة سببا . وبين الصدق نسبا . وحبب إليك التثبت . وزين فى عينك الإنصاف . وأذاقك حلاوة التقوى . وأشعر قلبك عز الحق . وأودع صدرك برد اليقين . وطرد عنك ذل اليأس . » الخ

ومن رسائله ينصح :

« أما بعد فما أقبح الأحدوثة من مستمنح حرمته . وطالب حاجة رددته . ومثابر حجبته . ومنبسط إليك قبضته . ومقبل إليك بعنانه لويت عنه . فتثبت فى ذلك . ولا تطع كل حلاف مهين . هماز مشاء بنميم » .

هذا ، وممن سار على نهج ابن المقفع ، مثلا ، وعلى وجه التقريب عمرو بن مسعدة . وطاهر بن الحسين . وأحمد بن يوسف ، ومحمد بن عبد الملك الزيات . — وممن سار على نهج الجاحظ : المبرد وابن قتيبة وحمزة الأصفانى وقصارى أساليبهم — على ما رأيت — أنها أخذت تسير وفق قريحة فنية تبتكر الفكرة ، وتتروى فى إخراجها وحسن عرضها ، وتجيد صناعة تصويرها غير متكلفة ولا متعسفة ، فهى صناعة أقرب شبها بالطبع ، وروية وتجويد أدنى محاكاة للبديهة والارتجال .

ولاريب فى أن مابدا عليها من نزوع أحيانا نحو السجع أو الازدواج أو قصر الفقرات ، وانتهائها باتهاء معانيها والتأنق فى اختيار اللفظ ، والحنكة فى تركيبه مع غيره بطريق الإسناد أو الإضافة مثلا ، أو غير ذلك ، أضفى عليها فنية جديدة لم تكن لها من قبل .

وقد أخذت هذه الخصائص وما أضيف إليها من جديد فيما بعد ، تحبب إلى الكتاب التزام شىء منها أو تتجه بهم نحو هذا الالتزام ، وهو ما نشاهده فى كثير من كتاب القرن الرابع ، ومابعده . وهو مانعده تطورا طبعيا للأساليب الكتابية دفعت إليه سياقات الحياة . وطبائع الفنون . إذ تبدو ، يبدو أسبابها ، تكون باهتة قلقة ثم تزهو وتثبت ، ثم تلتزم وتتعقد بالإضافات الجديدة ، مادامت أسبابها مطردة ، فى سبيلها هى أيضا إلى التركز والتعقد .

ومن المناسب أن نشير إلى أحد الكتاب — وقد أشار إليه جورجى زيدان[1] — وهو ابراهيم بن سيابة فقد روى له الجاحظ فى كتابه « البيان والتبيين » ، رسالة كتبها إلى يحيى بن خالد بن برمك ، التزم فيها السجع وأطال الثناء ، وأكثر

---

١ — تاريخ آداب اللغة العربية لجورجى زيدان ج ٢ ص ١٢٧

من التأنق حتى خرج بذلك عن مألوف عصره. ولغرابتها حينذاك حفظها البغداديون. وقد قال فى مطلعها: « للأصيد الجواد. الوارى الزناد. الماجد الأجداد. الوزير الفاضل. الأشم الباذل. اللباب الحلاحل. من المستكين المستجير. البائس الضرير. فإنى أحمد الله ذا العزة القدير. إليك وإلى الصغير والكبير بالرحمة العامة والبركة التامة.

أما بعد فاغنم واسلم. واعلم إن كنت تعلم. أنه من يرحم يُرحم. ومن يحرم يحرم. ومن يحسن يغنم. ومن يصنع المعروف لايعدم. وقد سبق إلىّ تنضبك علىّ. واطراحك لى وغفلتك عنى بمالا أقوم له ولا أقعد. وأنتبه ولا أرقد. فلست بحى صحيح. ولا بميت مستريح . . . الخ

وهذه رسالة لاتتخذ نموذجا لنثر عصر كاتبها. وما أشبهه فى غرابة أسلوبه البديعى بالنسبة لمعاصريه، بابن خلدون فى غرابة ترسله وانطلاق أسلوبه، بالنسبة لمعاصريه من أهل البديع . . . والقياس مع الفارق.

— ٦ —

النثر فى القرن الرابع

ما إن تتابعت السنون سائرة نحو القرن الرابع حتى وجدنا ذلك البريق الذى بدا فى ثنايا الأساليب الكتابية يزداد لمعانا وثباتا وحتى وجدنا السجع يكثر أو يلتزم أحيانا على يد بعض الكتاب المتأخرين فى القرن الثالث أمثال أبى العباس بن ثوابة (٢٧٧ هـ) وأبى العيناء (٢٨٢ هـ) وكان هذا خير تمهيد لما بدا على الأساليب الكتابية من فنون الصناعة فى القرن الرابع، تلك الفنون التى فتحت الطريق أمام هندسة الأسلوب، واتخاذه - من بعد - موضوعا أصيلا لمبتدعاتها.[1]

وقد عنينا بإفراد هذا الفصل للحديث عن النثر الفنى فى القرن الرابع، لأنه

---

١ — نفس المصدر ج ٢ ص ٢٦٥، ٢٦٦

القرن الذي برزت فيه العقلية العربية وعليها آثار مركزة من الثقافات المتلاقحة التي أخذت تتصل وتتفاعل منذ أول العصر. ولأنه القرن الذي بلغت فيه الحضارة العباسية غاية كان لها رجع بعيد في تعقيد الحياة العامة، ومن ثم في الحياة الأدبية وأساليب الأدباء. ولأنه القرن الذي برزت فيه دول مستقلة عن دولة الخلافة، كثيرة العدد والتتابع. وكان منها في شرق العراق دول غير عربية، اتخذت — لإسلامها — لغة القرآن أداة رسمية لضبط شئونها، واختار أمراؤها العلماء والأدباء والكتاب. وكان لمنافستهم أثر في نبوغ عدد كبير من كرام الكاتبين في مختلف نواحي النثر. فكان جديرا بأن يؤلف فيه وحده كتاب مستقل. وهذا هو الذي صنعه المرحوم الدكتور زكي مبارك في كتابه « النثر الفني في القرن الرابع الهجري».

وقد تناول كتاب هذا القرن مختلف شئون الحياة. فكتبوا في موضوعاتها المتفرقة. ومنهم منشئو الرسائل والعهود مثل ابن العميد والصاحب بن عباد وأبي الفضل الميكالي وأبي بكر الخوارزمي. وكتاب الأخبار والتاريخ كأبي اسحق الصابي والعتبي. ومنشئو الأقاصيص والمقامات كبديع الزمان الهمذاني. وكتاب النقد كأبي الحسن الجرجاني وأبي القاسم الآمدي وأبي هلال العسكري. وأصحاب الآراء والمذاهب كأبي حيان التوحيدي وأبي منصور الثعالبي (توفي في القرن الخامس).

وكثير من كتاب هذا القرن احترف كتابة الدواوين، وعاون على ذلك تعدد الدول الناشئة، كما أشرنا. فكتب بنو ميكال للدولة السامانية. وابن العميد وابن عباد للدولة البويهية. وقابوس بن وشمكير كان من أمراء دولته الزيارية. وكتب أبو اسحق الصابي للخليفة ببغداد ولآل بويه. وأبو الفتح البستي وكتب لأمير بست بأفغانستان ثم لمحمود ابن سبكتكين. وأبو العباس الضبي تلميذ ابن عباد وكتب للبويهيين. وعلي بن محمد الإسكافي وكان كاتبا للدولة السامانية ووزيرا لها.

ومن العسير أن تحسن القول هنا في شيء من الدقة عن أساليب هؤلاء الكتاب

الذين سبق على يدهم بناء الإنشاء العربى إلى أوجه ، ومنه ما اختارت له مشيئة الحياة وجضاراتها وثقافاتها من ألوان الزخرف المقبول ، ومن أفانين الصناعة التى أبدعتها هندسة بناء الأسلوب فى كثير من الروعة الممتعة . ويزيد المسألة عسرا أنك إذا قلبت النظر فى أسلوب واحد من هؤلاء ، رأيت فروقا بينه وبين غيره ، وشهدت خصائص دقيقة تميزه عما عداه .

وعلى سبيل التمثيل ، ترى ابن العميد يستحسن السجع ويكاد يكثر منه : وابن عياد يلتزمه ولو تعسف فى التزامه . والصابى مولعا بالسجع والجناس لا يريم عنهما وهو مؤلف كتاب « التاجى » فى تاريخ البويهيين . واقتدى به أبو النصر العتبى فى كتابه « اليمينى » وهو فى تاريخ آل سبكتكين ، وفيه ضروب بديعية عدة . وأكثر الخوارزمى والهمذانى من ألوان البديع فى الرسائل والمقالات . وتعمد قابوس بن وشمكير ألوانا من الجناس أدته إلى العقادة ، وهكذا .

لذا نكتفى فى هذا المقام بوقفة وجيزة عند أبى العميد ، فهو أبرز كتاب هذا القرن ويعتبر — بطريق الإجمال — عميدا لهم ، وما منهم إلا قرين له معاصر ، أو متتلمذ له ، ومن المصادفات أنه عاش بين سنتى ٣٠٠هـ و ٣٦٠هـ ، فكأنه عاش فى صلب القرن ، والذين عاشوا إلى آخر القرن أو ماتوا بعده بقليل مثل قابوس والعتبى ، عاشوا زمنا فى مدرسته . وأسلوبه أمثل الأساليب دلالة على أثر ملابسات الحياة فى القرن المذكور فى عبارات الكتاب . وإن افترق بعضهم عنه بأشياء ، وإن اتجه بعضهم من بعده إلى كثير من الالتزامات والتعقيدات .

عاش ابن العميد إذاً فى القرن الرابع وهو القرن الذى بلغت فيه الحضارة العباسية أوجها ، وتم فيه امتزاج الشعوب الإسـلامية ، وتشابكت مصالحها وأفكارها تشابكا بلغ الغاية وامتلأت الحياة العملية والخلقية بالزخرف والمداهنة والتكلف ، فانتقل هذا إلى الحياة العقلية فالأساليب الأدبية ، ودعا إلى إجادة زخرفها وإتقان زينتها وتزويدها بمحاسن مجلوبة تبرز خلابتها وتزيد من تأثيرها تلبية لما مرنت عليه النفوس من تزويق الحياة ، واستجابة لما درجت عليه الألسنة

من تنميق الخطاب . لاسيما أن الدول الغالبة فى هذا الحين من الأعاجم ، فرسا أو تركا ، ممن يحبون الزخرف ويولعون بالزينة ويستريحون إلى المبالغات . وكان ابن العميد نفسه — وكان وزيرا للدولة البويهية — مولعا بصناعة الكتابة . ولكنه جمع إلى حذقها الإلمام بكثير من علوم عصره من منطق وفلسفة وإلهيات وطبيعة وهندسة حتى لقب بالجاحظ الثانى . هذا إلى إجادة فن التصوير وعلم الحيل . فنضح كل أولئك على أسلوبه وسار به نحو الزينة والزخرف .

وأهم ما يمتاز به أسلوب ابن العميد ، اعتماده على السجع غالبا ، وهو سجع خفيف مقبول لا يتأبى عليه الطبع أو يتجافى الذوق . ولكن كثرته فى عباراته أربت على ما كان من سجع أسلافه . واصطنع مع السجع ما خفف مئونته وذلك كقصر الفقرات أحيانا ، وبالازدواج والتوازن بين ألفاظها المتناظرة تارة ، فهذب بذلك التوافق الصوتى ، من تكلفه وخشونة تواليه . واعتمد على الطباق الهين والجناس السمح . وعمد إلى حل الأبيات الشعرية والحكم ، أو تضمينها ، مع جنوح إلى المبالغات والأخيلة الشعرية التى عمادها التشبيهات والمجازات ، دون أن يختل تسلسل معانيه . تسلسلا يدعو إليه الذوق وطبيعة الموضوع ومع ذوق واضح فى تخير ألفاظه . وكياسة ملموسة فى صوغ تراكيبه . وبهذا كله تحول الأسلوب النثرى إلى ما يشبه الشعر ، إذ برزت فيه جملة عناصر كان الشعر من قبل يختص بها وإليك قطعة من كلامه :

كتب إلى ابن بلكا عند استعصائه عن ركن الدولة . رسالة مترجحه بين الوعد والوعيد قال منها :

« كتابى وأنا مترجح بين طمع فيك ويأس منك وإقبال عليك وإعراض عنك . فإنك تدل بسابق حرمة . وتمت بسابق خدمة . أيسرهما يوجب رعاية ، ويقتضى محافظة وعناية . ثم تشفعهما بحديث غلول وخيانة . وتتبعهما بآنف خلاف ومعصية . وأدنى ذلك يحبط أعمالك . ويسحق كل ما يُرعى لك » الخ

— ٧ —

النثر بعد القرن الرابع إلى نهاية الدولة العباسية

كان لطريقة ابن العميد فى نفوس الكتاب من بعده ، فعل السحر . وعاون على ذلك ، استمرار المؤثرات البيئية والحضارية والثقافية وغيرها ، التى نضجت بينها هـــذه الطريقة . فكان استمرارها إيذانا باستمرار الدعائم البيانية والمحسنات البديعية التى اصطنعها ابن العميد فى طريقته . فضلا عن الخصائص الأخرى التى التزمها بعض معاصريه والذين عاشوا من بعدهم ، حتى تأصلت هذه الدعائم والمحسنات وتركزت ألوانها ، وحملوا النثر كل هذا العبء الفادح حتى صار كالرقعة التى تسودها أصباغها ، فخاتلت تلك الزخارف العين وضاعت تحتها معالم المعانى . ولعل من أهم الأسباب التى أدت إلى ذلك . تمكن السيادة للأعاجم فانساق الأدباء إلى الملق والتزويق والمبالغة استدرارا لرضاهم .

وقد عبر جورجي زيدان عن هذه الحالة ، فأحسن التعبير ، حيث يقول :

« لما تمكنت السيادة للأعاجم أصبح العرب وغيرهم من أهل الأدب فى حاجة إلى التملق . فجرهم ذلك إلى تنميق العبارة والمبالغة فى الإطراء والتأنق فى الإنشاء . مع ما تقتضيه طبيعة العمران من التبسط فى الحضارة والاسترسال فى تزويق العبارة بأنواع البديع والجناس ـ شأن المتحضرين فى سائر أحوالهم ، فإنهم يجنحون إلى أسباب الرخاء والتأنق فى كل شىء ، فتجاوزوا فى الإنشاء ما وضعه أدباء العصر الثالث من القواعد التى سميناها مدرسية .

كان التنسيق فى العصر العباسى الثالث يزيد الإنشاء رونقا للاكتفاء بالقدر اللازم ، على ما يقتضيه الذوق السليم من سجع أو جناس أو كناية . فاستحسن أهل العصر الرابع ذلك ، فاسترسلوا فيه وتجاوزوا حده فآل إلى عكس المراد »[1]

---

١ ـــ تاريخ آداب اللغة العربية لجورجي زيدان ج ٣ ص ٣٣

ولم يخلص أدباء هذه الفترة للكتابة وحدها ، أو على الأقل لم يؤثروها بأفضل جهودهم كما كان شأن أسلافهم ، فكان منهم الشاعر واللغوى والنحوى والبلاغى والكلامى إلى غير ذلك . ونذكر منهم : أبا العلاء المعرى (٤٤٩ هـ) صاحب رسالة الغفران ، وابن سنان الخفاجي (٤٦٦هـ) صاحب سر الفصاحة . وإن كانا قد ظهرا ببلاد الشام . وعبد القاهر الجرجانى (٤٧١هـ) صاحب أسرار البلاغة ودلائل الإعجاز . ومنهم الخطيب التبريزى (٥٠٢هـ). والحريرى (٥١٦هـ) والزمخشرى (٥٣٨هـ) صاحب أطواق الذهب والحصكفى (٥٥١ هـ) وابن الجوزى (٦٥٥هـ) وغيرهم .

ويمثل أبو القاسم الحريرى صاحب المقامات بأسلوبه ، أسلوب النثر الفنى فى هذه الحقبة الأخيرة ، بوجه الإجمال . ولهذا نقف عنده وقفة يسيرة فنقول :

كان الحريرى كاتبا وشاعرا ولغويا ونحويا نشأ بالبصرة وأتقن اللغة والنحو والأدب ، وعالج الكتابة حتى برع فيها على الطريقة البديعية . وله فى النحو ملحة الأعراب وهى أرجوزة وفى اللغة والأدب والنقد ، ودرة الغواص فى أوهام الخواص وله فى النثر البديعى مقاماته المشهورة وهى خمسون أهداها إلى جمال الدين[1] بن صدقة وزير المسترشد العباسى وقيل إلى رجل غيره ، وقد اشتهر بها شهرة كانت — ولا تزال — ذات دوى فى عالم الأدب وصناعة النثر .

ويعتبر أسلوبه فى المقامات القمة التى بلغها الأسلوب البديعى ، والتى ظل يتسلق إليها منذ بداية العصر . ومقامات الحريرى فى النثر تشبهها القصائد البديعية فى الشعر ، تلك القصائد التى ذاع الولوع بها فى عصر المماليك . فكل منهما القمة التى بلغها الأسلوب البديعى والعناية بهندسة اللفظ : المقامات فى النثر ، والبديعيات فى الشعر — وعلى نمط أسلوبه فى المقامات كان أسلوبه فى رسائله الأخرى . إذا صرفنا النظر عن منهج القص وسوق الأخبار ، الذى اقتدى فيه بمنهج بديع الزمان فى مقاماته.

١ — راجع تاريخ الأدب فى العصر العباسى للاسكندرى فصل الكتابة . وراجع الفن ومذاهبه فى النثر العربي لشوقى ضيف ومعجم الأدباء ج ١٦ ووفيات الأعيان ج ١

. وقد أفعم أسلوبه بصنوف من البديع لا حصر لها، وقوامه على كل حال السجع، ويلتزم فى سجعه أحيانا ما لا يلزم حتى يبدو شبيها بالجناس. على أن الجناس يتراءى كثيرا فى صلب فقراته. وإنه ليغلو فيه أحيانا حتى يجانس بين كل لفظين متجاورين، ويجانس بينهما جناسا خطيا وهو الذى لا يفترق فيه اللفظ عن مجاوره إلا بشكل حروفه فحسب، وسنرى كيف اقتدى به فى ذلك صفى الدين الحلى فى إحدى رسائله.

وإن هذا التكلف الذى ذهب الحريرى معه فى تحبير رسائله ومقاماته ساقه — ولو لم يعمد — إلى استعمال غريب اللغة ومهجورها، حتى يسد عوز جناساته وسجعاته ومرادفاته ويشبع بهم صنعته وعاونه على ذلك اضطلاعه باللغة وحفظه لمتونها وقد استعان إلى جانب ذلك باقتباسات قرآنية وبحكم وأمثال وأبيات متعددة، مصورا كثيرا من معانيه بطريق التجوز والتشبيه والكناية وما إليها من ضروب البيان، وهى لم تخل من التكلف، سلم له بها كثير من العبارات الممتعة. والفقرات القصيرة الرائعة. وجملة القول إن هذه المجهودات الضخمة التى بذلها الحريرى فى إنشاء مقاماته ورسائله، والحيل المبتكرة فى تجويد صنعتها وهندسة أشكالها، جعلته يقف على القمة بين أرباب هذه الصناعة اللفظية. وإن بدت معانيه مختنقة تحت أعبائها، وأفكاره آنة تحت أثقالها.

ولعل هذا كان من حسن الحظ لكتاب دواوين المماليك، إذ أخذت الصناعة من بعده تعود إلى منحدرها بعد اندفاع تيارها إلى أقصى علوه. ومن ثم آب لها بذلك بعض الرونق أو كثير منه على يد هؤلاء الكتاب وأخذت المعانى تهدأ أنفاسها وتتردد طبيعية بعد لهثها، ويفيء إليها نبض الحياة بعد اختناقها. وهذا رأينا الذى سنوضحه فى الأبواب التالية فيما بعد.

والآن نسجل بعض السطور من إنشاء الحريرى. قال من مقامته الساسانية التى نصح فيها أبو زيد السروجى ابنه بالكدية والاستجداء عاملا فى ذلك بوصية ساسان شيخ هذه الصناعة. وترى فى سطوره هذه خفة روح وقصر فقرات وإن

كانت مليئة بمختلف صنوف من البديع . قال :

« يابني ! إنه قددنا ارتحالي من الفِناء . واكتحالي بمرود الفَناء . وأنت بحمد الله ولي عهدي . وكبش الكتيبة الساسانية من بعدي . ومثلك لا تقرع له العصا . ولا ينبه بطرق الحصا . ولكن قد نُدب إلى الإذكار وجعل صيقلا للأفكار . وإني أوصيك بما لم يُوص به شيث الأنباط . ولا يعقوب الأسباط . » الخ

فصــــل

فى النثر الفنى فى مصر الإسلامية إلى عصر المماليك

— ١ —

فتح العرب مصر عام ٢٠ هـ. فوفد بهذا الفتح، دين العرب وقرآنه ولغته. كما وفدت إليها جوال عربية من مختلف القبائل، بما لها من معارف وتقاليد ولهجات وبهذا تكون الثقافة العربية — إلى ذلك الحين — قد وفدت إلى مصر بجملة هامة من عناصرها ومقوماتها.

وأخذت هذه الثقافة الطارئة، تتوطن ربوع مصر، وتؤثر فى نواحى التفكير فيها. كما أخذت — بدورها — تتأثر بالبيئة الجديدة التى انتقلت إليها، وتتأثر بشتى مقومات الحياة الفكرية فيها.

وكانت بمصر، حينذاك، ثقافات يونانية ومسيحية. لها اتجاهاتها ولغاتها. كما كان بها أجناس شتى من يونان ورومان ويهود، فضلا عن الأقباط سكانها الأصليين. وللجميع عادات وتقاليد ومذاهب، ذات أثر — ولاريب — فى تلك الثقافات.[1]

واستمرت هذه الثقافة الطارئة، فى تأثيرها وتأثرها معا. حتى تحولت فى مصر مع تتابع السنين إلى ثقافة عربية مصرية ذات روح إسلامى ولسان عربى.

ولا يسمح لنا المجال الآن بالحديث المفصل عن مدى هذا التأثير والتأثر. أو على الأصح. لا يسمح لنا بوصف هذه الثقافة الجديدة وصفا يقوم على التفصيل وإيضاح الخصائص الدقيقة التى بها تتميز ثقافة عن أخرى، ويفترق لسان عن غيره.

---

١ — حياة الشرق فى مصر إلى القرن الرابع. الدكتور زيان. — آلة كاتبة ص ٣٠ بمكتبة جامعة القاهرة

ولا يسمح لنا كذلك بالتمشي مع حياة هذه الثقافة لنلحظ تطوراتها وتطورات خصائصها فى كل مرحلة من مراحلها . فهذه كلها موضوعات تحتاج إلى عشرات من الرسائل والبحوث . ولذا لا نستطيع هنا إلا عجالة وجيزة تناسب المقام ، وتكفى للربط السريع بين شتى عصور النثر الفنى فى مصر ، حتى عصر المماليك . ذلك العصر الذى سنرى أن خصائص النثر فيه ، تطور طبعى لخصائصه من قبل ، واندفاع مرتقب ، لاندفاعه السابق ، مع مراعاة ظروف حياته وملابسات بيئته .

— ٢ —

والنثر الفنى من أهم ظواهر الثقافة ، التى تتضح فيها إقليميتها . وهنا لابد لنا من القول إننا نؤمن نظريا بأن الأدب العربى — شعره ونثره — أخذ يتأثر بالبيئة المصرية ، وما فيها من مقومات اجتماعية وثقافية ونحوها ، بعد ما دخل مصر مع الفتح العربى .

ولكنا من الناحية العملية نجد صعوبة فى إثبات هذه النظرية إذا أخذنا نبحث عنها أو نطبقها منذ الفتح . ولعل الأصح أن يقال إن الإقليمية أخذت سبيلها إلى الأدب خفية وعلى مهل واتئاد ، ولم تتضح فجأة ، ذلك لأنها ظاهرة أدبية ، والظواهر الأدبية لا تبرز وتلمع ، أو تتضح خصائصها إلا بعد زمن . وكلما كانت عوامل نضجها كثيرة متعاونة ، بعيدة عن المعوقات التى تقاومها ، كان بروزها أسرع .

وهنا ينبغى أن نشير إلى أن هناك جملة من المعوقات التى صادفتها إقليمية الأدب العربى فى مصر . ومنها أن اللغة العربية وفدت إليها وهى على قسط كبير من الغنى والتهذيب ، استقرت لألفاظها معانيها ، واتضحت لتراكيبها دلالاتها ، واطردت — فى الجملة — قواعدها . واحتوت على ألوان كثيرة من طرق الأداء . هذا ، إلى أن القرآن الكريم قد وفد معها ، وعمل على حفظها ، لأنه نزل بها ، ولأن له قدسية فى نفوس العرب والمسلمين . ولم يكن أثره مقصورا على بقاء العربية ، بل امتد إلى فرضها على الأمم العربية والمسلمة ، وتلوين ثقافتها بلونه ولونها . ومن

هنا ترى أن الثقافات العربية ، وإن تباينت مواطنها ، تتشابه اتجاهاتها ـ فى جملتها ـ لأن قصاراها أن تدور فى فلك القرآن ولغته .

هذا ، إلى أن العرب لما وفدوا إلى مصر ، وفدت معهم — كما أشرنا — عاداتهم وتقاليدهم وعقليتهم . ثم كانوا ، إلى ذلك ، أصحاب الجاه والغلبة . وزاد عددهم مع تتابع السنين حتى أصبحوا كثرة بين سكان مصر . هؤلاء السكان الذين كانوا بقايا من أمم شتى . وليست لهم حضارة مركزة قوية ، ولا ثقافة موحدة عامة ، يستطاع أن يكون لها أثر عظيم فى الثقافة العربية القرآنية الطارئة ، كما كان للفرس فى بغداد ولهذا لم يكن امتزاج العرب بسكان مصر ذا أثر ضخم كأثر امتزاج العرب بالفرس

هذه أمور متعددة أجملناها . كانت ذات أثر — ولا ريب — فى تعويق ظهور الإقليمية فى الأدب العربى بمصر ، وفى ضعفها . وسنعود إلى هذا الموضوع مرة أخرى عند الحديث عن خصائص النثر الفنى فى عصر المماليك . ذلك النثر الذى نعتقد أن المصرية اتضحت فيه أكثر من اتضاحها قبل العصر المذكور .

— ٣ —

أما النثر الذى انتقل إلى مصر مع الفاتحين ، فهو نمط من النثر الذى شهدناه فى صدر الإسلام له خصائصه ومميزاته . نثر جزل ذو ديباجة قوية واضحة المرامى لا غموض فيها ، وإن خشنت تراكيبها أحياناً ، قليلة التجوز والكناية ، فصيحة معربة ، إذ كان العرب حينذاك خلصا فصحاء معربين . لا يزالون ـ وإن أسلموا ـ فى حالة من البداوة الأسلوبية أخذت سبيلها نحو التأنق وذلك بشىء من حسن الاختيار ، والسجع والازدواج .

على أننا لا نستطيع بحال ، أن نضيف نثر هذه السنين الأولى ، إلى مصر ، ونعتبره نثرا مصريا ومن المبالغة أن نضم — مثلا — خطب عمرو بن العاص

ورسائله ، إلى النتاج الأدبى لمصر فى هذه الحقبة البعيدة.[1] كما أنه من الصعب جداً أن نحدد متى ولد النثر العربى المصرى ، وإن كنا نعترف بولادته .

وهناك مسألة جديرة بالإشارة ، وهى أنه ليس لنا أن نضيف نثر أى أديب من الأدباء إلى مصر ، بسبب أنه أقام بها ، أو ولد فيها . فان الاعتبار الأول فى مثل هذا المقـام ، ينبغى أن يكون لدرجة تأثر الأديب وأدبه بالإقامة فيها ، وبمبلغ تأثير ثقافتها فيهما .

وعلى هذا تبدو أمامنا صعوبات كثيرة تعترض سبيل تحديدنا بالضبط لأدباء مصر وكتابها ، ومن ثم لأدبهم ونثرهم ، فى تلك الحقب البعيدة من حياتها العربية . وذلك لأن بعض الأدباء الذين عاشوا فيها ، كانوا عابرين بها من ديار أخرى . ومنهم من جاء إليها وهو يخطب ويكتب . أعنى بعد أن تكونت ملكته البيانية ، وعرف اتجاهه الفكرى . كما أن بعض أهلها نزحوا عنها إلى ديار غيرها وكان لهم أو لبعض ذريتهم نشاط أدبى فى تلك الديار[2] .

— ٤ —

إذا لاحظنا هذه الاعتبارات ، فلا بأس من أن نقول إن النثر الفنى قد وجد فى

---

١ — يفهم من كلام الدكتور بهى الدين زيان أنه يعتبر خطب عمرو بن العاص ورسائله وما شابهها من هذا النثر المبـكر نثرا مصريا — راجع حياة النثر فى مصر فى القرن الرابع فى مواضع عدة منها ص ١٥٣ وما بعدها

٢ — من الأسر المصرية التى هاجرت من مصر ، ذو صبيح ، وكانوا أقباطا . فهاجروا إلى الشام ثم العراق وكان منهم ذرية . وخدم بعضهم الأمويين كالقاسم بن صبيح فانه اتصل بهشام بن عبد الملك ، وخدم بعضهم العباسيين كابنه يوسف فانه كتب لعبد الله بن على عم المنصور . وابنه هو أحمد بن يوسف ، الكاتب العباسى المشهور — حياة النثر لزيان ص ٣٣٨ عن معجم الشعراء للمرزبانى ص ٢٣٣ .

مصر منذ الفتح . وأنه أخذ فى التوطن شيئاً فشيئاً . كما أخذت اللغة نفسها تتوطن وتتغلب على ماعداها من اللغات القائمة بين سكان مصر ، حينذاك ، حتى غلبتها ، وسادت ، حتى فى التخاطب وأحاديث الناس .

ولما كانت العربية لسان الفاتحين ، خطب بها الولاة ، وكتبوا رسائلهم إلى دار الخلافة فى الشئون العليا لولايتهم . واتخذوا لذلك كتاباً ، على نمط ما كان فى المدينة أو دمشق . فكان الولاة وكتابهم فى مقدمة أدباء هذه الحقبة الأولى . ومنهم : عمرو بن العاص ، وعتبة بن أبى سفيان وعبد الله بن سعد بن أبى سرح ، ومسلمة بن مخلد وعبد العزيز بن مروان ، وقرة بن شريك ، وحنظلة بن صفوان ، وكانوا جميعاً من ولاة مصر[1] .

وقد استخرج الدكتور بهى الدين زيان نصا من كتاب الولاة والقضاة للكندى[2] أثبت به أن ديوان الرسائل أنشىء بمصر قبل عصر ابن طولون . وكان ممن وليه « خير بن نعيم » وكانت ولايته بعد سنة ١٢٧ هـ[3] .

ونحن ، وإن كنا لانعرف متى أنشىء هذا الديوان بالضبط ، ولا شيئا عن ترتيبه ولا إلى أى وقت أقام ، نشعر أن وجوده كان فى مقدمة الأسباب التى أدت إلى نشاط الكتابة الديوانية ، ونعنى كتابة الرسائل .

وإلى جوار كتاب الولاة ، كان للقضاة كتاب ، ولعمال الخراج كتاب ، ولاريب أن أهمهم جميعاً كتاب الولاة ، فيما يختص بموضوعنا .

وقد كانت الكتابة فى الدواوين المصرية باللغة القبطية — وقيل باليونانية — ثم

---

١ — حياة النثر ص ٥٩ ، ٦٢ ، ١٧٨

٢ — حياة النثر ص ١٤٤ ، ص١٦٩ عن الولاة والقضاة للكندى ص ٣٥٦

٣ — حياة النثر ص ١٤٤ ، ١٤٥

غيرت منذ عهد عبد الملك بن مروان إلى العربية ، ولا ريب أن ذلك كان كسباً للغة العربية ، قيض لها أن يمتد سلطانها وسلطان نثرها [١] .

هذا ، و إليك سطورا من خطبة عمرو بن العاص فى وصف مصر ، من رسالة بعث بها إلى عمر بن الخطاب ، قال فى مطلعها :

« بسم الله الرحمن الرحيم . لعبد الله عمر أمير المؤمنين من عمرو بن العاص . سلام عليك فإنى أحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو . أما بعد فقد بلغنى كتابك وقرأته وفهمته » ثم يقول منها :

« إن مصر وما احتجت أن تعلم من صفتها، برية سوداء وشجرة خضراء بين جبل أعفر قد اكتنفها . ومعدن مرتمها ومحيط رزقها ما بين أسوان إلى حمأ من البحر فى جنب البحر . يسيره الراكب شهرا . كأن جبلها ورملها بطن أقب ، أو ظهر أجب . مخط نهر مبارك الغدوات، ميمون البركات يسيل بالذهب. وجرى بالزيادة والنقصان كمجارى الشمس والقمر ، له أيام » . الخ [٢]

ومن خطب عتبة بن أبى سفيان — وكان يعد من خطباء بنى أمية ، وولى مصر عام ٤٣ هـ — قوله فى أهلها :

« يا أهل مصر قد طالت معاتبتنا لكم بأطراف الرماح ، وظبات السيوف ، حتى صرنا شجى فى لهواتكم ما تسيغنا حلوقكم . وأقذاء فى أعينكم ما تطرف عليها جفونكم » . . الخ . [٣] .

---

١ — نفس المصدر ص ١٥٣

٢ — حياة النثر ص ١٥٩ عن فضائل مصر للكندى ص ٣٢ ، ٣٣

٣ — نفس المصدر ص ١٧٦ عن النجوم الزاهرة ج ١ ص ١٢٣

ولا ريب فى أن هذا النشاط الأدبى - تبعا لانسياح العرب فى البلاد ، وامتزاجهم بأهلها وانتشار لغتهم فيها ثم انتشار دينهم — أخذ يؤيد فى عصر الولاة بنشاط الحركات الفكرية رويدا رويدا ، وبالإقبال على التعلم والاستماع إلى أمور الدين من شيوخه ووعاظه فى جامع عمرو وغيره . وصاحبه رواية الأخبار وذكر الوقائع وتناقل النوادر الأدبية ، والقيام بشىء من المناظرات الدينية .(١)

ولكننا إذا استثنينا أحاديث الفقهاء ، كالليث بن سعد والشافعى والبويطى ، واستثنينا قصص المؤرخين وتسجيلاتهم كابن عبد الحكم . لانكاد نظفر بنصوص من النثر الفنى تؤيد هذا النشاط كما أننا لاندرى هل استمر ديوان الرسائل — الذى قيل إنه أنشئ قبل ذلك — قائما أم استعيض عنه بشىء ؟

ولهذا كله لانستطيع أن نقطع برأى فى كنه الأساليب الأدبية حينذاك وفى خصائصها ، وفى مبلغ تأثر كتاب مصر بأساليب ابن المقفع ثم الجاحظ وأضرابهما ، ممن رأينا فى صدر عصر بنى العباس .

وأغلب الظن أنها صارت فى طريق الصناعة على نحو مما سارت الأساليب فى بغداد . فازدادت تأنقا وحسن اختيار للفظ ، وعناية بالسجع والازدواج ، وميلا إلى الإطالة ، واصطناعا للمطابقة والمقابلة والمجانسة ، واعتمادا على التجوز والتشبيه .

على أننا — وقد أشرنا إلى أن العرب لم يستفيدوا ثقافيا من وراء امتزاجهم بمن وجدوه فى مصر ، فائدة ضخمة ، كما استفاد العرب من وراء امتزاجهم بالفرس فى العراق — لانستطيع أن نزعم أن الحضارة والثقافة اللتين شهدتهما مصر خلال عصر الولاة ، كانتا من السعة والعمق والتعقيد ، بالدرجة التى كانت عليها حضارة العراق وثقافته فى صدر عصر بنى العباس . ولعل هذا هو السبب فى عدم ينع النثر الفنى فى مصر ،

---

١ — نفس المصدر ص ٦٥ ، ٧٠

واتساع أفقه ، وسيره قدما فى سبيل الحضارة الأسلوبية ، كما سار النثر الفنى فى العراق الذى كان مهد العز والسلطان والرياسة ، فى حين كانت مصر ولاية تابعة .

ونعتقد أن الكثرة العربية بمصر ، بالنسبة لعدد سكانها جميعا ، لها دخل أيضا فى هذا الموضوع . وسترى فى المستقبل عندما نتحدث عن نثر عصر المماليك أنه كان أخف روحا وأهدأ صناعة، وأقرب إلى الطبع من نثر متأخرى العباسيين . وذلك للأسباب التى أشرنا إليها ، ومنها غلبة العناصر العربية ، على الرغم من انتقال الحكم إلى يد غير العرب : بخلاف العراق الذى عانى غلبة الفرس والترك .

ولعل هذه السطور التى نثبتها لك من كلام ذى النون المصرى — وهو أحد الصوفية والوعاظ بمصر والمتوفى عام ٢٤٨ هـ — تفصح عن أساليب النثر فى أواخر عصر الولاة .

قال ذو النون يصف الصوفية للخليفة المتوكل — وقد وفد عليه — ويشرح له حالهم :

« يا أمير المؤمنين ! هم قوم ألبسهم الله النور الساطع من محبته . وجللهم بالبهاء من أردية كرامته . ووضع على مفارقهم تيجان مسرته . ونشر لهم المحبة فى قلوب خليقته . ثم أخرجهم ، وقد أودع القلوب ، ذخائر الغيوب ، فهى معلقة بمواصلة المحبوب. وقلوبهم إليه سائرة وأعينهم إلى عظيم جلاله ناظرة . ثم أجلسهم بعد أن أحسن إليهم ، على كراسى طلب المعرفة بالدواء . وعرفهم منابت الأدواء . » . الخ [1]

— ٥ —

وأهل العصر الطولونى ، فكان لاستقلال مصر فيه ، أثر فى بدء ظهور شخصيتها . كما قيض النثر فيه عوامل جديدة لنشاطه . وذلك بعناية ابن طولون بتدريج رسائله

١ — حياة النثر لزيان ص ٢٢٣ — عن تاريخ بغداد ج ٨ ص ٣٩٥

وحسن صوغها . ولهذا اختار لنفسه طائفة من الكتاب ، وأسس ديوان الإنشاء — أو أنه أعاد تأسيسه — وأمر بتصفح المكاتبات قبل إرسالها وأنشأ لذلك ديوانا.[1]

ويلاحظ أن الكتاب الذين ظهروا فى العصر الطولونى القصير ، كان منهم وافدون من العراق كأبى عبدالله الواسطى ويعقوب بن اسحق ، وأحمد بن أيمن ، وإسحق بن نصير . وكذلك كان ابن عبد كان — وهو أبرزهم — ويرجح أنه فارسى الأصل ، كما يرجح أن ابن طولون استقدمه معه من العراق إلى مصر . . وهو الذى رأس له ديوان الإنشاء . ولبث فيه حتى توفى بعد وفاة ابن طولون — على ماقيل — فرأس الديوان من بعده إسحق بن نصير الذى كتب لخمارويه بعد وفاة ابن عبد كان .

وكان منهم مصريون مثل بنى المهاجر ، وهم من عقب عبد الحميد الكاتب ، استوطنوا مصر منذ عهد بعيد ، وهم الحسن بن محمد بن أبى المهاجر وإخوته : على وأبو القاسم وأبو عيسى .[2]

ولعل ابن عبد كان — وهو أحمد بن محمد بن مودود — كان أمثل كتاب مصر فى هذه الحقبة . وقد كان له ديوان رسائل ويبدو فى أساليب رسائله مزيد من السجع مع قصر فقراته أحيانا وخفتها . وشىء من الازدواج ، والاقتباس المناسب ، والاعتماد على الترادف ، وعلى التجوز والتشبيه توسلا إلى التصوير . على أنه لايكاد يفترق مع من عرفنا من معاصريه من كتاب العراق .

ومن رسائله ما كتبه على لسان ابن طولون إلى ولده العباس، وكان قد شق عصا طاعته ، قال :

« من أحمد بن طولون مولى أمير المؤمنين ، إلى الظالم لنفسه، العاصى لربه ، الملم

---

١ — نفس المصدر ص ٢٦٧ عن سيرة ابن طولون للبلوى ص ١١٢

٢ — نفس المصدر ص ٢٥١ وما بعدها — والفن ومذاهبه فى النثر العربي للدكتور شوقى ضيف ص ١٨٠

بذنبه . المفسد لكسبه . العادى لطوره . الجاهل لقدره . الناكص على عقبه . المركوس فى فتنته . المنجوس من حظ دنياه وآخرته .

سلام على كل منيب . تائب من قريب . قبل الأخذ بالكظم . وحلول الفوت والندم . أما بعد ، فإن مثلك مثل البقرة تثير المدية بقرنيها . والنحلة يكون حتفها فى جناحيها . وستعلم — هبلتك الهوابل ، أيها الأحمق الجاهل ، الذى ثنى على ألفى عطفه ، واغتر بضجاج المواكب خلفه — أى موردة هلكة باذن الله توردت . إذ على الله عز وجل تمردت وشردت . فإنه تبارك وتعالى قد ضرب لك فى كتابه مثلا : « قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان فكفرت بأنعم الله ، فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون » الخ [1]

— ٣ —

وكان العصر الإخشيدى ، مع فترة الانتقال التى سبقته ، امتداداً ضعيفاً للعصر الطولونى ، خفت فيه صوت ديوان الإنشاء ، وإن ظهر فيه بعض الكتاب أو العلماء والأدباء كابن الداية وابن الدلاء وابن طباطبا .

وما إن فتح الفاطميون هذه البلاد عام ٣٥٨ ﻫ حتى دبت فيها حياة جديدة ، وكانت هذه المدة التى امتد فيها الحكم الفاطمى ، أى إلى سنة ٥٦٧ ﻫ ، فترة خصبة فى تاريخ النشاط الفكرى والأدبى فى مصر [2]

ويهمنا أن نشير إلى أهم دعائم هذا النشاط الذى ندر أن سعدت البلاد المصرية فيما قبل بشىء يساويه . ومنها مذهب الفاطميين الدينى ، وأعنى التشيع وما اتصل به

---

١ — صبح الأعشى ج ٣ ص ١٧

٢ — راجع صفحات من الأدب المصرى للاستاذ عبد الحميد حسن ص ١ وما بعدها

من آراء فى الدين والإيمان والإمامة وتأويل القرآن ، ثم ما اتخذ وسيلة إلى نشره من ألوان الدعاية وما استلزمته من أساليب ومصطلحات . وعلى الرغم من أن البلاد لم تقبل على التشيع إقبالا يذكر يتكافأ مع مجهودات الفاطميين فى نشر دعوتهم بمصر وتشييعها ، فإنه مما لاريب فيه أن هذه الدعوة أورثت البلاد حركة فكرية جدلية فيها يقظة ولها قيمة ، وصحبها النقد .

على أن فى مقدمة دعائم النشاط ، التمكين لاستقلال البلاد المصرية استقلالا كاملا واتخاذها موطنا لملوك الدولة ، إذ انتقلوا إليها من المغرب ، وأسسوا القاهرة وجعلوها عاصمة لهم . بذلك أصبحت مصر دولة واسعة الأطراف ، أخذ نفوذها ينتشر فيما حولها من البلاد ، حتى خطب باسم أحد خلفائها على منابر بغداد زمنا . وعنى ملوكها بالعلم ووسائله ، فأنشئوا الجامع الأزهر وغيره ، واتخذوه موطنا لدعايتهم ، وأسسوا دار الحكمة وكانت ملأى بنفائس الكتب . وعنوا هم ورجالهم — كابن كلس — بمجالس العلم والمناظرة مع تبجيل شيوخ العلم ودعوتهم إلى التعليم . ومن ثم أقبل طلاب العلم عليهم يتعلمون و يتأدبون .

وقد أسسوا الدواوين لإدارة شئون البلاد . غير أن أهم مايعنينا منها ديوان الإنشاء الذى وسعوا أفقه وصرفوا إليه عناية ، وأعلوا مكانة كتابه ، فأقبل الكتاب عليهم رغبة فى الجاه والغنى والسلطان ، فوفر عددهم وتتابعوا على الديوان زمرا بعد زمر . وزاد نشاطهم وتتاجهم ولمعت أسماؤهم ، إذ كانوا من رجال الدولة الذين تعتمد عليهم ، ولا سيما صاحب الديوان منهم ، وكان يسمى « كاتب الدست الشريف » .

وقد عاونت على ذلك كله حضارة واسعة ومدنية حافلة أغرت بها حالة من الرخاء عمت البلاد . فظهر الفاطميون بمظهر البذخ والترف ، واصطنعوا ألوان النعيم فى شتى نواحى حياتهم . واتضح ذلك فى قصورهم المونقة ، و بساتينهم المورقة ، وأثاثهم الوثير وموائدهم الشهية الفاخرة ، وحفلاتهم الحاشدة ومواكبهم المجلوة وعطاياهم الجزيلة . حتى

شغلوا الناس بذلك كله . و بما سنوه من موالد ومواسم وأعياد . وفى مثل هذه المجالات تنتعش النفوس ويجود الأدب و يعلو صوت العلم . وقد عجت الدولة بالشعراء وكان الخلفاء يقربونهم ، كما امتلأت بالعلماء ومنهم ابن زولاق والقضاعى .

ومن رؤساء ديوانهم وكتابه : ابن خيران ، والعميدى ، وأبو طاهر النهركى ، وابن الشخباء ، وهو الحسن بن عبد الصمد بن الشخباء الذى توفى عام (٤٨٢ هـ) ، وأبو الحسن على بن أسامة الحلبى ، وابن الصيرفى ، وعلى بن خلف ، ومحمود بن الموفق ابن قادوس ، وابن أبى الدم اليهودى ، وموفق الدين يوسف بن الخلال . وأخيرا القاضى الفاضل وهو من مخضرمى الدولتين الفاطمية والأيوبية ، وقد تخرج بابن الخلال.(١)

— ٧ —

وجد النثر إذاً فى الحضارة الفاطمية الواسعة المترفة ذات الألوان الزاهية ، مؤثراً جديداً دفعه إلى جو من الزخرف والزينة ، وألوان من الاقتباسات واسعة المدى، تدل على علم كتابه وحضارة زمانه ، من توجيه وتلميح وحل منظوم وتضمين منثور واستشهاد بآى القرآن الكريم . وقد أخذ السجع يطول فضلا عن المطابقة والمجانسة الخفيفة ، ورعاية النظير ، إلى غير ذلك مما يدل على سعة أدب الكتاب وخفة ذوقهم ، وحسن تأنيهم فى سبك المتفرقات حتى يتلاءم منها أسلوب لامع يؤدى ما يحتاج إليه الموضوع ومعانيه ، من جمال فى التصوير ، يعتمد إلى حد بعيد على التجوزات اللطيفة والترشيحات الذوقية المناسبة ، مع مزيد من الأدعية .

ونحن ، و إن رأينا فى ذلك الاتجاه مشابه بما بدا على الأساليب العباسية بعد الجاحظ ، لا نراه تقليداً من المصريين للبغداديين ، دون أن يكون اتجاها ولدته البيئة

١ — الفن ومذاهبه فى النثر العربى ص ١٨٧ — وحسن المحاضرة ج ٢ ص ١٤٦

وطبيعة ظروفها التى أشرنا إليها . فلم يكن كتاب مصر حينذاك إلا مستجيبين لها حينما برزت أمام عيونهم حرة جميلة قوية باستقلالها مزدانة بحضارتها شامخة بثقافتها . واطردت هذه الاستجابة فى الأساليب المصرية حتى زهت خصائصها واستقرت فى أساليب كتاب عصر المماليك.[1]

لهذا نعتبر العصر الفاطمى البدء الحقيقى لظهور الروح المصرى فى التفكير، والذوق المصرى فى التعبير . هذا الروح وهذا الذوق اللذان اتضحا فى عصر المماليك .

والآن نسجل سطورا من نثر العصر الفاطمى فنه :

ما كتبه ابن الصيرفى — وهو أبو القاسم على بن سليمان ، وقد كان يكتب للحافظ الفاطمى وتوفى فى عهده — يبشر بركوب الخليفة إلى صلاة عيد الفطر :

« كتاب أمير المؤمنين هذا إليك يوم عيد الفطر ، بعد أن وفى الصيام حقه . وحاز أجر من جعل الله على خزائنه رزقه . و بعد أن أفطر بحضرته الأولياء من آله وأسرته والمقدمون من رؤساء دولته ، المتميزون من أوليائه وشيعته . وكان من نبأ هذا اليوم أن أمير المؤمنين لما ارتقب بروزه من قصوره . وتجلى فأشرقت الأرض بنوره . توجه إلى المصلى قاضياً لسنة العيد . فكانت نعمة ظهوره بالنظر الحاضر و بالخير البعيد » الخ[2]

ومن رسالة لابن الشخباء كتبها فى سنة ٤٦٢ هـ فى التهنئة بانتصار على خارج ، قال يصف الأعداء :

« قد ارتفع الخلاف بين الكافة أن الله ذخر للدولة الفاطمية — ثبت الله أركانها —

---

١ — يرى الدكتور شوقى ضيف أن المصريين لم يستحدثوا منهجا جديداً فى الكتابة . ويفهم من ذلك أنه يرميهم بالتقليد وهو ما نخالفه فيه — راجع كتابه الفن ومذاهبه فى النثر العربى ص ١٧٥ وما بعدها .

٢ — عن المنتخب .

من الحضرة العلية المنصورة الجيوشية — خلد الله سلطانها — من حمى سوادها ، ونصر أعلامها وضم نشرها . وحفظ سريرها ومنبرها . بعد أن كان الأعداء — الذين ارتضعوا در إنعامها . وتوشحوا بشرف أيامها . فطردت يد الاصطناع إملاقهم . وأثقلت قلائد الإحسان أعناقهم — خفروا ذمم الولاء وكفروا سوابغ الآلاء . ففجأتهم الحوادث من كل طريق . ونعب بهم غراب الشتات والتفريق » ألخ.[1]

وقبل أن نترك العصر الفاطمى نشير إلى أمور :

الأول : ندرة النصوص الكتابية المأثورة عن العصر المذكور ولاسيما رسائل كتابه ويبدو أن انصياع الكتاب للخلفاء الفاطميين ، وسيرهم فى ركاب دولتهم ، نفّر الناس من حفظ آثارهم . أو لعل هذه الآثار قد عبث بها الأيوبيون فى جملة ماعبثوا به من كتب الفاطميين .

الثانى : أن الأساليب المصرية والشامية كانت تجرى فى رَسَنٍ واحد على وجه التقريب حينذاك ، باستثناء منهج أبى العلاء والتزاماته . ولعل التقارب بين هذه الأساليب — وهو التقارب الذى استمر زمنا طويلا ، والذى نعتقد أنه ازداد فى عصر المماليك — راجع إلى اندماج الشام ومصر تحت حكم واحد على وجه التقريب منذ العصر الفاطمى ، وراجع إلى الكثرة العربية بين سكان هذين البلدين ، وإلى قيام الدول فيهما على أساس من النزعة الإسلامية ، و إلى حاجة ملوكهما — حتى الأكراد والأتراك والجراكسة — إلى اصطناع الكتابة العربية فى مراسلاتهم ، وحسن اختيار كتابهم .

الثالث : أن أسلوب القاضى الفاضل الذى سنشير إليه بعد ، ليس نهجاً تقليدياً

---

١ — الفن ومذاهبه فى النثر العربى ص ١٨٩ عن معجم الأدباء ج ٩ ص ١٦٤

لكتاب العباسيين — على طول الخط — وإنما هو امتداد لمناهجهم مع تأثره بوحى البيئة بشتى عواملها . وتعتبر أساليب الكتاب من قبله فى العصر الفاطمى تمهيداً حسناً لاكتمال أسلوبه وصبه فى قالبه الأخير .

— ٨ —

والعصر الأيوبى — وإن انتزع مؤسسه الملك عنوة من الفاطميين الضعفاء — امتداد فى جملته لعصرهم، كما أن عصر المماليك امتداد فى جملته للعصر الأيوبى الذى ظل من سنة ٥٦٧ هـ إلى سنة ٦٤٨ هـ أى أقل من مائة عام .

فتلك النظم التى سنها الفاطميون فى ترتيب دواوينهم وتنظيم دولتهم ، استمرت على نمط ما كانت عليه . على أن أهم من هذا كله ، الاندفاع الحضارى والفكرى الذى رأيناه فى عهد الفاطميين فإن كرته سدرت فى مسيرها ، واستمرت فى جريها . فقد اندفع الأيوبيون ينشئون المدارس ويوقفون عليها الأوقاف ، ويقررون فيها الدروس. وتلك المواسم والأعياد والحفلات استمرت البلاد ، تراها وتقيمها وتسمر فيها . وتلك المنشآت من قصور وبساتين ومساجد وما إليها ، شهدت البلاد منها كل جديد ورائع .

وحقا تغير اللون الرسمى للنزعة الفكرية فيما يختص بالعقيدة ، فحلت المذاهب الأربعة ولاسيما مذهب الشافعية ، وعقيدة الأشاعرة ، محل المذهب الشيعى وعقائده . ولكن ليس معنى ذلك تغير اللون الشيعى لهذه النزعة ، ذلك لأنها لم تكن من قبل قد ثبت فيها اللون الشيعى . فقد عاش الإمام الشافعى فى مصر ونشر مذهبه وأخذه عنه تلاميذه ، فانتشر بها وزاحم غيره من مذاهب الأئمة ، واتسع نفوذه حتى اعتبر رجال الشافعية أن مصر بلادهم ودائرة نفوذهم . ثم جاء الأيوبيون وكانوا شافعيى المذهب أشعريى العقيدة ، فعملوا على نشر ذلك فى البلاد فاستجابت لهم لميل فيها قديم ، وعاون

على ذلك انتعاش الروح الدينى والحماسة الدينية بسبب هبوب الحروب الصليبية .

والذى يعنينا اطراد حركة الفكر والبحث ، واطراد تلك الحضارة . وقد وجدنا فى عصر المماليك من بعدُ ميدانا حافلا وعيشا رغيداً ، و إن كانت تسير فى نطاق من العقائد الإسلامية ، ولم تمس البحث الحر إلا مسا رفيقا .

واستمر ديوان الإنشاء قائما فيما استمر من دواوين . وأشرف عليه الكاتب القدير الفاضل عبدالرحيم البيسانى العسقلانى . الذى ظهر فى أواخر العصر الفاطمى وتخرج بابن الخلال ، وعاون صلاح الدين فى تدبير دولته فكان وزيره ومشيره وكاتبه ، وهو شامى المنبت مصرى الإقامة والعمل . اكتملت له أداة الكتابة والتدبير من علم وأدب وسعة واطلاع ورجاحة عقل وثقوب بصر ودهاء وحسن فهم . فصدرت عنه الرسائل والمكاتبات طلية الديباجة رائعة التراكيب غنية المعانى رائعة التصوير . اختط فيها لنفسه بذوقه جملة من القواعد ، هى جماع ما انتهت اليه أذواق أسلافه من كتاب العصر الفاطمى ، وجماع ما أوحت به إليه البيئة المتحضرة التى يعيش فيها . وصارت طريقته هذه جديرة بأن تسمى «المنهج المصرى» فى تلك العصور . وهو المنهج الذى كان له سيادة كبيرة فى الأساليب الأيوبية والمملوكية .

وتوالى من بعده كتاب ديوان الإنشاء ومنهم : أمين الدين سليمان المعروف بكاتب الدرج ، وأمين الدين عبد المحسن بن حمود الحلبى ، و بهاء الدين زهير الشاعر المصرى والصاحب فخر الدين إبراهيم بن لقمان الإسعردى ، وقد شهد هذا الأخير عصر المماليك.[1]

ومن الكتاب الذين خدموا الأيوبيين أيضا عماد الدين الأصفهانى صاحب الخريدة والفيح القسى ، وضياء الدين بن الأثير صاحب المثل السائر .

(١ — حسن المحاضرة ج ٢ ص ١٤٧ — وصبح الأعشى ج ١ ص ٩٦

وأساليب هؤلاء الكتاب — وقد عاشوا فى أواخر القرن السادس أو أوائل السابع — تفترق فى جملة ما التزمته عن أساليب متأخرى العباسيين ، بخفة الروح وقرب المعانى وقلة التكلف ، حتى إن من اتسم منهم بالتكلف والالتزامات كعماد الدين الأصفهانى، الذى التزم السجع فى كتب تاريخه فضلا عن الجناس وغيره — وكابن الأثير الذى تعصب للسجع فى كتابه « المثل السائر » واعتبر ما جاء فى القرآن من توافق بين القرائن ، سجعا ، ووضع لفقرات السجع نظاما حدده بعدد ألفاظها — هذان وغيرهما ترى أساليبهم أيسر وأسهل وأخف من نثر متأخرى العباسيين ، مما يدل على أن اختلاف البيئة ومقوماتها هنا وهناك ، كان له أثره الكبير فى تلك الفروق . وننبه هنا إلى ماسبقت إليه الإشارة وهو غلبة العناصر العربية فى مصر والشام التى كان لها دخل فى وجود تلك الفروق . هذا إلى أن الثقافة والحضارة فى مصر والشام لم تكونا فى درجة من التعقيد والعمق كما كانت ثقافة العراق وحضارته . وهذه بعض أسباب الفروق المذكورة.

ومن نثر القاضى الفاضل ، ما كتبه من رسالة طويلة ، جوابا على لسان سلطانه صلاح الدين الأيوبى ، إلى خليفة بغداد الناصر الذى أرسل إليه مكاتبته يلوم فيها على أشياء — والمكاتبة من إنشاء قوام الدين أبى طالب بن يحيى بن زيادة كاتب الخليفة المذكور .

قال الفاضل فى مطلع الرسالة :

« يأيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوما بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين ، »

أدام الله أيام المجلس السامى القوامى ، إدامة تؤذن بتشييد معاليه . وتشمل بيمنها وبركتها حاضر وقته وتاليه . وتزيد من يواليه . وتخلد معها ناضر وقته وحاليه . ويتكافأ بها ترادف النصر وتواليه . وتزينه بمحاسن الصفات وتحليه . »

ومنها يعاتبه فى هوادة .

« فى سالف الوقت قيل فيمن سارع للائم إليه وأعجله . رب ملوم لا ذنب له .
وإن كان — أعلى الله كلمته — أعنق فى الصبحة وأوضع . فقد أنهر الجروح وأوسع .
وربما بالغ الطبيب فى إغراق المبضع فأوجع . واشتد الألم . وإن لم يُلم . »[1] .

وتتراءى فى سطور القاضى الفاضل دعائم عدة من دعائم طريقته الكتابية منها : التزام السجع ، وربما لزم فيه مالا يلزم . والاقتباس الدقيق من القرآن الكريم . والجناس الخفيف المقبول . ومراعاة النظير والترادف ، والطباق ، والاعتماد على المجاز ، واصطناع الأمثلة وتضمينها . هذا مع جنوحه غالبا إلى الفقرات الطويلة ، والإكثار من الأدعية والألقاب ، مع استعمال نحو « المجلس » وإضافة الياء إلى اللقب مبالغة .

على أن طريقة الفاضل لها دعائم أكثر من هذه ، منها : التورية والاستخدام والتوجيه والتلميح . وسنعود إلى الحديث عن طريقة الفاضل فى مناسبات أخرى خلال هذا البحث . والذى نريد أن نسجله هنا أن هذه الطريقة كان لها أثر كبير فى كتاب عصر المماليك ، وكانت مثارا لإعجابهم ومحلا لثنائهم ، ترى هذا واضحاً فى أحاديثهم عندما يعرضون لذكر الفاضل . وكثيرا ما يتخذونه طرفا يشبهون به . ومن هذا وذاك ترى مبلغ تأثر النثر الفنى فى العصر المذكور بمنهج القاضى الفاضل . ذلك النثر الذى نعرفك به فى الأبواب التالية .

---

١ — النص فى التذكرة الصفدية ج ١٣ ورقة رقم ٥٨ ، مخطوطة بدار الكتب المصرية

النثر الفنى فى عصر المماليك

تعريف

هذا النثر هو موضوع البحث فى هذه الرسالة، ومحور الحديث. وقد مهدنا له بالحديث عن النثر الفنى قبله سواء فى مصر أم غيرها. وسترى مما نعرضه عليك خلال الأبواب التالية أن النثر الفنى فى عصر المماليك، لم يعى بعبئه ولا ناء بحمله، ولا خبط خبط عشواء. ولا سار سير عاجز ولاعاش عيش مقلد. وإنما كان نثرا حيا قويا امتد إلى كل ناحية من نواحى الحياة فترجمها وعبر عنها، بالمقدار الذى هيأته له ظروف بيئته وملابسات حياته، بل وفوق هذا المقدار. مع أن الله لا يكلف نفسا إلا وسعها، وبذلك يكون قد أدى رسالته خير الأداء.

لقد كانت هناك حياة رسمية، وحياة شعبية، الحياة الرسمية حياة السلاطين والأمراء والجند، فى حركاتهم وأوامرهم ونواهيهم وغدوهم ورواحهم وحروبهم ومنشآتهم إلى غير ذلك، وهى الشق البارز الصاخب المدوى من نواحى حياة هـذا الشعب. وكانت الحكومات فى تلك الأيام، أو بمعنى أدق، كان شخص السلطان وأمره ونهيه وما يتصل بحياته، كل شيء فى الدولة. وتدور حياة الأمة حول محوره، وتتجه باتجاهه وتميل بميله وتعتدل باعتداله. فهو قانونها وميزانها، والمسيطر على مقدراتها، والمصرف لثرواتها والموجه لعاداتها وتقاليدها بما يسن ويشرع ويستحدث من ضروب النظم والعادات والتقاليد. ومن المبالغة والغلو أن ندعى للشعب حينذاك شخصية بارزة بجواره، تؤثر فى مجرى الأحوال واتجاه الحوادث. ومن هنا سار الأدب فى مواكب السلاطين والأمراء.

وهم — وإن عاشوا طبقة حاكمة مستبدة متعالية — كانوا مسلمين وغيورين على الإسلام فى جملتهم . والإسلام دين الشعب وأعنى أغلبيته الساحقة إذ ذاك . وقد بذلوا فى سبيله وفى سبيل حماية المسلمين مابذلوا بمجاهدة الصليبيين والتتار . وجنبوا مصر بذلك ويلات كثيرة .

هذا فضلا عن أنهم جهدوا فى فتح المدارس والمساجد لنشر دين الله ، حتى كانت مذاهبه الأربعة أهم الدروس المقررة فى دور التعليم . ولهذا لا تكاد ترى فى عصرهم كاتبا ولا مهندسا ولا طبيبا ولا فلكيا ولا غير ذلك من ألوان العلماء ، إلا مبرزا أو مشاركا فى مذهب منها .

هذه كلها صنائع من صنائع المعروف ، من شأنها أن تلهى الشعب وتعزيه عما يعانيه من ضغط وظلم وإرهاق وحرمان ، ولاسيما حرمانه من الجندية ، حتى ضعفت فيه الروح العسكرية والحمية الجندية التى هى من أهم مبرزات الشخصية . والأدب — كما عرفنا — رجع الحياة وصدى واقعها . وإن كانت له ثم رسالة أخرى وهى التوجيه . وأنى له ذلك فى تلك العصور . . .

وعلى الرغم من هذا ، أينع الأدب وعلم النثر وترجم عن هذه الحياة بكافة أوضاعها القوية منها والضعيفة ، البارزة منها والخفية ، الحسية منها والنفسية ، الرعية منها والشعبية وأثبت أنه كان ضرورة من ضرورات العصر ، اجتمعت فى سطوره وسجلاته صور وموخوافيه .

سترى أنه فى موضوعاته ومعانيه وأساليبه وتراكيبه ومفرداته — فضلا عن أنه امتداد طبيعى لحياة النثر المصرى من قبله — استجابة دقيقة للبيئة المصرية على اختلاف ألوانها . تلك البيئة التى ستكون محل دراسة خلال الأبواب والفصول القادمة ، مع محاولة الربط بينها وبين هذا النتاج الأدبى ، لنرى — على قدر الاستطاعة — مبلغ تأثير هذه البيئة فيه ، وصدق ما نقدم لك هنا . وسترى أن عصر المماليك هو العصر الذى بلغت فيه « المصرية » أوجها ، أكثر من أى عصر تقدم .

الباب الأول

باب الرسائل

تمهيد

الرسائل أسبق ألوان الأدب الكتابية إلى الظهور . فقد بدأ بروزها فى عالم الوجود والأدب ، على عهد الرسول صلوات الله عليه ، بفضل ما أذاعه من الكتابة الخطية ، واتخاذه كتاباً للوحى يدونون القرآن الكريم ، ويكتبون بما يمليه الرسول عليهم من مكاتبات ضرورية تتطلبها منطق الدعوة وسياق الجهاد . فسن بذلك لقومه من بعده ، سنة حسنة اتبعوها .[1]

وقد اقتدى خلفاؤه الراشدون به فى ذلك . فاتخذوا الكتاب ، وأملوا عليهم مايريدون من رسائل . وأخذت حياة الرسائل تزداد بروزا وثباتا ، ونماء ونضارة ، باتساع رقعة المملكة الإسلامية ، وشيوع عوامل القوة فيها ، وازدهارها ، وبنشر دعائم النظام فى ربوعها ، واستقرارها . وإنشاء الدواوين التى تحتاج إليها دولة قوية مترامية الأطراف واسعة المنافع طامحة الآمال ، موصولة الأعمال ، بفضل ماوحد الإسلام به بين بنيها ، وما بثه فيها من حياة وقوة ونشاط .

وما انقضت الدولة الأموية ، إلا وكتابة الرسائل قد اخضر عودها ، واستقامت سوقها ، وأصبحت صناعة عتيدة مجيدة ، ويتخصص فيها المنشئون ، ولها ديوان خاص على رياسته كبارهم ممن حذقوا الإنشاء والترسل . يكتبون لدولتهم فى شتى شئونها العليا فترتسم فيها سياستها ، ويبدو مبلغ قوتها وحيلتها ، ومدى آمالها ومراميها . ويصور

---

١ — فى حسن المحاضرة ج ٢ ص ١٤٥ فصل عن كتاب السر ، فى صدره ذكر لكتاب الوحى وغيرهم .

فيها الجم من نواحى حياتها ونشاطها ومرافقها المختلفة . وتعمل على تثبيت أركانها ودعوة الناس إلى المعاونة على دعمها ، ومناوأة خصومها فى داخل البلاد وخارجها ، إلى غير ذلك من الوظائف الرئيسية العليا التى أصبحت روح الدولة وقوامها ، وأساس حياتها ونظامها .

بذلك كله نشعر بما كان لصناعة الإنشاء حينذاك من قوة وسلطان ، وما كان لصاحب ديوان الرسائل من جاه عظيم فى الدولة ، ولدى خلفائها . فقد تركزت فيه بذلك ، ضروب من المسئوليات . اضطلع بها وقام بشئونها من تقويم السياسة الداخلية وتنظيم العلاقات الخارجية . والعرب أهل أدب وبلاغة ، تفعل بهم الكلمة البليغة فعل السحر . ومن قبل هذا ، انقادوا لحر البيان ، واستسلموا لبلاغة القرآن . ذلك لأنه صادف فيهم نفوساً صافية أبية ، وأرواحا كريمة رضية ، فاستجابت لدعائه ولبت عند ندائه .

وهذه النزعة فيهم ، كانت من أهم الدواعى التى أوحت ببروز الكتابة الإنشائية ووهبت لها فى الدول العربية حياة كريمة فياضة بالنشاط . وأخص ضروب الكتابة التى تحتاج إليها الدول : كتابة الرسائل الديوانية . وقد عنوا باختيار رجالها من أهل الفقه والأدب اللباب ، والعقل الراجح الوثاب . ومن أولى الظرف والكياسة والدهاء والحيلة والسياسة . لأنهم ـ فى الحق ، وبحكم صناعتهم ـ حكام دولة ، وسيوف صولة ورءوس رعية ، وعقول أمة . فضلا عن مصاحبتهم للخلفاء . ومقارعتهم الملوك ، وتصاولهم للولاة والعمال . لهذا كانوا ـ كما كانوا وزراء عصرهم ـ أمراء الكتابة وقدوة الكتاب ، فى زمانهم .

قال القلقشندى : « الكتابة من أشرف الصنائع وأرفعها . وأربح البضائع وأنفعها وأفضل المآثر وأعلاها ، وآثر الفضائل وأغلاها . لاسيما كتابة الإنشاء التى هى منها بمنزلة سلطانها ، وإنسان عينها بل عين إنسانها . لا تلتفت الملوك إلا إليها . ولا تعول

فى المهمات إلا عليها . يعظمون أصحابها ويقربون كتابها . فخليقها أبداً خليق بالتقديم جدير بالتبجيل والتكريم .

تنعر مجانيها إذا ما جنى الظما وتروى مجاريها إذا بخل القطر[1]

وقال عبد الحميد الكاتب : « لو كان الوحى ينزل على أحد بعد الأنبياء ، لنزل على كتاب الإنشاء »[2]

لبثت هذه الخلافة ، يتسع نطاقها وتمتد آفاقها . كما ازداد نصيب الدولة الإسلامية من الحضارة والنظام . وقد تعددت الدواوين فى دولة بنى العباس ، لتعدد منافعها ، وتنامى مرافقها ، ولخلوصها من بداوة العرب القديمة وحياة الأخشيشان ، واستتباب معالم المدنية فيها . وكان أرحب دواوينها أهمية وعلا ، وأوسعها أثراً وفضلا : ديوان الرسائل .

وتعددت ألوان الرسائل الديوانية بتعدد مصالح الدولة ومنازعها ومناسباتها وتقلب الأحوال بها ومن هنا نرى أن هذا الضرب من الرسائل من أهم سجلات الدولة التى تدون فيها شئونها ومختلف أمورها وأهم حوادثها ، وعليها تصرفاتها ومنجهاتها . وتصلح إلى حد كبير ، لأن تكون مدداً لتاريخها ، وسنداً يرجع إليه عند معرفة أحوالها .

وبجوار الرسائل الديوانية ازدهرت ضروب أخرى من الرسائل ، شاركتها فى جهادها الأدبى ، مشاركة بعيدة المدى ، وأهمها الرسائل الإخوانية .

والرسائل الإخوانية ذات أهمية تاريخية كبرى ، فى عالم الأدب ، حينذاك . إذ كان يتمشى فى سطورها ، غالبا ، صدق التعبير عن الضمير . وتتراءى قوة الحس بما فى النفس . وتظفر هواجس اللب بخفايا القلب . وهى معرض للأخوات ، ومراد

---

١ — راجع خطبة صبح الأعشى فى ج ١

٢ — عن ثمرات الأوراق لابن حجة الحموى ص ١٢٨

للمودات ، ومعترك الخصومات . فإن كانت الرسائل الديوانية تعبر عن الحياة الرسمية للدولة ، فالرسائل الإخوانية تنم عن الحياة النفسية والشعبية لها ، ولو فى نطاق . . وربما اتخذها المتراسلون مسرحا يظهرون فيه ما يبطنون ، ويتحدثون بما يعتقدون من آراء ومذاهب ، وأفكار ومشارب . ويستطردون فيها إلى تصريح بخفى . أو تلميح إلى قصى ، وإلى حديث عن ممتع مطرب ، ورائع معجب . كما يتخذونها مجالا لأدبهم وملعباً لأقلامهم ، تجول فيها أسلاتها وتصول . وتخب شباتها وتضع . فتسابق وتسبق . وتجد وتصدق . أو تتفكه وتداعب ، وتمزح وتلاعب . إلى غير ذلك من شئون النفوس ، وهى مترامية ترامى أطرافها ، ومتشعبة تشعب أهدافها . ومن هذا وذاك تبدو الأهمية التاريخية التى يعلقها الأدب على هذا الضرب من الرسائل :

والدول الإسلامية التى عاصرت دولة بنى العباس ، كالفاطميين المغاربة ، والأيوبيين الأكراد ، سارت فى نهجها الديوانى على نمط من العباسيين ، قريب . إذ شعرت بحاجتها القصوى إلى دواوين الرسائل والكتاب المنشئين من بارعى البلغاء . فأمدتهما بحياة ، وجلتهما بجاه ، ووسعت لهما فى أفق العمل . حتى كانا من أهم الدعائم القوية التى صمدت الدولة بها وسبقت .

ودولة المماليك ، فى جملتها ، كانت امتداداً للدولة الأيوبية . اصطنعت كثيراً من من نظمها الديوانية ، واصطبغت إلى حد كبير بصبغاتها الأدبية ، ومشى كتابها فى الدواوين وخارج الدواوين فى طريق أسلافهم . واتخذ منشئوها الأسلوب الفاضلى قالباً يصبون فيه ماينشئون . وتنوعت رسائلهم فمنها الديوانية ، والإخوانية ، وما إليهما مما بينته فى هذا الفصل . وبهذه وتلك نشعر بمقدار نشاطهم ، وبأنهم لم يقصروا —

فى هذا الميدان الأدبى — عن بلوغ مدى الأقدمين . على الرغم من اختلاف الظروف وتباين الملابسات .

والمماليك — أتراكا وجراكسة — أعاجم بالفطرة والمنشأ والثقافة والإصرار على العصبية . فلم ترفه عن عجمتهم ثقافة عربية ، ولا اندماج فى الشعوب العربية ، بإحدى الملابسات من مصاهرة ومجاورة ومتاجرة ، ونحو ذلك . بل عاشوا بمصر حكاما مستبدين وطغاة مترفعين . تعالوا عن الشعب وطبقاته ، ولم يشركوه فى حكم أو إمارة أو جندية ، وقصروا مناصب الدولة — عدا القضاء والكتابة — على أنفسهم . واستمرت أجيالهم تتجدد عن طريق الخارج ، يجلبون إلى مصر من أسواقه . ويدفعون إلى أبراج القلعة بالقاهرة ، ويربون تربية عسكرية خاصة بهم . يهيئون بها للحرب والضرب ، والنزال والقتال . ومن ثم يدلف أرباب الكفايات منهم إلى الإمارة ومناصبها الرفيعة ، وإلى السلطنة ومرتبتها الجليلة .

كان من المرتقب أن تدول العربية وتزول ، ويطوى بساط أدبها الممدود ، وينحسر ظلها الوارف . وتحل التركية محلها فى الدواوين . وتتخذ لغة للرسائل ولغيرها ، ولكن أبى ذلك لها : ضعف التركية وعجزها عن أن تكون لغة أدب وحساب وضبط ، وأداة سياسة وتعليم وقضاء وحكم ، وقلة النابغين النابهين من أبنائها ممن يستطاع بهم التمكين للغتهم فى دواوين الدولة .

هذا إلى أن المماليك كانوا طبقة حاكمة فحسب وبأسهم بينهم شديد ، وفتنهم على أحرها ، وتربص بعضهم لبعض على أمره ، تنازعاً على المناصب والحكم والجاه والمال والغنائم . فصرفهم ذلك وعاق ملوكهم عن أن يقيموا دولتهم على أساس تركى ذى نظام ثابت ، ولون واحد ، فى شتى مرافقها . وأن يدعموها بقانون مستقر ، وبخاصة فيما يتعلق

بالسلطنة وطريقة ولايتها . وما كانت شورى أمرائهم فيها — كما نرى — إلا مظهراً من مظاهر تحفز كل منهم لها ، ورغبته الخفية فيها ، وتحديثهم النفس بها . ولن يستطيع أحدهم أن يذب إليها إلا عن طريق هذه الشورى التى كانت فى كثير من مناسباتها، ائتمارا مبيتاً على مغلوب ، وانتصارا مؤقتاً لغالب . فصرفهم ذلك عن التمكين بلغتهم ولا سيما أنهم رأوا أنفسهم يحكمون أمما عربية ينطقون بلغتهم . وتتفاهم عامتهم وخاصتهم بها . وليس لهم — وهم الحاكمون — بد أن يخاطبوا هؤلاء بلغتهم ، التى هى فى الوقت ذاته ، لغة الدين الذى يدينون به جميعا ، ولغة القرآن الذى عملوا على تشجيع علومه . واتخذوا ذلك وسيلة إلى التقرب لله ، أو أداة لدعم الدولة وتثبيتها ، أو إيهام الدهماء و إلهائها .

هذا إلى أنهم وجدوا العربية لغة حاذقة مرنة ، وماهرة مطبعة معودة . صقلتها السنون ، وفرهتها التجارب ، إذ كافحت زمناً طويلا فى ميدان الحكم والسياسة ، ومضمار العلم والأدب والفن والصناعة ، حتى شاب قرناها ، ولكن شبت قواها ، ودوى صوتها وما كان لها . ووجدوا من أبنائها بقية تركز فيهم تراثها ، ونابتة تحول إليهم ميراثها . لا يقلون عن أوائلهم مهارة شباة ، ولا جسارة قلم ، ولا حصافة لسان ، ولا فراهة منطق ، ولا قوة اضطلاع بمهام الأمور ، وحسن تصريف لمعالى الشئون : تزدان بهم الدولة . وتتم على يديهم الصولة . وهم إلى ذلك ، رجال موالون وعمال مجربون . فاتخذوهم لأنفسهم كتابا ووزراء ، وقربوهم إليهم منازل ، وأغدقوا عليهم من الجاه ، ووسعوا لهم فى النفوذ ، ومكنوا لهم فى السلطان . لهذا ازدهرت بهم دواوين الإنشاء فى القاهرة ودمشق وغيرهما من عواصم النيابات المصرية . ونضرت بهم كتابة السر . فكانوا هنا وهناك ، زينة الدولة وزهرة الديوان .

قال القلقشندى يشير إلى ذلك : « وحظيت — أى مصر — من فضلاء الكتاب بما لم تحظ به مملكة من الممالك . ولا مصر من الأمصار . وحوت من أهل الفضل والأدب

عالم يحو قطر من الأقطار . فيا رحبت متوجة بأهل الأدب فى الحديث والقديم ، مطروقة من فضلاء الكتاب بكل مكين أمين ، وحفيظ عليم .

نجوم سماء كلما غاب كوكب بدا كوكب تأوى إليه كواكبه »

إذاً ، كان لبقاء ديوان الإنشاء ، وإنشاء كتابة السر ، أجمل الأثر وأبقاه ، فى نشاط الكتابة من عقالها ، والإفساح للكتاب فى المجال . فإليك كلمة وجيزة عن عن كل منهما ، نتحدث بعدها عن أهم الرسائل الديوانية . ثم الإخوانية وغيرها مما برز فى هذا العصر من أنواع الرسائل .

الفصل الأول

١ — ديوان الإنشاء وكتابة السر

لكلمة « صناعة الإنشاء » في عالم الأدب — كما نفهم اليوم — معنى عام ومعنى خاص .

أما معناها العام فزاولة الكتابة الفنية والتبريز فيها . وبذلك تشمل كل فنون الكتابة من مقالات ورسائل وقصص ووصف ونحوه . والمنشىء هنا أديب ناثر ، ويطلق عليه في عصرنا الحديث لفظ « كاتب » كما يطلق على الإنشاء نفسه لفظ « كتابة » والكتابة أشهر .

ونعني بالكتابة الفنية حسن صوغ التراكيب اللفظية ودقته ، الدلالة على الصور الذهنية والعاطفية :

أما معناها الخاص ، فزاولة كتابة الرسائل الديوانية ، في ديوان الإنشاء — كان والمنشىء هنا أحد موظفي الديوان المذكور ممن كان يوكل إليهم تحرير الرسائل الملوكية ومن كانوا يشبهونهم من قبل .

ونعني بكتابة الرسائل اختراع صورها اللفظية الدالة على المعاني المقصودة من الرسائل .

وهذا هو ما نفهم من كلام القلقشندي حيث قال :

« وأما كتابة الإنشاء فالمراد بها كل ما رجع من صناعة الكتابة إلى تأليف الكلام وترتيب المعاني من المكاتبات والولايات والمسامحات والإطلاقات ، ومناشير الإقطاعات والهدن والأمانات والأيمان ، وما في معنى ذلك ككتابة الحكم

ونحوها .»[١] وعلى هذا الاعتبار جرى حديث القلقشندى عن الإنشاء فى كتابه « صبح الأعشى » .

ومن المناسب أيضاً أن نذكر رأيه فى تعريف « الإنشاء » ، وفى الصلة بينه وبين الكتابة ، فلعل فيه شيئاً من المخالفة ، لما تعورف عليه اليوم .

فبعد أن قال إن « الكتابة » لاتخرج عن أصلين هما : كتابة الإنشاء ، وكتابة الأموال ، وما فى معناها ، قال ما نصه :

« إلا أن العرف فيما تقدم من الزمان قد خص لفظ الكتابة بصناعة الإنشاء ؛ حتى كانت الكتابة إذا أطلقت لا يراد بها إلا كتابة الإنشاء . والكاتب إذا أطلق لا يراد به إلا كاتبها . حتى سمى العسكرى كتابه « الصناعتين الشعر والكتابة » يريد كتابة الإنشاء . وسمى ابن الأثير كتابه « المثل السائر فى أدب الكاتب والشاعر » . يريد كاتب الإنشاء ، إذ هما موضوعان لما يتعلق بصناعة الإنشاء من علم البلاغة وغيرها .

ثم غلب فى زماننا بالديار المصرية اسم « الكاتب » على كاتب المال ، حتى صار الكاتب إذا اطلق لا يراد به غيره . وصار لصناعة الإنشاء اسمان : خاص، يستعمله أهل الديوان ويتلفظون به وهو « كتابة الإنشاء » . وعام يتلفظ به عامة الناس وهو « التوقيع » .

فأما تسميتها بكتابة « الإنشاء » فتخصيص لها بالإضافة إلى الإنشاء الذى هو أصل موضوعها . وهو مصدر أنشأ الشىء إذا ابتدأه أو اخترعه على غير مثال يحتذيه بمعنى أن الكاتب يخترع ما يؤلفه من الكلام ويبتكره من المعانى فيما يكتبه من المكاتبات والولايات وغيرها . أو أن المكاتبات والولايات ونحوها تنشأ عنه

---

١ — صبح الأعشى ج ١ ص ٥٤

وأما تسميتها « بالتوقيع » ، فأصله من التوقيع على حواشي القصص وظهورها ، كالتوقيع بخط الخليفة أو السلطان والوزير أو صاحب الإنشاء أو كتاب الدست ، ومن جرى مجراهم بما يعتمد فى القضية التى رفعت القصة بسببها ، ثم أطلق على كتابة الإنشاء جملة . »(١)

وبعد أن أورد كلاما فى معنى التوقيع ووجوه اشتقاقه ومآخذه ، قال :

« ووجه إطلاقه على كتابة الإنشاء أنه قد تقدم أن التوقيع فى الأصل اسم لما يكتب على القصص ونحوها . وسيأتى أن ما يكتب من ديوان الإنشاء من المكاتبات كالولايات ونحوها ، إنما يُبنى على ما يخرج من الديوان من التواقيع بخط صاحب ديوان الإنشاء أو كتاب الدست ومن فى معناهم . وحينئذ فيكون التوقيع هو الأصل الذى ينبنى عليه المنشىء . وقد يكون سُمّى بأصله الذى نشأ عنه مجازا .

وقد يعبر عنها بصناعة الترسل ، تسمية للشىء بأعم أجزائه . إذ الترسل والمكاتبات أعظم كتابة الإنشاء وأعمها من حيث إنه لا يستغنى عنها ملك ولا سوقة . بخلاف الولايات فإنها مختصة بأرباب المناصب العلية دون غيرهم . وعلى ذلك بنى الشيخ شهاب الدين محمود الحلبى — رحمه الله — تسمية كتابه . . حسن التوسل إلى صناعة الترسل . »(٢)

ونستنبط من حديث القلقشندى أمورا منها :

١ — أن « الكتابة » كانت قديما ترادف « الإنشاء » ، وتطلق عليه وحده والكاتب هو المنشىء . — وهذا يماثل مايعرف اليوم فى عالم الأدب ، إذ « الكاتب » هو الذى يدبج المقالة أو القصة أو نحوهما . كما أشرنا .

٢ — وأن الكتابة أطلقت فى زمن القلقشندى على كتابة الأموال . والكاتب

---

١ و ٢ — صبح الأعشى ج ١ ص ٥٢ و ٥٣

هو كاتب الأموال — وهذا يقابل ما يعرف اليوم فى دواوين الحكومة ، إذ يطلق على موظفيها ، لفظ « الكتّاب » .

٣ — وأن « الإنشاء » بمعنى اختراع الرسائل وتحرير الولايات ، أطلق عليه فى زمن القلقشندى : « كتابة الإنشاء » . ولعل ذلك تمييز لها عن كتابة الأموال .

٤ — وأن « كتابة الإنشاء » كانت تطلق على كتابة الرسائل ونحوها ، داخل الديوان . أما الناس فيعبر فون كتابة الرسائل ونحوها « بالتوقيع » .

٥ — وأن « كتابة الإنشاء » قد يعبر عنها بصناعة « الترسل » . و يبدو أن هذا التعبير معروف فى جميع عصور الأدب .

هذا ، ولما كانت وظائف كتابة الرسائل ، أملا مرموقا وهدفا مقصوداً ، لما تضفيه من الجاه ، وما تدره من الخير . شاعت كلمة « الإنشاء » على مزاولة الكتابة فى أى فن من فنونها ، تيمنا بإنشاء الرسائل و إعلانا بالتطلع إليها . . . هذا إلى أن كتاب الديوان — غالباً — كانوا الزهرة اليانعة والثمرة الناضجة بين نابتة المنشئين . فكانوا قدوة لهم فى مسالك أساليبهم ومناهج تعابيرهم ومن ثم شاعت كلمة « الإنشاء » على صناعتهم جميعا . وعرف غير منشئ الديوان بالمنشئين أيضا .

وقد أشرنا من قبل إلى أن الرسائل ، كانت أول بواكير الكتابة الإنشائية ، وأسبق ألوانها ظهورا وازدهارا فى الدولة الإسلامية ، لمسيس الحاجة إلى اصطناعها .

وقد نبتت نابتتها أول الأمر بين يدى النبي عليه الصلاة والسلام لما جدت حاجة دعوته إلى مخاطبة أمرائه وأصحاب سراياه من الصحابة رضوان الله عليهم ، و إلى مخاطبة الملوك المجاورين له — فضلا عن الحاجة إلى تسجيل القرآن الكريم — فاتخذ لذلك كتابا لوحيه ، ممن تعلموا الخط العربي . وبلغ عددهم — كما قيل — نيفا وثلاثين

كاتبا.[1] وممن كتب له عليه السلام: أبو بكر وعمر وعثمان وعلى وأبى بن كعب، وزيد بن ثابت ومعاوية بن أبى سفيان، وكان هذان الأخيران ألزمهم له.[2] وكانوا يكتبون ما يمليه عليهم بلا تغيير، ذلك لأنه كلام النبوة. — ونروى أن النبى عليه السلام قال لزيد بن ثابت: «تأتينى كتب لا أحب أن يقرأها كل أحد، فهل تستطيع أن تعلم العبرانية» — أو قيل السريانية — . فقال زيد «نعم» فتعلمها فى سبع عشرة ليلة.[3] وبهذا نرى أن زيد بن ثابت، كان أول كاتب سر فى الدولة الإسلامية.

هذا، ومن رسل الرسول الذين أرسلهم بكتبه: عمرو بن أمية، إلى النجاشى. وعبد الله بن حذافة، إلى كسرى — ودحية الكلبى إلى هرقل. وحويطب بن أبى بلتعة إلى المقوقس، وغيرهم. وهؤلاء أشبه بأصحاب البريد فى الأعصر التالية.

ونهج الخلفاء الراشدون هذا النهج النبوى، فاتخذوا لأنفسهم كتابا يعاونون عليهم فى أعمالهم، وكتب لأبى بكر: عثمان بن عفان — وكتب لعمر: زيد بن ثابت، وكتب لعثمان: مروان بن الحكم. وكتب لعلى: عبد الله بن رافع.

وسار خلفاء بنى أمية على هذه السنة. فكتب لمعاوية: عبد الله بن أوس الغسانى، وهكذا.

غير أن اتساع الدولة فى زمانهم وتعدد أجناس رعاياهم وتنوع مصالحهم دعاهم إلى التوسع فى إنشاء الدواوين، فكان فى جملتها ديوان الرسائل. وأطلق لفظ «الكاتب» على متولى كتابتها. وتعدد كتاب الخليفة. فكان — مثلا — ممن كتب ليزيد بن عبد الملك: سعيد بن الوليد الأبرش، ومحمد بن عبد الله بن حارثة الأنصارى. وقد كتبا أيضا لهشام بن عبد الملك. وكتب له أيضا مولاه سالم، أستاذ عبد الحميد بن يحيى ابن سعيد آخر كتاب بنى أمية، وكان كاتبا لمروان بن محمد آخر خلفائهم. وعلى يد عبد الحميد أصبح إنشاء الرسائل الديوانية صناعة مجيدة ذات رسوم وقوانين مرعية — وكان

---

١ — صبح الأعشى ج ١ ص ٩١ وما بعدها
٢ — حسن المحاضرة ج ٢ ص ١٤٥.
٣ — خطط المقريزى ج ٢ ص ٣٦٧

الخلفاء ، قد شغلتهم أمور السياسة عن الإملاء على كتابهم بأنفسهم ، فاستقل الكتاب بإرسال الرسائل ، وأخذت طبقة من طبقات الأدباء تبدو في أفق الأدب : تلك هي طبقة الكتاب « المنشئين » . وكان آخرهم كما أشرنا ، عبد الحميد الكاتب الذي يعتبر الأستاذ الأول لكتاب الرسائل ، وأطالها في بعض الموضوعات ، وقصرها في البعض ، ونوع في بدئها وختامها بما يناسب الغرض منها ، وأطال في تحميداتها ، إلى غير ذلك ، ومهد أمام الكتاب سبيل بلوغ الوزارة ، بما أبرزه من أهمية صناعته .

ولما أسس العباسيون دولتهم ، وسعوا نطاق دواوينهم ، واقتبسوا نظما فارسية أنشئوها عليها ، وكان من أجلها خطرا ديوان الرسائل ، ولا يليه إلا كل أديب ممتاز عالي الكعب في الأدب والسياسة ، واسع الحيلة ذكي مشهور بالعلم والفضل .

وكان خلفاؤهم يوقعون على القصص والولايات ونحوها بأنفسهم ، حتى كانت خلافة هرون الرشيد ، فوكل أمر رسائله إلى وزيره يحيى[1] بن جعفر البرمكي . فكان أول وزير ولى ديوان الرسائل فجلت بذلك رتبته ، وصار يحيى يوقع على الولايات والظلامات وإطلاقات الرزق ، والعطيات وماشابه ذلك ، وصار سنة لمن بعده من الوزراء .

غير أن هذا الوضع لم يتصل دائما ، بل ربما انفرد رجل بديوان السر وديوان الرسائل تحت إشراف الوزير ، أو وليه الوزير . حتى كانت أواخر العصر فانفرد به رجل دون الوزير ، سمى « صاحب ديوان الرسائل » أو « متوليه » أو « صاحب ديوان المكاتبات » أو « متوليه » .[2] قيل وكان يسمى « كاتب الإنشاء » .

ولما اشتهر الديوان بديوان الإنشاء ، ويبدو أن ذلك كان في أواخر العصر العباسي ، قيل لمتوليه « صاحب ديوان الإنشاء » وربما جمع لفظ الديوان ، تعظيما له ، فقيل :

---

١ — خطط المقريزي ج ٣ ص ٣٦٧ .

٢ — راجع هامش السلوك ص ٤٥ ، نقلا عن صبح الأعشى من مواضع عدة

« صاحب ... الإنشاء ». وقيل كاتم السر[1].

واشتهر كثير من كتاب الرسائل في عصر بني العباس، ومنهم: عبد الله بن المقفع ويحيى بن خالد بن برمك، وأبو أيوب المرزباني، والربيع بن يونس، ويوسف بن القاسم ابن صبيح، وأحمد بن يوسف... الخ[2]

ونهج كثير من الدول المعاصرة للعباسيين، نهجهم في اتخاذ ديوان خاص بالمكاتبات السلطانية، كأموية الأندلس ثم بني الأحمر، واشتهر هناك ابن زيدون وابن الخطيب. وكدول المغرب حيث كانوا يسمون صاحب الديوان: «صاحب القلم الأعلى». وسمى الديوان في الدولة السلجوقية: « ديوان الطغراء »[3]

ديوان الإنشاء في مصر الإسلامية

لما فتح العرب مصر، أخذ ولاتها من قبل الخلفاء، يكتبون إليهم في مهام الأمور مكاتبات لم يقيموا لها ديوانا خاصا وتولاها لهم كتاب ينشئونها عنهم على نمط مما كان متبعا في عاصمة الخلافة . وكان لديهم ديوان « البريد » ويقال لمتوليه : « صاحب البريد » وإليه مرجع ما يرد من الخلافة من الكتب على أيدي أصحاب البريد، وهو الذي يطالع « يرد » بأخبار مصر[4].

ولبث الأمر كذلك، حتى كان عهد أحمد بن طولون، فصرف عناية إلى هذه المكاتبات . فأنشأ [5] لها ديوانا كان النواة الأولى لديوان الإنشاء بمصر واشتهر من كتاب[6] ابن طولون، أبو جعفر محمد بن أحمد بن مودود . وكتب لابنه خمارويه :

١، ٢ — حسن المحاضرة ج ٢ ص ١٤٥ ٣ — خطط المقريزي ج ٣ ص ٣٦٧
٤ — نفس المصدر ص ٣٦٨
٥ — وقيل إن مصر عرفت ديوان الانشاء قبل ابن طولون. وأشرنا إلى ذلك في بعض المواضع .
٦ — حسن المحاضرة ج ٢ ص ١٤٦

إسحق بن نصر العبادى[1]. وتوالت دواوين الإنشاء.

ولما ملك الفاطميون مصر، أخذ قائدهم جوهر الصقلى، يوقع على القصص حتى قدم المعز لدين الله الفاطمى فوقع بنفسه، وفوض أمر الأموال وما يتعلق بها إلى يعقوب بن كلس، وعسلوج بن الحسن.

وفى عهد ابنه العزيز بالله، فوض أمر الوزارة إلى يعقوب بن كلس، فاستبد بجميع أمور المملكة، وجرى فى دولة العزيز، مجرى يحيى بن جعفر البرمكى فى دولة الرشيد. فعظم أمر ديوان الإنشاء. ووقع يعقوب بيده على المكاتبات والمظالمات. وقد يوقع الخليفة بيده أيضاً. هذا مع ترك أمور البريد يليها أحد أمراء الدولة. ولقب صاحب الديوان بكاتب الدست الشريف[2].

ولبث الأمر كذلك حتى كانت أيام المستنصر بالله الفاطمى، فصرف وزيره أباجعفر محمد بن جعفر بن المغربى عن وزارته، وأفرد له ديوان الإنشاء، فوليه مدة طويلة وصار الديوان لا يليه إلا أكابر[3] الكتاب، ووليه المسلم والذمى.

وممن كتب للعزيز — عدا وزيره يعقوب — أبو عبد الله الموصلى، ثم أبو المنصور ابن حورس النصرانى. وكتب للآمر والحافظ: أبو الحسن على بن أبى أسامة الحلبى. ثم ولده أبو المكارم ومعه تاج الرياسة أبو القاسم على بن سليمان المعروف بابن الصيرفى، وكافى الكفاة محمود بن الموفق، وابن أبى الدم اليهودى. وبعد أن توفى أبو المكارم الحلبى، كتب للحافظ، القاضى موفق الدين أبو الحجاج يوسف بن الخلال. ومازال متوليا أمر ديوان الإنشاء فى مصر، إلى أن انقرضت أيام العاضد آخر خلفاء الفاطميين واشترك معه زمنا القاضى جلال الدين محمود الأنصارى. وعلى يد ابن الخلال المذكور

---

١ — واشتهر فى ديوان ابن طولون ابن عبد كان الكاتب وطبطب المحرر وكان أهل بغداد يحسدون أهل مصر عليهما — راجع صبح الأعشى ج ١ ص ٩٦

٢ — هامش السلوك ص ٢٤٦ عن صبح الأعشى

٣ — خطط المقريزى ج ٣ ص ٣٦٨

تخرج القاضى الفاضل عبد الرحيم البيسانى ، وكتب لديه مدة فى عهد العاضد ووزارة صلاح الدين الأيوبى .

ولما أسس صلاح الدين دولته ، لبث ديوان الإنشاء على رونقه ، وتولاه الكاتب الأشهر القاضى الفاضل الذى أضيفت إليه الوزارة من بعد . وظل يلى الديوان كرام الكتاب ، حتى وليه الأديب الشاعر بهاء الدين زهير فى زمن الملك الصالح نجم الدين أيوب . ثم وليه القاضى فخر الدين ابراهيم بن لقمان الإسعردى ، وهو الذى شهد انقراض دولة بنى أيوب ، على أيدى مماليكهم ، وكتب لأوائلهم .

فلما ملك المماليك الأتراك، تشبهوا بالأيوبيين فى جملة نظمهم الديوانية وأوضاعهم الإدارية . واتسع نطاق عنايتهم بديوان الإنشاء ، لحاجة دولتهم الشديدة إليه فى ضبط أمورها ومكاتباتها وفى تحرير الرسائل السلطانية ونحوها من المكاتبات الهامة . فنبه بذلك شأن الديوان وكتابه . وارتفعت منزلة رئيسه وأصبح واسع الجاه ضخم النفوذ والسلطان ، وكاد يكون أقرب رجال الدولة إلى ملكها ، ومستشاره فى عليا أمورها خارجية وداخلية . ولقب صاحب الديوان ، أولا ، بما كان يلقب به من قبل فى عهد الفاطميين ، أى « بكاتب الدست الشريف[1] » كما نشير إليه بعدُ .

غير أن « صاحب الديوان » كان فى أوائل الدولة المملوكية ، يشرف عليه أحد الأمراء من الدوادارية [2] الكبار ، وهو بمثابة « صاحب البريد » فى عهد بنى طولون. فقد كان الأمير سيف الدين بلبان الدوادار — مثلا — يلى أمر الديوان ، على عهد الظاهر بيبرس . وكان يوحى إلى القاضى محيى الدين بن عبد الظاهر ، منشىء الرسائل

---

١ — هامش سلوك ص ٢٤٦ عن صبح الأعشى

٢ — الدوادار : لفظ غير عربي وهو أحد ألقاب الأمراء حينذاك ويطلق على من يبلغ الرسائل إلى السلطان ـ كاتب السر .

فيما يشاء من المكاتبات[1]. كما نبينه :

ولبث ذلك حتى صرف صاحب الديوان فخر الدين بن لقمان الإسعردى عنه إلى الوزارة فى عهد المنصور قلاوون . وعين القاضى فتح الدين بن محيى الدين بن عبد الظاهر رئيساً لديوان الإنشاء ولقب بكاتب السر . فعظم أمره منذ ذلك الحين واتسع جاهه وعلت كلمته ، ولم يشرف عليه رجل آخر بل تحكم فى أمور الدولة وارتفعت منزلته فوق منزلة الوزير . كما سنبينه أيضاً .

وظل ذلك تقليداً متبعاً . إلا أننا نرى أنه لم يعف الديوان نهائياً من تبعته أحياناً لبعض الأمراء ، فقد روى المقريزى فى تاريخه فى سياق حديثه عن الناصر محمد بن قلاوون ومن عينهم من الأمراء عام ٦٩٣ هـ فقال : « والأمير ركن الدين بيبرس الدوادار ، دواداراً ، وأعطى إمرة مائة فارس وتقدمة ألف ، وجعل إليه أمر ديوان الإنشاء فى المكاتبات والأجوبة والبريد »[2] .

هذا ، ويتألف ديوان الإنشاء من ١ — رئيسه ويسمى صاحب الديوان أو كاتب السر ، ٢ — كتاب الدست ، ٣ — كتاب الدرج . وإليك كلمة عن كل منهم :

كاتب السر[3]

لم يعرف هذا اللقب فى الدولة الإسلامية ، قبل عهد المنصور قلاوون إلا لما ما فى الدولة العباسية حيث أطلق أحيانا على صاحب ديوان الإنشاء . وهذا لا يمنع أن

---

١ — حسن المحاضرة ٢ ص ١٤٧

٢ — السلوك جـ ١ ص ٧٩٤

٣ — أورد السيوطى فى حسن المحاضرة . ج ٢ فصلا ذكر فيه أسماء كتاب السر من لدن كتاب النبى عليه السلام إلى عهد المؤلف ، وإلى ما بعد سنة ٨٩٣ هـ فتضمن أسماء كتاب السر فى زمن المماليك.

يكون اختصاصه قد وجد، ووكل إلى رجال بالتتابع ، أطلق على بعضهم لفظ «الوزير» أو غيره ، كما سبقت الإشارة .

وقد أشرنا — فيما أشرنا إليه — إلى أن زيد بن ثابت يعتبر أول كاتب سر فى الدولة الإسلامية ، ولو لم يسم بذلك .

وفى مستهل عصر المماليك كان يلى الديوان تارة رجل واحد يسمى «كاتب الدست» وربما قيل له «كاتب الدرج» . وتارة يليه أكثر من واحد . وقيل إنه وليه فى عهد الظاهر بيبرس ثلاثة رجال ، كان منهم القاضى محيى الدين بن عبد الظاهر ، وكان أرفعهم درجة [1] .

هذا ملخص كلام القلقشندى . غير أننا لاحظنا أن عددهم بلغ سبعة فى عهد بيبرس كذلك كما نبينه عند حديثنا عن كتاب الدست . .

ومنذ عهد الملك المنصور قلاوون ، جدّ لقب «كاتب السر» فى الديار المصرية ، وأطلق على صاحب ديوان الإنشاء وذلك عام ٦٧٨ هـ يوم ٢ شوال [2] .

وكان سبب ذلك ، أن الظاهر بيبرس ، عرض عليه مرةً ، كاتب إنشائه القاضى محيى الدين بن عبد الظاهر مكاتبة ، فوجدها لا تتفق وآراءه : فراجعه فيها ، فقال الكاتب : إنه أمر بها من الأمير سيف الدين بلبان الدوادار ، فقال بيبرس : «ينبغى أن يكون للملك كاتب سر يتلقى المرسوم منه شفاها» . وكان قلاوون ، إذ ذاك ، حاضرا فى جملة الأمراء . فوقرت هذه الكلمة فى صدره . فلما بلغ السلطنة اتخذ لنفسه كاتب سر وأبرز الفكرة إلى حيز العمل .

ووقع اختيار قلاوون على القاضى فتح الدين بن القاضى محيى الدين بن عبد الظاهر ،

---

١ — صبح الأعشى جـ ١ ص ١٠٤

٢ — السلوك جـ ١ ص ٦٦٦

فاتخذه كاتبا لسره وصاحبا لديوان إنشائه . ومن ذلك الحين أصبح صاحب ديوان الإنشاء يلقب بكاتب السر . ونقل لقب « كاتب الدست » إلى من دونه من كتاب الديوان . وكان رئيس الديوان [1] يومذاك ، القاضي فخر الدين ابراهيم بن لقمان الإسعردي، فنقله قلاوون إلى الوزارة . ثم مثل الرجلان: فتح الدين وفخر الدين، بين يدى السلطان قلاوون . وكان المتبع أن الوزير إذا حضر مجلس السلطان فلا يقرأ المكاتبات عليه أحد غيره . فأراد ابن لقمان أن يقرأ كتابا ، فأخذه السلطان منه ودفعه إلى فتح الدين وأمره بقراءته . . . فعظم ذلك على ابن لقمان . [2]

وعلا نجم فتح الدين وسمت به مكانة صاحب الديوان وكاتب السر . ولبث فى منصبه هذا زهاء ثلاثين عاما تمكن فيها من قلب السلطان ومن أمور الدولة . وكان له أثر عظيم فى تنظيم المكاتبات السلطانية ورسومها وإرساء تقاليدها .

ولعل من المناسب أن نذكر أن القاضى ابن لقمان عزل من الوزارة بعد مدة ، فعاد إلى ديوان الإنشاء كاتبا فى جملة كتابه ، يتصرف بأمر صاحب الديوان . . [3]

وكان مجلس الوزير من السلطان ، أقرب من مجلس صاحب الديوان . فما زال فتح الدين حتى تمكن ، فجلس فوق مجلس الوزير . وقد كان الوزير حينذاك سعد الدين ابراهيم البشرى [4] ، وظل ذلك تقليدا متبعا من أيام فتح الدين .

وقال المقريزى منوها بمنزلة كاتب السر : « ورتبة كاتب السر أجل الرتب . وذلك أنها منتزعة من الملك » . [5] ومن الطريف فى هذا المقام ما ذكره القلقشندى حيث قال : « واعلم أن العامة يبدلون الباء من كاتب السر ميما فيقولون « كاتم السر » . وهو صحيح المعنى . إما لأنه يكتم سر الملك . أو من باب إبدال الباء بالميم على لغة ربيعة . وإن كانوا لا يعرفون الثانى . . . » [6]

---

١ ــ صبح الأعشى ج ١ ص ١٠٤ ٢ ــ حسن المحاضرة ج ٢ ص ٤٧١ ٣ ــ السلوك ج ١ ص ٦٨٢ ٤ ــ الخطط ج ٢ ص ٣٦٧ ٥ ــ نفس المرجع ٦ ــ صبح الأعشى ج ١ ص ١٠٤

اختصاصه :

وأبرز اختصاص لكاتب السر — أو صاحب الديوان، أوناظره ، كما قيل أحيانا — قراءة الكتب الواردة على السلطان وكتابة أجوبتها ، إما بخطه أو بخط كتاب الدست أو الدرج . حسب الأحوال . وله حق إرسال الأجوبة بعد أخذ علامة السلطان عليها . ويسجل المراسيم السلطانية ويصدرها ، ويصرفها فى أوجهها . ويجلس بين يدى السلطان بدار العدل ليقرأ عليه الكتب الواردة ،والقصص المرفوعة إليه ، مما يرتئى عرضه على أنظاره ، ويوقع عليها بخطه . ويجلس معه فى حضرة السلطان، كتاب الدست ، ومع كل منهم كتب أوقصص — ويبدو أنها توزع عليهم حسب اختصاصهم وطبيعة عملهم ونوعه — فيقرأ كل منهم ، بعد كاتب السر ، مالديه منها ثم يوقع عليها بخطه حسب أوامر السلطان .

وقد ازداد نفوذ كاتب السر ، منذولى المنصب فتح الدين بن عبد الظاهر : حتى صار إليه التحدث فى مجلس السلطان عند عقد المشورة ، وعند اجتماع الحكام للفصل فى أمر مهم . ويتوسط بين السلطان وأمرائه فيما يندب له عند وقوع خلاف وإليه النظر فى أمور القضاة ومشايخ العلم ونحوهم فى سائر المملكة ، مصر وشاما . ويمضى رأيه بخصوصهم بعد مشاورة السلطان ؛ كما أن له الحق فى استبقاء بعض القصص والمكاتبات التى ترد إلى ديوانه ، فلا يعرضها على السلطان ، لعدم أهميتها ، ويتصرف فيها برأيه ، فيحولها على أحد أعوانه ، أو يردها أو يهملها . (١)

من ذلك كله ترى مبلغ أهمية منصب كاتب السر فى دولة المماليك ، ومدى حاجتها هى ورجالها إليه . قال المقريزى : « ومنزلة كاتب السر ، منزلة صاحب ديوان الإنشاء . إلا أنه يتميز بالتوقيع على القصص تارة بمراجعة السلطان ، وتارة بغير مراجعة . فلذلك

---

١ — صبح الأعشى ج ٦

يحتاج إليه سائر أهل الدولة من أرباب السيوف والأقلام ولا يستغنى عن حسن سفارته نائب الشام فمن دونه . » (١)

وقال القلقشندى :

« ومرتبته فى زماننا أرفع مرتبة ، ومحله أعظم محل . إليه تلقى أسرار المملكة وخفاياها وبرأيه يستضاء فى مشكلاتها . وعلى تدبيره يعول فى مهماتها وإليه ترد المكاتبات. وعنه تصدر . ومن ديوانه تكتب الولايات السلطانية كافة ويقوم بتوقيعه على القصص فى نفوذ الأوامر ، مقام توقيع السلطان . وجميع مايعلم عليه السلطان من جليل وحقير ، فى مزرته،(٢) حتى ما يكتب من ديوان الجيش من المناشير ، ومايكتب من ديوان الوزارة ، وديوان الخاص وغيرها من المربعات ونحوها وليس لأحد من المتولين لهذه المناصب ، التعرض لأخذ علامة سلطانية البتة وناهيك بذلك رفعة وشرفاً باذخاً . » (٣) وقد روى القلقشندى فى صبح الأعشى ج ١٤ ص ٣٩٧ ، أن الثلج كان يجلب إلى أرض مصر من الشام لرفاهية الملوك، ثم يكتب به « رجعة » تصدر من ديوان الإنشاء. وهذا يدل على مبلغ صلة الديوان بأمور الدولة حتى توافهها .

---

١ — الخطط ج ٢ ص ٣٠٨ — وكان نائب الشام اكبر نواب السلطنة فى الخارج .

٢ — المزرة : أرشدنا الأستاذ عمر الدسوقى أثناء المناقشة إلى ما جاء فى كتاب « القصد الرفيع » عن مصحف المزرة . ومؤداه أنها كالجعبة وذات حجم خاص وتتخذ من قماش ممتاز وتزرفوهتها بخيط ، على مافيها من الأوراق ، وتحمل إلى القصر للعرض على السلطان . وتوضع فيها الأوراق مرتبة حسب نظام خاص. وأول من اتخذ المزرة قاضى القضاة تاج الدين بن بنت الأعز ، قبل أن يلى القضاء والوزارة فى أيام السلطان الصالح نجم الدين أيوب. — وفى عصر المماليك كان حامل المزرة وظيفة من وظائف الدولة تلى وظيفة الدوادار . ويسمى أحيانا « خادم المزرة » .

٣ — صبح الأعشى ج ١ ص ١٠٢ ، ١٠٣

كتاب الدست :

هم الكتاب المنشئون الذين يعاونون صاحب الديوان فى عمله . وهو يكل إليهم بعض الأعمال ، و إنشاء بعض الرسائل ، وتوجيهها فى مراحلها الديوانية المتبعة[١] .

وسموا بكتاب الدست لأنهم يجلسون مع رئيسهم فى دست السلطان — أى مجلسه — ويجلسون بترتيب أقدميتهم فى العمل . وترجع تسميتهم هذه إلى العصر الفاطمى . حتى إن كبيرهم أو صاحب الديوان ، كان يسمى « كاتب الدست » أو « كاتب الدرج » على نحو ما أشرنا .

وحينما يجلسون فى دست السلطان ، يقرأ رئيسهم مكاتباته ، ويوقع عليها بأمر السلطان . ثم يقرأ كل منهم بالترتيب ، ما معه من مكاتبات وقصص ، ويوقع عليها بأمر السلطان .

وكانوا — على ما روينا — ثلاثة رجال ، فى أوائل الدولة ، أيام الظاهر بيبرس . وكان أرفعهم درجة القاضى محي الدين بن عبد الظاهر ، فكان بمثابة رئيسهم أو رئيس الديوان .

وقد لاحظنا أن عددهم بلغ سبعة رجال ، ومنهم رئيسهم ، وذلك فى عهد الظاهر بيبرس نفسه . ذلك أن المقريزى روى فى سلوكه عند حديثه عن السلطان المذكور بعد أن فتح عكا ، وخلال حوادث عام ٦٦١هـ ، أنه بعد ما فتحها وكشف غيرها من البلاد ، قعد ليلا فى خيمة عظيمة تحت أضواء الشموع الكثيرة ، ليدبر بعض أموره ويعين بعض أمرائه . فمثل بين يديه عدد من موظفيه ، ومنهم « كتاب الدرج » وعددهم « سبعة » . وكان على رأسهم الصاحب فخر الدين بن لقمان . فكتب بين يديه فى تلك الليلة ، ستة وخمسون منشورا كبارا بخطب ، لأمراء كبار .[٢]

---

١ — صبح الأعشى ج ٦ ٢ — السلوك ج ١ ص ٤٩٠ و ٤٩١

وشاهدُنا هنا فى ذكر العدد « سبعة » . غير أن المقريزى سماهم « كتاب الدرج » ونحن نرجح أنه يقصد بذلك « كتاب الدست » ، وذلك لأن « كتاب الدرج » لا يجلسون فى دست السلطان . فهذه خصوصية لكتاب الدست . وإعماهم كذلك تجوزا ، كما كانوا يسمون كبيرهم من قبل ، مرة « كاتب الدست » ومرة « كاتب الدرج » . وكما أطلق مرة على « كتاب الدرج » « موقعى الدرج » مع أن « الموقعين » هم « كتاب الدست » . هذا إلى أنهم فى تلك الليلة مثلوا بين يدى السلطان ، وعلى رأسهم الصاحب فخر الدين بن لقمان ، وهو كبير كتاب الدست إذ ذاك .

وقد سجل المقريزى فى عبارته ، أسماء ستة من هؤلاء الكتاب ، ونسى واحداً . ولقب كلا منهم « بالصدر » ، ويبدو أن هذا اللقب كان يطلق على كل فرد من كتاب الدست ، عدا رئيسهم ، فإنه يلقب بالصاحب .

وقد أخذ عدد « كتاب الدست » يزداد شيئا فشيئا ، حتى صاروا فى أواخر دولة الأشرف شعبان بن حسين — أى فى نحو ٧٧٨هـ — عشرة كتاب ، أو قريبا من ذلك . واطردت زيادتهم وبخاصة فى سلطنة برقوق وابنه الناصر فرج . ومازالوا حتى جاوزوا العشرين ، وهكذا[1] .

ويبدو لنا كذلك أن « كتاب الدست » هم المختصون — بإرشاد رئيسهم — بتحرير رسائل الديوان فى صورتها الإنشائية حسب أوضاع الديوان ولوازمه . هذا بجوار إتقانهم الخط . وقد أطلق عليهم « الموقعون » أيضا ، قيل : « وهم أحق كتاب الديوان باسم الموقعين ، لتوقيعهم على جوانب القصص ، بخلاف غيرهم . » .

والموقع هو الذى يكتب المكاتبات والولايات فى ديوان الإنشاء . وكان من قبل ،

---

١ — هامش السلوك ج ١ ص ٤٨٩ عن صبح الأعشى .

يعرف بكاتب الدرج . وقد غلب اسم « الموقع » على القائم بتلك الوظيفة زمن القلقشندى .

كتاب الدرج :

يبدو لنا أن هؤلاء الكتاب ،خطاطون . أو هم يجيدون الخط أكثر من الإنشاء. وعملهم إلى اللون الإدارى ، أقرب منه إلى العمل الفنى . كما أن « كتاب الدست » يشتغلون بالإنشاء أكثر من اشتغالهم بالخط ، و إن كانت لهم اختصاصات إدارية .

و نسوق كلمة القلقشندى التى عرّف فيها بهؤلاء الكتاب ، قال :

« الطبقة الثانية : « كتاب الدرج » وهم الذين يكتبون ما يوقع به كاتب السر أو كتاب الدست ، أو إشارة النائب أو الوزير ، أو رسالة الدوادار ، ونحو ذلك من المكاتبات والتقاليد والتواقيع والمراسيم والمناشير والأيمان والأمانات ، ونحو ذلك مما يجرى مجراه .

وسموا « كتاب الدرج » لكتابتهم هذه المكتوبات ونحوها فى دروج الورق والمراد بالدرج فى العرف العام : الورق المستطيل المركب من عدة أوصال . وهو فى عرف الزمان عبارة عن عشرين وصلا متلاصقة ، لا غير .

ويجوز أن يطلق عليهم — أى كتاب الدرج — كتاب الإنشاء ، لأنهم يكتبون ما ينشأ من المكاتبات وغيرها مما تقدم ذكره . . ولا يجوز أن يطلق عليهم لقب « الموقعين » لما تقدم أن المراد من. التوقيع ، الكتابة على جوانب القصص ونحوها .

وكما زاد « كتاب الدست » فى العدد زاد كتاب الدرج حتى خرجوا عن الحد . وبلغوا نحوا من مائة وثلاثين كاتبا .

على أن « كتاب الدست » الآن هم المتصدرون لكتابة المهم من كتابة الدرج كمتعلقات البريد المختصة بالسلطان من المكاتبات والعهود والتقاليد وكبار التواقيع

والمراسيم والمناشير . وصار « كتاب الدرج » مخصوصين بالمكاتبات فى خلاص الحقوق وما فى معناها . وكذلك صغار التواقيع والمراسيم والمناشير بما يكتب فى القطع الصغير . وربما شارك أعلام « كتاب الدست » فى التقاليد وكبار التواقيع وما فى معناها . إذا كان حسن الخط »[1]

ونستطيع أن نستنبط إجمالا ، أن « كتاب الدست » هم المختصون بإنشاء الرسائل الهامة الممتازة التى يحتاج تحريرها إلى فن ودقة فى رعاية أصول الخطاب والوصف ولوازم الأساليب الديوانية . ويخطونها كذلك بأقلامهم ويتصرفون فى المكاتبات العامة تصرفا إداريا — عن رئيسهم — يتلقونها من الدواوين الأخرى كديوان الجيش ، أو يرسلونها إليها ، أ يحفظون صورتها فى أضابير الديوان ونحو ذلك .

وأن كتاب الدرج « مختصون بكتابة صغار المكاتبات التى لا تحتاج فى إنشائها إلى فن أو براعة . ويشتركون فى كتابتها كتابة خطية ، ويتصرفون فيها — بأمر رئيسهم — تصرفا إداريا ، على نحو من تصرف « كتاب الدست » وقد يشترك أعلام مع هؤلاء فى أداء عملهم ، إذا كان حسن الخط .

ونحب أن نضيف إلى ما تقدم أموراً :

الأول :

أن للديوان لوازم خطية مرعية فى مكاتباته . فلكل مكاتبة نوع من الورق ، وقطع خاص منه ، وطريقة فى كتابتها كتابة خطية . ولا نفيض فى هذا ،

---

١ — صبح الأعشى ح ص ١٢٧ وما بعدها .

فليس من موضوع بحثنا .

الثانى :

أن هذا النظام الذى روعى فى ترتيب ديوان[١] الإنشاء وكتابة السر ، روعى هو أو قريب منه فى كثير من النيابات المصرية. وفى ذلك يقول القلقشندى عند حديثه عن صاحب الديوان :

ويضاهيه فى ذلك من العرف العام ، متولى ديوان الإنشاء بدمشق وبحلب وبطرابلس وبحماة وبصفد . إلا أنه لا يقال فى واحد منهم فى مصطلح الديوان : « صاحب دواوين الإنشاء » كما يقال فى متولى ديوان الإنشاء بالديار المصرية . بل يقال فى متولى ديوان دمشق : « صاحب ديوان الإنشاء بالشام » . وفى ديوان حلب «صاحب ديوان المكاتبات بحلب» وكذا فى الباقيات . أما غزة والكرك والإسكندرية وغيرها من النيابات الصغار ، فإنما يقال فى متولى شىء من دواوينها : « كاتب درج » ولا يطلق عليه « كاتب سر » بوجه . [٢]

الثالث :

أننا لاحظنا أن ابن حجة الحموى المتوفى عام ٨٣٧هـ ، وكان موظفا فى الديوان بمصر أيام المؤيد شيخ ، وكان رئيس الديوان ناصر الدين ابن البارزى — كان يلقب نفسه بمنشىء الديوان الشريف ، فلعل ذلك كان لقبا لأنه « كتاب الدست »

الرابع :

أن ديوان الإنشاء لبث قائما بنظامه ، أو بنظام قريب منه ، إلى آخر العصر

---

١ — لعل من المناسب هنا أن نذكر ما رواه الشهاب بن فضل الله فى تعريف ص ١٨١ أن يبرس عين عمه الصاحب شرف الدين أبا محمد عبد الوهاب كاتبا للانشاء بدمشق - ووصاه بأن يبعث إليه بما يتجدد من أخبار التتار والفرنج وقال له : إن قدرت ألا تبيتنى كل ليلة إلا على خبر ولا تصبحنى إلا على خبر فافعل . »

٢ — صبح الأعشى ح ١ ص ١٠٤

حتى أزاله العثمانيون . وحقا ليس بين أيدينا بعد كتب المقريزى ، ما ينص على ذلك صراحة على نمطه ونمط القلقشندى . غير أن ما تتبعناه من تراجم رجال العصر إلى أواخره ، فى مثل « الضوء اللامع » و « بدائع الزهور » عوض هذا النقص . فقد أرخا لكثير من كتاب السر ، إلى عهدهما .

وفى حسن المحاضرة للسيوطى ، مقالة ضافية تحت عنوان « ذكر كتاب السر » تحدث فيها عنهم من لدن الرسول عليه السلام إلى سنة ٨٩٣هـ مسجلا أسماء كتاب السر بمصر على التوالى إلى العام المذكور . وفى هذا دليل ضمنى على قيام ديوان الإنشاء .

الخامس :

أننا لا نرى بنا حاجة إلى الحديث عن ثقافة موظفى هذا الديوان ، ولاسيما رؤساؤه وكتاب سره . فحسبنا أن نلقى نظرة عجلى على تراجمهم فى مواضعها . ليتجلى لنا أنه ما منهم إلا من جمع العلم من أطرافه ، والأدب من أقطاره . وإلا من التأم له شمل جملة من العلوم والفنون ، لا تلتئم إلا لكل عبقرى صنديد ، وذكى فريد . من حديث وفقه وأصول ومعقولات وفنون عربية ، ومقدرة على النثر والنظم . هذا فضلا عن دهاء وسياسة وظرف وكياسة ، وأدب جم ومعرفة واسعة بأمور الناس وأخلاقهم ، وإحاطة تامة بشئون الدولة خارجها وداخلها . وإلا ما استطاع أحدهم أن يصل إلى مقعده أو يتبوأ مكانه فى إدارة دفة الأمور بجانب سلطانه . والدولة حينذاك واسعة الأطراف مترامية الآفاق تحكم شعوبا عدة ، وتتطلع إليها عيون كثيرة فى مشارق الأرض ومغاربها ، ويأتمر بها أعداء من كل جانب ، والحروب سجال ، واسم مصر ومهابتها وريح عظمتها تملأ الدنيا . ويحمل « كاتب السر » من ذلك كله ، عبئا ضخما ينوء به الحامل ، ولا ينهض به إلا كل بازل . . . فتنقصهم والطعن فى ثقافتهم حديث

خرافة ، ووحي ظن ، ومس من سقيم خيال .

السادس :

أن من شك فى سمو ثقافتهم ، وقال إنها أضيق أفقا من ثقافة أسلافهم ، فليقرأ ما كتبه القلقشندى فى « صبح الأعشى » . وكتابه هذا تفصيل لما أجمله فى مقامته التى وصف فيها الكتابة وما ينبغى للكاتب من آلات فى صناعتها . وقد أسهب فى بيان ذلك ، وحشد فيما ينبغى للكاتب معرفته ، علوما جمة ومعارف شتى ، لا يستطيع عقل بشرى أن يحيط بها جميعا . وعندنا أن لو اجتمع بعضها لأديب لقدم له المعونة ، و كفاه المئونة .

ولا نشك فى أن القلقشندى استوحى خياله من واقع الحياة فى عصره ، ومن ملابساته فى الديوان . وحقا إنه رسم بذلك المثل الأعلى للكاتب . ولكنه ما كان يرسم ذلك لولا ما لمسه فى كتاب السر أو بعضهم من سمو وسعة اطلاع .[1]

السابع :

أن ثقافة هؤلاء المنشئين ، أو كتاب السر ، إذا أحببنا أن نقيسها بنتاج أفكارهم وندلل عليها به — وليس النتاج الفكرى هو الدليل الوحيد على مبلغ الثقافة — وجدنا أن المثل تنهض معنا ، والأدلة تتسابق إلى الحاجة .

وحسبك أن ترى من بينهم أصحاب الموسوعات التى لا نظير لها فى الآداب العربية جميعها . ومنهم :

١ — محيى الدين بن عبدالظاهر ، صاحب كتاب الروضة البهية الزاهرة ، فى خطط المعزية القاهرة » . وهو فى التاريخ والتقويم والأدب . وهو من الأسفار المفقودة ، ولكن اعتمد عليه من جاء بعد مؤلفه كالمقريزى .

٢ — شهاب الدين بن فضل الله العمرى صاحب « مسالك الأبصار » فى التاريخ

---

١ — راجع موازنته بين كتابة الأموال وكتابة الإنشاء فى صبح الأعشى ج ١ ص ٥٤ . ٥٥

والتقويم والأدب وعلوم شتى . وقد طبع الجزء الأول منه . ونفعه واضح .

٣ — شهاب الدين القلقشندى صاحب « صبح الأعشى » وهو أجمع كتاب فى وصف صناعة الكتابة وما يتصل بها .

٤ — تقى الدين المقريزى صاحب « الخطط » ولا غنى لأديب أو مؤرخ عنه .

و بعد فهذا وشل من سيل ، وقل من كثر ، وغيض من فيض ، وثمالة من كأس ، وشعاع من شمس . . . فاترك حديث من يطعن فى هؤلاء و يصمهم بالجمع فى مؤلفاتهم وأنهم بمنأى عن الاختراع . فهذه دعوى لجة لا نضج لها . ثم أن الجمع المنظم المهذب الذى يؤلف الشتات ، و يحسن المنات ، من أروع ألوان الابتكار فى عالم التأليف . يعرف ذلك أهل الفضل ممن يعانونه و يعالجون مآزقه ومشاقه .

الثامن :

أن لنا برهانا جديدا ، على مبلغ ثقافتهم وسمتها ، ذلك هو إنتاجهم داخل الديوان فما منهم إلا وله مئات الرسائل فى شتى الأغراض . وهو يجهد النفس فى التجديد فيها والاختراع ، أسلوبا ومعنى وتصويرا ، حذرا من المؤاخذة ، والعيون إليه شاخصة . حتى المعانى المسبوقة يجتهد أحدهم فى أن يسكبها فى قالب لفظى جديد — على حد ما قاله القلقشندى فى موازنته بين كتابة الأموال وكتابة الإنشاء .

ولوجمع ما كتبه أصحاب الديوان ، وكتاب السر ، عدا المنشئين الآخرين ، فى طول العصر ، بل فى فترة منه ، لكان للأدب منه ثروة ضخمة رائعة .

وقد ذكر المقريزى عند كلامه عن «مكان ديوان الانشاء » وأنه كان بجوار قاعة الصاحب بقلعة الجبل ، وفيه قعد مع الكتاب أيام صحابة القاضى بدر الدين بن فضل الله العمرى فى نحو سنة ٧٧٠هـ ، قال :

« فلما زالت دولة الظاهر برقوق ثم عادت ، اختلت أمور كثيرة . ومنها أمر قاعة

الإنشاء بالقلعة وهجرت . وأخذ ما كان فيها من الأوراق . وبيعت بالقنطار »[١] . ولاريب أن بينها قناطير من المكاتبات الأدبية المحفوظة. وقال الصفدى عن نفسه : « إنه كتب بيده مايقارب خمسمائة مجلدة . ولعله كتب فى الإنشاء ضعف ذلك »[٢]

ولعله من المناسب أن نذكر حملة ضياء الدين بن الأثير على مقامات الحريرى ، ووصفه لها بأنها« صور موضوعة فى قوالب حكايات مبينة على مبدأ ومقطع . بخلاف الكتابة — ويعنى داخل الديوان — فإن أحوالها غير متناهية . وأنه لوروعى حال ما يكتبه الكاتب فى أدنى مدة لكان مثل المقامات مرات » . ومثل ذلك يقال فى كتاب عصر المماليك . على أن كتابى «التعريف» لابن فضل الله ، و «قهوة الإنشاء » لابن حجة، معرض جيل ونموذج لإنتاج رجال الديوان .

وبعد فلسنا نبالغ فنبرىء كتاب الديوان من العيوب المتصلة بصناعتهم. وقد عابهم منذ القديم كثير من نقاد الأدب ، ذلك لأنه اندس بين أهل العمل منهم ، من ليس أهلا للعمل ، شأنهم فى ذلك شأن سياسة الدواوين فى كل عصر . فالمعيبون هم غير الأكفاء منهم ، ولاينبغى أن يكون ذلك مطعنا فيهم عامة .

هذا وقد أطال القلقشندى فى ذكر من عابهم ، وفى ذكر معايبهم ، حتى نقل كلمة لطيفة لصاحب نهاية الأدب ختمها بهذين البيتين قائلا : لله در القائل :

لعن الزمان فقد أتى بعجاب ... ومحا فنون الفضل والآداب
وأتى بكتاب لو انبسطت يدى ... فيهم رددتهمُ إلى الكتاب

وسيرد علينا بعد قليل فى فصل «الأسئلة والأجوبة» ، ماوقع بين ابن نباته المصرى، وكتاب الديوان ، وماعابهم به وجادلهم فيه .

---

١ — الخطط ج ٣ ص ٣٦٦

٢ — راجع ترجمة الصفدى فى الدرر ج ٢ رقم ١٦٥٤ ، وفى مقدمة الوافى بالوفيات ج ١

الفصل الثاني

الرسائل الديوانيـــة

نعنى بالرسائل الديوانية ، تلك التي كان يدبجها كتاب ديوان الإنشاء في المناسبات الرسمية للدولة ، جارية على لسان السلطان ، أو بأمر منه .

وبد هي أن تتعدد وتتنوع بتعدد هذه المناسبـات وتنوعهـا . وما كان أكثرها وأوفرها .

فكانوا — مثلا — يـكتبونها عند مخاطبة ملوك البلاد الأخرى في أحد الشئون الهامة ذات الصلة بالبلدين . وعند تولية سلطان جديد ، عهدا له من خليفة زمانه ومبايعة . وعند سفر السلطان ونزوله وعودته ، للحرب أو الرياضة أو نحوهما : وعند الفتح والغزو والظفر والهزيمة . وعند تعيين النواب والقضاة وموظفي الدولة ، وعند عهد السلطان بولاية سلطنته لولى عهده ، وعند عهد الخليفة بولاية خلافته لولى عهده كذلك . وعند زواج السلطان — مثلا — أو أحد أبنائه ، وعند البشارة بوفاء النيل ، إلى غير ذلك من المناسبات .

وتعتبر الرسالة بهذا ، وثيقة رسمية تسجل الحادث وتصفه .

ونجمل فيما يلى ، الإشارة إلى ألوان من هذه الرسائل الديوانية ، لنبين مدى اشتراكها في تأدية حاجة الدولة في ناحيتيها السياسية والاجتماعية ، ذاكرين أنها كانت أهم ضروب الرسائل في المجال الأدبى ، وأقوم النماذج التي يحتذيها كتاب الإنشاء بالديوان وخارجه ، ويحتذيها غيرهم أيضا من أفاضل المنشئين والأدباء فيما يتعاطون من

إنشاء . كما كانت الميدان الفسيح الذى يتبارى فيه جياد المترسلين ، إظهارا لكفايتهم وإشعارا بمقدرتهم ، لينالوا من وراء ذلك جاها وعزا وسلطانا .

ونذكر أيضا أنها كانت أكثر من سواها رعاية لرسوم الديوان ، ومافيه من التقاليد الإنشائية واللوازم الكتابية ، فى البدء والختام وبين السطور ، وفى ذكر الألقاب والأوصاف والأدعية ، ومايتناسب من ذلك كله مع كل مقام ، كما سنبينه فى الفصل الأخير بعون الله .

ونحن إذ نشير إلى ألوان منها ، لانستوعب ولانحاول الاستيعاب والإحاطة . فليس بحثنا معنيا بهذه الناحية إلا بمقدار مايجلى مكانة الأثر الأدبى فى الأفق الاجتماعى وبمقدار مانشعر القارىء بأن هذا الأثر كان كائنا حيا ينبض بالحركة والقوة ، ويشارك الأحياء ويؤدى وظيفته بينهم كما أريد له فى عصره .

فمن الرسائل الديوانية : الرسائل الملوكية ، وما يتصل بها من مهادنات ويمين ومفاسخات . ومنها العهود والمبايعات . ومنها التقاليد والتواقيع والمناشير والمراسيم والمساميح . ومنها البشارات ومنها الصداق — فهذه أهم أنواعها .

ونوجز القول فيما يلى عن كل نوع منها .

---

١ — الرسائل الملوكية :

نعنى بالرسائل الملوكية ، تلك المكاتبات التى كانت ترسل على لسان السلطان إلى غيره من الملوك والسلاطين والأمراء ، فى أمر ذى بال ، مبادأة بها ، أوردا على مثلها .

ولعلها أهم الديوانيات، من ناحية صلتها الوثيقة بالتعبير عن السياسة العليا للدولة، وبيان نزعات السلطان، وإيضاح نواياه وخططه، إزاء المرسل إليه وبلاده، ومن ناحية ماقد يترتب عليها من مودة وحسن اتصال، أوخصام قد يعقبه قتال. فقد تكون تهديدا أوردا على تهديد، وقد تكون إعلاما بغزو وظفر، أوإيذانا بتحرك عدو، أو إتهاما بممالأة خصم، أو إجابة لمعونة، أوعرضا لقضية، أو فضا لمشكلة، أوشكرا على هدية، أوتعزية، ونحو ذلك مما يكون بين الملوك الأنداد، أوبين السلطان وكبار نوابه فى الأقاليم.

ويبدو أن الملوك المعاصرين لمصر فى هذه الحقبة — ومنهم ملوك التتار — نهجوا فى المكاتبات السلطانية نهجا مشابها، واتخذوا لأنفسهم كتابا ينشئون رسائلهم إلى ملوك مصر وأشباههم، بالعربية، أو ينشئونها بالمغولية ثم تترجم إلى العربية بنفس الأسلوب المتبع فى مراسلات ديوان الإنشاء. (١)

ولعل من بواكير رسائلهم، تلك الرسالة التى بعث بها هولاكو التترى الذى أزال ملك بنى العباس، وأنهى دولتهم عام ٦٥٦ هـ، ثم طفق يعيث فسادا بالديار الشامية متجها منها نحو الديار المصرية، تلك التى أرسلها إلى سلطان مصر « المظفر قطز »

---

١ — فى تاريخ الآداب العربية لجورجى زيدان ج ٣ ص ١٠٥ أن شهاب الدين بن عربشاه تولى ديوان الإنشاء للسلطان محمد الأول ملك الأتراك العثمانيين. وكتب عنه إلى ملوك الأطراف بالعربية والفارسية والتركية.

وروى أبو المحاسن فى كتابه « النجوم الزاهرة » ج ٨ ص ١٣٦ قصة وفود وفد التتار على سلطان مصر الناصر بن قلاوون عام ٦٩٨ هـ، ومعهم كتاب إليه عن ملكهم. وقال بالنص: « فلما كان ليلة الخميس فتح الكتاب وقرىء على السلطان وهو مكتوب بالمغلى ». وعلق الناشر فى الهامش على ذلك، نقلا عن نسخة أصلية للكتاب، قول المؤلف: « وهو مكتوب بالتركى ». — ثم قال أبو المحاسن عنه: « وهو مكتوب بخط غليظ فى نصف قطع البغدادى. ومضمونه ...» الخ. وقوله: « مضمونه » يشعرنا بترجمة الكتاب إلى العربية. فقد أورد أبو المحاسن نص هذا المضمون بتمامه. ويرى القارىء جزءا من هذا المضمون بعد قليل فى الصفحات الآتية.

عام ٦٥٨ هـ ، يدعوه فيها إلى الاستسلام والدخول فى طاعته ويصف له قوته وجبروته ، ويهدده تهديدا صاخبا .

وتعد الرسالة المذكورة نموذجا رائعا من نماذج « أدب الحرب » ، الذى تراءى مرارا بين الآداب العربية .

---

١ — ونسوق إليك فقرات منها ، قال فى مفتتحها :

« من ملك الملوك شرقا وغربا ، القان[1] الأعظم ، باسمك اللهم باسط الأرض والسماء : يعلم الملك المظفر قطز ، الذى هو من جنس المماليك الذين هربوا من سيوفنا إلى هذا الأقليم ، يتنعمون بأنعامه ، ويقتلون من كان بسلطانه . بعد ذلك ، يعلم الملك المظفر ، وسائر أمراء دولته وأهل مملكته ، بالديار المصرية وما حولها من الأعمال ، أنا نحن جند الله فى أرضه ، خلقنا من سخطه ، وسلطنا على من حل به غضبه . فلكم بجميع البلاد معتبر . وعن عزمنا مزدجر . فاتعظوا بغيركم . وأسلموا إلينا أمركم . قبل أن ينكشف الغطا . فتندموا ويعود عليكم الخطا . فنحن مانرحم من بكى . ولا نرق لمن شكا . وقد سمعتم أننا قد فتحنا البلاد . وطهرنا الأرض من الفساد . وقتلنا معظم العباد . فعليكم بالهرب ، وعلينا الطلب . فأى أرض تأويكم . وأى طريق تنجيكم وأى بلاد تحميكم ؟ فما لكم من سيوفنا خلاص ، ولا من مهابتنا مناص . فخيولنا سوابق وسهامنا خوارق . وسيوفنا صواعق . وقلوبنا كالجبال . وعددنا كالرمال . فالحصون لدينا لا تمنع . والعساكر لقتالنا لا تنفع . ودعاؤكم علينا لا يسمع . فانكم أكلتم الحرام . ولا تعفون عند كلام . وخنتم العهود والأيمان . وفشا فيكم العقوق والعصيان . فأبشروا بالمذلة والهوان . « فاليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تستكبرون فى الأرض بغير الحق ، وبما كنتم تفسقون »

---

١ — لفظ القان غير عربي ، وهو لقب رؤساء الترك ثم المغول — عن فهرست سلوك المقريزى جـ ١ ص ١١٦٥ .

وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون » .

فمن طلب حربنا ندم . ومن قصد أماننا سلم . فإن أنتم لشرطنا ولأمرنا أطعتم . فلكم مالنا وعليكم ماعلينا . وإن خالفتم هلكتم . فلا تهلكوا نفوسكم بأيديكم . فقد حذر من أنذر . وقد ثبت عندكم أن نحن الكفرة ، وقد ثبت عندنا أنكم الفجرة . وقد سلطنا عليكم من له الأمور المقدرة ، والأحكام المدبرة . فكثيركم عندنا قليل . عندنا ذليل . وبغير الأهبة مالملوككم عندنا سبيل . فلاتطيلوا الخطاب . وأسرعوا برد الجواب . قبل أن تضرم الحرب نارها . وترمى نحوكم شرارها . فلا تجدون مناجاها ولاعزا . وتدهون منا بأعظم داهية . وتصبح بلادكم منكم خالية . فقد أنصفنا كم إذ راسلنا كم . وأيقظناكم إذ حذرناكم . فما بقى لنا مقصد سوا كم .

والسلام علينا وعليكم ، وعلى من أطاع الهدى . وخشى عواقب الردى . وأطاع الملك الأعلى .

ألا قل لمصر ها هلاون قد أتى ... بحد سيوف تنتضى وبواتر
يصير أعز القوم منها أذلة ... ويلحق أطفالا لهم بالأكابر »[1]

هذا وقد أثارت هذه الرسالة ثائرة قطز وحماسته ، وحفزته وأمراءه وجنوده إلى أن هبوا على بكرة أبيهم يدفعون عن بلادهم هذا الخطر الداهم . وخفوا إلى الديار الشامية فى جحفل لجب ، والتقوا بالتتار فى موقعتين فاصلتين هما « عين جالوت » و « بيسان » هزموهم فيهما هزيمة منكرة ، فارتدوا عن مصر داحرين ، فلم يقيض لهم بعد دخولها وهما مقدمة الوقائع التى منى فيها التتار بالهزيمة .

---

١ — النص منقول من سلوك المقريزى ج ١ ص ٤٢٧ — وهلاون من أسماء هولا كو .

٢ — وإليك مثلا آخر، وهو رسالة كتبها محيي الدين عبد الظاهر[1]، على لسان الملك الظاهر بيبرس إلى بيموند، أحد أمراء الصليبيين بالشام، وكان يملك طرابلس وأنطاكية. وكان بيبرس قد دهم مدينة طرابلس في شعبان عام ٦٦٦ هـ، وأثخن فيها. ثم زايلها إلى أنطاكية فحاصرها واستولى عليها في رمضان من العام المذكور، وكان بيموند وقت فتح أنطاكية مقيما بطرابلس، فبعث إليه السلطان هذه الرسالة، يبشره فيها بفتح أنطاكية — والبشرى هنا تهكم مرير — وقد صور فيها ما أصاب طرابلس وأنطاكية معا من خراب ودمار، تصويرا أدبيا مؤثرا تعززه المجانسات الساخرة، والطباقات والتضمينات الهازئة، وغير ذلك من البديعيات التي تفيض بألوان التهديد والوعيد.

والرسالة هنا، تعتبر وثيقة رسمية بتسجيل خبر الفتح، وبنية السلطان على معاودة القتال. وقد قيل في سلوك المقريزي في أعقاب هذه الرسالة، ما نصه: «ولما وصل إليه هذا الكتاب اشتد غضبه، ولم يبلغه خبر أنطاكية إلا من هذا الكتاب».

وإليك فقرات من هذه الرسالة، قال في مفتتحها، ويتجلى فيه أدب التراسل، على الرغم من ظروف الرسالة:

«قد علم القومص[2] الجليل المبجل. المعزز الهمام. الأسد الضرغام. بيمند فخر الأمة المسيحية. رئيس الطائفة الصليبية كبير الأمة العيسوية... ألهمه الله رشده.

---

١ — أثبته في سلوك المقريزي جـ ١ ص ٥٦٧ هكذا «ابن عبد الطاهر». والراجح أنه محيي الدين، لأنه كان منشىء الديوان في عهد بيبرس، وقد توفي عام ٦٩٢ هـ بعد ما خدم ديوان الإنشاء أكثر من عشرين عاما. تزعم فيها الكتاب والشعراء وتعصب لطريقة الفاضل. (ترجمته في فوات الوفيات جـ١ ص٧١؛ — والدرر الكامنة جـ ٣ — وطبقات الحفاظ للذهبي — وحسن المحاضرة جـ ١ ص ٢٧٣).

٢ — القومص تعريب اللفظ اللاتيني Comes وهو في الفرنسية Comte وفي العربية الدارجة. الكونت. هامش السلوك جـ ١ ص ٥٦٦.

وقرن بالخير قصده . وجعل النصيحة محفوظة عليه . ما كان من قصدنا طرابلس وغزونا له فى عقر الديار . وما شاهده بعد رحلينا من إخراب العمائر وهدم الأعمار . وكيف كنست تلك الكنائس من بساط الأرض . ودارت الدوائر على كل دار . وكيف جعلت تلك الجزائر من الأجساد على ساحل البحر كالجزائر . وكيف قتلت الرجال ، واستخدمت الأولاد ، وتملكت الحرائر . » الخ

ومنها يتهكم به وينذره :

« هذا وأنت تنظر نظر المغشى عليه من الموت . وإذا سمعت صوتا ، قلت فزعا : « على هذا الصوت» . وكيف رحلنا رحيل من يعود . وأخرناك وما كان تأخيرك إلا لأجل معدود . وكيف فارقنا بلادك ، وما بقيت ماشية إلا وهى لدينا ماشية . ولا جارية إلا وهى فى ملكنا جارية . ولا سارية إلا وهى من أيدى المعاول سارية . ولا زرع إلا وهو محصود . ولا موجود إلا وهو منك مفقود . » الخ

ومنها يصف فتح أنطاكية . وما عناه خيالة بيموند من صرع تحت سنابك الخيل وما عاثه النهابة من السلب فى المدينة وما جرى على رجالها وحرائرها من هول وذل ، وما لحق بالمدينة من ألوان الخراب . قال :

« فلو رأيت خيالتك وهم صرعى تحت أرجل الخيول . وديارك والنهابة فيها تصول والكسابة فيها تجول . وأموالك وهى توزن بالقنطار . وداماتك[1] وكل أربع منها تباع، فتشترى من مالك بدينار . ولو رأيت كنائسك وصلبانها قد كسرت ونشرت . وصحفها من الأناجيل المزورة قد نثرت . وقبور البطارقة قد بعثرت . ولو رأيت عدوك المسلم ، وقد داس مكان القداس . والمذبح وقد ذبح فيه الراهب والقسيس والشماس . والبطارقة وقد دهموا بطارقة . وأبناء المملكة وقد دخلوا فى المملكة . ولو شاهدت النيران وهى فى قصورك تخترق والقتلى بنار الدنيا قبل نار الآخرة تحترق . وقصورك وأحوالك قد حالت . وكنيسة بولص وكنيسة القسيان ، وقد زلت وزالت . لكانت

١ ـــ داماتك : يبدو أن معناها سيداتك أونساؤك وزوجاتك ، ولفظها فرنسى .

تقول : « ياليتنى كنت ترابا . وياليتنى لم أوت بهذا الخبر كتابا » . ولكانت نفسك تذهب من حسرتك . ولكنت تطفىء النيران بماء عبرتك . ولو رأيت مغانيك وقد أقفرت من معانيك . ومراكبك وقد أخذت فى السويدية بمراكبك . فصارت شوانيك من شوانيك . لتيقنت أن الإله الذى أعطاك أنطاكية منك استرجعها . والرب الذى أعطاك قلعتها منك قلعها . ومن الأرض اقتلعها . »الخ(١)

---

٣ — وإليك نموذجاً آخر :

فى نحو عام ٦٩٨ هـ كانت الوقائع مساجلة بين التتار وسلطان مصر الناصر محمد قلاوون . وفى شهر ذى القعدة من العام المذكور ، أرسل ملك التتار محمود غازان وفدا إلى الناصر بن قلاوون ، ومعهم رسالة ، تتراوح معانيها بين الوعد والوعيد ، و بين المصالحة والتهديد . ذكر فيها ما كان من جنود الناصر من عبث وفساد فى جهات ماردين . وإنما أوقع بهم بسبب ذلك ، و بسبب استغاثة أهل ماردين به منهم . وأنه فعل ذلك بدافع من الإسلام الذى يقطع دابر المفسدين . ثم يطلب الصلح و يستهدى السلطان .

وقد رد عليه الملك الناصر برسالة ملؤها الوعيد والتهكم ، معربا عن ارتيابه فى نيات غازان فى الصلح . وقد ذكره بما لجنود مصر فيما سلف ، من إذلال لآبائه وأجداده . ثم أبدى استعداده لقبول الصلح ، إذا صدقت النية ، وإلا فالحرب سجال .

واعتذر الناصر عن هزيمة جنوده بماردين ، بأنهم أحجموا عن قتال جنود غازان حينما علموا أنهم يدينون بدين الإسلام ، ولا يحل لمسلم سفك دم أخيه المسلم ، ولهذا وقع الفشل فى صفوفهم .

كما اعتذر عن الإهداء إليه ، حتى يبدأ هو بإرسال هديته إعلانا منه بالصفاء ،

---

١ — الرسالة نصها كامل فى سلوك المقريزى جـ ١ ص ٩٦٦

و إعلاما بالسعى إلى المصالحة والمودة ، وطلب إليه فى أعقاب الرسالة أن يوفد إليه رجلا ذا مكانة ورأى مسموع بينهم ، يستطيع معه النظر فى أمر الصلح .

وتتسم كلتا الرسالتين — كما يتسم كثير غيرهما فى مثل مناسبتهما — بجملة سمات ، منها : السخرية والتهكم بالمرسل إليه ، يكالان له كيلا ، مع قدر وافر من التهديد والإنذار . ومنها : الفخر البالغ ، و إظهار العظمة والتنويه بالقوة والقدرة على البطش وسفك الدماء ، كل ذلك يبديه المرسل فى أسلوب غائم مثقل بسحب قتال يشتد فيها البرق والرعد ، ومنها اتخاذ الإسلام والدفاع عن الدين ذريعة وسببا وستارا لأعمال العدوان والغزو والفتح ، والسلب والنهب ، مع اعتبار ذلك إقامة للعدل و إحقاقا للحق و رعاية للمظلوم ، وانتقاما من الظالم ، وتأديبا للعاصى العابث .

وننقل إليك فقرات من كل رسالة . فمن رسالة غازان — أومن مضمونها وترجمتها — ماجاء فى مستهلها ، قال :

« بسم الله الرحمن الرحيم . وننهى — بعد السلام إليه — أن الله عز وجل ، جعلنا وإياكم أهل ملة واحدة وشرفنا بدين الإسلام وأيدنا وندبنا لإقامة مناره وسددنا . وكان بيننا وبينكم ما كان بقضاء الله وقدره . وما كان ذلك إلا بما كسبت أيديكم ، وما الله بظلام للعبيد . وسبب ذلك أن بعض عساكركم أغاروا على ماردين وبلادها فى شهر رمضان المعظم قدره ، الذى لم تزل الأمم يعظمونه فى سائر الأقطار . وفيه تغل الشياطين وتغلق أبواب النيران . فطرقوا البلاد على حين غفلة من أهلها . وقتلوا وسبوا وفسقوا وهتكوا محارم الله بسرعة من غير مهلة . وأكلوا الحرام . وارتكبوا الآثام . وفعلوا مالم تفعله عباد الأصنام » .

وبعد أن ذكر استنجاد أهل ماردين به ، قال منوها بنجدته لهم وهزيمته لجنود الناصر :

« فهزتنا نخوة الكرام . وحركتنا حمية الإسلام . فركبنا على الفور بمن كان معنا.

ولم يسعنا بعد هذا المقام . ودخلنا البلاد وقدمنا النية • وعاهدنا الله تعالى على مايرضيه عند بلوغ الأمنية . وعلمنا أن الله تعالى لايرضى لعباده الكفر بأن يسعوا فى الأرض فسادا — والله لايحب الفساد — وأنه يغضب لهتك الحريم وسبى الأولاد . فما كان إلا أن لقيناكم بنية صادقة . وقلوب على الحمية للدين موافقة . فمزقناكم كل ممزق • والذى ساقنا إليكم هو الذى نصرنا عليكم وما كان مثلكم إلا كمثل قرية كانت آمنة مطمئنة... الآية . فوليتم الأدبار . واعتصمتم من سبوقنا بالفرار فعفونا عنكم بعد اقتدار . ورفعنا عنكم حكم السيف البتار . وتقدمنا إلى جيوشنا ألايسعوا فى الأرض كما سعيتم . وأن ينشروا من العفو والعفاف ماطويتم . ولوقدرتم ماعفوتم ولاعففتم • ولم نقلدكم منة بذلك. بل حكم الإسلام فى قتال البغاة كذلك . وكأن جميع ماجرى فى سالف القدم.ومن قبل كونه ، جرى به فى اللوح القلم . » الخ

وبعد أن أطال فى وصف جيوشه ، وما وقع منها من إغاثة ونجدة ، ومن إقرار للأمن إلى غير ذلك ـ قال فى طلب الصلح :

« والآن فإنا وإياكم لم نزل على كلمة الإسلام مجتمعين ، وما بيننا ما يفرق كلمتنا إلا ما كان من فعلكم بأهل ما ردين . وقد أخذنا منكم القصاص ، وهو جزاء كل عاص • فترجع الآن فى إصلاح الرعايا . ونجتهد نحن وإياكم على العدل فى سائر القضايا. فقد ضرت بيننا وبينكم حال البلاد وسكانها • ومنعها الخوف من القرار فى أوطانها . وتعذر سفر التجار . وتوقف حال المعايش لانقطاع البضائع والأسفار . ونحن نعلم أننا نسأل عن ذلك ونحاسب عليه . وأن الله عز وجل لايخفى عليه شىء فى الأرض ولافى السماء . وأن جميع ما كان وما يكون ، فى كتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها • وأنت تعلم أيها الملك الجليل ، أنى وأنت مطالبون بالحقير والجليل. وأننا مسئولون عما جناه .أقل من ولينا ه • وأن مصيرنا إلى الله • وأنا معتقدون الإسلام. قولاوعملا ونية . عاملون بفروضه فى كل وصية . » الخ.

أما رسالة الناصر بن قلاوون ، فقد عول فى مستهلها على رد فرية غازان عن جنود مصر ، وأبان أنهم لم يعبثوا بجهات ماردين . وإنما وقع العبث من غيرهم من الطامعين، ووصفهم بالسجد الصائمين . . . قال .

« بسم الله الرحمن الرحيم . علمنا ما أشار الملك إليه ، وعول فى قوله وفعله عليه . فأما قول الملك : قد جمعتنا وإياكم كلمة الإسلام ، وإنه لم يطرق بلادنا ولا قصدها إلا لما سبق به القضاء المحتوم ، فهذا الأمر غير مجهول . بل هو عندنا معلوم . وأن السبب فى ذلك غارة بعض جيوشنا على ماردين ، وأنهم قتلوا وسبوا وهتكوا الحريم وفعلوا فعل مالا له دين . فالملك يعلم أن غارتنا مابرحت فى بلادكم ، مستمرة من عهد آبائكم وأجدادكم . وأن من فعل ما فعل من الفساد ، لم يكن برأينا ولا من أمرائنا ولا الأجناد . بل من الأطراف الطامعة ممن لا يؤبه إليه، ولا يعول فى فعل ولا قول عليه . وأن معظم جيشنا كان فى تلك الغارة ، إذا لم يجدوا ما يشترونه للقوت ، صاموا لئلا يأكلوا ما فيه شبهة أو حرام وأنهم أكثر ليلهم سجد ، ونهارهم صيام . » الخ

ومن كلامه يقرعه ويعيره :

« وأما قول الملك إنه لما التقى بجيشنا مزقهم كل ممزق . فمثل هذا القول ما كان يليق بالملك أن يقوله أو يتكلم به ، وهو يعلم — وإن كان ما رأى ، يسأل كبراء دولته وأمراء عساكره — عن وقائع جيوشنا ومراتع سيوفنا من رقاب آبائه وأجداده، وهى إلى الآن تقطر من دمائهم . إن كنت نصرت مرة ، فقد كسرت آباؤك مرار[1] . وإن كان جيشك قد داس أرضنا مرة ، فبلادكم لغارتنا مقام ، ولجيوشنا قرار وكما تدين تدان . » .

ومن كلامه يذكر طلب الصلح فى أسلوب من التهكم والريب ، ويطلب منه اختيار رجل صالح لمفاوضته :

١ — مرار هكذا بدون نصب لضرورة السجعة .

« فإن كنتم تريدون الصلح والإصلاح . وبواطنكم كظواهركم متتابعة فى الصلاح .
وأنت أيها الملك طالب الصلح على التحقيق . وليس فى قولك مين ولا يشوبه تنميق .
فنحن نقلدك سيف البغى . ومن سل سيف البغى قتل به . ولا يحيق المكر السىء إلا
بأهله . فيرسل إلينا من خواص دولتك ، رجل يكون منكم ممن إذا قطع بأمر وقفتم
عنده . أوفصل حكما انتهيتم إليه ، أوجزم أمرا عولتم عليه . يكون له فى أول دولتكم
حكم وتمكين . وهو فيما يعول عليه ثقة أمين . لنتكلم معه فيما فيه الصلاح لذات البين .
وإن لم يكن كذلك عاد بخفى حنين » (١)

ومن هذه الرسائل الخارجية : «المهادنات» وهى رسائل تكتب بتقرير الهدنة بين السلطان وأحد أعدائه من تتار أوفرنجة أوغيرهما ، أوبينه وبين حكام آخرين من أمراء الأقاليم ، ممن تقع بينه وبينهم مناوشات وحروب ، تنتهى إلى مفاوضات فصلح فهدنة . ويكتب بذلك رسالة ، كثيرا ما تحشى بأسماء البلاد والأماكن التى تمت بخصوصها المصالحة والمهادنة . ولا يراعى فى كتابتها السمت الأدبى تمام الرعاية ، على نسق ما هو معهود فى المراسلات الأخرى .

ويتصل بالمهادنات : « اليمين » . وهى صيغة تكتب مثقلة بألوان القسم الإسلامية إذا كان المقسم مسلما ، وبألوان القسم المسيحية ، إذا كان مسيحيا . ويحلف كل من المتهادنين على هذه الصيغة — كل فيما يناسبه — بالوفاء لمهادنه على ما عاهده عليه ، وارتضياه معا .

كما يتصل بها أيضاً «المفاسخات» وهى رسائل تكتب فى فض المهادنات وبيان أسباب ذلك .

---

١ — الرسالتان نصهما الكامل مثبت فى النجوم الزاهرة ج ٨ ص ١٣٦ ، ١٤٢ .

و نثبت لك هنا بياناً بألوان من هذه الرسائل ، دالين على مواضعها وموضوعاتها ذاكرين أن بعض المنشئين — كالشهاب الحلبي — كانوا يتلهون أحياناً بتمرين القريحة على إنشاء بعض هذه الرسائل ، دون أن تكون لها داعية واقعية .

فمن الرسائل الملوكية :

١ — رسالة على لسان السلطان المؤيد شيخ المحمودى ، إلى صاحب تونس يذكر له فيها قضيته مع سلفه الملك الناصر فرج بن برقوق . وكتبها تقى الدين بن حجة الحموى منشىء الديوان فى ذلك الحين . ونصها مثبت فى كتابه المخطوط « قهوة الإنشاء » .

٢ — جواب على لسان المؤيد شيخ أيضاً إلى صاحب اليمن ردا على مكاتبته ، يذكر له مودته وكتبه ابن حجة ، ومثبت فى «قهوة الإنشاء» ، وفى خزانة الأدب ص ٤٢٦.

٣ — رسالة ملك التتار « إيلخان » أحمد تكدار ، بفارس ، إلى السلطان المنصور قلاوون عام ٦٨١ هـ ، يخبره فيها باعتناقه الإسلام ، و بأنه خف إلى إطفاء فتنة تابعيه ضد بلاد السلطان . و يطلب إليه أن يتفقا معا على ما فيه صلاح المسلمين .

٤ — رسالة المنصور قلاوون إلى « إيلخان » السابق ذكره ، ردا على رسالته المذكورة ، يرحب بدخوله الإسلام و يوافقه على طلب الإصلاح .

وكلتا الرسالتين مثبتتان فى سلوك المقريزى ج ١ ص ٩٧٢ وما بعدها .

٥ — رسالة إلى متهم بموالاة العدو ، كتبها الشهاب الحلبى ، وهى مثبتة فى «حسن التوسل» ص ١٣٩

٦ — رسالة الناصر بن قلاوون إلى نائبه « سلار » حينما توجه الناصر إلى الكرك للاعتزال بها عام ٦٩٨ هـ . مثبتة فى النجوم الزاهرة ج ٨ ص ١٨٠ .

٧ – وفى ص ١٥ من كتاب « التعريف بالمصطلح الشريف » لابن فضل الله العمرى . رد على مراسلة أرسلها ابن مطهر إمام الزيدية من صنعاء ، يشكو صاحب اليمن إلى السلطان الناصر بن قلاوون ، ويستعديه عليه ، وفى الرد إجابة لطلبه بتحفظ .

٨ — وفى ص ١٧ من صبح الأعشى ج ١٤ ، صورة مهادنة ؛ يبدو أنها من إنشاء القلقشندى مؤلف الكتاب ، كتبها على لسان ملك قوى إلى ملك ضعيف ، على أن يتقاضى منه مالا أو نحوه ، كل عام .

وفى ص ٣١ منه ، نص « مهادنة » كتبت بين الظاهر بيبرس سلطان مصر ، وبين الأسبتار أحد أمراء الصليبيين بالشام ، ومدتها عشر سنين كتبت عام ٦٦٥هـ .

وفى ص ٣٩ « مهادنة » أخرى بين بيبرس وملكة بيروت .

وفى ص ٤٢ « مهادنة أخرى بين بيبرس وولده الملك السعيد ، وبين الفرنجة الاسبتار بقلعة لد بالشام .

وفى ص ٥١ « مهادنة » أخرى بين الملك الأشرف خليل بن قلاوون ، وبين صاحب برشلونة الفرنجى

الخمس المهادنات الأخيرة ، ذكر القلقشندى فى أعقابها أنه نقلها من تذكرة « محمد بن المكرّم » أحد كتاب الإنشاء بالدولة المنصورية « قلاوون » ، المسماة « تذكرة نزهة الأديب » من نسخة بخطه .

ب — العهود والمبايعات :

العهد رسالة ديوانية تصدر عن خليفة أو سلطان ، إلى من اختاره لولاية الخلافة أو السلطنة من بعده ابنا كان أو غير ابن ، أى لولاة العهد .

والمبايعة رسالة ديوانية أخرى ، تكتب للخليفة أو الملك ، عند قيامه لأول مرة

بأعباء منصبه . إقرارا له به ورضا عنه . وتصدر — عادة — إلى الملك ، على لسان خليفة عصره ، وإلى الخليفة ، على لسان سلطان زمانه .

وقد قال شهاب الدين بن فضل الله العمرى فى كتابه « التعريف » عند كلامه عن القسم الثانى من الرسائل ما نصه :

« اعلم أن هذا ينقسم إلى أقسام . فنها : عهود ، ولا تكون إلا للخلفاء عن الخلفاء أوالملوك ، ولا تكون إلا عن الخلفاء أو الملوك . يكتب لولاة العهد عن المستقلين. فأما من قام من الخلفاء بغير عهد ممن تقدم ، فإنما يكتب له مبايعة . » .

وقال : « وأما من قام من الملوك بغير عهد من الخليفة ولا ملك متقدم ، فلم تجر العادة بكتابة مبايعة له » .

على أننا نرى أن المؤرخين خلطوا بين العهود والمبايعات والتقاليد ، ولم يتحروا الدقة تماما فى تسمية كل نوع باسمه . وسموا أحيانا أحدها باسم الآخر . وسمى السيوطى — مثلا — بعض المبايعات « تقاليد »[1]

كما أنه يبدو لنا أن صدور العهود والمبايعات ، لم يكن تقليدا ديوانيا متبعا فى كل الأحوال عند حلول مناسباتها .

والعهد والمبايعة نمط من الرسائل السلطانية ، تبدأ بالخطبة وفيها الحمد لله والثناء عليه ، والصلاة على نبيه الكريم ، وبيان جلال الخلافة ، أو عظمة السلطنة ، وما ينبغى لشاغلها من صفات كريمة ومناقب حميدة ، وأن هذه الصفات والمناقب تجمعت فى فلان — الخليفة أو الملك أو ولى العهد — فاستأهل منصبه بسببها . ويفاض عليه من آيات المدح والثناء ، بمقدار ما يستطيعه قلم منشىء الرسالة ، وبمقدار ما يتلاءم مع المفاض عليه وسطوته . ويوصى بوصايا تتفق وطبيعة منصبه ، من رعاية العدل وحماية

١ — راجع حسن المحاضرة ج ٢ ص ٨٠

الدين ، ومن إنصاف للرعية وقطع لدابر الفساد ، إلى غير ذلك . هذه سمات العهد أو المبايعة فى جملتها .

ويوكب أحيانا لتلاوة العهد أو المبايعة ، فيقام لذلك حفل حاشد يحضره علية رجال الدولة(١) . ويكتب بخبر ذلك إلى الأقاليم لأخذ موافقتها على العهد أو المبايعة .

وإليك نماذج من هذه العهود والمبايعات :

١ — عهد أمير المؤمنين الحاكم بأمر الله — الأول — العباسى ، المتوفى عام ٧٠١ﻫ إلى ولده أبى الربيع سليمان ، الملقب بعدُ بالمستكفى بالله — الأول ، بولاية الخلافة من بعده . وقد ولى الخلافة بناء على هذا العهد ، وبعد أن أمضاه سلطان عصره الناصر محمد بن قلاوون ، بعد استيثاقه من شيخ الإسلام حينذاك تقى الدين بن دقيق العيد القشيرى قاضى قضاة الشافعية ، بصلاح المستكفى للخلافة .

وقد قيل فى مفتتحة مُوَرِّى بلقب المستكفى وكنيته أبى الربيع :

« الحمد لله الذى رفع المستكفى به ، لما انتصب بشريف همته ، للمحل الأسمى ، ومنح الأمة به ربيع خفض العيش وجزم أمرهم على الصلاح والتوفيق جزما . وأدام الأئمة من قريش ، ونظم لآلىء حكم أحكامهم فى جيد الزمان نظما — وجعل الناس تبعا لهم فى هذا الأمر ، فغيرهم بالخلافة المعظمة لا يدعى ولا يسمى . » الخ

ومنه ينص على عهد الحاكم إلى ولده ، قال :

« إنه عهد إلى ولده لصلبه ، الإمام المستكفى بالله أبى الربيع سليمان . شيد الله به أركان الإيمان . ونصر ببركة سلفه العصابة المحمدية ، على أهل الكفر والطغيان وجعله ولى العهد . واستخلفه من بعده . لما علمه من أهليته وعدالته وكفالته . وصلاحه

---

١ — راجع حسن المحاضرة جـ ٢ تحت عنوان « ذكر من قام بمصر من الخلفاء العباسيين » وتحت عنوان « ذكر سلاطين مصر الذين فوض إليهم خلفاء مصر العباسيون » .

فذاك وكفايته، وشخصه لشهود هذا المكتوب الشريف. ونبه على استحقاقه لتلك ومحله العالى المنيف عهدا صحيحاً شرعياً. معتبراً تاما مرعيا. وفوض إليه أمر الخلافة المعظمة تفويضاشرعيامعتبرا. وعقد له عقد ولاية العهد على الأمة عقدا صحيحا » الخ ويلى ذلك إشهاد الشهود بنفس الأسلوب والمنهج. (١)

---

٢ — وبايع السلطان المنصور أبو بكر بن الناصر محمد بن قلاوون، عام ٧٤١ هـ، أحمد بن الخليفة المستكفى بالله بالخلافة، بعد أن خلع منها الخليفة الواثق، وكتب صورة المبايعة ابن فضل الله العمرى. فقال يصف البيعة

بيعة يصلح الله بها الأمة، ويمنح بسببها النعمة، ويجازى الرفاق. ويسرى المنا فى الآفاق. ويتزاحم زهر الكواكب على حوض المجرة الدفاق. بيعة سعيدة ميمونة. بها السلامة فى الدين والدنيامضمونة. بيعةصحيحةشرعية. بيعة ملحوظة مرعية. تسابق إليها كل نية. وتطاوع كل طوية. ويجمع عليها شتات البرية. يستهل بها العام. ويتهلل البدر التمام. بيعة متفق على الإجماع عليها. والإجماع يبسط الأيدى إليها. انعقد عليها الإجماع. فاعتقدصحتها من سمع الله وأطاع. وبذل فى تمامها كل امرىء ما استطاع. حصل عليها اتفاق الأبصار والأسماع. ووصل بها الحق إلى مستحقه. وأقر الخصم واقطع النزاع، تضمنها كتاب مرقوم يشهده المقربون. وتلقاه الأئمة الأقربون. الحمد لله الذى هدانا لهذا، وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله »

ومنها فى مدح المبايع:

« إنه الحائز لما زرت عليه جيوب المشارق والمغارب. والفائز بملك ما بين المشارق والمغارب. الرامى فى صفيح السماء هذه الدرة المنيفة. الراقى بعد الأئمة الماضين ونعم الخليفة. المجتمع فيه شروط الإمامة. المتضع لله وهو ابن بيت لا يزال الملك فيهم إلى يوم القيامة. الذى يفضح السحاب نائله. والذى لا يغره عاذره، ولا يغيره عاذله.

---

١ — نص العهد والإشهاد فى حسن المحاضرة ج ٢ ص ٥٤

والذى ما ارتقى صهوة المنبر بحضرة سلطان زمان ، إلا قال ناصره وقام قائمه ولا قعد على سرير الخلافة إلا وعرف أنه ماخاب مستكفيه ولا عاب حاكمه » الخ.

ومنها فى الدعاء له :

« أيد الله ببقائه الدين . وطوق سيفه رقاب الملحدين . وكبت تحت لوائه المعتدين. وكتب له النصر إلى يوم الدين . وكب بجهاده على الأذقان طوائف المفسدين. وأعاذ به الأرض ممن لا يدين بدين . وأعاد بعدله أيام آبائه الخلفاء الراشدين والأئمة المجتهدين. الذين قضوا بالحق و به كانوا يعدلون . وعمله كانوا يعملون. ونصر أنصاره.وقدر اقتداره. وأسكن فى القلوب سكينته ووقاره . ومكن له فى الجود وجمع له أقطاره » الخ [١]

---

٣ — وقال السيوطى يذكر مبايعة الخليفة المستنصر بالله ، أول خلفاء بنى العباس فى مصر ، للملك الظاهر بيبرس ، بالملك عام ٦٥٩ هـ ، مانصه :

« فى يوم الاثنين رابع شعبان ، ركب الخليفة والسلطان والقاضى والوزراء والأمراء وأهل الحل والعقد ، إلى خيمة عظيمة ، قد ضربت ظاهر القاهرة . فألبس الخليفة السلطان بيده خلعة سوداء ، وعمامة سوداء ، وطوقا فى عنقه من ذهب ، وقيدا من ذهب فى رجليه . وفوض إليه الأمور فى البلاد الإسلامية وما سيفتحه من بلاد الكفر ولقبه بقسيم أمير المؤمنين . وصعد فخر الدين بن لقمان رئيس الكتاب ، منبرا ، فقرأ عليه تقليد السلطان ، وهو من إنشائه » الخ .

وقد افتتحه ابن لقمان بقوله :

« الحمد لله الذى أضفى على الإسلام ملابس الشرف . وأظهر بهجة دره ، وكانت خافية بما استحكم عليها من الصدف. وشيد ماوهى من علائه ، حتى أنسى به ذكر من سلف . وقيض لنصره ملوكا اتفق عليهم من اختلف » .

وبعد الحمد والصلاة قال يذكر السلطان ومناقبه :

---

١ — المبايعة نصها الكامل فى حسن المحاضرة ج ٢ ص ٥٩

« وبعد فإن أولى الأولياء بتقديم ذكره . وأحقهم أن يصبح القلم راكعا وساجدا لتسطير مناقبه وبره ، من سمى فأضحى سعيه للحمد متقدما ، ودعا إلى طاعته فأجاب من كان منجدا ومتهما . ومابدت يد فى المكرمات إلا كان لها زندا ومعصما . ولا استباح بسيفه حمى وغى ، إلا أضرم منه ناراً ، وأجرى منه دما .

ولما كانت هذه المناقب الشريفة مختصة بالمقام العالى المولوى السلطانى الملكى الظاهرى الركنى — شرفه الله وأعلاه — ذكره الديوان العزيز النبوى الإمامى المستنصرى — أعز الله سلطانه — تنويها بشريف قدره ، واعترافا بصنيعه الذى تنفد العبارة المسهبة ولاتقوم بشكره . وكيف لا ، وقد أقام الدولة العباسية بعد أن أقعدتها زمانة الزمان . وأذهبت ما كان لها من محاسن و إحسان ، وعتب دهرها المسىء لها فأعتب . وأرضى عنها زمنها ، وقد كان صال عليها صولة مغضب . فأعاده لها سلما بعد أن كان عليها حربا . وصرف إليها اهتمامه ، فرجع كل متضايق من أمورها واسعا رحبا . » الخ

وقال يوصيه :

« فلاحظ أمور الأمة، فقد أصبحت لها حاملا. وخلص نفسك من التبعات اليوم ، ففى غد تكون مسئولا لا سائلا . ودع الاغترار بأمر الدنيا ، فمانال أحد منها طائلا . وما رآها أحد بعين الحق إلا رآها حائلا زائلا . فالسعيد من قطع منها آماله الموصولة . وقدم لنفسه زاد التقوى ، فتقدمه غير التقوى مردودة لامقبولة . وابسط يدك بالإحسان والعدل ، فقد أمر الله بالعدل وحث على الإحسان . وكرر ذكره فى مواضع من القرآن . وكفر به عن المرء ذنوبا كتبت عليه وآثاما . وجعل يوما واحدا منها كعبادة العابد ستين عاما . وما سلك أحد سبيل العدل إلا واجتنيت ثماره من أفنان . ورجع الأمر به بعد تداعى أركانه وهو مشيد الأركان . وتحصن من حوادث زمانه ، والسعيد من تحصن من حوادث الزمان . وكانت أيامه فى الأيام أبهى من الأعياد. وأحسن فى العيون

من الغرر فى أوجه الجياد . وأحلى من العقود إذا حلى بها عاطل الأجياد[1] » الخ

وإليك بيانا بعهود ومبايعات أخرى :

١ — عهد من الخليفة المعتضد بالله العباسى ، إلى ولده أبى عبد الله محمد « المتوكل على الله » بالخلافة . ونصه فى حسن المحاضرة ج ٢ ص ٦٥ .

٢ — مبايعة — أو تقليد — صادرة من الخليفة الحاكم بأمر الله — الأول — العباسى إلى السلطان الملك المنصور قلاوون الصالحى عام ٦٧٨ هـ بالسلطنة وتفويض أمور البلاد إليه . وهى من إنشاء محيى الدين بن عبد الظاهر . ونصها فى حسن المحاضرة ج ٢ ص ٨٠ .

٣ — تجديد عهد — أو مبايعة — من الخليفة المستكفى بالله — الأول — العباسى ، إلى السلطان المظفر بيبرس الجاشنكير عام ٧٠٨ هـ بولاية السلطنة . ونصه فى حسن المحاضرة ج ٢ ص ٨٢ ، وفى النجوم الزاهرة ج ٨ ص ٢٦٣ — وقد قرىء هذا العهد الجديد على الناس بمنابر القاهرة — وقال أبو المحاسن: إن الناس ضجوا وصاحوا لانريد المظفر . . .

٤ — تجديد قسم بولاية العهد للملك السعيد بن الظاهر بيبرس . كتبه القاضى فخر الدين بن لقمان . ونصه فى سلوك المقريزى ص ٩٦٩ ، ملحق رقم ٣ .

هذا . ومن العهود ما يسمى « كفالة » أو « عهدا بكفالة » . وتكون على لسان الخليفة ، إلى أحد ملوك المسلمين فى القاصية ، يوليه أمور بلاده ، ويقره على ما بيده .

---

١ — النص الكامل لهذه المبايعة فى حسن المحاضرة ج ٢ ص ٤٩ وما بعدها . وكذلك فى سلوك المقريزى ج ١ ص ٤٥٣ .

ومن أمثلتها ما أشار إليه ابن حجة الحموى فى خزانة الأدب ص ١٧ تحت باب « براعة الاستهلال » ، من أنه كتب عهداً بكفالة السلطنة ، صادرا من الخليفة المستعين بالله العباسى ، إلى السلطان العادل مظفر شاه ملك دهلى بالهند .

ج — التقاليد :

التقاليد من أهم الرسائل الديوانية . والتقليد بمثابة أمر تعيين يصدر إلى موظف من كبار موظفى الدولة . أو تسجيل لهذا الأمر ، وإيذان به ، وتحديد له . ويكتب على لسان السلطان ، بقلم صاحب ديوان الإنشاء ، أو أحد منشئى الديوان الممتازين . وهو عادة ، « منشىء ديوان الإنشاء بالممالك الإسلامية الشريفة » .

ومن الموظفين الذين تكتب لهم « التقاليد » عند اختيارهم للوظيفة : صاحب ديوان الإنشاء . قضاة القضاة . نظار الأوقاف . الوزراء . بعض نواب السلطنة ، وبعض أمراء النواحى المتملكين بها والموالين للسلطان . وكتاب السر .

ويبدو أن « التقاليد » تكتب أكثر ما كانت ، عند تعيين أحد المتعممين فى وظيفة من وظائف القضاء أو الكتابة أو ما يشابههما من عليا الوظائف .

وربما كانت «التقاليد» أكثر رسائل الديوان صدورا ، لتواتر حاجة الدولة إلى كبار الموظفين ، مع كثرة ما يتعرضون له من نقل أو عزل .

والتقاليد، شبيهة فى زماننا ، بالمراسيم أو الأوامر التى يصدرها رئيس الدولة بتعيين كبار الموظفين ، فى مناصبهم الهامة كالوزراء والسفراء ووكلاء الوزارات والمحافظين ، وشيخ الأزهر ومديرى الجامعات ، ومفتى الديار .

وإذا استثنينا مراسيم تشكيل الوزارات ، رأينا الوجازة والإشارة غالبتين على المراسيم والأوامر . وهذا ما يفرقها عن التقاليد . إذ فى « التقاليد » تفصيل وإطناب

وترادف ومبالغة وروعة تصوير ورعاية للنمط البديعي واللوازم الديوانية الكثيرة.

ففي « التقليد » تفاض ألقاب التعظيم والإجلال على من يصدر إليه . وتذكر صفاته الممتازة ومؤهلاته الشخصية العلمية والخلقية مثلا ، التي من أجلها وقع اختيار السلطان عليه لشغل منصبه . ويحدد له فيه اختصاصه في أداء عمله . ويوصى بوصايا عدة تتناسب معانيها مع ما هو بصدده من الأعمال ، ومع طبيعة وظيفته .

وهذا النسق الكتابي يتسق وروح العصر ومنطق حوادثه وسياق حياته ، إذ هو عصر تروج فيه المبالغات والتهاويل وإراعة الجماهير بادعاء العدالة وحماية الدين واختيار الأكفاء النزاه لولاية الشئون العامة . وهذه أمور تستدعي الإطناب واصطناع أدواته في كتابة الرسائل . وإذا علمنا أن هذه «التقاليد» كان بعضها أحيانا يقرأ على الجماهير في المساجد ونحوها ، عرفنا داعية جديدة من دواعي إطنابها .

وقد قال ابن حجة الحموي في كتابه « خزانة الأدب » ص ٤٣٩ ما نصه :

« ومما أنشأته بالديار المصرية وحصل إجماع الأمة على أنه من الأفراد ، تقليد مولانا قاضي القضاة جلال الدين شيخ الإسلام البلقيني نور الله ضريحه — بعد عزل الهروي . ويوم قراءته بالجامع المؤيدي أرخه المؤرخون ، وذكروا أنه لم يتفق بملك مصر يوم نظيره » .

ويبدو أن ثمة سببا آخر للاطناب، هو الصلات الودية التي كانت تربط بين رجال الإنشاء ورجال القضاء أو الوزارة أو نحوهما ممن يعينون بتقاليد ، فاتخذوها فرصة طيبة للثناء عليهم واستبقاء مودتهم .

وسنشير عند الحديث عن خصائص النثر ، إلى الآداب والشروط الكتابية التي روعيت في تدبيج التقاليد وما إليها من تواقيع ومناشير ونحوها ، مما سجله الشهاب الحلبي في « حسن التوسل » وابن فضل الله في « التعريف » والقلقشندي في « صبح الأعشى » .

وقد أطلق السيوطى لفظ « التقاليد » على المبايعات والعهود عند حديثه عنهما — كما أشرنا — غير أنّ ابن فضل الله ، فى التعريف فرق بين « التقاليد » والعهود و « التفاويض » و « التواقيع » ، كما سنشير إليه عند الحديث عن « التواقيع » .

والآن نعرض عليك بعض نماذج التقاليد ، فمنها :

١ — كتب شهاب الدين محمود الحلبى « تقليدا » على لسان سلطانه[1] ، إلى متملك سيس[2] ، بإقراره على ماقاطع النهر من بلاده ، ويقع هذا التقليد فى نحو ثمانين سطرا . قال فى مفتتحه :

« الحمد لله الذى خص أيامنا الزاهرة باصطناع ملوك الملل . وفضل دولتنا القاهرة بإجابة من سأل . بعض ما أحرزته لها البيض والأسل . وجعل من خصائص ملكنا إطلاق الممالك وإعطاء الدول والمنّ بالنفوس التى جمامها النصر لنا من جملة الخول . وأغرى عواطفنا بتحقيق رجاء من مدّ إلى عوارفنا كف الأمل . وأفاض بمواهب نعمائنا على من أناب إلى الطاعة ، حلل الأمن بعد الوجل . وانتزع بآلائنا لمن تمسك بولائنا أرواح رعاياه من قبضة الأجل . وجعل برد العفو عنه وعنهم بالطاعة نتيجة ما أذاقهم العصيان من حرارة الغضب ، إذ ربما صحت الأجسام بالعلل . » الخ

وقال بعد الحمد والثناء والصلاة على النبى — أى بعد انتهائه من خطبة التقليد ، يبين عظمة المملكة وقوتها :

« وبعد . فإنه لما آتانا الله ملك البسيطة . وجعل دولتنا بأعنة ممالك الأقطار محيطة . ومكن لنا فى الأرض . وأنهضنا من الجهاد فى سبيله بالسنة والفرض . وجعل كل يوم تُعرض فيه جيوشنا من أمثلة يوم العرض . وأظلتنا بوادر الفتوح . وأطلت

---

١ — لعل هذا السلطان هو الناصر بن قلاوون   ٢ — متملك سيس يزعم أنه من البيت القسطنطينى . ومن ملك منهم سمى « التكفور » . وقد تشكك ابن فضل الله فى نسبتهم إلى هذا البيت ويقول إن جدهم لأكبر كان رئيس النصارى بهذه البلاد — راجع التعريف لابن فضل الله ص ٥٥

على الأعداء سيوفنا التي هي على من كفر بالله وكفر بالنعمة دعوة نوح . وأيدنا بالملائكة والروح. على من جعل الواحد سبحانه ثلاثة . فانتصر بالأب والابن والروح. وألقت إلينا ملوك الأقطار السلم . وبذلت كرائم بلادها وتلادها . رغبة فى الالتجاء من عفونا إلى ظل أعلى من علم . وتوصل من كان منهم يظهر الغلظة ، بالذلة والخضوع . وتوصل من كان منهم يبدى القوة بالإخلاص الذى رأوه لهم أقوى الجنن وأوقى الدروع. عاهدنا الله تعالى ألا نرد منهم آملا . ولا نصد عن مشارع كرمنا ناهلا . ولا نخيب من إحساننا راجيا ولا نخلى عن ظل برنا لاجيا . علما أن ذلك شكر القدرة التى جعلها لنا الله على ذلك الأمل ووثوقاً بأنه حيث كان ، فى قبضتنا ، متى ما نشاء تجمع عليه الأنامل » الخ .

ومنه يبين أسباب لجوء ملك سيس إلى إظهار الولاء للسلطان ، وطلب إقراره له على ما بيده ، وإجابته إلى طلبه :

« ولما . . . وكان الملك ممن يريد طرق النجاة ، فلم ير إليها بسوى الطاعة سبيلا . ويأمل أسباب النجاح ، فلم يجد عليها غير صدق الانتحاء دليلا . فأبصر بالخدمة موضع رشده . وأدرك سعيه نافر سعده . وأراه الإقبال كيف تثبت قدمه فى الملك الذى زلت عنه قدم من سلف وأظهر له الإشفاق على رعاياه ، مصارعُ من أورده سوء تدبير أخيه موارد التلف . وعرفه التمسك بإحساننا كيف احتوت يده على ما لم يبق العصيان فى يد أخيه منه إلا الأسى والأسف . وحسنت له الثقة بكرمنا ، كيف يحمل الطلب. وأعلمته الطاعة كيف تستنزل عوارفنا عن بعض ما غلبت عليه سيوفنا ، وإنما الدنيا لمن غلب . وانتمى إلينا فصار من خدم أيامنا وصنائع نعمائنا ، وقطع علائقه عن غيرنا فلجأ منا إلى ركن شديد . وظل مديد . ونصر عتيد . وحرم يؤوى آمله إليه . وكرم تقر نضارته ناظريه . وإحسان يمتعه بما أقره عطاؤنا فى يديه . وامتنان يضع عنه إصره والأغلال التى كانت عليه اقتضى إحساننا أن يقضى له عن بعض ما حلت جيوشنا

ذراه . وحلت سطوات عسا كرنا عراه . وضعفت عزمات سرايانا قواه . ونشرت طلائع جنودنا ما كان ستره صفحنا عنهم من عورات بلادهم وطواه » الخ[1]

---

٢ — وكتب محيي الدين بن عبد الظاهر ، على لسان السلطان الملك السعيد بن بيبرس ، فى نحو عام ٦٧٦ هـ تقليدا صادرا إلى بهاء الدين بن حنا « وهو الصاحب على ابن سديد الدين محمد » ، بالوزارة . وقد كان وزيرا من قبل لأبيه بيبرس ، فثبته فى وزارته — قال الكاتب فى خطبة هذا التقليد :

« الحمد لله الذى وهب هذه الدولة القاهرة من لدنه وليا . وجعل مكان سرها وشد أزرها عليا . ورضى لها من لم يزل عند ربه مرضيا نحمده على نعمه التى أمسى بنا برها حفيا . ونشكره على أن جعل دولتنا جنة أورث تدبيرها من عباده من كان تقيا » الخ .

وقال يذكر فضل الصاحب بهاء الدين على الدولة ، ويشيد بصفاته ومزاياه وشخصيته :

« كم لها فى الوجود من كرم وكرامة . وفى الوجوه من وسوم ووسامة . كم أحيت مهجا . وكم جعلت للدولة من أمرها مخرجا . وكم وسعت أملا وكم تركت صدر الخزائن ضيقا حرجا . وكم استخدمت جيش تهجد فى بطن الليل ، وجيش جهاد على ظهور الخيل . وكم أنفقت فى واقف فى قلب بين الصفوف والحروب . وفى واقف فى صفوف المساجد من أصحاب القلوب . كم سبيل يسرت . وسعود كثرت . وكم مخاوف أدبرت حين دبرت . وكم آثار فى البلاد والعباد أبرت وأثرت . وكم وافت ووفت . وكم كفت وكفت . وكم أعفت وعفت وعفت . وكم بها موازين للأولياء ثقلت ، وموازين للأعداء خفت .

---

١ — التقليد نصه الكامل فى حسن التوسل . للشهاب الحلبى ص ١٥٧

وكم أجرت من وقوف . وكم عرفت بمعروف . وكم بيوت عبادة، صاحب هذه البركات هو محرابها . وسماء جود هو سحابها . ومدينة علم هو بابها » الخ

ومنها يصرح باسمه ، ويضفى عليه ألقابا مدحا له وتعظيما لشأنه :

« وإذا كان لابد للمادح أن يجول . وللقلم أنه يقول . فتلك بركات المجلس العالى الوالدى الصاحبى الوزيرى السيدى الورعى الزاهدى العابدى الذخرى الكفيلى المهدى المشيدى العونى القوامى النظامى الأفضلى الأشرفى العاملى العادلى البهائى . سيد الوزراء والأصحاب فى العالمين كهف العابدين . ملجأ الصالحين . شرف الأولياء المتقين . مدبر الدول . سداد الثغور . صلاح الممالك . قدوة الملوك والسلاطين . يمين أمير المؤمنين . على بن محمد . أدام الله إجلاله . من تشرف الأقاليم بحياطة قلمه المبارك والتقاليد بتجديد تنفيذه الذى لا يسام فيه ولا يشارك . » .

ومنها ينوه باختصاصه وعمله :

« خرج الأمر العالى . لابرح يكسب ببهاء الدين المحمدى أتم الأنوار . ولابرحت مراسمه تزهو من قلم منفذه بذى الفقر وذى الفقار . أن يضمن هذا التقليد الشريف بالوزارة التامة العامة الشاملة الكاملة الشريفة الصاحبية البهائية أحسن التضمين . وأن ينشر منها ما يتلقى روايته كل رب سيف وقلم باليمين . وأن يعلم كافة الناس ومن يضمه طاعة هذه الدولة وملكها ، من ملك وأمير . وكل مدينة ذات منبر وسرير . وكل من جمعته الأقاليم من نواب سلطنة . وذوى طاعة مدعنة . وأصحاب عقد وحل وظعن وحل وذوى جنود وحشود . ورافعى أعلام وبنود . وكل راع ورعية . وكل من ينظر فى الأمور الشرعية . وكل صاحب علم وتدريس . وتهليل وتقديس . وكل من يدخل فى حكم هذه الدولة العالية من شموسها المضيئة وبدورها المنيرة ونجومها المشرقة وشهبها الثاقبة . فى الممالك المصرية والنوبية والساحلية والكركية والشوبكية والشامية والحلبية ، وما تداخل بين ذلك من ثغور وحصون وممالك

إن القلم المدرك الصاحبي البهائي في جبينه هذه الممالك مبسوط ، ونظر مدبرها منه مبسوط ، وعنايته متعقبة لها محوط ، وله النظر في أحوالها وأموالها ، وإليه أمر قوانينها ودواوينها وكتابها وحسابها ومراتبها ورواتبها . وتصرفها ومصروفها ، وإليه التولية والصرف . وإليه تقدمة البدل والنعت والتوكيد والعطف .» الخ.(١)

وهاك بعض التقاليد ومواضعها :

١ — تقليد صادر إلى جلال الدين البلقيني بمنصب قاضي قضاة الشافعية . بقلم ابن حجة الحموي ، وقرىء بجامع المؤيد ، وذلك في عهد المؤيد شيخ ، ونصه في خزانة الأدب ص ٤٢٩

٢ — تقليد صادر إلى ناصر الدين بن البارزي بصحابة ديوان الإنشاء بالقاهرة في عهد المؤيد شيخ . وكتبه ابن حجة الحموي . ونصه في قهوة الإنشاء ، وجزء منه في « خزانة الأدب » ص ١٧ ، ٤٢٥ .

٣ — تقليد صادر إلى كمال الدين بن البارزي بصحابة ديوان الإنشاء بالقاهرة . كتبه ابن حجة أيضا . ومنه سطور في حزانة الأدب ص ٢٥ .

٤ — تقليد صادر إلى « سلامس » بمملكة الروم بإقراره على ما بيده ، كتبه الحلبي . ونصه في كتابه « حسن التوسل » ص ١٦٠ .

٥ — وفي كتاب « قهوة الإنشاء » لابن حجة ، جملة من التقاليد من أنشائه .

د — التواقيع والمناشير والمراسيم

كان للتوقيع معنى خاص في عصر بني العباس . وهو الكلمة الوجيزة التي يوقع بها الخليفة أو وزيره مثلا على حواشي ما يرفع إليه من قصص ومظالم ونحوها ، ويغلب

---

١ — التقليد نصه الكامل في حسن المحاضرة ج ٢ ص ١٢٨ تحت عنوان (د ؟ ووزراء مصر)

عليها الإيجاز واجتماع المعانى وحسن الرونق والسهولة مع صحة البلاغة .

وفى عصر المماليك بقيت بقية من هذا المعنى للتوقيع . فقد أطلق لفظ «الموقعين» على كتاب الدست الشريف ، وذلك لأنهم « يوقعون » على حواشى القصص ونحوها فى مجالس السلطان . ومعنى « توقيعهم » كتابة كلمة تتضمن ما ارتآه السلطان بخصوصها ، وربما يعودون إلى ديوانهم لتحرير ما ينبغى لذلك من المكاتبات .

غير أن « التوقيع » فى عصر المماليك أيضا أطلق على أحد ضروب الرسائل والمكاتبات الديوانية ، كان ضربا من التقاليد . وكذلك المراسيم والمناشير . والفرق بينها جميعا ، على ما ذكره ابن فضل الله فى « التعريف » : أن « التقاليد تكتب لكبار الموظفين عند تعيينهم فى مناصبهم ، والتواقيع » للأصغر منهم البالغين شأوهم . والمراسيم هى ما يكتب فى صغائر الأمور التى لا تتعلق بولاية . وأما المناشير فهى ما يكتب للامراء والجند بما يجرى فى أرزاقهم من ديوان الإقطاع . ويكون أخصر خاليا من الوصايا .

ويحسن بنا فى هذا المقام أن ننقل كلام ابن فضل الله العمرى فى كتابه «التعريف» عن هذه المكاتبات الديوانية .

قال عن التقاليد : « ومنها التقاليد . ولا تكون إلا لكفلاء الملك كأكابر النواب والوزراء ومن كان فى معناهما . وقد يكون لأكابر قضاة القضاة ، فالواجب ألا يسمى ما يكتب لهم إلا تفاويض . فأما جمهور من عانى الكتابة فى زماننا وما قاربه فعلى تسميته تواقيع » .

وقال عن التواقيع : « تواقيع » ، وهى لعامة أرباب الوظائف جليلها وحقيرها وكبيرها وصغيرها ، حتى النوب اللاحقين بشأو الكبر فمن دونهم . »

وقد عقب على ذلك بقوله : « وعندى فى هذا نظر . والذى أرى أن يكون لمن

لحق بشأو الكبار منهم : تفاويض والصغار مراسيم ولأدنى الطبقات منهم تواقيع لميزة السيوف على الأقلام . » الخ

وهو بذلك يقنن للديوان .

وقال عن المراسيم : « وهي ما يكتب في صغائر الأمور التي لا تتعلق بولاية »

وقال عن المناشير : « وأما المناشير فهي ما يكتب للأمراء والجند بما يجرى في أرزاقهم من ديوان الإقطاع . وشأنه شأن ماتقدم ، إلا أن المناشير أخصر ولا وصايا فيها ولا إطناب في مقاصد الكاتب يستوفيها »[١] .

وجميعها - كما نفهم — أوامر تعيين وإنما تختلف تسميتها باختلاف مناصب المعينين . كما تختلف طولا وقصرا بحسبها كذلك . وتحتوى كل منها — في جملتها — على الخطبة وذكر صفات الموظف وعبارات مدحه ، وتوصية مناسبة ، وتحديد لاختصاصه وهناك ضروب من الاختلاف في آداب كتابة كل منها ، ولوازمه . سنعود إليها عند الحديث عن خصائص النثر .

وعلى ضوء ما استقرأناه من نماذج التواقيع ، نرى أنها لبثت بعد ابن فضل الله تستخدم فيما كانت تستخدم فيه في زمانه . ومثل ذلك تعيين عامة القضاة في الأقاليم ،

---

١ — راجع التعريف بالمصطلح الشريف ص٨٤ و ٨٥ و ٨٨ — وقال في صبح الأعشى ج١٣ ص ٥٣ . وما بعدها ما مؤداه أن (المثال) مكاتبة رسمية تخرج من ديوان الجيش إيذانا باعطاء أحد المماليك إقطاعا من الإقطاعات الخالية . فاذا وافق عليه السلطان أرسله ناظر ديوان الجيش إلى (ديوان النظر) لتسجيله وكتابة (مربعة) بدلا عنه فيها اسم المقطع ورتبته وما يتصل به من بيانات وترسل (المربعة) إلى ديوان الانشاء ليكتب بها (منشور) والمنشور هو آخر أدوار تلك العملية .

ومنشىء الدواوين والموقعين بها ، وكتاب السر فى غير القاهرة ، ورئيس الأطباء ، ونحو ذلك .

وإليك الآن توقيعا أنشاه تقى الدين بن حجة الحموى ، باستقرار » زين الدين عبد الرحمن بن الخراط » فى كتابة السر بثغر طرابلس . وذلك حينما كان ابن حجة منشىء ديوان الإنشاء بالقاهرة على عهد المؤيد شيخ المحمودى وقد راعى فى إنشائه . التوجيه بمصطلحات البديع ، لصلتها بالكتابة وهى صناعة الموظف الذى صدر إليه التوقيع . فهناك للتوجيه بها مناسبة ، قال منه :

« وبعد . فنهل إنعامنا الشريف قد حلينا لأهل الأدب مورده . لتصير عقود إنشائنا بجواهر منثوره منضدة . وتطلع كل براعة باستهلالها فى أشرف المطالع . وتسكن النزاهة طباق البديع للمقابلة فيتنزه الناظر والسامع : ويقوم الاستخدام بما يجب عليه من واجب الخدمة . ويزيل الاقتباس بنوره عن أهلته كل ظلمة . وتجول خيول الاستطراد فى رد العجز على صدره . ويحصل لأهل الأدب فى زماننا تمكين فيظهر الافتنان فى نظمه ونثره . ويصير لقته المذهب الكلامى فى أيامنا الشريفة ترشيح ومماثلة ومناسبة . ويبرز فى توشيح التسليم من غير اعتراض مناقضة ومواربة . ويجنح العصيان إلى الدخول تحت الطاعة . ويسمع القول بموجبه من غير مراجعة فى كل براعة . ويزول التجاهل بالعارف . ويصير التسجيع والموازنة عند إيجازه بالمواقف .

وكان المجلس العالى القضائى عبد الرحمن بن الخراط الشافعى ممن حُسْنُ بيانه إيضاح ، وللسر عنده حسن إيداع . وللأدب إليه التفات لأنه بجواهر ترصيعه يشنف الأسماع . وهو الفاضل الذى إذا نظم أزال بسهولة نظمه الإبهام والتوهيم . وإذا نثر عقود الإنشاء فلا فرق بين عبد الرحمن وعبد الرحيم . بحسن فى المطالعة والأمثلة طيهُ

ونثره . وهو من الشعراء فيما يبعد من القصص إذا علا فى تفسيره أمره .

فلذلك رسم بالأمر الشريف . لا زالت براعة المطلب منظومة فى بديع زمانه بإنعامه . ولا برحت أبوابه الشريفة فى تصريع وتشريع لوفود أهل الأدب فى أيامه . أن يستقر لأنه ممن يحسن به التحبير ، ويحصل به الاكتفاء والتتميم . ويجمع من نظمه ونثره بين التخميس والترسل فيحسن الجمع بهذا التقسيم .

فليباشر ذلك ، ويجعل الاستعانة بالله ليأمن التنكيت والتعليل . ويصير لشقة الإنشاء بعد النقص تسهيم وتكميل — ويظهر لبرد الكلام بحسن تفصيله تفويف وتوشيع . ولأصول التهذيب والتأديب مبالغة وتفريع .

والوصايا كثيرة لا تخفى على الأديب الفاضل : الاحتراس والفرق بين المستوى والمقلوب . وبه يحصل النسق فى جميع الفرائد وتظهر براعة التخلص فى عنوان كل مطلوب . لأنه الفاضل إن سكن ثغرا لم يفته شنب التورية بحسن نظامه . أو جاور بحرا فهو أديب ، والبحور فى تصريف أوامره فى نقضه وإبرامه .

والله تعالى يجعل نظم هذا الثغر بحسن أدبه فى بلاغة وانسجام . وكما أحسن له الابتداء يعضده بديع السموات والأرض بحسن الختام . »[1]

وإليك تواقيع أخرى :

١ — توقيع لابن حجة ، بنقل ابن الآدمى من الحسبة إلى قضاء الحنفية ببعض الجهات — نصه فى قهوة الانشاء .

٢ — توقيع لابن حجة بتعيين المقرأبى بكر الحنفى فى إفتاء دار العدل : ونصه فى قهوة الإنشاء .

---

١ - التوقيع نصه الكامل فى خزانة الأدب لابن حجة ص ١٤٣ تحت باب « الترجيع »

٣ — توقيع لابن حجة بتعيين رئيس أطباء مصر . ورد به فى خزانة الأدب ص ٥١٧ .

٤ — توقيع للصلاح الصفدى . ضمن مخطوطة بدار الكتب المصرية برقم ٧٠٧ آداب عربية .

---

٥ — البشارات

البشارات من أطرف رسائل الديوان . لما يتاح فيها للمنشيء من ألوان الوصف والمبالغة . وكأنه فيهـا حر الزمام طليق الخطام يسرح ويمرح كما لذ لقلمه وطاب . وموضوعات البشارات تعين بطبيعتها ، على هـذا السرح والمرح . وتزين للكاتب الخيال من جمال التصور ، وما راق الخاطر من حسن التصوير ، وما سال على أسلة القلم من روعة التعبير . فما أشبه تلك الرسائل برسائل الوصف ومقالاته .

وكانوا يكتبونها فى مناسبات كثيرة . منها : تحرك ركب السلطان عن الديار المصرية ، أو عودته إليها . فيضمنون الرسالة حينذاك وصف هذا الرحيل ومراحله ، وما كان فى طريقه من ترحاب أو ولاء وخدمة ومعونة ، قدمها الحكام والأهلون . ويذكرون ما صادفه من وقائع وحوادث ، وما تخلله من تصرفات سلطانية كمنح أو منع أو عفو أو عقوبة أو رضا أو سخط ، أو هدية أو نحو ذلك . يرسلونها إلى البلاد يبشرونها بذلك وبسلامة السلطان وركبه .

ويكتبونها عندما يهب السلطان بجنوده وأمرائه إلى ديار الشام مثلا ، غازيا مجاهدا فى سبيل الله وفى سبيل بلاده . فيضمنونها أخبار الغزو وما يتصل به من حصار وسلاح وخيل . ويبشرون البلاد بجهاد سلطانها وانتصاره المبين فى سبيل الدين . ويشيدون بشجاعته وبراعته وإقدام جنده وأمرائه ، ويكيلون للأعداء الذم والقدح ،

و يصبون على رءوسهم جام الغضب والسخط . و ينعتونهم بكل زرية ورذيلة . و يفيضون فى وصف مفاسدهم وجرائمهم ، إلى غير ذلك .

و يكتبونها عند فيضان النيل ووفائه وكسر خليجه فيفيضون فى وصف بركاته و يمنه ، وطيب أيامه وزمانه . وما تفيده البلاد من مائه من خصب و ينع ، ونبات وزرع . و يصفون مجراه ومساه ووفاءه ، وشواطئه وآثاره ومناظره ، والاحتفال بوفائه إلى غير ذلك .

و يكتبونها عند ولادة مولود للسلطان يهنئون البلاد بولادته .

وهكذا فى مثل هذه المناسبات تكتب البشارات . و يتولى كتابتها أحد منشئى الديوان .

ولم تكن البشارات مقصورة على تلاوتها للجماهير فى داخل البلاد . بل كثيرا ما كانت ترسل البشارات بأنباء الفتوح إلى الموالين من حكام البلاد النائية كاليمن مثلا . أو المعادين من الملوك المحاربين نكاية بهم وتهكما وتهديدا .

وربما اتخذت البشارات سبيلا ومثار للمعاوضات . ومن ذلك ما حكاه تقى الدين ابن حجة الحموى فى كتابة « خزانة الأدب » قال :

« رُسم لى فى الأيام الشريفة المؤيدية سنة تسع عشرة وثمانمائة ، أن أنشىء رسالة بوفاء النيل المبارك ، لم أسبق إليها . ولا حام طائر فكر عليها . وأحضر مولانا المعز الأشرف القاضوى الناصر محمد بن البارزى الجهنى الشافعى صاحب دواوين الإنشاء الشريف بالممالك الإسلامية — تغمده الله بالرحمة والرضوان — قطعة من إنشاء القاضى الفاضل بوفاء النيل . وقرئت على المسامع الشريفة المؤيدية . وحذرت من التعرض إلى شىء من ألفاظها ومعانيها . فأنشأت رسالة ، حكم لأبى بكر

بها على كل فاضل بالتقديم . وإن كان لسان القلم قد طال ، فأنا أقطعه هنا تأدباً مع عبد الرحيم » .

ثم أورد القطعتين .(١)

---

١ — وإليك سطورا من بشارة ابن حجة ، :

« ونبدى لعلمه ظهور آية النيل المبارك الذى عاملنا الله فيه بالحسنى وزيادة . وأجراه لنا فى طرق الوفاء على أجمل عادة. وخلق أصابعه ليزيل الإبهام ، فأعلن المسلمون بالشهادة . وكسر بعمره فأصبح كل قلب بهذا الكسر مجبورا . وأتبعناه بنوروز وبابرح هذا الاسم بالسعد المؤيدى منصورا . ودق قفا السودان فالراية البيضاء من كل قلع عليه . وقبل ثغور الإسلام وأرشفها ريقه الحلو فمالت بأعطاف غصونها إليه . وشبب خريره فى الصعيد بالقصب. ومد سبائكه الذهبية إلى جزيرة الذهب. فضرب الناصرية واتصل بأم دينار . وقلنا إنه صبغ بقوة ، لما جاء وعليه الاحمرار . وأطال الله عمر زيادته ، فتردد الناس على الآثار . وعمته البركة فأجرى سواقى مكة إلى أن غدت جنة تجرى من تحتها الأنهار .وحضن مشتهى الروضة فى صدره ، وحنا عليه حنو المرضعات على الفطيم .

وأرشفه على ظمأ زلالا   ألذ من المدامة للنديم

وراق مديد بحره لما انتظمت عليه تلك الأبيات . وسقى الأرض سلافته الخمرية فخدمته بحلو النبات . وأدخله إلى جنات النخيل والأعناب فالق النوى والحب. فأرضع جنين النبت وأحيا لها أمهات العصف والأب . وصافحته كفوف اللوز فختمتها بخواتيمه العقيقية . ولبس الورد تشريفة وقال : أرجو أن تكون شوكتى فى أيامه قوية. ونسى الزهرى بحلاوة لقائه مرارة النوى . وهامت به الشعراء فأرخت ضفائر فروعها عليه من

---

١ — راجع خزانة الأدب لابن حجة ص ٤٣١ فى سياق باب السجع .

شدة الهوا . واستوفت الأشجار ما كان لها فى ذمة الرى من الديون . ومازج الحوامض فهام الناس بالسكر والليمون » . الخ[١]

---

٢ — وكتب القاضى تاج الدين بن الأثير بشارة إلى صاحب اليمن ، بأمر الملك المنصور قلاوون عام ٦٧٨ هـ ، يعرفه بانتصاره وفتح طرابلس ، جاء فى أوله :

« بسم الله الرحمن الرحيم . أعز الله نصر المقام العالى السلطانى الملكى المظفرى الشمسى . » ومنها :

« وكانت الخلفاء والملوك فى ذلك الوقت ، ما فيهم إلا من هو مشغول بنفسه . مكب على مجلس أنسه . يرى السلامة غنيمة . وإذا عنّ له وصف الحرب لم يسأل منها إلا عن طرق الهزيمة . قد بلغ أمله من الرتبة . وقنع من ملكه — كما يقال — بالسكة والخطبة . أموال تنهب . وممالك تذهب . لا يبالون بما سلبوا . وهم كما قيل :

إن قاتلوا قتلوا أوطاردوا طُردوا   أو حاربوا حُرِبوا أو غالبوا غُلبوا

إلى أن أوجد الله من نصر دينه . وأذل الكفر وشياطينه » .[٢]

وكتب القاضى محيى الدين بن عبد الظاهر ، عن السلطان ، إلى نائب السلطنة بحلب . بشارة بوفاء النيل ، قال فيها :

« أعز الله أنصار المقر وسره بكل مبهجة . وهنأه بكل مقدمة سرور تفد ، والخصب والبركة منتجة . وبكل نعمى لا تصبح لمنة السحاب محوجة . وبكل رخى لا يستعد لأيامها الباردة ولا لياليها المثلجة .

---

١ — البشارة نصها الكامل فى خزانة الأدب ص ٤٢١ باب السجع . وفى ثمرات الأوراق . وفى تأهيل الغريب . وحسن المحاضرة ج ٢ ص ٢١٩ .   ٢ — هذه السطور هى كل ماوجدناه من البشارة المذكورة . راجع النجوم الزاهرة ج ٧ ص ٣٢٢ ، ٣٢٣ .

هذه المكاتبة تفهمه أن نعم الله وإن كانت متعددة . ومنحه وإن غدت بالبركات مترددة . ومننه وإن أصبحت إلى القلوب متوددة . فإن أشملها وأكلها ، وأجلها وأفضلها ، وأجزلها وأنهلها . وأتمها وأعمها . وأضمها وألمها . نعمة أجزأت المن والمنح . وأنزلت فى أبرك سفح المقطم أغزر سفح . وأتت بما يعجب الزراع . ويعجل المراع . ويعجز البرق اللماع . ويغل القطاع . ويفل الإقطاع . وتنبعث أفواهه وأفواجه . ويمد خطاها أمواهه وأمواجه ، ويسبق وفد الريح من حيث ينبرى ، ويغبط مريخه الأحمر القمر ، لأن بيته السرطان ، كما يغبط الحوت ، لأنه بيت المشترى . ويأتى عجبه فى الغد بأكثر من اليوم . وفى اليوم بأكثر من الأمس . ويركب الطريق مجدا ، فإن ظهر بوجهه حمرة ، فهى مايعرض للمسافر من حر الشمس . ولو لم تكن شقته طويلة لما قيست بالذراع . ولولا أن مقياسه أشرف البقاع . لما اعتبر ما تأخر من ماء حوله الماضى بقاع . بينما يكون فى الباب إذا هو فى الطاق ، وبينما يكون فى الاحتراق ، إذا هو فى الاختراق للإغراق . وبينما يكون فى المجارى ، إذا هو فى السوارى . وبينما يكون فى الجباب إذا هو فى الحبال . وبينما يقال لزيادته : هذه الأمواه ، إذا يقال لملاته : هذه الأموال . الخ[١]

---

٤ — وأرسلت بشارة إلى قاضى القضاة بدمشق « شهاب الدين الخويى » ، على لسان السلطان الأشرف خليل بن قلاوون . حينما تم له فتح قلعة الروم عام ٦٩١ هـ . قيل فى مستهلها :

« بسم الله الرحمن الرحيم . أخوه خليل بن قلاوون .

صدرت هذه المكاتبة إلى المجلس السامى القاضى الأجل . الكبير الإمام العالم الفاضل الأثير الأكمل . الأوحد الرئيس الزاهد شهاب الدين . جمال الإسلام فخر الأنام

---

١ — نصها فى حسن المحاضرة ج ٢ ص ٢١٦

شرف العلماء جلال الرؤساء . فخر الأكابر شمس الشريعة صفوة الملوك والسلاطين . خصه اللهُ بأنواع التهانى . وأتحفه بالمسرات التى تعوذ بالسبع المثانى . وأورد على همه من بشائر نصرنا وظفرنا ما يستوعب فى وصفه ومدحه الألفاظ والمعانى . » .

ومنها يصف مشاق المسير إلى القلعة المذكورة . ويذكر فتحها :

« مازلنا نصل السرى بالسير . ونرسل الأعنة إلى نحوها فتمد الجياد أعناقها إليها مدا ينقطع بين قوتها وقوته السير . واستقبلنا من جبالها كل صعب المرتقى . وعر المنتقى . شاهق لايلتقى به مسلك ولايلتقى . فما زالت العزائم الشريفة تسهل حزونه . والشكائم تفجر بوقع السنابك على حجارتها عيونه . والجياد المطهمة ترتقى مع امتطاء متونها بدروع الحديد متونه . فلما أشرف عليها منا أشرف سلطان، جعل جبلها دكا . وحاصرناها حصارا ألحقها بعكا وأخواتها ، وإن كانت أحصن من عكا . ونصبنا عليها عدة مجانيق تنقض حجارتها انقضاض النسور . وتقبض الأرواح من الأجسام وإن ضرب بينها وبينهم بسور . وتفترس أبراجها بصقور رصخور . افتراس الأسد المصور .

هذا والنقوب تسرى فى بدناتها سريان الخيال . وإن كانت جفونها المسهدة وعمدها الممدة . وحفظتها المجندة . ورواسيها على جبل الفرات موطدة . وقد خندقوا عليها خندقا جرت فيه الفرات من جانب . ونهر مرزبان من جانب . ووضعها واضعها على رأس جبل يزاحم الجوزاء بالمناكب . وسفح صرحها الممرد ، فكأنه عرش لها على الماء . وإذا رمقها طرف رائيها اشتبهت عليه بأنجم السماء » الخ[1]

ومن البشارات :

١ — بشارة بقلم ابن حجة الحموى بحلول ركب المؤيد بالديار المصرية عام ٨١٧هـ نصها فى قهوة الإنشاء .

---

١ — نصها فى سلوك المقريزى ج ١ ص ١٠٠٥ ملحق رقم ١١ ، ولم يذكر منشئها .

٢ — بشارة بقلم ابن حجة الحموى بحلول ركب المؤيد شيخ بالديار المصرية عام ٨١٨ هـ نصها فى قهوة الإنشاء .

٣ — بشارة بقلم ابن حجة الحموى بحلول ركب المؤيد شيخ بالديار المصرية عام ٨٢٠ نصها فى قهوة الإنشاء .

٤ — بشارة بقلم صلاح الدين الصفدى بوفاء النيل . نصها فى حسن المحاضرة ج ٢ ص ٢١٧ .

٥ — بشارة بقلم شرف الدين القدسى عن الأمير علم الدين الشجاعى نائب السلطنة بدمشق، إلى قاضى قضاتها شهاب الدين الخوبى بفتح الأشرف خليل لقلعة الروم عام ٦٩١ هـ - غير البشارة التى سبقت إليها الإشارة — ونصها فى سلوك المقريزى ج ١ ص ١٠٠٧ ملحق رقم ١١ .

و — الصداق

الصداق خطبة أو رسالة ومكاتبة ، تسطر بمناسبة زواج . ويبدو أنهـا تتلى فى حفلة العقد .

وقد قال القلقشندى : « قد جرت العادة أنه إذا تزوج سلطان أو ولده أو بنته أو أحد من الأمراء الأكابر وأعيان الدولة ، أن تكتب له خطبة صداق تكون فى الطول والقصر بحسب صاحب العقد . فتطال للملوك ، وتقصر لمن دونهم بحسب الحال » .[1]

والصداق غير خطبة الإملاك . ويفهم من كلام القلقشندى أنه نوعان : رسمى : يكتبه أحد منشئى الديوان حين زواج السلطان أو ولده أو بنته . وهذا ضرب من المكاتبات

---

١ — صبح الأعشى ١٤ ص ٣٠٠

الديوانية. وغير رسمي : ويكتبه أحد المنشئين حينما يتزوج أمير أو كبير، تشبها بالسلطان . ونعتبر هذا ملحقا بالأول .

وتتضمن رسالة الصداق : الحمد لله على توفيقه . والحديث عن الزواج والصهر والنسل . وما يتصل بذلك، أو نحوه ، ويزود بالآمال والأماني ، ويعطر بمدائح تضفى على الزوج والزوجة ووالدها . ويذكر في أعقابه اسم العاقد وولى الزوجة . ثم سطور مستقلة في صيغة الصداق مستهلة بالبسملة ، وتبرز فيها كلمة « أصدقها » أو « هذا ما أصدق » أو نحوهما .

وهذه سطور من صداق كتبه محي الدين بن عبد الظاهر ، عند زواج الملك السعيد بركة بن الظاهر بيبرس ، ببنت أتابكيه الأمير سيف الدين قلاوون الصالحى — قبل سلطنة قلاوون — وكان ذلك بالقلعة ، قال في أوله :

« الحمد لله موفق الآمال لأسعد حركة . ومصدق الفأل لمن جعل عنده أعظم بركة . ومحقق الإقبال لمن أصبح نسيبه سلطانه وصهره ملكه . الذي جعل للأولياء من لدنه سلطانا نصيرا . وميز أقدارهم باصطفاء تأهله حتى حازوا نعيما وملكا كبيرا . وأفرد فخارهم بقربه حتى أفاد شمس آمالهم ضياء وزاد قمرها نورا . وشرف به وصلتهم حتى أصبح فضل الله عليه بها عظيما وإنعامه كثيرا . مهيء أسباب التوفيق العاجلة والآجلة وجاعل ربوع كل إملاك من الأملاك بالشموس والبدور والأهلة آهلة . جامع أطراف الفخار لذوى الإيثار حتى حصلت لهم النعمة الشاملة . وحلت عندهم البركة الكاملة » الخ .

ومنها يعلل لهذا الاتصال :

« فلو كان اتصال كل شيء بحسب المتصل به في تفضيله . لما استصلح البدر شيئا من المنازل لنزوله . ولا الغيث شيئا من الرياض لهطوله ولا الذكر الحكيم لسانا من

الألسنة لترتيله . ولا الجوهر الثمين شيئا من التيجان لحلوله . ولكن ليتشرف بيت يحل به القمر . ونبت يزوره المطر . ولسان يتعوذ بالآيات والسور . ونثار يتجمل باللآلىء والدرر . ولذلك تجملت برسول الله ﷺ أصهاره وأصحابه . وتشرفت أنسابهم بأنسابه . وتزوج ﷺ منهم . وتمت لهم مزية الفخار ، حتى رضوا عن الله ورضى عنهم » .

ومنها يصف العروس ويمدحها :

« فخطب إليه أسعد البرية . وأمنع من تحميها السيوف المشرفية . وأعز من تُسبل عليها ستورُ الصون الخفية . وتضرب دونها خدور الجلال الرضية . وتتجمل بنعوتها العقود ، وكيف لا؟ وهى الدرة الألفية . فقال والدها وهو الأمير المذكور : هكذا تُرفع الأقدار وتزان . وكذا يكون قران السعد وسعد القران . وما أسعد روضا أصبحت هذه المراحم الشريفة السلطانية له خميلة ، وأشرف سيفا غدت منطقة بروج سمائها له حميلة . وما أعظمها معجزة آتت الأولياء من لدنها سلطانا ، وزادتهم مع إيمانهم إيمانا . وما أفخرها صهارة يقول التوفيق لإبرامها : ليت ! وأشرفها عبودية كرّمت سلمانها بأن جملته من أهل البيت . » الخ

ومنه فى الخاتمة نص صريح بالصداق ، قال :

وإذا قد حصلت الاستخارة فى رفع قدر المملوك . خصصته بهذه المزية التى تقاصرت عنها آمال أكابر الملوك . فالأمر لملك البسيطة فى رفع درجات عبده كيف يشاء . والتصدق بما يتفوه به هذا الإنشاء . وهو :

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا كتاب مبارك تحامدت رماح الخط وأقلام الخط على تحريره . وتنافست مطالع النوار ومشارق الأنوار على نظم سطوره . فأضاء نوره بالجلالة وأشرق . وهطل نوءه بالإحسان فأغدق . وتناسبت فيه أجناس تجنيس لفظ الفضل . فقال الاعتراف :

هذا ما تصدق . وقال العرف : هذا ما أصدق . مولانا السلطان أصدقها ماملأ خزائن الأحساب فخاراً . وشجرة الأنساب ثمارا . ومشكاة الجلالة أنوارا . وأضاف إلى ذلك مالولا أدب الشرع لسكان أقاليم ومدائن وأمصارا . فبذل لها من العين المصرى ماهو باسم والدها قد تشرف . وبنعوته قد تصرف . وبين يدى هباته وصدقاته قد تصرف . »(١)

ومن مكاتبات للصداق - الرسمى وغيره :

١ — صداق لابن حجة الحموى ، فى زواج المعز داود بن الكويز على ابنة الناصر بن البارزى . نصه فى قهوة الإنشاء .

٢ — صداق لابن حجة الحموى ، بزواج السلطان الناصر ببنت الأمير السيفى كشبغا . ونصه فى قهوة الإنشاء .

٣ — صداق بزواج المقام الشريف أنوك بن السلطان الناصر بن قلاوون ، من بنت الأمير بكتمر الساق — فى صبح الأعشى ج ١٤ ص ٣٠٣ — مطول —

٤ — صداق بقلم شهاب الدين بن فضل الله العمرى بزواج المقر الشريف ابراهيم ابن الناصر بن قلاوون — فى صبح الأعشى ج ١٤ ص ٣٠٨ .

٥ — صداق بقلم شهاب الدين بن فضل الله العمرى بزواج جمال الدين عبدالله ابن سيف الدين أبى سعيد أمير حاجب ، على بنت بيدمر العمرى — صبح الأعشى ج ١٤ ص ٣١١ .

٦ — وفى صبح الأعشى ج ١٤ ص ٣١٣ ، ٣١٧ ، ٣١٩ على الترتيب ثلاثة صداقات أخرى .

---

١ — نص الصداق فى صبح الأعشى ج ١٤ ص ٣٠٠

ز — الوصايا

الوصية نصيحة يرسلها الكاتب — خلال المكاتبة ، تقليدا أو مبايعة أو توقيعا — و يدعو فيها الموظف المعين إلى التمسك بما جاء فيها .

وليست الوصية لونا من ألوان الرسائل الديوانية ، مستقلا ، ولكنها بعض أغراض المكاتبة ، مما يدور خلالها ، فتلها فيها مثل الحمد والثناء والصلاة على النبى ، والدعاء ، والمديح ، إلى غير ذلك .

وكنا نستطيع أن نتجاوز عنها ، ولا نقف عندها ، ولا نثبتها لونا من ألوان الإنشاء الديوانى . شأنها فى ذلك شأن غيرها من الأغراض الجزئية . ونجتزىء بالإشارة إليها عند الحديث عن لوازم المكاتبات . غير أننا وجدناها لازمة بارزة بين اللوازم لا تكاد تريم عن أية مكاتبة . ورأينا شهاب الدين بن فضل الله العمرى يخصها فى كتابه « التعريف » بحديث مستقل طويل يعرض فيه ما ينبغى أن تكون عليه . لهذا رأينا التنويه بها فى هذا المجال بهذه السطور الوجيزة .

والوصية هنا غير الوصية التى نذكرها فى باب « الخطب » لأن الأولى متنوعة المذاهب ، مختلفة المسالك ، يذهب فيها المنشىء مذاهب عدة ، ويطرق معانى شتى تختلف باختلاف طبيعة الوظيفة واختصاصاتها. أما الأخرى فمقصورة على النصيحة الدينية أو هى تدور حول الدعوة إلى تقوى الله والعزوف عن الدنيا ، — وإن كانت الوصايا الأولى مردها فى النهاية إلى الخلق الكريم فالدين أيضا .

فالوصية التى توجه إلى السلطان فى خلال مبايعته ، يطلب إليه فيها — مثلا — رعاية الحق وإشاعة العدل ، وتقوية الدين ، والحرص على الرعية ، ومكافحة الأعداء ، والسهر الدائم واليقظة إلى غير ذلك مما يشبهه .

والوصية التى توجه إلى نائب السلطنة فى تقليده ، يطلب إليه فيها — مثلا —

تنفيذ الأحكام الشرعية ، ومعاضدة السلطان ، والأخذ بناصر القضاة ، واستخدام سيوفه لمساعدة الأقلام ، ورعاية عساكر الدولة ، وحضهم على خدمتها . ومعاونة جباة الأموال ، واتباع المرسوم فى شئون الجباية ، واستطلاع الأخبار ، ومطالعة السلطان بها إلى غير ذلك مما يشبهه .

والوصية التى توجه إلى الوزير فى تقليده ، يطلب فيها — مثلا — مراقبة الله فى أعماله ، وبذل آرائه الرشيدة فى شد أزر الدولة ، والقيام بعمله تنفيذا لأغراض السلطان لا لأغراضه هو ، وترك أطماعه الشخصية جانبا ، وعدم السعى إلى الاختصاص بالملاذ والمنافع ، والعفة عن المال الحرام ، وعدم اقتطاع شىء من طعام الجند . والبعد عن كل حرام وإبعاد الجند عنه ، وإقامة العدالة فى كل ما يصدر عنه من تولية مرءوسيه أو عزلهم ، وانتخاب الأكفاء لمعاونته ، دون العاجزين ، واستخلاص أموال الدولة التى هى أموال الله، إلى غير ذلك .

وهكذا نستطيع أن نفهم كيف تصاغ الوصية ، لنائب قلعة ، أو استادار[1] ، أو مقدم مماليك ، أو والى حرب ، أو قائد جند فى غزاة ، أو أمير عرب ، أو حافظ الحرمين أو قاضى قضاة ، أو كاتب سر ، إلى غير هذا وذاك .

وقد أسهب ابن فضل الله فى كتابه « التعريف » — كما ألمنا — فى ذكر هذه الوصايا ، وما ينبغى لها من المعانى والنصائح ، المختلفة باختلاف طبيعة الوظيفة . فلتراجع ثمة .

---

١ — الأستادار : لفظ غير عربي وهو من ألقاب الأمراء . والأستادار يوكل إليه النظر فى بيوت السلطان والأشراف على مطابخه ومشاربه وحاشيته وخدمه وينفق على بيوته ومن فيها ويدبر له ما يحتاج إليه فيها — صبح الأعشى ج ٤ ، وخطط المقريزى ج ٣

وفيما سبق من نماذج ، أثبتنا سطورا من الوصية . وهنا نثبت نموذجا واحدا نجتزىء به هذا المقام :

كتب ابن عبد الظاهر تقليدا بالسلطنة إلى المنصور قلاوون ، على لسان الخليفة وقد جاء فيه يوصيه قوله :

« فالواجب أن يعمل بجزئيات أمره وكلياته . وألا يخرج أحد عن مقدماته . والعدل : فهو الغرس المثمر . والسحاب الممطر . والروض المزهر . وبه تنزل البركات وتخلف الهبات . وتربو الصدقات . وبه عمارة الأرض . وبه تؤدى السنة والفرض . فمن زرع العدل اجتنى الخير . ومن أحسن كفى الضرر والضير . والظلم : فعاقبته وخيمة . وما يطول عمر الملك إلا بالمعدلة الرحيمة . والرعية : هم الوديعة عند أولى الأمر ، فلا تختص منهم زيدا دون عمرو . والأموال : فهى ذخائر العاقبة والمآل . فالواجب أن تؤخذ بحقها وتنفق فى مستحقها . والجهاد : برا وبحرا . فمن كنانة الله تفوق سهامه وتؤرخ أيامه ، وينتضى حسامه . وتجرى منشآته فى البحر كالأعلام وتنشر أعلامه . وفى عقر دار الحرب يحط ركابه . وتخط كتابه . وترسل أرسانه . وتجوس خلالها فرسانه . فيلزم منه ديناديدنا . ويستصحب منه فعلا حسنا . وجيوش الإسلام وأمراؤه وحماته : فمنهم من قد علمت قدم هجرته ، وعظم نصرته . وشدة بأسه . وقوة مراسه . وما منهم إلا من شهد الفتوحات والحروب . وأحسن فى المحاماة عن الدين الدءوب . وهم بقايا الدول . وسجايا الملوك الأول . ولاسيما أولى السعى الناجح والرأى الراجح . ومن له نسبة صالحية . فإذا فخروا بهاء قيل لهم نعم السلف الصالح . فأوسعهم برا . وكن بهم برا . فأنت بما يجب من خدمتك أعلم . وأنت بما يجب من حقهم أدرى . والحصون والثغور : فهى ذخائر الشدة . وخزائن العديد والعدة . ومقاعد القتال . وكنائن الرجا والرجال . فأحسن لها التحصين . وفوض أمرها إلى كل قوى أمين . وإلى كل ذى دين متين . وإلى كل ذى عقل رصين . » الخ (١)

---

١ — راجع حسن المحاضرة ج ٢ ص ٨٠ وما بعدها .

الفصل الثالث
الرسائل الاخوانية

الرسائل الإخوانية مظهر من المظاهر الأدبية . و بعض ميادين الكتابة الفنية فى عصر المماليك . لم يقصر كتابها عن بلوغ أسلافهم فى مضمارها ، ولم يبطىء منشئوها عن قدامام فى قضاء أوطارها. تراسلوا بها تراسلا ، وتبادلوها تبادلا، فى وقائع من وقائع حياتهم وفى مناسبات من مناسبات صلاتهم . وأتوا فيهـا بالعجب العجـاب ، من بديع اللفظ ورائع المعنى. واتخذوها مسرحا للهو والتسلية . وحملوها ماشاءت لهم الصداقات والمودات، من عواطف ووجدانات . وساجل بعضهم بعضا فى ميدان الأدب والعلم ، وفى كل ماتسمح به الوشائج والصلات التى تربط بين صديقين أو ندين .

وربما اتخذها بعض الكتاب أداة لمرانة القريحة ، بدون أن تكون لها مناسبة أو واقعة . ولعل هذا مما يفهم من حديث زين الدين بن الوردى الشاعر الناثر ، فى خطبة ديوان شعره ونثره ، إذ قال :

« إنى أمرت أن أكتب فى هذا الكتاب شيئاً من نثرى ونظمى . وهأنا قد أثبت علىّ به مسطورا يشهد بقصر فهمى . وقد يقف الناظر فى مجموعى هذا ، على وصف عذار الحبيب وخده ، ونعت ردفه وقده ، وشكوى عشقه وصده ، وذم الشىء وحمده ، ومدح الشخص لرفده ، وجزر القول ومده . فيظن لذلك بى الظنون . غافلا عن قوله تعالى : « وأنهم يقولون ما لايفعلون » وإنى إنما قلت ذلك على وجه امتحان القريحة ومحبة فى المعانى المبتكرة واللمع المليحة »(1) .

وهذه الكلمة ، وإن كانت منصرفة أكثر منصرفها ، إلى شعره ، تمس نثره بعض

---

1 — راجع خطبة ديوان ابن الوردى .

كالمس . ولعل مما يعزز هذا أن بعض رسائله الإخوانية المثبتة فى ديوانه . لايُدرى لمن أرسلها ، وهى غفل من ذكره .

وروى تقى الدين بن حجة الحموى فى كتابه « تأهيل الغريب » قال متحدثا عن رسالة استدعاء :

« وردت على مولانا قاضى القضاة ، صدر الدين بن الأدمى — سقى الله من غيث الرحمة ثراه — إلى دمشق المحروسة فى زمن الورد ، ورياحين الشبيبة غضة . ومعلوم أنه كان أحد أئمة الأدب . فرسم بتجربة الخواطر . والمجاراة بما تسمح به القرائح من بديع الاستدعاء وغريبه ، اللائق بهذا الفصل . فتزاحمنا بالمناكب . ونثرنا جواهر العقود . فأثبت استدعاء العبد . وقال : هذا أعذب مناهل الورود »[1] .

وقد سجل شهاب الدين أبو الثناء محمود الحلبى فى كتابه « حسن التوسل » جملة من النماذج الإنشائية فى موضوعات مختلفة ، فى جملتها موضوعات إخوانية . وصرح بأنها تجربة للخاطر . وقال فى مطلعها :

« وأما الكتب الإخوانية ، والكتب التى تعمل رياضة للخاطر ، فيما يقل وقوعه لاحتمال أن يقع . أو فيما تمتحن به قوة القريحة ، ويعتبر به تصرف الفطنة ، ويسبر به غور الذهن . ويعلم به استعداد الفكر . فإن الكاتب فى ذلك الأمر مطلق العنان مخلى بينه وبين قوته فيه أو ضعفه . لكن على كل حال ، يراعى كل مقام بحسبه . فمما عملته رياضة للخاطر لصعوبة مسلكه . صورة كتاب إلى إنسان ، يتضمن مخاطبته فى تزويج أمه . . » الخ[2]

وقد سبق لنا التنويه بأهمية هذه الرسائل ، وأنها من خير الوسائل التى تعبر بصدقها

---

١ — راجع تأهيل الغريب المخطوط بدار الكتب المصرية . واقرأ فيه باب الاستدعاء .

٢ — عن حسن التوسل للحلبى .

عن مكنون الضمير وخفى الشعور ، وهواجس النفس وخواطر الأذهان . ولاسيما أنها حرة طليقة من قيود الرسميات التى كثيرا ما تحتاج إلى رصيد كاف من الملق والدهان .

وقد تعددت أنواع الرسائل ، ولـكننا هنا لم نسلك فى عدادها إلا ماطفرت فيه السمات الخالصة للاخوانيات . كأن يبدو فيها الحديث حديث ود . ويبدو بها المرسل قاصا على المرسل إليه إحدى مصادفاته أو هاجساته الشخصية ، أو مايمس علاقتهما .

أما ما لا يتسم منها بهذه السمات ، بل اتخذ وسيلة لوصف حادثة أو كارثة أو صيد أو غزو أو نحو ذلك، مما لاصلة له بالصداقات والروابط الشخصية ، فقد سلكنا كلامنها مع ما يناسبه .

وقد تنوعت الرسائل الإخوانية بتنوع موضوعاتها ، فمنها رسائل فى الشوق والشكر والشكوى والتقريظ والمدح والمداعبة والتسلية والإلغاز ، وإظهار الولاء ، والتهنئة والتعزية، والدعاء والعتاب والاعتذار والتبرىء ، والاستمناح والاستدعاء ، والمجون والغزل والنصيحة . إلى غير ذلك .

طرق كتاب عصر المماليك هذه الأغراض فى مراسلاتهم الإخوانية . وكثير منها — كما يرى القارىء — أغراض شعرية وهذا يدلنا على مدى سعة المجال الذى أتاحته لنفسها هذه المراسلات .

والإخوانيات هنا فضلا عن أسلوبها البديعى الفاضلى ،متأثرة بمصطلحات الرسائل الديوانية ، ولو إلى حد ما . ومثل ذلك بدؤها بخطبة فيها تحميدات وصلوات على النبى عليه السلام ، مع استهلالات بارعة تناسب ألفاظها ومعانيها موضوع الرسالة أوملابسات المرسل إليه . ومثل إظهار الولاء ومكنون الود ودفين الشوق ، ثم عرض الموضوع ثم الختام . مع شىء من الأدعية المناسبة والألقاب المتكررة ، والأبيات الشعرية فى المعنى ، إلى غير ذلك من اللوازم كما سنرى .

ويبدو أن سبب تأثرها بمصطلحات الديوان أن أكثر الأدباء المتراسلين كانوا من أصحاب الديوان أو كتابه أو المتصلين بهم أو المتطلعين إلى وظائفه ، أو المقتدين بمناهج أصحابه ، أو نحو ذلك .

على أن هذا التأثر لم يكن مطردا كل الاطراد ، أو متبعا بالدقة التي نجدها في المراسلات الديوانية .

ويضيق مجال القول في بحثنا عن استيعاب الحديث عن كل نوع من هذه الإخوانيات ، وعرضه عرضا مناسبا ، هو ونماذجه . لهذا نكتفي بالحديث عن البعض دون البعض الآخر . في هذه الوجازات التالية .

ا — رسائل المديح والشكر والتهنئة :

إن رسائل المديح أو التقريض ، أولى الإخوانيات بالعرض والتقديم . ذلك لأنها — فيما نرى — أكثر الرسائل عددا ، ولأن المديح هو السمة الغالبة على الإخوانيات بعامة . وندر أن خلت رسالة إخوانية من عنصر المديح . وأكثر المتراسلين يتبادلون الثناء ويتقارضون الحمد في مراسلاتهم . بل إن هذه المراسلات — على اختلاف ضروبها — إحدى فرصهم الفريدة لإظهار عواطفهم وتقديراتهم . بعضهم نحو البعض . وقد كان أكثرهم أيضا علماء ، برعوا في فقه أو حديث أو نحوهما . ودلفوا بعلمهم هذا إلى مناصب القضاء وما إليها . أو كانوا أدباء من أرباب الأقلام أو مشهوري الشعراء ، ودلفوا من وراء أدبهم هذا إلى ميادين الشهرة ، وإلى مناصب الإنشاء وما إليها . لهذا نرى أن صناعة العلم والأدب وملابساتهما وما يتصل بهما من ألفاظ ومعاني محور الحديث ومصدر الاقتباس في هذه الرسائل ، ومستمد كاتب الرسائل ، ينتزع منها المصطلح اللطيف فيوجه به ، ويسوق من ورائهما التوريات السليمة ، والاقتباسات المستقيمة ، مع رعاية النظير ،

غاية فى الدلالة على لطف الذوق ودقة الحس ونباهة الذاكرة وإباقة البادرة .

والشكر والتهنئة بابان من أبواب المديح يفضيان إليه ، ويختلطان به . والشكر يكون لمعونة أسداها المرسل إليه أوهدية قدمها أوغيبة ردها أوصداقة رعى عهدها ، أونحو ذلك مما يستوجب شكر الصديق لصديقه .

والتهنئة تكون لمولود جديد أشرق نجمه وسعد به أبوه وأمه ، أولعودة من حج أورحلة أوشفاء من مرض أوعودة إلى منصب ، إلى غير ذلك .

وإليك بعض نماذجها :

١ — أنشأ شهاب الدين القلقشندى رسالة فى مدح المقر الفتحى أبى المعالى فتح الله صاحب دواوين الإنشاء الشريف بالديار المصرية بالممالك الإسلامية . وذلك فى شهور سنة ٨١٤ ه [1] ويبدو أنها تهنئة له بصحابة الديوان .

وتقع هذه الرسالة فى نحو ١١٣ سطرا . وقد بدأها بالحمد لله سبحانه وتعالى ، وبالشهادة ، والصلاة على النبى عليه الصلاة والسلام والإشارة إلى مآثره . ثم أخذ يتحدث عن الرياسة فى الدول وأنها تستمد من القرب من الملك . وبين منزلة صاحب الديوان فى الدولة . ثم أخذ فى مدح المقر الفتحى فتح الله بشتى ضروب المديح . فأنه كليم الملك وعميد المملكة والوساطة بين الملك والرعية . وذكر أن الديوان ظل خلوا من صاحب يرأسه حتى اختير المقر الفتحى له ، فتلقت الأيام بالبشرى رياسته . ونعته بحسن الرأى ودقة التدبير ولطف السفارة وعلو الكعب فى الخط والإنشاء . ووازنه ببعض كرام الكتاب ، السابقين كالحسن بن سهل ، وأخيه الفضل بن سهل ، وأبى على بن مقلة . ووصف بيانه بالسحر الحلال ، وأقلامه بالصوارم بل هى تهزأ بالصوارم والأسل . وذكر

---

١ — نص الرسالة فى صبح الأعشى ، ج ١٤ ص ١٩١ . وفتح الدين المرسل إليه لعله هو فتح الله بن مستعصم التبريزى .

أن كرمه يغنى من الإملاق . إلى غير ذلك من الصفات النفسية الجليلة . واعتذر فى نهاية الرسالة عن تقصيره فى الإطراء وعجزه عن توفية الثناء . وكان يفصل بين سطورها بأبيات شعرية منسجمة المعنى مع السياق . وهذه بعض فصول الرسالة :

قال فى مستهلها :

« الحمد لله ، جعل الفتح محط رحال القرائح الجائدة ومستقر نواها . محيط دائرة الأفكار الواردة ومركز شعاع ضواها . ومادة عناصر الأفهام الجائلة وعتاد شكيمة قواها .

نحمده على أن خص المملكة المصرية من إيداع سرها المصون بأوسع صدر رحيب . وأنهض بتدبير مصالحها من إذا سرت كتائب كتبه إلى عدو أنشد من الفرق : قفا نبك من ذكرى حبيب . وأقام لنصرتها بأسل الأقلام وصفاح المهارق من إذا طرقها على البعد طارق ، تلا لسان يراعته « نصر من الله وفتح قريب » الخ .

وبعد أن أشار إلى ما لصاحب الديوان من جاه فى الدولة وصولة . وإلى خلو الديوان زمنا من صاحب ، حتى أقبلت دولة برقوق ثم ابنه فرج ، فوقع اختيارهما على المقر الفتحى فتح الله ، قال يمدحه ويطريه :

« إن تكلم أتى من بيانه بالسحر الحلال . أو حاور أتى من البلاغة بما يقصر عن رتبته سحبان فى المقال أو ترسل أعيا عبد الحميد فى رسائله . أو كتب رتعت من روض خطه فى زهر خمائله .

يؤلف اللؤلؤ المنثور منطقه ... وينظم الدر بالأقلام فى الكتب

فرأيه السيف لا ما صنع الهند وعقله الصارم لا ما استودع الغمد .

فنى رأيه نجح الأمور ولم يزل ... كفيلا بإرشاد الحيارى موفقا

أقلامه تزرى بالصوارم وتهزأ بالأسل وتجرى بصلة الأرزاق فتزيد على الأمانى وتربو على الأمل .

بت جاره فالعيش تحت ظلاله .. واستقه. فالبحر من أنوائه فمكارمه تغنى عن الإملاق . وبواكره بالإسعاد تبادر الغدو والإشراق . وعطاياه تسير سير السحاب فتمطر الغيث على الآفاق

كريم مساعى الجد يركب نجدة   من الشرف الأعلى وبذل الفواضل

قد خدمته الحظوظ وأسعدته الجدود . وقسمت المنازل السنية فكان له منها سعد السعود .

لو عدد الناس مافيه لما برحت   تثنى الخناصر حتى ينفد العدد

فلو غرس الشوك لأثمر العنباء أنى أرادها . أو حاول العنقاء فى الجو لصادها . أو زرع فى السباخ لكان ذلك العامُ العامَ والسنة الخصبة ولضوعفت مضاعفة حسناته فأنبتت كل حبة سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة

وإذا السعادة لاحظتك عيونها   نم فالمخاوف كلهن أمان

واصطد بها العنقاء فهى حبائل   واقتد بها الجوزاء فهى عنان » الخ

وبعد أن أطنب فى مديحه وبيان مناقبه ماشاء له الإطناب ، أخذ يعتذر عن تقصيره فى ذلك ، فقال : « على أنى أستقيل عثرتى من التقصير فى إطرائه ، والتعرض من مدحه لما لا أنهض بأعبائه . فلو أن الجاحظ نصيرى ، وابن المقفع ظهيرى وقس بن ساعدة يسعدنى ، وسحبان وائل ينجدنى ، وعمرو بن الأهتم يرشدنى . لكان اعترافى بالعجز فى مدحه أبلغ مما آتيه . وإقرارى بالتقصير فى شكره أولى مما أصفه من توالى طوله وأياديه :

ولو أن لى فى كل منبت شعرة   لسانا يطيل الشكر فيه لقصرا

---

٢ . وكتب الشاعر الأديب برهان الدين القيراطى إلى شاعر عصره جمال الدين بن نباتة المصرى ، يمدحه . وفيها اقتباسات طلية ، ورعاية النظير كيسة . قال :

«يقبل الأرض التى سقت السماء نباتها . وعمر الله بمعانى الحسن أبياتها .» ومنها يمدحه ويصف كتابته ونظمه .

« فلا غرو أن فضح بديع الزمان بلفظه البديع ، وأزهرت الأوراق بمنثور رسائله التى كل فصل منها ربيع . وخجلت صفحة الخد المنمنمة بطراز العذار المرقوم . وقالت الكئوس حين شبهت فى إمالة الأعطاف بألفاظه : وما منا إلا له مقام معلوم » .

ومنها فى مديحه كذلك :

« فسبحان من أسرى بها فى ليل نقسها إلى الحد الأقصى . وحباها بالفضل الذى لا يحصى . وأنبت دوحتها فى رياض الفصاحة . وعتق حدائقها التى لو فتح النرجس عينه فى عينها لنسب إلى الوقاحة . فتبارك الذى جعل فى سماء دوحته لشمس بلاغته بروجا . وأعلى همه التى لا ترضى الشهب جيادا والأهلة سروجا . حتى أقام يراع قلمه لسوق الأدب قصبة . وشاد من قصائده كل بيت إذا مر الحاسد ببابه قبل العتبة . وسارت كالسبعة السيارة مصنفاته . وعلت من قصره المشيد بسينات سطوره شرفاته . وفديت بالمباسم والقدود ميماته وألفاته . وزهت أمداحه المؤيدية ، فأصبحت بيوته المرفوعة ذات العماد . وراقت محاسنها التى لم يخلق مثلها فى البلاد . فضحت تسهلها الممتنع أدباء العصر الذين جابوا الصخر بالواد .» ومنها :

« وطالما سرح الناظر فى بستانها منظره . ورام ابن سكرة فتح الأبواب لمعارضة قطرها النباتى فوجدها مسكرة . وعلم المتنبى أن هذا خاتم الأدباء لا محالة . والمترسل الذى نهض دونه بأعباء كل رسالة . وأقام بتقديمها على غيرها براهين الاحتجاج . وقال الملحى عند ما قابل بحرها الحلو ببحره : هذا عذب فرات سائغ شرابه وهذا ملح أجاج » الخ [1] .

---

١ — عن خزانة الأدب لابن حجة ، باب الاقتباس ص ٤٤٨ ، وهذه الفقرات كل ما أثبته من رسالة القيراطى .

٣ — ومن رسائل التهنئة ما كتبه صلاح الدين الصفدى مهنئاً القاضى جمال الدين أبا اسحق ابراهيم بن محمود ، بعودته إلى منصب كتابة السر الشريف بحلب المحروسة عام ٧٣٠ هـ .

وقد افتتحها بأبيات شعرية منها :

« بعودتك الغراء قرت نواظر وأمست وجوه البشر وهى نواضر
فروض الأمانى ظله بك وارف وحوض التهانى طله منك وافر
لأنبائك الحسنى أصخنا مسامعا فياطيب ما أملت علينا البشائر »

و بعد أبيات أخرى قال :

« يقبل الأرض ويهنىء نفسه والأنام والأيام . ومن خط الطروس ووشى برودها بالأقلام . ومن كتب الإنشاء فآخى من كلامه بين الجواهر فى النظام . ومن نظم قريضه فأخجل فى الخمائل ساجعات الحمام . لأن مولانا – بسط الله ظله — بركة هذا الوجود . ومن هبات نسيمه ينشق الناس عرف الهبات والجود .

وينهى ما حصل له من الابتهاج والسرور . والهناء الذى التحف منه بالتحف وحباه الحبور . فالله تعالى ، يديم أيام مولانا التى هى أمان من الحوادث والغير . وجمال الكتب والسير . بمنه وكرمه » .

وقد رد عليه المرسل إليه « القاضى جمال الدين أبو اسحق ابراهيم بن محمود » برسالة شكر . قال فى مطلعها :

« بفضل صلاح الدين سرت سرائر ووافت إليها بالتهانى البشائر »

و بعد أبيات قال :

« يقبل الأرض ، لا زالت مطالعها مشارق الأنوار . ومرابعها مراتع

التهانى ومواطن المسار .

وينهى ورود المشرف العالى . المشتمل من جواهر البديع على ما يخجل زهر اللآلىء . فقبله المملوك حين وافاه وأجل محله حين تلقاه . وكان بمضمونه فكلما انتهى إلى منتهاه ، أعاد لثمه وابتداه . وعلم ما تفضل به مولانا من تهنئة المملوك بالمنصب الذى كان المملوك عنه بفضل الله فى غنى . والرتبة التى ما ازداد المملوك بها إلا التعب والعنا . وتحقق صداقة مولانا التى ألفها قديما وآنفا ومحبته التى لم يزل المملوك على مثلها مقيما وبمثله عارفا . وعلم مولانا الكريم محيط بأن المملوك كان قد حط عنه واطمأن وسكن . وأغلق الدكان ولزم الوطن . فلما اتفق بعد ذلك للملوك ما اتفق من المقادير التى لا محيد عنها . والأمور التى إن سخط أو رضى لابد منها . ما أمكنه إلا التسليم لحكم الله وأمره . ولعل ذلك ألا يكون لشر قضاه الله بل لخير قدره . ورزق يسره . وأجر ساقه وقدّره .

والمملوك يرجو أن تكون الآخرة إلى خير . فقد قربت المنزلة وحث إليها السير . وقد تقلد المملوك لمولانا هذا الإحسان . وهو يعتذر من التقصير بشكر هذه العوارف الحسان . فلوكان بين يدى مولانا لانفتح له من المعانى كل باب . واقتبس من فوائده وفرائده ما ينظمه فى سلك هذا الجواب . وإنما بعده عن فضائل مولانا أوجبت له الاعتراف بتقصيره . والتعويض بقليل اللفظ عن كثيره . وما ثم غير صفح مولانا الجميل . والله يبلغه من الأمانى نهاية التأميل . بمنه وكرمه[1]

---

٥ — وكتب زين الدين بن الوردى إلى أحد أصدقائه ، وقد أهدى إليه صقرين فكتب يشكره ويمدحه ويصف هذين الصقرين ، فقال :

---

١ — تهنئة الصفدى ، والرد عليها ، عن كتاب (ألحان السواجع) المخطوط للصفدى . وهو بدار الكتب المصرية فى ترجمة إبراهيم بن محمود (جمال الدين أبو إسحق) .

« وينهي وصول الصقرين . فسر العبد بهذين الحرين . اللذين خص الجوارح إليهما من وجهين . ويعز على ابن المعتز أن يذكر لهما في تشبيهاته شبيهين فوقع الصقران من المملوك بموقع يفوق النسر . وتأمل نحوهما فإذاهما منصوبان لبناء ما ارتفع والمنخفض من الصيد على الكسر . مقلتهما حر كسيوفه . وأجنحتهما مسبلة كتمائم بره على رعاياه وضيوفه . ومخالبهما كالمناجل لحصاد أعمار أعدائه وأعمار الطير . ومناقيرهما كالأهلة المبشرة له ولأوليائه بكل خير . فلسان حال كل منهما يقول لمرسليه : تفرقوا فبكسبي أجمعكم أجمعكم . ويخطف لهم الخطفة ويعود بسرعة ، فبينا يتطايرون لغيبته ، تلوا : « طائركم معكم . » فما أحسن ما يرجع كل واحد منهما من أفقه . وقد التزم طائره في عنقه . كم ذللا من الطير من حرون . وكم أهلكا في الوحش من قرون . فما أحق هذا الجبر بمقابلة الثناء عليه . وأن يعد المملوك هاتين اليدين يديه . ومن كرامات مولانا أنه أصبح جابرا بكاسرين . فرحبا برسوله الذي إن قدم رسول بأيمن طائر ، فقد قدم هو بأيمن طائرين . والسلام ».[1]

هذا . وسيرى القارىء آيات من المديح تتخلل سطور الإخوانيات التالية ، في شتى أغراضها . فهو لون مشترك بينها .

ب — رسائل الشوق والشكوى والعتاب :

الشوق وما أكثره وما أحره ، والحنين وما أوثره وما أبره ، أكرم ما ثار بين محبين . وأجل ما هاج في قلب صديقين . يبعثه الحب الخالص والود المكين . وتثيره الوحشة التي تقلق النفس وقد غاب عنها محبوبها ، الذي هو أنسها ورسول طمأنينتها

---

١ — الرسالة عن ديوان ابن الوردي ص ١٨٩

وأليفها وموضع بهجتها ومسرتها . وأقرب ما يهيج الشوق غياب رفيق أو صدود صديق فتتابع بلابله فى الفؤاد ، وتتجاوب فى أنحاء النفس ، وترق عاطفة القلب حتى يضيع اللسان بالشكاية والبث . وينطلق هو والعين الباكية الحرى فيحرق بزفراته ما يروق من صفحات ، وتبلل هى الخدود بما تريق من عبرات . ويحملان نفثاتهما ما لذ من حديث العتاب .

لهذا ترى رسائل الشوق وما إليه ، من أينع الإخوانيات وأروعها . وأملئها بالعاطفيات وأجمها . وقد تناولها أدباء عصر المماليك على نمط مما تناوله بها أسلافهم . فاحتلت مكانها كريما بين ضروب الرسائل ، واقتعدت محلها رفيعا بين مظاهر الأدب وأدت قسيرة حاجة من حاجات المجتمع .

والمتشوق يبث فى رسالته حديث نفس إلى نفس . وبث قلب إلى قلب . فالرسالة هنا ، نجوى سارية بين خلين . وشكوى هادية بين حبين . تزدان بعبارتها الأنيقة . وإشارتها الرقيقة الرفيقة . قد يبدؤها المرسل بتقبيل الأرض . وما أكرمه بين يدى المحبوب . ويعلى من قدره ، وهو المطلوب . . . ويجود له بالمديح غاية الجود ، ويستوفيه ما وهب له من وعود ويحمل الرسالة ما يعتلج فى صدر مشتاق . من لوعة الأشواق .

وكثيرا ما يرد المرسل إليه برسالة يجيب فيها صديقه إلى ما دعاه . ويبادله حمدا بحمد ، ويقارضه حنينا بحنين وتفتتح الرسالة أو تفصل بأبيات من وادى الشوق أو الشكوى أو العتاب أو المديح أو غير ذلك مما تدعو إليه المناسبة ويستمنحه السياق . إما من نظم الكاتب ، أو من تضميناته .

ومن نماذج هذه المكاتبات :

١ — ما كتبه القاضى شهاب الدين محمود الحلبى فى إظهار الشوق ، قال :

« ماأم طفل قذفها الزمن العنيد ، فى بعض البيد . فى أرض موحشة المسالك قليلة السالك . قد لمع سرابها . وتوقدت هضابها وصرخ بومها . ونفر ظليمها . وحضر سمومها . وغاب نسيمها . فلما خافت على ولدها من الظمأ ، الهلاك ، أجلسته إلى كثيب هناك . ثم ذهبت فى طلب الماء للغلام . لئلا يقضى عليه الأوام . فانتهى بها المسير إلى روضة وغدير وآثار مطى بوارك : تدل على أن الطريق هنالك . فعادت إلى ولدها مسرعة . وكل أعضائها إليه عيون متطلعة . فلما شارفت الكثيب . رأت ولدها فى فم الذيب .

بأكثر منى حسرة وتلهفا   وأعظم منى حرقة وتوجعا
وأغزر دمعا عندما قيل لى : الذى   كلفت به أضحى على البعد مزمعا» (١)

---

٢ — وكتب جمال الدين بن نباتة المصرى عام ٧٣٢ ه إلى صلاح الدين الصفدى يعاتبه ، فقال .

«رضيت بالكتب بعد القرب فانقطعت   حتى رضيت سلاما فى حواشيها

وينهى أنه كان كسير الخاطر حسير الناظر ، لانقطاع برمولانا الممتاز . ولامتناع المملوك من المكاتبة ظنا أن بينها وبين القصد مجاز . فلما وقفت الآن على ذكره فى حالية ، استأنف للخاطر سرورا . وأقام وزن البيت القلبى وكان مكسورا . ووضع الطرس على وجه حظه الأعمى فارتد بصيرا وجمع بين ذلك الخاطر واللفظ والقلب ، وإنما جمع مسكينا ويتيما وأسيرا . وسره — أشهد الله — أن يكون معدود الذكر فى الحاشية . واستوقف ألفاظ العتاب وقد كانت إلى درج الأدراج ماشية .

حلال لليلى أن تروع فؤاده   بهجر ومغفور لليلى ذنوبها

لاتقرعن مسماع من   تهوى بتعداد الذنوب
ما ناقش الأحباب إلا   م من يعيش بلاحبيب

---

١ — منقولة عن خزانة الأدب (باب التفريع) .

وقد علم الله شوق المملوك إلى تلك الخلائق وربيعها والألفاظ وبديعها وشجوه الذى أخنى الجلد وأبانه . ووحشته التى أفردته سهما واحدا فى دمشق لافى كنانة .

لم يترك الدهر لى خلا أسر به   إلا اصطفاه بنأى أوبهجران

والله تعالى يحرس مولانا حيث كان . ويعده بعونتى المكان والإمكان . ويصون نفاسة نفسه وإن تغيرت على أحبابها . وأعرضت عن غلمانها ، ويأبى ناموس الرتبة أن يقال عن أصحابها . ولايعدم الأولياء على القرب والبعد . أن يجتنوا من نظمه ونثره ثمر البيان متشابها . » الخ (1)

---

٣ — وكتب صلاح الدين الصفدى ردا على رسالة ابن نباتة السابقة ، وقد بادله عتابا بعتاب ، واعتذر إليه وقارضه الثناء . قال من ذلك :

« وينهى ورود المثال العالى . والفضل الذى نصب لى لواء الفخر لوأنه كما أعهده متوالى . والبر الذى كم تمسكت بحباله فأرسل الحِبا لى . والروض الذى هو لابن الشجرى نهاية الأمانى والأمالى . والأزاهر التى صبحت من جناة جناتها . . فلابدع إذا كنت لنار عتبها اليوم صالى .

إذا لم يخن صب ففيم عتـاب   وإن لم يـكن ذنب فم يتاب

أجل مالنا إلا هوا كم جناية   فهل عندكم غير الصدود عتـاب

فوقف المملوك عليه . بعد أن تمثل واقفا لديه . وشاهد ذلك اللفظ الرقيق المشتمل على العتب الفظ . وتحقق أن هـذا من جزئيـات ماساق إليه القسم وحض عليه الحظ .

وغايتى أن ألوم حظى   وحظى الحائط القصير

---

١ — نص الرسالة فى كتاب « الوافى بالوفيات » للصلاح الصفدى جـ ١ ص ٣٢٠ فى سياق ترجمة ابن نباته المصرى .

ولقد علم المملوك عند رؤيته أنه غمامة بمقم بالعتب رعدها عند الفض . ورسول جاء بعد فترة يدعو القلب إلى الكسر ، والطرف إلى الغض . وخصم يروع بالعتب ويروق باللطف . وكذا جرى لأن الروع تمجل نقده فى النض .

هـذا عتابك إلا أنه مقة قـد ضمن الدر إلا أنه كلم

فياله من عتاب ماحاك العتابى منه لفظة لفظة . ولارق إلى رقته عتاب جرى بين الزمان وجحظة . ولااستحضر مهـديه عند تسطيره من القرآن الكريم « وليجدوا فيكم غلظة » .

وأطيب أيام الهوى يومك الذى تروع بالهجران فيه وبالعتب

إذا لم يكن فى الحب سخط ولارضا فأين حلاوات الرسائل والكتب » .

إلى آخر ما كتب ، والرسالة طويلة . (١)

---

٤ — وكتب صلاح الدين الصفدى أيضاً ، إلى بهاء الدين أبى حامد السبكى — وكانت بينهما صداقة وطيدة — رسالة فى الشوق والشكر والولاء والمدح ، ردا على رسالة وردت إليه منه . وقد قدمها الصفدى بأبيات شعرية ، ثم قال :

« يقبل الأرض حيث تضع الملائكة الأجنحة . ويتخذ الأنام من الدعاء فى مواطنها مواضى الأسلحة . ويفعل الله بها ما أحب ، فإنه لايجب عليه شىء وإن راعى المصلحة . ويعمل طلاب العلم إليها الركاب بكل يعملة كأن راكبها غصن بمروحة .

وإنى بتقبيل لك الأرض والثرى على كل من فاخرته لفخور

تقبيلا يثبت به الجوهر الفرد ، فإن كل جزء منها للقبل يتجزا . ويحط به أثقال خطو أقعدته عن اللحاق به عجزا . ويتشرف بمشافهة تربها فإن له منها أقل الأجزاء أجزا .

---

١ — نص الرسالة فى كتاب (الوافى بالوفيات) لصلاح الصفدى ج ١ ص ٢٢٠ فى سياق ترجمة ابن نباته المصرى .

ترابهم وحق أبى تراب أعز علىّ من عينى اليمين

«ينهى بعد وصف ولاء حكم بتصديقه لما تصوره كل منطق ومنطيق . ودل بالمطابقة والتضمين والالتزام على أنه فى الوفاء عريق . عرى من تلف التلفيق . وأصبح وحده جامع مانع لأن جنسه القريب هو الإخلاص وفصله التحقيق .

عرفت بصدق الود فيك لأننى رفعت بلاعجـز ولاء ولاءنى» الخ

وهى طويلة [1]

---

٥ — وكتب تاج الدين البارنبارى [2] ، إلى الصلاح الصفدى ، ردا على مكاتبة له فى الشوق . قال :

شكرا لغرس بروض الفضل قد نبتا وودّه فى صميم القلب قد ثبتـا

أهدى إلىّ كتابا كنت أرقبه أزال عنى من عيث النوى العنتـا

مباركا جاء بالحسنى فأحسن لى وكيف لا وهو من عند الخليل أتى

لازالت ألفاظه حلية الممالك . ووده فى النفوس ثابتا وللقلوب خير مالك ومنزله من فضل الله رحيب الساحات معمورا بالسماحات فى رحبة مالك .

وينهى ورود مشرف سمح ببيانه . ونفح بعرفانه . وجنح إلى عوائد إحسانه . وباح أشرف المعانى بإنسانه . وربح إذ بدا بفصل كتابه وفضل بنانه . أبى الله إلا أن يكون له الفضل فى ابتدائه . والفوز بسبق تحيته و إنشائه فقبله المملوك تقبيلا ، وفضه فإذا البيان جاء كله معه قبيلا . ورأى أدبا غضا . ونظما ونثرا فاقا من سلف عصره وتقضى . ولقد ذكر مولانا بأوقات قربه ، على أن المملوك مازال يذكرها . وأقر عينا مابرحت تشهد محاسنه وتنتظرها .

---

١ — نص الرسالة فى « طبقات الشافعية » للسبكى ج ٦ ص ١٠٠ فى سياق ترجمة الصفدى

٢ — هو محمد بن محمد بن عبد المنعم المتوفى عام ٧٥٦ ، وكان صاحب ديوان الإنشاء بطرابلس .

أبلغ أخانا أدام الله نعمته ... أنى ولو كنت لا ألقاه ألقاه
الله يعلم أنى لست أذكره ... وكيف يذكره من ليس ينساه» الخ[٢]

ولا بأس أن نشير فى هذا المقام إلى رسالة قيمة طويلة تقع فى نحو ٩٨٥ سطرا كتبها المنشىء القدير محيى الدين بن عبد الظاهر يعارض بها رسالة القاضى الفاضل كتبها على لسان سلطانه صلاح الدين بن أيوب يرد بها على رسالة اتهام أرسلها إليه الخليفة الناصر ، بقلم كاتبه ابن زيادة .

ورسالة الفاضل فيها عتب رقيق وتقع فى نحو ٢٥٠ سطرا . ورسالة ابن عبد الظاهر فيها عتب قاس ومخاشنة . وكان هذا هو رأيه فيما كان ينبغى أن يكون عليه رد الفاضل.

فمن رسالة ابن عبد الظاهر قوله فى مطلعها :

« يأيها الذين آمنوا إذا جاءكم فاسق نبأ فتبينوا أن تصيبوا قوما بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين » ماجمعه الله للديوان العزيز من المآثر التى زكا عرقها . والمكارم التى كرم خلقها . والنصفة التى تحرى رشدا نطقها . توجب على الناطقين لسانه . والمرجحين لبرهانه . حبس أعنة الحنق . و إخلاف حدة القول المختلق . وأنهم لا يزالون يقولون للحق قد جاء وللباطل قد زهق .

ولما ورد على العبد من الجهة المحروسة الكتاب الكريم . الذى حسب أن مزاجه من تسنيم وأن كئوسه المهداة من دار السلام مثل كئوس دار السلام لا لغو فيها ولا تأثيم . وجد بكل جرعة من مدامه خمار . وشاهد المشبه منها مجازا بالشرار ، حقيقة هو النار . وعربدت فى الكأس قبل أن تعربد فيها العقول وأمست الندامى بشمول مضار تلك الشمول . الخ[٤]

١ — نص الرسالة بتمامه فى ترجمة البارنبارى ، بكتاب (الوافى بالوفيات) ج ١ ص ٢٤٩ رقم ١٢٦

٢ — رسالة الفاضل ورسالة ابن عبد الظاهر بتمامها فى تذكرة الصفدى بالجزء الثالث عشر ، مخطوط بدار الكتب المصرية . وسيرد علينا فى باب الخصائص جزء من رسالة الفاضل عند الكلام عن مذهبه فى الأسلوب .

م — رسائل الاستدعاء وما يتصل به :

الاستدعاء هنا غير الاستجازة التي سنشير إليها مع الإجازة العلمية . أما هنا فنعنى بالاستدعاء الدعوة إلى مجالس الشراب والمنادمة ، حيث يجتمع الأحباب والأصحاب ، ويصيبون فيها مما لذ وطاب .

والاستدعاء أحد فنون الشعر ، شاركته فيه الكتابة ، وجال فيه كتاب عصر المماليك وصالوا . ولكنه ليس طارئا عليهم جديدا . فإن لكتاب العصر العباسى — مثلا — جولات فى ميدانه موفقة ، ومنهم ابن العميد والميكالى وأبو المغيرة بن حزم من أدباء العصر الرابع الهجرى (١)

ورسائل الاستدعاء من أحب أنواع الرسائل لدى الأدباء . إذ فيها تسفر نفوسهم على حقيقتها . وتبدو سرائرهم بما فى طويتها . دون خفاء أو التواء . والحرية المتاحة لهم فيها ، تطلق الأذهان من عقالها ، يجرىء المنطق بعد جبانته ، وتفصح اللسان بعد عيه. لهذا نرى رسائل الاستدعاء مشرقة وضيئة ، إشراق نفوس كاتبيها ووضاءتها .

ويصف الكاتب فى رسالة استدعائه أسباب هذا الاستدعاء ، ويوضحها للمرسل إليه ويغريه بها ويزينها له حتى يعجل بالمبادرة وتلبية الدعوة . ويذكر له مايعانيه أو يعانيه الحاضرون من شوق إليه صريح ، وحنين نحوه محض ، وكلف بحضوره شديد . وشغف إلى مطالعته مشبوب . وتلهف إلى رؤيته ومجالسته لايغلب . ويرسم له ما يضم المجلس من علية الإخوان وصفوة الخلان ، ومابه من دواعى الأنس ومعدات اللهو والسرور ، من طعام وشراب ومن غلمان صبيحة وجوار مليحة ، وسقاة وندمان وأعواد وقيان . وما فاح فى المجلس من أرج مسك ورند ، وشذى زهر ورند ، إلى غير ذلك .

ومن هنا نرى أن رسائل الاستدعاء مسرح فياض بضروب الوصف الدقيق المطرب المعجب الذى يأتلق فيه جديد التوريات، وبديع التوجيهات وأدب الاقتباسات

---

١ — راجع النثر الفنى لزكى مبارك جـ ٢ ص ٢٢٠.

وغيرها مما يجعل الرسالة زاهرة كالروضة المعطار . قد يدور فيها المجون على سوقه ، داعيا بيوقه ، سادرا فى فسوقه .

ولسنا فى حاجة إلى أن نشير إلى الصلة الوثيقة بين هذا الفن النثرى وفنون نثريه أخرى ، تجرى مجراه ، وتسير على نسق منه . ومنها وصف الخمر والندمان والجوارى والغلمان ، والمغنين والقيان ، والأعواد وآلات الطرب وتدبير الشراب واستعماله ، وما يتخلل ذاك من نكات فكاهية ومحاضرات أدبية كل ذلك ضرورى للمجلس حتى يتم التئامه ويكمل انسجامه .

ومن هنا نرى أيضاً ما تستدعيه تلك المجالس من نباهة ذهن وصفاء قريحة وحضور بديهة وجود ذاكرة وكياسة خاطر ولباقة منطق وفرط أدب ودماثة خلق ورقة دعابة .

ومن هنا أيضا يتضح لنا أثرها وأثر استدعاءاتها فى الأدب . و يتضح لنا إلى أى حد شاركت فى تأدية إحدى حاجات المجتمع ، وصورت إحدى نواحيه النفسية والخلقية

وسترى فى فصل المجونيات بباب الوصف، سطورا فى آداب النديم والمنادمة وتدبير استعمال الشراب تزيدك علما بهذه الاستدعاءات وما يحيط بها .

و إليك بعض نماذج الاستدعاء .

١ — كتب بدر الدين بن الصاحب إلى الصاحب فخر الدين بن مكانس ، استدعاء ، وصف فيه الخمر وأدواتها وفعلها ، وملأه بالكنايات اللطيفة والاستعارات والتشبيهات الظريفة والتوريات الطريفة ، قال :

« هل لك بسط الله آمالك . وضاعف نعيمك ودلالك . فى عذراء مصونة . كالدرة المكنونة . كأن على خدها فوق وردة ياسمينة . مظلومة الريق فى تشبيهه بالضرب. وحاشا ثغرها الدرى أن يفوته شنب . لها من ذاتها طرب يغنى عن المزامير. بلقيسية الجمال لها صرح ممرد من قوارير . ليلها من حسنها نهار . وضوء وجهها ليد لامسها سوار. عجوزة الاسم صبية الاستمتاع . بكر تستخف الحليم بكشف القناع . أديمها كلما يعتق

يحلو . وورده كلما مر يحلو . تملأ المعاطف تقهقه قهقهة الرعونة . كأنها خلقت نشوانة من الطينة حديثها السحر الحلال . وعتيقها خلع الدلال . تطيب عيش الجلاس . وتمرك أذن الوسواس . من القاصرات الطرف فى كل قصر . وهى على الإطلاق منحة العصر . رومية لها بالكيمياء معرفة . مع أنها بإدراك المطالب متصفة . فتارة تقلب الأحزان أفراحا . ومرة تكتال الذهب أقداحا . نديمها يجد فى نفسه مخايل المملكة . ويكاد أن يعد على الدنيا من لؤلؤ حبابها شبكة . لو خالطها جبل لماس . أو قابلها جماد لقيل إنه كاس : أو قتلت ندمانها ما نسبت إلى باس . ولقال لسان حالهم : وفيها منافع للناس . أنفاسها مسكية . ومكارمها حاتمية . وأنسابها قيصرية . بكر بخاتم ربها . وهى ترضع أباها من حلبها . فتعيد الشيخ صبيا . والمشغول خليا . فكأنها استعارت الإرضاع من أمها التى لها ثدى كالنجوم عدة . وتعلمت منها المكارم لما رأت كفها بالندى ممتدة . غانية طعم الحياة فى ريقها . وضيق الوقت فى مباينتها وتطليقها . لا تنزل الحوادث ساحتها . ولا يعرف التعب من صافح راحتها . حمراء تخلع ثوبها على الندمان بل تكاد تطبق عينها على الإنسان » (١)

---

٢ — وكتب تقى الدين بن حجة ، استدعاء — من باب تمرين القريحة — قال فيه ، وفيه إغراء بالحضور ووصف الخمور :

« يامولانا ! المماليك بروض جرت دموع الطل من أحداق حدائقه لفقدك . وضاقت أنفاس نسيمه وظهر الكسر فى قلب مائه لبعدك . وعاد تصفيق الموج لطما

---

١ — منقولة عن « تأهيل الغريب » لابن حجة ، باب الاستدعاءات .
وهى أيضا موجودة بتمامها فى ديوان فخر الدين بن مكانس ، وفى روض الآداب للشهاب الحجازى وكل منهما مخطوط بدار الكتب المصرية . وقد استعنا بها جميعا على ضبط النص . — وذكر فى هامش « تأهيل الغريب » أن ابن مكانس رد على هذه الرسالة وبين ما فيها من سرقات ، وأثبت الرد فى ديوانه — وقد تصفحنا ديوانه المخطوط بدار الكتب المصرية ، فلم نجده به .

على وجنات الأنهار . وخرج كل مغرد عن المغنى فلم يغن بدنك على عود وطار . وكأن ثغر الكأس قد ابتسم عن شنب فصار الشنب دموعا على وجنة حمرا . والتهاب حواس الأنس لم يقل نديم ألا فاسقنى خمرا . وصلب الراووق على وجهه وعادت قهقهات القنانى زمجرة . وقلبنا المثل ، فقلنا اليوم أمر وغدا خمر . لما أثبت قاضى العتب لغيبتكم محضره . ودار القدح على كعبه ، ولم يجدك فى الصحبة ، ففك عقود حبابه من طوقه ، وقال : انفرطت السبحة .

فيا فريد العصر لاتترك فريدة عصرها . ويا أفق الأنس لا تفرق بين شمسها وبدرها . ويا جابر القوم كيمياء الشراب مفتقرة إلى حسن تدبيرك . وكسرى وقيصر محدقان من وراء زجاجة إلى حضورك . فلا تدع ثغور الإقاح تعض على أصابع المنثور أسفا . فقد جرى من دموع الغمام على وجنات الورد ما كفى . وعافت الشمس رشف خمر الندى بكئوس الشقيق . ولم يجمع الورد فمه لتقبيل إذ صار عنده لغيبتك تحقيق . وانكسرت شوكته وخشى من نفيه إلى الكرك وورد حمامه . واعتراه من برد النسيم رعدة فلم يخرج يده عن أكمامه . وكادت الورق أن تمزق من حنينها إليك الأطواق . وهاهى تملى علينا شرح حالها من الأوراق . وعيون الأزهار قد اختلجت بنسمات قربك وطلقت الوسن . والماء والخضرة فى غاية الافتقار إلى وجهك الحسن . ولما بان فى دوائر الأنس لغيبتك يانعم الخليل زحاف اتفق الإجماع على فرط نظم الشمل ، فقال البان : عندى فى ذلك خلاف . والدولاب دموعه جارية وهو دائر على تسمع أخبارك . فبالله أرحنا من نومه الطويل على بحره المديد بقربك المتدارك . وكم شرعنا فى مذاكرة الأدب فلم تتأهل بغريب ، واعترتنا لغيبتك قلة الأدب . فياعروض الألسن لاتقابل دوائر الأقداح بفاصلة من غير سبب . فقد صار فم الجدول بماء ريقه مغصصا . وهاهو قد مد معصمه يضرب على قدومك بالحصا . وقد تحركت ألسنة النسيم فى ثغور الأزهار بأدعية مستجابة . ورفعت الغصون رءوسها إلى السماء وفتحت

كفوف أوراقها للإجابة . فأسبغ الله ظلال تلك الأرواح الوارفة عليك . ومبلت يد النسيم قد ود أغصانها لتقبيل الأرض بين يديك وفى إنشاء هذه التحايا مايرمحه إلى القرب ونشوة المدام . ومولانا أرق وألطف من يقابل برد التحية ، والسلام » . [1]

---

٣ — ومن لطيف ما كتب فى باب الاستدعاء ، مكاتبة أنشأها الكاتب الألمعى الأديب محيى الدين بن عبدالظاهر ، يدعو أحد أصحابه إلى حمام . وقدكانت الحمامات واسعة الانتشار فى ذلك العصر . يعرف ذلك مما سجله المقريزى فى خططه ، من أسمائها وأماكنها وأخبارها . ويبدو أنها كثيرا ما كانت ملتقى الأحباب، ومجتمع الأصحاب، ومجتلى السرور والأنس ، ومثار الأدب واللهو .

وترى فى استدعاء ابن عبد الظاهر بدائع معجبة و إشارات مطربة ، ورعايات للنظير ، وتوريات وجناسات مشوقة مناسبة، قال :

« هل لك — أطال الله بقاءك ، إطالة تكرع بها من منهل النعيم . وتتملى بالسعادة على الزهر بالوسمى ، والنظر بالحسن الوسيم — فى المشاركة فى حمام جمع بين جنة ونار . وأنواء وأنوار . وزهر وأزهار . قد زال فيه الاحتشام فكل عار ولا عار . نجوم جاماته لا يعتريها أفول . وناجم رخامه لا يثيره ذبول . تنافست العناصر على خدمة الحالّ به . تنافسا أحسن كل التوصل فيه إلى بلوغ أربه . »

ومنها يذكر قيم الحمام ثم يغرى المدعو بأشياء ، فقال وفى قوله بعض المجون :

« ثم إن الأشجار رأت أنها لا شائبة لها فى هذه الحظوة . ولا مساهمة بشىء من تلك الخلوة . فأرسلت من الأمشاط أكفا أحسنت بها وجوه الفرق . ومرت على سواد الغدائر الفاحمة كما يمر البرق . وذلك على يد قيم ، قيم بحقوق الخدمة . ماهر فيما يعامل به أهل النعيم من أسباب النعمة . خفيف اليد مع الأمانة . موصوف بالمهابة عند

---

١ — نصه فى (باب الاستدعاءات) بكتاب تأهيل الغريب .

أجل تلك المهانة . ألطف أخلاقا حتى كأنها عتاب بين جحظة والزمان . وأحسنُ صنيعة فلا يمسك إلا بمعروف ، ولا يسرح إلا تسريحا بإحسان . أبدا يرى من نظافته وهو ذو صلف . ويشاهد منه بلا لكل أذى حتى لو خدم البدر أزال عن وجهه الكلف . بيده موسى كأنه صباح ينسخ ظلاما . أو نسيم ينفض عن الزهر أكماما . إذا أخذ صابونه أوهم من يخدمه بما يمره على جسده أنه بحر عجاج . لما يبدو من زبد الأعكان التي هي أحسَنُ من الأمواج :

فهلم إلى هذه اللذة . ولا تعد الحمام دعوة أهل الحرف فربما كانت هذه من بين تلك الدعوات فذة . ولعل سيدنا يشاهد مالا يحسن وَصفه قلمي . ولا ينسق عطفه يدى ولا فمى وإذا جنح بي عنان بنانى فأقول : وأخلع للخلاعة ما تستتر به ذوو العقول :

لدىّ — أمهلك الله — غصون قد هزها الحسن طربا بل رماح لغير كفاح قد نشرت من شعورها عذبا . وبدور أسبلت من الذوائب غيهبا . قد جعلت بين الخصور والروادف من المآزر برزخا لايبغيان . وعلمنا بهم أننا فى جنة تجرى من تحتها الأنهار وتطوف بها الولدان . يكاد الماء إذا مر على أجسادهم يجرحها بمره . والقلب أن يخرج إلى مباشرتها من الصدر ، وعجيب لامرىء لايلتى الأمور بصدره . إذا أسدل بعضهم ذوائبه ترى ماء عليه ظل وارف . وجوهرا من تحت عنبر يشف . يطالب كل منهم السلام ، وكان الواجب أن تطلب منه السلامة . كيف لاوقد غدا كل منهم أمير حسن وشعره المنثور ، وخاله العلامة . إذا أفاض ماء بيده على الحضار . قلت هذا بدر بيده نجم تقسم منه أشعة الأنوار . وإن أخذ غسولا وأمره على جسمه مفركا . لم يبق عضو إلا اكتسب منه لطافة وراح مدركا . فما عذرك فى انتهاز تلك الفرص . واقتناص هذه الشوارد التى يعذر فيها من اقتنص . والله تعالى يوالى إليك المسار . ويجعلها لديك دائمة الاستقرار . بمنه وكرمه . »[1]

---

١ — عن فوات الوفيات لابن شاكر جـ ١ ٢٧٣

و — رسائل إخوانية متنوعة :

ألمنا فى مطلع الحديث عن الرسائل الإخوانية إلى تنوعها بتنوع أغراضها . ثم عرضنا بالتفصيل والتدليل لبعض منها . و يضيق نطاق هذا البحث عن رغبتنا فى استيعاب كل ألوانها ، و إيراد نماذج لكل نوع ، لنستكمل بذلك أسباب البرهنة على حياة هذا اللون الأدبى بين ألوان الكتابة ، وعلى قوة هذه الحياة ، وعلى المبلغ الواسع الذى بلغه فى تأدية حاجة المجتمع .

ونعتقد أن ما سطرناه آنفا ، يجيز لنا الوقوف عنده ، والاجتزاء به ، وحسبنا هنا فى خاتمة الحديث عن الإخوانيات أن نسجل مثلين آخرين فى غرضين مختلفين ، ثم نتبع ذلك بثبت ببعض النماذج الأخرى ، إكمالا للبرهنة والتدليل .

---

١ — فهذه مكاتبة طريفة فى التبرىء والاعتذار . دبجها الأديب الخفيف الظل فخر الدين بن مكانس إلى الصاحب زين الدين بن أبى بكر العجمى . وكلاهما من أهل الأدب والشعر والعلم . وقد أثارها بينهما رجل ضرير من أهل القيروان يسمى « عبدالله الزغبى » يتعاطى نظم الشعر المقفى الموزون ، الخالى من المعانى . وكان يتردد على الأديب الكاتب الشاعر فخر الدين بن مكانس ، فى مجالسه مع أهل الأدب . فوشى إلى الشيخ زين الدين بن أبى بكر العجمى — عين كتاب الإنشاء الشريف — بأن فخر الدين اهتضم جانبه وتنقصه فى مجلسه وغض فى منزلته بين الأدباء ، ونسب إليه أنه يستعين فى كلامه بكلام غيره كثيرا . فتأذى الشيخ زين الدين من ذلك . ولما بلغ الخبر مسامع فخر الدين تألم للوشاية ، و بعث إلى صديقه زين الدين يتبرأ و يعتذر و يمدحه و يذكر مكانته بين أهل الأدب . قال فى مفتتحها :

« ليس على الأعمى حرج . بلغنى — بلغ الله سيدنا ومولانا الإمام العالم العلامة

الأديب الشاعر الناظم الناثر المحقق الأمة الكاتب الحجة . زين الدنيا والدين . قرة عين الكرام الكاتبين أقصى ما ينتهى إليه تنافس المتنافس وتبتهج به صدور الأولياء والرؤساء والمجالس . ولا زال زينة يحلى به العاطل . ويظل تحت جناح أدبه القائل — من غيبة ذلك الضرير . ما لا يخشى الله فيه بظهر الغيب . وتقل إلى المسامع الكريمة ما لا يحتاج للاعتذار عنه لما فيه من الريب ولكن لاغناء لسيف ذهن المملوك من التنصل . ولا بد من نهلة اعتذار على سبيل التعلل . وكان المملوك يترقب سببا للمطارحة . فهذا المعتاب الآن صار عنده محمودا إذ كان السبب لحسن التوصل إلى صناعة الترسل . »

ومنها يمدحه ويتبرأ :

« فلو اختلف الأدباء على إمام لأهل هذه الصناعة ، مطهر من الأرجا لقال لهم لسان البلاغة مروا أبا بكر فليصل بالناس . فكيف يسوغ للمملوك أن ي غير هذا . وكيف ولم ولماذ ؟ . أحسدا على الأدب . فما أهجرنى له منذ عصر ا بحمد الله وما أغنانى . أو تفاخرا بالنظم فما أشغلنى عنه بتدبير الممالك بما عند نعم وإن كان جوهر الألفاظ مما يحسد عليه ، فما أزهدنى — والله — فى هذا العرض الفانى . »

ومنها يسأله قبول المعذرة ، وعدم الإنصات إلى الواشى ، قال :

« والمسئول من إحسانه أمران ، أحدهما : الجواب فإنه يقوم عند المملوك مقام الفرج من هذه الشدة . والآخر رد كل فاسق عن الباب العالى ، فإن أبا بكر أول من تصلب فى الردة . وبلغ المملوك أن هذا الضرير قصد بعض الأصحاب برمية كهذه فأصمى . وتردد إليه مرة أخرى فعبس وتولى أن جاءه الأعمى . »[1]

---

١ — عن الأدب لابن حجة الحموى (باب الاقتباس) ص ٤٤٨ .

٢ — ومن التعزيات الإخوانية ما كتبه الأديب الشاعر الفقيه زين الدين بن الوردى معزيا بوفاة شرف الدين بن البارزى ، قال :

« وينهى أنه بلغه انهداد الطود الشامخ . وزوال الجبل الراسخ . الذى بكته السماء والأرض . وقابلت فيه المكروه بالندب وذلك فرض . فشرقت أجفان المملوك بالدموع ، كما شرق صدر القناة من الدم ، وأحرق قلبه بين الضلوع . فراق وما فارقت غير مذمم . وساواه فى حزنه الصادر والوارد . واجتمع الناس لمأتم واحد . فالعلوم تبكيه والمحاسن تعزى فيه . والأقلام تمشى على الرءوس لفقده . والمصنفات تلبس حداد المداد من بعده . ولما صلى عليه يوم الجمعة صلاة الغائب بحلب . ارتفع الضجيج واشتد النشيج وغلب . فلا خاص إلا حزن قلبه . ولا عام إلا طار لبه . فإنه مصاب زلزل الأرض . وهدم الكرم المحض . وسلب الأبدان قواها . ومنع عيون الأعيان كراها . ولكن عزى الناس لفقده . كون مولانا الخليفة من بعده . فإنك خلف عظيم لسلف كريم وأنت أول من قابل هذا الفادح العارم بالرضا . وسلم إلى الله فيما قضى .

سلم إلى الله فكل الذى   سرك أو ساءك من عنده
إن الذى الوحشة فى داره   تؤنسه الرحمة فى لحده » الخ[1]

وبعد سطور ، عقب بقصيدة فى نحو ٣٢ بيتا ختم بها الرسالة .

وهاك رسائل أخرى فى أغراض متنوعة :

١ — رسالة بقلم القاضى فخر الدين عبد الوهاب كاتب الدرج إلى صديق له متهم بحب عبده . وكلها دعابة ومجون وتوريات من وَاديهما ، وإيهامات واضحة المرمى ، ماجنة الهدف — فى خزانة الأدب فى باب براعة الاستهلاك . ص ١٧ .

٢ — رسالة بقلم ابن حجة الحموى فى تهنئة السلطان المؤيد شيخ بمولود — فى

---

١ — عن ديوان ابن الوردى .

خزانة الأدب ص ٤٦٥ ، باب حسن الختام .

٣ — رسالة بقلم الشهاب محمود الحلبي إلى شخص في تزويج أمه — حسن التوسل ص ١٦٦ .

٤ — رسالة بقلم الشهاب محمود الحلبي إلى منهزم مع جيشه ، يقيم عذره ، ويحثه على المعاودة — حسن التوسل ص ١٦٧ .

٥ — رسالة بقلم الشهاب محمود الحلبي إلى منهزم يذمه ويقرعه — حسن التوسل ص ١٦٩ .

٦ — رسالة بقلم الشهاب محمود الحلبي على لسان مولود وُلد ووالده مسافر في رحلة للصيد ، — إلى والده — حسن التوسل ص ١٧١ .

٧ — رسالة لابن مالك النحوي إلى الظاهر بيبرس يستعين به على صلاح حاله — حسن المحاضرة ج ٢ ص ٧٥ في ذكر سلاطين مصر .

٨ — رسالة لابن نباتة المصري إلى ابن فضل الله يطلب صرف راتبه المتأخر — الوافي بالوفيات في سياق ترجمة ابن نباتة

٩ — وفي كل من ديواني ابن الوردي والصفي الحلي وألحان السواجع للصفدي ، رسائل إخوانية عدة .

الفصل الرابع
الإجازة والاستجازة

الإجازة ضرب من ضروب الرسائل ، وهى « شهادة » يمنحها أحد شيوخ العلم أو فحول الأدب ، لأحد تلاميذه ، أو من يتقدم إليه بطلبها . وهى ثلاثة أنواع : إجازة الفتيا والتدريس ، وإجازة المراضة ، و إجازة الرواية .

أ — النوع الأول : الإجازات العملية :

الإجازة العلمية : هى إذن بالفتيا والتدريس ، يمنحها أحد العلماء لتلميذ من تلاميذه . ممن واظب على أخذ العلم عنه · وجهد فى فهمه وتحصيله ، و بذل فى الإلمام بأطرافه ، و بدا منه لشيخه حرصه الشديد على العلم ، ومثابرته فى سبيله. أو يكون قدقرأ على شيخه كتابا معينا من كتب العلم ، فى فقه أو نحو أو منطق أو غيره ، قراءة درس وفهم · أو لقن من شيخه جملة من أحاديث الرسول عليه السلام ، إذا كان شيخه من حفاظ عصره .

وهذه الإجازات ذات أهمية كبرى فى حياة الطالب . فهى تجيز له التصدر للفتوى، والتصدى للتدريس ، أو إملاء الحديث ، وروايته لطلابه . وتسوغ له التوظف فى إحدى وظائف العلم · ومنها يسلك طريقه إلى عليا المناصب فى القضاء ونيابة الحكم والإمامة . فهى — على هذا — تفتح له باب العمل والكسب والجاه .

وهى بمثابة الإجازات الدراسية فى عصرنا الحديث . وتزداد قيمتها بقيمة مانحها و بتعددها فى يد الطالب · ولهذا كان نوابغ الطلاب جد حريصين على ملاقاة مشهورى الشيوخ فى الأمصار المتباعدة . ولهذا كثرت رحلاتهم وطاف كثير منهم البلاد وتحملوا المشاق ، ساعين إلى شيوخهم سعى مشتاق . و يلازمونهم ملازمة الظل حتى يستفرغوا

مافى جعابهم من علم غزير وفقه وفير ، و ينشر بوا مافى نفوسهم من معرفة، فيكونوا بحق ورثة علمهم ، والأمناء على الدين وعلى علومه من بعدهم. ثم يستمنحونهم هذه الإجازات التى هى عبارة عن رسائل يكتبها لهم شيوخهم . و بلغ عدد شيوخ بعضهم عشرات بل مئات.

و إذا استطاع الطالب بجده ومثابرته ، وذكائه وعبقريته أن يُمنح الإجازات وهو فى سن مبكرة ، كان ذلك مفخرة له فى حياته ، وشرفا يذكر فى ترجمته . وقد روى جلال الدين السيوطى فى ترجمته لنفسه ، « أنه أجيز بتدريس العربية فى نحو السابعة عشرة من عمره . وأجيز بالتصدر لتدريس الفقه والفتيا فى نحو السابعة والعشرين » وهى سن مبكرة بالنسبة لجلال الفتوى. ونجد أمثال ذلك كثيرة فى تراجم النابهين من علماء العصر(١) : ولهذا لانبالغ إذا قلنا إن العصر حظى بمئات من هذه الرسائل الأدبية.

وكان السلطان المؤيد شيخ المحمودى يحمل إجازة برواية صحيح البخارى ، من حافظ زمانه « سراج الدين البلقينى » لم تكن تفارقه سفرا ولا حضرا ، وكانت موضع فخره(٢) .

والشيوخ من جانبهم لم يكونوا يمنحون هذه الإجازات جزافا واعتباطا و بغير وعى و إنما يمنحونها بعد خبرة وتجربة وروية وتؤدة. إذ كانوا يقدرون الأمانة حق قدرها . و إنك لتشعر بذلك الحرص بارزا فى سياق إجازاتهم نفسها! إذ يحددون فيها بالضبط ما قرأه عليهم المجاز ، وفهمه .

وتكتب هذه الإجازات بعبارات مسجوعة بديعية ، يذكر فى مقدمتها ،عادة ، اسم المجاز ونسبه ، ويسبغ عليه آيات من الثناء والحمد ، وتنويه بالغ بما وهب له من ذكاء ، وما رزق من مثابرة ، وما بذل من مجهود ، وفيها تسجيل لما قرأه ودرسه وفهمه

---

١ — تراجع تراجم أفذاذ علماء العصر فى الدرر والضوء ونحوهما . وترى فيها إشارات إلى إجازتهم ومن أجازوهم .

٢ — راجع ترجمة المؤيد شيخ فى الضوء اللامع ج ٣ رقم ١١٩٠ .

من شيخه . ولا تخلو الرسالة من أن تتخللها أبيات شعرية فى المعنى ، وتصويرات خيالية لطيفة ، وتشبيهات لا بأس بها ، ورعاية لألوان بديعية فيها اتفاق موسيقى أو طرائف معنوية . وهكذا ترى أن الإجازة تحولت إلى قطعة أدبية معجبة مطربة ، يتجلى فيها الفن الكتابى . وهى متأثرة إلى حد كبير بالمنهج الديوانى فى مراسلاته .

وربما سبق الإجازة، استدعاء من المجاز . والاستدعاء هنا «استجازة» . والاستجازة رسالة يقدمها الطالب إلى شيخه يستمنحه الإجازة ، ويدعوه إليها . ومن ثم سميت استدعاء أو استجازة .

وفى الاستجازة يبدى الطالب لشيخه جميل التواضع وجليل الولاء ، ويبرز ما أفاده منه من العلم ، وما اشتهر به شيخه من صفات النبل وأخلاق الفضل ، ويدعو له دعوات متنوعة . فيكون رد شيخه عليه ، إجازته .

ويكتب الاستدعاء بأسلوب الإجازة الذى أشرنا إليه ، ومن هنا ترى أنه بدوره نمط من الرسائل الأدبية . والإجازة والاستجازة ، فرصة مناسبة للتلميذ وشيخه ، يتقارضان فيها الثناء والإطراء .

ويبدو لنا أن الشيخ أحيانا ، يستقل بكتابة إجازته لتلميذه ، بقلمه هو ، وأحيانا يكل أمر كتابتها إلى غيره من أرباب الخبرة بالإنشاء ، تحت إرشاده ، ثم يعقب عليها بقلمه مقرأ ما جاء فيها ، مشهدا على نفسه بصحته . ولا تقل عبارته حينئذ ، فى أدب أسلوبها ومستواه عن أسلوب الإجازة نفسها . ومن أمثلة ذلك ، إجازة الشيخ سراج الدين بن الملقن لشهاب الدين القلقشندى صاحب صبح الأعشى . فإنه ليبدو لنا أنها من إنشاء القلقشندى نفسه . وكتبها له بخطه القاضى تاج الدين بن غنوم . وعلق الشيخ سراج الدين بن الملقن عليها فى أعقابها(١)

---

(١) — راجع جـ ١٤ من صبح الأعشى ص ٣٢٢ .

وبهذه المناسبة نشير إلى أن هذه الإجازات ، كان يعتنى بكتابتها خطا ـ وباختيار نوع الورق الذى تسطر فيه .

وقد قال القلقشندى عن هذه الإجازات ما يلى :

« أما الإجازة بالفتيا فقد جرت العادة أنه إذا تأهل به من أهل العلم للفتيا والتدريس أن يأذن له شيخه فى أن يفتى ويدرس . ويكتب له بذلك . وجرت العادة أن يكون ما يكتب فى الغالب فى قطع عريض . إما فى فرخة الشامى أو نحوها من البلدى . وتكون الكتابة بقلم الرقاع أسطرا متوالية ، بين كل سطرين نحو إصبع عريض »[1]

وإليك أمثلة لهذه الإجازات العلمية :

١ — من إجازة العلامة سراج الدين[2] بن الملقن لتلميذه شهاب الدين القلقشندى صاحب صبح الأعشى ، بتدريس فقه الشافعى — ويبدو أنها من إنشاء القلقشندى نفسه — قال فى مطلعها بعد البسملة :

« الحمد لله الذى رفع للعلماء مقدارا . وأجزل نعمه عليهم إذ أعلى لهم منارا . ووفق بسواء الطريق من اقتدى بهم إيرادا وإصدارا . أشرعت هممهم العلية فى حلبة السباق فهى لا تجارى . وتحلوا بالمفاخر جهرا ، وقد عجز غيرهم أن يتحلى بها إسرارا . أبرزيهم هالات المفاخر أقمارا . وأزال بضياء علومهم ريب الشك حتى عاد ليل الجهالة نهارا . وجعلهم لدينه أنصارا . وصيرهم نخبة أصفيائه إذ أودعهم من المعارف أسرارا . واختصهم بكونهم ورثة أنبيائه ، وناهيك بها فخارا . » الخ

وظل يحمد الله ويثنى عليه ويصلى على نبيه الكريم . ثم أخذ يشيد بعلم الشريعة

---

١ — راجع ج ١٤ من صبح الأعشى ص ٣٢٢ ٢ — سراج الدين بن الملقن من أفذاذ علماء مصر . كان شافعى المذهب . وله مؤلفات فى الحديث والفقه ، قيل بلغت مؤلفاته نحو ٣٠٠ ، ومات سنة ٨٠٤ هـ (ترجمته فى الضوء اللامع ج ١١ رقم ١٨٢) .

و يبين منزلته بين العلوم ، وضرورته لمصالح الناس فى الدنيا والآخرة . قال :

أما بعد . فقد وضح لدى الأبصار والبصائر . واتضح عند ذوى الأسرار والسرائر واستقر عند ذوى القلوب السليمة . والعقول الراجحة المستقيمة . أن منزلة علم الشريعة عند الله تعالى أعلى المنازل وفضله أفضل المآثر وآثر الفضائل . وخصوصا معرفة تفاصيل أحكام أفعال المكلفين بالشريعة المحمدية . التى من علمها وعمل بها فقد سعد السعادة الأبدية . إذ هى الشريعة الجامعة لمصالح الدنيا والآخرة . الناسخة لما خالفها الشرائع الغابرة . الباقية إلى أن يأتى وعيد الله وكل شريعة سواها دائرة » الخ .

ومنها يذكر المجيز و يبين ما امتاز به من فضائل :

« ولما كان — فلان — أدام الله تعالى تسديده وتوفيقه ، ويسر إلى الخيرات طريقه . ممن شب ونشأ فى طلب العلم والفضيلة . وتخلق بالأخلاق المرضية الجميلة الجليلة. وصحب السادة من المشايخ والفقهاء . والقادة من الأكابر والفضلاء . واشتغل عليهم بالعلم الشريف اشتغالا يرضى . وإلى نيل السعادة — إن شاء الله — يفضى . استخار الله تعالى سيدنا وشيخنا و بركتنا العبد الفقير إلى الله تعالى ، الشيخ الإمام العلامة الحبر الفهامة . فريد دهره ونسيج وحده . جمال العلماء . عمدة الفقهاء والصلحاء ، سراج الدين، مفتى الإسلام والمسلمين »

وظل يذكر الشيخ المجيز حتى قال :

« وأذن وأجاز لفلان المسمى فيه — أدام الله تعالى معاليه . أن يدرس مذهب الإمام المجتهد المطلق العالم الربانى . أبى عبد الله محمد بن أدريس المطلبى الشافعى رضى الله عنه وأرضاه ، وجعل الجنة متقلبه ومثواه — وأن يقرأ ما شاء من الكتب المصنفة فيه . وأن يفيد ذلك لطالبيه . حيث حل وأقام ، كيف شاء ، ومتى شاء وأين شاء . وأن يفتى من قصد استفتاءه خطا ولفظا ، على مقتضى مذهبه الشريف المشار إليه . لعلمه بديانته وأمانته ومعرفته . وأهليته لذلك وكفايته .

فليتلق — أيده الله تعالى — هذه الحلة الشريفة . وليترق بفضل الله تعالى ذروة هذه المرتبة المنيفة . وليعلم قدر ما أنعم الله تعالى عليه . وأسدى من الإحسان الوافر إليه. وليراقبه مراقبة من يعلم اطلاعه على خائنة الأعين وما تخفى الصدور . وليعامله معاملة من يتحقق أنه يعلم ما يخفيه العبد وما يبديه فى الورود والصدور . ولا يستنكف أن يقول فيما لا يعلم . لا أعلم . فذاك قول سعد قائله وقد جاء « جُنة العالم لا أدرى . فإن أخطأها أصيبت مقاتله . » . فالله تعالى يرزقنا وإياه التوفيق والتحقيق . ويسلك بنا وبه أقرب طريق . ويهدينا إلى سواء السبيل . فهو حسبنا ونعم الوكيل . » .

وقد تجلى فى سطور هذه الإجازة ، الأسلوب البديعى بفقراته المسجوعة . تطول وتقصر ، دون لجاجة أو إلحاح . وبدأت بحمد الله والثناء عليه . مع إطالة فى هذا التحميد . ثم بالصلاة على النبى الكريم ، ثم خطبة فى فضائل علم الشريعة ؛ ثم ذكر المجيز ومنزلته العلمية ، ثم المجاز ومزاياه . ثم الإجازة والإذن ، ثم التوصية للمجيز بما ينبغى أن يتبعه ، وهو دستور علمى قويم . ثم الدعاء للمجاز . وختمها بقوله حسبنا الله ونعم الوكيل» .

وهذا النهج هو الغالب على أسلوب الإجازات فى جملتها .

ونلحظ فى الإجازة السالفة عدم الغلو والاسترسال فى صفات المجاز ومدحه . ولعل سبب ذلك أنه هو كاتبه كما أشرنا . أما فى غيرها من الإجازات فإننا نرى إطنابا فى مدحه وفى ذكر صفاته .

وقد علق الشيخ سراج الدين بن الملقن على الإجازة السالفة بما يفيد إقراره لما جاء فيها فكان مما كتبه فيها قوله :

« ما نسب إلى فى هذه الإجازة المباركة من الإذن — لفلان — أدام الله تعالى النفع به ، وأجرى كل خير بسببه . بتدريس مذهب الإمام المطلبى ، محمد بن إدريس

الشافعى — قدس الله روحه ، ونور ضريحه — والإفتاء به لفظا وخطا ، صحيح . فإنه ممن فاق أقران عصره بذكائه . وبرع عليهم بالاستحضار وتحرير المنقول ووفائه .

وقد اعتنى — وفقه الله تعالى وإياى — من جملة محفوظاته ، بمختصر الجوامع لشيخنا العلامة . . كمال الدين[1] النشائى » تغمده الله تعالى بغفرانه — فاستحضر بحضرتى مواضع منه جمة . وأزال ببديع فصاحته جملة مدلهمة . وأظهر من مشكلاته ما يعجز عنه اللبيب . ومن أعاريبه ما يقف عنده البارع الأديب . فليتق الله حينئذ فيما يبديه . وليتحر الصواب فى لفظه وخطه وليراقب الله فيه . فإنه موقع عن الله تعالى فليحذر الزلل . ومحاولة الخطأ والخطل . »الخ.[2]

---

٢ — وكتب زين الدين بن الوردى إجازة لمن يسمى « تقى الدين أبا بكر » بأنه قرأ عليه مواضع من كتاب « البهجة الوردية » فقال مع توريات بمصطلحات الفقه :

« أما بعد حمد الله الذى زاد أهل العلم شرفا ورقيا . وجعلهم خلف السلف ، فحيذا سلفا وخلفا تقيا . والصلاة على نبيه محمد الذى جعل فيحر به وسلمه ،الموت والحياة . وسجل لعترته المنيفة كتاب الطهارة ، وأنبع من أصابعه الشريفة باب المياه . وعلى آله الذين فتح لهم باب الولاء لإحياء الموات وأغلق عنهم باب الرد بالعيب لما زكا معدنهم وطاب بناؤهم ، فهذه زكاة المعدن والنبات . وعلى صحبه المعدودين من خيار المجلس . المقصودين للاستسقاء وصرف القبض عن المفلس . وعلى تابعيهم الذين عقلوا الوصايا فأدوا فرائض العبادات . وحسنت منهم السير فتنزه تعديلهم عن الجرح الشهادات .

---

١ — كمال الدين النشائى : أبو العباس أحمد بن عمر بن أحمد . كان إماما حافظا متصوفا . زاول التدريس بجامع الخطيرى وغيره بمصر . وكان شافعيا ممتازا . وله مؤلفات عدة منها جامع المختصرات وشرحه ، والمنتقى . وتوفى بالقاهرة سنة ٧٥٧ هـ : وترجمته فى الدرر ج ١ ص ٢٠٥ — وحسن المحاضرة ج ١ ص ١٩٧ — وشذرات الذهب ج ٦ ص ١٨٢ .

٢ — الإجازة فى صبح الأعشى ج ١٤ ص ٣٢٢ ، ٣٢٦ .

صلاة تعقب الجنايات بالمسابقة إلى جنة وحرير . وتوجب القضاء بالعتق والعفو عن القصاص وحسن التدبير .

فقد قرأ علىّ تقي الدين أبو بكر — أمده الله بالرفعة والرقى — ونفع به الناس . فما أحوجهم إلى التقي . من كتابي « البهجة » مواضع متفرقة . بتدبر حسن وعبارة مطلقة . وتفهم للدقائق . ووقوف على الأسرار والحقائق . وبحث عن غوامض ومهمات . وتنبيه لفوائد وتتمات . آذن ذلك منه بذهن وقاد . وفكر صحيح منقاد . زاد البهجة بهجة . وكم أبدى من بنت فكر تعتضد من الأم بإملاء الحجة . والله يضاعف علو قدره . ويجمل نظراءه ببقائه ، فقد سبقهم أبو بكر بشيء وقر في صدره »[1]

ب — النوع الثاني أجازات العراضة :

وهي إجازات علمية أيضاً ، وعلى نمط من النوع الأول . ولكن الفارق بينهما في الموضوع . إذ موضوع النوع الثاني حفظ الطالب كتابا أو كتبا معينة، يعرضه أو يعرضها على شيخه ، فيختبره في حفظه من مواضع مختلفة مما حفظ ، حتى يتبين له تمام حفظه وجودته ، فيمنحه بذلك إجازة تسمى « إجازة العراضة » لأن الطالب ينالها بعد أن « يعرض » ماحفظه على شيخه .

وقد قال القلقشندي بصددها :

« وأما الإجازة بعراضة الكتب ، فقد جرت العادة أن بعض الطلبة إذا حفظ كتابا في الفقه أو أصول الفقه أو النحو ، أو غير ذلك من الفنون ، يعرضه على مشايخ العصر . فيقطّع الشيخ المعروضُ عليه ، ذلك الكتاب ، ويفتح منه أبوابا ومواضع يستقرئه إياها من أي مكان اتفق . فإن مضى فيها من غير توقف ولا تلعثم ، استدل

---

١ — عن ديوان بن الوردي .

بحفظه تلك المواضع على حفظه لجميع الكتاب . وكتب له بذلك كل من عُرِض عليه ، في ورق مربع صغير . يأتي كل منهم بقدر ما عنده من الملكة في الإنشاء ، بما يناسب ذلك المقام من براعة الاستهلال ونحوها . فمن عال ومن هابط . وربما خفف بعضهم فكتب : « وكذلك عرض على فلان » . أو « عُرِض عليّ وكتبه فلان » . — إما رياسة وتأبيا عن شغل فكره وكد نفسه فيما يكتبه ، وإما عجزا عن مضاهاة من يكتب معه . » (١)

هذا . وتكتب « إجازة العراضة » بأسلوب مشابه لأسلوب إجازة الفتوى والتدريس . ويبدو أنها كانت تمنح للطلاب الناشئين في حين تعتبر إجازة الفتيا والتدريس إجازة عليا نهائية ، تمنح للطلاب المنتهين .

والواقع أن مراحل التعليم في ذلك العصر — عدا التعليم العسكري — كانت ثلاثا

الأولى : مرحلة الصغر ، وفيها يدخل التلميذ مكتبا ، فيحفظ القرآن الكريم ويعلم شيئاً من الخط والإملاء ونحوهما .

والثانية : في بدء الشباب ، وفيها يكب التلميذ على كتب العلم كالفقه والنحو والصرف والأصول والحديث ، فيحفظ منها ما وسع جهده ، وقدرت عليه طاقته وسمت إليه همته وعاونه عليه استعداده . ثم يعرض محفوظاته على شيوخ من جلة عصره . فإذا اقتنعوا بحفظه وجودته ، منحوه إجازة عراضة . . وهي شهادة المرحلة الثانية . ويُعد ما يحفظه الطالب في هذه المرحلة ، خير معين له ومرشح على دخول المرحلة الثالثة .

والثالثة : في إبان الشباب وينعه ، ويعكف فيها الطالب على الدراسة والبحث ، والمناقشة والجدل ، والفهم والاستيعاب . حتى يستقيم لسانه ويثبت جنانه ، ويحصف عقله وتجود قريحته . ويستقصي بعض الكتب أو الأحاديث ، دراسة وفهما ، حتى

---

١ — عن صبح الأعشى ج ١٤ ص ٣٢٧ .

يصبح أهلا للإفادة بها . حينئذ يقدم « استدعاء أو استجازة » إلى بعض شيوخه ، فيجيزونه ، على نمط ما قدمنا

ولعل من المناسب هنا أن نضرب مثلا لمحفوظات أحد طلاب ذلك العصر . وهو « شمس الدين السخاوى » صاحب « الضوء اللامع » . فقد قال فى ترجمته لتاريخ حياته مامؤداه : أنه فى صغره حفظ القرآن وجوده ، وحفظ كتبا منها : عمدة الأحكام، والتنبيه والمنهاج الأصلى وألفية ابن مالك ، والنخبة .

ثم قال مانصه : « وكلما انتهى حفظه لكتاب عرضه على شيوخ عصره » [1] وترى مثل ذلك فى كثير من تراجم غيره .

و إليك أمثلة لإجازة العراضة :

١ — كتب العلامة بدرالدين محمد بن أبى بكر المخزومى المالكى ، إجازة عراضة ، لشهاب الدين أبى العباس أحمد بن شمس الدين أبى عبد الله محمد العمرى الشافعى، حين عرض عليه كتاب « عمدة الأحكام » للحافظ عبد الغنى [2] وكتاب «شذورالذهب» لجمال الدين بن هشام المصرى [3] وذلك سنة ٨١٧ هـ ، فقال،وفى مستهلها تو ريات لطيفة:

« أما بعد حمد الله على كرمه الذى هو عمدتنا فى النجاة يوم العرض ، وناهيك بها عمدة . وسندنا الذى لايزال لسان الذوق يروى حديث حلاوته عن صفوان بن عسال من طريق شُهْدَه . والصلاة والسلام على سيدنا محمد الذى أحيا بروح سنته الشريفة كل من جاء ومن ذهب . وأعربت كلماته النفيسة عن عقود الجوهر و «شذور الذهب». وعلى آله وصحبه الذين أحسنوا الرواية والدراية . وبنوا الأمر على أساس التقوى

---

١ — الضوء اللامع ح ٨ ص ٢

٢ — الحافظ عبد الغنى بن عبد الواحد على المقدسى الحنبلى الزاهد الحافظ مؤلف عمدة الأحكام وغيره . مات بمصر سنة ٦٠٠ هـ (حسن المحاضرة ح ١ ص ١٦٥) .

٣ — جمال الدين بن هشام المصرى النحوى الأديب المشهور صاحب المغنى والشذور وغيرهما ، مات عام ٧٦١ هـ (الدرر ح ٢ رقم ٢٢٤٨) .

وأعربوا عن طرق الهداية . ما أنهل من أفق الكرم المحمدى كل عارض صيب .
وتحلت الأسماع والأفواه من أخباره بنفائس الشذور البديعة وحلاوة الكلم الطيب .

فقد عرض علىّ الجناب العالى البارعى الأوحدى الألمعى اللوذعى الشهابى ،
شهاب الدين ، نخبة النجباء أوحد الألباء نجل السادة العظماء . سلالة الأعيان العلماء .
أبو العباس أحمد ابن سيدنا المقر الكريم العالى المولوى العالى الفاضلى البليغى ،
المفيدى الفريدى المفوهى ، الشمسى ، العمرى — أطاب الله حديثه ، وجمع له بالإعراب
عن علو الهمة قديم الفضل وحديثه — طائفة متفرقة من « عمدة الأحكام » للحافظ
عبد الغنى المقدسى ، و « شذور الذهب » للعلامة جمال الدين بن هشام — رحمة الله
عليهما . . عرضا قصرت عنه القرائح على طول جهدها . وكانت الألفاظ الموردة فيه
لأمة حرب الفئة الباغية عليه ، فأحسن عند العرض فى سردها . وزين — أبقاه الله —
تلك الأماكن بطيب لحنه وإعراب لفظه وآذن امتحانه فيها بأن جواهر الكتابين
قد حصلت بمجموعها فى خزانة حفظه » الخ . .[1]

---

٢ — وكتب ابن الوردى من إجازة « لابن العطار » بعرض كتاب « التنبيه » فقال :

« أما بعد حمدا لله بمحامده كلها . والصلاة على نبيه أشرف البرية رتبة وأجلها .
وعلى آله وصحبه أحق الناس بكلمة التقوى وأهلها . فقد عرض علىّ « ابن العطار »
أنبته الله نباتا حسنا وبلغه من فهم العلم المنى ، عرضا زاد هذا الطفل طولا . وكفل له
— إن حرص — اليد الطولى . دل به على حفظ الكتاب كله . فأكبرت لصغرسنه
مثل ذلك من مثله . قائلا : « إنك من أطفال أرجو أن تكون لهم فى العلوم رسوخا .
ثم لتبلغوا أشدكم ثم لتكونوا شيوخا . سر الله بك أباك فى السر والجهر . فهو سبحانه
إذا شاء خرق العادة فيصلح بابن العطار ما أفسد الجهر »[2]

---

١ — عن صبح الأعشى ج ١٤ ص ٣٢٧ ٢ — عن ديوان ابن الوردى ص ١٧٤

م — النوع الثالث : الإجازات بالرواية الأدبية :

هو الإجازة برواية المؤلفات الأدبية التي ألفها المجيز . وهذا الضرب يسبقه عادة « استدعاء » من طالب الإجازة — أي استجازة . وهذا الضرب إن لم يفق الضرب الأول في سمو أسلوبه وأناقة تراكيبه ، وعلو عباراته ، لا يقل عنه في ذلك .

ونعني بالاستدعاء أو الاستجازة ، أن يسعى أديب إلى أديب آخر ، يكون — غالباً — أنضج منه أدبا ، وأرحب أفقا ، وأبعد شهرة ، فيكتب إليه رسالة يضمنها طلبه منه أن يمنحه إجازة برواية آثاره الأدبية ، ومصنفاته ومروياته ، سواء أكانت شعراً أم نثرا . ليكون بذلك أحد رواة أدبه ، تشريفا له من ناحية ، وتحملا لأمانة الرواية عنه ، من ناحية أخرى ، حيث يكون قد شافه بنفسه ، صاحب مروياته . وهذا أدعى إلى الثقة به ، والإقبال عليه والأخذ عنه ، مادام يحمل منه إجازة بالرواية . تلك الإجازة التي تعد في الواقع شهادة بصدق الراوي ، والثقة به في الأداء . وهي تخول له أن يحمل أمانة الرواية إلى من بعده . وبذلك تظل سلسلة رواية الأدب والتصانيف موصولة إلى المؤلف . وفي ذلك ما فيه من شيوع الثقة في المرويات .

والاهتمام برواية الآثار الأدبية شفاها عن أصحابها ، عادة جاهلية محمودة ، ولقد لبثت متبعة حتى عصر المماليك متأثرة بعناية حفاظ الحديث في ضبطه وروايته بعد الإجازة .

واعتاد المستدعي أن يكتب رسالته بعبارة بديعية خلابة ، يتوثب فيها الخيال ، ويطفر الخاطر ، ويتناثر فيها المديح وذكر فضائل المجيز ، وماله من قدرة أدبية وفضائل علمية ومنافع قدمها أيادي بيضا لبني الإنسان .

والإجازة ، هي رسالة يرد بها المجيز « أو المستجاز والمستدعى » على طالب الإجازة « المستدعي » يجيب فيها طلبته ويحقق رغبته ، ويضفي عليه فيها آيات من

الثناء ، و بينات من الإطراء . وقد يسوق إليه خلالها نسبه — نسب المجيز — واسمه وأخباره ، و يسجل مؤلفاته وأسماءها واحدا واحدا . وكثيرا ما يعروه التواضع حينذاك ، و يعف عن مدح نفسه بقلمه .

ومن هذا وذاك ترى أن الاستدعاء والإجازة بالرواية ، رسالتان يتقارض فيهما الصديقان المتراسلان الأديبان ، الثناء ، و يتبادلان الحمد ، و يمتنان روابط المودة ، و يكرم كل منهما الآخر .

ومن أمثلة الإجازة بالرواية ، إجازة جمال الدين بن نباتة المصرى التى كتبها لصلاح الدين الصفدى بعد استدعاء أرسله الصفدى إليه . وكانت بينهما أمور ومسائل ومنافسات . فقد سطا الصفدى على بعض أبيات ابن نباتة ، وغضب ابن نباتة ، وألف فى سرقات الصفدى منه كتابا سماه « خبز الشعير » لأنه مأكول مذموم . كما كان بين الأديبين معاتبات شعرية ممتعة فى آن واحد . ولقد أفاد الأدب من هذين الأديبين ثروة لاتقدر

أما استدعاء الصفدى فنه قوله ، وترى فيه ألوانا من البديع ، وبخاصة الجناس الذى كان به مشغوفا — :

« الحمد لله على نعمائه . المسئول من إحسان سيدنا الشيخ الإمام العلم العلامة رحلة أهل الأدب . وقبلة ذوى التحصيل فى التحصيل والدأب ، الذى تبيت شوارد المعانى صرعى بحوله للطاقة تخيله . وتمشى الألفاظ العذبة طوع تحوله فى التركيب وتحيله . فأسمى وله النسيب الذى يضحك من العباس فى رقته ويقيم صريع الغوانى إلى مقته بعد مقته . والغزل الذى يشيب له فؤاد الوليد ويسترق الحر من كلام عبيد . والتشبيه الذى لو علمه ابن المعتز لما نصب الهلال فخا يصيد النجوم . ولو تعاطاه حفيد جريج

لقيل له : «ألم تسمع ، ألم غلبت الروم » ؟ . والمديح الذى لو بلغ زهيرا لقال : ما أنا من هذه الحدائق . أو اتصل نبؤه بالمتنبى لاشتغل عن ذكر العذيب و بارق . والرثاء الذى نقص عنده أبى تمام ، بعد أن رفع له لواء الشرف والفخر . وقال : هذه عذوبة الزلال ، لا ماتفجر من الخنساء على صخر . والترسل الذى سقى الفاضل كأس الحتوف لما شبه الغمود بالكمائم ، والسيوف بالأزهار . وأذهله حتى صحت له القسمة فى الخيل والخيال بين المراقب والمراقد ، فأخطأت معه فى المرابع والمساجد بين الأنوار . والكتابة التى تغدو الطروس بها وكأنها رياض محبرة . أو سماء بالنجوم زاهرة . إن لم ترض أن تكون فى الأرض رياضا مزهرة .

أدب على الحصرى يعلو تاجه ولو ابن بسام بكى ألوانا
وترسل سبحان من قد زاده منه وأعطى الفاضل النقصانا
وكتابة لعلوها فى وضعها ليس ابن مقلة عندها إنسانا
فلكم أخى فضل رأت عيناه فى م الأوراق لابن بناتة بستانا

جمال الدين أبى عبدالله محمد بن الشيخ الحافظ شمس الدين محمد بن نباتة — جمع الله به شتات أهل الأدب فى دوحة هذه الدولة . ولم به شعث أبنائه الذين لا صوت لهم ولا صولة . وأقام به عماد أبيات الشعر التى لولاها لما عرفت دارمية من أطلال خولة — إجازة كاتب هذه الأحرف — فسح الله فى مدته — برواية المصنفات فى الأحاديث النبوية والتأليفات الأدبية ، على اختلاف أوضاعهما ، وتباين أجناسهما وأنواعهما . بحسب ما يؤدى ذلك إليه ، واتصل به من سماع أو إجازة أو وصية أو وجازة ، من مشايخ العلم الذين أخذ عنهم . و إجازة ماله — أحسن الله إليه — من مقول ، نظما أو نثرا أو تأليفا أو وضعا ، إجازة خاصة . و إثبات مالديه من التصانيف إلى هذا التاريخ بخطه الكريم ، و إجازة ماله يقع بعد ذلك . إجازة عامة ، على أحد القولين فى المسألة فإن الرياض لا ينقطع زهرها والبحار لا ينفد درها . و إثبات ما يحسن إيراده فى

هذه الإجازة من المقاطيع الرائقة . والأبيات اللائقة . وذكر نسبه ومولده ومكانه ، متفضلا فى ذلك .

وكتبه خليل بن أيبك بن عبدالله الأيبكى بالقاهرة المحروسة فى مستهل شعبان المبارك فى تسع وعشرين وسبعمائة وحسبنا الله ونعم الوكيل . »[1]

أما إجازة ابن نباتة فقوله : وفيه براعة استهلال ، مما اشتهر به ابن نباتة ، وكذلك توريات واقتباسات ونحوها :

« بسم الله الرحمن الرحيم . أما بعد حمد الله الذى إذا توجه إليه ذو السؤال فاز . وإذا استدعى كرمه ذو الطلب أجاز . والصلاة والسلام على سيدنا محمد كعبة القصد التى ليس بينها وبين النجح حجاز وعلى آله وصحبه حقائق الفضل ، والفضل من بعدهم مجاز .

فلو لزم فى كل الأحوال تناسب المخاطبة . وكان جواب السؤال بحسب ما بينهما من شرف المناسبة . لما رضى سجع الحمائم لمطارحته نوعا من الأطيار . ولا قبل فصحاء الأول مراجعة الصدى من الديار . ولا قنع غمز حواجب الأحبة برد القلوب الهائمة فى أودية الأفكار . ولكن تقول الأكابر : والأولياء تبذل من الأجوبة جهدها . وتنفق ما عندها . وتجرد الأماثل سيوف المنطق ولا تتعدى الأتباع من الطاعة حدها .

ولما كنت أيها الراقم برود هذا الاستدعاء ببنانه . والمنشىء روض هذا السؤال بآثار السحب من بيانه . والسائل الذى بهرت الأفكار فضائله . وسحرت أرباب العقول عقائله . أقام المسئول مقاما ليس من أهله فليتق الله سائله . فريد فن الأدب الذى لايبارى . وبحره الذى لايهدى غائص ذلمه الدر إلا كبارا . وذا اليد البيضاء

---

١ — راجع خزانة الأدب ص ٢٨٩ فى سياق باب التورية — والوافى بالوفيات ج ١ — والدرر الكامنة ج ٤ رقم ٥٨٥ .

فيه، الذى طالما آنس من جانب الزهد نارا . وخليله الذى اطلع على أسراره الدقيقة. ورئيسه الذى لو طارح ابن المعتز وتمت ولايته لكان أمير المؤمنين على الحقيقة . وناظمه الذى يسرى الطاثيان تحت علمه المنشور . وكاتبه الذى تتبجح العبدان بالدخول تحت رقه المأثور . طالما شافه منه القلم وجها جميلا . وقدرا جليلا . ولاقى من لا يندم على صحبته ، فيقول: ياليتنى لم أتخذ فلانا خليلا . فهو الغرس الذى يقصر عن أمالى وصفه الشجرى . ويفخر الدين والعلم بشخصه ولفظه ، فهذا يقول : غرسى . وهذا يقول : ثمرى . » .

ولبث ابن نباتة يثنى على صاحبه ، ثم قال محدثا عن نفسه مبديا تواضعه :

« بدأتنى — أعزك الله — من الوصف بما قل عنه مكانى . وكاد من الخجل يضيق صدرى ولا ينطلق لسانى . وحملت كاهلى من المنن ما لم يستطع . وضربت لذكرى فى الآفاق نوبة خليلية لا تنقطع . وسألتنى مع ما عندك من المحاسن التى لها طرب من نفسها . وثمر من غرسها . أن أجيبك وأجيزك . وأوازن بمثقال كلى الحديد إبريزك. وأقابل لسنك المطلق بلسانى المحصور ، وأثبت استدعاءك على بيت مال نطاقى المكسور . فتحيرت بين أمرين أمرين . ووقع ذهنى السقيم بين داءين مضرين . إن فعلت ما أمرت به . فما أنا من أرباب هذا القدر العالى . والصدر الحالى. ومن أنا من أبناء مصر ، حتى أتقدم لهذا الملك العزيز . وكيف أطالب مع إقتار على بأن أمدح وأجيز . وأنى لمقيد خطوى هذه الوثبات . وأنى يماثل قوة هذا الغرس ضعف هذا النبات . »

وما زال ابن نباته يبدى تواضعه ، ويمدح الصفدى ، حتى استنفد سطورا عدة. ثم ذكر له فصلا عن مولده ومكانه وشيوخه وعددا من فضلاء الأدباء الذين روى عنهم وما كان بينه وبينهم من إنشاد أشعار . وما أنشده كل منهم للآخر . ثم سجل له مصنفاته واصفالها ومشبها لها بالياسمين الذى لا يساوى جمعه . ثم قال مجيزا :

« أجزت لك — أعزك الله — روايتها عنى ، ورواية ما أدونه وأجمعه بعد ذلك

حسبما اقترحه استدعاؤك وتمّمه . ونسخه وحققه . وتضمنه سؤالك الذى تصدقت به . فمنك السؤال ومنك الصدقة . والله تعالى يشكر عهدك الجميل . وكلماتك الجزلة وكرمك الجزيل . ويمتع بك فنون الفضائل الملتجئة إلى ظل قلمك الظليل . ولايعدم الأحباب والآداب من اسمك ومسميك خير صاحب وخليل .

قال ذلك وكتبه محمد بن محمد بن محمد بن أبى الحسن بن صالح بن على بن يحيى بن طاهر ابن محمد بن الخطيب بن يحيى بن عبد الرحيم بن نباتة الفارقى الحذاق ثم المصرى . عفا الله عنه »(١)

وإجازة ابن نباتة طويلة ، وقد اجتزأنا منها بالفقرات التى أثبتناها، وقد أوردها ابن حجة الحموى فى خزانة الأدب ، وذلك بعد أن أشار إلى سرقات الصفدى الشعرية من ابن نباتة . ثم قال أيضا ، وفيه موازنة بين أدب ابن نباتة والصفدى :

« قلت : قد أوردت هنا ما جناه الشيخ صلاح الدين الصفدى من حدائق الروض النباتى . ومقابلة جمال الدين له على ما جناه . فإن نسبنى أحد إلى تحمل ، راجعته إلى النقل . وإن وافق وتعقل الرتبتين ، فقد اكتفى بشاهد العقل . وإلا فالأقسام الصفدية بالنسبة إلى القطر النباتى تمجها الأذواق . وهأنا قد أبرزت ثمرات الدوحتين بين هذه الأوراق . والشيخ صلاح الدين — رحمه الله — تصاغر ، لذلك ، وما كابر . ووقف على باب الشيخ وقوف فقير يسأل الإجازة . وطال وقوفه على ذلك الباب العالى ، إلى أن حصل له الفتوح وأجازه . وهأنا أذكر سؤال هذا السائل الذى ولد قبل العطاء أن يدفع بالتى هى أحسن . وأشرح كرم المسئول الذى نثر على سائله الدر جزافا ، علما أن عطاء الكريم لا يوزن » . . ثم أورد النصين .

ونشير بعد هذا إلى بعض الإجازات الأخرى :

---

١ — المرجع السابق .

١ — إجازة بالرواية كتبها الصفدى ردا على استدعاء شهاب الدين الحنبلى . وردت فى صبح الأعشى ج ١٤ ص ٣٣٢ . وفى ألحان السواجع للصفدى .

٢ — إجازة بالرواية كتبها شمس الدين بن الصائغ ردا على استدعاء بعضهم . وردت فى صبح الأعشى ج ١٤ ص ٣٣٤ .

٣ — إجازة عراضة كتبها شمس الدين بن الدايم . فى صبح الأعشى ج ١٤ ص ٣٢٩ .

٤ — إجازة عراضة كتبها عز الدين بن جماعة . فى صبح الأعشى ج ١٤ ص ٣٣٠ .

٥ — إجازة عراضة كتبها شهاب الدين القلقشندى . فى صبح الأعشى ج ١٤ ص ٣٣٩

٦ — إجازات متنوعة بقلم زين الدين بن الوردى مثبتة فى ديوانه .

٧ — استدعاء بقلم الصفدى موجه إلى ركن الدين بن القوبع — فى الوافى بالوفيات ج ١ .

٨ — إجازة ابن القوبع للصفدى ردا على استدعائه — فى الوافى بالوفيات ج ١

الفصل الخامس

الاسئلة والاجوبة

وإليك لونا من ألوان الرسائل طريفا ، هو « الأسئلة والأجوبة » وهو نوع من المكاتبات المتبادلة بين نديين أوصديقين أو بين رجل من الناس ، وأحد الأدباء أو العلماء . يرسله الأول إلى الثانى سؤالا ، ويرسله الثانى إلى الأول جوابا .

ويستطاع اعتبارهما نوعا من الرسائل الإخوانية . غير أن لها خصوصية تفرقهما عن الإخوانيات . ذلك أن موضوع الحديث فيهما ليس إخوانيا بالمعنى الذى أشرنا إليه فى مطلع الحديث عن الإخوانيات . فلا يدور حول شوق أو شكوى أو عتاب أو نحو ذلك من ملابسات الصداقة ومضاعفات المودة . وإنما يدور حول مسألة علمية أو أدبية ، يسأل عنها الأول ، ويجيب الثانى . لهذا آثرنا إفرادهما على حدة .

وكانت هذه المكاتبات متوالية بين كثيرين من أهل العصر وعشاق العلم والأدب . وكثيرا ما كانت تكون موضوعات الحديث فيها مسألة فى النحو أو الصرف ، أو الفقه أو العقيدة أو الأدب أو النقد أو الألغاز أو نحو ذلك . وهى تدل على مدى شغفهم بالعلوم والآداب ومبلغ نضج النزعات الفكرية على الرغم من ملابسات العصر ومعوقات نهوضه .

ويتبع فى تحرير هذه المكاتبات غالبا ، النمط البديعى المتبع فى غيرها . مع اقتضاب فى اللوازم الديوانية . ومع تزويدها بقسط من الأبيات الشعرية فى الموضوع . وبهذه المناسبة نشير إلى أن « الأسئلة والأجوبة » كثيرا ما كانت شعرية خالصة .

هذا . وقد سماها القلقشندى « الأسئلة الامتحانية » . وقال بإزائها ما نصه :

« قد جرت عادة مشايخ الأدب وفضلاء الكتاب أنهم يكتبون إلى الأفاضل بالمسائل يسألون عنها : إما على سبيل الاستفهام واستماحة ما عند المكتوب إليه فى ذلك . وإما على سبيل الامتحان والتعجيز . ثم تارة يجابُ عن تلك الأسئلة بأجوبة فتكتب ، وتارة لا يجاب عنها . بحسب ما تقتضيه الحال . »[١]

ومن نماذجها :

١ - ما أورده القلقشندى أيضا بعد كلمته السابقة ، حيث قال :

« وهذه رسالة كتبها الشيخ جمال الدين بن نباتة المصرى ، إلى الشيخ شهاب الدين محمود الحلبى ، صاحب ديوان الإنشاء بالمملكة الشامية . وقد بلغه أن بعض أهل الديوان نال منه . وأن الشيخ شهاب الدين المذكور ، ناضل عنه ودافع . فكتب إليه يشكره على ذلك ، ويسأل كتاب الديوان على أسئلة ، بعضها يرجع إلى صنعة الإنشاء ، وأكثرها يرجع إلى فن التاريخ » .

وقد أثبت القلقشندى هذه الرسالة الشائقة بتمامها . ويبدو من سطورها أن ابن نباتة كان أولا ، قد استفتى بعض كتاب الديوان فى أمور تتعلق بصناعتهم طلبا منهم للفائدة . فظنوه — وهو من هو — يعرّض بهم ويسخر منهم ، فثاروا إلى مذمته ، وثار معهم بعض كبار المنشئين ، فى الديوان ، وتناولوه بالعيب والتنقص ، حتى رد الشهاب الحلبى غيبته وكان نتيجة ذلك ، أن كتب إليه ابن نباتة هذه الرسالة الفريدة فى بابها .

وهى رسالة طويلة ، بل مقامة رائعة مقطوعة النظير ، تقع فى نحو ٢٥٠ سطرا . وقد أبدع فيها ابن نباتة إبداعا مطربا معجبا . وسن لها شباة قلمه وأرهف حده ، حتى صال

---

١ — صبح الأعشى ج ١٤ ص ٢٤٠ .

على القرطاس صولة السيف الصارم فى الميدان . ويعمى القلم أحيانا مالا يعمى السيف. وقد ضمنها من ضروب مراعاة النظير تهكمات لا عدد لها . وفصلها بأبيات فى أليق مناسباتها . وملأها بجملة من الأسئلة الساخرة الموجهة إلى عائبيه ، فى أمور تاريخية وكتابية تتعلق بصميم صناعتهم التى يزاولونها فى الديوان ، وخصصوا أقلامهم فيها . ليثبت بعجزهم عن الإجابة عنها ، مدى علمه ، ومدى جهلهم . واكتمال أدبه ، ونقص أدبهم . ويبرز للقارىء أنه كان الأحرى بهم أن يدخروا عيوب ألسنتهم لأنفسهم ، ويحفظوا خواطرهم من إذاعة كلالها وهزالها ، ويبقوا حسد قلوبهم دفينا بها .

وقد بدأ الرسالة بالدعاء للحلبى دعاء فيه إشارات إلى الحسد والحاسدين ، والحقد والحاقدين . وأبدى له أشواقه فى عبارات كيسة مونقة . وأخذ يشكره ويمدحه ويصف أياديه عنده ، ويعلى من قدر شعره ونثره ؛ ويفصح عن منزلته بين الأدباء . ثم أخذ يبدى له عجبه من شانئيه وعائبيه ، ويصفهم هاجيا متهكما مزدريا . وفى خلال ذلك يمدح نفسه ويفخر بشعره ونثره . وذكر ما استولى على بعض كتاب الديوان من العى والحصر والجهل . وطفق يلقى عليهم الأسئلة تلو الأسئلة حتى أمطرهم بفيض منها غزير . وهى أسئلة محرجة ، مما ينبغى على الأديب المتبوىء أحد مناصب الديوان الرفيعة ، أن يكون على ذكرة منها ومن جوابها . وهى كما أشرنا — فى صميم صناعة الكتابة وتاريخها وما يتصل بها . — ثم عاد فى خاتمتها إلى شكر المرسل إليه ، راجيا منه أن يسد الخلل كلما بان ، ويصلح الخطل كلما بدا . معتذرا إليه عن إقلاله وكلال ذهنه بما انتابه ويتتابه — من صروف الزمان وقلة الإخوان حتى أصبح يرتجى المنية ، وعندما يستطيع أن يطلق صناعة الأدب ، طلاقا لا رجعة فيه . .

ومن هذا العرض الوجيز ، ترى أن هذه الرسالة تضمنت جملة من الفنون النثرية ، منها : الشكر والمدح ، والعتاب والتهكم والهجاء والتحدى والدعاء والفخر والشكوى . مزجت جميعا مزجا أدبيا رائعا بارعا ، ونذر أن ترى بين الرسائل المنثورة ما يشبهها فى

ذلك . على الرغم من قيودها البديعية . على أن هذه القيود فى أكثر حالاتها أضفت عليها قوة وتأثيرا ، وعاونتها على الجدة و بلوغ الغرض .

ونثبت لك فقرات منها فى مواضع متنوعة ، نجتزىء بها فن ذلك :

مما قاله فى مستهلها رهو فى الدعاء للمرسل إليه وفى مدحه :

« لا يخرج الـكره منى غير نائبة ولا ألين لمن لا يبتغى لينى

الاستفتاح « بلا » تيمن ببركة الشهادة . وهى ههنا مقراض يقطع من العيب المِدَّةَ ويحسم المادة . فحسم الله عن سيدنا الإمام العلامة القدوة ، شهاب الدين . بكل الآداب . وملك الشعراء والـكتاب . شر كل عين حاسد ولو أنها عين الشمس . وحماه عن مد ألسنة ذوى الاغتياب والارتياب من الهمْج والهمْس . وهيأ له أسباب الخير حتى يكون يومه فيه مقصرا عن الغد زائدا على الأمس . واستخدم له الأقدار حتى تـكون فرائض تقبيل أنامله العشر عندهم كفرائض الخمس . وجعل ما يرد عنه العين من العيب — بُعدَ شأنِهِ عن المتناول — وقايةً عن اللمس . حتى يكونَ المعنىُّ بقول القائل :

ولا عيب فيه غـير أن عـلامة إذا حددوه كان قد جاوز الحدّا

ولا عيب أيضـا فى مآثر بيتـه سوى أنها تُروى بألسنة الأعدا » الخ

وقال فى إظهار شوقه إليه ، وهى فقرات أندى من الزهر ، وأغن من سجع الحمائم ، قال :

« العبد يخدم بسـلام . ما روضة نقّطها الجو بدر سحائبه . وأفرغ عليها الأفق صفط كواكبه . وامتد نوء الذراع لتدبيـج سمائها . وتأريج أرجائها . وتخميش معاصم أنهارها . المنشقة بأفنائها . وصقال نسماتها السَّحَرِية . ومغازلة عيونها السحرية . وهوان الغالية بنفحاتها الشجرية . تصرف دنانير أزهارها الصيروف . و يسل جدولُها على

الهموم السيوف . وتجذب حمائمها القلوب بالأطواق . ويتشفع دوحها إلى النواظر بالأوراق قد ترقرق فى وجناتها ماء الشباب . وغنى مطرب حمامها وعنتره فى حك من الذباب . ويحرّكها رونقُ السيف وفى قلب روضته الذباب .

فما كل أرض مثل أرض هى الحمى   وما كل نبت مثل نبت هو البان

يوما بأبهج منه أشواقا . وأطيب منه انتشاقا واتساقا . والطيبون للطيبات . ولكل غيث نبات ، وما لذلك الغيث إلا هذا النبات . » الخ .

ومنها يمدحه أيضا ويشكره قال :

« فأعلى الله كلمة سيدنا العلامة فى الدارين . وشكر غنىٌ جود كرمه وكله الدارّين. فهو صاحب ديوانهم وحجة زمانهم فلقد وصفنى بما يزيد على الجواب. وشافهنى من الشكر بما لا يتوارى من الرزق بحجاب. وأمننى العز والزمان حرب . ونصرنى والأيام سيوف تتنوع من الضرب فى كل ضرب . وأعطانى كرمه والمحلُّ محل . وفى قلب الزمان زحل. ونحلنى شهدة إحسانه والأوقات كإبر النحل . حتى عذرنى فى حبه من كان من اللائمين. واهتديت من لفظه وفضله بقمرين لا يميل أحدهما ولا يمين . وصُلتُ من جاهه وماله بيدين إلا أن كلتيهما فى الإعراض يمين .

ويلومنى فى حب علوة نسوةٌ   جعل الإلهُ خدودهن نعالها »

وقال يذكر عائبيه ويفخر عليهم ويتهكم بهم :

« بلغنى أن جماعة من الذين استفتيتهم استنباطا لفوائدهم ، والتقاطا لفرائدهم ، لا تكليفا لهم فيما لا يقوم به إلا الأقوى من الأقوام . ولا يستنجد به فى هذا الوقت إلا بأرباب صفحات السيوف لا أرباب قصبات الأقلام . أرادوا الغض منى . ونفى الإحسان عنى . وهيهات :

« أنا أبو النجم وشعرى شعرى »[1]

---

١ — أبو النجم أحد الرجاز . والشطر من شعره .

هأنا و بضاعتى . وهذه يدى لا أنى ألقيتُ بها إلى السلم ولـكن لأعرض صناعتى:

« هو الحى ومعانيه معانيه »

و إنهم اجتمعوا بالميدان على حديثى . وذكروا قديمى وحديثى . وتسابقوا فى الغيبة أفراس رهان . وأعجب كلا منهم أن يقول : هذه الشقراء فى يدى وهـذا الميدان . ولاموا وعذلوا . وهموا بالسب وفعلوا . واستطابوا لحم أخيهم فـلقوه بألسنة حداد وأكلوا . حتى تعدى ذلك إلى من جاد علىّ بالجواب . وفعله إما جزاء للمدح و إما للثواب .

فقلتُ لها عيثى جَعَارِ[1] وجُرِّرِى   بلحم امرىء لم يشهد اليوم ناصِرُه »

ومن أسئلته وهى الغرض البارز من رسالته ، قوله :

« من كتب فى الورق واستبطه ؟ ومن ختم الـكتاب بالطين و ربطه ؟ ومن غـيّر طين الـكتاب بالنشا وضبطه ؟ ومن قال : أما بعد فى كتابه ؟ ومن جعلها فى الخطب وأسقطها فى ابتـدائه فى المـكاتبة وجوابه ؟ ومن كره الاستشهاد فى مكاتبات الملوك بالأشعار ؟ وكيف تركها على ما فيها من الآثار ؟ ومن الذى أراد أن يكتب نثرا فجاء شعرا ؟ ومن وضع هذه الطرة فى التقاليد واخترعها ؟ وما حجته إذ قدمها على اسم الله ورفعها ؟ ومن الذى باعد بين السطور ووسعها ؟ وكيف ترك بالتعاظم فى كتبه سنة رسول الله ﷺ ولم يسعه من التواضع ما وسعها ؟ ومن استغنى بكتابة آية من كتاب الله عن الجواب ؟ ومن اكتفى ببيت من الشعر عما يحتاج من تطويله الكتاب؟ ومن الذى عانى المترجمات ورتبها ؟ وأخفى ملطفات الجواسيس وغيبها ؟ ومن الذى سن البرد و بعثها فى المليات ؟ ومن حاكى شيئا من ملك سليمان فاستخدم الطيور فى بعض المهمات ؟ وما أوجز مكاتبة كتب بها عن خليفة فى معنى ؟ وما أبلغُ جواب وأوجزه أجاب به عن خليفة من لا سمى ولا كنى ؟ ولمَ أرخ بهجرة النبي ﷺ ؟ وكيف

١ ـ جعار : اسم للضبع

لم يؤرخ بمولده أو غير ذلك من الأيام[1] » الخ

والرسالة طويلة كما أشرنا وهى مليئة بمثل هذه الأمثلة . وتدل ضمنا على مدى ثقافة ابن نباتة وسعة علمه .

٢ — ونسوق الآن نموذجا آخر من طراز آخر ، يفترق عن الأول فى موضوعه : ذلك أن جمال الدين بن نباته المصرى كان قد مدح القاضى كمال الدين الزملكانى بقصيدة تائية جيدة طويلة امتازت بانسجام ألفاظها ورقة عباراتها وجمال أساليبها ، فضلا عما فيها من حسن التصوير وروعة النكات الأدبية وجدة الدقات البديعية مع تنوع فنونها . وهى التى قال فى مطلعها متغزلا :

قضى وما قضيت منكم لبانات   متيم عبثت فيه الصبابات

وقد عارضها معاصره الأديب الشاعر برهان الدين القيراطى بقصيدة بارعة من البحر والروى . أجاد فى غزلها وفى دقاتها الأدبية إجادة ممتازة . وهى التى قال فى مطلعها متغزلا :

ما لابتداء صبابانى نهايات   يا غاية ما لعشقى فيه غايات

وكانت القصيدتان — كما يبدو من كلام ابن حجة — موضع موازنات لدى بعض أهل الأدب ، حتى فضلوا تائية القيراطى على تائية ابن نباتة من ناحية زيادتها فى النكت الأدبية فى القافية ، لا من قبيل انسجام الألفاظ وحشمتها . فإن تائية ابن نباتة من هذه الناحية مقدمة .

وقد جاء بعدهما تقى الدين بن حجة فعارضهما بتائية ثالثة مطلعها :

لمحبه ولذيل الهجر شمرات   وللقلوب من الأجفان كسرات

ثم بعث ابن حجة إلى قاضى القضاة شهاب الدين بن حجر العسقلانى رسالة يعرض عليه التائيات الثلاث ، ويقيمه حكما بينها ، ليبين أجودها . وهذه مكاتبة ابن حجة

---

١ — صبح الأعشى ج ١٤ ص ٢٤١ ، وبه النص الكامل للرسالة .

قال : وقد سماها : « صيغة الدعوى » :

« الحمد لله الحكم العدل . يقبل الأرض ، وينهى أنه انتصر بنباتة الحموى لنباتى مصر وحلاوته . وحرر مع القيراطى موازين الأدب بمعيار البلاغة . والموجب لذلك أن جماعة من عدول الأدب بترجيح تائية القيراطى تشهد . وقد عارضته منتصرا لمحمد . وأ و بكر أحق من تطلب لنصرة محمد . وسميت هذا التأليف : « قبول البينات المبرز فى نظم التائيات » . والمملوك يسأل الحكم لمن قبات بينة تقديمه فيما ادعاه . أعز الله تعالى أحكام مولانا قاضى القضاة » .

وقد رد عليه ابن حجر مفضلا تائيته على تائيته ابن بناتة والقيراطى معا ، فقال :

« لله الأمر من قبل ومن بعد . الحكم بين النظراء إنما يحسن ممن يماثلهم فيما به يرتفع الحكم . وفى إقدام من لم يرتق إلى تلك الطبقة نوع من الظلم . ولا يرتاب لبيب أن كلا من الثلاثة رأس هذا الفن فى زمانه . وأنه لا يوازنه أحد من أقرانه .

وثلاثة كثلاثة الراح استوى لك لونها ومذاقها وشميمها

ولكن لما كان امتثال الأوامر من بعض فنون الأدب . و إجابة الداعى ولاسيما على من ظنه أهل هذا الفن أمر انتسب . ومرجع الحكم فى هذه القصة إلى الذوق السليم ، فأمكن القول إن لم أقل : وجب . فأقول مستعينا بالله متوكلا عليه . ملتجئا فى كل الأمور إليه :

الذى تبنى عليه القواعد ويشهد به الذوق السليم الذى هو فى هذا الفن أعدل شاهد ، أن الثالثة أرجح وزنا من الثانية . ولولا حرمة الكمال ، والحياء من الجمال . لقلت أن الثانية فى الرتبة الأخيرة تالية . لأن الأولى وإن كانت من الثانية أكثر انسجاما . والثانية وإن فضلت على الأولى فى الدقات الأدبية ابتداء واختتاما ، فالثالثة قد جمعت بين المعنيين . وفازت بالحسنيين . ونزلت فى كل وجه من الأدب منزلة العين . وقال لسان فحوليتها عند لين الكلام من غيرها : للذكر مثل حظ الانثيين.

وقد أتت بما غض من الأزاهر النباتية والجواهر القيراطية . وما فاق مجموعه كل فريد . وراق مسموعه كل مجيد . حتى قال من شهد مثلي ببراعته . وطرب لصرير يراعته

أقصى نهاية وصفي فيه معرفتي ... بالعجز مني عن إدراك معرفته »

هذا . وقد كان ابن حجر العسقلاني ، فضلا عن تفوقه في فقه الشافعية وحفظ أحاديث الرسول ومعرفته التاريخ ، أديبا ذواقة له شعر لطيف ونثر أدبي طريف .

ويبدو أن ابن حجة قد أرسل بمثل استفتائه السابق ، إلى شمس الدين أبي عبدالله محمد الجزري وهو من حفاظ زمانه أيضا وفقهائه وأدبائه . فبعث إلى ابن حجة رده وهو رسالة على نمط من رسالة ابن حجر[1] .

وفي قهوة الإنشاء لابن حجة ، وألحان السواجع للصفدي نماذج لهذه المراسلات .

---

١ — نصوص الرسائل الثلاث في « تأهيل الغريب » لابن حجة

خاتمـــة

ينبغى لنا — وقد تحدثنا عن أهم ألوان الرسائل ، أن نشير إلى حديث القلقشندى عنها فى كتابه « صبح الأعشى » وهو أفضل موسوعة فى موضوعها . وقد استقصى فيه مؤلفه جميع ألوان المكاتبات قديمها وحديثها إلى عهده . وفى جملتها : المكاتبات الديوانية وغير الديوانية .

وقد تحدث عن هذه الأخيرة فى الجزء الرابع عشر من كتابه ، فى مقالته العاشرة تحت عنوان « فى فنون من الكتابة يتداولها الكتاب ، وتتنافس فى عملها ، ليس لها تعلق بكتابة الدواوين السلطانية ولا غيرها » .

وملخص ما اندرج تحت حديثه المذكور من ألوان المكاتبات : ١ — المقامات ٢ — الرسائل الملوكية وهى نوعان : رسائل الغزو ورسائل الصيد . ٣ — رسائل المديح والتقريض . ٤ — المفاخرات . ٥ — الأسئلة والأجوبة . ٦ — ما تكتب به الحوادث والماجريات . ٧ — رسائل وصف قِدْمَات البندق وما يتصل بها . ٨ — الصَّدُقات « أنواع الصداق » ، ملوكية وغيرها . ٩ — الإجازات وأنواعها . ١٠ — التقريضات التى تكتب على المصنفات والقصائد . ١١ — التقاليد الحكمية ١٢ — إسجالات العدالة . ١٣ — الكتب إلى النواب وما فى معناها . ١٤ — افتتاحات كتب الوقف ونحوه . ١٥ — العمرات التى تكتب للحجاج . ١٦ — الهزليات .

وقد أجمل القلقشندى هذه الأنواع جميعا تحت مقالة واحدة — كما أشرنا —

واعتبرها « غير ديوانية » .

وقد اتبعنا فى بحثنا هذا منهجا مخالفا لمنهجه بعض المخالفة . فجمعنا الفنون التى يكون الوصف غرضها الأساسى ، تحت باب الوصف . والتى تنطبع بالطابع الرسمى الديوانى ويكتبها منشئون رسميون فيما يتصل بالسلطان ، تحت الرسائل الملوكية . وما ينطبع بالطابع الإخوانى أو الشخصى ، تحت الرسائل الإخوانية ونحوها من إجازات وأسئلة وأجوبة . وهكذا .

ولذلك :

نعتبر رسائل الغزو والصيد الخاصة بالسلطان فى عداد الرسائل الملوكية الديوانية ومثلها الصداق والتقاليد الحكمية وإسجالات العدالة ، والرسائل إلى النواب ومن فى حكمهم . وافتتاحات كتب الوقف ونحوها ، والعمرات ، فكل أولئك نعتبره من الرسائل الديوانية ، أو الملحقة بها ، إذ قصاراها أن تكتب فى أمور رسمية ، لها مساس بالرسميين وبالدولة .

ونعتبر رسائل المديح والتقريظ والأسئلة والأجوبة والإجازات والهزليات ، من الرسائل الإخوانية أو ما يجرى مجراها ، على نحو ما نهجناه فى « باب الرسائل » .

ونعتبر رسائل المفاخرات ، ووصف الحوادث والماجريات ، ووصف قدمات البندق وما يتصل به ، وتقاريظ الكتب فى « باب الوصف » كما نفصله بعد .

أما المقامات فقد سلكناها فى « باب القصص » .

هذا . ولننوه هنا فى إشارة عابرة ، بما فاتنا التنويه به من هذه الألوان الكتابية التى ذكرها القلقشندى مما يتصل بباب الرسائل ، فحسب ، ليكون القارىء على ذكرة منها أما ما يتصل بباب الوصف فننوه به فى بابه بمعونة الله ومشيئته .

فمن ذلك :

التقاليد الحكمية :

هي رسائل تكتب عن قضاة القضاة إلى تابعيهم ، يولونهم بها أمرا من الأمور ، أو منصبا من مناصب نيابة الحكم . وأسلوبها نمط من « التقاليد » التي سبقت الإشارة إليها ، على وجه التقريب . فتبدأ مثلا بخطبة فيها تحميدات وصلوات على النبي عليه السلام ، وإفاضة في ذكر المنصب أو الأمر وبيان أهميته ، وما للمرسل إليه من مزايا أهلته لشغله ، ثم وصيته برعاية الأمانة والعدالة . ونحو ذلك .

اسجالات العدالة :

رسائل تكتب عن قضاة القضاة أيضا ، إلى أبناء العلماء والرؤساء الذين تثبت عدالتهم لديهم . ويبدو أنها ضرب من التكريم أو الشهادة أو الإعداد للعمل والولاية وأسلوبها نمط قريب من التقاليد .

الكتب الى النواب ومن في حكمهم :

رسائل تكتب عن قضاة القضاة كذلك ، إلى نواب حكمهم في بعض الأمور الموكولة إليهم ، وأسلوبها نمط من التقاليد قريب .

كتب الوقف ونحوه :

هذه كتب تفتتح بها كتب الوقفيات فيها حمد وصلاة على النبي ، وبيان للغاية من الوقف . وهكذا .

العمرات :

العمرة رسالة تكتب للحاج . يُسَجِّلُ فيها قيامه بالاعتمار عن السلطان - مثلا - حين حلوله بالأراضى المقدسة ، وتضفى فيهما على السلطان - أو المعتمر عنه - عبارات الثناء وآيات المدح .

هذا . وفى صبح الأعشى ج ١٤ نماذج لأكثر هذه الألوان الكتابية ، وفى هذا العرض كفاية .

الباب الثانى

باب الوصف

تمهيد

نعنى بالوصف هنا معناه الأخص ، وهو تعمد ذكر أوصاف الموصوف بأسلوب أدبى مؤثر ينساب فيه خيال الكاتب ويسرح . فيدون النعوت والخصائص ، لا باعتبار أنها « حقائق » يعدها ويحصيها ، ولكن يصورها تصويرا فنيا بمقدار ما وقرت ورسخت وعاشت فى خيال الكاتب وأثارت نفسه وأثرت فيها تأثيرا جعله يشعر بها شعورا خاصا كثيرا ما يفترق عن شعور غيره من الأدباء .

يصف الكاتب إذا موصوفه معبرا عن هذه الصورة المؤثرة التى أثارت انفعاله العاطفى كما تصورها . وهنا يطيب له التشبيهات الجميلة والأخيلة الشعرية والتجوزات اللطيفة ، والتعليلات الحسنة ونحو ذلك من أدوات التصوير ، التى يستعين بها على حسن التعبير ودقة حكاية الشعور بالموصوف . وهو طورا يخاطبه كما لو كان إنسانا حيا ينبض بالحركة والحس . أو ينطقه ويعيره من حواس الإنسان مايعين على النطق وحسن الأداء . وطورا يوازن بينه وبين غيره ، أو يعقد بينهما حوارا ومناقشة . وفى خلال ذلك يبرز من مكنون الأوصاف ما يند — عادة — عن الأذهان ويبعد عن متناول اللسان .

وكان الوصف أجل بضائع كتاب عصر المماليك ، وأخف مناهج أساليبهم ، وميدان

بلاغتهم ومجال معارضاتهم ، إليه يميلون عامدين ، ونحوه يجنحون قاصدين . فإن لم يكن المقام مقام الوصف لووا إليه عنان الأقلام أيضاً كلما عنت مناسبة وسنحت فرصة ، حتى ليخيل للطالع أن الوصف كان مقصدهم الأسنى ، وهدفهم الأسمى ، من كل كتاباتهم .

وقد رأينا فى « باب الرسائل » وترى فى الأبواب القادمة ، كيف كان الوصف عمادا لأغراضهم وعاملا مشتركا فى جميع فنونهم الكتابية . ولو أننا ذهبنا نتتبع منشآتهم الوصفية لوجدنا آمادها فسيحة وآفاقها بعيدة ، ولرأينا أنهم تناولوا بها كل منحى من مناحى الحياة . هذا ، على الرغم من ضن طبيعة البيئة المصرية بمدهم بالوسائل التى تقوى تصورهم فيقوى تصويرهم ، وبالأدوات التى تهيج انفعالهم فينشط تعبيرهم . ولعل كثيرا منهم استفاد فى هذه الناحية من رحلاته فى آفاق الشام وغيرها ، فرأى مناظر غير المناظر ، ورياضا غير الرياض ، آهلة بمجالى الجمال وآيات الحسن ، فأثرى منها خياله ، ونضح بثرائه قلمه .

وسترى فى الفصول القادمة بهذا الباب ، مناحى ومظاهر لموصوفاتهم ، سقناها على سبيل التدليل والتمثيل ، لا على سبيل الحصر والاستقصاء ، قد قصرنا الحديث عنها لما رأيناه فيها من أنها صفوة فنون الوصف .

وعنينا فى خلال عرض النماذج بتحليل بعضها وبيان ما فيه من فنون متنوعة ومجال جميلة . وأتبعنا كل فصل بإشارة إلى نماذج أخرى وأماكن كل منها .

الفصل الأول

الرسائل الوصفية

نتحدث هنا عن لون من ألوان الرسائل ، الوصف عماده وغرضه الأول وهدفه المباشر . وهذه الرسائل هى فى الواقع ، مقالات وصفية .

غير أن بعضها أطلق عليها كاتبوها اسم « الرسائل » . فآثرنا إبقاءها تحت هذا الاسم ، مراعاة لمقاصد منشئيها ، واحتفاظا لها بهذه التسمية من الناحية التاريخية، واستدلالا على مذهبهم فى تسميتها. ولامانع لدينا من أن نطلق عليها لفظ « رسائل » أو « مقالات » . والرسالة والمقالة كلتاهما منشأة نثرية تجرى سطورها حول غرض من الأغراض ، أو موضوع من الموضوعات تصفه وتلم بأطرافه وتجمع شتات معانيه الجزئية فى دقة ووضوح وتسلسل ، مع الإيجاز المناسب ، حتى لا تتحول المقالة أو الرسالة إلى كتاب .

وبعضها الآخر له صفات « الرسالة » بالمعنى الذى شهدناه فى « الإخوانيات » ، فإنه لم يعد أن يكون مكاتبات من صديق إلى صديق ، فى أمر ما ، من الأمور التى يجوز لها — باعتبارها صديقين — أن يطرقاها ولم ننظمها فى سلك الإخوانيات ، لأن السمت الإخوانى يزايلها فى سرعة وعجلة بعد ديباجتها الأولى ، ويتجلى لك بعد الغرض الأساسى منها ، وهو الوصف . ولا مانع من أن نجد الكاتب ينحرف عنه غرارا بعد غرار ، إلى غرض آخر كالغزل أو المديح ، فيه أيضا من الوصف نفثات . ولكن أكثر الرسالة — على كل حال ، فى الوصف ، ومن أجل الوصف أنشئت .

وهذه الرسائل دليل جديد ملموس على اليقظة الأدبية ، والنشاط الفكرى ، ونضج

العاطفية لدى كتاب العصر ومنشئيه ، وبرهان على رغبتهم الفطرية التى ثبتها فى نفوسهم النزعات الأدبية ، فى تسجيل كل مايدور بخلدهم ، ويجيش به نفوسهم من صدى ورجع لوقائع حياتهم الشخصية ، أو وقائع الحياة حولهم عامة . بما فيها من مظاهر مختلفة وبرهان أيضا على عمق تأثرهم بهذه الوقائع والمظاهر .

ونعرض هنا ألوانا من تلك الرسائل فى موضوعات مختلفة ، فنها :

١ — وصف النيل وزيادته وأثره :

ولا غرابة فى قولنا هذا ، فقد تباروا فى وصف النيل وذكر فيضانه وزيادته وبيان آثاره ، واتخذوا من موضوعه مثارا للمسابقات والمعارضات . وكانت رسائلهم فيه ندا لما كتبوه من البشارات بفيضانه ووفائه بين الرسائل الديوانية .

وأى شىء فى مصر أحق بالوصف من النيل ؟ ومن الولوع بأخباره ، والترقب لحركات فيضانه ونقصانه ، لما لذلك من أثر حيوى فى حياة البلاد . فالنيل رمز يمنها وبركتها ، ونبع خيرها وثروتها . وعزاء أهلها وسلوانهم . ولقد كان لأدباء مصر فى هذا العصر وقبله ، كتابا وشعراء ، جولات موفقة ، ومقالات صادقة فى وصفه وذكر أنبائه ، وتصوير شعورهم نحوه ، حتى كانت هذه الجولات بعض المسالك الأدبية التى مصّرت الأدب العربى فى مصر . وقد كان للنيل حينذاك ضجيج وعجيج . وكان لفيضانه صوت مدو فى آفاقها . وليوم وفائه موسم وعيد . وكان أحد الأحداث الرائعة التى يهتز لها قلب البلاد ، وتقام فيه الزينات ، وتغنى الأغانى ، ويتبارى المنشدون ويسمر السمار ، ويلهو الجميع كافة من الملك إلى السوقة .

وهذا أديب مصر الكبير جمال الدين بن نباتة المصرى ، يشرع قلمه ويرهف

شباته ، ليسطر فى وصف النيل سطورا . وهو — على حد ماوصفه به الأديب الكاتب الشاعر فخر الدين بن مكانس — « أطاعته من الآداب جوامح نظمها ونثرها، وسخرت له بحور الشعر ، فقالت له الآداب : اختر من درها . فسبحان من يسر له ممتنع الكلام وهونه . وجعله من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه » .

وسطور ابن نباتة خطرات متبتل يتلوها فى محراب النيل ، أو كلمات عاشق يرتلها فى أذن خليل . أو هى — فى الحق — قصيدة غزلية نثرت أبياتها ، ونجوى شاعر رقت همساتها ، ومدحة رجل طروب يرى فى ممدوحه المثل الأعلى ، فلا ينى يكرر له الحمد والمدح ، والمكرر أحلى . وينسب إليه كل صفات الكمال الإنسانى، فكأنه أحال النيل إلى ملك عظيم أو إنسان كريم ، أغرق فى محبته ، وأطال فى صحبته فخبره فرآه حسنا فى كل شىء . فهو الوفى فى وعده ووعيده ، وإطاعه وتهديده . وله من الأسد هصره ، ومن العظيم خيلاؤه ، ومن المستبد جبروته ، ومن المحسن الكريم يده . . . إلى آخر ماوصف ابن نباته به النيل . وهو وصف يشعرك بأن الواصف امتزج بموصوفه، فاقتدر أن يفصح لك عن خبيئته ومعروفه . وهكذا ترى إلى أى حد أمعن ابن نباتة فى هذا الوصف النفسى الأثير . وهو إذا سلك مرة سبيل الحسى ، فبمقدار ماينفذ إلى النفسى المعنوى . قال :

« وأما النيل فقد استوى على الأرض فثبتت فيها قدمه . وامتد نصل تياره كالسيف الصقيل فقتل الإقليم ، وهذا الاحمرار إنما هو دمه .

حمرتهـا من دماء ما قتلت · والدم فى النصل شاهد عجب

فلم يترك وعدا بل وعيدا إلا وفاه ، ولا وهدا بل جبلا إلا أخفاه . أقبل كالأسد المهصور إذا احتد واضطرم . وجاء من سن الجنادل فتحدر وعلا ، حتى بلغ أقصى الهرم . وعامل البلاد بالخيلاء ، وكيف لا ؟ وهو سلطان جائر أيد بالنصر . قائلا : إن كنت بليت بالاحتراق فى أرضكم فأنا أفيض بأن أرمى من بروق تيارى بشرر كالقصر .

هذا وطالما قابلنا قبله بوجه جميل . وسمعنا عنه كل خبر خير ثابت ويزيد ، كما قال جميل . وكل بديع من آثار جوده يصبغ الثرى فيخضر بخلاف المشهور عن صبغة الليل . وطالما خصصناه بدعاء ، فكانت الراحة به كقياسه ذات بسطة . وكنازل الخصب بقدومه المبارك ذات غبطة . ومنحناه بولاء وثناء ، هذا يدور من الإخلاص بفلك ، وهذا يعذب من البحار بنقطة . وكم ورد إلى البلاد ضيفا ومعه القرى . وكم أتى مرسلا بمعجز آيات الخصب إلى أهل القرى . فهو جواد قد خلع الرسَنَ . ساهر فى مصالح الخلق وقد ملأ الأمن أجفانهم بالوسن . جامع لأهل مصر من سقياه ومرعاه ووجهه ، بين الماء والخضرة والوجه الحسن . كم بات سير مقياسه يشغل بظاله القلبين والحاضرين . وكم رفع على الوفاء راية صفراء فاقع لونها تسر الناظرين . وبلّغ وبلغ بتحرير التيار سلامه . وبات الناس بوفائه من حذار الغلاء تحت الستر والسلامة . وخلّق صدر العمود وكيف لا يُخلّق بشير العباد والبلاد . ودعا مصر لأخذ زخرفها ، فسواء قيل : ذات العمود أو ذات العماد . وبسط يده ببركة الماء فقيل : سلام لك من أصحاب اليمين . وخضّب بنانه وأقسم بحصول الخير فقيل : لمخضوب البنان يمين . » الخ[1]

وإليك الأديب اللامع الرقيق فخر الدين بن مكانس . لقد شمر عن ساعد جده ، وشهر قلبه ساعيا فى خدمة نيل بلاده ، يسجل له « زيادته المفرطة عام ٧٨٤ ه » فى رسالة بارعة . كتب بها إلى صديقه الأديب بدر الدين البشتكى .

ويبدو أن بدر الدين كان إذا ذاك متغيبا عن القاهرة ، فلم يشهد طغيان النيل ،

١ — صبح الأعشى ج ١٤ ص ٢٦٢ — وديوان فخر الدين بن مكانس . ولعل هذه السطور من رسالة ابن نباتة التى عارضها تقى الدين بن حجة بالبشارة التى كتبها للمؤيد شيخ « راجع البشارات » فى باب الرسائل .

فاتخذ فخر الدين من غيبته وعدم رؤيته ، تكأة للكتابة إليه فى وصف زيادته .

وقد أحسن فى استهلاله البارع الذى تجمع بينه و بين موضوع المكاتبة ، جامعة واضحة ، و ينطوى فيه من التشبيه المضمن ماهو منشور بين .

قال يتحدث عن مدى زيادة النيل ومبلغ ضررها :

« رب اجعلنا فى هذا الطوفان من الآمنين . وسلام على نوح فى العالمين .

ماتأخير مولانا بحر العلم وشيخه ، عن رؤية هذا الما . وما قعوده عن زرقة هذا النيل الذى جعل الخلق فيه بالتوبة كالملائكة لماغدا هو أيضا كالسما . وكيف لم يرهذا الطوفان الذى استحال بالزيادة ، فما أشبه زيادته بالظما . فهى كزيادة الأصابع الدالة فى الكف على نقصه . وأولى أن ينشد بيت المثل بفصه :

طفح السرور على حتى إنه   من عظم ماقد سرنى أبكانى

فإنه قارب أن يمتزج بنهر المجرة ، بل وصل وامتزج . وأرانا من عجائبه ما حقق أنه معنى بقول القائل : « حدث عن البحر ولا حرج » . وتجاوز فى عشر الثلاثين الحد . وأرانا بالمعاينة فى كل ساحل ماسمعناه عن الجزر والمد . وأساء فى دفعه ، ولم يدفع بالتى هى أحسن . وأقعد الماشى عن التسبب والحركة حتى شكا إلى الله فى الحالين جورالزمن . وسقى الناس من ماء حياته المعهودة كما شربوا من الموت ، أصعب كأس . وسئل ابن أبى الرداد عن قياس الزيادة ، فقال : « زاد بلا قياس » . امتلأ اليباب . وهال العباب . وضاع العدد واختلف الحساب . كال فطفف . وزاد فما خفف . غسل الجسور . وأعاد الأملاق بعزمه إلى البحور . و برع فكان أولى بقول الحلى من ابن منصور :

بمكارم تذر السباسب أبحرا   وعزائم تذر البحار سباسبا »

وأمعن الكاتب القدير فى تصوير هذه الزيادة ومبلغ ما أحدثته فى وجه الأرض من تغيير ، و يبدو أن فيضان تلك السنة كان فوق حدالوفاء ، حتى ساحت مياه النيل

وعلت إلى كثير من الأراضى فغمرتها حتى تعذر المسير فيها ، وأصابها كثير من الضرر . وقد سجل الكاتب هذا كله تسجيلا أدبيا جميلا ، قوامه التشبيهات والاستعارات والكنايات والتوريات ، وما إلى ذلك من ألوان وعناصر ، تعين القلم على تصوير مايصرح إليه الخاطر ، ويجمح نحوه الخيال . قال :

« جمع فى صعوده إلى الجبال بين الحادى والملاح . ودخل الناس إلى أسواق مصر ، وخصوصا سوق الرقيق على كل جارية ذات ألواح . وغدا التيار ينساب فى كل يم كالأيم . وأصبحت هضاب الموج فى سماء البحر وكأنما هى قطع الغيم . واستحالات الأفلاك فكل برج مائى . وتغيرت الألوان فكل مافى الأرض سمائى . وحكى ماؤه حكاكة الصندل لما مسه شيطان الريح فتخبط . وزاد فاستحال نفعه فتحقق ماينسب إلى الصندل من الاستحالة إذا أفرط . فلقد حكت أمواجه ودوائره الأعكان والسرر . وغدا كل حى منها من زيادته لا كما قال المعرى : « حيا من بنى مطر » وتحالى إلى أن أقرف اليمون الأخضر . واحمرت عينه على الناس فأذاقهم الموت الأحمر ولقد صعب سلوكه ، وكيف لا ؟ وهو البحر المديد ، وأصبح كل جدول منه جعفرا ويزيد .

فلست أرى إلا إفاضة شاخص   إليه بعين أو مشيرا بأصبع » .

ومازال فخر الدين سادرا فى تيار وصفه ، حتى جنح إلى المديح . . فكتب فيه لصديقه سطورا ، كانت بخار الند ، عطر به رقاه . قال ، وفيه دعابة وسط جناس وطباق ونحوهما :

« وكيف يسوغ لمولانا فى هذه الأيام غير ارتشاف فم الخور . ولم لايغير مذهبه ويطيب على هذه الخلايج بالسلاسل والدور . وكيف وكيف ؟ ولم لا يتخذ مولانا حمو النيل وبرده رحلة الشتاء والصيف . وهو فى المبادرة إلى علو المعالى وغلو المعانى . وانتهاز الفرص فى بلاغ الآمال . بلوغ الأمانى :

عجب من عجائب البر والبحر م ونوع فرد وشكل غريب

من قاسكم بسواكم قاس البحار إلى الثماد

أعلى الأنام فى العلوم قدرا . و إمام النحاة من عهد سيبويه وهلم جرا . وشيخ العروضين على الحقيقة برا و بحرا .

وشيخ سيحون والنيـ ل والفرات ودجلة

وشيخ جيحون أيضا وشيخ نهر الأبلة

إى والله !

أقولها لو بلغت ماعسى الطبل لايضرب تحت الكسا

لامخبأ لعطر بعد عروس . أنت أعوم فى بحور الشعر من ابن قابوس . وأصلح إذا حدثت من صالح بن عبد القدوس . وأشهى إذا هزلت من ابن حجاج إلى النفوس .

ولو أن بحر النيل جارك مازحا وحقك ما استحلى له الناس زائدا » .

ثم عاد فخر الدين إلى وصف هذه الزيارة الضارة . وأخذ ينعت آثارها في أديم الأرض ، وما خلفته فى نباته وشجره وزهره ، وما ملأت به النواحى من مياه غامرة ، فقال و بين سطوره توريات واقتباسات وتلميحات لطيفة :

« فلو رآه مولانا وقد هجم على مصر فجاس خلال الديار . ودخل إلى المعشوق فتركه كالعاشق المهجور لم يرمنه غير الآثار . لبكى بعينى عروة . وأرى من الرصد وقد تفجرت من صلده عيون النز إلى ربوة . أو رنا لروض الجزيرة وقد خلع حلاه . وتخلخلت عرائس أشجاره على الحالين بالمياه . والنخيل وقد قنلت ملاكها — حين ذلك — بالأسف . وجف أحمر ثمرها وأصفره فأرانا العناب والحشف . والجيزة وقد قلت لها . تبا لجارك النيل إذ أفسدك صورة ومعنى . وسكن مغانيك فسقى ديارك بغير استثنا . وقراها الغربية وقد قلت لها حين أوت إلى أعالى الأرض هربا من المياه ، واعتصمت

بالجبل الغربى : لاعاصم اليوم من أمر الله » وكل سفينة وقد علت على وجه الماء . وارتقت لارتقاء البحر إلى أن اختلطت بالسماء . وقد قالت لها أترابها عند الفراق : إلا ترجعى . وقلنا لها نحن على سبيل التفاؤل : « ياسماء أقلعى » . والنيل تبدو عليه القلوع خافية لبعدها فكأنها الخيام بذى طلوع . وجار على الناس بطغيانه فكأنما هو أخو فرعون مصر ، أو ابن طوفان نوح .

فلقد طار النسر مبلول الجناح . ودنا نهر المجرة من السكارى بالشخاتيت إلى أن كاد يدفعه من قام بالراح . ونرجس البساتين وقد ابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم . وفارق أحبابه من الرياحين ولم يبق له غير القلانس صديق ، وغير الماء حميم . والورد وقد قيل له : « مالك من آس » . وغصن البان وقد قيل له : « طوبى لمن عانقك ولا باس » . والأسماك وقد ألجمها العرق . والقلقاس وقد شكا شكوى ابن قلاقس وابنه من الغرق . والقصب بالجيزة وقد شرب ماء النز فهو بئس الشراب . والقصب ببولاق لم ينجه من مشاهدة الغرق إلا كونه غاب . والفارسى بالبساتين وقد وقد ترجل ووقع فأرانا كيف تكدير الأقصاب . وقيل للآس : عالج جيرانك بالنيطان فالناس بالناس . وبادر إلى جبر ما كسر فالحاجة تدعو المكسور فى الحالين إلى الآس . » .

وما زال فخر الدين فى خطابه ، حتى مال به الاستطراد إلى الاستشهاد لشيخه بما قاله أفاضل كتاب مصر ، وسطره أعلام منشئيها ، من آيات بينات ، فى وصف نيلها ، ومنهم القاضى الفاضل ، ومحيى الدين بن عبد الظاهر وزين الدين بن الصفدى وجمال الدين بن نباتة المصرى ، وشهاب الدين بن أبى حجلة المغربى . وكلهم ، ماعدا الفاضل ، من كتاب عصر سلاطين المماليك .

وبعد أن عرض شيئا من منثورهم فى الموضوع ، عاد إلى ما كان بصدده من

وصف الزيادة وذكر أضرارها . ثم خاطب النيل خطابا يدور حول المعنى نفسه ، مثنيا على أتابك العسكر فى زمانه ، لأنه اهتم بأمر النيل ، حتى كف عن الناس ضرر زيادته ومفاسد غزارته[1] .

---

٢ — وصف الطبيعة ومظاهرها :

ومما أولعوا بوصفه أو ترديد نعوته فى مناسبات شتى ، مناظر الطبيعة وما فيها من شمس ضاحية وقمر هادىء ونجوم باسمة ، ورياض فيح ، وطيور مغردة ، وأزهار يانعة ، وجداول رقراقة ، إلى غير ذلك .

وقد كتب القاضى شهاب الدين بن فضل الله العمرى ، فى الشتويات ، رسالة إلى زين الدين بن الوردى ، أولها قصيدة مطلعها :

هلا أعارت دمشقا أختها حلب عينا فترحم أو قلبا فيكتئب

فأجابه ابن الوردى بكتاب فى مقدمته قصيدة مطلعها :

وافى الكتاب الذى تعنو له الكتب من الشهاب الذى تسمو به الشهب

والقصيدة فى وصف شتاء عامه وثلجه وبرده ومطره بدمشق . وقد أردفها بسطور نثرية فى المعنى ، ومنها قوله :

« يقبل الأرض التى تقبيلها شرف ويدعو بدوام أيام مولانا دعاء من اعترف بفضله ، ومن بحر فضائله اغترف . ويبدى ورود المثال الشريف الذى يحكى رداء نهار طرز بليل . وتبسم عن معان مبتكرة فى وصف ثلج وبرد وسيل . أعرب فيه فأغرب . وأرقص سامعيه وأطرب . ثلج أصبحت به جبال دمشق مغلقة ، والخواطر

---

١ — رسالة ابن مكانس فى ديوانه المخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٨٣ م آداب عربية — وفى صبح الأعشى ج ١٤ ص ٢٦٨ .

معلنة . والأغصان المتناة مقشعرة من باردته لسكون الثلج بالمثلثة . تورات الشمس من وقاحته بفاختى قمصها . وودت من برده لو جرت النار إلى قرصها . وقالت له الأرض : اكشف عن حمرة وجنتى وخضرة عذار مرجى . قال : كأنك لا تُطق ، قالت : وإلا عذارك الثلجى . ابتسم لبكاء أهلها عن شنب ثغر للرفش لا للرشف . وستر رقعة الأرض فى دسته القائم حتى النفس ولو أنها الفيل تموت بالمقاطعة شوقاً إلى الكشف .

أثلوجُ ضاعفتِ الهموم وطالما كلفتنى ما ضرنى تكليفه
إبل السحائب هيج فى جوها ولغامها كالبرس طار نديفه

قل تجلد الأرض على جليده ظهراً وبطناً . فقال لها أتبردين وقد طرح قوس السحاب على جبينك قطناً .

ذر كافور ثلجه الجو فى الأر ض فأضحى مزاجها كافورا
وتلاه وَبلاه حب غمام فحسبناه لؤلؤاً منثورا » الخ(١)

وكتب الشهاب محمود الحلبى فى سياق رسالة قال يصف شمس الأصيل :

« فبرزنا وشمس الأصيل تجود بنفسها . وتشير من الأفق الغربى إلى جانب رمسها . وتغازل عيون النور بمقلة أرمد . وتنظر إلى صفحات الورد نظر المريض إلى وجوه العود . فكأنها كئيب أضحى من الفراق على فرق . أو عليل يقضى بين صحبه بقايا عمر بالرمق وقد أخضلت عيون النور لوداعها . وهم الروض بخلع حليته المموهة بذهب شعاعها :

والطل فى أعين النوار تحسبه دمعاً تحير لم يرقأ ولم يكف
كلؤلؤ ظل عطف الغصن متشحا بعقده وتبدى منه فى شنف

---

١ — عن ديوان ابن الوردى ص ١٨٢ .

يضم من سندس الأوراق فى صرر خضر ويجنى من الأزهار فى صدف
والشمس فى طفل الإمساء تنظر من طرف غداوهو من خوف الفراق خفى
كعاشق سار عن أحبابه وهفا به الهوى فترا آهم على شرف

إلى أن نضا المغرب عن الأفق ذهب قلائدها . وعوضه عنها من النجوم بخدمها وولائدها . فلبثنا بعد أداء الفرض لبث الأهلة . ومنعنا جفوننا أن ترد النوم إلا تحلة. ونهضنا وبرد الليل موشم. وعقده مرصع . وإكليله مجوهر ، وأديمه منير . وبدره فى خدر سراره مستكن . وفجره فى حشا مطالعه مستجن . كأن امتزاج لونه بشفق الكواكب خليطا مسك وصندل . وكأن ثرياه لامتداده معلقة بأمراس كتان إلى صم جندل .

ولاحت نجوم الليل زهراً كأنها عقود على خود من الزنج تنظم
معلقة فى الجو تحسب أنها طيور على نهر المجرة حوّم
إذا لاح بازى الصبح ولت نئومها إلى الغرب خوفا منه نسر ومرزم

إلى حدائق ملتفة. وجداول محتفة. إذا خمش النسيم غصونها اعتنقت كالأحباب . وإذا ركب من المياه متونها انسابت فى الجداول انسياب الحباب . ورقصت فى المناهل رقص الحباب . وإن لثم ثغور نورها حيته بأنفاس المعشوق . وإن أيقظ نواعس ورقها غنته بألحان المشوق .

فنسيمها دان . وشميمها لعرف الجنان عنوان . ووردها من سهر نرجسها غيران . وطلها فى خدود الورد منبث وفى طرر الريحان حيران . وطائرها غرد وماؤها مطرد . وغصنها تارة يعطفه النسيم إليه فينعطف . وتارة يعتدل تحت ورقائه فتحسب أنها همزة على ألف » الخ.[1]

٣ — وصف الغزوات وما يتصل بها :

وقد عج العصر بالكثير من غزوات سلاطينه . فقد كان مماليكه وأمراؤه ، وبخاصة فى أوائل دولتهم مثالا للهمة والنجدة ، ونموذجا للشجاعة والفتوة ، وأملا للذود عن الدين والوطن . وكانوا يتلمسون الفرص لأظهار مواهبهم فى القتال ، وقتهم العالى فى النزال . وقد قيضت لهم الأيام فرصا فريدة متجددة وميادين كثيرة متعددة . وذلك بكثرة إغارات التتار من جانب ، والفرنجة من جانب آخر ، على ممتلكات مصر فى الديار الشامية والحلبية . فخاضوا غمارها وثبتوا فى ميادينها. وكان لذلك رجع بعيد المدى فى المكاتبات الديوانية . وشهدنا منها ضربا عماده الوصف وهو البشارات، وصفوا فيه غزوات ملوكهم وهجمات أمرائهم وجولات جنودهم ، والفتوح التى أفاءها الله عليهم ، والانتصارات التى أسبغ نعمها فوقهم . وما تخلل ذلك من حوادث ذات أثر ، وما لابسها من مواقع ووقائع ذات خطر .

وعلى هذا النسق سار الكتاب خارج الديوان . فكاتب بعضهم بعضا بأخبار هذه الغزوات فى رسائل أشبه بالإخوانيات،أودعوا فيها الرسائل والكتب الواصفة ، التى تعتبر بدورها — فضلا عن أهميتها الأدبية — تسجيلا تاريخيا .

ولم يقتصروا على ذكر الحرب والضرب ، والقتال والنزال ، بل تناولوا وصف مايتصل بها من آلات وسلاح وأبنية وحصون وقلاع . بل وتحدث بعضهم عن الهزائم واعتذر لها ،وتهدد بالعود للثأر والانتقام وهكذا . فكانت رسائلهم فى ذلك كله صنوا لبشارات الغزو والفتح التى تصدر عن الكتاب الرسميين .

ومن رائع الرسائل فى هذه الناحية ، مادبجه الكاتب اللبق والمنشىء الذلق ، القاضى علاء الدين على بن عبد الظاهر ، فى وصف وقعة « مرج الصفر » ، بين سلطان

مصر الناصر محمد بن قلاوون ، وسلطان التتار إيلخان غازى ، وذلك عام ٧٠٢ هـ . وكان النصر فيها من نصيب الناصر . وكان الكاتب أحد الذين شهدوا هذه الغزاة .

وقد بدأها بحمد الله سبحانه وتعالى الذى أيد سلطان مصر الناصر ، وجعل منه مدافعا عن دينه ، وجعل من ذرية المنصور أبيه من يذود عن الإسلام ويجاهد الكفر والكافرين ، ويرعى حوزة الدين . ثم أثنى على نبيه الكريم الذى سن سنة الجهاد ، وشرع شرع الجلاد فى سبيل نشر دين الله حتى روع الكفر وأخذ الشرك وكشف النفاق .

وأشار إلى شهرة غزوة الناصر وما كان لها من دوى عظيم فى أرجاء البلاد الإسلامية ، وما كان لها من أثر كبير ، وقد آتاه الله فيها النصر لأنه وعد به عباده المؤمنين .

ونوه بأنه شاهد هذه الغزوة فهو يصفها وصف راء وسامع ، ورأى أن يذكر منها ملحة تنشرح منها الصدور ، ولمة تعرب عن ذلك النور .

وقد أخذ الكاتب فى وصف هذه الغزوة من أول مسير الناصر إليها خارجا من القلعة ومعه أمراؤه وخليفة عصره وكانت تلك عادة كثير من السلاطين فى ذلك العصر — وقبل بلوغهم مدينة « غزة » اشتبكت جنودهم مع بعض جنود التتار لإغارتهم على قريتين فى الطريق ، فهزموهم هزيمة منكرة فكانت فاتحة لهزائمهم المتوالية .

ووصف الكاتب دخول الركب السلطانى إلى «غزة» واستقبالها له ، ثم مزايلته لها إلى « مرج الصفر » ، حيث اشتبك الجيشان يومين كاملين ، ووصف ما كان فيهما من ثبات الناصر وشجاعة أمرائه وجرأة جنوده ، مما أدى بجنود التتار إلى الاعتصام ببعض الهضاب العالية ، فما كان من جنود السلطان إلا أن أحاطوا بهم ، ثم فتحوا لهم طريقا إغراء لهم بالهروب ، وكمنوا لهم على جانب الطريق ، وأخذوهم أخذة جبارة ، وأثخنوا فيهم وقتلوا وسبوا ، وفرت فلولهم مستخذية .

هذا ، ولما تم النصر للسلطان وجنوده ، يمم شطر دمشق فأقام شهر رمضان .

وهنا يصف الكاتب استقبال المدينة له وإقامته الحافلة بها ، ثم مزاياته لها فى ثالث يوم من شوال إلى الديار المصرية . وأبدع فى وصف استقبال البلاد له ، ولا سيما مدينة القاهرة .

وقد لقيت هذه الرسالة من لدن السلطان الناصر عطفا وقبولا حينما تليت على مسامعه الكريمة . . .

من هذا العرض الوجيز لتلك الرسالة الفريدة ، التى تحتوى على نحو ثلثمائة سطر ، يتبين لك أنها تشتمل على جملة أغراض كتابية . منها بعد الحمد والثناء ، وصف رحلة السلطان فى ذهابه وإيابه ، ووصف الغزوة ، ومدح الناصر ورجاله ، ووصف استقبالات الركب ، والدعاء للناصر بالتأييد والنصر الدائم .

وقد امتزج بعض هذه الأغراض بالبعض الآخر ، حتى تراءت معانيها المتمازجة واضحة خلال السطور . غير أن السبب المباشر أو الغرض الأصيل منها هو وصف الغزوة ، وما عداه من الأغراض تبع له ، وإحدى وسائله ، على أنها أيضا فى صميم الوصف .

وقد سميت هذه الرسالة « الروض الزاهر فى غزوة الملك الناصر » . وإليك فقرات منها مختارة من مواضع مختلفة . وأنت تلمح فيها الأسلوب البديعى زاهيا بما فيه من سجع وجناس ومطابقة وتورية واقتباس وتضمين وغير ذلك .

قال فى خطبتها وفيه براعة استهلال :

« الحمد لله الذى أيد الدين المحمدى بناصره . وحمى حماه بمن مضى هو وسلفه بأداء فرض الجهاد فى أول الزمان وآخره . وجعل من الذرية المنصورية من يجاهد فى الله حق جهاده ويسهر فى سبيل الله فيمنع طرف السيف أن يغفى فى أغماده . ويقدم يوم الوغى والموت من بعوثه للعدى وأجناده . » الخ .

ومنها يصف بدء خروج الناصر ويذكر أمراءه وخليفة عصره وجيوشه المنصورة :

« ركب مولانا السلطان الملك الناصر – خلد الله ملكه – بنية صالحة أخلصها فى سبيل ربه . وعزيمة ناجحة ماثلت فى المضاء سمر عواليه وبيض قضبه . من قلعة مصر ، التى هى كنانة الله فى أرضه بجيوشه التى نهضت بسنن الجهاد وفرضه . تقدمها أمراؤه الذين كأنهم ليوث غاب أو غياث سحاب . أو بدور ليال أو عقود لآل . معتضدا ببضعة من الرسول . منتصرا بابن عمه الذى لا يسمو أحد من غير أهل بيته لشرفه ولا يطول . ملتمسا بركة هذا البيت الشريف الذى طالما كانت الملائكة من مجده وجنده . مسترسلا بيمنة الإيمان سحب كرمه . مستدعيا صادق وعده . وسار على اسم الله تعالى بالجاريات الجياد . التى تعدو فى سبيل الله النجاد وتعلو الهضاب . وسرى يقطع المنازل ويطوى المراحل طى السجل للكتاب . والجيوش المنصورة قد أرهفت حد سيوفها ، وأشرعت أسنة حتوفها . وهى تسير كالجبال ، وتبعث كالصدى ما يرهب من طيف الخيال .

فبينما الركاب قد استقلت فى السرى . ورقمت فى البيداء من أعناق جيادها سطور من قرأها استغنى بحسنها عن القرى . إذا البشير قد وفد . ونجم المسرة قد وقد . وأخبر بأن جمعا من التتار قصدوا الفريقين للإغارة . » الخ

وقال يصف استعداد الجنود قبيل المعركة :

« هذا والسيوف قد فارقت الأغماد ، وأقسمت أنها لا تقر إلا فى الرءوس . والأسنة قد أشرعت وآلت أنها لا يروى ظمؤها إلا من دماء النفوس . والسهام قد التزمت أنها لا تتخذ كنائنها إلا من النحور ، ولا تتعرض عن حنايا القسى إلا بحنايا الأضالع ، أو لترقيها لا تحل إلا فى الصدور . والدروع قد لزمت الأبطال قائلة : لا أفارق الأبدان حتى تتلى سورة الفتح المبين . والجياد حرمت وطء الأرض وقالت لفرسانها : لا أطأ

إلا جثث القتلى ورءوس الملحدين . فلا ترى إلا بحرا من حديد ، ولا تشاهد إلا لمع أسنة أو بروق سيوف تصيد الصيد . والسلطان قد أرعف ظباه ليسعر بها فى قلوب العدى جمرا . وآلى أنه لا يورد سيوفه الطلا بيضا إلا ويصدرها حمرا . والإسلام كأنه بنيان مرصوص ونبأ النصر على مسامع أهل الإيمان مقصوص . والنفوس قد أرخصت فى سبيل الله وإن كانت فى الأمن غالية . وأرواح المشركين قد أعد لها الدرك الأسفل من النار ، وأرواح المؤمنين فى جنة عالية . » الخ .

وقال يصف زحف السلطان عليهم بجنوده واشتباكه معهم فى القتال وخدعتهم لهم حتى أطبقوا عليهم :

« وزحف السلطان وبين يديه أمراؤه وعساكره المؤيدة فضيقوا عليهم الخناق . وأحدقوا بهم إحداق الهدب بالأحداق . وراسلوهم بالسهام . وشافهوهم بالكلام لا الكلام . ورفعوا من راياتهم المنصورة ما طاول المنشآت فى البحر كالأعلام . وحمل بها الأبطال فكلما رآها العدى تهتز بتحريك نسيم النصر سكنوا خوف الحمام . ثم خرجوا لهم عن فرجة من جانب الجبل ظنوها فرجا . وخيل لهم أنه من سلك تلك الفرجة سلك طريقا مستقيما وما دروا أنه سلك طريقا عوجا . واستترت لهم الجيوش المنصورة إلى الوطأة لتمكن سيوفها من سفكهم . وتقرب مدى هلكهم . وتسلمهم إلى الحمام الذى لا ينجى منه خيل ولا حيل . وتملأ الوطأة من دمائهم فيساوى السهل من قلام الجبل . وحل الحمام بساحتهم . وامتدت الأيدى لاستباحتهم . وضاقت عليهم المسالك . وغلبوا هنالك . وأنزل الله نصره على المؤمنين وأيدهم بجنود لم يروها . واشترى منهم أنفسهم بأن لهم الجنة ، فياطيب ما شروها . » الخ

وقال يصف إقامة السلطان بمدينة دمشق ، بعد المعركة ، وقد أقام بها بقية رمضان إلى ثالث شوال ، وكانت له فيها مواكب وهبات :

« وأقام السلطان بدمشق المحروسة ، يتبوأ منها أحسن الغرفات . ويستقر من

بقعتها فى جنات . فحييت به بعد المات . وعادت بمقدمه إلى جسدها الروح بعد المفارقة.
وتمتعت مقلتها من محاسنه بأبهى من رياضها الرائقة . وهو يحمى حماها . ويحلى مواطن
ملكها الزواهر رباها . ويزينها بمواكبه التى ما تلت الكواكب فى سنائها وسناها .
وتطأ سنابك جياده أرضها فيدانى الثريا فى الافتخار ثراها . إلى أن قضى شهر صيامه
المقبول . وأتاه عيد الفطر مبشرا بإدراك آماله فى عز مستمر ونصر موصول . وأسبغ
من عطاياه ما أربى على عدد أمواج البحر . وتعددت لدولته المسرات فى هذا الشهر
الميمون فآخره عيد فطر وأوله عيد نحر . . » الخ[1].

وأنشأ الكاتب المتمكن شهاب الدين محمود الحلبى ، رسالة إلى قائد سرية كاشفة
— ولم يرسلها - وقد أبدع فيها ما شاء له قلم الإبداع ، من رائع المعانى ما شاءت له
نزعة الاختراع . مادحا المرسل إليه بجملة أوصاف وثيقة الصلة بصميم عمله ، موصيا له
بما ينبغى أن يحفل به ، متناولا فى خلال ذلك وصف خيله .

قال يصفه ويمدحه ويوصيه ، ولعله بذلك يضع له دستور العمل والحركة :

« وهو لازال أخف فى مقاصده من وطأة ضيف . وأخفى فى مطالبه من زورة
طيف . وأسرع فى تنقله من سحابة صيف . وأروع للعدى فى تطلعه من سلة سيف ،
حتى يتعجب عدو الدين فى الاطلاع على عوراته من أين دهى وكيف . ويعلم أن من
قسمته الشقاء حصل عليه فى مقاصده الحيف .

أصدرناها إليه تحثه على الركوب بطليعة أعجل من السيل . وأهول من الليل .
وأيمن من نواصى الخيل وأقدم من النمر . وأوقع على المقاصد من الغيث المنهمر . وأروع
فى مخاتلة العدى من الذئب الحذر . على خيل تجرى ما وجدت فلاة . وتطيع راكبها
مهما أراد منها سرعة أوأناة . تتسنم الجبال الصم كالوعل . وإذا جارتها البروق عدت

---

١ — عن سلوك المقريزى ج ١ ص ١٠٢٧ .

وراءها تمشي الهوينا كما يمشي الوجي الوجل . وليكن كالنجم في سراه وبعد ذراه . إن جرى فكسهم . وإن خطر فكوم . وإن طلب فكالليل الذي هو مدرك . وإن طلب فكالجنة التي لا يجد ريحها مشرك . حتى يأتي على عدو الدين من كل شرف . ويرى جمعه من كل طرف . ولا يسرف في الإقامة عليه إلا إذا علم أن الخير في السرف . وليحرز جمعهم ، ويسبق إلى المحرز منهم بصرهم وسمعهم وينظرهم بعين منهما الحزم أن ترى العدد الكثير قليلا . وصدها العزم أن ترى العدو الحقير جليلا . بل ترى الأمر على فصه وتروى الخبر على نصه . وإن وجد مغررا فيأخذ خبره . إن قدر على الإتيان بعينه ، وإلا فليذهب إثره . ولا يؤجج فيما لديه نار حرب إلا بعد الثقة بإطفائها . ولا يوقظ عليه عين عدو مهما ظهر له أن المصلحة في إغفائها . وليكشف من أمورهم ما يبدي عند الملتقى عورتهم ويخمد في حالة الزحف ثورتهم وليجعل قلبه في ذلك ربيئة طرفه . وطليعة طرفه . وسرية كشفه . والله تعالى يمده بلطفه . بمعقبات من بين يديه ومن خلفه . »[1]

٤ — وصف الصيد وما يتصل به :

وكان الملوك وأشباههم يخرجون إلى الرياضة والنزهة بين الآونة والأخرى . ويصحبون معهم من أمرائهم وحرسهم وحاشيتهم من يلذ معهم الرحيل ، ويطيب بهم المقام . ويحلو إليهم السهر والسمر ، وتروق المصاحبة والمشاورة . فيمارسون الصيد في البراري والقفار . ويستخدمون أدوات الصيد من سهام وأقواس ونشاب وبندق وبزاة وصقور وخيل ، فكان ذلك أحد الحوافز إلى الوصف . فكتب بعض كرام الكاتبين في ذلك الرسائل الممتعة . وصفوا فيها هذه الغزوات المملنة ضد الحيوان . وأسهبوا في

١ — عن حسن التوسل .

وصف آلات الصيد . وأطنبوا فى نعت الجوارح . ورددوا الكثير من صفات الخيل على مختلف ألوانها . وأطالوا فى وصف الصيد من طير جارح أو حيوان سارح ولعمرى لم يخل ما كتبوا من جديد ممتع ومبتكر رائع. هذا بجانب جدب البيئة المصرية وضنها بالمناظر الطبيعية الخلابة والغابات الجذابة التى تجذب إليها الطيور المرتادة ، والآقدام المرتاضة . وتختلف إليها الوحوش ، ويهوم نحوها الصائدون ، حيث يجدون أجمل البواعث على مزاولة غاياتهم ، ومواصلة هوايتهم مما يتيح للمنشئين أحب الفرص وأصنحها لجمال الوصف .

هذا ، وقد تحتوى رسائل الصيد على وصف الرحيل من بدء الاستعداد له إلى وقت مفارقته ، وذكر ركب السلطان ومسيره ومن حف به ، وما احتوى عليه ، ومراحل رحيله وأماكن نزوله . وما حف بذلك كله من مواضع جامعة ومناظر رائعة وحفاوة بالغة ، وما تخلل ذلك من حوادث بدت فيها من السلطان شهامة أو شجاعة أو كرم أو حسن رأى أو نحو ذلك ، مما يبادر إليه الملوك الصيد فى رحلات لهوهم وليالى أنسهم. ومن هنا ترى أن الكاتب يجنح قسرا إلى المديح وإغداق الثناء على سلطانه . وترى الرسالة رسالة وصف ولكن المديح هدفها المستور . ومن هنا أيضا ترى إلى أى حد شارك النثر الشعر فى أهم أغراضه وزاحمه فى أجدى أبوابه وأرحبها وأدرها بالربح ، وأعودها بالنجح . — وفى الوقت الذى ترى كثيرا من السلاطين فيه قد لووا جيدهم عن سماع مدح الشعراء ونفحهم بالعطاء ، نراهم قد استرقوا هذا المديح المنثور . واستعذبوا إطراء هذه السطور ، تسبغ عليهم أثوابه وتضفو ، بيد كرام الكاتبين ، داخل الديوان وخارجه . خلال هذه الرسائل وأمثالها.[1]

---

١ — القلقشندى يعتبر رسائل النزو والصيد فى عداد الرسائل الملوكية ، وإن لم يدخلها فى الرسائل الديوانية — راجع صبح الأعشى ١٤ — وقد خالفناه هنا بعض المخالفة ، إذ لم نعتبرها من الرسائل الملوكية ، وذلك لعدم صدورها من ديوان الإنشاء .

وهذا القاضي « تاج الدين البارنباري » ، دبج رسالة جيدة في وصف عادة السلطان الناصر محمد بن قلاوون في الخروج كل عام إلى الصيد ، فبلغ بسطورها نحو مائتين .

وقد أشار فيها إلى عادة هذا السلطان في الخروج إلى الصيد أيام استراحته من الحروب ، وأيام أن ينشر السلم رواقه . فيجتلب به دواعي الأنس ، ويروح عن النفس .

قال الكاتب من سطور رسالته هذه مبينا تلك العادة :

« وفي خلال كل عام تصرف عزائمه الشريفة إلى ابتغاء صيد الوحش والطير . لما في ذلك من تمرين النفوس على اكتساب التأييد . وحصول المسرة بكل ظفر جديد . فيرسم — خلد الله سلطانه — في الوقت الذي يرسم به من مشتى كل عام ، بإخراج الدهليز المنصور . فينصب في بر الجيزة بسطح الهرم . في ساعة مباركة آخذة في إقبال الجود والكرم فتمد بالتأييد أطنابه . وترفع على عمد النصر قبابه . ويحاط بحراسة الملائكة الكرام رحابه . وتضرب خيام الأمراء حوله وطاقا . وتحف به مثل النجوم بالبدر إشراقا . »

والرسالة المذكورة في وصف رحلة معينة . ولكنها تصف العادة في الخروج والصيد وترسم نمطا من رحلات السلطان لهذه الغاية . ولذلك تحدث فيها عن بدء مسير ركب السلطان الناصر من القلعة وحوله مماليكه وخصاؤه . وروى أنه يقصد إلى ساحل النيل حيث يركب فنكا يبلغه شاطىء الجيزة . فيمتطي صهوة فرسه إلى مخيمه بسفح الهرم . ثم يقيم هناك ردحا ، يخرج خلاله إلى صيد الطيور أولا ، ويستخدم في ذلك ما حمل معه من جوارح الصيد المعودة المعدة ، حتى يشبع هواه من ذلك ، فيعود إلى مخيمه حينما يجن الليل بين صفوف من جنوده وأتباعه تضيء لهم الشموع في ذلك الليل الدامس وتحيله إلى صبح مسفر . ثم يكر مرة أخرى إلى الوحوش فيصيدها وهو يطاردها على صهوات الخيول الفارهة ، وهكذا دواليك .

وقد استطرد الكاتب إلى وصف ألوان من الخيول وبيان مزية كل لون منها وصفاته الفريدة المفيدة . فوصف الأشهب والأحمر والأدهم. ووصف الفهود والضواري الصائدة . ثم وصف أنواعا من المصيدات وحالتها وقت الصيد ، ومنها النعام والظباء والبقر الوحشي والحمر .

وننقل إليك فقرات وجيزة مما جاء في هذه الرسالة. قال يذكر مسير السلطان من النيل إلى سفح الهرم وسط حقول الجيزة ، ويصف ما معه من البزاة والصقور ، ثم مزاولة الصيد :

« وسار في زروع مخضرة وثغور نبات مفترة وقد طلعت للظفر شموسه وبدوره. وأعدت للصيد بزاته وصقوره . من كل متوقد الحظ من الشهامة . محمول على الراحات من فرط الكرامة. يتوسم فيه النجاح قبل خفق الجناح ويخرج من جو السماء ، ولا حرج ولا جناح . وبازها الأشهب . يجيء بالظفر ويذهب . بصدر مفضض وناظر مذهب له منسر أقنى . طالما أغنى . كأنما هو شبا السنان ، وقد حباه الكماة طعنا .

وصارم في يديك منصلت إن كان للسيف في الوغى روح
متقد اللحظ من شهامته فالجو من ناظريه مجروح

قد راش السجع جناحه . وقرن الله باليمن غدوه ورواحه . ونصره في حربه حيث جعل منسره رمحه ومخلبه صفاحه . في قوادمه السعد قادم . وفي خوافيه النصر ظاهر المعالم . كأنما ألهم قوله ﷺ « بورك لأمتي في بكورها » . فيسرح والطير جاثمة في وكورها ويخرج في أغباش السحر وعليه سواد . فيهانه الصادح في الجو ، والباغم في الواد . ويأمر — خلد الله سلطانه — أمراءه فيضربون على الطير حلقة وهي لاهية في التقاط حبها . غافلة عما يراد بها . فيذعرونها بخفق الطبول وضربها . ومولانا السلطان — خلد الله ملكه — لنافرها مترقب . ولطائرها بالجارح معقب . فما يدنو الكركي مغرورا . حتى يثوب مقهورا . ساقطا من سمائه إلى أرضه ، ومن سمته

إلى قبضه . فسبحان من خلق كل جنس وقهر بعضه ببعضه » الخ .

ومن وصفه للفرس الأدهم قوله :

« ومن أدهم : مدرك كالليل . منصب كالسيل . كريم الناصية . جواب قاصية . كأن غرته صبح تنفس فى الدجى الحالك . وكأنه من الليل باق بين عينيه كوكب يضىء المسالك . وكأن حجوله بروق تفرقت فى جوانب الغسق فحسن منظرا تذلك . سنابكه يورى قدحها . وغرته ينير صبحها . وجوارحه مسود جنحها . وصهوته كمن فيها العز فلا يزال ظاهرا نجحها » .

ومن وصفه للنعام قوله

« فمن نعام : خضب ظليمها لما أكل ربيعا . واحمرت أطراف ريشه فكأنها سهام أصابت نجيعا . طالت أعناقها الناحلة فكأنها خطية . واشتدت قوائمها الحاملة فكأنها مطية . شاركت الطير فى وجود الجناح . رفارقتها فى كثافة الأشباح . وأشبهت الوحش فى مسكن القفار ، وشدة النفار . قد اجتمع فى ظاهرها اللونان من الوحش والطير . وائتلف فى باطنها الضدان من ماء ونار . »[1]

د — وصف الخيل :

ها نحن أولاء شهدنا مبلغ عنايتهم بوصف الخيل خلال وصف الصيد . ولا عجب فإنما هم أهل تلك القرون الوسطى ، والعمدة فى ركوبهم على الخيل . والجواد أهم أداة يعتمد عليها جنديهم فى حروبه . وهو المتطى الذى يمتطيه السلطان وأمراؤه فى تنقلاتهم المختلفة ذهابا وأوبة ، وحضورا وغيبة ، وطلوعا ونزولا ، وسلما وحربا ، فضلا عن استخدامه فى الصيد . وهو موضع الزينة بحلى الحلية فى المواكب الحافلة والحشود المجموعة . وهو إحدى المنح التى تجود بها مكارم السلطان على خاصته وخلصائه . وهو

---

(١) عن صبح الأعشى ج ١٤ ص ١٦٥ .

المركب الذي يتسنمه ذو المنصب العالي حينما يفيض عليه السلطان بنعمة التعيين فيه ويعود من لدنه إلى داره في موكب ممتطيا صهوة جواد . .

لهذا ولغيره ، ترى الجواد ذا حياة حافلة وأهمية كبرى في ذلك الزمان . ولا عجب — كما قلنا — إذا صرفوا الكثير من عنايتهم إليه . وكلف به الواصفون ، وسجلوا له في صفحة الأدب ما يخلد ذكره ويبين خطره ويشيد بجميله وإياديه . ونافس في ذلك بعضهم بعضا ، حتى اتخذوا وصفه سببا لمعارضاتهم .

ولم يقتصر وصفهم له ، على ذكره في سياق رسائل الصيد ، بل كتبوا فيه الرسائل المستقلة . ومن لطيف ما قرأناه من ذلك ، رسالة لابن حجة الحموى سماها : « مجرى السوابق » .

مجرى السوابق :

رسالة كتبها ابن حجة لسبب وغاية . وذلك أن لكل من الشهاب محمود الحلبي والجمال بن نباتة المصرى ، والشهاب بن فضل الله العمرى ، نثرا في وصف الخيل . فطلب من ابن حجة أن يعارضهم بنثر من عنده في موضوعهم . فعارضهم على غرار رسائلهم ، بجمع ذلك كله في مؤلف واحد هو « مجرى السوابق » .

ومما يذكر أن كلا من الكتاب الأربعة ، وصف على الترتيب : الأدهم فالأشقر فالكميت فالحبشي الأصفر فالأخضر فالأبلق . ثم انفرد كل من ابن فضل الله وابن حجة بوصف الورد والكدش .

وقد نظم ابن حجة ذلك كله في رسالة « مجرى السوابق » . فلم يورد كلام كل منهم على حدة ثم أتبعه بكلام من بعده ، بل فصل في ذلك بعض التفصيل . فأورد ما قالوه جميعاً في الجواد الأدهم بالتتابع : الحلبي فابن نباتة فابن فضل الله فابن حجة . ثم ما قالوه جميعا في الأشقر على الترتيب المذكور أيضاً ، وهلم جرا . فصارت كل طائفة من السطور في وصف لون من الخيل ، مقرونة إلى مثيلاتها .

وقد افتتح ابن حجة هذه الرسالة الممتعة الفريدة بخطابة طلية ورّى فيها بمصطلحات

الخيل ، وهو بارع دا ئم البراعة فى اسم ... ا فيها النظير رعاية لائقة ، تدل على يقظة خاطر وأصالة أدب ولباقة ذوق .

قال فى الخطبة :

« الحمد لله الذى يقف عند سوابق فضله كل جواد . ويقصر فى حلبة هذا الكرم الذى ليس له غاية فى بديع الاستطراد فمن ألهم الحزم وأرشده إلى حد المعرفة حاز قصبات السبق ، ولا نقول : كد .

نحمده على أن جعل لنا الخير معقودا بنواصى الخيل . ونشكره شكرا نعلو به على أشهب الصبح ونمتطى أدهم الليل ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له شهادة نرجو أن نكون بها فى ميادين الرحمة الواسعة من السابقين . ونشهد أن محمدا عبده ورسوله قائد الغر المحجلين . صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه الذين هم السابقون السباقون إلى الغايات . وإذا ذكرت الفصاحة والشجاعة كانوا على كلا الحالين فرسان العربيات . وسلم تسليما » .

هذا . ونقتصر هنا على ذكر أوصافهم للفرس الأشهب نموذجا لغيرها . قال :

« قال الشهاب محمود رحمة الله عليه :

« فمن أشهب غطاه النهار بحلته . وأوطأه الليل على أهلته . يتموج أديمه ريا . ويتأرج ريا . ويقول من استقبله فى حلى لجامه : هذا الفجر قد طلع بالثريا . إن التفت المضايق انساب انسياب الأيم . وإن انفرجت المسالك مر مرور الغيم . كم أبصر فارسه يوما أبيض بطلعته . وكم عاين طرف السنان مقاتل العدى فى ظلام النقع بنور أشعته . لايستن داحس فى مضماره . ولا تطمع الغبراء فى شق غباره . ولا ظفر لاحق من لحاقه بسوى آثاره . تسابق يداه مرامى طرفه . ويدرك شوارد البروق ثانيا من عطفه .

وقال الشيخ جمال الدين بن نباتة رحمه الله :

« ومن أشهب كأنه طلعة نجم . أو قطعة صبح . أو غرة قمر يضرب بأشعته أدبار

جنح قد ترتبت منه الأوضاع . وانقطعت دون غايته حتى الأطماع . واعتذرت له الريح خصوب أذنيه للسماع . وأصبح لصاحبه نعم العون فى يوم السبق، والغوث فى يوم القراع . وكاد يكون من الملائكة فكم له من غبار السبق أجنحة مثنى وثلاث ورباع . ماخفيت مصلحة إلا قيضها ولا ادلهمت سحابة نقع إلا قام لها بنفسه و بيضها . وما حدث عن حسن إلا رواه . ولا امتطاه عازم إلا حمد عند صباح لونه سراه . يقرب الطلب بسفارة عزائمه المسفرة . ويختال فى الخيل كالنهار فلا جرم أن آيته مبصرة . كم ثنى عنانه كثيراً عن مسابقة الرياح وأعرض . وكم لعب عليه غارم حتى فاز منه بالعيش إلا أنه أبيض » .

وقال القاضى شهاب الدين بن فضل الله :

« ومن أشهب جواد بما فى يده . سابق بعد يومه الأبيض لغده . فكأنما قمصه النهار بردائه . أو سمح له البدر التمام بروائه . قد صيغ من لجين . وصين نور البصر منه بسواد العين . ومعه شهباء من جنسه لا تحدث إلا عن محاسن الأبناء . ولا تعرف كتائب زيد إلا لكونها حكتها وتسمت بالشهباء .

وقال تقى الدين بن حجة :

« ومن أشهب شابت ببياضه مفارق الأرض . وقصر طولها بسرعته يوم العرض . إن تماثل جواد بغرته فهذا كله غرر . وكم قالت الشهب الثواقب إن كان هذا فى السبق مبتدأ ، نزلنا وراءه منزلة الخبر .

والنصر فى أشهب يبدو بطلعته يوم الخميسين لا فى السبعة الشهب

وقد قدمنا أن القمر شاركه فى اللون وفرط البهجة فى الأفق . فكم جاراه فى السير فقطعه وتركه مرميا على الطرق . جواد له اليد البيضاء مع كرم الأصل . وما غمزه فارس إلا قطع بوصوله إلى العرض . فهمزته همزة قطع وهمزة وصل . يسبق النظر فى تصوره إذا امتد خلفه وطلبه . فكأنه بقايا يقين كاد الشك أن ينهبه . ما قرع بيده بنية إلا سقطت

ساجدة لعموده بهاتيك المزايا . وقال بياضه الصبحي منشدا : أنا ابن جلا وطلاع الثنايا . » الخ[1] .

— وصف الحمائم :

ونعني بها « حمائم الرسائل » وهي المختصة بحمل الرسائل من مكان إلى مكان . فهي تقوم مقام البريد في إيصال المكاتبات وحمل الرد عليها. وقد استخدمت في مصر في العصر الفاطمي ، واعتنى بها الناصر لدين الله الفاطمي . واستمر استخدامها تقليداً متبعا إلى عصر المماليك . ويستتبع استخدامها العناية بها وبأقفاصها وطعامها وتموينها ، وإنشاء المحاط الخاصة بها وما أشبه ذلك .

وقد ذكر السيوطي[2] أن القاضي محيي الدين بن عبدالظاهر قد ألف في ذلك كله كتابا سماه « تمام الحمام » ومن كلامه نفهم أنه وصف العادات المتبعة في المكاتبات المرسلة بطريق هذه الحمائم ، من حذف التمهيشات ، والعدول إلى الإيجاز ، وحذف فضول الكلام ، وختم الرسالة بقوله « وحسبنا الله ونعم الوكيل » إلى غير ذلك .

وأهمية هذه الحمائم ، إن برزت في أوقات السلم ، فهي في أوقات الحروب والفتن أشد بروزا .

وحديثنا هنا نعني فيه بالإشارة إلى أن هذه الحمائم ، لما كانت ذات أهمية في حياة الدولة وأهلها ، وتستنفد من عناية أولي الأمر فيها جهداً موفورا ، لفتت إليها خواطر الأدباء ، وبخاصة لما لها من حميد الصفات وفريد المزايا ، وما انفردت به دون سائر الطيور من أمانة وذكاء وحيلة . فكان لا بد لها أن تنال نصيبا موفورا من عناية

---

١ — هذه المقتطفات من « مجرى السوابق » وهي مثبتة في كتاب «قهوة الانشاء» لابن حجة مخطوط بدار الكتب المصرية . وفي حسن التوسل ما كتبه الحلبي منها .

٢ — حسن المحاضرة ج ٢ ص ١٨٦ وما بعدها .

أقلامهم ، ومن منجبات خواطرهم ، ومن مبرحات خيالهم . فلم ينوا عن ذلك ، منذ كان لهذا الضرب من « البريد » وجود بمصر . فكتب في وصفها القاضي الفاضل وغيره من بعده من كرام الكاتبين ، واتخذوها مسرحا لنفثات الأقلام ، وميدانا للمعارضات الأدبية الطريفة التي كانت إحدى مذكيات الأدب شعرا ونثرا .

ونجتزئ بنقل منظور وجيزة مما كتبه القاضي محي الدين بن عبد الظاهر في وصفها . قال من رسالة :

« كم دفعت شكا بيقينها . ورفعت شكوى بتبيينها . وكم أدت أمانة ولم تعلم أجنحتها بما في شمالها ، ولا شمالها بما في يمينها . كم التفت منها الساق بالساق . فأحسنت لربها المساق . وكم أخذت عهود الأمانة فبدت أطواقها في الأعناق . ويقال ما تضمنته من البطائق بعض ما تعلق منها في الرياض من الأوراق . تسبق اللمح . وكم استفتح بها المسير إذا جاء بالفتح . تسبق الطرف السابق . والطرف الرامي الوامق . وما تلت سورة في البروج إلا وتلت سورة الطارق . كم أنسي مطارها عدو السلكة والسليك وكم أغنت في خدمة سلطانها عن الفناء . وقال كل منهما لرفيقه إليك ، عن الأيك » الخ[١]

---

٧ — وصف الرحلات :

كان للعصر عصر رحلات . وذلك لترامي أطراف المملكة المصرية وانتشار نظمها المركزية في شتى هذه الأطراف . حتى أصبحت الشعوب المقيمة بها كالشعب الواحد . يشتهي الفرد منه أن يرى بقية وطنه . . . وكثرت تنقلات الأمراء من نيابة إلى أخرى . وتنقل حواشيهم في ركابهم ينزلون بنزولهم ، ويرحلون برحيلهم .

---

١ — المرجع السابق .

وكثرت تنقلات القضاة من قضاء إلى آخر ، وتنقلات كتاب السر وغيرهم من الموقعين وعلية القوم . بل وكثرت رحلات الطلاب طلبا للعلم وحرصا على ملاقاة الشيوخ . هذا إلى أن الحوادث الجارفة والحروب الزاحفة ، كثيرا ما أرحلت قوما من الشام إلى مصر وقوما من مصر إلى الشام ، وهكذا . ومن هنا ترى أن الرحلات على مختلف أسبابها كانت على كثير من النشاط .

وقد دون بعض الأدباء أنباء رحلاتهم فى رسائل أدبية طريفة ، ضمنوها ذكر ما شاهدوا وما عاينوا ، وما أصابهم خلالها من خير أو شر . وما رأوا من صالح أوفا سد وسجلوا كثيرا من وقائعهم الشخصية وأسباب هذا الرحيل ، سواء أكان الخوف أم الطمع ، والمغامرة أو الفرار ، وحب الرياضة أم القسر والاضطرار .

ومن بديع ما تصفحناه فى هذا الباب ، رسالة « حظيرة الأنس إلى حضرة القدس » أنشأها أديب مصر الألمعى جمال الدين بن نباتة المصرى . وصف فيها رحلته فى دمشق إلى بيت المقدس عام ٧٣٥ هـ فى صحبة أحد وزراء زمانه وهو الصاحب أمين الدين . وكان ذلك فى أعقاب شتاء العام المذكور ، وفى مطالع فصل الربيع .

وقد استهلها ابن نباتة بحمد الله والصلاة على نبيه عليه السلام ، ثم مدح الصاحب أمين الدين ونسب إليه كثيرا من المناقب الحميدة . وتحدث مبينا سبب استصحاب أمين الدين له ، وهو أنه كان حزينا على فقد ولده عبد الرحيم ، فأحب أمين الدين أن يرفه عنه ويخفف من حزنه باصطحابه فى هذه الزيارة إلى القدس الشريف : ثم أخذ الكاتب يصف استعدادهم للرحلة و بدءهم بها . ثم طفق يذكر الأماكن والبقاع التى حلوا بها ومروا عليها مثل رأس الماء والمنبر والحصين وعجلون والغور ، واصفا ما لاقوا من حفاوات ، وما تصدق به الصاحب من صدقات ، حتى بلغوا بيت المقدس ، فطفق يصف زيارتهم لها والأماكن والآثار التى متعوا فيها بمشاهدتها واختبار معالمها

كالصخرة د . لك لأمر ، وبعض المد . س . د احد ث الاحد ماء .

يمشون خلال ذلك بين حفاوات بالغة ، و يقبض الصاحب باعمال بر متعددة و عموم بمنشآت نافعة . ثم ذكر الكاتب أنهم بعد أن أقاموا سبعة أيام ، زاروا قبر الخليل وقبر يونس والرملة ومشهد زكريا ويحيى وغير ذلك ثم حدوا عزمهم نحو العودة إلى دمشق مارين من نفس الطريق التي أتوا منه ، وسجل الكاتب ما لقوه في دخولهم دمشق من حفاوة وحسن استقبال .

وقد أبدع ما شاءت له براعته في الوصف ناهجا النهج البديعي في لباقة وكياسة وإليك مقتطفات من هذه الرسالة الفريدة .

قال في خطبتها ، وبه براعة استهلال ورعاية نظير وتلميح بمدح الصاحب وتورية .

« الحمد لله حافظ سر الملك بأمينه . وحامي حماه بمن قسم الشكر والأجر بين دنياه ودينه . ومن إذا رفعت راية مجده تلقاها عرابة براعته بيمينه . و إذا امتدت إليه أجياد الممالك حلاها من عقد التدبير بثمينه ، و إذا نوى في السيادة فعلا أمضى العزم السني قبل دخول سينه . و إذا حمل بنانه القلم روينا عن ابن بحر كتاب بيانه في الفضل وتبيينه . وصلى الله على سيدنا محمد الذي أيد بالروح الأمين . وعضد بوزراء آله وصحبه الغر الميامين . وسلم عليه وعليهم سلاما باقيا إلى يوم الدين . »

وقال يذكر الصاحب أمين الدين ويمدحه ويدعو له :

« صاحب هذه الدولة التي خضعت لها الدول ، وفاضل أمرها الجليل وراسخ دوحها الذي ما مال مع الهوى . ونديم صحائفها الذي تلا تسديده : ما ضل صاحبكم وما غوى . وضابط أمورها الذي طالما استشرفت إليه أسماع وأبصار . وانتصرت به لقديم هجرته فلا غرو أن صار من المهاجرين والأنصار . المقر الأشرف الصاحبي الوزيري الأميني — أعلى الله تعالى أبدا شأنه ورفع على فرقد الفرقدين مكانه . وزان بأقلامه أقاليم مصر ، فهذه سهام وهذه كنانة . » الخ .

وقال يذكر استعدادهم للرحيل و بدأهم به :

« فأتينا الكسوة فلبسنا منها للمسرة ثيابا سابغة الذيول . وطفنا منها بكعبة الفضل طوافا واضح الإقبال والقبول. وقلنا للمقاصد تباشرى بالحظوة. ولعيون الإقبال تأملى فما أحسن الكعبة فى الكسوة . ومررنا والخيل تجمز جمزا . وجزنا بالصنمين فهمت أن تفخر بعواطى خيلنا على اللات والعزى . وصعدنا منزلة رأس الماء فكاد الطرب يهزه هزا . ورأينا بينها و بين منزلة المغبر أرضا قد اخضر جنابها . وطرزت بآثار الطرف ثيابها . فأمرت بالقول فقلت :

سقى الله أرضا طرفها مثل طرزها وسائرها برد من الوشى أخضر

تذكرت أحبابى بمثوى بريدها فعينى رأس الما وجسمى المغبر » .

وقال يصف دخولهم إلى عجلون و يذكر قلعتها :

« وعجنا بعجلون . فحشر الناس لدينا ضحا . وجاء أهل المدينة يستبشرون فرحا. وارتفعت الأصوات بالأدعية الوافية . وأردنا أن نكتم دخولنا البلد وكيف تكتمنا وهى ذات عين صافية . ثم نزلنا بالخيام فى مرجتها الخضراء تحت قلعتها الغبراء . وهى فى معارج السحب صاعدة . شائدة فى الجو كأنها فى السحر على عمود الصبح قاعدة . مضيئة بين عقود الأنجم كأنها درة يتيمة. جالسة على سرير الخيل تنادم الفرقدين كأنها جذيمة . » .

و بعد أن وصف طوافهم بآثار القدس وأماكنه قال يذكر صدقات الصاحب :

« فجنينا من تلك المحاسن بساتين دانية القطوف . ولحظنا من الظلال السيفية جنة نشأت ، وكذلك الجنة تحت ظلال السيوف . وشرعت صدقات السر والجهر. وقوبل السؤال ببحر لايسمع عنده نهر . وغص بفقرائهم المكان والطريق . وجاءوا رجالا ونساء على كل ضامر من العصى، يأتين من كل فج عميق. فوضع فى مواضعه النوال. وقدرت الكساوى حتى على المستورين والأطفال. هذا وكم ثياب صوف أعرض إشراقها

عن مقال اللاحين . واتخذ الفقراء والأغنياء من صوافها أثاثا ومتاعا إلى حين ، وجاءت الدراهم بعد التفاصيل بالجمل . وقال جودها الحاتمي : هذي التي لا ناقة لك فيها ولا جمل .

فلله كم حل امرىء مقتر   قضيت فى القدس منديسه
ودرهم ولى ولـكنه   قد أخذ الأجر على كيسه

وقال يصف دخولهم إلى دمشق عائدين :

« وفى تلك الليلة كان دخولنا إلى دمشق المحروسة كدخولنا إلى القدس الشريف . سائرين مسرى النجوم فى الليل . سابقين لغرة الصباح بغرر الخيل . موقرين لخواطر الملتقين، وهيهات وقد سال منهم السيل . نازلين من دمشق جنة قد تبسمت لقدومنا عن ثغور الأزهار . وأجرت أمام ركابنا الأنهار . ولبست من وشى الربيع حللا لها من أوائل ما انعقد من الثمار أزرار . فائزين من الثناء والثواب بفوق الإرادة . داعين لمن فضله جامع ، مترقبين لرتبته باب الزيادة . وتمت هذه السفرة على أحسن ما يكون . واشتملت من وجوه المحاسن على فنون . »[1]

---

٨ — وصف الحوادث العامة :

ونقصد بها الحوادث العامة الأخرى — عدا ما سبق — مما تتأثر به البلاد عامة وسكانها ، ويلهج الناس بذكره وروايه خبره ، فيكون حديث الأدباء صدى لما يتردد فى الأفواه ، وتتحرك بأنبائه الشفاه . وذلك مثل غلاء فاحش استشرى وكشر عن نابه . أو وباء جارف ضرب بأطنابه . أو زلزال منيت به البلاد فأصابها بالضرر ، أو حريق انتشر منه النار والشرر ، أو غير ذلك .

---

١ — الرسالة بتمامها فى ثمرات الأوراق لابن حجة الحموى .

ومن كتب فى ذلك زين الدين بن الوردى الأديب الشاعر الناثر ، فقد كتب :

رسالة النبأ عن الوبأ :

تحدث فيها عن طاعون جارف قيل إنه لبث نحو خمسة عشر عاما طوافا من نواحى الصين إلى غرب آسيا ، جوالا فى أرجاء كثير من البلاد حتى أزهق كثيرا من الأرواح وقضى على آلاف من النفوس .

وقد وصف ابن الوردى هذا الطواف والتجوال مبينا أثر الوباء وما أنزله من الأضرار بالناس مشيرا إلى حيرتهم فى طريقة دفعه ، وإلى انكباب أعيانهم على مطالعة كتب الطب لعلهم يقفون فيها على وسيلة للعلاج ، وإلى إقبالهم على تبخير بيوتهم وتختمهم باليواقيت ، واصطناعهم البصل والخل ونحوهما فى عداد أطعمتهم ، وإقلالهم من تعاطى المرق والفاكهة ، زعما منهم أن ذلك كله يدفع عنهم المكروه .

وأشار كذلك إلى تعدد الوفيات وكثرة الجنائز اليومية ، وما تردد فى كل ناحية وصقع من عويل ونحيب . ومن توقع الأحياء أن ينزل بهم هذا البلاء عما قريب ، فيقضى عليهم قضاءه المبرم . وما كان من أثر هذا التوقع فى نفوسهم من إشاعة الخوف والنوم على وجل ، والعجلة إلى التوصية بالأولاد وترتيب بقية أموالهم ، وإنهاء المتخلفات من أعمالهم ، والاقتصاد من آمالهم . وأشار إلى أثر ذلك كله فى تغير أخلاقهم وفى إقبال بعضهم على بعض يتلاطفون ويتسامحون ويتناوبون ويتصافون إلى غير ذلك .

وهذه الرسالة هامة من ناحيتها الاجتماعية إذ صورت حالة المجتمع حينما دهمه الوباء ، وسجلت الاضطراب النفسى الذى شاع بين أهله ، والقلق الذى أصابهم ، والوداعة المفاجئة الطارئة عليهم التى حولتهم إلى حملان هادئة مستسلمة .

غير أن أسلوب الرسالة يشوبه الضعف وركاكة النسج ، وهى دون ما شاهدنا من النماذج السالفة قوة أسلوب ، وحسن ربط ، وجزالة تركيب ، ونقاوة لفظ .

ونسوق سطورا منها على سبيل المثال ، قال يذكر طواف الطاعون من قطر إلى آخر ، وقد اصطنع فى ذلك ألوانا من الجناس والطباق فيها تكلف :

« طاعون روع وأمات. وابتدأ خبره من الظلمات . ياله من زائر . من خمس عشرة سنة دائر ما صين عنه الصين . ولا منع منه حصن حصين . سل هنديا فى الهند . واستند على السند . وقبض بكفيه وشبك . على بلاد أزبك . وكم قصم من ظهر . فيما وراء النهر . ثم ارتفع ونجم وهجم على بلاد العجم . وأوسع الخطا . إلى أرض الخطا . وقرم القرم . ورمى الروم بجمر مضطرم . وجر الجرائر . إلى قبرص والجزائر . ثم قهر خلقا بالقاهرة . وتنبهت عينه لمصر فإذا هم بالساهرة » .

وقال يذكر انكباب أعيان حلب على كتب الطب ، ويصف اعتمادهم على البصل والخل ، وتقليلهم من الفاكهة وكثرة الجنائز إلى غير ذلك :

« فلو رأيت الأعيان بحلب وهم يطالعون من كتب الطب الغوامض . ويكثرون فى علاجه من أكل النواشف والحوامض قد تنغص عيشهم المهنى بملاطخة مسلم الطينة الطين الأرمنى . وقد لاطف كل منهم مزاجه وعدل . وبخروا بيوتهم بالعنبر والكافور والسعد والصندل . وتختموا بالياقوت . وجعلوا البصل والخل والسمحنا من جملة الأدم والقوت . وأقلوا من الأمراق والفاكهة . وقربوا إليهم الأترج وماشابهه . ولوشاهدت كثرة النعوش وحملة الموتى . وسمعت بكل قطر من حلب نعيا وصوتا لوليت منهم فرارا . ولأبيت فيهم قرارا . فلقد كثرت فيها أرزاق الجنائزية ، فلا رزقوا وعشوا بهذا الموسم وعرقوا من الحمل فلا عاشوا ولاعرقوا . فهم يلهون ويلعبون . ويتقاعدون عن الزبون .

اسودت الشهباء فى عينى من هم وغش
كاد بنو نعش بها أن يلحقوا بنات نعش » الخ [1]

---

١ — راجع ديوان ابن الوردى ص ١٨٤ .

٩ — وصف ادوات

وتلك كالسكين أوالقلم أوالسيف . وذلك لكثرة استعمالهم لها وحاجتهم إليها فى الحرب أوالكتابة .

وقد كتب الأديب ابن حجة الحموى رسالة وصف فيها السكين . واستخدم من الألفاظ ماشاء له الذوق السمح ، مما يلابس السكين وعملها ، موجها ومورياً أومراعيا النظير أوغير ذلك من بديعيات ، وجاد فيها بما سنح خاطره من مبتكرات فنه وجديد تصويره .

قال فى أولها :

« يقبل الأرض التى قامت حدود مكارمها . وقطعت عنها مكروه الفقر بسنون عزائمها . وينهى وصول السكين التى قطع المملوك بها أوصال الجفاء . وأضافها إلى الأدوية لحصل بها البرء والشفاء . وتالله ما غابت إلا وصلت الأقلام من تعثرها إلى الجفاء . زرقاءكم ظهر للبيض منها ألوان . خرساء ومن العجائب أنها لسان كل متوان. ماشاهدها موسى إلاسجد فى محراب النصاب . وذل بعد أن خضعت له الرؤس والرقاب. كم أيقظت طرف القلم بعد ماخط . وعلى الحقيقة ماروّى مثلها قط . وكم وجد بها الصاحب فى المضايق نفعا . وحكم بحسن صحبتها قطعا . ماضية العزم قاطعة السن . فيها حدة الشباب من وجهين . لأنها بالناب والنصاب معلمة الطرفين . وآلة صبح نفمت بسواد الدجى . فمو دتها بالضحا والليل إذا سجا . ولسان برق امتد فى ظلمات الليل. فتنكرت أشعة الأنجم وما عرف منها سهيل . هذا وتقطيعها موزون إذ لم يتجاوز فى عروض ضربها الحد. ومعلوم أن السيف والرمح لم يعرفا غير الجزر والمد . من أجل ذا تدخل فى مضايق ليس للسيف فيها قط مدخل . وكل ما تقدله توجزه والرمح فى تعقيده مطول.

إن هجمت بجفنها كانت أمضى من الطيف. وكم لها من خاصة جازت بها الحد على السيف. تنسى حلاوة المسال فلا يظهر لطوله طائل. وتغنى عن آلة الحرب بإيقاع ضربها الداخل. إن مرت بشكلها المحلى تركت المعادن عاطلة. ولم يسمع للحديد فى هذه الواقعة مجادلة. شهد الرمح بعدالته أنها أقرب منه إلى الصواب. وحكم لها بصحة ذلك قبل أن تستكمل النصاب. ما طال فى رأس القلم شعرة إلا سرحتها بإحسان. ولا طالعت كتابا إلا أزالت غلطه بالكشط من رأس اللسان. تعقد عليها الخناصر لأنها عدة وعدة وتالله ما وقعت فى قبضة إلا أطالت لسانها وتكلمت بحدة. إن دخلت إلى القراب كانت قد سبكت على الدخول. أو برزت من غيمه كان على طلعتها قبول. تطرف بأشمتها الباهرة عين الشمس. وبإقامتها الحد حافظت الأقلام على مواظبة الخمس. وكم لها من عجائب صار بها جدول السيف فى بحر غمده كالغريق. ولو سمع بها قبل ضربه ما خلى الطريق. فلو عارضها أبو طاهر[1] لعرك من قوسه الأذنين. وقال له جنحت وسالك يا ذا القرنين. فإن جنبت إلى مقاومتها وكان لك يد تمتد. وصلت السكين إلى العظم وصار حليك يقطع وانتهى أمرك إلى هذا الحد» الخ[2].

وكتب شهاب الدين بن فضل الله العمرى نموذجا لما ينبغى كتابته فى وصف السيف خلال المراسلات، فقال:

«وسل منه سيفا يمضى حكم على الرقاب، ويقضى على المرء بما تبقى من بقاياه للأعقاب. يجد به اللاعب. ويتلقى بصدره المتاعب. ويدنو من العدو اقترابه. ويعز

١ — أبو طاهر هو أبو طاهر أسماعيل بن عبد الرازق الأصفهانى، وقد كتب رسالة فى وصف القوس (خزانة الأدب ص ٤٣٢ باب السجع).

٢ — رسالة السكين نصها مثبت فى خزانة الأدب لابن حجة ص ٤٣٢ باب السجع، وفى ثمرات الأوراق ص ٢٠٣ وفى كتاب «قهوة الإنشاء».

عليه إذا تأبى فى الحرب فما يقسم به إلا رأسه . ولا يمنع دونه زرد موضون . ولا بيض مكنون . قد توقد شعلا وسفل الفرند فى تياره وعلا . وكاد لولا السل يأكل غمده ويقطع حتى بنده . قد تردى حامله منه بابن صاعقة . وأرى الآجال منه كل بارقة . قد قذف فى اللجج سعيره . وقبل فى إبلاغ الآجال سفيره . كأن على متنه سلخ أيم . أو كأنه متلفع بقطع من غيم . قد أسبل الضارب منه ذيل ذبابه . فأدنى به لأجله كل محضر . وجنى منه ثمر الوقائع يانعا من ورق الحديد الأخضر . »[1]

وقال أيضا :

« وسل سيفا سال المنون من لعابه . وسار الموت فى إهابه . وتناوم عنباره ملء جفونه فما هجع . وتثاوب للوثوب للمهج فما رجع . وتباكى على من قتل فجرت دموعه دماء . وتحرق على من ظلم فتوقدت ضلوعه نارا وترقرقت مآقيه ماء . »[2]

نكتفى بما مر وصفه وتسجيله من الرسائل . ونشير إلى بعض رسائل أخرى فى موضوعات مختلفة ، فمنها :

١ — رسالة لابن الوردى فى وصف زلزلة حدثت عام ٧٤٤ هـ . ص ١٧٨ من ديوانه .

٢ — رسالة فى وصف الخيل للشهاب الحلبى . فى حسن التوسل .

٣ — » » » حصن » » » » »

٤ — » » » رمى البندق للشهاب الحلبى . فى حسن التوسل .

٥ — » » » هزيمة جيش » » » » »

٦ — » » » الصيد والجوارح والضوارى ، وأخرى فى رمى النشاب ، للحلبى أيضا .

---

١ ، ٢ — عن كتاب التعريف بالمصطلح الشريف ص ٢٠٣ ، ٢٠٤

٧ — رسالة البارنبارى فى وصف يوم ماطر . عن الوافى بالوفيات ج ١ فى ترجمة البارنبارى .

٨ — رسالة لابن حجة فى وصف « حمائم الرسائل » يعارض بها رسالة القاضى الفاضل فى نفس الموضوع — عن ثمرات الأوراق ، وحلبة الكميت .

٩ — رسالة مطولة لمحيى الدين بن عبد الظاهر فى وصف الغزو . أرسلها إلى الوزير الصاحب بن حنا . عن صبح الأعشى ج ١٤ ١٣٩ .

١٠ — رسالة لابن حجة إلى فخر الدين بن مكانس ، كتبها عام ٧٩١ هـ يصف فيها ما لقيه من الأهوال فى دمشق أيام حريقها . ص ٤٤٩ ، ٤٦٤ من خزانة أدبه .

١١ — رسالة لابن حجة إلى بدر الدين الدماميني يصف له أهوال سفره إلى طرابلس الشام ، وتسمى « الرسالة البحرية » . عن ثمرات الأوراق ، وقهوة الإنشاء .

١٢ — رسالة كتبها شاهد عيان لمعركة عكا بين الصليبيين وجيوش السلطان خليل بن قلاوون عام ٦٩٠ هـ . عن سلوك المقريزى .

١٣ — رسالة لبدر الدين الدماميني فى وصف مدينة دمشق . عن تأهيل الغريب ، باب مطولات فى الروض والبساتين .

الفصل الثاني

المقالات الوصفية

المقالة — كما يتطلبها العصر الحديث — إحدى المنشآت النثرية ، تملأ سطورها صفحة أو بضع صفحات ، لتقرأ فى دقائق . وتتحدث عن أحد الموضوعات الأدبية أوالفكرية ، تعرض على القراء فى عجلة تناسب سياسة الصحيفة التى تنشر فيها مثلا ، وفى وضوح يناسب مستوى قرائها . و يغلب أن يكون موضوع المقالة ، فكرة جزئية أو خطرة عارضة وجيزة ، يراد تجلية غوامضها و بسط أطرافها فى يسر وعجلة ، فتحبك المقالة فى سطور منظمة مهذبة العبارة منطقية يتقدم الأهم من عناصرها فيها على المهم ، مع حسن العرض ودقة الربط ، وصدق المقدمة وصحة النتيجة ، إلى غير ذلك .

وكلما اقتدر الكاتب على رعاية شروط المقالة كانت أفضل وأحلى وأقرب إلى نفوس القراء ، وأشد تأثيرا فيها .

وقد راج أدب المقالة فى عصرنا الحديث رواجا منقطع النظير ، وأصبحت المقالة من أينع المسالك الكتابية إن لم تكن أينعها ، وامتدت آفاقها حتى استوعبت الكثير من ألوان الفكر والخواطر أدبية وغير أدبية ، وشاركت مشاركة واسعة النطاق فى ثقافة الجماهير . وقد قيض لها هذا النشاط العظيم المدى بفضل انتشار الصحف والمذياع ، وإقبال الأدباء وقادة الرأى على نشر أفكارهم على الجماهير عن طريقهما وطريق غيرهما .

وفى عصر المماليك ازدهر ضرب من المقالة الأدبية ، هو الضرب الوصفى الذى عنى فيه الكتاب بوصف المحسوسات أو المرئيات مما يلابس حياتهم من أدوات وصناعات

ومناظر وحيوانات وحوادث وغير ذلك . فوصفوا ذلك وصفا أدبيا جميلا عماده الخيال وما يستند إليه من تشبيهات جميلة واستعارات حسنة التصوير وكنايات لطيفة ، وعاونهم على بلوغ أربتهم ما لذ لهم وملح واستملح من ألوان البديع وفي مقدمتها التورية والتضمين والاقتباس والتوجيه والطباق وما إلى ذلك .

والمقالة وإن بلغت مبلغها القيم الذي أشرنا إليه في عصرنا الحديث ، لم يزه فيها هذا اللون الوصفي وانصرف عنه أكثر الكتاب البارزين ، ولم يعنوا به إلا غرارا كشوقي في كتابه « أسواق الذهب » . وعبد العزيز البشرى في « في المرآة » ، ومصطفى صادق الرافعي في « من وحي القلم » ، هذا بالقياس إلى غيره من الألوان التي جذبتهم إليها شواغل الحياة الحديثة .

وازدهى هذا اللون الوصفي في عصر المماليك ، وقد سبقهم إلى ذلك الأدباء السابقون، ولا سيما كتاب الأندلس الذين عاونتهم بيئة بلادهم بجمالها وتعدد مناظرها ورخاء عيشها على إجادة الوصف .

وقد رأينا في الحق — نماذج متعددة للمقالات الوصفية ، رأينا ذلك عند حديثنا السابق عن « الرسالة الوصفية » ، فهي في الواقع ، مقالة ، ولهذا نورد هنا نماذج جديدة على نسق ما أوردناه في الفصل السابق ولا تكاد تفترق في الموضوع والشكل إلا ما أطلق على اللون السابق من اسم « رسالة » .

والمقالة بنوعها إحدى الشواهد على استجابة أدباء العصر لوحي بيئتهم وعاطفتهم وصداقتهم . فكانت مقالاتهم ترجمانا جديدا لكل أولئك .

وكثيرا ما نرى في كتب التاريخ العام ، والموسوعات الكبرى نماذج لهذه المقالات وبخاصة أوصافهم للحروب والوقائع ، وللأبنية والعمائر ، وللرحيل والنزول » وما شابه ذلك .

وقد وصف شهاب الدين بن فضل الله العمرى فى كتابه « مسالك الأبصار » المسجد الأقصى فقال :

« معبد الأنبياء . ومتعبد الأولياء ، وثانى البيت الحرام فى البناء ، وأولى القبلتين حال الابتداء . شيدت ملوك بنى إسرائيل معاهده . وشدت بمناكب البروج معاقده . ثم تدارك بنو أمية ذماءه . وصنعوا أرضه وسماءه . وهذا هو على ماهو عليه من حمل الآلام . واختلاف دول الكفر والإسلام . ومن صخرته المقدسة المعراج حيث عرج بخاتم الأنبياء عليه الصلاة والسلام . من حضرة القدس إلى حضرة القدس . و بسط له بساط الأنس . ودنا من ربه مقاما لم يبلغه الخليل ولا الكليم . ولا وصل إليه ملك مقرب ولا نبى كريم . وقد أم فى ذلك المسجد بالنبيين . وصعد منه إلى أعلى عليين . وإلى صفيح تلك البقعة المحشر . ومنها يوم القيامة المنشر . والصخرة بها عرش الله الأدنى . ومقام الفخار الأسنى . وهى التى تزف إليها عروس الكعبة زفا . وتقسم الناس لشقاوة وزلفى » الخ[1] .

وصف الشعر والنثر ونحوهما :

وكان للأدباء بما يكتبون ولوع . وإلى تبادل الحمد وتقارض الثناء نزوع فكثيرا ما وصف أحدهم شعر صديق أو نثر رفيق . فإذا هو الدر اللامع . والزهر اليانع . والنجم الساطع . وإذا ببلاغته الحكمة وفصل الخطاب .

ورسائلهم فى ذلك أو مقالاتهم أدنى إلى رسائل المديح أو مقالاته . وتلك ظاهرة بدت بكثرة فى خلال تراجم الأدباء للأدباء . وفى سياق مكاتبات الأخلاء للأخلاء إذ يدفع المقام إلى الإطراء ، ويسوق الإطراء إلى المبالغة فى الوصف استجابة للوفاء .

---

(١) ص من مسالك الأبصار ج ١ ص ١٣٣ .

ويرد خلال ذلك ذكر الأقلام ووصف القراطيس وما إلى ذلك .

وقد كتب الشهاب الحلبي من ذلك في وصف كتاب فقال :

« وهذا فلان قد آتاه لله في بلاغته الحكمة وفصل الخطاب . ومكنه من أزمة جياد المعانى فهى تجرى بأمره رخاه حيث أصاب . ومنحه فضيلتى العمل والعلم ، فإذا كتب أخذت الأرض زخرفها وازينت ، وإذا قال ، قال الذى عنده علم من الكتاب »[1]

ووصف صلاح الدين الصفدى فى سياق رسالة كتبها إلى بهاء الدين السبكى ، قصيدة طائية نظمها الشاعر الأديب برهان الدين القيراطى فى مدح الصفدى وذكر تقى الدين السبكى فقال :

« انتقل المملوك إلى القصيدة الطائية . والبلاغة العطائية فلو أن الطائيين حيان لسلما قبل أن يسلما . واعترفا لشاعرهما بالفضل وندما على كل ما كلما . ولو كانت هذه الطاء حرف الراء لما زادت على هذه المدة . ولا أذعنت لناظمها وجارته فى حدة هذا الرونق والجدة .

ياءمولانا ! هذا الشيخ برهان الدين نكت حرف الطاء وأخذ جميع ما فيه من النكت. وعلم أن الذى يجاريه إن أفلح جاء سكيتا أو سكت. أما قوله: مصر وفسطاط فلم يمر بالمملوك مثلها . ولا فاه عليه ظلها. وأما بقاطيف الجزار وأسقاطه ، فلو كان حيا صح حذفه من هذه الصناعة وإسقاطه . وأما ذكره الأقراط مع الربيع والتشنيف فصناعة فائقة فى النظم والتصنيف . وأما تسريج الحلى وتقريض الأمشاطى ، فهذا قول من خاض لجة هذا الفن وترك الناس على الشاطىء » الخ[2]

---

١ — عن حسن التوسل ص ١٤٨ ٢ — عن ألحان السواجع المخطوط — ظهر الورقة رقم ٥ .

وصف الكتابة :

ووصف القلقشندى الكتابة و بين شرف صناعتها فقال :

« و بعد فلما كانت الكتابة من أشرف الصنائع وأرفعها . وأربح البضائع وأنفعها وأفضل المآثر وأعلاها . وآثر الفضائل وأغلاها . ولا سيما كتابة الإنشاء التي هى منها بمنزلة سلطانها . و إنسان عينها بل عين إنسانها . لا تلتفت الملوك إلا إليها . ولا يعول في المهمات إلا عليها . يعظمون أصحابها و يقربون كتابها . فخليقها أبداً خليق بالتقديم جدير بالتبجيل والتكريم .

تسر مجانيها إذا ما جنى الظما   وتروى مجاريها إذا بخل القطر » الخ(١).

وصف الكتاب :

وقال بدر الدين بن حبيب الحلبي يصف الكتّاب و يورى بشىء من صناعتهم :

« الكتاب عماد الملك وأركانه . وعيونه المبصرة وأعوانه . و بهاء الدول و نظامها . ورءوس الرياسة وقوامها . ملابسهم فاخرة . ومحاسنهم باهرة . وشمائلهم لطيفة . ونفوسهم شريفة . مدار الحل والعقد عليهم . ومرجع التصرف والتدبير إليهم . بهم تحلى العواطل . وتبتسم ثغور المعاقل . محاسنهم بالفضائل معمورة . و بندامهم أندية القصاد مغمورة . يهدون إلى الأسماع أنواع البديع . و ينزهون الأحداق فى حدائق التوشيح والتوشيع . هم أهل البراعة والألسن . وشيمتهم لف القبيح ونشر الحسن . و يميلون إلى القول بموجب المدح . ولا يملون من مراجعة الراغبين فى المنح . دأبهم استخدام الناس بالمعروف . وعدم التورية عن العانى والملهوف » الخ(٢).

---

١ ـ راجع خطبة صبح الأعشى   ٢ ـ عن نسيم الصبا . الفصل الحادى والعشرين فى وصف الكتابة

وتبدو لك أوصاف الشعر والنثر — كما نوهنا — في تراجم الشعراء والمنشئين .
وكذلك تبدو لك أوصاف العلم وما يسبغ عليه من جلال ، وما يضاف إليه من فضل ،
ويضفي عليه من أثواب النبل ، في سياق تراجم العلماء .

وممن برع في هذا النحو من الوصف ، جمال الدين بن نباتة المصري . وستتحدث
في باب « التقاريظ الأهاجي » عن كتابه « سجع المطوق » الذي ترجم فيه لجماعة ممن
قرظوا كتابه « مجمع الفرائد » . ونجتزىء هنا بذكر سطور من ترجمته للقاضي كمال الدين
ابن الزملكاني . وهي وصف لبس ثوب المدح . قال :

« أما غصون أقلامه المثمرة بالهدى . وسطور فتاويه الموضحة للحق طرائق قددا .
وخواطره التي توقدت ، فكانت الأنجم شهودا . ومآثره التي ضربت رواق العز وكانت
المجرة طنبا ، وكان الفجر عمودا . ومناظرته التي أسكتت المناظرين فكأنما ضربت
سيوفهم المجردة لألسنتهم قيودا . إن الآداب لتحركني لمدحه والأدب يحثني على
السكون . وإني لأرمق محاسنه إذا أردت نشرها بالوصف ، ومن البر ما يكون . جل
عن منتخب المدح فقد كاد يكون فيه المدح هجاء » . وقال :

« هو البحر وعلومه درره الفاخرة . وفتاويه المتفرقة في الآفاق سحبه السائرة .
والعلم إلا أنه الذي لا تحجبه الغياهب . والطود إلا أنه الذي لا يحاوله البشر على أنه
خير الكواكب . والمفرد الذي حمى بيضة الإسلام في أعشاش أقلامه . والمجتهد الذي
لا غبار على رأيه في الدين . وإن غبّر في وجوه حلامه » الخ[1]

نسيم الصبا :

نرى ونحن بصدد الحديث عن « المقالات الوصفية » أن ننوه بكتاب مطبوع

---

١ — عن كتاب « سجع المطوق » لابن نباتة المصري .

بطابعها يحتوى على عدد منها وهو كتاب «نسيم الصبا» .

ألف هذا الكتاب الأديب « بدر الدين بن حبيب الحلبي » أحد أدباء العصر . وتوفى عام ٧٧٩ هـ . ويحتوى الكتاب على ثلاثين فصلا . كل فصل منها مقالة وصفية فى موضوع مستقل . وقد اختار موضوعاته من مواضع مختلفة ، فمنها الطبيعة ومناظرها كوصف السماء وزينتها ، والشمس والقمر ، ومنها الأشياء كالنار والشمعة ، ومنها الأخلاق كالكرم والشجاعة والعدل والإحسان . ومنها الحيوان ، كالطيور والخيل والإبل والوحش ومنها الإخوانيات كالاستعطاف والتهنئة والشكر والرثاء ومنها المجونيات كوصف غلام وجارية ومجلس شراب إلى غير ذلك .

ومن هذا وذاك ، نرى أن الكتاب تصبغه صبغة الوصف ، ولكنه إلى جانب ذلك يلاحظ عليه ملاحظات منها

١ — أن روح القص تسرى بين سطوره أحيانا كما فى الفصل السادس وهو فى وصف البحر والنهر حيث قال فى مطلعه :

« هزتنى رياح الأمل البسيط . إلى امتطاء ثبج البحر المحيط . فأتيت سفينة يطيب للسفر مثواها . وركبت فيها باسم الله مجراها ومرساها . موقنا بأن المقدور صائر . معرضا عن قول الشاعر :

لا أركب البحر أخشى عليّ منه المعاطب
طين أنا وهو ماء والطين فى الماء ذائب »

٢ — أن الفصل الخامس من فصوله عبارة عن مناظرة ومفاخرة بين فصول السنة الأربعة ، حيث قال فى مطلعه :

« حضر فصول العام مجلس الأدب . فى يوم بلغ منه الأديب نهاية الأرب . يشهد من ذوى البلاغة . ومتقنى صناعة الصياغة . فقام كل منهم يعرب عن نفسه . ويفتخر على أبناء جنسه . فقال الربيع . . . الخ » .

٣ — أن في بعض فصوله مكاتبات الإخوانيات ، وذلك كالفصل الخامس عشر في الاستعطاف ، فقد بدأه بقوله :

« يأيها المعرض بالهاجر الذي سعى لصده دمع صبه على المحاجر . رفقا بمن ملك الوجد قياده . وعطفا على من أذاب الشوق فؤاده . متيم أقلقه فرط صدودك . ومغرم أغراه بحبك قول حسودك . » الخ .

ومن هذا وذاك أيضا ترى أن الكتاب احتوى على جملة فنون نثرية .

هذا إلى أن أسلوبه مكون — غالبا — من فقر قصيرة مسجوعة ، يبدو على أكثرها رونق وطلاوة ووضوح مع قلة تكلف وخفة مشوبة ، غير أن مؤلفها آدها بكثير من الأبيات الشعرية خلل بها سطورها ، وهي وإن كانت في صميم المعنى والمناسبة ، وكانت رقيقة حسنة الاختيار ، تبعثر جمال السطور ، وتشعث حسن المنثور . ونقتبس لك سطورا من بعض فصوله :

في وصفه للرياض والأزهار « من الفصل التاسع » ، قوله :

« جد بي الوجد في إبان الربيع ، إلى رؤية فضل الغيث بمنازل الربيع ، فسرت أحدق في جوانب الحدائق ، وصحبني من الشوق نوسائق يتلوهن حاد وسائق ، فإذا أنا بروضة أريضة ، عيون أزهارها مريضة ، قد فاح أرجها وأضاءت سرجها ، وبرز إبريزها وحسن تطريزها ، وأبدت من زينتها ماهو باللطف منعوت ، ونثرت على الزمرد أصناف الدر والياقوت ، وتحلت بما يروق إنسان كل إنسان ، وتجلت في رفرف خضر وعبقري حسان ، أعلن الدمحاب أسرارها ، وهتك النسيم أستارها :

كأن تفتحها بالصبا عذارى تحلل أزرارها

حوكت الخنساء ، لا في الحزن ، بل في الحسن والفخر ، ولها عيون تجرى على الديباج لا على صخر ، يضوع عرفها في الآفاق بلا تضييع ، ويبهر الطرف من صنع صنائعها كل زهر رفيع ، تنهل جداولها وأنهارها ، ويضحك في وجه من أم بابها ثغر نوارها .

. وما غربت نجوم الليل لكن ÷ قلن من السماء إلى الرياض ع الخ[1]

حسبنا هذا من نسيم الصبا ، وإليك كتابا آخر من وادية وهو :

كشف الأسرار عن حكم الطيور والأزهار[2] :

هذا كتاب صنفه الشيخ الإمام العالم العلامة عز الدين بن عبد السلام بن أحمد المقدسي . وهو مكون من نحو ٦٠ فصلا قصيرا . يحتوي كل فصل منها على « مقالة » وصفية أو « إشارة » كما سماها مؤلفها . وكل مقالة أو إشارة محكية على لسان قاص يقصها عن نفسه ويحكي فيها أوصافه . فقالة على لسان النسيم ، وإشارة على لسان الورد ، وأخرى على لسان النرجس ، وأخرى على لسان النيلوفر . وهلم جرا .

وقد مهد لها المؤلف بما مؤداه أنه تجول في الرياض ونظر في آفاق الكون فرأى أن الخالق جلت قدرته له في كل شيء آية تدل على أنه الواحد ، وتبرهن على حكمته وعظيم صنعته — فرأى أن ينطق بعض مخلوقاته معبرة عن خصائصها وأوصافها ، دالة بها على قدرة الخالق ، وفي ذلك عظات وعبر للمتفطنين المعتبرين .

فالغاية من الكتاب هي عظة الناس وبيان حكم الخالق . ولكن القارىء يجد روح الأديب — لا الواعظ — متمشية بين سطور الكتاب . ويجد روح المتخيل — لا المحقق — بارزة بادية فيها ولهذا قلنا إنه كتاب على نمط « نسيم الصبا » أو « نسيم الصبا » نمط منه .

ومن قصاصه : النسيم والورد والنرجس والاينوفر ، والأشجار والبنفسج ، والطاووس

---

١ ، ٢ — كتاب نسيم الصبا طبع أكثر من مرة ، ومنها طبعة عام ١٣٠٢ هـ ومعها كتاب « كشف الأسرار » في مجلد واحد . ولم نتفق بعد من نسبة هذا الكتاب الأخير إلى مؤلفه .

والخشخاش والبيغاء والبنفسج والسوسن وغير ذلك من ضروب الأزهار والأطيار ، يرد أحدها على من تقدمه .

وفصوله قصار كما أشرنا — يختم كلامنها بعدة أبيات شعرية فى المعنى ، أو يخلله بها . ونثره أربى من شعره . ونهجه فى أسلوبه النهج الأدبى البديعى المسجوع .

وإليك سطورا من أحد فصوله ، وهو مقالة النسيم ، قال :

« أنا رسول كل محب إلى حبيبه . وحامل شكوى كل عليل إلى طبيبه . إن استودعتُ سراً أديته كما استودعته . وإن حملت نشرا رويته كما سمعته . وإن صحبت مصحوبا انجذبت معه بلطافة إينامى . ومازحته بصفاء أنفاسى . فإن طاب طبت . وإن خبث خبثت . ثم إنى وإن صح بى العليل . وحيث خلات طاب بى المقيل . وإن تنفس المشتاق . توسوس العشاق . فأنا لين الأعطاف . هين الانعطاف . سريع الائتلاف . يعرف لطفى ذوو الألطاف . ولولا وجودى فى الجو لجاف » الخ . . .

الفصل الثالث

الموزانات والمفاخرات

الموازنة أو المفاخرة ، نعنى بها هنا ، مقالة مسطورة على نمط ما رأينا فى المقالات والرسائل غير أنها تفترق عن المقالة بأن موضوع الوصف فيها اثنان أو أكثر ، يتبادل الحديث عنهما أو منهما ، ويتناوب بالتتابع . وكثيرا ما يكون الحديث فيها حوارا ومناظرة على لسان الأداتين أو الشيئين اللذين هما موضوع الحديث والوصف . فيتكلم كل منهما عن نفسه مبينا إحدى محاسنه وخصوصياته ، ويشيد بها ويصفها وصفا جميلا مؤثرا ، هدفه الفخر والبروز والتغلب على خصمه وكثيرا ما يثنى بذكر بعض معايب خصمه ويبرزها للعيون مهتوكة مفضوحة ، وقد يقلب إحدى محاسن خصمه عيبا . ومن هنا وهنا تثور الحماسة ويندلع لهيب المفاخرة بين المتخاصمين . ويرد الآخر بدوره فيشيد بخصوصية أخرى من خصوصياته ويبالغ فى وصفها وإبراز محاسنها ، ويجمل فى تصويرها ، وينعى على زميله عيبا آخر من عيوبه . وهلم جرا . حتى تنتهى المفاخرة والحوار بمصالحة بين الطرفين ، أو بتغلب طرف على آخر .

ويبدو لك من هذا كله جملة من العناصر الأساسية التى تمتاز بها الموازنات من المقالات الوصفية ، فهى فضلا عن بنائها على الوصف ، تصب فى قالب من الحوار وتبنى على الفخر . فتتمشى الحماسة بين سطورها ، وينقلب أسلوبها إلى نمط من الأساليب الخطابية قوامه الدفاع والمجادلة والمحاجة وسوق البراهين ومحاولة التأثير والوصول إلى الكسب والانتصار . . . وفى سبيل ذلك قد تنقلب الحقائق ويزوق الباطل ويبهرج الزيف ويلذ الهجاء . كما تستطاب المبالغات وتروق التهويلات ويسرح

الخيال الشعرى سرحاته الممتعة ، ويعود بكل تصوير مبتكر وتعبير جميل .

ومن هنا ترى أن هذه الموازنات التى تعتمد على قوة الخيال وروعة التصوير ، تحتاج إلى ضروب بيانية تعينها على بلوغ غايتها ، منها : التشبيهات والمجازات والكنايات وأنواعها ، ومنها الاقتباسات والتلميحات وبراعة الاستهلال والتوريات ، إلى غير ذلك . وترى هذا واضحا فيما نعرضه عليك من سطور الموازنة بين السيف والقلم لابن نباتة .

انظر إلى قول القلم فى استفتاحه : « ن والقلم وما يسطرون » تلحظ ما فيها من حسن اقتباس وروعة استهلال ومراعاة نظير . وكذلك اقتباسه فى قوله : « يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا » . الخ .

وقوله : « سفير الملوك . وناشر درر الأفكار . وناقض حبل الأنس . واستر أنيابك وقت المكاشرة » . إلى أمثال ذلك ، تلحظ ما فيها من تشبيه ومجاز وكناية .

وقوله : « أنا للوصل وأنت للقطع . وأنا للعطاء وأنت للمنع . وأنا للصلح وأنت للضراب » تلحظ ما فيه من تورية وطباق ، إلى غير ذلك .

هذا إلى أن الموازنات تتحدث فيها الأدوات أو الأشياء بلسانها — كما أشرنا ، ومن هنا تبدو كأن فيها حياة كحياة الإنسان ، وتنسب إلى نفسها ما للإنسان من خصائص كالسمع والبصر والحلم والغضب ، والحب والرضا ، والعطف والصد ، والحركة ، إلى غير ذلك .

وموضوعات هذه المفاخرات تنتقى عادة من بين الأشياء المتناقضة التى تجمع بينها جامعة ما ، كفصول السنة ، والمدن والأقطار ، وأنواع الأزهار والفاكهة والأطيار ، ومختلف الحيوان ، والسيف والقلم ، والتراب والنار ، وضروب العلوم ، وألوان الطيب من مسك وكافور إلى غير ذلك مما يشبهه .

والموازنة أو المفاخرة ، بمعناها الأعم ، وباعتبارها بعض مظاهر النثر العربي ، وإحدى النزعات الحوارية الجدلية ، ظاهرة أدبية ، ترجع في وجودها إلى العصر الجاهلي ، حيث كان يتلاحى خطيبان ، ويتساب ندان ، يتفاخران ويتهاجيان ، ويذكران كرم الأصل والنجار ورعي الذمار ، والشجاعة والمغامرة والكرم ، وما إلى ذلك من الصفات النفسية الحميدة .

ويبدو أن هذه المفاخرات تطورت في العصر العباسي إلى هذا اللون الذي وصفناه آنفاً، وهو الموازنات الأدبية الوصفية . ولعل الجاحظ أسبق الأدباء إلى الكتابة فيها . فقد ورد في ثبت مؤلفاته أن له رسالتين إحداهما في الموازنة والمناظرة بين الربيع والخريف وتسمى «سلوة الخريف» . والثانية في المفاخرة بين المسك والرماد.[1]

وكذلك كتب الجاحظ جدلا بين صاحب الكلب ، صاحب الديك في كتابه « الحيوان » ، واقتدى به بعضهم مثل أبي العلاء المعري . وسرت العدوى إلى النقاد كالآمدي في موازنته بين البحتري وأبي تمام .

وانتقل هذا اللون الأدبي إلى بلاد الأندلس ، فأبدع الكتاب فيه ، ووسعوا آفاقه ، وناظروا بين الجمادات وبين الحيوانات وبين الأزهار ، وبين المدن الأندلسية . واشتهر منهم أبو بحر صفوان بن إدريس في عهد الموحدين بمناظرته بين مدن الأندلس[2] وابن برد الأكبر المتوفى عام ٤١٨ هـ بمناظرته بين السيف والقلم.[3] وعاونهم جمال بيئتهم وغناها بالمناظر الطبيعية على بلوغ غايتهم .

ومن ثم شرق هذا الغرض من جديد وأشرق . بعد ما غرب واغترب . فيمم

---

١ — انظر مقدمة كتابة (البيان والتبيين) .   ٢ — راجع نفح الطيب ج ١ ص ١٠٨ .

٣ — راجع ذخيرة ابن بسام ج ص ٤٩ . وهذه الرسالة ينسبها ابن بسام في المطمح إلى ابن برد الأكبر ، وينسبها ياقوت في معجم الأدباء ج ٢ ص ١٠٦ إلى ابن برد الأصغر — راجع النثر الفني لزكي مبارك ج ٢ ص ٢١٢ .

شطر مصر والشام فى زمان المماليك . فأدلى كتابيهما بدلوهما فى الدلاء ، وغنوا به خاطب الغناء .

وسنرى فى « باب القصص » من هذا البحث ، عند الحديث عن المقامات ، أن لجلال الدين السيوطى جملة من الموازنات والمفاخرات ، وذلك مثل مقامته الوردية وهى مناظرة بين جملة من الأزهار منها الورد والنرجس والياسمين . ومثل مقامته المسكية ، وهى مناظرة بين جملة من العطور منها المسك والعنبر . وغير هاتين المقامتين كثير بين مقامات السيوطى . وهى فى صميم الموازنات والمفاخرات ، ومن حقها أن تسجل هنا فى هذا الباب . غير أننا آثرنا الحديث عنها فى باب المقامات ، لما طبعت عليه من النهج المقامى ، وافتتاح كثير منها بحدثت فلان عن فلان ، وحفاظا على تسمية مؤلفها لها .

الموازنة بين النار والتراب :

على أن للسيوطى موازنة طريفة لا بأس من أن نشير إليها هنا . وقد سجلها فى كتابه « الكنز المدفون[1] والفلك المشحون » . وموضوعها مناظرة بين النار والتراب . وقد ساقها تحت عنوان : « فائدة فى بطلان شبهة دعوى إبليس خيريته على آدم » .

وهذا العنوان يوجهنا توا إلى ما عسى السيوطى أن يسوقه فى موازنته . فقد ذهب — على طول الخط — إلى تفضيل التراب على النار . وكان كل همه أن يبين ما فى النار وما لها من مفاسد ومضار وطبائع سيئة وأن يشير إلى ما فى التراب وماله من محاسن وطبائع راضية .

---

١ — هذا الكتاب منسوب للسيوطى ، وتحتاج نسبته إلى بحث وتحقيق ، على أن السمة الغالبة عليه هى الجمع وإن كان كثيرا ما يشير إلى الموضع الذى نقل منه . وفى هذه الموازنة لم يشر إلى شىء من ذلك ، لهذا نرجح أنها من إنشائه واختراعه .

على أن أسلوب السيوطى هنا — فى هذه الموازنة — لم يسلك النهج البديعى ، ولم يعن فيه بأناقة التراكيب ، بل كان أسلوبا ضئيلا واهيا ، المثونة تصبغه صبغة منطقية . ثم إنه لم يعقدها محاورة ومفاخرة بين المتناظرين ، بل تحدث عنهما ، وأورد الفروق بينهما فى فقرات فرقة بالأول والثانى والثالث وهلم جرا . حتى بلغت الخامس عشر

ولو أنه سلك فيها مسلكه فى موازناته ومحاوراته ومقاماته السالفة لكان أمتع وأروع وأجمل وأفضل .

ونسوق هنا فقرات منها للاستدلال : قال :

« الثانى عشر : أن الله تعالى جعل الأرض محل بيوته التى يذكر فيها اسمه يسبح له فيها بالغدو والآصال عموما ، و بيته الحرام خصوصا ، الذى جعله قياما للناس مباركا وهدى للعالمين . فلو لم يكن فى الأرض إلا بيته الحرام ، لكفاها ذلك شرفا وفخرا على النار .

الثالث عشر : أن الله تعالى أودع الأرض من المعادن والأنهار والعيون والثمرات والحيوانات والأقوات والجبال والرياض والمراكب البهية والصور البهيجة ، مالم يودع فى النار شيئا منها فأى روضة وجدت فى النار ، أو معدن أو صورة أو عين جرارة ، أو نهر مطرد ، أو ثمرة لذيذة ؟

الرابع عشر : أن غاية النار أنها وضعت خادمة لمن فى الأرض . فالنار إذن محلها محل الخادم لهذه الأشياء . فهى خادمة فقط إذا استغنيت عنها أبعدتها وطردتها . وإذا احتجت إليها استدعيتها كما يفعل المخدوم مع خادمه

الخامس عشر . إن اللعين لقصور نظره وضعف بصيرته ، رأى أن صورة الطين تراب ممتزج بماء ، فاحتقره ولم يعلم أن الطين مركب من أصلين : الماء الذى جعل الله تعالى ، كل شىء منه حيا ، والتراب الذى جعله الله خزانة المنافع والنعم . هذا ،

وكم يجىء من الطين من المنافع والأمتعة ، فلو تجاوز نظره إلى بدايته ونهايته لرأى أنه خير من النار وأفضل . ثم لو سلم بطريق الفرض الباطل أن النار خير من الطين ، لم يلزم من ذلك أن يكون المخلوق من الطين . فإن القادر على كل شىء يخلق من المادة المفضولة من هو خير ممن خلقه من المادة الفاضلة ، فاعتبار بكمال النهاية ، لا بنقص المادة . فاللعين لم يتجاوز نظره محل المادة ولم يعبر منها إلى كمال الصورة ، ونهاية الخلقة . والله أعلم . » .

الموازنة بين السيف والقلم :

ومن أشهر الموازنات : الموازنة بين السيف والقلم ، لجمال الدين بن نباتة المصرى . وهى رسالة طويلة لامعة السطور متألقة المعانى . جمعت فأوعت الكثير من أوصاف السيف والقلم وتشبيهاتهما ، سواء من ذلك ما يتصل بحجمها أو أصلهما أو عملهما أو آثارهما ، ونحو ذلك ، تارة على سبيل المدح ، وتارة على سبيل القدح والمغالطة .

ويبدو أن ابن نباتة كتب هذه المحاورات اللطيفة الممتعة بين هاتين الأداتين — وهما ماهما فى تشييد الدول وحفظ كيان الممالك — فى إحدى لياليه أيام كان بحماة فى حمى الملك المؤيد اسماعيل أبى الفداء صاحبها . وذلك لتكراره ذكر هذا الملك فى خلال سطورها ، ولتوجيه المدح إليه فى أكثر من مناسبة ، وبخاصة فى أواخر الرسالة بعد ما اصطلح الخصمان لأنهما عضدان لهذا الملك فى تدبير ملكه ، وتراضيا على أن يحكماه بينهما . وبخاصة لأنه أوتى الكثير من الحكمة وحسن الرأى .

ويبدو أيضا أنه كتبها فى إحدى لياليه الهادئة ، فسرح فيها خيال فكره ، وسرى تيار خاطره ، وأسرى جواد عاطفته ، وتلك حالة — لعمرى — تتجرد فيها الروح ويتسع مدى إلهاماتها حتى تدنو من حالات الوحى . . . والجوارح وسنى راكدة .

ولهذا قال ابن نباتة فى أعقابها : « وانتبه المملوك فى سنة فكره : وطالع بما اختلج سواد حدقة الليلة فى سريرة » . وكان أولى أن يقول « فى يقظة فكره » .

وتقع هذه الموازنة الطويلة فى نحو ثمانى عشرة . وتتكون من ستة فصول . منها ثلاثة على لسان القلم ، وثلاثة على لسان السيف . يتخلل كلا منها أو يختمه بيت أو أكثر من الشعر ، مناسب فى المعنى . ومن هنا يبدو لنا طول كل فصل منها على حدة . وهذا دليل ضمنى على طول تفنن الكاتب وسعة أفقه وتدفق المعانى وانثيالها على لسانه ، فضلا عن طواعية العبارات لقلمه .

وقد كان القلم هو البادىء بالعدوان والمنافرة . ثم رد السيف عليه ، فأجابه القلم وهلم جرا . وكان الكاتب يصل كل فصل بالذى يليه بعدة عبارات تتضمن مجمله مشيرا إلى أثره المنتظر .

وحينما بدأ القلم ، خطب خطبة مهد بها لحديثه . وتلك الخطبة على نسق ما شهدنا فى خطب الرسائل ، تحتوى على حمد الله والصلاة على نبيه الكريم . والطريف هنا ، الدقة فى اختيار ألفاظ الاستهلال ، وفيها من حسن المناسبة ورعاية النظير وجمال التوجيه ما يشعرك بذوق أصيل وأدب جم . فقد بدأها بقوله :

« بسم الله الرحمن الرحيم . ن والقلم وما يسطرون ، ما أنت بنعمة ربك بمجنون » الحمد لله الذى علم بالقلم . وشرفه بالقسم : وخط به ما قدر وقسم . » وهكذا ترى جملة من الاقتباسات من آى القرآن الكريم ، ومن الحديث الشريف لتتناسب مع المقام وتعين على الحجة ، وتقوى عند الجدال . وتدحض مزاعم الخصم .

وأخذ القلم بعد خطبته يشيد بمناقبه ويزعم لنفسه محامد لا قبل للسيف بها . فهو سفير الملوك وأداة لإطلاق الأرزاق . وعون للدولة ووسيلة العلم وراقم الأدب والمعانى ، وناشر درر الأفكار ، ولا يستغنى عنه فى سلم أو حرب . . إلى غير

ذلك مما لا ينبغي لنظيره مفاخرته به .

فهب السيف يذود عن نفسه ويرد عادية القلم ، وهو بذلك جدير ، وأشاد بصفاته ، وأشار إلى أن الله جعل الجنة فى ظلال السيوف . وأن السيف سبيل إلى إحقاق الحق وهو صديق الفارس ، ومعين الشجاع على بلوغ أمنيته ، وحاسم النزاع بين الدول ، والوسيلة إلى الفتح والانتصار ، والعمدة في بلوغهما . وأيد كلامه بآي كلام الله . وابتدأه بخطبة على نسق خطبة القلم استهلها بقوله : « بسم الله الرحمن الرحيم . وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس » . وفي ذلك ما فيه من رعاية المناسبة ، وتقوية الحجة ومجاراة الخصم فى نوعها ، ومعالجته بألوان أسلحته .

وما إن انتهى السيف من مقالته حتى حمى وطيس الجدل ، واحتدمت حماسة القول ، وأخذ يسب السيف سبا صراحا ، ويرميه بكل جارحة ومحرجة ، ويصفه بأنه للقطع والمنع ، ولا يصلح للوصل والعطاء . وأنه أداة للمخاصمة لا المصالحة ، ووسيلة إلى الدمار لا البناء . . إلى غير ذلك من مساوىء السيف .

فكال له السيف الصاع صاعين . وهكذا تبادلا الذم وتقارضا العيب ا فى حماسة وتيه ، وفى اعتزاز وكبرياء . ومازالا ، حتى رأى القلم نفسه مضطرا إلى التلطف فى الحديث ، والترفق فى القول ، وتلمس سبيل الصلح وطلب الصفح ، وإن لم يكف جملة عن المحاورة والمفاخرة .

وأخيراً طلب القلم إلى السيف أن يتحاكما فيما شجر بينهما إلى رب السيف والقلم ، وهو الملك المؤيد اسماعيل صاحب حماة . . . فقبل السيف هذا الطلب فى شىء من التواضع ، نظرا إلى مكانة سيدهما ، وماله من حول وطول ، وما به من تجربة وخبرة وحنكة ، وما اتصف به من عدل وإنصاف . . .

هذه خلاصة وجيزة لتلك الرسالة الفريدة . وقد جرى واضعها فى نظمها على

الأسلوب البديعي المسجوع الذي تتراوح فقراته بين الطول والقصر ، المعتمد على ألوان البيان ، وأصباغ البديع . واستطاع أن يخوض بهما فيضا من المعاني لا نرتاب في أن كثيرا منها مبتكر جديد . ونعتقد أنه ألم بأغلب ما يتصل بهما بين الأداتين النافذتين من معان ، سواء أكانت تتعلق بمدحهما أم بصناعتهما أو بآثارهما في حياة الدولة والمجتمع . وليست المسألة موضوعا إنشائيا على نمط ما نشاهده في دور تعليمنا في العصر الحديث ، بل مسألة بيانية ذات أصول فنية مرعية في الأسلوب ، ومسألة فكرية قوامها حسن التصور ودقة التصوير ، مع الحنكة والمقدرة في استعمال الألفاظ التي تسبغ على معانيها الأصلية مددا واسعا من الظلال المعنوية يجعلها أثبت لونا وأبهى بريقا .

وكنا نود لو وازنا بين هذه الرسالة وأشباهها من رسائل السيف والقلم ، لولا أن هذه الموازنة خارجة عن نطاق بحثنا .

وننقل هنا سطورا مما قاله كل من القلم والسيف ، نجتزئ بها في مقام الاستدلال . وهي من الفصلين الأوسطين ، إذ هما أكثر الفصول احتداما واضطراما ، وأملؤها بقذائف الهجاء :

قال ابن نباتة يصف حال القلم حينما سمع كلام السيف وفخره عليه :

« فلما وعى القلم خطبته الطويلة الطائلة . ونشطته الجليلة الجائلة . وفهم كنايته وتلويحه . وتعريضه بالقلم وتصريحه . وتعديله في الحديث وتجريحه . استغاث بالافظ النصير . واحتد وما أدراك ما حدة القصير . وقام في دواته وقعد . واضطرب على وجه القرطاس وارتعد . وعدل إلى السب الصراح . ورأى أنه إن سكت تكلم ولكن بأفواه الجراح . فانصرف إلى السيف وقال :

« أيها المغتر بطبعه ، المغتر بلمعه . الناقض حبل الأنس بقدمه . الناسخ بهجيره من ظلال العيش فيئا . السراب الذي يحسبه الظمآن ماء ، حتى إذا جاءه لم يجده شيئا .

الحبيس الذى طالما عادت عليه عوائد شره السكن . الإبليس الذى لو أمر لى بالسجود ، لقال : « خلقتنى من نار وخلقته من طين » . أتعرض بسبى ؟ وتتعرض لمكايد حربى . ألست ذا الخدع ؟ والحرب خدعة والمتن النافعة ولا خير فيمن لا تبغى الأنام نفعه . ألستُ المود الأحق بقول القائل :

نفس عصام سودت عصاما وعلمته الجود والإقداما

أتفاخرنى وأنا للوصل وأنت للقطع . وأنا للعطاء وأنت للمنع . وأنا للصلح وأنت للضراب . وأنا للعمارة وأنت للخراب . وأنا المعمر وأنت المدمر . وأنت المقلد وأنا صاحب التقليد . وأنت العابث وأنا المجود ، ومن أولى من القلم بالتجويد . فما أقبح شبهك وما أشنع يوما ترى فيه العيون وجهك . أمثلى مثلى يشق القول ويرفع الصوت والصول . وأنا ذو اللفظ المكين . وأنت ممن دخل تحت قوله تعالى « أو من ينشأ فى الحلية وهو فى الخصام غير مبين » . فقد تعديت حدك . وطلبت مالم تبلغ به جهدك . هيهات ! أنا المنتصب لمصالح الدول وأنت فى الغمد طريح . والمتعب فى تمهيدها وأنت غافل مستريح . والساهرُ وقد مهد لك فى الغمد مضجع . والجالس عن يمين الملك ، وأنت عن يساره ، فأى الحالتين أرفع . والساعى فى تدبير حال القوم . والمفنى لنفسهم العمر إذا كان نفعك يوما أو بعض يوم . فاقطع عنك أسباب المفاخرة ، واستر آتيابك عند المكاشرة . فما يحسن بالصامت محاورة المفصح . والله يعلم المفسد من المصلح . على أنه لا ينكر لمثلك التصدى . ولا يستغرب منه فعل مثلى التعدى ، فما أنا أول من أطاع البارى ، وتجرأت عليه ، ومددت يد العدوان إليه . أو لست الذى قيل فيه :

شيخ يرى الصلوات الخمس نافلة ويستحل دم الحجاج فى الحرم

قد سلبت الرحمة وإنما يرحم الله من عباده الرحماء وحلت القوة فكم هيجت فتنة حمراء وأثرت دهماء وخشنت الوجوه وكيف لا وأنت كالظفر كونا وقطعت الأرحام

ولم لا وأنت كالصبح لونا . أين بطشك من حلمي . وجهك من لمعي . وجسمك من جسمي .

شتان ما بين جسم صيغ من ذهب   وذاك جسمي وجسم صيغ من يبق

أين عينك الزرقاء من عيني الكحيلة . ورؤيتك الشنعاء من رؤيتي الجيلة . أين لون الشيب من لون الشباب . وأين نذير الأعداء من رسول الأحباب . هذا وكم أكلت الأكباد غيظا . وحملت الأضغان قيظا . وشكوت الصدأ فسقيت ولكن بشواظ من نار . وأخذت عليك الأيام حتى انتعل بأبعاضك الحار . ولولا تعرضك إلى لما وقعت في المقت ولولا إساءتك لما كنت تصقل في كل وقت . فدع عنك هذا الفخر المديد . وتأمل وصفى إذا كشف عنك الغطاء ، فبصرك اليوم حديد . وافهم قول ابن الرومى :

إن يخدم القلم السيف الذى خضعت   له الرقاب ودانت خوفه الأمم

فالموت والموت لا شىء يعادله   ما زال يتبع ما يجرى به القلم

بذا قضى الله فى الأقلام إذ بريت   إن السيوف لها مذ أرهفت خدم »

قال ابن نباتة :

« فعند ذلك وثب السيف على قده . وكاد الغضب يخرجه عن حده . وقال :

« أيها المتطاول على قصره والماضى على طريق غروره . والمتعرض منى إلى الدمار . والمتحرش بى فهو كما تقول العامة « ذنبه قش ويحارس بالنار » . لقد شمرت عن ساقك حتى أغرقتك الغمرات . وأتعبت نفسك فيما لا تدرك ، إلى أن أذهبها التعب حسرات . أو لست الذى طالما أرعش السيف للهيبة عطفك . ونكس للخدمة رأسك وطرفك . وأمر بعض رعيته وهو السكين ، فقطع قفاك وشق أنفك . ورفعك فى مهمات خاملة وحطك . وجذبك للاستعمال وقطك . فليت شعرى ! كيف جسرت . وعبست على مثلى وبسرت . وأنت السوقة وأنا الملك . وأنا الصادق وأنت المؤتفك . وأنت لصون

الظلام وأنا الصون المالك . وأنت لحفظ المزارع وأنا لحفظ المسالك . وأنت للفلاحة وأنا للفلاح . وأنت حاطب الليل من نفسه ، وأنا سارى الصباح . وأنا الباصر وأنت الأرمد . وأنا المخدوم الأبيض وأنت الخادم الأسود . وأقسم بمن صيّر فى قبضتى أنواع اليمن المسخرة . وجعل شخصك وشخصى كقوله تعالى « وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة » . أملك عن بلوغ قدرى لأذل رتبة . وعن برى كفى لأخيب طلبة . فإنى لا أنكر قول بعض أربابك حيث قالوا :

أف لرزق الكتبة . أف له ما أصعبه
يرتشف الرزق به . من شق تلك القصبة
يا قلما يرفع فى الطرس لوجهى ذنبه
ما أعرف المسكين إلا كاتبا ذا متربة

إن عاينت الديوان وقعت فى الحساب والعذاب . أو البلاغة سحرت ومالفت فأنت ساحر كذاب . أو فخرت بتقييد العلوم فمالك منها سوى لمحة الطرف . أو برقم المصاحف فإنك تعبد الله على حرف . أو جمعت علما فإنما جمعك للتكسير . أو رفعت إلى طرفك رجع البصر خاسئا وهو حسير . وهل أنت فى الدول إلا خيال تكتنفى المدم بطيفه . أو أصبع يلعق بها الرزق إذا أكل الضارب بقائم سيفه . وساع على رأسه فلما أجدى . وسار ربما أعطى قليلا وأكدى ثم وقف وأكدى . أين أنت من حظى الأسنى وكفى الأغنى . وما خصصت به من الجوهر الفرد إذا عجزت عن العرض الأدنى ؟ كم برزت فما أغنيت فى مهمة . وكم خرجت من دواتك لتسطير سيئة فخرجت — كما قيل — من ظلمة إلى ظلمة . وهب أنك — كما قلت — مفتوق اللسان . جرىء الجنان . مداخل بتخليك بين ذوى الاقتناص . معدود من شياطين الدول وأنت فى الطرس والنقس بين بناء وغواص . فلو جريت خلفى ، إلى أن تحفى . وصحت بصريرك إلى أن تحفت وتخفى . فما كنت منى إلا بمنزلة المدرة من السماك الرامح . والبعرة على تيار

الخضم الطافح . فلا تمدّ نفسك بمعجزى فإنك من يمين . ولا تّحلف لها أن تبلغ مداى ، فليس لمخضوب البنان يمين . ومن صلاح نجمك أن تعترف بفضلى الأكبر . وتؤمن بمعجزتى التى بعثت منك إلى الأسود والأحمر . لتستوجب حقا . وتسلم من نار حر تلظى لا يصلاها إلا الأشقى وإن لم ينتضح لرأيك إلا الإصرار . وأبت حصائد لسانك إلا أن توقعك فى النار . فلا رعى الله عزائمك القاصرة ولاجمع عقارب ليل نفسك التى إن عادت فإن نعالَ السيوف لها حاضرة . .

ثم قطع الكلام وتمثل بقول أبى تمام :

السيف أصدق أنباء من الكتب ‏ ‏ ‏ ‏ فى حده الحد بين الجد واللعب
بيض الصفائح لا سود الصحائف فى ‏ ‏ ‏ ‏ متونهن جلاء الشك والريب »[1]

هذان فصلان من فصول هذه الرسالة القيمة ، نجتزىء أمام القارىء بعرضهما وبعد ! فلله در ابن نباته ودر بنانه ! لقد كتب بقلمين مختلفين ، وضرب بسيفين متنافسين ، وتكلم بعاطفتين متناقضتين ، ومزج بين فنين متضاربين . .

وحسبنا هذا فى الحديث عن الموازنات ، مشيرين إلى أن :

١ — للقلقشندى موازنة بين السيف والقلم — فى كتابه صبح الأعشى ج ١ ص ٢٣١ .

٢ — وله أيضا مفاخرة بين العلوم — فى كتابه صبح الأعشى ج ١٤ ص ٢٠٤ .

٣ — ولابن الوردى موازنة بين السيف والقلم — انظر ديوانه ص ١٥٨ .

٤ — وقيل إن لشمس الدين البساطى المتوفى عام ٨٤٢ ﻫ ، رسالة المفاخرة بين مصر والشام — راجع ترجمته فى الضوء اللامع .

٥ — مفاخرة بين فصول العام ، فى كتاب نسيم الصبا لابن حبيب الحلبي ص ٩ .

---

١ — الرسالة بتمامها فى خزانة الأدب لابن حجة الحموى ص ١٠٣ وما بعدها — باب التنابر

الفصل الرابع

المجونيات

ومالنا لانعقد للمجونيات فصلا مستقلا ، ومن حقها أن يعقد لها فصل .. وقد كان العصر عاجا بضروب من المجون كثيرة . ولا ريب أن يكون لذلك فى الأدب رجع . والعصر قد فاض بأرقاء الغلمان والجوارى الحسان الذين ملئوا الدور وزينوا القصور ، وتعهدوا الأكواب ، وأطابوا الشراب . وأقبل كثير من أهل الطبقة الحاكمة على اللهو والعبث ، كما أقبل الشعب البائس على ملاهيه ، لينسى فى أعماقها همومه وأشجانه ، ويتسلى عن حرمانه . وانتشرت أماكن اللهو هنا وهناك ، حتى أشفق بعض العلماء والسلاطين منها ، وأقدم بعضهم — كالظاهر بيبرس — على الأمر بكسر بواطى الخمور وإراقتها ، وكبس أماكن الحشيشة وإحراقها ، ومصادرة الزناة واللاأنطين ..

كان هناك إذن مجون ، وكان عشق وهيام بالجوارى والغلمان . وكانت هناك مجالس شراب ، وليالى أنس وسماع . . . وكان لذلك أيضا صداه فى الأدب شعره ونثره . (١)

وحمل الشعر من ذلك ، العبء الأوفى . وشاركه النثر مشاركة محمودة . نعرض بعضها مسجلين شيئا من مظاهره ، لما أسبغ عليه من ثوب الوصف .

وقد أشرنا من قبل ، إلى شىء من ذلك المجون ، عندما تحدثنا عن « الاستدعاءات » فى فصل « الرسائل الإخوانية » . ورأينا كيف كان أديب يستدعى صديقا له برسالة

---

١ — فى كتاب (حلبة الكميت للنواجى حكايات لطيفة : تدل على مدى انغماس أهل العصر فى المجون والشراب .

وغيقة إلى مجلس شراب أو ليلة أنس يغريه فيها بضروب الإغراء ، ويصف له ما أعده من وسائل اللهو واللغة والطرب . وستصادفك مواضع أخرى .

وكنا نود أن نثبت نماذج هذا الفصل ، من « المقالات » لولا هذه الخصوصية التى امتازت بها الجونيات ، فجعلت لها سمتا آخر ، وشأنها فى ذلك شأن الألغاز .

أدب المنادمة والنديم :

ونستهل نماذج هذا الفصل بأن ننقل إلى القارىء الكريم شيئا مما قيل فى أدب المنادمة والنديم ، لشدة صلته بهذا الباب .

فقد قال الأديب الألمعى تقى الدين بن حجة ، فى كتابه « تأهيل الغريب » يتحدث عن آداب النديم :

« يجب على النديم أن يكون حسن البزة ، نبيل الهمة ، مستوى الذيول ، وأطراف الأكمام ، نظيف الخفى من الملبس كالسراويل والتكة والجورب ومنديل الكم . فإذا كملت فيه هذه الخصال ، كان قريبا من القلوب سهلا على الأرواح . وإذا لم تدر كئوس المدام أسكرهم براح[1] المحاضرة . وأنسام الهموم بحسن المذاكرة . » .

وقال :

« ومما يجب على النديم أنه إذا كان بين يدى الملوك أو غيرهم من الأعيان أن يحترس من التمدد والتمطى والتثاؤب والتنخم والبصاق وتحريك اليدين وفرقعة الأصابع واللعب بالخاتم والعبث باللحية والعمامة والفاكهة والرياحين والأزهار والتناول للشمامات والإكثار من النقل بعد الشراب . ولا يرمى بثفل ما يمتصه بحيث يرى ، ولا يعض الفاكهة نهشا ، بل يقطع منها حاجته بالسكين . ولا يكترث . ولا يكثر من شم الريحان

---

١ — فى الأصل « مزاج » فرجحنا أن تكون « براح » وهو أنسب .

ولا من إدارة اليد فيه ، ولا يقطع ز و بينه ولا ينفضه عند أخذه . وليكن شربه مصا وكرعه جرعا . ولا يشرب من الشراب مالا يطيق ، فيزول عقله ، وليأخذ لنفسه مايعلم أنه يقوم به . ولا يقترح صوتا ولا يظهر الطرب ، ولا يبدو منه هزل إن ناوله الساقى قدحا . وإذا أحس بنفسه سكرا أسرع القيام والانصراف وهو يملك نفسه . ولا يلمس يد غلام عند مناولة الكأس . ولا يكثر من ملاحظته عند معاطاته الراح . ولا يشير إليه ولا يغمزه . »[1].

وهذه — لعمرى — آداب مجتمع راق . .

تدبير استعمال الشراب :

ونقل ابن حجة أيضا فى كتابه « تأهيل الغريب » كلمة من كتاب « الموجز » لعلاء الدين بن النفيس فى تدبير استعمال الشراب ، قال :

« جيد الشراب ما طاب طعمه . وعطرت رائحته . وصفا لونه . واعتدل قوامه . والعلامة الجيدة للشراب أنه إذا ترك المقدار القليل مدة طويلة لم يفسد . وبقدر طول المدة تعرف الجودة . والرقيق اللطيف أسرع إسكارا وتحللا ، والغليظ أبطأ إسكاراً وتحللا ، وأدوم خمارا . لكنه يسمّن ، وخصوصا الحلو . وليكن من تسديده على حذر .

ويُختار للشاب والمحرورين الأبيض المزوج الكثير الماء . وللمشايخ الأصفر القوى المزاج . والأحمر يغذى ، يسمن . وإنما يستعمل الشراب عند انحدار الغذاء من المعدة . وأما فى خلال الأكل أو عقيبه فضار ، لتنفيذه الغذاء على فجاجته . على أن المعتاد به قد ينتفع باستعمال ما يعين على الهضم لا بمقدار ما يقوى على التنفيذ .

---

١ — عن باب (الاستدعاءات والنديم) من كتاب (تأهيل الغريب) لابن حجة ، مخطوط بدار الكتب المصرية . ويبدو أن ابن حجة نقل عن حلية الكميت ـ الفصل الخامس ـ

«ما دام السرور يتزايد ، واللون يحسن ، والبشرة تلين ، والجلد يربو ، والحركات في نشاط ، والذهن في سلامة ، فلا تخف من إفراط

فإن أخذ النعاس يغلب ، والغثيان يقوى ، والبدن والدماغ يثقلان ، والذهن يتشوش ، والحركة تسترخي ، فقد وجب الترك وحينئذ يجب القيء . والقيء على قليل منه ردىء ، لأنه يغصب من البدن ما ينفعه .

والشرب بالأقداح الصغار خير من الكبار . وينبغي أن يحف مجلس الشراب بالمنظر اللذيذ من الأزهار والمحبوبين من الناس . والأعراف الطيبة والسماع المطرب . ويرفع كل ما يغم ويقبض النفس كالوسخ والصنان ، واللباس القذر . ويلبس المشرق ، وتسرح اللحية وتقلم الأظفار .

وليكن المجلس مشرقاً فسيحاً بقرب المياه الجارية مع الظرفاء من الأصدقاء ، وذلك لأن الشراب يحرك قوى النفس ، ويثير كل شهوة . فإذا لم تجد كل قوة مطلوبها تأذت وانقبضت ، فلا تقبل النفس على الشراب كل القبول ، ولا تتصرف فيه التصرف الواجب فيقل نفعه ، وربما فسد فكان شره أكثر من نفعه[1] » الخ

وصف غلام :

قال بدر الدين بن حبيب الحلبي يصف غلاما :

بينما أنا جالس في بعض الحدائق . وحولي رفقة هذبتهم الحقائق . وحسنت منهم الأخلاق بين الخلائق . مر بنا غلام . يخجل بدر التمام . من بني الأتراك ، الناصبين مصائد الأشراك . بديع الجمال . أين منه الغزالة والغزال ، لطيف الشمائل ، يختال بين

---

١ — عن باب (تدبير استعمال الشراب) من كتاب (تأهيل الغريب) لابن حجة مخطوط بدار الكتب المصرية .

ع الخمائل . تمتد لرؤيته من الزهور الأعناق . وتبشر الغصون حياه منه بالأوراق . وهو ممتط صهوة جواد أشهب . لا يبلغ البليغ جهير وصفه لو أسهب »

ساحر الطرف وافر الظرف أحوى　　خده الأبيض الجبين مذهب

لا تلمنى على اعتقادى هواه　　مذهب الوجد فيه أحسن مذهب

غدا حاذى مثوانا . حيانا فأحيانا . فتلقيناه بالترحاب . ودعوناه فأجاب . فحصلناه من حضوره على المقصود . وتحققنا أن يومنا بمشاهدته مشهود . فأطلت فى محاسنه نظرى . وأجلت فى ذاته وصفاته فكرى . فإذا له :

ذؤابة تذيب المهج . وتدرج فى حبائلها من دب ودرج . ظلها وارف . وظلامها عاكف . تسلب العقول بالأثيث الأثيل . وتسهر العيون فى ليلها الطويل . حندسية المذهب . غزيرة الفضل والأدب .

إذا ما تثنى للسلام مليكها　　على أحد دارت وقبلت الأرضا

ووجه وسيم . تعرف فيه نضرة النعيم . يفوق سنا القمر . له خفير من الخفر . رقيق البشرة . تحار عند أسفاره السفرة . نزهة المشتاق . ومرآة لوجوه العشاق :

يحيا به المقتول يحيا وكم له　　على وجنة العانى من الدمع جعفر » الح [1]

وصف جارية :

وقال بدر الدين بن الحبيب الحلبى أيضا يصف جارية كان صاحب له منها على ميعاد مع جمع من رفاقه :

« أقبلت من الباب . خود تختلس الألباب . غادة رءود طفلة أملود كاعب رداح . ترتاح لها الأرواح . عديمة المثال . نشأت فى حجر الدلال . يسرح الطرف فى

---

١ — من نسيم الصبا الفصل الثامن

روض جمالها وينتزه ، وتعجز بكثير محاسنها البديعة ذكر عزة في حليها وحللها تميد وتميل وبالجملة فهي بثينة الحسن لأن وجهها جميل . فوقفت واستأذنت ثم سلمت وجلست . فسر الجماعة بورودها . وعلوا من جنة وجنتيها بورودها وأقبل بعض إقبالهم وأنشد لسان حالهم :

أهلا وسهلا بها من غادة سمحت — بالوصل ليلا ولم تحذر من الحرس

لما تبدت أضا الداجي ولا عجب — فطرة الصبح تمحو آية الغلس »

الخ (١) .

وصف معشوق وساعة وصال :

قال الصفدي يصف غلاماً عشقه بين أتراب له من ظباء الترك ويذكر توطبه به :

« فبدا بينهم ظبي كأنه بدر سافر أو غزال نافر . فاقهم حسنا وظرفا . وفاتهم رشاقة ولطفا قد تقمص بالحسن وارتدى بالجمال . وتسربل بالغنج وتمنطق بالدلال . إن تبدى أنكرت البدر في تمامه . أو تثنى لم تعرف الغصن من قوامه وربما لم تدر أسحر بدا أو نصال . أو التفت لم تذكر بعدها جيد الغزال قد أسهر العشق بطرفه الوسنان . وفتن الرامق بقده الفتان . وأطار الفؤاد على مائس غصن قده . وأهى جلد الكئيب المستهام بحل عقدة بنده »

من الترك لو عاينت ذلي وعزه — لعاينت مولى لا يرق لعبده

أحب التفات الظبي حبا لجيده — وأعشق غصن البان حبا لقده

رعى الله هاتيك الشمائل إنها — لسانة من يهوى وغاية قصده

---

١ — عن نسيم الصبا (النص لحادي عشر)

أيا سقمي أعياك رقة خصره ويا جلدي أوهاك عقدة بندو.

فحين رأيته حطف قلبو وأضعف صبري وضاعف كربي . وتهت في مهالك الوجد ومهامه الغرام . وبت أتفكر في لطف هاتيك الشمائل وهيف ذلك القوام وحرت عن معاينة هاتيك العيون الرواشق . وهمت في رقة ذلك الخصر وقراطق المناطق . وشغلني الهوى عن التماسك والتقية ، وقادني الوجد والغرام قود المطية . وملت بعد الراحة إلى التعب . وبعد الترفه إلى الشقاء والنصب . ووقفت في مصايد مصائب توسواس . وهونت ما كنت أستصعبه من لوم مناس . وجريت في مجال ميدان التصابي كالصبا . وذهبت في مناكب العشق مذهبا » . . الخ

وما زال الصفدي يصف عشقه وولهه ، ويجيد في استعطاف معشوقه واسترقاقه ، حتى استطاع أن يلينه ويعطفه نحوه ، فظل يشكو له غرامه وهيامه حتى وصل إليه فقال :

« فضممته إلى صدري ضمة وأي ضمة . وبادرته بلثمة بعد لثمة . فسلم إلي في اللثم وفي الرشف قيادي وأبلغني من الضم والقبل مرادي . وقال : أبحتك نفسي هذه الجلسة . وسلمتك أمري هذه الخلسة . فدس ما استطعت أن تبوس . وأزل بالعناق مابك من عناء وبوس . فبادرت في امتثال أمره ، وتنقلت من برد ثغره ونجد ردفه إلى غور خصره :

ياطيب يوم ظلت فيه معانقا	من أشتهي قد كان يوما أزهرا
واصلت فيه معذبي ولثمته	ألفا على وجناته أو أكثرا
ويعز ، والله العظيم ، علي أن	أصف الذي قد كان مني أوجرى »

. . الخ [1] .

---

١ — راجع لوعة الشاكي للصفدي.

رشف الزلال من السحر الحلال :

هذا عنوان مقامة من مقامات الجلال السيوطي . أو هي عشرون مقالة مختلفة بين الطول والقصر ، وتبلغ أطولها ستين سطرا . كتبها السيوطي على لسان عشرين عالما يختلفون فيما تخصصوا فيه وهم : المقرىء والمفسر والمحدث والفقيه والأصولي والجدلي واللغوي والنحوي والصرفي ، وصاحب المعاني ، وصاحب البيان ، وصاحب البديع ، والعروضي ، وصاحب الحساب ، وصاحب الهيئة ، والكاتب ، وصاحب الميقات ، والطبيب ، وصاحب المنطق . والصوفي .

وموضوعها أن يحدث كل عالم منهم زملاءه عما شاهده ليلة زفافه موريا بمصطلحات علمه . . . !

والموضوع دقيق — كما يرى القارىء الكريم — فيه حروجه ودقة . ولامناص لسالك طريقه من الانزلاق في المجونيات ، والخوض في الأدب المكشوف على رغم التوريات والتلميحات ومن حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه . . وهكذا انزلق السيوطي — رحمه الله — إلى هذا الضرب من الأدب الماجن ، الذي يتنافر كل التنافر مع ما عرف عن السيوطي من زهادة وتقوى وجد . ولكن السيوطي أديب . والأديب طروب . والنفس توافة إلى الترويح بشيء من المزاح ، يرفه عنها الأتراح ، ويجلب لها الأفراح ، ولو بحديث يجرى على الشفاه ، لا يلوث الجباه . . . وهكذا كتب السيوطي مقامته أو مقالته تلك . بحسن نية — كما ذكر في صفحتها الأولى . . ونحن من ناحيتنا لا نشك أن السيوطي أراد بها أن يستكمل نواحي فنونه الأدبية ونواحيه العلمية معا لأن عقليته — في الحق — أو نفسيته ، كانت موسوعية أو دائرة معارف ، تضرب في كل فن وعلم بسهم .

والمقامة المذكورة دليل جديد على حسن اتصال السيوطي بشتى من علوم وفنون

ووقوفه على مؤلفاتها وألفاظها الاصطلاحية . واقتداره أن يورى بعدد منها وهذا ضرب من التوجيه البديعى .

على أننا — ونحن دائما نطمع فى الكمال — كنا نود لو أن السيوطى أطال فى هذه المقامة أو المقالات، وأكثر من استخدام مصطلحات الطب والحساب والهندسة، إلى غير ذلك من علوم كونية. مع العودة إليها لشرحها والإشارة إلى معانيها — كما فعل ذلك فى بعض مقاماته الآتية بعد — إذن لكان من ذلك ثروة لغوية أى ثروة، فنستطيع الاستمداد منها فى النهضة العلمية والفنية .

و بعد فقد قص السيوطى قصته هذه ، على لسان أبى الدر نفيس بن أبى إدريس، الذى خرج إلى فلاة فسمع خطيبا يخطب على منبر ، يعظ الناس ويدعو الرجال إلى الزواج ، لما فيه من الحل والخير ، ويحذرهم اللواط لأنه حرام وضر ، ومسقط للمروءة .

ويبدو لنا من ذلك ، كيف كان هذا الداء الوبيل متصلا من عهد الظاهر بيبرس إلى زمن السيوطى أعنى طول العصر تقريبا .

وكان من بين مستمعى الخطيب ، أبو الدر نفيس وعصبة من الشباب الذين تخصص كل منهم فى علم أو فن ، وكانوا عشرين شابا . فاستجابوا لندائه ، وأرادوا أن يعززوا تقواهم بالزواج ، وتواعدوا على أن يحكى كل منهم ما رآه ليلة زفافه لإخوانه موريا بمصطلحات علمه . . . .

وإليك سطوراً من كلام بعضهم

فمما قاله المقرىء :

« لما انقضى الاجتلا . وحصل الاختلا . ورفع عنها التاج والحلى . وتخيل لى أن

البدر فى ليلة أضحيان قد تجلى —

عزمت على رؤيا محاسن وجهها . بآيات أنوار الضحى متهللا .
فلما بدت تفتر عن نظم ثغرها بدأت بيسم الله فى النظم أولا .

ثم استوينا على العرش . وجلسنا على الفرش . وكشفت عنها فإذا هو باطنه ورد ، وظاهره ورش وله كعثب[1] أضخم . وحرف مفخم . وركب كأنه بيضة الأدحى[2] كأنه من مكر موسى . جرمه كبير . وشحمه يروى عن ابن كثير . » الخ »

ومما قاله المفسر :

« لما كشف اللثام . ولاحت لى المعالم . رأيت أوصافا تعجز وصافا . وتروق كشافا . ثم كشفت عن ذيلها . لأبلغ ما أرومه من نيلها ، فإذا هى :

من كل بيضاء لها كعثب مثل سنام البكرة النائر
لها جبين مشرف مهدف مثل سنام الربع المائر » الخ

ومما قاله المحدث :

« لما كشفت القناع . رق الحديث وراق السماع . ورأيت منظراً أبهى من البدر السنى . وحديثا أحلى من الرطب الجنى . » الخ[3]

رسالة لفخر الدين بن مكانس :

قرأت لهذا الأديب البارع الرقيق رسالة أو مقالة ماجنة فى ديوانه المخطوط . وقد ضمنها حوارا بين أربعة وخمسين رجلا من مختلف المهن والصناعات ، جمعهم مجلس شراب وطلب إليهم أن يتكلم كل منهم بمصطلحات مهنته وصناعته ثم يختم كلامه

---

١ — الكعثب الركب الضخم ٢ — الأدحى ككرسى موضع بيض النعام فى الرمال .
٣ — مقامة السيوطى مطبوعة ومنها نسخة بدار الكتب المصرية .

بيتين من الشعر فى المنى . والحديث يدور حول الشراب ووصفه .

ولعل هذه الرسالة تهاوت إلى السيوطى ، فاستوحى منها فكرة مقامته « رشف الزلال » التى سبق الحديث عنها .

وكنا نود أن نفصل الحديث عن رسالة ابن مكانس لرقته وعذوبة أدبه . ولكنا ضربنا الذكر صفحا عنها ، لكثرة ماخالطها من العامية .

ومع هذا نلاحظ عنها جملة ملاحظات منها :

أولا : أن حديث كل رجل استغرق سطورا قليلة من سطورها :

ثانيا : أنها مثل للقص والحوار .

ثالثا : أن من بين رجالها : القاضى والصوفى والحاجى والقبانى والفاخرانى والمكارى والجمال والمصارع ومعلم الصبية ، والسقا والبراذعى والحشاش الخ ومن ذلك نستطيع أن نعرف شيئا من مهن العصر وصناعاته وفنونه .

---

١ — راجع ديوان ابن مكانس المخطوط بدار الكتب المصرية

الفصل الخامس

التقاريظ والأهاجى

لابدع ، إذا نحن سلكنا التقاريظ والأهاجي في عداد باب الوصف ، وجعلناهما فصلا من فصوله . وقد اعتدنا — وبخاصة عند الحديث عن الشعر — أن نجعل الوصف بابا ، والمدح بابا والهجاء بابا ، وهلم جرا ولكننا هنا حينما نقرأ تقريظا أو أهجية ، نشعر تماما أنهما قائمان على الوصف ، وأن الوصف يترقرق في سطورهما ترقرق الماء والنضارة في العود . . لذلك آثرنا ضمهما إليه والتنويه بهما في بابه .

والتقاريظ صنو لرسائل المديح والشكر التي سبق لنا التنويه بها في «باب الرسائل» . غير أن التقاريظ هنا تفترق عن تلك ، بأنها في جملتها ليست « رسائل » متبادلة بين أصدقاء في إخوانيات معتادة كالتشوق أو الشكر أو الاستهداء ونحوه . فيخرجون بها هونا إلى المديح والتقريظ . وإنما هي مقالات وصفية يكتبها الأصدقاء لأصدقائهم أو نحوهم ، يمتدحون بها شيئا من نتاج أقلامهم وثمار عقولهم مثل كتاب أو قصيدة جيدة أو ديوان شعرى أو رسالة أو نحو ذلك .

وقد نشطت سوق التقاريظ في الجيل الماضي . فكنت لاتكاد ترى كتابا علميا أو ديوانا شعريا مثلا ، يصدر إلا وفى صدره جملة من التقاريظ لعدد من أعلام الأدباء ورجال الفكر المعاصرين للمؤلف أو الناظم ، يزفونه إلى القراء ويبشرونهم بالانتفاع به ويغبطونهم عليه ويغدقون الثناء على مؤلفه أو ناظمه . ولم يكن الغرض من التقريظ حينذاك ، الشرح والتحليل والتعليق النافع والنقد المثمر ، وتبصير القراء بمواضع النفع والجدة في هذا الأثر العلمى أو الأدبى المقدم إليهم ، بطريقة علمية يجلها الصدق

ويجملها الحق ولا تشوبها شائبة المديح والإطراء ، والمبالغة فى الثناء ، إلا لماما و بقدر .

أما فى جيلنا الحاضر فقد نضب معين هذه التقاريظ وركدت وكسدت سوقها، وخف مدادها ، وعف كثير من المؤلفين والناظمين عن حشد هذه التقاريظ التى أملتها الصداقة أوحب المجاملة ، فى طليعة مؤلفاتهم ومقدمة منظوماتهم ، شبيهة «بزفة العروس » . . . وربما أحل محلها مقدمات تحليلية ممتعة يكتبونها بأقلامهم أو بأقلام بعض أصدقائهم .

ولكن فى عصر المماليك راجت سوق التقاريظ . ودفع إلى رواجها عوامل الصداقة بين الأدباء ، ورغبتهم فى اللعب البديعى وتمرين القريحة وحب المعارضة ، ونحو ذلك . لهذا أصبحت مظهراً آخر من المظاهر الأدبية التى يتسابق فى ميدانها الأدباء . وأمعنوا فى وصف الشعر والنثر والعلم والأدب والأقلام والقراطيس وما إلى ذلك وصفا بارعا عماده التشبيه والاستعارة والخيال الشعرى وغير ذلك من ألوان البيان محلاة بأصباغ البديع ، تتماوج فيها مبالغات المديح والإطراء ، مختومة غالبا بعبارات الدعاء .

ولعل من الطريف أن نذكر أن ابن حجة الحموى طلب إليه أحد طلبة العلم بحلب — ويسمى بدر الدين بن محمد بن الضعيف — عام ٨١٤ هـ ، أن يكتب له تقريظا على رسالة مشتملة على حكم ومواعظ ، فامتنع حتى أمره صديقه الناصرى محمد بن البارزى بأن يكتبه ، فكتب تقريظا مهمل الحروف ، ليس به حرف منقوط سوى التاء المربوطة فقال منه :

« طالع المملوك رسالة محمد وسلم . وأحكم السمع والطاعة لكلامها المحكم . والله ماسمعها عالم إلا وهام . ولا ردع سحرها الحلال مسلما إلا كره الحرام . وعاد عاملا وأعد للصلاح حواصله . وصار له مع الله معاملة . ما أحلى ما كرر عاطلها المحلى ، وأهلا

«سهولة مسلكها وسهلا . ماللولد ساعة وبعد أحكامها . ولا أجل الخصير منكر، إلا ما أداره كأس مدامها ولا لعارة عامرُ مرحها ورهطه . ولا لصدر كاؤوها ومحطه . ولا للولد مطروح مع طرحها الحرر مطارحه . ولا صاز لولادة رسالة مسموعة ولا لسرحها آرام صارحة . ولا مسارح الماء الحلو لملحها إلا كالآل . وما عامر ما أسسه المعار إلا أطلال . وما المطاعم الحلوة معها إلا مالحة . وما صوادح الكلام الصادح إلا حول دوحها صادحة . وما لطعم الراح مع حلاوة وردها راحة . ولا لسلسل الورد معها طلاوة ولو كال الطل أدواحه . ولا لسلوك الدرر سلوكها . ولا للسلوك العاطرة عطر مسوكها . » الخ[1]

وكتب زين الدين بن الوردى على قطعة من شعر بدر الدين حسن بن حبيب — وكان ابن نباتة قد قرظها — فقال :

« تأملت هذه النبذة التى رق من قائلها الطباع . فافتخرت بنظرها الأبصار على الأسماع . فوجدتها مشتملة على مبانى القوافى الفوائق . والمعانى الرواقى الروائق فقبستها ببدرى . وكوكبها درى . هاجت لى ذكر حبيب . فهى زبدة من حلب ، لا بل قطعة من طيب . أعذب من الوصال . وألذ من الماء الزلال . وألطف من الرياض عند الصباح . وأرق من رحيق الطل فى ثغور الأقاح . فيالها من مقطمات نيل . أضرمت فى روح كل كايم نار خليل . قدّر ناظرها فى السرد . وقال ناظرها بالجوهر الفرد . ونابت مناب سيوف الهند . وأغنت عن التشبيب بسعاد وهند . ما أطول صفات شعرها وإن كان قصيرا : فلو ألقيت على وجه أبى العلاء لأتى بصيرا . ومن سلك من الجماعة هذا الطريق وهو فى خد . فما الظن به إذا تحلى لسانه وعارضه برسم وجد . وكيف به إذا تعلق بأفنان مواد هذا الفن وامتاز . ونزل بدر حسنه فى دارة دار الطراز .

---

١ — قطعة بتمامها فى خزانة الأدب ص ٤ ، تحت باب « ذكر الحذف » .

حتى أن أبيات الناظر بن الوليد كان عابثاً، وأن ابن حبيب لأبويه في الأدب والنسب أصبح وارثا :

— أقسمت إن جد وطال المدى روّى الورى من بحره الزاخر

فقال لمن بالسبق تفضيله : كم ترك الأول للآخر .

» ومالي لا أصف هذه النبذة وأغلو في وصفها ، وقد شهدت الألفاظ النباتية بحلاوتها ولطفها ، قرن الله قوله وفعله بالتوفيق ، وصان شأنه عن شانه ، فشين الحسن لا يليق «. (١)

وكتب برهان الدين القيراطي من رسالة إلى جمال الدين بن نباتة المصري ، يقرظه ويصف رسائله ومنظوماته ويذكر بلاغته وسنحات بيانه ، فقال من تقريظه مبدعا في اقتباسه :

« فلا غرو إن فضح بديع الزمان بلفظه البديع ، وأزهرت الأوراق بمنثور رسائله التي كل فصل منها ربيع ، وخجلت صفحة الخد المنمنمة بطراز العذار المرقوم ، وقالت السكتوس حين شهدت في إمالة الأعطاف بألفاظه : وما منا إلا له مقام معلوم . »

ومنها :

« فسبحان من أسرى بهـا في ليل نقسها إلى المحل الأقصى ، وحباها بالفضل الذي لا يحصى ، وأنبت دوحتها في رياض الفصاحة ، ونمق حدائقها التي لو فتح النرجس عينه فيها لنسب إلى الوقاحة . فتبارك الذي جعل في معاطفه لشمس بلاغته بروجاً ، وأعلى همته التي لا ترضى الشهب مهاداً والأهلة سروجاً ، حتى أقام يراع قلمه لسوق الأدب قصبة : وشاد من قصائده كل بيت إذا مر الحاسد ببابه قبل العتبة ، وسار في الكائنة السيارة سفن فاته ، وعلت من قصره المشيد بسبب أبيات تسطو به شرفاته »

---

١ — عن ديوان ابن الوردي ص ١٤٢ .

وقدوت بالمباسم والقدود بمبانه وألفاته . وزهت أمداحه المؤيدية فأصبحت أبياته المرفوعة ذات العماد . وراقت محاسنها التى لم يخلق مثلها فى البلاد . وفضحت لـ هلها المتنبى أدباء العصر الذين جابوا الصخر بالواد . » ومنها :

« طالما سرح الناظر فى بستانها بنظره . ورام ابن سكرة فتح الأبواب لمعارضة قطرها النباتى فوجدها مسكرة . وعلم المتنبى أن هذا خاتم الأدباء لا محالة . والمترسل الذى نهض دونه بأعبائه كل رسالة . وأقام بتقديمها على غيرها براهين الإحتجاج . وقال المليجى عندما قابل بحرها الحلو بحره : هذا عذب فرات سائغ شرابه وهذا ملح أجاج . »[1]

أحب بهذه المناسبة أن أنوه بكتاب لجمال الدين بن نباتة المصرى ، فريد فى بابه ، وهو كتابه « سجع المطوق » . وهو مخطوط بدار الكتب المصرية ، متوسط الحجم يحتوى على نحو ٦٣ ورقة مكتوبة من الصفحتين ، فى كل صفحة خمسة عشر سطرا . وليس فيه ما يدل على زمن نسخه .

وقد ورد اسم هذا الكتاب ، فى جملة مؤلفات ابن نباتة ، فى أكثر من مناسبة ومنها ترجمته فى الدرر والوافى وغيرهما .

وقد بدأه ابن نباتة بخطبة طويلة ، حمد الله فيها وأثنى عليه ، وصلى على نبيه الكريم عليه السلام . ثم بين سبب تأليفه ، وهو أنه لما ألف كتابه « مجمع الفرائد » وكان إذ ذاك بدمشق ـ اطلع عليه عدد من فضلاء الشام ، فقرظوه . فجمع هذه التقاريظ فى كتاب سماه « سجع المطوق » . ويبدو أنه جمعها وهو فى حماة .

---

(١) هذه النصوص من خزانة الأدب ص ٨ طبعة بولاق الاقتباس .

وقد سماه كذلك لأن مقرظيه « طوقوه » بإنعامهم ، وقلدك « سجع » بمحامدهم على غصون الأقلام — على حد قوله — .

ولم يكتف ابن نباتة بتسجيل التقاريظ ، بل سجل تراجم للمقرظين وشيئا من مراسلاته إليهم ومدائحه فيهم ، سواء أكانت شعراً أم نثراً . ولم يسجل سنوات وفاتهم لأنهم معاصرون له ، أحيا فى زمنه .

من هنا نرى أن الكتاب طريف فى بابه — كما أشرنا — إذ بنى على تسجيل « تقاريظ ». ولكنه إلى ذلك ، كتاب أدب وتاريخ ، وإن لم يغن غناء حاسما ، إذا أردنا أن ننتفع به انتفاعا تاريخيا فى تراجم أعلامه ، وذلك لأنه صبها فى قالب من الثناء والإطراء والمبالغات الشعرية ، التى وإن راعتنا من الناحية الأسلوبية ، لاتجدى كثيرا فى مجال التحقيق التاريخى .

وقد ترجم لعدد كبير من أدباء عصره ومنهم : الشهاب محمود الحلبى ، والجلال القزوينى ، وكمال الدين العطار ، وأمين الدين بن النحاس ، وبهاء الدين بن غانم . وغيرهم .

وفى هذا الكتاب سجل ابن نباتة عددا من الرسائل الإخوانية المنثورة مما كتب إلى إخوانه فى أغراض شتى ، منها العتاب والاستهداء والتشوق ، وعددا من مقطعاته وقصائده ، ومنها تائيته الرائعة فى مدح قاضى القضاة كمال الدين بن الزملكانى — ومن هنا نرى أن الكتاب يعتبر أحد دواوين ابن نباتة فى شعره ونثره .

وننقل هنا سطورا من تقريظ العلامة جلال الدين القزوينى خطيب جامع بنى أمية بدمشق ، لكتاب « مجمع الفرائد » لابن نباتة ، قال :

« هذا سماء حكم بدائع وفقر روائع . فلا بدع أن سميت « مطالع الفوائد » . وأصداف كريمة حوت دررا يتيمة فلا غرو أن وسمت بمجمع الفرائد . وحدائق تتف

زاهية ناضرة . حقائق بأن تكون وجوه أهل الحقائق إلى عيونها ناظرة وأبكار أفكار هن ضرائر النجوم . وأنفاس خواطر أطيب من فوح الأزاهر جادتها الغيوم ومباني بيان كل مبني كبانيه كريم . ومغاني معان تحل فيها القلوب فلا يرى قلب عنها بريم . ورياض لطائف شرفت منها لطائم المسك الأذفر وحياض طرائف ردت عليها سحائب كل ذهن صائب فسح عليها صيبها الأوفر . ومحاسن إذا تليت سورها على البلغاء ، ظلت أعناقهم لها خاضعين . وإذا جليت صورها على الفصحاء بهرت الناظرين والسامعين . فكيف لا وهي صوب العقول ونظم العقود وقد بدئت بكلام من كلامه إلى الحق يقود ، وعن الباطل يذود . أبان مؤلفها ما نبه عليه من معانيه الدقيقة . أنه معتصم من البراعة في صناعة البلاغة بعروة وثيقة ودل بما أورد فيها من كلامه الذي هو أرق من أنفاس النسيم . وأحق بميل الأنفس إليه من العقد النظيم . أنه حاز قصبات السبق في حلبات النظم والنثر ، حتى فخر كل مفاخر . وفاز من تحقيق الفضائل بما فيه تصديق القائل : كم ترك الأول للآخر . » الخ [1] .

ونلاحظ في تقريظ الجلال القزويني هذا ، دقائق ولطائف من الصناعة البديعية . ففي خلال سجعاته — مثلا — ترى ازدواجات طريفة كقوله : « حكم بدائع وفقر روائع » وقوله : « أصداف كريمة ، ودررا يتيمة » وقوله : « رياض لطائف وحياض طرائف » — وترى من جناساته الخفيفة قوله : « حدائق وحقائق » و « أبكار وأفكار » و « مباني بيان ، ومغاني معان » — ومن اقتباسه قوله : « ظلت أعناقهم لها خاضعين إلى غير ذلك .

---

١ — راجع سجع المطوق . مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ١٧٠ آداب عربية .

تقاريظ مبهمة

لعل من الطريف هنا أن نذكر ثلاثة تقاريظ تجلى فيها أحد الفنون البيانية البارعة. وهو فن وعر المسلك دقيق المنهج، في حاجة إلى ذوق أصيل ورفق أدبي واسع، وتمام لباقة. ونعني به « الابهام » إذ يجتمع في عباراته وألفاظه غرضان متضادان كالمدح والذم، يورى بأحدهما عن الآخر. فيورى عن الذم بالمدح مثلا. إذ يرد الكلام محتملا معنيين متضادين، يريد الكاتب أحدهما، ويستتر أمام محدثه بالمعنى الثاني.

وهو منهج — كما ذكرنا — وعر، يحتاج إلى كياسة وحنكة واقتدار على إدارة كئوس التوريات حلوة مرة. ويستطيع به الكاتب أن ينال من خصمه ويطعنه ما شاء ويكشف عوراته، ويهتك أستاره، ثم يجد لنفسه مخرجا ومخلصا وعن لوم مخاطبه مفرا. وهذا المنهج شديد الصلة بالنقد ودعايته، التي تنقد النقدة المرة، وتلبق في التخلص من مسئوليتها وعواقبها.

التقريظ الأول والثاني

ونعود فنقول إنه قدم على الديار المصرية في زمن الملك المؤيد شيخ المحمودي، الأديب المؤرخ الشيخ شمس الدين محمد بن ناهض البقاعي. وذلك في شوال عام ٨١٨ هـ وقدم مصنف في تاريخ الملك المؤيد المذكور، سيرة مشتملة على نظم ونثر. وتعرف بسيرة ابن ناهض[١]. ويبدو أنها لم تكن جيدة النسج كما ينبغي.

قال ابن حجة الحموي في حق ابن ناهض المذكور: « لم يكن للمشار إليه إلمام بتعاطي الأدب في مبادي عمره »[٢].

طلب ابن ناهض إلى ابن حجة ثم إلى الأديب بدر الدين بن الدماميني، أن يكتب

---

١ — يبدو أن هذه السيرة مفقودة. كما يبدو أنها كانت موضع عناية الأدباء إذ أقبل بعضهم على نقلها كلها شعرا.
٢ — خزانة الأدب ص ٨٠ باب الابهام.

السيرته تقريظا ، فأحرجا وترددا نظرا لضعف السيرة من ناحية ، ولأنها سيرة سلطانهما من ناحية أخرى ، وبعد تردد كتب ابن حجة تقريظه أولا ، ثم وليه الدماميني فكتب تقريظه ثانيا . ونهج كل منهما فى تقريظه منهج الإبهام الذى أنقذهما من حرجهما . فبلغا به الغاية من ذم السيرة ، كما يقتضى أدب النقد . تحت ستار من المديح كما يقتضى الأدب مع السلطان والإخوان .

وهذه سطور من تقريظ ابن حجة ، قال : ..

« وقفت على قواعد الأدب من هذه السيرة الناهضية » فوجدت مطرب لحنها قد أعرب عن التنكيت لأهل النكت الأدبية . ونويت معها سلوك الأدب لاحتشامها بالصفات المؤيدية . فإنها ما قوبلت بأدب إلا تقوت بسلطانها . ولا جارتها سيرة مطولة إلا كانت قاصرة عن الجرى فى ميدانها . ولا ذكرت التواريخ المقدمة معها إلا تأخرت وكبت خلفها : ولا ناظرها ذو قصص إلا ثقل عليه أمرها . ونظر إلى قصصه فاستخفها . ولا بالغ أهل التقاريض فى تقاريضهم إلا وكانت دونها . واستحق لها هذا الوصف فى قمة أهل الأدب فاستوفيت منه ديونها فلو نظر الصفدى إلى هذا التاريخ وراجع النظر لسلخ جلده . أو تصفحه الكتبى لمدد على تاريخه وما عده . أو كاثر ابن كثير لرأى نقصه متزايدا عنده . أو عاصر ابن خلكان لقال لم أمازج شراب القفاعى بخلى فإن عنده حمضة وبردة . أو لحظه الذهبى وموه بتاريخه لقيل له : هذا ماينطلى معه . وعلى أن خلاصة الذهب تظهر بالسبك فهضم من جانبه ووضعه . ولو أدركه البديع لرمى بديعه وعلم أنه بدعة . أو خفقه الوهرانى لرآه فى المنام إن حصل له بعد مطالعته هجعة » ... إلخ

أما الدماميني فقد بدأ تقريظه بمدح السلطان فقال — وفى ذلك فن من فنون النثر —

« أما المقام الشريف الممدوح — عز نصره ولا زالت تفخر بدولته القاهرة مصره —

خلافة مدت على الرعية جناح العدل وحمى بيضة الإسلام . وتواردت على تمريخ عداته وتعديل صفاته ألسنة السيوف والأقلام وسار على أقوم طريق فأذكرنا السيرة العمرية . وطلع فى سماء الكواكب كالبدر ، فقل ماشئت فى الطلعة القمرية . ودعا إلى نداء طاعته فلبته فى ذلك الموقف النفوس . ونادى على أعدائه منادى الحتف فأراها كيف يجوز لمرضهم بحنف الرءوس . ناهيك بها مناقب سرت القلوب وسارت ، وناقضت النجوم جواهر الألفاظ فى مدحها فغارت . وشملت البرايا بالمن والمنح وقابلت المسيء بالعفو والصفح . حماها الله تعالى من الغير . وجعل صفاتها الشريفة جمال الكتب والسير . »

ثم قال فى تقريظ السيرة ومنشئها :

« وأما منشىء السيرة . فماذا أقول وقد رأيت الخطب جليلا . وماذا أصف وقد حملنى عبئا ثقيلا . هو كبير أناس . مزمل من البلاغة بأنواع وأجناس . يأتم به الهداة كأنه علم . وتروم الأدباء المقايسة به فيقاسون ولكن من شدة الألم . له فى الأشبه صريمة وشهامة وفراهة تجريه إلى المقامات الرائقة فلا تعتريه سآمة . ما هم بتركيب معنى إلا وشرح الصدور بذلك الهم . ولا شن فارس فكره غارة إلا وتم منها على بيوت الشعراء ما تم . طالما أظهر برغم أنوف الحسدة فى المجالس فضله . وصعبت الآداب على غيره ولكنها أصبحت عليه سهلة وعقل غرائب نكته عما سواه فلله ما أبدع . كدر عيش الحلى بما ابتدعه من العجائب ، ولا ينكر لمثله تكدير الصفى . واكتفى فى ميدان البراعة بجياد فكره الذى جال وهو مكر مفر ، وهكذا يكون المكتفى . أتى فى تاريخه بألفاظ لو رآها ابن الأثير لتأثر . وابن سعيد لتمثر . وابن بسام لأصيب منها بالقارعة فعبس وتولى . أو الحجازى لرمى منها بالداهية التى هدمت ما بناه وثقلت عليه حملا . وكتب خطا لو لمحه ابن مقلة لأصيب منه بنظرة . أو ابن البواب لهتك ستره . وجاء بأدب لو وازن أحد به الراجح الحلى لما أقام وزنا ولا رجحه . ولو تأمل المليحى ملاحة لفظه الذى ما مرمثله بالذوق إلا قال لسان التعجب ما أملحه . ولو قيس به ابن الرومى

المتعاظم لأنشد الناظم :

ولو أنى بليت بهاشمى   خئولته بنو عبد المدان ،
لهان على ما ألقى ولكن   تعالوا وانظروا بمن ابتلانى

ولو تشبه به مادح كافور لعاد من برده بكبد حرى . ولو كلف بجاراته صاحب القطر النباتى لقال : ربنا أفرغ علينا صبرا . ولو تعرض ديك الجن لعزائمه فى الأدب لما زادت إلا خبالا . ولرأى سطورا تتوالد منها المعانى العجيبة ، والليالى ـ كما علمت ـ حبالى . » الخ .

التقريظ الثالث :

أما هذا فقد كتبه الأديب مجد الدين فضل الله بن مكانس ، بعد أن ألح عليه المصنف ابن ناهض النقاعى فى كتابته ، كما ألح على ابن حجة والدماميني . وقد نوه ابن مكانس خلال تقريظه بمناقب الملك المؤيد ومدحه ودعا له . و بدأه بقوله :

« يا لطيف ! » نظرت هذه السيرة التى يعرض عنها المعارض . و ينزو مؤلفها فى رياض الأدب على بكر من سوام المعانى وفارض فوجدته قد نهض بعبء ثقيل من الكلام . وقام وأوقف البلغاء فى مقام العجز و يعذر العاجز ، إذ شرفها بذكر مولانا السلطان فى هذا المقام . خلد الله ملكه الشريف . وعم بعدله المبسوط مدائن فضل ذات ظل وريف . ورفع جنابه المعظم على الأفلاك حتى تسير لخدمته ممنطقات بمناطق النجوم » . الخ !

وقال فى تقريظ السيرة ومنشئها :

ثم كررت النظر فيها . واستنهضت القلم للكتابة عليها حسب سؤال منشيها . فنكس القلم من الخجل راسه . وصعد من صريره أنفاسه . وقال: لست ممن يجيد فى هذا .

التقريض عبارة . ولا ينهض فى وصف ماجاء به هذا الرجل من متين كلمه الذى ألقم الفحول، فكأنما ألقمهم حجارة . فلقد ترفع قلمه فى أرض قرطاسه وصما . وأتى من الرقيق بشىء يحسبه الظمآن ما . وقذف الرعب فى القلوب بذكر الوقائع فورمت خوفا وشكت خفاقلوبها ورما . فلو وازنه القيراطى لثقل فى الحقيقة عليه . أوحام على حمى ابن أبى حجلة لفرطائرا من بين يديه . أوجلا على ابن نباتة سلاف نظمه لم يقل: إلى بكأسك الأشهى إلى . أو أورى زنده مع الشواء لأحرق قلبه ، لم يستحسن منه شيء » الخ [1]

أهجيتان :

لم أظفر فيما قرأت من نثر هذا العصر ، بغير هاتين الأهجيتين اللتين أنوه بهما هنا — هذا إذا استثنينا التقاريظ الثلاثة المبهمة السالفة الذكر ، لما تتضمنه من الذم والهجاء . أما الأهجيتان اللتان نسجلهما هنا فهما سائرتان صريحتان فى باب الهجاء . لم أجد لهما نظيرا بين القطع والرسائل المنثورة . كأنما استبد الشعر بهذا الباب دون النثر : ذلك النثر الذى استبد فى هذا العصر بكثير من الفنون الشعرية ، فشارك الشعر فيها .

والأهجية الأولى كتبها الناثر الشاعر زين الدين بن الوردى ، يصف فيها أعمال « القاضى الرباحى المالكى » وتقع فيما يقرب من ثلثمائة سطر تتخللها أبيات شعرية كثيرة فى مواضع مختلفة ، تتناسب مع المعنى . وكذلك بعض فنون الزجل من كان وكان . هذا عدا أسلوبها البديعى المسجوع .

ويبدو أن هذا القاضى الرباحى ، كان قاضى المالكية فى حلب ، وأساء إلى كثير من الناس فيها ، وأسقط عددا من الشهود بدعاوى مختلفة ، واقترف جملة من التصرفات

---

١ — القطع الثلاث فى خزانة الأدب ص ٧٩ وما بعدها (باب الايهام) وهى أيضا فى قهوة الإنشاء .

التي ألحقت الضرر ببعض أهل حلب ، واستنكروها منه ، وفي جملتهم أو في مقدمتهم ابن الوردي .

أحب ابن الوردي أن يدمغ هذا القاضي بنشر قصته على الناس ، و يسجل أعماله شاهدة عليه لدى التاريخ فكتب هذه الأهجية ووصف فيها تصرفاته وأخلاقه . وسماها « الحرقة للخرقة » . وخلدها — على حد قوله — في ديوان الدهر شاهدة على المسيء بفعله . ومن عجب أن نرى ابن الوردي يقدم هذه الأهجية بسطور يدعي فيها أنه إنما كتبها للنصيحة ، وأنه تجنب فيها فحش القول ، وتحرى فيها الصدق والصواب والله سبحانه خبير بالنيات وعليم بذات الصدور .

وننقل منها سطوراً ، قال في مطلعها :

« اعلموا يا ولاة الأمر . و يا ذوي الكرم الغمر : — أبقاكم الله بعضد للأمة ووفقكم لدفع الإصر و براءة الذمة — أن حلب قد نزعت الزبدة . ووقعت من ولاية التاجر الزباحي في خسر وشدة . فاض ثلب المجزوع ، وسكب الدموع ، وأخاف السرب . وكدر الشرب . بجراءته التي طمت وطمت . وغاشيته التي غمت وعمت . وفتنته التي بلغت الفراقد . وأسهرت ألف راقد . ووقاحته التي أدهشت الألباب . وأضاعت النطف في الأصلاب . فكم لطخ من زاهد . وكم أسقط من شاهد . وكم رعب بريئا . وكم قرب جريئا . وكم سعى في تكفير سليم . وكم عاقب بعذاب أليم . وكم قلب ذائب . بنائبة توسط بها عند النائب » .

ومنها يصف انفضاض الناس عنه ونفورهم منه :

« لما رأى خلو مجلسه . وقلة مؤنسه . وانقطاع الأعيان عن داره . وإهمال المكافأة له لصغر مقداره . قال له رأيه الفاسد . إلى متى أنت مهجور كاسد . فازدجر وانتهر . وقبح حتى تشهر . فآذى ونال . وجرح وما داوى . فطفر الناس عليه بهذه الطفرة .

وما زادهم عنه إلا نفرة ، وكشفوا حاله ، وعرفوا عليه

حال النحاة على العموم تميزت عندى لأن القوم أهل نصوص

من أجل قاض قدموه لعلة ودعوه بالمستقل المنقوص :

إذا جلس خلت غولة جالسة . وإذا تكلم متطيلسا قلت جاء البرد والطيالسة .

لا قراء ولا قرى . فليت العيون إكتحلت منه بأميال السرى . يحب من القرآن : «ألا

في الفتنة سقطوا» ومن الحديث : «أباهي بكم الأمم حتى السقط» . ومن الفقه : «مسألة

سقوط يد السارق بآفة» . ومن النحو : «سقوط بأل والإضافة . ومن الشعر :

وما للمرء خير في حياة إذا ما عد من سقط المتاع

يحب من كل علم السين والقاف والطا

حاشا الرسالة منه بما خفقه بالموطا

يتنفس على الناس الصعداء . ويؤذى الأشقياء والسعداء . لقى بعض الناس منه

ماتقى . وهو عازم على ما بقى .

لقد أصبح الباقون منه على شفا متى استنشدوا الشعر القديم يقولوا

يهون علينا أن تصاب جسومنا وتسلم أعراض لنا وعقول »[1]

هذا ويبدو للطالع ضعف نسج أسلوب ابن الوردى ، وهكذا هو فى أساليبه النثرية .

غير أنها لا تخلو من فن ونفع .

الرهجية الثانية :

هذه رسالة[2] كتبها الكاتب البارع محيى الدين بن عبدالله ابن عبد الظاهر

---

١ — الأهجية بتمامها فى ديوان ابن الوردى طبع الجوائب ص ١٩٠

٢ — وجدتها مطبوعة فى نهاية « تمام المتون فى شرح رسالة ابن زيدون » للصلاح الصفدى ومنها نسخة خطية فى دار الكتب المصرية رقم ٢٩١١ (آداب عربية)

المنشىء المشهور ، عام ٦٥٣ هـ مخاطبا بها الأمير ناصر الدين حسن بن شاور الكنانى المعروف بابن النقيب .

وكان ابن عبد الظاهر قد عابه رجل فى حضرة ابن النقيب — كما يفهم ذلك فى سياق الرسالة — فكتب ابن عبد الظاهر رسالته هذه يندد فيها بعائبه ويرد عيبه عليه ، ويبين له طريق الرفعة والسمو الذى يسمو به الرجال ، ويرسم له سبيل المجد الحقيقى ، وهو سبيل التواضع والعلم والكرم ومكارم الأخلاق ، لا سبيل النسب والاعتماد على غيره .

وهذه المعانى تفهم من القصيدة التى ختم بها الرسالة ـ وتقع فى نحو أربعين بيتا ـ أكثر مما تفهم صراحة من الرسالة المنثورة .

والرسالة — كما رأينا — رسالة لوم وعتاب وتقريع وهجاء موجه إلى العائب ، ورسالة فخر دافع بها الكاتب عن نفسه محتجا لما بلغه من السمو والتقدم بين الرجال . ثم هى رسالة مدح وجهه الكاتب إلى صديقه ابن النقيب ، وبخاصة فى الجزء الأخير منها . وتقع الرسالة كلها فى نحو مائتى سطر .

وبعد ، فقد اتسمت هذه الرسالة بعنوانها « التواضع » . ولولا ، ولولا مادعت إليه من التمسك بمكارم الأخلاق لأثبتناها فى « الرسائل الإخوانية » عوضا عن فصل « التقاريظ والأهاجى » وهى صالحة لكلا الفصلين على كل حال .

ويرى القارىء من السطور التى نقتبسها منها بعد ، أنها رسالة فريدة الأسلوب قوية التركيب ، غنية ممتعة فى مجازاتها وتشبيهاتها . بينها وبين الرسالة الجدية لابن زيدون مشابه ، لولا سجعها الملتزم ، وهجاؤها السافر غير المقنع ، وخلوها من الاستطراد . ولعل أبرز وجوه الشبه بينهما جزالة التركيب وقوة المجاز والتشبيه وكثرة الإشارات إلى الحوادث الماضية (ومن إشارات ابن عبد الظاهر إشارته

إلى حادث كليب ، وإلى مقتل على ، وإلى مسألة التحكيم) . وامتزاج الفخر مطويا في تضاعيفها .

ومن سطورها ، بعد أن بدأها ببسم الله الرحمن الرحيم قال مخاطباً ابن النقيب ومبدياً سبب رسالته :

« بلغنى — أعزك الله ولا برحت رحيب فناء الفخر ، قشيب ملبس العمر ، يانع ثمر الفكر ، مفعم حياض البر — أن « فلاناً » غض منى كل غض الجنى ، وأن ... عبث بى عبث الأيام بالمنى ، وأنه ردنى إلى أرذل العمر فى الأطراح ، وغلق ... تتحضى أبواب النجاح ، وزعم أن إنباء آتانى غير مقدم ، وبناء مجدلى غير محكم ، وجواد جادى غير ملجم ، وأن ميلاد مجدى حديث ، وشبت ... رثيث ، وأن ... أجلادى جريحة ، وقرائح ارتجالى قريحة ، وأن صدور المجالس تنكر إقدام ... لى ، وبطون الطروس لاتلقح بوطء أقلامى ، وأننى لا أعد فى جملة الكتاب ، وإذا دخلوا من أبواب متفرقة للتكريم لا أدخل معهم فى باب م...

وإذا أتتك مذمتى من ناقص فهى الشهادة لى بأنى كامل » .

ومنها يدافع عن نفسه ويدفع فرية المتهزئ وتنقص المتنقص فى كلام كالسهام ومقال أمضى من السالر ، وحجج ناصعة وبراهين بارعة ، تخفى فى طيلتها ماتخفى من لذعاتها . قال :

« والذى أقوله له مخاطبا . وأوحيه إليه مجاوبا : إن كان استرسالك أبحاه العائبة عيشابه ، كل الأفاعى تعيث بها الأنامل . ولا كل المراعى تنصب بها الحبائل . ولا كل زخار بخاض ولا كل جناح يهاض . ولا كل جامح براض . ولا كل سابغة تفاض . ولا كل نسمة واقع . ولا كل السموم يدخل فى درياق ، ولا كل مطوق يجنب بالأطواق . فإن كان ماقلته جهلا ، فإن من الأحلام ما يروع . أو وهما فإن من الأوهام مايخامر الضلوع ، أو جهلا فإن المندل الرطيب لا يضيره كونه حطبا فى موطنه ، والتبر لا يضيره كونه ترابا فى

معدنه. ولا يضر الزناد الوارى قدح القادح . كما أنه لا يضير النجم السارى نبح النابح . ولا على إذا قلت ملاما . وقلت أنا سلاما » الخ

ثم قال بعد قليل يوبخه و يوهن من شأنه ثم يفتخر :

« وأعوذ إلى محاققة النفس . فتأبى إلا إظهار اللبس . فأقول : هل أنت « يافلان ! » إلا متعرض بزور . وآيس من الخير كما يئس الكفار من أصحاب القبور . وآمن من العواقب ولله عاقبة الأمور . وما مبالاتى بك إلا مبالاة البحر بالبط . ورماح الخط بأقلام الخط . ومتى خافت الرعود من الوعود . أم متى أحجمت الأسود عن القرود . أم متى جزعت البحار عن التيار . أم متى صارت النار كالأنوار . أم متى فزعت بنات نعش بابنى سمير . أم متى صغرت بنو الريان فى عين أبى نمير . أم متى جبن الفرزدق من جرير . » الخ

ومازال حتى دعا لصاحبه ابن النقيب فى ختامها دعاء — لاريب — جديدا فى منزعه ، طليا فى مطلعه ، حيث قال :

« أدام الله لك النعمة إدامة لا ينقصها اختزال . وحرسها عليك حراسة لا تنتهى إلى زوال . خذها — أجلك الله — قد أنشأتها سحبا ثقالا ، لك منها عذب الشراب ولغيرك عذاب السراب . وأوريتها نارا ، لك منها الإنارة ولغيرك الإحراق . وأجريتها بحارا ، لك منها الإرواء ولغيرك الإغراق . وأدرتها شمولا ، لك منها النشوة ولغيرك الخمار . وطبعتها نصولا ، لك ما ضمت عليه الأنامل منها ، ولنحر غيرك الفرار » الخ .

وختمها بقصيدة فى الحديث عن مكارم الأخلاق وفى أعقابها أبيات فى مدح ابن النقيب . ومطلعها :

« العلى فى ارتشاف در العلوم   والحلى فى اتشاح در الحلوم

والتناهى فى كل فعل حميد   ما التباهى بكل خل حميم » الخ .

وبعد فهذه مذكرة دفاع لا تجربة يراع ، وقعقعة سنان لا ثرثرة لسان . وأدلة واضحة .

فتخصص؟ أكبر الظن أنه أنجم عند طلوعها وأنجم وقت سماعها .

وقد أفصح ابن عبد الظاهر عن موضع الفرية ومكان المذمة ، وهو أنه لا يحسب بين الكتاب . فثار من أجل فنه وهيبته، هذه الثورة الجارفة التي لقن بها العائب درسا. وإذا علمنا أن ابن عبد الظاهر يوم كتب الرسالة « عام ٦٥٣هـ » كان في غضارة شبابه وطراوة إهابه . ونظرنا إلى متانة نسجه وجزالة إنشائه وسعة إحاطته ، بدا لنا مقدار فضل الله عليه وعنايته به . والله يعطي من يشاء بغير حساب .

ومن التقاريظ

١ — تقريظ للصلاح الصفدي كتبه ابن دريهم — مثبت في صبح الأعشى ج ١٤ ص ٣٣٥ .

٢ — تقريظ للشهاب بن فضل الله كتبه للصفدي — مثبت في صبح الأعشى ج ١٤ ص ٣٣٦ .

٣ — تقريظ لشهاب الدين القلقشندي كتبه لشرف الدين عيسى بن حجاج مثبت في صبح الأعشى ج ١٤ ص ٣٣٧ .

٤ — تقريظ لابن حجة على ديوان اسماعيل ابن الحلبي الصائغ — مثبت في في خزانة الأدب ص ٤٥٠ .

٥ — وفي قهوة الإنشاء تقاريظ أخرى من إنشاء ابن حجة

٦ — وفي صدر « نسيم الصبا » لابن حبيب الحلبي ، ستة تقاريظ لكتاب حسنة قرظوا بها كتابه المذكور .

الفصل السادس

الألغاز

اللغز ضرب من ضروب التعمية فى الأسلوب ، وقصد الإبهام فى العبارة ، حتى يبدو من ظاهرها معنى لا يراد وهو غير المعنى المراد من باطنها ، مع صلاحية المعنى الظاهر كذلك . فيعمى بمعناها الظاهر عن معناها الباطن . ويضطرب ذهن السامع بين ألفاظها ومراميها ، مترجحا بين ظاهرها وباطنها ، نافذا من أولها إلى ثانيها ، مستخدما ذكاءه وخبرته وبصره بأساليب الأدب وألوان الألفاظ ومعانيها المتباينة ، حتى يظفر فى النهاية بالمعنى المطلوب .

وتشترك فى تكوين اللغز ألوان من البديع والبيان ، ما بين مجاز وتشبيه وكناية ، وتورية وإيهام ، مع ألفاظ الاشتراك والتضاد ، ومع الاعتماد على التصحيف والعكس والتحريف ، فى المفردات ، إلى غير ذلك .

والملغز وصاف ماهر ، وذلك لأنه يتناول أوصاف الملغز فيه — قدحا مثلا أو ماء أو قلما أو غير ذلك — ثم يسردها واصفا معميا . فهو فوق ما يتحمله من عبء الوصف ، وإبراز دقائقه ، وإيضاح حقائقه يتحمل عبء التعمية فيها ، وإيراد المشترك منها ، مع إشارات ورموز تفتح مغاليق المعمى ، وتنير السبيل إلى الحل ، ونحو ذلك . فتغمض المعانى لأول وهلة ، وتبعث الألفاظ السامع على التفكير والبحث . وفى ذلك — بلا ريب — طرافة أدبية ودعابة إخوانية ، وتجاوب ذهنى ، وانسجام نفسى جميل . فضلا عما يكشفه اللغز من صلات دقيقة بين مفردات اللغة .

ويخطىء من يقول إن الاشتغال بالألغاز دليل الفراغ والبطالة ، ومظهر من مظاهر الإفلاس الأدبي وأنه علامة على انحطاط الأدب وإسفاف الأدباء . هذا خطأ صراح . فإن الاشتغال بالألغاز ملء للفراغ بما يفيد التسلى به ، ويستدر ذكاء المرء ، ويقدح قريحته ، ويمرن ذهنه على حل المعضلات . وبها تبرز النزعات الأدبية وتزدهر ، ويتكشف صدؤها ، ويدب في خمولها روح من النشاط ، فتمرح في بحبوحة من الحرية ، ويسبغ عليها بعد مرانتها ، مرونة تجعلها تتحكم في تصريف عباراتها ، وتكيفها تكييفا أسلوبيا خاصا يماوج مقامات الكلام .

وإن من يتصفح صحفنا - نحن أهل العصر الحديث — وبخاصة في أبان الأزمات السياسية واشتدادها ووقت اضطراب الأمور العليا وتشابكها والقلق منها ، وخوف تسرب أنبائها إلى العامة حذرا من تأثر الرأى العام بها ، يرى كثيرا من هذه الألغاز والأحاجى منشورة منبثة بين سطورها تومىء فيها الصحف بعباراتها المعماة إلى مجارى الأمور ومسالكها وتحولاتها وخفاياها ، دون إفصاح أو إيضاح . فذا يعرفها من الناس أذكياؤهم وفضلاؤهم والمتتبعون منهم لأمور السياسة واتجاه أعاصيرها ، وتصاريف رياحها . وتبهم على من عداهم . وتكون الصحف بذلك قد قامت بواجبها في النطاق المضروب عليها ، وفي الحدود المرسومة لها ، وبخاصة عندما تكون هناك أحكام عرفية أو رقابة قوية ، تكبت الأنفاس ، وتكم الأفواه . فتجد حينذاك في الألغاز ونحوها متنفسا ومخرجا .

على أن الألغاز تستخدم أحيانا وسيلة من وسائل التربية والتهذيب ، اختبارا للعقول ، وقياسا للأذهان ، ووقوفا على نسبة الذكاء وسرعة الخاطر . وهي أيضا في المجال العلمي أداة مقبولة للسؤال عن موضوع علمى ، وللإلمام بأطرافه ، أو التصدى لشرحه أو نحو ذلك . ونقول : مقبولة ، لما فيها من التشويق وإثارة الخاطر وبث الاهتمام في نفس السامع أو المسئول ، ودعوته إلى الاشتراك مع الملغز في الوصول إلى حل المشكل وفهم الموضوع .

هذه بعض مزايا الاشتغال بالألغاز فلك ينبغى أن لا نرمى شعراء عصر المماليك وكتابه بسعة فراغهم وضعفهم الأدبى ، والاشتغال بالتافه من الأمور ، إذا رأيناهم يعتنون بالألغاز ويشتغلون بها .

على أن الاشتغال بالألغاز ليس صناعة مملوكية مبتكرة ، ولكنه من مخلفات الأدب فى العصور المواضى على أننا نشعر أنها صناعة اتسع نطاقها وامتدت آفاقها فى مصر والشام زمن المماليك .

ويبدو أنها كانت صناعة شعرية ، ثم شملت النثر كذلك . لم تقتصر إذن على النثر والشعر ، ولم تقتصر كذلك على المسائل الأدبية ، بل امتدت إلى المسائل العلمية ومشاكل النحو والصرف والفقه واللغة والحديث ، ونحو ذلك .

ومن هذا وذاك ، نرى أن فن اللغز فى الأدب العربى واسع النطاق ، وجدير بدراسة مستقلة شاملة ، منذ أقدم عصور الأدب حتى الآن . ومنها نستطيع — إلى حد ما — أن نتبين إحدى نواحى العقلية والعاطفة العربية .

وبدهى أننا نتحدث هنا عن الألغاز فى نطاقها الأوسع ، لا باعتبارها لونا من ألوان البديع ، عارضا ، بل باعتبارها أسلوبا فنيا من أساليب الأدب يمثل إحدى نزعات التفكير والتعبير عند الأدباء :

والملحوظ فى الألغاز النثرية أن منها مالم يكتب بأسلوب أدبى فنى ، يسلكه فى عداد المقالات أو الرسائل الفنية ، التى نجد لها محلا فى هذا البحث . غير أن منها عددا تبادله الأدباء وأجادوا تدبيجه وتحريره وسبكوه فى قوالبهم الفنية البديعة ، وسكبوا عليه من روائع يراعتهم وبراعتهم ، فخول لها ذلك أن تسلك هنا وتحتل مكانا بين شتى ضروب المقالات والرسائل . وكنا نسلكها فى عدادها ، لولا هذه الخصوصية البارزة التى اختصت بها الألغاز دون سائر مقالات الوصف ورسائله وهى قصد التعمية وتكلف الغموض مع الطرافة والتشويق فجعلها ذلك صنفا من المقالات جديرا بالاستقلال

ويتصل باللغز الرد عليه والإجابة بحله ، وكلاهما يجزء غالب عن مشرب واحد ، ويمتح من معين مشترك ولقد اعتاد الأدباء أن يزودوا ألغازهم بعبارات يتقارضون فيها الثناء ، كما اعتادوا « التراسل » بها ، ومن هنا ترى هذه « الأمثلة والأجوبة » ضربا من « الإخوانيات » . ولكنها لخصوصيتها السالفة ، ولأنها نشئت للوصف ، أو لأن الوصف غالب عليها ، آثرنا أن نسلكها في بابه .

هذا ومما اتخذوه موضوعا لألغازهم : الأدوات . والطيور والحيوان والأزهار والفاكهة والمأكولات والمشروبات ونحوها .

ونسجل هنا أمثلة للألغاز والرد عليها ، فمن ذلك :

ما كتبه العلامة الشيخ بدر الدين الدماميني إلى مجد الدين فضل الله بن مكانس ، الأديب ، ملغزا في « قدح » فقال :

« ما اسم حبيب إلى النفوس · شبيه بالبدر حلف الشموس . إن قلب كان لقلبه من العين مكان المناسبة . أوسقط قلبه مع هذا الفعل كان ضدا للأقوال الكاذبة . وإن صحف بعد العكس أنبأ عن الذكاء ، وهذا غاية الشرح . وإن غير ثانيا علم رب الكلام أنه دال على الطرح . حاشيتاه مع التصحيف آلة للصيد · معينة على المكر والكيد . وإن قطع طرفه كان مزاج باقيه قواما . وإن عكس كان الطرب بتصحيفه مداما . وإن زال أوله كان انعكس عتابا لمتعاطى إثمه . وإن صحف اشتاقت الشفاه إلى تقبيله ولثمه . وربما كان المقول عند تصحيفه الآخر منافيا لاسمه · مباينا في الحقيقة لحده ورسمه . » .

فكتب مجد الدين فضل الله بن مكانس جوابا ، فيه الرد ، وفيه لغز جديد في « ورد » ، فقال في رده :

« يقبل الأرض التي أطالت بالجنة حرمانه . وتداركته بعد إجراء دموعه فعظمت في الحالين شانه . وانتهى المملوك إلى اللغز الذى تمتع بملحه . وشرب بقدحه · فابتهل

شكرا . ومالت أعطافه بالقدح الفارغ سكرا . فوجده قد لعمولانا حبيبا إلى النفوس . مجتهدا فى التوصل بما حازه إلى الرءوس . »

وقال فى لغزه فى « ورد » :

« ما عاطل يتحلى به المجالس . ويتفكه به فى المجالس . محمر وجناته من الشرب . ومحمد آثاره فى البعد والقرب إن قلبته وجدته تاجا وإن تركته على حاله زاد ابتهاجا . يعذب بالنار وغيره الجانى . ويريك إن بدلت أوله برد الأمانى . يستخرج وهو خارج . ويرى معه من نار قلبه هاطل[1] لاتبرح به غبطة . ولا تجد فيه مع انهما له نقطة . فإن حذفت أوله وحرفت باقيه وجدته أمرا بالشراب . وإن فعلت كذا فى ثانيه رأيت ما بقى مولدا للمحبة بين الأحباب وور إن حذفت آخره كن ورى . وغص فى بحر الفكر على عكس ثلثيه لتستخرج درا .

والمملوك يسأل الصفح فإنه لولا المحبة ما أجاب . ولا طرق بعد فقد أبيه هذا الباب . » .

فكتب إليه الشيخ بدر الدين الجواب ، فقال :

« يقبل الأرض . وينهى ورود الجواب الذى شفى القلوب بوروده . واللغز الذى نسى بوروده بان الحمى رطيب وروده . فوجده روض بلاغة عدم العاتب والعائب . وترعرع زهره حيث أمطرته من الأنامل المجدية خمس سحائب فلوشاهده ابن الوردى لاحمر خجلا . أو صاحب زهر الآداب لتلون وجلا . ثم تأمل حل اللغز فوجده قد كشف المشكل وجلى . واعترف أنه لم ير بديهته أطيب من ذلك الحل ولا أحلى . وتحقق أن مولانا أوسع المملوك فى مقام الأدب بفضله إيناسا . وتناول منه قدحا أعاده بألفاظه المسكرة كاسا . وانتهى المملوك إلى اللغز المخدومى ، فقال :

مولاى مجد الدين يا من فضله يروى وجود كفوفه يروى الصدى

---

١ — هكذا فى الأصل ، ويبدو أن بعض العبارات سقط .

ألغزت فى اسم عاطل حليته فينا بدر اللفظ أوقطر الندى
إن أورد التحريف فى أثنائه قد كان الثانى هلاكا أوردى »

وقال مجيبا عن لغز « الورد » ويمدح مجد الدين :

لله لغزك يامولى فضائله قد عطر الكون منها طيب أنفاس
أتى بورد فحيانى على قدحى به وأبهجنى ما بين جلاسى
وقد أساجرح كسرى حين أقبل لى روحى الفداء لذكر الورد والآس (سى)

فاستحلى المملوك بالتحريف ورده . وود لواقتطف من أغصان حروفه ورده . ورده إلى ذل القصور عاريا عن ملابس عزه . وأنشد قول ابن قلاقس ، وقد تقلى بنار عجزه :

إذا سمتك أشجار المعالى جناها الغض فاقنع با لشميم

فراح على بهرج هذا الرأى الكاسد . واقتنع بالشميم على رغم أنف الحاسد وعلم أن تلك الورود لاتخرج إلا من تلك الخضرة . وأن هذه الفاكهة لاتخرجها إلا أغصان أقلام لها باليد المخدومية بهجة ونضرة . وتمشى المملوك من هذا اللغز فى بساتين الوزير على الحقيقة . ورأى كل ورقة فاحمرت الوجنات الحمر فتحير أهى وردة أم شقيقة . وتفكه بها معجبا بثمار غرسه . منشدا لمن كرر النظر فى صحيفتى طرسه .

إن كنت تزعم ما فى خده عجبا فانظر إلى الورد فى خديه منثورا

فلقدظفرت من نفسه الوردى بالعنبر الورد . وعوذته عند تبديل الثلاثة بالواحد الفرد . وتأملت بقصور راحتى تكة برد الأمانى . فانعقد لسحر البيان اسانى وتيقنت أنه لا يقوى على فهم هذا البرد الا كل حديد النظر . ووجدت تصحيف هذه الكلمة ياشمس الفضائل . للعقول قمر . وعلمت أن الفكر لايجارى من بديهته من بحر الفضائل روية . وأن الخاطر لايقوى على سلطان هذا اللغز لأن شوكته قوية . وقلت للذهن : رد بعضه لتنتهل شرا باسائغا . وزد تصحيفه ليكون فى التعريف بمعناه مبالغا . وتمتعت من زورده بالمشموم . ثم تذكرت البعد عن جناب المخدوم فاستقطر البين ماء الورد من حدقى

لمولانا الصفح عن مقابلة هذا البر باليقظ . ويجبر بهذا الحشف الملتقط ».[1]

نكتفى بما مر . ونسجل مواضيع ألغاز أخرى ، فمنها :

١ — لغز لزين الدين بن العجمى فى « الماء » مثبت خزانة الأدب ص ٢٩٧ ، وفى حلبة الكميت بالباب العشرين . وفى روض الآداب لشهاب الحجازى بعنوان « النيل »

٢ — لغز لعز الدين بن البهاء الموصلى إلى الصلاح الصفدى فى . . أمس « مثبت فى « الأشباه والنظائر » للجلال السيوطى وبه أيضا جوابه من الصفدى

٣ — جملة من الألغاز للجلال السيوطى فى كتابه « الأشباه والنظائر » ، وبه ألغاز كثيرة لغيره .

٤ — لغز أنشأه المولى شرف الدين حسين بن المقر الجمال بن ديان . فى « المئذنة » وألزم الصلاح الصفدى بالجواب عنه . وقد أجاب الصفدى عنه ، وكذلك أجاب عنه القاضى بدر الدين بن مكى . — واللغز والجوابان مسجلة فى تذكرة الصفدى بالجزء الرابع عشر « مخطوط بدار الكتب » .

---

١ — اللغزان والرد عليهما فى خزانة الأدب ص ٣٩٥ باب الألغاز . كما أن اللغز الأول والرد عنه فى حلبة الكميت بالباب الثالث عشر .

الفصل السابع

خطب الكتب

اعتاد المؤلفون أو الناظمون والأدباء ، منذ القديم أن يقدموا بين يدى مؤلفاتهم ومجاميعهم ودواوينهم « خطبا » تطول أحيانا ، وتقصر أحيانا يصفون فيها كتبهم ويبينون الغاية منها والمنهج الذى اتبعوه فى وضعها . كما اعتادوا أن يتأنقوا فى صوغ هذه الخطب ويبدعوا فى نظمها ، لأنها طليعة الكتاب والمبشرة به ، وخير عنوان عليه . وهى منه بمثابة صفحة الوجه من الإنسان .

ونهج الأدباء والمؤلفون فى عصر المماليك هذا النهج ، سواء أكان ما ألفوه كتابا أدبيا أم علميا أو مجموعة من مجاميع الشعر أو النثر أو المحاضرات المختلفة . والتزموا فى هذه الخطب خطوات وسمات خاصة . وذلك كبدئها بحمد الله والثناء عليه سبحانه وتعالى ، والإقرار بالشهادتين ، والصلاة والسلام على نبيه الكريم وآله وصحبه . ثم بيان أهمية المؤلف وطريقة تأليفه . ويذكرون أحيانا المراجع التى رجعوا إليها واعتمدوا عليها والأسباب التى دفعتهم إلى التأليف .

وأهم من هذا أنهم التزموا صوغها صوغا أدبيا فى أسلوب مسجوع الفقرات فيه ألوان البديع ما بين طباق وجناس وتضمين واقتباس وتوريات وتوجيهات إلى غير ذلك مما ألهم . وأجادوا فى استهلالهم بما يشعر حقا ببراعة . فضمنوا سطورها الأولى ألفاظا وعبارات تومئ وتنبئ بموضوع الكتاب ، وتدل على لطائف ذوقية أصيلة .

نهج المؤلفون هذا النهج ، لم يحيدوا عنه فى جميع ما ألفوا ، لا تكاد ترى كتابا خلا من مثل هذه الخطبة أو المقدمة — طويلة أو قصيرة — حتى فى أعرق كتبهم علما

واصطلاحا ، مثل كتب النحو والفقه والبلاغة والمنطق والحديث ، إلى غير ذلك . نهجوا هذا النهج ، حتى ابن خلدون فى خطبة كتاب تاريخه أو خطبة مقدمته ، نهج أيضا هذا النهج الذى عابه على كتاب عصره ، فى أحد فصول مقدمته المذكورة . بل كان أكثر منهم التزاما وأثقل سجعا وتكلفا .

وبعد ، فهذه الخطب بهذا السمت ، ألزمتنا أن ننوه بها هنا فى باب الوصف ، لأنها فى جملتها خطب واصفة تصف المؤلفات وصفا أهدأ وأكثر دقة ووضوحا ونفعا من التقاريظ التى مربنا ذكرها .

وإليك نموذجا منها نكتفى به مقتطفين سطوره فى مواضع متنوعة :

قال السيوطى فى خطبة كتابه « كفاية الطالب اللبيب فى خصائص الحبيب » . وهو كتاب جليل فى السيرة النبوية وأحاديث الرسول عليه السلام ، ويعرف « بالخصائص الكبرى » .

قال فى تحميده ودعائه .

« الحمد لله الذى أطلع فى سماء النبوة سراجا لامعا وقمرا منيرا . وأطلع من الرسالة ثمرا يانعا وزهرا منيرا . تبارك اسمه . وتمت كلمه . وعمت نعمه . وجمت حكمه . وجرى بما كان وما يكون قلمه . أوجد الأنام من العدم . وجعل الضياء والظلم وخلق اللوح والقلم . وقدر الآجال والأرزاق والأعمال وقسم . أحمده وهو المحمود أزلا وأبدا . وأشكره مستزيدا من نعمه مسترفدا . وأستهديه ومن يضلل الله فلن تجد له وليا مرشدا . وأستنصره ولن تجد من دونه ملتحدا . وأستكفيه وله الحول والقوة سرمدا . وأستعينه ونعم المولى والنصير مؤيدا . » الخ .

وقال فى الشهادة بمحمد عليه السلام ، وفى مدحه بما هو أهله ، وفى وصفه ببعض صفاته الكريمة :

« وأشهد أن سيدنا محمدا عبده ورسوله . نبي ماضل وماغوى . ومانطق عن الهوى . ولقد رآه نزلة أخرى . عند سدرة المنتهى . عندها جنة المأوى . وسمع صريف الأقلام بالمستوى . وكتب الرحمن اسمه على العرش إذا استوى . وآذن باسمه فى المبتدأ فى الأرض وفى السما . ويوم النشأة الأخرى . سلم عليه الحجر والشجر . ودر له ضرع الجذعة بالدرر . وحن الجذع لفراقه حتى خار خوار البقر ونبع الماء من أصابعه ومن الأرض انفجر . وانشق له وكان يناغيه فى مهده القمر . » الخ .

وقال فى وصف آل النبي عليه السلام ، وأصحابه مصليا عليهم :

« نجوم الهدى . وليوث العدى . وغيوث الندى . ماصاح حاد وشدا . وراح شاد وغدا . وصاب غادوهدى . وغاب صادوبدا . وصال بادوودى . وسال وادوجدى . » .

وقال يصف كتابه :

هذا كتاب مرقوم ، يشهد بفضله المقربون . وسحاب مركوم يحيا بوابله الأقصون والأقربون . كتاب نفيس جليل . محله من الكتب محل الدرة من الإكليل . أو موضع السجدة من آى التنزيل . كتاب أمرعت قطراته . وأينعت ثمراته . وعبقت زهراته . وأشرقت أنواره ونيراته . وصدقت أخباره وآياته . كتاب بسقت فنونه . وأورقت غصونه . واتسقت أسانيده ومتونه . كتاب يؤجر قارئه ومستمعه . ويحفظ به إن شاء الله تعالى مؤلفه فيما يأتيه ويدعه . ويثبته بالقول الثابت إذا حان مصرعه . ويكون له فى عرصات القيامة نورا يسعى بين يديه ويتبعه . كتاب جمع فأوعى . ما كل عن جمعه ووهى . كل بطل شديد القوى . كتاب فاق الكتب فى نوعه جمعا وإتقانا يشرح صدور المهتدين إيقانا . ويزداد به الذين آمنوا إيمانا . وديوان مستوف لما تناسخته السفرة الكرام البررة . مستوعب لما تناقلته أئمة الحديث بأسانيدها المعتبرة . مشتمل على ما اختص به سيد المرسلين من المعجزات الباهرة . والخصائص التى أشرقت إشراق البدور السافرة . وأوردت فيه كل ماورد . ونزهته عن الأخبار الموضوعة ومايرد .

وتتبعت الطرق والشواهد لما ضعف من حيث السند . ورتبته أقساما متناسقة . وأبوابا متلاحقة . بحيث جاء بحمد الله كاملا في فنه . وابلا مطر[1] وجنه . سابغة ذيوله . سائغة نيوله . حلله ضافية . ومناهله صافية . وموارده كافية . ومصادره وافية . لاتجمع واردة إلا وهي فيه مسموعة . ولا تسمع شاردة إلا وتراها في ديوانه مجموعة . قربت فيه ما كان بعيدا . وآنست ما كان فريدا . وأهلت ما كان شريدا . وفتحت لكل غريبة وصيدا . وشرحت به صدور قوم مؤمنين . وقلوب طائفة آمنين . وغظت به الجاحدين والمفسدين والطائفة المبتدعة والملحدين . والفلاسفه المتمردين . ورجوت به الحسنى ومن يهد الله فهو من المهتدين . » .[2]

---

١ — هكذا بالأصل ويبدو أن بعض سجعاته سقط .

٢ — راجع مقدمة الخصائص الكبرى للجلال السيوطي .

كلمة ختامية

نحب أن نختم هذا الباب بالتنويه بألوان من المؤلفات الأدبية ، نتحدث عنها لأنها أقرب المؤلفات صلة وشبها بباب الوصف .

ونعلن أولا بأننا لا نؤرخ هنا « الحركة التأليفية » ، ولا نؤرخ « الحركة الأدبية » فلكل منهما مجال آخر غير هذا المجال الذى قصرناه على تاريخ « النثر الفنى » ، وإن يكن الحديث عنه جزءا من الحديث عن « الحركة الأدبية » .

غير أننا لم نر بدا من الحديث عن هذه « المؤلفات الأدبية » هنا فى أعقاب « باب الوصف » لشدة ارتباطها به ، وحذرا من أن ينسب إغفالنا لها إلى التقصير . نتحدث إذاً عنها فى هذه الكلمة الختامية فى إيجاز شديد ، ونرى مبلغ نصيبها من النثر الفنى ومن الوصف ، ومبلغ نصيبهما منها .

ونعنى بهذه المؤلفات خمسة أنواع هى :

١ — كتب التاريخ . ٢ — رسائل وفصول فى موضوعات متنوعة . ٣ — شروح الرسائل والقصائد . ٤ — الموسوعات . ٥ — المجموعات الأدبية .

١ — كتب التاريخ :

حفل العصر بعدد ضخم من كتب التاريخ ، فازدهر بها علم التاريخ . حتى إذا قلنا إنه العصر الذهبى للتأليف التاريخى لم نكن مبالغين . وتنوعت هذه الكتب واختلفت مشاربها ومناحيها ، فمنها كتب التاريخ العام ، وكتب الخطط والآثار ، والسيرة النبوية ، وسير الملوك وأشباههم ، وتراجم الأعلام ، وطبقات العلماء ، وغير ذلك .

واتسع نطاق بعضها حتى صار موسوعة جامعة لفنون التاريخ ، حافلة بنصوص الأدب .

وهى كتب واصفة فى جملتها ، مسجلة لحقائق التاريخ ووقائعه ، غير أن أسلوبها غلبت عليه نزعة القص والحكاية والسرد ، دون النزعة الأدبية الخيالية المثيرة ، إلا غراراً غراراً ، عند ترجمة بعض الأعلام ، أو الحديث عن أثر من الآثار ، أو ذكر موقعة هامة من مواقع القتال ، ونحو ذلك ، مما يثير اهتماما خاصا لدى المؤرخ ، فيجد فيه فرصة مواتية تنشط لها روحه الأدبية ونزعته الخيالية ، فيفيض فى الوصف بين جو شعرى ، ويبدع ويجيد كما شاء له خياله . وقد كان كثير من المؤرخين — أو كلهم — أدباء ينظمون الشعر أو يكتبون الرسائل ، ولديهم ذخيرة موفورة من الطبع والمرانة تقدرهم على الإبداع والإجادة .

ونذكر من بينهم — على سبيل المثال — ابن خلكان وله كتاب « وفيات الأعيان » ، والحافظ ابن حجر وله « الدرر الكامنة » ، وشمس الدين السخاوى وله « الضوء اللامع » ، والصلاح الصفدى وله « الوافى بالوفيات » ، وأبو المحاسن بن تغرى بردى وله « المنهل الصافى » و « النجوم الزاهرة » ، وتقى الدين المقريزى ، وله « الخطط » و « السلوك » ، وتاج الدين السبكى وله « طبقات الشافعية » ، وشمس الدين الذهبى وله « دول الاسلام » و « طبقات الحفاظ » ، و بدر الدين العينى وله « عقد الجمان » ، والجلال السيوطى وله « حسن المحاضرة » ، وابن إياس الحنفى وله « بدائع الزهور » إلى غير ذلك من عيون الكتب وقيمها .

وقد نوهنا بكتب التاريخ وأسلوبها ، فى مواضع أخرى من هذا البحث ، وهى مختلفة الأساليب ، يتبسط بعضها فى العبارة تبسطا يبعدها عن إناقة الأدب وسمة الجمال ، ومنها ما التاث بالعامية ألفاظها وتعبيراتها . ولكنها — بلا ريب — قد سلم من عباراتها جمل ذات خطر وأثر . ويتجلى لك هذا فى كتب تاج الدين السبكى وابن

خلـكان مثلا ، وليس المقام مقام الإفاضة فى وصف أساليبها ، و إنما نجتزىء هنا بذكر نموذج مما راق ورق منها .

من كلام تاج الدين السبكي فى طبقاته ، يترجم لأبيه تقي الدين السبكى ، قوله :

« شيخ المسلمين فى زمانه . والداعى إلى الله فى سره و إعلانه . والمناضل عن الدين الحنفى بقلمه ولسانه . أستاذ الأستاذين . وأحد المجتهدين . وخصم المناظرين . وجامع أشتات العلوم . والمبرز فى المنقول منها والمفهوم . والمشمر فى رضا الحق وقد أضاءت النجوم . شافعى الزمان . وحجة الإسلام المنصوب من طرف الجنان . والمرجع إذا دجت مشكلة وغابت عن العيان . عباب لاتكدره الدلاء . وسحاب تتقاصر عنه الأنواء . وباب العلم فى عصره ، وكيف لا وهو علىّ الذى تمت به النعماء .

وكان من العلوم بحيث يقضى له من كل علم بالجميع

وكان من الورع والدين . وسلوك سبيل الأقدمين . على سنن ويقين . إن شاء الله مع المتقين . صادع بالحق لايخاف لومة لائم . صادق فى النية لايخشى بطشة ظالم . صابر و إن ازدحمت الضراغم . منوط به أمر المشكلات فى دياجيها . محطوط عن قدره السماء ودراريها . مبسوط قلمه ولسانه فى الأمة وفتاويها . شيخ الوقت حالا وعلما . و إمام المحققين حقيقة ورسما . وعلم الأعلام فعلا واسما .

إذا تململ فكر المرء فى طرف من مجده غرقت فيه خواطره

لا يرى الدنيا إلا هباء منثورا . ولا يدرى كيف يجلب الدرهم فرحا ، والدينار سرورا . ولا ينفك يتلو القرآن قائما وقاعداً ، وراكبا وماشيا ، ولو كان مريضا معذورا . وكانت دعواته تخترق السبع الطباق . وتفرق بركاتها فتملأ الآفاق . وكيف لا وقد رفعت على يد ولى لله ، تفتح له أبوابها ذوات الأغلاق . وكانت يداه بالكرم مبسوطتين لايقاس إلا بحاتم . ولا ينشد إلا على قدر أهل العزم تأتى العزائم . لايعرف إلا العطاء

الجزل ، وتأتى على قدر الكرام المكارم . »[1]

٢ — رسائل وفصول فى موضوعات متنوعة :

يصادف المطالع فى الكتب الأدبية ونحوها ، رسائل « وفصول » كتبت لغرض من الأغراض الأدبية ، وهى تدل — فيما تدل عليه — على قريحة نافذة وعقلية سامية ونظر سليم .

واتبع فى تدبيجها أسلوب سهل لطيف فيه أناقة وطرافة وتأثير . طورا مسترسل لا قيد فيه . وطورا آخر بديعى مسجوع تتتابع فقراته دون أن يشوبها تكلف ، أو يشينها نبو ، إلا نادراً . يسرح فيها الخيال الشعرى الجميل القائم على رائع المجازات وبارع التشبيهات .

لهذا رأينا أن نعرض هنا نماذج لتلك الرسائل والفصول من ألوان متنوعة الموضوع وسيرى القارىء الكريم أنها بباب الوصف ألصق منها بأى باب آخر . وذلك منا على سبيل التدليل والتمثيل فمن ذلك :

١ — التأليف الطاهر فى شيم الملك الظاهر :[2]

هذا كتاب فى سيرة الملك الظاهر « جقمق » أحد سلاطين مصر . حكمها بين سنتى ٨٤٢ هـ ، ٨٥٧ هـ ، وقد ألفه المؤرخ البارع شهاب الدين أحمد بن عر بشاه ، مؤلف كتاب « عجائب المقدور فى نوائب تيمور » الذى سنتحدث عنه فى باب القصص .

---

١ — عن طبقات السبكى ج ٦ ص ١٤٦ ، ١٤٧

٢ — اطلعت على نسخة من هذا الكتاب مصورة تصويرا شمسيا عن مخطوط بالآستانة ، يملكها فضيلة الأستاذ الشيخ محمد الزاهد الكوثرى — رحمه الله تعالى —

وكان لنا أن نختار الحديث عنه موضعاً من هذا البحث آخر ، غير موضعه هنا ، أو نضرب الذكر صفحاً عنه ، لولا خصوصيات فيه ، ومظاهر جوهرية بادية عليه ، أخرجته — فى نظرنا — عن نطاق كتب التاريخ . والواقع ، أن سيرة جقمق ، التى ألف لها ، لم تبد فيه بدواً أصيلا ، بل عارضا ، وخاصة بالقياس إلى المعلومات الأخرى التى سيقت بجانبها .

وحسب القارىء أن يطلع على خلاصة وجيزة عن مضمون فصول هذا الكتاب الفريد حتى يرى معنا أنه ليس كتابا فى التاريخ ، وإنما هو — فى الحق — مجموعة من فصول أدبية ممتعة ، فيها أدب وحكمة وفيها خيال وحقيقة ، وفيها منطق وفلسفة ، وفيها أخلاق واجتماع .

وهو يحتوى على خطبة بديعة يتصل بها فصلان . ثم يستقل بعدهما عشرة فصول . ويبدو لنا — بهذه المناسبة — أن النسخة التى تصفحناها منه ناقصة ، وأن الكتاب فصولا أخرى مفقودة . أو على الأقل ، بقية الفصل العاشر . وذلك لأنه لم يختم الختام المألوف فى الكتب ، مما يشير إلى انتهاء تأليفها .

أما الخطبة ، فقد تضمنت بعد التحميدات والصلوات على النبى الكريم ، سطورا فى وصف الإنسان وخلقه وبراعة تصويره . وفى سيرته وسريرته وأخلاقه المحمودة والمذمومة وفى تفاوت الناس فى درجات الكمال . ثم أشار إلى اختصاص عصره بدولة الظاهر جقمق ، لما آتاه الله من ضروب الفضل والكمال . . وأخذ فى الثناء عليه وإطرائه .

أما فصلاها الملحقان بها ، فقد ذكر فى أولها ، مبدأ أحوال السلطان إلى أن صار إماما عادلا يتبوأ عرش السلطنة . وفى ثانيهما أوضح ما اختصه الله به من الأوصاف المحمودة مما ميز به الإنسان حتى صار إنساناً ، وبمقدار ما يصيب منها يرقى فى سلم الإنسانية .

أما الفصول العشرة :

فالأول : فى ذكر النفس وماهيتها وما ذكره فى ذلك حكماء الإسلام وغيرهم. وفيه تحدث عن طبيعة النفس البشرية وكنهها وتعلقها بالبدن . وعن تقسيم أفلاطون لها إلى ثلاثة أنواع : ناطقة ومحلها الدماغ ، وشهوانية ومركزها الكبد ، وغضبية ومكانها القلب . كما تحدث عن اللوامة والأمارة والمطمئنة .

والثانى : فى بيان الصفات الحميدة ومنبع الخصال السعيدة وقد أرجعها إلى العقل وقسمه قسمين : غريزى — أى خلقى — وهو مناط التكليف ، وتجريبى يكتسب بالتجربة . وقد فصل الحديث عن كل من القسمين..

والثالث : فى حسن الخلق وفضله . وقد تحدث هنا عن سوء الخلق وآثاره . ثم أورد من محاسن أخلاق جقمق وفضائله وعاداته القويمة وتقاليده الدينية السليمة ، ما استحق من أجله الثناء . . .

والرابع : فى العلم وفضيلته ومزية أهله على سائر المخلوقات . وقد أسهب فى ذلك إسهابا محموداً ، مشيراً إلى احتياج الدول والملوك والحاكمين إلى العلم ، مبينا نصيب جقمق منه . . . وهو نصيب موفور أهله لولاية أمر المسلمين . والملحوظ أنه يقصد بالعلم فهم الشريعة الإسلامية والعمل بتعاليمها .

وعلى هذا النسق ، تحدث فى الفصل الخامس عن التواضع ، وفى السادس : عن الحلم والعفو والشفقة ولين الجانب ، ونحو ذلك . وفى السابع : عن شكر الله على نعمه وفى الثامن : عن التوكل والتفويض وتحمل المشاق والصبر والثبات فى الأمور . وفى التاسع : عن العدل وفضله ، وقد أسهب فى ذلك وأفاض ، وبين فى أعقاب هذا الفصل أن « جقمق » قد حاز جميع الصفات المذكورة فى الآية الشريفة : « إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى ، وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى » —

وهذا الفصل من أبدع فصول الكتاب . وفى العاشر : عما يحتاج إليه الملوك والسلاطين مما هو قوام السلطنة والملك ، وعماد الدولة ، كاتخاذ الوزراء والناصحين وغيرهم .

والملحوظ أن المؤرخ لم يلتزم الحديث عن سلطانه فى أعقاب كل فصل من فصول كتابه . بل تحدث عنه فى بعضها دون الآخر . كما أنه حين حديثه عنه ، لم يذكر شيئا عن حوادثه التارخية أو وقائع عهده — على نمط المألوف فى كتب التاريخ . بل عنى بذكر نواحيه الخلقية فحسب . ونواحيه الخلقية المحمودة وصفاته الفاضلة فقط . وكأنى بالمؤلف افترض فى سلطانه هذا نموذجا من نماذج الكمال الإنسانى فكال له المديح كيلا ، وأغدق عليه من آيات الحمد والتعظيم ماجعل الكتاب — فى هذه الناحية — قصيدة مدح منثورة ، لا كتاب تاريخ . ولهذا ينبغى ألا نعتمد عليه فى الناحية التاريخية إلا بمقدار . فما هو — كما أشرنا — إلا مجموعة من فصول أدبية رائعة متنوعة الموضوعات ، مطبوعة فى الغالب بطابع الوصف ، وتدل فيما تدل عليه ، على عقلية للمؤلف ممتازة زاخرة بألوان المعارف ، وعلى عارضة قوية قديرة على أداء المعانى الدقيقة بالعبارات الرقيقة .

ومن هنا نرى أن هذا الكتاب طراز آخر ، غير طراز « عجائب المقدور » الذي سنتحدث عنه فيما بعد .

أما أسلوبه فقد التزم فيه ، وفى مفتتح الخطبة ومفتتح كل فصل ، أن يذكر آيات من القرآن وشيئا من حديث الرسول ، تتناسب مع موضوع المقال . ويتبعها بجمهرة من أقوال الحكماء وأمثالهم وقصص التاريخ وحوادثه ، وأبيات الشعراء فى المعنى ، مما لا يدع للقارىء رغبة فى المزيد ، ويشبع ما عنده من نهم .

وجنح إلى الأسلوب البديعى المسجوع فى بعض سطوره ، وبخاصة بمطور خطبته ومستهلها ، وعندما يتحدث عن « جقمق » ويجنح إلى مديحه . أما عدا هذا فالغالب على أسلوبه الطلاقة والانطلاق من البديعيات ، والاسترسال خلف المعنى بحرية فى العبارات ونظام الفقرات . وهذه إحدى المفارقات التى يفارق بها أيضا كتاب « عجائب المقدور » الذى التزم فيه البديع والسجع .

وبعد فإليك سطورا من هذا الكتاب البديع الذى لا تجزىء فى التعريف به عجالة كهذه :

قال فى الخطبة بعد الحمد والصلاة ، يتحدث عن خلق الإنسان :

« أما بعد فإن الله تعالى ، بجميل صنعه ورحيم رأفته ، وجسيم فضله وعميم نعمته جعل الإنسان أشرف الموجودات ، وألطف المخلوقات ، وواسطة عقد الكليات . ودرة صدف الفطرة ، ومركز دائرة الحكمة ، وثمرة شجرة الوجود ، والمقصود بعبادة المعبود . قال الله سبحانه وتعالى : « وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون » وجاء فى حديث قدسى : « يا ابن آدم خلقت الأشياء كلها من أجلك ، وخلقتك من أجلى » .

وللإنسان صورة وسيرة . وظاهر وسريرة أما صورته وظاهره فكما قال الله تعالى : « لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم » وقال تعالى : « وصوركم فأحسن صوركم » . فهو أحسن الحيوانات شكلا وأزهى . وأعجب منظرا وأعدل قامة وأصبح وجها . وأفصح نطقا ، وأطرب نغمة وألين ملمسا وأرشق حركة وهو مركب من لطيف الجواهر وكثيفها ففيه من كثيف الأرض ولطيف الهواء ، ورقيق النور وصفو الماء . ولذلك صار معتدلا وسمى العالم الأصغر المحصور فى العالم الأكبر .

بيانه : أن رأسه كهيئة الفلك فى شكله واستدارته واجتماع الأجرام النيرة فيه

كالسمع والبصر والشم والذوق والنطق . فعيناه كالشمس والقمر . وأذناه كالمشرق والمغرب . وأنفه كهب الرياح . وأمامه كالنهار . ووراءه كالليل . وحركته كسير النجوم . وسكونه كوقوفها . ورجوعه القهقرى كهبوطها . وموته كاحتراقها . وأعضاؤه الباطنة سبعة كالكواكب السيارة . وأعظم رأسه سبعة كعدد أيام الأسبوع . وفقار ظهره أربعة وعشرون كساعات اليوم والليلة . ومفاصله ثمانية وعشرون كمنازل القمر وحروف الهجاء . وأمعاؤه ثلاثون كعدد أيام الأهلة . وعروقه الضوارب ثلثمائة وستون عرقا كعدد أيام السنة . والنواكس كذلك كعدد لياليها . وطبائعه أربعة كالفصول الأربعة . وجسده كالتراب . ودمه كالبحار . وعروقه كالأنهار . وعظامه كالجبال . وشعره كالنبات . وهذه نكتة من بدائع صورته وعجيب تركيبه . ولو أرخيت عنان الكلام فى هذا المقام لفات المقصود . » الخ .

هذا إحصاء لطيف ، وموازنة طريفة ، وأسلوب مرسل فى أكثر سطوره .

و إليك سطورا أخرى من مديحه لسلطانه ، فى أواخر خطبته وهى فقرات مسجوعة مطرزة بالحلى البديعية قال منها :

« وقد منّ الله سبحانه فى هذا العصر . وجبر هذه الأمة الضعيفة بعد الكسر . برحمة شاملة ونعمة كاملة . ودولة عادلة . وأيام سحائب خيرها بالأمن والإحسان هاطلة . وهى الأيام السعيدة والدولة الشريفة الحميدة . أيام دولة مولانا وسيدنا ، ومالك رقابنا . السلطان الأعظم . المالك الملك الأكرم الأفخم . سيد سلاطين العرب والعجم . والترك والديلم . خادم الحرمين . ومخدوم الثقلين . حامى العباد وماحى العناد . المؤيد بالنصر . المسدد بالفخر . الملهم سيرة العدل . المثبت من الله تعالى بالفضل والفصل . . ظل الله فى الأرضين . ناشر رايات الخير على الإسلام والمسلمين . ماد سرادق الويل على الكفرة والملحدين رافع ألوية الحق . ناصب ألوية الصدق . كاسر أرباب النفاق .

جازم أصحاب الشقاق . مظهر كلمة الله العليا . مخفى آثار الشرك والربا . منصف المظلومين من الظالمين . مشيد سند سيد المرسلين . ملاذ الملوك ملجأ السلاطين . غوث الملهوفين والضعفاء . مربى العلم والعلماء الملحوظ بالعناية الأزلية . الملفوظ بالولاية الأبدية . مولانا السلطان المالك الملك الظاهر أبى سعيد حقيق . » الخ

---

٢ — تذكرة السامع والمتكلم فى أدب العالم والمتعلم : (١)

هذا الكتاب فريد فى بابه ، ونسيج وحده . وحقه أن يدرس دراسة مفصلة مستقلة تبرز ماهيته وتكشف الكثير محاسنه وسجله من صائب الآراء فى الآداب والتربية .

وقد ألفه القاضى الفقيه والعالم الأديب « بدر الدين بن جماعة الكنانى المتوفى عام ٧٣٣ هـ » . وموضوعه أوسع بكثير مما يدل عليه عنوانه . فهو فى وصف التربية الإسلامية ، وماسنته من آداب ينبغى للعالم المتصدى للإفادة أن يتحلى بها ، ومارسمته من تعاليم ينبغى للطالب المتصدى للاستفادة أن يتبعها .

وآداب العالم وأخلاقه العلمية لاتقف عند أداء دروسه فحسب : وإنما هناك أمور ينبغى له ملازمتها ، والدأب على الاتصاف بها ، رعاية لحرمة علمه وإتماما لأداء رسالته .

ومن ذلك : دوام مراقبته لله تعالى ، والتزام جانب السكينة والوقار ، وتعظيمه لما يحمله من علم ، فلا يضع من شأنه ولا يحط من قدره بنفاق أو مراءاة لأمير أو عظيم ، وجنوحه إلى الزهادة فى الدنيا ، والركون إلى القناعة حتى لاتستعبده الحاجة ، والتنزه عن المطامع ، والربو بنفسه عن دنىء المكاسب ، واجتناب مواضع الشبهات ومزالق الريب ، والعكوف على عبادة الله ، والتحلى بكل مكرمة من مكارم الأخلاق مع البعد عن الحسد والحقد . إلى غير ذلك من دواعى الكمال .

---

١ — تصفحت نسخة من هذا الكتاب ، مطبوعة فى حيدر آباد الدكن بالهند عام ١٣٥٣ هـ تحت إدارة جمعية دائرة المعارف العثمانية .

وقد بين ابن جماعة كل ذلك مدعوما بالآيات والأحاديث ، وآراء كثير من فقهاء الأمة وكبار مفكريها ، مع بيان المزايا الناجحة منها .

ثم بين آداب العالم ، التي ينبغي له اتباعها لأداء درسه . أوقل العادات والتقاليد الإسلامية ، التي عليه انتهاجها في ذلك . فتحدث عن صفة الجلوس في الدرس واجتناب الأعمال المكروهة فيه . ونهى عن مزاولة التدريس في الأوقات التي يغلب فيها الحر أو البرد أو النعاس أو الجوع أو العطش . وتحدث عن حركات المدرس في درسه ، وعن وجوب اقتصاده في الالتفات إلى الحاضرين وقت الدرس ، وعن آداب افتتاح الدرس وختمه ، والاقتصاد في رفع الصوت ، والبعد عن اللغط والعناية بترتيب أجزاء الدرس ، وطرق معاملة المشتهين من الطلاب بدرسه ، والحث على التودد إلى غرباء الطلاب . والعناية بحسن ترتيب الطلاب ، وتأديبهم مع التدرج في ذلك ، والصبر حين شرح الدرس وتفهيمه لهم ، والتسوية بينهم في المعاملة ، والسؤال عن الغائبين منهم . إلى غير ذلك .

كذلك آداب المتعلم وأخلاقه العلمية لا تقف عند تلقي درسه فحسب . وإنما هناك أمور ينبغي له ملازمتها والدأب على التحلي بها ، حتى يصل إلى ما يصبو إليه أمله من تحصيل العلم . ومن ذلك : إخلاص النية في طلب العلم ، والمبادرة إلى تحصيله في أوقات الشباب ، والتغرب عن الأهل في سبيله ، والتفرغ من الشواغل الأخرى ، والقناعة باليسير ، وتنظيم الوقت وتقسيمه بين الحفظ والمطالعة والمذاكرة . والتورع والتمسك بآداب الدين ، والبعد عن الأطعمة الضارة ، والتقليل من النوم ، وإراحة النفس عند الملل ، والتفرج بالخروج إلى المتنزهات ، وجواز التزوج لما فيه من حفظ الصحة ، والعناية باختيار الرفيق ، وتعظيم العلماء والأخذ عمن منهم تنتظر الإفادة . . . إلى غير ذلك

والحق أننا لا نستطيع في هذا المجال ، إيفاء هذا السفر القيم ، حقه من حسن العرض ،

لما تضمنه من وافر المسائل ، وواسع النظريات التربويه ، التي تحتاج في عرضها وفهم ومناقشتها ومقارنتها بغيرها ، إلى ميدان آخر ، ومقال أوسع . وحسبنا أن نشير إلى أن المؤلف انبث بنظراته الفاحصة ، وبقلمه الحصيف ، في نواح شتى من نواحي المدرسة : معلمها وطالبها ، والسيطرة عليها ، ونظام التعليم بها ، وطرق الاتصال فيها ، وغير ذلك ، فضلا عن النواحي الخلقية ، فأجاد في الحديث عن ذلك كله حديثاً إسلامياً تبدو فيه روح التربية الإسلامية عامة ، وفي عصر المؤلف خاصة .

والكتاب ، بعد هذا ، منظم الأبواب والفصول ، مستقيم الترتيب ، مبني على خمسة أبواب :

الأول : في فضل العلم وأهله وشرف العالم ونسله .

الثاني : في أدب العالم في نفسه ومراعاة طالبه ودرسه .

الثالث : في أدب المتعلم في نفسه ، ومع شيخه ورفقته ودرسه .

الرابع : في مصاحبة الكتب وما يتعلق بها من الأدب .

الخامس : في آداب سكنى المدارس للمنتهي والطالب .

وعبارة المؤلف ، في جملتها رائقة رقيقة واضحة المرامي ، وهي وإن كانت مدعومة بالآيات والأحاديث وآراء السابقين ، فالمؤلف فيها شخصية بارزة ، تتجلى بسعة الإحاطة وحسن الاطلاع ، وأناقة الترتيب وعدم الخلط بين الموضوعات ، ودقة التصوير ، وعذب الحديث وأدب التعبير . وقد أرسل قلمه على سجيته ، ولم يقيده ببديع إلا لماما لماما ، ودون تكلف أو تعسف .

ولا يسعنا ونحن نختتم الحديث عن هذا الكتاب القيم ، إلا أن نعرض منه سطورا دالة عليه دلالة الشعاع على الشمس ، والقطرة على رحيق الكأس .

١ — قال فى أول الفصل الأول من الباب الثالث، متحدثا عما ينبغى للطالب أن يتجمل به من طهر القلب وخلوص النية لطلب العلم :

« أن يطهر قلبه من كل غش ودنس، وغل وحسد، وسوء عقيدة وخلق. ليصلح بذلك لقبول العلم وحفظه، والاطلاع على دقائق معانيه، وحقائق غوامضه، فإن العلم — كما قال بعضهم — صلاة السر، وعبادة القلب، وقربة الباطن، وكما لا تصلح الصلاة التى هى عبادة الجوارح الظاهرة إلا بطهارة الظاهر من الحدث والخبث، فكذلك لا يصح العلم الذى هو عبادة القلب إلا بطهارته عن خبث الصفات، وحدث مساوىء الأخلاق ورديئها.

وإذا طيب القلب للعلم ظهرت بركته ونما، كالأرض إذا طيبت للزرع نما زرعها وزكا. وفى الحديث : « إن فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهى القلب ».

وقال سهل : « حرام على قلب أن يدخله النور، وفيه شىء مما يكره الله عز وجل ». (١)

٢ — وقال أول الفصل الثانى من الباب الثالث، متحدثا عما ينبغى للطالب من اختيار شيخه محذرا من التقيد باختيار المشهورين من العلماء، دون غيرهم :

« إنه ينبغى للطالب أن يقدم النظر ويستخير الله فيمن يأخذ العلم عنه، ويكتسب حسن الأخلاق والآداب منه. وليكن — إن أمكن — ممن كملت أهليته، وتحققت شفقته، وظهرت مروءته، وعرفت عفته، واشتهرت صيانته، وكان أحسن تعليما، وأجود تفهيما. ولا يرغب الطالب فى زيادة العلم مع نقص فى ورع أو دين، أو عدم خلق جميل.

فعن بعض السلف : « هذا العلم دين، فانظر عمن تأخذون دينكم. »

---

١ — تذكرة السامع والمتكلم ص ٦٢.

وليحذر من التقيد بالمشهورين ، وترك الأخذ من الخاملين . فقد عد الغزالي وغيره ذلك من التكبر على العلم ، وجعله عين الحماقة ، لأن الحكمة ضالة المؤمن ، يلتقطها حيث وجدها ، ويغتنمها حيث ظفر بها ، ويتقلد المنة لمن ساقها إليه . فإنه يهرب من مخافة الجهل كما يهرب من الأسد . والهارب من الأسد لا يأنف من دلالة من يدله على الخلاص كائنا من كان . » [1] .

---

٢ — سكردان السلطان [2] :

هذا كتاب ألفه شهاب الدين بن أبي حجلة المغربي المتوفى عام ٧٢٦ هـ . وأهداه إلى سلطان مصر الناصر حسن بن الناصر بن قلاوون .

ومعنى « سكردان » آنية السكر [3] . أما موضوعه فهو غريب إذ يتركز حول العدد « سبعة » . فقد جمع فيه مؤلفه ألوانا من المعارف والمصادفات والنوادر ، ذات الصلة الوثيقة بالحياة المصرية والتاريخ المصري ، واتسمت كلها بهذا العدد « سبعة » . وقد لا تجمع بينها جامعة في نوعها ، أو موضوعها ، أو غير ذلك ، سوى هذه الجامعة ، ويظن المطالع أن لا صلة بينها ولا رابطة . فاستطاع المؤلف بثقوب بصره وحدة نظره ، أن يجد بينها المناسبة الجامعة ، وهي اشتراكها في هذا العدد « سبعة » .

وقد دلل المؤلف على أن العدد المذكور ، دون سائر الأعداد ، طابت له الإقامة في مصر ، فاتخذها موطنا لا يريم عنه . فجرى كثير من حوادثها وملابساتها ، متسما به دون سواه من الأعداد .

خذ مثلا : يوسف الصديق عليه السلام ، رأى الرؤيا بمصر ، وهو ابن سبع سنين

---

١ — تذكرة السامع والمتكلم ص ٨٥   ٢ — سكردان السلطان مطبوع .

٣ — انظر كتاب « اكتفاء القنوع » في حرف السين .

ورأى ملك مصر فى أيامه رؤياه المشهورة ، وفيها سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف ، وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات . وقد تحققت الرؤيا وفق ما فسرها به يوسف الصديق .

و إليك الحاكم بأمر الله الفاطمى : لبس الصوف سبع سنين . وأوقد الشمع ليلا ونهارا سبع سنين . ومنع النساء من الخروج ليلا ونهارا سبع سنين وسبعة أشهر . وكان يقرأ نسبه على المنبر كل سبعة أيام . وأنه قتل وهو يلبس سبع جبات مزرورة عليه .

وأما السلطان الناصر حسن — الذى أهدى الكتاب إليه — فإنه وافق أباه الناصر محمدا فى سبعة أمور هى :

اللقب ، وترك السلطنة والعودة إليها ، والجلوس على العرش فى المرة الأولى يوم ١٤ فى الشهر ، وفى المرة الثانية يوم ٢ شوال ، وأنه اتخذ وزيرا من المتعممين ومن أرباب السيوف ، وأنه حكم مرة دون وزير أو نائب سلطنة .

هذا ويحسن بنا أن ننوه بمشتملات الكتاب . فقد رتبه على مقدمة وسبعة أبواب ونتيجة .

وفى المقدمة : أجمل ذكر عدة حوادث مما وقع بالبلاد المصرية من متسمات العدد « سبعة » .

وفى الباب الأول : تحدث عن خاصية العدد « سبعة » وشرفه ومزيته على غيره من الأعداد .

وفى الثانى : عن العلاقة بين السلطان حسن والعدد «سبعة» .

وفى الثالث : عن إقليم مصر الذى عاش فيه العدد « سبعة » ذاكرا نبذة حسنة عن أخبار هذا الإقليم وحوادث القاهرة وأنباء النيل وما اتصل بذلك .

وفى الرابع : عن السلطان حسن وأنه سابع من جلس على سرير الملك ، من إخوته . مع نبذة يسيرة فى أخبار من تقدمه من ملوك الترك بمصر .

وفى الخامس : عن تاريخ الناصر حسن وإخوته وأبيه وعميه وجده . « وكلهم من أسرة قلاوون » .

وفى السادس : نوه بجملة حوادث عجيبة ما وقع لهؤلاء السلاطين ، لم يسبقه إلى تآثرها أحد — كما يقول —

وفى السابع : فسر شيئا ما أجمله فى خطبة الكتاب ، وما تحدث به فى الباب الخامس ، وتكلم عن الآثار النبوية . وهذا الباب ملىء بالنكت والنوادر الأدبية .

أما النتيجه : فهى أوسع ما تقدم مدى . وأرحب صدرا وأبسط حديثا . وفيها تدليلات وتوضيحات لما أبهم وتفصيلات لما أجمل فى المقدمة . وهى تشتمل كذلك على « سبعة » أبواب . فالأول فى قصة يوسف وقد فسر فيه سورة يوسف تفسيرا لطيفا . والثانى فى قصة فرعون وموسى . والثالث بسط فيه الكلام عن ملوك مصر وعجيب حوادثهم ومتفقات حياتهم . والرابع فى سيرة الحاكم بأمر الله الفاطمى . والخامس فى ذكر بعض حوادث مصر . والسادس فى ذكر حوادث القاهرة وضواحيها، وفى الأهرام وغيرها ، والسابع فى ذكر الزهرات السبع التى اجتمعت فى صعيد واحد وما قيل فيها من منظوم الكلام ومنثوره ، وغير ذلك .

هذا . وقد حرص المؤلف على أن يختم كل باب بخاتمة خاصة به ، مناسبة له .

ومن هذا العرض اليسير يتضح لنا جملة من المعارف والحوادث والنوادر المتباعدة التى ربط بينها المؤلف تحت راية العدد « سبعة » وكلها ذات صلة وثيقة بمصر . وهى تدل على سعة إحاطته ولباقة تأليفه .

وقد بين محتوياته بقوله فى خطبته :

« وسميته « سكردان السلطان » لاشتماله على أنواع مختلفة من جد وهزل ، وولاية وعزل . ونصيحة ملوك . وآداب وسلوك . وسير وعبر . وتغيير دول . وانتحال ملل . وقطع طريق . وجرجانيق . وأفعال مكرة . وأعمال سحرة : وبيان وتبيين . ومدح وتأبين . ويقظة ومنام . وبر وآثام . وقال وقيل . وأهرام ونيل . وغرائب وعجائب . مما تلقفته من أفواه الشيوخ الأجلة . ورويته عن كثرة وقلة . وشاهدته بعين الحقيقة . والتقطته من التواريخ المعتمدة عليها ، التقاط الزهر من الحديقة . » .

والأسلوب في كثير من سطوره عذب سائغ مطلق دقيق اللفظ ، أسبغ عليه المؤلف من شخصيته المرحة الفكهة الحكيمة ، وإن كان مملوءا بالاستشهادات والأقوال المنقولة .

وإليك سطورا مما كتبه في خاتمة الباب الرابع ، وفيها يجنح إلى الحكمة ويضرب المثل ويسوق التشبيه : وموضوعها : الحديث عن البغي وأن الله نصر الناصر بن قلاوون على من بغى عليه . وقد لاحظ هو بهذه المناسبة سبع ملاحظات قال :

« أولها : أقول : « قد تقدم أن السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون — والد مولانا السلطان — أعز الله تعالى أنصاره — كان ممن نصره الله تعالى على من بغى عليه لأنه كان يقال : « ما أعطى البغي أحدا شيئا ، إلا أخذ منه أضعافه » . وكان يقال : ما اجتمع الملك والبغي على سرير إلا خلا . وكان يقال : الملك الحازم ينال غرضه من عدوه بأربعة أشياء : باللين والبذل والمكيدة والمجاهرة بالعداوة في آخر وقت إذا رأى الفرصة . كما اتفق للملك الناصر — رحمه الله تعالى —

ومثال هذه الأشياء الأربعة التي ذكرتها مثال الخراج الذي يخرج في بدن الإنسان فإن علاجه في أول أمره : التحليل ، فإن لم ينفع فالتليين والإنضاج . فإن لم ينجح فالبط . فإن لم يكف فالكي ، وهو آخر العلاج . ولهذا قيل : « آخر الطب الكي » . فإن استعمل أحد هذه الأشياء الأربعة المذكورة مكان الآخر كان ذلك فسادا في

«التدبير ، بل يستعمل على الترتيب المذكور . وإلى الله عاقبة الأمور »
ثم أكمل حديثه حتى أتمها سبعا .

ونحب أن نعقب على هذا الكتاب بملاحظتين .

الأولى : أننا لا نذهب مذهب المؤلف فى أن العدد « سبعة » مستوطن فى مصر ، وعلى الأقل ، دون سواه من الأعداد . وأن ما جمعه المؤلف من حوادث السبعة من مصادفات الأقدار .

الثانية ، وهى أهم : أننا لا نرى مندوحة من أن نذكر أن لصلاح الدين الصفدى كتابا اسمه « طرد السبع فى سرد السبع » ، وهو كتاب مفقود . وقد اختصره جلال الدين السيوطى وزاد عليه أشياء من عنده وسماه « عين النبع فى مختصر طرد السبع » ، وهو مخطوط بدار الكتب المصرية . ومنه نستطيع أن نعرف ماهية « طرد السبع » . ويحتوى على ٢٩٦ صفحة مكتوبة بخط لا يكاد يرى بالعين المجردة ، وفى كل صفحة ٢٩ سطرا .

وقد تصفحت هذا المخطوط فوجدته قد جمع فأوعى . وحشد من المعلومات ما لا حد له . وكلها متسم بهذا العدد « سبعة » ، وهو أوسع أفقا من « سكردان السلطان » إذ تحدث عن صلة العدد « سبعة » بالقرآن والحديث والقراءات والتفسير والفقه والأصول وعلوم العربية وغيرها ، وبين عجائب وجوده فى الشعر والنثر والمجون والتاريخ . وتكلم عن الأئمة السبعة والأقاليم السبعة والبحار السبعة والمعادن السبعة وأيام الأسبوع والأزهار السبعة ، إلى غير ذلك . فهو موسوعة جامعة لهذا العدد وحياته فى شتى المعارف والأحداث الإنسانية ، وهو جدير بالإحياء والدراسة المستقلة .

غير أن أسلوبه جانح إلى التعبير العلمى وحشد المعلومات حشدا ورصها رصا ، دون أن يضفى عليها ثوبا أدبيا ، أو أن يؤلف بينها تأليف الطاقة لأزهارها ، لهذا زايله

الصوغ الفنى والقالب الأدبى . ومن هنا آثرنا أن ننوه به فى ذيل حديثنا عن « سكردان السلطان » الذى صبه مؤلفه فى قالب أدنى إلى الأدب والفن .

وننبه إلى أنه يبدو لنا أن ابن أبى حجلة استوحى فكرة كتابه من فكرة الصفدى فى « طرد السبع » ، والمسألة فى حاجة إلى بحث . وذلك أن ابن أبى حجلة ألف كتابه — ولا ريب — بعد عودة الناصر حسن إلى عرشه . وقد عاد سنة ٧٥٥ هـ — ولبث به حتى قتل عام ٧٦٤ هـ . والصفدى معاصر لهما وقد توفى عام ٧٦٤ هـ — والله أعلم .

---

٤ — ديوان الصبابة :

مؤلفه شهاب الدين بن أبى حجلة المغربى أيضا . وموضوعه — كما يبدو من عنوانه — فى وصف الصبابة وذكر ما يتصل بها وما قيل فى ذلك شعرا ونثرا . وهو ديوان جليل فى وصف العشق وما إليه ، يقع فى نحو ٢٥٩ صفحة .

وقد رتبه المؤلف على مقدمة وثلاثين بابا وخاتمة .

أما المقدمة فقد تحدث فى فصولها عن العشق ورسمه واشتقاقه وأسبابه وعلاماته ومراتبه وأسمائه ، ومدحه وذمه ، واختلاف الناس فيه ، وهل هو اختيارى أو اضطرارى. وروى ما عرفه به الفلاسفة والشعراء ومن شابههم . ومنهم فيثا غورس وأفلاطون وأرسطو ، ومنهم الجنيد والأصمعى . وأما الأبواب الثلاثون فكل منها مستقل ببحث خاص متصل بالعشق ، فمنها باب فى الفارق بين الحسن والجمال وما قيل فى ذلك . و باب فى ذكر المحبين والظرفاء من الملوك والخلفاء . و باب فى ذكر من عشق على السماع . و باب فيمن نظر أول نظرة . و باب فى تغير الألوان . و باب فى الغيرة . و باب فى إفشاء السر والكتمان و باب فى مغالطة الحبيب واستعطافه ، وتلافى غيظه وانحرافه . وهكذا أبواب أخرى فى الرسل والرسائل والطيف وقصر الليل وطوله والعذول

والفضول ، والإشاره والزيارة والعتاب والاجتماع والرضا والهجر . . الخ . ومنها أبواب في الوصف، منها : في وصف الردف والقد والخدورمان النهود . ومنها : أبواب في أخبار المطر بين من الرجال والنساء ، وذكر من ابتلى بحب النساء والغلمان ، ومن اتصف منهم بالعفاف . . .

وأما الخاتمة ففي ذكر من مات بسبب حبه ، وما يتصل بذلك .

ومنهجه في الحديث أن يشير إلى موضوعه شارحا موضحا بما يعرفه و ينقله من آراء المتقدمين عربا أو غير عرب ذاكرا ما ناسبه من الأحداث والوقائع والقصص ، راويا ما قيل فيه من شعر أو نثر .

وأسلوبه أسلوب الأديب الذي هضم معلوماته الكثيرة هضما تاما ومزجها بما هدته إليه فطرته من فهم للحب وما يتصل به ، فحاك ذلك حوكا بارعا بيد صناع ماهر ، فبدت معلوماته نسجا جديداً وحوكا مستحدثا .

ومع تشعب موضوعاته وكثرة استشهاداته قل أن تجد منه شذوذا في عبارة أوضعفا في صلة بين معنى ومعنى ، أو ركاكة في الانتقال من غرض إلى غرض . وهذا مما يدل على سعة اطلاع وقوة فهم وحسن تصرف وامتلاك لأزمة التعبير ، مع حسن استحضار ولباقة في الاستشهاد بالمناسب . ولا تشعر منه وأنت تقرؤه بأنه يكد خاطره أو يروض لسانه أو يستجدى قريحته ، يقول :

« الحمد لله الذي جعل للعاشقين بأحكام الغرام رضا . وحبب إليهم الموت في حب من يهوونه فلا تكن يا فتى بالعذل معترضا . . . فكم فيهم من عاشق ، ومحب صادق .

رأى فهام[1] غرام الوصل فامتنعوا فسام صبرا فأعيا نيله فقضى

أحمده حمد من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى . وشبب بذكر محبوبته

---

١ — في الأصل : « حب » ر أ ما تصحيحها : فهام

إن كان تهاميا فى حجاز ، أو شاميا فى نوى .

طوراً يمان إذا لاقيت ذا يمن   وإن لقيت معديا فعدنانى

ويقول مشيداً بكتابه :

« على أن جماعة من المصريين غلبوا من تقدم بالتأليف فى هذا الباب . ولم يفرق غالبهم فى التشبيب بين زينب والرباب

وكل يدعى وصلا بليلى   وليلى لا تقر لهم بذاكا

فربع كتابنا هذا بذكر العامرية معمور . وهو بالنسبة إلى ما ألفه الشهاب محمود ، مشكور . ومن وقف عليه علم صحة هذا الكلام . وأنشد فى تصديق هذه الدعوى: إذا قالت حذام . مؤلف طوق الحمامة بالنسبة إلى حجلته يحجل. وصاحب منازل الأحباب ممن عرف المحل فبات دون المنزل .

وعذرت طيفك فى الجفاء لأنه   يسرى فيصبح دوننا بمراحل

فيا دارها بالخيف إن مزارها   قريب ولكن دون ذلك أهوال »

ومن كلامه :

« قال الجنيد فى تعريف العشق : العشق ألفة رحمانية و إلهام شوقى أوجبها الله تعالى على كل ذى روح لتحصل به اللذة العظمى التى لا يقدر على مثلها إلا بتلك الألفة »

ومنه :

« قيل لبعض العلماء : « إن ابنك قد عشق » . فقال : « الحمد لله الآن رقت حواشيه . ولطفت معانيه وملحت إشاراته . وظرفت حركاته . وحسنت عباراته . وجادت رسائله وجلت شمائله . فواظب على المليح ، واجتنب القبيح . »

وبعد فأحسب هذا الكتاب فريداً فى أدب العرب فى موضوعه ، وأملا

الكتب فيه بالحديث عن الصبابة

---

٣ — شروح الرسائل والقصائد :

عنى كثير من أدباء العصر بشرح الرسائل أو القصائد المشهورة ذات الأهمية فى عالم الأدب . وهذه الشروح ثروة أدبية قيمة .

أما الرسائل فلا نكاد نجد منها غير رسالتين هما رسالتا ابن زيدون الهزلية والجدية.
أما الهزلية فقد عنى بشرحها جمال الدين بن نباتة المصري وسمى شرحه « سرح العيون ».
والجدية عنى بشرحها صلاح الدين الصفدى ، وسمى شرحه « تمام المتون ».

والقصائد الشعرية التى حظيت بالشرح — وربما بالشروح — كثيرة العدد ومنها: بردة البوصيرى ، وشراحها كثيرون منهم : الجلال المحلى ، والشهاب الأقفهسى ، وخالد الأزهرى .

وهمزية البوصيرى ومن شراحها : شمس الدين الجوهرى القاهرى .

وقصيدة « بانت سعاد » وقد شرحها جمال الدين بن هشام المصرى .

وتائية عز الدين بن جماعة وقد شرحها الفيروز أبادى صاحب القاموس المحيط .

ولامية الطغرائى وشرحها الصلاح الصفدى فى كتابه « الغيث الذى انسجم فى شرح لامية العجم » . وشرحها كذلك جلال الدين السيوطى شرحا وجيزا فى كتابه « الكنز المدفون » .

والقصائد البديعية ، ولكل منها شرح أو أكثر . وأبدع شروحها « خزانة الأدب » لابن حجة الحموى ، شرح فيها بديعيته التى عارض بها الصفى الحلى والعز الموصلى.

وبهذه المناسبة نوجه نظر الباحثين إلى أن هذه الشروح تصلح موضوعا لبحث طريف مستقل .

أما منهج الشارحين فمختلف :

منه منهج شارحى البديعيات ، فقد اتجهوا فى أسلوبهم إلى الناحية العلمية وتعريف الأنواع البديعية أكثر مما عنوا بالأسلوب الفنى والروح الناقدة .

ونستثنى من هؤلاء ، ابن حجة الحموى، فهو وإن كان معنيا ، مثلهم بتعريف الأنواع البديعية والموازنة بين التعاريف المختلفة المأثورة عن البلاغيين ، نجد شرحه « خزانة الأدب » امتلأ بالموازنات والترجيحات والتوجيهات والاستشهادات وبيان محاسن النصوص ومساوئها وتعليل ذلك تعليلا مرد كثير منه إلى الذوق . وبذلك أصبح صاحب منهج ممتاز بينهم بما عشى فى أسلوبه من أدب الأسلوب وروح النقد . فكانت عباراته أدنى إلى النثر الفنى منها إلى سواه . وقد أشبعنا الحديث عن ابن حجة وخزانته فى « باب النقد » الآتى بعد .

أما الشروح الأخرى فالمنهج الغالب عليها ، العناية بتفسير المفردات تفسيرا لغويا ، وشفعها ببيان بعض الحوادث التاريخية والوقائع الأدبية التى يدفع إليها توجيهات الشاعر أو الكاتب . ونندر أن نجد فى أساليبهم هذه أناقة الأديب ، أو دقة الفنى ، وقصارى حديثهم القص والسرد ، دون عناية بجمال التراكيب .

وإليك وجازات عاجلة عن بعض هذه الشروح ومناهجها ، من باب الاستدلال:

١ — سرح العيون: ألفه جمال الدين بن نباته المصرى فى شرح رسالة ابن زيدون الهزلية التى تهكم فيها على لسان ولادة بنت المستكفى ، بالوزير ابن عبدوس .

وقد حشد فيها كثيرا من الأمثال والحكم والأبيات الشعرية والأقوال المأثورة عن السابقين ، من الإشارات [illegible] كثير من حوادث التاريخ ووقائع الأدب

وقد [illegible] ابن نباتة هذ[illegible] [illegible] ووصف طريقته فى الكتاب [illegible]

وتحدث عن [illegible] بولادة [illegible] تحدث عنها

فقرة فقرة. فيفسر مفردات الفقرة تفسيرا لغويا ثم يبين ما يراد منها من المعانى، ويشير إلى مآخذ ما تضمنته من مثل أو حكمة أو شعر أو قول مأثور أو نحو ذلك، معرجا على قائلها متحدثا عن تاريخه. وهكذا يتحدث عن كل علم ورد اسمه فيها. لهذا ترى أنها ذات قيمة فى تاريخ الأدب وأعلامه.

وقد غلب عليه فى أسلوبه القص والحادثة والنقل والإيجاز، على أنه مع هذا أسلوب عذب مشرق مطلق من قيود البديع، واضح المرامى. ماعدا خطبة الكتاب فهى ذات فقرات مسجوعة بديعية.

تمام المتون: ألفه صلاح الدين الصفدى فى شرح رسالة ابن زيدون الجدية، التى استعطف بها ابن جهور وتبرأ فيها مما نسب إليه. وشرحه ينحو نحو التفسير اللغوى والإعراب والاستشهاد على المعانى اللغوية بنصوص أدبية أخرى مابين شعر ونثر وآيات وأحاديث، مع الاستطراد إلى كثير من الأبيات الرائعة والحكم الشائقة. مع تعريج أحيانا على البديع وأنواعه وشرحها حسب المناسبة، ودعم الشرح بالاستشهاد بالشعر والنثر، وعنى كذلك بشرح المعانى الإجمالية للتراكيب.

وقد أسهب فى بعض المواضع، مثل كلامه فى الفروق بين «المولى والسيد» فتحدث عما تقصده العرب من كل منهما، وتسميتهم المولى بالقديم، وهل يطلقان على الله سبحانه وتعالى، إلى غير ذلك.

- وقد أشار عند شرح كل فقرة إلى النص الأدبى وصاحبه موضحا جميع الأمثال والحكم والحوادث تاريخية وأدبية مما يعرض فى سطور الرسالة، مستطردا إلى مالابستها من حكايات وآثار أدبية شعرا أو نثرا. ومن ذلك مقتل عثمان ومقتل على، وصلة المعرى بالشريف الرضى، ودفاعه عن المتنبى، إلى غير ذلك.

ويغلب الإيجاز على هذا الشرح فى جملته، وأسلوبه أقرب إلى الأسلوب

العلى منه إلى الأدنى ، فهو حديث مسرود لا أناقة فيه ، ولا جمال فى تراكيبه ، إلا نادرا .

---

٣ – شرح البردة : لزين الدين خالد الأزهرى ، وهو رجل نحوى لغوى . وشرحه هذا موجز لطيف سهل المأخذ لعدم عقادة أسلوبه . وقد تحدث الشارح فى أوله عن براعة مطلع القصيدة وما تضمنه من المعانى . وقد اتبع منهجا فى شرح كل بيت على حدة ، لم يحد عنه . وذلك بأن يبدأ بتفسير معانى مفرداته تفسيرا لغويا ، ثم يعرب البيت بأجمعه ، ثم يشرح معناه شرحا إجماليا . ويضمن هذا فوائد نحوية وبلاغية قيمة .

---

٤ — شرح بانت سعادة : لجمال الدين بن هشام المصرى والأديب النحوى المشهور . ألفه — كما قال — تيمنا ببركات النبى عليه السلام ولإسعاف طالبى العربية بفوائد جليلة وقواعد عدة . وهو على نمط من الشروح المتقدمة ، وقد بدأه بترجمة صاحب القصيدة وبيان سبب نظمها . وضمنها — فضلا عن الفوائد النحوية — طرفا أدبية شائقة مثل كلامه عن التشبيب وأنواعه عند أهل الأدب .

---

٥ — الغيث المسجم فى شرح لامية العجم : اضطرب مؤرخو الأدب فى هذا العنوان ، فهو الغيث المسجم مرة ، والغيث المنسجم مرة أخرى ، أو الغيث الذى انسجم . ومهما يكن من شىء ، فأحسب هذا الشرح من أجمل شروح القصائد وأفضلها وأوسعها .

وواضعه هو صلاح الدين الصفدى ، شرحا لقصيدة الطغرائى اللامية المشهورة بلامية العجم . وإليك فقرة من خطبته تبين لك منهجه فيه قال :

« وقد أحببت أن أضع عليها شرحا يزيد جيدها فرائد . وقصيدتها فوائد . ما سمعت فوعيت . وجمعت فأوعيت . ولا أغادر فيها لغة ولا إعرابا . ولا إيضاح معنى ولا إغرابا . ولا مايضمه إليها سلك أو يدخل معها جرابا . إلا نبهت عليه . وأشرت بحسب الإمكان إليه .

هذا ، إلى ما يستطرد إليه الكلام من نكتة . ويعترض جملة ذكره بغتة . ويبديه الضمير على لسان القلم وكم للسان من فلتة . »

وهذه الخطبة أو المقدمة طويلة بلغت نحو ٥٣ صفحه ، مملوءة بالاستطرادات القيمة والطرف النافعة ، تحدث فيها عن العلم والشعر وأورد أقوال المتقدمين فى بابيهما ، وذكر مولد الطغرائى وشيئا من حياته وطرفا من شعره مبينا ما فيهما من ملاحة وجمال ، واستطرد إلى ذكر الكيمياء واشتغال بعض الأدباء بها وما ورّى به من مصطلحاتها فى الشعر . إلى غير ذلك من اللطائف الأدبية المتنوعة . ففيها الجد والهزل ، والفكاهة والمجون ، والحكمة والمثل ، والغزل والوصف . وفيها طائفة من شعر معاصرى الشارح كابن نباتة ، والشهاب الحلبي . ولم تخل هذه المقدمة النافعة من الموازنات والنقد .

وقد أخذ بعد ذلك ، يتحدث عما يتعلق بالقصيدة من علمى العروض والقافية متعرضا لأقوال الفلاسفة والمناطقة والعلماء فى ذلك .

ثم أخذ فى شرح القصيدة ، وهى مليئة بالحكم والأمثال والفخريات ، مع رصانة التراكيب وجزالة العبارات وعذوبتها . فتحدث عنها بيتا بيتا . وكأنى به عند الحديث عن البيت ، لم يترك شوقا للقارىء إلى فائدة ، إلا بل أوامه بتعجيلها إليه . فشرح المفردات شرحا لغويا وبين اشتقاقها ، والمعنى العام من البيت ، واستطرد منه إلى طرف لغوية وفقهية وأدبية وتاريخية لا تعد ، مع مفاضلات وموازنات ونصوص من شعره وشعر معاصريه .

ومن هذا وذاك ترى مبلغ أهمية هذا الشرح ، وأنه سجل لأدب عصر الشارح .

ودليل على طول باعه فى علوم العربية وغيرها .

وأسلوبه فى المقدمة أغلبه بديعى مسجوع . وجنح فى صلب الكتاب إلى التحدث والقص دون عناية كبيرة بأناقة التراكيب ، مائلا أحيانا إلى الخيال ، وأحيانا إلى المنطق ، حسب مناسبة الحديث والموضوع . ولم يخل من دقة فى أداء المعانى .

وإليك سطورا وجيزة من هذا الشرح .

قال فى المقدمة متحدثا عن العروض والشعر واختلاف الآراء فيهما :

« وأقول أنا : العروض آلة قانونية تعصم مراعاتها الإنسان عن أن يضل فى وزن شعر العرب . وهذا الاحتراز الأخير أتيت به لأن اللغة اليونانية فيها شعر ، ولهذا نسميهم يقولون : « سولون الشاعر » . « وقال أرسطو حكيم اليونان وخطيبهم وشاعرهم » ، وليس الشعر عندهم مايكون ذا وزن وقافية ، ولاذلك ركن فيه ، بل الركن فى ذلك إيراد المقدمات المخيلة فحسب . فإن كانت المقدمة التى ترد فى القياس الشعرى مخيلة فقط ، محض القياس شعريا . وإن انضم إلى المقدمة قول إقناعى تركبت المقدمة من نوعين : شعرى وإقناعى . قال أرباب المنطق : « القياس الشعرى قول مؤلف من مقدمات مخيلة تؤثر فى النفس تأثيرا عجيبا من قبض أو بسط . » كقول القائل : مح البيض عذرة . والخمر ياقوت سيال . فالأول يؤثر فى النفس انقباضا . والثانى انبساطا .

وذكر لى العالم العلامة شمس الدين محمد بن ابراهيم بن ساعد الأنصارى ، أن الشعر اليونانى له وزن مخصوص ولليونان عروض لبحور الشعر ، والتفاعيل عندهم تسمى « الأيدى والأرجل » . قال : « ولا يبعد أن يكون وصل إلى الخليل بن أحمد شىء من ذلك ، فأعانه على إبراز العروض إلى الوجود . » الخ [1]

---

١ — هذه الشروح التى تعرضنا للحديث عنها ، مطبوعة . وهناك كثير غيرها ما بين مطبوع ومخطوط بدار الكتب المصرية .

٤ — الموسوعات الجامعة :

وهذه إحدى مميزات العصر ومظاهر أدبه . إذ ألفت فيه عدة موسوعات جامعة هي دوائر معارف واسعة الآفاق مترامية الأطراف ، يحتوى كل منها على أبواب شتى وفصول مختلفة ذات فروع لا عدد لها . تناولت شتاتا من علوم ومعارف ما بين تقويم وتاريخ وأدب وقصص وغير ذلك . وهى أشهر من أن تعرف .

ولم نعرض لها هنا بقصد الحديث المفصل الذى يفصح عن مقدار ألفيتها ، ويشرح جميع نواحيها ويبين قيمتها فى عالم الأدب والعلم ، بما يتناسب مع جهد مؤلفيها فى وضعها وترتيبها وتبويبها ، ولكننا عرضنا لها لنسجل — فى عجلة — أنها إحدى المظاهر العقلية وطرق التفكير الأدبى فى هذا العصر ، ولكى نشير إلى مناهج أسلوبها لنرى مقدار نصيبه من فن التعبير .

ونحصر الحديث فى ثلاث موسوعات ، هى : نهاية الأرب ، ومسالك الأبصار ، وصبح الأعشى .

١ — نهاية الأرب :

مؤلفه شهاب الدين أحمد النويرى ، وهو من خير الأمثلة على العقلية الموسوعية الشاملة التى تحيط بفنون عدة . وهو يفوق « صبح الأعشى » بخصوصية بارزة ، وهى شموله لجملة من الموضوعات ، فى حين أن اختص « صبح الأعشى » بالحديث عن الإنشاء وصناعته وما عداه تبع له ، فهو بالروضة البهية لابن عبد الظاهر ، وبمسالك الأبصار لابن فضل الله ، أشبه .

وقد قسمه المؤلف إلى خمسة فنون أدبية تكلم عن كل فن فى جملة من الأبواب

والفصول فى نظام رتيب ودقة فى التبويب .

والفن الأول : فى السماء والآثار العلوية ، والأرض والمعالم السفلية . فلذلك ترى فيه حديثا عن السماء وكواكبها وسحبها وصواعقها وهوائها ونارها . وعن الليالى والأيام والشهور والأعوام ، والفصول والمواسم ، والأعياد . وعن مبدأ خلق الأرض ومساحتها وأقاليمها السبعة ، والجبال والبحار والجزائر والأنهار والغدران والعيون ، وطبائع البلاد وأخلاق سكانها ، ومبانيها القديمة ومعاقلها ومنازلها . الخ .

والفن الثانى : فى الإنسان وما يتعلق به . وفيه تكلم عن اشتقاق لفظ الإنسان وتسميته وطبائعه ووصف أعضائه . وعن غزله ونسيبه وعشقه وهواه وأنسابه وأمثاله . وعن عادات العرب وصفاتهم وما لهم من زجر وفأل وطيرة وفراسة وذكاء ، وتعريض وأحجية ولغز . وعن مدحهم وهجوهم ومجونهم وفكاهاتهم وملحهم وخمرهم ومعاقرتهم وندمانهم وقيانهم وآلات طربهم . وعن كل ما يتصل بذلك من شجاعة وجود وصبر وعقل وصدق ووفاء وتواضع وقناعة . . الخ . ومن حسد وسعاية وبغى ونميمة وبخل ولوم وجبن وفرار وحمق وكبر وخيانة . . . الخ . — وقد تحدث فيه أيضا عن الملك وما يشترط فيه ، وما يحتاج إليه ، وما يجب له وما يتصل به من وزارة وجيوش وسلاح ومناصب دينية . . الخ ، وما ينبغى له من حسن سياسة وعزم وحزم وانتهاز فرصة وحلم وعفو وعقوبة وانتقام . . الخ

والفن الثالث : فى الحيوان الصامت ، من سباع ووحوش وظباء وحمر وأرانب وقردة ونعام وخيل وبغال وحمير وإبل وبقر وغنم ، وذوات سموم ، وطير وسمك وحشرات ، وما يتصل بذلك .

والفن الرابع : فى النبات . فتحدث عن أصله وأرضه وذكر الأقوات والخضراوات والبقول . وتكلم عن الأشجار وأنواعها وأزهارها ورياضها . وعن الطب والأدوية المختلفة .

والفن الخامس : ولعله أطول فنون الكتاب حديثا . موضوعه التاريخ . أى تاريخ أمم الأرض من لدن آدم إلى عصره — عصر المؤلف أى إلى سنة ٧٠٠ هـ زمن الناصر بن قلاوون — فتحدث عن خلق آدم وعن الأنبياء وقصصهم وأخبار من اتصلوا بهم ، وأنباء أصحاب البئر المعطلة والقصر المشيد وأصحاب الرس وعن بنى إسرائيل والعزير . وقد أسهب فى قصة موسى وعيسى . وتكلم عن نزول عيسى إلى الأرض وقتل الدجال ، وخروج يأجوج ومأجوج وهلاكهم ووفاة عيسى وما يتلو ذلك من أخبار القيامة . ثم تحدث عن ذى القرنين وعن الملوك القدماء فى مصر والهند والصين والفرس واليونان وغيرهم . ثم تحدث عن العرب وأيامهم فى الجاهلية ووقائعهم . ثم تحدث عن الدول الإسلامية من لدن حكومة النبى عليه السلام ، حتى عصر المؤلف ، وأهم الأحداث والملوك فى كل صقع وناحية .

وقد استغرق فى هذا كله واحدا وعشرين مجلدا ضخما ، جمع فيها من فنون الأدب والمعرفة ما لذ وطاب ورق وراق .

ويبدو للمطالع لأول وهلة أن النويرى جماع سطا على بطون الكتب ، وهذا تجن واضح . فإن الدقة التى كتب بها النويرى معلوماته بل ومنقولاته ، والتى تتجلى فى حسن العبارة وعذوبة الإشارة ، وفى جمال التبويب وقوة الربط ، لدليل واضح على سعة علمه وعمق فهمه وحسن تصرفه . فضلا عما نثره خلال بحثه المنسق من جيد محفوظه شعرا ونثرا وقصصا مما يناسب الحديث وينسجم معه ، وفضلا عن أن كثيرا من معلوماته كتبه بقلمه وإنشائه ، ولو استطعنا استصفاء ما أنشأه ابتداء ، لملأ عدة مجلدات . ولعله يشير إلى هذا بقوله فى مقدمته : «وأثبت فيه بالمقصود والغرض . وأثبت الجوهر ونفيت العرض . وطوقته بقلائد من منقولى . ورصعته بفرائد من منقولى . فكلامى فيه كالسارية تتلوها السحائب . أو السرية تقدمها الكتائب . فما هو إلا دونهم فى حالة الحاجب ليؤديه» .

وإنه لمن فصول الحديث أن ندرك أن فنون الأدب ، يحتاج إليها الأديب وغير الأديب . فهي للأول أداة أصيلة تعينه على عمله الفني ، وتفسح أمامه مجال الابتكار ، وهي للثاني أداة ممتعة مريحة وتكية نفسية يروح بها عن عقله المكدود وقلبه المجهود .

ونهاية الأرب من أسرع الكتب توخيا وتحقيقا لهذه الغايات . إذ هو معرض حافل لأجلى ثمار الآداب ومقتطبات الفنون . وقد قال النويري في ذلك :

« وما أوردت فيه إلا ما غلب على ظني أن النفوس تميل إليه ، وأن الخواطر تشتمل عليه ، ولو علمت أن فيه خطأ لقبضت بناني ، وغضضت طرفي ، ولو خبرت طريق المعترض لعطفت عناني وثنيت عطفي » .

وتغلب روح الفن على أسلوب الكتاب ، ويسلك بك سبيل الاستطراد إلى روائعه من النوادر والوقائع ، وإلى لوامعه من الأمثال والأشعار .. كما يتسم بالترسل والطلاقة في عذوبة وخفة إذا تحدث عما يتصل « بالحقائق العلمية » . فإذا خلي بينه وبين خياله ، عاد إلى عادته — كما في خطبته — من العبارة المسجوعة الحلاة ، اللطيفة المحل ، الخفيفة الظل ، بين فقار قصيرة غالبا يعروها الازدواج حينا ، والمطابقة والمقابلة ورعاية النظير . انظره يقول في مفتتح « الفن الثاني » وهو في الإنسان وما يتعلق به :

« وهذا الفن قد اشتمل على معان مؤنسة للسامع . مشنفة للمسامع . مرصعة لصدور الطروس والدفاتر . جاذبة لنوافر القلوب والخواطر . واضحة البيان . معربة عن وصف الإنسان . فمن تشبيهات فائقة . وغزليات رائقة . وأنساب طاهرة . ووقائع ظاهرة . وأمثال امتدت أطنابها . وتبينت أسبابها . وأوابد جعلتها العرب لها عادة ودليلا . واتخذتها ضلالة وتبديلا . ونصبتها أحكاما ونسكا . وصيرتها عبادة ومداواة فتبوأت بها من النار دركا . وشيء من أخبار الكهان . وزجر عبدة الأوثان . وكنايات نقلت الألفاظ إلى معان أبهى من معانيها . وبلغت النفوس بعذوبتها غاية أمانيها . وألغاز

خورت بالمعانى وانجدت . وأشارت إليها بانأويل حتى إذا قر بتها من الأفهام أبعدت . ومدائح رفعت للممدوح من الفضل منارا . وأهاج صيرت المهجو من القوم يتوارى . ومجون ترتاح إليها عند خلوتها النفوس . و يبتسم عند سماعها ذو الوجه العبوس . وشىء مما قيل فى الخمر والمعاقرة . وأربابِ الطرب وذوى المسامرة . وتهانٍ نشرت من البشائر ملاءً . ورفعت من المحامد لواء . وتعازٍ حسرت نقاب الحسرات . وأبرزت مصون العبرات » . الخ

ـ والنويرى ، إلى هنا ، يبدأ حديثه عن موضوعه بذكر ما يتصل به من الآيات القرآنية ، متحدثا أحيانا عن معانيه اللغوية ، و يوشح كلامه بعدة من الأحاديث النبوية الوثيقة الصلة به ، مشيراً إلى مصدرها غالبا . ثم يأخذ فى سوق عدد ـ يزيد أو يقل ـ من الأقوال المأثورة والأبيات الشعرية أو أنصافها فى المعنى . ثم يقتحم الحديث عن لب موضوعه واصفا إياه وصفا محيطا بكل أطرافه ، فى شىء من الاستقصاء والاستيعاب الذى يبرره الاستطراد إلى ما يناسب الموضوع من قصة أو نادرة أو حادث أو فكاهة أو نحو ذلك .

و بعد فهذا كتاب علم وأدب وفقه وشعر ولغة ، وتقويم وتاريخ واجتماع ، ووصف إنسان و نبات وحيوان .

٢ — مسالك الأبصار

هذا كتاب جليل الشأن . نقل عنه العلماء والأدباء قديما وحديثا . مؤلفه الكاتب المنشىء البارع العالم شهاب الدين أحمد بن فضل الله العمرى ، أحد رؤساء دواوين الإنشاء بمصر والشام إذذاك .

. وتقع فى عدة مجلدات كبيرة . وتوجد بدار الكتب منه نسخة كاملة مصورة بالتصوير الشمسى ، بهمة العالم المصرى الأديب المرحوم أحمد زكى . وقد طبع جزؤه الأول فقط .

وأول ما يلاقيك من الكتاب أنه فى « تقويم البلدان » . فقد طالع مؤلفه الكتب الموضوعة فى أحوال الأقاليم ووصف ماتحتوى عليه ، فلم ير فيها من قنن أحوالها ، ومثل فى الأفهام صورها . لذلك رأى أن يضع نبذة دالة على المقصود فى ذكر الأرض وما فيها ومن فيها ، الأظهر فالأظهر ، والأشهر فالأشهر . وأن يصف حالة كل مملكة وما هى عليه وماعليه أهلها فى زمنه ، متحدثا عما فيها من المعاملات ومالها من المصطلحات فى شتى نواحى حياتها ، وذلك ليبصر أهل كل مملكة بأحوال غيرها ، وفى ذلك مافيه من النفع لهم جميعا فى حياتهم ومعاشهم .

ويقول ابن فضل الله إنه نقل عن الثقات من ذوى التحقيق والتدقيق فى الرواية ، وحذر من تغفل الغفلاء وتخيل الجهلاء وتحريف الأفهام الفاسدة . وبذل الجهد فى تصحيح ما وقف عليه حسب طاقته . كما قطع فى ذلك الأيام والليالى الطويلة .

ولم يعن إلا بذكر ممالك المسلمين إلا لماما قليلا يذكر فيه غيرها ، تاركا الحديث عن بلاد الكفار إلى فرصة أخرى أو مؤلف آخر .

وقد قسم قسمين : الأول فى وصف الأرض . والثانى : فى الكلام عن سكانها .

ففى القسم الأول تحدث عن كيفية الأرض ومقدارها وأسمائها وصفاتها وأسماء التراب وصفاته والغبار والرمال . ووصف أحوال الأرض والجبال والبحيرات والمساجد الثلاثة والآثار القديمة ، والأقاليم السبعة . والبحار وما يتعلق بها ومافيها من العجائب . والقبلة والأدلة عليها . وتداخل الشهور ، والكواكب الثابتة والسيارة . وتحدث عن الأفلاك والكسوف والخسوف . . . الخ

ثم ذكر الطرق والممالك الإسلامية مثل الهند والسند وممالك جنكيزخان والتورانيين والإيرانيين ومملكة الجبال ، والأتراك الروم ومصر والشام والحجاز والحبشة واليمن والسودان الممتدة على ضفاف النيل إلى مصر .

وفى القسم الثانى : فاضل بين سكان الشرق وسكان الغرب ، وتحدث عن الديانات وعن دول الشرق قبل الإسلام و بعده . . . الخ

ونحن هنا لاندعى أننا قرأنا الكتاب كله ، أو درسناه دراسة فحص ونقد ، فذلك يحتاج إلى رسالة مستقلة . ولكننا عرضناه هنا فى عجلة و إيجاز لننوه به باعتباره أحد الكتب الواصفة .

والمؤلف — على الرغم من أنه نقل كثيراً من المعلومات عن غيره ، عقد أكثر سطور الكتاب بلفظه ، فشخصيته فيه بارزة ، وأسلوبه متضح ملموس ، خال من التعقيد واضح المعانى عذب الألفاظ دقيق الدلالة ، غير مقيد فى أكثر سطوره بقيود البديع ، على الرغم من أن المؤلف أحد زعماء البديعيين ، وتشعر وأنت تقرؤه أنك تطالع كتابا من كتب الأدب لسلامة العبارة وجمال التراكيب .

و بهذه المناسبة نذكر أن الكتاب ليس خالصاً لتقويم البلدان . . بل مما عرضناه من محتوياته ترى أنه كثير التناول لعلوم شتى ما بين تاريخ وآداب وقصص . معنى بإثبات النصوص نثرها وشعرها ، قديمها وحديثها ، ولهذا ترى فيه كثيرا من أدب عصره ووقائع أدبائه ، أعنى بعصره عصر المماليك إلى عهده . فيه مثلا قصص عن أبى الحسين الجزار وسراج الدين الوراق وغيرهما .

فهو لهذا سجل أدبى نفىء إليه عند الحاجة و يمدنا بالنص ويخبرنا عن كثير من وقائع الأدباء وأخبار العلماء . منبهاً أحيانا إلى التعبيرات اللغوية و إلى النقدات التهكمية .

وإليك سطورا من حديثه عن طبيعة الإنسان وعمله «ص ٤٥ من الجزء الأول» قال:

«ولما كان الإنسان بما غلب عليه تركيبه، أرضيا ترابيا، من الأرض مبدؤه، وإليها معاده، ثم منها عوده كما قال تعالى: «منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى» اضطر إلى مركزه، واحتاج إلى الاضطراب فى أرجاء الأرض للكسب: إما للصيد وهو أول رتب المعاش. أو الزراعة وهى ثانى رتب المعاش. أو التجارة وهى ثالث رتب المعاش، على ما يأتى بيانه. فلم يكن له غنى عن معرفة جهات الأرض ليمتد فيها لأسباب معاشه فيما ذكرناه، أو غير ذلك مما يتفرع منه أو يترتب عليه.

... زعموا أنه لو وقع إنسان إلى برية بهماء لا ساكن بها، لم يكن له دأب إلا طلب سبب البقاء بما يصيد منه ليأكل. فإذا أكل طلب ما هو أزيد سببا فزرع؛ فإذا زرع طلب ما هو أزيد سببا فتاجر. ثم تفرع معاشه وتشعبت أسبابه فاحتاج حينئذ إلى معرفة أجزاء الأرض وعوالمها ليعرف أين كسبه، ومن أين معاشه. ولا يمكنه أن يقصد أرضا فى بر أو بحر، إلا بأعلام دالة عليها كالنجوم اللائحة والجبال الماثلة والأنهار الجارية والأهوية الهابة. وليس هذا موضع ذكرها».

٣ — صبح الأعشى :

كتاب أشهر من أن يعرف. مطبوع فى أربعة عشر مجلدا ضخما. ألفه المنشىء العلامة شهاب الدين القلقشندى. وهو من مفاخر المؤلفات المصرية، اعتمد فيه مؤلفه اعتمادا ما على كتاب «التعريف» لشهاب الدين بن فضل الله العمرى.

وقد حدد القلقشندى موضوع كتابه إذ جمله فى صناعة الإنشاء. «فهو كتاب فى تاريخ الكتابة وما إليها، يتتبع حياتها منذ نشأتها الأولى ويصف أطوارها ونموها وسموها فى آفاق البلاد الإسلامية وممالكها على مر العصور إلى عهده. ويكاد

يكون فريدا فى بابه بين كتب الآداب العربية .

فالفكرة لدى المؤلف موحدة محدودة ، وكتابه يجمع أطرافها ويصف تفاصيلها ويشرح أخفى من أمورها ، فى كل أفق من آفاقها . وممالك الإسلام كثيرة ممتدة من أواسط آسيا إلى الأطلنطى . وفى كل مملكة منها دول عدة متعاقبة . وفى كل دولة منها للكتابة حياة ونمط فى أساليبها ورسومها ومصطلحاتها لدى كتاب دواوينها مخالفة ، وأدبائها بعامة .

لكل هذه الأمور تعرض القلقشندى منقبا باحثا مسجلا واصفا ضاربا الأمثال ، فى دقة وترتيب ونظام وتبويب . وأهم ما عنى بوصفه : المراسلات الديوانية ودواوين الإنشاء ومصطلحاتها .

غير أن القلقشندى لم يكتف بأن وصف الكتابة وحدها ، بل امتد قلمه إلى كل شىء يلابسها ويتصل بها . والكاتب الواسع الأفق البعيد الاطلاع ، الطيع الطبع والقلم ، يستطيع أن يحشد إلى موضوعه ما شاء من موضوعات ، متكيسا فى الربط بينها وإيجاد المناسبة بين أحدها والآخر . وهذا هو ما صنعه القلقشندى ، حتى غدا كتابه معرضا حافلا لضروب من الأدب والتاريخ والتقويم واللغة والحكمة لا ساحل له .

وحسبك أن تعلم أنه فصلا عن حديثه عن نظم الدواوين الإنشائية وأنواع الرسائل فيها وما اصطلح عليه أهلها ، فى كل دولة ومملكة إسلامية ، تحدث عن جغرافيتها وتاريخها وأورد من ذلك تبذا جميلة مهذبة مرتبة .

وإلى جانب هذا تحدث عن الخط العربى وتاريخه وأنواعه من أول نشأته إلى عهده ، وحاله فى الممالك المختلفة . واختصاص كل نوع منه بضرب من الرسائل ونحوها . ممثلا نماذج لكثير من هذه الأنواع .

وتحدث عن أدب الكاتب وما ينبغى له أن يتحلى به من آداب مختلفة وأخلاق

وفى المجلد الرابع عشر وصف ألوانا من الرسائل والمكاتبات غير الديوانية بما يتبارى فيه الأدباء خارج الديوان داعما كل حديثه ووصفه بالشواهد والأمثلة . ومن هذا وذاك ترى الكتاب سجلا أدبيا حافلا يستعرض جملة من النماذج الإنشائية من عصور ودول مختلفة .

وللكتاب مقدمة رائعة تحدث فيها المؤلف عن الكتابة وفضلها ، وهى فى نظره أشرف الصناعات . وللقلقشندى مقامة بهذا المعنى ضمنها أسباب شرف صناعة الكتابة وما ينبغى للكاتب من آداب فى الخلق والعلم . وسجل هذه المقامة فى كتابه ، وقد كانت هى دستوره أو فهرسه حينما أقدم على تأليف « صبح الأعشى » إذ الكتاب تفصيل لما أجمل فى المقامة ، وتوضيح للغامض فيها . وسننوه بها فى الباب الآتى :

و بالكتاب فصول استطرادية عظيمة القيمة . ومن موضوعاته الطريفة : موازنته بين كتابة الإنشاء وكتابة المال . ووصفه للخيل وأنواعها ، وألوان الحيوانات المختلفة والمعادن والجواهر . ووصفه للأفلاك والكواكب والريح والسحاب والأدوية والعقار والنبات والأزهار والفاكهة . . . الخ . وحديثه عن هذه الموضوعات لغوى أكثر منه شيئا آخر ، فهو بهذه المثابة معجم لغوى .

ومن فصوله فصل جليل عن موضوع السجع أورد فيه آراء المتقدمين إلى زمانه بنظام ودقة فى أداء المعنى والتمثيل له . فلم يترك بعده سؤالا لسائل . وهو بالجزء الثانى .

وهكذا ترى مقدار سعة هذا الإناء العلمى الفسيح ، وطعم ما يقدمه من ألوان الغذاء الأدبى والعلمى النافع ، فى عبارة لا كلفة فيها ولا ركاكة ولا سقوط إلا ما ندر .

وقد أمدنا هذا الكتاب بكثير من الرأى ، وزودنا بالتوجيه والنماذج . وأثبتنا

فى صفحات كثيرة من بحثنا هذا فصولا أو سطورا منه ، من إنشاء المؤلف أو غيره فلنكتف بها فى هذا المقام عن التمثيل بغيرها .

---

٥ — المجموعات الأدبية :

نقصد بالمجموعات الأدبية ، تلك الكتب التى عنى فيها واضعوها ، بجمع الطريف المختار من جيد الشعر والنثر ، حسبما تتراءى لهم ، من أقوال من سبقهم أو عاصرهم من الأدباء . ويضمنونها أحيانا شيئا من نتاج أدبهم هم شعرا أو نثرا

ولهذه المجموعات أهمية كبرى ، فهى فضلا عما تدل عليه من نوع الاتجاه العقلى نحو التأليف الأدبى ، ومن نوع الذوق فى جمع المختار ، نراها سجلا حافلا بضروب شتى من الآداب شعرها ونثرها والنادر منها ، وبخاصة ما يسجل فيها من نتاج المعاصرين . فهى من هذه الناحية ذات أهمية فى تاريخ الأدب وكثيرا ما يبدو فن الجامع فى حسن الاختيار ، والملاءمة بين المتباعد ، والوصل بين المشتت ، وإسباغ ثوب الألفة والانسجام على هذا المجموع ، وابتكار الأبواب أو العناوين الجامعة التى كأنها الراية تدعو إليها جنودها . هذا إلى أنها تعتبر من معارف الأدباء فى عصر جمعها .

وقد حظى عصر المماليك بعدة مجاميع أدبية جليلة القيمة . لهذا آثرنا أن نلحقها بهذا الباب فى كلمات وجيزة نستعرض فيها أمثلة منها فحسب ، على سبيل التمثيل لا الاستقصاء . فمنها

---

١ — التذكرة الصفدية :

هذه مجموعة ضخمة من مجاميع النثر والشعر على اختلاف أغراضهما ، قيل تقع فى

ثلاثين مجلدا . وأكثرها مفقود . والموجود منها فى دار الكتب المصرية خمسة مجلدات مخطوطة . وصاحب هذه التذكرة صلاح الدين الصفدى الأديب البارع المؤرخ .

وفيما يلى نعرض عليك وجازات عن هذه المجلدات ومحتوياتها :

١ — مجلد مكون من عدة أبواب ، ولكل باب خطبة فيها تحميد وصلاة ، مع الإيجاز ، ثم عرض ما اختير لهذا الباب من شعر أو نثر . ومن أبوابه : باب ذو فصول، فمنها فصل فى مراثى الملوك والرؤساء قديما وحديثا — إلى عصر المؤلف — شعرا ونثرا ، وأكثره شعر . وفصل فى مراثى الأهل والإخوان . وفصل فى المراثى والتعازى فى الصغار والأطفال . وفصل فى مراثى النساء . وفصل فى شواذ المراثى . وفصل فى نوادر التعازى والمراثى . وفصل فى حسن التأسى .

وباب أورد فيه نصوصا جاءت فى العيادة والمرض .

وباب فى المودة والإحسان والمعاشرة والاستزارة .

وباب فى الهدايا . وباب فى الذم والهجاء وشكوى الزمان والإغراء والتحريض والوعد والوعيد الخ .

وأكثر مختاراته فى هذا المجلد شعر . وليس فيه ما يدل على ترتيبه بين أجزاء الكتاب .

٢ — ومجلد به باب فى الشجاعة والجبن . وباب فى الوفاء والمحافظة والأمانة والغدر والخيانة والملل . وباب فى الصدق والكذب . وباب فى التواضع والكبر والخيلاء والعجب . وباب فى القناعة والحرص والطمع . وباب فى صون السر ، وباب فى الجور والعدل . وباب فى العقل والحكمة والتجارب والحمق والجهل . وباب فى المشورة والرأى .

(ونلاحظ فى هذين المجلدين أن أكثر المختار فيهما شعر. وأنه لم يورد فيهما من أخبار معاصريه أو نثرهم وشعرهم إلا النادر القليل . وأغلبه من مختارات جاهلية وإسلامية وأموية وعباسية).

٣ — مجلد يحتوى على الجزء الثالث عشر بتمامه ، وخطه جيد واضح ويبدو أنه كتب فى حياة مؤلفه ، إذ قيل فى صفحته الأولى: « تصنيف الشيخ . . . متع الله ببقائه » ومن محتوياته :

(ا) رسالة بقلم محيى الدين بن عبد الظاهر إلى الصاحب بهاء الدين بن حنا يعلمه بواقعة السلطان الملك الظاهر مع التتار . وتقع فى نحو ٢٧٠ سطرا .

(ب) مقطعات شعرية ، كل مقطعة منها بيتان فى وصف مليح .

(ج) قصيدة رائية بديعة من نظم القاضى الفاضل عدة أبياتها ٩٦ بيتا وهى فى الغزل ، وتتخللها أبيات فى الحكمة والعتاب والشكوى .

وقد عارضها شيخ شيوخ حماة عبد العزيز الأنصارى بأبيات ارتجلها عدتها ١٦ بيتا سجلها الصفدى

(د) رسالة من إنشاء القاضى الفاضل على لسان صلاح الدين الأيوبى رداً على كتاب ورد إليه من خليفة بغداد الإمام الناصر ، من إنشاء ابن زيادة ، وهى منثورة مطولة جيدة تقع فى نحو ٢٤٠ سطرا .

(هـ) رسالة كتبها محيى الدين بن عبد الظاهر رداً على رسالة قوام الدين أبى طالب يحيى بن زيادة ، المتقدمة الذكر ، ضمنها جملة من الفصول فى الإنكار عليه . وهى طويلة وبديعة وجيدة .

(افترض ابن عبد الظاهر نفسه كأنه كان مكان القاضى الفاضل حينما وصلت رسالة الخليفة إلى صلاح الدين وذلك لأن ابن عبد الظاهر لم تعجبه رسالة الفاضل ورده على ابن زيادة لما فيه من ملاينة ومحاسنة . أما هو فرأى أن يرد منكرا مسفها مبينا خطأ

ابن زيادة ، وحفظا أعمال صلاح الدين — ولكن بعد أن قضى الأمر ومات كل من المرسل والمرسل إليه . . . — وابن عبد الظاهر هنا يمرن قريحته فحسب .) :

(و) مقطعات شعرية ونوادر فكاهية ورسائل أخرى لابن نباتة والوراق والنصير الحمامى ، وابن عبد الظاهر وناصر الدين بن النقيب وكلهم من أدباء عصر المماليك . ثم ابن قلاقس والبحترى والمتنبى .

٤ — مجلد يحتوى على الجزء الرابع عشر بتمامه ، وخطه جيد كسابقه وهما متشابهان فى الخط والحجم والنظام .

ومن محتوياته :

(ا) أخبار وأشعار لشرف الدين الأنصارى شيخ شيوخ حماة .

(ب) مقطعات ، كل منها بيتان فى وصف مليح ، على نمط ما فى الجزء الثالث . ويبدو أنها من مقطعاته فى كتابه « القول الصريح فى مائة مليح » .

(ج) مقتبسات منثورة مما كتبه المزى والذهبى فى اللغة والفقه ونحوهما .

(د) قصيدة للصفدى إلى الأمير عماد الدين موسى . ويليها مقطعات شعرية لغيره .

(ه) فصل منقول عن الشهاب القوصى ، قيل إن الخليل بن أحمد هو الذى كتبه . وهو فصل طريف فى معنى حروف الهجاء . أى معنى الألف فى اللغة ، ومعنى الباء وهلم جرا ، مع الاستشهاد على هذا التفسير اللغوى بأشعار العرب .

(و) قصيدة طويلة لبرهان الدين الجعبرى ضمنها أسماء الخلفاء بعد النبى عليه السلام إلى عهده — وهو عهد الناصر بن قلاوون والخليفة المستكفى بالله .

(ز) جدول بأسماء الصحابة الذى أكثروا من حفظ أحاديث الرسول ، وعدتهم خمسة وثلاثون ، مع بيان عدد ما يحفظه كل منهم . وذلك نقلا عن الذهبى .

(ح) جدول بأسماء من كان فردا فى زمانه ، بما أتقنه من علم أو نحوه . وقد نقله عن الذهبى وزاد عليه من عنده أشياء . وهو جدول طريف جداً .

(ط) ثبت بنقله عن ابن الفوطى صاحب كتاب « معجم الألقاب » فى التاريخ ذكر فيه أسماء ما طالعه من كتب التاريخ فى سبيل تأليف كتابه . — وهو عظيم النفع فى معرفة كتب التاريخ وأسمائها ومؤلفيها .

(ى) لغز كتبه شرف الدين حسين بن المقرجمال الدين بن دياب فى « المئذنة » ورد الصفدى و بدر الدين بن مكى عليه .

(ك) رسالة للقاضى الفاضل منثورة ، يبدو أنه أرسلها إلى الخليفة فى الشكر ، وله رسائل أخرى وأشعار .

(ل) مختارات لبعض الشعراء ومنهم النصير الحمامى والتلعفرى وابن دانيال الموصلى الكحال صاحب « طيف الخيال » الذى تحدث عنه فى « باب القصص » من هذا البحث . وبهذه المناسبة ألفت النظر إلى أن المجموعة الشعرية التى سجلها الصفدى هنا لابن دانيال يندر أن توجد فى غير هذه التذكرة . وهى ضخمة تصلح ديوانا مستقلا فى أغراض متنوعة .

٥ — مجلد يحتوى على الجزء الثامن والأربعين (ويبدو أن التذكرة تقع فى نحو ٥٠ جزءا — وان قيل ٣٠ مجلدا)

ومن محتوياته :

(ا) رسالة كتبها الصفدى إلى القاضى شمس الدين محمد بن قاضى شهبة ، يهنئه حينما نقل من غزة إلى صفد عام ٧٦٢ هـ كاتبا للسر . وقدمها بأبيات لطيفة . وقد رد عليه ابن قاضى شهبة .

(ب) رسالة كتبها ابن أبى حجلة المغربى إلى الصفدى فى الشوق ، بمقدمة بعدة أبيات . ورد عليها الصفدى .

(ج) أبيات ومنثورات كثيرة فى أغراض عدة ، منها أبلغ ما قيل فى السقام . وفصل فيما جاء خارجا عن قراءة السبعة ، نقله من كلام ابن الصيرفى كاتب الفاطميين .

(ذ) جملة من رسائل ومنشورات القاضى الفاضل ، وهى ضخمة تكون ديوانا بمفرده ، وقد لاتوجد بغير هذه التذكرة .

(هـ) ثبت لطيف فيمن قتل هو وأبوه أو ابنه . . . وآخر فى بعض الأسر الشهيرة وأفرادها مثل بنى حمدون و بنى العديم و بنى الأغلب .

(و) أرجوزة ورسالة من إنشاء الصفدى ونظمه ، كل منهما فى ذكر أسماء من تولى دمشق من خلفاء وملوك ونواب .

من هذا العرض السريع تبدو لك قيمة هذه المجموعة النفيسة وندرة ما تحتويه .

ب — ثمرات الأوراق :

هذا كتاب ألفه وجمعه تقى الدين بن حجة الحموى . طبع أكثر من مرة ، ويقع فى نحو ٢٦٨ صفحة . جمع إليه — كما قال — زبدة ما يحتاج إليه فى المجالس والمحافل من النوادر والحكايات .

فهو مجموعة من النكت والروايات والرسائل المنثورة التى قد يتخللها الشعر ، مما دار فى مجالس الملوك والعلماء ، ومما وقع بين الأدباء . فهو مختارات نثرية أو محاضرات أدبية فيها جد ومجون ، وتاريخ ولغة وعظات ونقدات ، وقصص عن الأطباء والأجواد والبخلاء والعلماء والحمقى ، إلى غير ذلك ، على نمط من الكامل والعقد والمستطرف والكشكول ، وغيرها من كتب المحاضرات الأدبية .

استعان مؤلفه بما يحفظه من كتب النوادر كدرة الغواص ، والفرج بعد الشدة . فنقل عنهما كما نقل شيئا عن ابن خلكان والصابى والحصرى وابن عبد ربه وابن الجوزى وابن نباتة الحصرى وغيرهم وضم إلى ذلك بعض حوادثه

ومنشآته وحوادث معاصريه ومنشآتهم ، ما بين رسائل أدبية ونوادر طريفة

وقد عرض ذلك كله عرضا حينا لطيفا فيه نزعة القص والحديث ، طورا بأسلوب المنقول عنهم ، وطورا بأسلوبه الخاص ، معقبا بقلمه بشيء من النقد والتعليق.

غير أنه لم يعن بتبويب الكتاب ، وجمع المتشابه تحت فصل موحد ، ولعل ضعف الصلة بين هذه الطرائف من ناحية مغزاها ، جعل الربط بينها عسيرا .

ومن محتوياته :

١ — جملة صالحة من القواعد التي ينبغي للناشيء أن يراعيها حتى يصبح منشئاً — وحديث عن السجع وأنواعه وأمثلة له ، وشروط الكتابة الإنشائية . — وهذا كله لا يخرج عما سجله في كتابه « خزانة الأدب » وبسطنا الحديث عنه في « باب النقد » من هذا البحث .

٢ — سؤال حامد بن العباس لعلي بن عيسى في ديوان الوزارة عن الخمار

٣ — الأجوبة الهاشمية وبلاغتها .

٤ — غضب المأمون على الصعلوك بسبب مدحه أبا دلف ، وقتله إياه .

٥ — رسالة بقلم القاضي الفاضل في وصف وفاء النيل .

٦ — رسالة « حظيرة الأنس إلى حضرة القدس » من إنشاء ابن نباتة المصري يصف فيها رحلته من دمشق إلى بيت المقدس .

٧ — رسالة بقلم ابن حجة الحموي يصف فيها رحلة المؤيد شيخ إلى البلاد الرومية عام ٨١٦ هـ .

٨ — رسالة للقاضي الفاضل في وصف « خاتم الرسائل » .

٩ — رسالة بقلم ابن حجة يصف فيها رحلته من الديار المصرية إلى دمشق عام ٧٩١ هـ .

ولثمرات الأوراق ثلاثة تذييلات أحدها كله نثر من وضع ابن حجة ، وهو على نمط الثمرات . والثانى نثر أيضاً على نمطه كذلك، من وضع الشيخ ابراهيم الأحدب أحد أدباء العصر الحديث . والثالث ويسمى « تأهيل الغريب » كله شعر ، من مختارات ابن حجة .

وبهذه المناسبة أذكر أنى قرأت هذا التذييل الثالث فوجدته جزءا قليلا من من أصل مخطوط . والمخطوط ديوان شعرى ضخم أكبر فى حجمه وأهم فى موضوعه من « ثمرات الأوراق » . لهذا أستبعد أن يكون ذيلا له ، وإنما ألحق بعضه بثمرات الأوراق حين طبعه، وسمى تذييلا له ، من باب عبث الناشرين .

م — المستطرف فى كل فن مستظرف :

جامعه أبو الفتح محمد بن أحمد بن منصور الأبشيهى . ويقع فى جزأين كبيرين يشتملان على ٤٨ بابا . انفرد كل باب منها بموضوع ، يسوق له ما ورد فيه من جيد الشعر والنثر .

ومن أبوابه : باب فى العقل . فى الذكاء . فى الحمق . فى القرآن وفضله . فى الحكم فى الأمثال السائرة . فى البلاغة والبلغاء . فى الأجوبة المسكتة . فى الأخلاق والآداب الإجتماعية . فى طاعة ولى الأمر . فى سياسة الملك . فيما ينبغى للسلطان . فى العدل والإحسان . فى حسن المعاشرة . فى المودة . فى الفخر والشرف فى الجود والبخل . فى الشجاعة والجبن . فى العمل والكسب . فى أخبار العرب . فى الدواب والحشرات فى عجائب البحار ، فى عجائب المخلوقات . الخ .

وترى من هذا العرض السريع مبلغ ما اجتمع فيه من أدب نافع وعلم مفيد ومزايا تاريخية واجتماعية .

و — حلبة الكميت :

مؤلفه شمس الدين النواجي ، وموضوعه الحديث عن « الكميت » أى الخمر .

وقد قسمه إلى خمسة وعشرين بابا وخاتمة : تحدث فيها جميعا عن كل ما يتصل بالخمر من أسماء وأنواع وأوصاف ، ومنافع وخواص . وعن المغرمين بشربها والمنادمة والسقى والأغانى وآلات اللهو والطرب وعن ليالى الأنس والصفاء والخلاعة . . . إلى غير ذلك .

والكتاب مملوء بالاستطرادات الشائقة فى موضوعات مختلفة متنوعة كوصف الشمعة والأزهار والربيع والجداول والدواليب والنواعير والبرك والفوارات . . الخ .

وقد ساق فى كل أولئك شعرا ونثرا من أرق مانظمه الناظمون وأنشأه الكاتبون . غير أن نصيب الشعر فيه أكثر من نصيب النثر .

ولم يقتصر جامعه على الاختيار من أدب عصر دون آخر . وامتد به الاختيار حتى عصره . ولهذا نرى بالكتاب خمريات من شعر ابن نباتة والبدر الدماميني وابن أبى حجلة والقيراطى .

ومن لطيف حديثه فيه كلامه عن حقوق المنادمة وآداب النديم ، ويبدو أنه نقل ذلك عن ابن حجة الحموى فى كتابه « تأهيل الغريب » .

وأثبت فيه قصيدة لطيفة لفخر الدين بن مكانس تسمى « عمدة الحرفاء » وهى فى الاستدعاء . كما أن بالكتاب حكايات مسلية وقعت فى عصر المؤلف وهى تثبت لجاجة بعضهم حينذاك على الشراب

هذا . وأحسب أن هذا الكتاب أوفى من غيره فى باب الخمريات وما يتصل بها

٥ — الكنز المدفون والفلك المشحون :

هذا كتاب منسوب إلى جلال الدين السيوطى . وهو ديوان ملىء بالأدب والعلم وشوارد الحكم والأمثال ، وعجائب النوادر والوقائع ، والمجون والفكاهة والطب واللغة وغير ذلك ، ولا يخلو من خرافات أيضا .

هو كما يدل عليه عنوانه ؛ ولعله أقرب إلى شقه الثانى « الفلك المشحون » منه بالأول كسفينة نوح فيها من كل زوجان اثنان . . . وقد رص غالبا مملوماته — وكثير منها موجز — رصا عاجلا متلاصقا ، وقد لا تكون بين المعنى وما يليه جامعة مغزى ، ولا فائدة مشتركة . وهو مسل نافع لمن لا يطلبون وحدة الموضوع وتسلسل الفكرة واستقصاءها . على أن به بعض موضوعات عنى بها وأسهب فى إيضاحها .

وحسبنا هنا أن نعرض عليك شيئا من محتوياته فمنها :

١ — ذكر عدد أزواج النبي عليه السلام وسراريه وأولاده ، وقد تحدث عنهم وعن أحوالهم بشىء من التفصيل .

٢ — فائدة فى بطلان شبهة دعوى أبليس خيريته على آدم . وقد تحدث فيها عن أضرار النار ومنافع التراب فى شوء كالموازنة — وأشرنا إلى ذلك عند حديثنا عن الموازنات .

٣ — نماذج نثرية مما يقال فى مفتتح الرسائل أو ختامها ، من أدعية ونحوها — على نمط مما نقرؤه فى كتاب « التعريف » لابن فضل الله .

٤ — أبيات من « طيف الخيال » لابن دانيال . وهى غزل فى شخصه الأحدب

٥ — حديث عن الأوزان الشعرية .

٦ — ذكر الفرق الاثنتين والسبعين التى انقسمت إليها الأمة الإسلامية .

٧ — ذكر عدد من المشاهير بالكنى والألقاب والنسب ونحوها . كأبى موسى

الأشعرى . وبيان اسم كل منهم .

٨ — محاورة أبى الأسود الدؤلى وزوجته أمام القاضى شريح فى ولد لهما .

٩ — بشارة بوفاء النيل من إنشاء صلاح الدين الصفدى .

١٠ — جملة من أسماء أنهار العالم .

١١ — موشحة لصفى الدين الحلى .

١٢ — كنى بعض الحيوانات ونحوها . وهى طريفة جدا وفريدة فى بابها .

١٣ — لامية الطغرائى وشرح وجيز لها مع نبذة يسيرة فى ترجمة الناظم .

١٤ — ذكر اللامات وماتفيده كل منها ، مثل لام الأمر ولام التوكيد ولام القسم ولام الابتداء .

هذا ما عنّ لنا الحديث عنه فى خاتمة باب الوصف وهذه الكتب قل من كثر مما أنتجته أقلام الأدباء فى هذا العصر ، رأينا التنويه بها هنا لصلتها الواضحة بهذا الباب . وهى مما اعتمدنا عليها فى بحثنا جميعه ومن الكتب التى أمدتنا بالفكرة والنموذج ؟

الباب الثالث

القصص

« تمهيد »

القصص فن من أهم فنون الأدب . وهو فى النثر أعظم أهمية منه فى الشعر . إذ فى النثر ينفسح المجال أمام الناس، لتشخيص فكرة أو تحديد مبدأ ، أو وصف ظاهرة أو تعليل حادثة ، أو تحليل شخصية ، أو نحو ذلك ، مما يعرو الفرد والجماعة فى حياتهما الشاقة .

والقصص فن فيه متعة ولذة ، وفيه تعليم ونصيحة ، وفيه نقد وتبصير بشئون هذه الحياة ، وتفسير لكثير من معقداتها ، وتبسيط لكثير من مركباتها .

والنتاج القصصى فى أمة ، من أهم سجلاتها التى يلجأ إليها المؤرخون فى الناحية العقلية أو النفسية . يستنبطون منها ما يلذ لهم ويروق ، من مختلف النبضات فيها . إذ قصص الأمة مستودع آمالها ومكمن آلامها ، ومهب ماضيها وذكرياتها ، ومراد مستقبلها ومرجوها ، والعدسة المصورة لخفى حاضرها ، يودع فيه القصاص ما استلهموه من أمتهم من نقد وإصلاح ، ومن مثل وحكمة .

وتتلون القصص وتختلف ألوانها باختلاف نزعات الأمة فى كل طور من أطوارها .

والأدب العربى — فى جملته — فقير فى قصصه ، بالقياس إلى طول عصوره ، وإلى ما كان ينبغى له ولأدبائه من إنتاج خلال أيامها ، وبالقياس إلى النتاج القصصى .

عن الأمم التى عاصرت العرب فى شتى أطوارهم ، كاليونان والرومان وفارس والهند .

وقد يعلل ذلك بأنهم وجدوا فى سعة شعرهم وما امتد إليه من آفاق بعيدة ، غنية . كما وجدوا — بعد الإسلام فى القرآن وقصصه وسيرة النبى ومغازيه ، وفى أخبار الخلفاء والصالحين ، عوضا .

وقد كانت القصص فى قديم منشئها ذات صلة بالأديان الوثنية . ولم تكن وثنية العرب — فى الجاهلية — من التعقيد بمكان يسمح بأن تتولد عنه القصة . كما أنه ، لاشك فى أن جمهور العرب — كأى جمهور آخر — كان يسمر ويتلهى فى وقت فراغه بالحكايات والروايات المختلفة ، ولكن ذلك أيضاً لم ينضج نضجا كافيا ، ينضح على أدبائه فينطلقهم بترجمته أدبا قويا ، وقصصا فنيا ، محبوك الأطراف ، كما نشاهد فى القصص العربى الحديث .

فقد نهض فن القصة فى عصرنا الحديث نهضة محمودة ، بفضل اليقظة الفكرية الجديدة المتموجة فى مختلف أقطار العرب ، وبفضل الحرية الأدبية التى ظفر بها الأدباء نتيجة للحرية السياسية — ولو إلى حد ما — وبفضل الثقافات المتعددة الوافدة على أسواق الفكر العربى من بقاع الغرب ولا نزال نرجو لهذا الفن الجديد ، الينع والمزيد .

ومع هذا كله ، لم يخل الأدب العربى قط من القصص ، فى أى عصر من عصوره وإن يكن ذلك بمقدار .

ففى الجاهلية تجلى فى أخبار الحروب والوقائع والأيام ، وأنباء البارزين فيها من الأبطال مثل كليب ومهلهل ، وفى كثير من الأساطير التاريخية كأنباء النعمان وجذيمة والزباء . وقد اتخذ بعض ذلك مدداً للقصة فى العصور التالية .

ثم ظفر القصص طفرته المعجزة ، فى القرآن الكريم . فامتلأت سوره الكريمة بأنباء الأنبياء ، والأمم الماضية . وقد صور ذلك تصويرا فنيا بليغا بالقلم القرآنى

المعجز . وفى القرآن سورة بأجمعها تدور حول قصة واحدة ، وهى قصة يوسف الصديق عليه السلام . وقصص القرآن مسوق أولا لتسجيل الحق و بيان العبرة ، لا للذة الفنية والإمتاع النفسى ، و إن كانت اللذة والإمتاع من أهم آثاره ، بدليل التحدى بنظمها المعجز ، فى جملة آى القرآن .

كذلك ، لم يخل الحديث النبوى الشريف من القصص القويم ، الذى يضرب به النبي الأمثال للناس، وَيسوق لهم الحق والحكمة والتشريع فى ثوب قصصى بارع ، وتصوير فنى رائع . ومن ذلك حديث أم زرع ، وحديث الأبرص والأقرع والأعمى ، وحديث من تكلم فى المهد ، وقصة الإسراء والمعراج . وغاية الحديث منه هى غاية القرآن باستثناء التحدى . .

وشغل العرب فى صدر الإسلام — فضلا عن شغلهم بالقرآن وقصصه ، وكلام النبوة وأمثاله ، بالفتح والغزو والجهاد فى سبيل الله ونشر دينه و بث تعاليمه ، على أنهم فى عصر بنى أمية قد ثارت بينهم ثائرة حقودهم القديمة ، وهاجت هائجة عصبياتهم الجاهلية . فكان ذلك سببا باعثا للعناية برواية القصص الجاهلى الذى هو مزيج من الحقيقة والخيال ، ونسيج من التاريخ والمبالغة هذا إلى جانب السيرة النبوية، ووقائعهم الحديثة ورواية أخبار على ومعاوية والخلاف بينهما .

وعنى خلفاء بنى أمية ورجالهم ، بالتاريخ وألوانه ، وأجلس معاوية غلمانا له يقصون عليه فى هدأة من الليل أخبار الملوك الغابرين . وهذا كله مما يشعر بعناية العرب إذ ذاك بالقصص والحكايات . كما كان الحب ، والحب العذرى مصدرا جديداً من مصادر قصصهم وحكاياتهم . واشتهر بينهم عدد من الشعراء العشاق اتخذوا الحب والشعر مشغلة لهم أو ملهاة ، منهم عمر بن أبى ربيعة ، وكثير عزة ، وجميل بثينة ، وقيس ليلى ، وتوبة وغيرهم ، وعاونتهم على ذلك حياتهم الاجتماعية فى عصر بنى أمية

وصاروا بذلك مصدرا من مصادر القصص العربي المدون فيما بعد . وأخذ الناس يقصون أنباءهم ويروون أشعارهم ويتلهون بسيرهم وأخبارهم ، ويضيفون إليها ما شاء لهم الخيـال .

هذا إلى أن إثارة العصبيات ، وتعدد الفرق الدينية ، دعا بعض الزهاد إلى وعظ الناس ، فاتخذوا القصص وسيلة من وسائلهم ينشرون به عليهم أخبار الصالحين وسير الأوائل المجاهدين بعبارات خلابة ، وتصويرات جذابة . هذا إلى أن الأدب والرواية كانا بعض وسائل التكسب ، لما وجد الأدباء نفاق سوقهما ، فلذ لبعضهم أن يتخذوهما وسيلة إلى الرزق بالسعي بهما في الجامع وبين الناس ، وصاغوا لهم ذلك في قالب قصصي يزينه السجع وبعض البديع ، فكان ذلك منهم بدءا صالحا لفن المقامات الذى أينع وازدهر فيما بعد .

وإنما سقنا ذلك كله ، لندلك على أن الشعب العربي لها بالقصة ونحوها في إحدى مراحل حياته ، وهي عصر الأمويين . ولسنا نزعم أن قصصه حينئذ ، قد استوى وذاع ، وأعجب وراع ، ولـكن كانت له حياة على كل حال .

وفي العصر العباسي ، اتخذت هذه المحاولات الأموية مددا للقص والحكاية . فدونت أخبار عمر وأنباء كثير وجميل ومن إليهم . وكان للثقافات الوافدة من الشرق والشمال ، على بغداد ، أثر — لاشك فيه في نضج العقل وقوته ، وسمو الخيال ودقته . وترجمت إلى العربية قصص كثيرة فارسية وغير فارسية . واتجهت عناية المترجمين بعد المأمون إلى نقل كتب الأسماء والخرافات ليتلهى بها الخلفاء . . وقد كتب ابن النديم في كتابه « الفهرست » فصلا عن تلك القصص قال فيه مانصه :

« إن مما ترجم عن الفارسية أو الهندية : كتاب رستم واسفنديار ، وكتاب بهرام شوس ، ترجمهما جبلة بن سالم . وكليلة ودمنة فسره عبد الله بن المقفع . وهزار أفسان ومعناه ألف خرافة ، نُقل عن الفارسية . ومن قصص الفرس . كتاب الكارنامج

فى سيرة أنو شروان . وكتاب التاج وما تفاءلت به ملوكهم . وكتاب دارا والصنم الذهب وغير ذلك . ومن أسمار الهند : كتاب سندباذ الكبير . وسندباذ الصغير . وكتاب يوناسف وبلوهر . وغير ذلك » . وقال بالنص :

« وكان — قبل ذلك — ممن يعمل الأسمار والخرافات على ألسنة الناس والطير والبهائم ، جماعة منهم عبد الله بن المقفع وسهل بن هرون ، وعلى بن داود كاتب زبيدة وغيرهم »[1]

وهذه المترجمات كانت بلا ريب ذات أثر فى شحذهم القصاص إلى وضع القصص.

ولا ريب فى أن « رسالة الغفران » التى وضعها أبو العلاء المعرى ابتكار محض ، وتحتوى على عناصر القصة الأصيلة من حوار وخيال وتهذيب ، وإن كان نفعها فى مجال التثقيف الذهنى أربى منه فى المجال الفنى ، وذلك لما تحتوى عليه من اللغة والأدب والنقد . وكذلك قصة عنترة التى وضعت فى العصر الفاطمى ، على تأليف جديد ، أما كتاب « ألف ليلة وليلة » وإن قيل إنه نقل عن الفارسية وأصله « هزار أفسان » فمما لا ريب فيه أنه قد زيد فيه تباعا ، قصص وضعها كتاب من العرب . — ولا ننس بعد هذا كله أن العصر العباسى عصر نشوء المقامات وزهوها ، وهى إحدى ألوان القصص .

ولما أهل عصر المماليك ، وجد رصيدا محمودا من القصص ، من كل أولئك . فعمل على نموه والإضافة إليه ، بقدر ما وسع أدباءه من حيلة ، وبقدر ما واتتهم ظروفهم الاجتماعية والثقافية ، وبذلك قيض لفن القصص حياة امتدت ، وعمر طال .

ورأينا فيه — أو سنرى هنا — عددا من الأدباء يعمون بالمقامة فيدبجون أسجاعها ويجددون أنواعها ، وبالحكايات يتشكرون فيها ، وبسير الأبطال

---

١ — اقرأ الفهرست لابن النديم ، المقالة ثامنة ص ٤٢٢ وما بعدها .

يسبغون عليها قبسا من الخيال .

وفى الفصول التالية نعرض بعض جهود هؤلاء الأدباء فى شىء من التفصيل والتحليل والاستنباط، لعلنا نقنع القارىء الكريم بأنهم كانوا خير خلف لخير سلف، بالرغم مما كانوا فيه من حرج وضيق، ولأعباء طريق .

وقد قسمنا الكلام هنا عدة فصول :

الأول فى المقامات : تحدثنا فيه عن مقامة الشاب الظريف ، وعن مقامات ابن الوردى، ومقامتين للصفى الحلى ، ومقامتين لصلاح الصفدى ، ومقامة للقلقشندى ، ومقامة لابن حجة الحموى ، وعن مقامات السيوطى .

الثانى فى الحكايات : تحدثنا فيه عن « طيف الخيال » لابن دنيال الموصلى، وفاكهة الخلفاء لابن عربشاه .

الثالث فى السير : تحدثنا فيه عن « عجائب المقدور فى أخبار تيمور » لابن عربشاه .

الفصل الأول

المقامات[1]

المقامة قصة يغلب أن تكون وجيزة . وتصب المقامة فى أسلوب لغوى بديعى أساسه السجع والمحسنات المختلفة ويكون لها — غالبا — مغزى . شأنها فى ذلك شأن بقية القصص . وإن كان من أهم مراميها — على ما يبدو — إحياء مفردات اللغة .

وقد نشأت المقامات فى العصر العباسى ، تأثرا بأساليب أولئك المستجدين الذين كانوا يطوفون على الناس ، يتكسبون بالقص ويصوغونه فى قالب بديعى مسجوع ليكون له تأثيره فى السامعين . ويقال إن هؤلاء انتشروا فى أواخر العصر الأموى وأوائل العصر العباسى .

ويقال إن أحاديث أبى بكر بن دريد المسجلة فى أمالى القالى ، كانت هى البداية الحسنة لفن المقامات[2]. ثم كتب بديع الزمان الهمذانى مقاماته، وقفى على أثره أبو القاسم الحريرى فبلغت المقامات على يديه ذروتها البديعية . ثم تبعه الزمخشرى وابن الجوزى وانتهى العصر العباسى ، وقد نضج هذا الفن نضجا لا مزيد عليه .

---

(١) مقامات جمع مقامة بفتح الميم . وهى فى أصل اللغة اسم للمجلس والجماعة من الناس . وسميت الأحدوثة من الكلام مقامة . لأنها تذكر فى مجلس واحد يجتمع فيه الجماعة من الناس لسماعها أما المقامة بالضم فبمعنى الاقامة ، ومنه قوله تعالى حكاية عن أهل الجنة : (الذى أحلنا دار المقامة من فضله) عن صبح الأعشى ج ١٤ ص ١١٠ .

(٢) راجع النثر الفنى لزكى مبارك ج ١ ص ١٩٧ وما بعدها والأدب العربى وتاريخه لمحمود مصطفى ج ٢ ص ٩٧ .

ملحوظة يقال إن أبا المطهر الأزدى مؤلف حكاية أبى القاسم البغدادى فى نحو سنة ٣٠٦ هـ — وهو معاصر لابن دريد — أول من ألف فى المقامات . وأن بديع الزمان متأثر به أكثر من غيره وحكاية أبى القاسم البغدادى وصف لحياة البغداديين وعاداتهم .

وأهل عصر المماليك فلم ينزِ أدباؤه عن تتبع أسلافهم ، ولم يقصروا عن بلوغ شأوهم . وتلمح أنهم منحوا أنفسهم حرية واسعة فى الخروج على تقاليد أهل المقامات ، وخاصة فيما يتعلق بلغتها ومجازيها . فخرجوا بها على الأقل ، عن ميدان الاستجداء ، ولم يقصروها على رجلين يروى أحدهما قصة الآخر ، وهذا الآخر شحاذ لبيب ، ومستجد أريب ، كان يتحيل على الناس بأدبه ، لينال من عطائهم . لم يقتصروا على ذلك ، بل كتبوها فى الوصف والغزل والعظة وألوان من العلم ، وضروب من الفكاهة والتسلية ، إلى غير ذلك مما سنراه بعد قليل . ثم إنهم لم يتقيدوا بسوق عدد ضخم من مفردات اللغة ولو لغاية تعليمية ، كما كان كتاب المقامات الأولون يقيدون أنفسهم .

ويبدو من تتبعنا لحركة الأدب والإنشاء فى هذا العصر ، أن كثيرا من أدبائه أنشئوا المقامات ، ومنهم : الشاب الظريف وابن الوردى ، والصفى الحلى ، والصلاح الصفدى ، والشهاب القلقشندى ، والتقى بن حجة الحموى ، وجلال الدين السيوطى . ونتحدث فيما يلى عن بعض مقاماتهم .

ا — مقامة للشباب الظريف[1] « ٦٨٨ هـ »

الشباب الظريف ، واسمه شمس الدين محمد بن سليمان بن على ، أحد شعراء مصر النابهين من طلائع شعراء العصر . عاش بين سنتى ٦٦١ هـ ، ٦٨٨هـ . وتوفى فى هذه السنة بدمشق ، بعد ماعاش فى القاهرة — التى ولد فيها — زمنا . عاش فى مثل عمر الزهر ، سرعان ماجف عوده ، وذبل ورقه ، ولم يدع من عطر أدبه إلا القليل ، ولكنه قليل خالد .

وقد ترجم له صاحب الفوات ناقلا كلمة شهاب الدين بن فضل الله العمرى عنه فى « المسالك » حيث قال فيها : « نسيم سرى . ونعيم جرى . وطيف لا بل أخف موقعا منه فى الكرى » . الخ وهو وصف أدبى لا يجزىء فى الناحية التاريخية .

---

(١) ترجمته فى فوات الوفيات ج ٢ ص ٢٦٣ — وترجمة أبيه ج ١ ص ٢٢٨ .

والقليل الذى تركه من أخباره وأشعاره ، يدل على أصالة الأدب في قلبه ، وعراقة الشعر فى حسه . فشعره ديباجة جمعت بين الجزالة والرقة ، وبين القوة والوضوح. وهو شعر مرقص جميل صدقت فيه العاطفة وقوى الشعور ، وماجت هاجسة الحب. فأصبح حبيباً إلى النفوس ، قريبا إلى الألسنة ، فصلح للغناء والإنشاد . ويزيده تكراره حلاوة ، وترديده عذوبة . ولهذا كان صاحبه جديرا بلقبه الذى عرف به بين معاصريه . وهو صاحب الأبيات التى يتغنى بها فى عصرنا ، ومطلعها :

لا تخف ما فعلت بك الأشواق   واشرح هواك فكلنا عشاق

وقد دار حول الغزل ، بل قل إنه شاعر الغزل . فشعره إما غزل صراح تـ فيه عاطفة الحب تنزيا سافرا بما يتصل به من إظهار لوعة وشكوى هجر ، وصال ، ونحو ذلك ، وإما أغراض أخرى كالمدح النبوى ، والحماسة والحكمة ، والتهنئة والفخر والوصف والاستدعاء ، وترى فيها أخيلة الغزل وروح العشق تسرى فى أبياتها وتتواثب بين سطورها .

وقد اتصل الشاب الظريف بكثير من رجالات عصره ومدح بعضهم ومنهم القاضى محيى الدين بن عبد الظاهر ، والقاضى محيى الدين بن النحاس .

وإليك أبياتا من شعره ، على سبيل المثال ، مما يفيض غزلا ويترقرق عاطفة :

أخجلت بالثغر ثنايا الإقاح   يا طرة البدر ووجه الصباح
وأعجمت أعينك السحر مذ   أعربت منهن صحاحا فصاح
فيالها سودا مراضاً غدت   تمل للعشاق بيضا صحاح
يا للهوى من مُسعد مغرما   رأى حمام الأيك غنى فناح
يابانة مالت بأعطافه   ها قد عرفنا منك هز الرماح
وأنت يا أسهم ألحاظه   أثخنت — والله — فؤادى جراح

مقامته :

ويبدو أنه كان مجيداً فى الإنشاء إجادته فى الشعر : وتلك خصوصية نادرة بين الأدباء . وليس بين أيدينا من نثره إلا مقامته التى تتحدث عنها . وهى وحدها كافية لأن تشهد لإنشائه بالجودة . وقد طبعت أكثر من مرة . واستغرقت نحو ثمانى صفحات من القطع الصغير .

هذه مقامة شاعرة، أو هى قصيدة منثورة ، تماوجت فيها العاطفة ، واستطارت الوجدانات . ومع غزلها الصارخ ، عف لفظها وطهر أسلوبها ، فلم يسف إلى مجون ، ولم يسفل إلى مبتذل . . .

وهى قصة قليلة الحوادث ، وأقرب إلى المقالة الواصفة منها إلى القصة ذات العقدة، والحوار الذى يتخللها هادىء ، ولا عنف فيه .ولكنها ــ كما قلنا ــ مقامة شاعرة إذ تلمس فى ألفاظها وأساليبها ومعانيها الجزئية حرارة لا تحسها إلا فى الشعر .

وهى تدورحول شاعرأحب أن يتفرج برؤية الرياض .فوجد بينهاجماعة يتذاكرون الأدب ، ويروون الشعر والخطب . وبينهم شاب بدت عليه أمارات الغرام وكست جسمه حلل السقام يبكى بكاء مراً مما أصابه . فيمم الشاعر نحوهم سائلا عن خبرهذا الشاب الباكى . فيعلنونه بجهلهم به وبحاله . فينظر الشاب إليهم شزراً ، ثم ينشد شعراً ويأخذ فى وصف حاله بين أبيات تسيل فيها كئوس الحب ، وتفيض اللوعة . فهو شاب عاشق ، صدّ عنه معشوقه وجفاه . فآده الود وهده الصد . وقد أخذ يصف لهم معشوقه ويبين كيف لقيه ، وما امتاز به من محاسن ومفاتن ، جعلته له عبداً وأسيراً . فطفق يتوسل إليه بشتى الوسائل ، ولكنه صد عنه .

وقد أعجب الحاضرون بحديث الشاب ، وطربوا له أيما طرب ، حتى دبت حمامة الحب فى شاب آخر منهم . فقام على الأثر يبكى على غراره ، وينتحب ، ويبث حديث

حبه وهيامه ، ويبث قديم عشقه وغرامه . حتى زاد وعم وفاق وسبق . وطغى حديثه على حديث الأول . وما زال سادراً فى كلامه ، مستمرا فى شكواه ، واصفا ما يعانى من هجران ، وما يلاقى من جفاء ، وما بذل من وسيلة ، وما قدم من حيلة ، فلم تنجح وسائله ولم تنفع حيلة . وما كان من معشوقه أخيراً ، إلا أنه أعلن بذهابه إلى بيت الله حاجا . فودعه عاشقه بدموع غزار وقلب هائم قتله اليأس، ونفس ولهى هدها الجفاء . . . وهكذا، فأعجب به الحاضرون . وفى ذلك يقول الكاتب :

« فلم يبق من الجماعة إلا من أثنى عليه وشكر . وطرب من حيا بلاغته وسكر . وقالوا قد عرفنا بدقيق غرامك وجليله . فأنشدنا ما قلته بعد رحيله . فأنشد :

هل عائد والأمانى ربما صدقت دهر مضى ومغانى حسنكم أمم

يا غائبين ووجدى حاضر بهم وعاتبين وذنبى فى الغرام همُ » الخ

ونعتقد أن الأبيات الشعرية التى تخلات سطور هذه المقامة من نظم الكاتب . ويعزز هذا ، أن منها ما هو مثبت فى ديوانه .

وإليك سطورا من هذه المقامة . قال فى أولها على لسان الشاعر :

« لم أزل مذ بلغت سن التمييز . أولع بنظم الأراجيز . ومذ شب عمرى عن الطوق مغرى بالغرام والشوق [1] أعتمد خلع العذار . فى حب السالف والعذار . وأهيم بالشمول والشمائل . وأشرب فى زجاجة صفراء كالأصائل . وأقدم على رشف ثغور البيض . ولا أقدم حذرا من ضرب المرهفات البيض . وأتوجه لضم أعطاف السمر . ولا أتوجع لضيم انعطاف السمر . وأتنزه فى كل ناد وواد . وأتنزه عن كل معاند ومعاد .

فخرجت بعض الأيام إلى الغياض . وولجت بين حياض و رياض . قد ضاع نشرها وضاه بشرها . وقبل خد الشقيق بها ثغر الإقاح . وملأت قماريها تلك النواحى بالنواح .

---

١ — فى الأصل : التوق بالتون ، ورجحنا أنها شين .

بجمن جدول يميل كالأيم : شطآه بالزهر كقزح فى الغيم . فهو من صور الحباب كالحباب . ومن طرب الاضطراب فى عباب . تصفق غدرانها . وترقص أغصانها . وتفخر أزهارها ويشدو هزارها . وتبكى عيون نرجسها . بينبوع منبجسها . و يميل طربا وصبيها . إذا أتاه نسيمها . ويحمر شقيقها خجلا . ويصفر بهارها وجلا .

ويبدو حسنها خضرا ويبدى زهرها خضلا
إذا ما الصب شاهده صبا واستأنف الغزلا
وتحسب جنة الفردو س عنه حسنها نقلا »

ومن كلام الشاب العاشق يفصح عن حبه ومكنون قلبه ، وسببه ، قوله :

« وأما سبب تعلق بحبه . ووقوع قلبي فى شرك عينيه وهدبه . أنه تراءى لى بعض الأيام بالجامع المعمور . وهو من وجهه وشعره كالقمر فى الديجور . يميس كالقضيب . ويرنو كالرشأ الربيب ، قد حمى ورد خده و إقاح ثغره ، بعقارب أصداغه وحيات شعره :

قمر رأيت السكون مناه ببشره لما سرى حسنا وضاع بنشره
ظبي وما للظبي لفتة جيده غصن وما للغصن دقة خصره
يبدو اعتدال قوامه فى ميله وتبين صحة جفنه فى كسره

قد استمد بليغ الشعر منه نفسه . فعرض بديع الحسن عليه نفسه . فالجمال بوجهه قسيم والسحر بناظره تسوم » . الخ

ويصف محبوبه فيقول :

« وجه كالبدر فى سناه وسنه . وعطف لا يشفع العطف عنده إلا باذنه . ومبسم كالبرق ضياء ولمعاً . وأعين يخيل لى من سحرها أنها تسعى . قد نادت محاسن وجهه

يكل من هام بحبها . لتأتينكم بجنود لاقبل لكم بها وقد أحدق به كل ناظر . وحدق إلى جماله المناظر . فراقني هيئته . وراعني هيبته . وجعلت أستحلى محياه . وأستجلى من حديث حياه . فما أرسلت له رائد نظرة . إلا أرسل إلى حسرة . فعدت إلى منزلى بأسى وأسف . وشغف وشغف . أكفكف الدموع . وأطوى على الحرق الضلوع . وبت لا أعرف المنام بجفنى قرارا . ولا أجد عن الغرام لقلبى فرارا . »

ومما قاله الشاب الثانى مراسلا محبوبه مستعطفا :

« أما بعد . فقد علمت حال محبك . وما يشكوه من الجوى فى حبك . فبالله ياغصن النقا لا تمل عنه عطفك . ويانسيم الصبا لا تحرمه عرفك :

يشكو إليك متيم صب جفاه هجوعه
يعصى العذول على هوى بك لايزال يطيعه
يفديك من ألم الجوى ما ضمنته ضلوعه
إن لم ترق له فقد رقت عليك دموعه » الخ

وبعد فيبدو لنا أن هذه المقامة قطعة من نفس الشاب الظريف ، قبسها من قلبه وضمنها أسرار حبه . فإنما هى فيض من نفس ، وطاقة زائدة من مرهف حس . ويبدو لنا أن هذا الشاب الذى شاعت فى شعره رقة الحب وحرارة الغزل ، إنما يعبر فيه عن آلامه وعواطفه . وما مقامته تلك إلا صورة جديدة من صفحته الشعرية .

ب — مقامات ابن الوردى (١) ٧٤٩ هـ

التعريف بابن الوردى :

هو زين الدين عمر بن مظفر بن الوردى المعرى الكندى . أحد أدباء الشام البارزين ، وأحد علمائه النابهين .

وقد نشأ بحلب ، ودرس فقه الشافعية . وبرع فى النظم والنثر . وناب فى الحكم عن قاضى قضاة الشافعية بالشام كمال الدين بن الزملكانى (٢) واشتغل بالتاريخ، وألف فيه كتابه « تتمة المختصر » ذيل به لكتاب أبى الفداء « المختصر فى أخبار البشر » كما برز فى النحو والفقه وغيرهما .

و يبدو من رسائله ومكاتباته أنه اشتغل بالتدريس زمنا . وتخرج به فى الفقه والنحو طلاب عدة ، وقد أجازهم . ولما ناب فى الحكم عن ابن الزملكانى كانت نيابته فى حلب ، ثم منها إلى قضاء منبج ، ويبدو أنه لم يسترح لهذا النقل ، وحاول مع ابن الزملكانى أن يرجعه إلى مكانه الأول واختصاصاته الأولى ، فلم يأبه له ابن الزملكانى فكان ذلك سببا فى نفرة شديدة بين الرجلين. وقد عاتبه ابن الوردى عتابا شعريا مرا، وحمل عليه حملة شعواء، ومن ثم سخط على القضاء وعلى الوظيفة، وطلق المناصب، وآثر حياة الحرية بما يكتنفها من خمول وخمود صيت ، وفضل حياة الخمول على النباهة والشهرة .

وابن الوردى من الأدباء الذين حنقوا على الأدب حنقا لا مزيد عليه ، فى عصره الذى قبضت فيه عن الأدباء كف التشجيع ، وصوح فيه روض العطاء ، فشح نبته ، وغاض ماؤه ، حتى كادت تنفر منه بلابله الأليفة ، وعنادله الشادية .

---

١ — ترجمة فى طبقات السبكى ج ٦ ص ٢٤٣ — والدرر الكامنة ج ٣ رقم ٤٧٢

٢ — ترجمه فى الدرر الكامنة ج ٤ رقم ٢١٠ — وفوات الوفيات ج ٣١٢ — وكان محدثا فقيها مصنفا أديبا توفى سنة ٧٢٣ هـ فى مدينة بلبيس ودفن بقرافة الشافعى .

وأصاب ابن الوردى شىء مما أصاب جمال الدين بن نباتة ، فشكا كل منهما بؤسه وشقاءه وبكى آلامه . ولكن ابن نباته ظل على حسن ظنه بالأدب وقيمته فقال :

لاعار فى أدبى إن لم ينل رتبا ... وإنما العار فى دهرى وفى بلدى

هذا كلامى وذا حظى فيا عجبا ... منى لثروة لفظ وافتقار يد

وأما ابن الوردى فقد نعى على الأدب ومحترفيه فى زمنه الضن الشحيح . وحمل على الشعر الذى يحوج صاحبه أو يسخره صاحبه فى سبيل التكسب والسعى إلى الأبواب . وفضل عيش الفاقة على الغنى الآتى عن طريق هذا التكسب ورضى بالشعر والأدب إذا عف صاحبهما عن التكسب بهما . وفى هذه المعانى يقول :

قد كسد الشعر فهنيهاً أهله ... بشرائكم إذ ذاك بالعافية

زال لباس الذل منكم وقد ... صرتم إلى مرتبة عاليه

حتى ركوب الشعراء الضحا ... فى زمر الأحزاب بالغاشية

ويقول :

قالوا لقد كسد القريض فقلت بل ... عاشت ضراغمه ومات ضباعه

الآن طاب سماعه وتقطعت ... أطماعه وتعززت صناعه

وقد خلص ابن الوردى من هذه النزعات بما يصح أن يسمى مبادىء ومذاهب وفلسفة خاصة . وهى تدور حول الزهد فى المناصب الرسمية، وفى حياة النباهة والصيت، وبخاصة الآتية عن طريق المناصب فهى زائفة وفضل حياة الخمول ووجد فيها لذة كان غافلا عنها ، فلما تذوقها لم يعدل بها شيئا .

نقول إنها فلسفة أو مذهب ، إذ أن هذه المعانى والأفكار رسخت فى نفس ابن الوردى رسوخا قوياً ، وتركزت فى دمائه تركز العقيدة . حتى رددها فى شعره مرارا لا تحصى وكرر ذكرها مؤيدة ببراهينه وحججه القوية . ويعتقد تمام الاعتقاد أن سعادة المرء موقوفة على حظه المقسوم له . لا على شىء آخر من ذكاء عقل أو سعة علم ،

أو رحيق أدب ، وبخاصة إذا أوتى المرء نفسا أبية وخلقا صلبا ، يتأبى على الحوادث .

وهو يقول :

لا تحرصن على فضل ولا أدب — فقد يضر الفتى علم وتحقيق

ولا تعد من العقال يذمهم — فإن كل قليل العقل مرزوق

والحظ أنفع من خط تزوقه — فما يفيد قليل الحظ تزويق

والعلم يحسب من رزق الفتى وله — بكل متسع في الفضل تضييق

أهل الفضائل والآداب قد كسدوا — والجاهلون فقد قامت لهم سوق

والناس أعداء من سارت فضائله — وإن تعمق قالوا عنه زنديق

وقد توفى ابن الوردى عام ٧٤٩ هـ ، بعد أن ترك شعرا عليه طلاوة ، وفيه جدة ، وبه متعة ولذة ، تتمشى فيه روح شاعرة قوية وثابة ، وتتدفق دون تزويق أو تعثر أو اضطراب . ونظمه فى الغزل والوصف والاخوانيات والحكم والأمثال . وهو صاحب اللامية المشهورة باسمه .

وله نثر رائق فى جملته ، غير أنه أقل جدة و إشراقا من شعره ، ففيه تكلف وقلق ونزول أحيانا وفى معانيه ضآلة وتفاهة ، بالقياس إلى أساليب شعره ومعانيه .

وقد كتب ابن الوردى الرسائل الاخوانية والإجازات العلمية ، والرسائل الوصفية والخطب والمقامات . وترى فى مواضع مختلفة من بحثنا هذا ، نماذج لذلك مختلفة ، كل بمناسبته .

ونتحدث هنا فيما يلى ، عن بعض مقاماته .

١ — صفو الرحيق فى وصف الحريق [1] :

فى عام ٧٤٠ هـ شب فى دمشق حريق رائع اندلع لهيبه فى أرجائها ، واستطار شره واشتد خطره وضرره ، و بادت منه المدينة العامرة وأهلها بالخراب والبوار .

(١) هذه المقامة فى ديوان ابن الوردى ، وكذلك مقاماته التالية — وهو طبع الجوائب سنة ١٣٠٠ هـ

ويبدو أنه قد قام بتسجيل هذا الحريق أكثر من أديب ، ومنهم ابن الوردى والصلاح الصفدى ، وقد سجله كل منهما فى مقامة لطيفة .

أما مقامة ابن الوردى فقد سماها « صفو الرحيق فى وصف الحريق » وقد بدأها بقوله : « حدث غياث بن سحاب عن ندى بن بحر » . وهذا استهلال موفق للمناسبة البارزة بين هذه الأسماء وموضوع المقامة .

وأسلوبها بديعى فيه الكثير من الطباق والتضمين والاقتباس والتوجيه ، ونثر الأبيات الشعرية . واقتباساتها طريفة ومنسجمة مع المناسبة ، وسجعاتها هينة لطيفة ، وإن كانت لم تسلم — جملة — من التكلف .

فمن اقتباساته قوله : « وأصبح أهل دمشق حيارى ، وترى الناس سكارى وما هم بسكارى » .

ومنه مع التوجيه قوله : « فكم أحزاب زمر جاثية لغاشية ذلك الدخان . وكم صاحب دار إذا زلزلت عبس وتولى »

ومن طباقه قوله : « فتبادر إليها فتية ، قالوا النار ولا العار . ورزقهم الله الجنة فما أصبرهم على النار وقوله : « ورحموا عزيز قوم ذل ، وغنى قوم افتقر »

ومن تكلفه فى السجع ، وهو مثير للطرب ، لتكلفه ، قوله ، يصف مماليك نائب دمشق :

« وجاءت مماليكه الحسان خلالها ، وأصداغهم كالعقارب ، وشعورهم كالأفاعى . وتمت لهم الكرامة الأحمدية باقتحامها . فسلام الله على ابن الرفاعى . . . »

وقد وصف ابن الوردى هذا الحريق . ووضح بعض وقائعه ، وبين أنه امتد إلى بعض الأبنية كالمدرسة الأمينية ، وأنه انتشر فى الأسواق كسوق الدهشة والوراقين والسكت والخيمية . وأشار إلى هلع الناس وفزعهم وإلى إقدام شبان دمشق على إطفاء

بالحريق ، واهتمام نائبها الأمير « تنكز » بالقضاء عليه . إلى غير ذلك .

وإليك شيئا من هذه المقامة ، قال في أولها :

« حدث غيث بن سحاب عن ندى بن بحر ، قال : بينا أنا ذات ليلة من سنة أربعين ، وقد أويت من دمشق إلى ربوة ذات قرار ومعين . وإذا بضجيج أهلها قد ملأ الآفاق . والنيران فى أسافلها وأعاليها قد بلغت النجوم والطباق . فبادرت إلى الجامع الأموى لأمنه ويمنه . فوجدت العالم كأنهم قطعة لحم فى صحنه . وقد أرسل على أحاسن دمشق شواظ من نار ونحاس . وقربت النار من جامعها الخضر حتى كاد يحصل منه اليأس . وثارت النار لأخذ الثار مسرعة فى كلها . وجاءت حمالة الحطب فتبت يدا أبى لهبها .

حمراء ساطعة الذوائب فى الدجى ترمى بكل شرارة كطراف » الخ

وقال يصف بعض أسواق المدينة ، مما امتدت إليه النار وأتلفته ، مستخدما أحيانا فى عبارته ألفاظا تناسب المعنى الملابسة لهذه الأسواق ، فى بعضها جناس أو تورية ، ويذكر نائب دمشق « تنكز » :

« فيالسوق السكة ، ما كفت النار عنه لسانا . ولاثنت عنه سوابقها عنانا . ونعوذ بالله من نار علكت عليهم اللجم . وسبكت مهجته حتى أفصح بالتأسف له الألسن العجم . ووثبت إليه من بعيد ، وقالت : آتونى زبر الحديد .

ويالسوق الخيم كيف خيمت عليه . وتجلد لها والنار بين جنبيه . إنها عليهم مؤصدة . فى عمد ممددة . فلولا اللطف ما مدله طنب . ولاسلم لعروضه وتد ولا سبب . ولكن تداركه من الماء والتراب ، برد وسلام . وشكت خيامه الظمأ فقيل لها : سقيت الغيث أيتها الخيام .

ويا لسوق القسى ، كيف تبرأ منه قوس السحاب . وسوبت قسيه ، فكل نون تسبح فى ماء الذهب آيات إلى المحطب ، ورمى بها من النيران وقالت له النار قد دخلت

فى باب أن من الأثنين ، وتستدخل فى باب كان : فقد قست على قسيك قارى ، وطلبتها بأوتارى . وجعلت كل نون ألفا . وقرأت لها فى ملحمة ابن عقب : من مصارع القرون ما كفى .

هذا وقد أضاء الليل بالنار ، حتى صدق القائل . وقال الدجى : يا صبح لونك حائل . فبينا الحنايا فى المرتقب من اللهب ، وقلوب أصحابها فى المعرة وأعينهم فى حلب ، وإذا بالنائب قد أقبل . وصبره مقلص ودمعه مسبل . وقال : وا أسفا لمدينة عمرتها . ووا لهفا لأوقات عمرتها . كيف تصل النار إلى محاسنها . وتتمكن من أماكنها . . . ؟ فقال له لسان القدر الصانع : هذه أول عقوبتك بإخراج الكلاب والضفادع . فالعجب أخبث سجية . والكلاب — كما قيل — خطية . وقيل :

تنكر تنكز[1] بدمشق تيها فقاسوا منه أنواع العذاب

وقالوا الضفادع ألف بشرى بعيشته فقلت والكلاب » الخ

٢ — المقامة الصوفية :

تدور حول وصف الصوفية ، وبيان أحوالهم وتفسير إشاراتهم . وتتضمن حواراً بين إنسان من معرة النعمان ، سافر إلى القدس الشريف ؛ وبين من لقى فيه من الصوفية عشرة رجال ، فيهم شيخ وقور .

قال ابن الوردى فى مطلعها :

« حكى إنسان من معرة النعمان ، قال : سافرت إلى القدس الشريف ، سفر منكر بعد التعريف . فاجتزت فى الطريق بواد وقانا لفحة الرمضا . وقال : حكمت على الوادى

١ — تنكز الحسامى أحد أمراء مصر فى عصر المماليك . وقد ولاه الناصر بن قلاوون نيابة الشام وجعلها أرفع نيابات السلطنة فلبث فيها تنكز زمنا طويلا حتى أثرى ثراء فاحشا . ثم وقعت بينه وبين الناصر فقبض عليه وخنق فى سجنه بدمشق عام ٧٤٠ هـ « فوات الوفيات ج ١ — الدرر ج ١ رقم ١٤٧٤ »

الذى تروع حصاه حالية العذارى . فقلنا : دائم الحكم والإمضاء . وإذا عين كعين الخنساء تجرى على صخر . ويقول ماؤها أنا سيد مياه هذا الوادى ولا فخر . فرويت كبد صاد من تلك العين . ولكن نغص منظرها الحسن بذكر ظمأ الحسين . هذا وماؤها يجرى على رأسه خدمة للوراد . ويطوف بنفسه سواء العاكف فيه والباد » الخ

ثم لقى هذا الوافد عشرة من الرجال بينهم رجل كبير السن والقدر ، وجميعهم من الصوفية . جعلوا يتهامسون فيما بينهم . ويتبادلون أحاديث رمزية ، لم يدر زائرهم من معانيها شيئاً ، حتى دعاهم شيخهم الكبير أن يشركوا هذا الزائر معهم فى تلك الأحاديث . فأخذ يسألهم عن أحوال الصوفية و إشاراتهم ، وعن مرامى رموزهم المختلفة التى استعصى عليه فهمها لاكتنافها بغموضة و إيهام زائدين . وكلما سأل سؤالا تعرض شيخهم للاجابة عنه ، وتفسير ما غمض من الرموز و الإشارات .

ومن ذلك قوله :

« وأما شرط الصوفى باستحقاق . فأن يتخلق بأخلاق الرسول . ويفوز من سؤل رياضاته بالشمول . ويتنكب عما عنه تكب . و يأخذ بما إليه ندب . لايتخذ محرمه وبيعه . ولا يجرى كالعاصى الذى يزيد إعراضه عن الشريعة . فقد صفا من الكدر . ونحى عن الفكر . ونجى من الغير . ومن عدل عن سمته ونهجه . وعول على حكم نفسه وهرجه . وسعى لبطنه وفرجه . كان من التصوف خاليا . وفى التجاهل ساعيا . ومن داخله فى ذلك مرية . فقد عطل عما ذكره الحافظ فى الحلية .

قال الحاكى: فلما سمعت ما قاله هذا الشيخ الجليل أكبرته و بالغت فى التبجيل . وقلت له: ياسيدى ا لى زمان أحرص على مثلك ، فما ظفرت به من قبلك . فتمم العطاء وا كشف لى الغطاء . عن أشياء . تعانيها متصوفة الوقت . وميز لى منها ما يستحق المقة من المقت . قال : سل عما تريد . قلت أول:بيت فى القصيد ، لم حلقوا الرءوس وقصروا الثياب ؟ قال : موافقة لما فى الكتاب » الخ .

هكذا أخذ الجا كي يسأل والشيخ يرد. فسأله عن تختم الصوفية بالعقيق. وجلوس واردهم على باب الرباط ، ودخوله بهيئة المسافر ، ووضع صاحبهم إبهام رجله اليمنى على إبهام اليسرى ، إلى غير ذلك .

ويتخلل حديثه نقدات لمتصوفة زمانه ، حيث يقول :

« إن متصوفة اليوم . أصحاب أكل وشرب ونوم . يروون الأقوال . ولا يتبعون الأفعال . وافقوم ملبسا. وخالفوهم أنفسا. يدعون ما ليسوا من رجاله. ويخيرون الشخص بين عرضه وماله . يحبون الجاه والشهرة . ويؤملون برد النعيم على فترة .

اعتزل الناس ومل عنهم بنفس صادقة
صار الرباط كاسمه والخانقاه خانقة
والناس وقد تصنعوا وليس فيهم بارقة
إلا قليلا قال عن دنياه أنت طالقة

قلت : إلى رؤية هذا القليل أميل . فبهم تبرد النار ويشفى الغليل . فليت طرفي قبل الموت المحتوم . اكتحل بنجومهم الزاهرة ، فنظر نظرة في النجوم .

قال الشيخ : كم ندفعك فلا تندفع . ونقطعك فلا تنقطع. الآن أعجبني صدقك. ووجب علينا حقك . وأنشد :

هكذا كن محبة واحتفالا واعص فينا الوشاة والعذالا
لك منا تكتم واستتار ولنا منك أن تطيل السؤالا
إن لله في الوجود وجوها تركت حسنها له والجمالا
فاعلموا أن في الزوايا خبايا وافهموا أن في السويدا رجالا الخ»

وأسلوب ابن الوردي في مقامته تلك — وسائر مقاماته — فيه ضعف ونزول عن مستوى الجزالة . واتضاع عن أسلوبه الشعري . ومع هذا نلحظ فيه النهج البديعي واضحا ، مع التزام السجع وقصر فقراته غالبا ، وتضمين شيء من أبيات الشعر ، وحل

أبيات أخرى كقوله « براد وقانا لفحة الرمضا . وقال: حكمت على الوادي الذي تروع حصاه حالية المذارى» . وذلك حل لأبيات حمدونة الأندلسية من قولها .

وقانا لفحة الرمضاء واد ... سقاه مضاعف الغيث العميم
تروع حصاه حالية المذارى ... فتلمس جانب العقد النظيم

وقد اقتبس أو ضمن شيئا من القرآن الكريم كقوله «سواء العاكف فيه والباد»

ومن توريته قوله : « وإذا عين كمين الخنساء تجرى عن صخر » وقوله « ولا يجرى كالعاصى الذى يزيد إعراضه عن الشريعة » . وفيهما تلميح أيضا ، فالخنساء الشاعرة المخضرمة المشهورة ، وصخر أخوها ، والعاصى والشريعة نهران .

ومن مطابقته قوله : « بحاضرة جلالتهم بادية » و « وافقوهم ملبسا ، وخالفهم أنفسا » وفى هذه العبارة ازدواج وسجع أيضا .

ومن عكسه قوله : « سلوك الحسن بحسن السلوك » . إلى غير ذلك .

ويهمنا من تلك المقامة أنها ترسم لنا طرفا من حياة الصوفية ومن حيلتهم فى عصر ابن الوردى — ولو إلى حد — وتبين لنا مبلغ ما أكثروا من الرموز والإشارات ليحيطوا أنفسهم بهالة من الغموض تنبعث منها جلالة .

وتقدم لمتصوفى زمانه دلالة على مبلغ نظرة المثقفين إليها ، وأنها نظرة شزراء . إذ كان الصوفية حينذاك قد استشرى خطرهم وزاد نفوذهم ، حتى وصلت أصابعهم إلى سياسة الدولة ، وأصبحوا ذوى سلطان على الخاصة والعامة على السواء . مع أن وجودهم الزائف دليل على تفشى ضعف الإيمان فى النفوس ، إذ أصبحوا — وهم الذين يزعمون الزهادة والعبادة — لاهم لهم إلا الطعام والشراب وما جرى مجراه . . وتلك حياة بطالة ناعمة ينفر منها المؤمنون بالله حق الإيمان ، والعارفون بدينه حق المعرفة .

المقامة الأنطاكية :

سار ابن الوردي في هذه المقامة على نهجه في سابقتها ، واتبع نفس الأسلوب البديعي المسجوع ، وفي نفس المستوى — وبدأها بقوله : « حدث إنسان من معرة النعمان » .

والمقامة تدور حول وصف جمال أنطاكية ، وبيان ما فيها محاسن غدران وأطيار ، ومفاتن رياض وأزهار . وقد خللها بأبيات في المعنى ، بين كل طائفة من السطور موشحها مقطوعة في نحو ثمانية عشر بيتا في وصف المدينة ، ومجاليها الجميلة .

وتتضمن المقامة الإشارة إلى أن في المدينة كثيرا من العجم ، وقليلا من العرب . وبين الفريقين شحناء وعداوة . وقد صاغ المحدث كلامه هذا في حوار بينه وبين والى المدينة ، الذى أمضه وآلمه ما بين عجمها وعربها من شقاق ، وأضناه سوء العيش بها . حتى أصبح يرجو فراقها — فلامه « المحدث » لملله منها ونفوره عنها ، وطفق يصف له محاسنها .

وقد قال في مستهلها .

« حدث إنسان من معرة النعمان . قال : كثيرا ما كنت أسمع بين البرية . الثناء على نزه أنطاكية . وأنها قطع لمن لم يصلها وخروج لمن لم يدخلها . ولفرط ثنائهم عليها . تجهزت للسير إليها . فلما دخلتها . وشاهدتها وتأملتها . أكبرت طولها . وطولها . وعجبت لحصانتها والعاصى دائر حولها . ودهشت لاستخراج الظاهر من باطنها . واندهشت لاستدراج الكافر عن مواطنها . حتى قسا قلب القسيان على برج الجرس . فما بكت عين ولص على ما اندرس . وأشهر في التواريخ حديثها . وبدل بالتوحيد تثليثها . وفتح باب جنانها . لمن أصبح من سكانها — فحمدت الله الذى جعلها دار إسلام . وشكرته على هذا الفتح الذى خص أحزاب المؤمنين بالإنعام . فانتهيت من بدايتها إلى دار ولايتها . فوجدت والى المدينة شابا ذا سكينة . فلما سلمت عليه .

وأجلسني إليه . وأخذ في مؤانستي . وأظهر الابتهاج بمجالستي . فتبعته بحسن زيه . وطيب مدينته . فتنفس الصعداء وترنم منشدا :

كم من صديق صديق الود تحسبه ... في راحة ولديه الهم والنكد

لاتغبطن بني الدنيا بنعمتهم ... فراحة القلب لم يظفر بها أحد

قلت : لله در فصاحتك . ما السبب في عدم راحتك . قال : لقد جمعت هذه المدينة بين عرب وروم . وأنا معهم في الحي القيوم . لا أطيق فيهم قرارا لو اطلعت عليهم لوليت منهم فرارا . ومن يطيق الجمع بين الضدين . أم من يقدر على موالاة ندين . وكيف يظفر ما كن أغطا كية بنيل أرب . وقد حنيت أضلع العجم على بغض العرب . كم أجد ويلعبون . وهم من بعد غلبهم سيغلبون .

من كل فظ أعجمي غث الكلام مذمم

إن خبهته صروة فتقول هجمته نم

قلت : قصر عن خطاك خطاك . واشكر من أنطاك أنطاك . قسورها منيع . وعاصيها مطيع . وأطيارها تحن إلى نغماتها الجوارح . وأنهارها مطردة وعيونها سوارح . ونسيمها يبطل رائحة المسك السحيق . وما كنها يرمي على الغصن الوريق . يصدأ بهوائها السلاح . وتجلى به القلوب والأرواح . برية بحرية سهلية جبلية . منثورها منثورها .

تتكامل فيها السرور لمن بها ... يوما أقام كما تكامل سورها

وخلت قلوب قصورها فاستضحكت ... إذ عاش شاكرها ومات كفورها » الخ .

ومن طباقه فيها قوله : « إنها قطع لمن لم يصلها . وخروج لمن لم يدخلها » « ودهشت لاستخراج الظاهر من باطنها » .

ومن اقتباساته قوله : « لو اطلعت عليهم لوليت منهم فرارا » و « وهم من بعد غلبهم سيغلبون »

ومن توورياته قوله : « وعجبت لحصانتها والعاصى دائر حولها » و « وأنا معهم فى الحى القيوم » .

ومن جناسه قوله : « أكبرت طُولها وطَولها » و « قصر عن خَطَّاك خُطَّاك وأنطاك أنطاك . و« منثورها منثورها » .

المقامة المنبجية :

هذه مقامة طريفة يحسب قارىء عنوانها أنها فى وصف مدينة « منبج » وهى — فى الحق — فى النقد . وقد بدأها ابن الوردى بعبارته التقليدية ، وهى قوله «حكى إنسان من معرة النعمان » . وقد دخل هذا الإنسان مدينة « منبج » ورثى لطموس معالم من معالمها ، ودثور بعض آثارها ، وذكر ما كان بها من مساجد وقصور . ونوه ببعض أوليائها الصالحين، وهو الشيخ «عقيل» الطيار فى الهواء، الغواص فى الماء .. الخ.

ثم قصد المدرسة النورية ، فوجد بها مدرسها القاضى ، وكان حدث السن ، يبدو — لحداثة سنه — أنه غير كفء لمنصبه . فقعد الحاكى فى حلقته يسمع درسه ، حتى انتهى منه . فأخذ يسأله أسئلة وهو يجيب .

ومحور أسئلته أنه ادعى أن له عشرة أصدقاء . كل منهم ذو علم وأدب وقال كل فرد منهم بيتين من الشعر فى أغراض متعددة بين مدح وغزل ووصف فهو يعرض هذه الأبيات عليه بيتين بيتين ، طالبا رأيه فيهما . وكلما أسمعه « الحاكى » بيتين ، أخذ القاضى المدرس ينقدهما ويبين معايبهما ، وينصح له عن وجه الصواب ، وما ينبغى أن يقال . حتى انتهى من بيتى العاشر من أصدقائه ، وقد عرف مبلغ علم القاضى وأدبه وحسن بصره بالشعر ، وقدرته على نقده . فاستغفر الله لسوء ظنه به ، وسأله الصفح عنه والمغفرة . عاقدا النية على ألا يعود إلى ازدراء شاب ، قائلا : « فسبحان من

يؤذى من إنشاء الحكم صيب » .

هذا ملخص المقامة المنبجية . ومن هنا ترى أنها في نقد الشعر ، أكثر مما هي في غرض آخر وهي تدلنا على لون آخر من ألوان الثقافة ، وضرب من ضروب التفكير في عصر ابن الوردي .

والنقد — كما سنرى في بابه من هذا البحث — كانت له حينذاك جولة أو دولة وصولة ، لا كما يعتقد كثير من أدبائنا المعاصرين ، ممن يصمون العصر بالجمود والقعود . والنقد من أقوى المظاهر الدالة على اليقظة الفكرية والانبعاث الذهني ، وعلى المعرفة بوجوه الحسن والجمال في الأدب . ولقد انبعث النقد وسرت روحه في نواحي كثيرة من النتاج الأدبي ، حتى في هذه المقامات .

والنقدات الواردة في خلال هذه المقامة متنوعة . وأكثرها منصب على نقد المعنى وفحص الفكرة ، وبيان صوابها أو خطئها ، وما فيها من حسن أو قبح . ومنها ما ينصب على نقد التعبير ، لفظه ولغته ونحوه ، مع بيان صلة ذلك بالمعنى أيضا .

ونعرض قطعة منها نموذجا لها . قال ابن الوردي على لسان حاكيه ، يقص قصته مع مدرس المدرسة النورية :

«فأخلصت النية . وقصدت المدرسة النورية . فإذا مدرسها القاضي ، وقد استقبل أمر الدرس بفعل ماضي . فاحتقرته لحداثة سنه . وعزمت على تخجيله بفن لعله غير فنه . قلت : المتصدر قبل أوانه سفيه . ورب فقيه لا أدب فيه . فلما أتم درسه ، بسط إلى أنسه . وسألني عن حاجتي . فقلت في لجاجتي : نحن عشرة ذوو نسب . وأولو علم وأدب . وقد أنشد كل منهم بيتي شعر . سامهما فضل سعر . وأقام وزنهما . وقال : إنهما وإنهما . وأنا رسول أصحابي إليك . لتنصف بيننا ، وقد دالت عليك . .

قال : قل ما أردت أن تقول . وأبدأ بنفسك ثم بمن تعول . ثم أصلح إلىّ .
وأنشدته بيتىّ :

زائرة زارت بلا موعد   أفدى بما أملكه سيرها
فقلت ماذا وقته فارجعى   وعاوديني ليلة غيرها

قال : هذا سوء الأدب بالأدب . والدليل على ضعف الطلب . أتزورك متفضلة .
وترجع خجلة ؟ فأنشد بيتين لا مطعن عليهما . ولم أسبق إليهما :

جبرت يا عائدتى بالصلة   فتمى الإحسان تنفى الوله
وعنه قد حسبت زورة   لم أنت يا لعبة مستعجلة

ثم قال : هكذا بيان المبانى . فأنشدته قول الثانى :

يا من أعار الليث حسن اللقا   كما أعار السحبَ المطلا
بعضك فى الجود ككل الورى   فاعجب لبعض يعدل الكلا

قال : لقد أشبهك فى بيتيك لا بل أربى فى سوء الأدب عليك . فمن أعار الليث لقاه . فبماذا يلقى عداه ؟ ومن أعار السحب المطل ، فقد خلت عن المطل يداه . ولو أبدل أعار بطل . واحترز من عموم البيت الثانى ، كان أسلم . إذ يلزم أن يكون بعض هذا الممدوح ، مساويا فى الجود ، الورى ، حتى الكليم والروح . لقد أخطأ وأحال ،
ويا ليته قال :

علمت ليث الشرى وثوبا   والسحب علمتهن هطلا
حاشاك ثم وكل ضد   فصح قولى : حاشا وكلا

ثم قال : قد أريتك البواعث . فأنشدته قول الثالث :

لو كنت محتاجا إلى درهم   لكان بالمداح لى أسوه
وكان من لا يعطنى أهجه   فالحمد لله على الثروه

قال : هذا نظم على الفتوح . فهو كجسد بلا روح . وتقدير ضمير الشان . بعد

قوله « وكان » يحيا به الميت . ولا يخرب البيت . وشاهد هذه التفيهة أين من يدخل السكنيسة . . . فنبه إلى . وانظر كيف أخذت هذا المعنى بكلتا يدى . فقلت :

أنا لو كنت مقلا ما اصطلى الناس بنارى
خلص العالم جمعا من يمينى ويسارى

ثم قال : قد جئتك ببدائع . فأنشدته قول الرابع :

له قباء خاط تطريزه لحسنه تطريز خديه
ملتفت نحوى كظبى النقا لا . مالظبى غنج عينيه

فقال : لا معنى بديع ، ولا لفظ صنيع ، قنع قائله بالوزن والقافية ، وجمع بين قل لا وما النافية . فلو رآه سقراط ، أعرض عن حبه بغضا ولم يعرج . وقال إن لم يكن حطاً فحرج[1] . فاسمع فى المعنى تضمينى التمين . الذى أردفت جيش حبه بكمين . فقلت :

طرز قباء مخنق كخده ورقه
ما أعوزت منه الظبا إلا طرازكه » الخ

أطلنا فى عرض هذه القطعة لنبين للقارئ الكريم ناحية من نواحى النقد الأدبى ، وطريقة من طرق تذوق الأدب .

المقامة الشهرية :

تدور هذه المقامة حول إنسان مل المقام . وشمر للطواف والسفر ساعده : وبينما هو يجد فى رحيله إذ لقى أميرا كبيرا ، بدا فى عجاجة على رأس جبل . وما إن لقيه حتى سأله الأمير عن قصده . فأخبر خبره ، وأنه يجوب الأرض ، فقد حنت نفسه إلى معاودة العوائد ، وحنته على مشاهدة المشاهد .

---

١ — فى الباراغ ض

فأخذ هذا الأمير الكبير يقرعه على ذلك، ويوبخه على سفره لمثل تلك الزيارات، ويبين له أن فيها كثيرا من المآثم، وأخذ يثبط همته عن المسير، ويخذله عن الرحيل.

ويبدو أنه كان يقصد زيارة المشاهد، أى المساجد العامرة بأضرحة الصالحين. بدليل أن هذا الأمير لما نهاه عن سفره إليها، بين له أن قصد السفر إليها بدعة. وكل بدعة ضلالة. وأنه ينبغى أن لا تشد الرحال، إلا لثلاث. كما هو نص حديث الرسول عليه الصلاة والسلام — وظفق يورد له ألوانا من المآثم التى يرتكبها المسافر إلى غير المساجد الثلاثة.

وبعد نقاش بينهما طويل، سأله عمن حرم هذه الزيارة، فأخبره أن من حرمها هو قاضى قضاة الشافعية بدمشق، كمال الدين بن الزملكانى. فأخذ «الحاكى» يمدحه ويغدق عليه الثناء بكلام منثور، أعقبه بقصيدة مدح تقع فى نحو أربعة وأربعين بيتا. وشكا له فيها آلامه من منصبه فى القضاء — وقد كان ابن الوردى نائبا فى الحكم عن الكمال بن الزملكانى — وطلب إليه فى إلحاح أن يعفيه ويبعده عنه، منوها بما يلقاه القاضى النزيه العادل العف من عنت وإرهاق ونكران للجميل، بسبب منصبه. وأن مثل هذا المنصب لا يجدى معه النزاهة والعدالة والعفة، وخير للفقيه العالم النزيه أن يركن إلى حياة الخمول، وينأى بنفسه عن المناصب ففى ذلك راحة له وإرضاء لضميره.

وهذه معان كررها ابن الوردى فى شعره مرارا، حتى صبغته بصبغتها، وبدت فيه مبدأ من أهم ما ينادى به، كما سبق لنا التنويه بذلك فى مطلع الحديث عنه.

وترسم لنا هذه المقامة ناحية من أهم نواحى العصر وهى على الأقل تشير إلى إحدى الظاهرات الاجتماعية المنكرة. — ففضلا عما نبهت إليه من انتشار بدعة زيارة الأضرحة، والسعى إليها قصدا، وما فى ذلك من شرور وآثام ومخالفة لتعاليم الدينية الصحيحة — نبهت ضمنا إلى ما كان يكتنف المناصب عامة، ومناصب القضاء خاصة،

من آثام وشرور . فقد كان طلاب الوظائف، ومنها القضاء، يسعون إليها بالرشوة، حتى كانت الرشوة تكون تقليدا متبعا . وهى تقدم إلى السلطان والوسطاء من الأمراء وغير الأمراء . وقد استفاضت الأحاديث فى كتب التاريخ وتراجم القضاة عن وقائع الرشوة. ولم تنج من حملات النقد والمؤاخذة والتندر .

وبدهى أن الساعى إلى منصبه بالرشوة ، لا يؤمن جانبه ، ولا يطمئن إليه ، وهو فى حاجة إلى نبذ العفة والنزاهة لكى يعوض نفسه — باستغلال منصبه — عما دفعه فى سبيله من مال . ويشتد الخطب حينما يكون الموظف قاضيا فإنه فى ذلك الوقت لا يؤمن على العدالة ، ولا يوثق به فى أداء الأمانة . — هذا فضلا عن اضطراره إلى إرضاء ذوى السلطان ورعاية أهوائهم ، حتى يبقوا عليه فى منصبه .

لهذا عف كثير من فقهاء هذا العصر عن مناصب القضاء ، وربئوا بأنفسهم عن مزالقها والتلوث بلوثتها — ولهذا الموضوع حديث طويل ، ليس هنا مجال الإفاضة فيه . . .

ولا ريب أن ابن الوردى كان قلق النفس فى منصبه « نيابة الحكم » غير راض بالانتظام فى سلكه لما يكابده شاغله من مشقات وآلام إذا كان نزيها عفيف النفس حر الضمير . ولهذا سرعان ما كان يظفر بضجته ويرتفع بشكاته ، عندما يصاب بأى شىء من جراء منصبه ، كنقله بعيدا عن بلده ومستقر إقامته ، حتى ليفضل العزل منه على البقاء فيه .

وقد نهج ابن الوردى فى مقامته المشهدية النهج البديعى ، كعادته فى جميع مقاماته مع سجعات قصيرة أحيانا مقبولة . غير أننا نلاحظ أنه أثقل مقامته هذه بألوان عدة من الجناس ، ومنها الجناس الخطى كقوله « ولوت عنقها عن عنقها . وظهر لأئمة الأمة . وزهدت نفوسهن فى نقوشهن » . . .

وإليك بعضا من أحاديثها ، تجاه بعض مطالعها :

« جئت المنعلق من معرة النعمان . قال : لما أنست النفس شهرة شهر نيسان الذي هو لمنطق الطير فصل ، ولعين كل حيوان إنسان . وقد جالت البسيطة من السندس بسطا . وكللت الأغصان من زهر الزهر سمطا . ورضيت بالرياض عن سحب أخيلها السحاب عليها . ونظرت العيون بنظرها إليها . حنت النفوس إلى معاودة العوائد . وجنت على مشاهدة المشاهد . »

وقال :

« فغلبت النفس اللوامة . ولبست السفر لامة . وحصلت على المسرة ورجعت . وشرعت فى الرحلة وأسرعت . فبينا أنا أفلى الفلا . وإذا غبار قد علا . فأعجزنى لونه فرقبته . على رأس جبل رقيته . وحسبته أمرا خشيته . فانقشعت سحب حجبه . عن أمير كبير فى طلبه . فحين دنا منى . سألنى عنى . وقال من أين وردت . وأى مكان أردت . فأنبأته بصدق عن قصدى . وأطلعته على ما عندى . »

وقال مبينا أسباب تحريم السفر إلى المشاهد :

« فقلت : أيها الأمير الجليل : هل أبدى لهذا التحريم دليل . فقال : لقد ذكر لذلك أدلة تدع أعزة حاضريها أذلة . منها شد رحالهم إلى غير المساجد الثلاثة . ومشاركتهم أهل الكتاب فى الأعياد والخباثة . وتشبههم بالمجوس فى إضرام النار . وإضاعة المال المنهى عنها فى الأخبار . واختلاط النساء بالرجال . وركوب الأخطار والأوجال . ولهوهم عن العبادة والجماعات . وإقبالهم على اللعب والسماعات ، ومحاكاتهم الجاهلية فى أسواقها . وإحداث أحداث المشيرة فى الشريعة ، مما ليس من قياسها ولا سياقها . وزيادة عيد ماوردت به الرسالة . وارتكابهم أمر أمر مبتدع ، وكل بدعة ضلالة » .

وقال مادحا لابن الزملكانى ، وفى عباراته توجيهات علمية :

« فلما علمت أن مولانا قاضى القضاة كمال الدين . شيخ الإسلام والمسلمين : لا زال نداه مثل حرف النداء . كفيلا بضم الأقربين والبعداء . من وصل به نال حرفا ما كتسب تابعه على اللفظ والمحل عطفا . حتى يكون علما منصوبا . وعوائده المعارف خبرا مبتدأ به منسوبا . ولا برح مرفوعا فعل الحسنى . وسيوف بحوثه ماضية فهى على الفتح تبنى . هو الذى يمنع أهل هذه البدعة . وأطفأ لمحة السمعة . وأمر بالمعروف المعروف . وقبح العكوف على هذا المألوف . وسد فرج الفرج . وداوى جرح الحرج . ونبه على لقط الغلط . وكسر سفط السقط . فحينئذ رجعت عن قصدى ، واطرحت كلفتى . وأقسمت بفرحتى . قبل حلول حرقتى . لأتركن حرفتى . ومن القاضى المسكين من الذبح بغير سكين » .

وفى الفقرة الأخيرة إشارة إلى أحاديث الرسول التى مؤداها ، « من ولى القضاء فقد ذبح بغير سكين » .

حـ — مقامتان لصفى الدين الحلى[1] « ٧٥٠ هـ »

صفى الدين الحلى ، أو عبد العزيز بن سرايا الطائى ، أحد البارزين من شعراء جيله ، لا يكاد يدانيه منهم ، جودة أسلوب وبراعة منزع وسعة تصرف فى الفن الشعرى ، سوى معاصره وشاعر عصره جمال الدين بن نباتة المصرى .

ويعتبر فى عداد شعراء العصر كله ، بل ومن شعراء مصر . ولو بدا فى ذلك الاعتبار الأخير مبالغة ما — ذلك لأن صفى الدين أقام بمصر زهاء ثلاث سنين ، ولكنه - وإن كان قد ولد بالحلة قرب الموصل عام ٦٧٧ هـ — قد تجول زمنا طويلا فى ربوع الشام فتأثر — ولا ريب — بالثقافة المصرية الشامية . وكان لها الأثر البعيد فى تقويم شعره . وقد اتصل صفى الدين بأدباء مصر والشام ، وكانت بينه

(١) ترجمه فى فوات الوفيات جـ ١ ص ٥٦٠ — والدرر الكامنة جـ ٥ رقم ٢١٣٠

و بينهم حوادث ومفارضات شعراء ومنافسات. وفى مقدمتهم جمال الدين بن نباتة أيضاً.

ولا تتسع هذه الوجازة لدراسة حياة صفى الدين وشعره ونثره ومؤلفاته و بدائعه غير أننا نقول إنه — وهو بالحلة — اصطلى بعداوة بعض أهلها. وكان بينهم و بين قومه وأخواله ترات ووقائع، خب فيها صفى الدين ووضع. ونظم فيها قصائد فخرية رائعة منها تلك التى مطلعها :

سل الرماح العوالى عن معالينا واستشهد البيض هل خاب الرجا فينا

وقد آل أمره إلى الفرار من الحلة، فيمم شطر المنصور الأرتقى ملك ماردين. فحظى عنده ثم عند ابنه الملك الصالح، لما أنسوا فيه من مودة ووفاء، وعقل وذكاء. فخاض مع بنى أرتق غمار السياسة فى دولتهم و بدا أثر ذلك واضحا فى شعره. ومدحهم بقصائد خالدة، منها « الأرتقيات » وهى فى مدح الملك المنصور.

وقيل إن صفى الدين ارتزق حينا بتجارة القماش. وأنه لبث يتردد على بلاد الشام. وذهب إلى الحج، فعرج على القاهرة فى أيام سلطانها المعظم الناصر محمد بن قلاوون، ووزيره علاء الدين بن الأثير. فمدحه بقصائد رائعة، وما زال، حتى يمم شطر بغداد، فتوفى بها عام ٧٥٠ هـ.

وقد أفتن صفى الدين فى ضروب الشعر، ينظم كيف شاء، متى شاء. و يندر أن تجد بابا شعريا لم ينظم فيه. غير أنه أجاد وأكثر من المدح والمديح النبوى، والوصف والغزل والفخر والحماسة والسياسة.

وينسب إليه اختراع البديعيات، وهو نفسه يزعم هذا فى مقدمة بديعيته، التى شرحها شرحا وجيزا ليبين فيه أنواع البديع فيها

وأسلوبه الشعرى بديعى النزعة. بل مغرق فى البديع إلى حد التلاعب، والتزام مالا يلزم بحال. وذلك ليظهر مقدرته على هذه الصناعة. ويبين تمكنه من اللغة وحفظه

لمفرداتها وتمكنه التام من الأساليب الشعرية المختلفة ، مع رغبته حينا فى إظهار قدرته على صناعة البديع، لم يبد لأسلوبه الشعرى لون واحدٌ ولا مستوى واحدٌ . بل تنوعت مستوياته ، وتعددت ألوانه . فهو مرة يجنح إلى الجزالة والقوة . وآنا يميل إلى السهولة والرقة و ينعى على غريب اللفظ وحوشيه : وطورا ينطلق مع طبعه فينظم ويجيد ، وآنا يقيد نفسه بقيود من الصناعة لا قبل لغيره بها ، كالتزام تصغير كل اسم فى القصيدة ، أو المجانسة بين عروض كل بيت وضربه ، أو بدء البيت بحرف ، و إنهائه به ، كما فى «الأرتقيات» ، أوتضمين كل بيت نوعا بديعا كما فى البديعية ، — إلى غير ذلك.

وكما نظم صفى الدين ، القصائد الطوال ، نظم الموشحات والمقطعات . فهو — فى الحق — فريد بين الشعراء .

وهو إلى جانب براعته فى نظم الشعر ، بارع فى تدبيج النثر . غير أنه بالأول أشهر ، وذكره به أسير . ونثره فى أسلوبه ، نموذج من شعره . وقد كتب عدة رسائل أو مقامات تطلبتها منه مناسبات حياته منها : الرسالة المهملة والرسالة التوءمية ، ورسالة الدار فى محادثات الفار[1] .

والرسالتان الأخيرتان هما بالمقامات أشبه ، لما فى التوءمية من الزخرف المتعمد ورغبة المعارضة لإحدى مقامات الحريرى . ولما فى الثانية من القص الطريف وهما اللتان نتحدث عنهما فيما يلى :

الرسالة التوءمية :

من المستطاع أن نسلك هذه الرسالة فى سلك الرسائل بدلا من المقامات . غير

---

١ — هذه الرسائل فى ديوان صفى الدين الحلى ، المطبوع فى بيروت

أنها بلغت من التكلف في الصناعة حداً ، جعلها إلى المقامات أقرب شبهاً منها إلى الرسائل . وعلى كل فالخطب هين .

وقد أنشأها صفي الدين عام ٧٠٠ هـ معارضة للحريري . وسبب ذلك أنه جرى ذكر أبيات الحريري في مجلس المنصور الأرتقي ، وأولها : « زينت زينب بقد يقد » فقيل إن للمتأخرين عجزوا عن هذه الصناعة نظماً ونثراً .

هذه الأبيات قالها الحريري في خلال إحدى مقاماته ، وهي المقامة السادسة والأربعون الحلبية . إذ ورد على لسان شيخ دعا أحد فتيانه أن يكتب له الأبيات المتائيم[1] ، أي المتماثلة لأن كل لفظين فيها يجنسان تجنيساً خطياً فكأن كل لفظين توأمان .

وكان صفي الدين قد وفد — إذ ذاك — حديثاً إلى ماردين . جلس لأول مرة إلى مجلس المنصور الأرتقي . وكان يريد أن يطلب لنفسه منه وظيفة ، يجعلها قوام حياته ومورد رزقه مدة مقامه في ماردين . فوجد في هذه المناسبة فرصة فريدة ليعرض على أنظار المنصور فنه الإنشائي ، ويريه مقدار براعته في الصناعة ، ومبلغ بضاعته من البيان ، والاحتيال على اللغة وألفاظها ، مما يلحقه بالمتفوقين من حذاق المنشئين الأوائل إن لم يسم عليهم ويفقهم

وقد قال صفي الدين عنها — فيما قال — إنه صاغها من أربعمائة فقرة نثراً ، وثمانين نظماً في عشرة أبيات على وزن واحد وروي واحد .

وسبب تسميتها « التوءمية » واضح ، وذلك لأن كل لفظين متتاليين فيها متجانسان تجانساً خطياً ، فهما توءمان .

وأسلوب هذه الرسالة أو المقامة ، احتذى فيه حذو الحريري ، في أبياته المتائيم ،

---

١ — المتائيم جمع متآم وهي المرأة التي تلد في كل مرة توأمين.

فتجانس كل لفظين متجاورين تجانساً خطياً ، لا يفرق بينهما فى الرسم شىء سوى الإعجام أو الإهمال أى التصحيف وتغاير الحركات . وهو تكلف شديد لا تسوغه جمالة بلاغية . ولقد بدت المقامة فى أسلوب غريب يعانى نوعاً من المقادة عسيراً تحجبت خلفه معانيه ، وضاعت من ورائه معالم تصوراته ، ويعانى المرء فى قراءتها صعوبة وتوقفاً. على أن المقامة — بعد فهم مراميها — لا تحتوى على رائع من المعنى ، ولا بديع من الفكر ، وهى وصف لحال الكاتب وقدومه على مليكه قدوم رجاء وأمل .

على أننا لابد من أن نعترف للكاتب ببراعة الصناعة التى تصدى لها ، وأنه أظهر اللغة ثرية سخية ، بين ألفاظها ضروب من الشبه والأخوة كثيرة .

وإليك فقرة منها على سبيل المثال ، قال فى المطلع :

« قبل قبل يراك ثراك . عبد عند رخاك رجاك . أبى أبى سؤال سواك . أمل أمك رجاء رخاء . فألفى فألقى جدة جده . بأعتابك باغيا بك شرفا سرفا لاذ بك لأذبك مقدما مقدما أمل آمل . يزجيه ترجيه يبشره بيسره ، وجودك وجودك . فاشتاق فاشتاف عُرف عرفٍ منك مثل عبير عنبر وقدم قدم صدقه صدقه ، متجملا متحملا بصاعة بضاعة تبر نثر صناعته صياغته علم علم تكفيه يكفيه فلم فلم يخل بخل ولاء ولا تدرّع بدرع وكلٍ ، وكل يوم يؤم ويستمد ويستمر . . » الخ

رسالة الدار فى محاورات الفار :

هذا عنوان طريف حقا ، يثير الطرب ، ويدفع السامع إلى تلمس الخبر واستطلاع الأثر فكم للفأر بين الدار من آثار . وكم للدار عند الفأر من أخبار . وما ينبئك مثل خبير . فهو ربيب خروقها ، ومدعى شقوقها . اتخذ من أحجارها مأمنه ، وبين جدارها

مسكنه . فحفظ أخبارها ، وكتم أسرارها : والدور تتقلب بها الأيام كما تتقلب بالرجال ، فتشقى مرة وتسعد أخرى ، وتفيض تارة بالخير ، وتبوء تارة بالفراغ منه ، وعليها من خارجها طلاء ، يغشى جدرها ، ويبهر العين ويخدعها عما وراءها .

أما الفأر فهو بها الضيف المقيم ، والزائر الذى لا يريم ، يشاركها فى سرائها وضرائها ، يسعد إذا هبت عليها أنسام السعادة ، ويشقى إذا عصفت بها ريح الشقاء . . .

وكثيرا ما تغص دور الكرماء طوائف الفئران وجماهير الجرذان ولها مما فضل نصيب ، تمد منه الموائد وتتنادى إليها ضيافن ، لم يوجه لها نداء ، ولم يرسل إليها استدعاء . فحسبها أنها فى دور الكرماء . فتملأ البطون وتهيء الحصون ، وتسهد إلى وقت سامرة ، وتنقلب إلى مخادعها شاكرة ذاكرة .

أما دور البخلاء — جنبت جنابها ووقيت أعتابها — فإنها لا فضل فيها لجائع ، ولا ثمالة لظامىء ، ولا ستر لمحروم . طالما نصب أهلها للفأر المصائد . ودبروا المكايد . فانقلب عنهم سابا شاتما ، يذكرهم بكل قبيحة ، ويرميهم بكل مذمة . ونفسه فياضة منهم بالعجب ، لأنهم يختزنون — فضلا عن المال — ألوانا من الطعام والشراب . فإذا لم يكن للفأر فيها نصيب ، فلمن يختزنونها ، ولأى شىء يقتنونها ؟

والعجب كل العجب أن يلتئم الغنى والبخل ، وينسجم الفقر والبذل ! أما الأغنياء فبخلاء ، لا ينون باسم الأناقة والنظافة والخوف من الداء وانتشار الوباء ، يرأبون الصدوع ، ويسدون الفروج ، ويغلظون الدهان ، ويبثون الفخاخ . وإذا طعموا فبالقسطاس ، وإذا شربوا لا يبقون فى الكاس . وإذا أفضلوا فاليسير من الفتات الذى لا يصلح للأقوات . فلا يقوى الضعيف ، ولا يسمن منه النحيف .

أما الفقراء ، فكثير منهم كرماء . ينضحون بالبر على بنى الحيوان من الإنسان وغير الإنسان ، يتهاونون فى الحرص على أطعمتهم وأشربتهم ، ويهملون الجدار حتى يمتلىء

بالأحجار ، فنمج بالزائرين من كل لمة ، والقار بينهم من بلا عيان يجد فى الدار مسرحه

وفى الجدار مطرحه . وله بين هذا وتلك ماشاء من طعام وشراب .

وعقد بينه وبين الدار صحبة ، فتنها المقام ، ويمكنها الإلف ، فلايبقى كلما بان

عنها يذكرها . وهى لا تفتأ كلما غاب عنها تتفقده . ولو على رضا منه وكره منها

وكثيرا ماتنتقل الصحبة بينهما من الدار إلى أصحابها، ومن الجدر إلى أربابها. فتزول

للوحشة، ويقوى الأنس ، وتستأنس العين، حتى ترى وفود الفأر تترى زرافات لا تهاب

ولا توجل . وتدير أعينها فى الحاضرين كأنما تتقاضاهم أجر الجراس وثمن الإيناس

وهذه الدار التى ننشر رسالتها ونقص قصتها ، ونحب أن نتحدث عن وفود الفأر

إليها، ونبسط لهم ما دار فيها من الحوار ، عن رخائها وبؤسها ، وأيام عزها ولياليّ

تعسها ـ هى دار شاعر . وهو صفى الدين . . . الذى عاش فى عصر حرم فيه الشعراء ،

بينما سال سيل خيره إلى غير مجاريهم ، وفاض ثريه دون وديانهم .

وقد كتب صفى الدين هذه الرسالة أو المقامة على لسان داره . وكان من المستطاع

أن نسلكها فى سلك الرسائل دون المقامات . ولكنها — كسابقتها — بالمقامات

أشبه . على أن عنصر القص والتمثيل بارز فيها بما يتطلبه من خيال وحوار . فأضفى

ذلك عليها ، مع التزام السجع والأسلوب البديعى سمة المقامات .

على أن نثرها خفيف الحمل هين المئونة ، وفقراتها قصار ، قلت فيها الكلفة . ولم

يؤدها ثقل الصناعة — ولو إلى حد — وبرزت فيها بعض لوازم الرسائل نحو

« المملوكة » و « ينهى » و « يقبل الأرض » .

وقد برهنت لنا هذه المقامة ، على أن فن التمثيل طاف بذهن أكثر من أديب

من أدباء العصر . فضلا عن أنها تدل — ولو إلى حد ما — على ما كان يعانيه كثير

من الشعراء — إذ ذاك — من شظف العيش وقلق الحياة وضياع الحق . وما كانوا

يحتالونه في سبيل الرزق من حيل . إذ لم يكن يأتيهم برزقهم رغدا

وقد أفصح صفي الدين عن سبب كتابة هذه المقامة ذو الترصيع المبكية الضاحكة المازحة الجادة ، بقوله :–

« أنشأتها عن لسان الدار التي أسكنتها بما ردين . وتعرف بدار ابن الركناس ، إلى القلعة الشهباء . وأرسلتها إلى الملك الصالح أبي المكارم شمس الدين . وأشكو بفحواها مماطلة كاتب له بدين . كان بعضه لي وبعضه على يدي ، بمبلغ طائل كتبه على نفسه وأخرجه على مصالح الدولة وتعذر عليه وفاؤه . ولم أوثر محادثته لسابق صحبة بيننا . فأنشأتها على سبيل الخلاعة والمزاح . فلما وقف السلطان عليها أطلق المال من خزائنه العالية » الخ .

والقلعة الشهباء مقر الملك الصالح ، وبدل أن يخاطبه خاطبها وبدل أن يخاطبها بنفسه قدم داره لخطابها . فهي أنسب إليها منه وأقرب ولعل الدار تسعد الدار . . .

على أننا لا نستطيع أن نجزم بأن صفي الدين كان جادا في ادعاء الدين . فهل بلغ صفي الدين حدا من الثروة يخول له أن يستدين منه أحد نولب الدولة ؟ وينفق ما يستدينه على مصالحها ؟ مع أن قصة صفي الدين هذه على لسان داره ناطقة ببؤسه وفاقته . . . فكيف يتفق الأمران ويستقيم الضدان ؟ . قد تكون القصة من صنع الخيال ، ومن نسج النزعة الشعرية في نفس هذا الأديب . وقد يكون للصدق فيها نصيب . ونعني بالصدق صدق الوقائع ، لا الخيال الرائع .

وقد بدأت الرسالة بأن تكلمت الدار ، فسمت . وتقدمت ونمت . وأخذت تخاطب القلعة الشهباء . فمدحتها وأثنت عليها . ثم انتقلت إلى الشكوى مما أصابها من هجر مالكها الأول . بعد أن رأت منه ضروبا من العز والنعيم والتمتع . ثم ما كابدت

من بعده من ظلم وبؤس، حتى هدّ جدرانها بؤسها! فتحدثت عنه فيما بينها، وتناقشت في أمره، واتخذته موضوعا لجدال حاد . .

فقام من بين الجدران خطيب يسرد قصة الدار على سامعيه ثم أوصاهم بالساكن الجديد خيرا والساكن الجديد هو صفي الدين! ثم تحدث عما كان من أمر صفي الدين، وكيف أنه أعاد إلى رحاب الدار عهد الأنس والسرور، ومد فيها موائد البهجة والحبور، حتى ضاقت ذات يده، وتغيرت به الأحوال وتقلبت عليه الأيام والليالي . حتى جأرت الدار بالشكاية له، ورثى لحاله جدرانها، وصار أمره بينها مثارا لجدل جديد .

ثم بينت الدار أن سبب نكبته، ذلك الدين الذي أقرضه لنائب السلطان . وتضرع في الجماعة إلى القلعة الشهباء أن ترثى لحالها، وتقبل شفاعتها في ساكنها، حتى يرد إليه دينه فتسعد به حاله .

هذا ملخص وجيز لما جاء في المقامة . وفي مفتتحها تقول الدار :

« بسم الله الرحمن الرحيم . المملوكة والمحرومة المرحومة، الموحشة بعد الإيناس، دار ابن الدكناس . تقبل الأرض بين يدي القلعة الشريفة . والذروة المنيفة . العزيزة الثناء سيدة القلاع . وواسطة عقد البقاع . وإنسان عين اليفاع التي قلائدها النجوم، ومطارفها الغيوم . وقرطاها الفرقدان . وقلباها السماكان . ونطاقها الجوزاء ومجرولها الهواء . وفرقها المجرة . وتبر إكليلها الإكليل والنثرة . حصن النجباء وكهف الغرباء وكعبة الأدباء . القلعة الشهباء . » . الخ

ومن شكوى الدار قولها :

« وتنهي أن المملوكة . والمظلومة المضنوكة، يسكنها الحياء والأدب . ويوحشها الإعياء والنصب وشكوى الجماد إلى الجماد، كشكوى العباد إلى العباد . وأن المعهود من عوائد المعهود . أن الله إذا خص مخلوقا بنعمة، عم بها أبناء جنسه، وأشركهم فيه مع نفسه » الخ

وقالت تصف حالها بعد ساكنها الأول :

— ثم فلما طوحت بنا ساكنها الأيام إلى أقصى الشام ، جفاها الإخوان حيناً طويلاً، وهجرها الرفاق هجراً طويلاً . فكابدت بعدهما وبؤساً ، وأقامت فارغة كفؤاد أم موسى . لا تجد أنيساً في فراستها القفار ، ولا تسمع حسيساً غير صهيل الفار . حتى زنت لها أكثر البيوت ، ونسج على وجنتها أسرة العنكبوت » الخ .

وقام الجزء الخطيب في إخوانه ، يرسم لهم آداب استقبال الساكن الجديد « صفى الدين » فقال بعد حمد الله والصلاة على النبي بتطويل وتنويع ، موصياً ، إخوانه بحسن لقاء هذا الساكن راسماً لهم سياسة هذا اللقاء . قال :

« هذه الدار المباركة أول تربة بركم ترابها . وأول أرض مس جسمكم ترابها فلا يكن على أيديكم خرابها . ألا وإنها منذ خلا منكنها من ساكنها ، وتمكن العفاء من أماكنها . جعلتموها ندوة نهاركم وليلكم . وحلبة رجلكم وخيلكم . والآن فقد انجابت عنها أيام البؤس وأفلت طوالع النحوس . ولحظها الدهر بعين الرضا . وقضى بتمدها فصل القضا ، وتولاها نعم المولى . وابتدر لسكناها الصفي الحلى . وفي يومكم هذا يرسل إليكم من يلم شعثها ، ويطهر خبثها . ومتى رآكم بها سارين . وفي قرارتها راسبين . كره مغناها . واتخذ لنفسه سواها . فعاد ربعها كالرمس[1] . ومتى تقبلها إذا قابلها ، أخصب ربعها . وتعدى إلينا نفعها . ألا وإن من استرشد بحكمي واتبع كلمتي . أثبته في أمتي . وأتممت عليه نعمتي . » الخ

ومن تفكه المقامة ما تحدثت به الدار تصف دخول صفى الدين إليها لأول مرة ، قالت :

« وإذا قد فتح الباب ، وولج به أمردان ، كأنهما الفرقدان . وهو يتهادى في مشيته . ويميس بين حاشيته وهو يكاد أن تقطر من أعطافه الخلاعة . وتلمع من أسرة وجهه الرقاعة . فطاف الدار وهش لحسن الآثار . ثم مشى ورفقته حتى جلس بالشباك الحديد . المشرف على الباب الجديد . فلما استقر به المكان وأسرح طرفه في محاسن البستان . أبدى لغلامه سغباً ولغباً . وتلا : آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصباً . فبادرت الولائد

---

١ — هنا سجعة ساقطة من الأصل

ونالوا الله، وصلحوا ومن الأحبة أجمل الفوائد، حتى إذا رفع الطعام من بين أيديهم، ونزلت أيديهم إليهم، حمدوا الله وشكروا، وطعموا ولم ينتشروا، بل قالوا: أولى بنا أن نضم بعد الطعام شيء من أرطال المدام:

ما يهضم الزاد سوى قهوة ... فقربوها نحونا واقربوا

ولا تخافوا الإثم في شربها ... فالله قد قال كلوا واشربوا الخ

وبعد، فهذه المقامة تقع في خمس صفحات من القطع المتوسط، وهي قطعة نثرية طريفة من بدائع ما كتب أدباء عصر المماليك. وهي وإن كانت ذات غرض رئيسي، تناولت أغراضا كتابية عدة، هي بأغراض الشعر أشبه، ومنها: الدعاء والشكوى والمدح والوصف والمجون والحكمة.

---

٤ – مقامتان لصلاح الدين الصفدي (١) «٧٦٤ هـ»

صلاح الدين الصفدي، المولود عام ٦٩٦ هـ في صفد، والمتوفى عام ٧٦٤ هـ بدمشق. أحد أئمة الأدب والبيان في هذا العصر. وأحد هواة التأليف الذين ابتدعوا موضوعاته ابتداعا، وكتبوا في غريب البحوث وعجيبها.

وقد عكف على طلب العلم والأدب في زمانه وقرض الشعر حتى نضج في سن العشرين. ثم أتم دراساته بعدة رحلات إلى مدن العلم والأدب في زمانه، وبخاصة القاهرة ودمشق وحلب. وعقدت المودة أواصرها بينه وبين كثير من الأدباء والعلماء، كابن نباته المصري والفتح بن سيد الناس، وأثير الدين أبي حيان، وتاج الدين السبكي.

وبرع في الحديث وفقه الشافعية، وأجاد في الكتابة والشعر، وخاض بحر

---

١ — ترجمته في طبقات السبكي ج ٦ ص ٩٤ — والدرر الكامنة ج ٢ رقم ١٦٥٤.

التأليف وليستخرج منه درراً وغرراً. ووضع مختارات من الكتب في الأدب والتاريخ، ومنها كتابه القيم « الوافي بالوفيات » في تاريخ الإسلام ويقع في نحو خمسين جزءاً.
و « نكت الهميان في نكت العميان » و « الشعور بالعور » و « ألحان السواجع »
و « التذكرة الصفدية ».

وقد ألف منتشاً في بعض دواوين الرسائل، وكتب بها مختارات الرسائل. كما كتب الرسائل الإخوانية والمقامات وشرح القصائد، وجمع فنون الأدب في مجاميع نثرية وشعرية، فضلا عما كتبه في النقد. وله « نصرة الثائر على المثل السائر » وهو كتاب عاضد به عز الدين بن أبي الحديد[1] في كتابه الذي ألفه نقداً لابن الأثير في كتابه « المثل السائر »، وكتاب ابن أبي الحديد اسمه « الفلك الدائر ». واستدرك عليه الصفدي عدة استدراكات.

ويبدو لنا من سيرة الصفدي أنه أديب مناضل مجاهد ذو رأي. ولا يعنينا إن كان مصيبا فيه أم مخطئا، أو كان رأيه نافعا أو ضاراً. وإنما يعنينا إصراره عليه وترديده له، واستشهاده في سبيله.. حتى إنه لولوعه بالجناس ألف فيه كتابا هو « جنان الجناس » شرح فيه أنواعه ودعمها بأمثلة عدة من شعره.

وقد استطاع الصفدي أن يحدث ضجة في المحيط الأدبي في عصره. وأن يثير ثائرة الأدباء. وهذا دليل الحيوية فيه وفي أدبه هذا عدا منافساته ومناظراته ومساجلاته.

وللصفدي نزعتان أدبيتان جديرتان بأن نسجلهما هنا. بعد أن نذكر أنه في مقدمة أهل البديع، بل والمتعصبين له، والتابعين في الأسلوب الشعري والنثري لطريقة القاضي الفاضل وابن نباتة. غير أنه فارقهما في ولوعه بالجناس، ولوعا ملك عليه نفسه وحبس قلمه. وهذه هي الناحية الأولى. وقد ترتب على ذلك أنه أصبح صاحب مذهب في البديع مؤداه تقديس الجناس. وملأ كثيراً من أبياته وسطوره بألوان منه — والجناس

---

١ — عز الدين بن أبي الحديد توفي عام ٦٥٥ هـ وهو شارح نهج البلاغة — انظر جورجي زيدان ج ٣ ص ٤٢.

الحوالق منه وقد كان الصفدى متكلفا فى ذلك تكلفا شديدا ـ فى نظرنا ـ وكذلك فى نظر كثير من النقاد فى ذلك العصر ، وفى مقدمتهم تقى الدين بن حجة الحموى الذى حمل على الصفدى حملة شعواء فى خزانته . أما الناحية الثالثة فهى كثرة سرقاته الشعرية من معاصريه ، وبخاصة جمال الدين بن نباتة ، حتى اضطر ابن نباتة إلى أن يؤلف فى ذلك كتابه « خبز الشعير » ويجمع فيه سرقات الصفدى من أبياته ـ ومهما يكن من شىء فإنه يبدو لنا ـ كما ذكرنا ـ أن الصفدى كان حركة دائبة وشعلة أدب ملتهبة ، ومؤثرا بين مؤثرات الأدب فى زمانه ...

ـ وفى جملة ما كتبه نثرا ، هاتان المقامتان اللتان نتكلم عنهما : الأولى « رشف الرحيق فى وصف الحريق » ـ والثانية « دمعة الباكى ولوعة الشاكى » .

رشف الرحيق فى وصف الحريق [(١)] :

ـ هذه المقامة فى وصف حريق دمشق الذى شب عام ٧٤٠ هـ ، وأتلف كثيرا من الأبنية والأسواق ، وألحق الضرر بكثير من أهلها . وكان نائب دمشق إذ ذاك الأمير تنكز الذى لبث فى نيابتها سنين طويلة . وهذا الحريق — كما يبدو — هو الذى كتب فيه ابن الوردى مقامته « صفو الرحيق » وقد سبق لنا الحديث عنها فى موضوع آخر .

وقد أشار الصفدى فى مقامته إلى ما نال دمشق من الأذى بهذا الحريق ، وشبوبه وانتشاره فى أحيائها وامتلائها بدخانه . وامتداده إلى أسواقها وعمائرها ، إلى غير ذلك فهى مقامة وصفية .

وإليك فقرات منها ، قال :

« فسألت عن الخبر من غير . فقال : إن الحريق وقع قريبا من الجامع ، وانظر إلى شبح الجو كيف انتشرت فيه عقائق اللهب اللامع . فبادرت إلى صحنه ، والناس فيه

---

١ — هذه المقامة فى كتاب « مسالك الأبصار » لابن فضل الله العمرى ج ٢ ص ٢٠١ طبع دار الكتب .

قطعة لحم . والقلوب ذائبة جنك النار كما يذوب الشحم . ورؤيت النار وقد نشرت فى حداد الظلام معصفرات ذوائبها ، وصعدت إلى السماء عذبات ذوائبها

ذوائب جلت فى علو كأنما · تحاول ثأراً عند بعض الكواكب ·

وعلت فى الجو كأنها أعلام ملائكة النصر ، وكان الواقف فى الميدان يراها وهى « ترمى بشرر كالقصر » . فكم ولد أضحت لتلك الدخان جاثية ، وكم نفس كانت فى النازعات وهى تتلو « هل أتاك حديث الغاشية » . ولم تزل النار تأكل ما يليها وتفنى ما يسفلها ويعتليها . إلى أن ارتفعت إلى المنارة الشرقية . ولعبت ألسنتها المتوقدة فى أعراض أخشابها النقية ، وثارت إليها من الأرض لأخذ النار . وأصبح صخرها كما قالت الخنساء «كأنه علم فى رأسه نار» . فكست وكانت للتوحيد صبابة . ولمعبدها المطرب شبابة . وابتلى رأسها من الهدم والنار بشقيقة . وأدار الحريق على دائرها رحيقه .

و بالأرض من حبها صفرة · فما تنبت الأرض إلا بهارا ·

وأصبح « باب الساعات » وهو من آيات الساعة . وخلت مصاطب الشهود من السنة والجماعة . وعادت الدهشة وقد آل أمرها إلى الوحشة ، وحسنها البديع وقد ثلت النار عرشه ، «كأن لم أر بها سميرا . ولا شاهدت من بنائها وقماشها جنة وحريرا» الخ

ففى هذه الفقرات المسجوعة بعض ألوان من البديع . منها

التشبيهات مثل : عقائق اللهب . والناس قطعة لحم . وحداد الظلام .

والتوريات مثل : جاثية . والغاشية . وسبابة . وشقيقة . وآيات الساعة . والجماعة .

وفى الكلمتين : جاثية وغاشية ودخان توجيه .

والجناس مثل : أدار الحريق رحيقه . وباب الساعات من آيات الساعة .

والاقتباس مثل : ترمى بشرر كالقصر . وهل أتاك حديث الغاشية . وجنة وحريرا . إلى غير ذلك .

رشفة الباكي ولوعة الشاكي :

هذا عنوان كتاب للصفدي في نحو ٤٨ صفحة من القطع الصغير ، مطبوع .

وهو — في الواقع — مقامة قصصية تصف رحلة الكاتب ومعه أخذ أصدقائه إلى رياض آهلة . وقد أثبتناها هنا لما توافر فيها من عناصر المقامات ، من تصوير وحوار وخيال . وليست من باب الرسائل الوصفية ، وإن كانت لحوادثها تبدو لأول نظرة ، شخصية ، تتصل بالكاتب نفسه . ولكن سياقها يدل على تخيل هذه الحوادث ، مما يبعدها عن أن تكون رسالة شخصية كرسالة « حظيرة الإنس » لابن نباتة ، مثلا .

وقد حدث الصفدي في مقامته تلك ، بأنه كان يصف نفسه بخلوها من العشق والهيام ، إلى أن صادق جماعة من الغلمان الأتراك . فأصابه بهم مس من الهوى ، وخاصة من أحدهم . ثم أتيحت له فرصة بخلوة به . . فمنعه غلامه هذا على حبه ، بعد أن كان يزجر المحبين من قبله . . . فادعى له أن الحب قدر محتوم وقضاء مقسوم . ثم طفقا يتناجيان الغرام واللوعة ، ويتبادلان اللثمة والملامة ، . كل ذلك في ألطف عبارة ، وأجمل إشارة .

. . ثم افترقا بعد أن تشاكيا . وتواعدا فتراسلا ثم تلاقيا . وهكذا . . . في أسلوب جذاب ومنطق خلاب ، ولفظ وثاب . ودعابة وظرف ، وغزل ووصف .

ثم اجتمعا مرة بين طعام وشراب ، ثم زايله محبوبه بعدليلة مشرقة بأنواع السرور حافلة بدواعي الأ والرضا . وتركه يبكي هناء زال ، ويرقب أيام وصال .

والمقامة قصصية وصفية ، بين غزل عريق ، ومجون رفيق رقيق . وهكذا استطاع الصفدي أن يسلك الغزل بين أغراض النثر في أسلوب بديعي أخاذ تتخلله الأبيات الشعرية المناسبة من نظمه . غير مكتف بالإشارة دون العبارة ، ولا بالتلميح بدل التصريح . .

والغزل بالمذكر ليس بحادث جديد فى عصر الصفدى ، وإنما هو ظاهرة موروثة، زادتها الظروف الاجتماعية فى العصر المذكور ، ثباتا ورسوخا . لكثرة ما عجت به الأسواق والقصور من غلمان الأتراك ، وما اتسموا به من حسن وجمال ، ورقة وملاحة ، ونزقا واستسلام . . .

وإليك منها أبياتا طريفة فى وصف الأتراك :

لم تترك الأتراك بعد جمالها ... حسنا لمخلوق سواها يخلق
جذبوا القسى إلى قسى حواجب ... من تحتها نبل اللواحظ ترشق
نثروا الشعور فكل قد منهم ... لدن عليه من الذوائب سنجق[1]
لى منهم رشأ إذا قابلته ... كادت لواحظه بسحر تنطق
إن شاء يلقانى بخلق واسع ... عند اللقاء نهاه طرف ضيق

وقال يصف الروضة وطيرها وزهرها :

« ولم يزل الطير يسعى بين النهر والغصن فى الاتفاق ، ويكرر ألحانه ويزايل فى الأوراق . ويجتهد فى الصلح ويدعو إليه . ويحرص على الوفاء ويحرض عليه . وقام الشحرور بينهما واعظا وخطيبا . فأجدت مواعظه . وكان قلب النهر صافيا وقريبا . وقام النسرين من السرور على ساق . وجذب كل صدوح الغناء بالأطواق ، وتبسمت من الأقحوان الثغور . وتنسمت نفحاته المسك والكافور ، واعتل النسيم غيرة وتغير . فتولى وهو بذيله يتعثر . وجعل يجر من الحياء ذيولا على الأغصان . فتعتنق اعتناق المواصل الغضبان :

---

١ — السنجق لفظ تركى يطلق فى الأصل على الرمح ، والمراد به الراية التى تربط به . (هامش السلوك ج ١ ص ١٢٤) عن القلقشندى .

على روضة علّم أغصانها · أهل الهوى العذرى كيف العناق
هبت بها ريح الصبا سحرة · فالتفت الأغصان شوقاً بتلاق »

وقال يصف مقامهم فى الروضة :

« فسرحنا الناظر فى تلك الربا والرياض . وشرحنا الخاطر فى تلك الخمائل والغياض . وأصغينا إلى نغمات طيورها الصوادح . وآستنشقنا أرج نسيمها الفائق المدائح. والأطيار قد أخذت فى الأفنان بفنون ألحانها وخلعت القلوب بشدوها على دفها وعيدانها. وناحت فناجت كل مشوق بأنواع الأشواق . وفرحت وقرحت فأخذت الأحزان من يعقوب ، والألحان من إسحق . وصدحت فصدعت قلب كل متيم مشتاق . وشدت فشدت فى حسين الرمل فهيجت بلابل العشاق . وناحت فى النواحى تشكو ألم الفراق. ولها ألف إلف . ولم تكن كالعاشق المسكين ينوح على غصن القوام ، ويبكى على خصر وردف :

وهاتفة فى البان تملى غرامها · علينا وتتلو من صبابتها صحفا
عجبت لها تشكو الفراق جهالة · وقد جاوبت من كل ناحية إلفا .
ولو صدقت فيما تقول من الأسى · لما لبست طوقا وما خضبت كفا

وقال يصف أحد الغلمان :

« فبادرنى منهم ذلك البدر الزاهر . والغصن الناضر . والرشأ الشادن والظبى الفاتن . ذو العيون المراض الصحاح . والجفون الدقاق الوقاح . والخد المورد الأسيل . والجيد الجيد الطويل . والخصر النحيف النحيل . والردف الخارج الثقيل . والثغر الأشنب الرائق . والطرف الأدعج الراشق والمرشف الشهى الزلال . والرضاب القرقف الحلال . سيد القوم وواسطة عقدهم . وفتنة الخلق ووجه وجدهم . ظبى الكناس

ووحش الفلا . محرق القلب ومذيب الكلى . جاذب العاشق إلى الردى بزمام . مبهت الرائى فى إعتدال ذلك القوام » — وقال : أنت حماك الله ووقاك . وسلمك من دواعى الهوى ووقاك . ولا أسهرك جفنا من جفاء الحبائب . ولا أوقعك من هجر المحبوب فى مصايد المصائب » الخ .

هـ — مقامة لشهاب الدين القلقشندى[1] ٨٢١ هـ

القلقشندى كاتب منشىء أديب . وهو إلى جانب هذا ، فقيه ، ولذا ناب فى الحكم . وهو مؤرخ أدب واجتماع ، ولذا ألف كتابه الشهير «صبح الأعشى» فتحدث فيه عن النظم الديوانية واختصاصات وظائف الدواوين فى الدول الإسلامية ، من قديم الزمان حتى عصره . كما تحدث عن الكتابة فى هذه الدواوين وأحوالها وأنواعها وتقلباتها ورسومها ولوازمها وأدواتها وخطوطها ومدادها وأقلامها وأوراقها إلى غير ذلك مما يتصل بصناعتها . هذا فضلا عما يحتوى عليه من تاريخ وتقويم .

ويخيل إلينا أن شهرة القلقشندى بكتابه القيم «صبح الأعشى» قد طغت على شهرته بأى شىء آخر ، من مظاهر نبوغه وامتيازه ، ولا سيما نبوغه فى الكتابة ، وامتيازه فى الإنشاء . فلقد كان كاتبا من كتاب الدرج الشريف فى ديوان الإنشاء بالقاهرة ، وظف فيه عام ٧٩١ هـ على يد صاحب الديوان حينذاك ، بدر الدين بن فضل الله العمرى[2] .

---

١ — ترجمة القلقشندى فى الضوء اللامع ج ٢ رقم ٢٥ — وشذرات الذهب ج ٧ ص ١٤٩ — ومقدمة الجزء ١٤ من صبح الأعشى ص ١٤ .

٢ — بدر الدين محمد بن فضل الله العمرى ، هو أبو علاء الدين على بن فضل الله وجده محيى الدين يحيى بن فضل الله . وكلاهما من أسرة مشهورة خدمت صناعة الانشاء ودواوينها زمنا طويلا فى دولة المماليك . وتوفى بدر الدين هذا فى عام ٧٩٦ هـ . وترجمته فى حسن المحاضرة ج ٢ يلى كتاب السر — وفى الدرر الكامنة ج ٤ رقم ٢٠٩ .

والقلقشندي — في الواقع — من أبرز كتاب عصره . وحسبك شاهدا على نبوغه في فن الإنشاء ، تأليفه كتابه « صبح الأعشى » إذا رأينا أنه الكتاب الوحيد في الأدب العربي الذي تعرض بتفصيل لتاريخ الإنشاء وصناعته في دواوين الدول الإسلامية ، وهو مقصور على هذا الموضوع ، برغم أنه موسوعة كبرى ، هذا إذا استثنينا كتابا أو اثنين تعرضا لوصف هذه الصناعة [1] — أضف إلى ذلك ما خطه قلمه ، ودبجته يراعته في الديوان من رسائل ، وما كتب من إخوانيات . وأخيرا هذه المقامة الطويلة القيمة التي نتعرض لوصفها فيما يلي :

ومقامته تلك ، واسمها « الكواكب الدرية في المناقب البدرية » عظيمة القيمة ، لا لأسلوبها وما به من طرق الفن البديعي فحسب ، ولكن أيضا لما تضمنته من معان متجددة وأفكار جيدة . ولأنه أرخ بها لأصول صناعة الكتابة ، وما ينبغي لكاتب الإنشاء أن يتحلى به من ضروب المعرفة ، إلى غير ذلك . فهي مقامة تعليمية تهذيبية .

ومع أن الموضوع الرئيسي للمقامة ، هو مدح صاحب ديوان الإنشاء حينذاك ، أي حين انتهى إليه القلقشندي وحين يسر له دخول الديوان بعناية منه ، وهو بدر الدين محمد بن علي بن يحيى بن فضل الله ، أحد أبناء أسرة مجيدة خدمت الأدب وديوان الإنشاء زمنا طويلا بمصر والشام ، حتى لقد اشتق القلقشندي اسم مقامته من اسمه . . وأسبغ عليه فيها ألوان الحمد والثناء ، ورفع منزلته فوق منازل غيره من الكتاب . نقول إنه مع أن موضوعها هو المدح ، يخيل إلينا أن القلقشندي — وقد انتهزها فرصة ليتحدث فيها عن صناعة الكتابة ، ويعلي من قدرها ويجعلها أشرف الصناعات . لأنه هو نفسه منشىء . ولأنه يمدح صاحب ديوان الإنشاء ، وهو كبير المنشئين — يخيل إلينا

---

١ — مثل كتاب (التعريف بالمصطلح الشريف) لابن فضل الله — وكتاب ناظر الجيش وهما اللذان اعتمد عليهما القلقشندي في تأليف « صبح الأعشى »

أنه أراد في هذه الفرصة السانحة أن يبرز للناس ولصاحب الديوان مقدار علمه هو ، وإحاطته بما ينبغى لصاحب هذه الصناعة من ضروب المعرفة الجامعة الكاملة والنتيجة المنطقية لهذا أنه هو يتحلى بكل هذه الضروب ، وأن له فيها القدم الراسخة الثابتة . وتكون هذه المقامة بمثابة « عرض حال » يثبت فيه لصاحب الديوان كفايته ومؤهلاته التي تخول له الولوج من باب الديوان ، والقعود بين حلق كتابه . .

فإذا صح ما تخيلناه ، لم يكن القلقشندي مبالغا في ادعاءاته ومزاعمه . وإذا كان مبالغا فليس مغاليا ولا مهولا . وإذا كان مغاليا أو مهولا فليس يبعيد أن يكون متصفا بكثير من الصفات التي سجلها ، وأن يكون مؤهلا بعدد منها وافر . ويشهد لذلك موسوعته الكبرى وما حوته من علوم وفنون ، وأعني بها « صبح الأعشى » الذى يعتبر مذكرة تفصيلية لبعض ما أجمل في هذه المقامة من قواعد وأصول ، وكذلك كتبه الأخرى مثل « نهاية الإرب في معرفة قبائل العرب » ، و « ضوء الصبح المسفر » وهو مختصر « صبح الأعشى » . ثم انظر إلى ما قاله عنه شمس الدين السخاوى ، وهو يترجم له في كتابه « الضوء اللامع » ، قال بالنص : « وعمل صبح الأعشى في قوانين الإنشا في أربع مجلدات ، جمع فيه فأوعى ، وكان يستحضر أكثر من ذلك ، مع جامع المختصرات والحاوي ، وكتابا في أنساب العرب ، وهو ممن قرض سيرة المؤيد لابن ناهض » الخ .

وقد وصفه ابن العماد الحنبلي فى كتابه « شذرات الذهب » بما يقرب من ذلك .

والمقامة طويلة وتقع فى نحو ٣٥٠ سطرا ، وهي قصة كسائر المقامات قوامها الحكاية والحوار ، ولكن حوارها هين يسير ، وحكايتها قريبة الخيال أو هى عديمته أو سافجته ، ولا يعدو رجلا يسأل آخر عن شيء فيحدثه عنه .

ولقد بدأها بقوله : « حكى الناثر بن نظام » والناثر والنظام لفظان من ملاءمات

موضوع المقامة ، فهو يعد مناسبة ومقتبس لطيف . ويقرب من هذا المعنى ما فعله جلال الدين السيوطي في مقاماته أو في بعضها على الأقل ـ كما سنرى عند الكلام عنها .

وخلاصة القصة أن الناشر بن نظام حكى عن نفسه أنه أخذها منذ صغره وحداثة سنه بطلب العلم والتأدب وذلك بالاطلاع على أفضل الكتب ، ولقاء خير الشيوخ ، ومصاحبة ألطف الزملاء . ومازال جادا حتى فتح الله عليه من العلم والمعرفة أبوابا واسعة . غير أنه فاجأه بين التكليف ومسئولية السعي لطلب الرزق ، فرأى أن ذلك يعوقه عن طلب العلم ، والطواف في الآفاق جهاداً في سبيله . واحتار بين أن يترك العلم في سبيل الكسب أو أن يترك الكسب في سبيل العلم ، هذان شيئان أحلاهما مر ، وكلاهما عليه صعب وشاق . ثم رأى أن يجمع بين الاثنين : العلم والكسب وذلك بأن يلتمس حرفة للكسب يكون من شأنها تشجيعه على طلب العلم ، ومن طبيعتها أن تهيء له الاستمرار فيه . وما زال يتساءل حتى لقى رجلا خبيرا ، فأشار عليه باحتراف الكتابة ومدحها له مبينا أنها أشرف المهن : ودعم بيانه بآيات من القرآن الكريم ، منها قول الله تعالى « اقرأ وربك الأكرم الذى علم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم » . فإن الله أخبر في هذه الآيات الكريمة أنه علم بالقلم ومنها قوله تعالى . « ن . والقلم وما يسطرون . ما أنت بنعمة ربك بمجنون » فإنه تعالى أقسم هنا بالقلم وما سطر أرباب الأقلام ، إلى غير ذلك . وقد كان النبي عليه السلام راغبا في الكتاب عاملا على كثرتهم ، وقد اتخذ لوحيه أكثر من ثلاثين كاتبا . ثم بين له أن الكتابة قانون السياسة ، ورتبتها غاية رتب الرياسة ، وأن الدول والملوك في أشد الحاجة إلى الكتاب .

وهكذا ظل الرجل يحبب إليه الاحتراف بالكتابة ، حتى صمم « الناشر بن نظام » على الاندماج في صفوف الكتاب ، وهو بذلك يستطيع الجمع بين العلم والكسب . لأن عمل الكتابة وثيق الصلة بالعلم . والكاتب أول أدواته العلم . ولكنه حار بين ضروب الكتابة ، وإلى أيها ينتسب ، وبأيها يحترف أبكتابة المال ، أم بكتابة

الإنشاء والخطابة أو غيرهما ؟ فمدحت منه الرجل الخبير وفضل له صناعة الإنشاء ومدح له كتاب الإنشاء وقال :

قوم إذا أخذوا الأقلام من غضب ثم استمدوا بها ماء المنيات
نالوا بها من أعاديهم وإن بعدوا ما لم ينالوا بحد المشرفيات

ومازال يمدح له كتابة الإنشاء وكتابها ، ويجيب عليه مفضلا لها على كتابة المال وصناعة الحساب . وذلك بعد أن افترض عليه الناثر بن نظام بأن كتاب الأموال وصناع الحساب يزعمون أن لهم المقام الأعلى ، مستشهدا بما قاله أبو القاسم الحريري في إحدى مقاماته ، وهو قوله : « إن صناعة الحساب مبنية على التحقيق . وصناعة الإنشاء مبنية على التلفيق » . الخ . فأجابه الرجل بما قاله الحريري نفسه في مدح صناعة الإنشاء حيث قال : « واعلموا أن صناعة الإنشاء أرفع . وصناعة الحساب أنفع وقلم المكاتبة خاطب . وقلم المحاسبة حاطب . » الخ .

وما زال الرجل به ، حتى اقتنع بأفضلية الإنشاء . ثم سأله الناثر بن نظام عما يحتاج صاحب هذه الصناعة إلى ممارسته، فيخبره الرجل بذلك ، وهو جملة علوم منها: حفظ القرآن الكريم وتدبر معانيه ، وكلام النبي عليه السلام ، والإحاطة بالأحكام وقواعد الإسلام ، وأشعار العرب وكلام بلغائهم من قدماء ومحدثين ، وما في ذلك من محاورات ومناقضات وخطب وأمثال وسير وأخبار وأيام العرب وحروبهم ، وتواريخ الدول والملوك وأحوال الممالك ومكايد الحروب . هذا إلى إحاطة باللغة وفنونها كالنحو والتصريف وعلوم البلاغة . وإلى معرفة بالخط وقوانينه وآلاته ، وإلى خبرة تامة بمصطلحات الديوان وإحاطة شاملة برسومه . — هذه كلها أمور ضرورية للكاتب ولعمله . وقال مبينا مزايا هذه المعرفة :

« هذه أصوله التي يبنى عليها . وقواعده التي يرجع إليها . فاذا أحاط بهذه الفنون علما وإتقانها فهما . غزرت عنده المواد واتضحت له الجواد . فأخذ في الاستعداد

وسهل عليه الاستشهاد . فقال عن علم ، وتصرف عن معرفة . واستحسن ببرهان . وانتقد بحجة . وتخير بدليل . وصاغ بترتيب . و بنى على أركان . واتسع فى العبارة مجاله . وفتح له من باب الأوصاف أقفاله . وتلقى كل واقعة بما يحاثيها . وقابل كل قضية بما يشاكلها . وعلم الجيد فنسج على منواله . وظهر له القاصر فأعرض عن أقواله . وحصل له القوة على فهم الخطاب . وأنشأ الجواب بحسب الواقع والأعراض . على طبق المقاصد والأغراض » الخ . —

وهذا الفصل من أبلغ فصول المقامة ، متانة نسج ، ودقة تركيب ، وجمع معنى ، ووضوح فكرة ، وقوة تعبير .

ثم بين له الرجل الخبير أن هناك أموراً ثانوية كالنافلة إن يجمل بها الكاتب كان أجمل . ومنها معرفته بعلم الكلام وأصول الفقه والمنطق والجدل ، وأحوال الفرق ، والعروض والقوافى وضروب من الحساب والفلاحة والتقويم والأخلاق . . . الخ

فسأله الناثر بن نظام ، وقد بانت له علوم الكتابة ، عن رسومها . فطفق الرجل يبين له هذه الرسوم ، ويوضح له ألوان الرسائل الديوانية من ولايات ومبايعات وعهود وتقاليد وتفاويض ومراسيم وتواقيع . . . الخ — وفى هذا الفصل يجمل القلقشندى أسماء كثير من المراسلات الديوانية ، وما يلزم كلا منها من رسوم الكتابة ، مع الإشارة إلى ما يلزم من أساليب ، وخطوط وأقلام وأوراق . . . الخ

وأخيراً ، يصل القلقشندى إلى آخر فصول مقامته القيمة ، وذلك بأن يسأل الناثر ابن نظام رجله الخبير ، عمن يلم شتات هذه الصناعة ؟ فيتعجب الرجل من سؤاله ، ويخبره تواً ، بأنه المقر البدرى . . . ومن ثم يكيل له المديح كيلا ويسبغ عليه آيات الثناء ، ويفضله على كثير من المنشئين قبله ، كالقاضى الفاضل ، وعبد الحميد ، والصابى ، . . الخ .

وفى الخاتمة يتوجه الناثر بن نظام — وهو القلقشندى — إلى بلهب المقر البدرى

تصاحب ديوان الإنشاء ويطلب منه أن يسلكه فى كتاب الدرج ليكون منشئا قروانه لإتابها من أتباعه ، فيستجيب له .

هذه خلاصة وجيزة لهذه المقامة . وقد تبين منها جملة أمور ، منها أن القلقشندى يعتبر الكتابة أشرف الصناعات وأنها دعامة الدول ، ومنها أنها تحتاج إلى جملة من العلوم والفنون ، هى فى الواقع جميع العلوم والفنون . ويبدو لأول وهلة أنه مبالغ فى تقدير هذه الحاجة . ولكننا بالنظر السليم والمنطق المستقيم ، واختبارنا لأشهر المنشئين الذين خلدهم التاريخ ، نرى أنهم لم يخلدوا إلا لما نضحت به علومهم وفنونهم الكثيرة الوفيرة على كتاباتهم من نضرة وجدة وكيس ولباقة ونفع ، جعلها أبدا زاهية زاهرة وجديدة ناضرة . وكلما اتسع أفق الكاتب قويت كتابته وجاد إنشاؤه وجد نتاجه وملك بلبابه القلوب والأفئدة — هذا ، وقد كانت الكتابة أشرف الصناعات ، وذلك فى أيام القلقشندى وفى الدول الإسلامية من قبله ولكنها أخذت فى الاتضاع من بعده ويبدو لنا أن سبب شرفها اتصال أهلها بأرباب الدولة والسلطان ، ومغامرتهم بأقلامهم فى سياسة أممهم ، فانضم بذلك عنصر آخر إلى الكتابة ، وهو السياسة ومزاولة الحكم ، وهذا هو السبب الأول الذى جعل الكتابة حينذاك أشرف الصناعات . ولا يزال بين الكتاب حتى العصر الحديث ، من يغامر بقلمه فى ميدان السياسة ، ويكافح فى صفوف الحكام ينتزع لنفسه طريقا يصل به إلى الصفوف الأولى . وكثير من كرام الكتاب تعاف نفسه هذه المغامرات لما فيها من نفاق أو شقاق ، ويربأ بنفسه عن مزالق السياسة ، فيظل كما هو يحبو وئيدا وئيدا يمشى نحو مجده مثلى السلحفاة ، وغيره يقفز ويثب . . .

هذا . ومن الأمور التى تبيناها أيضا أن القلقشندى جمع فى مقامته هذه ، فأوعى ، كثيرا من تعليمات من تقدم من كرام الأدباء . ومنهم ضياء الدين بن الأثير المتوفى عام ٦٣٧ه فى كتابه « المثل السائر » ، فقد أوصى طالب صناعة الكتابة بكثير مما أوصى به

القلقشندي . وكذلك صنع شهاب الدين محمود الحلبي المتوفى عام ٧٢٥ هـ فقد أوصى بمثل ذلك في كتابه « حسن التوسل » كما نبينه في باب النقد . والقلقشندي يفضل الجمع والإجمال معا ، ثم يفضل البسط والتفصيل في كتابه «صبح الأعشى» .

هذا . ومنها أيضا أن القلقشندي أخرج مقامته هذه ، أو على الأصح جزء منها ، مخرج المدح . فكان ممن استخدم نثر المقامة في أحد أغراض الشعر وهو المدح

وبعد . فلسنا في حاجة إلى الإشارة إلى أنه نهج في أسلوبها النهج البديعي . والقلقشندي كما نرى من كتابه « صبح الأعشى » ناثر منطلق ، شأنه في ذلك شأن كثير غيره من المؤلفين والعلماء . ويتأبى عليهم الأسلوب البديعي حين يتصدون للتأليف العلمي . ولكن القلقشندي كان يرجع إليه بين الفينة والفينة — وأسلوبه في مقامته مسجوع . وقد قال عن السجع ، بهذه المناسبة : « إن خير الخطب ما قرى، وأحسن السجع ما سلم من التكلف وبرى » . وتترجح فقراته بين الطول والقصر . وأغلب عباراته على هذا النسق . غير أنه قد يعدل عن السجع . وقد أثبتنا بعض سطور بدا فيها هذا العدول . وإليك سطورا أخرى مسجوعة . قال في المطلع يصف طلبه للعلم :

« حكى الناثر بن نظام ، قال : لم أزل من قبل أن يبلغ بريد عمرى مركز التكليف . ويتفرق جمع خاطري بالكلف بعد التأليف . أنصب لاقتناص العلم أشراك التحصيل . وأنزه توحيد الاشتغال عن إشراك التعطيل . مشمرا عن ساق الجد ذيل الاجتهاد . مستمرا على الوحدة وملازمة الانفراد . أنتهز فرصة الشباب قبل توليها . وأغتنم حالة الصحة قبل تجافيها . قد حالف جفني السهاد . وخالف طيب الرقاد . أمرن النفس على الاشتغال كي لا تمل فتنفر من الطلب وتجمح . مميلا جانب قصدها عن ركوب الأهواء والميل إليها » الخ .

وقد ثقلت بعض مجازاته ، لحرصه على مراعاة النظير . ومن ذلك قوله : « يبلغ

يريد محرى مركز التكليف » ، « وأنزه توحيد الاشتغال عن إشراك التعطيل » .

ومن جناسه : « حالف جفني السهاد . وخالف طيب الرقاد » ومن عكسه قوله :

« صفات الملوك بل ملوك الصفات » و « أكرم الفضائل ، بل أفضل المكرمات » .

والمقامة ـ على كل حال ـ ملأى بضروب البديع . وإليك فقرات أخرى منها :

قال الرجل يخاطب الناثر ، ويبين له مرتبة الكتابة والكتاب ، قال :

« فالكتابة قانون السياسة . ورتبتها غاية رتب الرياسة . عندها تقف الإنافة . وإليها تنتهي مناصب الدنيا بعد الخلافة . والكتاب عيون الملوك المبصرة وآذانهم الواعية . وألسنتهم الناطقة وعقولهم الحاوية . بل محض الحق الذي لا تدخله الشكوك . وإن الملوك إلى الكتاب أحوج من الكتاب إلى الملوك . وناهيك بالكتابة شرفا وأعل بذلك رتبة وكفى . أن صاحب السيف والقلم يزاحم الكاتب في قلمه . ولا يزاحم الكاتب صاحب السيف والعلم في سيفه وعلمه » .

وقال فيها يمدح بدر الدين بن فضل الله العمري محدثا عن الكتابة :

« فهو قطبها الذي تدور عليه . وابن بجدتها التي ترجع في علومها ورسومها وسائر أمورها إليه . فلو رآه الفاضل عبد الرحيم ، لم ير لنفسه فضلا ، ولا رضي لفيه مقالا . أو عاينه عبد الحميد الكاتب ، لقال : هكذا هكذا وإلا فلا لا . أو عاصر قدامة ، جلس قدامه . أو أدرك ابن قتيبة لاتخذه في أدب الكاتب شيخه وإمامه . أو بصر به الصابي ، لصبا إليه ومال . أو قارن زمانه الحسن بن سهل ، بل الفضل أخوه ، لأقام ببابه وما زال . أو جنح ابن العديم إلى مناوأته لأدركه العدم . أو جرى الصاحب ابن عباد ، في مضمار فضله لكبا وزلت به القدم . أو اطلع ابن مقلة على حسن خطه لقال : هذا هو الجوهر الثمين . أو نظر أبو هلال إلى بهجة رونقه لقال : إن هذا لهو الفضل المبين . إن تكلم نفث سحرا . أو كتب خلت زهرا أو نمقت دررا .

يؤلف « اللؤلؤ المنثور منعلقه ... وينظم الدر بالأقلام فى الكتب » الخ

وبعد فحسبنا هذا فى عرض مقامة القلقشندى ، وإنما لنشعر بوجازة وصفنا وقصوره .

و — مقامة لتقى الدين بن حجة الحموى (١) ٨٣٧ هـ

قد نوه ابن حجة الحموى بمقامته تلك ، فى كتابه « خزانة الأدب » . قدمها . على عادته ، حين يعرض شيئا من إنتاجه — بفخره بها ، وبما يشعر أنها معارضة للمقامة الزورائية ، وهى الثالثة عشرة من مقامات الحريرى ، التى عجز القاضى الفاضل — وهو يعارض مقامات الحريرى — عن معارضتها . وفى ذلك يقول ابن حجة فى باب « حسن الختام » فى كتابه المذكور :

« وقد عن لى أن أورد هنا مقامة كاملة . فإذا نظر المتأمل إلى براعة استهلالها . وفهم القصد الذى جنح إليه الحريرى ، عرف مقدار حسن الختام الذى تمت به الفائدة ، وحسن السكوت عليه .

وقد اخترت المقامة الثالثة عشرة ، وهى الزورائية . لأنه ثبت عن القاضى الفاضل أنه شرع فى معارضة المقامات . وعارض منها كل فصل بفصل أحسن منه . إلى أن وصل إلى فصل هذه المقامة ، الذى سيأتى ، وأنبه عليه فى موضعه .

والمقامة الموعود بإيرادها هى قوله : « حكى الحرث بن همام ، قال ندوت بضواحى الزوراء . مع مشيخة من الشعراء . لايعلق لهم مبار بغبار . ولا يجرى معهم ممار فى مضمار فأفضنا فى حديث يفضح الأزهار . حتى نصفنا النهار . فلما غاض در الأفكار . وصبت

(١) ترجمنا تقى الدين بن حجة الحموى فى باب النقد بعد ، وعرفنا به بإفاضة وتفصيل .

النفوس إلى الأوكار. لحنا عجوزا تقبل من البعد • وتحضر إحضار الجرد . وقد استتلت صبية أنحف من المغازل • وأضعف من الجوازل . فما كذبت إذ رأتنا أن عرتنا . حتى إذا ما حضرتنا . قالت : حيا الله المعارف.وإن لم يكن معارف . اعلموا يا مآل الآمل. وثمال الأرامل . أنى من سروات القبائل وسريات العقائل . . . »

والفصل الذى عجز الفاضل عنه هو : « لم يزل أهلى و بعلى يحلون الصدر• ويسيرون القلب ، و يمطون الظهر ، و يولون اليد ، فلما أردى الدهر الأعضاد ، وفجع بالجوارح الأكباد . وانقلب ظهرا لبطن • نبا الناظر • وجفا الحاجب • وذهبت العين • ونفدت الراحة . وصلد الزند • ووهت اليمين . و بانت المرافق • ولم يبق لنا ثنية ولا ناب. »

قال ابن حجة : « وهذا الفصل الذى أحجم القاضى عن معارضته، قلت فى معناه ، وكتبت إلى سيدنا قاضى القضاة صدر الدين بن الآدمى — نور الله ضريحه — رسالة بجسدة ، مشتملة على ذلك ، جيدة • راعيت فيها النظير لأجل الصدر من الرأس إلى القدم . ولم أخرج فيها عن حسن الختام الذى ما ختمت رسالة بنظيره • والتزمت السجع الذى فر الحريرى منه فى فصله »

وقد بدا جليا فى كلة ابن حجة ، جلة أمور منها : أن القاضى الفاضل عارض مقامات الحريرى• وعجز عن معارضة فصله المذكور فى مقامته الزورائية • وأن ابن حجة شمر لمعارضة الحريرى فى فصله المذكور ليبين قدرته الإنشائية ، و بلوغه ما عجز عنه القاضى الفاضل ، وهو من هو فى عالم الترسل والإنشاء والنهج البديعى . وأن ابن حجة التزم ، مع مراعاة النظير — على نمط الحريرى — السجع ، الذى فر منه الحريرى .. » وفى ذلك ما يشعر بمقدرة ابن حجة . . . وأنه راعى النظير من الرأس إلى القدم ، مجاراة للحريرى • ولمناسبة كتابته هذه المقامة إلى « صدر » الدين بن الآدمى .

نعود بعد ذلك إلى المقامة نفسها ، بعد أن عرفنا الدافع إلى كتابتها ، فنقول :

الواقع أن هذه المقامة ، رسالة ، فليس فيها قصص ولا حديث ، ولا خيال روائى ولا تحديث فلان عن فلان . وموضوعها مدح خالص للمرسل إليه . وهو الأديب العالم صدر الدين بن الأدمى .

وقد أجهد ابن حجة نفسه فى كتابتها ومعارضة الحريرى بها . فالحريرى على الرغم من تكلفه الشديد ، ودقة رعايته لقوانين بديعه ، بما يوقعه كثيرا فى حمأة من العسر والمعاظلة والغموض ، قد أفلت منه الزمام ، حين كتب فصله السابق . واعتقادنا أنه لم يفر من السجع فيه ، فما كان أيسره عليه ، لو أراده ولكنه شعر أن السجع هنا لا يجزىء فى رعاية النظير وأداء المعنى معا ، فعدل عنه وترسل ، فأمتع وبرزت عبارته جزلة حصيفة قوية تجملها توريـاتها مع ائتلاف لفظها ومعناها ، وتسبغ عليها رونقا وحسنا . على الرغم من كثرة كناياتها وترادفها .

أما ابن حجة فاعتقادنا أنه و إن أجزل فى رعاية النظير ، وأكثر من توريـاته وائتلاف لفظه ومعناه ، والتزام السجع فلم يند عنه ، زايله الرونق ، وقترت عنه العذوبة ، وضعفت فى أسلوبه السماحة .

ومهما يكن من شىء ، فالمقامة — أو على الأصح الرسالة — قصيرة . امتلأت بعناصر المديح . وهو يمدح رجلا فاضلا وعالما أديبا ، فطبعى أن يكون رأس العلوم ، وأوتى من الذكاء والألمعية ما فاق به سواه ، ووهب للناس من الأيادى ما هو مشهور ، وأصبحت مناقبه وعوارفه حديثا للورى . . إلى آخر ما هناك من صفات كريمة تتصل بالعلم والأدب أو هى مشتقة منهما .

وإلى القارىء الكريم شيئا من هذه المقامة ، قال فى مطلعها :

يقبل أرضا بالعلا قد تجسمت بأرواح أهل العلم روضة مشتهى
وهبت بأنفاس العلوم قبولها ولا زال صدر الدين منشرحا بها

وينهى أن الصدر رأس العلوم ، وكم له من فرق دق على الأفهام . وهو كالغرة فى جباه الأيام . لازال المجد له حاجبا مقرونا بسعده الشامل . ولا برح بعلمه عينا لوجوه المسائل . فلله أهداب معانيه التى هى أسحر من عيون الغزلان . وأمضى من السيوف إذا برزت من الأجفان . وأصداغ فضائله التى هى عاطفة على وجنات الوجود . لأنها كالعوارض الماطرة ، وكم أنست عند ذكره من سالفة وكم لها فى قلوب الأعداء من خدود . ويدى جوده الذى إذا جاءه الشارب وجد عنده شفاه . وحلاوة نظمه الذى أنسانا ذكر العذيب وثناياه . وعنق مكارمه التى ألفت من البديع الالتفات . وأوصافه التى غدت على خد الدهر شامات . حتى تبدلت سيآته حسنات كف عنا تعب الفقر بكرم راحته المتزايد . من غير أن يقال له ساعد . وشهدنا بأن أياديه بحر يفيض بصنائعه . فأشار النيل إلى قبول هذه الشهادة بأصابعه . » . . الخ [1]

ويتضح من هذا الفصل الوجيز جملة أمور :

منها افتتاحه الرسالة بأبيات شعرية . والتزامه السجع ، وطول فقراته . واستعمال الألفاظ الدالة على أعضاء الجسم أولها بها صلة ، : الصدر والرأس والفرق والغرة والجباه والحاجب والأجفان والوجنات والعوارض والأصداغ والسالفة والخدود والشارب والشفاه . . . الخ

ومنها إكثاره من التوريات ، وهى فى الحق دقيقة ، ورقيقة أحيانا مثل : عاطفة وسالفة وخدود وشارب وشفاه . . الخ

---

(١) هذه المقامة مثبتة فى « خزانة الأدب » لابن حجة ، ص ٦١ ، فى باب « حسن الختام » وهو آخر أبوابها .

غير أنه لم يوفق فى بعض مجازاته وتشبيهاته وذلك كقوله : أصداغ فضائله ووجنات الوجود ، وأهداب المعانى وعنق المكارم . . .

ومهما يكون من شىء فهذا الفصل نمط من كتابة ابن حجة . ولكن له فى ميدان الكتابة باعا أرحب وفضلا أوسع .

ز — مقامات جلال الدين السيوطى ٩١١ هـ

جلال الدين السيوطى أحد رجالات عصر المماليك . زهابه عصره ، ونضر جيله ونخر دهره ، حمل راية العلم فأعلاها ، وعَلَمَ التأليف فسما به ، وضرب فى كل علم وفن بسهم صائب ونصيب وافر ، وترك من المؤلفات ما يعد بالمئات ، فى الفقه والحديث والتاريخ وعلوم اللغة . وحسبه فخرا كتابه « الإتقان » فى علوم القرآن ، و « المزهر » فى اللغة ، و « حسن المحاضرة » فى تاريخ مصر والقاهرة ، والخصائص الكبرى » فى السيرة . وجمع الجوامع وهمع الهوامع فى النحو إلى غير ذلك ومن حسن الحظ أن كثيرا من مؤلفاته موجود ، بين مطبوع ومخطوط .

واسمه عبد الرحمن بن الكمال أبى بكر بن محمد ، الخضيرى الأسيوطى . ولد عام ٨٤٩ هـ وقد تثقف فى القاهرة ثقافة إسلامية عربية . وأتيح له عدد من الشيوخ الأجلاء جذبوا بضبعه ، ووقحوا منطقه ، وحرروا جنانه . ونبهوا خاطره ، ورجهوا ذكاءه ، وأجازوه بالتدريس والفتوى . ومنهم : علم الدين البلقينى شيخه فى الفقه ، وتقى الدين الشبلى الحنفى شيخه فى الحديث والعربية ومحيى الدين الكافيجى شيخه فى التفسير والأصول والمعانى والعربية ، وغيرهم .

وقد أولع السيوطى بالرحلة والطواف بالبلاد الإسلامية ، فحصل بذلك خبرة فوق

خبرته ، فزار الحجاز والشام ، واليمن والهند والمغرب والتكرور . وظل مجدا فى طلب العلم ، ثم فى إفادته ، والتأليف فيه ، حتى عد نفسه مجتهد عصره

ولم يبلغ منصب القضاء ، على الرغم من صلاحيته له ، ولعل ذلك بسبب اشتغاله بالتدريس والتأليف . ولقد كان كثير من العلماء — إذ ذاك — يترفعون عن القضاء لما قد يجره عليهم من إثم أو حرج ، عادلين عنه إلى التدريس ، زلفى إلى الله وتقربا ، ونشرا للدين بين المسلمين .

ولقد كتب السيوطى ترجمة نفسه بيده فى كتابه « حسن المحاضرة » ، ويفهم من اعترافه فيها ، أنه لم يكن يحسن الإنشاء والترسل ، كما كان يحسن الفقه والحديث والتفسير وعلوم العربية . ولكننا وقد قرأنا كثيرا من مؤلفاته ومقاماته نشهد له بطول الباع فى الكتابة الأدبية بجوار كتابته العلمية التى تتسم بالسهولة واليسر والوضوح ، وقلة التكلف و بروز المعنى إلا فيما ندر إذا احتاج الموضوع إلى تعبير منطقى أو مصطلح على أو نحو ذلك .

و إن رجلا كتب هذه المقامات التى سنتحدث عنها ، ولهذه المؤلفات فى التاريخ وغيره ، لجدير بأن يعد بين الأدباء والمنشئين . ولعل السيوطى يقصد أنه لم يكن من كتاب الدواوين العارفين برسومها . ولعله نكص عنها ولم تحدثه نفسه بها ، لما فى الدواوين من قيود ، وما تتطلبه من اتصال بالسياسة والحاكمين ، وهو ما جعل نفسه عنه بنجوة .

ووقع بين السيوطى وبين بعض معاصريه ، وخاصة شمس الدين السخاوى ، ما يقع بين الأنداد المتعاصرين . فقد عابه السخاوى فى كتابه « الضوء اللامع » ونسب إليه سرقة بعض المؤلفات ، ونسبتها لنفسه ، وزيف الكثير من علمه ومزاعمه . وقد سفهه السيوطى ، ورد عليه ردودا قاسية ، فى رسالته « الكاوى فى الرد على السخاوى » .

وهكذا نرى أن السيوطى كان أحد قادة العصر علما وأدبا ومصاولة فيهما ، وأحد الذين

شُغل بهم معاصروهم وأحد الذين يعلون بجدهم فى ميدان الفكر. وهكذا شأن النابغين

وكما كان السيوطى باع كبير فى الكتابة علمية وأدبية ، كان له باع يذكر فى نظم القريض . وقد توفى عام ٩١١ هـ ودفن بالقاهرة .

مقاماته :

ولم لا يكون السيوطى مقامات ؟ شأنه فى ذلك شأن كثير من الأدباء ؟ . وهو — فضلا عن ذلك — مكثار فى مقاماته ، كعادته فى كل آثاره وتآليفه . وكأنما أقسم ليتركن فى كل علم وفن أثرا خالدا ينتفع الناس به من بعده ، ويذكرهم بصنيعه . فإن كان — حقا — قد أقسم ، فقد برو أكثر .

ومقاماته طريفة الموضوع . نعتقد أنه لم يكتبها إلا بعد تفكير وروية ، و بعد رغبة مبينة فى ابتداع موضوعاتها بما لم يحم حوله سابق . فاختار لها البساتين وأزهارها ، والحدائق وفاكهاتها . والحقول وخضراواتها ، والعطور وأريجها والجواهر ونفائسها و بريقها ، وأنواع النقل والتنقل بها . و بذلك أدخل طعما جديدا شهيا على مائدة المقامات .

فكتب مقامته « الوردية » مناظرة بين الأزهار ، ومقامته « التفاحية » حوارا بين ألوان الفاكهة ، ومقامته « الزمردية » فى وصف الخضراوات . و « الفستقية » فى وصف ألوان النقل ، وهلم جرا . . .

على أنه قد حمل نفسه فى إحدى مقاماته إلى مواقف من الحرج والدقة بحيث تتطلب لباقة خاصة وكياسة ممتازة ، وعلما وإحاطة ، فكتب مقامته « رشف الزلال من السحر الحلال » أو مقامة « النساء » . . .

ولم تقف جهود السيوطى عند هذا الحد فى كتابة مقاماته ، واختيار موضوعاتها . بل تناول بعض مسائل التاريخ والنحو والفقه . واستطاع بحنكة لطيفة أن يصوغ ذلك فى أسلوب المقامات . وها هى ذى مقاماته « السندسية » و « المسكية » و « الجيزية » شاهدة بذلك على الترتيب .

بهذا كله ، وبغيره ، نستطيع الوقوف على مدى علمه وسعة معرفته وطرافة أدبه ، وكيس خبرته . وقد اتبع فى أسلوبه فى المقامات ، النهج البديعى ، فحرص على السجع ولكن الشاهد أن فقراته قصيرة يندر الطول فيها . وإن كثيرا منها متوافقة فى عدد ألفاظها ، فضلا عن جناس مفرداتها أحيانا . هذا إلى أن عربيتها فصيحة لا عامى فيها ، واضحة المعانى يزينها الجناس أو الطباق أو الاقتباس ، ويجملها أبيات من الشعر عذبة ، وتتناثر بين سطورها أحيانا التوريات والإيهامات والألغاز ، مما يزيدها طرافة ولطفا ، وإن أدت معانيها أحيانا ودارتها بالحجاب ، وخاصة إذا عرض اللغز نحوى أو أحجية فقهية أو نحو ذلك .

ولا بد لنا من الإشارة إلى ظاهرة واضحة تراءت فى مقامات السيوطى ، أضفت عليها شيئا آخر من الجدة بين مثيلاتها وهى ميله إلى القص التمثيلى .

وقد سبق ابن دانيال الموصلى بإبراز مثل هذه الظاهرة فى كتاب «طيف الخيال» كما سنبينه بعد قليل ، وكذلك صفى الدين الحلى . وهذا دليل على أن نزعة القص التمثيلى طافت بأذواق أدباء العربية فى عصر المماليك ، ولو اقتدى بها الأدباء من بعد ، وحبوا طريقها ، وساروا على نهجها ، وتوسعوا فى تصويرها ، لترقى فن الحوار والتمثيل ترقيا محمودا ، ولكان للعربية منه كسب مجيد .

وقد بلغت مقامات السيوطى نحو أربعين ، منها المطبوع ، ومنها المخطوط . وبدار الكتب المصرية مجموعة خطية «رقم ٢٠ مجاميع» بها عشرات الرسائل والبحوث والمقامات ، التى كتبها السيوطى ، ومن مقاماته فيها : المسكية والأسيوطية والجيزية .

وبالدار أيضا مجموعة بعنوان « مقامات السيوطى » قيل إن بها تسعا وعشرين مقامة . ولم نجد بها إلا ستا . هى : الوردية . والمسكية والتفاحية . والزمردية . والفستقية . والياقوتية .

و بالدار أيضاً مقامته «رشف الزلازل من السحر الحلال» مطبوعة. وله غير ذلك

وقد نوهنا بأسلوب السيوطى فى مقاماته. ونزيد هنا أنه نهج منهج أصحاب المقامات فى طريقة القص، وخاصة فى البدء حيث يقول «حدث فلان عن فلان». ولكنه يأبى ألا أن يكون حرا من ربقة منهجهم — مع اتباعه له — فيكثر من رواة قصته، إذ يقول: «حدث فلان عن فلان عن فلان عن فلان...». — هذا أحيانا. وكذلك لم تدر مقاماته حول رجل يستجدى بأدبه وحيله، كما هو الشأن فى مقامات البديع والحريرى، بل حرر نفسه كذلك من الطواف فى هذا الفلك. وتأتى القصة بين حوار ومناظرة إما الوصف و إبراز الخصائص مدعومة أحيانا بحكمة أو مثل أو حديث أو آية قرآنية:

على أن له لوازم طريفة لا بأس من التنويه ببعضها هنا. فإنه لم يلزم فى قوله «حدث فلان عن فلان» اسمين أو أسماء معينة ثابتة، يرددها فى بدء كل مقامة. بل نوع فى هذه الأسماء بتنويعه مقاماته وموضوعاتها. واختار للبدء بكل مقامة اسمين أو أسماء مبتكرة تناسب فى معناها ما هو بصدده من الحديث فى مقامته. أو قل إنها منتزعة من موضوع المقامة ومن المتحاورين فيها. فترى فيها توريات طريفة تشعر القارىء لأول وهلة بموضوع المقامة، ولعل هذا ضرب من براعة الاستهلال..

وإليك مثلا: قال فى مستهل المقامة الوردية:

«حدثنا الريان. عن أبى الورد إبان. عن بلبل الأغصان. عن ناظر الإنسان. عن كوكب البستان. عن وابل الهتان.»

وفى مستهل مقاماته «رشف الزلازل من السحر الحلال» قال: «حكى أبو الدر نفيس بن أبى إدريس». على أنه — مع هذا — ردد قوله «حدث هاشم ابن القاسم» فى أكثر من مقامة. فقد افتتح بها المقامة المسكية والأسيوطية والجيزية.

على أنه ، أيضاً، لم يتقيد بكل أولئك، بل نوع كذلك فى مفتتح بعض المقامات .
ففى مفتتح « المسكية » قال : « حضر أمراء الطيب. بين يدى إمام فى البلاغة خطيب.
فقالوا . أيد الله مولانا وتولاه . وأمده بالمكارم وولاه » .

وفى مفتتح « التفاحية » قال : « سألت طائفة فائقة . عن مناقب الفاكهة .
وصفاتها المشاكهة . وما ضرب لها من الأمثال والمشابهة » .

على أن السيوطى بعض لوازم أخرى — إذا اعتبرناها لوازم — ومنها أنه التزم
فى المقامة المسكية عند الحديث عن أحد العطور، أن يخاطب العطر فى مفتتح الحديث
عنه . فيقول مثلا : « وأما أنت أيها الزعفران » ، « وأما أنت أيها الزباد . وهكذا .
وفى مقامته التفاحية ، التزم فى مفتتح كلام كل نوع من الفاكهة قوله : « وما أدراك »
فيقول مثلا : « الرمان وأما أدراك ما الرمان» . و« الأترج وما أدراك ما الأترج» وهكذا.

ولا نستطيع أن نستعرض كل مقاماته هنا واحدة واحدة . وإنما حسبنا أن
نتحدث عن بعضها نموذجا لغيرها . وقد اخترناها متنوعة المشارب ، لتلقى ضوءاً على
سعة جنبة هذا الأديب . ، وما فى كنانته من علم وأدب . وماله من خبرة وإحاطة
بأوصاف الزهر والفواكه والثمار والخضراوات والعطور وما قيل فيها . وما لها من محاسن
ومساوىء ذات مساس بالناحية الطبية أحيانا ، مما لا يدخل للعلماء فى بضاعة ولا للأدباء
فى صناعة . وكذلك إحاطته بعلوم وفنون شتى ، منها التاريخ وحديث الرسول والفقه
والنحو . فبعض مقاماته — كما سنرى — معرض ناطق بماله من فضل جليل وباع
طويل ، فى كل أولئك .

المقامات الوردية :

هى مناظرة طريفة ، ومناقشة حامية الوطيس ، نشبت بين ألوان مختلفة من

الأزهار هي : الورد والنرجس ، والياسمين ، والبان والنسرين والبنفسج والنيلوفر والآس والريحان . .

وقد بدأ الورد المناظرة فتكلم عن مزايا نفسه ومحاسنها ، وما يقدمه من النفع للناس . وقد أفاض وأطنب ، وأجاد وأعجب . وادعى أنه ملك الرياحين . وبعده قام النرجس ، فسفه رأى الورد ، ونعى عليه إعجابه بنفسه وكشف الستار عن كثير من مساوئه ، وأبان ما في كلامه من مبالغة وافتراء . ثم طفق يعد مزايا نفسه ، ومحاسن أوصافه ، ويفصح عن اكتمال مزاياه . ثم قام بعد النرجس ، الياسمين فنهج نهجه ، وحمل عليه ثم عدد محاسن نفسه ومفاتن ذاته ، وهلم جرا . .

كل هذا على مسمع ومرأى من عامة المتناظرين . وكان فى خاتمتهم الريحان . فخطب فيهم خطبة حاذقة طويلة مشوقة . فتأثروا لها ، وأجمعوا من أجلها على أنه ملك الأزهار والرياحين ، وبلوا له ، وبايعوه بامارته عليهم .

وقد نهج الكاتب ، النهج البديعي — كما أشرنا — فى فقرات مسجوعة قصيرة غالبا — وأفصح هنا عن كثير من المنافع الطبيه التى تستفاد من هذه الأزهار . مما يدل على خبرة واسعة بأسرار استمالها . كما أبدع أحيانا فى التصوير الأدبى ، والاستفادة من أوصاف الأزهار ، ومالها من أجزاء ، فى إخراج التوريات وما إليها . وذلك كشوكة الورد وهدب النرجس ، يتخلل نثره أبيات شعرية مناسبة للسياق . وهذا دليل على سعة اطلاع الكاتب على ذخائر الشعراء ، وعلى لباقته فى استماله مختارها فى مناسبته .

وإليك قبسا من هذه المقامة ، قال فى مطلعها :

« بسم الله المعين . وبه نستعين . أنا الورد ملك الرياحين والورد منعش للأرواح ومتاع إلى حين ونديم الخلفاء والسلاطين والمرفوع أبدا على الأسرة ، لا

أجلس على ترب ولا طين . والظاهر لونى الأحمر على أزاهر البساتين — وأشرف من كل ريحان فخرا . بأنى خلقت من المصطفى وجبريل والبراق ليلة الإسرا . والظفر بقوة الشوكة والصولة . والمنصور على من ناوأنى لأنى صاحب الدولة . والعزيز عند الناس والمودود بين الجلاس للإيناس . والعادل فى المزاج . والصالح فى العلاج . أسكن حرارة الصفراء . وأقوى الباطن من الأعضاء . وأطيب رائحة البدن . ومن شم مائى وبه غشى أو صداع حار ، سكن . وأقوى المعد . وأفتح من الكبد السدد . وأنفع الأحشاء . وأقوى الأعضاء . وأنا ومائى ودهنى كيف أشاء . وأبرد اللهب الكائن فى الراس . وربما استخرجتها منه بالعطاس . وأنبت اللحم فى العروق العميقة . وأقطع الثآليل كلها إذا استعملت أذرارى السحيقة . » الخ .

ومن كلام النرجس ، قال يرد على الورد ويذكر محاسن نفسه :

« لقد تجاوزت الحد ياورد . وزعمت أنك جمع فى فرد . إن اعتقدت أن لك بحمرتك فخر . فإنها منك فجر . قال النبى صلى الله عليه وسلم : الشيطان يحب الحمرة ، فإياكم والحمرة . « وكل ثوب ذى شهرة . » المعطش لمحرور الدماغ عند الشموم . المضعف للباه . النائم بلا انتباه . أتعتز ببردك المشيب . وأنت الجالب للمشيب . فاحفظ بالصمت حرمتك . وإلا كسرت بقائم سيفى شوكتك . ويكفيك قول ابن الرومى فيك :

يامادح الورد لا ينفك من غلطه ألست تنظره فى كف ملتقطه

كأنه سرم بغل حين سكرجه عند البراز وباقى الروث فى وسطه

ولكن ، أنا القائم لله فى الدياجى على ساقى . الساهر طول الليل فى عبادة ربى ، فلا تطرف أحداقى . وأنا مع ذلك المدعو للحروب المعد عند تزاحم الكروب . ألا ترى وسطى لا يزال مشدودا وسيفى لا يزال مجرودا . وأنا فريد الزمان فى الحسن والإحسان . ولهذا قال فى كسرى أنو شروان : « النرجس يا قوت أصفر . بين در

أبيض على زمرد أخضر » . وأما المشبه بي عيون الملاح والمقرون في مهمات الأدواء بالصلاح . أنفع غاية النفع . من داء التعلب والصرع وقد روى في حديث راوية غير مقل ولا مفلس . : شموا النرجس فإن في القلب حبة من الجنون والجذام والبرص لا يقطعها إلا شم النرجس . » الخ .

مقاماته المسكية ، والتفاحية ، والزمردية ، والفستقية والياقوتية :

هذه مقامات وصفية . وصف فيها السيوطي ، مفرداتها التي هي موضوع حديثه ، ووصفاهو نمط من أوصافه لألوان الورود والأزاهير في مقامته « الوردية » . ولم يعقد فيها مناظرات جادية كالتي عقدها في مقامته المذكورة .

ففي « المسكية » وصف المسك والعنبر والزعفران والزباد .

وفي « التفاحية » وصف الرمان والأترج والسفرجل والتفاح والنبق والخوخ .

وفي « الزمردية » وصف القرع والهندبا والخس والرجلة ، والبامية ، والملوخية والخبازى .

وفي « الفستقية » وصف اللوز والجوز والبندق والزلم والصنوبر .

وفي « الياقوتية » وصف الياقوت واللؤلؤ والزمرد والمرجان والزبرجد والعقيق والفيروزج .

وقد اكتفينا بالحديث المفصل في مقامته « الوردية » عن مقاماته هذه ، إذ أنها جميعا من طرازها وعلى غرارها .

مقامته المكية :

هذه مقامة من طراز آخر . وقصة وجيزة قصها « هاشم بن القاسم » الذي حدث عن نفسه أنه جشم نفسه مشاق السفر ، وتحمل وعثاء المسير . حتى حط رحاله في مكة المكرمة . ودلف إلى جماعة بينهم شاب مهيب يدعى أنه حلال المعضلات فجلس

إليه وسأله عشرات من الأسئلة ، ليستدل بإجابته على نجابته . فكان الشاب موفقاً كل التوفيق في الرد . مع ملاحظة أن الأسئلة متنوعة وفي فنون شتى ، منها الفقه والأدب واللغة . وقد استخدم في كل سؤال ، كلمة أو أكثر ، فيها تورية أو لغز لغوي يعمي به السؤال ويبهمه على المسئول ، فكان الشاب يفطن بذكائه الخارق إلى المراد — ويجيد في الرد بالصواب . حتى أعجب به الجميع ، وطرب له فيهم « هاشم بن القاسم » . فتقدم بين يدي الشاب يسأله عن اسمه ؛ فعرفه الشاب بنفسه في أبيات شعرية لطيفة .

ومن لم يوقف على توريات الأسئلة وألغازها ، ويحلها ، تظل معماة عليه غامضة ، عصية الحل ، أبية الإجابة ... ولم يترك السيوطي هذا الغموض ماثلاً ، بل خلل سطور مقامته هذه بتفسير الغامض وإيضاح المبهم وحل اللغز ، في عبارات معترضة . وبذلك كشف في كل سؤال عن وجه الصواب ، ومن ثم وضح الجواب .

وإليك جزءاً من هذه المقامة ، قال في مطلعها :[1]

« حدثنا هاشم بن القاسم ، قال : ما زلت أقتحم المهامه المخيفة . وأدخل في المسالك المنيفة . إلى أن نزلت بمكة الشريفة . فحططت الرحال بعنايها . وأرحت النفس من عنايها . وظللت أجوب في مشاهدها . وأجول في معاهدها . وأسرح في تأمل محياها العين . وأشهد من تجمل رباها ما يهون فيه الحين . وأتردد في الغدو والرواح . وأتزود من تلك الآثار في المساء والصباح . وأبغي أديبا يسلي بمسامرته الغربة . وأويبا يزيل بمحاضرته الإربة . فبينا أنا ذات ليلة في المطاف . وقد عمرت سحائب الألطاف . إذا أنا بشعبة مؤتلفين ، وعصبة محتفين . وهم بين سلام وترحيب . وبكاء ونحيب .

---

(١) يبدو أن السيوطي اقتدى في هذه المقامة بمقامة الحريري « الطيبية » التي فيها يجلس أبو زيد السروجي في مجلس بطيبة مدعيا العلم والفقه ، فيتصدى له شاب ذليق اللسان جرىء الجنان . يسأله أسئلة في كل منها كلمة مبهمة تحتمل معنيين فيفهم أبو زيد المعنى الذي يقصده الشاب ويجيبه عن سؤاله .

وفى صدر الحلقة شاب نحيف الخلقة . قد تدرع بثياب البهاء . وتقنع بجلباب الحياء الخ .

وبعد أن وصف هذا الفتى وما له من مهابة ، وما به من ادعاء فى العلم والفكر ، والنظم والنثر وحل المعضلات وتوضيح المشكلات ، قال :

« قال هاشم بن القاسم : فتساميت إلى لقائه ، وتقدمت إلى تلقائه . لأستنبر بباطنه على ظاهره . وأستظهر من كامنه على باهره . وأتخذه معاضدا ونصيرا ، ومحاضرا وسميرا . فقلت : وعيت ما منك رأيت ، وشمت فيما عنك فهمت . فأيت على ما ادعيت ببرهان من الدلائل . وأجب إلى ما أقترحه عليك من المسائل .

فقال : على الخبير سقطت . ومن البحر لقطت . فأوضح عن مسالك . وأفصح عن مقالك . فقلت : ما تقول فيمن توضأ ولم يمسح أمه ؟ فقال لم تصح يا أمة » . والمراد بالأم الرأس .

وطفق النقاش بينهما دائرا بين سؤال وجواب . وإليك ألوانا من الأسئلة :

سأله عن ١ — صلاة الحرة وعنقها بارزة . ٢ — وجواز السجود على الجبهة .

٣ — وصحة الصلاة على الفحل ٤ — ووجوب الزكاة فى البهار

٥ — وجواز بيع الحر ٦ — وجواز بيع النبيلة

٧ — وجواز غصب الكميت ٨ — وجواز قرض لحم اليتيم .

إلى غير ذلك .

وهنا . والمراد بالعنق — كما فسر الكاتب — جمع عناق وهى أنثى المعز . والجبهة الخيل ، ومنه الحديث : « ليس فى الجبهة صدقة » . والفحل الحصير المتخذ من فحال النخل . والبهار سمكة . والحر الفرس العتيق . والنبيلة الجيفة . والكميت الخمر . وقرض لحم اليتيم ، الإسلاف من ماله . .

وقد أعجب السائل باجابات المسئول . فسأله عن اسمه ، فأجابه بأبيات منها .

يا راغبا فى أربى وهائما فى أدبى

وعاملنا برتبتى ورفعى فى الرتب

إلى أن قال : إنى أبو بشر العلا فى تاج أهل الأدب

قد طوحت يد النوى بى فى بلاد العرب . . . الخ .

مقامته الأسيوطية :

وتسمى أيضا « الأحاجى النحوية » . وهى قريبة الشبه بمقامته « المكية » ، تدل كما دلت ، على مبلغ علمه ، ومقدار فضله . غير أن « الأسيوطية » فى النحو والأدب . وموضوعها — كما يفهم من عنوانها — سوق عدد من الألغاز النحوية على شكل سؤال ثم حلها على صورة جواب .

وقد نهج فى أسلوبها نهجا قريبا من نهجه فى المقامة المكية . مع تعديل قليل فى خط سيرها . فقد بدأها بهاشم بن القاسم يقص قصته ، وأنه رحل إلى أسيوط ، فوجد جماعة بينهم شاب وسيم عليم له فى العلوم باع طويل وذراع ، واسع الادعاء . فنقده رجل بين الجماعة ، فأثاره وأهاجه ، وتقدم إليه يطلب مناظرته . فأخذ يلقى على الرجل أسئلة نحوية ، فى منطوقها توريات وألغاز غامضة . فبهت الرجل ولم يجب ، وتشهد الجماعة للشاب بالفضل فى النحو والأدب .

وفى نهاية المقامة ، وبعد انتهاء حديث الجماعة ، يأخذ الكاتب فى الإجابة عن أسئلة الشاب .

وإليك جزءا منها . قال فى أولها — وهو استهلال وصفى لطيف : —

« حدثنا هاشم بن القاسم قال : لما انمحق الشتا انمحاق العدو . وأذن زهر الربيع بالبدو . أسفرت نقاب المقام . وشمرت أكمام الاهتمام . وركبت النيل المبسوط . وركبت مطيتى بمدينة أسيوط وشغفت أدور سبلها وأرود أهلها فرأيت بها أنهارا

كالفضة . وأزهارا طرية غضة . وتغريد أطيار ، وغديرا مهدار . وجنات وبساتين . محفوفة بأنواع الرياحين . والورق تكلل من الطل بالجمان . ورماح الأغصان عليها أعلام من المرجان. فتأرجت بعرفها وتباهجت برشفها. وأنشدت قول الربيع فى وصفها:

لله يوم فى سيوط وليلة صرف الزمان بأختها لا يغلط
بتنا بها والليل فى علوائه وله بنور البدر فرع أشمط
والطل فى تلك الغصون كلؤلؤ رطب يصافحه النسيم فيسقط
والطير يقرأ والغدير صحيفة والريح تكتب والغمام ينقط

قال : فلما مضت الأيام السبعة . دخلت المسجد لقضاء الجمعة . فحين تقضيت من الصلاة وطرا . وحل البيع والشرا . وإذا أنا بشاب فى وجهه ترجمانه . وفى لسانه جمانه . ينطق بغرر الحكم . وينسق درر الكلم » .

ثم يصف الشاب ويذكر الرجل الذى ينقده ، ثم أسئلة الشاب . ثم ينحى عليها بالإجابة ، وهى فى النحو والأدب كما ذكرنا .

المقامة الجيزية :

هذه مقامة قصيرة تدور حول لغز شعرى ، فى كلمة يبدو أنها « طيب » أراد الكاتب أن يسجله بأبيات . وقد افتتح مقامته بسطور نثرية لا بأس من إيرادها ، قال :

« حدثنا هاشم بن القاسم ، قال تجاوزت النيل إلى الجيزة . وقد أبرز الزهر إبريزه . فرضت فى رياضها وخضت فى حياضها . فبينما أنا فى محاسنها أمرح . وإنسان عينى فيها يسرح . إذا أنا بفئة قليلة . وعصبة نبيلة . فقلت فى خلدى ، لا باس . فما فى وقوفك ساعة من باس . فلما تقلت إليهم ، وإذا شيخنا أبو بشر فيهم . فهلت . ثم سلمت . وإذا كل منهم سأله الاقتراح . وأقسم عليه ألا براح . فقال إن عندى لغزا عجيبا . وإنه

لأعظم نبـا . فمن حله فهو من الجملة فقـال اذكر ذاك اللغز ، لأحليه من الجواب بطرز . فقال :

يا ذا الذى قد فاق كل الورى ما قد حوى من حسن تأديبه
ما طيب إن أنت صحفته لم يتغير قط عن طيبه . الخ

هذا وإنما ألممنا إلى هذه المقامة ، لأنها لون من ألوان المقامات السيوطية .

مقامة السندسية :

هى — فى الواقع — رسالة ، لامقامة بالمعنى المفهوم من المقامات . مطبوعة فى نحو عشرين صفحة من القطع المتوسط . واسمها الكامل « المقامة السندسية فى النسبة المصطفوية » . وموضوعها التدليل على نجاة والدى النبى عليه السلام من النار . مع إيراد أقوال العلماء فى إثبات ذلك ، وتزييف من خالفهم .

وقد ألف السيوطى نحو ست رسائل فى هذا الموضوع ، ومنها رسالته المسماة « السبل الجلية فى الآباء العلية » . غير أنها مكتوبة بأسلوب علمى مدعوم بالأحاديث ونحوها . أما « المقامة السندسية » فمكتوبة بأسلوب أدبى بديعى مسجوع .

وإليك قطعة منها ، قال فى أولها :

« بسم الله الرحمن الرحيم لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم ، حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم . نبى سرىّ . وبرهانه جلىّ . خير الخليقة أما وأبا . وأزكاهم حسبا ونسبا . خلق الله لأجله الكونين . وأقرّ به من كل مؤمن العينين . وجعله نبى الأنبياء ، وآدم منجدل فى طينته . وكتب اسمه على العرش إدلالا بمرتبته عنده وفضيلته . وتوسل به آدم فتـاب عليه . وأخبره أنه لولاه ما خلقه ، وناهيك بها مزية لديه :

نبي خص بالتقديم قدما وآدم بعد في طين وماء
كريم بالحيا من راحتيه يجود وفي المحيا يا لحياء

ومن خصائصه فيما ذكره الغزالي وغيره ، أن الله ملكه الجنة .وأذن له أن يقطع منها من يشاء ما شاء ، وأعظم بذلك منة . وخصه بطهارة النسب تعظيما لشأنه . وحفظ آباءه من الدنس تتميا لبرهانه . وجعل كل أصل من أصوله خير أهل زمانه . كما قال في حديث البخاري الذي نقطع بصدوره من فيه : « بعثت من خير قرون بني آدم ، قرنا فقرنا ، حتى كنت من القرن الذي كنت فيه » . وقال عليه السلام : « أنا أنفسكم نسبا وصهرا وحسبا . ثم لم يزل ينقلني من الأصلاب الطيبة إلى الأرحام الطاهرة مصفى مهذبا . لا تتشعب شعبتان إلا كنت في خيرهما . فأنا خيركم نفسا ، وأنا خيركم أبا » الخ

ولا حاجة بنا إلى أن نذكر مبلغ غيرة السيوطي على النبي صلى الله عليه وسلم ، وعلى آل بيته ، ومبلغ شغفه بأن يكون أبواه الكريمان ناجيين من النار ، تكريما له عليه السلام . وهو في سبيل البرهنة على ذلك ، يقرأ التاريخ وأحاديث الرسول ، ويستوعب الكتب حتى يجتمع له شمل النصوص التي تعلن في قوة بنجاتهما فيحشدها في مقامته غزوا للقلوب بها وتثبيتا للعقيدة فيها . وإن السيوطي لمولع بإثبات هذه النجاة للناس حبا في المصطفى عليه السلام ، ولم يكتب في ذلك رسالة واحدة وإنما جملة رسائل ، طورا بالقلم الأدبي وآنا بالأسلوب العلمي ، ليملك على القلوب أقطارها وعلى العقول أوطارها .

وإذا كان السيوطي قد جدَّ في تلك المقامات أو الرسائل التي تبرزه لنا في ثوبه الإسلامي الأصيل ، فإن له المقامة الطريفة المرحة التي حرر بها نفسه ، لحظة ، من ربقة الجد ، وروح بها عن أنفس قرائه بعض الوقت ، وهي مقامة النساء التي عرضناها عليك في باب الوصف .

الفصل الثاني

الحكايات

الحكايات أو الروايات ، نقصد بها ضربا آخر غير المقامات ، يختلف عنها بعض الاختلاف ، وخاصة فى طريق العرض ، بما يسبغ عليه من خيال ، وما يتخلله من حوار أو تمثيل ، وما يتركز فيه من القص الذى يبدو أنه عنصره الأصيل ، لا عنصره العارض ، كما هو الشأن فى المقامات . وليس لهذه الحكايات التى نعرض لها هنا غرض تعليمى لغوى ، كما كان للمقامات ، وخاصة فى العصر العباسى . وإنما غرضها التسلى والتلهى وسوق العظة وإسداء النصيحة ، مع مناظر لا تخلو من تحليل لأخلاق المجتمع وتفصيل لعاداته وتقاليده .

وسنقف فى حديثنا هنا عند : « طيف الخيال » لابن دانيال الموصلى ، و « فاكهة الخلفاء » لابن عربشاه . وحسبنا من الحديث عنهما أن يتبين لنا أن أدب الرواية كان يعيش فى عصر المماليك ولو بصورة ما .

١ — ابن دانيال الموصلى [١] « ٧١٠ هـ »

وكتابه « طيف الخيال »

شمس الدين بن دانيال الموصلى « محمد بن دانيال بن يوسف » شخصية طريفة عند

---

١ — ترجمة ابن دانيال ، فى فوات الوفيات لابن شاكر الكتبى ج ٢ ص ٢٣٧ — وفى الدرر الكامنة ج ٣ رقم ١١٦٦ .

امتزج فيها الأدب بالظرف . والذكاء بالالطف ، والنقدة المرة بالنكتة الجديدة اللاذعة، والفتنة الحرة بالفكاهة المبتكرة البارعة . وهو ممن واتتهم البديهة بالرد المفحم والجواب المسكت . وربما لا يعجب به محبو الجد ورواده ـ ولكن يطرب له عشاق المزاح وعباده . وكثيرا ما قتل الجد أهله ووجد مكلومو الفؤاد فى المزاح متنفسا ، وفى الهزل تفرجا ، فضلا عما يجنونه منه من أدب لباب ، قد يعجز الجد عن بلوغ مداه وإدراك غايته .

عاش هذا الأديب فى القاهرة ، واكتمل له الذوق القاهرى الصميم ، وعالج صناعة الأدب بجانب صناعة الكحل . — وكانت هذه الصناعة حينذاك بمثابة طب العيون — وكان يتعاطاها فى حانوت له داخل باب الفتوح .

طفق ابن دانيال يقرض الشعر فى فنون مختلفة ، ممتزجة بالفكاهة والدعابة والنكتة ، حتى قال عنه صلاح الدين الصفدى : « هو ابن حجاج عصره ، وابن سكرة مصره . » [1] . وعاونته صناعة الكحل على صناعة الأدب ، فأمدته بشىء من ألفاظها ومعانيها فزج ذلك بصناعة الأدب وأخرجها مخرج الهزل والمزاح والمجون . فكانت رحيقا مقتولا ، لا يكتفى منه المرء بالنهلة دون العلة ، ولا بالجرعة دون إرواء الغلة . قال :

يا سائلى عن حرفتى فى الورى ... وضيعتى فيهم وإفلاسى
ما حال من درهم إنفاقه ... يأخذه من أعين الناس

وابن دانيال — بهذه المناسبة — ممن أدركتهم حرفة الأدب فى ذلك العصر ، وممن لم تمتعهم أيامهم بيسار ، ولم ترفه عنهم ببلوغ أمل . ولذلك ضج بالشكاية من دهره ومن صناعته ومن شظف عيشه ، شكاية هينة ساخرة ، لا جادة سافرة ، كما كان — مثلا — شأن ابن نباتة وابن الوردى فى شكايتهما .

---

١ — ابن حجاج وابن سكرة من شعراء العراق الماجنين ، توفى الأول عام ٣٩١ هـ ، وتوفى الثانى عام ٣٨٥ هـ .

وقد قال ابن دنيال :

قد عقلنا والعقل أى وثاق وصبرنا والصبر مر المذاق
كل من كان فاضلا كان مثلى فاضلا عند قسمة الأرزاق

وقد نظم ابن دانيال الشعر فى جملة أغراض ، منها : الوصف والغزل والنقد والمجون والشكوى والهجاء وغير ذلك . كما نظم القصائد والمقطعات والتواشيح ، وغلب عليه إخراج شعره مخرج الفكاهة والتورية والسخرية والمجون ، — كما أشرنا — غير مبال بإسفاف فى عبارة ، أو تبذل فى إشارة ، بما ينبو عنه الذوق السليم والخلق القويم .

ومشاق حياته ينبىء عن نفسية امتزجت فيها عناصر الأدب والنكتة والنقد والمجون والسخرية ، مع حضور بديهة وسرعة إجابة . واشتهر هذا المزاج عنه وعرف به .

وقد حدث الفتح بن سيد الناس قال : « كان الحكيم شمس الدين بن دانيال له دكان كحل داخل باب الفتوح فاجتزت عليه أنا وجماعة من أصحابه ، فرأينا عليه زحمة ممن يكحله . فقالوا : « تعالوا نخايل على الحكيم » . فقلت لهم : « لاتشاكلوه تخزوا معه » فلم يسمعوا . وقالوا : « يا حكيم ! نحتاج إلى عصيات » . — يعنون أن هؤلاء الذين يكحلهم يعمون ويحتاجون إلى العصا — فقال بسرعة : « إلا إن كان فيكم من يقود لله تعالى » . فروا خجلين » . . .

وقال ابن سيد الناس : « وله من هذا النوع غرائب تنقلها المصريون عنه » .

وأدب ابن دانيال تبدو عليه مسحة الصدق وسلامة التعبير عن الضمير ، والرغبة فى تسجيل الحوادث ، شخصية أم عامة . وقد أبطلت المنكرات فى عهد السلطان حسام الدين لاجين ، فأنشأ ابن دانيال يقول متفكها ناصحا :

احذر نديمى أن تذوق المسكرا أو أن تحاول قط أمرا منكرا
أو تشرب الصهباء صرفا قرقفا وتزور من تهواه إلا فى الكرى

أنا ناصح لك إن قبلت نصيحتى   اشرب ـ إذا ما رمت سكرا ـ سكرا . الخ

الحديث عن شعره يطول ، فلنتحدث عن كتابه « طيف الخيال » :

طيف الخيال :

هو كتاب ألفه ابن دانيال . يحتوى على ثلاث روايات تمثيلية ، تصلح للتمثيل المسرحى ، على طريقة « خيال الظل » ، التى كانت إحدى وسائل التسلى والتلهى فى عصر ابن دانيال وقبله .

ولعل اللعبة المشهورة فى عصرنا الحاضر بخيال الظل ، والتى كاد ظلها يتوارى أو توارى فعلا ، بقية مما ترك أهل عصر ابن دنيال فى ميدان التسلية واللهو . ولعلها أيضا فى جملة العوامل التى وجهت أنظار المخترعين إلى ابتداع « الخيالة » ، لأن أساس الفكرة فيهما واحد ، وهو عرض صور متحركة على قماش مثلا تسلية للجماهير ولعبة « خيال الظل » أقرب شبها بالخيالة الناطقة منها بالصامتة — التى بدأت بها الخيالة حياتها — وذلك لأن أبطالها كانوا يتحركون ويتكلمون .

وتمثيليات ابن دانيال فى لعبة الخيال ، تدل دلالة بارزة ناطقة على أن فن التمثيليات — نثرية أو شعرية — قد طاف طائفه بأذهان بعض أدباء العربية منذ قرون . فهى مبنية — كما سنرى — على التشخيص والحوار والحركة ، وللعاطفة فيها نصيب كبير ، هذا فضلا عن تعرضها لوصف الأحوال الاجتماعية ونقدها والسخرية منها . وهذه أمور تعتبر من أهم دعائم التمثيليات الحديثة .

وإذا أضفنا إلى نتاج ابن دانيال فى هذا المجال نتاج الصفى الحلى فى « رسالة الدار فى محاورات الفار » ، ونتاج الجلال السيوطى فى كثير من مقاماته — وقد سبقت لنا الإشارة إلى كل أولئك — أحسسنا أن أكثر من أديب من أدباء مصر فى عصر

المماليك ، فطنوا إلى فن التمثيل وألفوا فيه

وطيف الخيال وما به من تمثيليات ، له شبه بالمقامات ، وذلك لاحتوائه — أو لبنائه — على بعض دعائمها الأصلية . فهي قصص مكتوبة بعبارات مسجوعة روعيت فيها ألوان بديعية من جناس وطباق وتورية وفقارها في الغالب قصيرة مقبولة . وتدور حول الاستجداء الذي هو هدف المقامات الأخير .

غير أنها فارقت المقامات مفارقة واضحة ، بعنصر التمثيل والحوار وتعدد المناظر واختلاف الشخصيات وتنوع الأبطال في كل تمثيلية منها ، وبإسناد دور معين ذي اتجاه خاص إلى كل بطل أو شخصية .

وتتخلل سطور كل تمثيلية ، أبيات شعرية كثيرة وأزجال عامية . وكثيرا ما تبدو الأبيات قصيدة رائعة مشوقة في المعاني التي تناسب السطور .

وتمثيليات طيف الخيال ممتعة ، لا بأسلوبها وعباراتها فحسب ، ولكن أيضا بمواقفها الفنية واتجاهاتها المتعددة ومناظرها الكثيرة المتجددة . ولا نجافي الحقيقة إذا سجلنا أنها فريدة في بابها بين ألوان القصص العربي .

وعيبها ما التاثت به من عامية ومجون وتبذل . فان منشئها لم يتورع عن أن يسف إلى العامية أحيانا ويكثر من الضرورات ، وقد ترك نفسه على سجيتها تتفكه وتمجن . وتصل في فكاهتها ومجانتها إلى حد يتقزز منه الذوق السليم والخلق الكريم ، سواء أكان ذلك في شعره أم نثره .

ويعاني شعره ألوانا من الضعف والكسر ، ولعل سوء النسخ له أثر في ذلك .

وليس معنى ما قدمنا أن « طيف الخيال » خلو من النفع ، فهو فضلا عن أنه أداة للتسلية ، فيه حكم وأمثال ومواعظ ونقد وتسجيلات اجتماعية وخلقية لها أهميتها .

وبالخزانة التيمورية نسخة خطية كاملة لطيف الخيال ، برقم ١٦ آداب — وبدار الكتب المصرية نسخة أخرى منه مطبوعة فى ألمانيا . و بمقارنتهما رأينا أن النسخة المطبوعة تعانى نقصا شديداً وخلطا فادحا بين أجزاء التمثيليات الثلاث .

وإليك مثلا لذلك : فالتمثيلية الأولى توجد بالنسخة المخطوطة كاملة . وهى متعددة المناظر والمواقف . ولكنها فى النسخة المطبوعة لا يوجد منها إلا منظر واحد وموقف واحد . وهو الذى يبدو فيه « الريس » وينشد نشيدا . ويبدو على أثره « طيف الخيال » — وهو أول أبطال اللعبة — ويدور بينهما حوار قصير ينشد طيف الخيال على أثره نشيدا آخر . ثم يختفيان . ولكننا سنرى أن التمثيلية المشار إليها أوسع نطاقا من هذا وأبعد أفقا .

ومثلا آخر : « التمثيلية الثانية — أو البابة الثانية كما يسميها مؤلفها — تعانى نقصا شديداً فى مفتتحها ؛ فهى فى النسخة المطبوعة تبدأ بحديث « حويش الحاوى » ولكنها فى النسخة المخطوطة تبدأ بظهور رجل غريب يتحدث عن نفسه وأسفاره وغربته — ولعل ابن دانيال يعنى به نفسه — ثم يخرج « عجيب الدين الواعظ » يؤدى دوره . ثم يبدو من بعده « حويش الحاوى » — وينقص هذه التمثيلية أيضا جزء كبير فى وسطها يتضمن عدة مواقف وأدوارا . وكذلك ينقصها جملة أدوار فى نهايتها

وقد ذكر ابن دانيال فى مطلع مؤلفه الفريد ، أنه كتب قصصه إجابة لطلب أحد أصدقائه الماجنين . وكان هذا الصديق قد خاطبه فى موضوع « خيال الظل » وذكر له أنه قد مجته الأسماع . ونبت عنه لتكراره الطباع » وسأله أن يصنف فيه شيئاً جديدا ومن هذا نستنبط أن لعبة « خيال الظل » كانت ملهاة متداولة قبيل جيل ابن دانيال على الأقل ، وأن الناس كانوا يتلهون بها فى جيله ، وكثر تكرار رواياتها ، ولم تحط

بشيء من التجديد والابتكار يجذب الناس إليها ويدفع عنهم الملهم منها .[1]

فاستجاب ابن دانيال لصديقه وألف هذه التمثيليات الثلاث . وأغلب الظن أنها كانت جديدة مبتكرة ، وأن ابن دنيال أدخل بها على هذه اللعبة روحا جديدة ، وأن الناس أقبلوا على سماعها والتفرج بها دون أن تمجها أسماعهم أو تنبو عنها طباعهم .

— قال ابن دنيال في خطاب صديقه — ولله صديق منتحل : —

« كتبت إلى أيها الأستاذ البديع . والماجن الخليع . لا زال منزلك رفيعا . وحجابك منيعا . تذكر أن خيال الظل قد مجته الأسماع . ونبت عنه لتكراره الطباع . وسألتني أن أصنف لك من هذا النمط ، ما يكون بديعا في أشخاص السقط . فصدني الحياء فيما رمت مني . لكن رأيت تمنعي من هذا المرام . يوهمك أني قاصر الاهتمام . واهن الفكرة . عاجز الفطرة . على غزارة الينبوع . وإجابة الخاطر المطبوع . فجلت في ميدان خلاعتي . وأجبت سؤالك لساعتي . وصنفت لك من بابات المجون . والأدب العالي لا الدون . ما إذا رمقت شخوصه . وبوبت مقصوصة . وخلوت بالجمع وجلوت الستارة بالشمع . رأيت بديع المثال ، يفوق بالحقيقة ذلك الخيال . »

وكل تمثيلية من الثلاث محبوكة الأطراف ، سليمة الجوانب ، على وجه التقريب في بابها . ولا سيما التمثيلية الأولى ، فهي أبرعها جميعا ، وأجمعها وأروعها .

---

[1] — نبه الأستاذ تمر الدسوقي إلى أن لعبة خيال الظل كانت معروفة قبل ابن دانيال ، فقد ذكر المرادي في « سلك الدرر » للسيد احمد البيروتي من رجال القرن السادس الهجري قوله :

أرى هـــذا الوجود خيال ظل ... محركه هو الرب الغفور
فصندوق المجـــين بطون حوا ... وصندوق الفناء هو القبور

وهو أقدم نص — كما يرى — يدل على وجود خيال الظل .

ونبه أيضا إلى أن ابن حجة روى في ثمرات الأوراق ، وعلاء الدين البهائي روى في مطالع البدور أن صلاح الدين الأيوبي ووزيره القاضي الفاضل كانا يشاهدان « خيال الظل » .

وتتلاقى جميعا فى معنى واحد أو جملة معان ، وهى أنها ماجنة ، وفيها إسفاف ، وفيها استجداء ، وفيها أيضا تسلية ووعظ وحكمة ونقد ، كما سبقت الإشارة .

ولكنها تختلف فى موضوع نصها وحوارها ومناظرها ومواقفها ومغازيها . والتمثيلية الأولى هى أحكمها جميعا فى كل أولئك . كما سنبينه .

وإليك عرضا وتحليلا موجزين لكل منها :

التمثيلية الأولى :

يقوم بالتمثيل والحوار فيها تسعة أبطال — عدا « الريس » الذى يقدم البطل الأول . أما الأبطال التسعة فهم : — طيف الخيال . والأمير وصال . والشيخ بابوج . والشاعر صربعر . والخاطبة أم رشيد . والعاقد . وابن بنت أم رشيد . والشيخ عفاق . والحكم يقطينوس .

ولكل منهم شخصية مستقلة ذات لون خاص يبدو منه حين أداء دوره . وتحببك من أدوارهم هذه الملهاة الهازلة الطريفة التى تصور بعض الحالات والعادات الاجتماعية المرعية بين الطبقة الشعبية فى مصر ، منذ ذلك العصر حتى اليوم . وفى بقائها حتى الآن دلالة على تأصلها فى مجتمعاتنا وعلى جمود هذه المجتمعات على عاداتها وبطء تحولها .

ومن الطريف أن ابن دانيال لم يغفل بين الحين والحين أن يمهد لكل بطل فى بدء ظهوره بكلمات تعين على حسن تصوره كما يريده . وهذا ما يفعله كثير من المؤلفين المسرحيين المحدثين ليعينوا بذلك على حسن إخراج الرواية وأبطالها كما أرادوهم .

وإليك شخصيات هذه الملهاة حسب ظهورهم :—

طيف الخيال : هو أول أبطال الرواية وهو شخص أحدب قصير يثير الضحك . يرقص ويضحك الحاضرين ويخطب فيهم خطبة المجون . ويدعوهم إلى التبذل ومقارفة

الآثام . ويشكو إليهم سطو الزمن الذى فرق بينه وبين أخيه « وصال » ويخبرهم أنه غريب أتى إلى هذه الديار طالبا لهذا الأخ . ثم يبدو « الأمير وصال » فيتبادلان الأحاديث ويدور بينهما الحوار . ويستقدمان من آن إلى آخر بطلا جديدا من أبطال الرواية . يقع بينه وبينهما حوار جديد .

الأمير وصال : . وهو الشخصية الثانية فى الرواية . والرواية — فى الواقع — تدور حوله هو . وهو على حد تعبير ابن دانيال « جندى[1] شر بوش وسباله منبوش » وقد اجتمعت فيه الموبقات وأصناف الحيل وألوان النقائص . وقد أفصح عن نفسه فى خطبته حيث قال « أنا عيبة عيوب . وذنوب ذنوب » .

وأصله رجل غريب عن الديار . طوحت به الليالى . وأصابته ظروف الزمان . ففرقت بينه وبين أحبابه وأصحابه . وباعدت بينه وبين الصفو والهناء بعد أن تزود من الآثام على مختلفاتها . . ثم هو يرجو لنفسه أن يتأهل ويتروح ويستريح من أعباء الذنوب .

وتدور بقية الرواية حول إتمام هذا الزواج . وما أصاب هذا الأمير من جرائه وما دخل عليه فيه من الحيلة والمكر . كما سترى .

واختيار اسم « وصال » لهذا الأمير من طرائف خاطر ابن دانيال .

الشيخ نابوج . — وهو كهل مسيحى العقيدة ولكن به صبوة ومجانة . وأهم ما أداه فى دوره أنه أجاب ما طلبه منه « طيف الخيال » وهو قراءة تقليد « الأمير وصال » الذى عين بمقتضاه فى وظيفته .

والتقليد — كما عرفنا فى باب الرسائل — مكاتبة ديوانية تصدر على لسان السلطان يعين فيها أحد الموظفين فى وظيفته ويثنى على همته وكفايته ويبين له وجوه اختصاصه ويرسم .

---

(١) يرجح أنه يعنى بكلمة جندى) فارساعليا سلاحه ويلبس لبس الأتراك . وكما نسمع بعض أهل الريف ينادون (الأفندية) ومن الذين يلبسون الزى الافرنجى (بالجناتى) جمع جنتى فى نطقهم

الشاعر صرصر . — ذو شخصية فكاهية تتردد فكاهتها بين الرضا والسخط والوعد والوعيد والمدح والقدح . ينشد شعره فى هذه الأغراض ويوجهه إلى « الأمير وصال » . ثم إنه قصاص ماهر يحفظ جملة من فكاهات التاريخ ونوادر الزمان يقصها على « الأمير وصال » بطريقة تثير الشوق .

أم رشيد . — هى امرأة عجوز شمطاء متصابية . كان لها جمال فزال إلا بقية . وكانت لها صبوات لا تزال جامحة، وهى تحتال لبلوغ مداها على الرغم من شيبها، وقد عركها الدهر فعركته ، وعرفها الزمان فعرفته . فهى مجرِّبة ومجرَّبة . ذات خبرة واسعة فى الجمع بين العشاق ، والراغبين فى الوفاق . وصناعتها أنها « خاطبة » يصطنعها الرجال فى البحث عن الزوجات ذوات الجمال . وهى مملوءة بالمكر والخداع ، ترتجل الحيل ، وتزيف الباطل ، وتورط الرجال . . .

وقد طلب إليها « الأمير وصال » أن تبحث له عن رود حسناء ، وخرعبة بيضاء . فخطبت له عجوزا على مثالها ، زعمت له أنها ذات حسن باهر ، وطلعة بهرية، فرضيها منها زوجة . ولكنه بعد العقد عليها و بدء الدخول بها، تكشفت له الخدعة ، وسفرت لعينيه الحقيقة ، فسعى للانتقام من أم رشيد . .

ولعل فى تسمية هذه الخاطبة «أم رشيد» ما يشعر بتهكم كاتب الرواية بصناعتها .

العاقد . — وهو « المأذون » وصناعته إتمام العقد . وعند حضوره خطب الخطابة التقليدية فى هذه المناسبة . وهى منتزعة من نفس المجرى الذى تجرى فيه الرواية مجانة وهزلا .

وقد أورد فى خطبته اسم الزوجة وهو « ضبة بنت بقباح » وهو اختيار لبق وقع عليه خاطر المؤلف .

ابن بنت أم رشيد . — هو غلام حدث به رعونة ونزق ، كهذه الرعونة وهذا النزق اللذين نلحظهما من غلمان العرس فى ليالى الزفاف ، ممن تطغيهم النشوة والقرابة . وقد

أدى هذا الغلام دوره الوجيز وكانت له أهميته على كل حال .

الشيخ عفاق [١] . — هذا شيخ هرم هو حطينة الشيخوخة كاحطينة التجارب ، وهو زوج أم رشيد ومعينها على صناعتها الوضيعة وأداء رسالتها الشائنة . .

وقد استخدمه الأمير وصال لينتقم منه جزاء ما اقترفته زوجته الملعونة من إثم عظيم ، ولكي يرغمه على أن يدله على مكانها الذي اختبأت فيه ليعاقبها على سوء فعلتها . . فيخبره أنها هلكت وماتت بين يدى طبيبها .

الحكيم يقطينوس [٢] . — طبيب مجرب يتعاطى علاج المرضى . . وكان يعالج أم رشيد . فلم يجد معها علاجه وطبه . وهلكت بين يديه بعد أن أوصته وصية طريفة تدعوه فيها إلى التأليف بين القلوب . والجمع بين المحب والمحبوب . . وكأنى بها هلكت وفى نفسها جزع شديد على مصير صناعتها . .

هذا ، ولعل فى اسم « يقطينوس » ما يتسق وهذه الصناعة . .

هذه شخصيات التمثيلية الأولى . وإليك وجازة عن فصولها ومقتضبات من سطور وتعليقات مناسبة عليها : —

يبدو الريس — وهو الذى يقدم « طيف الخيال » — على الشاشة أو المسرح . ويلقى نشيدا افتتاحيا وهو . —

« خيال الظل جدنا لأهل الرتب والفضل والبذل وأهل الأدب
حوى فنون الهزل والجد فى أحسن شكل وأتى بالعجب
فانظره يا من فهمه ثاقب تفيه للعرفان أدنى سبب
إن قام فيه ناطق واحد عن كل شخص ظاهر واحتجب

---

(١) عفق يعفق بكسر عينه : غاب وضرط وبام قليلا ثم استيقظ ، ولم يحكم العمل وحبس ومنع .

(٢) اليقطين — القرع الرطب .

زوجته « طيف الخيال » الذى ... يحكى هلالا طالما بالحديب

فتناهب ... الفضل ... بجيبة ... فنقطوه سيادتى بالذهب »

هذا النشيد الافتتاحى واضح فى أداء الفكرة المرتقبة من هذه ... وفى الدلالة على الطريقة التى تدار بها .

أما الفكرة فهى تسلية أهل الفضل والبذل بما فيها من فنون الجد والهزل — وكل منهم يجد فيها طلبته من لهو ومجون ، أو حكمة وعظة . ومن حق عارضها إذن أن ينقطوه بالذهب . وهكذا يستخدم العارض أدبه ولطائفه لاسترقاق القلوب واستدرار الأكف .

أما الطريقة فهى تمثيل الأشخاص « بشخوص » يؤدى كل منها دوره ثم يختفى .

قال ابن دنيال :

فإذا فرغ الريس من هذا الإنشاد . يشرع فيما بنى وشاد . ثم ينادى : «ياطيف الخيال ياكامل الاعتدال» ! فيخرج شخص أحدب . وينتفض كالبازى الأشهب . فيسلم سلام القادم . ويقف مطرقا كالواجم . فيرد « الريس » عليه السلام ويتلقاه بهذا المديح قبل الكلام » .

وهنا ينشد « الريس » نشيد استقبال لطيف يستقبل به « طيف الخيال » ويمدحه بكل صفات الجمال . ويدور مدحه حول قصره وحدبته ، فيصفها « الريس » بكل وصف يخرجها من حيز القبح إلى حيز الحسن . وهو احتيال ظريف قوامه التشبيهات والتعليلات . ومن هذا النشيد قوله ... :

قسما بحسن قوامك الفتان ... يا أوحد الأمراء فى الحدبان

أنت الحسام زها بيرشق حدبة ... فاقت على الخطية المران

يا مخجل الغصن الرطيب بقده ... حاشاك أن تعزى إلى نقصان

ما عاب قامتك الحسود جهالة ... إلا أعجبت مقاله ببيان !!

ومنه . — لولاك ما اشتقنا قباب المنحنى … عن حاجر والتل من نعمان

والعود أحدب وهو ألهى مطرب … ولقد جمعت بنغمة الميدان

.. وكذا سفين البحر لولا حدبة … فى ظهره لم يقو الطوفان .. الخ

يطرب « طيف الخيال » من هـذا المديح . ويرد على « الرئيس » قائلا :

« لا فض الله فاك . وصان من حيف الحسبة قفاك » !

.. ثم يأخذ « طيف الخيال » فى الرقص والغناء ويحيى الحاضرين بنشيد لطيف داعيا لهم وللسلطان بالنصر والتأييد ، وذلك بعد حمد الله والصلاة على نبيه الكريم . وهذا هو مفتتح نشيده — قال : .

سلام على السادة الحاضرين … سلام المشوق الكئيب الحزين

سلام على من حوى ذا المقام … من السادة الأتقياء الكرام .

.. فهم خير من خوطبوا بالسلام … وأكرم من صوفحوا باليمين . الخ

.. وبعد أن يتم نشيده يلقى على أسماع الحاضرين قصته . ومؤداها أنه وفد على مصر من الموصل فى عهد الدولة الظاهرية ، فوجد أن أمر السلطان قد قضى على أتباع الشيطان بتحريم الخمور والحشيش وما إليهما من المسكرات ، مع الضرب على أيدى الفساق والزناة .. . وهذا عاجز فى نفسه ودعاه إلى الأسى والأسف . واستحق منه أن يرثى شيخه أبليس وأتباعه ، بقصيدة مطلعها : .

.. مات يا قوم شيخنا إبليس … وخلا منه ربعه المأنوس . الخ .

وقصة « طيف الخيال » منثورة مسجوعة بديعية الأسلوب ، ضمنها ألفاظا ماجنة مكشوفة ودعوة سافرة إلى الفساد . وإن كان فى تضاعيفها حكم وأمثال من المجرى ، منها توريات دقيقة وعبارات تترجح بين الجد والهزل ، وإن كان هزلها هو المقصود .. قال فى مفتتحها . —

« السلام عليكم أيها السادة ! ودمتم فى نعمة وسعادة . واعلموا أن لكل شخص

مثالى .(١) وقد قيل فى الأمثال : « إنه يوجد فى الأسقاط ، ما يوجد فى الأسفاط . على أن لكل أسلوب طريقة . وتحت كل خيال حقيقة . وفى الهزل راحة عن كلال الجد . والنحس يظهر السعد . وقد يمل المليح . ويستحسن القبيح . والمصنوع حليم . وباذل نفسه كريم . والمزاجر مصياف : والمباهل مواف(٢) » .

ومنها وفيه دعوة إلى الفسوق وتزيين للفجور .

« وما عليك أن يقال : هذا قبيح . وكل شىء على وجهه مليح . وفى القيادة سر الانقياد . والتيمن بطلعة القواد . لأنه جامع الشمل . والمرتاض بالمشى فى الرمل . وهو الطحان الذى يجمع الحجرين على الحبة . والدقيق والجليل على المحبة . مع جمعه الصحاح والقطع . والتمتع بليالى الجمع . وفى القهوة سلوة الأحزان . لولا خفة الميزان . وطاعة الشيطان . وعصيان السلطان . » . الخ

ثم يعقب طيف الخيال على حديثه بقصيدته التى أشرنا اليها فى رثاء شيخه إبليس وأعوانه . ثم يقول وكأنه يخاطب « الريس » : —

« والله لقد سطا علينا الزمان وصال . وفرق بينى وبين أخى وصال . وما قصدت هذه الديار إلا فى طلبه . ولا تغربت عن أوطانى إلا بسببه . فلعلك تجمع شملى به » .

فيقول رسيل الخيال : « يا أمير وصال يا كامل الخصال » ! فيخرج جندى بشر بوش وسباله منبوش .

وإذا بدا الأمير وصال يخطب فى الحاضرين خطبة جامعة يعرفهم فيها بنفسه ويعلمهم بصفاته الممتازة وحيله الرفيعة . . . وكأنى به لم يترك موبقة ولا صفة خسيسة إلا ألصقها بنفسه وانتحلها ! وكأنى بهذه الصفات والموبقات مثار فخره ومناط زهوه ! ولكنه — والحق يقال — لبق العبارة ، كيس الإشارة . وكأنى بابن دانيال واضع الرواية قد نظم

---

(١) هكذا لضرورة السجع .

(٢) فى الأصل . مصاف وموافٍ بيائين مثبتتين .

جيئه الخطبة أهجية لفاسق وذما لفاجر، يجمع له فيها كل صفات النقص من موضع الهوان.

يقول الأمير وصال في مطلع هذه الخطبة :

« سلام على من حضر مقامى . وسمع كلامى . من عرفنى فقد قنع بيأسى . ومن جهلنى فأنا أعرفه بنفسى . أنا أبو الخصال . المعروف بأمير وصال » الخ . . .

وأخذ يذكر نعوته ومميزاته ، فقال :

« أنا ملاكم الحيطان أنا محيط الشيطان . أنا أنهش من ثعبان ، وأحمل من قبان . وأنا أنطح من كبش . وأنتن من حش . أنا أسرف من نحاس . وألوط من أبى نواس » الخ .

ومنه قوله :

« أنا عيبة عيوب . وذنوب ذنوب . أنا قبضة من كف وقاد . وغمزة من عين قواد . أنا أصفع من كف خباز . وأرفس من رجل بزاز . أنا أبرم من حبل . وأثقب من نبل . وآكل من نار وأشرب من زبل » . . الخ

فيقول له طيف الخيال : « أنت جمال المقامات . ومن خلف مثلك ما مات » .

فيقول له الأمير وصال شاكيا باكيا ذاكرا أمر ليالى الصفاء :

« أين تلك الأيام التى كانت مواهب . وكانت بإسعاف الأحبة حبائب . وأين أوقات المعشوق . والاجتماعات بباب اللوق . وأين قصفنا فى بستان الخشاب . وشربنا فى عرصه أم شهاب . » الخ

ثم ينشد قصيدة ماجنة خليعة فى معنى ما قال . ويظل يتردد بين الشعر والنثر على هذا النسق ، حتى يشرف على خاتمة خطبته ، فيدعو فيها إلى التوبة والإقلاع عن المعاصى قبل وقوع القدر المحتوم . . .

وهنا ينادى « طيف الخيال » الشيخ بابوج ويسأله عن حاله ثم يطلب إليه قراءة تقليد الأمير وصال فيقرؤه وملؤه الفكاهة والمجون فى كل خطواته ، أعلاه وحشوه السخرية والتهكم .

وقد كتب بأسلوب ديوانى على نسق تقاليد ديوان الإنشاء ففيه الخطبة وتحتوى على الحمد والصلاة . وفيه ثناء على همة الأمير وكفايته . وبيان لوظيفته واختصاصه وتوصيته .

وكأنى بابن دانيال يسخر من كتاب الدواوين وتقاليدهم باختياره شخصية « بابوج » المسيحى الماجن . ويتهكم بأمراء الدولة وأعيان موظفيها . —

قال « بابوج » فى مستهل التقليد :

« الحمد لله الواحد القهار العزيز الغفار . الذى يجزى بالإحسان إحسانا . وبالسيئات عفوا وغفرانا » .

وبعد الحمد والصلاة قال : —

« وبعد فإن أولى من يستندب لاستجلاب الفرح ، ويستحضر لاستماع النوادر والملح . من يقوم فى دفع الغموم . مقام ابنة الكروم . ولما كان الأمير الأجل الأوحد عنين الدين . ذخر البله والمجانين . شفة صرم غلام أمير المؤمنين : وصال الحبة — أطال الله قفاه . وبارك فى خصاه : وأعطاه من الصفع أوفره وأوفاه — ممن تجمل بطلعته المجالس . ويحن إلى صفع قذاله كل قاعد وجالس . كان جديرا بأن تمد إليه الأكف والسواعد . ويكون كالبحر الذى ساحله المصادر والموارد : » الخ . .

وينشد الكاتب فى أعقاب هذا التقليد شعرا فى مدحه : منه هذان البيتان :

إن البلاد التى أصبحت واليها ... أضحت ولاجنة المأوى ضواحيها

تعمرت منك بالعدل العميم إلى ... أن طاب حاضر سكناها وباديها

ثم ينادى « طيف الخيال » على الشاعر شرنغز بعد أن يتوارى قارىء التقليد .

فيبدو الشاعر ، فيبدأ بتوجيه قصيدة ضاحكة متهكمة إلى الأمير وصال مطلعها :

أتوعدنى الهوان فليت شعرى ... أهذا منك جائزة لشعرى .. الخ

ثم أخذ الشاعر فى السخرية بالأمير وتسليته معا، فيقص عليه قصة « دلوكة الماشطة » وما كانت تعمله من ضروب السحر . وعندما قارب الانتهاء منها ذكر فى الخاتمة اسم شخص آخر شوقه إلى معرفة قصته . فسأله الأمير وصال عنه . فقص قصته عليه . وفى نهايتها أنشد بيتين من الشعر ذكر فيها اسما آخر، وشوقه إلى سماع حكايته . فسأله عنه فقص قصته ، وهكذا دواليك ، حتى قص عليه جملة من القصص فيها لهو وتسلية ، وفيها إسفاف ولجاج فى الإسفاف . وأكثر الأسماء المشار إليها منتزع من بعض أجزاء الجسد .. ثم ينصرف الشاعر .

هنا يخاطب « الأمير وصال » أخاه « طيف الخيال » ويعلنه بأنه عزم على التوبة وهجر الخلاعة والإقلاع عن المعصية ، وأنه اعتزم أن يتزوج ليضع حدا لهذه الآثام ، ويرجوه أن يطلب له « أم رشيد » الخاطبة ..

ويصف ابن دانيال هذه العجوز قبل ظهورها بقوله :

« وإنها تعرف كل حرة وعاهرة . وكل مليحة بمصر والقاهرة . فانهن يخرجن من الحمامات . متنكرات فى ملاحف الخدامات . » الخ ..

وفى ذلك تسجيل لبعض العادات المنتشرة والتقاليد المتبعة حينذاك .

ينادى « طيف الخيال » :— « يا أم رشيد . ياست العبيد ! » . فتخرج العجوز وتقول مجيبة متسائلة ، وفى ألفاظها توريات :

« مسيتم بسعادة ، ولا زلتم فى نعمة وسيادة . وفى خير والخير عادة . يا أولادى ولا بليتم بالكبر . وثقل الجسم والسمع والبصر . من هذا الذى طابى فى الليل الدامس . والدرب مغلقة والطرف ناعس ؟ وأزعجنى من رقدتى والنجوم راكدة . وكل صبية مع عشيقها راقدة ؟ »

فيقول « طيف الخيال » :— إن الأمير وصالا هو الذى طلبها : فيتقدم وصال. ويعرض عليها رغبته ، ويصف لها العروس التى يرجوها لنفسه فيقول :

«... ملفوفة البدن . لا رقيقة ولا مفرطة فى السمن . أسيلة الخد . قائمة النهد » إلخ وينشد أبياتا فى المعنى .

فتعرض عليه أم رشيد ما عندها من بضاعة وتقول :

« يا ولدى ! عندى صبية . كأنها الشمس المضية » . وتصفها وصفا دقيقا ماجنا وتخبره أنها تركت زوجها الأول . وأنها مثال الحسن والجمال . . . الخ . وتعرض بنفسها فى سياق الحديث . وبأنها فى طاعة الأمير وصال . كيفما أراد الحال . وتصف له صناعتها .

يرضى الأمير بهذه الصبية وهى « ضبة بنت مفتاح » ويحضر العاقد والشهود ويكتب العقد .

وقبل كتابة العقد يستهل العاقد بخطبة الزواج وهى مضحكة فكهية استخدم فيها ألفاظا مناسبة لمعانى الرواية ومجونها يحاكى بها ابن دانيال يتهكم بهؤلاء العاقدين الذين يلونون حديثهم ويديرون خطبهم حسبما تقتضيه الأحوال . . وفى ذلك بلاغة على كل حال . .

قال العاقد فى خطبته مستهلا ببراعة ملحوظة :

«.. الحمد لله ستار العيوب . وعالم الغيوب . والمؤلف بين القلوب . » .. الخ . ثم قال ، يبين مزايا الزواج والنسل : « وبعد . فإن التناكح والوصل . من لبقاء الذكر ببقاء النسل . وهو العاصم من الأوزار . والدخول إلى النار . نتاجه الأولاد . والسادة الأمجاد . يعمرون الديار . وينصرون بالإكثار . ويدرك بهم الثار . ويقال بهم العثار » . الخ

ويقول مثنيا على الأمير وصال . ويذكر العروس :

« وهذا الأمير وصال . مشكور الخصال . قد عزم على الاتصال . بالبنت المصونة . والدرة المكنونة . ضبة بلت مفتاح . على ما أصدقها فى هذا النكاح . وهو مائة معجلة . وأربعة وأربعون مؤجلة » . . الخ .

ولعل هذه المعجلة والمؤجلة دنانير لا دراهم ... ويبدو أن المغالاة فى المهور تقليد من زمن فى هذه الديار .

وعند تمام العقد « تطلق أم رشيد البخور . وترش ماء الورد على الحضور » . وهذه بعض عاداتهم . ثم يقول الأمير وصال معلنا بفاقته وحاجته إلى المال ليقيم معالم الأفراح ويتم على نفسه هذه النعمة . . . ويأخذ فى الشكوى واستدرار الأكف واسترقاق القلوب . . . وهذه إحدى الوسائل لجمع المال . . . قال : —

« لابد من تدبير الحال . وتجهيز المال . على أنى الليلة أعوز من زنبور . وأفلس من طنبور . » ! ثم ينشد قصيدة فى المغنى : مطلعها :

أمسيت أفقر من يروح ويغتدى ... ما فى يدى من فاقتى إلا يدى

فيقول له طيف الخيال :

« يا أمير وصال . عهدتك ذا مال وجمال وخيل وبغال . » ! !

فيرد عليه الأمير وصال ويفيض فى الشكاية قائلا :

« مال المال . وحال الحال . وذهب الذهب . وسلب السلب . وفضت الفضة . وقعدت النهضة . وفرغت الكاس ، بطون الأكياس . وبعت العقار . برشف العقار . وأما فرسى فقد افترسته يد الأسقام . وأخلق جدته مرور الليالى والأيام . حتى بكيته بكاء عروة بن حزام . » الخ

ويظل فى بكائه على حصانه بين شعر ونثر . ومن أبياته قوله :

قد كل الله برذونى بمنقصة وشانه بعد ما أبلاه بالفرج

أسير مثل أسير وهو يعرج بى كأنه — ماشيا — يخط من درج

فإن رمانى على ما فيه من عرج فما عليه إذا ما مت من حرج

ثم يثنى على أحد أصدقائه وهو « المقر الصاحبى الفخرى » ، لأنه لما علم بمصيبته في فرسه أهدى إليه فرسا خيرا منه . ويمدح المقر الصاحبى المذكور بقصيدة يتنزه فيها بأريحيته ويشكره على هديته ، ويعود إلى رثاء حاله وحال حصانه . ثم يتذكر الصاحب وهديته فيقول :

« فلما وصلت إليه قصتى ورآها وقصها وقراها . حبانى بطرف يسابق الطرف . حسن الوصف . كامل الظرف . يكاد أن يفوت بطامح نظرة ، لولا يوقف لا حقيه على أثره . فأذهلنى بحسنه وإحسان مهديه . وأنشأت أقول فيه :

هل فى الكرام لنيل كل طلاب غير الوزير الصاحب الوهاب » الخ

والقصيدة تقع فى واحد وعشرين بيتا أكثرها فى وصف الحصان وتفضيله على مشاهير خيل العرب . ثم فيسأله « طيف الخيال » عن أثاثه ورياشه فيتنهد ويقول :

« لم يبق عندى ما يباع ويشترى إلا حصيرا قد تساوى بالثرى »

ويستمر فى إنشاد قصيدة فكاهية فى وصف حاله . ثم يخاطب « طيف الخيال » بقوله :

« يحفظ الله كل من حوى هذا المقام من هؤلاء السادة الكرام : إلا أننى لما أقدمت على زواجى . بعد هروزتى واحتياجى . إلا عربا من القحاب . ووثوقا بكرم الأصحاب . فاستمع شرح حالى واعجب لارتجالى :

قد تجاسرت إذ كتبت كتابى طمعا فى مكارم الأصحاب » الخ . .

ويستمر فى قصيدته الفكاهية الماجنة الشاكية التى فى نهايتها يستنجد بالحاضرين ليعينوه على زواجه ويقذوه من آثامه .

فيقول « طيف الخيال » للحاضرين : « فها أنا قد مددت إليكم يدي ، وعرفتم مقصدي » .

ويبدو أن الحاضرين قد تقدموا إليه بالمعونة المطلوبة ونحوه من العطايا مما يعينه على بلوغ أمله ، لأنه على أثر ذلك تبدو « أم رشيد » الخاطبة . فيعطيها جانبا من المال « لتشتري الشمع وتنفح الماشطة أجرها وتتم الجلاء وتعد المغاني » . — وهذه هي معالم الأفراح ووسائل الزفاف . كانت — ولا تزال — مرعية بيننا حتى اليوم .

يركب « الأمير وصال » ويذهب إلى مكان عروسه حيث يقوم المغنون ومن إليهم . . ثم يكشف عن وجهها الخمار . فيرتاع من منظرها ويخرمشها عليه وذلك إذ يراها : .

. « ولها مشافر كمشافر الجمل . وأجفان مكحولة بالعمش . وخدود مضرجة بالنمش . وأسنان كأسنان التمساح . ونكهة تفوح من المستراح . . . » إلى غير هذه الأوصاف .

حينئذ يبدو الغلام الحدث ابن بنت أم رشيد ويأخذ في السخرية والتندر على الأمير وصال . الذي تتساءل عنه العروس وعما أصيب به .

وتكون سخرية هذا الغلام مثيرة لغضب « وصال » واحتدامه فيهشم رأسه بدبوسه ويضرب الماشطة والعروس حتى يتفرق الجمع خائفين مذعورين .

يشكو الأمير وصال إلى أخيه « طيف الخيال » ما اقترفته « أم رشيد » ويطلب إليه إحضارها هي وزوجها الشيخ عفاق « ليضربهما جزاء ما قدما من السوء إليه » .

فيتوسط له « طيف الخيال » ويطلب إلى « وصال » أن يعفي الشيخ من العقاب قائلا :

« ارجع إلى الله من قريب، فإنه رجل غريب » فيأبى « وصال » ويغضب ويقسم أن يعاقبه .

يبدو الشيخ « عفاق » وقد خضب مشيبه وينشد قصيدة شاكية فى وصف الشيب والزمان مطلعها :

لى الله من شيخ جفانى أحبتى ... وقد نظرت من لحيتى قبح حليتى

أحمل شيبى صبغة بعد صبغة ... وصبغة رب العرش أحسن صبغة

فإذا أتم إنشادها — وكأنه فيها يتوجع ويتبرأ مما جنته امرأته محتالا بذلك على الفرار من العقاب — يقول له الأمير « وصال » : —

« لا بد من ضربك بالسياط . ومن إشهار عجوز السوء بمدينة الفسطاط . ليتعظ إبليس . وتتوب كل عجوز من النصب على الرجال والتدليس » . وكان إشهار المذنبين ضربا من العقوبة المتبعة فى ذلك العصر .

فيعود « طيف الخيال » إلى طلب الصفح عنه بحجة ضعفه ومرضه وشيخوخته، ويقول « ما هذا من أهل الملام . وما لجرح بميت إيلام » . ثم يأخذ « طيف الخيال » فى وصف هذا الشيخ الهرم وصفا فكاهيا مضحكا . منه قوله :

« لو لحظ شمس النهار مشرقة لأذنت بالأفول . أو لامس حب الفهم لأكسبه خاصية الفول . قد درس كتاب تأخير المعرفة وفصول الفضول . وتفقه فيهما حتى ساوى بين المجهول والمعلول . » الخ . .

ثم أنشد فيه قصيدة قيل إن الشاعر « صربعر » هو الذى نظمها وعدتها سبعة وثلاثون بيتا كلها مجون وغزل ومطلعها :

قل لوالى الفسوق والإدبار ... عضد البله عمدة الفجار . . . الخ

ثم ينادى « طيف الخيال » ويقول « يا شيخ عفاق! قد ظهرت عليك دلائل الكبر ، ورأيت ما فيه للعين معتبر » ، فيرد عليه الشيخ قائلا : « أجل! وقد قرب الأجل » .

ب جنيه وبينهما الحوار في مسائل باجنة ، ثم ينشد مقاطع قصيدة في رثاء وصفها ثم يذكر أن « أم رشيد » قد ماتت على يد الحكم « يقطينوس » بن الأمين بن السديد .

حينئذاك يطلب « الأمير وصال » حضور هذا الطبيب ليسأله عن « أم رشيد » . فيبدو يقطينوس قائلا متبرئا :

« من هذا الطارق في الليل الغاسق . ومن ذا الذي أزعجني في فراشي . في جنح الليل الفاشي . وأقامني من رقدتي وما انهضم الطعام في معدتي » . إلى آخر ما قال وسأل . .

فيخبره « الأمير وصال » أنه طلبه ليسأله عن العجوز « أم رشيد » فيعلمه الطبيب بمصرعها في أحد بيوت الفساد ، بعدما أوصته بكفالة هذا البيت ورعايته و « التأليف بين القلوب ، والجمع بين المحب والمحبوب » . . وبعدما أوصت زوار البيت وأهله وصباياه « بصدق المواعيد ، والسعي إلى الحرفاء ولو في ليلة العيد » . . الخ .

ثم أنشد هذا الطبيب — ويبدو أنه طبيب من نوع أم رشيد — قائلا يرثيها :

ساعدوني بالنوح والتعديد بعد فقد العجوز أم رشيد الخ . .

وقصيدته في نحو ثلاثين بيتا عامرا بأوصاف « أم رشيد » الجميلة وأياديها البيضاء على معارفها الكرام . . .

الخاتمة : عندما يسمع « طيف الخيال » هذه الأوصاف والمآثر يقول

« أستغفر الله العظيم من هذه الخصال . وأعوذ بعفو الغفار ذي الجلال : من تحمل الأوزار . والعمل بعمل أهل النار . فالإنابة أجمل . ونحن نقول بما لا نفعل » .

وينشد شعرا في هذا المعنى . .

فيقول له « الأمير وصال » :

. . « يا أخى « طيف الخيال » ! ما بقى إلا الارتحال . وقد عزمت على الحجاز .. وخرجت بالحقيقة عن المجاز ، وقصدت غسل هذه الآثام . بماء زمزم والمقام ، ونويت زيارة سيد الأنام . صلى الله على آله الكرام . اجعلنى نصب عينك . وهذا فراق بينى وبينك » . .

. يفترق الأخوان بذلك وتنتهى هذه الملهاة .

. هذا . وإذا جاز لنا أن نقيس الماضى بالحاضر وأن نعتمد على ما نعرفه عن غرائز الجماهير وميلها إلى الفكاهات فى أكثر مجتمعاتها . بل وإسفافها فى مجونها فى كثير من أحوالها ، يبدو لنا أن « مسرحية طيف الخيال » أو « خيال الظل » التى كتبها ابن دانيال صدى صادق ومرآة واضحة قليلة الزيف لعقلية الجمهور المصرى ونفسيته وبعض عاداته وتقاليده فى إحدى نواحيه فى ذلك العصر الماضى ، وفيها تصوير لضرب أو لضروب من مباذله ومجاناته .

على أن الذى يلفت النظر أن هذا الجمهور جامد على هذه العادات والتقاليد والمجانات ، بطىء التحول عنها وعن طريقة تناولها ، بدليل اطرادها من ذلك اليوم البعيد إلى يومنا .

ولنا أن نتساءل الآن عن ابن دانيال . — هل كان فيلسوفا ذا مذهب يدعو إليه ؟ وكان مذهبه هذا يدور حول اللهو والاستمتاع بالحياة كيفما كان طريق الاستمتاع بها ؟ . نقول : لعله كان كذلك هذا إلى أن كثيرا من مواقف تمثيلياته هو مرآة لحوادثه وصفاته .

ولم ينسج الأدباء من بعده على منواله ولم ينهجوا نهجه فى تآليفه الفريد وطريقته المسرحية التى نعتقد أنه بهما — على الرغم من إسفافه ومجونه فى عباراته — أدخل إلى الأدب العربى فنا جديدا هو فن المسرحية .

وهذه ظاهرة لا ندرى كيف نعللها . ولم نقتنع بأن مجونه وهزله وإسفافه قد منع الأدباء من الاقتداء به . وذلك لأن الأدب فى القديم والحديث لم يهزأ من المجانة والهزل والإسفاف . كما أنك تقرأ شعر معاصرى ابن دانيال ومن بعده من شعراء عصر المماليك فترى الهزل والمجون باديين فى هذا الشعر وعلى نمط قريب مما كتبه ابن دانيال . فهل جهلت مسرحيات ابن دانيال وأخفاها الزمان والنسيان عن أعين الأدباء ؟ . قد يكون ذلك[1] . على أن أمامنا كلمة لصلاح الدين الصفدى الذى توفى عام ٧٦٤ هـ أى بعد ابن دانيال بنحو نصف قرن ، يقول فيها عنه « وضع كتاب طيف الخيال فأبدع طريقه ، وأغرب فيه فكان المطرب والمرقص على الحقيقة » . وقال عنه ابن حجر العسقلانى فى كتابه « الدرر » : « سلك طريق ابن حجاج ومزجها بطريقة متأخرى المصريين ويأتى بأشياء مخترعة ، وصنف طيف الخيال » الشاهد له بالمهارة فى الفن » . — هذا وقد توفى ابن حجر عام ٨٥٢ هـ فهل كتب كل من هذين المؤرخين كلمته اعتمادا على السماع دون الاطلاع ؟ ويروى أن طيف الخيال عرف بعد

---

(١) علق الأستاذ عمر الدسوقى على هذا الموضوع بما ملخصه : أن المرادى ذكر فى سلك الدرر السيد أحمد البيرونى من رجال القرن السادس الهجرى قال :

أرى هذا الوجود خيال ظل　　　محركه هو الرب الغفور

فصندوق اليمين بطون حوا　　　وصندوق الشمال هو القبور

وهذا أقدم نص وصلنا على ما نعلم .

وذكر ابن حجة فى ثمرات الأوراق ، وعلاء الدين البهائى فى مطالع البدور « أن صلاح الدين الأيوبى ووزيره القاضى الفاضل كانا يشهدان خيال الظل » .

« وقد ازداد خيال الظل إسفافا بعد ابن دانيال واشتد ولع الناس به حتى صرفهم عن أعمالهم فاضطر بعض الملوك إلى منعه . وذكر السخاوى فى « التبر المسبوك » أن السلطان جقمق أمر سنة ٨٥٥ هـ بإبطال اللعب به وإحراق شخوصه وكتبت العهود على اللاعبين بعدم العودة إليه . وذكر ابن إياس فى بدائع الزهور أن السلطان محمدا أبا السعادات كان يطرف كثيرا لفكاهات خيال الظل لممثلها أبى الخير فى حفلات المولد النبوى عام ٩٠٤ هـ . وروى زين الدين عبد القادر الجزيرى فى « درر الفوائد المنظمة » أن السلطان شعبان لما حج سنة ٧٧٨ هـ حج معه عدة من أرباب الملاهى والخايلين ، فأنكر الناس عليه ذلك

خلال وكان بعض السلاطين يتفرجون به . ولكن لم يفسح أجيم على مثاله .

.. ولعل انصراف الكتاب في عصر المماليك إلى السعي نحو وظائف ديوان الإنشاء وأمثالها ، صرفهم إلى العناية بالكتابة الرسائل ونحوها عن الاقتداء بمثل صنيع ابن دانيال .

وبعد : فقد جمعت هذه الرواية فنونا شتى من فنون النثر مما بين رسالة ديوانية إلى خطبة زواج إلى وصية إلى وصف إلى هجو ومدح إلى شكوى واعتذار ، إلى غير ذلك من الفنون حوالي التمثيلية الثانية .. ..

التمثيلية الثانية :

الحق أن التمثيلية الأولى استأثرت بكثير من دعائم المسرحية . أما هذه التمثيلية الثانية — أو البابة الثانية على حد تعبير ابن دانيال — فهي « استعراض مسرحي » فحسب ، ينقصه كثير من هذه الدعائم . وإن كان دائرا في فلك من المجون والفكاهة أيضا . وهذه صبغة لم تزايل ابن دنيال في كل سطوره شعرا أو نثرا .

والاستعراض المذكور يدور حول بيان أحوال الغرباء المحتالين ، من الأدباء الآخذين بهذا الشأن ، المتكلمين بلغة الشيخ ساسان . ولعل ابن دانيال في كلمته هذه يخبرنا بأنه كان هناك عدد من الأدباء « من بني ساسان . » — لعلهم من العجم — يتجولون بين الأقطار والأمصار عارضين أدبهم وألعابهم ومحتالين بذلك على كسب العيش .[1]

. والاستعراض يتضمن خمسة وعشرين منظرا يتعاقب بعضها إثر البعض : ويتقدم في كل منظر منها رجل واحد يعرض على الحاضرين ألعابه وحيله وآدابه . ثم يستجديهم

---

(١) يبدو أن ابن دانيال متأثر هنا بالحريري في مقامته الساسانية ، بل وبمتأثر بجمعة أصحاب المقامات .

فى النهاية ويعرف ويبدو مهره

ولقد جمعت هذه المناظر فأوعت من ضروب المختالين صناعاتهم وألعابهم وألاعيبهم — كما يبدو لنا حين الحديث عنهم واحداً واحداً

وهذه المناظر، فضلا عما فيها من تسلية بالغة تلقى ضوءا على ما كان هنالك من ضروب الألعاب ووسائل اللهو وصناعات المختالين المتجولين . ومن بينهم : الحاوى الذى يلعب بالثعابين والحيات. والمشعوذ الذى يفتح الكتاب ويقرأ الغيب ومثله المنجم. وصاحب السباع . ومدرب الأفيال وعارض القطط والكلاب . ومرقص الوحوش، والقرّاد وغير ذلك .

ونحن — فى عصرنا الحديث — قد شهدنا ونشاهد كثيرا من هؤلاء المحترفين المختالين المتكسبين بهذه الألعاب ، الطوافين بين الجماهير . وبهذا نرى أن عصرنا وعاداته وألعابه ليس بغريب عن ذلك العصر البعيد فى عاداته وألعابه . ونرى أيضا أن هذه التمثيلية الثانية تعين الباحث المنقب ، إذا عنّ له أن يضع كتابا فى تاريخ الألعاب وأنواعها !.

والآن نعرض هذه المناظر فى إيجاز :

١ — الغريب المحتال(٠) :

يبدو فى المنظر الأول رجل غريب عن الديار ذو حنين إلى وطنه يبث الحاضرين أشواقه إليه ، ويتلهف على زمانه الغابر الذى كان ممتلئا بليالى الأنس والصفاء. ويذكر لهم أنه من بنى ساسان وأنه اضطر إلى الاحتيال على بنى الإنسان للارتزاق بمختلف الحيل والألاعيب نظرا إلى أن الزمان قد تحول عنه ولم يعد يواتيه بما يرضيه..

(٠) من أول هذه البابة إلى حرص الحاوى ساقط فى النسخ المطبوعة .

ويصبح للحاضرين — في خطبته — بمختلف حيله ، كادعاء الكيمياء وكتابة العزائم والظهور بمظهر المجنون . . . الخ . ومن كلامه يخاطبهم :

« عبدكم الغريب . المشوق الكئيب . الذي أذابه الحنين . وغادره البين حتى لا يبين . فتقاذفت به الأقطار . ودار مع الفلك الدوار . بعد أوطان وأوطار » .

وينشد شعراً ، منه :

أرث صرف الزمان حالى فما تدرى ترى ومالى
حتى كأنى له عدو يرشقنى منه بالنبال . . . الخ

والقصيدة في شكوى الزمان . ثم يقول :

« فأين تلك الأيام وطيبها . وحسن هاتيك الأوقات وأعاجيبها . فرحم الله شيخنا ساسان . فلقد كان إنسان عين كل إنسان . قدوة الأدباء . وأنس الغرباء . وجامع شمل كل محب بسكنه . وراد كل غريب إلى وطنه . » وينشد في المعنى :

عجبت وشأن الحب غير عجيب إذا مات بالأشواق كل غريب . . الخ

ثم يقول :

« وحيا الله السادة الحاضرين . عيون الأعيان ونواظر الانظار . اعلموا يا سادة الأعيان . أنى من بنى ساسان . الذين قعدت بهم زمانة الزمان . » . . إلى أن يقول :

« ولما لم يبق من لم يستمطر وابله . ولا من يرجى نائله . رأينا الحيلة عليهم ولا الحاجة إليهم . وتركنا العمل . وملنا إلى الراحة والكسل . وانفردنا بتدبير الحيل . وتفرقنا في تلك الفرق . ولم يصدنا رعب ولا فرق . » الخ .

ثم يصبح لهم عن ألوان حيله في سطور من نثر ، وأبيات من شعر ماجن خليع ، ثم ينصرف .

٣ — عجيب الدين الواعظ

يبدو من أمره «عجيب الدين الواعظ» وهو كما يدل عليه اسمه، واعظ يتقدم إلى الناس بالنصيحة ويذيعهم إلى ما أصلوب الغابرين، ويدعوهم إلى الاستقامة والاكتفاء بالأفراح والمزاح، عن شرب الراح. ثم يبسط نصيحته لبني ساسان المحتالين بأن يجدوا في طلب المال وجمعه وأن يقنعوا من الطعام بالقليل، ومن اللباس بالأسمال، إلى غير ذلك مما يعينهم في ادخار المال . . . ثم يستجدي الحاضرين . . .

وقد قدم ابن دانيال هذا الواعظ بقوله «يخرج عجيب الدين الواعظ ويقول :

«يا عنبر ! اطلب المقرئين والمنبر. فيحضر المنبر ويرقاه . ويستفتح بعد البسملة بما يقراه ويقول » الحمد لله الذي جعل المزاح، سلوة لهم فهو راح الأرواح. ومفتاح الأفراح أحمده على حسن الأخلاق. والتحبب إلى الخلطاء والرفاق. وصلواته على الناطق صدقا. الذي كان — ﷺ — يمزح ولا يقول إلى حقا» الخ . .

وأنت ترى روح هذه الخطبة متفقا مع الغرض العام من التمثيلية .

واسمع إلى هذا الواعظ عجيب يعظ فيقول :

«إخواني . . . ! استعيذوا من شرة اللسن . واعلموا أن أول ما يوضع في الميزان الخلق الحسن . والدنيا دار أسف . ووجود وتلف . وصحة وسقم . ولذة وألم .

لا تحملوا الهم همنا يظلم حكم القلم
فالهم فيه ثقل ومنه أصل السقم
وهل يطيق ناحل يحمل نصف الهرم

أين الذين بنوا الهرم . وأين عاد وإرم . مزقتهم أيدي النوى والبين . ومضوا إلى حيث لا أين . فرحم الله من داوى أحزانه . وبحسن الخلق زانه . وصرف أتراحه . بما أراحه . » الخ

ثم أخذ يوصى بنى ساسان بالحيلة والمسألة، والإلحاح فيهما فيقول :

« وأنتم معشر الغرباء ، وسائر بنى ساسان الأدباء ، أجملوا فى الطلب ، واستدركوا الحلب . واغتنموا الاجتماع فإن الفرقة واقعة ، وتزودوا بالأنس قبل وقوع الوالهة ، وروحوا الخواطر ، واستمطروا الديم المواطر ، وخلوا من المزاح ، بمقدار ما يعطى الطعام من الأملاح . وسيروا فى البلاد ، وانصبوا الشباك على العباد ، فالغريب مرحوم ، والمرء يسعى والرزق مقسوم

واعلموا — رحمكم الله تعالى — أن من الفلس يجمع الدينار ، والصدقة بالحبة هينة على ذوى الإيثار ، وكسرة التقنيف[1] بلت للرغيف ، والمرقع شعار الصالحين ، والتغريب من عادة السائحين ، فاركبوا غوارب الإلحاح . والبسوا دروع الوجوه الوقاح . وتعاموا مبصرين . وتطارشوا سامعين . وتعارجوا فالسبق لذى العرج . وتخارسوا فإن الخرس لسان الفرج » . . إلى آخر هذه الوصية النافعة . . .

ويختتم حديثه بقوله للحاضرين :

« من كفانى برد الشتاء بجبة . أسكنه الله جنته الرحبة . ومن طرحنى بطيلسان . حشر مع الحور الحسان . ومن حبانى بمرطه ، استكمل الزخرفة بشرطه » . . ثم ينصرف بعد أن يعطى . . .

٣ — جبر به مه الحاوى :

يخرج « حويش » وهو حاو يعرض أفاعيه . ويقدم للحاضرين ضربا من المعجون المركب من جملة أصناف من الأفاويه « العطارة » ، يزعم أنه ركبه منها ليشفى من لدغ الأفاعى .

ويفتتح حديثه بأبيات شعرية يحذر فيها منها ، ثم يقول ، مشيرا بيده إلى سلاله :

(١) التقنيف : هكذا بالأصل .

« إن فى هذه السلال سلال الآجال . وهلاك النساء والرجال . وهذا الناشر . بل الأسد الكاشر . الهجام الجحجام . بلية مصر والشام . وهو الصل . والموت المطل . وبل لمن رآه على التلاع . وفرش له عرفه كالشراع . ونهشه لغضبه على عصبه .

بل يا سادة ! ! هذه الحية البلية . والرقطاء الرملية . تضرب خف الجمل فيصوت الجمال . وتتوارى مدفنة فى الرمال . سمها وسيل الموت . ونابها نائب الفوت . إلا أن هذه الحية الكبيرة المحصلة . وهى والله من بنات الأصلة . طائرها واقع وسمها ناقع . وهذه الأخرى هى المهلكة . التى يقال لها الملكة » . . . إلى آخر هذه الأوصاف .

وما يزال حويش يعرض ألوان حياته على المشاهدين . ولكل منها صفاته ولدغاته . حتى يتلهفوا على معاجينه ليشتروها فهى شافية واقية . فيرفع حويش أمامهم حق الدرياق ويقول :

« هذا هو المخلص من النهوش والسوب والعضاض . الشافى بعون الله من الأمراض . وكبته من هذه الدواهى : من قرص الإشقيل . وقرص العنصل . وقرص الأفاعى . وأضفت إليه من الفلفل الأبيض والإيرسا ، وزر الورد والفارقون » . . . إلى آخر هذه الأصناف .

ثم يسأل الحاضرين مستجديا ثم يقول :

« اللهم لا تجعله ذخيرة للئيم . ولا تحلل عليه إلا عقدة كل كريم . هاكم . وهاتوا لماكم . نفعكم الله بهذه الإفادة . ومساكم بالنعمة والسعادة » . ثم ينصرف ويخرج بعده :

---

٤ — صيلة المعاجينى :

وهو صانع معاجين . يعرض جملة منها ، كل واحد يشفى من داء كحموضة المعدة ، وحصى الكلية ، واحتباس البول ، والبرقان والربو والسعال والارتخاء وألم الطحال . إلى غير ذلك .

يعرض عسيلة معاجينه هذه مبينا مزاياها ثم يقول :

« فاغتنموا — رحمكم الله — هذه المنافع بثمن تمرة . أو خيارة مرة . واقبلوها حتى يهنا . قبل أن تقولوا : كان هنا » . ثم ينصرف و يخرج بعده :

---

٥ — نباتة العشاب :

يقدم نباتة نفسه للحاضرين قائلا :

« قدم نباتة العشاب . السحار العطار . خليفة ديسقوريس وسبط ابن البيطار . العارف بالأصول والفروع ، والأوراق والأزهار . لأنى سافرت إلى الساحل . وسلكت فى اقتناء هذه الأعشاب مسالك الرى والماحل . حتى حصل لى فى هذه الأكياس والأجربة . ما شهد بصحته القياس والتجربة » . الخ ..

ونباتة — جامع أعشاب نافعة تصلح الجسد وتشفيه من أمراضه بل — على حد زعمه — تشفى من الأمراض النفسية . ويقول :

« هذه منها حبة . تقلب البغضاء محبة . وقيمة الذرة منها حزة . أين الذى جفاه معشوقه . أوغضب عليه مولاه أو صديقه . دلوا على من غضب عليه السلطان . أو تخبطه الشيطان . أرشدوا إلى من ضعفت قواه . من الوطء والباه » . . الخ

و يأخذ فى ترغيب الحاضرين فى شراء أعشابه قائلا :

« فالله من ملك الصحة . بأيسر منحة . وغلب عقله هواه . واقتنى لأدوائه دواه . وادخر الجليل بالقليل . وحسبنا الله ونعم الوكيل » . . ثم ينصرف و يبدو بعده :

---

٦ — مقدام الوحشى :

وهو طبيب يعرض أدواته وأعماله على الحاضرين ومن أدواته : المكاوى وصفافير

الاستسقاء لعملية البزال . والمقارض : والفتاحات ، والمحاقن . ومناشير العظام ، والمشالخ .

ولعل هذه وثيقة تاريخية تثبت ما كان لصناعة الطب من أهمية ، وما استعمل لها من أدوات .

وبعد أن يعرض الطبيب أدواته يقول داعيا إلى الانتفاع من علمه :

« يا قوم أما تعرفوني . وما أظنكم تجهلوني . أنا جراح القداح . أنا الذي يشد الإبداع . ويقبل الجراح » الخ ، . ثم ينصرف ويبدو بعده :

٧ — المسوه الموزونة :

وهو غلام يافع ذو جسد ممزوج صبوح . وهو « بهلوان » يأتي بجملة ألعاب بهلانية شاقة ، ويصعد على قطع خشبية مدورة ، ويقف بقدميه على حد السيف .

وله « معلم » يدير حركة لعبه ثم يقول للناس :

« لهذا الطفل قد أقدم على المخوف . ووقف على حد هذه السيوف . وأنا أقسم بغصن قده ، وجلنار خده . وزمان نهده ، لا أتركه إلا بدراهمين . ولو أقام على هذه السيوف يومين » !

فينادي الموزون مستغيثا : يا المروءة ! يا الفتوة ! الجماعة عليكم . لتنزلي إليكم » .

وينشد شعرا في المعنى . فينقده بعضهم دراهمه . وينصرفان . . ثم يبدو :

٨ — شمعون المشعوذ :

وهو رجل يقوم بألعاب خارقة يبهر بها الناظرين . وقد قدمه ابن دانيال بقوله :

« يخرج شمعون المشعوذ وصديقه . وطبله وأحقاقه وزرفيقة . ويعد الصفير ويحرك الجرذان الخشب والعصافير ويدق الطبل . ويدلي الحبل . ويعمل الحبة

مكان الحبة . ويزرع البستان . ويضرب بالمضرب والكنبان . ويجعل التراب حنطة . والأترجة بطة . ويثقب خد رفيقه . ويخرج الحبال من ريقه . ثم ينزل من فمه المصران ويبدو منه على وجه رفيقه أنواع الألوان . »

ويقوم شحمون بجملة من الألعاب ويتفوه بجملة عبارات وأبيات ثم يقول لرفيقه :

« يا معلم ! . أطعمني من نقل الكرام . وفواكه الشام » . ثم ينصرفان ويلزمع بعدهما :

---

٩ — هزل المنجم :

ومعه كتابه ، وتخت الرمل وكرسيه واصطرلابه . ويخطب خطبة يحمد فيها خالق الأفلاك والكواكب . ثم يخاطب الحاضرين منبئا بأخبار العام الجديد ويدعوهم إلى خزينة الذهب والفضة ويقرأ « الطالع » لبعضهم ثم ينصرف .[1]

---

١٠ — هواد الشراطي :

وهو مشعوذ أو منجم من نوع آخر . يعرض على الناس رقاه ، ويزعم أن الله سبحانه وتعالى أطلعه على خواص الحروف والأرقام ومنافع الكتاب العزيز ، ويزعم أيضا أن تمائمه ورقاه تشفي من الحسد والمرض وتبرىء من الرمد وتمنع النزف وتجلب المحبة وتحل العقد وتزوج الأرامل ، إلى غير ذلك . . .

وقد ضمن هذه الرقى كتاباً يبيع النسخة منه بدينار . ولكنه يرضى أن يبيعها للحاضرين بأقل من دينار ! ! وقد سماه « الحصن الحصين » .

---

(١) من أول ظهور «هدام الآسى» إلى نهاية ظهور «هزل المنجم» ساقط في النسخة المطبوعة.

وقد قدمه ابن دانيال بقوله :

« ينفض كالأجدل . ويضرب المرآة وينظر في المندل . ويشير إلى الكف النحاسي وإلى الصورة . ويحرك في المرآة البلورة »

ويقول عواد وهو يعرض كتابه :

« أول ما كتب الجبين . وعرف الجنين . هذا الاسم الأعظم . وخاتم سليمان عليه السلام وكف مريم . وأتبعته بالحصن الحصين . وحرز أبي دجانة لأمير المؤمنين . وهذا باب العين والنظرة . وباب الحمى والحرة . وهذا باب عقد لسان الأضداد . وهذا باب التعويذ في التوابع للأولاد . وهذا باب لإخراج المسجون . وإبراء المجنون » الخ .

وينشد شعرا في هذه المعاني

ومن لطيف حوادث « عواد » أنه يجرى تجربة من تجاربه أمام المشاهدين ، وخلاصتها ما يأتي :

يخرج إليه صبي ويخر صريعا بين يديه وقد أرغى وأزبد وامتلأت عيناه بالدموع . فيتجاهل « عواد » أمره ويتغاضى عنه . ولكن « الريس » ينبهه إليه قائلا :

« هذا وقت تمائمك . ورقاك وعزائمك » . فيقول : أجل . ويدنو من حرزه بيمينه ويضعه فوق جبينه . ويتلو تعزيمته عليه قائلا :

« أقسمت عليكم معاشر الجن والشياطين . والأبالسة المتمردين . من جنود الشيخ أبي مرة أتامين . إن كنتم من اليهود . الناقضين للعهود . فباهيا شراهيا . . . وإن كنتم من النصارى فبأراشين أو لوغوص كراهيا [٢] وإن كنتم مجوسا فبالنار والنور . والظل والحرور . وإن كنتم مسلمين فبحق الكتاب المبين . وبفضل طه ويس . أجيبوا عزائمي . واخضعوا لتمائمي . لا سماء تظلكم . ولا أرض تقلكم .

---

(١) اسمه في النسخة المطبوعة « عواد السرماط » ولعله تحريف عن الأصل .

(٢) يبدو أن هذه الكلمات سريانية أو عبرانية ، وهي أسماء مقدسة أقسم بها عليهم .

بالذى أمر للبرق لمع . والنجم سطع . أى هذا الجان . اللابس هذا الإنسان . اخرج من الأنملة وادخل هذه المكحلة » .

فيعطس الصبى ويفيق وينشد شعرا يشيد فيه بحسنه حتى عشقه الأنس والجن . . ثم ينصرفان ويبدو بعدها :

---

١١ — شبل السباع :

وهو مروض وحوش منها الأسد والفهد ، ويبدو ومعه أسده . فيخاطب الحاضرين بين شعر ونثر ، طالبا إليهم أن يمنحوه طعاما حتى لا يؤذيه . فيلبون طلبه وينصرف مسرعا ، ويبدو على أثره :

---

١٢ — مبارك الفيال :

يبدو ومعه فيله . ويلعبه ألعابا طريفة تسر الحاضرين . ويخاطبه بالهندية — على زعمه — وتارة بالعربية . ثم ينشد أبياتا فى وصفه . . ثم ينصرف ويبدو بعده :

١٣ — أبو العجب :

وهو صاحب جدى يداعبه ويلعبه ألعابا طريفة فوق كرسى وقطع خشبية ثم ينصرف وتبدو بعده :

---

١٤ — الصانعة :

ويبدو أنها ذات صناعة خاصة بالبنات ولم يفصح عنها المؤلف إفصاحا كافيا

وحينا تبدو على المسرح، تبدو وقد تأبطت لخلاة، وتجملت بحلى فى جيدها وأذنيها، ولبست أغزل ملبس من عصائب وأمراط وحبر من خز . فتحرك الساكن وتقلق الآمن . . . وتلق على الأجسام تجلية لطيفة توضح فيها عن بعض طرائفها وصفاتها المغرية ويبدو أنها كالخاطبة . ثم تنصرف .

---

١٥ — أبو القطط :

وهو رجل معه هر وفأر قد ألف بينهما، فيرى الحاضرين ألوانا من ألعابهما وحركاتهما على صوت النقر ووتره . ثم ينصرف .

---

١٦ — زعيم الكلبي :

وهو رجل معه عدة كلاب وجراء مدربة . يلعبها على نمط أبى القطط ويناديها بأسماء غريبة . ثم يستجدى الحاضرين قائلا :

« احتسوا الماء الكلاب . واعتبروا يا أولى الألباب . وأسعفونا ولو بالكسر والعظام . فضيف مثلكم لا يضام » . وينصرف . ويبدو بعده :

أبو عظم عشى :

وهو ملاعب دبة . يخرج ومعه دبه وعصاه . ويعرض ألعابه مستجديا قائلا :

« هكذا مشى السمان . وهكذا عاد الصبي الكسلان . من يصلى على النبي المنتخب . والرسول المنتخب . لا تول . إن لم تكن لى . فمن لى ؟ هايم بحياته . أطال الله أعماركم . وعمر دياركم . » . وينصرف ويبدو بعده :

---

١٨ - ناتو :

لاعب ذو شخصية طريفة ، وهو من أظرف شخصيات هذا الخيال ، وقريب الشبه بشخصية « طيف الخيال » في المسرحية الأولى وشخصيته ضاحكة مرحة راقصة مغنية ذات حركات مسلية . قال عنه ابن دانيال .

« فيخرج ناتو ودماده . وطرطوره وذوائبه . ويهز المزاريق . ويكر مقبلا ومدبرا في الطريق ويبلق عينيه . ويفتح بأصابعه شدقيه ويهملج كالبغل . ويرقص ويغنى على إيقاع طبل »

يرقص ناتو ويكثر من حركاته . ويغنى موشحة زجلية عامية لطيفة ، ومطلعها .

ناتو فناتو ناتو . . . ياناتو ناتو . .

غزلان السودان إنسان الإنسان لولا الصبيان خيره ما باتو

ناتو يا ناتو - ياناتو ناتو

ثم ينصرف بعد أن يستجدى الحاضرين ويبدو بعده :

---

١٩ — شرقم البلاع [١]

وهو لاعب يلعب بالسيف والرمح والسناز ، ويبدو أنه يبتلع الأسنة والرماح . يقوم بألعابه وينشد . . .

بلعى لأطراف العوالى والتبن أو خشن الرمال
أهنا وأحــــلى مأكلا تالله من مين الرجال

---

(١) من أول ظهور شرقم البلاع إلى آخر التمثيلية ساقط في النسخة المطبوعة .

٢٠ — ميمون القراد :

ويبدو بعد انصراف « شدقم » ، « ميمون القراد » ومعه نسانيسه وقردته .
والغريب أن اسم « ميمون » نسمعه فى أيامنا هذه يطلقه ملعبو القرود على أحد قرودهم ، وهو أشهر أسمائها .

يأخذ « ميمون » فى الوصف والإنشاد ويمدح قرده بعدة أبيات منها :ـ

قرد يكاد من التفهم ينطق وتراه من حسن الرشاقة يعشق

ثم : « رقصه بالمنجنيق والطرطور . ويدوره على الحبل يدور » ثم يأخذ فى إظهار ألعاب قرده وهو يغنى له زجلا لطيفا مطلعه :ـ

بالله عليك يا ميمون رقص السمينة كيف يكون . . . الخ

ثم يقول « يا سراة الناس . ارحموا من رزقه على يد هذا القرد وهذا النسناس » ثم ينصرف

٢١ — وثاب البحنبارى :

يبدو على أثر ميمون . وهو بهلوان آخر ينصب حباله وصواريه . ويمشى على الحبال بالقبقاب ، والناس شاخصة إليه مشفقة عليه . وهو ينشد أبياتا فى صناعته . ثم يقوم بحركة بهلوانية تفزع لها قلوب الناظرين ، وهى هبوطه كالشهاب من أعلى . فيظنه الناس هاويا إلى الأرض مدقوق العنق . غير أنه كان قد علق إبهام رجله فى أحد الأطناب . فتكون حركته مثارا للدهشة والعجب . ويقول للناس :ـ

« يا سادة . ما أقدمت على هذا الخطر . إلا لأفوز منكم ببعض الوطر . ولو مت مكانى . لما قصرتم فى تجهيزى بأكفانى . فرحم الله من رأى تورع طارق . ورشح ولو بقطرة فى حلق » .

يقول ابن دانيال : « فإذا فتح الجيب . وانهل السيب . قبل الأرض ، وقال

أديت الفرض ، و . ينصرف ويبدو بعده .

---

٢٢ — جرح المقبل :

وهو عمل يمثل دور المجنون الذى خرم أنفه وحز بالموسى كتفه ويلقى كلمات وينصرف ويبدو بعده . .

---

٢٣ — حمال المشاعل :

يلقى قصيدة فى صناعته . وهى لا هية طويلة تقع فى نحو مائة بيت مطلعها . .

لا ودخان المشعل   وجمره المشتعل
وعرفه الذى سرى   يزرى بعرف المندل
فى صعدة من أسل   ما مثلها فى الأسل
تزهى بنار رفعت   مثل اللواء المسبل
ليس لنا عاثر   فى عقلنا والعمل
نحن الكرام فى الورى   بمالنا لم نبخل
نيراننا مرفوعة   فى سهلنا والجبل . . . الخ

---

٢٤ — عساف الحاوى :

يبدو ومعه راحلته يحدو لها . وينشد شعرا مطلعه . .

يا ربنا بالبيت والمقام   بلغ سلامى للنبى التهامى . . . الخ

ثم يقول . .

. «يادليل الحائرين . وأمان الخائفين . يادليل من ليس له دليل . ياحامل المقل بالزاد للقايل . رزقنا وإياكم فى هذا العام . الحج إلى بيت الله الحرام . والزيارة

لقبر سيد الأنام . محمد عليه أفضل الصلاة والسلام . » ثم ينشد ستة أبيات فى مدح الرسول عليه السلام مطلعها . .

حيث اتجهت فلى إليك تطلع ولشمس حسنك فى ضميرى مطلع

ثم يقول مستجديا . .

« فمن مد يده إلى بمعروف . ولو بخيط صوف . أو بكف من شعير . فى علف هذا البعير . رزقه الله فى هذا العام . الحج إلى بيت الله الحرام . وزيارة قبر النبي عليه أفضل الصلاة والسلام » . ثم ينصرف .

---

٢٥ – غريب

يبدو غريب هذا فى خاتمة هذه المناظر الاستعراضية . ولعل « غريبا » هذا هو الذى افتتح هذه البابة . فينشد شعرا ويعتذر فيه إلى الحاضرين عن الرغبة فى إنهاء هذا المقال خشية الملال . ويستغفر الله له ولابن دانيال . ويقول . .

« ولولا أن الإطالة . داعية إلى الملالة . لأطنب عبدكم وقال . ولا استحق ولا استقال . فلذلك أختصر من الاعتذار . وأعتذر من الاختصار » . ثم ينشد شعرا معلنا فيه بالإنابة إلى الله والتوبة . وتنتهى بذلك هذه الملهاة .

التمثيلية الثالثة :

اهتممنا هنا بعرض التمثيليتين السابقتين عرضا مختصرا مع التعليق الذى عن لنا . وذلك لما رأيناه فيهما من طرافة وجدة وتسجيلات لم نجد لها شبيها بين المقامات أو القصص الأخرى ، ولما رأيناه فى كل منهما على حدة من تنوع الموضوع وطريقة العرض .

أما التمثيلية الثالثة فلم تعد أن تكون قصة على نمط المقامات . ونستطيع أن نجد لها مثيلا فيما سبق عرضه منها ، كمقامة الشاب الظريف ، وكمقامة الصفدى

« لوعة الشاكي » . لهذا رأينا أن نضرب الذكر صفحا عن عرضها، مع إيراد خلاصة عما تحتوي عليه اكتفاء بأن نقول فيها السطور التالية . -

هذه التمثيلية ماجنة مسفة وقعت حوادثها بين عاشق ومعشوقه وجملة من الغلمان . يدور بينهم حوار ساقط مكشوف يتخلله السكر والعربدة والصبوة والجفاء . وتترجح بين سطور منثورة وأبيات شعرية .

ومناظرها - وإن كانت متجددة وكثيرة - متحدة الموضوع . فكأنها لم تتكرر ولم تتجدد . وقصارى كل منظر منها أن يبدو شخص أو غلام يخاطب «العاشق» ويدور بينهما حوار وجيز عن العشق والحب والوله والشكوى وما إلى ذلك . ثم يختفي الغلام ويبدو غلام غيره وهكذا . .

والطريف في هذه التمثيلية أن آخر من خاطبوا العاشق هو « ملك الموت» الذي يبدو فيخاطب « المتيم الولهان » ويقول :

« أنا ملك الموت . الذي يقرب في الفوت . ويقصر الآمال والآجال . ويكثر المخاوف والأوجال . » . . . وكأنه بذلك يهدده ويتوعده ويفزعه حتى يرعوي عن غيه .

فيسأله المتيم عن التوبة وهل يستطاع قبولها . فيقول له : «باب التوبة مفتوح فدونك والتوبة مادام فيك روح» .

هنا يتجه العاشق إلى الله سبحانه وتعالى ويتوب عن معاصيه وآثامه ويقول :

« اللهم يا كثير الجود . وملك الوجود . والحوض المورود . ياذا الرحمة الواسعة . والمغفرة الشاملة الشاسعة . ظلمت نفسي . وظللت في ظلمات حسي» فاغفر لي إنك علام الغيوب . وغفار الذنوب » .

ويستمر في دعائه . ثم يتجه إلى القبلة فيقضي نحبه . .

وإلى هنا تنزل الستار على تمثيليات طيف الخيال . لنرى لونا آخر من ألوان الرواية .

شهاب الدين بن عربشاه [١] ٨٥٤ هـ
وكتابه « فاكهة الخلفاء »

شهاب الدين أحمد بن محمد بن عبد الله الدمشقي الحنفي المشهور بابن عربشاه هو المؤرخ الأديب الطبيب ويعرف بالعجمي أيضا . كان مولده في دمشق سنة ٥٧١ هـ . وقد هاجر مع أسرته من دمشق إلى بلاد الأتراك العثمانيين حينما طغى « تيمورلنك » التترى ببلاد الشام واستبد بها . ثم رحل معها كذلك من بعد إلى التركستان حيث استقرت في مدينة « سمرقند » واستوطنتها . وكانت « سمرقند » إذ ذاك عاصمة التتار .

لبث شهاب الدين بسمرقند زمنا . ثم أخذ يتجول في الأقطار مارا ببلاد ماوراء النهر وغيرها . ولقى في طريقه كثيرا من العلماء والفضلاء فتتلمذ لبعضهم ومنهم السيد الجرجاني وابن الجزرى .

وعاد أخيرا إلى بلاد العثمانيين ثانيا ، بعد أن استفاد من تجواله علما وأدبا وخبرة بأمور الناس وأحوال الأمم . كما تعلم اللغة الفارسية والتركية والمغولية فضلا عن العربية .

واشتغل بكتابة الإنشاء في دواوين العثمانيين ودبج الرسائل إلى الملوك على لسان السلطان « محمد الأول » وكان يخاطب كل ملك بلسانه . ثم اعتزل العمل بعد وفاة سلطانه المذكور . وعاد إلى حلب منقطعا إلى العلم والتأليف زمنا . وقد زار مصر بعد عام ٨٥٠ هـ أيام سلطانها الظاهر جقمق العلائي . واتصل برجال

---

(١) ترجمته في الضوء اللامع جـ ٢ رقم ٣٢٩ . وتاريخ آداب اللغة العربية لجورجي زيدان جـ ٣ ص ١٥٥ . ومصر الإسلامية لمحمد عبدالله عنان ص ١١٦ .

دولتها وعلمائها ، وتوفى بها عام ٨٥٤ هـ فى الخانقاه الصالحية ودفن بتربتها .

وقد كان ابن عربشاه محبا للعلم دءوبا على الدرس والبحث والتأمل مستفيدا من أسفاره واتصالاته وتجاربه . مولعا بالتاريخ ناظرا فى عظاته البالغة . كما كان محبا للفقه وعلوم البيان والطب والأدب . ينشىء الرسائل وينظم القريض .

وقد خلف جملة مؤلفات عظيمة القيمة لا نكاد نجد بين المؤلفات ما يقوم مقامها ويسد مسدها . وفى مقدمتها كتابه فى تاريخ تيمورلنك التترى — ونشير إليه بعد — وكتابه « فاكهة الخلفاء » وهو الذى نتحدث عنه هنا .

والشاعرية عند ابن عربشاه تكون جزءا هاما من شخصيته البارزة فهو شاعر سيال القريحة موانى القلم ندى اللسان . ساجل ومدح ووصف وهجا وألغز ، وأبدع وتلاعب بالألفاظ ، ونظم المعجم والمهمل . واستخدم قدرته الشعرية فى نظم العلوم والفنون ، وأخرج بعض مسائل النحو والبلاغة مخرج الغزل فى شعره ، إلى غير ذلك .

ومن شعره :

السيل يقلع ما يلقاه من شجر ... بين الجبال ومنه الأرض تنفطر

حتى يوافى عباب البحر تنظره ... قد اضمحل فلا يبقى له أثر

ومن حكمه :

وما الدهر إلا سلم فبقدر ما ... يكون صعود المرء فيه هبوطه

وجمع حروف الهجاء فى بيت من قصيدة مدح بها شهاب الدين بن حجر العسقلانى وهو

خض بحر لفظ حديثه تغش العلا ... واجزم بصدقك ناصفا إذ تسند

فاكهة الخلفاء ومفاكهة الظرفاء :

« هذا كتاب أدبي طريف لا نظير له في موضوعه في عصره على الأقل ، لأنه يجمع أمثال وحكم صورتها يد المؤلف وخياله تصويرا بارعا مشوقا في أسلوب قصصي حواري بديع على مثال كليلة ودمنة . وتتجلى فيه ضروب من الأخلاق الإنسانية، وألوان من السياسة الدنيوية ففيه الفكاهة ودعابتها . والحيلة وتخلصاتها، والمكر وانتصاره والعدل وجلاله والصدق وجماله ، وما إلى ذلك وهو مثل حي على نضج للقصة المنثورة نضجا ما في عصر المماليك . وصورة ملونة دالة على اطلاع المؤلف وسعة تجاربه وعظيم خبرته . وهو بلا ريب قد تأثر فيه بمن تقدمه من الأدباء في هذا الميدان من كتاب القصص على لسان الحيوان كابن المقفع، ومن كتاب المقامات كالهمذاني والحريري . وأسلوبه فيه ينطق بذلك كما سنبينه . وأغلب الظن أنه استفاد فيه من اطلاعه على الآداب الفارسية وغيرها . ولعل مما يعزز هذا الظن أنه ألف كتابه « مرزبان نامه » الذي قيل إنه نمط من فاكهة الخلفاء وإنه أصل له .

وقد توخى فيه المؤلف أن يفاكه به الناس على اختلاف درجاتهم وتباين مشاربهم، إذ يجدون فيه الحديث الحسن والمجاذبة إلى السماع الصادق والإرشاد إلى سبيل الخير ، بكلام مشوق مقبول .

ولعل مما يهون أمره ويحبب تناوله قصه على ألسنة العجماوات التي لا تفقه قولا ولا تبين حديثا ، والتي من طباع بعضها الشراسة والعرام والقسوة . فإذا نسب إليها قول الحكمة وأسند إليها عمل الخير واتصفت بصفات الفضل والعلم والعدل، كان ذلك كله مثار دهشة وعجب وإعجاب ، ووسيلة محببة إلى قراءة الكتاب والانتفاع بما يتضمنه من دروس هي إنتاج التجربة وعصارة العقل الحكيم والنفس الكيسة، وأقبل عليه الملوك والسوقة على حد سواء ، إذ يجد كل منهما فيه طلبته من عظة بالغة وتوجيه حكيم . ولا ريب أن لكل من الملوك والسوقة مستوى خاصا من

الفهم واتجاها خاصا فى معركة الحياة ومصاحبتها ويناسب كلا منهما - لذلك - ألوان من التوجيهات يجدانها فى هذا الكتاب .

وقد نسج المؤلف - كما قال - على منوال من سبقه من الأدباء أمثال صاحب كليلة ودمنة وسلوان المطاع والصادح والباغم وقد بين ذلك كله فى فاتحة كتابه حيث قال :

« وأرباب العدل والرؤساء . والسادة الكبراء . وأبناء النعمة والنعم . وذوو المكارم والكرم . إذا قرع سمعهم قول القائل . صار البغل قاضيا . والنمر طائعا لا عاصيا . والقرد رئيس الممالك . والثعلب وزيرا لذلك . والدب مؤرخا أديبا . والحمار منجما طبيبا . والكلب كريما . والجمل نديما والغراب دليلا . والعقاب خليلا . والحدأة صاحبة الأمانة . والفأرة كاتبة الخزانة . والحية راقية . والبومة ساقية . وضحك النمر متواضعا . وغدا الأسد لإرشاد الذئب سامعا . ورقص الغزال فى عرس القنفد . وغنى الجدى فطرب الجدجد . وتصادق القط والجرذان . وصار السرحان راعى الضان . وعانق الليث الجمل . والذئب الحمل . ورفع الباشق الحمامة على رقبته وحمل . ارتاحت لذلك نفوسهم . وزال عبوسهم وانشرحت خواطرهم . وسرت سرائرهم . وأصغت إليه أسماعهم . ومالت إليه طباعهم . وأدى ضيقهم . إلى أن طاب عيشهم » الخ . . .

وقد انقسم الكتاب عشرة أبواب يحتوى كل باب على قصة . وفى ثنايا كل قصة قصص أخرى يستطرد إليها . أما الأبواب العشرة فهى :

الأول - فى ذكر ملك العرب . الذى كان لوضع هذا الكتاب السبب

الثانى - فى وصايا ملك العجم . المتميز عن أقرانه بالفضل والحكم .

الثالث - فى حكم ملك الأتراك . مع ختنه الزاهد شيخ النساك .

الرابع - فى مباحث عالم الإنسان . مع العفريت جان الجان .

الخامس - فى نوادر ملك السباع . ونديمه ملك الثعالب وكبير الضباع .

السادس - فى نوادر التيس المشرقى . والثعلب الأفرقى .

السابع ـ فى ذكر القتال . بين أبى الأبطال الرئبال وأبى دغفل سلطان الأفيال .

الثامن ـ فى حكم الأسد الزاهد . وأمثال الجمل الشارد .

التاسع ـ فى ذكر ملك الطير العقاب . والحجلتين الناجيتين من العقاب .

العاشر ـ فى معاملة الأعداء والأصحاب . وسياسة الرعايا والأحباب . ونكت وأخبار وتواريخ أخيار وأشرار .

وقد اتبع المؤلف فى كتابته أسلوبا جمع بين طريقتى القص والمقامة معا . فقد سار فى قص حكاياته على نهج قريب من نهج ابن المقفع فى كتاب كليلة ودمنة . فإن ابن المقفع قد ساق الحكم على لسان « بيدبا الفيلسوف » وكذلك الأمثال والحكايات . و « بيدبا » يرويها ويسوقها إجابة لطلب « دبشليم الملك » . وقد التزم ابن المقفع تعبيرا تقليديا فى مفتتح كل قصة وهو قوله : « قال دبشليم الملك لبيدبا الفيلسوف : حدثنى عن كذا ، فينطلق بيدبا يقص رواياته على ألسنة الطيور والحيوانات ويضمنها ماشاء من مغاز وحيل وأمثال ونصائح ، ويبرز فيها ما يريد إبرازه من الخلق الإنسانى والسر النفسانى .

وهكذا فعل ابن عربشاه . فقد افترض ملكا عظيما يحدثه رجل من الحكماء بأحاديثه وأقاصيصه . غير أنه تصرف فى هذا التقليد بعض التصرف . فافترض أن هناك خمسة من الأخوة كانوا أبناء ملك واحد عظيم . فلما مات أبوهم تولى أحدهم مكانه فاعتلى عرشه وعاش الأربعة الباقون له طائعين . حتى عبثت بمودتهم ريح الخلاف والشقاق ، فتنافرت قلوبهم وكان من بينهم « حسيب » وهو أصغرهم سنا . ولكنه أوتى عقلا وحكمة وفطنة ومعرفة . ولهذا سموه « حسيبا الحكيم » . وقد هاله ما شجر بين إخوته من خلاف وما استمر بينهم من شر . فهمّ أن يعتزلهم جميعا . فأشار عليه أحد خلصائه أن يستأذن فى ذلك أخاه الملك ويدعى عنده أنه ينوى تصنيف كتاب . . . فلما تقدم « حسيب الحكيم » إلى أخيه يستأذنه فى الاعتزال ويبين له سببه . كان هناك أحد الوزراء يحقد عليه .

خيفه لدى الملك ووسوس إليه أن أخاه يريد به شرا ويدبر له أمرا . وسول له أن يجمعه به فى حشد حافل ليطلع على ما عنده من علم ومعرفة مزيفة ليفتضح بين الناس أمره ، ويكون فى ذلك نكاله ودماره .

فجمع الملك أعيان دوانه وعلماءها وفضلاءها . وقعد « الحكيم حسيب » بينهم يرسل حكمه وعظاته فى أسلوب قصصى شائق تتخلله مناظرات ومحاورات بينه وبين الوزير الحاقد . وكلما انتهى من قصة استطرد إلى سواها أو طلب إليه الملك أن يقص غيرها ، وهكذا حتى ينتهى الكتاب وأبوابه السالفة الذكر ، وقد انتهى « حسيب الحكيم » بين ضجيج الحاضرين بالإعجاب به والدهشة له . ويقول المؤلف فى خاتمة قصصه . —

« فلما انتهى الحكيم فى مقترحه وما قصده بين بيان محاسنه وملحه إلى هذا المحل . وفصل من فضله ما أجمل من جمل . نهض الوزير وقبل قدميه . واعترف له بالفضل المنعم به عليه . وأنه مالك أزمة الإنشاء . وملك الكلام يصرفه كيف شاء . وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء » .

أما تشابه أسلوبه بأسلوب المقامة وكتابها كالهمذانى والحريرى ، فلأنه افترض رجلا يحدث عن رجل . وبيان ذلك أن ابن عربشاه نفسه افترض أن هناك رجلا يحدثه هو ، عن « حسيب الحكيم » وسماه « أبا المحاسن حسانا » . فيقول مثلا فى مفتتح القصة . —

« قال الراوى حسان . معدن الظرافة والإحسان . فتوجه الحكيم حسيب . الأديب الأريب إلى إيراد الأخبار عن الرواة الأخبار . فحكى أن ملكا من الأمصار . وسلاطين العجم يدعى « شهريار » . . الخ . . .

وهكذا ترى أن أبا المحاسن حسانا يقص عن حسيب الحكيم ويروى أقواله وحكاياته ، كما كان الحارث بن همام يروى عن أبى زيد السروجى فى مقامات

الحريرى ، وعيسى بن هشام يروى عن أبى الفتح الإسكندرى فى مقامات بديع الزمان الهمذانى .

غير أن حسيبا لم يكن مستجديا بأدبه شأن أبى الفتح وأبى زيد . .

هذا إلى أن المؤلف نهج منهج أصحاب المقامات فى التزام السجع وألوان البديع، كالتضمين والاقتباس والجناس والاستطراد والتلميح إلى غير ذلك . وهذا الالتزام فى القصص مما يدعونا إلى اعتبار قصص ابن عربشاه ضربا من المقامات .

غير أنه من الحق علينا للمؤلف أن نذكر أنه فى مقاماته أو قصصه تلك . كان أكثر حكمة وأوفى بيانا وأجمل مثلا وأدق تعبيرا وأكثر تحليلا لخفيات النفوس وإبرازا لها وأبلغ استخراجا للعظة . ولم يقتصر على الأوصاف الحسية . ولم تكن البراعة الأدبية وحب الظهور بها أهم دوافعه إلى إخراج كتابه . وكان لفكره وتجاربه الشخصية أثر بعيد المدى فى إبراز هذه القصص وما فيها من وصف وعبرة. وقد قال —

فقلدت من دهرى فلذة . وحلت بموجب الكل جديد لذة . وسيرت فارس الأفكار فى ميدان هذا المضمار . وقصدت من الفائدة ما قصدوه . ومن العائدة فى الدارين ما رصدوه . وجمعت ما بلغنى من نقلة الأخبار ، وحملة الآثار ، ورواة الأسفار على لسان شيخ اللطائف ومنبع المعارف وإمام الطوائف ومجمع العوارف، ذى الفضل والإحسان أبى المحاسن حسان . ووضعت هذا الكتاب نزهة لبنى الآداب ، . الخ . . . .

ومن عيوب هذا الكتاب الفريد الانحراف أحيانا إلى المجونيات المكشوفة والتعبيرات الفاسقة السافرة الفاجرة . غير أننا لا نرى مناصا من أن نسجل أن هذا الكتاب لا تفى بحسن عرضه هذه العجالة العارضة فى نطاق بحثنا . وهو حرى ببحث مستقل ودراسة خاصة يبحث فيها عن أصله ومراجعه وتأثره بغيره ، وعن فلسفته واجتماعياته ، ومدى دلالته على مجتمعات عصر المؤلف وعقلياته المفكرة.

إلى غير ذلك . ولعلنا نستطيع العودة بالإشارة إلى شيء من ذلك في باب « خصائص النثر الفني » .

وإليك مقتطفات متنوعة من هذا الكتاب .

١ — قال في مطلع الباب الرابع، وهو في « مباحث عالم الإنسان . مع العفريت جان الجان » . —

« قال الشيخ أبو المحاسن . من ماء ينابيع علمه في مجاري بدن الفضل غير آسن : فلما أنهى الحكيم حسيب ذو الفضل النسيب . حكاية ما طرزه مما نسجه وحاك . وفصله خياط تقديره على قامة المجد من خلع حكم العرب والعجم والأتراك ، شكره أخوه القيل على هذا القيل . وأفاض عليه من تيل نواله ما جهل النيل . وأدرك من ذلك الأنموذج علو عمله، وحمو حمله . وجميل حكمه . وجليل حكمه . ثم قال . —

يا أستاذ ! . بلغني أن بغداذ . خرج منها خارج . من نار من مارج . وهبط إلى مدارك الخزي عن المعارج . وأصل ذلك المشئوم . عفريت خلق من نار السموم . وأن شخص ذلك الشيطان . جبل من سخم الدخان . فبهذا ركب وجه السواد . وركب سائر جسده من الرماد فهو جني ذميم ، وشيطان رجيم . وقد شرع ذلك الخناس في الإفساد والوسواس . وتعاطى إيذاء أكابر الناس . وأنه في هذه الأيام . نفي إلى بلاد الشام ، فلم يوافقه ذلك المقام ، لأنه مهاجر الأنبياء الكرام . وهذا مجبول على سجايا اللئام . وطباع أهل الفساد والإجرام ، فأقام فيها بالإضطرار والاضطرام . مدة أشهر وعدة أعوام . وأخذ في الإضلال والتضليل . فأضل خلقا كثيرا عن سواء السبيل » .

وظل يصف الجني وعبثه ثم قال :

« قال الحكيم :

نعم أيها الملك العظيم أنا جهينة الأخبار . ومزينة الإخبار . وحكم الحكم .

.ومن في البيان أعلى علم . أما هذا الشخص المذكور . فإنه بالفسق والفساد مشهور .
.ورق شره في البلاد منشور . وكتاب عناده بين العباد مسطور . وبيت حسده
لنعم الله تعالى على خلص أوليائه بالفجور معمور . وله صفات تعبسة . وأخلاق
خسيسة . تأنف مودة الشياطين منها . وتستنكف العفاريت عنها . وكم له من
دواهي . شرها غير متناهي . لا يفي بذكرها هذا الخطاب . ولا يسع سوادها
.هذا الكتاب » .

---

٢ — ومن حكاياته الاستطرادية في سياق الباب الرابع أيضا : قضية التاجر
.مع عبده الكذاب الفاجر » ، قال :

« فسأل شيخ الجن . عن بلية ذلك الفن ، فقال : وردفي الخبر . عن شخص
.معتبر ، قال : كان بمكان تاجر ذو مال . وزوجة ذات جمال . كل يهوى صاحبه
ويرعى جانبه . ويفديه بروحه . ويترشف رضا به في غبوقه وصبوحه . كأنهما زوج
حمام . وفي بذمام . فني بعض الأيام ، قال أحدهما لرفيقه . وهو يترشف من كأس
عقيقه . وشهد رضا به بخمرة ريقه : لو كان لنا عبيد . يتعاطى ملنا من حاجة
ويخلصنا من جيلة عمرو وزيد ؟ — فذهب التاجر إلى سوق الرقيق . فوجد مع
النخاس عبدا ذا قد رشيق . ينادى عليه . — أبيعه بكذا . على ما فيه من أذى .
فقال : وما عيبه ؟ قال كذبه ، لا على الدوام . وإنما هو مرة كل عام .
فقال : عيب هين . وشين لين . فاشتراه . وأتى به إلى داره وارتضاه . فاستمر في
خدمة حسنة . حتى أتى عليه سنة . ونسي سيده عيبه . وأمن ريبه . وجرب
بالأمانة وبالطهارة يده . فلما مضى عليه عام كان سيده في الحمام ، فأتى البيت في
بعض الحوائج . في صورة الجمل الهائج . شاهقا ناشرا . صائحا ثائرا . صارخا
واويلاه . واسيداه وامولاه ! فسئل . — مالك ؟ لا أحسن الله حالك . ولا
أنعش بالك . فقال : رمح البغل بسيدي فما تمالك أن تهالك . وسلم الروح
لخالقها وقال لوارثه تسلم مالك . . . فأقيم العزاء والسخام . وتركهم وأتى للحمام.

وهو يبكى وينوح . ويصرخ ويصيح . فسأله مولاه : مادهاه ؟ فقال . — وقع البيت على كل من آويت . ولم يبق فى الدار نافخ نار . فهلك الكبير والصغير . ونهب ما فيها من جليل وحقير ! فخرج وهو يستغيث من حديث ذلك الخبيث . فوجد أهل البيت سالمين . ورأوه من الناجين . فعزم على ضربه . فذكر له ما سلف من اشتراطه . ثم أنه استقام . ونسى هذا الكلام . ومضى عليه عام . فاستأنف ذلك الخبيث . أمره العبيث ، الخ . . . وأخـــذ يذكر كذبات هذا الخادم الرقيق . .

الفصل الثالث

كتب السير

حظى العصر بعشرات من المؤلفات الثمينة التى تصدت للكتابة عن أعلامه. وهى تنقسم إلى نوعين «١» كتب الأعلام «٢» كتب السير.

أما كتب الأعلام فنعنى بها تلك المؤلفات الجامعة التى لم تقتصر على علم واحد دون سواه. بل تناولت عشرات أو مئات من أفذاذ العصر وهى نوعان. -

ا - جامع واسع الأفق لم يقتصر فيه على لون واحد من الرجال. بل ترجم للملوك والسلاطين والأمراء والعلماء والقضاة والشعراء والكتاب وما إلى ذلك. وإن لم يخل كل مؤلف منه من خصوصية.

ومن كتبه: - الطالع السعيد الجامع لأسماء نجباء الصعيد لكمال الدين الأدفوى «٧٤٨ هـ». والدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة لابن حجر العسقلانى «٨٥٢ هـ» والضوء اللامع لأهل القرن التاسع لشمس الدين السخاوى «٩٠٢ هـ». ووفيات الأعيان لابن خلكان «٦٨١ هـ». وفوات الوفيات لابن شاكر الكتبي «٧٦٤ هـ». وغير ذلك كثير.

ب - ونوع عنى بطبقات الرجال الذين هم من لون واحد وذوو خصوصية واحدة. فقهاء أو نحويون أو نحو ذلك. ومن كتبه. - طبقات الحفاظ لشمس الدين الذهبي «٧٤٨ هـ». وطبقات الشافعية للأسنوى «٧٧٣ هـ». وطبقات الشافعية لتاج الدين السبكى «٧٧١ هـ» ونظم الجمان فى طبقات الحنفية لصارم الدين بن دقاق «٨٠٩ هـ». وطبقات المفسرين وتاريخ الخلفاء وكلاهما لجلال الدين السيوطى «٩١١ هـ». وغير ذلك كثير أيضا.

وأما كتب السير فنعني بها تلك المؤلفات التي يعنى كل منها بترجمة رجل واحد فحسب من رجال التاريخ، ملكا أو أميرا أو فقيها أو نحو ذلك من ألوان الرجال.

وقد زخر العصر بعدة من كتب السير لا بأس به. ولعل سبب ذلك يرجع إلى كثرة ممالك المسلمين ودولاتهم وتعدد الأسر الحاكمة وكثرة الرجال البارزين في كل مصر على حدة في ميدان السياسة أو العلم. وحرص بعض الطلاب على ترجمة شيوخهم الكبار ذوي الأثر البارز في ثقافتهم.

ومن هذه الكتب: - «عجائب المقدور في أخبار تيمور» لابن عربشاه «٨٥٤ هـ». والألطاف الخفية في تاريخ الأشرف خليل لمحيي الدين بن عبدالظاهر «٦٩٢ هـ». والدر الثمين في سيرة نور الدين زنكي لبدر الدين محمد بن الشهيد الدمشقي كتبه عام «٨٧٤ هـ». وترجمة السيد البدوي لابن حجر العسقلاني «٨٥٢ هـ». والجواهر والدرر في ترجمة ابن حجر ألفه تلميذه شمس الدين السخاوي «٩٠٢ هـ» وسيرة الملك المؤيد شيخ لشمس الدين محمد بن ناهض المقاعي «٨١٨ هـ» وغير ذلك كثير.

على أن هذه الألوان من المؤلفات هي إلى التاريخ أقرب وبه ألصق، وقد نوهنا بها في جملة ما نوهنا به عند حديثنا عن النثر الفني والعلمي ومبلغ الصلة بينهما.

غير أنه استوقفنا هنا في هذا الباب الخاص بالقصص أن بعض كتب السير من النوع الثاني، وهو الذي اقتصر فيه المؤلف على الحديث عن شخصية واحدة فحسب، ينزع نزعات فنية في عباراته وتصوراته. وهذه النزعة جديرة بأن تجعله أشبه بالقصص وجديرة بإلحاقه بهذا الباب، وجديرة بتسجيله فيه باعتبار نزعته إحدى ظواهر النثر الفني القصصي برزت فيه خاصة من بين كتب التاريخ.

ونحن لا ندعي أن جميع كتاب السير نزعت هذه النزعة أو اتجهت هذا الاتجاه، ولكن بعضها هو الذي تلون بهذا اللون الفني التصويري، وهو الذي أشرنا إليه هنا في هذا الباب.

ونتخذ مثلا لذلك كتاب «عجائب المقدور فى أخبار تيمور» لشهاب الدين ابن عربشاه المتوفى عام ٨٥٤ هـ.

عجائب المقدور فى أخبار تيمور

لشهاب الدين بن عربشاه (١)

قيل إن هذا الكتاب نقل إلى اللاتينية، وقد طبع أكثر من مرة وفى بلاد مختلفة منها: مصر والهند وليدن (٢).

وموضوع الكتاب ـ كما يبدو من عنوانه ـ وصف حياة طاغيـــة التتار تيمور لنك ـ الذى اجتاح البلاد من أواسط آسيا إلى غربها فى النصف الثانى من القرن الثامن الهجرى.

وبعضهم يسمى هذا الكتاب «عجائب المقدور فى نوائب تيمور» وربما تشعر كلمة «نوائب» بأن الكتاب لم يتعرض إلا لنواحى النقص فى تيمور وأنه لم يصف منه إلا شره وفتكه بالناس والدول وسفكه للدماء وما يتصل بذلك من معايب وآثام. ولكن الحق أن الكتاب كما تعرض لمساوىء تيمور كما تعرض لمحاسنه، وتحدث عن أخباره خيرها وشرها، وعن أفعاله نافعها وضارها.

ويكاد هذا الكتاب يكون سجلا يوميا لحوادث هذا الطاغية المغولى، ويعد من أصدق الكتب التى أرخت له. وذلك لملابسة مؤلفه للبيئات التى عاش فيها تيمور، وحسن اتصاله بها، ولأنه سمع من أصدقاء تيمور وتابعيه، كما سمع من أعدائه وكارهيه. والأولون ببلاد التركستان ومدينة سمرقند والآخرون بالأناضول وبلاد العثمانيين. وقد كان ابن عربشاه كثير الطواف فى البلاد مفيدا مما يتصل

---

(١) عرفنا به عند كلامنا عن فاكهة الخلفاء.

(٢) راجع تاريخ آداب اللغة العربية لجورجى زيدان ـ ج ٣ ص ... ـ فهرس دار الكتب المصرية ج ٥ والنسخة التى تصفحتها طبع المطبعة العثمانية بباب الشعرية بالقاهرة عام ١٣٠٥ هـ

إليه بما فيها من أخبار «أتيحت له ظروف طيبة هيئت له إخراج كتابه معبرا» تعبيرا أقرب إلى الصدق، عن حياة «تيمور» وحوادثه.

وقد نحا المؤلف فى كتابه الأسلوب البديعى الأدبى. والتزم فيه السجع التزاما لم يحد عنه قط. وتترجح فقراته بين القصر والطول. وقد أوقعته التزاماته هذه، فى أحيان كثيرة، فى حرج التكلف والعقادة؛ والتاث فى بعض سطوره بالعامية، وهو يستطرد كثيرا فى الاستشهاد بالأبيات الشعرية والعبارات المأثورة. ولم يمنعه ما هو بصدده من حقائق العلم والتاريخ، ورعاية وصف وقائعه وحوادثه وصفا لا يخرجها عن طبيعتها وواقعها، عن أن يتبع هذا الأسلوب. وتمشى ذلك فى معظم الكتاب وفى خطبته وعنوانه وعناوين فصوله. فهو من هذه الناحية تحفة أدبية رائعة ومظهر أخاذ لتأثر الكتابة العلمية بأساليب الأدباء المعاصرين.

ومن سجعه فى عناوين فصوله قوله «ذكر نسبه. وتدريج استيلائه على الممالك وسببه»، وقوله: «ذكر عبور جيحون على فترة وما جرى من العبرات بهذه العبرة». إلى غير ذلك.

وليس ابن عربشاه أول مؤرخ اتبع هذه الطريقة الكتابية، بل سبقه غيره. ومنهم عماد الدين الأصفهانى المتوفى عام ٥٩٧ هـ فى كتابه «الفتح القدسى» الذى وصف فيه فتح صلاح الدين الأيوبى لبيت المقدس. وهو مسجوع كله وأكثر تكلفا وغموضا من «عجائب المقدور».

ولم يخلص ابن عربشاه من قيود هذا الأسلوب. ونحن نظن أنه كان يكون أضبط تاريخا وأروع تفصيلا وأجمل حديثا وأصدق وصفا وأوضح معنى وأقل شغلا للقارىء عن تتبع حوادثه، إذا هو استرسل ولم يتقيد بهذا التقييد

على أنه لم يخرج فى حكمه إلى الجور والتزم في السير على الجادة وعدم

فالإخلال بالحق والحيد عنه إلا إذا خلا له الجو من ذكر وقائع تاريخية معينة . وإذا استطرد إلى وصف تيمور وصفا حرا — أى حرا من تحرى الحوادث الواقعة — هنا يسبح به الخيال وتمتلكه النزعة الأدبية الخصبية . فهو آنا يكيل له الذم ، وذلك حين تغلب عليه النعرة الإسلامية ويهوله ما صنع تيمور بالمسلمين وما اجترحت يداه الآثمتان من فتك وسفك دماء وبهذا ونحـوه يخرج الحديث عن نطاق التاريخ الصميم إلى آفاق القص .

انظر إليه يقول فى خطبة الكتاب واصفا « تيمورا » . :

« رأس الفساق الأعرج الدجال الذى أقام الفتنة شرقا وغربا على ساق . أقبلت الدنيا للدنية عليه ، فتولى وسعى فى الأرض فأفسد فيها وأهلك الحرث والنسل . وتيمم حين عمته النجاسة الحكمية ، صعيد الأرض فغسل بسيف الطغيان كل أغر محجل . فتحققت نجاسته بهذا الغسل » الخ . . وقال . —

« أردت أن أذكر منها ما رأيته ، وأقص فى ذلك ما رويته . إذ كانت إحدى الكبر وأم العبر . والداهيـة التى لا يرضى القضاء فى وصفها بذا والقدر . والله أسأل إلهام الصدق ، وسلوك طريق الحق . إنه ولى الإجابة . ومسدد سهم المرام إلى غرض الإصابة . وهو حسبى ونعم الوكيل .

وقد بدأ ابن عربشاه بذكر نسب « تيمور » ، وضبط اسمه ثم تحدث عن استيلائه على الممالك وسببه ، ثم أخذ فى وصف الوقائع التى جرت من «تيمور» والتى حدثت له وذكر من قابله من الناس ووصف كره وفره وزحفه وتوقفه وحروبه مع العثمانيين ثم دماره فى النهاية .

وضبط اسم تيمور بكسر التاء . وذكر أن العرب نطقت به أحيانا بما يخالف هذا الضبط ، ومنهم من قال « تيمورلنك » ومعناه بالتركية « الحديد » .

وتكلم عن نسبه وأنه ابن ترغاى بن أبغاى ، وأنه ينتسب إلى « جنكيزخان »

بصلة نسوية . وأنه ولد فى قرية تسمى « خواجه ايلغار » . من أعمال « الكش » التى هى إحدى مدن ما وراء النهر وتبعد مسافة عن سمرقند .

وعما هو أدخل فى باب القصص بل الأساطير مارواه من الحوادث حول مولده وعرجه وطريقة وصوله إلى الملك . وهذه الحوادث إن لم تكن من نسج الخيال والأوهام الشعرية والابتداع القصصى فهى بذلك أشبه وإليه أدنى .

وإليك نماذج متعددة من مواضع مختلفة يتبين لك منها منهاجه الأسلوبى ونزعته القصصية :

١ - عما قيل ليلة ميلاد تيمور :

« قيل رؤى ليلة ولد ، كأن شيئا شبيه الخوذة تراءى طائرا فى عنان الجو . ثم سقط إلى الفضاء الدو . ثم انبث على الأرض وانتشر . وتطاير منه مثل الجمر والشرر . وتراكم حتى ملأ البدو والحضر . وقيل لما سقط إلى الأرض ذلك السقيط . كان كماه مملوءتين من الدم العبيط . فسألوا عن أحواله الزواجر والقافة . وتفحص عن تأويل ذلك الكهنة وأهل القيافة . فقال بعضهم : يكون شرطيا . وقال بعض : ينشأ لصا حراميا . وقال قوم : بل لصا سفاكا . وقال آخرون بل يصير جلادا سباكا . وتظافرت هذه الأقوال . إلى أن آل أمره إلى ما آل » .

---

٢ - آمال تيمور قبل أن يصير ملكا :

« وكان مع ضيق يده . وقلة عدده وعدده . وضعف بدنه وحاله وعدم ماله ورجاله . يذكر لهم أنه طالب الملك ومورد ملوك الدنيا موارد الهلك . وهم فى ذلك يتناقلون عنه هذا النقل . وينسبونه إلى كثرة الحماقة وقلة العقل . ويدنونه منهم ويقبلون إليه ليسخروا منه ويضحكوا عليه . إن المقادير إذا ساعدت

ألحقت العاجز بالحازم . فشرع فيما يقصده . والقضاء يرشده . والقدر ينشده .

لا يوئسنك من مجد تباعده ... فإن للمجد تدريجا وترتيبا
إن القناة التي شاهدت رفعتها ... تنمو فتنبت أنبوبا فأنبوبا

---

٣ — وصف أهل مصر حينما سمعوا عن آثام تيمور في بلاد الشام :

« فأما مصر فما دونها من البلاد فإنها تخبطت . وانحلت قواها وأيديها تربطت . وعدمت القرار واستعدت للفرار . فلو رأيت الناس وهم حيارى . سكارى وما هم بسكارى . أبدانهم راجفة . وقلوبهم واجفة . وأصواتهم خافتة . وأبصارهم باهتة . وشفاههم يابسة . وصورهم بائسة . ووجوههم باسرة . تظن أن يفعل بها فاقرة . وقد استوفز كل من أهل الأمصار . وسكان الأنجاد والأغوار . وقد أصاخ لما يرد عليه من جلي الأخبار : فبنى على ذلك ما يكون من متعلقات الحركة والسكون . فأخذ تيمور على طريقته العوجا . ورجع على سبل بغيه التي اتخذها شرعة ومنهاجا . وقد سدت عساكره الآفاق والأكناف . وعمت هيبته الأرجاء والأطراف . » .

٤ — من وصف حفل تيمور الذي أقامه في عرس حفيده . وهي قطعة أدبية طريفة :

« ولما استتب الأمر على مراد تسويل قرينه . وأخذت الأرض زخرفها وازينت من جنده وأهل مدينته . توجه إلى ذلك المرج على وقاره وسكينته . وخرج على قومه في زينته . ثم أمر أن يجرى يواقيت الصهباء على زبرجد ذلك الأحوى وسيلها لكل ناظر وعام . فسبح في تيارها كل خاص وعام . فدارت في سماء تلك الأرض للسرور أفلاك . وهبطت في أفقها بوحي اللذات من أفلاك الملاحة أملاك . وأصبحت تلك الأسود الخوادر وهي ظباء جوادر . وتنزلوا من جحيم المنازلة إلى نعيم المغازلة ، وتبدلت تلك الغلاظة والكثافة

باللطافة والظرافة . وأصبحوا بعدجوارهم يتجاورون . وبمعنى ماقلته يتحاورون .

محا الظلم من بين الورى اسم عدلنا فلم يتشبث مستغيث بمعتد
سوى قلب صب صاده طارف أحور وخصر نحيل آده ردف أغيد

فما صار يصول سيف إلا أن كان صارم لحظ وهو مع ذلك مكسور . ولا يجول ذابل إلا أن كان رمح قد وهو مع ذلك بالعناق مهصور . وصرت لاترى إلا عودا يحرك أو يحرق . أو قدحا يروب أو يروق . أو شاديا يغرد أو شاربا يعربد . أو جارية تسق أو ساقية تجرى . أو خد ورد ينشق . أو ورد خد يعشق . أو كأس ثغر يرشف . أو غصن خصر للعناق يتقصف . أو فرص عيش تغتنم . أو لسان حال ينشد ويترنم : —

فى ربيع الوصل لما أن وفى ظبي الشرود
وسرت بشرى الصبا لا روض تنبئ بالورود
خرت الأنهار والأغ صان مالت للسجود ، الخ

والقصيدة خمسة وعشرون بيتا .

وفى هذا القدر كفاية .

خاتمة

وقبل أن نترك هذا الباب نشير إلى كتابين : —

أولهما : —

« سيرة الظاهر بيبرس » وهى سيرة للملك المذكور تقع فى خمسين جزءا صغيرة . وهى متداولة معروفة بين عشاق القصص وقارئيها . ولكننا لم نستطع معرفة كتابها حتى نضيفهم إلى عصرهم . سوى أنه فى المقدمة ذكرت أسماء « الدويدارى »

و « الديناري » و « ناظر الجيش » باعتبارهم من مؤلفي هذه السيرة . ولكننا لم نعرف من هم ولا من أي عصر كانوا . هذا إلى أن عبارات السيرة لاجة في العامية غارقة فيها من أخمصها إلى ناصيتها . ولهذا وذاك ضربنا الذكر صفحاعنها .

ثانيهما :

« بدائع الزهور في وقائع الدهور » وهو كتاب مطبوع متداول أيضا يقع في نحو ١٨٥ صفحة وهو غير « بدائع الزهور » المشهور بتاريخ مصر لمؤلفه ابن إياس الحنفي .

وبدائع الزهور الأول منسوب أيضا إلى ابن إياس المذكور ، وهذا ما نستبعده كل الاستبعاد ، إذ أنه ليس من المعقول أن يؤلف الرجل كتابين متباينين في موضوعهما ومنهجهما وفي الغاية منهما ثم يسمى كلا منهما باسم الثاني .

وقد قيل إن البدائع المذكورة من تأليف جلال الدين السيوطي . ونحن نرجح هذه الشائعة لتشابه أسلوبه بأسلوب السيوطي . إذ أنه اعتمد فيه على النقل والرواية ، دأبه في كثير من مؤلفاته .

والبدائع المذكور في موضوعات قصصية مختلفة منها ما يتصل بخلق آدم وقصص بني إسرائيل وبناء بيت المقدس ، وقصص الأنبياء وذكر قصة قارون وذي القرنين وما شابه ذلك .

والكتاب من هذه الناحية قصصي فيه خيال كثير وسطور أشبه بالأساطير . ولا يعتمد عليه من الناحية التاريخية وأسلوبه غالبا مسرود لا كلفة فيه ولا تأنق وحسبنا منه التنويه في هذا المقام .

والله أعلم

تم بحمد الله طبع

المجلد الخامس

من كتاب عصر سلاطين المماليك

وهو القسم الأول من الجزء الثالث

فى رجب سنة ١٣٧٥ هـ — فبراير سنة ١٩٥٦ م

ويليه

المجلد السادس

وهو القسم الثانى من الجزء الثالث

وأوله : البـــاب الرابع فى الخطب وما يتصل بها

فهرس الأعلام

المجلد الخامس من كتاب عصر سلاطين المماليك

ب

ع

فهرس الموضوعات

للمجلد الخامس من عصر سلاطين المماليك

عصر سلاطين المماليك

ونتاجه العلمي والأدبي

تأليف

محمود رزق سليم

وكيل كلية الدراسات العربية

المجلد السادس

في

النثر الفني

وهو القسم الثاني من الجزء الثالث

١٣٨١ هـ — ١٩٦٢ م

الجمهورية العربية المتحدة
وزارة الثقافة والإرشاد القومي
الإدارة العامة للثقافة

الناشر
مكتبة الآداب بالجماميز بالقاهرة

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيد المرسلين ، نبينا محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم .

وبعد فقد أذن الله سبحانه وتعالى أن يتقدم « المجلد السادس » من موسوعتنا « عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمى والأدبى » إلى الطبع فالنشر ، بعد لأى من الزمن ، وتعويق من الأيام . ولكن لكل شىء أوانا . فنحمد الله سبحانه على أن سهل الصعب ، ويسر العسر ، وراض الجموح ، وأتاح الفرصة .

ويتألف من هذا المجلد والمجلد الذى سبقه ، جزء من الموسوعة هو الجزء الثالث .

وموضوع هذا الجزء « النثر الفنى » . وتتكون منه الرسالة التى تقدمت بها لنيل الماجستير من كلية دار العلوم . وقد نوهت بذلك فى مقدمة المجلد الخامس .

ويحتوى المجلد السادس على ثلاثة أبواب من أبواب الرسالة ، وهى :

الباب الرابع : وموضوعه الحديث عن الخطب وأنواعها وما يتصل بها من مذهبيات ووصايا وعظات وحكم ، وما أثر فى ذلك من كتب ونصوص ، ومن عرف من الرجال بهذه الفنون .

الباب الخامس : وموضوعه الحديث عن النقد والنقاد . وهو دراسة مستفيضة لأحوال النقد الأدبى ومظاهره وتطوراته ورجاله واتجاهاتهم وأساليبهم .

الباب السادس : وموضوعه بيان الخصائص الفنية والسمات المميزة للنثر فى العصر المملوكى . وهو استنباط مركز معلل مما درس فى الأبواب السابقة .

وقد اعتمدنا فى كل خطواتنا – كما هى العادة – على مساءلة النصوص، وعلى الموازنة والترجيح ، وعلى التعليل والاستدلال .

وسيرى القارىء أننا فى مجلدينا الخامس والسادس ،قد درسنا عدة جوانب هامة من جوانب العصر ، كالجانب الفكرى والاجتماعى ، كما درسنا الحركة الأدبية فى نطاق واسع . وأننا أبرزنا ألواناً عدة من حيوية الشعب ورجاله فى الحقبة التى نؤرخ أدبها .

ونحن بذلك نشارك مشاركة متواضعة فى كتابة تاريخ بلادنا العزيزة ، والكشف عن شخصية شعبها الكريم ، آملين بذلك أن نفتح باباً يمر به باحثون جدد يرتادون الطريق وينشرون الأضواء .

والله أسأل أن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم ، وأن يحفظ على البلاد جمهوريتها الفتية ورئيسها البطل العظيم جمال عبد الناصر .

وإنى لأسدى الشكر جزلا والحمد طيباً لرجال وزارة الثقافة والإرشاد القومى الذين هيئوا لهذا المجلد فرصة الطبع والنشر . والله الموفق للسداد ؟

المؤلف　　　　　　　　يناير سنة ١٩٦٢ م

الباب الرابع

باب المناظرات والخطب وما يتصل بذلك

تمهيد

كانت النزعات الدينية ذات شأن كبير فى حياة الطبقات فى عصر المماليك . وقد أذكتها جملة من العوامل ، فتولد عن ذلك نشاط محمود فى الحياة الفكرية ، كان له صدى عظيم فى الإنتاج الأدبى . وقام النثر الفنى بأداء هذا الإنتاج أداء بارزاً ، فشارك بذلك فى الحياة بنصيب وافر ملحوظ . وأدى رسالة من أجل الرسالات .

وهذا الباب الذى نقدمه هو فى الواقع دراسة وتصوير للعوامل المذكورة وما ترتب عليها من النتائج ، وما قام به النثر الفنى من عمل . فالباب بذلك يؤرخ لجانب من جوانب الحياة الفكرية والروحية المذكورة . ولو على مدى ضيق ، هو المقدار الذى يستلزمه بحث كبحثنا ، ليس مقصوراً على إبراز هذه الناحية وحدها .

وقد قسمت هذا الباب ثلاثة فصول :

١ — الفصل الأول :

تكلمت فيه عن المناظرات والمقالات المذهبية . فنوهت بالعوامل التى أدت إلى ظهورها . ورسمت فى إيجاز صورة للخلاف الناشب بين العلماء خاصا بالعقائد ، مدللا على ذلك ببعض الوقائع والظواهر ، عارضا بعض المقالات والمؤلفات فى ذلك عرضا مناسبا .

٢ — الفصل الثانى :

تحدثت فيه عن الخطب المنبرية وأسباب نشاطها ، وعن اختفاء الخطب السياسية وأسباب ذلك ، مشيراً إلى بعض ألوان الخطب الأخرى .

٣ — الفصل الثالث :

تناولت فيه بالحديث ، النصائح والمواعظ والوصايا والحكم ، مشيراً إلى بعض العوامل التي ساعدت على وجودها ونشاطها ، مع عرض مناسب لشيء منها .

تفصيل موضوعات هذه الفصول

الفصل الأول :

النزعة الدينية وأثرها فى بروز المناظرات والمقالات المذهبية . الصوفية . فقهاء المذاهب . أحرار العلماء . المذاهب الأخرى . النزاع بين ابن عبد السلام ومبتدعى الحنابلة . محاكمات ابن تيمية . المؤيدون له والمعارضون . فتنة ابن الفارض . بعض مشهورى المناظرين والمتكلمين فى العقائد : عز الدين بن عبد السلام . مقالته فى الرد على الحشوية ومبتدعة الحنابلة . كتابه « مسائل الطريقة فى علم الحقيقة » . كتابه « حل الرموز ومفاتيح الكنوز » تقى الدين بن تيمية وكتاب «الإيمان» والعقيدة الواسطية ، والعقيدة الحموية الكبرى — شمس الدين ابن القيم وكتابه « مدارج السالكين » وشفاء العليل . مناظرة بين جبرى وسنى . مناظرة بين قدرى وسنى . شهاب الدين بن جبريل الكلابى . مقالته فى الرد على ابن تيمية . رجال آخرون اشتهروا بالمناظرات والمقالات المذهبية . ملاحظات ست : الأولى فى أسلوب المناظرات . الثانية فى دلالتها على النشاط الفكرى . الثالثة فى قيمة هذا النشاط . الرابعة فى امتزاج المناظرات بعلوم أخرى . وامتزاج التفسير بها . الخامسة فى ألوان أخرى من المناظرات . السادسة فى التعريف بكتاب « مجالس السلطان الغورى » .

الفصل الثانى :

معنى الخطبة . الخطبة المنبرية وأسباب انتشارها . الخطبة السياسية وأسباب اختفائها . أنواع أخرى من الخطب . خطبة للخليفة العباسى الحاكم بأمر الله

الأول . خطبة للخليفة الحاكم بأمر الله الثانى . نماذج أخرى من الخطب . ملاحظات : الأولى فى عدد الخطباء وبعض منهم . الثانية فى قلة المأثور من الخطب وسبب ذلك . الثالثة فى ديوان زكريا الأنصارى . ونموذج منه .

الفصل الثالث :

معنى النصيحة أو العظة . الأسباب التى أدت إلى ذيوعها . بعض الوعاظ . رسالة النووى إلى بيبرس . رسالة له أخرى . رسالة ابن تيمية إلى ملك قبرص . رسالة السيوطى إلى ملك التكرور . كتب الوعظ : تاج العروس لابن عطاء الله بستان العارفين للنووى . مفتاح دار السعادة لابن القيم . إغاثة اللهفان لابن القيم . الوصية . الوصية الدينية . بعض أنواع الوصايا . وصايا ابن فضل الله . كتاب معيد النعم ومبيد النقم لتاج الدين السبكى . وصايا لابن تيمية . الحكمة معناها ومنزعها — فصل لابن حبيب الحلبي من نسيم الصبا . درر الكلم وغرر الحكم للسيوطى . حكم ابن عطاء الله .

الفصل الأول

المناظرات والمقالات المذهبية

رأينا فى بعض الأبواب السابقة ألوانا من المناظرات ، وهى المحاورات المعقودة بين اثنين أو أكثر ، من الأدوات ، أو الأشخاص ، أو الأشياء الأخرى ، وذلك كالموازنة بين السيف والقلم ، والمحاورة بين الأزهار .

غير أن هذه المناظرات التى رأيناها ، تنزع نزعة أدبية عمادها الوصف وحسن التشبيه والإبراز الجميل ، أكثر مما تنزع نزعة فكرية عمادها سلامة المنطق وقوة الحجة ونصوع الدليل ، والرغبة فى الإقناع . وهذا اللون الأخير — وهو من الخطبة أو بسبيل منها — هو الذى نعرض له فى هذا المقال[1]

النزعة الدينية وأثرها فى هذا اللون :

وقد كان للنزعة الدينية الشائعة فى ذلك الحين ، أثر ملموس فى نضج هذا الضرب من المسالك الكلامية . وبيانا لذلك نقول :

منذ قامت الدولة الإسلامية ، وهى تصدر فى أعمالها عن روح دينية . ونحن لا نبحث هنا عن صواب هذه الأعمال أو خطئها ، أو مبلغ صلتها الحقيقية بالدين . ولكننا نقرر فحسب ، أن الشعوب والدول الإسلامية ، على وجه الإجمال ، تلبس أعمالها أثوابا دينية ، وتضفى عليها من صبغة الدين الشىء الكثير .

اتضح ذلك فى مصر ، فى عصور مختلفة . اتضح مثلا فى عهد الفاطميين ،

---

(١) يقلل الدكتور عبد اللطيف حمزة — راجع مقدمة « الحركة الفكرية » ص ٢٥ — من أهمية الجدل الذى نشب فى مصر بين علمائها والرافضة والحشوية وغيرهما . ويرى أنه مبنى على الحماسة اللفظية أكثر من غيرها . ويرى أن حدة الجدل قد انتهت قبل استئناف الجدل فى مصر . ونحن لا نوافقه على ذلك ، ونرى أن الجدل كان على جانب عظيم من الأهمية ويعتمد على المنطق والعقل والنقل معا . ويتضح ذلك فى كلامنا فى هذا الفصل .

الذين أسسوا دولتهم على أساس من الدين ، اتخذوا شعاره المذهب الشيعى . واتضح كذلك فى عهد الأيوبيين ، الذين كانوا من أهل السنة والجماعة ، وتعصبوا فى عقيدتهم لمذهب الأشعرى[1] ، وفى فقههم لمذهب الشافعى ، وأنشئوا فى مصر جملة من المدارس عنوا فيها بنشر الحديث النبوى وفقه الأئمة الأربعة ولا سيما فقه الشافعية . وزادهم تعصبا للدين قيام الصليبيين بحروبهم الطاحنة المتكررة ، وتأسيسهم المستعمرات على سيف البحر المتوسط فى بلاد الشام . فشغل الأيوبيون ، وشغلت معهم الجماهير فى مصر والشام بمكافحة الصليبيين .

وورث مماليك مصر هذه النزعة عن أساتذتهم الأيوبيين . فقد نشئوا فى كنفهم وشاركوهم بعض حروبهم الصليبية .

على أن هناك عوامل وحوادث أخرى ، عززت هذه النزعة الدينية فى المماليك ، بل أشاعتها بين الخاصة والعامة، وأهمها تلف المسلمين وضياع ذخائرهم الفكرية فى بغداد وغيرها ، وأيلولة حكم مصر والشام إلى يدهم فى ذلك الوقت ، وكذلك الأقطار الحجازية . على حين أن المسلمين وأمراءهم فى مشارق الأرض ومغاربها قد ضعفوا واضطربت أحوالهم ، الأمر الذى نبه سلاطين مصر وحكامها حينذاك ، إلى ضرورة وقاية البلاد التى يحكمونها ، وحماية دينهم ودينها من الأعداء ، وأنهم إذا قصروا فى ذلك ، فربما تكون الطامة الكبرى .

تجلى هذا الشعور حين سار المماليك مع سلطانهم « نجم الدين الأيوبى » إلى معركة المنصورة عام ٦٤٧ هـ تعاونهم جموع الشعب فى النصر والغلب . وتجلى يوم حرض سلطان العلماء « عز الدين بن عبد السلام » السلطان المظفر قطز ، على حرب التتار ، وأثار معه حمية أمرائه ونخوة جنده ، فهزموا التتار فى موقعتين فاصلتين هما « عين جالوت » و « بيسان » عام « ٦٥٨ هـ » . وتجلى يوم أن هب السلطان الظاهر بيبرس فسار بجنوده إلى بلاد الشام وغيرها ، ولاقى التتار

---

(١) راجع خطط المقريزى ج ٤ ص ١٦١ وما بعدها

والفرنجة وهزمهم شر هزيمة واستعاد إلى ملك مصر عددا ضخما من المدن ، ومهد الأمور فيها .

وظل سلاطين المماليك ، هكذا ، يصدرون عن هذه الروح طول العصر ، ويحاربون « أعداء المسلمين » ويجدون من العلماء كل نصيحة ، ومن الجماهير كل معونة .

ولم يقف جهد الحكام عند الحروب . بل أسسوا المدارس والمساجد ، وملئوا بها البلاد طولا وعرضا ، ولا سيما مدينة القاهرة التى فاضت بعشرات منها ، وأوقفوا عليها الأوقاف الواسعة الدارة ، واختاروا للتدريس فيها جلة العلماء ، وأجروا عليهم وعلى طلبتهم الأرزاق ، وقرروا الدروس التى تلقى فيها ، وكانت علوم الدين من فقه وحديث فى مقدمتها . وقد توج هذا كله بإنشاء الخلافة العباسية التى جعلت مصر قلبا ينبض فى جسد العالم الإسلامى .

بذلك تعززت هذه الروح الدينية وقويت واشتد ساعدها ، وآزرها نشاط العلماء وإقبالهم بشغف شديد على التعليم والتأليف ، واصطبغت العلوم بصبغات دينية . ووكل أمر القضاء والفصل فى شتى المنازعات إلى قضاة القضاة ـ وهم أربعة ، من كل مذهب قاض ـ هذا مع استثناء « حاجب الحجاب » الذى كان من اختصاصه الفصل فى منازعات جند المماليك ، وفى بعض القضايا الجنائية .

لم تقف جهودهم عند هذا الحد أيضاً ، بل أسسوا الربط والخوانق والزوايا ، ومكنوا للصوفية بما أوقفوا عليهم من أوقاف ، وما قرروه لهم من دروس .

بهذا وذاك تمكنت الروح الدينية ، ولهج الناس بها فى شتى شئونهم الحيوية . وأصبحت النزعات الدينية ، ولا سيما ما يتصل منها بالعقائد ، جزءاً هاما من السياسة العامة فى ذلك العصر .

فلا غرابة حينئذ إذا رأينا المجادلات والمناظرات قد قوى أمرها واشتد خطرها فيه ، وشغل كثير من العلماء بالنظر فى العقائد وغيرها من أمور الدين ، والمناقشة فيها ، وتعزيز الرأى الذى يذهبون إليه . ولا غرابة أيضا إذا تعددت

حوادث هذه المناظرات ، وتطور في بعض الأحوال ، حتى بلغت حداً من الحدة شديداً ، أو وصلت إلى الاحتكام إلى القضاة والمحاكمة .

ونحن هنا لا نبحث عن حقيقة هذه النزعات وتطوراتها ، ولا نتعمق تفاصيل الخلافات المذهبية ، فإن لها مقاما آخر . ولكننا أردنا أن نشير — في إيجاز — إلى بعض الأسباب التي أدت إلى هذا النشاط الفكري الذي كان من أهم مظاهره ، نشاط الجدل والمناظرة ، وتتابع المقالات والرسائل المذهبية ، بما يشعرنا بإحدى النواحي الهامة التي شارك فيها النثر الفني بنصيب موفور ، في هذا الزمان المستعجم .

* * *

ونستطيع أن نقسم المتحدثين في العقائد حينذاك أربعة أقسام هي :

١ — الصوفية :

وهم الذين يقولون إنهم يعملون على المعرفة والاتصال بالله سبحانه وتعالى عن طريق الرياضة الروحية ، وتحرير النفس من ملاذ الدنيا وأرجاسها ، مع طول النظر والتأمل . وهؤلاء قد يصيبهم في بعض سرحاتهم الخيالية ، وتأملاتهم النفسية ، ويقظاتهم الروحية ، ما يبدو كالغيبوبة ، إذ يذهلون عن عالم الحس ، فتقع في خواطرهم — كما يقولون — معان ، وتفيض عليهم مشاهدات ، لا تسعفهم اللغة ، بحواجزها اللفظية وقيودها التعبيرية ، بدقة الإفصاح عنها . فينحرفون لذلك في عباراتهم أحياناً بما يؤاخذون بظاهر لفظه ، وبما يوهم الحلول مثلا . وهم في ذلك كله يقولون إنهم إنما يصدرون في عملهم وتفكيرهم عن الكتاب والسنة ، كما كان السلف الصالح .

ويبدو أن هذه الطائفة كانت كثيرة الانتشار في القاهرة ، وكانت جماهير متعددة واقعة تحت تأثيرها . ولهذا سارع بعض السلاطين إلى إرضائها ، وإلى تنفيذ مشيئتها ، وإلى التماس الرأي عندها في بعض المناسبات . وشارك شيوخ منها في الحركات الفكرية والاجتماعية . وقد أسس لهم عدد من الخوانق ليعيشوا فيها .

وقد استطاع أحد شيوخ ... مر المنبجى ، أن يؤلب سلطان مصر الناصر محمد بن قلاوون ، على الشيخ تقى الدين بن تيمية الحرانى . لأنه حمل على الصوفية ، ممن يدينون بوحدة الوجود ، حملة شعواء .

وفى إحدى المرات حمل رجل يدعى عبد القادر بن الرماح ، السلطان الأشرف قايتباى — وكان من خلصائه — أن يقبل قدمى الشيخ عبدالقادر الدشطوطى ، أحد الأولياء ، لكى يساعده فى حربه مع العثمانيين . وبعد حين تبين أنه شيخ مزيف . . فجلد هو وابن الرماح.

ولما جاءت الأخبار بقتل السلطان الغورى ، آلت سلطنة الأشرف طومان باى الدوادار ، آخر سلاطين المماليك بمصر ، إلى طومان باى ، وتعصى عليه جمع الأمراء على كلمة . . . ثم احتكموا إلى الشيخ أبى السعود الجارحى بمقامه فى كوم الجارح خارج القاهرة . . فحكم بينهم وجمع كلمتهم ، وخرج طومان باى من لدنه ، سلطاناً على البلاد[3] . . .

هذه بعض الحوادث التى تبدو فيها سيطرة هؤلاء الأولياء وسطوتهم ، على عقول الناس والحاكمين حتى آخر العصر .

٢ — فقهاء المذاهب الأربعة :

وهؤلاء كانوا كثرة كاثرة . وهم جلة « المتعممين » المتخرجين فى مدارس الفقه والحديث . وكان فقهاء الشافعية من بينهم أكثر عددا من سواهم من رجال المذاهب الأخرى . وعقيدة هؤلاء الفقهاء فى جملتهم مستمدة من عقيدة السلف الصالح . ولكنهم لا يقفون عند ظاهر الآيات ، كما كان السلف يقفون . بل يدعمون هذا الظاهر على نمط أشعرى . وبهذه الروح كانوا يصححون العقائد ويردون على المناظرين ويفتون العامة . وكانوا بذلك ، لسان الدولة الرسمى الذى يعبر عن وجهة نظرها غالبا ، فى العقائد والمشاكل الفقهية .

---

(١) راجع ترجمة ابن تيمية فى جلاء العينين ، وفى الدرر الكامنة ، وفى المجلد الرابع من كتابنا هذا .

(٢) بدائع ابن إياس جـ ٢ ص ٢٥٦ فى ترجمة قايتباى .

(٣) بدائع ابن إياس فى ترجمة الأشرف طومان باى .

والقضاة الأربعة يختارون من بين هؤلاء الفقهاء ، سواء أكان ذلك بمصر أم بالشام . كما يختار من بينهم نواب الحكم ، قضاة النواحي ، الذين ينوبون عن قضاة القضاة .

وكان لهؤلاء — ولا سيما قضاة القضاة — نفوذ ضخم لدى السلاطين والجماهير ، مستمد من منصبهم الديني . وربما اشتهر أحدهم بحدبه على الشعب ، وخوفه على ماله ، وتكرار نصيحته للسلطان برعاية العدل ، وجرأته على أن يقول كلمة الحق في حينها . فيصيب من وراء ذلك منزلة لدى الجماهير لاتسامى . ومنهم على سبيل المثال : عز الدين بن عبد السلام وتقى الدين بن بنت الأعز ، وتقي الدين بن دقيق العيد ، ومحي الدين النووي . والجلال السيوطي ، وابن حجر العسقلاني .

٣ — العلماء الأحرار :

وهم بعض فقهاء المذاهب الأربعة . ولكنهم يمتازون بالاجتهاد والتجديد بعض الأحكام ، وبالحرية في الفتوى بما يناسب ظروف المجتمع ، ولايخرج عن روح الدين وعدالته . وكان رأى بعضهم أحياناً مثاراً للخلاف والمناظرة بينهم . ومن بين هؤلاء من كان يناهض الصوفية ، وينتقصهم ويحمل عليهم ، مثل تقي الدين بن تيمية الحراني . ومنهم من سلك سبيل الصوفية كالجلال السيوطي ، فقد كان شيخا للخانقاه البيبرسية :

وهؤلاء العلماء ، من أمثال ابن تيمية والتقي السبكي ، والتقي بن دقيق العيد ، والعز بن عبد السلام ، هم — في الحق — بما خلفوا من آراء ومبادئ وفتاوى اتسمت إلى حد كبير بالحرية وبعد النظر ودقة الفهم وحسن التكييف ، دليل على وجود يقظة فكرية جديرة بالتقدير . ومؤلفاتهم تعتبر من أهم المراجع في موضوعاتها .

٤ — غير أهل السنة والجماعة :

وهؤلاء كالخوارج والرافضة والجهمية والمعطلة والقدرية والجبرية ومبتدعة

الحنابلة(١) ، ثم اليهود والنصارى . كان هؤلاء جميعاً - ولا سيما شواذ المسلمين - محلا لمناظرات فقهاء المذاهب ، وهدفا لحملاتهم . وقد فاضت كتب هؤلاء الفقهاء ببيان فساد عقائدهم وزائف آرائهم ، وبإبطال هذه العقائد والآراء ، عن طريق الجدل العنيف والحجج الدامغة والمنطق السليم والتدليل العقلي القوي المستمد من اتجاه السلف الصالح ومذهب الأشاعرة .

ولم يقتصروا على تأليف كتب كلامية تضم هذه المناظرات والمجادلات ، ولكنهم سجلوها وكرروا تسجيلها ما وجدوا إلى ذلك سبيلا . اتضح ذلك في فتاواهم ، وفي كتب فقههم ، وفي كتب تفسيرهم ، إلى غير ذلك . ومن مقدميهم في هذا الباب : ابن تيمية وابن القيم .

ويبدو أن مبعث اهتمام هؤلاء الفقهاء بمحاربة المتطرفين والشواذ ، يرجع إلى انتشارهم في ذلك العصر ، هم والصليبيين وأذنابهم ، ولا سيما في بلاد الشام . فخشى الفقهاء أن يفتنوا العامة ويشوهوا عقائدهم .

* * *

ولابد لنا هنا من وقفة قصيرة نوجز فيها الكلام على بعض الحوادث التي تجلت فيها هذه الخلافات المذهبية واتضحت الحرية الفكرية ، وكان للمناظرة فيها نصيب كبير ، وذلك على سبيل التمثيل . فمن ذلك :

---

١ — الخوارج : الذين خرجوا على علي وأنكروا عليه قبوله التحكيم . ثم من اتبعهم ، وهم فرق . ومنهم من يجوز الإمامة في غير قريش ، وجوزوا تعطيل الإمامة ، ومنهم من كفر عليا . ومنهم من يكفر مرتكب الكبيرة . . الخ .

والرافضة فريق من الشيعة وهم جماعة من أهل الكوفة رفضوا « زيد بن علي » زعيم الزيدية وتلميذ واصل بن عطاء . وذلك لأنه خالف مذهب آبائه في التبرىء وغيره .

والجبرية : هم الذين ينفون الفعل عن العبد ، ويضيفونه إلى الله تعالى . وهم فرق متعددة منها الجهمية المعطلة أتباع جهم بن صفوان .

والقدرية الذين يضيفون الفعل إلى العبد ، وينفونه عن الله سبحانه وتعالى ، وهم فريق من المعتزلة الذين ينفون الصفات عن الله . ويقولون مثلا إنه عالم بذاته لا بعلم ، حذراً من تعدد القديم . وهم عكس الصفاتية الذين يثبتون الصفات .

ومتبدعة الحنابلة فريق من الحنابلة قالوا بالصوت والحرف ووقعوا في التجسيم .

راجع الملل والنحل للشهرستاني (تخريج الأستاذ فتح الله بدران) — وراجع خطط المقريزي ج ٤ ص ١٦٢ وما بعدها .

١ — النزاع بين ابن عبد السلام ومبتدعة الحنابلة :

يعتبر عز الدين بن عبد السلام رأس الشافعية فى زمانه، وكان يلقب بسلطان العلماء، لقبه بذلك تلميذه تقى الدين بن دقيق العيد القشيرى . وقد عاش ابن عبد السلام زمناً كبيراً فى دمشق ، ثم يمم شطر مصر واتخذها دار إقامة . وله فيها حوادث رائعة تدل على جرأة قلبه وحرصه على الحق ، وحسن بلائه فى الدفاع عن المسلمين ، ومحافظته على أموالهم . وكان الظاهر بيبرس منقمعا تحت كلمته . وقد توفى بالقاهرة عام ٦٦٠ ﻫ .

وقد وقع بينه وبين مبتدعة الحنابلة نزاع، رأينا أن نسوق خبره هنا فى إيجاز . وقد وقع قبيل العصر المملوكى الذى عاش فيه هذا المجتهد بنحو اثنى عشرة سنة، وخلف فيه عدداً ضخماً من تلاميذه ، كان منهم دعاة حق وسرج هداية . فكان هذا الحادث أو النزاع فاتحة موفقة للحرية الفكرية وللكفاح فى سبيل العقيدة، اللذين شهد العصر كثيراً من حوادثهما . لهذا رأينا أن نسوق خبره .

وقع هذا النزاع فى مدينة دمشق ، حينما كان يحكمها الملك الأشرف موسى ابن الملك العادل الأيوبى — قبل أن يحكمها الصالح إسماعيل ، الذى هاجر الشيخ فى عهده إلى مصر —

كان الأشرف موسى يجل الشيخ ويعظمه ، ويحفظ له فى نفسه مكانة سامية. غير أنه كان ميالا إلى جماعة من مبتدعة الحنابلة الذين يقولون بأن لله سبحانه وتعالى حرفاً وصوتاً . ويعتقد معتقدهم . وأفهموه أنه مذهب ابن حنبل والسلف الصالح .

وحقد هؤلاء المبتدعة على الشيخ لمنزلته لدى الأشرف ، وخشوا منه على منزلتهم . فوشوا إلى الأشرف ، وقالوا له إن الشيخ أشعرى العقيدة ، يخطىء من يعتقد الحرف والصوت ، ويعتبره مبتدعا ، وأنه يقول كما قال الأشعرى ، إن الخبز لا يشبع ، والماء لا يروى ، والنار لا تحرق .

وفى الحق ، أنهم قرروا مذهب الشيخ كما هو ، وهو يخالف معتقدهم الذى

أوهموا الأشرف أنه المعتقد الصحيح . فكتب استفتاء فى هذه المسائل ، ودفعها إلى الشيخ ، ليبدى فيها رأيه . فكتبه ببيان واضح وأسلوب جميل ، مقرراً مذهب السلف وابن حنبل والأشاعرة ، ومبيناً أن هذا هو مذهب أهل السنة والجماعة، وحمل فيه على المبتدعين حملة شعواء[1] .

فلما اطلع الأشرف عليه ، هاله الأمر ، إذ رأى أن الشيخ اعترف بما ادعاه عليه المبتدعون . . ووقعت بينه وبين الشيخ مشادات ومراسلات ،أدت إلى أن أصدر أمره بمنع الشيخ من الفتيا وحرم عليه الاجتماع بالناس ، وألزمه بيته .

وقد فرح الشيخ بهذا الأمر فرحاً شديداً ، وقال لرسول السلطان :

« إن هذه الشروط من نعم الله الجزيلة على ، الموجبة للشكر لله تعالى على الدوام . أما الفتيا فإنى كنت والله متبرما منها وأكرهها ، وأعتقد أن المفتى على شفير جهنم . ولولا أنى أعتقد أن الله أوجبها علىّ لتعينها علىّ فى هذا الزمان ، لما كنت تلوثت بها . والآن فقد عذرنى الحق، وسقط عنى الوجوب، وتخلصت ذمتى ، ولله الحمد والمنة » .

وما زال ، حتى أصلح بينه وبين السلطان ، العلامة جمال الدين الحضيرى شيخ الحنفية فى زمانه. وأفهم السلطان أن عقيدة الشيخ هى عقيدة السلف وأهل السنة والجماعة . وحسنت صلة الشيخ بالسلطان حتى إنه أبطل كثيراً من مفاسد عصره — كالزنا وشرب الخمر — بإشارة الشيخ

٢ — محاكمات ابن تيمية :

تقى الدين بن تيمية أبرز العلماء الأحرار فى هذا العصر ، ومن أصلبهم دفاعاً عن معتقده ، ومن أقساهم على أهل البدع والضلال ، ومن أنشطهم فى محاربة الفساد ، ومن أجرئهم فى إسداء النصيحة وقول الحق ، وقد توفى عام ٧٢٨ هـ ،

---

(١) راجع طبقات السبكى جـ ٥ ترجمة ابن عبد السلام وفيها نص هذا البيان .

بعد أن ترك دويا فى عالم الفكر والرأى لايزال رنينه مسموعا .

وقد كان ابن تيمية حنبلى المذهب ، ولكنه لم يتقيد بما جاء فى المذاهب الاربعة ، واجتهد فى إبداء الرأى وإبراز الفتوى ، متحريا روح الإسلام وعدالة الدين ، بحسب اجتهاده ، ناظرا إلى ما يصلح من الأحكام لعصره ومقتضيات مجتمعه ، جاعلا نصب عينيه أن ينفى عن العامة زيف الشرك وشبه الباطل ، وأن يجنبهم عسر الحياة ، وييسر لهم سبلها ، بما لايخرج عن الدين ورحابة صدره وسماحته .

بذلك خالف ابن تيمية كثيراً من علماء عصره وفقهاء المذاهب ، واستهدف لحملاتهم ، واضطر إلى الرد عليهم . فظل لذلك قرابة ثلاثين عاماً ، فى جهاد ونضال ، يحاور ويناظر ، وينازل ويصاول ، ويدرس ويخطب ويؤلف . فكتب بذلك صفحة من أجمل صفحات الجهاد الفكرى الحر ، غير عابئ بما يلقى فى سبيله من الأذى .

لقد حوكم ابن تيمية ، وشرد وسجن . فماذا قال ؟ قال: « مايصنع أعدائى بى ؟ أنا بستانى فى صدرى . . أين رحت فهو معى . أنا حبسى خلوة ، وقتلى شهادة وإخراجى من بلدى سياحة » .

وأهم فتاواه التى أثارت الحملات ضده : فتواه فى الطلاق ، وفى زيارة قبور الأنبياء والصالحين ، وفى الوسيلة .

فمن رأيه أن الطلاق بالثلاث يقع واحدة .

وأنه لايجوز لمسلم أن يسافر قصداً إلى زيارة قبر من قبور الأنبياء والصالحين.

وأنه لايجوز لمسلم أن يتوسل إلى الله بشىء ما ، بل يلجأ إليه سبحانه مباشرة دون وسيط . .

وتحدث ابن تيمية عن صفات الله سبحانه وتعالى : الاستواء والنزول والصورة والعين واليد ، إلى غير ذلك ، كما وصف الله به نفسه فى القرآن ، وكما وصفه به رسوله الكريم ، دون كيفية ولا تمثيل ولا تشبيه . فهو يرى

مثلا : أنه تعالى استوى على العرش استواء حقيقياً لا مجازيا . ولكنه لا يكيف هذا الاستواء ولا يمثله .

ومن المناسب فى هذا المقام أن نذكر أن ابن تيمية له رأى فى المجاز ونشوئه ، ويرى أن فكرة وجود المجاز فى اللغة من ابتداع العباسيين ، وينكر وقوع المجاز فى القرآن ، ولا سيما ما يتصل منه بصفات الله سبحانه وتعالى .

وهذا ـ كما هو معلوم ـ مخالف لرأى المعتزلة الذى يقولون بالمجاز ، ويؤولون ما وقع فى القرآن الكريم من الألفاظ المتصلة ببعض صفاته تعالى كالاستواء واليد والعين والوجه ، على ضوء هذا المجاز[1]

وتعرض ابن تيمية أيضاً للصوفية ، الذين ينتمون إلى ابن عربى وابن سبعين والقونوى ، ممن يقولون بوحدة الوجود والاتحاد . إذ يرون أن العبد يصل من وراء عبادته إلى مرحلة تتجلى فيها الذات الإلهية له ، ويزول العبد ولا يبقى إلا الذات . أو يصير العبد والذات شيئاً واحداً . ويرى ابن تيمية أن هذا معناه الحلول والتجسيم والتشبيه .

هذه بعض آراء ابن تيمية ومعتقداته .

* * *

وكانت عقيدته فى صفات الله تعالى كثيرة الظهور فى مؤلفاته ورسائله بحججها وأدلتها . ومنها رسالته التى اسمها « العقيدة الحموية الكبرى » التى كتبها فى سنة ٦٩٨ هـ . وقد ثارت بسببها ثائرة الفقهاء والكلاميين ، وأولوا فى كلام ابن تيمية ، أو فهموه على أنه يذهب إلى التجسيم . وقد عاونهم قاضى قضاة الحنفية بدمشق حينذاك ، وطلب إليه المثول بين يديه للمحاكمة . فرفض

---

(١) انظر كتاب « الإيمان » لابن تيمية .

ابن تيمية قائلا له : « إن العقائد ليس أمرها إليك . وإن السلطان ولاك لتحكم بين الناس . وإن إنكار المنكرات ليس مما يختص به القاضي » . فزاد حنق القاضي عليه ، وأمر بالنداء في المدينة ببطلان عقيدة ابن تيمية . وقيل إنه حمل وطيف به إلى المدينة ونودى بالناس ألا يستفتوه ...

وقيل إن ابن تيمية قرأ رسالته هذه بعد ذلك ، في جمع حاشد ، وبين للناس ما أشكل عليهم فيها . وظل في قراءتها يومين ، حتى اقتنعوا بصحة عقيدته . وقال القاضي « إمام الدين الشافعي » : كل من تكلم في الشيخ فأنا خصمه » .

* * *

ولما حمل ابن تيمية على الصوفية ، ونسبهم إلى الحلول والتجسيم والتشبيه وشدد عليهم النكير ، لما يحتالون من حيل يوهمون العامة بها أنها كرامات ، وكان قد كتب إلى شيخهم وهو « نصر المنبجي[1] » مقالا في ثلثمائة سطر ينكر عليه هو وأتباعه معتقدهم وحيلهم . وكان « المنبجي » ذا جاه لدى الأمراء وخاصة الأمير ركن الدين بيبرس الجاشنكير — الذى ملك فيما بعد ولقب بالمظفر . ثار « المنبجي » وأتباعه وأذاع القالة عن ابن تيمية ، أنه مبتدع يخشى منه على الناس . واستعان بالأمير بيبرس حتى أقنعوا قضاة مصر باتهامه . ولذلك كتب الناصر بن قلاوون إلى نائبه بالشام ، أن يمتحن الشيخ ويسأله عن معتقده .

كان ذلك عام ٧٠٥ هـ . فجمع له النائب مجلساً من القضاة والعلماء بدمشق في ذلك العام ، وقرئت فيه رسالته « العقيدة الوسطية » ونوقش فيها ، وناظره بعض مخالفيه في الرأى من الفقهاء الأعلام ، ومن بينهم الشيخ صفي الدين الهندى علامة زمانه في المناظرة بدمشق ، وكمال الدين بن الزملكاني قاضي قضاة الشافعية بدمشق . فانتهى المجلس على أن معتقد الشيخ صحيح لم يخرج فيه عن مذهب السلف

---

(١) نصر المنبجي : هو نصر بن سلمان المنبجي نزيل القاهرة ، كان أحد شيوخ الصوفية فيها ، وأحد عابدي زمانه . مات بزاويته بالقاهرة عام ٧١٩ هـ . (الدرر الكامنة ج ٤ رقم ١٠٧٦) .

ويبدو أن هذا الحكم لم يصادف رضا من أعداء الشيخ بمصر ، ومنهم قاضي المالكية بها « زين الدين بن مخلوف » لذلك أرسل السلطان الناصر ، إلى دمشق ، بإيفاد الشيخ إلى مصر ، لإعادة محاكمته فيها . فأبى نائب الشام أن يوفده ، ثم رضى فى النهاية ، فخرجت دمشق تودع عالمها وداعاً حاراً .

دفع الشيخ إلى مجلس القضاء حيث تصدره القاضي « ابن مخلوف » وندب لرفع الدعوى عليه ، القاضي «شمس الدين بن عدلان» . فادعى عليه أنه يقول : « إن الله فوق العرش حقيقة » وأنه يتكلم بحرف وصوت ، وأنه يشار إليه إشارة حسية . وطلب إلى المجلس عقابه .

فسأل القاضي « ابن مخلوف » عما يقول فى ذلك . فبدأ ابن تيمية فى الإجابة بحمد الله وأثنى عليه ... فقال له القاضي : « ما جئنا بك لتخطب » ... فقال الشيخ : « ومن الحاكم فى » ؟ فقيل له : « القاضي المالكي » ... قال « كيف يحكم على وهو خصمي » ؟ وغضب غضباً شديداً ، وبدا عليه الانزعاج والفزع والثورة ... فقادوه إلى السجن « البرج » فحبس به أياما . ثم نقل إلى « الجب » — سجن آخر — فحبس به ومعه أخواه : شرف الدين وزين الدين .

ظلوا بعد ذلك يحضرونه للإجابة مرة بعد أخرى ، وهو فى كل مرة يناظر وينتصر على خصومه ولبث فى سجنه زهاء ثمانية عشر شهراً . ثم أطلق سراحه فى ربيع الأول عام ٧٠٧ هـ بشفاعة الأمير العربي « حسام الدين بن مهنا » .

وقبيل خروجه من سجنه ، عقدت مناظرة أخرى حافلة بينه وبين جماعة من مبرزي العلماء منهم بدر الدين بن جماعة ، ونجم الدين بن الرفعة ، وعلاء الدين الباجي ، وفخر الدين بن بنت أبي سعد ، وعز الدين النمراوي ، وشمس الدين بن عدلان .

* * *

عاود ابن تيمية حملته على الصوفية بعد خروجه من سجنه ، وشدد النكير عليهم ، وذلك فى العام نفسه «٧٠٧هـ» . فشكاه الصوفية وعلى رأسهم شيخهم بالقاهرة « كريم الدين الآملي » إلى السلطان . فخير بين الرحيل عن القاهرة حتى

تهدأ الفتنة ، أو السجن ... فاختار أن يسجن ... ولكنهم حملوه قسراً إلى دمشق ، ثم أعادوه من الطريق وسجنوه فى سجن القضاة بحارة الديلم بالقاهرة .

اطمأن ابن تيمية إلى سجنه ، واتخذه مكاناً لإلقاء دروسه وعظاته . فقصده الناس فيه حتى أضحى جامعة علمية كبرى ... فنقل إلى سجن الإسكندرية . فلبث به زهاء عامين حتى أطلق الناصر بن قلاوون سراحه عام ٧٠٩ هـ ، وتلطف به وأكرمه . وأراده على أن ينكل بأعدائه ، فأبت نفسه وعفا عنهم ... وكانت بالسلطان رغبة فى أن يبطش بهم . .

* * *

عاد ابن تيمية إلى دمشق عام ٧١٢ هـ . وظل يحاضر ويناظر وينشر العلم ويؤلف الرسائل ، حتى أفتى فى عام ٨١٧ هـ . فتواه فى الطلاق ، وألف فيها رسالته ...

ثارت ثائرة الفقهاء عليه ، حتى أمر الناصر بمنعه من الفتوى . غير أن ابن تيمية لم يمتنع ... ولبث حتى عام ٧٢٠ هـ فعقد له مجلس لمحاكمته على فتواه هذه ، وسجن ولبث فى سجنه أكثر من خمسة أشهر ، ثم أطلق سراحه(١) .

وكانت هذه الفتوى سبباً فى إقبال كثير من العلماء على تأليف الرسائل فى موضوع الطلاق ، رداً على ابن تيمية وإبطالا لمذهبه . ومنها رسالة لتقى الدين السبكى تسمى « كتاب التحقيق فى مسألة التعليق » .

* * *

وما زال ابن تيمية حتى عام ٧٢٦ هـ . وكان قد أصدر فتواه بتحريم السفر إلى قبور الانبياء والصالحين قصدا إلى زيارتها .

وقد أفاض فى الحديث عن زيارة القبور والتمسح بها ، والاستنجاد بالمقبور ، وألف فى ذلك رسالة قيمة هى « زيارة القبور والاستنجاد بالمقبور » .

---

(١) أخذ بهذه الفتوى فى العصر الحديث منذ قريب وأصبح يقضى بها ... وبهذا يكون ابن تيمية قد سبق زمنه بنحو ستة قرون . .

وهو يرى إلى منع الوسيلة ، ورد المسلمين إلى روح الشريعة الغراء ، وإبعادهم عن مزالق الشرك ومظان الوثنية .

ثار الفقهاء والقضاة عليه بسبب هذه الفتوى . وأفتوا للناصر بن قلاوون بحبس ابن تيمية ، بل سعى بعضهم لديه فى قتله .

وهب كثير من العلماء للرد عليه وتزييف رأيه فكتبت فى ذلك مقالات ضافية ، منها مقالة لتقى الدين السبكى تسمى « شفاء السقام فى زيارة خير الأنام » .

سجن ابن تيمية ومعه تلميذه ابن القيم فى قلعة دمشق . فأقام بها نحو عامين ثم مات فى سجنه عام ٧٢٨ هـ بعد جهاد عنيف دام نحو ثلاثين عاما(١)

* * *

هذه خلاصة وجيزة ولمحة سريعة من كفاح ابن تيمية فى سبيل الرأى والعقيدة . وقد كان ذلك سبباً فى نشاط فكرى محمود ، ومناظرات لاحد لها ، ووضع رسائل ومقالات لا تحصى .

أجل . انبرى له العلماء ، ولا سيما فقهاء الشافعية ، يردون عليه ويبطلون آراءه ، ويبينون فسادها ويقرون مكانها ما يرتئونه من الآراء والعقائد السليمة بالمناظرات والرسائل والمقالات . كما كان لابن تيمية أنصار يذهبون مذهبه ويرون رأيه ويتعصبون له ، فدافعوا عنه وناظروا وحاوروا ، ومنهم من أوذى من أجله .

ونذكر من الفريقين على سبيل المثال :

١ — شمس الدين بن القيم(٢) .

وهو تلميذ ابن تيمية وأحد مناصريه . تعصب لكثير من آرائه ودافع عنها . وقد ذهب مذهبه فى مسألة الطلاق وزيارة القبور . وحمل على الشيعة والقدرية والجبرية وغيرهم . ومن رسائله : « هداية الحيارى فى الرد على اليهود والنصارى » و « اجتماع الجيوش الإسلامية على غزو الفرقة الجهمية » .

---

(١) أعدنا هنا شيئا مما كتبناه فيما سبق عن ابن تيميه ، لضرورته للمقام .

(٢) ترجمة ابن القيم فى جلاء العينين للألوسى ، وفى الدرر الكامنة ج ٣ رقم ١٠٦٧ .

غير أنه يفارق أستاذه فى مسألة الصوفية والحملة عليهم . فقد سلك ابن القيم مسلك التصوف السليم ، وألف فى ذلك بعض الكتب الممتعة وفى مقدمتها : « مدارج السالكين » .

وقد سجن ابن القيم — كما أشرنا — فى قلعة دمشق ، لما سجن شيخه بها . وكان بعيداً عنه فى سجنه . ثم أطلق سراحه . وتوفى عام ٧٥١ هـ .

٢ — جمال الدين المزى الشافعى(١)

يوسف بن عبد الرحمن بن يوسف المتوفى عام ٧٤٢هـ . قيل أنه أوذى بسبب ابن تيمية ، فإنه لما وقعت المناظرة عام ٧٠٥ هـ بين ابن تيمية والصفى الهندى والكمال بن الزملكانى بالقصر الأبلق بدمشق ، شرع المزى يقرأ كتاب خلق أفعال العباد للبخارى وفيه فصل فى الرد على الجهمية ، فغضبوا وظنوا أنه يقصدهم بهذا . فأمر القاضى الشافعى بسجنه ثم أخرجه ابن تيمية من سجنه . فغضب نائب الشام « الأفرم » ، وأعاده ونادى بأن من يتكلم فى العقائد يقتل . .

٣ — أحمد بن محمد بن مرى الحنبلى(٢)

كان منحرفا عن ابن تيمية ثم اجتمع به فأحبه وتتلمذ له وكتب مصنفاته . وبالغ فى التعصب له ، وسلك مسلكه فى الحملة على الصوفية وزيارة القبور ، وتحدث فى التوسل بالنبى عليه السلام . فأراد بعض العامة قتله فهرب ، ثم قبض عليه وحوكم . واختلف فى أمره ، ثم سلم إلى قاضى المالكية فضربه حتى أدماه ، وشهره على حمار أركبه عليه مقلوبا ، وكاد يقتل . ثم سجن فلبث حتى شفع فيه بعضهم فأطلق سراحه . وقد توفى بعد ذلك .

٤ — نجم الدين ابن الرفعة(٣)

وهو العلامة الشافعى المشهور المتوفى عام ٧٠٧ هـ . ندب لمناظرة ابن تيمية

---

(١) ترجمته فى الدرر الكامنة جـ ٤ رقم ١٢٦١ .
(٢) الدرر جـ ١ رقم ٧٦٨ .
(٣) الدرر جـ ١ رقم ٧٣٠ .

ثم سئل ابن تيمية عنه بعد ذلك فقال : « رأيت شيخا تتقاطر فروع الشافعية من لحيته » .

٥ — صدر الدين بن الوكيل[1]

محمد بن عمر بن مكى ، المتوفى عام ٧١٦ هـ كان أديبا وشاعرا وفقيها ومناظرا وكان — كما قيل — لا يقوم بمناظرة ابن تيمية أحد سواه ، حتى إنهما تناظرا يوما ، فاستشهد ابن تيمية ببعض الحاضرين . فأنشده ابن الوكيل من فوره .

إن انتصارك بالإخوان من عجب   وهل رأى الناس منصورا بمكسور

٦ — كمال الدين بن الزملكانى[2]

قاضى قضاة الشافعية بدمشق ، وقد ناظر ابن تيمية فى عقيدته . وصنف فى الرد عليه رسالتين . إحداهما فى مسألة الزيارة . والثانية فى مسألة الطلاق . وقد توفى عام « ٧٢٧ هـ » .

٧ — شرف الدين أبو الروح الحميرى المالكى[3]

ناب فى الحكم عن قاضى المالكية ابن مخلوف . ورد على ابن تيمية فى موضوع الطلاق . ومات فى عام ٧٤٣ هـ .

٨ — تقى الدين السبكى[4]

هو والد صاحب الطبقات . وكان رأس الشافعية فى زمانه ، مجتهداً فى استنباط الأحكام . وقد وقعت بينه وبين ابن تيمية مناظرات بسبب مسألة الطلاق وزيارة القبور . قرر فيها السبكى مذهب الشافعية . وقد أشرنا من قبل إلى رسالتيه فى الطلاق والزيارة . ونذكر هنا أن رسالته فى الزيارة « شفاء السقام » بين فيها أن السفر إلى زيارة قبر الرسول عليه الصلاة والسلام قربة من القربات

(١) الدرر ج ٤ رقم ٣١٨ ، وطبقات السبكى ج ٦ ص ٢٣ .

(٢) الدرر ج ٤ رقم ٢١٠ ، ج ٣ رقم ٦٠٩ فى سياق ترجمة البرزالى . والطبقات ج ٥ ص ٢٥١

(٣) الدرر ج ٣ رقم ٥١٠ ويقال له الجيزى .

(٤) طبقات السبكى ج ٦ ص ١٤٦

وتحدث فيها عن التوسل والاستعانة والشفاعة ، واستدل على جوازها بآي القرآن والحديث . ووقعت مناظرة بينه وبين شمس الدين[1] الكنانى أحد المناظرين ونواب الحكم ، وموضوعها : حد الورع . . ويرى الكنانى أن الورع ترك الشبهة . ويرى السبكى أنه مراتب أدناها اجتناب الكبائر . وللتقى السبكى مناظرات أخرى فى النحو وغيره ، ومنها مناظرات وردود شعرية لطيفة .

٩ — شهاب الدين بن جبريل الكلابى الحلبى[2]

أحمد بن يحيى بن اسماعيل ، وله تصنيف فى خبر الجهة ردا على ابن تيمية . ونشير إليه بعد قليل .

١٠ — صفى الدين الهندى[3]

« محمد بن عبد الرحيم » المتوفى عام ٧١٥ هـ بدمشق . كان ممن ناظر ابن تيمية بإشارة نائب الشام « تنكز » وكان طويل النفس إذا قرر لا يدع شبهة . ويعز على معارضه مقاومته .

٣ — فتنة بسبب ابن الفارض[4] :

عمر بن الفارض هو الشاعر المتصوف المشهور الذى عاش فى العصر الأيوبى وعلى يده أينع شعر التصوف أو « الغزل الإلهى » الذى شدا فيه بمحاسن الذات الإلهية المحبوبة ، ودعا إلى الفناء فيها .

وفى عام ٨٧٥ هـ فى عهد الأشرف قايتباى ، وقعت فتنة جارفة بين العلماء بسبب هذا الشاعر ، إذ اختلف بعضهم فى فهم شىء من أبيات قصيدته التائية . وكثرت بينهم المحاجة والمناظرة .

فمنهم من أخذ بظاهر لفظه ، فنسبه إلى الحلول والقول بالاتحاد ، وحكم بفسقه وكفره . وعلى رأس هذا الفريق : برهان الدين البقاعى ، وقاضى قضاة

(١) توفى الكنانى سنة ٧٤٩ هـ .
(٢) طبقات السبكى ج ٦ ص ١٨١ .
(٣) الطبقات ج ٥ ص ٢٤٠ .
(٤) نوهنا بهذه الفتنة فى الجزء الثانى من كتابنا هذا . وأعدنا ذكرها هنا للمناسبة .

الحنفية محب الدين بن الشحنة ، وولده القاضي عبد البر ، والشيخ نور الدين المحلي وقاضي القضاة عز الدين المحلي . وتبعهم جماعة كبيرة من العلماء . وألف البقاعي مقالة في ذلك ، ورد عليها الجلال السيوطي [1] .

ومنهم من لم يأخذ بظاهر لفظه ، وأول كلامه ، ولم ينسبه إلى فسق أو كفر أو حلول أو اتحاد ، بل حكم بإيمانه الراسخ . وعلى رأس هذا الفريق الشيخ العلامة محي الدين الكافيجي الحنفي ، والشيخ قاسم بن قطلوبغا الحنفي ، والشيخ بدر الدين بن الغرس ، ونجم الدين يحي بن حجي ، وجلال الدين السيوطي ، وزكريا الأنصاري ، وتاج الدين بن شرف .

وقد تناظر الفريقان في ذلك ، وقال الشيخ قاسم بن قطلوبغا أثناء مناظرته بالاتحاد[2] .

وكثر القيل والقال بين الفريقين ، وزاد بينهما التراشق ، وكل يعزز مذهبه ورأيه. فلما زاد الأمر بينهما واحتدم النزاع ، كتبت فيه عدة مقالات وفتاوى منها:

١ — مقالة للكافيجي .

٢ — رسالة للجلال السيوطي سماها « قمع المعارض في الرد عن ابن الفارض » .

٣ — كتاب للبدر بن الفرس .

٤ — صنف أحدهم رسالة سماها « درياق الأفاعي في الرد على البقاعي » يعني الشيخ برهان الدين البقاعي .

وامتدت هذه المشاحنة المذهبية إلى شعراء العصر . فسخر بعضهم ممن طعن على ابن الفارض ، ونظم الشاعر شهاب الدين المنصوري يهجو البقاعي بقوله :

إن البقاعي بما قد قاله مطالب
لا تحسبوه سالماً فقلبه يعاقب

---

(١) شذرات الذهب ج ٧ ص ٣٣٩ .

(٢) راجع الضوء اللامع ج ٦ رقم ٦٣٥ .

وكذلك نظم قصيدة طويلة ضمنها كثيراً من أشطار قصيدة لابن الفارض جيمية ، فقال :

بين البقاعى وبين التاج من شرف ما بين معترك الأحداق والمهج
يقول من صح فيه سهم صاحبه أنا القتيل بلا إثم ولا حرج
كلاهما مدع خوضاً بفكرته فى كل معنى لطيف رائق بهج

ولبعضهم يهجو ابن الشحنة :

أصبحت يا ابن الشحنة الحنفى فى كل القبائح أوحد الأزمان
فى مصر علم أبى حنيفة تدعى جهلا وأنت معرة النعمان

* * *

ولما طال الأمر وتفاقم الخطب وخيفت الفتنة على العامة ، وعلا ضجيج الجدال وبلغ إلى مسامع السلطان ، تعصب لابن الفارض ، ورسم لكاتب سره « ابن مزهر » أن يكتب سؤالا فى الموضوع يوجهه إلى الشيخ زكريا الأنصارى الشافعى ، فكتب :

« ما يقول الشيخ الإمام العالم العلامة البحر الفهامة ، زكريا الأنصارى الشافعى — نفع الله المسلمين به — عمن قال بكفر سيدنا ومولانا الشيخ العارف بالله سيدى عمر بن الفارض — تغمده الله تعالى برحمته ورضوانه — فيمن زعم أن عقيدته فاسدة بناء على ما فهمه من كلامه فى مواضع مرجعها إلى إطلاقات معلومة عند السادة الصوفية باصطلاح تخاطبهم ، لا محذور فيها شرعا . فهل يحمل كلام هذا العارف على اصطلاح أهل طريقته ، أم على اصطلاح أهل ملة غير الإسلام ؟ . فما الجواب عن ذلك ؟ أفتونا مأجورين » .

وأنت ترى أن السؤال بصيغته هذه فيه إيحاء بالجواب المطلوب ، وإشعار برأى السلطان .

وقد أجاب الشيخ زكريا على هذا الاستفتاء بعد تمنع شديد ، فقال :

« يحمل كلام هذا العارف — رحمة الله عليه ونفع ببركاته — على اصطلاح

هل طريقته ، بل هو ظاهر فيه عندهم إذ اللفظ المصطلح عليه حقيقة فى معناه الاصطلاحى ، مجاز فى غيره ؛ كما هو مقرر فى محله . ولا ينظر إلى مايوهمه تعبيره فى أبيات فى التائية من القول بالحلول والاتحاد ، فإنه ليس من ذلك فى شىء بقرينتى حاله ومقاله المنظوم فى تائيته بقوله من أبيات فى القصيدة :

ولى من أتم الرتبتين إشارة تنزه عن رأى الحلول عقيدتى

وهذا يصدر عن العارف بالله إذا استغرق فى بحر التوحيد والعرفان ، بحيث تضمحل ذاته فى ذاته ، وصفاته فى صفاته ، ويغيب عن كل ما سواه ؛ بعبارات تشعر بالحلول والاتحاد ، لقصور العبارة عن بيان حالته التى يرقى إليها . كما قال جماعة من علماء الكلام — رضى الله عنهم — ولكن ينبغى كتم تلك العبارات عن من لم يدركها، فما كل قلب يصلح للسر . ولا كل صدف ينطبق على الدر . ولكل قوم مقال . وما كل ما يعلم يقال . وحق لمن لم يدركها ، عدم الطعن فيها ، كما قيل :

وإذا كنت بالمدارك غراً ثم أبصرت حاذقاً لاتمارى

وإذا لم تر الهلال فسلم لأناس رأوه بالأبصار

ولو ذاق المنكر ما ذاق هذا العارف لما أنكر عليه ، كما قال القائل :

ولو يذوق عاذلى صبابتى صبا معى ؛ لكنه ماذاقها

والحالة هذه . والله يمنح بفضله من يشاء بعدله . وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم » .

وقد كان تدخل السلطان واتضاح اتجاهه ، وصدور هذه الفتوى سبباً فى ركود ريح الخلاف والفتنة(١) .

* * *

ونسوق بعض الحوادث فى إيجاز ، فمنها :

١ — أن اسماعيل بن سعيد الكردى المقرى المصرى ، الذى درس

(١) بدائع ابن إياس ج ٢ ص ١١٩ إلى ١٢١ .

القراءات والفقه والعربية ، وكان طلق العبارة سريع الجواب . يحفظ الكثير من التوراة والإنجيل ، كان كثير الهزل فى حديثه لا يتهيب فى تعبيره فيما يتصل بالعقائد ، حتى حفظت عنه كلمات نابية ، اشتهر بها حتى أصبح يقال له « اسماعيل الكافر » و « اسماعيل الزنديق » . فادعى عليه لدى القاضى المالكى « تقى الدين الإخنائى » فخلط فى جوابه . وأقيمت عليه البينة على سقطاته وقذفه فى حق سيدنا لوط ، وحكم القاضى بقتله فى صفر سنة ٧٢٠ هـ[١] .

٢ — أن شمس الدين بن اللبان المتوفى عام ٧٤٩ هـ الذى كان بارعاً فى فنون عدة واشتغل بالتدريس فى زاوية الشافعى ، كان متصوفاً على طريقة الشاذلية . وطار له بذلك صيت عظيم . ولكن ضبطت عليه كلمات على طريقة الاتحادية . فثار ضده الفقهاء وادعى عليه بمجلس القاضى « جلال الدين القزوينى » الشافعى ، والقاضى « شرف الدين عيسى الزواوى » المالكى . وكادوا يبطشون به لولا انتصار ابن فضل الله العمرى له[٢] .

٣ — أن فتح الدين البقق المصرى « أحمد بن محمد » كان فقيهاً وأديباً ماهراً فى فنون عدة . وكان يناظر ويقضى على خصومه فى المناظرة ، ويفوقهم فى المحاضرة . غير أنه بدت منه أمور تدل على استهتاره بالدين ، فادعى عليه لدى القاضى المالكى « زين الدين بن مخلوف » وقامت عليه البينة . فحبس ثم حكم بقتله فضربت عنقه عام ٧٠١ هـ[٣] .

بعض مشهورى المناظرين والمتكلمين فى العقائد ، وشىء من كلامهم :

أشرنا فيما سبق إلى بعض هؤلاء الذين اشتركوا فى المعارك الكلامية والنظر فى العقائد ، ونحب هنا إكمالا لحديثنا عنهم وتدليلا على صوابه أن نعود اليهم لنشير فى إيضاح إلى بعض جهودهم وشىء من كلامهم . فمنهم :

---

(١) الدرر جـ ١ رقم ٩٢٨ .

(٢) الدرر جـ ٣ رقم ٨٨٧ — ولعل ابن فضل الله هو شهاب الدين .

(٣) الدرر جـ ١ .

١ — عز الدين بن عبد السلام :

سبقت الإشارة إليه، وكان قاضياً لمصر، ورأس الشافعية فى زمانه . وكانت به نزعة صوفية سليمة . وتوفى عام ٦٦٠ هـ .

مقالة فى الرد على الحشوية ومبتدعة الحنابلة[١] :

وقد أشرنا إلى النزاع الذى احتدم بينه وبين مبتدعى الحنابلة . وقد كتب فى الرد عليهم مقالة فند فيها مزاعمهم، وقرر مذهب الأشاعرة .

وقد بدأها بحمدالله وتنزيهه عن الولدومماثلة الحوادث، وتعاليه عن الزمان والمكان، والاستواء الحسى على العرش . وذكر أنه مطلع على هواجس الضمائر، محيط بكل شىء علما، قديم متكلم، لا بصوت ولا بحرف .

وبين أن أسماءه تعالى مندرجة فى أربع كلمات هن الباقيات الصالحات، وهن :

« سبحان الله » اندرج تحتها نحو : القدوس والسلام . وتتضمن تنزيهه سبحانه عن كل نقص وعيب .

و « الحمد لله » ويندرج تحتها نحو : العليم والقدير والسميع والبصير، وتتضمن إثبات كل كمال له، وكل جلال .

و « الله أكبر » بمعنى أنه أجل مما نفى عنه ومما أثبت له، ويندرج تحتها نحو الأعلى والمتعالى .

و « لا إله إلا الله » وهى تدل على أن من كان فى الوجود هذا شأنه، لا يوجد من يشاكله أو يناظره، فهو مستحق للعبودية . ويندرج تحتها نحو : الواحد والأحد وذو الجلال والإكرام .

مسائل الطريقة فى علم الحقيقة[٢] :

ويعرف « بالستين » وذلك لأنه يحتوى على ستين مسألة أو ستين سؤالا،

---

(١) راجع طبقات السبكى ج ٥ فى ترجمة ابن عبد السلام . . والحشوية يقولون بالجهة فى جانب الذات الإلهية . ويذهب مبتدعة الحنابلة مذهبهم فى آيات الجهة كما يثبتون الصوت والحرف .

(٢) هذه الرسالة توجد ضمن مجموعة مطبوعة بدار الكتب المصرية .

يتولى الشيخ عز الدين الإجابة على كل منها . وهى أسئلة تدور حول المعانى التصوفية والخلقية ، ويتسم السؤال والجواب بالإيجاز . ومن الأمثلة سؤال عن الإيمان . وسؤال فى تأويل « لاحول ولا قوة إلا بالله » . وسؤال فى الفرق بين الإسلام والإيمان . وهكذا .

وإليك نموذجاً منه ، قال :

(أ) « مسألة » : إذا قيل لك : « ما الإيمان . ومارأس الإيمان . وما وسط الإيمان . وما شجرة الإيمان . وما ماء الإيمان . وما نهر الإيمان » ؟

فالجواب ، أن تقول : « الإيمان هو الصدق . ورأسه التقوى . ووسطه الطاعة واليقين . وعروقه الصلاة والإخلاص . وشجرته الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . وغصنه التوحيد . وثمرته الزكاة . وأرضه المؤمنون . وماؤه كلام الله . ونهره العلم » .

(ب) « مسألة » : « إن قيل لك : لكل شىء جوهرة وجوهرة الإنسان العقل . وما جوهرة العقل » ؟ .

فقل : « جوهرة العقل الصبر ، والعمل بحركات القلوب عند مطالعة الغيوب . وأصل الطاعة الورع . وأصل الورع التقوى . وأصل التقوى محاسبة النفس بالخوف والرجاء من الله تعالى » .

(حـ) « مسألة » إن قيل لك : « ما الذى يجب على الشيخ فى حق المريد ، وما الذى يجب على المريد فى حق الشيخ ؟ » .

فالجواب أن تقول : « على الشيخ ثلاثة أشياء : التسليك فى البداية . والتبليغ فى النهاية . والحفظ فى الرعاية » . والمريد يجب عليه ثلاثة أشياء : « امتثال أمره وكتمان سره وتعظيم قدره » .

(ء) مسألة : إن قيل لك : الجهل على كم قسم « ؟

فقل : « على قسمين ، جهل مركب وجهل بسيط . فالجهل المركب هو

اعتقاد أمر على خلاف ما هو عليه . والجهل البسيط هو عدم إدراك أمر من الأمور بخلاف المركب » .

هذا . وأنت ترى أن بعض عباراته ، لتوخيه الإيجاز فيها ، فى حاجة إلى شرح .

حل الرموز ومفاتيح الكنوز[1] :

موضوع هذا الكتاب الوجيز تصوف خلق أيضا ، ولكن على خط آخر . فقد رأى الشيخ عز الدين أن من الناس من يعترض على بعض الصوفية ولاسيما من تأخذهم الأحوال ، فيتفوهون بعبارات غريبة المجاز خفية الكناية بعيدة التأويل ، أو يظهرون بمظهر مضطرب يأباه الذوق والكياسة ، أو يناقض الشريعة وظاهرها .

أحب الشيخ عز الدين أن يبين لهؤلاء المعترضين سبب هذا التجوز والاضطراب والتناقض ، وأن يفصح لهم عن كنه هذه الرموز ، ويجلى لهم حلها حتى لايتورطوا فى شئ لايعلمون حقيقته .

واشتمل الكتاب على عدة فصول مكتوبة بأسلوب جذاب واضح نسبيا ، على الرغم من خطورة موضوعاتها ، وغرابة معانيها ... وهو يسجع أحيانا حينما يصفو له السجع ، ويسترسل إذا طاوعه اللفظ ، ويستشهد بالآيات والأحاديث ويفسر ويشرح أحيانا ويستنبط أخرى ويسوق المأثور من الشعر والنثر فى مناسباته ، وكثيرا ما يخف ويظرف ، وأحيانا يغلبه التعبير المنطق .

ومن موضوعاته : بيان الفرق بين الإسلام والإيمان والإحسان . شرح معنى التوبة . العقبات الست التى لابد من قطعها حتى يصل المرء إلى منازل القربات مع بيان مايترتب من الفتوح على تخطى كل عقبة . . فناء المحب فى المحبوب وطريقة ذلك وما يتبعه من فيض . وتحدث فى فصول عن صلة العبد بربه وبيان حقيقة هذه الصلة وكيفيتها ، إلى غير ذلك .

---

(١) هذا الكتاب مطبوع بمصر عام ١٣١٧ هـ ومجلد مع كتاب . . « فتح الرحمن » لزكريا الأنصارى ، ويقع فى ٨٦ صفحة .

وقد قال فى فصل يوضح بعض الحالات عند من تخطى العقبات الست :

« هنا لك تغيب بما تشاهد من الآنسية عن الكثائف الحسية . فإذا أرادك لخصوصية الاصطفائية سقاك بكأس محبته شربة تزداد بذلك ظمأ ، وبالذوق شوقا . وبالقرب طلبا ، وبالسكون قلقا . » . ثم قال بعد سطور :

« فإذا تمكن منك هذا السكر أدهشك . فإذا أدهشك حيرك . فأنت ههنا مريد . فإذا أدام لك تحيرك ، أخذك منك . وسلبك عنك . فتبقى ثم مسلوبا مجذوبا . فأنت حينئذ مراد . إذ أنت معه بلا أنت . وعنده بلا أين . مشاهدة بلا كيف . فإذا فنيت ذاتك وذهبت صفاتك قام بصفاته عن صفاتك . وببقائه عن فنائك . وخلع عليك خلعة « بى يسمع وبى يبصر » . فيكون هو متوليك ومواليك . فإن نطقت فبأذكاره . وإن نظرت فبأنواره . وإن تحركت فبأقداره. فهنالك ذهبت الأثنينية . واستحالت البينية . فإذا رسخ قدمك وتمكن سرك ، وحار سكرك ، قلت : « هو » . وإن غلب وجدك وتجاوز بك سكرك عن حد الثبوت قلت : « أنا » . فأنت فى الأول متمكن ، وفى الثانى متلون . ومن هنا أشكل على الأفهام حال رمز هذا الكلام . فقائل يقول : « زنديق فيقتل » . وقائل يقول : « صديق فيحمل » . وقائل يقول : « مغلوب عليه فيهمل » . فهو من حيث تحقيق حاله محقق فى علمه . والذى حكم فى قتله مصيب فى حكمه . إذ الشريعة لها حدود ، من تعداها أقيمت عليه الحدود . قال الله تعالى : « تلك حدود الله فلا تعتدوها » . والحقيقة لها شهود خارج عن طور هذا الوجود » .

٢ — تقى الدين بن تيمية الحرانى

سبقت الإشارة إلى هذا العلامة وإلى بعض حوادث كفاحه . والآن نعرض على القارئ بعض رسائله ومقالاته . فمنها :

كتاب « الإيمان » (١)

هذا الكتاب من أفضل كتب ابن تيمية . تحدث فيه عن « الإيمان » وما يتصل به . وعقد لذلك فصولا متوالية متواصلة تحسبها فصلا واحدا ، وهذا دليل وحدة فكره .

وهو فى صميم العقائد ورد فيه على مزاعم الجهمية والمعطلة ، وأضرابهم .

ومن فصوله أو موضوعاته : تفريق النبي صلى الله عليه وسلم بين الإسلام والإيمان . بيان علم معنى المؤمن والمسلم والمهاجر . تفسير قوله تعالى : « أولئك هم المؤمنون حقا » . العلم علمان : علم القلب وعلم اللسان . خشوع الجسد تبع لخشوع القلب . إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر . إجماع المؤمنين حجة الخ

ويستطرد الباحث المؤلف إلى موضوعات مختلفة منها تفسير آيات من القرآن الكريم فى مناسباتها . ومنها بحوث أدبية أو تاريخية أو لغوية .

ولعل من أجمل بحوثه الجديرة بالنظر . كلامه عن « الحقيقة والمجاز » . وهو ينكر وقوع المجاز فى اللغة . ويؤرخ أقوال العلماء فى هذا الموضوع مستشهداً بها . ويقول إن العلماء لم يتحدثوا عن المجاز إلا فى القرن الثالث أو أواخر القرن الثانى . أما قبل ذلك فلم يتحدث أحدهم عنه ولم يعرفوه .

وأول من عرف أنه تكلم بلفظ « المجاز » هو أبو عبيدة . ولكنه لم يكن يعنى بالمجاز ، ما عناه علماء البلاغة فيما بعد . بل كان يعنى تفسير آى القرآن(٢).

وأسلوب كتاب «الإيمان» مرسل فى جملته ، واضح الدلالة ، غزير المعانى ، متتابع الصور فى عجلة مصحوبة بآيات القرآن والأحاديث وأقوال العلماء فى مقام الاستدلال . ويسوق فى خلال ذلك أحيانا أقوال المعارضين ، ويدحضها ويعمل على إبطالها فى حجة قوية حاسمة ، ذلك لأنه يتحدث بقلبه وعقله معا .

---

(١) كتاب مطبوع .

(٢) لأبى عبيدة كتاب اسمه «مجاز القرآن» ، ومنه نسخة مخطوطة بدار الكتب المصرية تحتاج إلى تحقيق . وهى تفسير لبعض آى القرآن الكريم فى إيجاز .

وقد تحدث فى خطبته مفصحاً عن منهج بحثه فيه ، فقال :

« اعلم أن الإيمان والإسلام يجتمع فيهما الدين كله . وقد كثر كلام الناس فى حقيقة الإيمان والإسلام ، ونزاعهم واضطرابهم . وقد صنف فى ذلك مجلدات .

والنزاع فى ذلك من حين خرجت الخوارج بين عامة الطوائف . ونحن نذكر ما يستفاد من كلام النبى صلى الله عليه وسلم مع كلام الله تعالى . فيصل المؤمن إلى ذلك من نفس كلام الله ورسوله . فإن هذا هو المقصود . فلا نذكر اختلاف الناس ابتداء ، بل نذكر من ذلك فى ضمن بيان ما يستفاد من كلام الله ورسوله ، ما يبين أن رد موارد النزاع إلى الله وإلى الرسول خير وأحسن تأويلا ، وأحسن عاقبة فى الدنيا والآخرة » .

وقال فى بعض فصوله مبينا معنى المسلم والمؤمن والمهاجر والمجاهد :

« المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده . والمؤمن من أمنه الناس على دمائهم وأموالهم . والمهاجر من هجر السيآت . والمجاهد من جاهد نفسه لله » .

وهذا مروى عن النبى صلى الله عليه وسلم ، من حديث عبد الله بن عمرو وفضالة بن عبيد وغيرهما بإسناد جيد ، وهو فى السنن ، وبعضه فى الصحيحين .

وقد ثبت عنه من غير وجه : « المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده . والمؤمن من أمنه الناس على دمائهم وأموالهم » .

ومعلوم أن من كان مأموناً على الدماء والأموال ، كان المسلمون يسلمون من لسانه ويده . ولولا سلامتهم منه لما ائتمنوه . وكذلك فى حديث عبيد بن عمير عن عمرو بن عبسة . وفى حديث عبد الله بن عبيد بن عمير أيضاً عن أبيه عن جده ، أنه قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم :

ما الإسلام ؟ قال : « إطعام الطعام وطيب الكلام » . قيل : فما الإيمان ؟ قال : « السماحة والصبر » . قيل : فمن أفضل المسلمين إسلاماً . قال : « من سلم المسلمون من لسانه ويده » . قيل : فمن أفضل المؤمنين إيمانا . قال : « أحسنهم

خلقا » . قيل : فما أفضل الهجرة قال : « من هجر ما حرم الله عليه » . قيل : أى الصلاة أفضل . قال : « طول القنوت » . قيل : أى الصدقة أفضل ؟ قال : « جهد المقل » . قيل : أى الجهاد أفضل . قال : « أن تجاهد بمالك ونفسك فيعقر جوادك ويراق دمك » . قيل : أى الساعات أفضل قال : « جوف الليل الغابر » .

ومعلوم أن هذا كله مراتب بعضها فوق بعض . وإلا فالمهاجر لابد أن يكون مؤمنا . وكذلك المجاهد . ولهذا قال : الإيمان السماحة والصبر . وقال فى الإسلام : « إطعام الطعام وطيب الكلام » .

والأول مستلزم للثانى . فإن من كان خلقه السماحة ، فعل هذا . بخلاف الأول . فإن الإنسان قد يفعل ذلك تخلقا ، ولا يكون فى خلقه سماحة وصبر . وكذلك قال : « أفضل المسلمين من سلم المسلمون من لسانه ويده » . وقال : « أفضل المؤمنين إيمانا أحسنهم خلقا » . ومعلوم أن هذا يتضمن الأول . فمن كان حسن الخلق فعل هذا".

العقيدة الواسطية والمناظرة فى موضوعاتها (١) :

هى مقالة مذهبية كتبها ابن تيمية لما شكا إليه بعض قضاة واسط ، من أهل الخير والدين ، ما الناس فيه من جهل وظلم وبعد عن الدين والعلم . سأله أن يكتب لهم « عقيدة » ليستنيروا بها — وكان ذلك قبل مجىء التتار إلى الشام بنحو سبع سنين . وقد رد عليه ابن تيمية بأن الناس كتبوا من قبل عقائد السلف ، ولكن السائل ألح عليه فى السؤال ، فكتب له هذه العقيدة وسماها « الواسطية » وهى التى حوكم مرة من أجلها فى مجلس « الأفرم » نائب الشام .

وتقع هذه العقيدة فى نحو أربعمائة سطر . وقد أوجزها أولا فى سطرين ، ثم أخذ يشرحها ويبسط القول فيها معززا بالأسانيد العقلية والنقلية .

أما إجمالها فى سطرين فقد قال فيه :

---

(١) مطبوعة ضمن مجموعة الرسائل الكبرى لابن تيمية .

« اعتقاد الفرقة الناجية المنصورة إلى قيام الساعة ، أهل السنة والجماعة : الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله ، والبعث بعد الموت ، والإيمان بالقدر خيره وشره » .

وفى عداد الموضوعات التى تناولها فى خلال شرحه : صفات الله سبحانه وتعالى . وقد تناظر ابن تيمية مع لفيف من العلماء بمجلس الأفرم ، فى هذه العقيدة ، إذ أخذ كاتب الأفرم فى قراءتها على الحاضرين حرفاً حرفاً ويعترض بعضهم ويجيب ابن تيمية على اعتراضه ، ويسأله بعضهم ويرد ابن تيمية على سؤاله . وهكذا — ونورد لك من سطور هذه المناظرة الحامية حول العقيدة الواسطية ، ما دار حول صفات الله سبحانه وتعالى .

قال ابن تيمية :

" اعترض بعضهم على قولى فيها : « ومن الإيمان بالله ، الإيمان بما وصف به نفسه ووصفه به رسوله ، من غير تحريف ولا تعطيل ولا تكييف ولا تمثيل » . ومقصوده أن هذا ينفى التأويل الذى هو صرف اللفظ عن ظاهره إما وجوبا وإما جوازا . فقلت :

إنى عدلت عن لفظ التأويل إلى لفظ التحريف ، لأن التحريف اسم جاء القرآن بذمه . وأنا تحريت فى هذه العقيدة اتباع الكتاب والسنة . فنفيت ما ذمه الله من التحريف ولم أذكر فيها لفظ التأويل ، لأنه لفظ له عدة معان كما بينته فى موضعه من القواعد . فإن معنى لفظ التأويل فى كتاب الله غير لفظ التأويل فى اصطلاح المتأخرين من أهل الأصول والفقه ، وغير معنى التأويل فى اصطلاح كثير من أهل التفسير والسلف .

وقلت لهم : « ذكرت فى النفى التمثيل ولم أذكر التشبيه ، لأن التمثيل نفاه الله بنص كتابه حيث يقول : « ليس كمثله شىء » .

وأخذوا يذكرون نفى التشبيه ، والتجسيم ، ويطنبون فى هذا ، ويعرضون بما ينسبه بعض الناس إلينا من ذلك . فقلت :

« قولى من غير تكييف ولا تمثيل ، ينفى كل باطل . وإنما اخترت هذين الاسمين لأن التكييف مأثور نفيه عن السلف . كما قال ربيعة ومالك وابن عيينة وغيرهم المقالة التى تلقاها العلماء بالقبول : « الاستواء معلوم . والكيف مجهول والإيمان به واجب . والسؤال عنه بدعة » — فاتفق هؤلاء السلف على أن الكيف غير معلوم لنا . فنفيت ذلك اتباعا لسلف الأمة . وهو أيضاً منفى بالنص ، فإن تأويل آيات الصفات يدخل فيها حقيقة الموصوف ، وحقيقة صفاته غير معلومة . وهذا من التأويل الذى لا يعلمه إلا الله . كما قررت ذلك فى قاعدة مفردة ذكرتها فى التأويل والمعنى ، والفرق بين علمنا بمعنى الكلام وبين علمنا بتأويله .

وكذلك التمثيل منفى بالنص والإجماع القديم مع دلالة العقل على نفيه ونفى التكييف ، إذ كنه البارى غير معلوم للبشر .

وذكرت فى ضمن ذلك ، كلام الخطَّابى الذى نقل أنه مذهب السلف ، وهو إجراء الصفات وأحاديثها على ظاهرها مع نفى الكيفية والتشبيه عنها ، إذ الكلام فى الصفات فرع الكلام فى الذات ، يحتذى حذوه ويتبع فيه مثاله . فإذا كان إثبات الذات إثبات وجود ، لا إثبات تكييف ، فكذلك إثبات الصفات إثبات وجود ، لا إثبات تكييف » .

فقال أحد كبراء المخالفين : فحينئذ يجوز أن يقال « هو جسم لا كالأجسام » فقلت له أنا وبعض الفضلاء : إنما قيل إنه يوصف الله بما وصف به نفسه ، وبما وصفه به رسوله . وليس فى الكتاب والسنة أن الله جسم حتى يلزم هذا . وأول من قال إن الله جسم ، هشام بن الحكم الرافضى . وأما قولنا فهو فيهم الوسط فى فرق الأمة ، كما أن الأمة هى الوسط فى الأمم ، فهم وسط فى باب صفات الله بين أهل التعطيل الجهمية ، وأهل التمثيل المشبهة " . . الخ . .

العقيدة الحموية الكبرى : (١)

تقع فى نحو ألف سطر . وهى رد على سؤال ورد إلى ابن تيمية فى آيات

---

(١) العقيدة الحموية الكبرى مطبوعة ضمن مجموعة وبدار الكتب المصرية نسخة منها .

الصفات كقوله تعالى : « الرحمن على العرش استوى » . وقوله : « ثم استوى إلى السماء » ، إلى غير ذلك من الآيات . وأحاديث الصفات أيضاً كقوله صلى الله عليه وسلم « إن قلوب بنى آدم بين أصبعين من أصابع الرحمن » . وقوله : « يضع الجبار قدمه فى النار » إلى غير ذلك .

وقد أشار ابن تيمية فى مستهلها إلى ضرورة هداية الناس ، مبينا اختلافاتهم فى فهم كثير من الأمور التى ينبغى عليهم فيها الرجوع إلى القرآن والحديث ، وأن يقفوا عندهما .

وتحدث فيها طويلا عن جهة العلو والاستواء ونحوهما ، بما لا يخرج عما ذكرناه عنه من قبل . وأسلوبه فيها كأسلوبه فى العقيدة الحموية ومناظرته . فنكتفى بهذا .

ونكتفى بهذا أيضاً عن التعريف بكثير من مؤلفات ابن تيمية فإنها جميعاً تكاد تكون على نسق واحد من العناية بالكلام فى العقائد ومزجه بالتفسير والحديث والنقليات الأخرى ، مع وضوح وسعة شرح ودقة تعبير .

شمس الدين بن القيم :

سبق أن تحدثنا عن ابن القيم ونوهنا بشىء من جهاده فى سبيل العلم والدين والرأى ، وألمعنا إلى بعض صلاته بأستاذه ابن تيمية .

وابن القيم الحنبلى يكاد يكون صورة من ابن تيمية فى تفكيره ، لولا سلوكه مسلك الصوفية ، ولذلك لم يحمل عليهم ولم يتنقصهم كما تنقصهم ابن تيمية .

ولعل أهم وجوه الشبه بين الرجلين : تدفقهما فى العبارة ، وقوتهما فى بيان الحجة ، وإيمانهما التام بما يقولان ، وفهمهما الدقيق له ، وتقديرهما الأمانة العلمية التى حملاها فأدياها ، ورجوعهما فى كل مايذهبان إليه إلى الكتاب والسنة وأقوال السلف الصالح ، والاستشهاد بها فى كل مناسبة ، ثم مزجهما الكلاميات بمقالات التفسير وشرح الحديث .

ولا بن القيم ، كأستاذه ، مقالات ورسائل ومؤلفات لا تحصى ، نذكر منها مما يختص بموضوع بحثنا ما يلى :

مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين :

هذا الكتاب شرح لكتاب « منازل السائرين » لأبي اسماعيل الأنصاري الحنبلي الهروي أحد الصوفية[1] في القرن الخامس الهجري .

ومنازل السائرين متن في التصوف والأخلاق شديد الإيجاز ، فيه غموض وإبهام ومصطلحات صوفية شاقة . وقد عنى ابن القيم يشرحه شرحاً مستفيضا في كتاب « مدارج السالكين » فأجاد وأفاد ، حتى لا يحسب بجانبه متن الهروي شيئا مذكوراً .

وقد جمع ابن القيم في شرحه بين السنة والرأى ، أو المنقول والمعقول . فلا هو إلى جماعة أهل الأثر ، ولا هو إلى غلاة المتصوفة أو المتأولين . فهو بينهما وسط صالح . وقسم كتابه ثلاثة أجزاء .

وفي الجزء الأول : عنى بتفسير فاتحة القرآن تفسيراً مفصلا شائقاً ، مبيناً ما تحتوى عليه من المعاني الكثيرة المنثورة في القرآن كله ، ومن التوحيد . وتحدث في سطوره عن الهداية والوحي والرقية بالفاتحة . ورد على كثير من أهل الفرق المبتدعة . وتكلم عن الذنب والمعصية والتوبة والاستغفار وغيرها .

وفي الجزء الثاني : شرح معنى الإخبات والورع والزهد والتبتل والرغبة والرعاية والمراقبة والاعتراض والإخلاص والتوكل المحمود والمذموم ، والاستقامة والشكر والإيثار والبخل والجود والمروءة ، إلى غير ذلك .

وفي الجزء الثالث : عرف بالهمة والمحبة والغيرة والشوق والوجد والأمل والذوق والاغتراب والغيبة والمشاهدة والمعاينة والحياة والقبض والبسط والسكر والصحو والاتصال والمعرفة والفناء والبقاء ، وغير ذلك .

ويبدو من هذا التدرج في موضوعات الأجزاء الثلاثة ، أن ابن القيم أراد — كما أراد الهروي — أن يتدرج بالسالك من حالته الأولى إلى الحالة العليا . فبين

---

(١) الهروي هو عبد الله بن محمد بن علي ، توفي في ذي الحجة عام ٤٨١ هـ وترجمته في تذكرة الحفاظ للذهبي ج ٣ الطبقة الرابعة .

فى الجزء الأول كيفية رياضة النفس ، وفى الثانى المقامات الحسنى والأخلاق النافعة التى إذا ثبت عليها وثابر ، بلغ المرتبة الثالثة ، وهى التى شرح أحوالها فى الجزء الثالث . وفيها يعى أشياء ويتذوق أشياء ما كان له أن يعيها ولا أن يتذوقها من قبل .

وقد ركز ابن القيم أكثر كلامه حول قوله تعالى «إياك نعبد وإياك نستعين » ، وبين فى روح إسلامية صحيحة وبنظرة سليمة عالية ، ما فيها من الحقائق الرائعة والمعانى الرفيعة الجامعة .

وقد قال فى خطبة كتابه هذا ، يعرّض بمن لم يفهموا كتاب الله حق الفهم ، ولم يعملوا به ، ويتهكم بهم تهكما مرا ، قال :

« أنزلوا النصوص منزلة الخليفة فى هذا الزمان . له السكة والخطبة ، وماله حكم نافذ ولا سلطان . المتمسك عندهم بالكتاب والسنة ، صاحب ظواهر مبخوس حظه من المعقول . والمقلد للآراء المتناقضة المتعارضة ، والأفكار المتهافتة لديهم هو الفاضل المقبول . وأهل الكتاب والسنة المقدّمون لنصوصها على غيرها ، جهال لديهم منقوصون . « وإذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس ، قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء ، ألا إنهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون » . حرموا — والله — الوصول ، بعدولهم عن منهج الوحى وتضييعهم الأصول . وتمسكوا بأعجاز لا صدور لها . فخانتهم أحرص ما كانوا عليها . وتقطعت بهم أسبابها أحوج ما كانوا إليها ، حتى إذا بعثر ما فى القبور . وحصل ما فى الصدور . وتميز لكل قوم حاصلهم الذى حصلوه . وانكشفت لهم حقيقة ما اعتقدوه . وقدموا على ما قدموه . وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون . وسقط فى أيديهم عند الحصاد لما عاينوا غلة ما بذروه . فياشدة الحسرة عندما يعاين المبطل سعيه وكده هباء منثوراً . ويا عظم المصيبة عند ما يتبين بوارق أمانيه خلبا وآماله كاذبة غرورا . فما ظن من انطوت سريرته على البدعة والهوى والتعصب للآراء ، بربه يوم تبلى السرائر . وما عذر من نبذ الوحيين وراء ظهره فى يوم لا تنفع الظالمين فيه المعاذير » الخ . . .

شفاء العليل[١]:

واسمه الكامل « شفاء العليل فى مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل » . وموضوعه واضح من عنوانه فهو يفصل الحديث عن مشكلة القضاء والقدر ، وما يتصل بها من الحديث عن صفات الله سبحانه وتعالى ، ومظاهرها ، وعن أفعال العباد وما يترتب عليها من ثواب وعقاب ، وغير ذلك من المسائل الشائكة فى العقيدة .

وقد تحدث ابن القيم عن اختلاف العقلاء فى ذلك ، وعن تباين الأمم وأهل العصور فى فهمه والوصول إلى حقيقة أمره . وجعل همه فى هذا الكتاب أن يبين وجه الحق فى هذه المسائل ، كما فهمه من كتاب الله وسنة نبيه عليه الصلاة والسلام . وتطرق فى خلال فصوله إلى الحديث عن كثير من أهل المذاهب مع التفرقة بينهم كأهل السنة والقدرية والجبرية .

ومن فصوله : تقدير المقادير قبل خلق السموات والأرض . تقديره تبارك وتعالى شقاوة العباد وسعادتهم وأرزاقهم وآجالهم وأعمالهم قبل خلقهم . أن سبق المقادير بالشقاوة والسعادة لا يقتضى ترك الأعمال . تفسير قوله تعالى : « إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون » .

وتحدث فى فصول عن : مراتب القضاء والقدر . والمشيئة . وعن خلق الله للأعمال . والكسب والجبر . وتنزيه القضاء الإلهى عن الشر . وعن أن من أصول الإيمان : الإيمان بالقدر خيره وشره . حلوه ومره . . الخ » . .

كل هذا فى عبارة واضحة سلسة بعيدة عن التعقيد ، تتراءى إليك معانيها طيعة مدعومة بالآيات والأحاديث فى مناسباتها الدقيقة ، مزودة بحججها القوية وبراهينها الساطعة ، على الرغم من فداحة الموضوعات وقسوة تصورها وعمق مراميها . يزجيها هينة لا كلفة فيها ولا قيود إلا ما يسنح بين آونة وأخرى .

ونحن نجتزئ من هذه الرسالة الفريدة بأن نثبت سطورا من مناظرتين

---

(١) هذا الكتاب مطبوع يقع فى نحو ٣٠٧ صفحة .

قيمتين سجلهما ابن القيم فيها بقلمه . وفيهما يبدو الحوار حاميا ، والنقاش قاسياً . وكل يحاول تعزيز رأيه بالحجة والمنطق .

المناظرة الأولى : عقدها بين جبرى وسنى . وتقع فى نحو أربعمائة سطر قال فى أولها :

قال الجبرى :

القول بالجبر لازم لصحة التوحيد . ولا يستقيم التوحيد إلا به . لأنا إن لم نقل بالجبر أثبتنا فاعلا للحوادث مع الله ، إن شاء فعل ، وإن شاء لم يفعل . وهذا شرك ظاهر لا يخلص منه إلا القول بالجبر .

قال السنى :

بل القول بالجبر مناف للتوحيد . ومع منافاته للتوحيد فهو مناف للشرائع ودعوة الرسل والثواب والعقاب . فلو صح الجبر لبطلت الشرائع وبطل الأمر والنهى . ويلزم من بطلان ذلك بطلان الثواب والعقاب .

قال الجبرى:

ليس من العجيب دعواك منافاة الجبر للأمر والنهى والثواب والعقاب فإن هذا لم يزل يقال . وإنما العجب دعواك منافاته للتوحيد . وهو من أقوى أدلة التوحيد . فكيف يكون المصور للشيء المقوى له منافيا له .

قال السنى :

منافاته للتوحيد من أظهر الأمور . ولعلها أظهر من منافاته الأمر والنهى . وبيان ذلك أن أصل عقيدة التوحيد وإثباته هو شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمدا رسول الله . والجبر ينافى الكلمتين . فإن الإله هو المستحق لصفات الكمال ، المنعوت بنعوت الجلال . وهو الذى تؤلهه القلوب وتصمد إليه بالحب والخوف والرجاء . فالتوحيد الذى جاءت به الرسل هو إفراد الرب بالتأله ، الذى هو كمال الذل والخضوع والانقياد له مع كمال المحبة والإنابة وبذل الجهد فى طاعته ومرضاته ، وإيثار محابه ومراده الدينى على محبة العبد ومراده .

فهذا أصل دعوة الرسل وإليه دعوة الأمم وهو التوحيد الذى لا يقبل الله من أحد دينا سواه ، لا من الأولين ولا من الآخرين . وهو الذى أمر به رسله ، وأنزل به كتبه ودعا إليه عباده ، ووضع لهم دار الثواب والعقاب لأجله ، وشرع الشرائع لتكميله وتحصيله . وكان من قولك أيها الجبرى : أن العبد لا قدرة له على هذا ألبتة ، ولا أثر له فيه ولا هو فعله وأمره . بهذا أمر له بما لا يطيق .. بل أمر له بإيجاد فعل الرب . والرب سبحانه أمره بذلك وأجبره على ضده . وحال بينه وبين أمره به ومنعه وصده عنه . ولم يجعل له إليه سبيلا بوجه من الوجوه . مع قولك إنه لا يحب ولا يحب . فلا تتألهه القلوب بالمحبة والود والشوق والطلب وإرادة وجهه . والتوحيد معنى ينتظم من إثبات الإلهية وإثبات العبودية . فرفعت معنى الإلهية بإنكار كونه محبوبا مودوداً تتنافس القلوب فى محبته وإرادة وجهه والشوق إلى لقائه . ورفعت حقيقة العبودية بإنكار كون العبد فاعلا وعابدا ومحبا . فإن هذا كله مجاز لا حقيقة له عندك ، فضاع التوحيد بين الجبر وإنكار محبته وإرادة وجهه . لا سيما والوصف الذى وصفته به منفر للقلوب عنه حائل بينها وبين محبته . فإنك وصفته بأنه يأمر عبده بما لا قدرة له على فعله . وينهاه عما لا يقدر على تركه . بل يأمره بفعله هو سبحانه . وينهاه عن فعله هو سبحانه . ثم يعاقبه أشد العقوبة على مالم يفعله ألبتة بل يعاقبه على أفعاله هو سبحانه ... » إلى آخر ما قال السنى ، وآخر ما تناظرا فيه .

المناظرة الثانية : عقدها بين قدرى وسنى . وتقع فى نحو ٨٠٠ سطر . قال فى أولها :

قال القدرى :

قد أضاف الله الأعمال إلى العباد بأنواع الإضافة العامة والخاصة . فأضافها إليهم بالاستطاعة تارة كقوله : « ومن لم يستطع منكم طولا أن ينكح المحصنات المؤمنات » . وبالمشيئة تارة كقوله : « لمن شاء منكم أن يستقيم » . وبالإرادة تارة كقول الخضر : « فأردت أن أعيبها » . وبالعقل والكسب والصنع كقوله :

«يفعلون» و «يعملون» و «بما كنتم تكسبون» و «لبئس ما كانوا يصنعون».

وأما بالإضافة الخاصة فكإضافة الصلاة والصيام والحج والطهارة والزنا والسرقة والقتل والكذب والكفر والفسوق وسائر أفعالهم إليهم. وهذه الإضافة تمتنع إضافتها إليه. كما أن إضافة أفعاله تعالى، تمتنع إضافتها إليهم. فلا تجوز إضافة أفعالهم إليه سبحانه دونهم، ولا إليه معهم. فهي إذن مضافة إليهم دونه.

قال السني:

هذا الكلام مشتمل على حق وباطل. أما قولك إنه أضاف الأفعال إليهم فحق لا ريب فيه. وهذا حجة لك على خصومك من الجبرية. وهم يجيبونك بأن هذا الإسناد لا حقيقة له. وإنما هو نسبة مجازية صححها قيام الأفعال بهم. كما يقال: جرى الماء وبرد وسخن، ومات زيد». ونحن نساعدك على بطلان هذا الجواب، ومنافاته للعقول والشرائع والفطر.

ولكن قولك: «هذه الإضافة تمنع إضافتها إليه سبحانه»، كلام فيه إجمال وتلبيس. فإن أردت بمنع الإضافة إليه منع قيامها به ووصفه بها وجريان أحكامها عليه، واشتقاق الأسماء منه له، فنعم، هي غير مضافة إليه بشيء من هذه الاعتبارات والوجوه. وإن أردت بعدم إضافتها إلى علمه بها وقدرته عليها، ومشيئته العامة وخلقه، فهذا باطل. فإنها معلومة له سبحانه مقدورة له مخلوقة. وإضافتها إليهم لا تمنع هذه الإضافة. كالأموال، فإنها مخلوقة له سبحانه، وهي ملكه حقيقة، قد أضافها إليهم. فالأعمال والأموال خلقه وملكه، وهو سبحانه يضيفها إلى عبيده، وهو الذي جعلهم مالكيها وعامليها. فصحت النسبتان. وحصول الأموال بكسبهم وإرادتهم كحصول الأعمال. وهو الذي خلق الأموال وكاسبيها، والأعمال وعامليها. فأموالهم وأعمالهم ملكه وبيده. كما أن أسماعهم وأبصارهم وأنفسهم ملكه وبيده. فهو الذي جعلهم يسمعون ويبصرون ويعملون فأعطاهم حاسة السمع والبصر وقوة السمع والبصر، وفعل الأسماع والأبصار. وأعطاهم آلة العمل وقوة العمل ونفس العمل. فنسبة قوة

العمل إلى اليد، والكلام إلى اللسان ، كنسبة الكلام والبطش إلى محلهما . وإن كانوا هم الذين خلقوا لأنفسهم الرؤية والسمع ، فهل خلقوا محلهما وقوى المحل ؟ ... والأسباب الكثيرة التى تصلح معها الرؤية والسمع ؟ أم الكل خلق من هو خالق كل شيء وهو الواحد القهار ؟ » .

إلى آخر ما تناظرا فيه ...

وواضح من سياق هذه السطور الموجزة ، أن هاتين المناظرتين كانتا فى صالح السنى أكثر من مناظريه ...

شهاب الدين بن جبريل الكلابى الحلبى [1] :

هو أحمد بن يحيى بن إسماعيل المتوفى عام ٧٣٧ هـ . وقد صنف تصنيفاً يقع فى نحو ٨٠٠ سطر ، فى خبر الجهة ، ورد فيه على ابن تيمية .

وقد بدأ هذا التصنيف بخطبة حمد الله فيها وأثنى عليه تعالى وعلى نبيه ، ونزهه عما يقوله أهل الغى والضلال قائلا :

« لا يحمله العرش . بل العرش وحملته محمولون بلطيف قدرته . مقهورون فى قبضته . أحاط بكل شيء علماً ، وأحصى كل شيء عدداً . مطلع على هواجس الضمائر وحركات الخواطر . فسبحانه . ما أعظم شانه . وأعز سلطانه !! » .

وقد أخذ يبين السبب فى تسطير نبذته فقال :

« أما بعد فالذى دعا إلى تسطير هذه النبذة ما وقع فى هذه المدة مما علقه بعضهم فى إثبات الجهة ، واغتر بها من لم يرسخ فى التعليم قدمه . ولم يتعلق بأذيال المعرفة ، ولا كبحه لجام الفهم ، ولا استبصر بنور الحكمة . فأحببت أن أذكر عقيدة أهل السنة والجماعة ، ثم أبين فساد ما ذكره مع أنه لم يدع دعوى إلا نقضها ولا اطرد قاعدة إلا هدمها » .

وأخذ يبين مذهب الحشوية فى إثبات الجهة ويزيفه ، وقد قسمهم فريقين:

---

(١) ترجمته فى طبقات السبكى جـ ٥ ص ١٨١ ، وبها نص هذا التصنيف بتمامه .

فريق لا يتحاشى فى إظهار الحشو ، وفريق يتستر بمذهب السلف ، لغاية من سحت أو حطام أو هوى أو نحوه . وفى هذا الفريق من يكذب على السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار ، ويزعم أنهم يقولون بمقالته وقال .

« وهؤلاء يتحلون بالرياء والتقشف ، فيجعلون الروث مفضضاً ، والكنيف مبيضاً . ويزهدون فى الذرة ليحصلوا الذرة . فأظهروا للناس نسكا وعلى المنقوش داروا .

ومذهب السلف إنما هو التوحيد والتنزيه . دون التجسيم والتشبيه . والمبتدعة تزعم أنها على مذهب السلف .

وكل يدعون وصال ليلى   وليلى لا تقر لهم بذاكا »

وتحدث عن الخوارج والجهمية وكيف وقف لهم السلف . وبين أن السلف لم يكونوا يتكلمون فى شيء من الجهة ، بل قصروا همهم على الدعوى إلى التقوى والغزو وأفعال الخير والحث على العبادة . وأنه لم يؤثر عن النبي أو أحد أصحابه أنه جمع الناس وحدثهم فى صفات الله ، أو جهة علوه ، ثم قال عن الحشوية :

« ثم الحشوية إذا بحثوا فى مسائل أصول الدين مع المخالفين تكلموا بالعقول وتصرفوا فى المنقول . فإذا وصلوا إلى الحشو تبلدوا وتأسوا . فتراهم لا يفهمون بالعربية ولا بالعجمية ، كلا . . والله لو فهموا لهاموا ، ولكن اعترضوا بحر الهوى ، فشقوه وعاموا . وأسمعوا كل ذى عقل ضعيف وذهن سخيف . وخالفوا السلف فى الكف عن ذلك مع العوام ، ولقد كان الحسن البصرى رضى الله عنه إذا تكلم فى علم التوحيد أخرج غير أهله . وكانوا رحمهم الله تعالى . لا يتكلمون فيه إلا مع أهل السنة منهم ، إذ هى قاعدة أهل التحقيق . وكانوا يضنون به على الأحداث ، وقالوا : « الأحداث هم المستقلون الأمور المبتدئون فى الطريق . فلم يجربوا الأمور ولم يرسخ لهم فيها قدم ، وإن كانوا أبناء سبعين » . وقال سهل رضى الله عنه : « لا تطلعوا الأحداث على الأسرار قبل تمكنهم من اعتقاد أن الإله واحد ، وأن الموجد فرد صمد منزه عن الكيفية والأينية ،

لا تحيط به الأفكار ولا تكيفه الألباب » . وهذا الفريق لا يكتفى من إيمان الناس إلا باعتقاد الجهة . وكأنه لم يسمع الحديث الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم : « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله » .

وأخذ يستنكر الخوض من العوام فى هذه الأمور . واستطرد حتى أجمل عقيدة أهل السنة فقال : « عقيدتنا أن الله قديم أزلى لا يشبه شيئاً ولا يشبهه شيء ، ليس له جهة ولا مكان ولا يحتوى عليه وقت ولا زمان . ولا يقال له أين ولا حيث يُرى . لا عن مقابلة ولا على مقابلة . كان ولامكان . كوّن المكان ودبر الزمان . وهو الآن على ما عليه كان . هذا مذهب أهل السنة وعقيدة مشايخ الطريق — رضى الله عنهم » .

ثم طفق يوضح ما غمض فى هذه العقيدة ، ويفصل ما أجمل مستنداً إلى القرآن والحديث وتفاسير الأئمة والصالحين . وتحدث فى التنزيه ، وأقام الحجة على نفى الجهة والتشبيه ، رادا على ابن تيمية فى ذلك ، مبيناً فساد رأيه فى تفسير الآيات : «إليه يصعد الكلم الطيب » . و« إنى متوفيك ورافعك إلىّ » . ذاهباً إلى أن الرفع يكون فى المرتبة والتقرب فى المكانة ، ويشهد لذلك عرف العرب ... الخ .

هذا ويبدو أن الخلاف بين ابن تيمية ومعارضيه خلاف لفظى ، أتى من الحرص على التعبير عن المعانى بطريق لفظى خاص . وذلك أن ابن تيمية يرى أن الله فى قوله تعالى : « استوى على العرش » استوى استواء حقيقياً لا مجازياً . وحجته فى ذلك أنه لا يخرج عن التعبير القرآنى ، وأنه لا يذهب مذهب أهل المجاز ولا يقره ، وأنه ينبغى ألا يفهم كلام الله عن طريق المجاز . بل كلامه سبحانه حقيقة لا مجاز فيها . واللغة تتسع للتعبير الحقيق ، عن المعنى المجازى ، إذا أراده الله سبحانه ، فلا داعى إذن للتفسير المجازى . ثم إنه يوضح هذا الاستواء الحقيق بأنه بلا كيفية ولا تمثيل ولا تشبيه ، فهو من هذه الناحية بعيد عن التجسيم .

أما معارضوه فإنهم يفهمون من كلامه أنه التجسيم ، شأنه فى ذلك شأن مبتدعة الحنابلة . وهو من ذلك براء . أما هم فينزهون الله سبحانه تنزيهاً مطلقاً .

وإلى هنا نكتفى بعرض النماذج الكلامية . ونسرد عليك أسماء رجال آخرين اشتهروا بمقدرتهم على المناظرة المذهبية ، فنهم :

١ — برهان الدين الزرعى المتوفى عام ٧٤١ ﻫ ، كان إليه المنتهى فى التحرى وصحة الذهن وسرعة الإدراك وقوة المناظرة[١] .

٢ — علاء الدين الباجى المتوفى عام ٧١٤ ﻫ ، وقد أشرنا إلى أنه ممن ناظر ابن تيمية . وكان شافعى المذهب ماهراً فى عدة علوم قديراً على المناظرة . وقد قيل : « قال الشيخ الأصفونى : كنا عند ابن دقيق العيد فقال : يا فقهاء ! حضر شخص يهودى يطلب المناظرة . قال : فسكتنا . فبادر الباجى فقال : « أحضروه فنحن بحمد الله ندفع الشبهة » . وحكى عن نفسه قال : « إن ابن تيمية لما دخل القاهرة حضرت فى المجلس الذى عقدوه له فلما رآنى قال : « هذا شيخ البلاد » . فقلت : « لا تطرنى . ما ههنا إلا الحق » وحاققته فى أربعة عشر موضعا . فغير ما كان كتب به خطه » . وقال عنه السبكى فى طبقاته « كان إليه مجالس المناظرات[٢] » .

٣ — قاسم بن قطلوبغا المتوفى عام ٨٧٩ ﻫ ، كان قديرا على المناظرة وإفحام الخصم ، مغرماً بالانتقاد . قيل : « إن كلامه أوسع من علمه » . وقال السخاوى « إن كلامه أحسن من قلمه[٣] » .

٤ — بهاء الدين السبكى « محمد بن عبد البر » المتوفى عام ٧٧٧ ﻫ ، ولى قضاء الشافعية بمصر مدة وكان ماهرا فى المناظرة[٤] .

٥ — زين الدين بن المرحل المتوفى عام ٦٩١ ﻫ ، كان مناظرا[٥] .

٦ — البساطى والعلاء البخارى تناظرا فى مسألة ابن الفارض وحكم بينهما الكمال بن الهمام[٦] .

---

(١) شذرات الذهب ج ٦ ص ١٢٩ .
(٢) الدرر ج ٣ رقم ٣٣٢ والطبقات ج ٦ ص ٢٢٧ .
(٣) الضوء اللامع ج ٦ رقم ٦٣٥ .
(٤) الدرر ج ٣ رقم ١٣١٦ . (٥) حسن المحاضرة ج ١ ص ١٩٦ .
(٦) الضوء ج ٨ ص ١٢٩ فى ترجمة الكمال بن الهمام .

٧ — علاء الدين بن مغلى ونظام الدين السيرامى كانا يتناظران بحضرة السلطان المؤيد شيخ[١] .

٨ — ابن قاضى شهبة وبرهان الدين بن ظهيرة تناظرا بين يدى القاضى شهاب الدين بن حجر العسقلانى[٢] .

٩ — نجم الدين بن ملى « أحمد بن محسّن » المتوفى عام ٦٩٩ هـ ، الذى حدث بحلب ودمشق ، وتردد على مصر وشهد له أهلها بالفضل ، ودخل بغداد وأعاد بالمدرسة النظامية . قال عنه السبكى فى طبقاته : « المشهور بحسن المناظرة ، والقادر على إبداء الحجة المسرعة وإلجام الخصوم ، والذهن المتوقد كشعلة نار ، والوثوب على النظير فى مجالس النظر كأنه صاحب ثار[٣] » .

١٠ — تقى الدين بن قاضى عجلون المتوفى عام ٩٢٨ هـ ، أنكر على البقاعى حملته على الغزالى وابن عربى[٤] .

١١ — وجيه الدين البهنسى ، القاضى عبد الوهاب بن الحسين . قاضى مصر المتوفى عام ٦٨٥ هـ . كان يناظر . قال عنه السبكى : « تناظر هو والضياء ابن عبد الرحيم مرة ، فصار يعلو كلامه عليه . وكان يتغالى ويدل بفضله » . وقال : « وحضر عنده الشيخ شهاب الدين القرافى مرة وقت التدريس وهو يتكلم فى الأصول ، فشرع القرافى يناظره والوجيه يعلو بكلامه عليه . فقام طالب يتكلم بينهما ، فأسكته الوجيه ، وقال : « فروج يصيح بين الديكة[٥] ؟ » .

١٢ — شمس الدين البعلبكى « محمد بن الإمام فخر الدين » ، المتوفى عام ٦٩٩ هـ ، كان أحد المعروفين بالذكاء المفرط وحسن المناظرة[٦] .

١٣ — علاء الدين القونوى « على بن إسماعيل بن يوسف » المتوفى عام ٧٢٧ هـ . ذكر صاحب الطبقات أنه وقعت بينه وبين أبيه « تقى الدين

---

(١) الضوء جـ ٦ ص ٣٥ . (٢) الضوء جـ ٧ ص ١٥٥ .
(٣) طبقات السبكى جـ ٥ ص ١٣ . (٤) الشذرات جـ ٨ ص ١٥٨ .
(٥) طبقات السبكى جـ ٥ ص ١٧٦ . (٦) الشذرات جـ ٥ ص ٤٥٢ .

السبكي ، مناظرة - ويبدو أن صاحب الطبقات كان سيثبتها فى كتابه إذ ترك لها بياضاً فى نسخته . ولكنه لم يفعل ، وليته فعل [١].

١٤ — برهان الدين الواسطى الحنفى المتوفى عام ٧٤٤ هـ . ممن اشتغل بالمناظرة [٢] .

خاتمة :

نختتم هذا الفصل بست ملاحظات هى :

الأولى : أن هذه المناظرات والمقالات المذهبية - كما رأينا من نماذجها - ذات نزعة خطابية قائمة على النقد وتمحيص الرأى ، تهدف إلى الإقناع . وهى ذات أسلوب جيد ، فى جملته ، سهل المأخذ سلس التراكيب غالباً ، واضح المرامى ، وتبدو فيه القوة لصدوره عن الإيمان وعمق الفهم ودقته وسعة الإحاطة . ولتزويده بالحجة الناصعة والمنطق المرتب السليم . وهو طلق لا قيد فيه ، بعيد عن البهارج اللفظية ، غير معنى بجمال الإبراز أو اصطناع التشابيه وما إليها : رغبة فى حسن التصوير ، إلا فيما يتصل بإيضاح المعانى . مزود بالآيات والأحاديث وأقوال السلف وحوادث التاريخ فى مناسباتها الدقيقة ، مع عمق الاستنباط منها واستخلاص الدليل فى معرض التدليل ، ممتزج إلى حد كبير بعلوم شتى ، لاسيما التفسير والأصول وشرح الحديث .

الثانية : أن هذه المناظرات والرسائل من أبرز الأدلة على ما شاع فى خلال العصر من انتعاش فكرى عظيم . فلم يكن هناك ركود ولا جمود ، ولا نوم ولا استسلام ، وإنما كان كفاح وجهاد ، وكانت مجادلة ومحاجة .

حقاً دار هذا الجدل فى نطاق من القديم . ولكن القديم هنا هو رءوس

---

(١) طبقات السبكى ج ٦ ص ١٣٢ ، ١٣٣ .

(٢) حسن المحاضرة ج ١ ص ٢٢١ .

المسائل والمعانى العامة والأفكار الرئيسية . وهذا أمر لا مناص منه . فقد صدر فقهاء المذاهب مثلا عن اتجاه السلف الصالح ورأى الأشعرية . ولكنك ، وأنت تقرأ مقالاتهم مفصلة ، ترى فكراً حراً ونظرة ثاقبة ، وفهما دقيقاً ، ومنطقاً قوياً جديداً ، وحججا مبتكرة ، وتدفقاً فى الحديث . وهم لا يقلون فى ذلك كله عمن سبقهم من العلماء . وربما شأوهم أو شأوا بعضهم ، بما صنفوه من عشرات الرسائل وردود الأسئلة الواردة عليهم من كل فج . فلم يتركوا العامة ضالة دون هداية ، أو حائرة دون إرشاد . فسدوا بذلك ثغرة فى عصرهم ، ما كان لها أن تسد لولاهم . وقاموا فيه بدور أساسى ما كان ليتم لولا قيامهم .

هذا ، إلى أن اختلافهم كان فى فهم هذا القديم على حقيقة ما أريد منه ، وفى صواب المسلك إليه .

الثالثة : أن هذا النشاط المذهبي الذى دار بجدته فى مدار القديم ، فبعثه قشيبا واضحا مدروسا ميسراً لمن يشاء ، والذى كان وليداً للنشاط الدينى الذى تحدثنا عنه وعن أسبابه فى مطلع هذا الفصل . هذا النشاط كان له أثر بالغ فى الغض من الاشتغال بالفلسفة الحرة الطليقة من كل قيد ، ومن العناية بالمعقولات الأخرى بصفة عامة . وذلك لأنه جذب إليه أفئدة العلماء الذين ثقفوا هذه الثقافة التى لونت ثقافة العصر . وشغلهم الفقه وعلوم الحديث — وكانت أثيرة عندهم — والكلام وتفسير كلام الله ، عن النظر الحر المطلق ، على نمط من نظر الفلاسفة .

ويبدو أن سيادة المذهب الأشعرى[1] فى العصر العباسى الثانى ، واستسلام عقائد الجماهير والدولة لها ، وما طرأ من الضعف السياسى على الشعوب العربية ، واتساع نفوذ العناصر الأعجمية فيها ، ولا سيما العنصر التركى الذى يبدو أنه كانت تغشيه غاشية من روح التصوف ، يبدو أن هذا كله مكن للمذهب

(١) الحركة الفكرية للدكتور عبد اللطيف حمزة ص ٨٧ تحت عنوان « عقيدة الأشعرى » .

الأشعرى فى عصر المماليك لموافقته لهذه الحالة النفسية التى تحياها الجماهير العربية فى مصر والشام حينذاك ، والتى تميل إلى تقديس الذات الإلهية تقديسا مطلقا . فكان لهذا أثره فى الغض من الاشتغال بالفلسفة وما يتصل بها ، ثم لعل روح القناعة والرضا التى يتسم بها الشعب المصرى ، وطيب الثمرات التى عرفت بها أرض بلاده — على الرغم من الضائقات الاقتصادية التى أصابته فى العصر المذكور — لها دخل أيضاً فى هذا الغض .

وحقا عرف من بين علماء المعقولات ، عدد له فضله وجهاده وحسن بلائه ، ومنهم : علاء الدين الباجى « ٧١٤ هـ » . وشمس الدين الأصفهانى « ٧٤٩ هـ » . وصفى الدين الهندى « ٧٥٠ هـ » ، وعز الدين بن جماعة « ٨٧٩ هـ » . ومحيي الدين الكافيجى « ٨٧٩ هـ[1] » .

ولكن هذا العدد ونتاجه العلمى لا يجزئان فى مجال الموازنة بينهم وبين فقهاء المذاهب والكلاميين منهم وجهادهم . ولا يجزىء فى مجال الموازنة بينهم وبين أسلافهم . ولا يجزىء عند الحديث عن عصر طويل كهذا العصر امتد قرابة ثلاثة قرون . . .

الرابعة : أننا أشرنا فى الملاحظة الأولى ، إلى أن هذه المناظرات المذهبية ، امتزجت بعلوم شتى أهمها التفسير والأصول والحديث . ونقول هنا إن علماء التفسير فى هذا العصر ساروا فى جملتهم على نهج فنى ، وهم نمط من مفسرى العصر العباسى المتأخرين[2]. مع دعمه بشىء من تفاسير السلف يقل أو يكثر . وعباراتهم فى كتبهم سهلة هينة مقبولة ، لا عناء فيها ولا جهد يبذل فى فهمها . غير أنهم خلطوها بألوان من العلوم والفنون كالنحو والمناظرات الكلامية واللغويات والأدب . ولعل أوضح الأمثلة على ذلك ، تفاسير ابن تيمية وابن القيم ،

---

(١) راجع حسن المحاضرة للسيوطى ج ١ ص ٢٥٨ تحت عنوان « ذكر من كان بمصر من أرباب المعقولات » .

(٢) بهذه المناسبة نذكر أن جلال الدين السيوطى له تفسير قيم يسمى « الدر المنثور فى التفسير المأثور » يقع فى ثلاث مجلدات ضخمة ومنه نسخة مخطوطة بدار الكتب المصرية . وكله فى التفسير المأثور يقدم فيه الرواية بقوله : أخرج . وحبذا لو طبع .

وأبي حيان المغربي . وسار على نهجهم شراح الحديث ، كابن حجر والعيني والقسطلاني ، وكثيراً ما بدت لهم عبارات رائعة وتراكيب بليغة . ونحن نورد من كلامهم نماذج متنوعة فمثلا :

فسر ابن تيمية الآية الكريمة . « قل أعوذ برب الفلق » : قال :

« قال تعالى : « فالق الحب والنوى » وقال تعالى : « فالق الإصباح وجاعل الليل سكنا » والفلق فعل بمعنى مفعول . كالقبض بمعنى المقبوض . فكل ما فلقه الرب فهو فلق . قال الحسن : « الفلق كل ما انفلق من شيء كالصبح والحب والنوى » . قال الزجاج : « وإذا تأملت الخلق بان لك أن أكثره عن انفلاق ، كالأرض بالنبات ، والسحاب بالمطر . وقد قال كثير من المفسرين : « الفلق الصبح » ، فإنه يقال : هذا أبين من فلق الصبح وفرق الصبح » . وقال بعضهم « الفلق الخلق كله » ، وأما من قال : إنه واد في جهنم أو شجرة في جهنم أو أنه اسم من أسماء جهنم ، فهذا أمر لا نعرف صحته ، لا بدلالة الاسم عليه ، ولا بنقل عن النبي صلى الله عليه وسلم . ولا في تخصيص ربوبيته بذلك حكمة . بخلاف ما إذا قال « رب الخلق » ، أو رب كل ما انفلق ، أو رب النور الذي يظهره على العباد بالنهار . فإن في تخصيص هذا بالذكر ما يظهر به عظمة الرب المستعاذ به . وإذا قيل : الفلق يعم ويخص . فبعمومه للخلق أستعيذ من شر ما خلق . وبخصوصه للنور النهاري أستعيذ من شر غاسق إذا وقب » .

هذا وقد بسط ابن تيمية الحديث بسطا واسعا في تفسير المعوذة الثانية أكثر من الأولى .(١) الخ . . .

وفسر أبو حيان قوله تعالى : « وتب علينا » فقال :

« قالوا : التوبة من حيث الشريعة تختلف باختلاف التائبين . فتوبة سائر المسلمين الندم بالقلب والرجوع عن الذنب ، والعزم على عدم العود ، ورد المظالم إذا أمكن ، ونية الرد إذا لم يمكن . وتوبة الخواص الرجوع عن المكروهات

---

(١) راجع تفسير المعوذتين لابن تيمية . منه نسخة بدار الكتب مطبوعة . مجاميع رقم ٥١٢ ، ٥٨٨ .

من خواطر السوء ، والفتور فى الأعمال . والإتيان بالعبادة على وجه الكمال . وتوبة خواص الخواص لرفع الدرجات والترقى فى المقامات . فإن كان إبراهيم وإسماعيل دعوا لأنفسهما بالتوبة ، وكان الضمير فى قوله « وتب علينا » خاصا بهما ، فيحتمل أن تكون التوبة هنا من هذا القسم الأخير . قالوا : ويحتمل أن يريد التثبت على تلك الحالة : مثل : « ربنا واجعلنا مسلمين لك » . وإن كان الضمير شاملا لهما وللذرية كان الوفاء بالتوبة منصرفا لمن هو من أهل التوبة . وإن كان الضمير قبله محذوفا مقدراً فالتقدير على عصاتنا . ويكون دعا بالتوبة للعصاة . ولا تدل هذه الآية على جواز وقوع الذنب من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، لما ذكرناه من الاحتمال ، خلافا لمن زعم ذلك وقال التوبة مشروطة بتقدم الذنب ، إذ لولا ذلك لاستحال طلب التوبة . والذى يقوى أن المراد الذرية العصاة قوله تعالى « واجنبنى وبنى أن نعبد الأصنام » . إلى قوله « ومن عصانى فإنك غفور رحيم » الخ[1] .

الخامسة : أن المناظرات لم تكن مقصورة على النظر فى العقائد ومشاكل الفقه ، بل امتد أفقها إلى بعض العلوم ،كالنحو والتاريخ . ولكن نطاقها فيها لم يتسع كما اتسع فى ميدان العقائد .

ومما نذكره على سبيل المثال .

١ — أن أبا حيان النحوى الأندلسى ، لما وفد على مصر لقى تقى الدين بن تيمية ، وعقدت بينهما أواصر الصداقة . ثم تناظرا فى مسائل نحوية فاختلفا ، فاحتج أبو حيان بكتاب سيبويه . فقال له ابن تيمية « ما كان سيبويه نبى النحو ولا معصوما . بل أخطأ فى ثمانين موضعا لا تفهمها أنت » ... فكان ذلك سبباً فى الفرقة بين الرجلين ، حتى إن أبا حيان حمل حمله شعواء على ابن تيمية وآرائه ، فى تفسيره « البحر » ومختصره « النهر »[2] .

---

(١) عن تفسير أبى حيان « البحر » ج ١ ص ٣٩١ — وقد ألف أبو حيان تفسيره هذا بمصر منذ عام ٧١٠ هـ ، صرح بذلك فى مقدمته ، وقد توفى أبو حيان بالقاهرة عام ٧٤٩ هـ .

(٢) البحر والنهر لأبى حيان — ثم راجع ترجمة ابن تيمية فى الدرر وجلاء العينين .

٢ — وتحدث الجلال السيوطى فى الجزء الثالث من كتابه ... « الأشباه والنظائر النحوية » عن الفن السادس وهو فن المناظرات والمجالسات والفتاوى ... الخ .

ولم يعن عناية محمودة بتسجيل مناظرات رجال عصره . وما كان أحراه بذلك . بل دون مناظرات السابقين من رجال العصور الأخرى . ولعل له عذراً . . . .

وقد أثبت فيما أثبت ، مناظرة بين صلاح الدين الصفدى ، والمولى شرف الدين بن حسين بن ريان. أدت إلى تحكيم القاضى كمال الدين بن الزملكانى بينهما .

وموضوع المناظرة نحوى لغوى . ولكن على أسلوبها سيما الأدب . لهذا أثبتناها كما أوردها السيوطى قال : « قال الصلاح الصفدى :

اختلفت أنا والمولى شرف الدين بن حسين بن ريان فى قول أبى القاسم الحريرى :

فلم يزل يبتزه دهره مافيه من بطش وعود صليب

فذهب هو فى إعراب قوله : « ما فيه » إلى أنه فى موضع نصب ، على أنه مفعول ثان . وذهبت أنا إلى أنه بدل اشتمال من الهاء التى فى قوله « يبتزه » .

فكتب شرف الدين فتيا من صفد ، وجهزها إلى الشيخ كمال الدين بن الزملكانى وهى :

« ما يقول السادة علماء الدهر ، وفضلاء هذا العصر . لا برحوا لطالب العلم الشريف قبلة . وموطن السؤال ومحله . فى رجلين تجادلا فى مسألة نحوية وهى فى بيت من المقامات الحريرية وهو :

فلم يزل يبتزه دهره مافيه من بطش وعود صليب

ذهبا إلى أن معنى « يبتزه » يسلبه . وكل منهما وافق فى هذا مذهب خصمه مذهبه . وموطن سؤالهما الغريب : إعراب قوله : « ما فيه من بطش وعود صليب » . لم يختلفا فى نصبه . بل خلفهما فيما انتصب به . فذهب أحدهما إلى أنه بدل اشتمال من الهاء المنصوبة فى « يبتزه » ، وله على ذلك استدلال . وذهب الآخر إلى أنه مفعول ثان « ليبتزه » . وجعل المفعول الهاء . واختلفا فى ذلك .

وقد سألا الإجابة عن هذه المسألة . فقد اضطرا فى ذلك إلى المسألة » .

فكتب الشيخ كمال الدين الجواب :

« الله يهدى إلى الحق . كل من المختلفين المذكورين قد نهج نهج صواب . وأتى بحكمة وفصل خطاب . ولكل من القوانين مساغ فى النظر الصحيح . ولكن النظر إنما هو فى الترجيح . وجعل ذلك مفعولا أقوى توجيها فى الإعراب وأدق بحثاً عند ذوى الألباب . أما من جهة الصناعة العربية فلأن المفعول متعلق الفعل بذاته التى بوقوع الفعل عليه معينة . والبدل مبين لكون الأول مطرحاً فى النية . وهذا الفعل بهذا المعنى متعد إلى مفعولين . « وما فيه من بطش » هو أحد ذينك الاثنين . لئلا يفوت متعلق الفعل المستقل . والبدل بيان يرجع إلى توكيد بتأسيس المعنى مخل . وأما من جهة المعنى فلأن المقام مقام تشك وأخذ بالقلوب . وتمكين هذا المعنى أقوى إذا ذكر ما سلب منه مع بيان أنه مسلوب . فذكر المسلوب منه مقصود كذكر ما سلب . وفى ذلك من تمكين المعنى ما لا يخفى على ذوى الأرب . ووراء هذا بسط لا تحتمله هذه العجالة . والله سبحانه وتعالى أعلم[1] » .

السادسة : أن كتابا أصدره المرحوم الدكتور عبد الوهاب عزام فى عام ١٩٤١ م يضم خلاصة لكتابين فريدين مخطوطين ألفا فى عهد السلطان الغورى المتوفى عام ٩٢٢ هـ . الأول اسمه « نفائس المجالس السلطانية فى حقائق الأسرار القرآنية » . والثانى اسمه « الكوكب الدرى فى مسائل الغورى » . وقد سمى الدكتور كتابه هذا « مجالس السلطان الغورى » .

وقد عنى الدكتور الفاضل — رحمه الله — بنشره لأن الكتابين اللذين يضم خلاصتهما يصوران كثيراً من أحوال مصر ومستواها العلمى ولو إلى حد ما .

والكتابان فيهما أحاديث شتى عن موضوعات دينية وتاريخية وأدبية ونحوها ، مما تجادل فيه السلطان الغورى وجلاسه من العلماء والأمراء .

وقد عرضنا لهذا الكتاب لننوه بأنه تحدث عن « مجالس » هذا السلطان

---

(١) انظر الأشباه والنظائر النحوية للسيوطى ج ٣ .

وما دار فيها من جدل ومناظرة . وكان كثيراً ما يجتمع فى مجلسه بإمامه وببعض علمائه وأمرائه ، فيثيرون الحديث فى بعض مسائل الدين ومشاكل الأدب والتاريخ . فهو ثبت طريف يسجل بروز المناظرات فى مجالس أحد سلاطين هذه الدولة الأعجمية . ولعل السبب الذى دفع الغورى إلى ذلك ، أنه كان أديبا ينظم الشعر بالعربية والتركية ، وأنه كان عالما يفهم فى الفقه والتفسير .

غير أننا نعجل بالقول بأن ما دون فى هذا الكتاب من مناظرات أو أسئلة وأجوبة أو بحوث ، إن هو إلا أفكار سريعة عاجلة مقتضبة ، وجزئيات فكرية وجيزة . ولو نمتها الثقافة وبذلت فيها العناية ، وشجع القائمون عليها ، لتحولت إلى جدل عظيم الجدوى . ولكنها فى جملتها لم تعد أن تكون آراء وكلمات منثورة مما يثار عرضا فى خلال مجالس الأنس والتسلية .

وإلى هنا نكتفى بما سطرناه فى هذا المقال ، منتقلين إلى الحديث عن الخطب .

الفصل الثانى

الخطب

لا نقصد هنا بالخطبة تلك المقدمة الافتتاحية التى يمهد بها مؤلف لكتابه يبين فيها غرضه من تأليفه ، ولا نقصد تلك السطور أو الديباجة التى تتصدر المقالة أو الرسالة ، وتحتوى على الحمد والشهادة والصلاة على النبي عليه السلام ، ويذكر الكاتب بعدها « أما بعد » ثم يكتب فى صلب موضوعه .

وإنما نقصد بها « المقالة » التى تلقى على جمهور من السامعين فى أحد الأغراض العامة التى لهم فى الحديث عنها نفع .

وقد ذكر القلقشندى : « أن الخطب جزء من أجزاء الكتابة ونوع من أنواعها يحتاج الكاتب إليها فى صدور بعض المكاتبات وفى البيعات والعهود والتقاليد والتفاويض وكبار التواقيع والمناشير »[1] . وهو يقصد بذلك : « الديباجة » التى تحتوى على التحميدات والصلوات على النبي عليه السلام ، التى أشرنا إليها . وإطلاق لفظ « خطبة » عليها ، اصطلاح تأليفى .

ولكننا عند الحديث عن أقسام النثر نذكر « الخطبة » بمعناها الأدق الأصيل الأعم ، وهى أنها أحد قسمى النثر الفنى ، وهما : الكتابة والخطبة . ولكل منهما سمات وصفات[2] .

ومن سمات « الخطبة » ودعائمها التى تقوم عليها : الارتجال وحسن التصوير وسلامة المنطق وعمومية المناسبة والموضوع ، وقوة التعبير عن المعانى ، مع ترتيبها مزودة بأدلتها ، لتكون مؤثرة مقنعة .

---

(١) صبح الأعشى ج ١ ص ٢٢٦ .

(٢) عن هامش النثر الفنى لزكى مبارك ، أن المسيو مرسيه يقسم الكلام إلى نظم ونثر وخطبة ويفرق بين النثر والخطبة . والنثر فى نظره هو « الكتابة الفنية » ويخرج من هذا بأن الجاهليين لم يعرفوا النثر الفنى — ص ٢٣ .

وهنا ترى أنه ينبغى للخطيب أن يكون محيطاً بموضوعه مقتنعاً به ، خبيراً بنفوس سامعيه ، حتى يضرب لهم على الوتر الحساس . وبذلك يمتلك زمامهم .

* * *

وقد وجدت « الخطبة » فى عصر المماليك ، غير أنها فقدت — فى الغالب — عنصراً هاماً من أفضل عناصرها ، وهو عنصر الارتجال . فلم نجد فيما قرأنا من تراجم علماء العصر وخطبائه ونابهيه ، ما يدل على إحسان الارتجال — مع استثناء المناظرات — إلا لمحات قليلة لا تعاون على إصدار حكم حاسم . كأن يقال « كان — فلان — خطيبا بليغا مفوها » [1]

غير أننا قرأنا فيما سجل من مزايا بعضهم : « إنه كان يخطب من إنشائه[2] » هذه عبارة تدل على أن من الخطباء من كان منشئاً يعنى بتدبيج خطبته قبل إلقائها . وهذا يؤيد ماقلناه من اضمحلال عنصر الارتجال ، والمقدرة عليه ، لاسيما إذا عرفنا أن « إعداد الخطبة » إنما كان يذكر فى سياق المدح . على أن العبارة تدل أيضاً على أن بعض الخطباء كان يخطب من إنشاء غيره ... وهذا ضرب من الضعف ، من أشنع مايصاب به الخطباء .

وقع هذا وذاك ، على الرغم من انتشار التعليم والثقافة اللذين من شأنهما أن يمهدا السبيل إلى الارتجال ...

على أن هذا الإعداد — إعداد الخطبة — يشعرنا بأنه لم يكن هناك فارق كبير بين « الرسالة » و « الخطبة » . وكان من السهل تحويل إحداهما إلى الأخرى . وقديما رأى أبو هلال العسكرى ألوانا من التشاكل بين الرسائل والخطب وأنه من السهل تحويل إحداهما إلى الأخرى[3] .

وإذا كان هذا التحويل سهلا فيما سلف ، فهو فى هذا العصر أسهل ، إذ أنه — كما يبدو لنا — كان الخطباء كتابا قبل أن يكونوا خطباء . وأن ندرة عنصر الارتجال أو زواله ، وغلبة الإعداد ، كل هذا مما ييسر أمر التحويل .

(١) انظر ترجمة ناصر الدين الخطيب « محمد بن على » فى الدرر الكامنة ج ٤ رقم ٢٣٧ .

(٢) انظر ترجمة يوسف بن سليمان « جمال الدين النابلسى » فى الدرر ج ٤ رقم ١٢٥٦ .

(٣) هامش النثر الفنى لزكى مبارك ج ١ ص ٢٣ .

لهذا ترى على « الخطب » سمات « الرسائل » . لقد سلك الخطباء فى خطبهم مسالك الكتاب فى رسائلهم . فاصطفوا الأسلوب البديعى المسجوع ، واقتدوا فيها بأساليب القرآن الكريم ، وأكثروا من الاقتباس من آياته البينات ، ومن أحاديث الرسول عليه الصلاة والسلام ، ومن أقوال السلف الصالح ، ووقائع التاريخ ذات العبر .

ولا غرابة فى ذلك . فقد كانت الخطب فى أغلب أمرها ، دينية منبرية . تنزع نحو العظة والنصيحة ، وتدور أغراضها فى فلك دينى . غير أنها أغراض دينية عامة تتناول المشاكل تناولا عاماً سطحياً ، ولا تتعمق فى التفاصيل ، ولا تخوض فى خلافات الطبقات ، وضروب النزاع بين فئات المجتمع ، موجهة النصيحة غالباً إلى الفرد الذى ينبغى أن يعنى بخويصة نفسه ، محببة الثواب مخوفة من العقاب ، واعدة متوعدة .

فلا غرابة إذن ، إن لم نجد فى هذه القرون الثلاثة ، خطباً سياسية واجتماعية ، تعنى بالقضايا العامة فى داخل الوطن وخارجه ، وتسلط أضواء على مشاكل المجتمع الإسلامى ، على غرار ما تعرف فى الأدب الحديث . وسواء لدينا حينذاك ، أألقيت على المنبر ، أم فى محفل عام ،

ولكن لكل عصر منطقه وسياقه اللذين يخلقان المظهر الأدبى ، والأداة الكلامية المناسبين . فليست الخطب السياسية وليدة المزاج الفردى أو رهينة القدرة الشخصية أو الموهبة الأدبية وحدها . ولكنها رجع للظروف العامة التى تمر بالبلاد من اجتماعية وثقافية وسياسية وغيرها . تتفاعل كلها فى بوتقة شعور المجتمع وعقله ، وتحدث فيها شيئاً جديداً يكون له أثر بالغ فى توليد نمط من الأدب جديد .

ولم تكن حينذاك عوامل جادة من شأنها أن توتر هذا التأثير . لقد كانت الطبقة الحاكمة طاغية مستبدة باغية ، تقبض على زمام الحكم بيد من حديد ، وهى تتجدد تجددا تقليدياً من خارج مصر لامن داخلها . . ولم تحاول الاندماج فى شعبها مطلقاً . إذ اعتبرته طبقة محكومة لا ينبغى لأحد من أفرادها أن يلى

حكما — عدا وظائف القضاء والكتابة وما يشبهما — وهذه الوظائف ، وإن كان لشاغليها شيء من الجاه والنفوذ ، كانت بمنأى واسع عن الحكم الأصيل والجاه الصميم ، وقصاراهم أنهم يستمدون وجودهم فيها من سادتهم ، ويتلقفونها من أيدى الطبقة الحاكمة ، التى لم يكن بعضها يتورع عن أن يتناول رشوة فى سبيل الجود بهذه المناصب ، والتى ما دامت راضية على شاغليها اطمأنوا على عيشهم ... لذلك كان بعيداً أن تراود نفوسهم نزعة معارضة ، إلا فى مسائل جزئية أو حوادث عارضة ...

وحقاً كان بعض العلماء أو القضاة يثور وينصح ، وينذر ويتوعد ولكنه فى الوقت الذى كان لا يستطيع أن يُلزم باتباع النصيحة — فى الغالب — يقف عند أدائها وقد ينفذ وعيده — عند عدم اتباعها — بأن يعزل نفسه من منصبه ، معتقدا بذلك أنه أدى ما عليه من الواجبات ، وقام بما طلب إليه من الامر بالمعروف ، ونهى عن المنكر .

ولا ننكر أنه قد تولد نقد اجتماعى ، يمس الحاكمين . ولكنه فى جملته نقد رفيق . وتراه ماثلا أكثر فى شعر الشعراء . فلبعضهم أبيات ناقدة يتندر بها على الأتراك والجركس الحاكمين ، ويتفكه بذكر معايبهم .

هذا النقد — كان رفيقاً كما أشرنا — ولم يعم ولم يسم إلى درجة أن يكون نقداً سياسيا عاما يولد روحا قوية معارضة مناهضة ، يكون لها أثر فى توليد خطابة سياسية ذات شأن ، و خطابة اجتماعية ذات أثر ونتيجة .

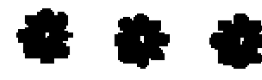
ولا ندرى كيف نعلل لهذه الظاهرة أكثر مما عللنا . ويبدو أن استعجام الحكام ، ثم اعتمادهم اعتماداً كبيراً على كتاب الإنشاء ، على أن تكون الرسائل التى يكتبونها عنهم ، رجعاً لسياستهم وتعزيزاً لوجهة نظرهم ، ثم تزاحم الأدباء على مناصب الديوان ، ونشاط كتابه ، لأداء المهمة الموكولة إليهم . يبدو أن كل ذلك فى جملة الأسباب التى غضت من شأن الخطابة بعامة ، والخطابة السياسة بخاصة . هذا بجوار الأسباب العامة ، وهى أن الكتابة بدأت تحل محل الخطابة ، والقلم محل اللسان ، منذ أن كثر الأعاجم والدخلاء فى الدول العربية :

ثم إن الشعوب لم تكن حينذاك تعرف مانسميه اليوم : حقوقا دستورية ،

ولم تكن هناك يقظة سياسية تناهض الفردية وتراقب الحاكين وتعارضهم فيما يمس حقوق الشعوب . لقد استنامت الشعوب العربية منذ أمد ، واستسلمت إلى حكامها من الأتراك والأكراد ونحوهم ، ما داموا « مسلمين » ، وفى عنقهم أمانة الحكم ، ويعرفون أنهم مسئولون عنها بين يدى الله .

وقد كان المماليك فى مصر - وحدهم - القوة المسلحة ، ومعهم أسباب الغلبة والسلطان . نشئوا أنفسهم على ذلك ، وربوا تربية عسكرية خاصة ، حرموها على أبناء الشعب ، كما حرموا عليهم امتلاك الأراضى الزراعية . فكان ذلك فى جملة الوسائل التى قيدوا بها الشعب بقيود من الإذلال ، وقر فى نفسه أنه لا يستطيع لها حلا . لذلك استسلم وطال استسلامه .

ولعل مما عزاه عن بلواه ، ولفته عن مصيبته ، ما قام به هؤلاء من حروب ودفاع مجيد ، ضد أعداء مصر والإسلام ، من فرنجة وتتار . فصانوهما بذلك عن عبثهم ، والوقوع فى براثنهم ، وجنبوا مصر ما أصاب غيرها من دمار وهلاك .



خلا العصر إذن من الخطابة السياسية . ولكن الحق أننا نجد ريحها فى بعض المناسبات . فقد كان من التقاليد المتبعة ، تبادل الوفادات بين الملوك فيما يتصل بشئونهم وشئون بلادهم ، واختيار بعض الخطباء فى إعداد رسلهم ، ممن يحسنون مخاطبة الملوك ، ويجيدون الخطبة بين أيديهم . فلعل هذا كان أحد منشطات الخطابة فى ذلك الزمان المستعجم ، ولعل خطب الرسل حينذاك كانت ضربا من الخطب السياسية ، إذ تدور عادة حول شئون الدولتين ومصالح الملكين .

وقد أرسل التتار عام ٦٩٨ هـ إلى الناصر محمد بن قلاوون ، كمال الدين بن بهاء الدين قاضى الموصل وخطيبها فى وفد ، منه ومن رجل تركى وآخر أعجمى[١] .

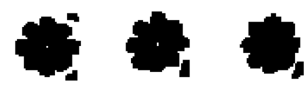
---

(١) النجوم الزاهرة ج ٨ حوادث عام ٦٩٨ هـ ص ١٣٥ ، ١٣٩ .

قال أبو المحاسن يصف الاحتفال بقدمهم فى قصر السلطان ما ملخصه :

« وبعد العشاء الأخيرة أوقدوا الشموع نحوا من ألف شمعة . ثم أظهروا زينة عظيمة بالقصر . ثم أحضروا الرسل . وحضر القاضى بجملتهم وعلى رأسه طرحة . فقام وخطب خطبة بليغة وجيزة ، وذكر آيات كثيرة فى معنى الصلح واتفاق الكلمة ورغب فيه . ثم دعا للملكين ودفع إلى الناصر رسالة سلطانه محمود غازان » .

هذا وقد أوفد الناصر إلى غازان وفدا اختار فيه « شمس الدين بن الجوزى » خطيب جامع ابن طولون . فاعتذر ابن الجوزى . فعين مكانه القاضى « عماد الدين بن السكرى » خطيب جامع الحاكم[1] .



ومهما يكن من أمر ، فقد كانت الخطب الدينية المنبرية أزهى وأزهر ، وأكثر وأشهر . ذلك لحاجة العصر الماسة إليها . فالنزعة الدينية — كما نوهنا مراراً — كانت سارية إلى حد بعيد فى جميع الطبقات . ونصب السلاطين والأمراء أنفسهم حماة للدين وذادة عن المسلمين . وألهب هذه الحماسة ما كان من اعتداء التتار والصليبيين على بلادهم . وشد العلماء أزرهم ، ومن ورائهم الجمهور .

وأقبل السلاطين والأمراء على بناء المساجد بدافع دينى أو دنيوى ، وعنوا عناية ملموسة باختيار خطبائها من بين مشهورى العلماء . بل لقد اعتلى بعض خلفاء بنى العباس المنابر ، وخطبوا فى الناس أيام الجمعات فى بعض المناسبات .

بذلك كله أصبحت الخطابة الدينية لامعة بين مظاهر الأدب المختلفة . وأصبحت الخطابة المنبرية فى جملة ما يذكره المؤرخون من مناصب حين يترجمون لبعض الأعلام . واشتهر بعضهم مثلا بأنه « خطيب دمشق » أو « خطيب الجامع الأموى » . أو « خطيب الجامع العتيق » وهلم جرا . وكثيراً ما يكون الخطيب المختار قاضياً أو نائب حكم أو مدرساً أو نحو ذلك .

---

(١) المصدر السابق .

وهذا كله يدلنا على أهمية الخطبة المنبرية حينذاك ، ويشعرنا ضمنا بما كانت عليه أساليبها من رونق وجودة وحسن إبانة وجمال إنشاء ، ولا سيما فى أوائل العصر وأواسطه.

* * *

على أن هناك نوعين آخرين من الخطب ، لا بأس من الإشارة إليهما :

الأول : هو خطب الزواج ، وليس بين أيدينا كثير من نماذجها حتى نستطيع الحكم بأنها كانت ذات رونق وجودة ، وإن تكن موجودة فعلا بحكم ضرورتها الدينية .

الثانى : هو خطب الافتتاح ، كخطبة افتتاح المدرس لدروسه عند أول ولايته التدريس ، أو خطبة افتتاح حفلة مبايعة مثلا . وهذا النوع بشقيه ، لم نجد من نماذجه ما يعيننا على أن نعتبره تقليداً كان متبعا فى ذلك العصر .

وإليك نماذج تبين لك ألوانا من الخطب :

١ — خطبة للخليفة العباسى الحاكم بأمر الله(١) « الأول »

هذه خطبة منبرية جيدة ، خطبها الخليفة المذكور فى يوم الجمعة ٩ المحرم سنة ٦٦١هـ غداة مبايعته بالخلافة ومبايعة السلطان الظاهر بيبرس بالسلطنة . وكان موضوعها حض الناس على قتال التتار أعداء الإسلام والمسلمين .

واشتملت على عدة عناصر منها : الديباجة « المقدمة » وفيها الحمد والثناء والشهادتان والصلاة على النبي عليه السلام . وقد تضمن الحمد إشارات تناسب المقام وتناسب موضوع الخطبة . فذكر بنى العباس وما قيضه الله لهم بوجود ركن الدين الظاهر بيبرس ، وباستنصاره على الأعداء .

وتحدث بعد المقدمة عن الإمامة وضرورتها للناس والمجتمع ، وضرورة الذود عنها ومكافحة أعدائها . واستحث الهمة للقتال والمحاربة ، واصفا ما اجترحه التتار ببغداد ، منوها بجهاد بيبرس فى سبيل الدين والمسلمين .

---

(١) الحاكم بأمر الله العباسى، ولى الخلافة بمصرعام ٦٦١ هـ وظل بها حتى مات عام ٧٠١ هـ .

وهذا نصها :

« الحمد لله الذى أقام لآل العباس ركنا وظهيرا . وجعل لهم من لدنه سلطانا نصيراً . أحمده على السراء والضراء . وأستعينه على شكر ما أسبغ من النعماء . وأستنصره على الأعداء . وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله صلى الله عليه وسلم وعلى آله وصحبه ، نجوم الاهتداء وأئمة الاقتداء . الأربعة الخلفاء . وعلى العباس عمه . وكاشف غمه . وعلى السادة الخلفاء الراشدين والأئمة المهديين وعلى بقية الصحابة والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين .

أيها الناس ! اعلموا أن الإمامة فرض من فروض الإسلام . والجهاد محتوم على جميع الأنام . ولا يقوم علم الجهاد إلا باجتماع كلمة العباد . ولا سبيت الحرم إلا بانتهاك المحارم . ولا سفكت الدماء إلا بارتكاب المآثم . فلو شاهدتم أهل الإسلام حين دخلوا دار السلام . واستباحوا الدماء والأموال . وقتلوا الرجال والأطفال . وهتكوا حرم الخلافة والحريم . وأذاقوا من استبقوا العذاب الأليم . فارتفعت الأصوات بالبكاء والعويل . وعلت الضجات من هول ذلك اليوم الطويل . فكم من شيخ خضبت شيبته بدمائه . وكم من طفل بكى فلم يرحم لبكائه .

فشمروا ساق الاجتهاد . فى إحياء فرض الجهاد . « فاتقوا الله ما استطعتم، واسمعوا وأطيعوا ، وأنفقوا خيراً لأنفسكم . ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون » . فلم تبق معذرة فى القعود عن أعداء الدين . والمحاماة عن المسلمين . وهذا السلطان الملك الظاهر السيد الأجل العالم العادل المجاهد والمؤيد ركن الدنيا والدين . قد قام بنصر الإمامة عند قلة الأنصار . وشرد جيوش الكفر بعد أن جاسوا خلال الديار . فأصبحت البيعة باهتمامه منتظمة العقود . والدولة العباسية به متكاثرة الجنود . فبادروا عباد الله إلى شكر هذه النعمة ، وأخلصوا نياتكم تنصروا . وقاتلوا أولياء الشيطان تظفروا . ولا يردعنكم ماجرى . فالحرب سجال ، والعاقبة للمتقين . والدهر يومان والآخرة للمؤمنين . جمع الله على التقوى

أمركم . وأعز بالإيمان نصركم . وأستغفر الله العظيم لى ولكم ولسائر المسلمين . فاستغفروه إنه هو الغفور الرحيم » .

ثم خطب الثانية فصلى بالناس وكتبت بيعته إلى الآفاق[١] .

هذا . وقد خطب هذا الخليفة فى أيام الجمع أكثر من مرة بين يدى السلاطين والقضاة[٢] .

* * *

٢ — خطبة للخليفة الحاكم بأمر الله « الثانى[٣] »

وهى خطبة مبايعة وجيزة . قال السيوطى :

« فى يوم الاثنين ثانى المحرم سنة اثنتين وأربعين ، حضر الخليفة الحاكم والسلطان المنصور (يعنى المنصور بن الناصر محمد بن قلاوون) والقضاة بدار العدل . فجلس الخليفة على الدرجة العليا . وعليه خلعة خضراء وفوق عمامته طرحة سوداء مرقومة بالذهب وجلس السلطان دونه . فقام الخليفة وخطب خطبة افتتحها بقوله :

« إن الله يأمر بالعدل والإحسان .. الآية ... وبقوله: « وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم » الآية . . ثم أوصى الأمراء بالرفق بالرعية وإقامة الحق وتعظيم شعائر الإسلام ونصرة الدين . ثم قال :

فوضت إليك جميع أحكام المسلمين . وقلدتك جميع ما تقلدته من أمور الدين « فمن نكث فإنما ينكث على نفسه ...الآية »... وجلس »[٤] .

٣ — خطبة مدرس يفتتح دروسه :

ألقى تقى الدين أبو الفتح السبكى « محمد بن عبد اللطيف بن يحي » الذى كان أديباً وفقيها ومحدثا ونائباً فى الحكم ، والمتوفى عام ٧٤٤ هـ ، والمدفون بقاسيون ، خطبة عندما عين مدرساً بالمدرسة الركنية بمصر ، افتتح بها دروسه .

---

(١) نصها عن حسن المحاضرة جـ ٢ ص ٥٣ (٢) المصدر السابق

(٣) الحاكم بأمر الله « الثانى » هو أحمد بن المستكفى . ولى الخلافة العباسية بمصر عام ٧٤١ هـ وابقى بها حتى توفى عام ٧٥٤ هـ .

(٤) حسن المحاضرة جـ ٢ ص ٦٥

وقد وصف صاحب الطبقات ، هذه الخطبة بأنها « فائقة » — قال فى مطلعها :

« الحمد لله ناصر الملك الناصر للدين الحنيفى . وممضى عزائمه ومشيد أركانه بالقائم بالشرع المحمدى . ومقوى دعائمه ومخصص أهل التقوى بعلى ماخطب أهل التقصير بمعالمه . وجامع شمل المتقين بمكارمه . وشامل جميع الموقنين بمراحمه . والمتفضل على من التجأ إليه . واعتمد فى أموره عليه » .

وبعد الحمد والشهادة والصلاة قال :

« أما بعد فإن غريب الدار ، ولو نال مناط الثريا فيكفى أن يقال : غريب . وبعيد المزار ولو تهيأ له ما تهيأ ، فماله فى الراحة منهم نصيب . ولمشقة الغربة ازدادت رتبة الهجرة فى العبادة . وشرفت الوفاة حتى جاء موت الغريب شهادة . والغربة كربة ولو كانت بين الأقارب . ومفارقة الأوطان صعبة ولو عن سم العقارب . فأنى يقاس ببلاد الغربة — وإن شرف قدرها وعذب شرابها —

بلاد بهـــا نيطت على تمائمى وأول أرض مس جلدى ترابها » .

لم يورد صاحب الطبقات من هذه الخطبة إلا نحو عشرين سطرا بما فيها ديباجتها . ولو أوردها بتمامها لكانت كسبا محمودا . وقد قال عنها : « والخطبة طويلة فائقة اقتصرنا منها على ما أوردنا » .[1]

هذا ويبدو أن الخطيب تحدث فيها عن « الغربة » لأنه من بلاد الشام .

* * *

٤ — خطبة زواج لزين الدين بن الوردى ، فى نكاح بعض بنى النصيبى على بنت عمه قال :

« الحمد لله الذى أطلع فى منازل الشرف شمساً مصونة البهاء والضياء . وأبدع لشرف تاجه البديع درة مكنونة فى بحر الحيا والحياة . ومنحه عقدا زان به جيد الوجود . وجمع الشمس والقمر فى سعود الطالع وطالع السعود » . إلى آخر التحميد والصــلاة على النبى عليه الســلام ثم قال : « وبعد : فإن أولى

(١) طبقات السبكى جـ ٥ ص ٢٤١ ، ٢٤٦ .

ما بادر إليه أولو الأحلام . وتنافس فيه كرام الأبناء وأبناء الكرام . ما كان لتكثير الأمة متضمنا . ولفضيلة العاجل والآجل نافعا نفعاً بينا . وهى سنة النكاح التى عظمت بها المنة . وأثنى عليها لسان الكتاب وأشارت إليها يد السنة. وخصوصاً بنات العم التى أرشدت قصة البتول عليها السلام إليها . وحسن أن يتلى لها بطريق الأولى : « ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها ». فإن بنات العم أجدى بالصحبة وأجدر . وأوفى بالمودة وأوفر وأصبى إلى العهد وأصبر . ولاسيما من حازت كرم الأوائل والأواخر . وجمعت عناصر الكرم وكرم العناصر . وأصبحت سليلة الأعيان والأكابر . . الخ[1].

خاتمة :

نختتم هذا الفصل بتسجيل ثلاث ملاحظات :

الأولى : أن عدد الخطباء الدينيين المنبريين فى هذا العصر ، ضخم . ونعنى الممتازين منهم لأنه من البدهى أنه كان لكل مسجد خطيب ، ولكن بعضهم هو الممتاز ، ونفهم سر امتيازه من سياق ترجمة حياته فى كتب التراجم ، وأنه لاشتهار فضله فى العلم ومعرفته بالتقوى مثلا اختير خطيبا « لجامع كذا » . والذين دون ذلك عنهم فى تراجمهم لا يحصون عددا . ونذكر منهم على سبيل المثال والاستدلال ، نقلا عن كتب التراجم :

١ — جمال الدين يوسف الخطيب الشاعر : كان خطيباً يخطب من إنشائه[2].

٢ — شرف الدين الأسيوطى اللخمى «محمد بن محمد بن أحمد» ولد بالقاهرة . وولى الخطابة بالمدينة وله ديوان خطب مدون اسمه « الجواهر السنية » ومات سنة ٧٤٥ هـ[3] .

٣ — محمود بن محمد بن عبدالرحيم بن عبدالوهاب السلمى المعروف بخطيب بعلبك ، المتوفى عام ٧٣٥ هـ ، وكان يخطب جيداً بنغمة حسنة[4] .

---

(١) ديوان ابن الوردى ص ١٦٥ . (٢) الدرر ج ٤ رقم ١٢٥٦ .
(٣) الدرر ج ٤ رقم ٤٢٣ . (٤) الدرر ج ٤ رقم ٩١٥ .

٤ — نجم الدين القرطبي « حسن بن محمد » كان خطيب قلعة صفد[1] .

٥ — شرف الدين النابلسي المقدسي المتوفى عام ٦٩٤ هـ . « أحمد بن أحمد ابن نعمة » . كان « خطيب دمشق[2] » .

٦ — تقي الدين بن بنت الأعز ، قاضي القضاة المتوفى عام ٦٩٥ هـ . ولي خطابة الجامع الأزهر[3].

٧ — عز الدين بن عبد السلام المتوفى عام ٦٦١ هـ ، ولي الخطابة والإمامة بالجامع الأموي . قال عنه الشيخ شهاب الدين أبو شامة وهو أحد تلاميذه : « كان أحق الناس بالخطابة والإمامة[4] » .

٨ — بدر الدين بن جماعة « محمد بن إبراهيم سعد الله » المتوفى عام ٧٣٢ هـ . وكان قاضي قضاة مصر . وكان مما وليه قضاء القدس ثم خطابتها[5] .

٩ — تقي الدين بن دقيق العيد القشيري المتوفى عام ٧٠٢ هـ . وكان قاضي قضاة الشافعية بمصر ، واشتهر بالورع والتقوى ، كما عرف بالأدب والقدرة على النثر والنظم . ونثره بليغ رائق جيد ، وبه النزعة الخطابية المؤثرة ، وهو واعظ عاطفي مثير . وقد أشرنا إليه ، وسنشير إليه في الفصل الآتي . وقد ذكر السبكي في طبقاته « أن له ديوان خطب معروفا[6] » .

١٠ — محمد بن يوسف بن عبد الله الجزري المتوفى بمصر سنة ٧١١ هـ ، كان خطيباً بالجامع الصالحي بمصر[7] .

١١ — جلال الدين القزويني : أحد علماء البلاغة ، المتوفى سنة ٧٣٩ هـ . كان نائب حكم في دمشق ثم ولي خطابتها وقد عرف « بالخطيب » ثم ولي قضاء الشافعية بالشام ثم بمصر[8].

---

(١) الدرر جـ ٢ رقم ١٥٦٨ .
(٢) طبقات السبكي جـ ٥ ص ٧ .
(٣) الطبقات جـ ٥ ص ٢٣٠ .
(٤) الطبقات جـ ٥ ص ٨٠ .
(٥) الطبقات جـ ٥ ص ٢٣٠ .
(٦) الطبقات جـ ٦ ص ٢ .
(٧) الطبقات جـ ٦ ص ٣٢ .
(٨) الطبقات جـ ٥ ص ٢٣٨ .

١٢ — تقى الدين المقدسى الحنبلى . المتوفى عام ٧٢٦ هـ . كان خطيبا . قال ابن العماد : وكان يخطب جيداً بالجامع المظفرى[١] .

الثانية : أننا لم نعثر على كثير من الخطب ، وإن كنا قد وقفنا على أخبار الخطباء ، وعرفنا أن لبعضهم دواوين كانوا يجمعون فيها خطبهم؛ مثل شرف الدين الأسيوطى اللخمى ، وتقى الدين بن دقيق العيد ، وزين الدين زكريا الأنصارى. والأخير ديوان خطبه موجود ومطبوع ونتحدث عنه فى الملاحظة الثالثة .

وجمع الخطب فى ديوان يعزز القول بإعدادها قبل إلقائها . ولعله يعزز أيضا القول بأن البعض كان يخطب من غير إنشائه ، فلعل الديوان كان يجمع ليستفيد منه الخطباء ، كما يستفيد منه الأدباء .

على أننا نعانى فى هذا العصر قلة فى خطبه الموجودة بالفعل ، كما أشرنا ، وربما كان السبب فى ذلك عبث الزمان بها أو عدم العناية بتدوينها وجمعها . وليس خلو مأثور الأدب من الخطب فى عصر ما ، دليلا دائما على أنها لم تعش فى العصر المذكور .

الثالثة : أن من الدواوين الموجودة ديوان خطب الشيخ زكريا الأنصارى المتوفى عام ٩٢٦ هـ وهو أحد العلماء الممتازين ، وكان رأسا للشافعية فى زمانه وولى قضاء القضاة بمصر زمنا طويلا . وله كثير من المؤلفات فى النحو والصرف والبلاغة والفقه والحديث والأصول والتوحيد وغير ذلك . وهو من مفاخر مصر والإسلام . واسم ديوانه « التحفة السنية » . وهو مجموعة من الخطب المنبرية مرتبة حسب جمع الشهور العربية ، فخطبة للجمعة الأولى من المحرم ، وخطبة للجمعة الثانية ، وخطبة للجمعة الثالثة ، وهكذا ... ! ... كما أن به خطباً للمناسبات كوفاء النيل .

---

(١) الشذرات جـ ٦ ص ٧١ .

وهو ينتزع موضوع الخطبة من المناسبات ، دينية كانت أو غيرها ، ويتحدث عنها ذاكرا فضل الله فيها ، وما ينبغى للمسلم عمله حيالها .

ويهمنا أن نلفت النظر فى هذه المناسبة إلى أن أسلوب الشيخ زكريا الأنصارى فى ديوانه هذا ، وإن كان به رونق وعليه شىء من الطلاوة ، أقل رونقاً وطلاوة من أسلوب تقى الدين بن دقيق العيد ، فى وعظياته ويبدو لنا أن الفرق بين أسلوب الرجلين - مع تماثلهما علما وثقافة وورعا وفهما — هو الفرق بينهما فى سنتى وفاتهما : ٧٠٢ هـ ، ٩٢٦ هـ ؛ لأنه يبدو أن الأسلوب كان كلما تراخى به الزمان تخرقت ديباجته وقلت جودته .

ونسجل هنا نموذجا من خطب هذا الديوان :قال من خطبة «تقال بمناسبة وفاء النيل » : بعد أن حمد وصلى وتشهد :

« اعلموا أن الله قد شق أحداق حدائق الرياض لتمام الانتفاع بزهرات مختلفات الأنواع . وتفكروا فى صنع الله وحكمته . الذى أنزل هذا النيل من سماء مملكته إلى بحر عظمته بكيل مكنون ووزن موزون . يعلم عدد قطراته على كل قطرة ملائكة يسبحون الليل والنهار لا يفترون . فيهبط على جبال مرتفعة . وتقذفه إلى أرض منخفضة وأودية متسعة لاسائق من الآدميين يسوقه . ولا عائق بالليل والنهار يمنعه ويعوقه . حتى يأتى أرض مصر فينفع من فيها من الأحرار والعبيد وتابعيها . وفجر الأرض عيونا لكل إقليم أوجده الله فيها . قد علم كل أناس مشربهم الذى يشربون . أفترى أحداً يزيد فى تياره . أو ينادى بزيادة مقداره . « أفرأيتم الماء الذى تشربون . أأنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون » .

وأذن ليوم شهود عموده . عند وفاء حقوقه وحدوده فيجبر بقطع سده كل قلب محزون . فعمت بركته البرك والخلجان وسار بيد القدرة فى سائر البلدان. فيرتوى به الظمآن . فيحمده الجامدون فتصبح الأرض لجة بيضاء كأنها صرح ممرد من قوارير . وجاء فى أوانه من غير تأخير ولا تقديم . ذلك تقدير العزيز العليم .

فاجتنبوا — رحمكم الله — ركوب النيل مع ارتكاب الكبائر . وعظموا حرمته باجتناب المآثم والجرائر . وتجنبوا سبب النقم . فإن المعاصي تزيل النعم . واجتنبوا الغناء والدف والمزمار على وجه الماء لعلكم ترحمون .

جاء فى الحديث الشريف عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « من عصى الله فوق الماء فكأنما عصاه فوق أجنحة الملائكة . ومن عصاه فى المقبرة فكأنما عصاه يوم القيامة » . أو كما قال .

ونكتفى بهذا فى فصل الخطب .

الفصل الثالث

النصائح والمواعظ والوصايا والحكم

النصيحة أو العظة كلمة فى سطور ، تلق إلى إنسان أوجمع رجاء الإصلاح وتهذيب النفس ، والدعوة إلى ترك الشرور والآثام ، لمايترتب عليها من هلاك وبوار فى الدنيا والآخرة . والحض على اتباع الخير والقيام بالعمل الصالح جهد المستطاع ، لما يترتب على ذلك من الثواب الجزيل والنفع العميم والسعادة الحقيقية .

وقد وجد هذا الضرب الكلامى فى العصر الذى نؤرخ نثره ولكن نصائحه وعظاته كانت صنواً لخطبه المنبرية . إذ تصدر جميعاً عن معين واحد ، وتدور حول غرض رئيسى واحد هو إصلاح النفوس عن طريق الوازع الدينى . وإبراز محاسن الشريعة الغراء وبيان ما فيها من الحكم ، وما فى اتباعها من نفع عظيم وسعادة لاتحد فى الدارين . غير أنها تفترق عنها بأنها قد تبدو أحيانا فى شكل « رسالة » وبأنها مخصوصة ببيان حكم الشريعة — غالبا — وأنها تسلك سبيل الإثارة العاطفية أكثر مماتخاطب القوة المفكرة ولذلك يكثر فيها ضرب الأمثال وذكر الحكم ، وسوق القصص ذات العبر ، والمبالغة عند الترغيب أو الترهيب .

وقلما خلا عصر من النصائح والعظات . ولذلك كانت لها سوق نافعة فى عصر المماليك ، لما سبقت إليه الإشارة ، من غلبة الثقافة الدينية علىماعداها من ضروب الثقافات ، ومن شأن المثقفين عن طريقها أن يعملوا على إظهار أنفسهم وأداء واجبهم واستخدام ثقافتهم ، وتلك ثمرة تعليمهم ، فلا بد لهم أن يخطبوا وأن يعظوا وينصحوا .

على أن الفساد كان مستشريا فى كثير من طبقات الأمة ، من الأمراء إلى السوقة . وقد نوهنا بذلك فى مناسبات سابقة . واستشهدنا له بطرائف من النثر .

وهذا الفساد المنتشر . من شأنه أن يقوى ملكة النصح والإرشاد فى نفوس العاملين والمصلحين ، ويشحذ هممهم لمحاربته واقتلاعه من النفوس وإعادتها إلى حظيرة الدين والكرامة .

على أن هناك أيضا عاملا آخر ، نشعر أنه كان موجودا ، إلى جانب هذا الفساد ، وهو حسن استعداد هذه النفوس للاستجابة عند النصيحة ، والتلبية وقت العظة . فقد كانت الروح الدينية ، على ما وصفنا ، متغلغلة بين المسلمين . إذ كانوا يجدون فيها حينذاك أهم مقوم من مقوماتهم ، وأفضل عامل من عوامل تكتلهم . وخصوصا فى ذلك الوقت الذى يحيط فيه بهم أعداء دينهم من جهات كثيرة ، فهم إليه أحوج ورعايته بهم أمس .

ولا أدل على ذلك من أن الملوك كانوا يسترشدون فى كثير من مهام دولتهم برجال الدين . وكان الظاهر بيبرس مثلا ، كما أشرنا من قبل ، منقمعا تحت كلمة سلطان العلماء عز الدين بن عبد السلام . وهذا السلطان نفسه — بيبرس — أرسل إليه محيي الدين النووى شيخ علماء عصره ، نصيحة قاسية — سنشير إليها وهكذا .

والحق أننا لسنا فى حاجة كبيرة للتدليل على تغلغل الروح الدينية واستجابة الجماهير لها ، حينذاك . وحسبك أن تعرف مدى هذه الروح أو العاطفة ، ودقة فهم الجماهير للناصحين العاملين على إرشادهم ونفعهم من تجمعهم آلافا مؤلفة حينما يموت أحد هؤلاء العلماء العاملين ، ليشهدوا جنازته . وترى أخبار ذلك منشورة مسجلة فى تراجمهم .

هذا . ويبدو أن سوق الوعظ كانت نافقة . ونقرأ فى تراجم بعض العلماء مثلا أنه « كان واعظا » أو أنه « كان يعظ الناس » و « يعقد المجالس للذكر والوعظ » . ومن الأمثلة على ذلك :

١ — ابن عطاء الله السكندرى « أحمد بن محمد بن عبد الكريم » المتوفى عام ٧٠٩ هـ ، كان إماما عارفا استوطن القاهرة ، يعظ الناس ويرشدهم . وله الكلمات البديعة دونها أصحابه فى كتب جمعوها من كلامه[١] .

---

(١) طبقات السبكى جـ ٥ ص ١٧٦ .

٢ — شمس الدين بن اللبان، محمد بن أحمد بن عبد المؤمن، المتوفى عام ٧٤٩ه. كان متصوفاً يصحب الشيخ ياقوت العرشي صاحب أبي العباس المرسي بالإسكندرية. وكان بارعا في الفقه والأصول والنحو. وله مؤلفات. وكان يعظ الناس ويعقد مجالس الذكر بمصر[1].

٣ — شمس الدين حسين بن راشد ، كان واعظاً حسن المذاكرة والعلم. توفي بمصر عن أربع وثمانين سنة، عام ٧٣٩ ه[2].

٤ — زين الدين أحمد بن محمد الأندلسي الأصل المعروف بكتاكت المصري، الواعظ الأديب الشاعر. كان إماما في الوعظ، ولد سنة ٦٠٥ ه ومات بالقاهرة في ربيع الآخر سنة ٦٨٤ ه[3].

٥ — شهاب الدين أبو العباس أحمد بن ميلق الشاذلي الواعظ. كان يجلس للوعظ، ولوعظه تأثير في القلوب مات سنة ٧٤٩ ه[5].

٦ — عز الدين أحمد بن عبد السلام بن غانم المقدسي الواعظ أحد المبرزين في الوعظ والنظم والنثر. توفي بالقاهرة في شوال عام ٦٨٨ ه. وينسب إليه كتاب «كشف الأسرار عن حكم الطيور والأزهار» الذي نوهنا به في باب الوصف[5].

* * *

هذا على أنك ترى روح الوعظ وعبارات النصح بادية في الكتب الدينية على اختلاف مناحيها، ولاسيما مايتصل منها بالتصوف أو علم الكلام. وسنحدثك عن بعضها قريباً.

وإننا حينما نتصدى للحديث عن النصائح والعظات، تملكنا نشوة سرور، وهزة طرب وإعجاب بالناصحين الواعظين، الذين خطوها بيمينهم ودبجوها بأقلامهم فإنهم لم يريدوا منها أن يظهروا للناس كتابا منشئين، يبهرونهم بحسن

---

(١) الطبقات جـ ٥ ص ٢١٣.

(٢) الشذرات جـ ٦ ص ١١٠

(٣، ٤) حسن المحاضرة جـ ٢ ص ٢٦٤، ٢٦٥.

(٥) الشذرات جـ ٥ ص ٣٦٢. راجع كتاب كشف الأسرار في باب الوصف بالمجلد الخامس

البيان وقوة اللسان وبلاغة المنطق . أو يلتمسون لديهم غنما من مال أو منصب أو جاه ، بل كانوا أولا وقبل كل شيء يسدون النصيحة خالصة لوجه الله ، ويبعثون العظة صادرة من قلب يملؤه الإيمان وتغمره محبة النـاس ، ويشعرون أنهم يصنعون ذلك أداء لواجبهم الديني ، وقياما بالأمانة التي حملوها أمام الله ، وعاهدوه على تأديتها .

لهذا اكتسب بيانهم قوة ، بل عنفا أحيانا ، وبدت عباراتهم في ثوب من الوضوح ، جريئة مقدامة ثائرة ، فيها الوعد والوعيد ، وفيها التلويح بالثواب والعقاب . وهذا نتيجة صدق الطوية ، وإخلاص السريرة ، والإشفاق الشديد على الحاكم والمحكوم على السواء . فلعل أعنف ما كان يوجه النصح ، إذا وجه إلى الملوك والحاكمين .

يتجلى لنا هـــذا في رسائل أربع كتبها علماء فضلاء إلى ملوك طغاة . وإليك قصتها :

الرسالة الأولى :

هي نصيحة ثمينة كتبها شيخ علماء عصره محيي الدين النووي إلى سلطان زمانه الظاهر بيبرس . وكان قد كتب إليه نصيحة سابقة يطلب إليه فيها الرفق بالرعية والعدل بينها وإلغاء المكوس التي فرضها عليها .[١] وقيل إن الظاهر لما خرج إلى قتال التتار بالشام أخذ فتوى من علمائها بأنه يجوز له أخذ مال من الرعية ليستنصر به ، ووقعوا عليها ما عدا النووي . فلما طلب إليه التوقيع امتنع ، وقال للسلطان : إني سمعت أن عندك ألف مملوك لكل منهم حياصة من ذهب ، وعندك مائة جارية لكل منهن حق من الحلي ، وطلب إليه أن ينفق ذلك أولا على الجهاد ، ثم يفتيه بالأخذ من الرعية [٢].

وقد أرسل النووي نصيحته الأولى مع الأمير بدر الدين بيلبك أمير الشام ليسلمها للسلطان . وكتب له بذلك رسالة قيمة يصف فيها ما أصاب الشام . فلما

(١ ، ٢) حسن المحاضرة ج ٢ ص ٧٥ ، ٧٩ .

اطلع السلطان عليها ، ردها وأنكر ما فيها وأجاب جواباً خشنا . . . ولم يدون السيوطى — الذى روى ذلك — هذه النصيحة وردها فلا ندرى محتوياتهما . غير أننا نستطيع أن نستخلص بعض محتويات رد السلطان عليها ، من نص النصيحة الثانية التى أرسلها إليه النووى رداً على رده . ومن حسن الحظ أن أثبتها السيوطى فى حسن محاضرته . وهذه النصيحة هى التى نتحدث عنها هنا .

ويفهم منها أن السلطان قد اعترض فى رده على نصيحة النووى الأولى بجملة اعتراضات منها (١) أن ما يفرضه من الضرائب حق للجنود ، لأنهم يقومون بواجب الجهاد ، بينما قعدت عنه الطوائف الأخرى (٢) أنه يرفض تلك النصيحة ويرى أن الشيخ كان أولى به أن يتقدم بها إلى الكفار . . . (٣) وأنه يمن عليه وعلى الرعية بأنه قام مع جنوده بالجهاد وطرد الأعداء ، وأنه فتح البلاد والحصون (٤) وأنه سينتقم من الرعية بسبب هذه النصيحة . . .

هذه أمور فندها النووى فى نصيحته الثانية وسفهها بلباقة وكياسة ، ورد عليها بما يناسبها .

فأما أخذ الضرائب من الرعية لأنها حق الأجناد لقيامهم بواجب الطوائف الأخرى ، فقد قال له النووى ما نصه :

« وذكر فى الجواب أن الجهاد ليس مختصاً بالأجناد . وهذا أمر لم ندعه . وكان الجهاد فرض كفاية . فإذا قرر السلطان له أجناداً مخصوصين ، ولهم أخباز معلومة من بيت المال . كما هو الواقع ، تفرغ باقى الرعية لمصالحهم ومصالح السلطان والأجناد وغيرهم ، من الزراعة ، والصنائع وغيرهما مما يحتاج الناس كلهم إليه[١] . فجهاد الأجناد مقابل بالأخباز المقررة لهم ، ولا يحل أن يؤخذ من الرعية شىء مادام فى بيت المال شىء من نقد أو متاع ، أو أرض أو ضياع تباع ، أو غير ذلك . وهؤلاء علماء المسلمين فى بلاد السلطان ، أعز الله أنصاره ، متفقون على هذا . وبيت المال بحمد الله معمور » الخ .

---

(١) نستطيع أن نفهم من هذه العبارات بعد نظر النووى ودقة فهمه للأمور بما يناسب ما قرره أهل الحروب الحديثة من أن الجندى فى الميدان يحتاج إلى عشرة جنود من ورائه يدبرون له ما يحتاج إليه .

وأما رفض السلطان هذه النصيحة ، وتنديده بمرسلها وأنه كان أحرى به أن يرسل بها إلى الكفار . فقد رد النووى على ذلك بقوله .

« وأما ما ذكر فى الجواب من كوننا لم ننكر على الكفار كيف كانوا فى البلاد ، فكيف يقاس ملوك الإسلام وأهل الإيمان والقرآن ، بطغاة الكفار ، وبأى شىء كنا نذكر طغاة الكفار وهم لا يعتقدون شيئاً من ديننا ؟ » .

وأما تهديد السلطان للرعية بسبب نصيحة النووى ، فقد قابله بقوله دون اكتراث ، وفى منطق سليم : « وأما تهديد الرعية بسبب نصيحتنا وتهديد طائفة العلماء . فليس هو المرجو من عدل السلطان وحلمه . وأى حيلة لضعفاء المسلمين الناصحين نصيحة للسلطان ولهم ولا علم لهم به[1] . وكيف يؤاخذون به لو كان فيه ما يلام عليه .

وأما أنا نفسى فلا يضرنى التهديد ولا أكثر منه . ولا يمنعنى ذلك من نصيحة السلطان . فإنى أعتقد أن هذا واجب علىّ وعلى غيرى . وما ترتب على الواجب فهو خير وزيادة عند الله تعالى . إنما هذه الحياة الدنيا متاع ، وأن الآخرة هى دار القرار ، وأفوض أمرى إلى الله إن الله بصير بالعباد . وقد أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نقول الحق حيثما كنا ، وألا نخاف فى الله لومة لائم . ونحن نحب السلطان فى كل الأحوال ، وما ينفعه فى آخرته ودنياه ويكون سبباً لدوام الخيرات له ويبقى ذكره على مر الأيام ويخلد به فى الجنة ، ويجد نفسه يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا » .

وأما منُّ السلطان على الرعية بأنه فتح البلاد ودك الحصون وهزم الأعداء . فقد قال النووى رداً عليه :

« وأما ما ذكر من تمهيد السلطان البلاد وإدامته الجهاد وفتوح الحصون وقهر الأعداء ، فهذا بحمد الله من الأمور الشائعة التى اشترك فى العلم بها الخاصة والعامة ، وطارت فى أقطار الأرض . فلله الحمد ، وثواب ذلك مدخر للسلطان إلى يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا . . . ولا حجة لنا

(١) يبدو أنه سقط فى الأصل شىء من الألفاظ فى هذه العبارات .

عند الله تعالى إذا تركنا هذه النصيحة الواجبة علينا ، وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته »

هذا وقد افتتح النووى نصيحته هذه ، بذكر الآيات القرآنية التى توجب على العلماء بذل النصيحة لمن يحتاج إليها . قال :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آل محمد من عبد الله يحي النووى :

ينهى أن خدمة الشرع كانوا كتبوا ما بلغ السلطان ـ أعز الله أنصاره ـ فجاء الجواب بالإنكار والتوبيخ والتهديد . وفهمنا منه أن الجهاد ذكر فى الجواب على خلاف حكم الشرع .

وقد أوجب الله أيضاً الكلام عند الحكام عند الحاجة إليه . فقال تعالى : « وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه » . فوجب علينا حينئذ بيانه . وحرم علينا السكوت . وقال تعالى : « ليس على الضعفاء ولا على المرضى ولا على الذين لايجدون ما ينفقون حرج إذا نصحوا لله ورسوله ، ما على المحسنين من سبيل ، والله غفور رحيم » .

هذا عرض وجيز لتلك النصيحة « الثانية » التى وجهها النووى إلى بيبرس وردوده فيها على اعتراضات بيبرس على نصيحته الأولى التى يطالبه فيها بالرفق بالرعية والعدل بينها ، ورفع الضرائب عن كاهلها ، ولا سيما فى هذه الضائقة التى قد أصابت بلاد الشام وقتذاك[1]

الرسالة الثانية :

هى أيضاً من نصائح النووى إلى بيبرس ، كتبها إليه ـ على مارواه السيوطى عند ما احتيط على أملاك دمشق ـ ويبدو أن السلطان صادر بعض ممتلكات الدمشقيين وطالبهم بإثبات ملكيتها . فكان ذلك مثارا للشكاية وسبباً للنصيحة التى تقدم بها إليه النووى .

---

(١) نص الرسالة فى حسن المحاضرة جـ ٢ ص ٧٦ ، ٧٧ .

و تناول النووى فى رسالته هذه عناصر تألفت منها هى :

(١) بيان وجوب النصيحة . (٢) المطالبة بالشفقة على الرعية .

(٣) الدعاء للسلطان والثناء عليه . (٤) بيان موضوع الشكاية .

(٥) الترغيب فى الإجابة .

١ — أما بيان وجوب النصيحة فقد اعتمد فيه النووى على سوق الآيات والأحاديث الناطقة بوجوبها فقال :

« بسم الله الرحمن الرحيم . قال تعالى : « وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين » وقال تعالى : « وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان » ، وقد أوجب الله على المكلفين نصيحة السلطان — أعز الله أنصاره — ونصيحة عامة المسلمين . فى الحديث الصحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أنه قال : « الدين النصيحة لله وكتابه وأئمة المسلمين وعامتهم » — ومن نصيحة السلطان — وفقه الله تعالى لطاعته وأولاه كرامته — أن تنهى إليه الأحكام إذا جرت على خلاف قواعد الإسلام . . »

٢ — أما المطالبة بالشفقة على الرعية فقد اعتمد فيها كذلك على الآيات والأحاديث المناسبة التى تترجح بين الوعد للمشفق الرحيم ، والوعيد للفظ الظالم الجائر قال :

« وأوجب الله تعالى الشفقة على الرعية والاهتمام بالضعفة ، وإزالة الضرر عنهم . قال الله تعالى : « واخفض جناحك للمؤمنين » . وفى الحديث الصحيح : « إنما تنصرون وترزقون بضعفائكم » وقال صلى الله عليه وسلم : « من كشف عن مسلم كربة من كرب الدنيا ، كشف الله عنه كربة من كرب يوم القيامة ، والله فى عون العبد ما كان العبد فى عون أخيه » . وقال صلى الله عليه وسلم : « من ولى من أمر أمتى شيئاً فرفق بهم فارفق اللهم به . ومن شق عليهم فاشقق اللهم عليه . » الخ

٣ — أما الثناء على السلطان والدعاء له ، فهو يحمل فى طياته — أو كأنى

به يعمل فى طياته — التنبيه إلى وجوب حمد الله على نعمته وشكره على فضله أن مكن للسلطان من أعدائه ، فلزمه بهذا ، أن يعدل بين الناس ويشفق على الرعية . قال النووى :

«وقد أنعم الله علينا وعلى سائر المسلمين بالسلطان — أعز الله أنصاره — فقد أقامه لنصرة الدين والذب عن المسلمين . وأذل له الأعداء من جميع الطوائف . وفتح عليه الفتوحات المشهورة فى المدة اليسيرة . وأوقع الرعب منه فى قلوب أعداء الدين وسائر الماردين . ومهد له البلاد والعباد وقمع بسيفه أهل الزيغ والفساد ، وأمده بالإعانة واللطف والسداد . فلله الحمد على هذه النعم المتظاهرة والخيرات المتكاثرة . ونسأل الله الكريم دوامها لنا وللمسلمين . وزيادتها فى خير وعافية . آمين . وقد أوجب الله شكر نعمه ووعد الزيادة للشاكرين .»

٤ — أما موضوع الشكاية فقد عرضه النووى مبينا حكم الشرع فى هذه المصادرة ومحببا السلطان إلى اتباعه فقال :

« وقد لحق المسلمين بسبب هذه الحوطة على أملاكهم أنواع من الضرر لايمكن التعبير عنها ، وطلب منهم إثبات مالا يلزمهم . فهذه الحوطة لاتحل عند أحد من علماء المسلمين . بل من فى يده شىء فهو ملكه لا يحل الاعتراض عليه ولا يكلف بإثبات .

وقد اشتهر من سيرة السلطان أنه يحب العمل بالشرع فيوصى نوابه فهو أولى من عمل به .

والسؤال إطلاق الناس من هذه الحوطة والإفراج عن جميعهم . فأطلقهم أطلقك الله من مكروه . فهم ضعفة وفيهم الأيتام والأرامل والمساكين والضعفة والصالحون . وبهم تنصر وتغاث وترزق . وهم سكان الشام المبارك جيران الأنبياء صلاة الله وسلامه عليهم ، وسكان ديارهم . فلهم حرمات من جهات .

ولو رأى السلطان ما يلحق الناس من الشدائد لاشتد حزنه عليهم

وأطلقهم فى الحال ولم يؤخرهم . ولكن لا تنهى إليه الأمور على جهتها » .

٥ — أما الترغيب فى الإجابة فقد قال فيه وهو يترجح بين الوعد والوعيد أيضاً :

«فبالله أغث المسلمين يغثك الله . وارفق يرفق الله بك . وعجل لهم الإفراج قبل وقوع الأمطار وتلف غلاتهم . فإن أكثرهم ورثوا هذه الأملاك عن أسلافهم ولا يمكنهم تحصيل كتب شراء ، وقد نهبت كتبهم .

وإذا رفق السلطان بهم حصل له دعاء رسول الله صلى الله عليه وسلم لمن رفق بأمته . ونصره على أعدائه . فقد قال تعالى : « إن تنصروا الله ينصركم » . ويتوافر له من رعيته الدعوات وتظهر فى مملكته البركات . ويبارك له فى جميع ما يقصده من الخيرات . وفى الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من سن سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة . ومن سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة » .

نسأل الله أن يوفق السلطان للسنن الحسنة التى يذكر بها إلى يوم القيامة ، ويحميه من السيئة . فهذه نصيحتنا الواجبة علينا للسلطان . ونرجو من فضل الله تعالى أن يلهمه فيها القبول . والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته . » [1]

هذا وللنووى نصيحة أخرى بعث بها لبيبرس ينصحه فيها بحسن معاملة فقهاء الشريعة . ويبدو أنه كان كثير النصح لهذا السلطان .

* * *

الرسالة الثالثة[2] :

هذه إحدى رسائل ابن تيمية الحرانى وتسمى « الرسالة القبرصية » وتقع فى نحو أربعمائة سطر . وقد سميت كذلك — على ما يبدو — لأن كاتبها أرسلها إلى سرجواس[3] ملك جزيرة قبرص .

---

(١) نص النصيحتين فى حسن المحاضرة ج ٢ ص ٧٧ ، ٧٩ .

(٢) الرسالة القبرصية مطبوعة وتقع فى نحو ٣٣ صفحة .

(٣) سرجواس اسم ملك قبرص المرسل إليه ، هكذا ثبت اسمه فى عنوان الرسالة . ولكن فى ديباجتها قيل سرجوان بالنون . ولعل إحداهما خطأ مطبعى .

وهى نصيحة وجهها إلى هذا الملك الذى يبدو أنه قد طغى وبغى، وظلم من قبله من المسلمين النازلين بسواحل قبرص . لذلك أرسل إليه ابن تيمية ينذره ويحذره ، ويتوعده ويهدده ، أملا منه فى أن يقلع عن غيه وظلمه .

وكان الملك المذكور مسيحياً ، فطفق ابن تيمية يسوق إليه العظات الرادعة ، ويضرب له المثل بالتتار الذين حاربهم جنود المسلمين ، لما ظلموا ، على الرغم من ادعائهم الإسلام .

وتشعر وأنت تقرأ الرسالة بجرأة قلب كاتبها ومطاوعة قلمه لما فى قلبه . وأنه لولا معرفتنا به رجلا من رجال الدين ، لقلنا إنه لسان السلطان أو خليفة المسلمين ، يترجم عن رأى عال ، ويتهدد بخطة مرسومة ، وينذر عن كتائب مجموعة بين يديه ، وأنه على وشك أن يسوق الجيوش للانتقام .

على أن ابن تيمية كان يرجو الخير من نصيحته إليه ، وكان متفائلا إلى حد بعيد ، أن يصيب هدفه الذى رمى إليه . ولهذا لم يكتف بأن يطلب منه الكف عن ظلم المسلمين ، بل راوده على ترك دينه والدخول فى ملة الإسلام . وأنبأه بأنه يتوسم فيه الخير والصلاح . ومن كان كذلك استجاب لداعى النصيحة ولبى نداء العظة .

وإليك عرضاً وجيزاً لما تحتويه هذه الرسالة الفريدة .

١ — بدأها بقوله :

« من أحمد بن تيمية إلى سرجوان ، عظيم أهل ملته . ومن تحوط به عنايته من رؤساء الدين وعظماء القسيسين والرهبان والأمراء والكتاب وأتباعهم .

سلام على من اتبع الهدى . أما بعد فإنا نحمد إليكم الله الذى لا إله إلا هو ، إله إبراهيم وآل عمران . ونسأله أن يصلى على عباده المصطفين وأنبيائه المرسلين » الخ .

وبعد أن صلى على الأنبياء خص بالذكر منهم محمداً صلى الله عليه وسلم . وترى ترتيب الديباجة فيه بعض التغيير عن المألوف المتبع فى افتتاح الرسائل ،

إذ ذكر إبراهيم وآل عمران مثلا . وذلك مراعاة لحال المرسل إليه .

٢ — وتحدث بعد ذلك عن حكمة خلق الله لعباده ، وأنها العبادة . وأن السعيد هو الذى هداه الله إليها وأحب ربه حب الصبى لأمه ، وحن إليه حنين النسر إلى وكره .

وبين أن الناس بين آدم ونوح ، كانوا على دين آدم حتى ابتدعوا الشرك وعبادة الأوثان بشبهات زينها لهم الشيطان بفلسفة حائدة زائفة. وزعموا أنها ظلام الكواكب والأرواح العلوية . . . وقلد الناس رؤساءهم فى ذلك ، فضلوا بهم . لذلك بعث الله نوحاً ليهديهم إلى عبادته ، ثم آمن به قليلون . فأمره الله أن يصنع الفلك . ونجاه هو وقومه وأغرق الكافرين .

ثم جاءت الرسل تترى من بعد نوح . حتى عم الأرض دين الصابئة والمشركين ، فبعث الله إبراهيم لينهاهم عن عبادة الكواكب والأصنام ، وليدعوهم إلى عبادة الرحمن . وأخذ يجادلهم ثم كان من أمرهم ما كان . .

وتوالى إرسال الرسل والأنبياء من أهل بيته ، وجعل لكل منهم خصائص ، وآتى كلا منهم من الآيات مايبهر البشر ويدعوهم إلى الإيمان : ومنهم موسى وآيته العصا وفلق البحر وتفجر الماء من الصخر .

وبعث بعده أنبياء من بنى إسرائيل ، منهم من أحيا الله على يده الموتى ، ومنهم من شفى المرضى ومنهم من أطلعه الله على غيبه ، ومنهم من سخر له المخلوقات . . الخ واتفقت على ذلك جميع أهل الملل والكتب .

وكانت بنو إسرائيل أمة قاسية عاصية تعبد الأصنام والأوثان . وتقتل النبيين بغير حق ، ويستحلون محارم الله . فلعنوا أولا على لسان داود ، وكان من خراب بيت المقدس ما هو معروف .

٣ — تحدث الكاتب بعد ذلك عن المسيح ، فبين أن الله سبحانه أرسله وجعله وأمه آية ، وكان بنو إسرائيل قد تمردوا ، فدعاهم إلى عبادة الله متبعاً سنة إخوانه المرسلين ، مصدقاً لمن قبله ، ومبشراً بمن بعده .

وكان غالب أمره اللين والرحمة والعفو والصفح . فتفرق الناس فيه ثلاثة أحزاب :

(ا) قوم اتبعوه وجعل الله فى قلوبهم رأفة ورحمة ، ومنهم قسيسون ورهبان .

(ب) وقوم كذبوه وقالوا إنه ابن بغى ، ونسبوه إلى يوسف النجار وزعموا ان شريعة التوراة لم تنسخ .. الخ .

(ح) وقوم اتبعوه وغلوا فيه وزعموا أنه الله ، وابن الله ... الخ . وهؤلاء تفرقوا فى التثليث بما لا يقره عاقل . وهكذا دخل الفساد إليهم . وعامة رؤسائهم من القسيسين والرهبان إذا ميزوا انحلوا عن دينهم وعاشوا منافقين يراءون ملوكهم لما يصيبهم من رزق وحظ ، مثل ابن البورى ببيت المقدس ، وابن القف بدمشق والبابا بالقسطنطينية ، وغيرهم . وبقوا كذلك لأجل الرياسة والغنى . وذو الفضل منهم ينبغ فى علم رياضى كالمنطق والهيئة والحساب والنجوم ، أو طبيعى كالطب ، أو إلهى على طريقة الصابئة الفلاسفة .

وأخذ الكاتب يزيف كثيراً مما اصطنعه هؤلاء من صنوف الحيل والمكر للضحك على العامة ، حتى تفرقوا أحزاباً وعلا أمر الشرك بينهم .

٤ — بين الكاتب بعد ذلك أن الله سبحانه وتعالى ، بعث حينئذ رسوله محمداً بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ، وأمره بدعوة الخلق جميعاً إلى الحق ، وإلى توحيده سبحانه ، وقال : « يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء .. » .

ثم أخذ يبين طرفاً من الشريعة السمحة الغراء ، من عبادة وخلق واجتماع ، حتى كانت الأمة بها أمة وسطا .

٥ — ثم خاطب الملك بعد هذا البيان ، بأن يراعى العدالة والإنصاف ، وأنه خاطبه به وما بعث إليه بهذه النصيحة إلا لما يترامى إلى سمعه من حبه الخير ، ومن امتلاء قلبه بالرحمة . وغير ذلك مما حدثه به عنه « الشيخ أبو العباس المقدسى » ورجا له بعد ذلك أن يهديه الله إلى الحق ، حتى يجمع له خيرى الدنيا والآخرة .

وقد لفته ـ وهذا من باب الإنذار والوعيد ـ إلى ما كان من أمر غازان مقدّم التتار : هو وأتباعه . حين قدموا إلى دمشق مدعين الإسلام دون أن يعملوا بتعاليمه . فكانت عاقبتهم الهزيمة النكراء والبوار والتلف ، ومعهم صاحب سيس . .

وأخذ ابن تيمية ينصحه وكأنه يدعوه إلى الإسلام . وظل يضرب له الأمثال . ويقص عليه من وقائع التاريخ ما فيه العبرة . وذكر له ما كان من النصارى على عهد الرسول عليه الصلاة والسلام ، ومجيء وفد نجران إليه . وبعثه وفوده إلى قيصر والنجاشي . وما أجابا به ، وقد قال قيصر لما تبين له الحق « وددت أنى أخلص إليه حتى أغسل عن قدميه . ولولا ما أنا فيه من الملك لذهبت إليه » .

٦ — ثم أخذ ابن تيمية يغلظ له النصيحة ، وينذره بأن يقع به مثل ما وقع بالتتار ، فإنهم مع كثرتهم ، لم يغنوا عن أنفسهم شيئاً أمام إيمان جنود المسلمين وتصميمهم على الإيقاع بأعداء الإسلام الكائدين له ... وقال له « فيأيها الملك كيف تستحل سفك الدماء وسبي الحريم وأخذ الأموال بغير حجة من الله ورسوله » .

وهدده بأن فى ديارمصر عدداً ضخماً من النصارى الذين يعاملون بالحسنى . فليحذر أن يعاملوا بمثل ما يعامل به مسلمى قبرص . وأن بين المسلمين عدداً من « الفداوية » — الفدائيين — الذين يغتالون الملوك فى فرشها وعلى أفراسها . وأن بينهم الصالحين الذين لا يرد الله دعوتهم . الخ . . .

وقد طلب ابن تيمية من الملك أن يستجيب لنصحه ويسمع لقوله . وكره إليه الدنيا وحبب إليه الآخرة . ثم أبدى له استعداده لأن يستمر على نصحه مكاتبة أو مشافهة إذا أراد ذلك ، وأنه على استعداد للسفر إليه إذا شاء ...

٧ — وتلمح فى هذه الرسالة — عدا ما سبق — اعتزاز ابن تيمية بالإسلام وجنوده . وتمجيده لهم لأنهم ينصرون دين الله . يقول وقد خرجوا للقاء التتار :

« فلما انصرف العسكر إلى مصر ، وبلغه ما عليه هذه الطائفة الملعونة من الفساد وعدم الدين ، خرجت جنود الله ، وللأرض منها وئيد . وقد ملأت السهل والجبل فى كثرة وقوة وعدة وإيمان وصدق . قد بهرت العقول والألباب ، محفوفة بملائكة الله التى مازال يمد بها الأمة الحنيفية المخلصة لبارئها . فانهزم العدو بين أيديها ولم يقف لمقابلتها . » الخ ...

٨ — وعبارة الرسالة قوية واضحة الحجة بارزة المعانى محددة الهدف ، مرسلة لا تعنى بقيود البديع إلا لماما ، دون تكلف .

ومما قاله فيها يحقر للملك أمر الدنيا ، ويبين أن خير ما ينفع المرء هو التمسك بدين الله وحسن الاعتقاد به :

« وأما الدنيا فأمرها حقير . وكبيرها صغير . وغاية أمرها يعود إلى الرياسة والمال . وغاية ذى الرياسة أن يكون كفرعون الذى أغرقه الله فى اليم انتقاما منه . وغاية ذى المال أن يكون كقارون الذى خسف الله به الأرض فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة لما آذى نبى الله موسى .

وهذه وصايا المسيح ومن قبله ومن بعده من المرسلين ، كلها أمر بعبادة الله والتجرد للدار الآخرة . والإعراض عن هذه الحياة الدنيا .

ولما كان أمر الدنيا خسيساً ، رأيت أن أعظم ما يهدى لعظيم قومه ، المفاتحة فى العلم والدين بالمذاكرة فيما يقرب إلى الله . والكلام فى الفروع مبنى على الأصول .

وأنتم تعلمون أن دين الله لا يكون بهوى النفس ولا بعادات الآباء وأهل المدينة ، وإنما ينظر العاقل فيما جاءت به الرسل وفيما اتفق الناس عليه وما اختلفوا فيه . ويعامل الله تعالى بينه وبين الله تعالى بالاعتقاد الصحيح والعمل الصالح . وإن كان لا يمكن الإنسان أن يظهر كل ما فى نفسه لكل أحد ، فينتفع هو بذلك القدر . » الخ ...

الرسالة الرابعة[1] :

هذه رسالة للجلال السيوطى قريبة الشبه برسالة ابن تيمية فى موضوعها ومنحاها وقد أرسلها كاتبها إلى ملوك التكرور ، وكانوا مسلمين . ولكن يبدو أنه تفشى بينهم الظلم للرعية ، وانتشرت محاباتهم لأتباعهم ، وجورهم على من سواهم ، وتجاوزهم حدود الله وأحكام الشريعة الغراء ، فى أحكامهم .

ويبدو أنه بلغ إلى أسماع السيوطى أن بعض قضاتهم حكم بغير الشريعة فى إحدى القضايا تبعا للهوى ، وأنه قد فشت فيهم عوائد ليست من الدين فى شىء . لهذا كتب السيوطى إليهم عامة . وإلى الملك الزاهد محمدبن صعفن صاحب « أكدر » ، وإخوته ، خاصة . ينصحهم ويردهم إلى حكم الله ، ويذكرهم بقوته سبحانه وتعالى ، وهو أحق أن يخشوه ويتجنبوا عذابه .

وهذه الرسالة تقع فى نحو ٤٦ سطرا ، وخطها ردىء جداً . وقد جهدت فى قراءتها ونقلها ، ولذلك أسجل منها سطوراً أكثر من سابقتها فمنها :

« بسم الله الرحمن الرحيم . وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم . « يأيها الذين آمنو اتقوا الله وقولوا قولا سديدا يصلح لكم أعمالكم ويغفر لكم ذنوبكم . ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزاً عظيما .

من الفقير عبد الرحمن السيوطى إلى الملوك والسلاطين ببلاد التكرور عموما وإلى الملك الزاهد « محمد بن صعفن » صاحب أكدر وأخيه محمد وعمرو ابن أختم محمد عبد الرحمن . وإلى الملك صاحب كاسنة خصوصا .

سلام عليكم ورحمة الله وبركاته . أما بعد فإنى إليكم أحمد الله الذى لا إله إلا هو ، وأصلى وأسلم على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم .

ثم أوصيكم بتقوى الله فإنها رأس الأمر وسنامه . وقد فاز وأفلح من كان بها اعتصامه . وأحثكم على العدل بين الرعية والوقوف عند حدود الأحكام

---

(١) هذه الرسالة مخطوطة بدار الكتب المصرية — مجموعة رقم ٤١٦ .

الشرعية . ولا يغرن أمرأ منكم ما آتاه الله من الملك والسلطنة . وما خوله الله من زينة الحياة الدنيا ، كاها سنة منام ولا بد أن يستيقظ من السنة .

وقد بلغني عن أحدكم أنه يذكر له الحكم الشرعي في واقعة ، والمحكوم عليه منتم إليه فيحضنه . ويحول بينه وبين صاحب الحق ويحصنه . ويقول هذا دخل في ملكي أو جعل في سلطاني . وردُّ ما حكم به الشرع الشريف اغترار بالأماني — أفلا يخشى أحدكم من مالك الملك أن يحل عليه العذاب الأكبر . أو ينزل عليه سخطه في الدنيا قبل أن يقبر . إن بطش ربك لشديد . وما ربك بظلام للعبيد . أيغتر أحدكم بملكه الذي هو كقطرة أو صبابة . ويريد أن يلغي حكم الله بإقامة ناموسه الذي لا يساوي عند الله جناح ذبابة . أأمنتم من في السماء أن يخسف بكم الأرض . أو يدكدك عليكم ما بين طولها والعرض ؟ قال النبي صلى الله عليه وسلم : « السلطان ظل الله في الأرض يأوي إليه كل مظلوم من عباده . فإذا عدل كان له الأجر . وعلى الرعية الشكر . وإذا جار كان عليه الإصر . وعلى الرعية الصبر » . وقال عمر بن الخطاب — رضي الله عنه — : قلت يارسول الله : أخبرني عن هذا السلطان الذي ذلت له الرقاب وخضعت له الأجساد ، ما هو ؟ « قال : » ظل الله تعالى في الأرض . فإن أحسنوا فلهم الأجر وعليكم الشكر . وإن أساءوا فعليهم الإصر وعليكم الصبر . » . وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « سيليكم أمراء يعتدون وما يصلح الله بهم أكثر . فمن عمل منهم بطاعة الله فلهم الأجر وعليكم الشكر . ومن عمل منهم بمعصية الله فعليهم الوزر وعليكم الصبر » . وقال النبي صلى الله عليه وسلم : صنفان من أمتي لن تنالهما شفاعتي : سلطان غشوم عسوف ، وعابد مارق في الدين . »

وظل السيوطي يسوق من الأحاديث النبوية جملة في هذه المعاني . ثم قال :

« فلذلك بذلت لكم النصيحة . وبلغتكم ما جاء عن رسول الله عليه وسلم ، من الأحاديث الصحيحة . فأقيموا السلطنة بعدلها . وأدوا الأمانة إلى أهلها .

ومما ينص بالخصوص قضية الحاج محمد الترجمان مع عبده الذى عليه تغلب . وحاد عن الحق وتنكب . وحكم عليه القاضى محمد بن عبد الكريم بأنه باق فى رقه : وأمر بأن يسلم إلى مستحقه .. » إلى قال :

فتوبوا إلى الله من هذه الموبقة . ولا تحولوا بين السيد وعبده ، إلا أن يكاتبه باختياره ويعتقه . وقد بلغنى أن محمد بن مريم أقلع عما كان عليه وتاب . ورجع إلى ربه وأناب . وهذا هو الذى ينفعه فى المآب .

وقد بلغنى عن أهل « كوبر » أن منهم من إذا مرض ذبح عبداً له ، أو أمة . ويزعم أن ذلك يفديه من الموت . (هنا بياض فى الأصل) : إن كفره فيما صنعه وفيما زعمه هذا مما يسوله الشيطان . ومما يزينه من العدوان : ومما يئول بصاحبه إلى الكفران .. فليعلم من فعل ذلك أن الله برىء منه ورسوله . وليس هو ببالغ بذلك هناه وسؤله . لو أعتقه كان أقرب إلى الفداء . بعيداً عن الاعتداء . فمن عرض له أمر فليعرضه على حملة الشريعة . ويسأل عالما يوثق بعلمه ويجب عليه أن يطيعه . واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله ، ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون . »

هذا وتعانى بعض عبارات الرساله شيئاً من الاضطراب والنقص ، ويبدو أن ذلك بسبب النسخ .

وقد سهل للسيوطى مخاطبة ملوك التكرور — على مانفهم — أنه كانت له إلى بلادهم من قبل رحلات وطوفات ؛ فلعله تعرف إليهم وحظى لديهم . والله أعلم

* * *

وبعد فلم يكن توجيه النصائح والعظات ، مقصورا على الملوك والطغاة . بل تناول غيرهم من الناس ممن هم بحكم عملهم وولايتهم فى حاجة إلى النصح والإرشاد .

ونذكر بهذه المناسبة ، رسالة جيدة وجهها قاضى قضاة الشافعية بمصر تقى الدين

ابن دقيق العيد ، إلى نائب حكم فى إخميم — وكان ابن دقيق كثيراً ما يكتب إلى نوابه ويعظهم ويبالغ فى وعظهم .

وهذه الرسالة ذات أسلوب جيد ، وقد أعلن له فيها ما استحكم على القلوب من الغفلة ، وما شاع بين الناس من الفساد ونسيان الدين وتعاليمه ، ولم يستثن من ذلك قضاة الشرع الذين حملوا أمانته ولم يؤدوها . وبين ما ينجم من ذلك كله من عذاب فى الدنيا والآخرة. وأخذ يحذره وينذره ويخيفه من عذاب الله ، وطفق يضرب له الأمثال بأحوال السلف الصالح وأقوالهم .

قال فى مطلعها :

« صدرت هذه المكاتبة إلى مجلس مخلص الدين — وفقه الله تعالى لقبول النصيحة . وآتاه لما يقربه إليه قصداً صحيحاً ونية صحيحة .

أصدرناها إليه ، بعد حمد الله الذى يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور . ويمهل حتى لا يلتبس الإمهال بالإهمال على المغرور . ونذكره بأيام الله . « وإن يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون . » . ونحذره صفقة من باع الآخرة بالدنيا فما أجد سواه مغبون . عسى الله أن يرشده بهذا التذكار وينفعه . وتأخذ هذه النصائح بحجزته عن النار . فإنى أخاف أن يتردى فيخر من ولاه . والعياذ بالله.

والمقتضى لإصدارها ، ما نحناه من الغفلة المستحكمة على القلوب . ومن تقاعد الهمم مما يجب للرب على المربوب . ومن أنسهم بهذه الدار وهم يزعجون عنها . وعلمهم بما بين أيديهم من عقبة كئود وهم لا يتخففون منها . ولا سيما القضاة الذين تحملوا أعباء الأمانة على كواهل ضعيفة . وظهروا بصور كبار وهمم نحيفة . ووالله إن الأمر عظيم والخطب جسيم . ولا أرى مع ذلك أمناً ولا إقراراً . ولا راحة ولا استمراراً . اللهم إلا رجلا نبذ الآخرة وراءه . واتخذ إلهه هواه . وقصر همه وهمته على حظ نفسه ودنياه . فغاية مطلبه حب الجاه . والرغبة فى قلوب الناس وتحسين الزى والملبس . والركبة والمجلس . غير مستشعر خساسة حاله.ولا ركاكة مقصده . فإنك لا تسمع الموتى وماأنت بمسمع من فى القبور .

فاتق الله الذى يراك حين تقوم . واقصر أملك عليه فإن المحروم من فضله غير مرحوم . وما أنا وإياكم أيها النفر إلا كما قال حبيب العجمى ، وقد قال له قائل : « ليتنا لم نخلق » قال : « وقد وقعتم فاحتالوا » . وإن خفى عليك مثل هذا الخطر وشغلتك الدنيا عن معرفة الوطن ، فتأمل كلام النبوة : « القضاة ثلاثة : قاض فى الجنة وقاضيان فى النار . » . . . الخ

وضرب له الأمثال وسن له طريق التقوى فقال :

« وقال الفاروق : « ليت أم عمر لم تلده » . وقال على ، والخزائن مملوءة ذهبا وفضة : « من يشترى سيفى هذا ، ولو وجدت ما أشترى به رداء ما بعته » . وقطع الخوف نياط قلب عمر بن عبد العزيز فمات من خشية العرض . وعلق بعض السلف سوطا يؤدب به نفسه إذا فتر . فترى ذلك سدى أم نحن المقربون وهم البعداء ؟ . فهذه أحوال لا تؤخذ من كتاب السلم والإجارة والجنايات ، وإنما تنال بالخضوع والخشوع . وأن تظمأ وتجوع .

ومما يعينك على الأمر الذى دعوتك إليه . ويزودك فى السفر المعرض عليه . أن تجعل لك وقتا تعمره بالتذكر والتفكير . وإنابة تجعلها معدة لجلاء قلبك . فإنه إن استحكم صداه صعب تلافيه . وأعرض عنه من هو أعلم بما فيه . فاجعل همومك لاستعداد المعاد . والتأهب لجواب الملك الجواد . فإنه يقول : « فوربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون » . ومهما وجدت من همتك قصورا . واستشعرت من نفسك عما بدا لها نفوراً . فاجررها إليه وقف ببابه واطلب فإنه لا يعرض عمن صدق . ولا يعزب عن علمه خفايا الضمائر . « ألا يعلم من خلق » .

فهذه نصيحتى إليك ، وحجتى بين يدى الله إن فرطت ، إذا سئلت عنك ، فنسأل الله ولك ، قلباً شاكراً ولساناً ذاكراً ونفسا مطمئنة . بمنه وكرمه وخفى لطفه . والسلام »[1]

* * *

(١) عن حسن المحاضرة جـ ٢ ص ١١٣ .

هذا وكتب صاحب كتاب « نسيم الصبا » عظة ساقها على لسان أحد الوعاظ يذم فيها الدنيا إلى الناس . وافتتحها بديباجة كديباجة المقامات فقال :

« أعلمنى من أثق بنقله . ولا أشك فى معرفته وفضله . بقدوم بليغ من الوعاظ . يبرز دقائق المعانى فى جليل الألفاظ . وأشار بحضور مجلسه . والاهتداء بضوء قبسه . فقبلت الإشارة . وانتظمت فى سلك السيارة . حتى أفضينا إلى ناد فسيح . لسان مناديه فصيح . قد جمع بين الغنى والفقير . واشتمل على المأمور والأمير . وإذا بشيخ قائم فى بهرة حلقته . يفتن بسحر الكلام قلوب فرقته . فسمعته يقول :

أيها الناس ! ما الموت بساه ولا ناس . فتأهبوا لحلوله . واستعدوا له قبل نزوله . وحصلوا الراحلة والزاد . وردوا العاصى إلى الطريق فقد زاد . ولا تعدلوا عن محجة الحجا . واتقوا دعوة المظلوم فى ظلام الدجا . وآمنوا بالقدر خيره وشره . وارضوا بالقضاء حلوه ومره . وأفرغوا ذنوب الذنوب . وافزعوا إلى علام الغيوب . وامنعوا من الأمل ما كان جموحا . وتوبوا إلى الله توبة نصوحا .

وتجنبوا سبق الخطا فلكم هوى ... رب الهوى عن حصنه وعقابه
وتمسكوا بجناب تقوى ربكم ... كى تسلموا من خزيه وعقابه

وإياكم والدنيا فإنها تمكر بصاحبها . وتهدى إلى أقاربها سموم عقاربها . عامرها خراب . وغامرها سراب . أمدها قصير . وإلى الفناء نصير . صفوها كدر . وجرحها هدر . والخاطر بها على خطر . لأنها لا تبقى ولا تذر » الخ[1]

* * *

كتب الوعظ :

أما الكتب والمؤلفات التى صنفت للعظة والنصيحة ، أو تضمنت الكثير من ألوانها ، فهى وفيرة العدد . وقد سبقت إشارتنا إلى أن كتب التصوف والكلام عن العقائد ، تضمنت الشىء الكثير من النصائح .

---

(٢) العظة بتمامها فى « نسيم الصبا » بالباب الثلاثين .

وإليك أحاديث وجيزة عن بعض هذه المؤلفات النافعة . وهي بما تتضمنه من أفكار وما تبرزه من المعاني السامية التي تنطق بجدتها وعمقها ، جديرة بأن تسمو بكاتبيها إلى مصاف قادة الفكر المبتكرين . فمنها :

تاج العروس :

واسمه الكامل « تاج العروس الحاوي لتهذيب النفوس » . مؤلفه تاج الدين ابن عطاء الله السكندري المتوفى عام ٧٠٩ هـ . وقد أشرنا إليه من قبل ، وإلى أنه استوطن القاهرة وسلك سبيل المتصوفين ، وأخذ نفسه بوعظ الناس والعمل على تهذيب نفوسهم وتطهيرها بتنبيهها إلى حكم الشريعة الغراء .

وكتابه « تاج العروس » نمط من نفسه ، ورجع لما في فؤاده ، وصدى لما طفق يردده على الناس وعلى أتباعه من حكم جامعة ، ومواعظ نافعة . والكتاب تحليل نفوس وتعمق أخلاق وتشخيص داء ووصف دواء . وهو دليل مادي على عقلية هذا الرجل ومدى فهمه للشريعة ، وعمق إيمانه بالله ، ومقدار معرفته بالنفس البشرية ، ومبلغ حبه للناس . ثم تمكنه من إبراز معانيه العالية في ثوب لفظي جميل مقبول قل فيه الخفاء والغموض ، على الرغم من أن الشيخ أحد رجال الصوفية الذين لهم مصطلحاتهم .

وموضوع الكتاب جملة من الحكم والآيات البينات المزودة بالأحاديث وبالأمثال الرائعة والقصص الرادعة ، التي تدعو الإنسان إلى التزود من الدنيا للآخرة ، وإلى التجرد من متاعها العاجل ، وإلى الإقبال على الله بجمع النفس وملء القلب ، وتطهيره بالتوبة ، وإقلاعه عن المعصية ، حتى تفيض عليه أنوار العلم ، ويسبغ الإيمان رداءه فوقه .

قال ناصحاً بالتوبة داعياً إليها مبيناً سبيلها :

« أيها العبد : اطلب التوبة من الله في كل وقت . فإن الله تعالى قد ندبك إليها فقال تعالى : « وتوبوا إلى الله جميعاً أيها المؤمنون لعلكم تفلحون » : وقال تعالى : « إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين » . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إني ليغان على قلبي . وإني لأستغفر الله في اليوم سبعين مرة » .

فإن أردت التوبة فينبغى لك أن تخلو من التفكير طول عمرك فتفكر فيما صنعت فى نهارك . فإن وجدت طاعة فاشكر الله عليها ، وإن وجدت معصية فوبخ نفسك على ذلك . واستغفر الله وتب إليه . فإنه لا مجلس مع الله أنفع لك من مجلس توبخ فيه نفسك . ولا توبخها وأنت ضاحك فرح ، بل وبخها وأنت مجد صادق ، مظهر للعبوسة ، حزين القلب ، منكسر ذليل . فإن فعلت أبدلك الله بالحزن فرحا . وبالذل عزا ، وبالظلمة نورا ، وبالحجاب كشفاً » .

وقال متحدثاً عن المعصية وآثارها ، وهو فى ذلك كالطبيب الذى يصف مضاعفات المرض :

« واعلم أن المعصية تتضمن نقض العهد . وتحليل عقد الود . والإيثار على المولى . والطاعة للهوى . وخلع جلباب الحياء . والمبادرة لله بما لا يرضى . مع ما فى ذلك من الآثار الظاهرة ، من ظهور الكدورة فى الأعضاء . والجمود فى العين . والكسل فى الخدمة . وترك الحفظ للحرمة . وظهور كسب الشهوات . وذهاب بهجة الطاعات . وأما الآثار الباطنة فكالقساوة فى القلب ، ومعاندة النفس ، وضيق الصدر بالشهوات . وفقدان حلاوة الطاعات . وترادف الأغيار المانعة من بروق شوارق الأنوار . واستيلاء دولة الهوى . إلى غير ذلك من ترادف الارتياب . ونسيان المآب وطول الحساب . » الخ ...

وقال فى الطاعة متلطفاً فى وصفها وفى ضرب الأمثال فى سبيل الترغيب وفيها :

« ما أحسن العيش إذا أطعت الله فيه بذكر الله تعالى والصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم . يروى أنه ما من صيد يصاد ولا شجرة تقطع إلا بغفلتها عن ذكر الله تعالى . لأن السارق لا يسرق بيتاً وأهله أيقاظ ، بل على غفلة أو نوم . ومن علم قرب رحيله أسرع فى تحصيل الزاد . ومن علم أن إحسان غيره لا ينفعه جد فى الإحسان . ومن أخرج ولم يحسب ، خسر ولم يدر . ومن وكل وكيلا واطلع على خيانته عزله . وكذلك نفسك قد اطلعت على خيانتها فاعزلها وضيق عليها المسالك .

إذا رأيت فيك الإعراض والشهوة والغفلة ، فهذا وصفك . وإذا رأيت

فيك الإنابة والخشية والزهد ، فهذا من صنائع الله . مثال ذلك : إذا رأيت ببلدك الحلفاء والشوك والعوسج ، فهذا نبات أرض بلدك . وإذا رأيت بها العود الرطب والمسك والعنبر فاعلم أنه مجلوب من صنائع الله . وليس من نبات أرضك . » الخ . . .

بستان العارفين :(١)

هذا كتيب مخطوط بدار الكتب المصرية ، ألفه عالم عصره وزاهد زمانه محي الدين النووى المتوفى عام ٦٧٦ هـ . وهو نتيجة تصوف هذا الرجل ونسكه وتقواه ، ألفه ليرسم به طريق الرشاد الذى يسلكه العابد ليصل به إلى الله وإلى السعادة المنشودة ، وذلك بأن يتخلق بالأخلاق الفاضلة ، وأن يتزود بجملة من نفائس اللطائف وحقائق المعارف ، تعينه على بلوغ إربته والوصول إلى طلبته .

ويمتزج حديثه فيه بتفسير القرآن وشرح الحديث فى المناسبات ، مصحوبة بأقوال السلف والمأثور عن الأخيار من حكايات وأشعار . وقد عنى فيه ببعض الأحاديث النبوية مبينا صحيحها وحسنها ، وأحوال رواتها مع توضيح لخفى مراميها والمشكل من معانيها ، مستطردا إلى مشاكل كلامية كمسألة كسب العبد .

فهو كتاب يهدى إلى الطاعة ويعالج أدواء النفوس ، ويسمو بها عن طريق التعاليم الشرعية .

ومن كلامه فى ورقة رقم ٨ ، يتكلم عن « حقيقة الإخلاص والصدق » قال : « أما الإخلاص فقال الله تعالى : « وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين » ، الآية . وروينا عن حذيفة بن اليمان رضى الله تعالى عنهما ، قال : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الإخلاص « ما هو » فقال : سألت جبريل عن الإخلاص ماهو ، فقال سألت رب العزة عن الإخلاص ماهو ، قال : سر من أسرارى أودعته قلب من أحبه من عبادى » . وروينا عن إسناد الإمام

---

(١) مخطوط بدار الكتب المصرية — مجاميع ٤٦ .

أبي القاسم القشيري — رحمه الله — قال : الإخلاص إفراد الحق فى الطاعة بالقصد » . وهو يريد بطاعته التقرب إلى الله تعالى دون شيء آخر من التصنع لمخلوق ، واكتساب محمدة عند الناس ، أو منحة مدح من الخلق ، أو معنى من المعانى سوى التقرب إلى الله تعالى . » الخ . . .

مفتاح دار السعادة[1] :

اسمه الكامل : « مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة » . أحد كتب ابن القيم المطبوعة فى جزأين يحتوى كل منهما على نحو ثلثمائة صفحة .

وقد تحدثنا عن ابن القيم فى مناسبات سابقة ، وعرفنا طرفاً من اتجاهه ونزعته . وهذا الكتاب نموذج جديد يطلعنا على هذا الاتجاه وتلك النزعة . وهو فى رأينا ، يدور حول موضوع عام واحد ، هو توجيه نظر الإنسان إلى كثير من الحكم التى تتضح فيما خلقه الله سبحانه وتعالى ، وما قدره ونظمه ، لتبدو من ورائها قدرة القادر وبديع صنعه ، سبحانه . وهذا حرى بأن يدفع العاقل اليقظ المتدبر إلى عبادة ربه عبادة نقية صافية لا تشوبها شائبة ، ولا يحوم حولها ريب ، ولا يطوف بها شك ، وفى هذا سعادة لا تحد .

وملك الله سبحانه واسع المدى . ومظاهر قدرته لا تحصى ، والواعظ الناصح الواسع الأفق ، البصير ذو النظر الثاقب ، والرأى الفاحص ، يجد فيها ميداناً بعيد الآفاق يقبس منه كيفما شاء . ولهذا ترى أن ابن القيم قد تشعبت معه مناحى الكلام فى كتابه . وتشعبت فصوله ، حديثه عن موضوعات شتى يختلف الكلام فيها طولا وقصراً . ومن بينها فصل « فى بيان الأسرار التى بدت فى هبوط آدم من الجنة » . وفصل فى « وصف الجبال وبيان مزاياها » . وفصل فى « بيان الحكمة فى كثرة بكاء الأطفال » . وفصل فى « بيان حاجة الناس إلى الشريعة » . وهكذا .

هى موضوعات متباعدة فيما تتناوله . ولكنها مترابطة فى الغاية التى تهدف

---

(١) مطبوع .

إليها . وهى توخى الحكمة وتقديم العظة مما خلق الله وما شرعه ، وما قدره . وفى هذا دعوة إلى تعظيمه والخضوع له وعبادته .

وهى فى الواقع دروس تعليمية تهذيبية متعددة الألوان . فطورا تحدثك عن الإنسان وما أودع الله فيه من قوى ومميزات ، وطورا تصف لك الأجرام السماوية ، وتخاطبك عن مظاهر الطبيعة من ريح وزلزال ، وعن التضاريس الأرضية وما تحتوى عليه من معادن ونبات وماء وحيوان وإنسان . وبينما تحدثك عن الفروق الخلقية بين الرجل والمرأة ، إذ تكلمك عن الساعة وعلمها واستئثار الله سبحانه به ، وفائدة ذلك للإنسان ، إلى غير ذلك .

فقارئ الكتاب يحار فيه : أهو كتاب فقه وتشريع أم تفسير وحديث ، أو تصوف وعقائد أو تاريخ وقصص ، أو هو كتاب من كتب علم النفس تحليلى يتحدث عن الأخلاق ويرسم مناهج التربية ، أو هو كتاب أدب بما ضم بين دفتيه من مأثور الشعر والنثر ؟

هو كل ذلك فى الواقع ، وربما تجد فيه من الحقائق العلمية ما يحتاج إلى تمحيص ، ولكنه على كل حال يرمى إلى غرض عام رئيسى ، وهو تهذيب النفس باطلاعها على حكم صنعة الله سبحانه ، ودعوتها إلى الإيمان التام به والاستسلام له وطاعته وعبادته . كل هذا فى عبارة مرسلة وتراكيب سهلة وأسلوب جيد ، تتراوح فيه بعض المصطلحات من آن إلى آن ، وتبدو فيه روح الاستقصاء واستيفاء الأجزاء من وقت لآخر .

وإليك سطورا مما قاله :

قال يتحدث عن كمالات النفس الأربعة التى ذكرها الفلاسفة وهى : العفة والحلم والشجاعة والعلم :

« وهذه الكمالات الأربعة التى ذكرها الفلاسفة للنفس ، لابد منها فى كمالها وصلاحها . ولكن قصروا غاية التقصير فى أنهم لم يبينوا متعلقها ولم يحدوا لها حدا فاصلا بين ما تحصل به السعادة ومالا تحصل به . فإنهم لم يذكروا متعلق «العفة» ولاعماذا تكون ولا مقدارها الذى إذا تجاوزه العبد وقع فى الفجور .

وكذلك « الحلم » لم يذكروا مواقعه ومقداره وأين يحسن وأين يقبح . وكذلك « الشجاعة » وكذلك « العلم » ، لم يميزوا العلم الذى تزكو به النفوس وتسعد ، من غيره ، بل لم يعرفوه أصلا .

وأما الرسل صلاة الله وسلامه عليهم ، فبينوا ذلك غاية البيان وفصلوه أحسن تفصيل . وقد جمع الله ذلك فى كتابه فى آية واحدة فقال : « قل إنما حرم ربى الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، والإثم والبغى بغير الحق ، وأن تشركوا بالله مالم ينزل به سلطانا وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون » — فهذه الأنواع الأربعة التى حرمها الله تحريما مطلقا لم يبح منها شيئا لأحد من الخلق ولا فى حال من الأحوال . بخلاف الميتة والدم ولحم الخنزير فإنها تحرم فى حال وتباح فى حال .

وأما هذه الأربعة فهى محرمة . فالفواحش متعلقة بالشهوة ، وتعديل قوة الشهوة باجتنابها . والبغى بغير الحق متعلق بالغضب ، وتعديل القوة الغضبية باجتنابه . والشرك بالله ظلم عظيم ، بل هو الظلم على الإطلاق وهو مناف للعدل والعلم . وقوله « وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا » متضمن تحريم أصل الظلم فى حق الله . وذلك يستلزم إيجاب العدل فى حقه . وهو عبادته وحده لا شريك له . فإن النفس لها قوتان : العلمية والعملية . وعمل الإنسان عمل اختيارى تابع لإرادة العبد . وكل إرادة فلها مراد . وكما هو : إما مراد لنفسه ، وإما مراد لغيره ينتهى إلى المراد لنفسه ولا بد . فالقوة العملية تستلزم أن يكون للنفس مراد تستكمل بإرادته . فإن كان ذلك المراد مضمحلا فانيا زالت الإرادة بزواله ، ولم يكن للنفس مراد غيره ففاتها أعظم سعادتها وفلاحها . فيجب إذن أن يكون مرادها الذى تستكمل بإرادته وحبه وإيثاره باقيا لا يفنى ولا يزول . وليس ذلك إلا الله وحده . » الخ[1] . . .

وقال يصف القلب السليم :

« والقلب السليم الذى ينجو من عذاب الله ، هو القلب الذى قد سلم من

---

(١) مفتاح دار السعادة ج ١ ص ١٢٨

هذا وهذا . فهو القلب الذى قد سلم لربه وسلم لأمره ولم تبق فيه منازعة لأمره ولا معارضة لخبره . فهو سليم مما سوى الله وأمره . لا يريد إلا الله، ولا يفعل إلا ما أمره الله وحده، غايته وأمره وشرعه، وسيلته وطريقته. لا تعترضه شبهة تحول بينه وبين تصديق خبره . لكن لا تمر عليه إلا وهى مجتازة تعلم أنه لا قرار لها فيه . ولا شهوة تحول بينه وبين متابعة رضاه . ومتى كان القلب كذلك فهو سليم من الشرك وسليم من البدع، وسليم من الغى، وسليم من الباطل . وكل الأقوال التى قيلت فى تفسيره فذلك يتضمنها . وحقيقته أنه القلب الذى سلم لعبودية ربه حياء وخوفاً وطمعاً ورجاء . فغنى بحبه عن حب ما سواه . وبخوفه عن خوف ما سواه، وبرجائه عن رجاء ما سواه . وسلم لأمره ولرسوله تصديقاً وطاعة كما تقدم . واستسلم لقضائه وقدره فلم يتهمه ولم ينازعه ولم يتسخط لأقداره، إلخ[1]...

إغاثة اللهفان[2]:

هذا كتاب آخر فريد من كتب ابن القيم، واسمه «إغاثة اللهفان فى مصايد الشيطان» . ولابن القيم كثير من هذه النفائس التى تفيض وعظاً وتعليما، وتنضح نصحاً وتهذيباً، وتلقى على الناس دروساً قيمة فى الأخلاق، وتسلك بهم سبيل الفضائل الصحيحة .

و«إغاثة اللهفان» تحليل لنفسية الإنسان وقلبه، وحديث عن مبلغ إيمانه ومرضه وطرق علاجه . عدا ما تضمنه من شتى الموضوعات والعقائد والاجتماعيات والأحوال الشخصية والأحكام الفقهية .

ومن فصوله ذات الصلة بموضوعنا :

فصل فى القلب الميت الذى لا حياة له فصل فى أن حياة القلب لا تحصل إلا بأن يكون مدركا للحق . فصل فى قياس مرض القلب على مرض البدن . فصل فى انقسام أدوية أمراض القلب إلى طبيعية وشرعية . فصل فى أن القرآن

---

(١) مفتاح دار السعادة ، ج ٢ ص ٤٣ . (٢) مطبوع ويقع فى نحو ٤٢٢ صفحة .

متضمن لأدوية القلب وعلاجه . فصل فى طهارة القلب من أدرانه ونجاساته . فصل فى النفس اللوامة . فصل فى الغناء واللهو وشهادة الزور واللغو وما يتصل بذلك من مداخل الشيطان. فصل فى أن من مكايد الشيطان الفتنة بالقبور . إلخ ...

وأحاديثه تدل على تمكنه من فهم الشريعة الغراء ، وانطباعه بطابعها الأصيل ، وغيرته على الناس وخوفه عليهم أن ينحرفوا فيصيبهم عذاب الله . فهو يبين لهم وينصح ، ويشرح ويوضح ، ويضيء معالم الطريق للسالكين بنفس خيرة تملؤها المحبة العامة . ويسوق معانيه السامية فى عبارات واضحة لا التواء فيها ولا تأويل ، معتمدة على قرآن الله وأحاديث نبيه عليه السلام ، وأقوال السلف وكبار الأئمة وأحوال السابقين .

انظر إليه يتحدث عن قلب الإنسان وقد قسمه ثلاثة أقسام : قلب سليم ، وقلب ميت ، وقلب له حياة وبه علة . وبعد أن وصف القلب السليم ، قال يصف القلب الميت :

« والقلب الثانى ضد هذا ، وهو القلب الميت الذى لا حياة به ، فهو لا يعرف ربه ولا يعبد بأمره وما يحبه ويرضاه ، بل هو واقف مع شهواته وإرادته ، ولو كان فيها سخط ربه وغضبه ، فهو لا يبالى ، إذا فاز بشهوته وحظه ، رضى ربه أم سخط ، فهو متعبد لغير الله حباً وخوفاً ورجاء ورضا وسخطاً وتعظيما وذلا . إن أحب أحب لهواه ، وإن أبغض أبغض لهواه ، وإن أعطى أعطى لهواه ، وإن منع منع لهواه ، فهواه آثر عنده وأحب إليه من رضا مولاه ، فالهوى إمامه ، والشهوات قائده ، والجهل سائسه ، والغفلة مركبه . فهو بالفكر فى تحصيل أغراضه الدنيوية مغمور ، وبسكر الهوى وحب العاجلة مخمور ، ينادَى إلى الله وإلى الدار الآخرة من مكان بعيد ، فلا يستجيب للناصح ، ويتبع كل شيطان مريد ، الدنيا تسخطه وترضيه ، والهوى يصمه عما سوى الباطل ويعميه ، فهو فى الدنيا كما قيل فى ليلى :

عدو لمن عادت وسلم لأهلها ومن قربت ليلى أحب وقربا

فمخالطة صاحب هذا القلب سقم ، ومعاشرته سم ، ومجالسته هلاك » .

الوصية :

نقصد بالوصية هنا فى هذا الباب ، النصيحة والعظة ، وهى كلمة الإرشاد التى تصدر عن روح ونية قويمة ونزعة إسلامية سليمة ، والتى تدعو إلى العزوف عن الدنيا ، والتزود للآخرة ، وخشية الله فى كل ما يتناول المرء من الأعمال . وهذا هو ما سبق الحديث عنه .

غير أننا أردنا الآن أن نذكر القارئ بما سطرناه عن « الوصايا » فى باب الرسائل ، لنحسن الربط بينها فى الباب المذكور ، وبينها فى تلك السطور .

وقد رأينا هناك كيف كانت « الوصية » عنصراً بارزاً بين عناصر الرسائل الديوانية . لم تكن « الوصية » موضوعا للرسالة ، ولكنها أحد عناصرها . وقلما خلت رسالة ديوانية ، سواء أكانت ملوكية أم تقليداً أم توقيعاً أم غير ذلك كما رأينا ، من وصية توجه إلى المرسل إليه فى ثنايا الرسالة .

ورأينا كذلك أن « الوصية » ، وإن كانت فى جملتها تدعو إلى الأمانة والصدق والعدل وحسن المعاملة ونحو ذلك من الأخلاق الفاضلة التى يدعو إليها الدين الحنيف ، كانت مع هذا ، متنوعة المسالك تختلف فى جزئياتها باختلاف المرسل إليهم ، وباختلاف أعمالهم المنوطة بهم ، ومن هنا لم تتلون « الوصايا » هناك بالألوان الدينية الزاهية التى لمعت لمعاناً واضحاً فى النصائح والمواعظ التى تحدثنا عنها فى هذا الفصل .

وقد ألمعنا هناك إلى أن شهاب الدين بن فضل العمرى ، أورد فى كتابه « التعريف » جملة نماذج للوصايا التى تكتب فى المراسلات الديوانية . فمنها وصية مثلا للخليفة أو الملك تكتب « فى بيعته » . ومنها وصية تكتب لنائب السلطنة فى تقليده . ومنها وصية لوزير ، وأخرى لنائب قلعة ، وهلم جرا .

وقد قدم ابن فضل الله كلامه عن وصاياه ونماذجها بقوله : « هذا باب

كبير وللقلم فيه سبح طويل . ولو تكلفنا استيعاب الوصايا لألزمنا تكليف مالا يطاق . »[1]

وقد اختلفت عبارات ابن فضل الله ، ومعانيها ، باختلاف أعمال المرسل إليهم . فإنه نظر فى اختصاص كل منهم ، وما وكل إليه الإشراف عليه ، وراح يوصيه برعايته وحسن الهيمنة عليه وتصريفه ، وإن كان — فى الجملة — يدعو إلى تقوى الله .

* * *

وهناك رجل آخر غير ابن فضل الله ، كتب مثل هذه الوصايا . إلا أن ابن فضل الله كان كاتبا منشئا ورئيسا من رؤساء الديوان ، ومقننا للديوان وكتابه . فوضع كتابه «التعريف» نموذجا لهم ليقتدوا بما فيه من رسوم ومناهج تعبيرية . وكان هذا الاعتبار أهم ما صدر عنه ابن فضل الله فى « تعريفه » .

أما الرجل الآخر فلم يكن من رجال الديوان ، ولم يكن معدودا فى جملة المنشئين ، وإن كان أديبا وكاتبا وشاعرا . إلا أنه كان فقيها ومؤرخا قبل كل شىء . ومن هنا اتسمت « وصاياه » بالسمات الدينية ، على نمط من النصائح والعظات التى درسناها . أو على الأقل اتسمت بها أكثر مما اتسمت وصايا ابن فضل الله . بل إن ابن فضل الله كان فى « وصاياه » صاحب قلم أولا ، أما هذا الرجل فكان صاحب فكرة أولا . وهى فكرة كلية عميقة وليدة الفهم والدرس ، أوردها ثم أخذ يشرح تفاصيلها ويدلل على صوابها ، ويبين مناهج تطبيقها . ولهذا رأينا أن ننوه بها فى هذا الفصل .

* * *

هذا الفقيه هو صاحب طبقات الشافعية ، وأعنى « تاج الدين السبكى » . وقد اجتمعت « وصاياه » فى كتاب لطيف طبع فى مصر وفى أوربا . واسمه « معيد النعم ومبيد النقم » وإليك وجازة عنه :

---

(١) راجع التعريف بالمصطلح الشريف لابن فضل الله ، ص ٩١

معيد النعم ومبيد النقم :

وضعه مؤلفه إجابة لسؤال ورد إليه هو : « هل من طريق لمن سلب نعمة دينية أو دنيوية ، إذا سلكها عادت إليه وردت عليه » ؟

فكان جوابه — وهو يمثل فكرته ، وتراها منتزعة من صميم الشريعة وروحها — قوله :

« طريقه أن يعرف من أين أتى فيتوب منه . ويعترف بما فى المحنة بذلك من الفوائد فيرضى بها . ثم يتضرع إلى الله بالطريق التى نذكرها . هذه ثلاثة أمور هى طريقه التى يحصل بمجموعها دواء مرضه ، ويعقبها زوال علته ، بعضها مرتب على بعض ، لا يتقدم ثالثها على ثانيها ولا ثانيها على أولها » .

والأمور الثلاثة كما ترى هى التوبة ، والرضا ، والتضرع .

وقد عاد السائل إلى تاج الدين يسأله قائلا : « اشرح لنا هذه الأمور شرحا مبينا مختصرا ، وصف لنا هذا الدواء وصفا واضحا نستعمله » .

فقال : « هذا سر غريب ، جمهور الخلف لا يحيطون بعلمه . ونبأ عظيم ، أكثر الناس معرضون عن فهمه . لاستيلاء الغفلة على القلوب . ولغلبة الجهل بما يجب للرب على المربوب » .

ثم أخذ تاج الدين يشرح هذه الأمور الثلاثة ، باختصار ، كما قال . ويبين تفاصيلها ، وبذلك كتب جملة كبيرة من النصائح والوصايا ذات متات وثيق بشيئين. الأول : الشريعة وماتوجبه على العاصى من توبة ورضا واستسلام لقضاء الله وقدره ، الثانى : العمل الذى يتولاه الموصى وما ينبغى له من رعاية وعناية ومراقبة لله سبحانه وتعالى فيه ، حتى يقبله قبولا حسنا ، وتحسن بذلك العاقبة ، وتعود النعمة المسلوبة .

وملخص رأى هذاالناصح : أن من سلبت منه النعمة ، وأحب أن يعيدها فعليه بالتوبة ، وعليه أن يخلص الشكر لله ، حتى تعود إليه نعمته فيستمر على شكرها .

أما شكر النعمة فعنى عام ، أما كيفيته وتفصيله فيختلفان باختلاف نوع النعمة وطبيعة العمل . فمثلا : العين ترى ، وشكر الله على نعمة العين يكون باستخدامها فيما أمر الله به ، وبعدها عما نهى عنه ، فلا تقع على محرم مما حرم الله النظر إليه — والأذن تسمع ، وشكر الله على نعمة الأذن يكون بتجنبها ما حرم الله سماعه ، والإقبال بها على سماع ما أمر الله أن يسمع ، وهكذا .

وعلى هذا الأساس فرع المؤلف ألواناً من الشكر ، يناسب كل منها طبيعة العمل الذى يؤديه المرء ، وكلف أداءه . وعلى هذا أصبح لكل عامل وموظف وعالم وصانع ، وغير ذلك ، طريقة من طرق الشكر يستجلب بها النعمة المسلوبة ، ثم يستديمها إذا عادت إليه .

ومجمل تفصيله فى وصف طرق شكر النعم هو إتقان العمل ورعاية حق الله فيه والإخلاص فى أدائه .

فنائب السلطنة مثلا ، يشكر النعمة ، برعاية أمور الرعية نيابة عن سلطانه . وإسداء النصيحة للسلطان خالصة لوجه الله .

والعالم مثلا ، يشكر النعمة بنشر العلم والدأب على تعليم الناس أمور دينهم ، وإخلاص النصيحة للخاصة والعامة على السواء فيما يعود عليهم بالنفع فى الدارين . . . وهكذا .

وإليك سطوراً مما قاله فى « المثال الخامس » وهو بيان عمل السلطان وطريقة قيامه به شكرا لنعمة الله بالسلطنة . قال :

« السلطان : أعنى الإمام الأعظم . وقد أكثر الفقهاء الحديث عنه فى باب الإمامة ، وأفرد منهم كثيرون الأحكام السلطانية بالتصنيف . ونحن ننبه على مهمات أهملها الملوك أو قصروا فيها .

فمن وظائف السلطان تجنيد الجنود وإقامة فرض الجهاد لإعلاء كلمة الله تعالى . فإن الله تعالى لم يوله على المسلمين ليكون رئيساً آكلا شارباً مستريحاً ، بل لينصر الدين ويعلى الكلمة .

فمن حقه ألا يدع الكفار يكفرون أنعم الله تعالى . ولا يؤمنون بالله تعالى ولا برسوله صلى الله تعالى عليه وسلم . فإذا رأينا ملكا تقاعد عن هذا الأمر وأخذ يظلم المسلمين ويأخذ أموالهم بغير حق ، ثم سلبه الله تعالى نعمته ، وجاء يعتب الزمان ويشكو الدهر ، أفليس هو الظالم ؟ . وقد كان يمكنه بدل أخذ أموال الناس وظلمهم ، أن يقيم جماعة فى البحر يتلصصون على أهل الحرب . وإن كان هذا الملك شجاعاً ناهضاً فليرنا همته فى أعداء الله تعالى الكفار ، ويجاهدهم ويتلصصهم ويعمل الحيلة فى أخذ أموالهم . . ؟ . . ويدع عنه أذية المسلمين .

ومن وظائفه أن ينظر الإقطاعات ويضعها إلى مواضعها ، ويستخدم من ينفع المسلمين ويحمى حوزة الدين ، ويكف أيدى المعتدين .

فإن فرق الإقطاعات على مماليكه ، واصطفاها وزينها بأنواع الملابس والزراكش المحرمة ، وافتخر بركوبها بين يديه ، وترك الذين ينفعون الإسلام جياعاً فى بيوتهم ، ثم سلبه الله تعالى النعمة ، وأخذ يبكى ويقول : « ما بال نعمتى زالت ، وأيامى قصرت » ! فيقال له : « يا أحمق ! أما علمت السبب ؟ أو لست الجانى على نفسك » . ؟ ؟

ومن هذه السطور تتجلى لك أمور منها :

١ — أن المؤلف يصدر فى نصائحه عن روح الشريعة كما نوهنا . ويذكر النعمة ويصف طريق شكرها .

٢ — أنه وصف فيما وصف ، جملة من مفاسد الملوك ، ولا ريب أنه يقصد ملوك عصره إذ هم إليه أقرب .

٣ — أنه كما يبدو لنا — وإن كان راضياً عن نظام الإقطاع — كان فى نفسه شىء منه . ويرى توجيهه لنفع المسلمين .

٤ — أنه جرىء اللفظ فى توجيه نصحه للملوك . وهذا فى رأينا هو ما ينبغى للعالم اتباعه مع الجائرين من الملوك . فقد أثبتت التجارب أن المصانعات لاتجدى ، وأن النقد الجرىء الصادق هو العلاج الحاسم .

٥ — أنه فى خلال نصيحته بين بعض اختصاصات السلاطين فى وظائفهم كتجنيد الجنود ومحاربة الأعداء وحماية الرعية ، ومراقبة المحاربين .. الخ .

* * *

وهذه الملاحظة الخامسة هى التى نحب هنا أن نوجه إليها النظر ، ليبين للقارئ إحدى مميزات هذا الكتاب النافع . فقد أخذ مؤلفه يعقد لكل ذى عمل ووظيفة وصنعة فى الدولة ، فصلا يطول أو يقصر ، يبين له فيه عمله ونعمة هذا العمل وطريق شكرها . وسمى الفصل « مثالا » .

وقد بلغ عدد أمثلته أكثر من مائة ، كل منها معنون بوظيفة المنصوح الموصى . فثال للسلطان . ومثال لنائب السلطنة . ومثال للاستادار . ومثال للدوادار . وهكذا .

وقد سجل المؤلف فى أمثلته هذه جملة من أسماء الصناعات والحرف كالوراق والجزار والدهان . ومن هنا نستطيع الاستفادة من هذا الكتاب ، فى معرفة كثير من وظائف الدولة وأسماء الحرف المنتشرة بها واختصاص كل وظيفة وحرفة ، على وجه الإجمال . وهذه فائدة ينتفع بها المؤرخون الاجتماعيون .

* * *

هذا . وقد ساق المؤلف نصائحه — كما رأيت من نموذجها — هينة سهلة واضحة المعانى لايئودها تكلف ولا قيد . مدعومة أحياناً كثيرة بالآيات والأحاديث .

وقبل أن نترك الحديث عن الوصية إلى الحكمة ، نشير إلى أن لابن تيمية وصيتين جيدتين ؛ تسمى إحداهما « الوصية الكبرى » ، وهى طويلة فى صفحات عدة ، كتبها إلى أتباع الشيخ العارف أبى البركات عدى بن مسافر الأموى ومن نحا نحوهم . . وتسمى الثانية « الوصية الصغرى » وقد كتبها إلى رجل يقال له « أبو القاسم القاسم بن يوسف النجيبى » الذى طلب إليه أن ينصحه بما يفيده فى دينه وكسبه وعلمه . وتقع فى نحو ١٨٠ سطراً .

وقد سلك ابن تيمية فيهما مسلكه الدائم فى الدعوة إلى الله واتباع ما أحل واجتناب ما حرم ، معززاً كلامه بشواهد من الآيات والأحاديث والمأثور من الأقوال والحوادث عن السلف الصالح(١) .

* * *

الحكم :

بقى علينا فى هذا الفصل أن نتحدث فى إيجاز عن الحكم ومبلغ نصيب العصر منها .

والحكمة أولا ، كما يقال ، حقيقة أو قول صادق مسلم به ، مصوغ فى عبارة موجزة غالباً . وقد تكون — أو كثيراً ما تكون — « الحكمة » نصيحة صبت فى قالب من اللفظ مقتضب ، وتستمد من الناحية الدينية أو الخلقية أو الاجتماعية ، أو تدور حولها .

والحكم — غالباً — وليدة طول الدراسة وبعد الثقافة وعمق النظر وحسن الفهم وسعة الإحاطة والعلم بالأمور . ومن هنا كانت وثيقة الصلة بعلوم الفلسفة والمنطق والمعقولات بصفة عامة . وقد سبق لنا التنويه بضعف الاشتغال بهذه العلوم . وبسبب ذلك ضعف إنتاج الحكم . على أنه قد مر علينا بعضها ، وبخاصة عند الحديث عن مفاكهة الخلفاء لابن عربشاه .

غير أن انتشار الروح الدينية وإقبال العلماء على فهم الشريعة الغراء ، ثم التنازع فيما بينهم على العقائد ، هذا ، إلى ذيوع النزعة التصوفية ، كل ذلك كان ذا أثر فى وجود شىء من الحكم .

ويحضرنا فى هذا المقام ، فصل كتبه ابن حبيب الحلبى فى كتابه « نسيم الصبا » ومقالة للسيوطى ، وكتاب لتاج الدين بن عطاء الله السكندرى . سجل كل منهم فيه شيئاً من مبتكرات حكمه . وإليك عرضاً وجيزاً لكل منها .

---

(١) الوصية الكبرى والصغرى مطبوعتان ضمن مجموعة بدار الكتب المصرية .

فصل لابن حبيب الحلبي :

هو الفصل التاسع والعشرون من كتابه «نسيم الصبا» ويتألف من عشرات من الحكم المنثورة التي تدور حول مدح العلم والعقل ، والحث على طلب المجد ، والرضا بالقدر ، والتخلق بالصفات الحميدة . وفى مطلعه يقول :

« العلم نعم السمير . والعقل بشير بالخير يشير . اجتهد فى طلب العلوم . تنفرد بما يرفعك إلى النجوم . المجد يبذل اللهى . والفضل بالأدب والنهى . من صادق العلماء زها بدره . ومن رافق السفهاء وهى قدره . العلم ثمرته الإنصاف . والزهد نتيجته العفاف . التقوى أفضل حلة . والمروءة أجل خلة . الحق سيف قاطع . والحلم درع مانع . الزم الحجا فهو ألطف سائس . ولا تعدل عن العدل فهو أحفظ حارس . العقل أحسن المواهب . والجهل أقبح المصائب :

العقل أحسن معقل فاهرع إلى ... أبوابه العليا تنل كل العلا
واعلم بأن الشيء يرخص كثرة ... والعقل إن كثرت حواصله غلا

من رضى بالقدر . وقى شر الحذر . اليأس يعز الأصاغر . والطمع يذل الأكابر . حاسب نفسك تسلم . ولا تقتحم الأخطار تندم . من سره الفساد فى الأرض . ساءه طول التعب يوم العرض . لا تقل إلا مايطيب عنك نشره . ولا تنقل إلا مايسطر لك أجره . السعيد من اتعظ بماضى أمسه . والشقى من ضن بخيره على نفسه . لاتغرنك صحة بدنك اليسيرة . فمدة العصر وإن طالت قصيرة . من لم يعتبر بالمساء والصباح . لم يرتدع بقول اللوام والنصاح . من قنع برزقه استغنى . ومن صبر نال ماتمنى . » الخ . . .

* * *

مقالة للسيوطى :

هذه مقالة للجلال السيوطى مخطوطة[1] اسمها «درر الكلم وغرر الحكم» وتقع فى نحو ٦٠ سطراً . وهى مكونة من حكم مزدوجة غالباً ، بمعنى أن كل حكمة

---

(١) مخطوط بدار الكتب المصرية ــ مجاميع ٤١٦ .

مكونة من جملتين مسجوعتين تكمل إحداهما الأخرى . وهى فى مجموعها تدل على ثقوب بصر وسعة معرفة بشئون الناس وأخلاقهم ، وأمور المجتمع وأوضاعه ومنها قوله :

« صلة الناس ليس لها عائد . ومعرفتهم نزرة الفوائد — من عرف الناس خص بالبلاء . وأحاط به الرق والولاء — رب امرئ أوليته جميلا . فكان بالإساءة إليك حميلا — الكتاب الكتاب . ولا يصدنك العتاب — والسنة السنة . ولو علتك الأسنة — عليك بعلم الشريعة . فإنه إلى الله أقوى الذريعة — أف للدنيا تقدم الجاهل ، وتؤخر الفاضل . وتبا للعلياء يفوتها السابق والفاضل — الكريم يرى ألم الكلام . أشد من ألم الكلام — رب ساكت أعلم من ناطق . وساكن ليس له بارق — رب رجل أزهى من ذباب . وهو أوهى من سراب — رب أغيد ، من الغزالة أنور . ومن الغزال أنفر — قبح الله من جهل العلوم المشرقة . وتمثل بعلوم الفلسفة ... — من تحكم بالشريعة فعارضه مسجوم . ومن تكلم بالفلسفة فلسانه ملجوم — ! ما للعوام غير السيف . ولو أصابهم الحيف — ! لسان العالم . سنان فى الملاحم — حسب العالم سبقه رفيقه فى المحافل . وتأخر من كان فى رواء الجهل رافل ؟ — العوام كالأنعام . بل أضل وأجحد للإنعام . ما كل خطيب مصقع . ولا كل واعظ يصدع — قطع الرءوس لدى العاقل أهون من الانقطاع فى المحافل — اعضض على الحق بناجذيك . واغضض عن الخلق شاهديك . » الخ

هذا . وقد لفت نظرنا رأيه فى الفلسفة وفى العوام . فأما رأيه فى الفلسفة فهو يمثل بوجه الإجمال عقلية أهل العصر ومبلغ تقديرهم لعلوم الفلسفة بجانب علوم الشريعة . أما رأيه فى العوام فيبدو أنه يعنى بهم الجهال المكابرين الذين لاينقادون لتعاليم الشريعة .

* * *

كتاب ابن عطاء الله :

نوهنا بابن عطاء الله السكندرى فى أكثر من مناسبة . وهو رجل متصوف فقيه فى الشريعة . وله أكثر من كتاب . من بينها كتاب يسمى « حكم ابن عطاء الله

وقد تناوله بالشرح بعض الأدباء . وقد تصفحت شرح العلامة ابن زروق الفاسى « أحمد بن أحمد بن عيسى » [1] وله ثلاثة شروح لتلك الحكم ، هذا الشرح أكبرها .

وحكم ابن عطاء الله حكم صوفية تنزع إلى بث المعانى الروحية السامية فى نفوس القارئين ، وتدعو إلى التفانى فى ذات الله سبحانه وتعالى ، وإلى الاتكال التام عليه فى كل مايصدر إليه المرء ويرد عنه ، وإلى ترك مصاير الأمور إليه . وهى إلى ذلك تصف أحوال العباد فى هذه الدائرة التصوفية .

ونحن ننقل إلى القارىء شيئاً منها . قال :

« ربما دلهم الأدب على ترك الطلب . إنما يذكر من يجوز عليه الإغفال . وإنما ينبه من يمكن منه الإهمال . ورود الفاقات أعياد المريدين . إنما احتجب لشدة ظهوره . وخفى عن الأبصار لعظم نوره . من عرف الحق شهده فى كل شىء ، ومن فنى فيه غاب عن كل شىء — من اطلع على أسرار العباد ولم يتخلق بالرحمة الإلهية كان اطلاعه فتنة عليه . حظ النفس فى المعصية ظاهر جلى . وحظها فى الطاعة باطن خفى . إن أردت أن يفتح لك باب الرجاء فاشهد مامنه إليك . وإن أردت أن يفتح لك باب الحزن ، فاشهد ما منك إليه . إذا وقع منك ذنب فلا يكن سبباً يؤيسك من حصول الاستقامة مع ربك . متى كنت إذا أعطيت بسطك العطاء ، وإذا منعت قبضك المنع ، فاستدل بذلك على ثبوت طفوليتك وعدم صدقك فى عبوديتك . الناس يمدحونك بما يظنون فيك ، فكن ذاما لنفسك لما تعلم منها . لاعمل أرجى للقلوب من عمل يغيب عنك شهوده ، ويحتقر عندك وجوده . الغافل إذا أصبح نظر ما يفعل ، والعاقل إذا أصبح نظر مايفعل به . » الخ . . .

هذه بعض حكم ابن عطاء الله ، وهى تصوفية يحتاج بعضها إلى شرح ومزيد إيضاح . ولهذا عنى بشرحها بعض الأدباء كما ذكرنا . وهى تدل على قلب مؤمن وعقل فاهم ونفس فانية .

(١) يوجد من هذا الشرح نسخة مخطوطة بدار كتب بلدية الإسكندرية تقع فى نحو ١٧٥ صفحة ومنه مطبوع .

الباب الخامس

النقد والنقاد

تمهيد

كلمة عامة فى وصف حالة النقد

النقد الأدبى وأهميته :

النقد الأدبى كما نفهمه فى العصر الحديث ، هو النظر فى النتاج الأدبى لأمة أو فرد ، لنرى مبلغ دلالته الفنية ، متخذين من الموازين الأدبية السليمة مقياسا للحكم على صدقه ، ومقدار نطقه بالحق . ونقلبه على وجوهه المتعددة ، تحريا لمظاهر الحسن فيه ، وتلمسا لمواضع النقص منه ، جاهدين فى إبراز حسنه أو نقصه .

ومعنى ذلك تحليل الأدب وتعليله لفظا ونظما وفكرة . وتوضيح المؤثرات التى تأثر بها ثقافية أو جغرافية ، أو تاريخية ، أواجتماعية ، أوشخصية ، أونحوها . مع توضيح آثارها فيه . ثم بيان مدى تأثير هذا الأدب ، فى فرد آخر أوجماعة أخرى ، باعتباره عاملا جديداً من العوامل الحيوية المؤثرة فى حياتهما . ثم موازنة هذا الأدب بغيره ومعرفة مدى الفوارق بينهما ، إبرازاً لقوة أحدهما أو ضعفه ، وسموه أوضعته ، وصدقه أو مينه ، وتأثره بغيره أو عدم تأثره .

والموازنة بذلك ، تعين على تشخيص الأدب وإبراز عناصره ، وإيضاح مميزاته وخصائصه .

والناقد يحتاج إلى سعة من العلم ، وإحاطة بالأدب ، ودراسة اجتماعية حاذقة ، وفلسفة نفسية عميقة . هذا ، إلى ذوق فنى سليم ، واطلاع شامل على ما كتبه أرباب النقد البيانى ، ورجال البلاغة ، للاستئناس به ، والاسترشاد بقواعده . حتى يكون بذلك كامل العدة ، واضح المحجة ، جامعا لأصول النقد الصحيح من ذوق ومعرفة .

مثل هذا الناقد ، إذا تصدى للحكم على الأدب ، نرجح أن يكون حكمه عادلا ونافعاً .

ونقول : نافعاً ، لأن النفع الجديد الذى يتضمنه حكمه ، هو مزية النقد الكبرى ، ومزية الناقدين . وأبسط ما توصف به هذه المزية ، أنها تبصير حق بالأدب المنقود ، يضاعف أثره ، وتمهيد جميل للأدب الجديد .

وإذا كان النقد ، فى العرف الحديث ، أدبا وصفيا ، فهو أدب إنشائى من ناحية أخرى ، وعلى الأقل ، من ناحية أنه يشق السبيل أمام الأدب الجديد ، ويرسم له الطريق الذى يسلكه ، ويهيئه — بزعمه — لبلوغ كماله .

والنقاد — فى هذا — يعبرون عن مزاج جيلهم وذوق معاصريهم ، وحاجة جمهورهم . ويجهد الأدباء ، كتابا وشعراء ، فى تحرى أذواق النقاد ، والتجانف عما يريبهم . فينضج أدبهم مطبوعا بطابع نقادهم . لهذا يقال إن النقاد هم موجهو الأدب فى الأمة وهداته . ولا يحرر من ربقتهم إلا أديب معاصر ... ولكن لديه من المؤثرات الخاصة عدة عوامل جنحت به إلى أفق من الحرية . على أنه قد يعيش غريبا بين قومه ، وقد لا يتأثرون بأدبه إلا بعد فترة من الزمن . وهذا هو العبقرى الملهم الذى تختاره الأقدار ، وتكون صناعته فى ميدان الأدب ، الخلق والإيجاد .

نشأته وتطوره :

هذا مجمل ما فهمناه فى العصر الحديث من معانى النقد الأدبى . فهل ولد النقد قبل اليوم مولدا على هذا الغرار ؟

الحديث عن ذلك طويل ، يضطرنا إلى النظر فى اتجاهات النقد ، فى كل من العصور الأدبية المنصرمة . وهذا ما لم نقصده هنا الآن . وإنما قصدنا أن نعرض فى إيجاز إلى الحديث عن النقد الأدبى فى العصر المملوكى .

غير أنه لا ريب فى أن النقد الأدبى ولد بمولد الأدب ، إذا راعينا أن قارئى الأدب أو سامعيه ، سواء أكانوا من الخاصة أم العامة ، مولعون أبدا

بالنقد والتعليق ، على كل مايقرءون أو يسمعون ، ولو بكلمة عابرة ، أو نقدة طائرة . وهكذا نستطيع القول إن النقد قد ولد مع الأدب الجاهلى . غير أنه كان نقداً فطريا فيه سذاجة وبداءة ، وفى نطاق ضيق ، وبين خليط من اعتبارات شتى . ومرجعه الذوق الخاص ، وغير مقيد بقواعد ولا مرتبط بذوق عام ...

ثم نضج النقد الأدبى بعض النضج بمجىء الإسلام . وأقبل الناس على سماع الأدب والنظر فيه . وكانت بالأمويين عناية فائقة بسماع الشعر قديمه وحديثه . والتعليق عليه ، وقياس شعر بشعر ، وموازنة بيت ببيت ، وقبول المليح ، ورد القبيح ، وإثابة شاعر وحرمان آخر .

حتى جاء العصر العباسى ، وأقبل القوم على الدرس والتصنيف والترجمة . ولقحت العقول بالترجمات . وفاضت المجالس بما ينشده الشعراء والرواة من محاسن الآداب العربية . ونشط النقد ، وتكون ما يشبه الذوق العام ، وعنى بالدفاع عن أساليب القرآن وبيان مافيها من أسرار التراكيب . وأعيدت دراسته بعقول جديدة لقحت بما عرب من أدب ومنطق وفلسفة . فظهرت بوادر العلوم البلاغية ، ثم اشتد أزرها وقوى أمرها وتجمعت حقائقها ، حتى تألفت علوما لها موضوعاتها وأبوابها وقواعدها . وصنفت كتب فى النقد والموازنات اعتمدت فيما اعتمدت عليه على الذوق الخاص . وهكذا انتهى عصر بنى العباس بعد أن خلف فى ميدانى النقد الأدبى والبيانى ذخيرة نفيسة ، هى أفضل عدة ، وأجمل أساس ، لمن أراد — اليوم — أن يبنى فى النقد بناء سامقا .

ولكن النقد — على كل حال — لم يبلغ ذلك المبلغ الذى رسمنا صورته فى أول هذا الكلام ، وهو المبلغ الذى يتقاضاه منا العصر الحديث .

النقد فى عصر المماليك :

وبعد ، فما نصيب العصر المملوكى من هذا التراث ؟ وما الذى أضافه إليه ؟

أهم ما يجبهنا من ذلك ، ذوق بديعى عام استحوذ على الأدباء والنقاد جميعا ، لم يعتمد على ما خلفه الأقدمون من قواعد فى النقد البيانى فحسب ، وإن كانت

هذه القواعد من أهم دعائمه ومصادر إلهامه . وإن كان قد جمع كل أبواب البلاغة جديدها وقديمها تحت راية البديع .

ولقد كان للقاضي الفاضل « ٥٩٦ هـ » عميد الأدباء في العصر الأيوبي ، أثر بارز في الكتابة والشعر في العصر المملوكي . لأنه ابتدع للأسلوب طريقته البديعية الخاصة التي أساسها الإكثار من المحسنات ، وبخاصة السجع فقد التزمه ، والجناس والطباق ، مع الغلو في سوق التورية والاستخدام ، والإمعان في التشبيه والاستعارة وترادف الأوصاف والألقاب ، والتلميح إلى الحوادث الماضية والنوادر الأدبية ، والتوجيه بالمصطلح العلمي أو نحوه ، والإبهام الذي يحتمل معنيين متضادين ، وتضمين المأثور ، والاقتباس من القرآن الكريم ، والحديث الشريف . إلى غير ذلك من محسنات وسمات .

هذه الطريقة في الأسلوب مبنية — كما سبقت الإشارة — على ما سنه من قبله الكاتب الشهير ابن العميد « ٣٦٠ هـ » وغيره من أدباء العراق .

غير أن الفاضل غلا في التزام ما استحسنه سابقوه . ثم انقاد الأدباء من بعده — وبخاصة في العصر المملوكي — إلى طريقته ، وتعصبوا لها ، وقد تركزت في أذواقهم ، وفي أذواق النقاد جميعاً ، وأصبحت منهجا متبعا ، وقاعدة مرعية بين قواعد النقد التي يزنون بها الآثار الأدبية ، الجديد منها والقديم ، على حد سواء .

وظهر شاعر مصر الكبير ، جمال الدين بن نباته « ٧٦٨ هـ » فنهج نهج القاضي الفاضل ، وتعصب لطريقته ، فكان بذلك زعيما ثانياً للطريقة الفاضلية في الشعر والكتابة ، واتجهت عناية ابن نباتة إلى إجادة التورية والتضمين ، فأبدع فيهما أيما إبداع ، وأتى فيهما — وفي غيرهما — بالعجب العجاب ، في شعره ونثره على السواء . وقد اتجهت عنايته كذلك ، إلى الجناس ، ولكنه أخرجه مخرج التورية . فأجاد وأطرب . وأفاد وأعجب . فكان بذلك وبغيره ، ذا طريقة جديدة هي الطريقة النباتية . وأصبح لها أتباع ومتعصبون هم جمهرة عظيمة من أدباء العصر المملوكي ونقاده ،

وتركزت بدورها فى أذواقهم حتى صاغوا أساليبهم فى قوالبها ، أو اتخذوا منها قواعد جديدة للنقد ، وزنوا بها ووازنوا ، بين أدب وأدب ، وبين شعر وشعر .

وفى مقدمة المتعصبين من الأدباء والناقدين للطريقة الفاضلية : شهاب الدين أبو الثناء محمود بن سليمان الحلبى « ٧٢٥ هـ » صاحب كتاب « حسن التوسل فى صناعة الترسل » . ومن المتعصبين لها وللطريقة النباتية : تقى الدين بن حجة الحموى « ٨٣٧ هـ » ، صاحب كتاب « خزانة الأدب » . وهو أوسع نطاقاً من سابقه .

وقد استطاع ابن حجة فى كتابه هذا ، أن يخرج كثيراً عن النطاق العلمى الذى ضربه علماء البلاغة حول النقد ، فى أخريات العصر العباسى . كالسكاكى «٦٢٦هـ» . واستطاع أن يجعل من كتابه هذا ، معرضاً أدبياً ضافيا تألق فيه كثير من شعر العصر المملوكى ونثره ، مع نقدهما نقدا هو مزاج من النقد الأدبى الصحيح الذى أساسه الذوق ، ومن النقد البيانى الموروث الذى أساسه العلم . مبينا بين الفينة والفينة مذاهب الشواذ والخارجين على الطريقة النباتية من أدباء العصر . ومنهم صلاح الدين الصفدى الذى جن جنونا بالجناس وأنواعه ، كما جن به الصاحب بن عباد من قبل ، بل أكثر مما جن . وقد حمل عليه ابن حجة ، وسفه ولوعه بالجناس مبيناً أن هذا المذهب يخالف مذهب ابن نباتة وتابعيه ، من العناية بالتورية ، واعتبارها أسمى ضروب البديع ، بل أجود أبواب البلاغة .

وقد انساق الصفدى ، بدافع من حب الجناس ، إلى وضع كتاب فيه خاصة ، وسماه « جنان الجناس » ملأه أمثلة منه من شعره . وقد نقده ابن حجة فى كتابه « خزانة الأدب » نقداً مراً ، وأورد من نظمه أمثلة . وذكر أن جمال الدين ابن نباتة لما قرأ عنوان الكتاب قرأه هكذا : « جنان الخناس » . وجرى بين الرجلين بسبب ذلك ما يطول شرحه .

وذكر أيضاً أن من بين ناقدى الصفدى الشيخ بدر الدين البشتكى[1] الذى

---

(١) توفى فى زمن السلطان جقمق « ٨٤٢ هـ — ٨٥٧ هـ » — قاله ابن إياس ج ٢ ص ٣٦ :

قال عن الصفدى بمناسبة نظمه هذا : « وإن من ذلك مبلغه من النظم لجدير أن يقعد مع صغار المتأدبين »

هذا إلى أن ابن حجة قد ألف كتابا آخر فى نقد الصفدى وتسفيه كتابيه « جنان الجناس » و « فض الختام » وهو « كشف اللثام » .

هذا كله يشعرنا بأن ابن حجة وغيره من نقاد العصر ، لم يتقيدوا بالقواعد البلاغية ولا بما وصل إليه النقد البيانى من تقعيد ، بل حكموا فى كثير مما نقدوه أذواقهم وقواعد نهجهم البديعى .

وهذا لا يمنعنا الإشارة إلى أن هناك رجالا صرفوا جهودهم إلى النقد البيانى وقواعده الموروثة عن العصر السابق . فكانوا علماء أكثر منهم أدباء . وفى رأينا أنهم لم يأتوا من وراء هذه الجهود بجديد له قيمة . وما مؤلفاتهم إلا شروح أو مختصرات لمؤلفات السالفين من علماء البلاغة . وقد حظى كتاب « مفتاح العلوم » للسكاكى « ٦٢٦ هـ » بنصيب كبير من هذه الشروح والمختصرات . ومنها ما وضعه الجلال القزوينى «٧٣٩هـ» والبهاء السبكى «٧٧٣ هـ» والجلال السيوطى « ٩١١هـ » وزين الدين زكريا الأنصارى « ٩٢٦ هـ » .

غير أننا لا نبالغ إذا قلنا إن هؤلاء لا يمثلون العصر ، ولا ذوقه الأدبى ولا قواعده فى النقد بما ألفوه من شروح ومختصرات . أما الفريق الآخر فهم أدنى إلى هذا التمثيل وأقرب .

على أن النقد الأدبى — فى الحق — كان أوسع نطاقا مما وصفنا ، وأكثر شغلا للقوم مما رسمنا . إذ كانت له عوامل عدة أذكت ناره ، وأشعلت أواره ، وأكثرت سماره . ففضلا عن حب البديع والتسابق إلى ابتكار التوريات والتضمينات ، كانت هناك منافسات أدبية بين أدباء مصر وأدباء الشام ، أو بين أديب وآخر ، ومن الناس من يتعصب لهذا أو يتحمس لذاك . وكان كثير من وجوه الناس وأعيان الرؤساء يضرى هذه المنافسات ، ويغرى بالمعارضات . كما كان بعض الملوك والرؤساء ذوى بصر بالشعر ومكانه ، كما كان بالشعراء ولوع بالتضمين ، فولجوا إليه كل باب ، حتى تهاووا إلى السرقة ، عمدا أو دون عمد .

كل هـــذه الأمور ترينا أن النقد الأدبي ، قد وجد الأسباب ، فدق الأبواب، وولج الأعتاب . وعاش بين القوم فى أخفض جناح وأخصب مراح .

ويضيق بنا المقام، إذا ذهبنا نضرب لذلك كله الأمثال . فلنكتف بالإشارة عن العبارة ، وبالتلميح عن التصريح . فنقول :

روى[١] المقريزى فى خططه . أن الملك الأشرف خليلا ، عاد فى عام ٦٩٠ هـ من الشام ، بعد أن فتح عكا . فلقيته القاهرة برجالها فى حفل عظيم ، وتقدم ابن العنبرى الشاعر . فأنشد قصيدة قال فى مطلعها :

زر والديك وقف على قبريهما   فكأننى بك قد نقلت إليهما

فتطير الأشرف من هذا البيت ، ونهض قائما حانقاً ، وهو يقول : ما وجد هذا شيئاً يقوله سوى هذا البيت الخ .

وروى[٢] تاج الدين السبكى المتوفى سنة ٧٧٧ هـ فى طبقاته ، عن تاج الدين المراكشى ، قال : « دخلت عليه مرة ، وهو ينشد قول ابن تقى :

حتى إذا مالت به سنة الكرى   زحزحته شيئا وكان معانق

أبعدته عن أضلع تشتاقه   كى لا ينام على وساد خافق

وقول الحكم بن عقال :

إن كان لابد من رقاد   فأضلعى هاك من وساد

ونم على خفقها هـــدوءا   كالطفل فى هـــزة المهاد

وهو ومن عنده يقولون إن قول الحكم أجدر بالصواب . فإنه لا يناسب المحب أن يبعد حبيبه . وينشدون قول صلاح الدين الصفدى — أمتع الله ببقائه — فى ذلك رداً على ابن تقى :

أبعدته من بعد ما زحزحته   ما أنت عند ذوى الغرام بعاشق

---

(١) الخطط المقريزية ج ٤ ص ٢٢٠ تحت عنوان « القبة المنصورية » .

(٢) طبقات السبكى ج ٥ ص ٢٣٣ ترجمة تاج الدين المراكشى .

إن شئت قل : أبعدت عنه أضالعى   ليكون فعل المستهام الوامق
أو قل فبات على اضطراب جوانحى   كالطفل مضطجعاً بمهد خافق

قلت — أى السبكى — إن ابن تقى ، وإن ساء لفظا حيث قال : « أبعدته » فقد أحسن معنى . لأنه وصف أضلعه بالخفقان والاضطراب الزائد الذى لا يستطيع الحبيب النوم معه عليها . فقدم مصلحته على مصلحته : وترك ما يريد لما يريد . وأبعده عما يقلقه . ولو قال : « أبعدت عنه أضلعاً تشتاقه » لأحسن لفظاً كما أحسن معنى . وأما الحكم فإنه وصف خفقانه بالهدوء ، وهو خفقان يسير يشبه اضطراب سرير الطفل ، وهذا نقص .

فوقع النزاع فى ذلك ، وأرسلوا إلى القاضى شهاب الدين أحمد بن فضل الله العمرى رحمه الله ، صورة سؤال عن الرجلين ، ابن تقى والحكم : أيهما المصيب . فكتب :

قول ابن تقى ، عليه مأخذ لكنه قول المحب الصادق :

يكفيه فى صدق المحبة قوله   كى لا ينام على وساد خافق
ما الحب إلا ما يهدله الحشا   ويهد أيسره فؤاد العاشق »

هذا وقد أخذ السبكى بعد ذلك يتكلم عن نكتة شبيهة بهذه ، لجرير ، وهى كلمة ارجعى ، فى قوله :

طرقتك صائدة الفؤاد وليس ذا   وقت الزيارة فارجعى بسلام

وأخذ السبكى يتكلم عن كلمة « ارجعى » وعمن عابوها على جرير وأورد أقوالا لهم ، ومن بينهم معاصرون له — أى للسبكى .

هذا مثل من أمثلة المجالس الأدبية ومجالس النقد ، وفى الطبقات وغيره ، أشباه له كثيرة .

وسنشير فيما يلى عند حديثنا عن ابن حجة الحموى ، إلى أنه حينما كان ينظم بديعيته كان يعود بأبياتها بيتاً بيتاً ، إلى صديقه الأديب ابن البارزى ليعرضه

عليه ويتناقشا فيه معنى ولفظا ، حتى يستقر القرار على شيء . وأنه نظمها معارضة لبديعيتى الحلى والموصلى .

وبمناسبة ابن حجة أيضاً ، نذكر أنه عارض تائيتين إحداهما للجمال بن نباتة ، والأخرى للبرهان القيراطى ، بتائية ثالثة . ثم عرض ذلك على عالم عصره شهاب الدين بن حجر العسقلانى فحكم بتفضيل تائية ابن حجة عليهما[١] .

أما السرقات الشعرية فقد زاد خطرها ، وتطاير شررها فى هذا العصر ، وكانت مثاراً لحركة نقد محمودة . ومن لطيف ما قاله مجير الدين[٢] بن تميم منوها بسرقاته وتضميناته :

أطالـــع كل ديوان أراه ولم أزجر عن التضمين طيرى
أضمن كل بيت فيـــه معنى فشعرى نصفه من شعر غيرى

واشتهرت سرقات ابن نباتة من علاء الدين الوداعى[٣] ، كما اشتهرت سرقات الصلاح الصفدى من ابن نباتة .

ولما وقف جمال الدين بن نباتة على مسروقات الصفدى منه ، ألف فى ذلك كتابا سماه « خبز الشعير » لأنه مأكول مذموم . ونقد فيه الصفدى ، وأورد كثيراً من سرقاته . وقد استهل الحديث فى هذا الكتاب بقوله : « رب اغفر لى ولوالدى ولمن دخل بيتى مؤمنا » . ونلحظ أن مناسبة الآية هنا ، تجعل فى كلمة « بيتى » تورية .

وقد تتبع ابن حجة سرقاتهم فى خزانته ، وأورد أمثلة كثيرة منها فى باب « براعة الاستهلال » وغيره[٤] .

---

(١) راجع كتابه تأهيل الغريب . مخطوط بمكتبة المعهد الدينى بالإسكندرية .

(٢) مجير الدين بن تميم الإسعردى الدمشقى ، شاعر رقيق مات عام ٦٨٤ هـ أو قريبا منه . « فوات الوفيات ج ٢ ص ٣٤٠ » .

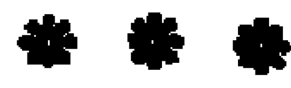
(٣) علاء الدين الوداعى أحد شعراء هذا العصر المجيدين . توفى سنة ٧١٦ هـ « الدرر الكامنة ج ٣ رقم ٢٩٨ » .

(٤) وكذلك ردد ابن حجة أخبار السرقات فى تأهيل الغريب .

على أن ابن حجة نفسه قد تعقبه أكثر من أديب ، ومنهم معاصره شمس الدين النواجى ، إذ نقده وأفصح عن سرقاته فى كتاب سماه « الحجة فى سرقات ابن حجة » .

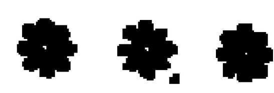
هذا ، وللأديب النحوى البارع بدرالدين بن الدماميني ، كتاب آخر فى نقد الصلاح الصفدى فى شرحه للامية العجم ، واسمه « نزول الغيث الذى انسجم » .

والملحوظ أن النقاد لم يتتبعوا من السرقات إلا الشعرية دون النثرية . على أن ابن حجة روى فى خزانته أن الفخر بن مكانس نقد استدعاء بدر الدين بن الصاحب له ، وأثبت ذلك فى ديوانه . ولكنا قرأنا نسخة من ديوانه فلم نجد بها النقد المذكور . وطالعنا نسخة أخرى فضقنا ذرعا برداءة خطها ولم نستطع له حلا .. وكلتا النسختين بدار الكتب المصرية .



ومما تقدم نشعر بمقدار عناية أدباء العصر المملوكى ، بنقد الأدب وبيان زائفه من طارفه . وهذا دليل على الحيوية الأدبية واليقظة الفكرية والنزعة الفنية . ولا يقدح فى هذا اختلاف أذواقهم عن أذواقنا — نحن أهل العصر الحديث — فلكل أهل عصر فى آدابه ونقده ، اتجاهات وقواعد وأذواق .

ونلحظ أن العناية بنقد الشعر كانت أبرز من العناية بنقد النثر ، إذن فليعذرنا القارئ إذا سقنا بعض النماذج الشعرية .



وبعد فهذه كلمة عامة عن حركة النقد فى العصر المملوكى ، عنينا فيها بإجمال الحديث عنهادون تفصيله ، لأن مرادنا أن نرسم لها صورة عاجلة واضحة تعين على حسن تصورها . ونفصل الحديث عنها فى الفصول القادمة لنبين أهم مناهج النقد وآراء النقاد ، ونزعاتهم الفنية فى صوغ الأساليب .

وتتجلى لنا مذاهب نقاد العصر فى رجلين هما : أبو الثناء شهاب الدين محمود الحلبي المتوفى عام ٧٢٥ هـ ، وتقى الدين أبو بكر بن حجة الحموى المتوفى

عام ٨٣٧ هـ. ولأولهما كتابه « حسن التوسل فى صناعة الترسل » ولثانيهما كتابه « خزانة الأدب » .

وقد يتبادر إلى الذهن لأول وهلة ، أن هذين الرجلين من أرباب النقد البلاغى الذى أساسه العلم . وهذا حق . ولكنهما قبل أن يكونا عالمين ، كانا أديبين . وقبل أن يخضعا للقاعدة خضعا للذوق — وكتاباهما أجمع كتب العصر تقريباً ، لحديث النقد ، وبخاصة « خزانة الأدب » . ولهذا نكتفى بالحديث عنهما مثلا لغيرهما وللعصر .

ثم نتحدث بعدهما عن ناقد معارض مخالف لمذهبيهما : وهو الأديب المؤرخ المشهور ولى الدين بن خلدون صاحب المقدمة :

ثم نختم هذا الباب بفصل وجيز عن جلال الدين القزوينى صاحب كتابى : التلخيص والإيضاح : المبنيين على « مفتاح العلوم » للسكاكى ، لأن أكثر البلاغيين من بعده متأثرون به وناقلون عنه وشارحون له أو مختصرون . والقزوينى بذلك يمثل النقاد البلاغيين ، ويعتبر عمدتهم فى العصر المملوكى ، بل إلى العصر الحاضر : ونتحدث — ونحن بصدد النقد — عن الحركة البلاغية فى سياقه :

بذلك نكون قد أحطنا بحركة النقد فى العصر من أطرافها ، على قدر استطاعتنا . ورسمنا لها فى الأذهان صورة أدنى إلى الواقع وأقرب إلى الحق . ونكون قد أبرزنا جانبا من الجوانب الحيوية التى شارك النثر الفنى فيها بنصيب وافر .

* * *

ومما سبق يتبين لنا أن الفصول الآتية فى هذا الباب أربعة :

الفصل الأول : فى شهاب الدين محمود الحلبي ومنهجه وآرائه

الفصل الثانى : فى تقى الدين بن حجة الحموى ومنهجه وآرائه

الفصل الثالث : فى ولى الدين بن خلدون ورأيه فى نثر معاصريه :

الفصل الرابع : فى جلال الدين القزوينى رأس بلاغيي العصر .

الفصل الأول

شهاب الدين محمود الحلبي [1]

٦٤٤ هـ — ٧٢٥ هـ

هو الأديب العلامة الشاعر المنشىء البارع ، المشار إليه فى عصره ، محمود ابن سليمان — وقيل سلمان — بن محمود الحلبي الحنبلي الدمشقي . وكنيته أبو الثناء .

ولد عام ٦٤٤ هـ ، وأخذ فى حفظ حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، وسماعه من أئمة الحفاظ . وأقبل على دراسة علوم العربية ، وتتلمذ فى النحو والأدب لجمال الدين بن مالك ، وغيره . وتفقه بمذهب ابن حنبل،حتى برع فيه ، وامتاز على أقرانه ، وكاد — لذلك — يلي قضاء الحنابلة .

واستفاضت شهرته فى نظم الشعر وتدبيج الكتابة الأدبية . لذلك حسنت صلاته وروابطه بسلاطين عصره وأمرائه ، لحاجتهم إليه . وعاصر الظاهر بيبرس ، والمنصور قلاوون وابنيه الأشرف خليلا والناصر محمداً . واستكتبوه فى ديوانى الإنشاء بدمشق والقاهرة . وقد نقل إلى القاهرة عقب وفاة منشئها الكبير ، القاضى محيي الدين بن عبد الظاهر . ثم ولى كتابة السر — وقيل رياسة ديوان الإنشاء — بدمشق فلبث بها زهاء ثمان سنوات ، محمود المنزلة مرعى المكانة لحذقه وسلامة خلقه وحسن سعيه . وعقدت المودة أواصرها بينه وبين كثيرين من أدباء زمانه . وتوفى بدمشق عام ٧٢٥ هـ [2]

وجرى فى كتابته ونظم شعره على أسلوب بديعى هين مقبول ، لا تتوده كثرة البديع ، ولا يثقله كلف الصناعة . وقد نظم الشعر فى مناسبات كثيرة ،

---

(١) توجد ترجمته فى الدرر الكامنة ج٤ رقم ٨٨٦ — وفوات الوفيات ج ٢ ص ٣٥٨ وصفحات أخرى — وفى ابن إياس ج ١ ص ١٦١ .

(٢) هذه رواية الدرر ، وفى الفوات ٧٠٥ هـ .وفى بن إياس ٧١٩ هـ ويبدو أن الأولى أصوب.

وفى أغراض عدة، منها المدح والمديح النبوى والوصف والغزل، واللغز والتهنئة والإخوانيات، والرثاء ووصف الحروب والفخر والحماسة .

ومن مصنفاته مقامة العشاق. ومنازل الأحباب وأسنى المنائح، وهى قصيدة فى المديح النبوى تبلغ ٢٣٦٥ بيت . ومنها نسخة مخطوطة بدار الكتب المصرية . وله أيضا : حسن التوسل فى صناعة الترسل وهو مطبوع، وهو أيضاً موضوع حديثنا هنا . وله تذييل على كتاب « الكامل » لابن الأثير فى التاريخ .

كتابه . . « حسن التوسل فى صناعة الترسل » ومنهجه فيه :

فى كتابه « حسن التوسل » يتجلى منهجه النقدى وقواعده الفنية . واسم الكتاب يوحى بموضوعه وينم عنه، إذ أراد فيه مؤلفه أن يبين للناشئ المتأدب، أفضل الوسائل وأنجع الطرق التى بها يستطيع أن يكون كاتبا ومنشئا . ويبرز له الأدوات التى ينبغى أن يحتازها ، والمزايا التى عليه أن يتحلى بها، ليسلك فى عداد الأدباء المنشئين .

وهو بذلك إنما يستمد معلوماته واتجاهاته من روح عصره وأوضاع جيله. ولا ريب أن شيئا من هذه الروح ، وقبساً من تلك الأوضاع، مستلهم من الماضى الغابر، وذكرياته وتعاليمه . ولكن الرجل — بلا ريب أيضا — قد أضفى على مستلهمه ومقتبسه صوبا من سيل نفسه، وثوباً من نسيج روحه . هما من صنع عصره ووحيه، وصدى لزمانه ، ورجع لصوت جيله، ولون لصبغه وتقاليده. وبذلك نعتقد أنه النموذج البارز الذى يمثل كيف تلقى العصر المملوكى تراث النقد عن سابقه، وأخذ يخرجه بذوقه .

ولعل عبارته التالية تفصح بأجلى بيان وأوضح برهان ، عما ذهبنا إليه . إذ قال ما نصه فى مقدمة كتابه : « فإنه لما جعل الله فى كتابة الإنشاء رزقا . باشرت بسببه من وظائفها ما باشرت . وعاشرت من أجله من أكابر أهلها وأئمتها من عاشرت . ورأيت من مذاهبهم فى أساليبهم ما رأيت . ورويت عنهم من قواعدها بالمجاورة والمحاورة ما رويت . واطلعت فيها بكثرة المباشرة على طرائق . وألجئت فيها باختلاف الوقائع إلى مضايق أى مضايق . ونشأ لى من

الولد وولدالولد من عاناها.وترشح لها من بنى من لم أرض له بالتلبس بصورتها دون التحلى بمعناها . فأحببت أن أضع لهم ولمن يرغب فى ذلك ، فى هذه الأوراق من فصولها قواعد . وأقيم لهم فيها على ما لايسع الجهل به من أصولها وفروعها شواهد . ليأتوا هذه الصناعة من أبوابها . ويعلموا من طرقها ما هو الأخص بأوضاعها والأولى بها » .

ونفهم من هذا النص جملة أمور ، منها :

أولا : أنه عاشر كثيراً من أئمة الإنشاء ورأى مذاهبهم فى أساليبه . ومعنى هذا أنه كسب خبرة بهذه المعاشرة . وأصبح عارفا عالما بكافة أساليب المنشئين ، وخصائصهم الفنية فى إنشائهم ، وأنواع الثقافة التى ثقفوا بها ، وبها اقتدروا على هذه الصناعة ، ودانت لهم ، وألقت إليهم بأزمتها ، فصرفوها أنى شاءوا . وبدت لهم فيها قواعد هى نتاج الثقافة والبيئة وحاجة العصر ومنطق تعبيره . ولقد وصلوا من وراء ذلك إلى اكتناه اللفظ وإماطة اللثام عن أسرار أساليب العربية ، حتى أنطقوها بمختلجات نفوسهم ، ومضطربات جوانحهم ومستجنات عواطفهم . فاستطاع المؤلف بذلك أن يرسم لهم صورة لا تنقصها الدقة ولا تبعد عن المنطق الحق ، رعاية لشتى ملابساتهم ومختلف صلاتهم .

وإذا وصل الناقد إلى هذا الحد من المعرفة ، استطاع أن يتسلم زمام الحكم بين الأدباء فيبرز مواطن الحسن فى مذاهبهم ، وآيات الجمال فى أساليبهم ، ويوازن ما شاء له بصره وحسن خبرته ، بين أسلوب وأسلوب وبين تركيب وتركيب . ويستطيع فى النهاية أن يصل من وراء ذلك إلى قرار حاسم ، وإلى حكم مقبول ، هو نتيجة هذه الخبرة وحسن البصر . يدعم قواعد الفن به ، ويقر قوانين الجمال فيه .

ثانياً : أنه غامر بقلمه فى ميدان هذه الصناعة العتيدة ، والحرفة المجيدة . فلم يكتف بأن يكون رقيباً يرقب الحوادث ، ومسجلا يسجل الوقائع . ويدون الظواهر ، وأن يقيم من نفسه حكما بين الأدباء ، دون أن يدلى بدلوه فى الدلاء

ليكون نهجه قدوة وأسلوبه أمثوله ، وطريقته تطبيقاً عمليا يقام لهم إماما ، وحجة ناصعة ، وبينة ساطعة .

وهذه المرانة من شأنها أن تجرئ الناشىء ، وتجذب بضبعه إلى طريق الفن المستقيم . وكلما أوغل فى مرانته ، نار أمامه الطريق وضاء ، واتسع أفقه وتكشف ، حتى يبلغ من صناعته قمتها ، ومن حرفته غايتها . ومثله حينذاك إذا قال سمع قوله ، وإذا فصل ارتضى فصله .

ولا شك فى أن ابن فهد ، قد بلغ من ذلك كله مقاما محمودا ، ومنزلة مرضية . فحسبك أن تعلم أنه بلغ من وراء فراهة إنشائه وحذق فنه ، منصبا تشد إليه الرحال ، وتنقطع دونه أعناق الرجال ، وهو رياسة ديوان الإنشاء .

ثالثاً : أنه بعد أن دأب على التعلم زمنا طويلا ، وأخذ من الثقافة نصيبا مرضيا ، اطمأنت نفسه إليه وارتاح ضميره به ، وبعد أن كسب بصحبته لأرباب القلم وأمراء البيان ، خبرة طيبة ، وتجربة نافعة ، واطلع على مختلف طرائقهم وشتى أساليبهم ، وكيفيات تعبيراتهم ، وأنه بعد أن زاول مهنة الكتابة وتدرج فى مدارجها وتنقل فى مراقيها وشارك فى إعلاء شأنها وتشييد دولتها ، حتى تسنم من مناصبها ذروتها ، واقتعد فى عليا مراكزها غاربها — بعد ذلك كله ، آن له أن يجلس من الناشئة مجلس المعلم فيشرع لهم مشارع الكتابة ، ويضع قوانين الترسل ويضيء مسالك الإنشاء عطفا عليهم وحدبا ، ولطفا بهم وأدبا . يلحب لهم الطريق ليسلكوها ، ويرسم لهم الخطة ليتبعوها . حتى إذا تأدبوا بتأديبه ، وتهذبوا بتهذيبه ، كان لهم فى ذلك غنية عن طول المسير وبعد شقته وتحمل وعثائه .

* * *

وبعد فهذه أمور ثلاثة تتلخص فى :

١ — ثقافة وحسن ملاحظة ٢ — مرانة وخبرة عملية . ٣ — رغبة فى التقنين والتشريع . وهى مراحل ينبغى لكل ناقد أن ينتقل إليها تباعا .

وقد دلت كلمة هذا الأديب الناقد ، على أنه قد بلغ من كل مرحلة غايتها .

ويؤيد هذا ما عرف من سيرته . وما تركه من تراث أدبي . وها هو ذا ابن حجة الحموى ، وهو رأس أدباء جيله وشاعر عصره ، يتلمس عنده الرأى ويتطلب لديه القدوة ، ويشير إلى آرائه بين الفينة والفينة ، فى خزانة أدبه .

* * *

وكتابه « حسن التوسل » وهو الكتاب المتواضع الصغير الحجم الكبير النفع ، ينقسم ثلاثة أقسام بارزة — وإن لم يقسمه المؤلف — فقد أخذ بعد المقدمة الموجزة ، يرسم طريق الصناعة ويعلم الناشئة ويقدم الأدوات الكفيلة بتأهيلها لإتقانها . وهو — فى الواقع — يضع مناهج النقد وأقيسته واضحة ، ليتميز بها غث الأدب من سمينه .

فالقسم الأول[1] :

طفق فيه يبين بعض الأدوات بعبارات أدبية لطيفة ، ومنطق سليم رائع ، وجمل مواتية قوية ، وحجج ساطعة حكيمة ، مع شواهد متنوعة عدة ، ولم يسلك فى هذا القسم مسالك علماء البلاغة الحريصين على التعاريف والحدود والرسوم ، أو سوق الأمثلة التقليدية — التى آثروا تناقلها — على قلتها وعسر الاستشهاد بها أحياناً . .

ويتلخص ما ذهب إليه فى هذا القسم فيما يلى :

١ — أنه ينبغى للناشىء أن يحفظ كتاب الله تعالى ، وأن يديم قراءته ، ويلازم درسه ، ويتدبر معانيه . وكتاب الله كان وسيبقى المثل الأعلى والنموذج الأرفع للكلام البليغ ، وهو أفضل معين ينهل منه الأديب ، وأمتع مائدة تشهى إليه الأدب اللباب . وبخاصة إذا لازم درسه ، وتدبر مراميه ، حتى يظل مصوراً فى فكره ، دائراً بألفاظه ومعانيه على لسانه . وهذا يفيده ، فضلا عما يثبت منه

---

(١) لعل هذه الوصايا أو القواعد التى شرعها الشهاب الحلبى وغيره، لصناعة الكتابة، أساسها الأول وصية عبد الحميد الكاتب التى أوصى بها الكتاب .

فى قلبه من بارع الفكر ، ورائع التصور ، فائدتين بارزتين لا تزالان حلية الأديب وزينة الكاتب .

الأولى : أنه يستطيع الاستشهاد بآياته والاقتباس منها عند المناسبة ويكون استشهاده ، إذ ذاك ، كالدليل القاطع ، والحجة المنيعة ، التى تحل عند السامعين — متى أحكمت فى مناسبتها — محل التسليم ، بعد أن تكسب كلامه قوة وحسن بيان .

والثانية : أنه يزداد بأفكاره وتصوراته سمواً فى الفكر ودقة فى التصور . كما يزيد بألفاظه وتراكيبه ، قدرة على حسن التعبير عما يدور بخلده ، ويثور فى خاطره .

وضروب الأدب الأخرى من أشعار العرب وسيرها ، ومعرفة أيامها وأمثالها ورسائلها وخطبها ، إلى غير ذلك مما يشبهه ، قد يشارك القرآن الكريم ، فى تقديم هاتين الفائدتين ، ولكن القرآن — دون ريب — أبعد منها خطراً ، وأجد أثراً ، لكمال بلاغته ، وقربه من القلوب — وبخاصة إذا والاه الأديب بملازمة الدرس وتدبر المعانى .

والأمثلة التى ساقها المؤلف تشعرنا أن حديثه عن مزايا حفظ القرآن الكريم ، وما يعود منه على المتأدب ، أبعد من حديثه عن «الاقتباس» وأوسع نظراً وأسمى أفقاً . ولعل من النافع هنا أن نشير إلى أنه عقد فصلا وجيزا فى نهاية القسم الثانى من كتابه ، تحدث فيه عن «الاقتباس» وأنواعه مع شواهده . وكان حديثه عنه من الضيق والإيجاز ، بحيث لا يقاس بحديثه عن مزايا القرآن الكريم ، وحسن اصطناعه فى أسلوب الأديب ، مع أمثلته وشواهده المتعددة ، وهى — بلا ريب — نماذج ساقها للاقتداء .

ونجتزئ بالمثلين الآتيين من شواهده :

(١) أن صلاح الدين الأيوبى — رحمه الله ، كتب إلى بغداد كتاباً ، يعدد فيه مواقفه فى إقامة دعوة بنى العباس ، فكُتب جوابه بهذه الآية :

« يمنون عليك أن أسلموا . قل لاتمنوا على إسلامكم . بل الله يمن عليكم أن هداكم للإيمان إن كنتم صادقين » .

(ب) وكتب الأذفونش — ملك أسبانيا — إلى يعقوب بن عبد المؤمن ، بخط وزير له يقال له ابن الفخار :

« باسمك اللهم فاطر السموات والأرض ...... وأنتم تعتقدون أن الله عز وجل ، فرض عليكم قتال عشرة منا بواحد منكم . فالآن خفف الله عنكم ، وعلم أن فيكم ضعفاً . فلتقاتل عشرة منكم ، الواحد منا ... الخ » .

فكتب يعقوب بن عبد المؤمن على أعلى كتابه :

« ارجع إليهم فلنأتينهم بجنود لاقبل لهم بها . ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون » .

هذا ، وقد بين المؤلف فى سياق حديثه عن أدب اصطناع آى القرآن الكريم ، بعض القيود التى ارتآها البعض فى هذا الاصطناع . ومنها : ألا يستشهد بالآيات التى أراد الله بها نفسه كقوله تعالى : « ونحن أقرب إليه من حبل الوريد » .

ولم يعن — فى هذا المقام — بالحديث عن الاقتباس وألوانه والمباح منه وغير المباح ، والممدوح وغير الممدوح ، على نمط من كلام علماء البلاغة فى هذه المناسبة . وكأنه يكل ذلك إلى ذوق الأديب .

٢ — أنه ينبغى للأديب الاستكثار من حفظ أحاديث الرسول عليه الصلاة والسلام : ولا سيما مايتصل منها بالسيرة والمغازى والأحكام ، مع الدقة فى فهم معانيها ، وتدبر فصاحتها ، وحفظ غريب لفظها .

ولا ريب أن حفظ الأحاديث يتلو فى الأهمية ، حفظ القرآن الكريم . ولها من بعده ، أثر مثل أثره وفوائد قريبة من فوائده . وقد ساق المؤلف الحجة على صواب مذهبه ، وهو أن فهم الأحاديث يستطيع به المتأدب على حد قوله « أن ينفق منها عن سعة ، ويستشهد بكل شيء فى موضعه ، ويحتج بمكان الحجة ويستدل بموضع الدليل ، ويتصرف عن علم بموضوع اللفظ ومعناه ... الخ » .

* * *

٣ — وأنه ينبغي للأديب دراسة النحو ، وممارسة الإعراب ، حتى يرتسم في ذهنه ، ويدور على لسانه ، وينطلق به عقال قلمه

ودراسة النحو — في الواقع — أمر أولى لابد منه للمتأدب ، في هذه العصور المستعجمة ، حتى يعصم لسانه من اللحن ، ويبتعد عن مزالق العامية ، ويحكم تراكيبه ، وفق ما يريده من المعاني . فلكل تركيب معنى يؤديه . وباختلاف التراكيب تختلف المعاني . والدقة في سوق التراكيب تبرئ الأسلوب من ألوان التعقيد .

وللمؤلف كلمة متصلة بهذا الموضوع ، نشير إليها في موضع قريب .

* * *

٤ — وأنه ينبغي له أن يقرأ ما يستطيع من مختصرات كتب اللغة . ويرى من وراء ذلك إلى أن يتزود بمفردات لغوية تسعفه عند صوغ العبارة ، وتقدره على الدقة المطلوبة في أداء الفكرة وحسن تصويرها . وكلما اتسع معجمه اللغوي كان ذا مكنة واستطاعة ، ونأى بجانبه عن العامي والدخيل . وبذلك تفصح عبارته وتملح إشارته .

وهو يرى أن الاطلاع على مختصرات كتب اللغة كفيل بذلك — وهو به حقاً كفيل — غير أن استظهار المفردات عن طريق المعجمات ، فيه صعوبة وعسر ، ولعل فيه أيضاً إضاعة لوقت المتأدب . وأفضل من ذلك — في رأينا — العناية باستظهار الآثار الأدبية شعراً ونثراً ، واستيعاب ما فيها من المفردات اللغوية في أماكنها من هذه الآثار . فهذا مما يساعد على حفظها وتذكر معانيها ، فضلا عما يستفيده المستظهر من تربية ملكته الأدبية .

ولعل المؤلف يرمى إلى هذه الفوائد من نصائحه الآتية .

* * *

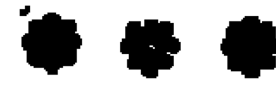
٥ — وأن يحفظ خطب البلغاء من الصحابة وغيرهم ، ومخاطباتهم ومحاوراتهم ونحوها . وأن ينظر في أيام العرب ، ووقائعهم وحروبهم

ومناقضاتهم فيها، ويعى أخبار الدول وسير الملوك وما يتصل بذلك من حوادث التاريخ. وأن يقرأ أشعار قدماء العرب، ويخص بالقراءة والحفظ، أشعار المحدثين منهم، للطف مأخذهم، ودوران الصناعة فى كلامهم، ورقة توليد المعانى فى أشعارهم، وقرب أسلوبهم من الخطابة والكتابة. وأن يطالع رسائل المتقدمين، دون أن يعنى بحفظها، لأنها تنقح القريحة وترشد الخاطر وتسهل الاقتداء وتعصم من الخطأ، وذلك بمعرفة ما نقد منها، وما بهرجه النقد.

وحجته فى الدعوة إلى عدم حفظ الرسائل، ألا يكل الخاطر، بسبب محفوظه، فيركن إليه ويعتمد عليه، دون أن يأتى من عنده بجديد. وهى حجة لها وجاهتها.



٦ — وأن يقرأ كتب الأمثال، وأن يحكم النظر فى الأحكام السلطانية، لأن الكاتب المنشئ فى الديوان، قد يؤمر بأمر، فيعرف — بهذه الأحكام — كيف يجرى قلمه على حكم الشريعة المطهرة، من ولاية قضاء وحسبة، وغيرهما.



هذه المسائل التى أجملناها — وهى فى تفصيلها اثنتا عشرة مسألة — يعتبرها المؤلف أمورا كلية لابد للمترشح لصناعة الكتابة، من الإكباب على مطالعتها ومزاولتها وممارستها والاستكثار منها. ونستنبط من ذلك أمورا. منها :

الأول : أن المؤلف هنا ناقد تعليمى، وضع الأسس الأولى والدعائم الأصيلة التى يقوم عليها أسلوب الكاتب، والتى ينبغى أن يراعيها الكاتب حتى يتمشى أسلوبه فى رسن من البلاغة الصحيحة. وبفحص هذه الأسس ترى أنها تؤدى إلى الجرى مع الطريقة الفاضلية التى كانت دستور البلغاء فى العصر المملوكى.

فبحفظ القرآن الكريم والحديث، يقتدر الكاتب على «الاقتباس» بشتى طرقه وأقسامه. وبمعرفة مفردات اللغة وتحديد معانيها يستطاع «التجنيس»

و « التورية » و « المطابقة » و « المقابلة » و « الاستخدام » وغير ذلك .
وباستيعاب أشعار العرب وأيامهم وأمثالهم يملك زمام « التورية » و « التلميح » و « التضمين » وهكذا .

والمؤلف لم يفصح عن ذلك إفصاحاً بارزاً . ولكن عباراته وأمثلته ، وخاصة التي من إنشائه هو ، يستنبط منها هذا .

الثاني : أنه يبدو من عنايته بالتنبيه على حفظ القرآن الكريم ، وتدبره ، ومعرفة الحديث وأحكامه ، وشعر العرب . . . الخ ، أنه ينبغي أن يحتوى الأسلوب على شيء منها بأى سبيل من سبل القول . لأن ذلك يدعم المعنى ويقويه ويوضحه ويبرزه ، ويكسوه ثوب جمال . فهي ليست غايات مقصودة لذاتها ، ولكنها وسائل لإكساب المعنى جماله المرجو الذى يبرز فيه القوة ويؤدى به إلى الوضوح والتأثير .

الثالث : أنه يرى من وراء هذه التعليمات المؤدية إلى استعمال أصباغ بديعية ، إلى خدمة المعنى ووضعه فى لوحة جميلة وإطار جميل ، ترى فيه ظلاله وحواشيه الجانبية التى تكمله وتجعله رائعاً . والألفاظ أو الأصباغ هى التى تشع عليه هذه الأضواء ، وتزيده روعة وتأثيراً .

تأثر الحلبي بابن الأثير :

قبل أن ننتقل بالحديث عن هذا القسم ، الذى هو جوهرى لتعليم الكتابة ، نشعر أن الحلبي متأثر فيه تأثراً بالغاً بابن الأثير فى كتابه « المثل السائر » . فقد عقد فيه فصلين ممتعين فى تعليم الكتابة ، هما الفصل التاسع والعاشر من فصول مقدمته .

وهو فى الفصل العاشر مسهب كثير التفصيل ، دقيق فى إبراز المعانى التى يقصدها ويوضحها بلا مواربة ، ولا خشية غالباً .

فصله التاسع : وهو فى أركان صناعة الكتابة .

ويتلخص فى أن لصناعة الكتابة خمسة أركان :

١ — أن يكون مطلع الكتاب — أو الرسالة — عليه جدة ورشاقة .

٢ — أن يكون الدعاء المودع فى صدره مشتقاً من المعنى الذى بنى عليه .

٣ — أن يكون خروج الكاتب من معنى إلى معنى ، برابطة .

٤ — أن تكون ألفاظ الكتاب غير مبتذلة بكثرة الاستعمال ، بشرط ألا تكون غريبة .

٥ — ألا يخلو الكتاب من معنى من معانى القرآن الكريم .

وهو فى بيان هذه الأركان — كما ترى — يدعو إلى براعة الاستهلال أو حسن الابتداء ، وإلى مراعاة النظير والتورية ، وإلى حسن التخلص ، وإلى رعاية السهولة والوضوح ، وإلى الاقتباس ، على التوالى .

وهذه أمور سنراها بوضوح فى منهج «ابن حجة» فى الفصل الآتى . ولكن شاهدنا هنا هو الركن الأخير ، وهو وجوب احتواء الكلام على معنى من معانى القرآن الكريم .

فصله العاشر : وهو فى بيان الطريق إلى تعلم الكتابه .

يتلخص كلامه فيه فيما يلى :

١ — أن يتصفح الكاتب كتابة المتقدمين ، ويطلع على أوضاعهم فى استعمال الألفاظ والمعانى ، ثم يحذو حذوهم . وهذه أدنى الطبقات .

ويبدو أنه يقصد بها طبقة المقلدين الذين يرددون عبارات سابقيهم فحسب .

٢ — أن يمزج الكاتب كتابة المتقدمين بما يستجيده لنفسه من زيادة حسنة فى اللفظ والمعنى . وهذه الطبقة أعلى من سابقتها .

ويبدو أنه يقصد بها طبقة تسرق سرقة نثرية ، فتخلط نثر غيرها — أو شعره — بنثرها .

٣ — ألا يتصفح الكاتب كتابة المتقدمين ، ولا يطلع على شىء منها ، بل يصرف همه إلى حفظ القرآن الكريم ، وكثير من الأخبار النبوية ، وعدة

من دواوين فحول الشعراء ، ممن غلب على شعره الإجادة فى المعانى والألفاظ .
ثم يأخذ فى الاقتباس من هذه الثلاثة ، ثم يمرن نفسه بالاقتباس منها ، حتى يقوم لسانه ويهذب قلمه ويستقيم على طريقة .

وهذه الطبقة أعلى الطبقات ...

ويبدو لنا من كلامه عامة ، ومن البند الثالث خاصة ، مدى ما للأساليب القرآنية من سلطان على عقول الناقدين والأدباء . حتى دعوا دعوة مطردة إلى الاقتباس منه ، والاقتداء بأساليبه ، ونظم الكلام على نظمه . وإن أشركوا معه أحاديث الرسول عليه السلام ، وجيد الشعر .

ولعل هذه النزعة ، من ابن الأثير ، أشد وضوحاً فى الفصل الذى عقده للكلام عن « السجع » . وسنعود للحديث عن ذلك الباب — أو الفصل — عند حديثنا عن ابن حجة الحموى .

هذا ، وقد أخذ ابن الأثير يبين طريقة الانتفاع بالشعر وحله فى الكتابة . وشرع لذلك ثلاث طرق ، بعد ما قال إنه لا يقصد أن يكون الكاتب مرتبطاً بما يستخرجه من القرآن والحديث والشعر ، بحيث لا ينشىء إلا منها . أما طرقه :

فالأولى : أن يأخذ الناثر بيتاً من الشعر فينثره بألفاظه من غير زيادة ، وهذا — فى نظره — عيب فاحش .

الثانية : أن ينثر المعنى المنظوم ببعض ألفاظه ، ويعبر عن بقية ألفاظه بألفاظ أخر من عنده ، وهنا يحتاج الأمر إلى لباقة وحسن صناعة فى رعاية المؤاخاة والمماثلة بين الألفاظ ، حتى تتلاءم كلها معاً ، فكأنها من صنع أديب واحد .

الثالثة : وهى أعلى من سابقتها ، هى أن يؤخذ المعنى فيصاغ بألفاظ جديدة . وهنا يتبين حذق الكاتب وقدرته فى الزيادة على المعنى ، وفى التصرف فيه .

وقد ضرب ابن الأثير لذلك أمثلة لا حصر لها ، من إنشائه . كما خللها بتفصيلات أخرى دقيقة فى الطرق العملية للانتفاع بالمحفوظ .

ثم تكلم عن حل آيات القرآن الكريم . فبين أنه ينبغى المحافظة على ألفاظه

لمكانها من الفصاحة . إلا أنه لا ينبغى أن يؤخذ لفظ الآية بجملته ، فإن ذلك يكون من باب « التضمين » . وإنما يؤخذ بعضه ، ويجعل أولا ، أو آخراً ، حسب المناسبة . وكذلك تحل الأخبار النبوية .

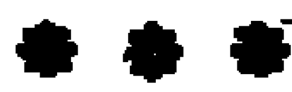
وقد بين أن المتصدى لحل معانى القرآن ، يحتاج إلى كثرة درسه ، وإدامة النظر فيه . فكلما أعاد دراسته ونظره بانت له معان جديدة انتفع بها . وضرب لذلك المثل بنفسه . فإنه كان يقرأ السورة ويسجل مايتراءى له من المعانى وقت قراءتها ، ثم يعيد قراءتها فتتراءى له معان أخرى ، وهكذا ...

هذه خلاصة تعاليم ابن الأثير . ومن الطريف أنه صدّر الفصل العاشر المذكور بقوله : « هذا الفصل هو كنز الكتابة ومنبعها . وما رأيت أحداً تكلم فيه بشىء » . . .

ومن هذه الخلاصة يبدو لنا جليا ، أن الشهاب الحلبي قد تأثر بها . ولكنه زاد عليها ، وصرف عناية كبرى إلى دراسة النحو وحفظ مفردات اللغة ، وقراءة نثر المتقدمين ، ومنه خطب الصحابة وغيرهم من البلغاء .

والحلبي أدق بعض الدقة حينما دعا إلى قراءة النثر — ولم يدع إليها ابن الأثير بدعوى أن الشعر هو مجتمع معانى العرب — وحينما دعا أيضاً إلى حفظ الرسائل ونحوها ، ثم نسيانها . وهو — بلا ريب — يقصد بذلك أن يهتضمها الأديب فى ضميره ، فتنفعه وتعينه على إنشائه دون أن تبدو فيه بدوا ملموساً .

من هذا ، ومما سنحدثك به عن ابن حجة الحموى ، ترى أن شروط صناعة الكتابة وتعاليم زعمائها ، زادت حنكة ولباقة فى العصر المملوكى عن العصور المتقدمة .



القسم الثانى :

ذهب المؤلف فى هذا القسم مذهب علماء البلاغة ، إذ خلع عنه ثوب الأديب المشرع الذى ارتداه فى القسم الأول ، ولو إلى حد ، وأخذ يتحدث عن ألوان من البيان والمعانى والبديع بلغت نحو ثمانين لونا ، فى أسلوب على هين ، فيه تعاريف وحدود ، وفيه تقاسيم وموازنات ، وفيه استدلالات واحتجاجات .

وقد تأثر فى ذلك الحديث ، بمذاهب المتقدمين من علماء البلاغة على اختلافهم . ومنهم عبد القاهر الجرجانى ، وقدامة بن جعفر ، وابن سنان الخفاجى ، ونقل شيئا عنهم .

ولم يفرق بين ألوان البديع وغيرها من ألوان البلاغة ، بل عقدها فصولا متوالية . إلا أن الفصول البديعية كلها فى المؤخرة . ولا نريد أن نستنبط من ذلك شيئا ، ولا سيما إذا عرفنا أنه نص فى مقدمة الكلام فى هذا القسم ، بما يفهم منه أنه يتحدث عن علم البيان والمعانى والبديع . وفى هذا إشعار منه بمغايرة كل علم بأقسامه ، للآخر وأقسامه . ولكن ليس إشعارا بأن البديع تابع للمعانى والبيان ، كما ذهب إليه الجلال القزوينى .

وليس فى الألوان البلاغية التى تعرض للحديث عنها حديثا علميا ، شىء جديد ، أو شىء نعتقد أنه ذو صلة بموضوعنا ، سوى تسجيل هذه الألوان التى تعود علماء البلاغة أن يتحدثوا عنها . غير أننا نقف منها عند جملة أمور :

الأول : أن المؤلف عندما بدأ الحديث عن هذه الألوان البلاغية ، تكلم عنها باعتبارها أداة من الأدوات التى ينبغى للناشئ معرفتها . فهى إذن ، المسألة الثالثة عشرة . ولكنها تفترق عن الأدوات الكلية السالفة ، بأنها من المكملات لهذا الفن . وقد قال فى ذلك بعد أن تحدث عن الأدوات الاثنى عشرة السابقة :

فهذه أمور كلية ، لا بد للمترشح لهذه الصناعة من التصدى للاطلاع عليها ، والإكباب على مطالعتها . والاستكثار منها ، لينفق من تلك المواد ، وليسلك فى الوصول إلى تلك الصناعة بذلك الجواد ، وإلا فليعلم أنه فى واد ، والكتابة فى واد .

وأما الأمور الخاصة التى تزيد معرفتها قدره ، ويزين العلم بها نظمه ونثره ، فإنها من المكملات لهذا الفن ، وإن لم يضطر إليها ذو الذهن الثاقب ، والطبع السليم ، والقريحة المطاوعة ، والفكرة المنقحة ، والبديهة المجيبة ، والروية المتصرفة . ولكن العالم بها متمكن من أزمّة المعانى ، يقول عن علم ، ويتصرف عن معرفة ، وينتقد بحجة ، ويتخير بدليل ، ويستحسن ببرهان ، ويصوغ الكلام بترتيب .

فمن ذلك : علم المعانى والبيان والبديع ، والكتب المؤلفة فى إعجاز الكتاب العزيز ، ككتب الرمانى والجرجانى ،والإمام فخر الدين ، والسكاكى،والخفاجى وغيرهم .

وأنا أشير إلى نكت منها تدل على جلالة قدر هذا العلم،وعظم الفائدة به، وإن الأديب والكاتب العاريين عنه قاصران عن أدنى رتب الكمال . . . » الخ .

فأنت تراه يعتبر هذه الأدوات البلاغية مكملات . أما ماتقدمها فهى أمور كلية ، بمعنى أصيلة ضرورية لابد منها ولا محيد عنها . لأن كلمة « كلية » هنا مطابقة لكلمة « مكملة » ، فعلى ضوء هذا الطباق نفسرها .

وهى مكملة للأديب حتى يتصرف فى زمام القول عن علم وبينة وفهم لما يتصرف فيه . والأديب الذى أوتى ذهنا ثاقبا وطبعا سليما . . . . الخ ، يستطيع أن يفيض خاطره بالمليح من القول، والرائع من البيان . دون أن يكون متمكنا من معرفة هذه الألوان البلاغية معرفة علمية . ومن هذا يتضح أن المؤلف يرى من أنها مكملة للأديب ، إلى محض العلم بها وفهم مختلفاتها ، على نسق مايريده علماء البلاغة .

فالأديب المطبوع يدرسها ليستزيد بها علما فحسب . وهذا يمكنه من أزمة المعانى ، حتى يقول عن علم، ويتصرف عن معرفة ، وينتقد عن حجة . . الخ .

ويبدو لنا جليا من هذا الحديث الواضح ، أن المؤلف إنما يرمى إلى أن يهيء للأديب كل أداة يستطيع بها أن يتمكن من أزمة المعانى ، حتى يصرفها وفق ما فى نفسه ، فليس هدفه إذن إقدار الأديب على امتلاك العناية باللفظ وأن يحسن الحلية للحلية ، وإنما يحسنها خدمة للمعانى وتقوية لها .

أما الأديب ذو الذهن الثاقب والطبع السليم والقريحة المطاوعة والفكرة المنقحة . . . الخ، فلابأس عليه إذا جهل هذه الأدوات . فإن جهله بها — من الناحية العلمية — ليس معناه جهله بها من الناحية الطبعية . فهى مستقرة فى نفسه الأديبة ، جارية على لسانه المبين ، دون وعى أو تكلف . وحسبه ما يتصف به

من ثقوب ذهن وسلامة طبع ومطاوعة قريحة . . . . الخ . وأديب هذه صفاته لن تفلت منه أزمة المعانى ، ولن يعتاص عليه لفظ أو تركيب . وإنه لتجذبه مغناطيسية ذهنه حين يثور إلى العمل ، وينبرى للإنتاج البيانى .

الثانى : أن المؤلف ساق خلال حديثه عن الألوان البلاغة ، أمثلة وشواهد متعددة . وهو — بلا ريب — يرمى من ورائها إلى أن تكون نماذج للناشئ المتأدب تبصره بطرق إبراز المعانى فى صورة قوية واضحة مؤثرة . وتمرن قريحته على تذوق الجمال فى الأسلوب . لأن الجمال - فى الحق — ليس أمرا محدودا يستطاع ضبطه وتعريفه تعريفا محدودا داخل سور ، وإنما هو أمر ذوقى . ولهذا ساق المؤلف كلمة مقتبسة عن الإمام عبد القاهر الجرجانى ، إذ قال :

« وحكى الإمام عبد القاهر الجرجانى قال : ركب الكندى المتفلسف إلى أبى العباس ، وقال له : إنى أجد فى كلام العرب حشوا . فقال له أبو العباس : فى أى موضع وجدت ذلك ؟ قال : وجدت العرب تقول : عبد الله قائم ، ثم يقولون : إن عبد الله قائم ، ثم يقولون : إن عبد الله لقائم . فالألفاظ متكررة والمعنى واحد » . فقال أبو العباس : بل المعانى مختلفة لاختلاف الألفاظ . فقولهم : «عبد الله قائم» إخبار عن قيامه . وقولهم : « إن عبد الله قائم » جواب عن سؤال سائل . وقولهم : « إن عبد الله لقائم » جواب عن إنكار منكر قيامه — فما أحار المتفلسف جوابا . فإذا ذهب مثل هذا على الكندى ، فما الظن بغيره ؟ وإن كان من محاسن الكلام ما لا يحكم فى امتزاجه بالقلوب ، غير الذوق السليم ، كما قال الشاعر .

شئ به فتن الورى غير الذى يدعى الجمال ، ولست أدرى ما هو

وهذا كله يؤيد ما نشعر به ، أو ما نستنبطه من مذهب هذا الرجل . وهو رميه إلى إجادة المعانى وحسن إبرازها . وكل ما يوصى بالاطلاع عليه ، والاستكثار منه ، والعلم به ، إنما هو لخدمة المعانى .

الثالث : أن المؤلف عقد فصلا تحت عنوان : « القول فى النظم » ، تكلم فيه عن الإيجاز والإطناب . وقد مهد لكلامه بحديثه عن النحو . وبين ضرورة

ورعايته ، مراعاة للمعانى ، لأن لكل قانون نحوى معنى يؤديه ولأن الكلام ، دون نحو ، لا فضل فيه ، بلغ ما بلغ من غرابة المعانى . فكمال المعانى أن تكون فى قوالب أسلوبية نحوية معربه . وأن سبب فساد المعانى ترك العمل بالقرائن النحوية .

وهذا كله مما يؤيد توجيهه نحو العناية بالمعانى . ومما يعزز كلامه هنا ، ما سبق أن عرّف به البلاغة عند أول حديثه عنها ، حيث قال :

« البلاغة أن يبلغ المتكلم بعبارته كنه مراده ، مع إيجاز بلا إخلال ، وإطالة فى غير إملال » . وسواء أكان معنى هذه العبارة منقولا أم غير منقول . فهو معبر عن رأيه على كل حال .

وفى نفس الفصل « القول فى النظم » يقول ما ملخصه :

« إن الجمل الكبيرة إذا نظمت نظما واحداً ، فهى على قسمين :

الأول : ألا يتعلق البعض بالبعض ، فلا يحتاج واضعه إلى فكر وروية فى استخراجه ، بل هو كمن عمد إلى اللآلئ ينظمها فى سلك . ومثاله قول الحافظ : « جنبك الله الشبهة وعصمك من الحيرة . . . الخ » .

والثانى : أن تكون الجمل المذكورة يتعلق بعضها ببعض ، وهناك تظهر قوة الطبع وجودة القريحة واستقامة الذهن . ثم ليس لهذا الباب قانون يحفظ . فإنما يجيء على وجوه شتى ... الخ » . ثم تكلم عن الإيجاز والأطناب . . .

ويبدو من حديثه فى القسمين ، اهتمامه بإجادة المعانى وحسن إبرازها وجمال تأديتها . فهو فى القسم الأول يصفها باللآلىء المنظومة فى سلك . ولا ينصب وصفه هذا على الألفاظ ، لأن الألفاظ ، من حيث هى ألفاظ ، لا تعتبر لآلئ ولا نحوها . فليس للفظ قيمة ذاتية ، إلا بما يسكنه من المعنى . وبمقدار صلة هذا المعنى بما يجاوره من المعانى — وفى القسم الثانى . يطمئن عليها تمام الطمأنينة ، ما دام للكاتب قوة طبع وجودة قريحة واستقامة ذهن ... وهذه فى الواقع أدوات تؤدى بصاحبها إلى الابتكار فى المعانى ، والقدرة على وضعها فى قوالب لفظية جميلة رائعة تتضح منها وتؤثر بها .

غير أننا نعترض على حديثه فى القسم الأول ، عند قوله إنها لايحتاج نظمها إلى فكر وروية.. الخ . ونرى أن هذا الضرب من الجمل — وهو الذى لا يرتبط بعضه ببعض بروابط وحدة الموضوع واتفاقه — يحتاج إلى حنكة وكياسة ولباقة فى التأدية ، تعوض هذه الجمل ما فاتها من وحدة الموضوع ومتانة الاتصال ، وتفرغ عليها ثوبا من القربى ، ونسيجا من الاتصال . وإلا بدت مفككة ينفر كل منها من الآخر ، نفور الغريب من القريب — والعجيب أنه استشهد بكلام بعض نوابغ البلغاء : كالجاحظ والنابغة . وإذا نحن أجلنا النظر فى جمل كل منهما — وجمل غيرهما ممن استشهد بهم — نجد بينها روابط معنوية تجمع بين شتاتها المتفرق .

الرابع : أنه عقد فصلا موجزاً لطيفا تحت عنوان «فصل : فى الفقر المسجوعة ومقاديرها» . بدأه بقوله :

« قصر الفقرات يدل على قوة التمكن وإحكام الصناعة ، وأقل ما يكون من كلمتين » .

ثم تكلم عن الفقرات المختلفة فقال ما نصه :

« فأما الفقر المختلفة فالأحسن أن تكون الثانية أزيد من الأولى ، ولكن لا بقدر كثير ، لئلا يبعد على السامع وجود القافية ، فيقل الالتذاذ بسماعها ، فإن زادت القرائن على اثنتين ، فلا يضر تساوى القرينتين الأوليين ، وزيادة الثالثة عليهما . وإن زادت الثانية على الأولى يسيرا ، والثالثة على الثانية ، فلابأس ، لكن لا تكون أكثر من المثل . . . . الخ » أى لا تكون الزيادة ..

ومن عبارته هذه نستنبط أموراً منها :

١ — أنه يدعو إلى قصر الفقرات ، ويعتبره دلالة على تمكن الصناعة وقدرة المنشئ .

٢ — أن أقل ما تتألف منه الفقرة كلمتان . ولكن الزائد على ذلك هو الأكثر ، كما يشاهد فى كتاب الله عز وجل .

٣ — أنه يدعو — عند اختلاف الفقرات المسجوعة فى الطول — إلى أن

تكون الثانية أطول قليلا من الأولى ، وأن تكون الثالثة — إذا وجدت — أطول قليلا من الثانية . ولا تتعدى زيادتها المثل . وينبغي أن تكون فيها زيادة . والأمثلة التي استشهد بها يفهم منها ألا تزيد الثالثة على مثل الأوليين .

٤ — ولا مانع عند وجود فقرة ثالثة ، أن تتساوى الأولى والثانية في الطول .

ويحتج الحلبي لذلك كله بأن السامع يجد التذاذاً فيه . ولا ريب أن التذاذ السامع ناشئ من زيادة المعاني الناشئة من زيادة الألفاظ . إذ يكون السامع — بعد سماعه أولى السجعات — مشوقا للزيادة ، وعلى استعداد لقبولها . ويبدو أن السامع حينما يسمع فقرة قصيرة ذات رنين خاص يؤثر في نفسه ، يصبح ذا استعداد نفسي لسماع فقرة أطول منها قليلا ، لما يحدث في نفسه من المطاوعة حين سماع الأولى ، مما يهيئها للاسترسال مع جرس الفقرة الجديدة ، إلى أبعد مما تلقاه من جرس الأولى ، فكأن الأولى أثارت فيه شوقا إلى الإطالة والزيادة . ومن هنا نفهم مقدار الذوق الموسيقي الذي وهب لهؤلاء النقاد ، وبه تحكموا في نظام الفقرات المسجوعة . وحجة التذاذ السامع وتشوقه للزيادة ، هي الحجة التي ابتدعها هؤلاء الناقدون أو المقننون ، وهناك حجة أخرى نراها ولكنها خفية ، وهي افتتانهم بأسلوب القرآن الكريم ونظم فواصله التي أتت على نظام مسجوع . فهم يريدون أن يطبعوا الأساليب النثرية ، وما فيها من سجعات بطابع السجع ونظامه في آي القرآن الكريم . ومما يدل على ذلك ، توخيهم الاستشهاد ، فور هذا التقنين ، بآيات القرآن الكريم . ومن هنا نلحظ أيضاً مدى تأثير الأساليب القرآنية في أساليب النثر في تلك العصور . .

ومن الطريف أن يتحدث الشهاب محمود ، بهذه المناسبة ، عن عدد الكلمات في الفقرات الطوال . ويحدد أقصرها بإحدى عشرة كلمة ، أما غير ذلك فلا ضابط له . وقد بلغ عشرين كلمة في بعض الفقرات .

ومن أمثلته على اتفاق القرينتين الأوليين ، وطول الثالثة . على ألا تزيد زيادتها عن مثليهما ، قوله تعالى :

« وقالوا اتخذ الرحمن ولدا . لقد جئتم شيئاً إدا . تكاد السموات يتفطرن منه ، وتنشق الأرض وتخر الجبال هدا ، أن دعوا للرحمن ولدا » . فالأولى أربع ، والثانية مثلها أربع . والثالثة ثلاث عشرة . على اعتبار القرينة منتهية عند قوله تعالى : ولدا — وذلك ما يفهم من عبارته .

وسترى أن ابن حجة الحموى قد سجل فى كتابه « خزانة الأدب » هذه القيود بنصها وبصها فى باب « السجع » ، وقد عبر عنها بعبارة الشهاب محمود فى كتابه « حسن التوسل » ناقلا معها أمثلتها وشواهدها بعينها . ولكنه لم يشر إلى نقله . . ولعل ذلك دليل على أن هذه القيود قواعد مقررة مرعية متفق عليها فى الطريقة الإنشائية المتبعة فى ذلك العصر .

على أننا لا نظنا أن كلا الرجلين « الحلبى وابن حجة » — بل والقلقشندى أيضاً — قد اقتفوا فى ذلك كله أثر ضياء الدين بن الأثير فى كتابه « المثل السائر » فقد تكلم فى باب السجع كلاما طويلا ، تناول فيه أنواعه ، وتحدث عن نظام الفقرات ، واستشهد بكثير من الآيات القرآنية والأحاديث ، وإنشاء الصابى وغيره وإنشائه هو . ويبدو أنهم نقلوا عنه آراءه متأثرين بها ، كما استشهدوا بما استشهد به من الآيات .

ولا تخرج القواعد التى قعدها هنا الشهاب محمود — فى جملتها — عن القواعد التى سجلها ابن الأثير . وفى « المثل السائر » زيادة وتفصيل أكثر . وسنعود إلى بيان ذلك عند الحديث عن ابن حجة مبينين أيضاً تأثر ابن الأثير بمن قبله من البلاغيين .

وأخيراً نلاحظ أن الشهاب محمودا لم يتعرض لأنواع السجع المختلفة — المطرف ، والموازى ، والمشطر ، والمرصع — كما تعرض لها كل من ابن الأثير ، وابن حجة . وسنشير إليها فى مواضع أخرى .

الخامس : أنه عقد فصلا آخر تحت عنوان « القول فى التجنيس » تكلم فيه عن أنواع من الجناس ، كالتام ، والناقص ، والمركب ... الخ .

وقد وقفنا خلال قراءة هذا الفصل ، عند عبارة لها مغزاها ، حيث يقول :

« وإنما يحسن التجنيس إذا قل ، وأتى فى الكلام عفواً ، من غير كد ولا استكراه ، ولا بعد ، ولا ميل إلى جانب الركة ، ولا يكون كقول الأعشى :

وقد غدوت إلى الحانوت يتبعنى شاو مشل شلول شلشل شول

وهذا دليل على أن الرجل لا ينساق مع الزخارف اللفظية ، ولا البهرج الصوتى . وإنما يدعو إلى رعاية المعنى . ولا يقبل على لون بديعى إلا إذا خف وبرئ من الكلف . ولا ريب أنه إنما يكتسب هذه الخفة والبراءة إذا بعدت العبارة عن التعقيد ، وسلمت من التنافر ، وأسفر معناها دون كد أو ملل .

ونعتقد أن هذه النزعة فى فهم الجناس ، مُسبق بها الحلبي . فقد قال عبدالقاهر الجرجانى مثلا فى سياق حديثه عن الجناس والسجع معا :

« وأما التجنيس فإنك لا تستحسن تجانس اللفظتين إلا إذا كان موقع معنيهما من العقل موقعا حميداً . ولم يكن مرمى الجامع بينهما مرمى بعيداً » .

ويقول أيضاً :

« فإنك لا تجد تجنيسا مقبولا ، ولا سجعا حسنا ، حتى يكون المعنى هو الذى طلبه واستدعاه وساق نحوه . وحتى تجده لا تبتغى به بدلا ، ولا تجد عنه حولا . ومن هنا كان أحلى تجنيس تسمعه وأعلاه ، وأحقه بالحسن وأولاه ما وقع من غير قصد من المتكلم إلى اجتلابه[1] » .

وقد كان الجناس — فى هذا العصر — مثار جدل ونقاش ، وأداة فرقة وانقسام بين النقاد والأدباء . فمنهم من يدعو إليه ويتعصب له . مثل صلاح الدين الصفدى ، الذى ألف فيه كتابه « جنان الجناس » . ومنهم من ينفر عنه ويعتبره محسنا لفظيا — لا معنويا — ولا يقبل عليه إلا إذا كان لتحسين المعنى منه نصيب ، وأخرج مخرجا آخر . وقد سبقت الإشارة إلى شىء من ذلك فى الفصل الأول ، وسنعود إليه مرة أخرى .

---

(١) أسرار البلاغة ص ٤ ، ٧ .

ومن الفريق الثانى ، الشهاب محمود ، الذى تبدو شروطه فى استعمال الجناس من خلال عبارته السالفة ، فهو يشترط فيه أن يأتى الكلام عفوا من غير كد ولا استكراه ولا بعد ، ولا ميل إلى جانب الركة . .

وجرى على نمطه ابن حجة الحموى فى « خزانة الأدب » إذ نقل فى باب « الجناس » نص عبارة الشهاب محمود مسندة إليه حيث قال : « والجناس من صور الألفاظ ، وممن وافق على ذلك ، علامة عصره الشهاب محمود . وقد قال : إنما يحسن الجناس إذا قل وأتى فى الكلام عفواً من غير كد ... الخ » .

السادس : نلاحظ على الشهاب محمود — كما نلاحظ على كثير من النقاد والبلاغيين — أن أكثر ما يسوقونه من الأمثلة والشواهد ، من الشعر دون النثر . وكان الأجدر برجل كالشهاب محمود ، وهو يتصدى لوضع قوانين لصناعة الكتابة أن يكثر من أمثلتها . ولكنه فعل كما يفعل البلاغيون من الإكثار من الشواهد الشعرية دون النثرية — ولعله استعاض عن ذلك بما أثبته من النماذج النثرية المتعددة ، التى ساقها فى قسم خاص ، وهو القسم الثالث من كتابه . ونتحدث عنه بعد قليل .

* * *

وبعد ، فما سبق يتبين أهم ما يشترطه هذا الناقد ، فى الاسلوب ، حتى تحكم صناعته ، ويتلخص ذلك فيما يلى :

١ — رعاية النحو وقواعده ، وهذه مسألة أولية ، ومن شأنها أن تعين على تحديد المعنى ووضوحه .

٢ — سوق بعض من آيات القرآن الكريم أو الحديث الشريف ، أو شعر العرب وحكمهم وأمثالهم وما إليها على سبيل الاقتباس أو التضمين أو الحل — وله فى الحل لفتات لطيفة نذكرها عند الحديث عن القسم الثالث .

٣ — التلميح ببعض الألفاظ أو العبارات إلى سيرة النبى عليه الصلاة والسلام ، أو مغازيه وأخباره وأخبار أصحابه ، أو الحوادث التاريخية والنوادر الأدبية ، أو أبطال القصص والسير والأيام والأدب ونحو ذلك .

٤ — تنويع الألفاظ ، وعدم الاقتصار على معجم لفظى صغير ، تدور مفرداته فى سطور كل مقال . ولا ريب أن ضيق معجم الأديب يؤدى إلى ضعف أسلوبه وعجزه عن أداء كل معانيه وأخيلته .

٥ — الابتكار فى المعنى أو التوليد فيه — على الأقل — وتجنب التكرار وتحاشى السرقة . وتفهم هذا من قوله : « ينبغى ألا يستند الفكر إلى محفوظه » .

٦ — الخبرة بمصطلحات الديوان ، والأحكام السلطانية ، حتى لا تصدر عبارة نابية عن العرف والشرع .

٧ — المطابقة بين الكلام ومقتضى الحال ، حتى تبلغ العبارة كنه المراد . وهذه خصوصية فى الأديب ترجع إلى قوة طبعه ؛ وجودة قريحته واستقامة ذهنه .

٨ — أن تكون السجعات قصيرة ومتوافقة . فإذا اختلفت فلتكن الثانية أطول من الأولى ، والثالثة أطول من الثانية ، على ألا تزيد عن مثل الأولى والثانية ، بأكثر من المثل . وهذا هو مفهوم شواهده من القرآن . ولا بأس أن تتساوى الأوليان عند وجود ثالثة .

٩ — أن يستخدم التجنيس لتحسين المعنى ويتم له ذلك إذا أتى عفواً من غير كد ولا استكراه ، ولا بعد ، ولا ميل إلى جانب الركة .

ومن هذا كله يتبين مقدار عناية هذا الناقد بتوجيه الناشىء إلى رعاية المعنى مع حسن إبرازه ، وأنه يسخر لذلك أدوات ووسائل عدة ، البديع واحدة منها .

* * *

وقد لا تروق هذه التوجيهات ، نقاد العصر الحديث ، إذ أن لهم فى الأساليب نظرات أخرى . ولكن ينبغى لنا أن نعترف أن لكل عصر ذوقه ، وأن لكل جيل منطقه . وإذا راعينا أن الثقافة السائدة فى العصر المملوكى كانت ثقافة دينية ، فى أغلب نواحيها ، ويشترك فيها القرآن الكريم وعلومه ، وأن الثقافة الأدبية ، كان من أسمى أغراضها إحياء الأدب القديم . وتقليدُهُ واقتفاء أثره كان ضربا من ضروب الإحياء — إذ العصر فى جملته كان عصر إحياء — شعرنا بأن هذا

الناقد وأمثاله كانوا مرآة لعصرهم ، وترجمانا لجيلهم ، وأنه كان أمراً طبعيا أن تتأثر أساليب الأدباء بما تنضح به هذه الألوان الثقافية . وهذا التأثر الذى تأثرت به ، وتقنينه ، ووضعه فى قواعد ومناهج — أومحاولة ذلك — أهم نزعة ، فى رأينا ، ينبغى أن ينزع إليها الفن الصحيح ،إذ الفن الصحيح هو الذى ينعكس عليه ذوق عصره ومنطقه .

* * *

القسم الثالث :

يمتاز هذا القسم بأنه أمثلة تطبيقية ونماذج متعددة ، ورسائل شتى . كلها من إنشاء المؤلف فى أغراض كتابية مختلفة . بعضها مما كتبه فى الديوان ، وبعضها مما كتبه تمرينا لقريحته وتمثيلا للناشئين .

وقد قدم كل نموذج منها ، أو كل مجموعة من نماذجها متحدة فى غرضها ، بتوجيهات لطيفة وتقنينات طريفة ، هى فى صميم ما يعين الناشىء على هذه الصناعة ، وفى صميم ما يلفت الذهن إلى العناية بالمعنى ، ويبصر بطرق مراعاة مقتضيات الأحوال ، حتى تكون الرسالة المنشأة بليغة مستوفاة ، ويكون المقال المدبج وفق المجال ، ويبلغ بهما الكاتب ما يريد .

وقد بدأ ذلك بالكلام عن « الحل » وهو حل « المنثور والمنظوم » . وهو ضرب آخر من ضروب المناهج الكتابية ذات السلطان فى ذلك الحين . وهو دليل على سعة اطلاع المنشىء ، وإحاطته بصنوف الأدب ؛ شعره ونثره .

واستخدام « الحل » بحاجة قصوى إلى لباقة وحنكة ، حتى يستطيع الكاتب حل الألفاظ ، والانتفاع بمعانيها ، والمباعدة بين متجمعها ، بألفاظ وعبارات ومعان جزئية جديدة ، حتى ينسبك منها جميعا شىء جديد مبتكر . تزيده الألفاظ أو المعانى المحلولة روعة وجمالا ووضوحا ، وتلقى من حوله ظلالا حية نابضة بالكثير من مكملاته وألوانه .

وقد قال المؤلف يشرح طريقة الحل :

« وكيفية الحل أن تتوخى هدم البيت المنظوم وحل فرائده من سلكه . ثم ترتب تلك الفرائد أو ماشابهها ترتيب متمكن ، لم يحصره الوزن ، ولا اضطرته القافية . ويبرزها فى أحسن سلك ، وأجمل قالب وأصح سبك . ويكملها بما يناسبها من أنواع البديع إذا أمكن ذلك من غير كلفة . ويتخير لها القرائن . وإذا تم المعنى المحلول فى قرينة واحدة فيضم له من حاصل فكره ، أو من ذخيرة حفظه ما يناسبه . . . الخ » .

ونعتقد أن هذه الكيفية متأثرة بما سنه ابن الأثير فى الطريقة الثالثة التى يحل بها الشعر . وقد أشرنا إليها . ولكن الحلبى أوضح حديثاً وأنضج عملا وأدق فنا وأوفى منهجا . وكيفيته هذه ، هى ما يسير عليه بلغاء المنشئين ، إذ أنها تجمع بين معنى الشعر المحلول ، وما تجود به قريحة الكاتب جديداً ، وما يعيه صدره من محفوظه ، وتخرج الشعر مخرجاً جديداً .

ولا يزال هذا النهج الكتابى ، — أو هذا اللون البديعى — مقبولا من الأذواق حتى اليوم . إذ يجمع الحسن من أطرافه . وبذلك يتمكن من القلوب بما يبسط لها من مناسبات خفية ، ومعان مطوية . وبما يبعث إليه الأذهان من من أخيلة لطيفة ، والنفوس من تموجات عنيفة . وبما يحتوى عليه من متفرقات التأم شملها فتعاونت على إبراز صورة فكرية ، أو هزة نفسية .

ثم بين الشهاب محمود أن الحل نوعان : حل ألفاظ ، وحل معان . وقال :

« وإذا أراد الحل بالمعنى ، فلتكن ألفاظه مناسبة لألفاظ البيت المحلول ، غير قاصرة عنها . فتى قصرت ، ولو بلفظة واحدة ، فسد ذلك الحل وعد معيباً . وإذا حل باللفظ ، فلا يتصرف بتقديم ولا تأخير ولا تبديل ، إلا مع مراعاة نظام الفصاحة فى ذلك ، واجتناب ما ينقص المعنى ، أو ما يحط رتبته » .

والحل ، قريب الشبه بالتضمين وبالتلميح . ولكنه يشأهما روعة ودقة وأثراً . وهو أشد منهما احتياجا إلى طبع قوى ، وقريحة جيدة ، وكياسة وسعة حيلة ، حتى تبدو العبارة كلها بمعانيها وألفاظها كأنها جديدة من صميم مبتكرات

الكاتب . وإلا غث « الحل » ورث .

ويضرب المؤلف أمثلة عدة منها ما هو من إنشاء ضياء الدين بن الأثير فى وصف عصا على لسان شيخ كبير . وقد تصرف فى محلولاته ، بزيادة فى المعنى . قال :

« وهذه لمبتدأ ضعفى خبر . ولقوس ظهرى وتر . وإذا كان إلقاؤها دليلا على الإقامة ، فإن حملها دليل على السفر » .

والمحلول فى ذلك قول بعضهم : « كأننى قوس رام وهى لى وتر » وقول الآخر :

« فألقت عصاها واستقر بها النوى كما قر عيناً بالإياب المسافر »

* * *

والمؤلف يربأ بالناشئ عن أن يكلف بالحل، ويشغف به ، لدرجة اللجاج التى كثيراً ما تذنى عن إجادة المعنى ، وتبرز العبارة ثقيلة متكلفة ، فيقول ، وهو فى قوله معلم أديب :

« ولا ينبغى أن تعتمد فى جميع كتابتك على الحل فيتكل خاطرك على ذلك ، ويذهب رونق الطبع السليم ، وتقل مادة الانسجام . بل يكون استعمال ذلك كاستعمال البديع ، إذ أتى عفواً من غير تكلف . ليكون مثل الشاهد على صحة الكلام ، والدال على الاطلاع ، وكالرقم فى الثوب ، والشذرة فى القلادة ، والواسطة فى العقد . إذ لا ينبغى أن تخلى كلامك من نوع من أنواع المحاسن . ويقترب من ذلك نوع يسمى التلميح » .

* * *

طفق المؤلف بعد ذلك يسجل نماذجه . ويقدم كلا منها بتوجيه خاص نافع . ونستخلص هنا هذه التوجيهات لأهميتها فى موضوعنا . أما النماذج فلها مواضع قادمة أخرى .

وقد بدأ توجيهاته بقوله : « ومما يتعين على الكاتب استعماله والمحافظة

عليه والتمسك به ، إعطاء كل مقام حقه ... الخ ، وفيها يبين بعض الأحوال ومقتضياتها :

ومن توجيهاته ، وهى فى الواقع آداب ديوانية ، ما يلى :

١ — إذا تصدى الكاتب للكتابة عن الملك إلى نوابه وقادة جيشه فى وقت الحرب ، فليتوخ الإيجاز ، والألفاظ البليغة الدالة على القصد ، ولا يهول فى شأن العدو ، ولا يهون من أمره . وسبب ذلك فيما نعتقد — وكما نوه المؤلف أن وقت الحرب ضيق ينبغى أن تصدر فيه التعليمات عاجلة خوف فوات الفرص ، فينبغى فيها الإيجاز والاقتصار على المعانى الضرورية . أما تهويل أمر العدو فيورث الفزع ويثبط العزيمة . أما تهوين أمره فيعقب الإهمال والتراخى عن مناجزته .

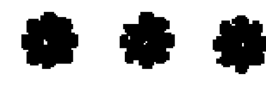
٢ — وإذا كتب عن الملك فى أوقات حركات العدو ، إلى أهل الثغور ليعلمهم بحركته ، فليبسط القول فى وصف العزائم وشدة الحمية للدين ، ويصف كثرة الجند ، ويدعو إلى سرعة الحركة ؛ ومعالجة العدو ، ويخيل أسباب النصر . ويوقف بعوائد الله فى الظفر ، ويبسط الآمال ويحث على اليقظة ، ويحض على المحافظة على ما بالأيدى ، ويبرز ذلك فى أبين كلام وأجله وأقربه من القوة والبسالة ، وأبعده عن اللين والرقة : ويبالغ فى الإنابة إلى الله تعالى ، واستنزال نصره والاعتصام فى الصبر ، والاستعانة به على العدو حتى يخذلهم ويزلزل أقدامهم . ولا يوهم ضعفا ولا خلفا ولا خوفا . . إلى غير ذلك .

٣ — وإذا كتب فى التهانى بالفتوح ، فليس إلا بسط الكلام والإطناب فى شكر نعم الله والتبرى من الحول والقوة إلا به . ووصف ما أعطى من النصرة وذكر ما منح من الثبات ، وتعظيم ما يسر من الفتح . ثم وصف العزم والإقدام والجلد فى المناخة عن الملك . وإذا اتسع المجال لوصف الواقعة وما جرى فيها من مناجزات وما تم فيها من انتصارات كان ذلك أفضل ، لما يدخله من السرور على قلب المكتوب إليه ، ولما يشفى من غليل نفسه ...

٤ — وإن كان المكتوب إليه متهماً بممالأة العدو ، كتب إليه بما يدل على التقريع والتهكم ، وإبراز التهديد فى معرض الإخبار .

٥ — ومما يحسن بسط الكلام فيه ، ويكون الكاتب مطلق العنان مخلى بينه وبين فصاحته ، موكولا إلى اطلاعه وبلاغته ، ما يتضمن ذكر أوصاف الخيل والجوارح والسلاح وآلات الحرب ، وأنواع الرياضة من الصيد ورمى البندق والنشاب ولعب الكرة . ووصف الحصون والجيوش ...

٦ — ومما يحسن فيه بسط الكلام أيضاً : التقاليد والتواقيع والمناشير ، وما يتعلق بذلك . على أنه ينبغى للكاتب هنا أن يبسط أو يوجز حسب رتب المكتوب لهم وأهميتهم . وكذلك الحال فى الكتب الإخوانية .



وبعد ، فهذه بعض توجيهات الأديب الناقد ، شهاب الدين محمود الحلبى ، نضيفها إلى ما سبق من تعاليمه وآرائه الكتابية . ويبدو أنها جميعاً مشتقة من معين واحد ، وهى أن لكل مقام مقالا . وسنعود إلى ذكر هذه التوجيهات القيمة حينما نناقش آراء ابن خلدون .



وإلى هنا نكتفى بما رسمناه لاتجاهاته فى النقد وقواعد الأسلوب ، من خطوط رئيسية . ولنحث الخطو إلى الناقد النابغة ابن حجة الحموى .

الفصل الثاني

تقي الدين بن حجة الحموي[1]

٧٦٧ هـ — ٨٣٧ هـ

هو الكاتب القدير والناقد الخطير والشاعر الكبير ، منشئ الديوان الشريف ، أبو بكر علي بن حجة الحموي . ولد في حماة عام ٧٦٧ هـ — أو ٧٧٧ هـ — وطلب العلم في بلده ، وأكب على مطالعة الأدب ، وأولع بالنظم والنثر ، ومارسهما وبرز فيهما ، حتى عد فيهما من الأعلام . واعتبره شهاب الدين بن حجر العسقلاني — وهو من هو علما وبصرا بالأدب — أديب عصره .

وتتلمذ ابن حجة ، لكثير من فضلاء عصره ، ومنهم تقي الدين بن الخيثمي ، فقيه حماة وقاضيها . وعاصر طرفا من دولة المماليك البحرية ، وصدرا من الدولة الجركسية . وطوف في آفاق عدة ، بغية الأدب والعلم ، أو الرزق . فرحل إلى الموصل ودمشق والقاهرة . وعقدت المودة أواصرها بينه وبين كثيرين من أمراء عصره ورؤساء جيله وأدباء زمانه . ومنهم الأمير شيخ المحمودي — الذي صار سلطانا على مصر وعرف بالمؤيد شيخ — وذلك إبان إمارته على بلاد الشام . ومنهم ناصر الدين بن البارزي ، وهو أحد أبناء حماة ، وأحد أفذاذ المنشئين ، ورؤساء دواوين الإنشاء إذ ذاك .

ودار الزمان دورته ولعب مسرحيته . واعتلى الأمير شيخ كرسي السلطنة المصرية ، فاستقدم معه عددا من أصدقائه وخلصائه ببلاد الشام ، ليعاونوه على النهوض بأعباء ملكه الكبير . فكان من جملتهم ، هذان الرجلان الهمامان :

---

(١) ترجمة تقي الدين بن حجة ، في الضوء اللامع للسخاوي ج ١١ رقم ١٤٤ ... وشذرات الذهب ج ٧ ص ٢١٩ — ومواضع كثيرة من مؤلفاته .

ابن البارزى وابن حجة ، فوكل إلى الأول رياسة ديوان الإنشاء بالقاهرة وإلى الثانى أمر الكتابة فيه . وكانا من قبل هذا يعملان فى ديوان الإنشاء بدمشق .

أخذ ابن حجة يدبج الرسائل الديوانية غير وان ، بين الآن والآن ، عن نظم الشعر فى المدح ،وفى المديح النبوى ، والإخوانيات، والوصف،والألغاز ، والشوق والحنين إلى الديار — إلى حماة مسقط رأسه .

والحق أن ابن حجة كان حركة دائبة الإنتاج كثيرة الثمر . وكان مكبا على جمع الأدب وتدوينه ، فصدرت عنه مؤلفات عظيمة القيمة ، هى جعاب فياضة مليئة بلباب الأدب ومحاضرات الأدباء ، ولفتات النقد وخلجات التاريخ .

ولكتب ابن حجة خصوصيات تميزها وتسمو بها وترفع من شأنها . ومنها تدوينه فيها كثيراً من ثمرات قلمه ونفثات يراعه ، حتى أصبحت بحق ، دواوين لأدبه من شعر ونثر . ومنها تسجيله كثيراً من أخبار معاصريه وأنداده ومراسلاتهم الشعرية والنثرية . فكانت بذلك شاهداً قيما يعين على معرفة أدبهم وسبرغوره وحسن دراسته .

ومن مؤلفاته : خزانة الأدب[1] . وثمرات الأوراق . وتأهيل الغريب . وكشف اللثام عن وجه التورية والاستخدام . وقهوة الإنشاء وهى مجموعة مراسلاته . والثمرات الشهية فى الفواكه الحموية . . وهى مجموع أشعاره . وثبوت الحجة على الموصلى والحلى لابن حجة وهو بحث انتقادى . ومجرى السوابق وهو مقالات فى الخيل والسبق ، له ولابن نباتة وغيرهما . وتغريد الصادح . وبروق الغيث الذى انسجم فى شرح لامية العجم . — وقد جمع ابن حجة ديوان الشاعرين : برهان الدين القيراطى . وعبد العزيز الأنصارى .

ولا مجال لنا هنا للحديث عن هذه المؤلفات وإيفائها حقها من التعريف

(١) خزانة الأدب طبعت أكثر من مرة . والنسخة التى اعتمدنا عليها فى هذا الحديث ، هى الطبعة الأولى التى طبعت فى سنة ١٣٠٤ هـ بالمطبعة الخيرية المنشأة بحوش عطا بجمالية مصر . وتقع فى ٤٦٧ صفحة من القطع الكبير على ورق أصفر، وبهامشها رسائل بديع الزمان الهمذانى ، وشرح عائشة الباعونية على بديعيتها.

وبيان فضل مؤلفها ، وذلك لأننا إنما نعنى هنا بناحية خاصة من نواحى ابن حجة .
وهى نقده . ولعل فيما نسوقه من ذلك غنية عن هذه المؤلفات ، أو إشارة إليها .

ويبدو أن ابن حجة ، نبابه المقام فى مصر . بعد وفاة ملكها المؤيد شيخ ، ووقع بينه وبين بعض أدبائها ما يقع بين الأدباء . فعاد إلى حماة مسقط رأسه الحبيب الذى خلد ذكره فى أشعاره وأشواقه . وتوفى (١) ابن حجة عام ٨٣٧ ﻫ بها .

* * *

ونرى حقا علينا ،ونحن فى مقدمة الحديث عن ابن حجة الناقد ، أن ننصف هذا الرجل . فنقول : إن له «شخصية» بارزة تحسها نابضة قوية فى جميع مؤلفاته . تتجلى فى أسلوبه وغرابة أخيلته وتصوراته وفى تشبيهاته واستعاراته . وتتجلى لك فى ذوقه النقدى ، وآرائه فيما ينبغى أن يتبع فى الأساليب الكتابية وغيرها . وثباته على هذه الآراء وترديدها ، كلما سنحت فرصة . وتتجلى فى تطبيقه هذه الآراء فى أساليبه هو ، تطبيقا أدنى إلى الدقة منه إلى أى شىء آخر . وتتجلى لك فى تعصبه للطريقة الفاضلية والطريقة النباتية . وحرصه على هذا التعصب وتكرار إعلانه ، وبيان أسبابه . وتتجلى لك فى وثوقه بنفسه وأدبه ، وشيوع طربه وإعجابه بثمرات قلبه وبنات فكره . وتتجلى لك فى استقرار هذه الخصائص فى نفسه حتى نضحت على يراعته ، فشاعت فى مؤلفاته ، بل وبين سطورها ، معلنة بكاتبها . إلى غير ذلك من الألوان التى هى سمات للشخصية تحددها وتبرزها وتقرها .

ولعل أهم خصوصية من خصوصياته أنه ناقد . وحقا ، هو كاتب وشاعر ومؤلف ومؤرخ وأديب . ولكنه قبل ذلك كله ، وفوق ذلك كله ، ناقد ، ركب

(١) روى الصابونى فى كتابه « تاريخ حماة » أن ابن حجة دفن فى حماة فى تربة الجسر . وبنى على قبره قبة بقيت جدرانها إلى نهاية القرن الثالث عشر الهجرى . فأقام بعض الناس حجارة على لحده ، وحفر عليها أن هذا قبر الغزالى — صاحب الإحياء — والعامة تزوره الآن باسم الغزالى ويجهلون أنه قبر ابن حجة ، وأن الغزالى دفن فى طوس .

حب النقد فى فؤاده.وثبت جبلة بين جبلاته واستقر غريزة فى عداد غرائزه . ترسل نفثاتها بين سطور نظمه وتموجات قلبه ، كلما شام للنقد بارقة تستنديه ، وعارضة تستهديه . بل تلتمس هذه البوارق التماسا ، وتستأنس هذه العوارض استئناسا . وكثير مما يسوقه من الأمثلة والشواهد ، قديمها وحديثها ، منظومها ومنثورها ، لا يسلم من خفقات لسانه أو وجبات جنانه ، ولو بلفتة طائرة ونقدة عابرة ، يكشف بها عن سر التركيب . وكنه الترتيب . ويضبط الأسلوب متلبسا بجماله متسربلا بجلاله ...

فليس من المبالغة إذن ، ما قلناه من أنه ناقد ذو شخصية . ومثله يطمئن إليه القلب ، ويهتدى بهديه اللب . ويحتكم إليه فيرتجى العدل ، ويقبل حكمه على أنه القول الفصل .

ومثله يثير — بلا ريب — قلوب منافسيه من حوله ويحدث ضجة فى حياته أو يعقب رجة بعد وفاته . وهذا هو ما أثاره ابن حجة ، بنقده وأدبه .

وحقا : ترى أن ابن حجة ، تبرز روحه الناقدة ، وثابة متدفقة ، فى كتابه الكبير « خزانة الأدب » وهو كتاب خصص للنقد بنوعيه : الأدبى والبلاغى أو هو فى أصله ، للنقد البلاغى ، ولكن تجلت فيه نزعة النقد الأدبى تجليا قوياً فتضاءل أمام ضيائها وجه النقد البلاغى .

أما كتبه الأخرى ، كالثمرات والتأهيل ، فهى فى عامة أمرها ، محاضرات ونوادر أدبية ، أو رسائل نثرية ، أو مجموعات شعرية أو نحو ذلك . فهى أدنى إلى الدواوين منها إلى الكتب ذات النزعات الفكرية والغايات التعليمية ولكنها على الرغم من هذه الصفة البارزة فيها — تتمشى خلالها بين الآن والآن ، نزعة النقد الأصيلة المتغلغلة فى نفس مؤلفها ، أو جامعها ، تلك النزعة التى تتأبى على الخفاء ، وتختنق فيدفعها الإباء .

ومع هذا ، فسنتناول فى هذا المقام كتابه الأول « خزانة الأدب » ونحاول أن نصفه ، وأن نستخلص منه بعض آرائه الناقدة ، وقواعده الأسلوبية . وكلما

سنحت فرصة لعرض شيء من نقداته فى كتبه الأخرى ، أشرنا إليه ، دعماً لحديثنا ، وإقراراً لوجهة نظرنا فى هذا الناقد .

على أنه ينبغى لنا أن ننبه على أن هناك فارقاً بين النقد البلاغى والنقد الأدبى . فالنقد الأدبى هو أهم ما يعنينا من الناقد الآن ، إذ فيه تتجلى مناهجه وآراؤه ، ويبدو ذوقه . أما البلاغى فمجموعة من الآراء الذوقية الموروثة ، أصارها البلاغيون قواعد علمية كادت تدرس لذاتها . ولا يعنينا هذا النوع من النقد ، إلا بمقدار أثره فى النقد الأدبى ، ومبلغ اعتماد النقد الأدبى على قواعده .

وابن حجة ناقد ذو ذوق ، يعرض النص ويسلط عليه مجهر نقده وذوقه ويدلى برأيه فيه فى جرأة قد يعدها البعض مبالغة . وهو يتجه تارة إلى الاستحسان وآنا إلى الاستقباح ، وفى أكثر الأحايين يكشف عن أسباب استحسانه أو استقباحه . ولا يهمه فى ذلك ، ولا يضيره أن يخالف المتقدمين أو المعاصرين .

تتجلى لك هذه النزعة منه ، فى كثير من الألوان البلاغية ، عند حديثه عنها فهو يعرضها عليك ، ويسوق التعاريف عنها منقولة عن أساطين علماء البلاغة ويسوق لها الأمثلة التى أثرت عنهم ويعقب على ذلك ، أو يمزجه بالاعتراض عليه ، أو الرضا عنه — وهو لا يرضى فى هدوء ، ولا يغضب فى دعة . بل يثور إذا رضى ويثور إذا غضب معاً . يحفزه إلى ثورته ، امتلاء صدره بالأدب واستقرار النزعات النقدية فى ضميره ، مع قوتها ونصوعها . حتى إذا ما صادفت ما ترضى ثارت للامتزاج به ، وإذا صادفت ما تأبى ، ثارت للفرار عنه . . ويدعم ثورته هذه ، بشواهد جديدة ، يعزز بها نزعته ، ويقوى حجته . وكثيراً ما ينساق هو فى إيراد الشواهد إلى حد بعيد المدى . حتى يتخم القارىء ويملأ لجاج نفسه ، فيسلم له — غالبا — بما يذهب إليه .

وكتاب « خزانة الأدب » فيه نقد أدبى ، ونقد بلاغى ، كما نوهنا ، ولسنا هنا فى معرض الحديث عن النقد البلاغى بإيضاح وإسهاب ، وعرض مافيه من

نظريات فى البيان والمعانى والبديع ، إلا ما يبدو لناذا صبغة ذوقية ، لها سيادة بين نقاد العصر وأدبائه .

وبعد ، فنقد ابن حجة غير مقصور على النثر وحده ، أو الشعر وحده ، وإنما هو نقد عام ، يتناول الشعر والنثر معاً . بل ما استشهد به من الشعر ، وما نقده منه ، يربو على ما استشهد به من النثر ، وما نقده منه — لهذا لا نرى بدا من أن نسوق أحيانا شيئا من الشعر ، مما استشهد به ، اضطرارا منا إلى إبراز آرائه وأقوى العناصر وألمع المناهج فى نقده ، فليعذرنا القارئ .

خزانة الأدب وسبب تأليفه والتعريف به :

وبعد : فما كتاب « خزانة الأدب » ؟ ينبغى لنا قبل الحديث عنه ، أن نطوى بساط مائة عام تقريبا ، قبل وفاة ابن حجة الحموى . . إلى النصف الأول من القرن الثامن الهجرى ، وبعده بقليل ، لنشهد عصرا كان يعيش فيه : صفى الدين الحلى [١] « ٧٥٠ هـ » ، وابن جابر الأندلسى [٢] « ٧٨٠ هـ » ، وعز الدين الموصلى [٣] « ٧٨٩ هـ » .

فى هذا العصر انبثق فن شعرى جديد ، بزغ نجمه وتألق ضوؤه ، وهو فن « البديعيات » : وكان هؤلاء الشعراء زعماء حلبته ، وفرسان ميدانه — ثم قفى على آثارهم وسار فى غبارهم ، كثير من الشعراء ، ومنهم ابن حجة الحموى .

والقصيدة البديعية ، منظومة يتوخى فيها الناظم ، أن يضمن كل بيت من أبياتها لونا من ألوان البديع — أو أكثر — . وهذه هى السمة الأولى الأصيلة فى كل بديعية .

---

(١) صفى الدين الحلى هو عبد العزيز بن سرايا الطائى أحد نوابغ شعراء العصر وكتابه وشاعر الدولة الأرتقية ، مات سنة ٧٥٠ هـ « الدرر ج ٢ رقم ٢٤٣٠ » .

(٢) ابن جابر الأندلسى هو أبو عبد الله محمد بن أحمد بن على ، طاف فى بلاد المشرق . وكان كفيفاً ومات سنة ٧٨٠ هـ . . الدرر ج ٣ رقم ٩٠٠ .

(٣) عز الدين الموصلى هو على بن الحسين بن على من أهل الموصل ، سكن دمشق ومات بها سنة ٧٨٩ هـ . « الدرر ج ٣ رقم ٩٩ » .

وأول من نظم الشعر بهذا القيد ، هو « أمين الدين السليمانى[١] » أحد أدباء مصر ، وتوفى عام ٦٧٠ هـ . غير أن الناظر فى بديعيته التى تقع فى ٣٦ بيتا فى الغزل ، بحكم أن هذا الفن الشعرى الوليد ، كان فى بدئه لا يزال يحبو ، أو كان ذرة تتلمس لنفسها وجودا ، ولما يتفجر ما فى باطنها من حياة .

ثم انتقل ناظمو البديعيات بها إلى رعاية قيود أخرى . فمنهم من نظمها فى مدح الرسول عليه السلام . وعلى روى الميم المكسورة ، ومن وزن البسيط ، على نمط من بردة البوصيرى المشهورة متأثرين بها .

ومنهم من التزم التورية فى كل بيت باسم النوع البديعى الذى يتضمنه . ومنهم من نظمها فى غير مدح الرسول عليه السلام . وعلى روى غير روى الميم المكسورة ، كما أن منهم من لم يلتزم تسمية الأنواع البديعية .

ومهما يكن من شىء ، فبسط الحديث فى موضوع البديعيات ، ليس من نقاط حديثنا ، وإنما نمر به مروراً ، ونمسه مساً رفيقاً بمقدار ما يتطلبه التعريف بخزانة أدب « ابن حجة[٢] » .

ولهذا نشير إلى أن كثيراً من ناظمى البديعيات ، كصفى الدين الحلى ، وابن حجة ، والجلال السيوطى ، وضعوا شروحاً لبديعياتهم . كما عنى غيرهم من الأدباء بوضع شروح أخرى ، لنفس البديعيات . وخزانة الأدب هى شرح ابن حجة على بديعيته .

وشراح البديعيات غالباً لا يتحدثون فى شروحهم عن سيرة النبى عليه الصلاة والسلام ، وإنما يتحدثون عن الألوان البلاغية والبديعية التى تتضمنها أبياتهم مقدمة بتعريفها ، مزوده بشواهدها ، ولهذا كانت تلك الشروح كتبا فى البلاغة والبديع .

---

(١) أمين الدين السليمانى . توجد ترجمته فى فوات الوفيات جـ ٢ ص ٧٢ وبه بديعيته — واجع رسالة « الصبغ البديعى » لأحمد موسى الأستاذ بكلية اللغة العربية ، وبها بحث شامل لطيف عن البديعيات . تتبع حياتها من نشأتها إلى العصر الحاضر . مع إبراز تطوراتها وألوانها .

(٢) راجع كتاب « المدائح النبوية » للدكتور زكى مبارك ففيه بحث طريف عن البديعيات . وكذلك تاريخ آداب العربية لمحمد بك دياب .

ولم يتعرض فيها للحديث عن السيرة النبوية — فيما أعلم — إلا أبو جعفر الأندلسى فى شرح بديعية العميان ، وهى بديعية ابن جابر .

ومهما قيل فى هذه البديعيات ، من أنها متكلفة ، وأنها ساقطة النظم ، عسرة الأسلوب ، ركيكة التراكيب . فهى — على كل حال — فن شعرى جديد ، ولد وشب وترعرع فى العصر المملوكى ، وشغل أذهان أدباء العربية حقبة من الزمن طويلة ، وأثرى العلم والأدب من ورائه ثروة لا يستهان بها ، وبخاصة من شروح البديعيات .

* * *

ومن ناظمى (١) البديعيات — كما أشرنا — هؤلاء الشعراء الأمجاد : صفى الدين ، والموصلى ، وابن جابر .

نظم صفى الدين بديعيته فى مائة وخمسة وأربعين بيتاً ، والتزم أن تكون من بحر البسيط ، وعلى روى الميم المكسورة ، معارضاً فى ذلك بردة البوصيرى ، وهى مثلها فى مدح الرسول عليه السلام . وقد ضمن كل بيت فيها نوعا — أو أكثر — من أنواع البديع ، وبذلك احتوت على مائة وواحد وخمسين نوعا ، وسماها « الكافية (٢) البديعية فى المدائح النبوية » ، ومطلعها :

إن جئت سلعاً فسل عن جيرة العلم ... واقر السلام على عرب بذى سلم

ولم يلتزم فيها تسمية النوع البديعى . ثم وضع لها شرحاً (٣) سماه « النتائج الإلهية فى شرح الكافية البديعية » .

ونظم ابن جابر الأندلسى بديعيته ، وهى كذلك شبيهة بالبردة فى الوزن والروى والموضوع ، وهو المديح النبوى ، وضمن كل بيت فيها نوعا بديعياً ، دون أن يسميه كذلك ، ومطلعها :

---

(١) يقول صفى الدين الحلى فى مقدمة بديعيته : إنه مخترع هذا الفن الشعرى . ويذهب بعض الأدباء إلى ذلك . ويذهب بعضهم إلى أن مخترعه هو ابن جابر الأندلسى ، وبعضهم يرجع اختراعها إلى أمين الدين السليمانى راجع الصبغ البديعى ، والمدائح النبوية .

(٢) فى كتاب « تاريخ آداب العربية » لمحمد بك دياب ، أن اسمها « الكفاية البديعية » .

(٣) شرح الحلى موجز ، ومنه نسخة مخطوطة بدار الكتب المصرية رقم ٢٩ بلاغة — وطبع سنة ١٣١٦ بالمطبعة العلمية فى ٧٣ صفحة متوسطة .

بطيبة انزل ويمم سيد الأمم   وانثر له المدح وانشر طيب الكلم

وقد سميت «الحلة السيرا فى مدح خير الورى» . واشتهرت ببديعية العميان ، وتحتوى على ١٢٧ بيتاً . ووضع لها أبو جعفر[1] الأندلسى «صديق ابن جابر» شرحاً سماه «طراز الحلة وشفاء الغلة» .

ونظم عز الدين الموصلى بديعيته معارضة لبديعية الحلى ، وهى أيضاً على غرار البردة وزناً ورويا وموضوعاً . غير أنه التزم فيها تسمية النوع البديعى ، مورياً بكلمة عنه فى البيت الذى يتضمنه . ومطلع بديعيته :

براعة تستهل الدمع فى العلم   عبارة عن نداء المفرد العلم

وقد سماها «الفتح الآلى فى مطارحة الحلى» . وعدد أبياتها مائة وخمسة وأربعون بيتاً . ووضع عز الدين الموصلى لها شرحاً سماه «التوصل بالبديع إلى التوسل بالشفيع»[2] .

* * *

عاش ابن حجة بعد هؤلاء ، بنصف قرن ويزيد . فأعجب — ببديعية الحلى والموصلى ، وأخذته الحمية الشعرية ، والحماسة البديعية ، والإباء العلمى، وحفزه ذلك كله إلى أن ينظم على غرارهما ، بديعية تعارض بديعيتيهما ، وتفوقهما ، وأن يضع لها شرحاً يخمل شرحيهما .

وقد دفعه إلى ذلك ، أيضاً ، صديقه الحميم ، ورئيسه فى ديوان الإنشاء ، ناصر الدين محمد بن البارزى الحموى . فإنه اطلع — وهو بدمشق — على بديعية الموصلى التى نظمها معارضة لبديعية الحلى . فطلب إلى ابن حجة — وهو شاعر وقته وأديب عصره ، كما قال عنه ابن حجر — أن ينظم بديعية يعارضهما بها ويلتزم فيها تسمية النوع البديعى فى البيت الذى يتضمنه . وفى بيان ذلك يقول ابن حجة فى مقدمة شرح بديعيته المسمى «خزانة الأدب» :

---

(١) أبو جعفر الأندلسى صديق ابن جابر ، هو أحمد بن يوسف بن مالك الرعينى الغرناطى المتوفى فى سنة ٧٧٩ هـ . توجد ترجمته فى بغية الوعاة للسيوطى . ومن شرحه لبديعية ابن جابر ، نسخة مخطوطة بدار الكتب المصرية . بلاغة ٢٥٧ .

(٢) توجد نسخة مخطوطة من شرح الموصلى لبديعية ابن جابر بدار الكتب المصرية بلاغة رقم ٦٠٧ .

« هذه البديعية التى نسجتها بمدحه صلى الله عليه وسلم ، على منوال طراز البردة . كان مولانا المقر الأشرف العالى المولوى القاضوى المخدومى الناصرى سيدى محمد بن البارزى الجهنى الشافعى ، صاحب ديوان الإنشاء الشريف بالممالك الإسلامية ، جمل الله الوجود بوجوده ، هو الذى ثقف لى هذه الصعدة ، وحلب لى ضرعها الحافل ، لحصول هذه الزبدة . وما ذاك إلا أنه وقف بدمشق المحروسة على قصيدة بديعية للشيخ عز الدين الموصلى — رحمه الله تعالى — التزم فيها بتسمية النوع البديعى . وورى بها من جنس الغزل . ليتميز بذلك على الشيخ صفى الدين الحلى — تغمده الله تعالى برحمته — لأنه ما التزم فى بديعيته بحمل هذا العبء الثقيل . غير أن الشيخ عز الدين ما أعرب عن بناء بيوت أذن الله أن ترفع . ولا طالت يده لإبهام العقادة ، إلى شىء من إشارات ابن أبى الأصبع . وربما رضى فى الغالب بتسمية النوع ، ولم يعرب عن المسمى . ونثر شمل الألفاظ والمعانى لشدة ما عقده نظما .

فيادارها بالخيف إن مزارها قريب ولكن دون ذلك أهوال

فاستخار الله مولانا الناصرى المشار إليه ، ورسم لى بنظم قصيدة أطرز حلتها ببديع هذا الالتزام ، وأجارى الحلى برقة السحر الحلال ، الذى ينفث فى عقد الأقلام » .

ويتبين من كلام ابن حجة شيئان :

الأول : أنه معجب — ولو إلى حد — ببديعية صفى الدين . غير أن النقص الذى تعانيه ، خلوها من تسمية الأنواع . وقد عبر ابن حجة عن هذه التسمية « بالعبء الثقيل » وهو فى ذلك صادق . !

الثانى : أنه لم يطرب ببديعية الموصلى ، ويبدو أن التزام تسمية النوع ، قد آده ، وكان عقبة دون الإجادة . وهو إلى ذلك ، اكتفى فى بعض أبياته بذكر اسم النوع البديعى ، دون أن يتضمن البيت ، مثلا لهذا النوع . وذلك ضرب من ضروب النقص ، تعانيه بديعية الموصلى أيضاً .

وقد أراد ابن حجة ، أو أراد له صديقه ، أن ينظم بديعيته بعيدة عن هذه العيوب . . . فتكون أبياتها كالسحر الحلال بجاراة للحلى ، ويتضمن كل بيت منها نوعاً بديعياً مع التورية باسمه .

شمر ابن حجة عن ساعد الجد ، وأخذ ينظم قصيدته بيتاً بيتاً . وكلما صاغ واحداً منها ، ذهب به إلى ابن البارزى يعرضه عليه ، فينقده له ويبين ما فيه من ضعف ، ويوازن بينه وبين نظيره من أبيات الحلى . فيعود ابن حجة إلى بيته يصلحه ويهذبه ، ثم يرجع إلى صديقه ، وهكذا حتى يجيزه ، فينتقل إلى بيت سواه ... وفى هذا المعنى يقول ابن حجة :

« فصرت أشيد البيت ، فيرسم لى بهدمه . وخراب البيوت فى هذا البناء صعب على الناس . ويقول : بيت الصفى أصفى مورداً وأنور اقتباس[1] . فأسن كل ماحده الفكر وأراجعه ببيت له على المناظرة طاقة . فيحكم لى بالسبق وينقلنى إلى غيره ، وقد صار لى فكرة إلى الغايات سباقة . فجاءت بديعية هدمت بها ما نحته الموصلى فى بيوته من الجبال . وجاريت الصفى مقيداً بتسمية النوع وهو من ذلك محلول العقال . » .

* * *

وهذا المجهود الضخم الذى تحمله ابن حجة فى سبيل نظم بديعيته ، يدلنا على مدى ما وصلت إليه هذه الصناعة — صناعة البديعيات — من إجهاد مزاوليها . وأنها — والحق يقال — شىء آخر غير الشعر . ويدلنا أيضاً على اتجاه من اتجاهات النقاد .

وقد سمى ابن حجة بديعيته « تقديم أبى بكر » وجملة أبياتها مائة واثنان وأربعون بيتاً . وتضمنت من أنواع البديع نحو مائة وأربعين نوعاً .

ثم وضع ابن حجة لبديعيته تلك ، شرحاً قيما ، سُمى « خزانة الأدب وغاية الأرب » ...

---

(١) هكذا فى الأصل ، لضرورة السجع .

وابن حجة معجب كل الإعجاب ببديعيته . وله العذر فى ذلك ، فهى وليدته . وبنت فكره وفتاته . أنفق عليها من نفسه وهذبها ... وكل أب بفتاته معجب .

وقد بدأ إعجابه هذا فى مواضع عدة خلال شرحه ، ومنه قوله فى باب « براعة الاستهلال[1] » .

« وأما براعة بديعيتى ، فإنها ببركة ممدوحها صلى الله عليه وسلم ، نور هذه المطالع . وقبلة هذا الكلام الجامع . فإنى جمعت فيها بين براعة الاستهلال وحسن الابتداء . بالشرط المقرر لكل منهما . وأبرزت تسمية نوعها البديعى فى أحسن قوالب التورية . وشنفت بأقراط غزلها الأسماع . مع حشمة الألفاظ وعذوبتها ، وعدم تجافى جنوبها عن مضاجع الرقة .

وبديعية صفى الدين ، غزلها لا ينكر . غير أنه لم يلتزم فيها تسمية النوع البديعى ، مورى به من جنس الغزل . ولو التزمه لتجافت عليه تلك الرقة . وأما الشيخ عز الدين الموصلى ، فإنه لما التزم ذلك . نحت من الجبال بيوتاً . وقد أشرت إلى ذلك فى الخطبة ، بقولى : وهى البديعية التى هدمت بها ما نحته الموصلى فى بيوته من الجبال . وجاريت الصفى مقيداً بتسمية النوع ، وهو من ذلك محلول العقال . وسميتها « تقديم أبى بكر » عالماً أنه لا يسمع من الحلى والموصلى فى هذا التقديم مقال . » .

وأنت تراه يشيد بمنظومته ، ويعلى من قدرها ، فوق منظومتى الحلى والموصلى ، ويتلمس لهما العيوب حتى تخليا الطريق أمام منظومته .

ومن عجيب نقده ، قوله فى العبارة السابقة ، عن الصفى الحلى — بعد أن اعترف برقة غزله — : « لو التزم الحلى تسمية النوع البديعى » لتجافت عليه هذه الرقة ... » وهذا نقد من ابن حجة غريب فى بابه . إنه يستعين بالرجم بالغيب ، على دعم رأيه . . ولكنها عاقبة الخيلاء ! !

وإذا كان قد أعجب ببديعيته ، فإن شرحها وهو « الخزانة » ، أحق بإعجابه وأولى . فهى أوسع شروح البديعيات على الإطلاق — فيما نعلم — وكان من

---

(١) الخزانة ص ١٣ .

المستطاع أن تكون كتابا فى علوم البلاغة ، ويعرف فيه أنواعها . ويحدد كل نوع ، ويستعين بالتقسيم وتمييز كل قسم ، إلى غير ذلك . ويضع كلامه فى عبارة علمية منطقية جافة محدودة الألفاظ مجدبة من خصوبة الأدب . وربما اكتنفتها الغموضة ، وآدها الإبهام . ثم يستشهد على النوع بمثل أو أكثر من الأمثلة التقليدية ، فى غير إطالة ولا شرح ولا استطراد ولا موازنة ، ولا تذوق ، على نمط من السكاكى والقزوينى . — لو فعل ابن حجة ذلك ، اضربنا الذكر صفحا عنه وعن كتابه هذا ، ولوجدنا فى غيره غنية أى غنية ، ولا كانت « خزانته » طبعة جديدة من كتب البلاغة التى تقدمتها ، ولما راعنا منها ماراعنا .

ولكن ، من حسن الحظ أن أراد ابن حجة فيما نعتقد ، أن يعيد للنقد نضارته ، ويرد على البلاغة رواءها ، وأن يجرى فى أعوادها ماء الأدب ، بعد ذلك الجدب والجفاف الذى ابتليت به ، وأن يعيدها مرة أخرى إلى مثل زمان عبد القاهر الجرجانى وغيره ، ممن يفهمون البلاغة فهما أدبياً عماده الذوق ؛ لا فهما ذهنياً عماده المنطق .

فمن حسن الحظ إذن ، أن ابن حجة ندّ عن منهج السكاكى فى طريقة تأليفه ، وإن اصطنعه . وشذ عنه وإن اتبعه ... ذلك أنه كما أخذ بديعيته وسيلة إلى الشرح — لأن الشرح أهم منها — اتخذ المنهج العلمى المأثور ، مطية يعتمد عليها فى الوصول إلى غاياته ، وبلوغ مآربه . وماأجدره أن يكون سباق غايات، وبلاغ مآرب ... اتخذه أداة لإبراز لفتاته وثقبات ناظره ، وإظهار نقداته وسنحات خاطره . ووسيلة لإظهار مافى صدره وعرض مذخور محفوظه ونفيس آدابه ، بين موازنات طلية ومفاضلات ممتعة . غير مقتصر على أديب دون أديب ، ولاعلى عصر دون عصر . لهذا ترى نفسك ، وأنت تقرأ سفره القيم ، جواب أودية وشهاد أندية ، طابت مجانيها وزهت معانيها ، تدنو قطوفها وإن اختلفت ثمراتها .

وهو لاينى يتبع المثال بنقدة لطيفة أو تعليقة طريفة ، أو توجيه رائع

أو رَدٍّ قاطع . بما يشعرك أنك إزاء أديب ذواقة نقادة ، لاعالم مشغوف بالتقليد والإعادة . على أنه — إلى هذا — ملأ كتابه بأخبار النقد والناقدين القدماء ، ناقلا عنهم أطايب نقداتهم ، وأمثل شواهدهم وأجود أجوبتهم ونوادرهم .

وما عليك إلا أن تجمع تعريفاته البلاغية . ومعها المثل أو المثلان ، ثم تنحيهما جانبا عن بقية الخزانة ، لتبدو لك بقيتها مسرحا وضيئا متألقا ، مليئا بجولات الأديب الذى فاضت صوره بالأدب اللباب . وسنح خاطره بالنقدات العذاب . وفيها ما فيها من حسن اختيار ، وسهولة عرض ، ودقة تتابع ، وجمع للمتفرق المتقارب .

ولم يبالغ صاحب « كشف الظنون » حين أثبت فى كتابه . شهادة طلية ، شهدها ابن حجر العسقلانى يصف بها ابن حجة وخزانته ، إذ قال :(١)

« شرحها شرحا مفيداً . وهو مجموع أدب قل أن يوجد فى غيره . ولعل مقتنيه يستغنى عن غيره من الكتب الأدبية . ولو لم يكن فيه إلا جودة الشواهد لكل نوع من الأنواع ، مع ما امتاز به من الاستكثار من إيراد نوادر العصريين فإن مصطنعه مرتفع عن كلفة العارية . وهذا وحده مقصود لكل حاذق » .

ومن الحق علينا له ، أن نسجل عنايته البالغة بأدباء زمانه . وإذا أردت الدقة ، فبطبقات الأدباء من لدن عصر القاضى الفاضل إلى عصره . أو على الجملة بأدباء العصرين الأيوبى والمملوكى إلى عهده . ولعل منشأ ذلك ولوعه بطريقة القاضى الفاضل وابن سناء الملك ، وابن نباتة المصرى ، وبرهان الدين القيراطى — وهم أئمة الأدب كتابة وشعرا من قبله . فمن حق التابعين لهم ، المعتنقين لمذاهبهم — ومنهم ابن حجة — أن يكون لهم نصيب من خزانة أدبه كبير ، وقسط وفير . وقد خص الشعراء منهم والشعر ، بأوفى حظ وأرحب نصيب . لذلك كانت خزانته مجلى للخفى الطلى من أشعارهم ، ومجلا للضال المنسى من أخبارهم . فضلا عن المغمورين منهم والمنكورين الذين أضفى عليهم وجودا وشهرة .

---

(١) كشف الظنون ج ١ ص ١٩٠ .

على أنه لم يحرم من ضل من الأدباء عن مذاهب هؤلاء الأئمة ، وسلك سبيلا أخرى ، كصلاح الدين الصفدى الذى جن بالجناس جنونا ، واتبع فيه طريقا لم ترق لكثيرين ، ومنهم ابن حجة . لهذا كان هدفا طيبا لحملاته ، ومطاً متعرضاً لخفقاته . وردد ذكره فى الخزانة مرات عدة .

ولا نذهب بعيدا إذا قلنا إن ابن حجة الحموى ، بخزانته هذه ، يعد خاتمة الأدباء الذين انتهى إليهم فن الأدب والنقد إلى عصر النهضة الأدبية الحديثة .

ولقد بان لنا فى سياق ما سبق ، شىء من منهج ابن حجة فى شرحه . وبعض من طريقته التى سلكها فى خزانته . وهى تتلخص فى أنه يعرض أبيات بديعيته تباعا ، وكلما عرض بيتا منها ، نبه على النوع البديعى الذى يتضمنه ، وأورد تعريفا له فيه كثير من الوضوح ، غير مقيد دائماً فى أدائه بعبارات أهل البلاغة . وإذا كانت مذاهب البلاغيين مختلفة فى هذا النوع الذى هو بصدده ، وضح هذا الاختلاف وأدلى برأيه فيه بين الآراء وهنا ينبغى أن نشير إلى أن ابن حجة واضح النقل والتأثر بمن تقدمه من البلاغيين ، ومنهم : ابن المعتز ، وقدامة بن جعفر ، والجرجانى ، والرمانى ، وابن رشيق القيروانى ، وزكى الدين ابن أبى الأصبع ، وغيرهم .

وهو يورد أمثلة للنوع البديعى ، كثيرة العدد ، لشعراء ومنشئين مختلفين ، ومن بينها أمثلة من شعره ونثره . ويمهد لكل مثل ، أو يعقب عليه — غالبا — بكلمة يتضح فيها رأيه فيه ، مبينا وجوه حسنه أو قبحه . هذه هى الطريقة المثلى لشحذ الذوق وتربية الملكة فى الناشئة . — حتى إذا أشبع ذهن القارئ ونفسه عاد إلى بيته فى بديعيته ، وبين هذا النوع البديعى فيه ، مبرزا مزاياه ، وقدرته هو فى نظمه وحسن سبكه . ويمنح نفسه — عادة — شيئاً من الثناء والتقريظ . عارضاً فى خلال هذه الموجة التى يزحم بها القارئ ، البيتين المقابلين لبيته من بديعيتى الحلى والموصلى ، — وربما من بديعية ابن جابر — مبيناً اتضاعهما عن بلوغ منزلة بيته . وقصورهما عن التطلع إلى قصوره !.

ومن المناسب هنا أن نذكر أن ابن حجة أسهب فى الحديث عن بعض

الأنواع ، وأجاد فى عرضها وسوق أمثلتها المختارة ، أكثر من سواها . ومنها على سبيل المثال — براعة الاستهلال ، والتورية والجناس ، والسجع ، والطباق والإبداع ، التضمين ، — ومن الأنواع التى أوجز الحديث عنها : ذكر الإرداف ، والتسهيم والتطريز والتنكيت .

وقبل أن نعرض عليك شيئاً من آراء ابن حجة ، وأمثلة من نقده ، وجانباً من جوانب مذهبه فى أسلوب الشعر والنثر ، نشير إلى أن علوم البلاغة فى منشئها ، كانت ممتزجة بعضها ببعض إلى حد بعيد . بل كانت ممتزجة بغيرها من العلوم . ولما تتضح معالمها وتبرز أوضاحها . كانت وليدة تحبو فى مهدها ، وطفلة تدرج نحو رشدها . وفطن ابن المعتز وقدامة بن جعفر إلى ألوان من البديع ، لم تفترق عن أى لون من ألوان البلاغة ، فى أنها كانت أدوات لإبراز المعانى وتوضيحها وتقويتها ، وإبلاغها حد التأثير . وظلت ألوان البلاغة على هذا الحال — فى جملتها — من الامتزاج وعدم التفرقة حتى جاء السكاكى وألف كتابه « مفتاح العلوم » ، وقصر فيه البلاغة على علمى المعانى والبيان ، واعتبر البديع مكملا لهما يعينهما على تحسين الكلام . وبذلك بدأ البديع يستقل عن زميليه ... وأخذ — فى عرف علماء البلاغة لا الأدباء — يعتبر شيئاً آخر غيرهما . وقفى الخطيب القزوينى على أثره . فأتم فصل البديع عن زميليه ، وجعله ذيلا لهما ، وعرفه فى كتابيه « التلخيص والإيضاح » بأنه « علم يعرف به وجوه تحسين الكلام بعد رعاية المطابقة ووضوح الدلالة » .

والملاحظ أن أغلب أصحاب البديعيات وشراحها ، قد ردوا للبديع اعتباره؛ بل أطغوه على زميليه علمى المعانى والبيان ، حتى انطويا تحت لوائه ، وأصبح مرادفا للبلاغة فى نظرهم . وكأنما هذا رد فعل فى نفوسهم لما أصاب البديع على يد علماء البلاغة من تهوين . إذ البديع — كما يرونه — مزاج أدبهم وقوام فنهم ، وروح شعرهم ونثرهم . حتى دفعهم حبه وحب الافتنان فيه إلى اختراع البديعيات التى هى بين الشعر بمنزلة المقامات بين النثر . فلا عجب أن لفوا ألوان البلاغة كلها فى طيلسان البديع .

ويقول صفى الدين الحلى فى مقدمة بديعيته ما مؤداه :

« إن موجب نظمها أنه أراد أن يؤلف كتابا يحيط بجل أنواع البديع ، فعرت له علة طالت مدتها واشتدت شدتها ، فاتفق أنه رأى فى منامه رسالة من النبى صلى الله عليه وسلم ، يتقاضاه المدح ويعده البرء من سقمه . فعدل عن تأليف ذلك الكتاب ، إلى نظم قصيدة تجمع أشتات البديع وتتطرز بمدح بمجده الرفيع ، فنظم قصيدة عدتها مائة وخمسة وأربعون بيتا فى بحر البسيط ، تشتمل على مائة وواحد وخمسين نوعا من محاسن البديع . . . الخ » .

فأنت تراه يعتبر جميع الأنواع البلاغية التى وردت فى بديعيته ، من أنواع البديع ، ولا ريب أن فيها ألوانا من المعانى والبيان .

وعلى هذا الغرار كان ابن حجة فى بديعيته وشرحها . فهو ممن ردوا على البديع اعتباره ، وأجروا فى أعواده مياه حياة جديدة حافلة . ولا سيما بهذا الشرح الكبير ، والخزانة الواسعة المليئة .

ويبدو أن الحلى وابن حجة ، ومن يذهب مذهبهما فى ذلك ، فهموا البلاغة فهما مرادفا لما فهموه فى البديع . إذ هما وسيلة من وسائل إظار المعانى وأدائها فى صورة واضحة دالة رائعة مناسبة للمقام .

ولا يطعن فى هذا ما بدا من ابن حجة ومن غيره من أصحاب البديعيات ، من تكلف شديد فى نظمها ، ومن تحيل شاق فى سوق البديع وألوانه فى بيوتها . فإننا — فى هذا المقام — ننصرف عن البديعيات إلى شروحها .

ولا ينقض هذا أيضاً ما ذكره ابن حجة فى تعريف البلاغة[1] حيث قال :

« إن المراد من علم الإنشاء ، البلاغة فى المقاصد . والبلاغة هى أن يبلغ المتكلم بعبارته كنه مراده مع إيجاز بلا إخلال ، وإطالة من غير إملال » .

ولا ينقضه أيضاً ماقاله عن البديع[2] فىسياق حديثه عن وجاهة الاستشهاد بكلام المولدين ، حيث قال :

---

(١) الخزانة ص ٤٣٤ فى سياق باب السجع .

(٢) الخزانة ص ٥ باب براعة الاستهلال .

« إن لكل زمان بديعاً تمتع بلذة الجديد . وهنا بحث لطيف . وهو أن الاستشهاد بكلام المولدين وغيرهم من المتأخرين ، ليس فيه نقض . لأن البديع أحد علوم الأدب الستة . وذلك أنك إذا نظرت فى الكلام العربى ، إما أن تبحث عن المعنى الذى وضع له اللفظ ، وهو علم اللغة . وإما أن تبحث عن ذات اللفظ بحسب ما يعتريه ، وهو علم التصريف . وإما أن تبحث عن المعنى الذى يفهم من الكلام المركب بحسب اختلاف أواخر الكلم ، وهو علم العربية . وإما أن تبحث عن مطابقة الكلام لمقتضى الحال بحسب الوضع اللغوى ، وهو علم المعانى . وإما أن تبحث عن طرق دلالة الكلام ، إيضاحا وخفاء بحسب الدلالة العقلية ، وهو علم البيان . وإما أن تبحث عن وجوه تحسين الكلام ، وهو علم البديع .

فالعلوم الثلاثة الأول ، يستشهد عليها بكلام العرب نظما ونثرا . لأن المعتبر فيها ضبط ألفاظهم . والعلوم الثلاثة الأخيرة ، يستشهد عليها بكلام العرب وغيرهم ، لأنها راجعة إلى المعانى ، ولا فرق فى ذلك بين العرب وغيرهم . إذا كان الرجوع إلى العقل » .

فأنت تراه فى عبارته السابقة — وقد انساق مساق العلماء فى التقسيم والمفاضلة ، والتعريف ، والحد — قد رضخ للكثير المتواضع عليه بين متأخرى البلاغيين . ففرق بين البديع وزميليه . وبين أن لكل منها وجهة هو موليها . ولكنك إذا طالعت خزانته وانساب ذهنك وذوقك مع انسياب سطورها ، تبدى لك صدق ما قلناه ، من أن ابن حجة — على غرار أهل البديعيات — يخضع جنود البلاغة تحت راية البديع ، ويحشدها حشداً فى رحابه . وعلى الأقل يعتبر ألوان البديع ، ألواناً بلاغية تساق كما يساق غيرها لرعاية المطابقة ووضوح الدلالة ، لا بعدهما . أو ليس مما يؤيد ذلك تمام التأييد قوله عن الاستعارة .

« ليس فى أنواع البديع أعجب منها إذا وقعت فى مواقعها »[٣]

---

(٣) الخزانة ص ٤٧ باب الاستعارة .

وبعد ، فخزانة الأدب معرض رائع صريح لابن حجة الناقد . تحدث فيها عن نحو مائة وخمسين لوناً بلاغياً أوبديعياً ، حديث الأديب الذواقة ، لا العالم المحدود . وتكأته فى ذلك ، أبيات بديعيته . وهدف موازنته أبيات بديعتى الحلى والموصلى ، وأحيانا بديعية ابن جابر .

وقد أشرنا إلى منهجه فى العرض ، فهو يعرف اللون البلاغى مبيناً الآراء المختلفة فيه ، مصرحاً برأيه الشخصى داعماً بالأمثلة والشواهد ، معقباً أو محللا أو معللا فى كثير من الأحيان .

وإليك سطوراً مما استهل به كلامه عن « الاستعارة » على سبيل المثال ، قال : « الاستعارة عندهم أفضل من المجاز . وهى أخص منه . إذ قصد المبالغة شرط فى الاستعارة دون المجاز ، وموقعها فى الأذواق السليمة أبلغ . وليس فى أنواع البديع أعجب منها إذا وقعت مواقعها .

وللناس فيها اختلاف كثير . وأما أصحاب المعانى والبيان ، فإنهم أطلقوا فيها أعنة أقلامهم . وجالوا بها فى ميادين البحوث . وليس الغرض هنا إلا نفس لاستطراد إلى ما وقع منها من المحاسن نظما ونثراً ، بعد تقريبها إلى الأذهان بحدود يزول بها الالتباس .

حد « الرمانى » الاستعارة فقال : « هى تعليق العبارة على غير ما وضعت له فى أصل اللغة على سبيل النقل » .

وذكر الخفاجى كلام الرمانى ، وقال : « تفسير هذه الجملة ، قوله عز وجل : واشتعل الرأس شيبا » استعارة لأن الاشتعال للنار ، ولم يوضع فى أصل اللغة للشيب . فلما نقل إليه بأن المعنى لما اكتسبه من التشبيه . لأن الشيب لما كان يأخذ من الرأس شيئا فشيئا حتى يحيله إلى غير لونه الأول ، كان بمنزلة النار التى تسرى فى الخشب حتى تحيله إلى غير حاله المتقدمة . فهذا هو نقل العبارة عن الحقيقة فى الوضع ، للبيان » .

واستطرد ابن حجة فى عبارته حتى قال :

« وقال ابن أبى الإصبع فى « تحرير التحبير » هى نقل اسم الراجح إلى

المرجوح بطلب المبالغة فى التشبيه وحسن البيان . فإنك إذا قلت : « زيد أسد » فقد نقلت اسم الأسد لزيد . لكن الأسد راجح فى الجراءة ، وزيد مرجوح . وقد بالغت فى تشبيه زيد بالأسد وأحسنت البيان » .

ثم عقب ابن حجة على ذلك بقوله :

« ولا تحسن الاستعارة إلا إذا كان التشبيه مقررا . وكلما زاد التشبيه خفاء ، زادت الاستعارة حسنا . وما أحسن قول ذى الرمة هنا :

أقامت بها حتى ذوى العود فى الثرى وكف الثريا فى ملاءته الفجر

فاستعار للفجر ملاءته . وأخرج لفظه مخرج التشبيه . وكان أبو عمرو بن العلاء لا يرى أن لأحد مثل هذه الاستعارة . فإن ظهور الأنوار من المشرق من أشعة الشمس قليلا قليلا ، بينه وبين إخراج النفس مشابهة شديدة القرب . ومن هذا النور استضاء الحريرى فى مقاماته بقوله : «إلى أن عطس أنف الصباح» .

وقد تقدم أن بعد الاستعارة يبعد من القلوب ، عند أهل الذوق . كقول أبى نواس — مع يقظته .

بح صوت المال مما منك يشكو ويصيح

فأى شىء أبعد استعارة من صوت المال؟ وكيف يصيح ويبح من الشكوى؟

ومثله قول بشار .

وحدت رقاب الوصل أسياف هجرنا وقدت لرجل البين نعلين من خدى

* * *

ونلاحظ أن ابن حجة اكتفى فى الاستعارة ، بالحديث العام عنها ، دون العناية بالدخول فى تفصيلاتها وبيان أقسامها ، وميزات كل قسم ، إلى غير ذلك . غير أنه أجاد فى عرض النماذج وفى التعليق عليها ، مع حسن اختيارها .

* * *

وبعد ، فالخزانة معرض حافل — كما أشرنا — ولن نستطيع فى مقام كمقامنا هذا ، أن نستعرضه كله لسعة مداه وبعد أفقه . وسنكتفى بطوفة يسيرة ،

تناسب هذا البحث،واقفين عند آراء ابن حجة فى أهم مظاهر الأسلوب وصفاته . وحسبنا أن نستطيع استخلاص جملة منها ، تكوّن مذهبه فى النقد ومنهجه فى الإنشاء . ولم نعن عناية كبيرة بما يختص منها بالشعر ، لضعف صلته بالنثر . ولهذا نلم به إلماما .

بعض آراء ابن حجة :

ينبغى لنا أن نستهل حديثنا هنا ، بالتنبيه على أن أول ما يتبادر إلى الذهن عند قراءة خزانة الأدب وغيرها من مؤلفات ابن حجة ومنشآته ، أن البديع وألوانه ، فى جملتها قد استهوت لبه ، وفتنت قلبه ، وملكت عليه عنان قلبه ، وزمام لسانه ، وأصبحت مزاج ذوقه وقوام ملكته . وذلك بتأثير النشأة والبيئة والثقافة الموروثة . والاتجاه الأدبى العام الموجه استطرادا بفعل الاتجاهات الأدبية التى سبقته فى أجيال متقدمة ، عاش فيها آباء البديع وحاضنوه وقوّمته وعشاقه ، الذين جهدوا فى مده بأسباب الحياة علما وعملا .

على أن جميع ما كان يحيط بعصر ابن حجة ، كان يدعو صارخا إلى رعاية الزخرف فى القول ، والبهرج فى اللفظ ، وإلى إرسال العبارات محلاة مزدانة لتجانس الأساليب بزخارفها وبهارجها ، مع زخارف بيئتها وبهارج عصرها .

وكانت الثقافة دينية فى جملتها ، فلم يعجز أدباء البديع عن أن يجدوا نماذج لاحد لها فى القرآن الكريم وآياته المتعددة النظم ، يدعمون بها ألوانهم ويجلونها . بل نعتقد أن هذا النظم المتعدد المسالك كان فى مقدمة ضروب الوحى التى وجهت الأدباء والنقاد إلى هذه النزعات البديعية . على أن هذا التوجيه القرآنى ، ليس وليد العصر المملوكى ، وإنما ولد قبله بزمن طويل .

لهذا نرى أن النهج الغالب على ابن حجة هو النهج البديعى فى جملته ، بل هو متعصب له ، داع إليه ، ممجد لزعمائه السابقين ناشر لآياتهم ، مقرظ لنفثات أقلامهم . وأخصهم لدى ابن حجة : القاضى الفاضل وجمال الدين بن نباتة المصرى ، ومن لف لفهما من أدباء البديع . وذلك لتوافق منهجه مع منهجهما فى الشعر والنثر . وكثيراً ما كال لهما المديح كيلا ، ونعتهما بأحسن ما يستحقان من الأوصاف .

ومما قال عن القاضى الفاضل : « قاضى هذه الصناعة وفاضلها . والمتأخر الذى لم يتقدم عليه بغير الزمان أوائلها[1] » .

ومما قال عن جمال الدين بن نباتة ، وقد نوه بقصيدته البارعة التى يهنئ بها الأفضل سلطان حماة بسلطنته ويعزيه أيضاً فى موت أبيه ، والتى مطلعها :

هناء محا ذاك العزاء المقدما فما عبس المحزون حتى تبسما

قال : إنها من عجائب الدهر ، فإنه جمع فيها بين نقيضين : المدح والرثاء ، فى كل بيت . . »

ثم قال : « سبحان المانح . والله من لا يتعلم الأدب من هنا ؛ فهو من المحجوبين عن إدراكه »

وأمثال هذه الأقوال فى خزانته كثيرة .

نرى من هذا وذاك أن نزعة البديع هى الصبغة الغالبة التى لونت منهج ابن حجة . ونحاول فيما يلى بيان شئ من تفصيلاتها وخصوصياتها فنقول :

رأيه فى براعة الاستهلال :

يرى ابن حجة — كما يرى المتقدمون من أهل البديع — أن الكلام ينبغى أن يكون مطلعه واضح المعانى رقيق الألفاظ ، سهلا بعيداً عن الخشونة والغموض مستقلا فى معناه عما بعده . وهذا هو ما يسمى براعة الاستهلال ؛ أو حسن الابتداء .

ويفرق بعضهم بين براعة الاستهلال وحسن الابتداء ؛ فيعتبرها فرعا منه ويشترط فيها — أى فى براعة الاستهلال — أن تتضمن « إشارة » تدل على موضوع الكلام ومضمونه .

ويكون حسن الابتداء ، أو براعة الاستهلال ، فى الشعر والنثر على السواء . وينبغى للمتكلم أن يراعى حينئذ المقام الذى يلقى كلامه فيه . وما فى هذا المقام من مناسبات وملابسات ، حتى لا تند عباراته عن مقتضياتها .

(١) الخزانة : باب براعة الاستهلال . ص ٥

وإذ كان الكلام شعراً ، ينبغى ألا يتفاوت قسما مطلعه فيما يتضمنانه من المعانى وفى ذلك يقول ابن حجة :

« اعلم أنه اتفق علماء البديع ، على أن براعة المطلع عبارة عن طلوع أهلة المعانى واضحة فى استهلالها ، وأن لا يتجافى بجنوب الألفاظ عن مضاجع الرقة ، وأن يكون التشبيب بنسيبها مرقصا عند السماع ، وطرق السهولة متكفلة لها بالسلامة من تجشم الحزن ، ومطلعها مع اجتناب الحشو ليس له تعلق بما بعده .

وشرطوا أن يجتهد الناظم فى تناسب قسميه ، بحيث لا يكون شطره الأول أجنبيا من شطره الثانى .

وقد سمى ابن المعتز براعة الاستهلال ، حسن الابتداء . وفى هذه التسمية تنبيه على تحسين المطالع . وإن أخل الناظم بهذه الشروط لم يأت بشىء من حسن الابتداء — وأورد فى هذا الباب قول النابغة :

كلينى لهم يا أميمة ناصب ... وليل أقاسيه بطىء الكواكب

قال زكى الدين بن أبى الأصبع : لعمرى لقد أحسن ابن المعتز الاختيار . فإنى أظنه نظر بين هذا الابتداء وبين ابتداء امرئ القيس حيث قال :

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل ... بسقط اللوى بين الدخول فحومل

فرأى ابتداء امرىء القيس على تقدمه وكثرة معانيه ، متفاوت القسمين جداً . لأن صدر البيت جمع بين عذوبة اللفظ وسهولة السبك وكثرة المعانى . وليس فى الشطر الثانى شىء من ذلك . وعلى هذا التقدير ، مطلع النابغة أفضل من جهة ملاءمة ألفاظه وتناسب قسميه . وإن كان مطلع امرئ القيس أكثر معانى . وماعظم ابتداء امرىء القيس فى النفوس إلا الاقتصار على سماع صدر البيت . فإنه وقف واستوقف ، وبكى واستبكى ، وذكر الحبيب والمنزل فى شطر بيت . وإذا تأمل الناقد البيت بكماله ظهر له تفاوت القسمين .

وقال — أى ابن أبى الأصبع — إذا وصلت إلى قول البحترى من هذا الباب ، وصلت إلى غاية لا تدرك وهو قوله :

بودى لو يهوى العذول ويعشق ليعلم أسباب الهوى كيف تعلق »

ثم قال ابن حجة ، بعد أن أورد أمثلة وشواهد لا عدد لها ، مع التعقيب على بعضها : «وقد اتفق علماء البديع على أن عدم تناسب القسمين نقص فى حسن الابتداء » .

ثم قال بعد عدة شواهد :

« وكذلك من مطلع الشيخ صفى الدين الحلى فى قصيدته الجيمية ، التى هى من جملة القصائد الأرتقيات التى امتدح بها الملك المنصور صاحب ماردين :

جاءت لتنظر ما أبقت من المهج فعطرت سائر الأرجاء بالأرج

فالشطر الثانى ليس من جنس الشطر الأول . فإن الشطر الأول فى الطريق الغرامية ليس له مثيل ، ومن أنكر هذا النقد ينظر فى مطلع الشيخ شرف الدين عمر بن الفارض ، قدس الله سره ، فإنه فى هذا الباب طرفة . وهو :

ما بين معترك الأحداق والمهج أنا القتيل بلا إثم ولا حرج »

ثم قال أيضاً :

« وبالنسبة إلى حسن الابتداءات : مطلع الشيخ برهان الدين القيراطى ، مع حسنه وبهجته ، فيه نقص . وهو :

قسماً بوردة خدها ونباتها وبآسها المخضل فى جنباتها

فإنه لم يأت بجواب القسم ، ولا ما يحسن السكوت على مطلعه ، ولا تتم الفائدة إلابه . ومشايخ البديع قرروا ألا يكون المطلع متعلقاً بما بعده من حسن الابتداء .. » الخ .

وقال :

« وقد فرع المتأخرون منه — يعنى حسن الابتداء — براعة الاستهلال فى النظم والنثر ، وفيها زيادة على حسن الابتداء . فإنهم شرطوا فى براعة الاستهلال أن يكون مطلع القصيدة دالا على ما بُنيت عليه ، مشعراً بغرض

الناظم من غير تصريح ، بل بإشارة لطيفة تعذب حلاوتها فى الذوق السليم . ويستدل بها على قصده ، من عتب أو عذر أو تنصل أو تهنئة أو مدح أو هجو . وكذلك فى النثر ، فإذا جمع الناظم بين حسن الابتداء وبراعة الاستهلال ، كان من فرسان هذا الميدان . وإن لم يحصل له براعة الاستهلال ، فليجتهد فى سلوك ما يقوله فى حسن الابتداء .

وما سمى هذا النوع براعة الاستهلال إلا لأن المتكلم يفهم غرضه من كلامه عند ابتداء رفع صوته به . ورفع الصوت فى اللغة هو الاستهلال . يقال استهل المولود صارخاً إذا رفع صوته عند الولادة . . » الخ .

ثم تكلم عن براعة الاستهلال فى النثر . فقال :

« وأما عبارات النثر ، فإنها مثلها . إن لم تكن براعة الخطبة أو الرسالة ، أو صدر الكتاب المصنف ، دالة على غرض المنشئ ، وإلا فليست براعة استهلال .

وقد رأيت أغلب البديعيين قد اكتفوا عند استشهادهم على براعة الاستهلال فى النثر ، بقول الصاحب عمرو بن مسعدة ، كاتب المأمون . فإنه امتحن أن يكتب للخليفة يخبره ، أن بقرة ولدت عجلا ، وجهه كوجه الإنسان . فكتب : « الحمد لله الذى خلق الأنام فى بطون الأنعام » .

ورأيت الشيخ صفى الدين فى شرح بديعيته ، قد ألقى عند الاستشهاد بها عصا التسيار ، واحتجبت عنه فى هذا الأفق ، الشموس والأقمار . أين هو من علو مقام القاضى محيى الدين بن عبد الظاهر ، وقد كتب عن السلطان الملك الظاهر ، إلى الأمير سنقر الفارقانى ، جوابا عن مطالعته بفتح سوس من بلاد السودان . واستهل بقوله :

«وجعلنا الليل والنهار آيتين ، فمحونا آية الليل ، وجعلنا آية النهار مبصرة» . الله أكبر ، إن من البلاغة لسحراً . والله ما أظن هذا الاتفاق الغريب ، اتفق لناثر . ولا هلال كاتب المأمون فى هذا الاستهلال بزاهر . وهذا المثال الشريف ليس له مثال ، ومنه :

« صدرت هذه المكاتبة إلى المجلس السامى تثنى على عزائمه التى دلت على كل أمر رشيد . وأتت على كل جبار عنيد . وحكمت بعدل السيف فى كل عبد سوء وما ربك بظلام للعبيد » .

وأخذ ابن حجة يورد أمثلة لبراعة الاستهلال فى النثر ، معقباً عليها ونقتطف منها شيئاً من إنشاء العصر المملوكى :

قال ابن حجة ما مؤداه :

« وأما براعة الشيخ جمال الدين بن نباتة فى خطبة كتابه المسمى « بخبز الشعير ، فإنها خاص الخاص[1] » .

وقد استهل خطبته بهذه الآية القرآنية الشريفة : « رب اغفر لى ولوالدى ولمن دخل بيتى مؤمنا » .

وهو استهلال بارع حقاً . فمع الاقتباس وعدم تغيير شىء من لفظ الآية ، تحولت المناسبة إلى معان مستفادة منها . « فدخل » تشير إلى سرقة الصفدى منه . و « بيتى » تشير إلى البيت من الشعر . . وطلب المغفرة يشعر بعظم الذنب . والآية فيها معنى التهكم والسخرية هنا . وفى هذا كله مايشعر بموضوع الكتاب .

وقد علمنا من قبل ، أن كتاب « خبز الشعير » ألفه ابن نباتة ليبين فيه سرقات الصفدى من شعره .

ومن استهلالات فخر الدين بن مكانس البارعة ، قوله فى مطلع رسالة بعث بها إلى صديقه زين الدين العجمى أحد كتاب ديوان الإنشاء ، يتبرأ فيها من وشاية ويؤكد له وفاءه . — وكان قد وشى بينهما عبد الله القيروانى الضرير — أحد الوافدين من الأندلس ، ومن متعاطى الشعر — فقال فخر الدين فى مطلع رسالته : « ليس على الأعمى حرج » . وقد عقب ابن حجة عليها بقوله : « إنه يستغنى بهذه البراعة عن الرسالة » .

---

(١) هذا التعبير كنا نسمعه فى أفواه العوام إلى عهد قريب ، ويريدون به أنقى أنواع الخبز . فلعله كان يستعمل بنفس المعنى فى أفواه العامة أيام ابن حجة ، وعلى هذا يكون هو فى استعماله بارعا فى استهلاله ، لمناسبة المعنى لخبز الشعير ...

ومن استهلالات ابن نباتة فى رسالة السيف والقلم ، قوله على لسان القلم لما انتصب مفاخراً السيف : « ن . والقلم وما يسطرون . ما أنت بنعمة ربك بمجنون » . واستهل بعده أيضاً بقوله : « الحمد لله الذى علم بالقلم وشرفه بالقسم » .

وبراعة استهلال السيف قوله تعالى : « وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس . وليعلم الله من ينصره بالغيب ، إن الله لقوى عزيز » . واستهل بعده بقوله : « الحمد لله الذى جعل الجنة تحت ظلال السيوف . وشرع حدها فى ذوى العصيان فأغصتهم بماء الحتوف » .

وقد عقب ابن حجة على استهلالات ابن نباتة بقوله :

« وما أظن أن أحداً من المتقدمين نسج على هذا المنوال . ولا نفث فى عقد أقلامهم مثل هذا السحر الحلال » .

وقد حمل ابن حجة على بعض الاستهلالات ، لأنها لم تف بالشروط المقررة للبراعة . أو لأنها لم تناسب المقام الذى ألقيت فيه . ومن ذلك خطبة الخطيب المشهور عبد الرحيم بن نباتة جد جمال الدين الشاعر — وكان يعيش فى زمن سيف الدولة الحمدانى . فإنه استهل خطبته فى ذكرى وفاة النبى صلى الله عليه وسلم ، بقوله : « الحمد لله المنتقم الجبار ممن خالفه . المهلك من آسفه » ! — قال ابن حجة : « وأما براعة خطيب الخطباء أبى يحيى عبدالرحيم بن نباتة الفارقى فإنها شغلت أفكارى مدة . ولم يسعنى غير السكوت والإحجام عنها » . وقال : « ولقد اعتذر عنها جماعة من أكابر العلماء » . . الخ .

* * *

هذه الأمثلة قل من كثر ، مما أورده ابن حجة شاهداً على براعة الاستهلال . وقد بدت شروطها التى ينبغى للأديب توخيها فيها . كما بدا أيضاً ذوق ابن حجة فى حسن اختيار أمثلتها ، ودقته فى التعقيب عليها .

وبراعة الاستهلال — فى الحق — لون معنوى دقيق ، يدل على ذوق أدبى

أصيل . وهي تشبه عنوان المقال إلى حد . وإن أنسب ما يفتتح به الأديب مقاله ، عبارات تتسق وموضوع المقال ، وتشير بمعانيها إلى متضمناته . وتناسب ألفاظها مراميه ، لتكون بذلك مفتتحاً حسناً يمهد لما يأتي بعده ، ويعبد الطريق للوصول إليه والارتباط به ، في غير كلفة ولا مشقة . والقارىء مثلا يحب أن يستشف غيب ما يقرأ من مطلعه ، ويستوحي مكنون معانيه وآتي صوره . والمطلع ببراعته يجذبه إلى ما بعده به ، ويشهيه إليه ، ويوثق به صلته . والمطلع — كيفما كان — يقر في نفس قارئه معانيا ما ، وتصورات ما ، فيتوقع أن يكون ما بعده على مثال منه . وفيه توضيح لما اكتنز فيه . فإذا وافت المعاني بعد المطلع بما يوافق معناه . اطمأنت نفسه لدقة فراسته وصدق حدسه . ولتلاقي المعاني المتجانسة في نفس القارىء رضا ، يعينه على حسن قبولها والانتفاع بها . أما تنافرها فله رجع في نفسه سيء ، وصدى يترك فيها قلقاً ونفوراً . وهكذا ترى أن براعة الاستهلال محسن معنوي تتطلبه الحال ، فهو من البلاغة في الصميم .



رأيه في الجناس :

الجناس توافق لفظين في حروفهما ، مع اختلاف في المعنى . وهو أنواع كثيرة ابتكرها أو فطن إليها أدباء البديع . ومنها نحو اثنى عشر نوعا ، تعرض ابن حجة في خزانته لتعريفها وتوضيحها وبيان الفوارق بينها ، مع التمثيل بالشواهد المختلفة لكل منها . ومنها الجناس المركب ، والمطلق ، والملفق .. إلخ .

ولسنا بصدد الحديث عنها ولا عن تعريفها والتمثيل لها . ولكنا نستجلي رأي ابن حجة في الجناس بعامة . ولا سيما أن الجناس كان ولا يزال من أهم الظواهر الأسلوبية .

وقد دل ابن حجة برأيه فيه على أنه ذو منهج وذو ذوق . فقد رفضه وسخط عليه . ذلك لأن الجناس محسن لفظي ، لا صلة له بتحسين المعنى في قليل ولا كثير . إذ كل لفظة من اللفظتين لها معناها الخاص ، ولا تبعث في نفس

السامع أكثر من التفكير فى معناها فحسب . فليس لتكرار الصوت فى الجناس ذيول ولا توابع ولا ظلال ولا معانٍ هامشية ، تطن فى النفس حين تطن فى الأذن . فضلا عن أن هذا الطنين الصوتى قد يشغل السامع ويلهيه عن الفطنة السريعة إلى المعنى . فقصارى الجناس أنه محسن لفظى ، كما ذكرنا .

وابن حجة إنما يسعى وراء المحسنات المعنوية التى تزيد المعنى قوة ووضوحا وتأثيراً ، وتكسبه ظلالا وحواشى . لذلك لا يستحسن الجناس إلا فى حالتين . الأولى : أن يأتى عفوا من غير كد ولا استكراه . . وذلك هو رأى الشهاب محمود الحلبى ، وقد سبق لنا التنويه به . الثانية : إذا أخرج مخرج التورية . وذلك باستعمال لفظ واحد ، يُنطق باعتبار فيكون له معنى ، وينطق باعتبار فيكون له معنى آخر ، ويورى بأحد المعنيين عن الآخر . فيجتمع فى اللفظ حينذاك التورية والجناس ؛ ويخلص الجناس من التكرار الصوتى ، ومايتبعه من التعقيد ، وترفعه التورية إلى مستوى معنوى يضفى عليه قبولا .

وقد بدأ ابن حجة حديثه عن الجناس بقوله :

« وأما الجناس فإنه غير مذهبى ومذهب من نسجت على منواله من أهل الأدب . وكذلك كثرة اشتقاق الألفاظ ، فإن كلا منهما يؤدى إلى العقادة والتقييد عن إطلاق عنان البلاغة فى مضمار المعانى المبتكرة . كقول القائل — وأستحى أن أقول إنه أبو الطيب :

فقلقلت بالهم الذى قلقل الحشا قلاقل عيس كلهن قلاقل »

ثم مثل للجناس أيضا ببيتين ثانيهما :

وبنار أشما وهى أسمى رتبة قد احترقت وريقها يتبادر

وقال عنه : « فنى طلعة شمس التورية هنا ما يغنى عن النظر إلى زحل الجناس » .

ثم قال : « والجناس من صور الألفاظ . وممن وافق على ذلك ، علامة عصره الشهاب محمود . وقال : إنما يحسن الجناس إذا قل وأتى فى الكلام عفوا من غير كد ولا استكراه ، ولا بعد ولا ميل إلى جانب الركة . ولا يكون كقول الأعشى :

وقد غدوت إلى الحانوت يتبعني   شاو مشل شلول شلشل شول »

ثم قال : « ولا بأس فى مطالع القصائد إن تعذر على الناظم أن يركبه تورية . فإنه نوع متوسط بالنسبة إلى ما فوقه من أنواع البديع ، كما قرره مشايخه ، كالتورية والاستخدام والاستعارة ، والتشبيه . وما قارب ذلك من أنواع البديع .

وحكى عن ابن جنى أن الأصمعى كان يدفع قول العامة إذا قالوا : « هذا يجانس هذا » إذا كان من شكله . ويقول : ليس بعربى خالص .

وقال ابن رشيق صاحب العمدة : « هو من أنواع الفراغ وقلة الفائدة . ومما لا يشك فى تكلفه . وقد كثر منه هؤلاء الساقة المتعقبون فى نظمهم ونثرهم حتى برد ورك » — ولم يحتج إليه بكثرة استعماله إلا من قصرت همته عن اختراع المعانى ، التى هى كالنجوم الزاهرة فى أفق الألفاظ . وإذ خلت بيوت الألفاظ من سكان المعانى تنزلت منزلة الأطلال البالية » .

وكان صلاح الدين الصفدى مولعا كل الولوع بالجناس . وقد ألف بسببه كتابه « جنان الجناس » ، فدافع عنه وأورد منه أمثلة كثيرة من نظمه . ولما رآه جمال الدين بن نباته — وهو لا يعجب بالجناس — قرأه « جنان الخناس » ، بالتصحيف . وجرى بين الأديبين بسبب ذلك ، ما يطول شرحه ، كما يقول ابن حجة . . .

وقد حمل ابن حجة على الصفدى حملة شعواء بسبب جنونه بالجناس ، ومخالفته فى الولوع به ، زعماء الأدب فقال عنه :

« وكان الشيخ صلاح الدين الصفدى يستسمن ورمه ، ويظنه شحما . فيشبع أفكاره منه ، ويملأ بطون دفاتره . ويأتى منه بتراكيب تخف عندها جلاميد الصخور . كقوله — غفر الله له :

ونم فى أمان بالحبيب ولا تخف   لقائط واش فى لقاء طواشى » ... الخ

وقال بعد أن أورد من أبيات الصفدى أمثلة عدة ، ومنها :

ومر على غيرى سقام وصحة   ولم يرقان مثل ذى يرقان

« ورأيت بخط الشيخ بدر الدين البشتكى تحت هذا البيت ، والذى قبله : « وهو الضعيف باليرقان . وإن من ذلك مبلغه من النظم لجدير أن يقعد مع صغار المتأدبين . . . » .

ثم قال :

« غير أن هنا بحثاً لطيفاً . وهو أنه قد تقرر أن ركنى الجناس يتفقان فى اللفظ ويختلفان فى المعنى . لأنه نوع لفظى لا معنوى . وهونوع متوسط بالنسبة إلى ما فوقه من أنواع البديع . والتورية من أعز أنواعه ، وأعلاها رتبة . فإذا جعلت الجناس تورية ، انحصر المعنيان فى ركن واحد ، وخلصت من عقادة الجناس ، وحركت الأذواق ، وأبهجت خاطر السامع بما أتحفته من بديع تركيبها ، وتأهيله بغريبها . » .

ثم أخذ يسرد الأمثلة على جناس التورية موازناً مرجحاً كعادته . ومن أمثلته :

قول بدر الدين الدمامينى فى مدح ابن حجر العسقلانى من بيتين :

وكم مشكلات فى البيان بفهمه تبينها من غير عجب ومازها « ومازها »

فأجابه ابن حجر ، ببيتين منهما :

يسائل أن ينهى عن الجود نفسه وها هوقد برّ العفاة وما نها « مانهى »

وأورد أمثلة نثرية من جناس التورية ، كتبها بدر الدين الدمامينى — من أدباء العصر — فى تقريظ لبعض أهل الأدب على مصنف سافل ، لم يقع من ذوقه موقع القبول . والتزم فى هذا التقريظ الإبهام ، من أوله إلى آخره . فما قاله بعد أن قرظه ابن حجة على الطريقة نفسها :

« لقد كنت أرتجى بابا أدخل منه إلى التقريظ ، ففتح لى المقر التقوى بابا مرتجى . ونهج الطريق إلى المدح ، فاقتفيت آثاره ، واهتديت حين رأيت منهجا » . « مرتجا . ومن هجا »[1] .

---

(١) أشرنا إلى تقريظ الدمامينى المذكور ، فى باب الوصف . فصل التقاريظ والأهاجى .

وكتب الدماميني أيضاً تقريظاً على بديعية ابن حجة « فنه » :

« كتبت وأسياف الخطوب ليس لها إلا الجوانح أغماد . والزمن قد كاد في سهام أوتاره المصيبة ، ورماني بعد أن كاد ، « أنكاد » .

ثم قال ابن حجة أيضاً مردداً رأيه في جناس التورية :

« قد تقدم قولي إن جميع من نهلت من شرابهم الصافي لم يرضوا بالجناس التام ، إذا أمكن استدراك التورية من ركنيه ، لعلمهم بعلو رتبتها عنه ، والتفات الأذواق الصحيحة السليمة إلى حسن موقعها . وإذا راجعت النظر في كلامهم وجدت غالب ما نظموه من التورية جناسا تاما » .

وبعد أن أورد أمثلة عدة ، عاد فقال :

« ولم أستطرد إلى هذا إلا لتأييد قولي إن جميع من نسجت على منوالهم ، لم يرضوا بالجناس التام ، إذا أمكنت التورية التامة . وصبح الفرق بينهما — بحمد الله — ظاهر . وبدر مثاله في ليالي السطور سافر ... — انتهى ماأوردته من محاسن التورية التامة ، ووجوب تقديمها على الجناس التام . إذا كان عند الناظم يقظة ، وكان ممن يميل إلى هذا المذهب » .

نكتفي بهذا القدر بيانا لرأي ابن حجة في الجناس بعامة ، دون نظر إلى آرائه الجزئية في أنواعه . وهو — كما أشرنا — يدل على ذوق لابن حجة ، وحسن تذوق ، وبصر بوجوه إبراز المعاني وتحسينها .

* * *

رأيه في السجع :

السجع هو توافق الفقرتين في الحرف الأخير من كل منهما . وهو ظاهرة أسلوبية لم تخل منها الأساليب العربية في عصر من العصور . وإذا قلنا إنه لا يوجد منشئ خلا إنشاؤه من السجع ، لم نكن مبالغين . وكما يعرض للنثر ، يعرض للشعر في حاشية البيت .

والسجع ، وإن كان محسنا لفظيا ، يكسب العبارة بجرسه قوة ، ويزيد المعنى بموسيقاه استقرارا في النفس ، وتأثيرا فيها . كما يعين على حفظ النص وترديده على الألسنة ، واستذكاره . والسجع في النثر ، كالقافية في الشعر ، من أسباب بقائه وذيوعه .

وقد عقد ابن حجة فصلا محمودا فى خزانته ، قال فى مطلعه :

« السجع مأخوذ من سجع الحمام . واختلف فيه : هل يقال فى فواصل القرآن : أسجاع ، أولا ؟ فنهم من منعه ، ومنهم من أجازه . والذى منع تمسك بقوله تعالى : « كتاب فصلت آياته » . فقال : قد سماه فواصل ، فليس لنا أن نتجاوز ذلك .

والسجع ينقسم أربعة أقسام : المطرف والمتوازى ، والمشطر والمرصع » .

ثم أخذ يعرف كل قسم ويضرب له الأمثال .

ثم أخذ يبين نظام الفقرات المسجوعة ، على نسق ما رأينا لدى الشهاب محمود الحلبي — وهذا فى نظرنا ذو أهمية ، لما يدل عليه من اتفاق أدباء العصر ونقاده على نظام السجع .

وملخص ماذهب إليه :

١ — أن قصر الفقرات يدل على قوة المنشئ . وأقل ما يكون من كلمتين كقوله تعالى : « يأيها المدثر ، قم فأنذر . وربك فكبر . وثيابك فطهر » . وأمثال ذلك فى القرآن الكريم كثيرة .

٢ — ولكن الزائد على ذلك — أى على كلمتين — هو الأكثر . وذلك كما قالوا — لأن السامع يلتذ أكثر بما زاد ، لتشوقه إلى ما ورد منه متزايداً على سمعه . وكان بديع الزمان يكثر من ذلك ، كقوله : « كميت نهد . كأن راكبه فى مهد . يلطم الأرض بزبر . وينزل من السماء بخبر » .

٣ — وإذا زادت القرائن — الفقرات — على اثنتين فلا يضر تساوى القرينتين الأوليين . وإن زادت الثانية على الأولى زيادة يسيرة . وزادت الثالثة على الثانية كذلك ، فلا بأس . بشرط ألا تكون الزيادة أكثر من المثل . ومع هذا فلابد من الزيادة فى آخر القرائن . ومثال ذلك قول الله تعالى :

« وقالوا اتخذ الرحمن ولدا . لقد جئتم شيئاً إدا . تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدا » .

وأورد أمثلة أخرى من القرآن الكريم لكل حالة .

٤ — ومن قواعد الإنشاء ، أن تكون كل فاصلة مخالفة لنظيرتها فى المعنى ، لأن اللفظ إذا كان من القرينة بمعنى نظيره من الأخرى ، كان معيبا .

ومثال المعيب ، قول الصاحب بن عباد يصف منهزمين : « طاروا واقين بظهورهم صدورهم . وبأصلابهم نحورهم » . فالظهور بمعنى الأصلاب ، والصدور بمعنى النحور .

ومثاله أيضا قول أبى إسحق الصابى : « يسافر رأيه وهو لا يبرح . ويسير وهو ثاو لا ينزح » . ويبرح وينزح بمعنى واحد . وكذلك يسافر ويسير .

٥ — ومن الملحوظات التى سجلها ابن حجة بهذه المناسبة ، أن الأسجاع تبيح للأديب بعض الضرورات . وذلك كالوقوف بالسكون على آخر القرينة ، لتتم السجعة . ولولا الوقوف لما تمت فى بعض الأحوال . وكتغيير لفظة الفاصلة لتوافق أختها عند الازدواج . ومنه قوله عليه السلام : « ارجعن مأزورات غير مأجورات » والأصل : موزورات بالواو — ومنه قوله عليه السلام : « أعيذه من الهامة والسامة . ومن كل عين لامة » . والأصل : عين ملمة لأنه من ألم . ولكنه لأجل الموافقة قيل : لامة . .

هذه هى القواعد التى سجلها ابن حجة عن نظام السجع ، وزودها بجملة صالحة من إنشائه وإنشاء غيره تمثيلا له .

ولنا عليه جملة ملاحظات ، منها :

١ — أننا قد بينا رأى الشهاب محمود الحلبى فيما سبق ، فى السجع ونظامه وفقراته . والأوضاع التى أقرها ابن حجة هنا ، لا تفترق عن أوضاع الحلبى فى شىء — فى جملتها — فابن حجة متأثر فى ذلك به . .

٢ — على أننا نرى أنهما معا متأثران بمن سبقهما ، وليس هذا النظام جديدا مبتدعا منهما . ونستطيع القول إنهما نقلا هذا النظام — المتبع — عن ضياء الدين بن الأثير صاحب المثل السائر . وتتلخص الأوضاع التى سجلها فيه ، فيما سجلاه .

حتى الأمثله القرآنية وغيرها ، مما أورده ابن الأثير ، نقلاها أيضا واستشهدا بها ولم يشيرا إلى ذلك .

ويبدو لنا أن ابن الأثير نفسه فى آرائه فى السجع ونظام فقراته ، متأثر بمن تقدمه من البلاغيين ، ولا سيما أبو هلال العسكرى « ٣٩٥ هـ » وابن سنان الخفاجى « ٤٦٦ هـ » وعبد القاهر الجرجانى « ٤٧١ هـ » .

فهناك مثلا ، إجماع منهم على أن السجع المقبول هو الذى لا تكلف فيه . ويرفع عنه هذا التكلف إذا طلبه المعنى . وفى ذلك يقول الجرجانى : « فإنك لا تجد تجنيساً مقبولا ولا سجعاً حسنا حتى يكون المعنى هو الذى طلبه واستدعاه وساق نحوه[1] » .

وابن سنان يعتبر أن السجع منه ما يحمد ومنه ما يستكره . ولولا أن منه ما يحمد ما ورد فى القرآن والحديث وكلام الفصحاء[2] .

ويقول أبو هلال : إن السجع المذموم هو المتكلف الذى يشبه سجع الكهان[3] .

هذا ، وقد تحدث كل من أبى هلال وابن سنان حديثاً هينا مجملا عن تساوى الفقرات واختلافها فى عدد مفرداتها . واستحسن أبو هلال تساوى المقادير ، وذلك لأن أبا هلال يستطيب الازدواج . والتساوى يعين عليه . وهو يستريح إلى الازدواج والتوازن بين السجعتين . ولكن لا مانع لديه من قصر الثانية عن الاولى .

وابن سنان يستحسن أيضاً تساوى المقادير ، أو إطالة الفقرة الثانية عن الأولى . والعكس عنده قبيح ، وهو قصر الثانية عن الاولى . وقد رد عليه القلقشندى بأنه ورد فى القرآن ، وذكر الآيتين :

---

(١) راجع أسرار البلاغة ص ٧ .

(٢) راجع سر الفصاحة لابن سنان .

(٣) راجع الصناعتين طبع استامبول على نفقة الخانجى — باب السجع .

« وإذ يريكهم الله فى منامك قليلا ... الخ » فالأولى ٢٠ كلمة والثانية ١٩ فقط .

وإنما نذكر هذا كله لنبين أن الفكرة فى التساوى أو عدمه ، موجودة قبل ابن الاثير ، ولكنه فصلها ووفى الحديث عنها أكثر ممن سبقه . ثم جاء الحلبى وابن حجة والقلقشندى وزادوها تفصيلا ودعما

وابن الأثير كذلك متأثر بأبى هلال وابن سنان فى اعتقاد وجود السجع فى القرآن ، وقد تعصب لذلك تعصبا بارزا . وله حججه وبراهينه ، ومن بينها أن القرآن والحديث راعيا نظام السجع والتوازن فى بعض الآيات ، والآيات التى أوردناها إنما نقلها عن ابن سنان وأبى هلال .

٣ - وقد زاد ابن حجة فى شروطه عما رسم الحلبى ، شرطا هاما ، وهو ضرورة مخالفة كل فاصلة لزميلتها فى المعنى . وهذا الشرط منقول نصا عن ابن الأثير . وقد نبه ابن الأثير فى كتابه « المثل السائر » عند ذكر هذا الشرط « فى باب السجع » على أنه من ابتكاره . وقال فى ذلك ما نصه :

« واعلم أن للسجع سرا هو خلاصته المطلوبة . فإن عرى الكلام المسجوع منه فلا يعتد به أصلا . وهذا شىء لم ينبه عليه أحد غيرى . وسأبينه ههنا . وأقول فيه قولا هو أبين مما تقدم . وأمثل لك مثالا إذا حذوته أمنت الطاعن والعائب . وقيل فى كلامك : ليبلغ الشاهد الغائب .

والذى أقوله فى ذلك هو أن تكون كل واحدة من السجعتين المزدوجتين مشتملة على معنى غير المعنى الذى اشتملت عليه أختها . فإن كان المعنى فيهما سواء ، فذلك هو التطويل بعينه ، لأن التطويل إنما هو للدلالة على المعنى بألفاظ يمكن الدلالة عليه بدونها . وإذا وردت سجعتان تدلان على معنى واحد ، كانت إحداهما كافية فى الدلالة عليه . وجل كلام الناس المسجوع جار عليه . وإذا تاملت كتابة المفلقين ممن تقدم كالصابى وابن العميد وابن عباد ، وفلان وفلان ، فإنك ترى أكثر المسجوع منه كذلك . والأقل منه على ما أشرت إليه ... إلخ » .

ثم قال ابن الأثير :

« فالكلام المسجوع إذن ، يحتاج إلى أربع شرائط :

الأولى : اختيار مفردات الألفاظ على الوجه الذى أشرت إليه فيما تقدم .

الثانية : اختيار التركيب على الوجه الذى أشرت إليه أيضا فيما تقدم .

الثالثة : أن يكون اللفظ فى الكلام المسجوع تابعا للمعنى لا المعنى تابعا للفظ[1] .

الرابعة : أن تكون كل واحدة من الفقرتين المسجوعتين دالة على معنى غير المعنى الذى دلت عليه أختها . فهذه أربع شرائط لا بد منها . » .

٤ — نلاحظ أن ابن حجة لم يتحمس فى حديثه عن السجع حماسته التقليدية ، فكان هادئا على غير عادته . ولا ندرى سببا جوهريا لذلك . فالسجع فى رأيه محسن لفظى — ما فى ذلك ريب — وابن حجة يتأبى دائما على المحسنات اللفظية . فكان من المرتقب أن يحمل على السجع والساجعين . كما حمل على الجناس والمجانسين ، مالم يأت شىء منه دون كدولا استكراه . . . وفى الوقت نفسه لم يحبذ السجع ولم يدع إليه ولم يمجده إلا فى كلمة عابرة ، وهى قوله : « أن التسجيع هو عبارة عن علم الإنشاء » .

وابن حجة بذلك ، يقف موقفا وسطا — فى رأينا — والسجع له أعوان وأعداء معا . وقد نوه ابن الأثير بذلك فى مطلع حديثه عن السجع ، فقال :

« وقد ذمه بعض أصحابنا من أرباب هذه الصناعة . ولا أرى لذلك وجها سوى عجزهم أن يأتوا به » . وقد احتج عليهم بأنه جاء فى القرآن الكريم .

أما ابن الأثير فهو متحمس للسجع كل الحماسة ، يرفعه إلى أعلى مقام ، إذا استوفى شروطه التى اشترطها فيه .

٥ — ولعل حماسة ابن الأثير للسجع وتعصبه له ، ناشئان عن اعتقاده أن السجع ورد فى القرآن الكريم . وقد فر ابن حجة فرارا واضحا من مناقشة هذه المسألة ، ووقف فيها على الحياد ، أو كاد .

---

(١) كأن ابن الأثير يتخلص بهذا الشرط مما يقوله من اعتبار فواصل القرآن سجعات .

أما ابن الأثير ، فأثار الجدل فيها ، وذهب إلى أن السجع أعلى درجات الكلام ، إذا تهيأ للكاتب أن يأتى به محمولا على الطبع غير متكلف ، تنقاد فيه ألفاظه وقرائنه للمعانى . فلا تأتى لفظة مستكرهة ، فيها زيادة معنى ، أو نقص عما يريده الكاتب . وبذلك تصل حد الإعجاز .

وإذن ينبغى أن يكون الكلام المعجز سجعا غير متكلف على هذا النمط المرسوم ومن هنا اعتقد ابن الأثير أن فى القرآن سجعا ، واعتقد غيره أنه فواصل.

وقد يحتج على ابن الأثير بأن فى القرآن آيات غير مسجوعة . فلماذا لم تكن مسجوعة ليتم له إعجازه ؟ وابن الأثير لم يفته هذا الاعتراض . ورد عليه بأن وجود آيات فى القرآن غير مسجوعة — وهى مع هذا بليغة وواضحة الدلالة — برهان جديد على إعجازه : فإن الإتيان بكلام غير مسجوع ، وهو مع ذلك فى الذروة من البيان ، ذلك هو الإعجاز . . .

ومهما يكن من أمر ابن الأثير ، فإنه يبدو لنا أن هناك مسألة عزبت عن ذهنه، وهى أن الملحوظ فى السجع أنه مقصود أن يجيء هكذا سجعا ، منقادا للمعنى أو غير منقاد . والقرآن الكريم منزه عن أن يقصد فيه إلى السجع . وإنما روعى فيه أمر واحد ، وهو أن يكون — كما سبقت إليه الإشارة — فى مجموعه وتفصيله ، وصراحته وتأويله ، ولفظه ونظمه ، وحروفه وفواصله ، بما يدل كل ذلك عليه من المعانى ، مطابقا لمقتضى الحال . ومرة يقتضى الحال سجعا وطولا فى الفقرات ، أو لا يقتضى وهو فى كل أولئك قد بلغ الذروة من البلاغة ، وحد الإعجاز .

وقد فر ابن حجة من مناقشة هذه المسألة غير أننا ضبطنا عليه كلمة فى سياق حديثه عن السجع . فقال ما مؤداه مبينا مزاياه :

« إن السجع مبنى على التغيير ، فيجوز أن تغير لفظة الفاصلة لتوافق أختها . فيجوز فيها حالة الازدواج مالا يجوز فيها حالة الانفراد . فمن ذلك الإمالة ، وحذف المفعول ، وصرف مالا ينصرف . . . إلخ » . .

ثم ساق أمثلة من القرآن الكريم ، منها قوله تعالى : « ما ودعك ربك وما قلى » . وقال بالنص : « الأصل وما قلاك،حذفت الكاف لتوافق الفواصل » .

فهل نفهم من ذلك أن ابن حجة يعتبر فواصل القرآن سجعا ، كما اعتبرها ابن الأثير ؟ وهل حذف المفعول به حقاً للتوافق ، وللتأثير بهذا التوافق ؟ هذه مسألة تحتاج إلى مناقشة .أما نحن فنعتقد أن القرآن الكريم لا يتجه إلى مراعاة التوافق الصوتى بين الفاصلتين ، قبل رعاية المطابقة ، ونعتقد أن حذف المفعول هنالأنه فضلة ودل عليه دليل. وحذفه من اللفظ،لا يحذفه من المعنى ، وفى حذفه إيجاز ، وهو أبلغ ، إذا لم يكن فى الذكر فائدة .

هذا على أننا نشعر مما سبق أن الشهاب محمودا وابن حجة الحموى بلغا بموقفهما من السجع مبلغا محمودا ، فلم يتعصبا له كل هذا التعصب الذى بدا من ابن الأثير وأضرابه . لأن السجع — فى الحق — مزلق من المزالق التى لا تؤمن . وذلك أن الأذواق فيه لابد مختلفة . ومترددة بين الحكم بأن توافق الفاصلتين من باب التوافق الصوتى فحسب ، أو روعيت فيه المطابقة فجاء توافقا ، فكان غير متكلف ولا مستكره . . . الخ .

ولا يضير الرجلين ما تأثرا به ، أو ما نقلاه عن ابن الأثير أو عن غيره . فطبعى أن يتأثر الأديب أو العالم بمن قبله . ولا يهمنا فى هذا المقام إلا أنهما يقرران أوضاع الأسلوب المرعية إلى عهدهما ، ويسجلان ظواهرها ويؤيدانها بالأمثلة الكثيرة من إنشائهما وإنشاء معاصريهما ، وهذا هو مانريده منهما .

وإذا كان الشهاب محمود قد تلقى عن بعض الأدباء والعلماء السابقين شيئاً من الذوق الفنى والقاعدة العلمية ، فإننا نعتقد أنه أضاف إليهما شيئاً آخر من عنده على ضوء مناهج عصره — فلما جاء ابن حجة ، وهو بعد الشهاب بنحو مائة عام ، كانت تلك المناهج الفنية والقواعد العلمية قد تركزت وثبتت أصباغها ، ولونت الإنشاء تلوينا زاهيا أشرقت أضواؤه فى خزانة ابن حجة ، الذى كان لسانا وميزانا للنقد فى ذلك الحين .

هذا ، وقد ردد ابن حجة فى كتابه « ثمرات الأوراق » ما قاله فى الخزانة عن السجع ونظام فقراته .

وقبل أن نترك هذا المقام نلفت النظر إلى ملحوظة لحظناها، وهى إحساسنا بمدى تأثير الأسلوب القرآنى فى نفوس البلغاء، فإن كثيراً من قواعدهم الذوقية التى انتهوا إليها — وأوضحها هنا نظام السجع وفقراته — استوحوها من خصائص أسلوب القرآن. وتبدو هذه الظاهرة بدوا قويا فى باب السجع الذى عقده ابن الأثير فى المثل السائر.

كما نلاحظ أنهم فى كل قاعدة قعدوها، يقدمون بين يديها أمثلة قرآنية فى أول الأمر غالبا — وذلك لدعمها. ومن العجيب أن تجد ابن الأثير مثلا يحدد لك عدد كلمات القرينة الثالثة فى السجع، بكذا من الكلمات. ويحدد نسبة عدد كلمات القرينتين الأوليين، وهكذا، مستشهدا على ذلك التحديد بآيات من القرآن الكريم.

وعلى نمط منه سار شهاب الدين الحلبى. — ذلك وغيره دليل على تأثر الأدباء، ومدى تأثرهم بأساليب القرآن الكريم.

* * *

رأيه فى التورية:

التورية — كما عرفها ابن حجة فى كتابه هى أن يذكر المتكلم لفظا مفرداً له معنيان حقيقيان، أو حقيقة ومجاز، أحدهما قريب ودلالة اللفظ عليه ظاهرة، والآخر بعيد ودلالة اللفظ عليه خفية. فيريد المتكلم المعنى البعيد ويورى عنه بالمعنى القريب، فيتوهم السامع أول وهلة أنه يريد القريب، وليس كذلك. ولأجل هذا سمى هذا النوع إيهاما.

ومثل ذلك قول أبى العلاء:

وحرف كنون تحت راء ولم يكن ... بدال يؤم الرسم غيره النقط

فالسامع يتوهم أن المراد بالنون والراء والدال حروف هجاء. ولا سيما أنه أتبعها بالرسم والنقط. وهذا هو المعنى القريب المورى به عن معانيها البعيدة، وهى أن المراد بالحرف: الناقة. وقد شبهها بالنون لتقويسها وضمورها. وراء اسم فاعل من رأى، إذا ضرب الرئة. ودال اسم فاعل من دلا يدلو: إذا رفق فى السير. والرسم: أثر الدار. والنقط: المطر.

وقدعقب ابن حجة على هذا البيت بقوله . « قال حذاق الأدب : تراكيب التورية فى هذا البيت بالنسبة إلى ديباجة المتأخرين وطلاوة ألفاظهم وزخارف بيوتهم ، تستحق قول القائل :

وما مثله إلا كفارغ حمص   خلى من المعنى ولكن يفرقع .

والحق أن ابن حجة متعصب للتورية كل التعصب ، متحمس لها كل الحماسة ، يمجدها تمجيداً منقطع النظير ، ويعتبرها فى أعلى مراتب الأدب ، ولا يباريه فى حماسته هذه ، إلا حماسة ابن الأثير وتعصبه للسجع .

والتورية — فى نظرنا — جديرة بذلك التعصب وتلك الحماسة من ابن حجة — وهو أديب عصره — وحرية بأن يسمو بها إلى أعلى مراتب الأدب . وذلك إذا أخرجت مخرجاً حسناً ، وكانت ذات لباقة وكياسة ، فإنها تكون حينئذ خفيفة المئونة قريبة إلى القلب ، تحمل الذهن على تصورات وأخيلة متعددة ، وانتقالات معنوية شتى . ومن هنا ترى أنها من دعائم الأدب . والأديب فى حاجة كبرى إلى بضاعة لغوية ، وإلى رفاهة حس ، ولطافة نفس ، ورقة شعور ، ودقة تصور ، وخاطر مطبوع ، حتى يجود بالتورية مزدهرة الأضواء مشرقة الوجه لا يشوبها كلف ، ولا يثقلها تعسف .

ونحن من الذين يتعصبون للتورية ، وينعون على أدباء العصر الحديث انصرافهم عنها ، لا لأنها فن رفيع من فنون الأدب فحسب ، بل لأنها طابع من طوابع الذوق المصرى ، ومسلك من مسالك الأساليب الشعبية فى بلادنا ، استقر بين طبقات الشعب حبها ، وتمكن من القلوب والأذهان والألسنة ، فجرت عليها فى شتى المناسبات ، واستقرحبها منذ أزمنة بعيدة . فلما تمصر الأدب العربى فى الأمصار المختلفة ، وظهر منه أدب مصرى فى مصر ، نضح عليه الذوق المصرى العام ، فظهرت خصائصه فى أدب أدبائه كتابه وشعرائه . وفى مقدمة هذه الخصائص : التورية ، التى أصبحت منذ ذلك الحين من أبرز خصائص الأسلوب المصرى . وكان أدباؤه بانصراف عنايتهم إليها ، مرآة صقيلة له

صافية استجابت لصوره النفسية ، فأبرزتها واضحة قوية . فكان أدباء الشعب — لذلك — من الشعب وإلى الشعب . . !

أما الآن فكثير من أدباء الشعب ، فى واد ، وأسلوب الشعب فى واد . . . واعتقادنا أن من أهم الأسباب التى دعت إلى ذلك ، ابتعاد أدباء الشعب عن صقل أساليبهم بصقاله ، وعن إبراز خصائصه الأسلوبية فى خلال أساليبهم والشعب لا يزال حتى اليوم ينهج فى أساليبه ، أساليبه التقليدية القديمة بما فيها من ظواهر وصفات .

والذى نحب أن نسجله هنا عن ابن حجة ، أنه فى تعصبه وحماسته للتورية كان مصرياً صميما أو شامياً صميما — لاتفاق أساليب الأدباء فى مصر والشام ، وهذه النزعة من ابن حجة هى التى تروعنا وتملؤنا إعجاباً به . وتدفعنا إلى تقديره .

* * *

والتورية من أبرز مسالك الأسلوب المصرى — كما أشرنا — وقد تكون هناك شعوب ، أو أجيال كلفت بالتورية . وقد تكون التورية بدرت فى أدب أمة أخرى ، أو فى أدب فرد منها . غير أننا نظن — إن لم نعتقد — أنها لم تبرز أو تستقر فى أدب أمة ، ولا فى أدب فرد من أمة ، كما برزت واستقرت فى أدب الأمة المصرية ، وفى أدب أفراد كثيرين من أدبائها ، منشئين وشعراء وزجالين ، وعامة وخاصة .

وقد أرخ ابن حجة للتورية ، وهو صادق فى تاريخه ، إذ قال :

« هذا النوع — أعنى التورية — ما تنبه لمحاسنه إلا من تأخر من حذاق الشعراء وأعيان الكتاب . ولعمرى إنهم بذلوا الطاقة فى حسن سلوك الأدب ، إلى أن دخلوا إليه من باب التورية . فإن التورية من أغلى فنون الأدب وأعلاها رتبة . وسحرها ينفث فى القلوب ويفتح بها أبواب عطف ومحبة . وما أبرز شمها من غيوم النقد إلا كل ضامر مهزول . ولا أحرز قصبات سبقها من المتأخرين غير الفحول . ومما يؤيد قولى هذا . قول الشيخ صلاح الدين الصفدى رحمه الله تعالى فى ديباجة كتابه المسمى « بفض الختام عن التورية والاستخدام » :

« ومن البديع ماهو نادرالوقوع ملحق بالمستحيل الممنوع. وهو نوع التورية والاستخدام . فإنه نوع تقف الأفهام حسرى دون غايته عن مرامى المرام .

نوع يشق على الغبيّ وجوده من أى باب جاء يغدو مقفلا

لا يفرع هضبته فارع . ولا يقرع بابه قارع . إلا من تنحو البلاغة نحوه فى الخطاب . وتجرى ريحها بأمره رخاء حيث أصاب » .

وقال الزمخشرى ، وهو حجة فى هذا العلم :

« ولا نرى بابا فى البيان أدق ولا ألطف من هذا الباب . ولا أنفع ولا أعون على تعاطى تأويل المشتبهات من كلام الله وكلام نبيه صلى الله عليه وسلم، وكلام صحابته رضى الله عنهم أجمعين .

فمن ذلك قوله تعالى : « الرحمن على العرش استوى » ، لأن الاستواء على معنيين أحدهما : الاستقرار فى المكان ، وهو المعنى القريب المورى به ، الذى هو غير مقصود . لأن الحق تعالى وتقدس منزه عن ذلك . والثانى : الاستيلاء والملك ، وهو المعنى البعيد المقصود ، الذى ورى عنه بالقريب المذكور » . انتهى كلام ابن حجة .

ولنا استدراك موجز على كلام الزمخشرى . فإنه كان من المعتزلة ، والمعتزلة مؤولة ، لا تفسر القرآن بظاهر ألفاظه ، بل تذهب فى كثير من آياته إلى مجازياتها أو توررياتها أو نحو ذلك ، مما ينقلها عن معانيها الظاهرة . ولهذا احتفل الزمخشرى بالتورية وما إليها . ومن هنا ترى أن استشهاده بالآية على التورية ، صحيح وصائب جريا مع التأويل . ولكن غير المؤولة لا تذهب هذا المذهب ، وتقول بظاهر الآية ، وهو أن الاستواء المقصود من الآية هو الاستواء والتمكن والجلوس – كما يفهم من اللغة — ولكن ما كيفيته وما طريقته ؟ هذا موضوع تفترق عنده مذاهب . وهو بعيد عن موضوع بحثنا[١] .

---

(١) عادا ابن حجة إلى ذكر هذه الآية الكريمة فى باب التورية ص ٣٠١ مستشهدا بها على الاستعارة المجردة وذهب مذهبه فى تأويلها . .

هذا ، وقد رأينا الخطيب القزوينى يستشهد بالآية نفسها على التورية المجردة ، وذلك فى كتاب « الإيضاح » . على أن تأويل الزمخشرى للاستواء — إذا ذهبنا معه — قد يعتبر من باب الكناية — لا التورية — فالملك والاستيلاء نتيجة ولازم للاستقرار والجلوس .

وهذا يسوقنا إلى أن نلفت النظر إلى بحث لطيف ، من المستطاع أن ينظر الأدباء فيه ، وهو الحديث عن التورية وحياتها فى الأدب العربى كله ، وصلتها بعلم الكلام ، وألوان البلاغة الأخرى كالمجاز والاستعارة والكناية والإبهام والتوجيه والألغاز والتلميح ، ونحو ذلك .

* * *

وقد قال ابن حجة معرفا بالتورية مبينا تألقها فى عصره ، منوها بمن طلعت شموسها من آفاق أيديهم ، فقال :

« التورية يقال لها الإيهام والتوجيه والتخيير . والتورية أولى فى التسمية لقربها من مطابقة المسمى ، لأنها مصدر وريت الخبر تورية ، إذا سترته وأظهرت غيره . كأن المتكلم يجعله وراءه بحيث لا يظهر » .

هذا . وقد أخذ ابن حجة يورد أمثلة للتورية من أشعار شعراء مختلفين . ثم قال منوها بأدبائها :

« وقع الإجماع على أن المتأخرين هم الذين سموا إلى أفق التورية واطلعوا شموسها . ومازجوا بها أهل الذوق السليم لما أداروا كئوسها . وقيل : إن الفاضل هو الذى عصر سلافة التورية لأهل عصره . وتقدم على المتقدمين بما أودع منها فى نظمه ونثره . فإنه — رحمه الله تعالى — كشف بعد طول التحجب ستر حجابها . وأنزل الناس بعد تمهيدها بساحاتها ورحابها .

وممن شرب من سلافة عصره . وأخذ عنه وانتظم فى سلكه بفرائد دره : القاضى السعيد بن سناء الملك ، ولم يزل هو ومن عاصره مجتمعين على دور كأسها . ومتمسكين بطيب أنفاسها . إلى أن جاءت بعدهم حلبة صاروا فرسان ميدانها .

والواسطة فى عقد جمانها . كالسراج الوراق وأبى الحسين الجزار ، والنصير الحمامى ، وناصر الدين حسن بن النقيب ، والحكيم شمس الدين بن دانيال ، والقاضى محي الدين بن عبد الظاهر .

قال الشيخ صلاح الدين الصفدى فى كتابه المسمى « بفض الختام عن التورية والاستخدام » : «وجاء من شعراء الشام جماعة تأخر عصرهم ، وتأزر نصرهم . ولان فى هذا النوع هصرهم وبعد حصرهم . كل ناظم تود الشعرى لو كانت له شعرا . ويتمنى الصبح لو كان له طرسا والغسق مدادا ، والنثرة نثرا . ما جلا من بنات فكره خودا إلا شاب لحسنها الوليد . وسيرها فى الآفاق وبين يديها من النجوم جوار ، ومن الشعراء عبيد . كالشيخ شرف الدين عبد العزيز الأنصارى شيخ شيوخ حماة ، والأمير مجير الدين بن تميم ، وبدر الدين يوسف ابن لؤلؤ الذهبي ، ومحي الدين بن قرناص الحموى ، وشمس الدين محمد بن العفيف ، وسيف الدين بن المشد .

وقال الشيخ صلاح الدين فى أواخر ديباجة كتابه المذكور : « ومع هؤلاء جماعة يحضرنى ذكرهم عند شعرهم . ويعز علىّ إذ لم أرهم على تكاثرهم لفوات عصرهم» .

وتلطف بقوله بعد ذلك : « لا تقل أيها الواقف على هذا التأليف : لقد أفرطت فى التعصب لأهل مصر والشام ، على من دونهم من الأنام . وهذا باطل ودعوى عدوان وحمية لأوطانك وما جاورها من البلدان . » فالجواب : أن الكلام فى التورية لا غير . ومن هنا تنقطع المادة فى السير — ومن ادعى أنه يأتى بدليل وبرهان . فالمقياس بيننا والشقراء والميدان ... » . اه .

هذا ، والشعراء الذين ذكرهم الصفدى من خيرة أدباء مصر والشام فى زمن المماليك .

ثم قال ابن حجة مبينا منزلة التورية من البلاغة ، ومنزلة أدباء مصر بين أدباء التورية :

« قد تقدم وتقرر أن التورية عند علماء هذا الفن بمنزلة الإنسان من العين . وسموها فى البلاغة سمو الذهب على العين . وقد ثبت أن خواطر المتقدمين كانت بها شحيحة وأفكارهم لا تقصد مظانها ، وإن كانت سليمة صحيحة . لكنها ربما وقعت لهم عفوا من غير مرام . فنقول إنها رمية من غير رام .

وقد علم أن المتأخرين من القاضل إلى من فضل بعدهم ، نور مشكاتها . والمتفكهون فى أدواح الأدب بثمراتها . فإذا جليت عرائس أفكارهم على اختلاف أنواع التورية لا يمل المتأمل اللهم إلا أن يكون سيف ذهنه كليلا ، فيقول إنه من هذا الفن متنصل . فإن هذه العرائس لم تبرز لمتأمل إلا من خدور هذا الكتاب . وإذا طلبها من غيره توارت عنه بالحجاب . فإذا سرح المتأمل طرفه وأمسى فى كل واد من محاسنها يهيم . وتنوعت حلاوات أنواعها لذوقه السليم ، جردت سيف العزم ، وأقمت لكل نوع حدا . ونظمت له من أنواع التورية وأقسامها فى سلك هذا النوع عقدا .. » .

وتتضح من كلامه هذا حقائق ، منها : أن التورية لم يفطن المتقدمون لمحاسنها فطنة هؤلاء المتأخرين ، وأنها وقعت فى كلامهم عفوا ولماما . وأن القاضى الفاضل أول من رفع علمها للأدباء ، واتبعه فيها من بعده ، وأنها عند هؤلاء فى مرتبة سامية من مراتب البلاغة ، وأن . . « خزانة الأدب » هى التى أبرزت جمال هذا النوع بما ساقته من الأمثلة الكثيرة . . — على أن بين كتب التورية كتاب الصفدى : « فض الختام » وكتاب ابن حجة «كشف اللثام » ، كما أن له فصلا لطيفاً فى كتابه « تأهيل الغريب[1]» بعنوان « غزل التورية » أورد فيه أمثالا عدة . ويشوب هذه الفصول ، تكرار بعض الأمثلة بينها .

* * *

ثم أخذ ابن حجة بعد ذلك ، يشير إلى أنواع التورية ، ويضرب لها

(١) تأهيل الغريب : مجموعة طريفة جداً من المختارات الشعرية . وهو مخطوط بدار الكتب المصرية وطبع منه نحو سدسه ذيلا لثمرات الأوراق .

الأمثال . ولـكنه لم يستوف حديثه عن أقسامها إلا بعد أن أفرغ جعبته من أمثالها ، وبلغ بذلك خاتمة الباب . ويعتبر هذا الباب وحده ديوانا للتورية .

وقد عنى بهذا الباب عناية ملموسة ، كما عنى بذكر المتفوقين فيه ، السابقين فى ميدانه ، وذكر المتقاعدين عنه ، المقصرين عن بلوغ مداه . وكلهم من شعراء العصر المملوكى وأدبائه .

وقد ردد ابن حجة فى باب التورية ، ذكر القاضى الفاضل ، أكثر من مرة ، مشيراً إلى أنه هو الذى سن سنتها ورفع علمها للأدباء . واتبعه من بعده وسار تحت رايته ، ابن سناء الملك وغيره من شعراء العصر الأيوبى ، وصدر العصر المملوكى . حتى تلقى رايتها الأديب البارع جمال الدين بن نباتة المصرى . فحملها وجدد عهدها ، وعبد طريقها ، وصار بذلك زعيما ثانياً لهذه الطريقة .

وسجل كثيراً من أسماء أدباء التورية فى الحلبتين — على نحو ما مر — كانوه بينهم باسم علاء الدين الوداعى الذى يعتبر من زعمائها .

وأشار فى سياق حديثه إلى بعض أدباء العصر ، ممن لم يرزقوا حب التورية ولا استطاعتها أقلامهم . ومنهم : صفى الدين الحلى . قال عنه ابن حجة : « إنه كان أجنبياً عن التورية » ، ولهذا لم ينظمه فى سلك القوم الذين مشوا فى ميدانها تحت العلم الفاضلى والعلم النباتى ، وكانت غاية الحلى أنه رضى بالشعر الساذج المنسجم ، وأنه تعرض للتورية فى بعض المواضع ، ولـكن سبكها فى غير قالبها ، لأنها لم تـكن فى طباعه .

ومنهم : الشهاب محمود الحلبى ، فقد ذكر ابن حجة أن التورية كانت غير مذهبه ، وأن وقوعها فى نظمه ونثره كان من النوادر .

ومنهم : الشهاب بن فضل الله العمرى . تمذهب بها ولـكنه لم يستطع التفقه فى المذهب — ومثله بدر الدين بن حبيب الحلبى .

هذا وقد نوهنا بهؤلاء الشعراء لأن أكثرهم — إن لم يكن جميعهم — كانوا أيضاً منشئين ، وينهجون نفس النهج فى نثرهم .

* * *

ويبدو لنا مما تقدم ، أن التورية استأثرت بجزء غير قليل من أدب العصر المملوكي . وكان ميدانها مراح تسابق لأدبائه ، ومجال تجديد وتوليد لكتابه وشعرائه . حتى أدى تنافسهم وتلهفهم على نظمها إلى التهاوى نحو السرقات الشعرية . ومن ذلك سرقات ابن نباتة من الوداعى ، وسرقات الصفدى من ابن نباتة .

ونقتطف لك — بعد ذلك — أمثلة نثرية — مما استشهد به ابن حجة فى باب التورية ، من كلام أدباء العصر المملوكي . فمن ذلك :

من توريات ابن حجة بذكر استجازة الصفدى لابن نباتة وإجازة ابن نباتة له ، قال عن الصفدى · « وقف على باب الشيخ وقوف فقير يسأل الإجازة . وطال وقوفه على هذا الباب العالى إلى أن حصل له الفتوح وأجازه » .

ومن استجازة الصفدى لابن نباتة قوله :

« الحمد لله على نعمائه . المسئول من إحسان سيدنا الشيخ الإمام العالم العلامة رحلة أهل الأدب . قبلة ذوى التحصين فى التحصيل والدأب . . . . »

ثم قال يصفه : « فأمسى وله النسيب الذى يضحك من العباس فى رقته . ويقيم صريع الغوانى إلى مقته بعدمقته . والغزل الذى يشيب له فؤاد الوليد . ويسترق الحر من كلام عبيد ... » إلخ . وفى الكلمات : العباس وصريع الغوانى والوليد وعبيد ، توريات وفيها تلميح أيضا .

وقد رد عليه الجمال بن نباتة مجيزا له ، ومن كلامه موريا قوله :

« ولكن نقول : الأكابر والأولياء تبذل من الأجوبة جهدها ، وتنفق ما عندها . وتجرد الأماثل سيوف المنطق ولا تتعدى الأتباع من الطاعة حدها . ولما كنت أيها الراقم برود هذا الاستدعاء ببنانه والمنشئ روض هذا السؤال بآثار السحب من بيانه . والسائل الذى بهرت الأفكار فضائله . وسحرت أرباب العقول عقائله . وأقام المسئول مقاماً ليس من أهله ، فليتق الله سائله .

فريد فن الأدب الذى لا يبـارى . وبحره الذى لا يهدى غائص قلبه الدر إلا كبارا . . الخ » . وفى الحد والسائل توريتان .

وقبل أن نترك هذا الباب نشير إلى شيئين .

الأول : ما سبق بيانه عند الحديث عن الجناس ، وأن ابن حجة يرى فيه تـكلفا وعقادة مالم يأت دون كد ولا استكراه . . . الخ » . — وأنه يرى أن الجناس لو أخرج مخرج التورية لسمت به وحولته إلى محسن معنوى ، وخلصته من عقادته .

الثانى : أننا قرأنا كتاب ابن حجة « كشف اللثام » فلم نجد به جديدا يزيد عما جاء بخزانته . على أننا سنشير إليه فى باب الخصائص .

* * *

رأيه فى الاقتباس :

هذا الضرب البديعى عرض آخر من أعراض الأسلوب ، اشتدت العناية به فى العصر المملوكى . وبدا بدوا بارزا فى كلام الأدباء شعرا ونثرا ، وندر أن خلت قصيدة أو مقالة أو رسالة أو نحو ذلك من اقتباس .

وقد عرفه ابن حجة فقال :

« الاقتباس هو أن يضمن المتـكلم كلامه كلمة من آية ، أو آية من آيات كتاب الله خاصة . هذا هو الإجماع .

والاقتباس من القرآن على ثلاثة أقسام : مقبول ومباح ومردود .

فالأول : ما كان فى الخطب والمواعظ والعهود ومدح النبى صلى الله عليه وسلم ونحو ذلك .

والثانى : ما كان فى الغزل والرسائل والقصص .

والثالث : على ضربين :

أحدهما : ما نسبه الله تعالى إلى نفسه . ونعوذ بالله ممن ينقله إلى نفسه . كما قيل عن أحد بنى مروان إنه وقع على مطالعة فيها شكاية من عماله : « إن إلينا إيابهم ، ثم إن علينا حسابهم » .

والآخر : تضمين آية كريمة فى معنى هزل ، ونعوذ بالله من ذلك » .

ثم أخذ ابن حجة يوضح كلامه بأمثلة متنوعة على عادته .

وفى سياق استشهاداته ، بين أن الاقتباس ، منه نوع لا يخرج به المقتبس عن معناه ونوع يتصرف فيه نوع تصرف .

كما بين أن بعضهم يعتبر تضمين الأحاديث النبوية اقتباساً واستخدام بعض المصطلحات من منطق أو نحو أو غيرهما ، اقتباساً أيضاً . وأشار إلى أن بعض العلماء يقصر الاقتباس على النثر فى الخطبة أو الرسالة مثلا ، ونظيره فى الشعر يسمى تضميناً .

ثم أورد ابن حجة أمثلة شعرية ونثرية . ومنها من النثر المملوكى :

ما كتبه زين الدين بن الوردى عن نفسه وعن أخيه يوسف موصياً ، ومنه :

« إذا عنى الصاحب بالأخ رفقاً وإحساناً . تلونا « هذه بضاعتنا ردت إلينا ، ونمير أهلنا ونحفظ أخانا » والله يعلينا بعلوك ويبلغنا مرجونا ببلوغ مرجوك . حتى يقول أولاد الصاحب عنا « ليوسف وأخوه أحب إلى أبينا منا » .

وما كتبه برهان الدين القيراطى إلى جمال الدين بن نباتة ، ومنه :

« يقبل الأرض التى سقت السماء نباتها وعمر الله بمعانى الحسن أبياتها » . ومنها يمدحه : فلا غرو أن فضح بديع الزمان بلفظه البديع . وازدهرت الأوراق بمنثور رسائله التى كل فصل منها ربيع . وخجلت صفحة الخد المنمنمة بطراز العذار المرقوم . وقالت الكئوس حين شبهت فى إمالة الأعطاف بألفاظه : « وما منا إلا له مقام معلوم » .

هذا . ونلاحظ أن ابن حجة لم يتحدث فى هذا الباب ، عن حل آيات القرآن ، على نسق ما تحدث به ابن الأثير والشهاب الحلبى .

* * *

وبعد :

فيطول بنا مقام القول إذا سرنا مع ابن حجة فى شتى نواحى خزانته ، لكى نستخرج منها كل آرائه مفصلة . وما إلى هذا قصدنا ، وإنما أردنا أن ننوه بأبرز الدعائم الأسلوبية ظهوراً فى أساليب عصره . فحسبنا إذن ما بيناه منها .

على أنه ينبغى لنا أن نضم إليها ، أنواعاً أخرى ، كانت كثيرة الدوران فى الأساليب حينذاك ، وحظيت من ابن حجة بعناية . فمنها :

الطباق : وهو الجمع بين الضدين فى كلام . ومثله : الإيراد والإصدار . والليل والنهار . ومنه طباق السلب وطباق الإيجاب .

المقابلة : وهى ذكر شيئين أو أكثر ، ثم ذكر ما يناسب كلا . وقد يكون هذان الشيئان متضادين أو غير متضادين .

الاستخدام : هو إطلاق لفظ مشترك بين معنيين. فتريد بذلك اللفظ أحد المعنيين ، ثم تعيد عليه ضميراً تريد به المعنى الثانى . أو تعيد عليه ضميرين ، تريد بأحدهما أحد المعنيين ، وبالآخر المعنى الآخر .

وهذا هو رأى صاحب الإيضاح ، واتبعه فيه أصحاب البديعيات .

وقيل : هو إطلاق لفظ مشترك بين معنيين . ثم تأتى بلفظين يرشح أحدهما أحد المعنيين ، ويرشح الآخر المعنى الآخر . — واللفظان قد يكونان متأخرين عن اللفظ المشترك ، أو متقدمين ، أو أحدهما قبله . والثانى بعده . وهذا رأى بدر الدين بن مالك .

والفرق بين الاستخدام والتورية ، أن المقصود فيه استخدام المعنيين . أما فى التورية فيراد منها معناها البعيد .

ومن الأمثلة على الاستخدام ، بالمذهب الأول فى قول جمال الدين بن نباتة :

إذا لم تفض عينى العقيق فلا رأت   منازله بالقرب تبهى وتبهر
وإن لم تواصل عادة السفح مقلتى   فلا عادها عيش بمغناه أخضر

ومثاله بالمذهب الثانى ، قوله تعالى : « لـكل أجل كتاب ، يمحو الله ما يشاء ويثبت » فإن لفظة « كتاب » بمعنى « أمد » وبمعنى « صحيفة مكتوبة » . وتجاذبتها قرينتان : الأولى « أجل» فرشحت المعنى الأول . والثانية «يمحو ويثبت » فرشحت المعنى الثانى .

وبمناسبة الاستخدام نعيد لفت النظر إلى كتاب ابن حجة «كشف اللثام عن وجه التورية والاستخدام » . وأننا لم نظفر فيه بجديد ، يزيد على ما دونه فى الخزانة ، فى باب الاستخدام .

الإيداع أو التضمين[1] : وقد فرق ابن حجة بينهما ، بعدما قال : « هذا النوع — أعنى الإيداع — يغلب عليه التضمين ، والتضمين غيره ، فإنه معدود من العيوب . والعيب المسمى بالتضمين ، هو أن يكون البيت متوقفاً فى معناه على البيت الذى بعده . كقول النابغة :

وهم وردوا الجفار على تميم   وهم أصحاب يوم عكاظ إنى
شهدت لهم مواطن صادقات   أنبئهم بود الصدر منى[2]

ثم عرف ابن حجة « الإيداع » ، فقال : « الإيداع الذى نحن بصدده هو أن يودع الناظم شعره بيتاً من شعر غيره ، أو نصف بيت ، أو ربع بيت ، بعد أن يوطئ له توطئة تناسبه بروابط متلائمة بحيث يظن السامع أن البيت بأجمعه له .

وأحسن الإيداع ما صرف عن معنى غرض الناظم الأول .

ويجوز عكس البيت المضمن بأن يجعل عجزه صدراً ، أوصدره عجزاً . وقد تحذف صدور قصيدة بكمالها ، وينظم لها المودع صدوراً لغرض اختاره ، وبالعكس .

وقد أسهب ابن حجة فى سوق أمثلة الإيداع ، وكان يطلق عليه أحياناً ، فى خلال الأمثلة ، لفظ «التضمين» ومن أمثلته : قول الصفدى يعاتب ابن نباتة :

---

(١) الخزانة ص ٣٧٧ .

(٢) ممن ذكر هذين البيتين ، ابن عبد ربه فى كتابه العقد الفريد ج ٤ باب عيون القواف . وسماه المضمن .

أفى كل يوم منك عتب يسوءنى　　بجلمود صخر حطه السيل من عل

فأجابه ابن نباتة قائلا :

فطمت ولائى ثم أقبلت عاتبـــاً　　أفاطم مهـــلا بعض هذا التدلل

وقد سارت قصيدة كل من الشاعرين على هذا النمط . بتضمين أعجاز معلقة أمرىء القيس ، مع صرف غرضها إلى غرض آخر .

ونلاحظ هنا أن « التضمين » أو « الإيداع » كما سماه ابن حجة ، كان من أهم الألوان البديعية دورانا فى ألسنة الأدباء . ومع ذلك فقد أهمل ابن حجة أن يورد منه نماذج نثرية . ويبدو من مطلع حديثه عنه : أنه يقصره على الشعر دون النثر ، وأنه يعتبر « التضمين » فى النثر ضربا من « الاقتباس » . ولكنه لم يصرح بذلك فى باب الاقتباس ، بل قال هناك فقط ما نصه . « إن الاقتباس مقصور على القرآن والحديث فى النثر . وأما فى النظم فهو عبارة عن عقد وتضمين » . وهى عبارة — كما ترى — يحيط بها الإبهام .

الإبهام : هو أن يقول المتكلم كلاما مبهماً يحتمل معنيين متضادين لا يتميز أحدهما عن الآخر ، ولا يأتى فى كلامه بما يحصل به التمييز فيما بعد ، بل يقصد إبهام الأمر فيهما . والإبهام مختص بالفنون كالمديح والهجاء . ولكن لا يفهم من ألفاظه مدح ولا هجاء ، بل يكون لفظه صالحاً للأمرين . ومثاله المشهور ، وهو من الشعر العباسى :

خاط لى عمرو قباء　　ليت عينيه سواء

ومثاله من النثر : ما كتبه ابن حجة تقريظاً على كتاب صنفه « شمس الدين محمد بن ناهض القفاعى » مشتملا على سيرة ملكهم المؤيد شيخ ، وفيه نظم ونثر . وكان ابن ناهض المذكور ليس له إلمام بتعاطى الأدب فى مبادىء عمره . وسأل ابن حجة هذا التقريظ ، فكتب — وكله إبهام :

« وقفت على قواعد الأدب من هذه السيرة الناهضية . فوجدت مطرب لحنها قد أعرب عن التنكيت لأهل النكت الأدبية ، ونويت معها سلوك الأدب

لاحتشامها بالصفات المؤيدية . فإنها ما قوبلت بأدب إلا تقوت بسلطانها ، ولاجارتها سيرة مطولة ، إلا كانت قاصرة عن الجرى فى ميدانها . ولا ذكرت التواريخ المقدمة معها إلا تأخرت وكبت خلفها . ولا ناظرها ذو قصص إلا ثقل عليه أمرها ، ونظر إلى قصصه فاستخفها . . . الخ » .

التوجيه : يعتبره بعضهم أنه هو الإبهام الذى يحتمل معنيين متضادين . وهذا هو مذهب ابن أبى الأصبع ، والمتأخرون يعرفونه بأن يوجه المتكلم بعض كلامه — أو جملته — إلى أسماء متلائمة اصطلاحا من أسماء الأعلام أو قواعد العلوم ، أو غير ذلك مما يتشعب له من الفنون ، توجيها مطابقا لمعنى اللفظ الثانى ، من غير اشتراك حقيقى — بخلاف التورية ·

ومنه ما كتبه ابن حجة فى توقيع بتعيين أحد كتاب السر ، فورى بمصطلحات البديع والإنشاء ، المناسبة . فمنه قوله :

« وبعد فمنهل إنعامنا الشريف قد حلينا لأهل الأدب موارده · لتصير عقود إنشائنا بجواهر منثوره منضدة . وتطلع كل براعة باستهلالها فى أشرف المطالع . وتسكن النزاهة طباق البديع للمقابلة فيتنزه الناظر والسامع » . . . الخ

* * *

نكتفى ببيان هذه الأنواع ، ونضيف إليها ألوانا أخرى من البيان . وهى التشبيه والمجاز وحسن الاستعارة — كما سماها ابن حجة — فهذه الأنواع البيانية — وإن كانت واسعة السلطان عالية الجاه فى الأساليب العربية ، من قديم الزمان ، ومختلف العصور — قد كان لهما سلطان وجاه عظيم فى الأساليب المملوكية .

وحقاً لم يتحمس ابن حجة كل التحمس — كعادته — وهو بصدد الحديث عن هذه الأنواع البيانية · ولعل ذلك بسبب أنها ليست ذات سيطرة جديدة ، طارئة على أساليب عصره ·

ولسنا هنا بصدد الحديث الجامع عن الألوان البديعية ، وتتبعها كلها فى

أساليب المنشئين فى العصر المملوكى . ولكننا أحببنا أن نبرز أمام القارئ ، بعض هذه الألوان ، مما كان له سيطرة على تلك الأساليب حسبما رأى ابن حجة فى خزانته — وسنرى عما قريب مصداق نظره — ومما كان له ميزانا أو قاعدة من قواعد النقد الفنى فى عصره .

وأهم تلك الأنواع — على ما نوهنا :

براعة الاستهلال ، والجناس والسجع ونظام فقراته . والتورية . والاقتباس والطباق . والمقابلة . والاستخدام . والإبهام . والتوجيه . والإيداع . أو التضمين . والتشبيه . والمجاز . وحسن الاستعارة ، وخاصة الاستعارة المرشحة ، إذ قال عنها ابن حجة . « ليس فوق رتبتها فى البديع رتبة » .

وهناك ألوان أخرى كثيرة ، استحسنها ابن حجة . ولكن يبدو أنها لم تكن ذات سيطرة ضخمة على الأساليب . فهى أصباغ قليلة الظهور . ومنها على سبيل المثال : « الهزل الذى يراد به الجد » .

وهناك ألوان أخرى استهجنها ابن حجة وقبحها وحمل عليها ، وبين أنه لم يلتزمها فى بديعيته إلا من باب المعارضة فحسب ، لأن المعارضة ملزمة بذلك . ومنها — على سبيل المثال أيضاً :

المراجعة : وهى أن يحكى المتكلم مراجعة فى القول ، ومحاورة فى الحديث بينه وبين غيره بأوجز عبارة وأرشق سبك وألطف معنى وأسهل لفظ . إما فى بيت أو أبيات . وقال عنها ابن حجة إنها ليس تحتها كبير أمر : وقد عجب كيف راق لابن أبى الأصبع اختراعها ، وقرنها إلى ما اخترع من ألوان بديعية مثل : التهكم والافتنان والتدبيج والهجاء فى معرض المدح ، والاشتراك . والإلغاز ، والنزاهة — ولسنا مع ابن حجة فى استهجان المراجعة .

وعلى هذا النمط تكلم مستهجنا ، عند تشابه الأطراف والتفويف وعتاب المرء نفسه والقسم ، وغير ذلك .

وهناك ألوان بديعية خاصة بالشعر دون النثر ، ومنها : الاستطراد والتخيير وإرسال المثل والتشريع والاكتفاء والاطراد . إلى غير ذلك . هذه الألوان

ضربنا الذكر صفحاً عنها لأن الكلام عنها ليس من صميم بحثنا ، ولم ننوه بشيء منها فى هذا البحث إلا نادراً .

* * *

ونختم هذا الفصل بأن ندعمه بعرض مناهج أخرى لابن حجة فى النقد ، يتجلى فيها ذوقه السليم ، وطبعه القويم ، بعيدة عن خضم البلاغة وقواعدها ؛ سارية مع تيار الأدب العذب اللطيف . ومن ذلك قوله فى باب التشبيه[1] :

« ومن قول ابن المعتز فى وصف الهلال :

وجاءنى فى قميص الليل مستتراً　　يستعجل الخطو من خوف ومن حذر
ولاح ضوء هلال كاد يفضحنا　　مثل القلامة قد قدت من الظفر

هذا التشبيه ، ذكروا أنه من مخترعات ابن المعتز . ولكن زاده القاضى الفاضل بهجة . ونقله من الأعلى إلى الأدنى . فإن رتبة الهلال وعلوها فى التشبيه على قلامة الظفر ، ما برحت مقررة فى الخواطر . إلى أن نقله القاضى الفاضل بطريق بديعية ، اقتضتها الحال ، وهى قوله مبالغا فى وصف قلعة نجم بالعلو : «وأما قلعة نجم فهى نجم فى سحاب . وعقاب فى عقاب . وهامة لها الغمامة عمامة . وأنملة إذا خضبها الأصيل كان الهلال لها قلامة » . فخضاب الأصيل لهذه الأنملة حسن أن يكون الهلال لها قلامة . وهذه غاية فاضلية لا تدرك ... الخ » .

ومن ذلك قوله أيضاً فى باب التشبيه :

« ذكرت هنا من التشابيه التى هى غير بليغة ، قول الشيخ صلاح الدين الصفدى ، فى تشبيه القمر فى خلال الأغصان لما انثنت :

كأنما الأغصان لما انثنت　　أمام بدر التم فى غيهبه
بنت مليك خلف شباكها　　تفرجت منه على موكبه

وقد أورد عليه علامة عصرنا القاضى بدر الدين الدماميني — فسح الله تعالى فى أجله — فى كتابه المسمى : « نزول الغيث الذى انسجم فى شرح لامية العجم » ، نقداً كشف به القناع عن عدم بلاغة هذا التشبيه . فإن الشيخ بدر الدين المشار إليه قال — وقوله صحيح :

---

(١) الخزانة باب التشبيه ص ١٧٣ .

« إن ظاهر عبارة الشيخ صلاح الدين تشبيه الأغصان فى حالة انثنائها أمام البدر فى الدجى ، ببنت مليك تطل من شباكها للنظر فى موكب أبيها . وذلك عن مظان التشبيه بمعزل . ومقصوده أن البدر فى حالة ظهوره من خلال الأغصان المنثنية على الصفة المذكورة ، يشبه بنت مليك على تلك الحالة . تمثيلا للهيئة الاجتماعية . لكن اللفظ لا يساعد على ذلك المطلوب . فإنه جعل الأغصان مبتدأ وأخبر عنه بقوله : « بنت مليك » ... فلم يتم له المراد . على أن مقطوع الشيخ صلاح الدين مع ما فيه من عدم بلاغة التشبيه مأخوذ من قول « محي الدين بن قرناص الحموى » :

وحديقة غناء ينتظم الندى   بفروعها كالدر فى الأسلاك
والبدر يشرق من خلال غصونها   مثل المليح يطل من شباك

* * *

الخلاصة :

إلى هنا نستطيع أن نستخلص جملة أمور منها :

أولا : أن ابن حجة ناقد ذو ذوق . وأنه وإن اعتمد فى كتابه : « خزانة الأدب » على النقد البلاغي ، لم يتقيد به . وأنه مزج بين كثير من قواعد النقد البلاغي واتجاهات النقد الذوقى ، متأثرا فى ذلك باتجاهات معاصريه . وبذلك أبرز الذوق الأدبى العام الذى ينتظم أدباء عصره .

ثانيا : أنه أبرز هذا الذوق ، أكثر مما أبرزه الشهاب الحلبي . وهذا يدل على أن الشهاب الحلبي — وهو من أهل المائة الأولى من العصر المملوكى — تلقى ، بجيله ، الثقافة الموروثة ، فامتزجت فى نفسه بثقافة عصره . فكان لهما معاً أثر فى توجيه ذوقه الأدبى ، الذى هو — فى جملته — صدى لذوق عصره.

أما ابن حجة — وهو من أهل المائة الثانية من العصر المملوكى — فقد استقرت هاتان الثقافتان فى نفسه ، وكان الذوق الأدبى للعصر قد تركز ، وأخذ وضعاً معينا ، فنضج بذلك ذوق ابن حجة الفنى على أساس من منهج عصره ، فكان صدى له .

وبالموازنة بين الرجلين ، نرى أن ابن حجة أكثر تمثيلا لذوق العصر المملوكى واتجاهه الأدبى ، من الحلبي . وهذه نتيجة زمنية أحدثها بعد ما بين

زمنيهما . وتأخر ابن حجة عن الحلبي فى الزمن . فالفترة التى عاش فيها الحلبي كانت — فى جملتها — فترة انتقال وإنشاء . والفترة التى عاش فيها من بعده ابن حجة ، كانت فترة استقرار وتركز وإرساء . وقد اتفق الرجلان فى أمور وافترقا فى أمور . ولعل من أبرز ما افترقا فيه : التورية . فالحلبي لم يحتفل بها — لا فى كتابه ولا فى إنشائه — احتفال ابن حجة بها . وذلك لأنها فى جيل ابن حجة ، أو بعد جيل الحلبي ، أو على يد جمال الدين بن نباتة « ٧٦٨ هـ » قد استقرت دعائمها ، وأصبحت من أهم أصباغ الأدب . — ومثلها الجناس ، فإن الحلبي لم يقف عنده وقفة طويلة كما وقف ابن حجة ، ولم يشر إلى إخراجه مخرج التورية حتى ترفع عنه العقادة ، ويصبح محسنا معنويا . إلى غير ذلك . — هذا وقد صرح ابن حجة بأن الشهاب الحلبي لم يكن يحفل بالتورية .

ثالثاً : أنه لم يقتصر فى نقده على أدباء عصره ، بل تناول غيرهم . وأنه لم يقتصر على نقداته المبتكرة ، بل أضاف إليها من نقدات غيره — معاصرين ومتقدمين — ليدعم بذلك نقداته وهذا مسلك فى النقد قويم . وأنه ارتضى من دعائم الأسلوب ألواناً هى أزهى ألوانه فى عصره . كما استقبح ألواناً أخرى ، كما لم يتحمس لبعض الألوان . وهذا يطابق الاتجاه الأدبى العام فى عصره ، فهو لذلك يمثله . ولا عبرة بالشواذ كالصفدى . لأنه ذو اتجاه خاص — وهذه الألوان التى تحدث عنها ابن حجة منها ما يختص بالشعر ، وما يختص بالنثر ، وماهو مشترك بينهما ولم نعر القسم الأول اهتماماً كبيراً فى بحثنا هذا لضعف علاقته بموضوعه .

رابعاً : أن ابن حجة — كأى إنسان آخر — له حسنات وله عيوب . ومن عيوبه : تكرار أمثلته فى كتبه المتعددة ، وزهوه الشديد بنفسه وبنتاج قلمه ، ونقله من المتقدمين — كالشهاب محمود — بدون إشارة إلى ذلك . وهذا قليل لا كثير ولا مطرد . وأنه قاس فى حملته على من يخالف مذهبه كالصفدى والحلى . فقد نعتهما بما لا يرضاه منه أديب .

وعلى كل حال ، فهذه هنات ، لا يخلو الأدباء من أمثالها ، وكلها يغتفر

لابن حجة ، إلا المحنة الأخيرة . ويا حبذا لو كان قد تخلى عنها ولعل فى جهوده الأدبية ما يشفع فيها .

خامساً : أن أسلوب ابن حجة فى كتابه « الخزانة » أسلوب غير مقيد ، لم يثقله كلف البديع ولم يتأنق فيه كاتبه ، كما اعتاد أن يتأنق فى كتابة رسائله مثلا ، هذا مع استثناء ما أورده من أمثلة ، وشواهد ، سواء أكانت من إنشائه أم من إنشاء غيره ، فإننا هنا نصف أسلوبه الخاص بشرح البديعية وما تخلله من نقدات وتعريفات .

هذا ، غير أنه ينطلق فى بعض الأحيان فى رسن من أرسان البديع ، وسرعان ما يعرج ثانيا على طلاقته ويجنح إلى حريته .

ويمزج نقداته فى أحيان كثيرة بعبارات فيها تهويل ومبالغة ، أو مباهاة وفخر ، أو تجن وقدح . وهو إلى ذلك ، كثير النقل من غيره ، سواء أكان ذلك فى صميم النقد أو فى تعريفات أنواع البديع ، يعرض ذلك فى وضوح وإشارة إلى من ينقل عنهم

وهو فى استشهاداته ذو ذوق حسن ، يقع خاطره على الرائع السائغ ، ويلذ له الاستطراد فى استشهاده إذا وجد بين الشواهد ما يغريه به . ولهذا أصبح كتابه سجلا حافلا بشواهد الأدب والبديع مارق وراق . ودل بذلك على سعة اطلاعه وشامل إحاطته .

وحسبنا هذا البيان عن ابن حجة ولننتقل بالقارىء الكريم إلى أديب آخر له لون جديد من ألوان النقد . يخالف به الحلبي وابن حجة فى جملة مذهبهما ويخالف العصر . والحديث عنه — بلا ريب — يلقى ضوءا جديداً على النثر المملوكى يتضح منه اتجاهاته ومناهجه . وسنناقش هذا الأديب الكبير ، مناقشة يتضح منها رأينا فى الأساليب النثرية . — وهذا الأديب هو « ابن خلدون » .

الفصل الثالث

ولى الدين بن خلدون(1)

٧٣٢ هـ — ٨٠٨ هـ

هذا ناقد من لون جديد . نعرض له الآن ، لاتجاهه فى نقده وجهة خالفت إجماع عصره ، فلم يكن لنا بد من أن نعرج عليه تعريجة عجلى ، نطلع منها على كنه اتجاهه ونقده . ونناقشه ، ونوازن بينه وبين غيره .

وإليك تعريفاً به وجيزاً :

هو ولى الدين أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن خلدون التونسى المالكى ، المؤرخ الفيلسوف ، والأديب البارع والمنشئ والشاعر والمؤلف . المشهور بابن خلدون . الذى شرق صيته وغرب ، صاحب المقدمة المشهورة فى فلسفة التاريخ ونشوء العمران .

ولد فى تونس عام ٧٣٢ هـ من أسرة عربية الأصل ، يمنية . اشتهر بعض أفرادها بالعلم والأدب والسياسة . ولما شب تعلم وتفقه ومارس الأدب وعالج الكتابة والشعر . ثم تقلب فى وظائف دول مختلفة فى بلاد المغرب والأندلس . وبلغ بسعة علمه ورجاحة عقله وحسن ذكائه وقوة عارضته وفراهة أدبه ، وإقباله على المغامرة فى سبيل المجد والجاه ، مبلغاً حسناً لدى الملوك والرؤساء . حتى استكفوه فى بعض مهامهم وشئون دولهم العليا ، ومنها كتابة السر وإنشاء الرسائل .

ولما نبا به المقام فى بلاد المغرب أقبل أخيراً على مصر . وتوطنها نحو ثلاث وعشرين سنة ، حظى فيها لدن سلاطينها ورؤسائها . وولى قضاء المالكية بها

---

(1) توجد ترجمة ابن خلدون فى الضوء اللامع للسخاوى ج ٤ رقم ٣٨٧ .

أكثر من مرة وزاول التدريس بالجامع الأزهر. وما زال، حتى قبض ودفن بمصر عام ٨٠٨ هـ . لهذا نعتبره أحد رجالها.

وأجل آثاره مقدمة كتاب تاريخه «العبر»، فى أخبار العرب والعجم والبربر. وقد أودع فى هذه المقدمة خلاصة ذهنه وعصارة عقله، وابتدع فيها قوانين العمران.

ولسنا هنا بصدد الحديث عن فلسفته العمرانية، ولا بسطها ولا نقدها، ولا بيان مبلغ ما فيها من صواب وصدق، أو باطل وزيف. وإنما تهمنا هنا نزعته الأدبية، ونظرته إلى أساليب معاصريه.

كان ابن خلدون أديباً ممتازاً، وشاعراً جيد الديباجة، ومنشئاً بارع الإنشاء، عالج الكتابة فى الدواوين الرسمية، وخارج الدواوين. فكتب الرسائل السلطانية، وكتب الرسائل الإخوانية.

ولكن كان — بجانب ذلك أو قبل ذلك — صاحب ذهن وقاد، وقريحة نفاذة جبارة، تميز بين الخبيث والطيب، وتفرق بين الغث والسمين. وتتغلغل بين الأغوار فتسبرها، وتتجاوز حدود السطحية إلى الأعماق فتختبرها وتظهرها، ولا يني يتناول الأشياء بعقله وحصافته، فيتألف دقائقها، ويتعرف حقائقها، حتى يصل من وراء ذلك، إلى ميز الحق من الباطل، وفصل الأصيل عن البهرج الزائف.

إلا أن ذهنه كان ذهن فيلسوف يعيش بعقله أكثر مما يعيش بقلبه، ويحيا بمنطقه أكثر مما يحيا بعاطفته. وبهذا استطاع أن يفتح أمام ناظريه كتاب الكون وسفر الحياة. فقلب فى صفحاته ما شاء. حتى بلغ من معرفة أسرارها مبلغاً محموداً، فطفق يكتب قوانين الحياة وشرائع العمران.

كان ابن خلدون بذلك أرحب أفقا من معاصريه، وأبعد تطلعا. وأعمق خبرة، وأشمل نظرة. كان فى مستوى عقلى فوق مستواهم. لهذا كانت أحكامه الأدبية — أو بعضها على الأقل — أدنى إلى المثالية، وأبعد عن الواقعية.

ولعل من المناسب أن نصف أسلوب ابن خلدون فى تاريخه ، وفى مقدمته وفى رسائله ، وصفا موجزا ، نقدم به بين يدى الكلام عن نقده لأسلوب معاصريه ، وحملته الشعواء عليهم، مشيرين قبل كل شىء إلى أن الأسلوب البديعى المسجوع ، كان إلى عهده صاحب السيطرة على أساليب الأدباء فى المشرق والمغرب معا ، لا فى مصر والشام وحدهما ، مع فوارق واختلافات . ليس هنا محل الإفصاح عنها . أما أسلوب ابن خلدون فيتجلى فيما يلى :

أسلوبه فى كتاب تاريخه :

عدل فيه عن السجع والمحسنات إلى توخى الاسترسال والقص ، وسرد الحوادث ووصف الوقائع ، وتدوين أخبار الدول والحروب ، فى عبارات هينة سهلة لا كلفة فيها ولا أناقة ، هى قريبة الشبه بأساليب أكثر المؤرخين فى تلك العصور . وقد كانوا فى أغلب أمرهم ، لا يبالون بأية عبارة يلقون بها أخبارهم ، حتى انحط بعضهم إلى مستوى العامية .

هذا ، وقد راعى تسجيل حوادث كل دولة فى فصول على حدة . مع افتتاحها بعبارات موجزة فى بيان أسباب نشوئها .

أسلوبه فى المقدمة :

سار فيه على نسق أسلوبه فى بقية كتاب تاريخه . ونعنى بالمقدمة ، الجزء الأول من « العبر » ، وهى التى ملأها فصولا فى نشوء العمران ، وفى تاريخ العلوم والآداب والصناعات . وغير ذلك .

وقد برىء أسلوبه فيها من المحسنات البديعية ، والقيود اللفظية . وأمعن فى الاسترسال . ولم يراع إلا مقتضى الحال — وفق فهمه ومناسبات كلامه — لذلك برز أسلوبه بليغاً سهلا أخاذا . كأنه الحديث المبثوث فى غير كلفة تئوده ، ولا زينة تثقل خطوه . ولم يتوخ فيه إلا الرغبة فى الإيضاح والبيان ، وإبراز المعانى .

ولابن خلدون فى هذه المقدمة خصوصية، وهى الحنكة الأسلوبية فى حسن

إبراز المعانى الدقيقة بألفاظ وجمل غاية فى الدقة والكياسة والدلالة . وهذا هو الوصف الشائع فى أسلوب مقدمته مع السهولة والعذوبة فى اللفظ والتركيب .

وقد كانت المقدمة بأساليبها أستاذا للكتاب والصحافيين فى العصر الحديث، طوعت لهم أساليب اللغة وأخضعتها بين أيديهم، والاتهالهم بما ضربته من نماذج قوية فى التعبير عن أدق المعانى الاجتماعية والاقتصادية والعلمية والصناعية . فكان لها أثر لا ينكر فى توجيه الأسلوب الحديث، وعدول كتاب عصرنا عن الأسلوب البديعى، وهجر السجع ونظام الفقرات وما إلى ذلك .

ولم يسمح ابن خلدون لأسلوب مقدمته — على الرغم من سهولته ودنوه — بالالتياث بألفاظ العامة والسوقة المبتذلة والملحونة، والدخيلة إلا قليلا .

ولا يخلو — مع ذلك — من هنات ومآخذ . مثل جعل الخبر أوجواب الشرط استثناء . وكإدخال الباء على غير المتروك فى أفعال الاستبدال . وكالاستطراد بين جزأى العبارة . وكإطالة بعض العبارات إطالة قد يضل المعنى فى ثناياه . وكالنزوع نحو الأقيسة والموازنات أحيانا، إلى غير ذلك[١] . . .

أسلوبه فى خطبة كتابه وفى رسائله :

ومن العجيب أن يحمل ابن خلدون على كتاب عصره ملتزمى القيود البديعية، ثم يأبى إلا أن يسجع فى عنوان كتابه وفى خطبته . فقد بدا فيهما معا تكلف منه شديد فى صوغ عباراتهما . وعنوان كتابه أطول عنوان مسجوع . كما التزم السجع فى الخطبة وأطال فى قرائنها المسجوعة طولا مملا . حتى استغرقت إحدى سجعاته — مثلا — نحو عشر قرائن .

أما رسائله الإخوانية فقد خضع فى أسلوبها لمنهج عصره — مع أنه فيها حر وبمنجى من الخضوع لربقة البديع، وليس مقيداً فيها بديوان ولا سلطان . ومع هذا لجت فى بحر البديع، وطارعت تياراته . ولعل سبب ذلك أنه لم يكن

---

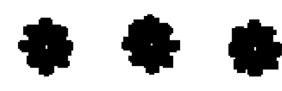
(١) راجع ترجمة ابن خلدون للأستاذ الإسكندرى — رحمه الله — فى جملة مذكراته لطلاب دار العلوم .

لنفسه يكتبها ، وإنما لإخوانه ومناظريه ، وهم جلة أدباء عصره . مثل لسان الدين ابن الخطيب ، ممن ينهجون منهج العصر فى سلوك البديع . فكان هذا حالا اقتضى مجاراتهم فى هذا الأسلوب . . .

أما رسائله السلطانية ، فيبدو لنا أنه فى مطالع حياته الديوانية نهج نهج كتاب عصره من اصطناع البديع ، وتحرى السجع . إذ كانت طريقة القاضى الفاضل قد غربت بعد ما شرقت ، وكان لها أثر فى كتابة منشئ المغرب .

غير أن ابن خلدون لم يلبث ناهجا هذا النهج طويلا ، بل ربأ بنفسه عن نير التقليد ، وأزاح عن كاهله ربقته ، ونادته سجيته وسليقته إلى أن يزاول الترسل ، وينطلق فيه بدون قيد ، ليعيد بذلك سنة الكتاب البلغاء الأوائل . وقد قال فى ذلك عن نفسه عندما استخدمه السلطان أبو سالم المرينى سلطان فاس ، فى كتابة سره وإنشاء رسائله ، ما نصه :

« واستعملنى فى كتابة سره . والترسل عنه ولإنشاء مخاطباته . وكان أكثرها يصدر عنى بالكلام المرسل بدون أن يشاركنى أحد ممن ينتحل الكتابة فى الأسجاع ، لضعف انتحالها وخفاء المعانى فيها على أكثر الناس ، بخلاف المرسل . فانفردت به يومئذ ، وكان مستغرباً عندهم من أهل هذه الصناعة » .



وقبل أن نعرض لرأيه فى أسلوب معاصريه . نسجل مثلين من كتابته : أحدهما مرسل ، والثانى مسجوع . لنتبين مقدار الفارق بينهما ، ولنرى أنه حينما ترسل ، وبخاصة فى مقدمته وتاريخه ، كان عالماً قبل أن يكون أديبا . وأنه حينما سجع وكتب رسائله الخاصة ، كان أديباً معاصراً قبل أن يكون عالما .

فمن ترسله ، ما كتبه فى مقدمته ، عن نكبة البرامكة ، قال :

« وإنما نكب البرامكة ما كان من استبدادهم على الدولة واحتجانهم أموال الجباية . حتى كان الرشيد يطلب اليسير من المال فلا يصل إليه . فغلبوه على أمره . وشاركوه فى سلطانه . ولم يكن له معهم تصرف فى أمور ملكه . فعظمت

آثارهم ، وغمروا مراتب الدولة وخططها بالرؤساء من ولدهم وصنائعهم واحتازوها عمن سواهم من وزارة وكتابة وقيادة وحجابة وسيف وقلم » الخ...

ومن سجعه ، ما كتبه من رسالة إلى لسان الدين بن الخطيب ، قال :

« سيدى مجدا وعلوا . وواحدى ذخرا ومرجوا . ومحل والدى برا وحنوا . ما زال الشوق منذ نأت بى وبك الدار ، واستحكم بيننا البعاد ، يرعى سمعى أبناءك ، ويخيل لى من أيدى الرياح تناول رسائلك . حتى ورد كتابك العزيز على استطلاع . وعهد غير مضاع . وود ذى أجناس وأنواع . » الخ . . .

* * *

رأيه فى أسلوب معاصريه :

ومن كتابته المرسلة ، ذلك الفصل الذى كتبه فى مقدمته تحت عنوان : « فصل فى انقسام الكلام إلى فنى النظم والنثر » ، وحمل فيه حملة شعواء على المتأخرين من الأدباء ، ولا سيما أدباء المشرق لعهده ، لما اتجهوا بأساليب نثرهم وشعرهم نحو السجع والحلية ، وعدم مطابقة ذلك لمقتضى الحال ، ومنافاته للبلاغة ، قال :

« واعلم أن لكل واحد من هذه الفنون — يعنى فنون الشعر والنثر — أساليب تختص به عند أهله ، ولا تصلح للفن الآخر ، ولا تستعمل فيه . مثل النسيب المختص بالشعر ، والحمد والدعاء المختص بالخطب ، والدعاء المختص بالمخاطبات ، وأمثال ذلك .

وقد استعمل المتأخرون أساليب الشعر وموازينه فى المنثور ، من كثرة الأسجاع ، والتزام التقفية ، وتقديم النسيب بين يدى الأغراض . وصار هذا المنثور إذا تأملته من باب الشعر وفنه ، لم يفترقا إلا فى الوزن .

واستمر المتأخرون من الكتاب على هذه الطريقة ، واستعملوها فى المخاطبات السلطانية ، وقصروا الاستعمال فى المنثور كله على هذا الفن الذى ارتضوه . وخلطوا الأساليب فيه ، وهجروا المرسل وتناسوه . وخصوصاً أهل المشرق .

وصارت المخاطبات السلطانية ، لهذا العهد ، عند الكتاب الغفل ، جارية

على هذا الأسلوب الذى أشرنا إليه . وهو غير صواب من جهة البلاغة ، لما يلاحظ فى تطبيق الكلام على مقتضى الحال ، من أحوال المخاطب والمخاطب .

وهذا الفن المنثور المقفى : أدخل المتأخرون فيه أساليب الشعر . فوجب أن تنزه المخاطبات السلطانية عنه ، إذ أساليب الشعر تنافيها اللوذعية . وخلط الجد بالهزل . والإطناب فى الأوصاف ، وضرب الأمثال وكثرة التشبيهات والاستعارات . حيث لا تدعو ضرورة إلى ذلك فى الخطاب . والتزام التقفية أيضا ، من اللوذعة والتزيين . وجلال الملك والسلطان ، وخطاب الجمهور عن الملوك بالترغيب والترهيب ، ينافى ذلك ويباينه .

والمحمود فى المخاطبات السلطانية ، الترسل . وهو إطلاق الكلام وإرساله من غير تسجيع ، إلا فى الأقل النادر ، وحيث ترسله الملكة إرسالا من غير تكلف له . ثم إعطاء الكلام حقه فى مطابقته لمقتضى الحال . فإن المقامات مختلفة . ولكل مقام أسلوب يخصه ، من إطناب أو إيجاز أو حذف ، أو إثبات ، أو تصريح ، أو إشارة ، أو كناية واستعارة .

وأما إجراء المخاطبات السلطانية على هذا النحو الذى هو على أساليب الشعر ، فمذموم . وما حمل عليه أهل العصر إلا استيلاء العجمة على ألسنتهم ، وقصورهم لذلك عن إعطاء الكلام حقه فى مطابقته لمقتضى الحال . فعجزوا عن الكلام المرسل ، لبعد أمده فى البلاغة ، وانفساح خطوه فيه . ويجبرونه بذلك القدر من التزيين بالأسجاع والألقاب البديعية ، ويغفلون عما سوى ذلك .

وأكثر من أخذ بهذا الفن ، وبالغ فيه فى سائر أنحاء كلامهم ، كتاب المشرق وشعراؤه لهذا العهد ، حتى إنهم ليخلون بالإعراب فى الكلمات والتصريف ، إذا دخلت لهم فى تجنيس أو مطابقة لا يجتمعان معها ، فيرجحون ذلك الصنف من التجنيس ، ويدعون الإعراب ، ويفسدون بنية الكلمة عساها تصادف التجنيس .

فتأمل ذلك بما قدمناه لك ، تقف على صحة ما ذكرناه . والله الموفق للصواب بمنه وكرمه ، والله تعالى أعلم » .

* * *

مناقشة هذا الرأى :

نحب أن نقف طويلا عند عبارات ابن خلدون ، نتأمل محتوياتها ، ونتدبر معانيها ومراميها ، وخاصة لأن ابن خلدون أديب ممتاز ، وفيلسوف اجتماعى مبتكر ، راع الإنسانية — ولا يزال يروعها — بما قدم لها من عصارة فكره النافذ ، وخلاصة ذهنه الوقاد . فمثله ذو أثر بارز فى لفت العقول ، وتنبيه النفوس ، وتوجيه الأفكار .

ولا نشك فى أن لإذاعة مؤلفاته فى عصرنا الحديث ، أثراً قوياً فى أدبائه. وفى توجيه أذهانهم نحو كثير من القضايا الأدبية ، وفى إقرار هذه القضايا — أو بعضها — فى نفوسهم : حتى احتلت منها محل الثقة والتصديق المطلق ، وقوبلت منهم بالرضا والتسليم التام .

ومن أهم مميزات ابن خلدون أنه حينما يلقى قضية ، أو يسجل ظاهرة ، يدعمها بأدلتها وبراهينها . وهذا مما يعاون معاونة كبرى على تصديقها والتسليم بها. كما أنه — فى الوقت نفسه — قد يثير شكا فيها ويدعو إلى مناقشتها ، فلعلها عند الفحص الدقيق لا تثبت ، وعند التمحيص العميق تتزلزل فتتخلخل ، فتنهار وتهوى ... وكثيراً ما فند الأدباء أشياء من آرائه ، وكشفوا عن زيفها وخطئها .

ولا نتجنى على ابن خلدون ، كما تجنى هو على أدباء معاصريه . . . وحاشا أن نرميه بشىء كما رماهم . فله فى نفوسنا مكانة ، وفى قلوبنا محلة ، وفى ألسنتنا تجلة . وإنما نحب أن ننصف أدباء عصره من ربقة حكمه ، ونطلق سراحهم من أغلال قيده ، وبخاصة أدباء المشرق ، أدباء مصر والشـام لعهده . ممن رماهم بأنهم غفل ، وبأنهم أعاجم ، وبأنهم عاجزون عن المطابقة بين كلامهم ومقتضى الحال ... وبذلك أخرجهم من عداد البلغاء ، وطردهم من قائمة الأدباء . غير مستثن ولا مستدرك . . .

نحب أن نناقش هنا عباراته وأحكامه وبراهينه ، عبارة عبارة ، وحكما حكما وبرهانا برهانا ، فى هدوء وتؤدة يناسبان جلاله ووقاره .. فنقول :

أولا :

يقول ابن خلدون إن المتأخرين استعملوا أساليب الشعر فى المنثور . ثم بين أن مراده من تلك الأساليب كثره المسجوع والتزام التقفية ، وتقديم النسيب بين يدى الأغراض .

إذا كان المراد بأساليب الشعر ، ما فيه من أخيلة لطيفة وتصورات ذهنية طريفة ، فالأساليب النثرية ملأى من قديم الزمان بهذه الأخيلة والتصورات . وهى أهم خصوصية يمتاز بها الاسلوب الأدبى التصويرى . وهذا النوع من النثر ، هو والشعر صنوان من قديم الزمان . والقرآن الكريم نفسه والأحاديث النبوية فياضان بألوان شتى من هذه الأساليب . وإن كان الخيال الشعرى فى القرآن الكريم هو منزع من منازع الحقيقة . وبهذا يفترق القرآن عن غيره من أساليب البشر . وتبدو الأخيلة الشعرية القرآنية ، بخاصة فى قصصه وأوصافه .

إلا أن ابن خلدون قد قصر هذه الأساليب على السجع والتزم التقفية ، وتقديم النسيب والسجع . والتزام التقفية ليس أمراً جديداً دخل على أساليب المتأخرين . بل هو عارض قديم صحب الأسلوب النثرى منذ الجاهلية . وهذه خطب خطبائها ، وعظات وعاظها ، وسجعات كهانها ، شاهدة بذلك . فهل كل ذلك كلام غير بليغ ؟ .

وقد اطرد هذا المنهج الأسلوبى ، بين قلة وكثرة ، فى شتى العصور . فلعل الجديد فى نظر ابن خلدون هو « الالتزام » فى التقفية . وهذه خصوصية لايستحق الملتزمون ، لأجلها أن يسقطوا من عداد الأدباء .

ولقد كان قس بن ساعدة ، وأكثم بن صيفى ، وحاجب بن زرارة وعلقمة ابن علاثة ، وغيرهم يسجعون ويلتزمون التقفية فى أحايين كثيرة ، ولم يجرؤ أحد على إسقاطهم ونفيهم من عداد البلغاء . فهل كان سجعهم وحدهم مطابقاً لمقتضى الحال . أما سجع المتأخرين فلا مطابقة فيه ؟

وقد نعى ابن خلدون على المتأخرين استعمال هذه الأساليب فى الرسائل

السلطانية ، مع أن استعمالها فى الرسائل المذكورة ليس دخيلا عليها فى عصره . بل هو اطراد للمتبع فيها منذ زمن بعيد . بل لا نبعد عن الحق إذا قلنا إنه مطرد منذ عهد عبد الحميد الكاتب ، إمام صناعة إنشاء الرسائل . ولابن المقفع وغيره من كتاب العباسيين رسائل مسجوعة مزودة بالأخيلة الشعرية . وليس أمر هذه الأساليب مقصوراً عندهم على الرسائل السلطانية ، بل تعداها إلى غيرها من الإخوانيات والخلقيات ونحوها .

ثانيا :

ووصف ابن خلدون كتاب المشرق لعهده ، بالغفل[1] ، أى النكرات ، وإذا رجعنا إلى الزمن الذى عاش فيه ابن خلدون ، وهو بين سنتى ٧٣٢ هـ ، ٨٠٨ هـ ، وجدنا كتاب السر ورؤساء الإنشاء وكتابه ، فى البلاد المصرية والشامية ، من بينهم من نرى أنه من المجازفة والجرأة أن نرميهم بالغفلة الذهنية والضعف الثقافى حتى يصح أن يكونوا غفلا أو نكرات . بل منهم من هو فى مقدمة المشهورين المعترف بفضلهم ، الخالدة آثارهم . ومنهم : علاء الدين بن فضل الله العمرى المتوفى سنة ٧٦٩هـ ، وقد ولى كتابة السر بمصر نحو ثلاثين عاماً ، ومدحه جمال الدين بن نباتة ، مدائح شتى . ومنهم أخوه المنشئ المشهور شهاب الدين ابن فضل الله العمرى المتوفى سنة ٧٤٩ هـ ، وقد تقلب فى مناصب الإنشاء بمصر والشام زمناً ، ومن مصنفاته : مسالك الأبصار ، وهو موسوعة أدبية وعلمية حافلة عظيمة القيمة ، وكتاب « التعريف بالمصطلح الشريف » الذى أوضح فيه الأساليب الديوانية لعهده — ومنهم بدر الدين محمود بن الكلستانى المتوفى عام ٨٠١ هـ وقد قال عنه البدر العينى : « كان فاضلا ذكياً فصيحاً بالعربى والفارسى

---

(١) الغفل : جاء فى القاموس ما ملخصه : الغفل بالضم من لا يرجى خيره ، ولا يخشى شره ، وما لا علامة فيه من القداح والطرق وغيرها ، وما لا عمارة فيه من الأرضين ، وما لا سمة عليه من الدواب ، وما لا نصيب له ولا غرم عليه من القداح . ومن لا حسب له . والشعر المجهول قائله . والشاعر المجهول .

والتركى ، هذا إلى اشتغاله بالتدريس فى عدة مدارس[1] وكاد — وهو رئيس الديوان — أن يغير مصطلحاته ويعود بأساليبه إلى النهج العربى الأول .

وإذا خرجنا بعيداً عن محيط الدواوين الإنشائية وكتابة السر ، فى نفس الفترة وجدنا أدباء ممتازين قد دبجوا ضروب الرسائل الرائعة على نمطهم البديعى ، وصنفوا شتى المؤلفات الأدبية وغيرها . ومن المجازفة أيضاً أن تتهمهم بالضعف الثقافى والضعة الذهنية وضيق الأفق العلمى والأدبى ... ومنهم : الأديب الشاعر الكاتب جمال الدين بن نباتة المصرى المتوفى سنة ٧٦٨ هـ . الذى فضلا عن شعره الرائع البديع ، دبج الرسائل والموازنات والمقالات وألف « سرح العيون فى رسالة ابن زيدون » وله غير ذلك . ومنهم « زين الدين بن الوردى المتوفى سنة ٧٤٩ هـ الأديب الشاعر الكاتب الفقيه الذى ناب فى الحكم ، وألف « تتمة المختصر فى تاريخ البشر » وكتب الإخوانيات والمقامات والإجازات . ومنهم صلاح الدين الصفدى المتوفى سنة ٧٦٤ هـ ، الشاعر الأديب المؤرخ صاحب « الوافى بالوفيات » و « نكت الهميان » و « الشعور بالعور » إلى غير ذلك .

ونحن هنا أشرنا إلى الأدباء الأدنين .الذين عاشوا فى فترة حياة ابن خلدون ، وهم أدباء القرن الثامن الهجرى ، أو أدباء النصف الثانى منه . والعجيب أن القرن المذكور امتلأ بأدباء ممتازين ، هم زينة مجد فى جيد مصر ، وقلادة فخر تحلى عنقها .

فإذا نحن رجعنا خطوة أو خطوتين قبل ميلاد ابن خلدون ، وجدنا بعض هؤلاء « المتأخرين » الذين قد ينسحب عليهم حكمه ، من أدباء العصر الأيوبى كالفاضل والعماد الأصبهانى والبهاء زهير — ومن أدباء صدر العصر المملوكى كمحيي الدين بن عبد الظاهر ، وتاج الدين بن الأثير ، وابنه علاء الدين بن الأثير والشهاب محمود الحلبى . وكلهم من زعماء المنهج البديعى . فهل أمثال هؤلاء غفل ومناكير ؟

---

(١) ترجمته فى الضوء اللامع ج ١٠ رقم ٥٥٤ .

ثالثا :

وأهم مأخذ أو مطعن وجهه ابن خلدون إلى هؤلاء البلغاء الأعلام ، أن كلامهم وأسجاعهم وتقفيتهم غير بليغة ، لأنها ليست مطابقة لمقتضى الحال من المخاطب والمخاطب . . .

وعدم المطابقة مسألة فيها نظر . . لأن الأحوال التى ينبغى بها أن يطابق الكلام مقتضياتها حتى يكون بليغاً ، لا يمكن تحديدها على وجه من الدقة والضبط ، ولن يستطيع أحد أن يدعى القدرة على تحديدها حتى يقد الـكلام على وفقها . إلا الله سبحانه وتعالى ، الخبير بالسرائر والعليم بجميع الأحوال . . . ولهذا جاء قرآنه الـكريم بليغاً : لأنه مطابق فى مجموعه وتفصيله ، وشتى أساليبه وتراكيبه ، بمنطوقه ومفهومه ، وصريحه ومؤوله ، لمقتضيات الأحوال .

وقصارى الأحوال الكلامية ، أن مرجعها إلى المتكلم وحده - صاحب الكلام الذى يصوغه ويؤلف بين أجزائه — فهو الذى يزن فى أغوار نفسه ودخائل ذهنه أحوال خطابه وجميع ملابساته ، ثم يجرى الـكلام وفقها مطابقاً لمقتضياتها.

وليس معنى ذلك أن كل كلام يصبح بليغاً . . ولـكننا نعنى أن الناقد كثيراً ما تند عن ذهنه اللبيب ، وتغيب عن خاطره الثاقب ، أحوال كثيرة راعاها المتكلم فى خطابه ، غفل هو عنها ، فأخذ المتكلم بها . فجاء لذلك نقده فجاً مبتسراً .

وبعد . فهل استخدام الأساليب الشعرية والسجعات اللطيفة ، والتقفيات، بل وشتى ألوان البديع وزخارفه بما فى ذلك خلط الجد بالهزل ، والإطناب فى الأوصاف ، وكثرة التشبيهات والاستعارات ، وضرب الأمثال . . . يخرج الـكلام عن مطابقته لمقتضى الحال . . . ؟ حيث لا تدعو إلى ذلك كله ضرورة؟ لأن جلال الملك والسلطان ينافى ذلك ويباينه ؟

ومن قال إن أحوال الملك والسلطان ، واحدة فى كل عصر ، وفى كل مصر وفى كل مناسبة ... وجامدة لا يعتريها تحول ولا تغيير . حتى يصح أن تتبع فيها

أساليب خاصة لا يسجع فيها ، ولايخلط فيها بين جد وهزل ، ولا يطنب فيها فى الأوصاف والألقاب ؟ !!.

إن أحوال الملك والسلطان تتقلب بين الوعد والوعيد ، والرجاء والخوف ، والراحة والقلق ، واليسر والعسر ، والقوة والضعف ، والحزم والمصانعة ، والحلم والغضب ، والمناجزة والتراخى ، إلى غير ذلك .

ولكل حال ملابسات وظروف تستدعى الإيجاز حينا والإطناب حينا ، والتلميح تارة والتصريح تارة والإبهام مرة ، والتفصيل مرة . وهكذا . فهى أحوال متعددة ومتشابكة لا تقف عند حد . حتى تراعى فيها أساليب بعينها تلتئم وجلال الملك والسلطان ، فتنأى عن السجع والتقفية والإطناب فى الأوصاف .. الخ

ثم لماذا لا تكون الرسائل السلطانية مسرحا الأخيلة الشعرية والسجعات اللطيفة ، والإطناب فى الوصف ، ونحوها من بدائع البديع ؟ وهى أهم وسائل التأثير ، وأروع ما يكسب الأسلوب صولة وجاها عند مستمعيه ، مادام المقصود من هذه الرسائل ، لا مجرد التبليغ وإيضاح الحقائق — ولكنه التأثير فى السامعين ، سواء أكانوا رعية يخاطبهم السلطان ، أم أصدقاء يهدى إليهم أو يوثق معهم روابط الود . أو أعداء خارجين يهددهم وينذرهم ويستدرجهم إلى الخضوع له وطاعته ، أو عمالا ينصح لهم ويرشدهم ويوصيهم . أو غير ذلك .

كل هذه أمور وملابسات وأحوال يحلو فيها الإطناب ، ويعذب السجع وتلذ التقفية .. لأنها من أدوات التأثير — كما أشرنا — ونحن لا نقول إنها ضربة لازب وفريضة ينبغى أداؤها . ولكننا نقول إن هذه المخاطبات مسرح لا يتنافى مع هذه الوسائل والأعراض ، وإن لم يتطلبها أحيانا أو يدع إليها .

نريد أن نقول إن المعنى — وحده وفى حد ذاته — ليس كل المراد من إلقاء الكلام ، وتأليف الألفاظ ، فلا يكفى أن نلقيه إلى السامع ليتأثر به . وإنما يتأثر السامع بطريقة الإلقاء ، وبالثوب اللفظى الذى يلبسه هذا المعنى .

فالرغبة فى التأثير حال من الأحوال . لها مقتضياتها التى ينبغى رعايتها

ومطابقة الكلام لها . ومن هنا يتبين فضل السجعات والتقفيات والإطناب فى الأوصاف والخيال الشعرى . . الخ ، لأنها أدوات لهذا التأثير ، ولأنها صاحبة الفضل فى إبراز المعنى مزدانا محلى ، قويا فى جلاله وكماله ، وبين حواشيه وظلاله .

وقد عودنا كتاب الرسائل — منذ القديم إلى عصر ابن خلدون — رعاية السجع والتقفية والإطناب فى الوصف والخيال الشعرى ، إلى غير ذلك ، فى كتابة رسائلهم . فكانوا بذلك مطابقين بين كلامهم ومقتضى الحال .

لقد كانت هذه الرسائل — أو شىء منها — تلقى فى الحفلات أو تتلى فى المساجد ، أو تقرأ على الجماهير ، أو تذاع فيهم ، فهل ينبغى أن تخاطب الجماهير بوجازة يسيرة خالية من سجع أو تقفية أو وصف ؟ وما كان يكون مدى استجابة الجماهير لها ، وتأثرهم بها ؟ ولا سيما الجماهير فى مصر ؟ .

إننا — اليوم — نعيب بعصر الرسائل الرسمية ، لجفاف عباراتها وخشونة فقراتها ، وسبكها فى قوالب أدنى إلى قوالب القانون والجندية ، منها إلى الأسلوب الأدبى اللطيف الأخاذ ، الذى تجرى فى أعواده مياه الخيال ، وتتبدى فى صفحته الصور الشعرية اللامعة ، وتتوافق فيه الفقار ، وتتناغم السجعات ، وتتلاحق الأوصاف ، حتى تظهر المعانى فى ثوب قشيب ، وبزة حسنة تزيده ملاحة وصباحة وقسامة ووسامة ، وحلاوة وطلاوة ، وتضمن له رضا وقبولا ، ونود — أو أود — لو عاودها اليوم جميعاً ما كان لها فى سابق العصور ، من ينع ونضارة ، ورقة ولطف ، وكيس وظرف . أو لا ترى معى بعض رسائلنا الرسمية التى تجرى على نمط من أنماط البديع ، وتتهادى فيها السجعات وتتماوج الأوصاف ، وتخطر الاستعارات ، تحظى من الجمهور بنصيب غير منكور من رضاه وقبوله ؟ ولا يفتأ يردد فقراتها ويتلو عباراتها بين الآن والآن ؟ .

إذن فلم نعيب هؤلاء الأسلاف ، لهذا النزوع الأدبى الجميل الذى تحلت به رسائلهم ، وتجلت آياته فى إنشائياتهم ، مع أن الدواعى إلى انتهاجه ، فى عصرهم أكثر منها فى عصرنا الحديث ؟

ها هوذا هولاكو ملك التتار الذى أرسل إلى سلطان مصر المظفر قطز ، رسالته المشهورة ، يهدده فيها ويتوعده ، أن يستسلم له ويسلم ، ويفتح له ثغور البلاد المصرية ، يدخل إليها محتلا مستعمراً . فماذا دعته الحال أن يكتب فيها ؟ لقد أطال وأطنب ، وفصل وأسهب ،وحشد إليها صنوف المبالغات والتهويلات وألوان الوعيد والتهديد . وكأنه أسقط السماء على الأرض ، وأثار البحار فطغى طوفانها . وأهاج البراكين فاتقدت نيرانها .. كل ذلك ليلقى الرعب فى القلوب ، ويوقع الفزع فى النفوس . وفعلا كان لها أثرها الشديد ورجعها البعيد ، فتفرق الأمراء وخشى الرؤساء ، لولا رباطة جأش من سلطانهم ، وشجاعة قلب ، وقوة نفس ، وكمال إيمان بالله وبالوطن ، وثقة لا تحد فى أنه سينصر دينه — ولينصرن الله من ينصره .

وقد اشتبك القرنان فى ملحمة « عين جالوت » ثم « بيسن » وكر الجيش المصرى — بفضل ثبات سلطانه — على أعدائه كرة زلزلت أقدامهم وزعزعت ثباتهم ، فأسلموا للفرار بعد إثخان فيهم شديد . وبهذا تحول تيار التتار عن مصر نهائياً منذ سنة ٦٥٨ هـ .

فماذا قال هولاكو فى رسالته ؟ .. قال[١] :

« من ملك الملوك شرقا وغربا . القائد الأعظم . باسمك اللهم باسط الأرض ورافع السماء . يعلم الملك المظفر قطز . الذى هو من جنس المماليك الذين هربوا من سيوفنا إلى هذا الإقليم . يتنعمون بأنعامه — ويقتلون من كان بسلطانه . بعد ذلك يعلم الملك المظفر قطز ، وسائر أمراء دولته وأهل مملكته بالديار المصرية وما حولها من الأعمال . أنا نحن جند الله فى أرضه ، خلقنا من سخطه . وسلطنا على من حل به غضبه . فلكم بجميع البلاد معتبر . وعن عزمنا مزدجر . فاتعظوا بغيركم . وأسلموا إلينا أمركم . قبل أن ينكشف الغطا ، فتندموا ويعود عليكم الخطا . فنحن ما نرحم من بكى . ولا نرق لمن شكا . وقد سمعتم أننا قد فتحنا

---

(١) راجع سلوك المقريزى حوادث سنة ٦٥٨ هـ .

البلاد وطهرنا الأرض من الفساد . وقتلنا معظم العباد . فعليكم بالهرب وعلينا الطلب .. الخ » .

لاندرى ، لم لا تكون المخاطبات السلطانية مسرحا للأخيلة الشعرية والسجعات والأوصاف والمبالغات وما إليها : ألأنها مخاطبات سلاطين فحسب؟ ولأن للسلاطين جلالا يتنافى معها ؟ .

ومتى كانت حياة السلاطين كلها جدا لا هزل فيه ، وصراحة لا لطف فيها ، وغضبا لا حلم فيه ، وقسوة لا عطف فيها ، وعبوساً لا تبسط فيه ؟

إذا كان الأمر كذلك ينبغى أن تراعى فى مخاطباتهم — الصادرة على ألسنتهم — الوجازة والتلميح والإشارة لا غير . . حتى ليتحول الخطاب إلى حركات بنان وذبذبة لسان . . وتلك لعمرى أحاديث الخرس لا الفصحاء ، وكلام الأعياء لا البلغاء .

إن حياة السلاطين والرؤساء ، حياتهم العامة والخاصة ، مسرح واسع الأطراف للتموجات النفسية على اختلاف مستوياتها ، ولا تكاد تصلح للتعبير عنها غير هذه الأساليب الشعرية . . وهى فى هذا الموطن أصدق من غيرها .

انظر معى إلى مواكب السلاطين واحتفالاتهم ووفاداتهم واستقبالاتهم ، وتعطفاتهم ، ولقائهم للناس ولقاء الناس لهم ، محبين وأدعياء ، وكارهين وأصفياء ، ألا ترى معى أنها يسودها غالباً ملق ودهان وزخرف وبهرج ؟!!

ثم انظر إلى صلاتهم المختلفة تر أن بطاناتهم وحواشيهم يعيشون معهم على الطمع والرجاء ، أو الريبة والخوف . ولهم مثل هذه الحالة فى معاملة بطاناتهم وحواشيهم . . ألا ترى معى أنها حياة نفسية وعاطفية تحتاج إلى الأساليب الشعرية لتسكب فيها نتاج انفعالاتها وزائد طاقاتها ؟

ثم انظر معى إلى صلاتهم المختلفة بسلاطين الخارج مثلا : فهى إما صلات محبة وولاء ، أو كراهة وعداء ، وفى الحالة الأولى تحلو فى الخطاب أخيلة الشعر الجميلة الفياضة بالإشراق والأشواق ، وعلائم الوفاق ، تنبث فيها أضواء الصفاء ،

وتنبعث أصداء الولاء — وفى الحالة الثانية تحلو الأخيلة الشعرية أيضا ، مما يضىء فيه الليل ويظلم النهار ، وتفزع شياطين العذاب ، وتثور جن المنايا ، وما إلى ذلك من مبالغات وتهاويل . .

ينبغى إذن — ونحن لا نستطيع أن نستعرض هنا كل أحوال السلاطين وملابسات حياتهم — أن تكون المخاطبات الصادرة عنهم صورة لواقع هذه الحياة ، وصدى لما يتردد فى جوانبها ، وما تنفعل به النفوس المتصلة بها ، وإلا كانت كاذبة مزيفة بعيدة عن الصواب ، مجانبة للحق . . .

ولا ننكر أن الأحوال قد تقتضى أحياناً الإيجاز والجد وإيضاح الحقيقة سافرة دون تجوز أو مبالغة ، ولكن ذلك قليل بالنسبة إلى غيره . وقد شهد بعض العصور جملة من الرسائل الموجزة والتواقيع — كالعصر العباسى — ولكن أين هى بجوار رسائله المطولة ذات الخيال الشعرى والإطناب الوصفى وما إليهما . . ؟

رابعا :

يقول ابن خلدون : إن المحمود فى المخاطبات السلطانية « الترسل » ! وهذه دعوى فى حاجة قصوى إلى دليل . لئن كان الدليل ذوقياً . لقد بينا فيما سبق أن المخاطبات السلطانية ينبغى أن تكون مسرحاً للأخيلة الشعرية ، ومن ثم للسجعات والتقفيات والإطناب فى الوصف ، والمبالغات ..

وإن كان الدليل واقعياً ، فإن تاريخ الرسائل السلطانية فى قرابة ألف عام يدل على أنها كانت مسرحاً لهذه الظواهر الأسلوبية .

نقول ذلك لأن ابن خلدون يطابق بين الأسلوب الشعرى وأسلوب الترسل والذى نفهمه ونتذوقه أن أسلوب الترسل واسع المدى أيضاً ، فسيح الأرجاء لهذه الظواهر إذا استثنينا السجع منها . ولا يفترق — فى رأينا — أسلوب الترسل عن الأسلوب البديعى ، إلا فى السجع والتقفية . وهذه خصوصية واهنة

نستطيع غض الطرف عنها .. إذا لم نرد أن نعترف لها بفضيلة ، وهى لا تستحق كل هذا النعى على أدباء البديع لأنهم هجروا الترسل . . .

انظر إلى عبد الحميد الكاتب — وهو إمام المترسلين — يقول فى رسالته المشهورة التى كتبها وهو منهزم مع مروان بن محمد آخر ملوك الدولة الأموية ، يصف تقلبات الدنيا :

« أما بعد فإن الله جعل الدنيا محفوفة بالمكاره والشرور . فمن ساعده الحظ فيها سكن إليها ، ومن عضته بنابها ذمها ساخطا عليها ، وشكاها مستزيدا لها. وقد كانت أذاقتنا أفاويق استحليناها . ثم جمحت بنا نافرة ، ورمحتنا مولية . فملح عذبها ، وخشن لينها . فأبعدتنا عن الأوطان ، وفرقتنا عن الإخوان . فالدار نازحة ، والطير بارحة . . الخ » .

بل انظر إلى الحجاج بن يوسف الثقفى ، من قبل عبد الحميد — حينما خاطب أهل العراق قائلا :

« إنى لأرى رءوساً قد أينعت وحان قطافها . وإنى لصاحبها ، وكأنى أنظر إلى الدماء بين العمائم واللحى » .

بل انظر إلى سيدنا عثمان بن عفان ، من قبلهما ، حينما أرسل إلى سيدنا على يستنجده فقال :

« أما بعد ، فقد بلغ السيل الزبى ، وجاوز الحزام الطبيين ، وطمع فى من لا يدفع عن نفسه ، ولم يغلبك مثل مغلب . فأقبل إلى صديقاً كنت أو عدواً .

فإن كنت مأكولا فكن خير آكل   وإلا فأدركنى ولما أمزق »

هذه كلمات « رسمية » قالها « حكام » لهم مكانتهم فى الدولة . أحدهم خليفة والثانى وال عظيم ، والثالث وزير كبير . وألقوا كلماتهم فى مناسبات « رسمية » ، لأنها مناسبات عامة تتصل بالدولة فى صميمها . وترى الازدواج وشيئاً من السجع ، وكثيراً من الخيال الشعرى واستعمال التشبيهات والاستعارات والكنايات ، والترادف ، وغير ذلك بادياً فيها ، مع أنها أمثلة رائعة من النثر المرسل .

وليدلنا ابن خلدون على أمثلة من النثر المرسل ، خلت من العبارات الشعرية ومن المبالغات البديعية ، ومن الإطناب والترادف فى الأوصاف . بل وخلت من السجع والتقفية جملة . . وهيهات أن يستطيع ، إلا إذا أشار إلى بعض التوقيعات . . . وهذه المسالك الكلامية من أهم دعائم الأساليب الأدبية .

ويقول ابن خلدون : إن المقامات مختلفة . ولكل مقام أسلوب يخصه ، من إيجاز أو إطناب أو حذف . . . الخ وهذا صحيح وليس هناك — فرأينا — أنسب من المخاطبات السلطانية للإطناب والترادف والأوصاف والخيال الشعرى. ومنطق العصور الماضية يؤيد ذلك ويزكيه . والواقع أكبر شاهد وأصدق دليل .

وقد يكون هناك من المناسبات السلطانية ما يستدعى فى الخطاب عنه ، الإيجاز دون الإطناب مثلا ، والبعد عن التجوز والمبالغات . ولكن ما هى هذه المناسبات التى تستدعى الإيجاز ؟ وما المناسبات التى تستدعى الإطناب ؟ هذا ما لم يبينه لنا ابن خلدون . ولو بينه لكان مثار خلاف بيننا وبينه . وذلك لأن العقول تختلف — بلا ريب — فى تحديد الأحوال المناسبة التى ينبغى رعاية مطابقتها فى الكلام .

ولعل من المناسب هنا أن نلفت النظر إلى ما سبق تسجيله عن الشهاب محمود الحلبى فى كتابه المتواضع « حسن التوسل ، إلى صناعة الترسل » . عندما أخذ يقنن للأساليب الإنشائية فى الرسائل الديوانية ، ومنه يتبين لنا حسن بصره بأمور عصره ، وسعة حيله بملابسات جيله ، وقد بسط لنا نماذج متعددة ، وشرح لنا مناسباتها وملابساتها . وحدد لنا أحوالها ، وبين ما تقتضيه هذه الأحوال ، من ضروب القول وأوجه البيان . . .

وقد نختلف مع الحلبى فى تقدير الحال . ولكنه — على كل حال — قد بين بما بسطه أنه أوسع صدراً من ابن خلدون ، وأبعد إلماما لمقتضيات عصره منه وأنه دار فى أفق البلاغة ووعى مناسباتها على مدى أرحب من مداه .

قال الحلبى ما مؤداه :

« ومما يتعين على الكاتب استعماله ، والمحافظة عليه ، والتمسك به . إعطاء

كل مقام حقه » . وهو يريد بالكاتب كاتب الديوان المتصدى لإنشاء الرسائل ، ثم غيره من الكتاب .

ثم أخذ الحلبي يبين بعض المقامات وأحوالها وما يناسبها من الأساليب ، فتحدث عن أوقات الحروب . وقال: يناسبها الإيجاز . وتحدث عن حركات العدو، وقال : يناسبها الإطناب والبسط . وتحدث عن التهانى بالفتوح ، وقال : يناسبها الإطناب والمبالغة — وهكذا تناول الحلبي ضروباً من المقامات مبينا ما يناسب كلا منها من الأساليب ، مع التعليل لذلك . ثم ساق لكل منها أمثلة من إنشائه. وقد نوهنا بذلك كله فى أخريات حديثنا عن الحلبي فى الفصل الثانى .

فأين من هذا البسط ضيق المقام وقرب المدى الذى يدعو إليه ابن خلدون ؟ وليس عجيبا أن يبدو ابن خلدون غريبا بين معاصريه ، حينما اتجه النهج المرسل ونأى بجانبه عن البديع . وكتب الرسائل السلطانية بهذا المنهاج . وقد اعترف هو بذلك على نفسه حيث قال : « وانفردت به يومئذ ، وكان مستغربا عند من هم أهل هذه الصناعة » .

خامسا :

ويعلل ابن خلدون انتشار الخيال الشعرى فى عصره ، باستيلاء العجمة على ألسنة أهل العصر . وهذه عبارة قاصرة عن تحديد معناها ، وتكتنفها غموضة .

فمن هم أهل العصر الذين استولت العجمة على ألسنتهم ، فعجزوا عن إعطاء الكلام حقه من مطابقة الحال ؟ هل هم عامة الشعب ؟ وما لهؤلاء وإنشاء الرسائل السلطانية ؟!! أم هم السلاطين والأمراء ؟ حقا كان هؤلاء أعاجم . ففى عصر بنى أيوب كانوا من الأكراد . وفى عصر المماليك كانوا من الأتراك أو الجراكسة ، ولكنهم لم يلوا إنشاء الرسائل بأنفسهم ، بل وكلوا أمرها إلى كتاب سرهم ، ورؤساء دواوين إنشائهم .

لم يبق إذن ، غير الأدباء والمنشئين أنفسهم . من رؤساء الديوان وكبار

كتابه، وكتاب السر. وهؤلاء لم يكونوا أعاجم، بل كانوا من صميم الشعب، ومن طائفة المتعممين... وإذا اعتبرناهم أعاجم بالنشأة والبيئة، فإن الثقافة قد عادت فعربتهم كما عربت ابن خلدون نفسه، وكما عربت أدباء عصرنا الحاضر...! وليس فى مقدور منصف حريص على العدل أن يتهمهم بعد ذلك بالعجمة، وهذه آثار أقلامهم ونفثات سحرهم شعراً ونثراً ماثلة، وشاهدة لهم بطول الباع فى لغة العرب ومتنها وأدبها وتاريخها وفهم أسرار بيانها. والخبرة بأدبائها.

وبعد! أفلا ترى معى قصور عبارة ابن خلدون عن تحديد معناها بالضبط. وهب هؤلاء الكتاب أعاجم، أفيعجز الأعجمى دائماً عن إيفاء كلامه حقه من المطابقة لمقتضى الحال، إذا تعلم لغة جديدة غير لغته ؟.

إن كثيراً من الأعاجم قد تلقوا لغة العرب تلقينا أو تقليداً. ثم برعوا فيها وشاركوا أهلها حسن بيانهم ونزاهة بلاغتهم، بل وصار لها منهم أئمة يوثق بهم ويحتج بأدبهم. وها هو ذا ابن المقفع وسهل بن هارون، ثم الجاحظ — على رأى من يقول بأعجميته.

ثم إننا لنرى كثيرا من أبناء مصر والهند والشام وغيرهم الآن قد أتقنوا لغة أو أكثر، من لغات أوربا، ثم أحسنوا النطق بها، وكتبوا بها، وألفوا ونقلوا وخطبوا، إلى غير ذلك من ضروب القول والحديث، وكانوا كأفراد من أهل هذه اللغات، حسن بيان ولباقة حديث ومطابقة حال. فلم يقل أحد إنهم أعاجم بالنسبة إلى تلك اللغات، وإن هذه العجمة أصيلة فيهم لدرجة أنها تعوقهم عن أن يكونوا بلغاء.

فليست هناك إذن، عجمة أصيلة فى النفس تمنعها من حسن البيان. وإن قضية العجمة ورمى الناس بها مسألة تحتاج إلى نظر جديد ومعاودة ...

وما دامت العجمة — التى هى بمعنى عدم المقدرة على اللغة وبيانها، مقدرة سلقية — يستطاع التغلب عليها بالثقافة والدأب والمزاولة وممارسة البيان

ومعالجة البلاغة ، فلن تكون إذن نقيصة نرى بها إنساناً . إلا إذا تمكنت منه ، ولم يتفصح بثفافة ، ولم يتوقح بفقه ، ولم يأخذ من اللغة والأدب بنصيب

من هذا نرى أنه من المجازفة والجرأة أن نرمى أدباء العصر المملوكى بالعجمة ، وبالعجمة التى تقف بهم حائلا دون مطابقة الكلام لمقتضى الحال .

سادسا :

ويرمى ابن خلدون أولئك الأدباء الغفل المصابين بالعجمة ، بالعجز عن الكلام المرسل . وهذه قضية لاسند لها ولا دليل عليها . فهل زاولوه فعجزوا عنه وثبت هذا العجز ؟

إننا نعتقد أن الكلام المقيد أثقل على القلم ، وأشد إعجازاً للسان من الكلام المرسل ، وأن الكلام المرسل أطوع لهما وأيسر عليهما .

وحقاً ! قيل قديماً : «إن البلاغة هى التى إذا سمعها الجاهل يظن أنه يحسن مثلها» وذلك لسهولتها ووضوحها وحسن دلالتها وقربها من أفهام العامة ، مع سموها عن مبتذلاتهم اللفظية .

هذا حسن ! ولكننا هنا فى معرض الحديث عن البلغاء والموازنة بين كتاب يترسلون وكتاب يتقيدون بالبديع ، وحسبك من البديع قيوده . ومن الترسل حرية تطلق النفس على سجيتها ، أى نفس البليغ ، تجرى وفق مرادها وهواها . والترسل ليس مظنة للعثور ، كالأساليب البديعية . وإذن من يستطيع إخضاع البديع بقيوده لسلطان قلمه لا يعجزه الترسل .

سابعا :

ويرميهم بالإخلال بقواعد اللغة والنحو والصرف وما شابهه ، فى سبيل المجانسة والتسجيع ونحوهما . وقد ظهر ذلك منهم شعرا ونثرا .

وهذا حق لامرية فيه وقد تفكه الأديب جمال الدين بن نباتة ، فلحن عمداً فى قوله :

هات كأسى وإن لحنت من السكر فلا تلحنى إذا قلت هاته[1]

على أن هذا ضعف لا نرتاب فيه، وندعو إلى نبذه. ولكن كم للأديب من سقطات، وكم للشاعر من ضرورات. والمتنبي على جلالة قدره، كان يخرج عن الموازين الصرفية. وفى شعر أبى العلاء ضرورات.

ومن المناسب أو الطريف هنا أن نروى ما قاله ابن حجة الحموى، فى باب «السجع» — وسبق لنا الإشارة إليه — وانظر إلى اتجاهه. قال ما ملخصه:

«ومن فوائد الإنشاء التى يطول بها باع المنشىء، أن السجع مبنى على الوقف، وكلمات الأسجاع موضوعة على أن تكون ساكنة الأعجاز، موقوفاً عليها. لأن الغرض أن يجانس المنشىء بين القرائن ويزاوج، ولا يتم ذلك إلا بالوقف، إذ لو ظهر الإعراب، لفات ذلك الغرض، وضاق ذلك المجال على قاصده. ألا ترى أنهم لو بينوا الإعراب فى مثل قولك: «ما أبعد ما فات. وما أقرب ما هو آت.» للزم أن تكون التاء الأولى مفتوحة، والثانية مكسورة منونة، فيفوت غرض الاتفاق.

ومن ذلك أن السجع مبنى على التغيير، فيجوز أن تغير لفظة الفاصلة لتوافق أختها، فيجوز فيها حالة الازدواج ما لا يجوز فيها حالة الانفراد. كالإمالة وحذف المفعول به. وصرف ما لا ينصرف، وغير ذلك من التغييرات».

ونحن نرى أن مثل هذا الإخلال بقواعد اللغة، لا يغير من المعنى شيئاً. وليس معنى ذلك أننا نبيحه على طول الخط، ولكننا نعتبره كالضرورات الشعرية التى أجازها العروضيون للشعراء. فلماذا نحسبها على الكتاب؟ ولا سيما إذا أقررنا ما ورد من أشباهها فى القرآن الكريم والحديث النبوى الشريف.

فقد أثبت ابن حجة بعض هذه الأشباه فى خلال كلمته السابقة، ومنها:

فى الإمالة:

قال: «وقد يكون فى الفواصل ما هو من ذوات الياء، وما هو من ذوات

---

(١) هذا البيت من قصيدة لابن نباتة يرد بها على عتاب للصفى الحلى. والقصيدة تائية وتاؤها مفتوحة أولها: من لصب أدنى العاد وفاته . . . الخ

الواو ، فتمال التى هى من ذوات الواو وتكتب بالياء حملا على ما هو من ذوات الياء ، لأجل الموافقة . نحو قوله تعالى : « والضحى والليل إذا سجا » . أميلت « والضحى » حملا على ما هو من ذوات الياء ، لأجل الموافقة » .

فى حذف المفعول :

نحو قوله تعالى « ما ودعك ربك وما قلى » الأصل « وما قلاك » حذفت الكاف » لتوافق الفواصل :

فى صرف مالا ينصرف :

« نحو قوله تعالى « قواريرا قواريرا » صرفه بعض القراء السبعة ليوافق فواصل السورة الكريمة .

ثم قال ابن حجة ما نصه :

« ولو تتبع المتأمل ذلك فى الكتاب العزيز لوجده كثيراً » .

ثم أورد عدة أمثلة من الحديث النبوى الشريف ، منها قوله عليه السلام :

١ — « أعيذه من الهامة والسامة ، ومن كل عين لامة » . والأصل : « عين ملمة » لأنه من ألم . ولكنه لأجل الموافقة ، قيل : لامة .

٢ — وقوله عليه السلام : « ارجعن مأزورات غير مأجورات » . الأصل : موزورات » بالواو ، لأنه من الوزر . ولكن ليوافق مأجورات .

٣ — وقوله عليه السلام : « دعوا الحبشة ما ودعوكم ، واتركوا الترك ما تركوكم » . الأصل : ما وادعوكم ولكن حذفت الألف ليحصل الاتفاق مع تركوكم .

ثم قال ابن حجة : « وسمعت أن بعض علماء الإنشاء صنع مؤلفا فى أحكام الفواصل » .

فما رأى ابن خلدون فى هذه الأمثلة ؟ هبه خرجها تخريجا آخر ، وزيف ما وجهها ابن حجة إلى الاستشهاد به . فهل لا تباح أمثالها للكتاب؟ وهل لا تباح أمثالها لهم وهم فى معرض السجع؟ وهل لا تباح لهم على أنها ضرورة كضرورات

الشعر؟ وهل لا تباح لهم، ولو لم يفسد بها المعنى؟ ثم هل هي من الكثرة في إنشائياتهم بالدرجة التي تسترعي الذهن، وتسقط الإنشاء به. وتحمل على المؤاخذة..؟

هذه وغيرها أسئلة تنتظر الجواب!

وبعد:

فما ناقشنا ابن خلدون هذه المناقشة دفاعا عن البديع، فالبديع يدافع عن نفسه بنفسه! ولا لبيان رأينا فيه. فإن البديع ليس مجالا لبيان الرأي إذا علمنا أنه كاللغة — ظاهرة من ظواهر الاجتماع.

ولكننا ناقشناه لأننا نعتقد أن رأيه في أدباء عصره، ولا سيما أدباء مصر والشام — المشرق — سرى مسرى الكهرباء في أذهان أدباء العصر الحديث ومؤرخي الأدب فيه. واستقر في نفوسهم استقرار العقيدة الراسخة التي لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها.

وقد قال أستاذي المغفور له أحمد الإسكندري مانصه عند كلامه على مقدمة ابن خلدون:

— «لم يكن الانتفاع بمقدمته وأسلوب كتابته فيها، في وقت أظهر منه في العصر الحاضر. فقد كان أسلوب ابن خلدون المرسل المجرد عن تكلف البديع والمحسنات اللفظية، في تعبيره عن المباحث السياسية والعمرانية والاجتماعية والجغرافية والصناعية، هو القدوة الحسنة للمصلحين والمجددين للنهضة الأدبية العربية، والسياسية، من كتاب العربية، في مصر والشام وتونس، وخاصة من ألف منهم في مثل موضوعاته أو كتب في الجرائد والمجلات لقلة المطبوع من الكتب. ولأنه أرحب أسلوب على أدنى النقلة والمترجمين عن اللغات الأجنبية، المحافظين على أصل المعنى، فهي الأستاذ الأكبر لكتاب الصحف والمجلات في نهضتنا الأخيرة». الخ[1]

ولا ريب في أن أدباء هذه النهضة، تأثروا — إلى جانب ما تأثروا به —

١ — مذكرات للأستاذ الإسكندري في الأدب العباسي وأدب العصر التركي وبينهما ترجمة صافية لابن خلدون.

بآراء ابن خلدون ، ومنها آراؤه فى نثر معاصريه . فكان لذلك أثر مضاعف جعلهم يتجهمون لأسلافهم وينظرون إليهم نظرة عابسة ، ويرمون أدبهم بالضعف والانحطاط ويتأبون على دراسته. وإذا أخذوا فى دراسته . أخذوا وآراء ابن خلدون مسلطة على عقولهم فيدرسونها وبعقولهم لوثة من هذه الآراء . وبدهى أن تأتى النتيجة وفق مقدماتها ، والأحكام رهن مقوماتها .

ومما عاون على الوصول إلى هذا الحكم انحطاط الأدب حقا فى العصر العثمانى ، نتيجة لإهمال الشعب وإقفال دور التعليم وضآلة الثقافة ، وانقطاع الشعب عن غيره من الشعوب الأخرى ، إلى غير ذلك .

وهناك إجماع أو شبه إجماع من نقاد عصرنا ، على أن الأسلوب البديعى كان جناية على اللغة ، وكان جناية على المعانى ، وكان جناية على الأفكار . وحال دون تقدم الفكر ورقى الأدب . . الخ

وأعتقد أن هذه النزعة منهم ، أثر من آثار ابن خلدون فيهم . فهو الذى سفه أدباء عصره وأتباع البديع . ونعى عليهم انتهاجهم هذا النهج الذى يتنافى مع الأصول البلاغية ويخرج الكلام عن مطابقته لمقتضى الحال .

واتهام هذا الأسلوب بأنه آد العقول والأفكار ، وآد المعانى ، وجنى على الأدب ، اتهام مبالغ فيه لأسلوب أدبى ساد فى الدول العربية والإسلامية زهاء ألف سنة . وأدى لها حاجتها صادقا .

ونعود إلى القول إن الأساليب ظاهرة اجتماعية تتأثر بأحوال الاجتماع . فمنذ أواسط العصر العباسى طغت على الدولة العربية عناصر أعجمية متنافسة متشاكسة فى كل ناحية تقريباً ، وخضعت الشعوب العربية لألوان من المدنيات والحضارات . وتعقدت فى ربوعها مقومات الحياة . وتوارت تلك النزعات العربية القديمة التى صقلتها البادية بصقالها وثقفتها الصحراء بما فى جنباتها من الحريات النفسية المتعددة التى تدفع النفس إلى الشجاعة دفعاً ، وتوحى إلى

اللسان بألوان الصراحة التى لارياء فيها ولادهان . وكانت نتيجتها هذا الترسل فى الأسلوب وتدفق المعانى أرسالا فى أى ثوب لفظى دون تـكلف أو تعسف . حتى إذا تعقدت هذه الحياة ، وتشابكت أطرافها ، وعجت نواحيها بمطالب النفس : رسفت هذه النفس تحت ألوان من الاستعباد : استعباد الآمال الواسعة ، واستعباد الرجاء فى الرؤساء وأشباه الرؤساء ، واستعباد الخوف من بطش الزمان وغدر الحياة . واستعباد السعى الجاد فى سبيل الرزق والجاه ، وما إلى ذلك من ضروب الاستعباد . زد على ذلك الثقافات الطارئة وألوان الحضارة الزاهية وزخارفها الباطلة ، وأوضاعها المتكلفة . وأنظمتها المضروبة فى المواكب والاحتفالات والمواسم والتهانى والتعازى ، والحرب والسلم ، فى الحياة الخاصة والحياة العامة ، للخواص والعوام على السواء ، فضلا عن شيوع الترف المتطرف فى الطبقات العليا . وشيوع ألوان من الحرمان فى الطبقات السفلى ، وشعور البعض بالحاجة إلى البعض ، وشعور البعض بالخوف من البعض ، وغير ذلك من ألوان الحياة التى أخذت تصبغ الشعوب العربية ومن اختلطت بهم من فرس وترك وروم وهند وقبط وبربر ، وغير هؤلاء وهؤلاء .

هذا التفاعل العجيب بين شتى الشعوب الإسلامية ، الذى كان له أثره البالغ فى النفوس العربية وغير العربية ، كان له أثر بالغ فى توجيه الأسلوب وجهة جديدة هى الوجهة البديعية ، وانساق الأدباء كتابا وشعراء إلى أن يصبغوا نتاجهم بصبغته لما فيه من الزينة الزاهية والألوان الملهية ، والمخاتلات الذهنية ، والمداعبات الفكرية والإيهامات الطريفة والتلميحات الظريفة ، إلى غير ذلك من مما يناسب هذه الحياة الجديدة ، حياة الدهان والملق والحيلة ، وحياة الزخرف والتمويه ، وحياة الطلاء الظاهرى الذى يخفى من ورائه نفوساً ملبثة ، وقلوبا مفعمة ، لايدرى إلا الله مدى مافيها .

على هذا الضرب الأسلوبى سار كتاب البديع فى المخاطبات السلطانية وغير

السلطانية . وغلب التبسط عليهم أكثر من الإيجاز . والتفصيل بدل الاقتصار . والبذل والسرف فى العبارة ، مكان الضن والإشارة ، إلى غير ذلك . وانغمس الكتاب على توالى العصور فى تيار هذا الأسلوب ، لوفور عوامله وتوالى مؤثراته.

ولم يتخلص منه أدباء العصر الحديث إلا لاختفاء تلك العوامل والمؤثرات. وإنه لمن الجهل الفاضح أن نقول إن هؤلاء الأدباء ، هم الذين غيروا منهجهم المتبع ، وأسلوبهم المصطنع ، بمحض اختيارهم ووفق مشيئتهم وهواهم . فلم يكن تحرير الأقلام الحديثة من ربقة الأسلوب البديعى وقفا على مشيئة الأدباء المعاصرين ، ورهنا بارتجالهم . ولكنها عوامل الثقافة الجديدة المتعددة الطارئة على الأمم العربية فى نهوضها الأخير وأسباب الحياة الحاضرة ، الحافلة الحاشدة وتدفق علوم الغرب وآدابه على بلادنا من كل جانب ، وبشتى الوسائل الجديدة ، وشدة اتصالنا بأمم الغرب بضروب مختلفة من الاتصال ، وغير ذلك مما هو معروف مألوف فى أسباب نهوض البلاد المصرية بخاصة والعربية بعامة فى القرن الأخير.

ولعل فى مقدمة العوامل الجديدة انصراف البرامج التعليمية الحديثة عن أخذ الناشئة بحفظ القرآن الكريم كله ، ثم تدبر آياته ومدارسة علومه المختلفة مدارسة جادة تمتزج بنفس الناشىء الامتزاج كله ، لذلك لم ترسب هذه الدراسات فى أغوار نفوسنا وعقولنا ، أو تهتضم فيهما ، حتى تكون مصدراً من أهم المصادر التى تلون نتاجنا من أدب وعلم ، ومن ثم أسلوبنا .

ولعل من المناسب هنا أن نسجل رأى ابن خلدون فى أثر المحفوظ ونوعه فى صناعة النظم والنثر قال : « قد قدمنا أنه لابد من كثرة الحفظ لمن يروم تعلم اللسان العربى . وعلى قدر جودة المحفوظ وطبقته فى جنسه ، وكثرته من قلته ، تكون جودة الملكة الحاصلة عنه للحافظ . فمن كان محفوظه شعر حبيب أو العتابى أو ابن المعتز أو ابن هانىء أو الشريف الرضى أو رسائل ابن المقفع أو سهل بن هرون أو ابن الزيات أو البديع أو الصابى تكون ملكته أجود وأعلى مقاماً ورتبة فى البلاغة ، ممن يحفظ شعر ابن سهل من

المتأخرين أو ابن النبيه أو ترسل البيسانى أو العماد الأصبهانى ، لنزول طبقة هؤلاء عن أولئك . يظهر ذلك للبصير الناقد صاحب الذوق »[1] .

وهو فى كلمته هذه يعود إلى الحط من شأن المتأخرين . على أن الذى يعنينا مانوه به من جودة ملكة النظم والنثر بجودة المحفوظ . فما بالك لو كان القرآن الكريم مع العناية بدراسته .. ؟

وإن كان ثمه شىء من هذه الدراسة الآن ، فليست فيها الجدية الكاملة التى لمسناها فى ناشئة المتعلمين فى العصر المملوكى . فما منهم من فقيه أو شاعر أو كاتب أو ناقد أو طبيب أو مؤرخ أو أى صنف آخر من الأعلام إلا وكان القرآن الكريم أول محفوظه ، ثم مدارسة علومه وعلوم الحديث وحفظ الحديث دعائم ثقافته ، وهذه كتب تراجمهم ملأى بهذه الأخبار ، تبدو للقارىء لأول وهلة .

ولقد كانت الدراسات القرآنية والدينية — ولو إلى حد — فى مقدمة عناصر الثقافة المصرية والشامية الحديثة فى مطالع العصر الجديد . واعتقادى أنها هى — لا الضعف ولا التقليد — كانت السبب فى انتهاج أدباء الجيل الماضى ، نهجاً بديعياً متزناً ، فى شعرهم ونثرهم ، فكانوا مجازاً للترسل الحديث ومنهم رفاعة الطهطاوى ، وعبد الله فكرى ، وحفنى ناصف ، ومحمد عبده ، وغيرهم من المشاهير .

هذه الظروف أو العوامل الجديدة وحدها ، هى التى لوت عنان الأقلام قسرا فوجهتها إلى الأسلوب المرسل . وأذهلتها عن الأسلوب البديعى ، وألهتها عما يأتلق فيه من ألوان . ذلك لأنها غيرت مجرى الحياة الحاضرة فى ظاهرها وباطنها . وأصبح العرب والمسلمون يعيشون اليوم بعقول جديدة ونفوس جديدة ، فيها الجرأة والصراحة والشجاعة والحرية بشتى ضروبها . وإن الأمة لتنفر باستمرار من كل مظهر من مظاهر الضغط عليها . حتى إنها إذا خضعت لها فى ظاهر أمرها ، ففى نفسها ثورة تفور ، وفورة تثور . فأصبحت نفوسها حرة

(١) راجع مقدمة ابن خلدون ص ٤٧٩ — فصل فى أن حصول هذه الملكة بكثرة الحفظ وجودتها بجودة المحفوظ .

ولو وضعت فى زوايا السجون ، طليقة ولو رسفت فى الأغلال .

ويطول بنا مقام القول إذا أرخينا للقلم العنان فى هذا المجال . وكل ما نرمى إليه ، الإشارة إلى تحول مؤاثرت الحياة ، وتغير مذاقها ، حتى أصبح الأسلوب المقيدلا يتسق مع مقتضيات الأحوال فيها ، فعادت الألسنة قسراً إلى ترسلها ، ورجعت الأقلام قهراً إلى انطلاقها . ذلك لأن الأسلوب البديعى فى حاجة إلى نوع من الترف العقلى ، والانفعال النفسى ، لم تعد تسمح به مقومات الحياة الجديدة الخاطفة .

واعتقادنا أنه لولا تلك المغيرات الجديدة لظلت أساليبنا سادرة فى طريقها لاتلوى على شىء ، ومن يدرى؟ لعله بعد هدأة من الزمن ، وتراخ من الأيام ، واستقرار من هذا القلق ، وتركز من ذلك الصخب ، ورسوب لهذه الموجات المختلفة ، وتغير لأساليب الحياة ، وعودة إلى العناية الجادة بالدراسات القرآنية والدينية ، ستستريح النفوس مرة أخرى ، إلى حلى البديع وزينته ، فتعود إليها مرة جديدة ، تصوغ منها ما تشتهيه عرائس الأقلام من قلائد ، وترتجيه بنات الأفكار من أنواط .

ويبدو أن أدباءنا المعاصرين ممن يلحون أسلافهم ، وينعون عليهم ما نعاه ابن خلدون ، إنما استجابت نفوسهم لما قاله ابن خلدون ، نظراً لهذا التوافق بين مشربه ومشربهم ، وتذوقه وتذوقهم فالتأمت نفوسهم بنفسه ، وأعارت آراءه تلك آذانا صاغية وقلوباً واعية . ولولا ذلك لتجافت عنها ، ونعت عليها ، وبرمت بها ، ووجدت فيها غربة لم تؤهل ، وغرابة لم تعلل . كما وجد فيها معاصروه . وحسبك شهادته على نفسه إذ قال عن طريقته الكتابية فى المخاطبات السلطانية :

« وكان أكثرها يصدر عنى بالكلام المرسل ، بدون أن يشاركنى أحد ممن ينتحل الكتابة فى الأسجاع لضعف انتحالها ، وخفاء المعانى فيها على أكثر الناس ، بخلاف المرسل . فانفردت به يومئذ ، وكان مستغربا عند من هم من أهل هذه الصناعة . . . »

ومع ذلك كله ، فأى مذمة فى أسلوب البديع ؟ ألأنه لا يطابق مقتضى الحال ؟ هذا لا يقول به منصف واع — فليس كل أسلوب بديعى غير مطابق لمقتضى الحال . كما أنه ليس كل كلام مرسل ، مطابقاً لمقتضى الحال . . . إذن استوى الأسلوبان فى هذه الخصوصية .

بقى أن ننظر فى الفوارق الجلية ، بين الأسلوبين فنقول : إن كثيراً من المحسنات البديعية ظواهر أسلوبية عامة أصيلة عريقة فى وجودها طبيعية فى الحياة التعبيرية . وذلك كالطباق والمقابلة والعكس والتوجيه ، والإبهام ومراعاة النظير والاقتباس والتضمين أو الإيداع ، والتورية والتعليل ، والتشبيه وألوان المجاز ، وغير ذلك . وإذا كان لنا فى ذلك مقياس لا ينبو ، فهو لغة العامة ولغة الشعب ، التى هى الأصل الأصيل لنشوء اللغة وتنوع أساليبها ، وبخاصة الأساليب الأدبية التى هى ، فى أصدق ألوانها — استجابة لما فى نفوس العامة ، وإن تكن استجابة أيضاً لما فى نفوس الخاصة . نقول : إن هذه اللغة ، كما نراها ونسمعها اليوم — إذا صح أن الغائب يقاس على الحاضر — مليئة بهذه الأنواع البديعية . .

هذه الأنواع — نحب أن نقول إن الأساليب المرسلة مليئة بها . ولا يمكن أن تخلو منها ، لأنها روحها ومقومها . على أن هذه الألوان متصلة بإيضاح المعنى وإعطائه فضل بيان ، وبروزوجه ، وتأثير جمال ويطول بنا مقام القول ، إذا ذهبنا نختبر كل نوع منها ، لنبين مدى صلته بالمعنى وخدمته . حتى هذه الألوان اللفظية ، كالسجع والجناس ، لجرسهما ونغمها . والجرس والنغم بعض مكملات المعانى .

ومع هذا كله فإن المتتبع لأساليب الكتاب فى العصر المملوكى — وبخاصة بعد أن درسنا مذهب الحلبى وابن حجة — يرى أن هناك ألوانا بديعية اختلفت فيها أذواق هؤلاء الأدباء ، كالجناس مثلا ، فحبذه قليل منهم ، وأباه كثيرون . وهناك ألوان لم يقبلوا عليها كل الإقبال . وبعض الكتاب لم يلتزم التقفية .

فلا يحسبن متأدب أن الأساليب النثرية المملوكية ، كانت مراحاً لكل

تلك الألوان ، وأن كل مقالة ، لابد أن يثقل كاهلها بكثرة منها كاثرة . لا . فهناك تصغير الكلمات ، وإهمالها ، وإعجامها وتصحيفها والمتصل منها والمنفصل . والجناس الخطى أوغير ذلك من ضروب . هذه كانت من نوادر المسالك التعبيرية ، لا من مشهورها ، ومن خاصها لا من عامها . تكلف اتباعها بعض الكتاب لاجميعهم ، وتكلفها هذا البعض ، فى بعض ما كتب لا فى كل ما كتب — وهذه ظواهر أو عوارض لا خطر لها ، ولا حكم بها . إنما للظواهر الغالبة الملتزمة التى يندر أن تتجافى عنها مقالة أو قصيدة مثلا ، الخطر والحكم وهذه الظواهر كما بينا — طبيعية فى وجودها ، لا متكلفة ، وبدهية فى الأسلوب لا متعسفة .

وكل ما نستطيع استخلاصه من بعد ذلك ، أن الفارق بين الأسلوبين المرسل والبديعى الأدبيين ، أمور معدودة . هى السجع والتزام التقفية ونظام الفقرات والتزام أنواع من البديع . وهى أمور — كما ترى — ليست بمكان كبير من الخطورة ، حتى تحكم — بسبب وجودها — على الأسلوب البديعى ، أنه لا يراعى فيه مقتضى الحال .

ثم لابد بعد ذلك ، فى المخاطبات السلطانية من الخيال الشعرى ، والإطناب فى الوصف ، وسوق الألقاب ، وشىء من التهويل . وذلك كله اتباع لنظم الديوان ورسومه وأوضاعه ، واستجابة لتطلعات العامة ونحوهم ، ممن توجه إليهم الرسائل .

وبعد :

فقد آن لنا أن نلقيها كلمة صريحة — هامسة لا مدوية — فى أذن أدبائنا المعاصرين . واعتقادنا أنها لن ترضيهم . ولكنها الحق الذى ندين به ، ولن نحيد عنه ...

لقد قيضت لهم فى العصر الحديث ، وسائل ثقافية لاحد لها . منها حرية التعليم ونظمه وألوانه ، وبعث الثقافات العربية والإسلامية القديمة ، ونشر ألوان من الثقافات الغربية ، وذيوع الطباعة وتدفق مطبوعاتها ، ما بين عربى

وغربى ، ومؤلف ومعرب ، وانتشار الصحافة هذا الانتشار الرائع ، ونضج الإذاعة ويسر المواصلات . هذا ، فضلا عن الحركات القومية والثورات السياسية المتعاقبة التى سببتها وأعقبتها هزات فكرية ونفسية عميقة ، إلى غير ذلك من ضروب الثقافة الرفيعة ..

وقد أشرنا منذ قريب إلى أثر ذلك كله ، فى الأسلوب الأدبى الحديث ، وفى عجلته نحو الانطلاق والحرية ، ونبذ القيود البديعية ، وأنه بذلك قد استجاب لهذه المؤثرات الجديدة .

والحق أن كتابنا المعاصرين ، مفخرة من مفاخر مصر ، ومعجزة من معجزات الدهر ، فقد خطوا إلى الأمام خطوات موفقة محمودة شأوا بها الشعر الحديث وشعراءه . ومنحوا أنفسهم — أو منحتهم ظروف حياتهم — ألواناً من الحرية ، كسروا بها شرة الاستعباد النفسى القديم ، وبذلك استطاعوا أن يمتلكوا زمام القول وأعنة البيان ، فلانت اللغة ليدهم ، وخضعت لسلطان أقلامهم ، فلم يعد يستعصى عليهم معنى من المعانى دون إبرازه ، ولا تمر عليهم فكرة من الفكر ، دون إيضاحها ، مهما عمق المعنى ودق ، أو جلت الفكرة وعظمت . . وكثير منهم اكتسب بالمعالجة والمرانة خبرة وحنكة وكياسة ورفقاً بالمعانى ولطفاً فى حسن أدائها ، حتى ليستطيع أن يبسط مركبها ، ويحل معقدها ، وأن يقود أبيها ، فسمقت بذلك شخصيتهم الكتابية ، وثبتت لكل منهم فى كتابته دعائم أسلوبية ، ميزت بينه وبين غيره ، وأعادوا بحق سنة الكتاب الأوائل .

ولكن إنشاءهم ينقصه لون أصيل من ألوان الفن ! وهو اللون الذى يربطهم بعامة معاصريهم وبمجموع جماهيرهم اللون الذى يربطهم بهؤلاء فى نظر التاريخ الأدبى ، والذى به يكونون بحق أدباء هذا المجموع ، الذى يحيون فى نفوسهم حياته ، ويتأثرون بمؤثراته ، ويحسون بإحساساته ويموجون موجه .

ذلك لأن قصارى الأديب الخالد — كاتباً كان أو شاعراً أو خطيباً أو أى صنف آخر — أن يكون مرآة لعصره ، وأن تنعكس فى أدبه صور قومه

لامعة زاهية ، بما لها وما عليها . وبمقوماتها ومظاهرها ، من عاطفة وانفعال ، وتفكير وطرق تصور ، ووسائل تعبير .

هذه هى فنية الأديب الأصيلة — كما نعتقد — أو هى أزهى ألوان فنيته على الأقل ، مهما سما فى عبارته ، وترفع فى ثقافته ، فنى أسلوبه من أسلوب قومه مشابه وسمات .

فما مدى نصيب كتابنا المعاصرين ، ونصيب تعبيرهم ، من تعبير الشعب ؟

إنى أراهم فى واد والشعب فى واد ، ولا يتلاقى بهم إلا بمقدار . ذلك أن شعبنا المصرى له فى أساليبه اتجاهات خاصة ، ودعائم تعبيرية يصور بها مافى نفسه ، ولا يكاد يبرأ منها فرد من أفراده فى حديثه — ولقد أخذت هذه الدعائم سبيلها إلى الاستقرار منذ العهد الفاطمى — على وجه الإجمال — ومازالت حتى طبع عليها الشعب وتوارثتها أجياله جيلا بعد جيل ، حتى اليوم .

ومن تلك الدعائم : التورية والطباق والمقابلة والسجع والمجانسة ، والتلميح والإيهام والتوجيه والاقتباس والتضمين . أو الإيداع . . وخلط الجد بالهزل ، والاستعانة بالتشبيه والاستعارة والكناية ، وضرب المثل والحكمة ، وبذل الفكاهة والميل إلى الأطناب فى الوصف ، مع ندرة الإيجاز . إلى غير ذلك من الدعائم البارزة — وكان بودنا لو انفسح لنا هنا الميدان لتقديم الدليل والبرهان على صدق ما نقول . ولكننا ما نحسب أديباً واعياً ينكر علينا ذلك .

يسلك الشعب المصرى هذه المسالك التعبيرية ، وهو يصورها فى نفسه ، ترفيها للخطاب ، وتجميلا للفظ ، وتجسيما للمعنى ، وإلماعا إلى الذكاء وتوقد الذهن ، وإيذاناً بحضور البديهة . فهو يجنس ، ويورى ويطابق ويقتبس ويضمن . ولا ينى يبعث فى خلال ذلك ، النكتة إثر النكتة ، والفكاهة غب الفكاهة . وفيها دلالات عدة ، واتجاهات شتى ، ينم عنها اللفظ ، بمنطوقه مرة ، وبمفهومه مرة وبملابساته مرة أخرى ، وهكذا . .

لا نحاول هنا أن ندرس مبعث هذه الروح فيه ، ولا أن نتتبع أسبابها .

ولا نحاول أن نرجعها إلى عواملها الطبيعية من ذكاء أو طيب عيش ، أو طيب مناخ – أو إلى عواملها الاجتماعية ، من كبت عاطفة أو مقاساة حرمان ، أو كون التباع ، أو إلى خبء فى لذة ، أو تطرف فى ترف ، أو غلو فى سرف . أو غير هذا وذاك مما يتطلب له المرء مخرجاً فى القول ، فلا يجد إلا هذه الضروب البديعية ، ففيها له المتنفس والمراح ، يجمع فى أحدها ، العديد من المعانى ، ثم يترك السامع يقلبها بين يديه ، ويختار من بينها ما يلذ له ويروقه . فهو بذلك يحمله على التفكير والتصور معه ، ويدفعه إلى مشاركته ، ويسرى بخياله شتى التصورات ، وينتقل به بين مختلف المعانى — ويكفيه بذلك فنا .

سرت هذه الروح فى الشعب ، خلال حديثه ، حتى كانت له سمتا وشارة . وعرفت عنه منذ أمد . ونمت نموا عجيباً فى العصر المملوكى.ولعل حياة الزخرف والدهان التى ملأت فجاج العصر ، كانت لها آثارها فى هذا النمو العجيب ، الذى نضح على أدباء العصر وشعرائه.فكانوا أدنى أدباء عصر إلى تمثيل أهله،وأقربهم إلى تمثيل معاصريهم .

واعتقادى أننا معشر المصريين، لانزال حتى اليوم ، ندرج فى هذه المدارج ، ونطرق تلك السبل، برغم فراهة كتابنا وحذق شعرائنا وحرية أدبائنا ، وإزاحتهم ربقة البديع عن أعناقهم ، وتغلغلهم وراء المعانى والأفكار ، وسوقهم خلف الدقائق . وأخذهم من الفلسفة وعمق النظر بنصيب،ظهرت آثاره على إنتاجهم وأساليبهم .

ولكنى أعتقد أنهم — رغم حسناتهم تلك — لا يمثلون بأساليبهم ،العصر الذى فيه يعيشون . ومن كان فى ريب من هذا ، فليسر فى طرقات القاهرة وليعر السمع إلى نكات العامة ، ومحاورات الباعة ، ومماحكات المارة . فليلج الأسواق الجامعة . والمنتديات الحافلة ، وما شاكلها . فلينصت إلى أساليب الناس فى فى الحديث ، وإلى مدى امتلائها بالتوريات اللطيفة والتضمينات الطريفة ، والتجنيسات والمطابقات والتلميحات وغيرها من محسنات البديع . بل فليطف بالريف المصرى الجميل ويتحسس عبارات أهله فى رواحهم وغدهم وسمومهم

وصلحهم وخلافهم . فإنه سيجد أن هذه المحسنات ، لاتخلو منها عبارة ولا تفرغ منها إشارة . والجمهور فى ذلك يصدر عن طبع سليم وفطرة قويمة . فهو يعكس فى أسـلوبه تصوراته الباطنة وانفعالاته الخفية الـكامنة ، ومعانيه النفسية المتشابكة .

فإلى أى مدى صار أدباؤه المعاصرون مرآة له فى مسالك أسلوبه ، ومناهج حديثه .. ؟ لقد يبست الفكاهة على شبا أقلامهم، وتوارت التورية عنها خلف حجابها ، وأخذ الجد بزمام أدبهم حتى ضلت سبيل المزاح ، ولم يعد وجه الأيام متطلقا فيما يكتبون ، ولا ثغر الدنيا ضاحكا فيما يسطرون ، وصارت سطورهم تسفر عن معانيها الجادة ، غير مداعبة ذهنا ولا مشاغبة عاطفة . وكاد العلم ومنهجه يلبسها ثوبه الخشن — مع أنهم هم فى خصوصياتهم من الشعب وإلى الشعب ، وكأنهم فيها يعودون خلقا آخر ، حيث تتوالى نكاتهم ، وتتابع فكاهاتهم ، وتتجاوب توورياتهم . وتتناغم سجعاتهم . وهذا مما يدل على أنهم ، يكتبون بعقولهم أكثر مما يكتبون بنفوسهم . ويستوحون أفكارهم ، قبل أن يستلهموا عواطفهم فهم نمط من أنماط ابن خلدون . ولهذا ذهبوا مذهبه وآمنوا بآرائه .

ولعل أقرب كتابنا نسبا إلى الشعب وأدناهم أدبا منه ، الصحفيون ، وبخاصة من يخرجون أحاديث السياسة وأنباء المجتمع ، مخرج الفكاهة اللاذعة ، والهزل الجاد ، وينزعون فيها منزع المبالغة والتهويل ، ويشيرون وفى إشاراتهم معان سافرة ، ويلمحون وفى تلميحهم النقد المرير ، ويضربون المثل والحكمة وفيها الوعد والوعيد . وهذه بعض طبائع الشعب المصرى .

ولعل كتاب القصص ، وبخاصة كتاب القصص التمثيلية التى تمثل على المسرح أو الخيالة ، لهم مثل هذا القرب والدنو من الشعب . ولهذا تراه مقبلا بشغف ، بل بنهم ، على تمثيلياتهم .

وبعد ! فهل آن لنا أن نقول لكتابنا ، وبخاصة المترسلون ، ومن يذهب منهم مذهب ابن خلدون : إنكم عاجزون عن الأسلوب البديعى .. ! وإنكم إنما استسلمتم للأسلوب المرسل فرارا من مسئوليات البديع ... ! وإنه لمن العسير

عليكم أن تنهجوا النهج البديعى فى إنشائكم وتراعوا فيه — وأنتم المثقفون البلغاء — ما راعاه أسلافكم من مشاهير كتاب مصر ومنشئ دواوينها ، أمثال الفاضل وابن عبد الظاهر ، وابن فضل الله العمرى ، وابن نباتة ، وابن حجة ، وأضرابهم ، من براعة استهلال ، وروعة اقتباس ، وحلاوة تضمين ، وحسن تورية ، وتوافق سجع ، وخفة فكاهة إلى غير ذلك . . . (١) .

إن من يدرس الشعب فى أساليبكم الكتابية — لا فى أغراضها — يجد نفسه أمام شعب أخذ الجد بتلابيبه ، وأخذ هو بتلابيب الجد . وأنه قد بلغ مستوى ثقافيا ، لم يبلغه شعب حديث ، وأن حياته العقلية نموذج عال ، لم تبلغه أمة . إلى غير ذلك مما يستطاع استنباطه .

وبعد :

فحسبنا هذا فى مناقشة ابن خلدون . ومن يدين برأيه من مؤرخى الأدب فى العصر الحديث .

ونختم هذا الفصل بلفت النظر إلى فصل لطيف عقده ابن خلدون فى مقدمته تحت عنوان : « فصل فى أن صناعة النظم والنثر إنما هى فى الألفاظ لا فى المعانى » — قال :

« اعلم أن صناعة الكلام نظما ونثرا ، إنما هى فى الألفاظ لا فى المعانى . وإنما المعانى تبع لها وهى أصل . فالصانع الذى يحاول ملكة الكلام فى النظم والنثر ، إنما يحاولها فى الألفاظ بحفظ أمثالها من كلام العرب ليكثر استعماله وجريه على لسانه ، حتى تستقر له الملكة فى لسان مضر ، ويتخلص من العجمة التى ربى عليها فى جيله . ويفرض نفسه مثل وليد ينشأ فى جيل العرب ، ويلقن لغتهم كما يلقنها الصبى ، حتى يصير كأنه واحد منهم فى لسانهم . وذلك أنا قدمنا أن للسان ملكة من الملكات فى النطق يحاول تحصيلها بتكرارها على اللسان حتى تحصل .

---

(١) لعل من المناسب هنا أن نذكر رأى ابن الأثير صاحب المثل السائر فيمن عاب السجع . قال : « وقد ذمه بعض أصحابنا من أرباب هذه الصناعة ولا أرى لذلك وجها سوى عجزهم أن يأتوا به » . — المثل السائر باب السجع ص ٧٤ .

والذى فى اللسان والنطق إنما هو الألفاظ ، وأما المعانى فهى فى الضمائر وأيضا فالمعانى موجودة عند كل واحد ، وفى طوع كل فكر منها ما يشاء ويرضى . فلا تحتاج إلى صناعة . وتأليف الكلام للعبارة عنها هو المحتاج للصناعة كما قلناه » الخ . . (١)

وابن خلدون هنا يذهب مذهب الجاحظ فى « اعتبار المعانى مطروحة فى الطريق يعرفها العجمى والعربى والقروى والبدوى . وإنما الشأن فى إقامة الوزن وتخير اللفظ وسهولة المخرج وصحة الطبع وكثرة الماء وجودة السبك (٢) » ولم يذهب ابن خلدون أيضاً مذهب المعنيين بالنظم أى بطرق التعبير عن المعانى — لا المعانى نفسها — وهو مذهب عبد القاهر الجرجانى الذى يرى البلاغة فى النظم — لا فى الألفاظ ولا المعانى — وقصر ابن خلدون صناعة الكلام فى الألفاظ وحدها ، كما هو صريح كلامه وظاهره .

والعجيب أن يكون هذا ، مبلغ نظره إلى هذه الصناعة ، ثم يحمل على الكتاب المعاصرين له ، لأنهم لم يراعوا مقتضى الحال
وحسبنا هذا فى مناقشته .

---

(٢) المقدمة ص ٤٧٨ .

(٣) الحيوان ج ٣ ص ٤٠ وما بعدها — وراجع أيضا مقدمة الإيضاح .

الفصل الرابع

جلال الدين القزوينى [1]

٦٦٦ هـ — ٧٣٩ هـ

نختتم هذا الباب بوجازة فى الحديث عن جلال الدين القزوينى الذى يعتبر بحق رأس علماء البلاغة فى هذا العصر .

وليس من صميم بحثنا أن نؤرخ للبلاغة ومنازعها فى العصر المذكور ، ولكننا رأينا أن نسجل هذه الوجازة بسبب ما بين النقدين الأدبى والبيانى من صلة . واخترنا هذا الرجل ، وهو الخطيب القزوينى مدارا للحديث ، لأنه ورث علم البلاغة عمن قبله من علمائها ، ولا سيما السكاكى المتوفى عام ٦٢٦هـ والذى يعتبر خاتمة البلاغيين فى عصر بن العباس . هذا إلى أن علماء البلاغة بعد القزوينى إنما ساروا فى فلكه وداروا فى محيطه ، وكانت كتبهم شروحا لكتبه أو مختصرات لها .

* * *

وينبغى أن نفرق بين هذين النوعين من النقد قبل أن نعرف بهذا الرجل .

فأما النقد الأدبى فقد تحدثنا عنه فى إسهاب وتفصيل فى مطلع هذا الباب . ورأينا أنه فن دقيق يقوم على الذوق ، ويستند إلى المعرفة . ويتناول الآثار الأدبية فيميز فيها بين الغث والسمين وبين الخبيث والطيب . ويحلل ويعلل ويستنبط ، ويستلهم روح العصر وحاجات المستقبل ، فيرسم الخطة ، ويبين النهج القويم . ومن هنا ترى النقاد ذوى قيمة كبرى فى حياة الأدب والأدباء وهم — وإن احتاجوا إلى جملة علوم ومعارف واسعة فى عملهم الأدبى — يصدرون

(١) ترجمته فى طبقات السبكى ج ٥ ص ٢٣٨ ، الدررج ٤ رقم ٢ ، المنهل ج ٢ ورقة ٣ رقم ٤٢ ، الشذرات ج ٦ ص ١٢٣ وحسن المحاضرة ج ٢ ص ١١٤ ، ١١٥ .

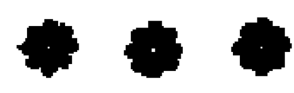
فى نقداتهم عن أذواقهم الخاصة . لذلك تختلف أحكامهم وتفترق تعليلاتهم وهذه هى طبيعة النقد .

وقد ولد النقد بمولد الأدب . وكان أول نشوئه فطريا ساذجا وذوقيا خالصا . ثم أخذت التعليلات تبدو رويدا رويدا ، والموازنات تعقد شيئاً فشيئاً . وكلما سمقت حضارة العرب واتسعت دولتهم وتلاقحت فيها الثقافات ، أقبلوا على العلم . فخصف العقل وعمقت النظرة ، ولطفت الفطرة ودق الذوق ، وحسن الاستنباط .

ومن هنا تولدت من النقدات المتلاحقة ، ومن التعليلات المتناثرة ، أقيسة اطمأنت إليها الأذواق ، ورضيتها العقول . ثم أخذت تنق ويضاف إليها وتتركز وتستقر وتتكتل حتى آن لها أن توضع فى تعاريف محدودة ، وقوالب مضبوطة ، فتم لها ذلك على يد السكاكى ، فصارت علوماً .

هذه هى البلاغة أو النقد البيانى . نشأ فى رعاية النقد الأدبى ممتزجا به غير مفترق عنه ولا متميز منه . ثم أخذ ينحاز وحده جانبا ، رويدا رويداً ، حتى صار علماً مستقلا .

وبينما ارتضى النقد البيانى هذا الضيق العلمى ، إذ أبت طبيعة النقد الأدبى إلا أن تكون حرة طليقة لا تتقيد بالتعاريف ، ولا ترتهن بالمصطلحات ، ولا تعيش فى وسط هذه الخشونة العلمية وبين هذا الجفاف المنطقى . وهى فى حريتها وطلاقتها تصطنع ما شاءت من العلوم والمعارف ، أدوات ووسائل تبلغ بها أهدافها .



وقد رأينا أن العصر الذى نحن بصدده ، قد سعد بعدد من نقاد الأدب ، اعتمدوا على أذواقهم ومعارفهم ، وكانت لهم آراء ، ترجموا بها عن أذواق معاصريهم وعن نزعاتهم الفنية فى مسالكهم التعبيرية .

وعاش إلى جوارهم عدد آخر من علماء البلاغة الذين وهبوا جهودهم للحديث عنها حديثاً علمياً محدودا قوامه تعاريف السكاكى . وعلى رأس هؤلاء الخطيب القزوينى .

وجلال الدين القزوينى . . « محمد بن عبد الرحمن بن عمر » ، أصله من قزوين . وولد بالموصل عام ٦٦٦ هـ وقدم دمشق . وكان شافعيا ، فاشتغل بتدريس مذهبه ، وولى القضاء بدمشق والقاهرة . وولى أيضاً خطيبا بجامع دمشق ، فاشتهر بالخطيب . وقد توفى عام ٧٣٩ هـ .

وألف فى البلاغة كتابيه المشهورين . « تلخيص المفتاح » و« والإيضاح » .

وينبغى أن نشير قبل الحديث عن هذين الكتابين ، إلى صاحب « المفتاح » وهو سراج الدين أبو يعقوب يوسف بن أبى بكر ، السكاكى المتوفى عام ٦٢٦ هـ فهو يعتبر خاتمة علماء البلاغة فى عصر بنى العباسى . ولكتابه « مفتاح العلوم » أثر بارز فى حياة علم البلاغة .

ألف السكاكى كتابه هذا فى ثلاثة أقسام ، فقسم للنحو والصرف والاشتقاق ؛ وقسم للمعانى والبيان والبديع ، وقسم للعروض . وقد رزق قسمه الخاص بعلوم البلاغة شهرة وذيوعا لدى المعنيين بهذه العلوم . ويبدو أن سبب ذلك ، أنه استطاع أن يجمع مسائل البلاغة المتفرقة من قبله ، والمتناثرة فى كتب البلاغيين ، وأن يسبكها جميعا فى قوالبها العلمية النهائية بحيث لم يستطيع البلاغيون من بعده أن يزيدوا عليها شيئا ذا خطر ، إلى العصر الحديث الذى فيه أخذت هذه العلوم تستعيد نشاطها .

وقد قال ابن خلدون عن السكاكى وهو يتحدث عن «علم البيان» : « لم تزل مسائل الفن تكمل شيئا فشيئا إلى أن محض السكاكى زبدته وهذب مسائله ورتب أبوابه »[١] .

والحق أن عبد القاهر الجرجانى صاحب الفضل الأكبر فى توضيح مسائل علمى البيان والمعانى توضيح ناقد ذواقة . أما السكاكى فقد وضع أدب عبدالقاهر ونقده ، فى قوالب علمية .

ويعتبر عمل السكاكى ، من الناحية العلمية ، عملا جليلا . إذ لابد لكل علم

---

(١) مقدمة ابن خلدون ، فصل فى « علم البيان » ص ٤٥٧ .

منذ نشأته من جملة تحولات حتى تستقر أموره على يد أحد أعلامه ، فيصبه فى شكله العلمى النهائى ، الذى يتخذ دعامةهامة من بعد . وهذا هو ما صنعه السكاكى فى علم البلاغة .

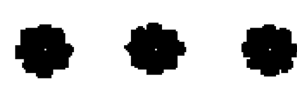
غير أنه بذلك نقل البلاغة من ميدان الفنون الذوقية إلى ميدان العلوم النظرية ، فشغل البلاغيين من بعده بشرح كلامه أو التعقيب عليه والاستشهاد له ، هذا فضلا عن أنه جعل البديع تابعا لعلمى البلاغة : المعانى والبيان .

وكتابه « مفتاح العلوم » هو الذى شغل القزوينى بتلخيصه وإيضاحه ، فيما يختص بعلوم البلاغة .

وتلخيص المفتاح : هو مختصر للقسم الخاص بعلوم البلاغة من كتاب « مفتاح العلوم » للسكاكى . وضعه القزوينى بعد ما أبعد ما فى « المفتاح » من حشو وتطويل وتعقيد ، واختصر فى سطوره وعباراته ما احتمل الاختصار . وزوده بشىء من الترتيب والشواهد . والفوائد .

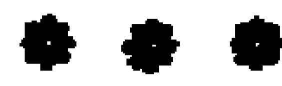
والإيضاح : هو شرح للكتاب السابق . وضعه القزوينى تفصيلا لما أجمل فى كتابه المذكور . وجعله مرتبا على ترتيبه . موضحا فيه ما أشكل ، مفصلا ما أجمل . مزودا إياه بفوائد قيمة من كلام عبد القاهر وغيره ، وعما هداه إليه تفكيره .

والكتاب تشوده المصطلحات العلمية والعبارات المنطقية والبحوث والتقسيمات النظرية ، وإن رفهت عنه أمثلته وشواهده ، غير أنه كثيراً مااستمدها ممن سبقوه ، حتى أصبحت أمثلة تقليدية يرددها علماء البلاغة ، كأن البلاغة لم تخلق إلا لوصفها وحدها .



مما سبق يتبين لنا أن البلاغة اتخذت لنفسها فى هذا العصر وجهة ، واتخذ النقد الأدبى وجهة أخرى . ويتلاقيان الفينة بعد الفينة ، فى هوادة ورفق . فلم تخل كتب البلاغيين جملة من نقدات ذوقية ، ولم تخل كتب النقاد جملة من نظرات بلاغية ، كما شهدنا فى كتابى الحلبى وابن حجة .

وهنا مفارقة لطيفة وهى أنه بينما ترى « القزوينى » قد فصل « البديع » عن علوم البلاغة واعتبره محسنا للكلام فحسب ، لا دخل له فى مطابقة الحال ، قائلا: « وما يعرف به وجوه تحسين الكلام بعد رعاية تطبيقه على مقتضى الحال وفصاحته ، هو علم البديع » . إذ ترى النقاد لا يميزون بين ألوان البديع وغيره من ألوان المعانى والبيان ، ويعتبرونها جميعا منضوية تحت لواء البديع . وأن معظمها — إن لم يكن كلها — له صلة بالمطابقة . وقد نوهنا بذلك عند الحديث عن ابن حجة .



هذا وقد عنى العلماء بعد القزوينى عناية كبرى بكتابيه المذكورين ، وتناولوهما شرحا واختصارا ومنهم على سبيل التمثيل :

١ — بهاء الدين أبو حامد السبكى المتوفى عام ٧٧٣ﻫ . وله كتاب « عروس الأفراح » ، وهو شرح تلخيص المفتاح .

٢ — أكمل الدين البابرتى المتوفى عام ٧٨٦ ﻫ . وله كتاب « شرح تلخيص المعانى والبيان » .

٣ — سعد الدين التفتازانى المتوفى عام ٧٩١ ﻫ وله شرحان على كتاب « التلخيص » .

٤ — جلال الدين السيوطى المتوفى عام ٩١١ ﻫ . وله « الإفصاح » ، وهو نكت على التلخيص .

٥ — زين الدين زكريا الأنصارى المتوفى عام ٩٢٦ﻫ . وله ملخصان لتلخيص المفتاح . وقد شرح أحدهما وسماه « أقصى الأمانى فى علم البيان والبديع والمعانى » .



هذا . وقد بدأ جليا أن هؤلاء البلاغيين ، داروا فى فلك العلم ، وزايلوا سمة الفن . ومن هنا فهم لا يمثلون النزعات الأدبية والمسالك الفنية السائدة فى عصرهم — وإلى هنا نكتفى بحديثنا فى هذا الباب .

الباب السادس

فى خصائص النثر الفنى

تمهيـــد

هذا الباب يعتبر خاتمة لبحثنا ، ونتيجة له فى آن واحد . وقد كانت الأبواب السابقة معرضا لألوان من النثر الفنى فى العصر الذى نؤرخ نثره . أثبتنا منه نصوصا عدة مع تحليلها وتعليلها بين إيجاز وتفصيل ، حسب مناسبات الـكلام وضروراته .

ونعتقد أننا بهذا قد أشبعنا رغبة القارىء الكريم بتلك الصور المتتابعة للنثر الفنى المذكور . وهذا ما يعيننا عونا كبيراً على الحديث فى هذا الباب الأخير .

* * *

وقد أفردنا هذا الباب، لبيان خصائص النثر. وقدمنا لفصول هذه الخصائص، بحديث وجيز نبين فيه ما نعنيه من الخصائص ، ونوضح مبلغ فهمنا لها واتجاهنا فيها . ولهذا تـكلمنا عن الموضوعات الآتية على الترتيب :

طبيعة الأدب ووظيفته — المؤثرات العامة فى الأدب . معنى الخصائص وإقليميتها . بطء تطور النثر وعوائق تمصيره .

* * *

وحصرنا حديثنا فى شرح خصائص النثر الفنى ، فى ستة فصول :

الفصل الأول :

تحدثنا فيه عن استجابته للبيئة . وتناول الحديث أربع بيئات هى على الترتيب : البيئة الطبيعية . والاجتماعية . والسياسية . والثقافية .

الفصل الثانى :

تحدثنا فيه عن شيوع الوصف فى النثر . وتناول الحديث إبراز هذه الخصوصية وما اعتمدت عليه من خيال شعرى وتشبيه ومجاز واستعارة ، وإنسانية مالا يعقل أو « تعقيله » .

الفصل الثالث :

تحدثنا فيه عن اصطناع البديع . وتناول الحديث بيان أسباب هذا الاصطناع . وولوع الأدباء به، وأثر الدراسات القرآنية فيه ، وتأثر الأدباء بطريقة القاضى الفاضل . مع بيان وجيز لخصائص هذه الطريقة .

ثم تحدثنا عن الألوان البديعية التى لمعت فى النثر الفنى أكثر من سواها . فتكلمنا على الترتيب عن : السجع ونظم فقراته . والطباق المقابلة . والاقتباس والتضمين وحل الشعر والنثر . والتشبيه والمجاز والاستعارة . والتورية . وهنا عرفنا بكتاب « كشف اللثام » لابن حجة . وكتاب « فض الختام » للصلاح الصفدى — والاستخدام . وبراعة الاستهلال ومراعاة النظير . والجناس ، وهنا عرفنا بكتاب « جنان الجناس » للصفدى — والتوجيه والإبهام والتلميح، والعكس والإهمال وحسن التعليل وحسن الختام .

الفصل الرابع :

تحدثنا فيه عن خصائص أخرى ومنها : الأغراض الشعرية التى اصطنعها النثر . واستشهاد الكتاب بأبيات الشعر. والميل إلى الإطالة.والفكاهة والسهولة والوضوح . وائتلاف الأسلوب مع الموضوع .

الفصل الخامس :

تحدثنا فيه عن اللوازم الديوانية ومايتصل بها . ومنها صور البدء . الأدعية . المدح والألقاب والأوصاف — والوصايا — وصور الختام . ثم عرفنا بكتاب « التعريف بالمصطلح الشريف » للشهاب ابن فضل الله العمرى .

الفصل السادس :

تحدثنا فيه عن النزعة الموسوعية وأسباب بروزها فى تفكير الكتاب وأساليبهم . وذكرنا فى إيجاز أمثلة لها من كتب التاريخ والأدب والحديث والتفسير والفقه والنحو واللغة .

خاتمة البحث :

وتحت هذا العنوان كتبنا وجازة نختتم بها هذا البحث الطويل ، ونلخص فيه النتائج التى وصلنا إليها .

تقـــــديم

لا بأس ، ونحن بصدد الكشف عن خصائص النثر الفنى فى عصر المماليك، من أن نقدم بين يديها حديثا وجيزا عن طبيعة الأدب ووظيفته ، وعن المؤثرات العامة التى لها شأن فى أساليبه ، وعن معنى خصائصه ، ونحو ذلك ، حتى يكون هذا عونا لنا على معرفة خصائص النثر المذكور ، وفهم مدى ما قام به لعصره من مجهود ، وما أداه له من رسالة . فنقول :

طبيعة الأدب ووظيفته :

نتساءل ما طبيعة الأدب ووظيفته ، ما رسالته التى يؤديها فى الحياة ؟ هذا موضوع ضخم يحتاج إلى بحث مستقل . غير أننا هنا ننوه منه بما يناسب المقام فنقول :

إن الأدب تصوير ما تختلج به نفس الأديب وخياله وعقله ، وما تثور به عاطفته . يؤديه بذلك إلى قرائه .

والأديب ، عادة ، أكثر من غيره حسا وأرهف نفسا ، وأقدر على التصور والتصوير، وعلى التخيل والتعبير . وهو إلى ذلك ذو روح أدبية ، « ديمقراطية » الإحساس ، شعبية الشعور غالبا — إذا صح هذا التعبير — بمعنى أنه سريع الحس دقيقه ، قوى الشعور بما يعتلج فى النفوس من آلام ومن أحلام . وما يترجح بين جوانحها من عواطف ووجدانات . وما يطفر إلى مخيلاتها من صور ورسوم ، وما يراود نفوسها من مختلف الأحاسيس ، وما يخف على ألسنتها من مسالك التعبير .

والأديب تثور نفسه بحوادث الحياة التى تقع فى بيئته ومحيط حسه وميدان مشاعره ، ثورة تدفعه إلى تسجيلها بقلمه كما تراءت فى صفحته الباطنة . ويرسلها إلى قرائه ، ويطالع بها الناس ، فيجدون فيها متعة ولذة ، ويجدون فيها فكرة وتوجيها ، ويجدون ذلك كلما عاودوا قراءتها . .

ومن هنا ترى وظيفة الأدب تكاد تنحصر فى أمرين :

الأول : تسجيل حوادث الحياة كما رآها خيال الأدباء وكما ثارت بها نفوسهم .

الثانى : إمتاع القراء وتوجيههم .

* * *

والأدب يسلك سبيله إلى القيام بهذه الوظيفة ، معتمدا على تشجيع ظروف حياته له ، وإفساح ميدان الحرية أمامه . وهو يصطنع من أساليبه ومسالك تعبيره وتصويره ما يناسب المقام . فطورا يكتبها قصة ، مسلاة وملهاة ، أو فاجعة ومأساة . وطورا يرسلها حكمة أو مثلا أو عظة ، وآنا يدبجها خطبة أو رسالة أو مقالة ، ومرة يحررها مدحة أو استعطافة ، أو تهنئة أو تعزية إلى غير ذلك . كما أنها تارة تكون شعراً وتارة تكون نثرا فنيا . . .

وتختلف طبيعة الشعر عن طبيعة النثر . فالشعر أفسح مجالا أمام العاطفة والخيال . والنثر أوسع مدى أمام الفكرة والرأى . مع أنهما يشتركان فى حسن الأداء وروعة التعبير .

أما اختلافهما فلأن الشعر دعامته الأولى الوزن والتقفية ، أو بمعنى آخر ، طبيعته الموسيقية التى يتسم بها ولا تفارقه ، ولا يكون شعرا بدونها ، والموسيقية أشد صلة بالعاطفة وأمتن وشيجة ، لأنها من واديها . ومن هنا كان الشعر أكثر إثارة للمشاعر ، وأقرب من غيره مخاطبة للنفوس . فإذا أضيف إليها — إلى الموسيقية — الخيال الشعرى بمقوماته البيانية ، ماج الشعر بالعاطفة وبلغ بها الغاية التى ينشدها بين النفوس .

والنثر أكثر من الشعر حرية فى قوالب صوغه . ومن هنا استطاع العقل أن يجد له فيه مسرحا أوسع ، ومدى أفسح ، لكى يحمله من نتاجه ماراق ، ومن زهراته ما ازدهر ، ومن ثمراته ما نضج ، دون أن تعانى الزهرات عبوسة ولا الثمرات فجاجة .

والنثر بعد ذلك — أوقبله — يستطيع فى كثير من الأحايين أن يشارك الشعر ويقاسمه فى خصائصه ووظائفه .

النثر إذن ، يقوم برسالته الأدبية ، فيمتع القراء ويوجههم . يمتعهم لأنه يثير خيالهم ويهز نفوسهم ويشيع فيها شعور ناثره ، ويرسم فيها تصوراته ، فيتأثرون بها فيفرحون لفرحه ويطربون لطربه ، أو يحزنون لحزنه ويغضبون لغضبه . وكثيراً مايجدون فى حديثه صورهم النفسية واضحة بعد إبهام ، مبسوطة بعد تعقيد ، مفصلة بعد إجمال . فيراحون لها ويبشون . وكلما قرءوها وعاودوا قراءتها ، عادوتهم المتعة والبشاشة كأول تذوقهم لها أو أشد . وهذه الخصوصية من أسرار الأدب وطبائع تأثيره ، ومما يضفى عليه دائماثوب الجدة ولو تقادمت عليه العصور .

وكما يجدون المتعة يجدون التوجيه ، فينمى شعورهم بالجمال ، ويقوى صلتهم بالحياة . ويهذب نظرتهم إلى مجاليها ، ويوسع معرفتهم بأسرارها . ومن هنا تراه كأنه يزف أفكاره إلى العقول ، يزفها مجملة مزدانة محلاة ، لاخشنة جافة عارية ، عليها من حسن البيان أثواب تسبغ عليها من أسباب البهجة والرواء ما يغرى بحسن اللقاء وطيب القبول(١) .

* * *

المؤثرات العامة فى أساليب الأدب :

وما دام الأدب رجع الحياة ولسانها ، وصدى حوادثها وترجمانها ، والمعبر عن أحلامها ومستقبل أيامها ، كان لزاما أن يتأثر بعناصر الحياة ، ماظهر منها ومابطن ، من غرائز نفسية وانفعالات عاطفية وعادات متبوعة وتقاليد مشروعة ، وأفكار تساور الأذهان ، ونزعات تردد على اللسان ، واندفاع فى تيار النهوض ، أو رغبة فى المحافظة والجمود . إلى غير ذلك .

وعناصر الحياة نفسها تتأثر بما يعرض لها من عوارض البيئة خيرها وشرها ، كرمها وبخلها ، سهولتها وتركيبها ، وضوحها وغموضها . وتتأثر بعوارض السياسة صلاحها وفسادها ، سموها وضعتها . استقرارها واضطرابها . نشاطها

---

(١) استأنسنا فى هذه الكلمة بكتاب « قواعد النقد الأدبى » تأليف «لاسل آبر كرومى » وتعريب الدكتور محمد عوض محمد . ولا سيما الفصل الثانى منه وعنوانه « فن الأدب » .

ونحوها . وبعوارض المذاهب والأديان المقيمة والطارئة . وبعوارض الجنس الأصيلة والدخيلة ، الناجمة من غزو أو تجارة أو رحلة أو نحوها . وبعوارض الثقافة وألوانها ومراميها ، وبأصالتها وزيفها . وبعوارض الاقتصاد وما يتصل بها من رخاء وغلاء ، من يسر أو عسر ، ومن غنى أو فقر ، وما يصحبها من موجات سلام أو رجات فزع وخصام ، بسبب نقص فى فيضان ، أو تحول من مطر ، أو جدب يصيب الأرض ، أو إصابة يمنى بها الزرع والضرع ، أو بسبب انتشار وباء أو حدوث حدث طبيعى كزلزال . إلى غير ذلك .

وكما تتأثر عناصر الحياة بهذا كله ، تتأثر بذكريات الماضى ورواسبه فى أعماق النفسية الشعبية . وتتأثر بهواجس الحاضر ، وهمسات المستقبل .

* * *

هذه بعض المؤثرات العامة فى أساليب الأدب ، إن لم تكن كلها . والبحث فيها وفى طبيعتها وطبيعة تأثيرها ، ونتائج هذا التأثير ، وتعليلها ، والاستشهاد لها ، بحث طريف فى الأدب العربى . وعلى ما أعلم ، لم يقتحم ميدانه بعد مقتحم باعتباره موضوعا موحداً ، وفكرة مستقلة جامعة ، تحتاج إلى نظره شاملة ، واسعة المدى ، بعيدة الأفق ، وإلى دراسة مفصلة لشتى العوامل ، والوصول إلى نتائجها وتعليلاتها ، مع سوق الشواهد الكثيرة لدعم هذه النتائج والتعليلات .

* * *

وقد كتب الأستاذ على أدهم فى كتابه « على هامش الأدب والنقد » فصلا تحت عنوان « الثقافة والمجتمع » عرض فيه للعلاقة بين الثقافة والمجتمع ، ومبلغ تأثيرها فيه وفى نتاج أدبائه . وهو مقال ممتع يصلح أساساً لبحث واسع النطاق . ويهمنا منه فى هذا المقام أن نذكر إحدى عباراته حيث قال : « وتأثير البيئة الاجتماعية فى الصناعة الفنية ، من الموضوعات الطريفة التى لم تستوف بعد نصيبها من البحث والتنقيب والشرح والتعليل فى مختلف آداب الأمم . ويعنى بها فى العصر الحاضر بوجه خاص ، النقاد الماركسيون[1] . ويبدون فيها ملاحظات قيمة

---

(١) الماركسيون . الروس أتباع ماركس .

ويقدمون معلومات ثمينة ، لولا ما يفسد عليهم أمرهم من النظر إلى المسألة من جانب واحد . فإنه لا يكفى لتقدير الآثار الأدبية والفنية ، النظر إلى قيمتها من الناحية الاجتماعية وحدها ، الخ[1] — والناحية الثقافية أو الاجتماعية بعض المؤثرات .

* * *

على أننا فى هذا المقام أيضاً ، لابد لنا من الإشارة إلى أن كثيراً من الأدباء والنقاد السابقين والمعاصرين بحثوا فى هذه المؤثرات أو بعضها ، وأدلوا فيها بآراء قيمة .

فقديما تنبه — مثلا — أبو تمام فى وصيته للبحترى ، إلى أثر الحالات النفسية للشاعر فى إنتاجه . وتنبه الآمدى فى كتابه « الموازنة » إلى أثر البيئة والثقافة فى الشعر ، وإلى أن المطبوع منه خير من المصنوع . وتنبه الجرجانى فى كتاب « الوساطة » إلى أثر البيئة والطباع فى الأساليب صلابة وضعفا وجفاء ورقة ، وإلى طبيعة الموضوعات وأثرها فى تنويع الأساليب . وتحدث ابن رشيق فى كتابه « العمدة » عن المطبوع من الشعر والمصنوع ، مبينا مرجع ذلك ، وهو الثقافة والحضارة ونحوهما . وقديما أيضاً قالوا إن جريراً قد رق أسلوبه لرقة طبعه ، وإن الفرزدق صلب أسلوبه لصلابة طبعه . إلى غير ذلك .

وحديثا أخذ نقاد الأدب المعاصرون ، ومؤرخوه ، فى دور التعليم وخارجها ، يعللون أحداث الأدب وتنوع الأساليب ، بعلل شتى ، من بداوة البيئة وحضارتها ، أو رقة الطباع وغلظتها . أو سمو الثقافة وضعتها ، إلى غير ذلك .

ونشط أخيراً نوع من النقد جديد وهو « الأدب المقارن » الذى أخذ الباحثون فيه يستقصون ألوان المؤثرات الأدبية ، ويوازنون بين أدب وأدب ، وبين أسلوب وآخر ، معللين مستنبطين .

---

(١) راجع كتاب « على هامش الأدب والنقد » لعلى أدهم ص ١٣٤ — طبع دار الفكر العربى .

كذلك تقدمت البحوث الجامعية ونحوها ، إلى الميادين ، فاقتحمتها ، وظهرت منها بواكير من الدراسات النافعة ، ولا سيما ما يتصل منها بالأدب العربى المصرى ، وبيان المؤثرات فيه أصيلة ودخيلة ، مقيمة وطارئة ، محاولة الوصول إلى تحديد هذه المؤثرات وإيضاح آثارها ، وإبراز عناصر الشخصية المصرية ، ومظاهر الإقليمية فى أدب مصر العربية[١] .

وقد أوحى بذلك كله ، وشجع عليه ، انتشار الثقافة العالية فى عصرنا . والاتجاه القوى إلى تقويم النقد الأدبى وإقامة صرحه على دعائم علمية منظمة مهذبة دقيقة ؛ تأثراً بنظيره فى الآداب الأوربية . هذا إلى تقدم الدراسات النفسية على اختلاف أنواعها تقدما يعد من أهم الحوافز إلى دراسة الأدب العربى دراسة جديدة قوامها التحليل والتعليل وربط النتائج بأسبابها الحقيقية .

ولكن البحوث المشار إليها — على أهميتها ووجاهتها وما فى كثير منها من صدق وصواب ، ومن دقة وعمق — بدت جزئية متناثرة لم ينتظمها بحث مستقل موحد جامع يحيط بالشتات ويلم الشعث ، ويوحد الاتجاه نحو استنباطات علمية منظمة صريحة ، تتخذ دعامة للباحثين فى آداب العربية ، وتكون سندا لهم فى نقدهم الجديد ، ولاسيما النقد التطبيقى الذى قوامه التمثيل والاستشهاد ، وتعينهم على فهم ماهم بصدده فهما أكثر دقة وعمقا وصدقا .

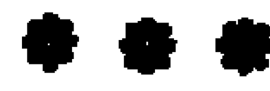
وهذا — فى الحق — يحتاج إلى جهد كبير . يحتاج إلى دراسات شتى فى مختلف العلوم والفنون من لغوية وسياسية واجتماعية واقتصادية وغيرها ، مما يتصل بمصر العربية — مثلا — مع دراسة تاريخها دراسة مفصلة تتميز فيها عناصر الفكر والاجتماع والنفسية ، مؤيدة بالوقائع والشواهد .

بذلك نصل ، أو نكاد نصل ، إلى فهم مقومات الشخصية المصرية ، وعلى ضوئها نستطيع أن ندرس الأدب المصرى العربى من جديد . فنقرأ سطوره ونستجلى نصوصه ، ونرى إلى أى مدى برزت هذه الشخصية فيه ، وإلى أى مدى بلغت إقليميته . ومن هنا تبرز لنا خصائص هذا الأدب فى كل فترة من

---

(١) انظر مقدمة « الحركة الفكرية » للدكتور عبد اللطيف حمزة .

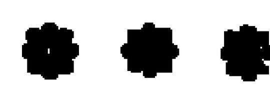
فتراته — وهذه جهود ضخمة لا تستطيعها يد واحدة ، وفى فترة من فترات العمر القصير . . .



ونحن هنا نحاول جهد طاقتنا أن نبرز خصائص النثر الفنى فى أدب عصر المماليك وأن نعللها . ولا ندعى ، ولا نستطيع أن ندعى ، أننا قد أحطنا بها خبرا . أو أننا قد حصرناها حصرا ، لا يقدر أحد أن يزيد عليه . فإن مجال التحليل والتعليل هنا واسع جد فسيح ، للباحثين فيه جولات وجولات ، إذا أرادوا .

ولا ننكر أن هذه القرون الستة ، تقريباً ، التى مرت على مصر منذ الفتح العربى إلى أن وليها المماليك ، سمحت لإقليمية الأدب العربى فيها أن تتضح بعد غموض ، وأن تستقر بعد قلق ، وأن تنشط بعد فتور . ولو إلى حد . وسمحت لعناصرها أن تتركز وتتكتل وتلمع . وهذا خير عون للباحث فى هذا الميدان الفسيح . وهذا لا يمنع أن يكون نثر عصر المماليك امتدادا فى جملته لأنواع النثر التى تقدمته ، وأن يكون مستمدا منها ومن خصائصها .

وبعد فما معنى الخصائص وما معنى إقليميتها ؟ .



معنى الخصائص وإقليميتها :

يتسم الأدب فى كل عصر بسمات وخصائص تميزه عما عداه من آداب العصور الأخرى ، ويكتسب هذه السمات والخصائص من روح العصر الذى يعيش فيه ويحكيه ويتأثر ، كما هى طبيعته بنزعات العصر واتجاهاته فى نواحى الحياة كافة

هذه النزعات والاتجاهات ، اجتماعية أو سياسية أو ثقافية أو اقتصادية أو لغوية أو لفظية أو غير ذلك ، تتفاعل معا تفاعلا مركبا ، فيه تحالل فامتزاج فتكوين جديد ، له أثره فى نفوس الأدباء فيلهمون أدبهم على نسق هذا التكوين وغراره . ومن هنا ترى لكل أدب سمات وخصائص تميزه عما عداه ، نتيجة

مباشرة لاختلاف عوامل البيئة وظروف الحياة وعاداتها وأمزجتها وأمزجة الأدباء فى كل عصر .

وهذه السمات والخصائص ، مجتمعة ، هى التى تميز أدب عصر عما عداه ، وتكسبه إقليميته .

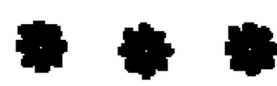
وقد قلنا « مجتمعة » . وذلك لأننا نعتقد أنه ما من خصوصية بمفردها لأدب عصر — مهما بدت مقصورة عليه — إلا ولها نظير فى أدب عصر غيره . وذلك نتيجة لتشابه بعض ظروف العيش واستمرار مقومات الشخصية القومية .

ولكن الذى لا يستطاع لأدب عصر أن يماثل فيه أدب عصر آخر ، هو مجموع خصائصه وسماته . والأدب بمجموع خصائصه وسماته يكتسب « شخصيته » بين الآداب الأخرى .

ويطرد تناسب شخصيته الأدب مع اطراد تعدد خصائصه وتنوعها وتحولها وقوة بروزها وفنيتها وسمو هذه الفنية ، كما تطرد قيمتها باطراد تجاوب مجموع هذه الخصائص مع ظروف حياة هذا الأدب وبيئاته وباطراد دلالتها على مزاج الأدباء وأذواقهم .

والخصائص هى القواعد الفنية الدقيقة ، والصفات الأسلوبية التى تروق أذواق ادباء أحد العصور وتستطيبها أمزجتهم ، فيلتزمونها حينما يتصدون لصوغ أساليبهم فكرة وتصويرا .

وهذه الأذواق والأمزجة هى التى كونتها لهم وهذبتها ووجهتها ، ألوان بيئتهم التى عاشوا فيها . ومن هنا نشعر بمقدار أثر هذه البيئات فى وجود تلك الخصائص ونشأتها وبروزها ، وفى إكسابها ما تتمتع به من قوة وإشراق .



فسجع الكهان فى الجاهلية ، نشأ بسبب انتشار الوثنية وسيادة الكهان ، والرغبة فى إيهام العامة أن هناك معميات تخفى على فطنتها ، وتغيب عن ذكائها

وتلطف عن حسها . وكان بالعامة استعداد لقبول هذا الوضع ، لاتساقه مع عقائدها . ومن هنا نشأ السجع المتكلف المبهم ذو الرجم بالغيب ، وفيه تأثير بالغ تخضع له النفوس وتستكين الأفئدة وتستسلم الأحلام .

والبادية بغلظتها وقسوتها وخشونتها ، نضحت على ألفاظ أدبائها غرابة وعنجهية ، ولكنها من ناحية أخرى طبعتهم بطابع الشهامة والمروءة وحب الإلف وتذكره - لقلة الألاف وتحول المنازل - ومن هنا ظهرت المدائح والفخريات والأغزال فى أدب الجاهلية .

ولما ذاعت الثقافة الدينية القويمة فى عصر النبوة والراشدين ، وسمقت دعائمها على أساس من القرآن الكريم والحديث ، رقت الأساليب برقة النفوس ، وصفا القول بصفاء الأرواح . وتهذبت العبارات بتهذيب العقول . وأخذ الخطباء يدعون الناس إلى الجهاد فى سبيل الله وسبيل دينه ، ويحثونهم على التمسك بالفضيلة فى وضوح لا يشوهه لبس ، وفى قوة لا يعتريها وهن . لهذا هجر سجع الكهان الزائف . ولم يبق منه إلا ما يكمل المعنى ، ويزيد موسيقا اللفظ تأثيراً فى النفوس .

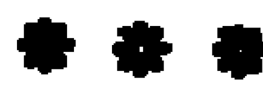
ولما دونت الدواوين أخذت طبقات من الكتاب فى الظهور ، ونهضت كتابة الرسائل التى كانت فى أول أمرها مقصورة على لباب المعنى وجوهره . ثم لما اتسعت رقعة الدولة فى عصر بنى أمية ، أخذت الرسائل تطول تناسباً مع سعة الدولة ، ونهوضها إلى ضبط أمورها . وتنوعت فى الكتابة صور بدئها وختامها تبعاً لتنوع أغراضها . وهكذا .

ولما امتزجت الثقافات فى العصر العباسى ، وأقبل الناس عليها ، وقوى اختلاط العرب بالفرس وغيرهم وأخذت الدولة زخرفها وازينت ، وأقبل الناس على تلمس الجمال ، وطلبوا الأناقة فى كل مظهر من مظاهر الحياة ، وبدا الترف يرف بأعلامه على مجالس العباسيين ومحافلهم ، برزت الألوان البديعية إلى الصفوف الأولى بين دعائم الأساليب ، يصاحبها عمق الفكرة وشمول النظرة

وسلامة المنطق وقوة التعليل . وعلا نجم المجاز بأنواعه ، والتشبيه بشتى ضروبه وعاونا معاً على تسجيل صور جديدة مبتكرة مما جاد به الخيال المهذب .

ولما تمكن العرب من الأندلس واستوطنوها واستتبت بها أقدامهم ، ودب بينهم فيها دبيب المدنية ونعموا بطيب الهواء ومعتدل الجواء وجودة التربة وكثرة الثمر ورخاوة العيش ، مع جمال الطبيعة ، وتعدد مناظرها الرائعة ، طبعهم هذا كله بطابع السهولة والرقة والوضوح ، ونبا بهم عن التعقيد والخشونة والغموض . فكانت هذه الصفات بعض الخصائص البارزة فى أدبهم .

ولما أخذت مصر تسير قدماً إلى الأمام فى نهضتها الحديثة ، وتلاقت فيها ثقافات عدة بين قديمة وحديثة ، وبين شرقية وغربية . تزاحمت المعانى كلية وجزئية ، على أبواب العقول . فاسترسلت الأقلام ، وانطلقت العبارات ، ولم يعد هناك فتون بالموسيقية اللفظية التى قوامها السجع والجناس ، ولم يعد هناك جنون بالطباق أو المقابلة أو التضمين أو الاقتباس . ولم يبق حنين إلى التورية والاستخدام ، فقد أخذت الحياة الجادة بتلابيب الأدباء حتى كأنها لم تعد تبقى لهم صفاء بال ولا وقت فراغ ، يزوقون فيه التركيب ، وينمقون الأسلوب ، ويبثون الدعاية ويثيرون النكتة ولا سيما أنهم يرون أن عهد المظاهر والبهارج قد زال وانقضى . وإن كنا نعتقد أنهم بذلك قد باعدوا بينهم وبين أذواق العامة ، ولو إلى حد .



هذه جملة من المؤثرات الأدبية ، ونتائجها من خصائص الأدب فى بعض العصور .

وهذه الخصائص تتغير فى كل عصر عما عداه . وتلك نتيجة لتغير مؤثراته . وكثيراً ما نرى عصرين — مثلا — يتشابهان فى بعض خصائصهما الأدبية ، ويكون ذلك بسبب تشابه بعض مؤثراتهما ، وتماثلهما فى القدرة على إحداث نتيجة معينة . غير أنه من العسير أن يتشابه عصران تشابهاً تاما فى أدبهما وفى خصائص هذين الأدبين . وتلك نتيجة حتمية لاختلاف كل منهما عن الآخر فى مجموع بيئاته ومجموع مؤثراته .

ويكتسب الأدب — ولو كان طارئاً — صفة الإقليمية بتوطنه فى المصر . ولكن لا يكفى هذا التوطن وحده ، بل لا بد للأدب ، مع تغير بيئته الطبيعية الأولى ، من تغير بقية أنواع البيئات ذات الأثر فيه . كالبيئة الدينية والسياسية والاجتماعية والثقافية والاقتصادية ، وما إلى ذلك . وكلما تشابه أدبا عصرين فى ألوان بيئاتهما ، كان ذلك عائقاً دون بروز الإقليمية فيهما ، بروزاً فيه قوة ولمعان واستقلال . أو بمعنى آخر ، فيه شخصية .

هذا إلى أنه ليس من الضرورى أن تتضح كل خصائص الأدب فى عصر ما ، فى أدب كل أديب فيه . بل ولا فى أدب كل أديب من أدباء حلبة واحدة من حلباته . وذلك لأن الأدباء يختلف بعضهم عن بعض ، باختلاف ظروف حياتهم الخاصة وباختلاف أذواقهم وطبائعهم . وهذه الاختلافات ذات أثر بين فى تنوع خصائص كل أديب عن غيره . وإلا ، أصبحوا جميعاً نسخاً مكررة لأصل واحد . .

ولكنك ترى ، على الرغم من هذه الاختلافات ، أن هناك خصائص أدبية تنتظم أدبهم جميعاً ، أو على الأقل تغلب على أدبهم أو تلون أدب أكثرهم . فهذه الخصائص الغالبة ، هى أهم ما نعتبره فى أحد العصور خصائص لأدبه .

فنحن حينما نتحدث عن خصائص الأدب فى عصر ما ، لا ننظر نظرة فردية ، بل نظرة شاملة عامة ، بمعنى أننا لا ننظر فى خصائص كل أديب على حدة ، بل نستقرئ الخصائص المشتركة بين أدبائه جميعاً . وإن كنا لا نغفل قط عن خصائص الأدباء الأخرى .

بهذه الفكرة والنظرة خطونا فى بحثنا هذا كله . ولم نتحر إبراز خصائص كل أديب من أدباء عصر المماليك بمفرده ، لأننا نبغى أن نؤرخ للعصر جميعه باعتباره وحدة متماسكة ، متماثلة البيئات متشابهة المؤثرات فى كل فترة من فتراتها .

وبدهى أن يكون لكل أديب فى العصر المذكور ، خصائص قد يفارق فيها أديباً آخر من أدباء عصره . ولا يصعب تعليل هذا باختلاف الطبائع والدوافع الأخرى . فمثلا كان منشئو ديوان الإنشاء ومن لف لفهم من كتاب

الرسائل يلتزمون — أو كادوا يلتزمون — السجع ونظام الفقرات الذى سنشير إليه فيما بعد . وذلك لأن هذا الالتزام كان أحد التقاليد الأسلوبية فى الديوان. وبينما ترى رسائلهم تفيض بذلك وتموج بالأخيلة الشعرية والمبالغات وإجادة التصوير ، إذ ترى نصائح الفقهاء ومواعظهم لم تعبأ بهذه الالتزامات ، وذلك لأنها غلبت عليها الفكرة والدقة فى إبراز الرأى ، قبل العناية بموسيقية الألفاظ وتوافق القرائن وازدواج التراكيب .

وكانت التورية إحدى دعائم الأسلوب عند ابن نباتة المصرى فى شعره ونثره بل هو الذى تزعم طريقتها وحمل رايتها بعد القاضى الفاضل . ومرجع ذلك — فيما نعتقد — عكوفه على قراءة آثار الفاضل وتشبع مزاجه منها . حتى إنه جمع من كلامه كتاباً سماه « الفاضل من إنشاء الفاضل » .

وكان ابن نباتة شعبي النشأة والثقافة ، لذلك كان شعبي الشعور ، ومن هنا نهضت خصائص أساليب العامة فى شعره ونثره ، من فكاهة ونكتة وتورية . وقد نبا به مزاجه عن الإغراق فى الجناس ، لأنه « نوع ردىء ، أو محسن لفظى لا يتصل بتحسين المعنى » — كما يقول ابن حجة .

وبينما كان ابن نباتة يقلل من الجناس ، أو يخرجه مخرج التورية ، إذ كان معاصره صلاح الدين الصفدى غارقا فيه إلى ناصيته ، فتكلفه تكلفا شديداً ، وأكثر من استعماله فى شعره ونثره .

لكل أديب إذن : خصائص قد يفارق بها سواه من أدباء عصره . ولكننا حينما نؤرخ نثر أحد العصور ينبغى لنا — كما أشرنا — أن نعمم النظرة ، حتى تبدو لأعيننا الخصائص العامة التى تنتظم جميع الأدباء فى ذلك العصر ، وإن لم نغفل عن الخصائص الفردية .

هذه هى الخطة التى اتبعناها — كما قلنا — ويعيننا على اتباعها ، بل واعتقاد صوابها ، أن البيئات والمؤثرات المختلفة التى أنتجت خصائص الأدب ، التزمت فى هذا العصر ، حالات واحدة من أوله إلى آخره ، تقريباً .

* * *

ولا بأس من أن نقف وقفة يسيرة لنبين كيف التزمت البيئات والمؤثرات حالاتها هذه، طول العصر. وقبل ذلك نشير إلى الفصل الآتى الذى تحدثنا فيه عن البيئات المصرية ذات الأثر البارز فى أدب العصر. فقد قصرنا الحديث فيه، على أربع بيئات نعتقد أنها جماع مختلف البيئات، وهى: البيئة الطبيعية والاجتماعية والسياسية والثقافية. ووصفناها وصفاً يناسب المقام، وألمعنا إلى آثارها فى أساليب الأدباء.

فلا بأس من أن نسبق هذا الفصل بعجالة نبين فيها أن البيئات المذكورة لم يعترها، أو لم يكد يعتريها تغير يذكر، وجمدت أو كادت تجمد على حالات واحدة.

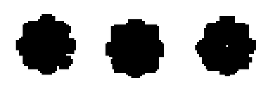
أما البيئة الطبيعية وما يتصل بها من موقع ومناخ، فهى هى لم يلحقها تغير ولا تبديل، اللهم إلا ما كان من نشاط بعض الأوربيين فى أواخر العصر، وعلى عهد الأشرف الغورى، من كشف طريق رأس الرجاء، والطواف بالسفن حول سواحل أفريقية عن طريق الجنوب حتى تصل إلى الهند. وتسبب عن ذلك تحول بعض المتاجر والرحلات بين الشرق والغرب عن طريق مصر، فقلل ذلك من أهمية موقعها ومن دخلها، وشغل بالها.. وكان لذلك أثر فى القلق السياسى والاقتصادى الذى منيت به فى عهد الأشرف المذكور. ولكن ذلك كان والعصر على وشك الزوال.

والبيئة الاجتماعية ظلت كما هى أيضاً فنظام الطبقات بقى كما كان من أول العصر إلى آخره. وكذلك نظام الإقطاع وقصر الجندية على المماليك واستخدام المتعممين، فى القضاء والكتابة والحسبة وما إليها. حتى النظم الإدارية وترتيب الدواوين وإمارات الجند، لم تتحول عما رسم لها منذ أوائل العصر إلا قليلا لا أثر له فى الأوضاع الاجتماعية. وكذلك الأجناس التى تتألف منها الأمة كانت هى هى — اللهم إلا بروز العنصر الجركسى فى النصف الثانى من العصر.

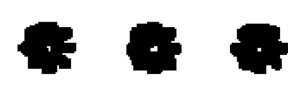
والبيئة السياسية لبثت كما هى. فنظام الحكم مترجح بين وراثة واهنة وشورى صورية، وبين غلبة المتغلبين وقهر القاهرين. وحقاً!! انتشرت الفتن

والاضطرابات الداخلية فى عهد الجراكسة أكثر مما كانت فى عهد الأتراك ، ولكنها كانت كلها من لون واحد ، وهو تطاحن بين زعماء الطبقة الحاكمة على الحكم . وظل أعداء البلاد فى الخارج هم التتار والفرنجة والعثمانيين ، والقتال بينهم وبينها سجال . غير أن تفاقم الفتن فى أواخر العصر كان خير ممهد للاحتلال العثمانى .

والبيئة الثقافية لم يتناولها تبدل ولا تحول ، فسياسة إنشاء المساجد ودور التعليم ، والوقف عليها وعلى طلابها وشيوخها ، والعناية باختيار الشيوخ ، سايرت الدولة إلى آخر رمق من أرماقها . وظلت علوم الدين أهم المواد الدراسية . ومذاهب أهل السنة هى المذاهب المتبعة فى القضاء وغيره ، مع تشجيع الصوفية والتماس الرأى عندهم فى بعض الأحايين .



ومن هذا وذاك ترى أن أنواع البيئات لم يطرأ عليها تغيير يذكر ، يكون له أثر ما فى تنشئة الأدب تنشئة أخرى أو صقله أو توجيهه وجهة جديدة . ولذلك نظرنا إلى العصر باعتباره وحدة ، لأدبها خصائص ومميزات .



بطء تطور النثر وعوائق تمصيره :

وهذه النتيجة التى وصلنا إليها تسلمنا إلى حقيقة ملموسة ، وهى أن النثر الفنى فى عصر المماليك كان بطىء التطور أونادره على مدى العصر ، وذلك بسبب استقرار عوامل البيئة .

وإذا اختبرنا ثلاثة نصوص أدبية لثلاثة رجال من حلبات مختلفة لم نجد بينها فروقا تذكر .

خذ مثلا : قول شهاب الدين بن فضل الله العمرى يترجم للشاب الظريف ويصفه ويصف شعره :

« نسيم سرى ونعيم جرى . وطيف لا بل أخف موقعا منه فى الكرى •

لم يأت إلا بما خف على القلوب . وبرئ من العيوب . رق شعره فكاد أن يشرب . ودق فلاغرو ، للقضب أن ترقص ، والحمام أن يطرب . ولزم طريقة دخل فيها بلا استئذان . وولج القلوب ولم يقرع باب الآذان »[1] ... الخ .

وقول شهاب الدين أحمد بن عربشاه يترجم للسلطان جقمق ويصف جهاده :

« ظل الله فى الأرضين . ناشر آيات الخير على الإسلام والمسلمين . ماد سرادق الويل على الكفرة والملحدين . رافع ألوية الحق . ناصب أبنية الصدق . كاسر أرباب النفاق . جازم أصحاب الشقاق . مظهر كلمة الله العليا . مخفى آثار الشرك والرياء . منصف المظلومين من الظالمين . مشيد مسند سيد المرسلين »[2] . . . الخ .

وقول جلال الدين السيوطى يترجم لشيخه الشمنى ويصف علمه :

« قدوة عين الزمان وإنسانها . وواحد عصره فى العلوم بحيث خضعت له رجالها وفرسانها . وشجرة المعارف التى طاب أصلها فزكت فروعها وأغصانها . ورياض الآداب التى فاضت ينابيعها . وفاحت زهورها وتنوعت أفنانها . إن أخذ فى التفسير كل عنده الكشاف واختفى . أو الحديث كان عن ألفاظه الغريبة مزيل الخفا »[3] ... الخ .

وقد توفى ابن فضل الله عام ٧٤٨ هـ ، وابن عربشاه عام ٨٥٤ هـ ، وجلال الدين السيوطى عام ٩١١ هـ فبين وفياتهم مسافات بعيدة . ولكنك ترى مع هذا تقارب أساليبهم وتشابه التزاماتهم ، حتى لكأنهم رجال حلبة واحدة . فعندهم السجع وترجح الفقرات بين الطول والقصر ، واصطناع التشابيه والمجازات والتوريات والجناسات والمطابقات ، والتوجيهات والتلميحات ، إلى غير ذلك .

على أننا ننبه إلى أن بطء تطور النثر لا يطعن فى إقليميته ، وفى لمعان هذه

---

(١) فوات الوفيات لابن شاكر الكتبى . فى ترجمة الشاب الظريف .

(٢) عن تاريخ جقمق لابن عربشاه — مصور شمسى .

(٣) عن حسن المحاضرة ج ١ ص ٢٢٤ .

الإقليمية فى عصر المماليك . فقد برزت هذه الإقليمية بمجموع خصائصها فى فترات أولى من فترات العصر ، على يد محيى الدين بن عبد الظاهر ، والشهاب محمود الحلبي ، وعلاء الدين بن الأثير ، وأبناء فضل الله العمرى ، وابن نباتة المصرى . ويمكن القول إن عهد الناصر بن قلاوون كان أملأ العهود بالرجال من كل صنف ، وهم الذين وطدوا دعائم النهضة الأدبية والعلمية ، وأرسوا أساسها وأعلوا أعلامها . فعاشت الدولة من بعدهم فى ظل ماشادوا وما بنوا .

كما أنه لا يطعن فى إقليميته ، تعدد وجوه الشبه بينه وبين غيره من أنواع النثر فى العصور الأخرى فالعبرة — كما نبهنا — بمجموع خصائصه لا بمفرداتها. ومن الصعب أن تجد هذه المجموعة من الخصائص التى سنبينها ، فى أدب مصر أو غيرها فى عصر آخر . سواء ما يتعلق منها — أى من الخصائص — بالموضوع وما يتعلق بالمعنى أو بطريقة التصوير . وإن كان نثر المماليك امتداداً للنثر الأيوبى .

ولا نرتاب فى أن هناك عوامل عاقت التعجيل بإقليمية الأدب فى الأمصار الإسلامية كمصر ، ومنها اللغة المشتركة والحرص على فصاحتها كما ورثت عن العرب الأوائل ، ورعاية هذه الفصاحة فى التأليف والشعر وكتابة الدواوين ونحوها . وكذلك الدين المشترك والإقبال على دراسة القرآن الكريم والحديث النبوى وأدب الجاهلية ، والتأدب بهذه الدراسة ، إلى غير ذلك مما سنشير إليه مرة أخرى .

ولكننا لا نرتاب أيضاً فى أن مجموع خصائص النثر الفنى فى عصر المماليك تكفل له صفة الإقليمية . وهذه الخصائص هى التى نتحدث عنها فى الفصول الآتية .

كما أننا لا نرتاب فى أن الأدب العامى أو النثر العامى أكثر إقليمية من الأدب والنثر الفصيحين ، وذلك لعدم جموده أو وقوفه ، أمام عوائق الإقليمية ، أو اكتراثه بها .

———

الفصل الأول

١ – الاستجابة للبيئة

نقصد باستجابة النثر الفنى – أو الأدب – للبيئة التى عاش فيها ، أن يكون رجعا لهذه البيئة وصدى لوحيها ومرآة يتراءى فيها كما أحسها الأدباء .

وإذا كان الأديب فى أدبه مرآة عصره وترجمان دهره – كما يقولون – فإن أصدق من هذا القول أن يكون نتاج الأدباء المتعاصرين فى حقبة ، مرآة لها وترجمانا يترجم عنها . ذلك لأن الأديب مهما أوتى من النبوغ ، بل العبقرية ، محدود بالنسبة إلى عصره الواسع النطاق . ولكل أديب خصائص . ومن مجتمع هذه الخصائص ، نجد وحى البيئة وصورها ، وإن كان فيها مزاج الأديب وذوقه .

ويمكن القول إننا لو درسنا خصائص العصر ، ووقفنا على مستويات ثقافته وذوقه ، ومتجهات تفكيره وحدسه ، ودوافع عاداته وتقاليده ، ومثيرات وجداناته وعواطفه ، لوجدنا لذلك كله مظهراً فى أدب الأدباء ، لا فى أدب أديب واحد .

ومن التكلف الشديد أن نلتمس صورة العصر فى أدب واحد من أدبائه ، فحسب إلا إذا كنا نريد أن نحقق فى الأديب قول الشاعر :

ليس على الله بمستنكر أن يجمع العالم فى واحد

وقد أشرنا إلى أن أهم وظائف الأدب أن يحدث عن بيئته ، وأن يقوم فيها بأداء رسالة تسجيلها وإيضاح صورها كما عاشت فى نفوس الأدباء . وأن يكون إلى ذلك ، مصدراً من مصادر المتعة والتوجيه .

ونحاول أن نصف بيئة الأدباء فى عصر المماليك ، وأن ننظر فى خصائصها

وفيما عسى أن يكون وحيها إلى أدبائها ، ومبلغ استجابة هؤلاء الأدباء لوحيها ومدى قيامهم بأداء رسالتهم .

والبيئة أنواع . وقد اقتصرنا هنا على تناول أهم أنواع البيئة فى عصر المماليك واصفين مؤثراتها فى النثر الفنى ، والآثار التى تدل عليها .

وهذه الأنواع أربعة هى : البيئة الطبيعية . والبيئة الاجتماعية ، والبيئة السياسية ، والبيئة الثقافية .

البيئة الطبيعية :

نعنى بها ما يتصل بموطن الأديب من شكل الأرض والمناخ والموقع . فالأرض هى وما فيها من علو وانخفاض وجبل وسهل ، وصحراء وماء ، وخصب وجدب ، وزرع وضرع ، وجماد وحيوان . والمناخ هو وماله من تطرف أو اعتدال ، ورطوبة وجفاف ، وريح ونسيم ، وما يعرض فيه من صفاء وبرق ، ورعد وسحاب ومطر . — والموقع هو ومبلغ صلته بمواقع غيره من الأوطان ، وما يحف به من بحار أو بحيرات او جبل أو صحراوات ، إلى غير ذلك .

وهذه البيئة الطبيعية وما يتصل بها من الموقع الجغرافى ، كانت ولا تزال ، صاحبة التكييف الأول المبكر للنفسية الأدبية . لأن الأديب قصاراه — ولا سيما قبل أن يتعمق الثقافة — أن يعرف حقائق الكون من أجزاء بيئته التى يتنفس فيها ، ومن محتوياتها . وتتأثر نفسه بعواملها البارزة لحواسه . كما تترقى عاطفته وتثور انفعالاته ، وتتكون عاداته وأخلاقه ، فى أحضان هذه البيئة ، نتيجة لما تخلقه فيه مظاهرها ، وتبعثه فى أعماقه وبواطنه . ومن هنا كان للبيئة الطبيعية آثار قوية فى تكوين خصائص أدبها .

ولا نغلو إذا قلنا إن الأديب معجمه الأول بما فيه من مفردات وتراكيب ، وما يحمله من تصورات وتشبيهات ، وما تدور حوله من موضوعات ، منتزع من هذه البيئة ، وضرب من وحيها وإن أدبه المبكر انعكاس لمفردات بيئته وأساليبها وموضوعاتها كما بدت على مرآة نفسه . مع اعترافنا بما يكون من أثر

لمزاجه الشخصى وحوادثه الشخصية ، هـذه مسائل أعتقد أنها احتلت مكانها بين البدهيات .

وبجانب البيئة الطبيعية وما يتصل بها من موقع ، عوامل أخرى ، لا شك أن لها أثرا فى تـكوين شخصية شعبها ، ومن ثم فى تـكوين خصائص أدبه ، بجانب أثر البيئة فيه . ويكون هذا الأثر بتهذيب أو تحوير ، بزيادة أو بنقص ، بسمو اوضعة . ومن هذه العوامل : الاجناس الطارئة ومالها من مقومات . وألوان الثقافات المقيمة والوافدة . والأديان والمذاهب الأصيلة والدخيلة . والأحوال والتقلبات الاقتصادية ومقتضياتها ، والحروب والغزوات وأنواع الحكم وما يصحبها أو يتبعها من تغير القيم الخلقية والاجتماعية . وغير ذلك .

غير أنه لا يصعب على الباحث المدقق أن يحسن الربط بين هذه العوامل ، وبين عوامل البيئة والموقع . ولا يصعب عليه أن يدال على أنها ذات الأثر الأول فى حدوثها وطروئها . مع ملاحظة أن نتائج الربط التى نحصل عليها ، ربما تتأثر أو تتغير أهميتها ، إذا نظرنا إلى وسائل المواصلات الحديثة ، وإلى النظريات الاقتصادية الجديدة التى قللت — ولو إلى حد — من أهمية البيئة والموقع .

وقد تحدث الدكتور الفاضل عبد اللطيف حمزة فى مقدمة كتابه « الحركة الفكرية » عن الشخصية المصرية[1] ، وأرجع عوامل تـكوينها إلى جملة مؤثرات أهمها البيئة والموقع . ويرى أن من أهم عناصر هذه الشخصية الميل إلى السهولة والوضوح والاستقامة والاستقرار والذوق . ولهذه العناصر آثار كثيرة فى الأدب المصرى . وله فى أدب مصر العربية شواهد لا تحصى .

ويرى أيضاً أن المناخ — وإن كان من لوازم البيئة والموقع — له أثر ممتاز فى صفاء القريحة المصرية ، واعتدال مزاجها ، وفى لطافة حس المصريين ورقة ذوقهم .

على أن الذوق الرقيق ، وإن كان من نتائج الموقع والمناخ ، فربما كان قد

---

(١) الحركة الفكرية . المقدمة من ٣ وقد انتفعنا بها فى هذا الفصل .

تولد فى مصر بسبب أنها بلاد متوسطة بين أمم العالم القديم وبين شعوبه المتحضرة، وأن شواطئها ممتدة على طول بحرين كانا ولا يزالان أهم — أو من أهم — معابر التجارة والرحلة. لهذا كانت مصر ممراً للمسافرين بين الشرق والغرب. وفضلا عما اكتسبه سكانها — وبخاصة سكان شواطئها وثغورها وحواضرها — منهم من أرباح وثقافات وعادات، اكتسبوا إلى جانب ذلك، الذوق واعتدال المزاج. ولم يكن ذلك لأن الهابطين إليها أو المارين بها قوم أولو ذوق ومزاج معتدل، وإنما لأن المصريين بلوا فيهم ألوانا كثيرة من الأذواق والأمزجة، فوازنوا بينها وعرفوا معتدلها من متطرفها، وسليمها من سقيمها، وسهلها من معقدها. فربما كان هذا سبباً لخبرتهم، وأصبحوا فنيين فى معرفة الأذواق وتمييزها، وهذا هو الذوق الأصيل . . .

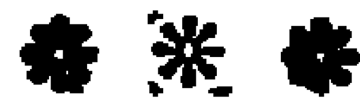
على أن التمييز بين الأذواق، والحكم بينها أو الحكم عليها، إنما هو النقد. وتعدد النماذج أمام الناقد يعاونه على الوصول إلى حكم أكثر صحة وصدقا. وهكذا توطن حب النقد فى أذواق المصريين مراً لاذعا، وإن بدا فى جملته سطحيا عابراً، عبور المسافرين والهابطين . . . وذلك لاختلاطه فى كثير من الأحايين بنزعة السخرية والتهكم والفكاهة. وقد قال ابن إياس ما مؤداه: «إن أهل مصر ما تطاق ألسنتهم»[1].

وعلى الرغم من أن البيئة المصرية علمت أهلها الكدح والكفاح والدأب، علمتهم بجانب ذلك الرضا بالقضاء والقدر، والاتكال والاستسلام لهما، والأمل ولو بلا عمل . . . ذلك لأن التربة الزراعية تنبت لهم كثيراً مما يحتاجون إليه من الغذاء، ولو لم يبذلوا فى سبيلها كفاءها من العمل والتعب. وهذا هو جود التربة وكرم الخصب اللذان يغريان بالكسل والاتكال وليس معنى ذلك أنهم كسلوا وتراخوا. وإنما معناه أنهم يعلمون حق العلم أن لو تكاسلوا لوجدوا أيضا غذاءهم، وأن لو تراخوا لجادت لهم التربة كعادتها — ولو إلى حد —.

هذه الحالة من دأبها ألا تبعث اليأس إلى النفس، ولو فى أشد حالاتها،

(١) بدائع الزهور

حرجا وشدة ، وهذا خلق راسخ بارز فى حياتنا وفى أدبنا ، لا نيأس أبداً ، ونعيش بالأمل أبداً . . . ولعل هذا كان السبب فى استسلام المصريين قبل العصر الحديث ، وقبل أن تستيقظ الشعوب لحقوقها وكرامتها بدافع من انتشار الثقافات العالية المشتركة ، وتيسير سبل المواصلات على اختلاف أنواعها ، مما ماثل بين رغبات الشعوب . نقول كان السبب فى استسلام المصريين وخضوعهم للدول الفاتحة المتعاقبة عليها فى العصور الوسطى ولحكم الفرد . وقد عاون على هذا الاستسلام ، الفهم الخاطئ لمقتضيات الدين المشترك .



وبعد فما مبلغ تجاوب النثر الفنى فى عصر المماليك مع هذه البيئة ، وما خلقته من عناصر الشخصية المصرية ؟ نقول : هو إقليمية الأدب وإقليمية نثره ، ولو بمقدار . إذ كانت ولا تزال هناك عناصر ومقومات مشتركة ، يشترك أو يتشابه فيها عدد من الأوطان ، من بينها مصر . فاللغة العربية والدين والجنس ومدرسة القرآن الأدبية ، كل أولئك كان له أثر فى بروز وجوه شبه متعددة بين آداب الأوطان العربية . . . وسبقت لنا إشارة إلى ذلك . وإنك مثلا ، لا تكاد ترى فروقا جلية بين نثر مصر ونثر الشام فى العصر المذكور . ذلك لأنهما كانتا واقعتين تحت تأثير الوحدة السياسية والثقافية . على أنك قد ترى فروقا بين نثر مصر ، ونثر المغرب والأندلس .

خذ مثلا :

كتب لسان الدين بن الخطيب نابغة كتاب الأندلس ، المتوفى عام ٧٧٦ هـ رسالة إلى الرئيس عامر بن محمد الهنتاني[1] عميد مراكش ، وقد عزم على الرحيل إليه إجابة لدعوته — وقد صدرها بأبيات ثم قال :

« لم يكن همى — أبقاك الله — مع فراغ البلاد وإسعاف الآمال ومساعدة الأيام والليال — إذ الشمل جميع والزمان كله ربيع . والدهر مطيع سميع —

---

(١) هنتانة : جبل قرب مراكش .

إلا زيارتك فى جبلك الذى يعصم من الطوفان ، ويواصل أمنه بين النوم والأجفان ، وأن أرى الأفق الذى طلعت منه الهداية . وكانت إليه العودة ومنه البداية . فلما حم الواقع . وعجز عن خرق الدولة الأندلسية الراقع . وأصبحت ديار الأندلس وهى بلاقع وحسنت من استدعائك إياى المواقع . قوى العزم وإن لم يكن ضعيفا . وعرضت على السفر بسببك فألفيته خفيفاً . والتمست الإذن حتى لا أرى فى قبلة السداد تحريفا . واستقبلتك بصدر مشروح . وزند للعزم مقدوح ، والله تعالى يحقق السول ، ويسهل بمثوى الأماثل المثول ويهئ من قبل هنتانة القبول ... بفضله »[1] .

يشعر قارىء هذه الرسالة بأن الكاتب التزم فيها السجع ، ولكنه فى جملته سجع خفيف هين ميسور الصوغ لا يكاد صائغه يبذل فيه جهداً ، أو يحوجه هو إلى لباقة وتكيس . ويكاد بعض فقراته أن يتألف من كلمتين اثنتين . على أنك خلال الفقرات ترى مجازات قريبة وأخيلة غير بعيدة ، كإسعاف الآمال ومساعدة الأيام والليالى وزند العزم المقدوح . هذا دون أن تجد لونا بديعياً يلمع ويبهر النظر بين السطور ، اللهم إلا شيئاً من الاقتباس فى قوله : جبل يعصم من الطوفان ، وإلا شيئاً من الجناس فى قوله مثلا : الأماثل والمثول .

وهذه الرسالة فى جملتها تبين — ولو إلى حد — مذهب ابن الخطيب فى الكتابة . فلم يكن مغرقا فى البديع ، ولا متشبثا بأنواع منه ، ككتاب مصر والشام فى زمانه . ومع استثناء ميله أحيانا إلى اصطناع التوجيه بمصطلح العلوم وأقيستها

والواقع أن ابن الخطيب ، فى جملة كتابته — وشأنه فى هذا شأن المتأخرين من منشئ الأندلس — كان وسطاً بين طريقة المصريين ، وبين المترسلين الأوائل.

وهذه رسالة للجمال بن نباتة بعثها إلى الصلاح الصفدى وفيها عتب رقيق ، قال :

رضيت بالكتب بعد القرب فانقطعت   حتى رضيت سلاما فى حواشيها

(١) عن العصر العباسى للأستاذ الاسكندرى

وينهى أنه كان كسير الخاطر . حسير الناظر . لانقطاع برمولانا الممتاز . ولامتناع المملوك من المكاتبة ظنا أن بينها وبين القصد مجاز[١] فلما وقف الآن على ذكره فى حاشية جمالية ، استأنف للخاطر سروراً . وأقام وزن البيت القلبي وكان مكسوراً . ووضع الطرس على وجه حظه الأعمى فارتد بصيراً . وجمع بين ذلك الخاطر واللفظ والقلب ، وإنما جمع مسكيناً ويتيما وأسيراً . وسره — أشهد الله — أن يكون معدود الذكر فى الحاشية . واستوقف ألفاظ العتاب وقد كانت إلى درج الأدراج ماشية .

حلال لليلى أن تروع فؤاده　　بهجر ومغفور لليلى ذنوبها، الخ[٢]

هذه سطور يتألق فيها البديع ويملؤها الفن بآياته . فسجع ملتزم فى إصرار ، مع كياسة فى سوقه ، ودقة فى تنميقه انظر إلى ازدواجه أو جناسه فى قوله « كسير الخاطر . حسير الناظر » . وإلى اقتباساته الدقيقة التى تصرف فيها تصرفا يشهد الذوق بسلامته ، فى قوله . وضع الطرس على حظه الأعمى فارتد بصيراً . وقوله إنما جمع مسكيناً ويتيما وأسيراً . وانظر إلى تورياته فى قوله: القصد ، ومكسوراً ، والحاشية ، ودرج الأدراج . وإلى مجازاته السائغة فى قوله : وجه الحظ وإلى المقابلة فى قوله الخاطر واللفظ والقلب ، وقوله مسكيناً ويتيما وأسيراً . ثم إلى التورية البادية فى قوله « يتيما » . إلى غير ذلك . — والحق أن أسلوب ابن نباتة فريد فى بابه ، وجديد بين أترابه . وهو أثر — ولاريب — من آثار بيئته ومزاجها ، ورجع لها .

وما دمنا نتحدث عن البيئة الطبيعية ، فمن الإنصاف أن نشير إلى أن البيئة المصرية قليلة المناظر متشابهة الأجزاء ، ضنينة بهذا التنوع فى الشكل واللون والثمر ، هذا التنوع الذى يفتق أخيلة الأدباء ويفتح أمامها آفاقا من التصورات المبتكرة .

والبيئة الشامية أكثر منها تنوعا . ولعل هذا الفرق مضافا إليه ما انتاب بلاد الشام من اتصال بأمم التتار والفرنجة وغيرهم ، كان ذا أثر فى ذيوع

(٢) هكذا لضرورة السجع .　　(٣) الوافى بالوفيات ج ١ ص ٣٢٠ .

الوصف فى أدب الشام ، مع دقته ورقته بالقياس إلى نظيره فى أدب مصر .

على أننا فى هذا المقام نكرر ما قلناه من أن أهل مصر وأهل الشام كانوا فى عصر المماليك كأنهما شعب واحد . وحدت بينه نظم الحكم والسياسة والثقافة . وكان موظفو الدولة يتنقلون من مصر إلى الشام ، ومن الشام إلى مصر ، كما يتنقل موظفو اليوم من القاهرة إلى أسيوط مثلا . وهكذا كان شأن أدبائهما . والرحلة بينهما لا تنقطع . ومن هنا تجانس فيهما العلم والأدب ، وتجانست المسالك التعبيرية على وجه الإجمال . وسادتهما مذاهب فنية واحدة خضعت لها الأساليب .

* * *

ومهما يكن من شيء فإن للبيئة المصرية وزميلتها صدى بعيد المدى فى موضوعات الكتابة وأساليب المنشئين فى عصر المماليك . وإن كان فى الموضوعات أبرز منه فى الأساليب .

ففى الموضوعات : وصفوا النيل وفيضانه ، بينوا آثاره . وقد رأينا فى بابى الرسائل والوصف مبلغ عنايتهم به . وما ذاك إلا لأن النيل ذو أثر بارز فى مصر ، فهو مصدر خصبها وثروتها ، وعماد حياتها وقوتها ، فلهم به صلة هى إلى القداسة أقرب منها إلى الصداقة ، وهى إلى الولاء أدنى منها إلى الإخاء . فنه غذاء الجسم والروح معاً . لهذا كان إحدى نواحى الإلهام ، ومصدرا من مصادر الوحى للأدباء .

وإنك لتراهم فى رسائلهم الديوانية وغيرها ، قد أفردوا له عناية خاصة فى « البشارات » ، وكثيراً ما كانت بشاراتهم ، بوفاء النيل . بل تنافس الكتاب فى وصف فيضانه أو نقصانه أو وفائه . وعارض بعضهم بعضا فى هذا الميدان .

وكما وصفوا النيل وصفوا بعض مناظر الطبيعة المصرية الأخرى ، ووصفوا الفصول والبساتين والأشجار والثمار والأطيار ، وما يحيط بهم من حيوان كالفرس وحمائم الرسائل . ومن أدوات كالسيف والقلم والسكين . وغير ذلك مما تراه مبسوطا فيما سبق من أبواب الرسائل والوصف والمقامات .

وفى المفردات والتراكيب وألوان البيان ، نعرض عليك شيئا مما سجلناه من إنشائهم :

يقول ابن حجة الحموى فى بشارة له بوفاء النيل :

« وخلق أصابعه ليزيل الإبهام فأعلن المسلمون بالشهادة . وكسر بمسرى فأصبح كل قلب بهذا الكسر مجبوراً . وأتبعناه بنوروز وما برح هذا الاسم بالسعد المؤيدى مكسورا . ودق قفا السودان فالراية البيضاء من كل قلع عليه . وقبل ثغور الإسلام وأرشفها ريقه الحلو فدلت بأعطاف غصونها إليه وشبب خريره فى الصعيد بالقصب . ومد سبائكه الذهبية إلى جزيرة الذهب . فضرب الناصرية واتصل بأم دينار . وقلنا إنه صبغ بقوة لما جاء وعليه الاحمرار » .. ومنها :

« وأدخله إلى جنات النخيل والأعناب فالق النوى والحب . فأرضع جنين النبت وأحيا لها أمهات العصف والأب . وصالحته كفوف اللوز فختمتها بخواتيمه العقيقية . ولبس الورد تشريفة وقال : أرجو أن تكون شوكتى فى أيامه قوية » . الخ .

ونلحظ فى هذه السطور ما يأتى :

١ — تعبيرات منتزعة من البيئة المصرية . منها : تخليق الأصابع . إعلان الشهادة جبر القلوب . تشبيب الحرير بالقصب . التختيم بخواتيم العقيق . لبس التشريفة .

وإنما حكمنا عليها بالمصرية بدليلين ، الأول : تكرر وقوع الحوادث التى تتحقق فيها معانى هذه التراكيب ، وذلك واضح فى تخليق الأصابع — إذ جرت العادة عند فتح الخليج والاحتفال بعيد وفاء النيل ، أن تخلق أصابع المقياس بالروضة فيدهن بطيب يسمى الخلوق — وواضح أيضاً فى « لبس التشريفة » وهى أردية رسمية تلبس حينذاك فى الاحتفالات . الثانى : خلود هذه التراكيب فى لغة العامة إلى يومنا هذا ، فلا نزال نسمع فى المناسبات : التختيم بالعقيق ،

وإعلان الشهادة ، وجبر القلوب . أما قوله « تشبيب الخرير بالقصب » فهو تعبير مصرى صميم . وذلك أن ماء النيل قبل أن يبلغ القاهرة يمر ببلاد الصعيد على أرض تزرع قصبا ، فخريره يشبب به حينذاك فرحا وطربا باللقاء .

٢ — توريات لامعة مع مراعاة للنظير دقيقة . يتجلى لك ذلك فيما يأتى مثلا :

(ا) الإبهام : يريد الأصبع أو الغموض .

(ب) الشهادة : يريد شهادة أن لا إله إلا الله ، أو الشهادة بالوفاء .

(ج) نوروز : يريد به نوروز الحافظى الذى كان أميرا على بلاد الشام وخرج على السلطان المؤيد شيخه فقاتله المؤيد وقتله . وقد يريد به العيد المعروف .

(د) شبب : يريد بها غنى وزمر ، أو تغزل .

(هـ) القصب : يريد به « الشبابة » مثلا ، أو يريد به قصب السكر ، النبات . وعلى هذا فالقصب إما أداة التشبيب أو محله .

(و) الشوكة : يريد السلطة والنفوذ ، أو يريد شوكة الورد وإبرته .

٣ — تشبيهات واضحة وتتراءى لك فيما يلى مثلا :

(ا) الراية البيضاء من كل قلع عليه : تشبيه القلع بالراية البيضاء .

(ب) قبل ثغور الإسلام : شبه مرور المياه بالتقبيل والعلاقة الملامسة مع السرور .

(ج) أعطاف الغصون : فيه تشبيه جوانب الغصون بأعطاف الإنسان ، أو تشبيه الغصون بأفراد من الناس .

(د) شبب خريره : فيه تشبيه الخرير بالمغنى أو الغزل ، والعلاقة الصوت فى كل .

(هـ) أرضع جنين النبت : فى « أرضع » استعارة تبعية ، وشبه السقى بالإرضاع . وفى جنين النبت تشبيه بليغ ، شبه النبت المختفى فى باطن الأرض

بالجنين . وفى صالحته كفوف : استعارة . الخ وإلى غير ذلك . وهذا كله يدل على خيال بارع فى التصوير ، وقلم رائع فى التعبير .

٤ — وهناك ألوان بديعية أخرى ، ومنها على سبيل التمثيل .

(ا) مراعاة النظير بين الأصابع والإبهام . وبين الإعلان والشهادة . وبين السبائك والذهب والناصرية ، وضرب ، وأم دينار . وبين أرضع وأحيا ، وبين جنين وأمهات .

(ب) مطابقة بين كسره ومجبور .

(ج) توجيه فى . الاسم ومكسور ، وهى مصطلحات نحوية

وهكذا ترى بين ثنايا تعبيراته لطائف ذوقية ، وظلالا معنوية ، تنم على رقة حس ودقة ملاحظة . هذا إلى عمق التأثر بالبيئة وما جرى على رقعتها من وقائع وأحداث طبيعية وغير طبيعية .

ولعله قد بدا لنا فيها كيف وهب الكاتب الحياة والحركة للنيل وما حوله ، وما يتصل به من نباتات خلع عليها حسه ومنحها إنسانية يفيض بها خياله ويعج بها تصوره . فالنيل يقبل ، والأغصان تنتشى فتميل ، وخريره يغنى ويتغزل ، وسبائكه الذهبية تمتد فتتصل بأم دينار ، ووجهه يجىء وعليه الاحمرار ، وجنين النبات يرضع ، وكفوف اللون تصافح ، الخ الخ .

ومعذرة عن هذا الاستطراد .

هذا . وسنعود إلى الحديث عن « إقليمية التعبير » فى الفصل الثانى ، عندما نتحدث عن التشبيه والمجاز .

البيئة الاجتماعية :

سبقت الإشارة فى مقدمة هذا البحث . إلى طبقات المجتمع المصرى[1] . وقد استرشدنا فيها بما كتبه تقى الدين المقريزى المتوفى عام ٨٤٥ هـ فى كتابه « إغاثة الأمة بكشف الغمة » .

---

(١) نعيد هنا بعض ما كتبناه فى المجلدات السابقة ، للمناسبة .

وقد رأينا أن هذا المجتمع كان ينقسم إلى طبقتين متميزتين بينهما فوارق عدة . هما طبقة الحاكمين ، وطبقة المحكومين . وظلت الطبقة الحاكمة ، حاكمة . ولبثت الطبقة المحكومة ، محكومة . لا تبديل لهما ولا تحويل . وبقيت الأولى مترفعة عن الامتزاج بالثانية ، متأبية على الاتصال بها إلا فيما تقتضيه دواعى الحكم . وإلا فى بعض حالات فردية كزواج ومصاهرة ، لا قياس عليها ولا تأثير لها(١) .

وتتألف الطبقة الحاكمة من ثلاثة عناصر هى :

١ — السلطان . ٢ — أمراء الجند ومنهم نواب المملكة .

٣ — الجنود السلطانية .

وهذه العناصر أغلبها من الأتراك فى الدولة الأولى ، ومن الجراكسة فى الدولة الثانية ، وقلما دخل عنصر آخر فى هذه الطبقة غير هذين العنصرين . ذلك لأنه دخل بينها — مثلا — بعض التتار واسمهم « الأويراتية » ، على عهد السلطان المظفر كتبغا المنصورى الذى حكم مصر بين سنتى ٦٩٤ هـ ، ٦٩٦ هـ . وقد قيل إن السلطان المذكور كان من سبايا التتار . وقد جلبت هذه الطائفة بأمر كتبغا إلى مصر وتوطنت بها . وذكر المقريزى أن هذه الجيوش التركية كان بينها أتراك وجركس وروم وأكراد وتركمان وغالبهم من المماليك المبتاعين(٢) .

ويبدو أنه سمح لأفراد قلائل من الشعب «أى من الطبقة الثانية» بالالتحاق بالجندية . وكان ذلك فى أخريات العصر . وكانوا يسمون « أولاد الناس » . واعتبر السماح لهم بذلك ، ضربا من ضروب الفساد الذى لحق نظام الجيش فى أخريات حكم الجراكسة .

---

(١) يرى الدكتور عبد اللطيف حمزة أن المماليك امتزجوا بالشعب المصرى ، راجع الحركة الفكرية ص ٢٢ ، ونحن نخالفه فى ذلك ، إلا إذا كان يقصد بهم مماليك العصر العثمانى .

(٢) الخطط المقريزية ج ٣ ص ٣٠٠ (ذكر جيوش الدولة التركية) .

وكان المماليك يجلبون من أسواق آسيا إلى مصر فيباعون بها ويشترى السلطان منهم ما يشاء ، فيربون تربية عسكرية دقيقة . وبنى المنصور قلاوون لهم أبراجاً بالقلعة لإقامتهم وتعليمهم ، ومنهم تتكون الجنود السلطانية ، وهم عامة جند الجيش المصرى حينذاك .

ويعتق السلطان منهم من يرى فيه نجابة وشهامة وامتيازاً فى ناحية ما ويهب له مالا وقماشاً وفرساً . ومن ثم يسلك طريقه نحو الترقى فيكون أميراً صغيراً ثم يرقى فى سلك الإمارة حتى لقد يصل إلى « الأتابكية » أو « نيابة السلطنة » ، وهما أرقى الرتب والمناصب فى الدولة بعد مرتبة السلطنة . وقد تساعد الظروف أو كثيراً ما ساعدت — الأتابكى أو نائب السلطنة على الوثوب إلى عرش البلاد . وبلوغ السلطان مرتبته هذه ، يأتى بطريق الشورى بين الأمراء لاختيار من يصلح للسلطنة منهم عند موت السلطان أو خلعه أو فراره أو قتله ، أو خلال مؤامرة تدبر ضده . والشورى هى السنة المتبعة لاختياره ولكنها شورى ظاهرية فى أغلب حالاتها . أما الشورى الحقيقية فقد كانت لسيف المتغلب وسطوته ..

وكانت الأرض الزراعية مملوكة للسلطان . وليس لغيره حق ملكيتها أو إيجارها ، ولاسيما أفراد الشعب من الطبقة المحكومة . وقد قسمت هذه الأرض أربعة وعشرين قسما . وكل قسم إلى جملة إقطاعيات ، تضيق كل منها أو تتسع فى المساحة . واستأثر السلطان لنفسه بجملة من هذه الأقسام ، ومنح البقية أمراءه وجنده وكان للسلطان ، حسب التقدير فى الروك[1] الناصرى المقرر عام ٧١٥ هـ ، عشرة أقسام ، وللأمراء والجنود أربعة عشر .

ويمنح السلطان لكل أمير أو جندى إقطاعاً يناسب مرتبته ، وذلك بعد خروجه من العتق . فيملكه طول حياته ، إلا إذا رقى إلى رتبة أعلى فاستحق بسببها إقطاعاً أوسع ، وإلا إذا غضب عليه السلطان فإنه يسترد منه الإقطاع ،

(١) الروك معناه مسح الأرض وتقسيمها وتقدير خراجها . وقد تم الروك الناصرى بأمر الناصر بن قلاوون عام ٧١٥ — راجع خطط المقريزى ج ١ ص ١٤١ ، وهامش السلوك ص ٨٤٢ ج ١ .

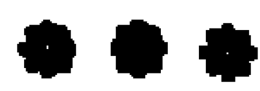
وقد ينفيه عن البلاد ويسمى حينئذ « بطالا » . وإلا إذا مات صاحب الإقطاع ، فإن إقطاعه يرد إلى السلطان ليهبه لرجل جديد ، وهكذا . ولا يصيب ورثته منه شيئاً . ومن هنا لجأ كثير من الإقطاعيين إلى حيلة شرعية وهى « الوقف » ليضمنوا لأولادهم رزقاً .

ومالك الإقطاع يملكه بمن فيه ومافيه قال المقريزى : « واعلم أنه لم يكن فى الدولة الفاطمية بديار مصر ، ولا فيما مضى قبلها من دول أمراء مصر لعساكر البلاد إقطاعات بمعنى ما عليه الحال اليوم فى أجناد الدولة التركية . وإنما كانت البلاد تضمن بقبالات معروفة لمن شاء من الأمراء والأجناد والوجوه وأهل النواحى من العرب والقبط وغيرهم . لا تعرف هذه « الأبذة » التى يقال لها اليوم « الفلاحة » . ويسمى المزارع المقيم بالبلد « فلاحاً » قراراً . فيصير عبداً قنا لمن أقطع تلك الناحية ، إلا أنه لا يرجو قط أن يباع ولا أن يعتق ، بل هو قن ما بقى ، ومن ولد له كذلك[1] » .

فالإقطاع فى مصر تاريخ طويل . وهو وصمة فى الجبين ، وطعنة فى الكرامة ، وحرمان لأغلبية الشعب من حقها الطبيعى ، ومن التمتع بثمرات يدهم وعرق جبينهم .

هذه هى الطبقة الحاكمة . كانت المستأثرة بالعز والسلطان والنعيم ، دون الطبقة الأخرى التى كانت — إلى جانب حرمانها من أرضها — تعانى الأمرين من فداحة الضرائب المقررة عليها .

وحقاً كانت الطبقة الحاكمة تقوم بواجب حماية البلاد المصرية وممتلكاتها فى الخارج ، ورد أعدائها عنها . ولكن هذا لا يجزئ فى مقام الاعتذار عن مظالمها .



أما الطبقة الثانية — المحكومة — فكانت ، على ما رواه المقريزى ، مؤلفة من ستة عناصر :

---

(١) الخطط ج ١ ص ١٣٨

١ — أهل اليسار من التجار وأولى النعمة من ذوى الرفاهة .

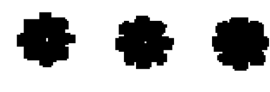
٢ — الباعة وهم متوسطو الحال من التجار ويقال لهم « أصحاب البز » ويلحق بهم أصحاب المعايش وهم السوقة .

٣ — وأهل الفلح وهم أهل الزراعات والحرث وسكان القرى والريف .

٤ — والفقراء وهم جل الفقهاء وطلاب العلم والكثير من أجناد الحلقة[1] .

٥ — أرباب المصانع والأجراء وأصحاب المهن .

٦ — ذوو الحاجة والمسكنة وهم أهل السؤال الذين يتكففون الناس ويعيشون منهم .



وهذه العناصر تتألف من رواسب من الأمم التى حكمت مصر أو عاشت فيها من قبل ، فضلا عن العنصر العربى . ففيهم الروم والأرمن والمغاربة والأكراد وبعض من الترك والعجم ، واليهود والنصارى والقبط . امتزج بهم منذ زمن بعيد ، العنصر العربى بالمشاركة فى الاحتراف وبالمصاهرة والمجاورة وغيرها .

ونذكر بهذه المناسبة أن العنصر القبطى كان ذا بروز فى عصر المماليك ، وأن كثيراً من أسره أسلموا وبرعوا أو برعت ذرياتهم فى العلم والأدب وكان فيهم نوابغ بلغوا مرتبة الوزارة ، ونافسوا فى ميدان الكتابة والشعر ونحوهما . ونذكر منهم على سبيل التمثيل : أسرة ابن حنا وأسرة ابن مكانس . ولعلنا نستطيع أن نوفى هذه الأسر ونوابغها حقها من الحديث فى بحث مستقل .

والذى نذكره كذلك أن لغة هذا الشتات الممتزج كانت العربية ، فصيحة فى ميدان العلم والأدب والتأليف والرسميات ، وعامية فى ميدان التخاطب .

---

(١) أجناد الحلقة : يبدو أنهم ضرب من الجنود لا يلازمون السلطان ولا يقيمون فى أبراج القلعة . ولهم إقطاعات خاصة . ويبدو أن المقريزى أدخلهم فى عداد الطبقة الرابعة لأن منهم من باع إقطاعه للصناع ونحوهم فدخل بعض الصناع فى عدادهم . ولما دخل بينهم الصناع ونحوهم عدوا من أجناد الحلقة ، وذلك بعد الناصر بن قلاوون . وكان هذا فساداً لنظام الجيش . أما الجنود الآخرون فكانوا يسمون « الجنود السلطانية » . — راجع خطط المقريزى ج ٣ ص ٣٥٠ تحت عنوان « ذكر جيوش الدولة التركية وزيها وعوائدها » .

وليست هذه حالة طارئة جديدة فى عصر المماليك ولكنها امتداد لما كان منها من قبل ، منذ تعربت مصر وغزتها العربية والإسلام بعد الفتح العربى .

من هذه العناصر الستة وهذه الأجناس المختلطة ، كان يتألف الشعب المصرى المحكوم ، وهى العناصر الكادحة فى سبيل عيشها . وقد اختلط بها أيضاً كثيرون من أبناء الأقطار المجاورة كالشام والعراق والحجاز وفلسطين والمغرب والأندلس ، بل ومن الهند وغيرها وذلك لأن مصر حينذاك كانت محط أنظار علماء المسلمين وأدبائها ، وطلاب العلم من أبنائها . جاء إليها العلماء والأدباء طمعا فى أمنها وطلبا لحمايتها فراراً من الكوارث التى تلاحقهم فى ديارهم ، أو رغبة فى خيرها وبرها ، لما وجدوا لدى سلاطينها من ترحيب ومعونة . وجاء إليها طلاب العلم لما أنسوه فى ثقافتها من سمو ورفعة وحرية وسعة قبول .

ومن هؤلاء من استوطن مصر واندمج فى غمار عناصرها الستة الكادحة ، التى مهما قيل فى الفوارق بينها ، كانت متقاربة متمازجة يتألف منها شعب واحد .

هذا الشعب الذى كان يشقى — كما قلنا — فى سبيل عيشه ، ويتحمل عبء الضرائب الباهظة على كاهله ، وليس له من أمر الحكم شىء ، لا يستشار فى سلم أو حرب ، ولا يملك أرضه الزراعية ولا يؤجرها ، ولا يسلك فى سلك الجندية فرد منه — وقد فتحت أمامه المساجد لتعليمه وتلقينه أمور دينه قربى إلى الله وزلفى ، لا أداء لحقه وقياماً بما ينبغى له .

غير أنه جدير بنا أن نشير إلى العنصر الرابع وهو عنصر الفقراء وهم جل طلاب العلم . فنقول إن الممتازين من رجال هذا العنصر الذين يشتهرون بالفضل ويعرفون بسعة العلم والأدب ، كان يطلق عليهم لفظ « المتعممين » . وتتخذ منهم كثير من أرباب الوظائف الديوانية — عدا الجندية — ومن أهمها وأشرفها وظائف القضاء وكتابة الإنشاء ، ثم الوزارة والحسبة .

ورؤساء هذه الطائفة كانوا أقرب عناصر الشعب إلى الحاكمين ، وأشبه بالأمراء ، فاكتسبوا بذلك جاها ونفوذا ، واكتسب بعضهم مالا وفيرا .

واستطاع بعضهم أن يدرأ عن الشعب أحيانا ، كثيراً من السوء الذى يدبر له ، ومن الظلم الذى يراد به .

هذه العناصر التى تكون منها الشعب ، سادها إلى حد كبير ، جو من الرضا والاستسلام لمشيئة الأقدار ، نشأ هذا من الوضع الاجتماعى الذى عاشوا فيه ، ولم ينشأ بسبب البيئة الطبيعية وحدها . فخضعوا لحكامهم لما استبدوا به من أسباب القوة ، ولما ظهروا به من مظهر الحماة للدين وللمسلمين.

وللحالة الاقتصادية أثرها أيضاً فى هذا الخضوع ، إذ يكيف الاقتصاد فى كثير من الأحيان أخلاق الناس وعاداتهم . وقد كانت ثروة البلاد ، فى جملتها وفيرة ضخمة ، يشهد بذلك ما بناه السلاطين والأمراء وبعض الأعيان ، من أبنية وعمائر ، ذات زخرف وروعة . ويشهد لذلك جيوشهم الجرارة وما كانت تنعم به من ملبس ومأكل وعدة ، ولا سيما فى الدولة البحرية ، وأساطيلهم الجوابة فى بحار مصر وما وراءها إلى بحار الهند ، ومواكبهم الحافلة الفاخرة ، وليالى أنسهم العامرة . وإنك إذ تقرأ أخبار ملوكهم وأعيانهم ، تأخذك الدهشة ويملكك العجب ، حينما تطالع أخبار مخلفاتهم و « موجوداتهم » إثر وفاتهم أو حينما تقرأ أنباء مصادرات الملوك المغضوب عليهم من الرؤساء .

وهذا كله ، على الرغم من تناقص النيل أحياناً وشيوع الجدب وتفاقم الغلاء واستفحال الأدباء فى بعض السنين .

ولكن القابض على هذه الثروة من أطرافها ، الطبقة الحاكمة ومن إليها . أما البقية فإنها كانت تعانى شقاء فى حياتها ، وحرماناً فى عيشها . وإلحاح الحاجة والحرمان معاً على المرء قد يفضيان به إلى يأس لا أمل فيه . فيكون ذلك سبباً فى كبت نبوغه وذكائه ، ووقف استعداده للسمو ، فضلا عن قتل ما فى نفسه من عزة وكبرياء .

أفليس عجيباً أن يولد فى هذا العصر جملة من أفاضل الأدباء كسراج الدين الوراق وأبى الحسين الجزار ونصير الدين الحمامى وابن دانيال الكحال ، وغيرهم

كثيرون ، ثم تنبو بهم الحياة وتعوزهم الحاجة ، وتدركهم حرفة الأدب . فيجأرون بالشكاية من موهبة الأدب والشعر التى وهبتها لهم العناية ، ويتبرمون بها لأنها لم تعد عليهم بطائل . . . ولووا عنانهم إلى الحرف يمتهنونها ، وإلى الصناعات يتخذون منها مصدر رزق ، وينعون على الأدب وصناعة الشعر .

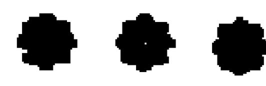
يقول أبو الحسين الجزار :

لا تعبنى بصنعة القصاب　　فهى أذكى من عنبر الآداب
كان فضلى على الكلاب فذ صـــرت أديباً رجوت فضل الكلاب

وربما كانت حياة الحرمان المتواصلة التى ابتليت بها جموع الشعب فى عصورها المتعاقبة ، وفى هذا العصر ، سبباً لطول شكايتها ، حتى صارت الشكوى أحد الأصباغ اللامعة التى ظهرت فى الأدب المصرى العربى . وهذا ابن نباتة أديب عصره ، امتلأ شعره بالشكوى ، ونبا به المقام فى بلده مصر ، وطوح به طلب العيش إلى دمشق وحماة . وهو الذى يقول :

لا عار فى أدبى إن لم ينل رتباً　　وإنما العار فى دهرى وفى بلدى
هذا كلامى وذا حظى فيا عجباً　　منى لثروة لفظ وافتقار يد

والشكوى تسلم إلى النقد ، وإذا اجتمع النقد والخوف ، نبتت الفكاهة الساخرة ، أو النكتة العابرة . وهكذا وجدت التورية والفكاهة والنكتة سبيلها إلى الأدب العربى فى عصر المماليك .



ومن الحق أن نشير إلى أن بعض الأدباء شقوا طريقهم نحو ديوان الإنشاء ووظائفه السنية . أجادوا الكتابة وسعوا إلى وظائفها بالنبوغ فيها ، وبالاتصال بالأمراء والسلاطين ، فواتهم متع الحياة ، ووفى لهم الدهر ، وابتسم لهم ثغر الزمان — فى جملتهم — حتى اكتنز بعضهم الذهب والفضة . وعاشوا كالأمراء أو بهم أشبه ، وربما شآهم بعضهم فى ميدان الجاه والرياسة . ومنهم محيي الدين ابن عبد الظاهر الذى حظى لدى بيبرس ، وسعى إليه الشاب الظريف مادحا برقيق الشعر وجزله ومنهم أبناء فضل الله العمرى الذين كانوا رؤساء الإنشاء

فى زمن الناصر بن قلاوون ، ولا سيما شهاب الدين صاحب مسالك الأبصار ، وأخوه علاء الدين وقد مدحهما ابن نباتة بقصائد خلدت ذكرهما أبد الدهر . ومنهم أبو بكر بن مزهر كاتب سر الغورى الذى بطش به وأحاط « بموجوده » وكان ضخماً . إلى غير هذا وذاك .

ولم يحظ الشعراء بتشجيع يذكر بجانب مالقيه الكتاب ثم المؤلفون ، ونشير إلى شىء من ذلك عند الكلام عن البيئة الثقافية .

* * *

هذه لمحة وجيزة تصور لنا المجتمع المصرى فى عصر المماليك ، وما كان ينتابه من مختلف العوامل . فما مبلغ استجابة النثر الفنى لهذا كله ، وأين صدى حوادث المجتمع وعاداته بين سطوره ؟

إن كتب التاريخ ملأى بذكر حوادث هذا المجتمع والتنويه بكثير من عادات أهله وتقاليدهم . فمثلا تحدثت عن حفلات تنصيب السلاطين ومبايعة الخلفاء ومواكب السلاطين والأمراء والأعيان ، إلى حرب أو نزهة أو صيد أو نحوه . وحفلاتهم فى عيد وفاء النيل وخروج المحمل . ووصفت المواسم الدينية وحفلات الزواج والختان ، وما كان يصحب ذلك من مرح ولهو وطرب ومغنين ومغنيات(١) وما يتهادى به الأصدقاء فى مثل هذه المناسبات .

كما تحدث المؤرخون عن الضرائب وأنواعها والأوباء العامة وحوادث الغلاء وما يصحبها عادة من موت وفناء ، وما يتصل بذلك من دمار وبوار . إلى غير ذلك(٢) .

ولكننا لا ننكر أن أكثر حديثهم عن ذلك كان وصفاً مسروداً شبيها بأساليب المخاطبة ، لا أناقة فيه ولا جمال تعبير ولا روعة تصوير ولا قوة تأثير . واختلطت به بعض المفردات والأساليب العامية والدخيلة . ولا ندرى ماذا كان يكون مصير اللغة « فصيحها وعاميها » لو تم الامتزاج بين طبقتى الأمة فى هذا العصر ، وعاونه الاتفاق فى الدين والمذهب . ؟ وخضعت الطبقة المحكومة

(١) انظر كتابنا عصر سلاطين المماليك المجلد الثانى ص ٣٦٢ تحت عنوان العادات والتقاليد .
(٢) المصدر نفسه ص ٣١١ وما بعدها .

للغة الطبقة الحاكمة ؟ لعل الله سبحانه وتعالى أراد للغة القرآن أن تحفظ، فباعد بين الطبقتين . .

غير أنه ينبغى أن لا نظن بالنثر الظنون، ونصمه بأنه تخلى عن الميدان دون بيان . فلقد أدلى بدلوه فى الدلاء. وكان له أسهم وفيرة صائبة فى عدة نواح جوهرية، منها على سبيل التمثيل :

١ — النصائح والعظات :

وهى فى أساسها نقد . وإن كانت صادرة من قلوب حانية وأفئدة عاطفة ونفوس مشفقة . وقد رأينا بعض الأدوار التى لعبتها النصائح والعظات، مما تحدثنا به عنها فى الباب الرابع . وشهدنا كيف كان بعض العلماء جريئاً على الملوك، لايهابونهم ولا يقيمون لملكهم وزنا، ولا يقدرونهم إلا بمقدار رعايتهم للعدالة . كانوا يراقبونهم، إذا جاروا كشفوا لهم وجوه الجور، وإذا أساءوا عددوا لهم مواقع الضر، وإذا قسطوا رسموا لهم سبيل العدل، وجهدوا فى ردهم إلى أحكام الشريعة الغراء وآداب الدين السمح الحكيم .

وهذا محي الدين النووى ينصح بيبرس، ومن كان بيبرس ؟ كان أقوى ملوك المسلمين فى زمانه، وقاهر التتار والفرنجة، ومالك مصر والشام وكثير من المدن والثغور من حولها .

وهذا تقى الدين بن تيمية ينصح ملك قبرص المسيحى ويتهدده ويتوعده ويغريه ويعده . وهذا جلال الدين السيوطى يعظ ملوك التكرور ويدعوهم إلى كلمة الحق ورعاية العدل .

٢ — الحوادث العامة :

وقد عاشت مصر فى عصر المماليك هدفا لجملة غارات شنها عليها الغلاء والوباء والزلازل فلم يتوان الأدباء عن وصفها . ومن ذلك :

(ا) وباء جارف وقع عام ٧٤٩ هـ وقد رأينا ابن الوردى يصفه فى إحدى

مقاماته ومنها قوله يصف هلع أعيان حلب ويذكر شيئاً من عاداتهم فى مثل هذه النكبة ، قال :

« فلو رأيت الأعيان بحلب وهم يطالعون من كتب الطب الغوامض . ويكثرون فى علاجه من أكل النواشف والحوامض . قد تنغص عيشهم الهنى . بملاطخة مسلم الطينة الطين الأرمنى . وقد لاطف كل منهم مزاجه وعدل . وبخروا بيوتهم بالصبر والكافور والسعد والصندل . وتختموا بالياقوت . وجعلوا البصل والخل والصحنا من جملة الأدم والقوت . وأقلوا من الأمراق والفاكهة . وقربوا إليهم الأترج وما شابهه . ولو شاهدت كثرة النعوش وحملة الموتى . وسمعت بكل قطر من حلب نعياً وصوتا . لوليت منهم فرارا . ولأبيت فيهم قرارا » الخ(١) .

(ب) زلزال شديد حدث فى عام ٧٠٢ هـ قال المقريزى فى وصفه ، وقد وقع يوم الخميس ٢٣ من ذى القعدة ويبدو أن فى قوله مبالغة :

« عند صلاة الصبح اهتزت الأرض كلها . وسمع للحيطان قعقعة ، وللسقوف أصوات شديدة وصار الماشى يميل . والراكب يسقط حتى تخيل الناس أن السماء انطبقت على الأرض . فخرجوا فى الطرقات رجالا ونساء قد أعجلهم الخوف والفزع عن ستر النساء وجوههن . واشـــتد الصراخ وعظم الضجيج والعويل . وتساقطت الدور وتشققت الجدران . وانهدمت مآذن الجوامع والمدارس . ووضع كثير من النساء الحوامل مافى بطونهن . وخرجت رياح عاصفة . ففاض ماء النيل حتى ألقى المراكب التى كانت بالشاطىء ، قدر رمية سهم . وعاد الماء عنها فصارت على اليبس ، وتقطعت مراسيها . واقتلع الريح المراكب السائرة فى وسط الماء وحذفها إلى الشاطىء » الخ(٢) .

٣ — النقد الاجتماعى :

وقد مر علينا مظاهر عدة للنقد الاجتماعى . وقد كان المجتمع مملوءاً بمواضع

---

(١) ديوان ابن الوردى (٢) سلوك المقريزى ج ١ ص ٩٤٢ .

النقد . والنقد الاجتماعى الذى ينشئه الأدباء هو فى الواقع صدى لما تنتزى به صدور العامة ، ورجع لما تلوكه ألسنتهم من نقدات .

وقد كانت عوامل النقد مهيأة ميسرة مواتية ، والشعب المصرى شعب ناقد بفطرته وذكائه وبيئته ووقائع حياته ، وتلك الخصوصية إحدى مقومات شخصيته . وقد علمته بيئته الخصبة الكثيرة الثمرات القناعة والصبر والأمل . وعلم أنه إذا هو حرم اليوم فسيعطى غدا . وبين الحرمان والأمل تولد النظرة الناقدة .

وقد نشط الشعراء فى ميدان النقد الاجتماعى — فى هذا العصر الظالم — نشاطاً يغبطون عليه . وشأوا فى ذلك أندادهم من المنشئين . ولعل لذلك سببا ، هو أنهم كانوا يعانون ألم الحرمان . فاتفقت من هنا مآسيهم ومآسى الشعب . أما الكتاب أو كثير منهم ، فقد وجدوا سبل العيش أمامهم أكثر يسرا ، وأرحب صدرا . ودرت عليهم وظائفهم الجاه والمال ، فلوت عنان أقلامهم عن النقد ، ولا سيما أنهم ارتبطوا بسياسة السادة الحكام . ومن هنا أيضاً كان الشعراء أكثر حرية من الكتاب ، فأباحوا لأنفسهم مالم يبحه الكتاب .

وقد نقد البوصيرى صاحب البردة ، طوائف المستخدمين فى أيامه وفضح أعمالهم ، وهتك أسرارهم ، وأول قصيدته قوله :

نقدت طوائف المستخدمينا فلم أر فيهمو حرا أمينا[1]

وفى قصيدة شاكية طريفة وصف البوصيرى أسرته لأحد الوزراء ، ذاكرا ماعانته من خلاف بسبب تأخر مرتبه وبسبب ضيق ذات يده فى شهر رمضان وأيام العيد وصور كيف دب النزاع بينه وبينها بسبب كعك العيد وما يتصل به .

ومن أبيات هذه القصيدة يخاطب الوزير :

يأيها المولى الوزير الذى أيامه طائعة أمره
ومن له منزلة فى العلا تكل عن أوصافها الفكره

---

(١) راجع ترجمة البوصيرى وشعره فى فوات الوفيات ج ٢ ص ٢٥٦ .

إليك نشــكو حالنا إنـــا   حاشاك من قوم أولى عسره

ومنها يصف صيام أسرته وطعامها :

صاموا مع الناس ولـكنهم   كانوا لمن أبصرهم عبرة
إن شربوا فالبئر زير لهم   ما برحت والشربة الجرة
لهم من الخبز مصلوقة   فى كل يوم تشبه النشرة
أقول مهما اجتمعوا حولها   تنزهوا فى الماء والخضرة
وأقبل العيد وما عندهم   قمح ولا خبز ولا فطرة
فارحمهم إن عاينوا كعـكة   فى كف طفل أورأوا تمرة
تشخص أبصارهم نحوها   بشهقة تتبعها زفرة ... الخ

والقصيدة — وإن كانت ركيكة النسج — تصف حالة الأسرة وما أصابها من شظف ، ومادب بينها بسببه من نزاع . وكأن البوصيرى بها يؤرخ للحالة الاجتماعية التى كانت سائدة فى الأسر المصرية الفقيرة والمتوسطة فى عصره . والتى لا تزال سائدة حتى اليوم ، فى كثير من الأسر المذكورة .

وقال شهاب الدين الأعرج ينقد الأتراك والأقباط واستئثارهم بالرزق فى مصر :

وكيف يروم الرزق فى مصر عاقل   ومن دونه الأتراك بالسيف والترس
وقد جمعته القبط من كل وجهة   لأنفسهم بالربع والثمن والخمس
فللترك والسلطان ثلث خراجها   وللقبط نصف والخلائق فى السدس

وللفتح بن سيد الناس أربعة أبيات مقذعة نقد بها الصوفية فى زمانه نقداً مرا بل قذفهم بها قذفا سافرا وأولها :

ما شروط الصوفى فى عصرنا   قطعا سوى ستة بغير زيادة ... الخ[1] .

وهجا ابن أبى حجلة المغربى المماليك الجلبان ونقدهم نقداً لاذعا ووصف

(١) راجع ترجمة شهاب الدين الأعرج فى الدرر الكامنة .

مفاسدهم وشرورهم : فى قصيدة طريفة بدأها بقوله :

غدا الجلبان فى دست الخسارة   وفاتهم بما فعلوا الشطارة[٤] .

والقصيدة وإن كان نظمها ركيكا لها قيمة تاريخية لا تنكر .

وحمل الشاعر جمال الدين السلمونى فى عصر الغورى ، على قاضى قضاة الحنفية « عبد البر بن الشحنة » حملة شعواء ونسب إليه الزور والرشوة ونحوهما من المفاسد ومطلعها :

فشا الزور فى مصر وفى جنباتها   ولم لا وعبد البر قاضى قضاتها

أينكر فى الأحكام زور وباطل   وأحكامه فيها بمختلفاتها .. الخ[٣]

وكان لهذه القصيدة ضجة وقضية ليس هذا مجال بيانهما

* * *

وإنما استطردنا إلى ذكر هؤلاء الشعراء والتنويه بشىء من جهودهم فى ميدان النقد الاجتماعى لنبين فارقا واضحابين الكتابة والشعر . وإن الأولى قصرت فيه بينما خطا الثانى فيه خطوات لا بأس بها ، ولكل من الحالتين أسباب أشرنا إلى بعضها .

إلا أننا إنصافا للنثر ، لا نرى بأسا من التنويه بفقيه أديب كاتب ، جال فى ميدان النقد الاجتماعى ولكنه نظر إليه بمنظار الدين ، وقاس أحوال الناس فى عصره بمقياس الشريعة . فما نبا عنه من هذه الأحوال حمل عليه وبين سبيل إصلاحه . وقد استطاع بذلك أن يرسم لنا بنقده هذا كثيراً من صور العصر وعادات أهله ومباذلهم . هذا الفقيه الأديب هو ابن الحاج صاحب كتاب « المدخل » .

كتاب المدخل لابن الحاج[١]

ابن الحاج هو أبو عبد الله محمد بن محمد العبدرى الفاسى المالكى . تلقى

---

(١) الأبيات فى فوات الوفيات ج ٢ ص ٢١٣ .

(٢) القصيدة فى ديوان ابن أبى حجلة . وهو مخطوط بدار الكتب .

(٣) راجع ابن إياس الجزء الخامس بالغورى حوادث شعبان عام ٩١١ هـ .

(٤) ترجمة ابن الحاج فى الدرر الكامنة ج ٤ رقم ٦٢٧ ، وحسن المحاضرة ج ١ ص ٢١٧ — وكتابه المدخل مطبوع عام ١٣٤٨ هـ .

الحديث ببلاده. ثم قدم إلى مصر، ثم حج وسمع موطأ مالك، واستوطن مصر، وعلت بها مهابته، وزاول التأليف. ومات بالقاهرة عام ٧٣٧ هـ.

ومن أجل مؤلفاته «المدخل» فى أربعة أجزاء، فرغ من تأليفها فى المحرم عام ٧٣٢ هـ وهو كتاب بديع فى بابه، ألفه ابن الحاج تحقيقاً لرأى شيخه أبى محمد عبد الله بن أبى جمرة، وهو قوله: «وددت أنه لو كان من الفقهاء من ليس له شغل إلا أن يعلم الناس مقاصدهم فى أعمالهم، ويقصد إلى التدريس فى أعمال النيات ليس إلا».

فرأى ابن الحاج أن يكتب مؤلفه هذا تعليماً للناس وتنبيها لهم على أمور دينهم فيما يتصل بالعقائد والمعاملات والعبادات، والعادات والتقاليد.

وقد عنى المؤلف فى كل مناسبة يتحدث فيها عن موضوع من موضوعاته الدينية التعليمية، بأن يسجل ما اعتاده الناس فى هذا الموضوع، ويصفه وصفا واضحا سافراً لاغموض فيه ولا مبالغة، ويبين كيف كانوا يفهمون الأمور، ما يأخذونه منها وما يدعونه. وبهذا سجل كثيراً من عادات الناس فى زمانه وتقاليدهم، ولا سيما الممقوتة منها والمحرمة شرعا، الخارجة عن نطاق الآداب الخلقية والفضائل المتفق عليها.

هذه العادات والتقاليد الممقوتة التى رسخت بين الناس رسوخ العقيدة، والتى جروا عليها كما يجرى المؤمن على ماأحل له، هذه العادات والتقاليد، حمل عليها ابن الحاج وسفه المعتادين لها والمتمسكين بها، ونقدها نقداً مرا لاذعا، مبيناً ما فيها من مفاسد ونقائص وأضرار وخروج عن الدين القويم والذوق السليم.

ويكاد المرء يجزم بأن ابن الحاج لم يدع بدعة بارزة، ولا تقليدا مرذولا مما اعتاده أهل القاهرة ودرجوا عليه إلا نص عليه ونبه. وسجله ونقده بوضوح وبين حكم الشرع فيه، وما ينبغى أن يحل محله من سليم العادات وشرعيها داعياً إلى اتباعه والانقياد له لما فى ذلك من سعادة. وغايته أن يحل الحلال محل الحرام، والمقبول مكان المرذول والمستحب بدل المكروه. والرجل يبدو —

على زهده وورعه — واسع الخبرة مديد النظرة عليما بما هنا وما هنالك . ذلك لأنك تراه فى نقدانه لم يترك محلا إلا اقتحمه ، ولا بابا إلا سلك إليه، ولا خفية إلا سرى إليها . فطورا تراه فى سطوره ، يتجول بين الأسواق ، وطورا يلج البيوت والدور ،وآنايشهد الموالد ، ومرة يدخل المساجد . وهكذا تراه مع المرء فى نومه ويقظته ، فى بيعه وشرائه ، فى عمله وصناعته فى أكله وشرابه ، فى زيه وثيابه ، فى لهوه ولعبه ، فى أنسه وطربه . فى عبادته وقيامه ، فى تحيته وسلامه ، وفى الحفل والجنازة ، وفى السعى والكسب ، الخ الخ

وإليك بعض موضوعاته على سبيل التمثيل :

خروج النساء إلى المحمل . اللهو فى الأعياد الدينية ومنها مولد النبي عليه الصلاة والسلام . السكنى على البحر . زيارة القبور .المواسم المنسوبة إلى الشرع وليست منه كأول ليلة فى رجب . نعى الميت . انتشار الرشوة وما جاء فى تحريمها . ضرب الدف والرقص . الصلاة على النبي وقت البيع . الصناعات كالخياطة وما يبدو فيها من مفاسد فى العمل . العقيقة . الختان . تشييع الجنائز . الكتابة على القبر . . . الخ

وموضوعاته أكثر من أن تعد ، وربما بلغ عددها نحو مائتين وخمسين موضوعا . وتحدث عن كل موضوع فى فصل مستقل يطول أو يقصر . ولا نقول إنه عنى فى كل فصل منها بالشرح والإيضاح والتسجيل والنقد دائما ، وإنما هذه صفة غالبة على أسلوبه وفصوله

وقد عنى ببيان حكم الشرع فى كل موضوع — كما أشرنا — معتمداً على آيات القرآن الكريم ، وأحاديث النبي عليه الصلاة والسلام . غير أنه — كما ذكر فى مقدمته — روى الأحاديث طوراً بلفظها وطوراً بمعناها،وتارة بسندها وتارة بغير سند . وذلك لعدم وجود كتب الحديث لديه وقت التأليف،فاعتمد على حفظه وذاكرته . ومن هنا نرى أن الكتاب فى حاجة إلى نظر وتحرير . وقد أشار ابن حجر إلى هذا الكتاب فقال : « هو كثير الفوائد كشف فيه عن معايب وبدع يفعلها الناس ويتساهلون فيها ، وأكثرها مما ينكر ، وبعضها مما

يحتمل »[1] . ويبدو من قراءة مقدمته أنه لم يستأثر وحده ببيان حكم الشريعة فيما يتناول الحديث فيه ، بل اعتمد أحياناً على أولى الدراية والمعرفة فناقش وجادل ، وقبل منهم ورفض . .

وقد استعان فيما استعان به بآراء السلف ومختارى الفقهاء ، وبجملة من القصص والحكايات الصالحة ، والأبيات الشعرية . ومن هذا وذاك ترى أن الكتاب جعبة فياضة بالملاحظات الدقيقة الناقدة لمذموم العادات ، ومليئة بالدروس التعليمية النفاذة إلى أعماق النفوس وقرارات القلوب ، بما جاء فى خلالها من حكم وعظات بليغة ، وهو إلى أنه كتاب فقه وتشريع ، كتاب نقد وأخلاق وأدب ، وكتاب تعليم وتقويم . وقد سلك فى أسلوبه سبيل الاسترسال ، فلا سجع ولا جناس ، ولا طباق ولا مقابلة ، إلا ما عرض لماما ودون عمد . وهو يجنح نحو الوضوح المطلق وتبيان المعانى ، ثم هو يحمل على البدع وينعى على متبعيها فى عبارات لذاعة وجمل قاسية لا لين فيها ولا هوادة .

وبعد فإليك بعض سطوره : قال من فصل طويل تحت عنوان « فصل فى خروجهن إلى المحمل » :

« وينبغى له أن يمنعهن من الخروج إلى شهود المحمل حين يدور . ويمنعهن من الخروج فى تلك الأيام التى يستعد فيها لدوران المحمل ، إذ فى ذلك من المفاسد وارتكاب المحرمات ومخالفة السنة أشياء عديدة ، فمنها : تزيين الدكاكين فى الأسواق وغيرها بالقماش من الحرير والحلى وغيرهما . وفى بعض ذلك من الصور المحرمة ما هو معلوم مشاهد لا ينازع فيه وتحريمه لا خفاء فيه ، وذلك كله قبل دورانه إلى أن ينقضى . ويقع فى تلك الأيام من المفاسد استمتاع الرجال بالحرير المحرم عليهم إلا ما استثنى فى الشرع لحكمة أو جهاد . ويدل على تحريم ذلك ما ورد من حديث أنس بن مالك - رضى الله عنه - حيث قال : « فقمت إلى حصير لنا قد اسود من طول ما لبس » . فسمى استعمال الحصير لبسا . فدل على أن لبس كل شىء بحسبه ، فدل ذلك على أن ما يفعلونه من تزيينهم بسائد

(١) انظر الصفحة الأولى من كتاب المدخل ، وفيها كلمة الناشر .

الحرير والبشخانات(١) المعلقة وما أشبه ذلك حرام ، سيما إن كان فيها صور محرمة ، فيتأكد الوعيد . » الخ .(٢)

وقال تحت عنوان « فصل فى اختلاف العوائد فى التسحير » :

« اعلم أن التسحير لا أصل له فى الشرع الشريف. ولأجل ذلك اختلفت فيه عوائد أهل الأقاليم . فلو كان من الشرع مااختلفت فيه عوائدهم ألا ترى أن التسحير فى الديار المصرية بالجامع : يقول المؤذنون « تسحروا كلوا واشربوا » وما أشبه ذلك . على ما هو معلوم من أقوالهم ، ويقرءون الآية الكريمة التى فى سورة البقرة ، وهى قوله تعالى : « يأيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام » إلى آخر الآية . ويكررون ذلك مرارا عديدة ثم يسقون على زعمهم، ويقرءون الآية الكريمة التى فى سورة « هل أتى على الإنسان حين من الدهر » . من قوله تعالى : « إن الأبرار يشربون من كأس » إلى قوله : « إنا نحن نزلنا عليك القرآن تنزيلا » والقرآن الكريم ينبغى أن ينزه عن موضع بدعة أو على موضع بدعة.ثم يقولون فى أثناء ذلك ماتقدمت الإشارة إليه من إنشاد القصائد وما ترتب على ذلك . ويسحرون أيضاً بالطبلة يطوف بها أصحب الأرباع(٣) وغيرهم على البيوت ويضربون عليها . هذا الذى مضت عليه عادتهم وكل ذلك من البدع .

وأما أهل الإسكندرية وأهل اليمن وبعض أهل المغرب فيسحرون بدق الأبواب على أصحاب البيوت وينادون عليهم : « قوموا كلوا » وهذا نوع آخر من البدع نحو ما تقدم .

وأما أهل الشام فإنهم يسحرون بدق الطار وضرب الشبابة والغناء والهنوك(٤) والرقص واللهو واللعب . وهذا شنيع جداً وهو أن يكون شهر

(١) البشخانة : لفظة دخيلة يبدو أنها تطلق على قطع أقمشة نفيسة ذات ألوان وقد ورد هذا اللفظ كثيراً فى كتب المؤرخين بما يدل على هذا المعنى ، وتستعمل فى الملبس والزينة وتكفين الموتى من نساء الأعيان .

(٢) الجزء الأول من كتاب المدخل ص ٢٧٢ .

(٣) الأرباع جمع ربع بضم الراء ويبدو أن المدينة كانت مقسمة إلى أربعة أرباع لكل منها صاحب يشبه شيخ الحارة فى زماننا . وقد كانت كلمة ربع مستعملة فى بعض المدن بهذا المعنى إلى عهد قريب.

(٤) الهنوك : يبدو أنها لفظ دخيل يطلق على إحدى الآلات الموسيقية .

رمضان الذى جعله الشارع عليه الصلاة والسلام للصلاة والصيام والتلاوة والقيام ، قابلوه بضد الإكرام والاحترام . فإنا لله وإنا إليه راجعون . » الخ[1]

* * *

٤ — المجونيات :

وإنما تنشط عادة بنشاط اللاهين فى ساعات صفوهم وأوقات أنسهم ولهوهم، وليالى فراغهم وطربهم . وقد أشرنا إلى ما كان هنالك من أسباب داعية ، وعوامل مغرية أدت إلى انتشار كثير من الآثام . .

وفى كتاب « المدخل » لابن الحاج الذى سبق وصفه ، أحاديث عدة عن بعض مجونيات هذا العصر ومباذل أهله . ومن ذلك خروج النساء والرجال إلى الحمامات العامة ودخولهم دون تستر . . وخروج النساء إلى البركة للاستحمام أمام عيون الرجال ، وكذلك إلى البساتين ، وحب السماع والرقص والاجتماع بالمرد . . الخ

وفى مقامة صلاح الدين الصفدى « دمعة الباكى » . وفى تمثيلية ابن دانيال « طيف الخيال » ، وفى مقامة جلال الدين السيوطى « رشف الزلال » ، ما يغنى عن البرهنة والاستدلال . . .

وتحضرنا بهذه المناسبة فكاهية سبقت إليها الإشارة عن ابن دانيال الموصلى الذى كان أديبا وطبيبا كحالا يتعاطى صناعة الكحل فى حانوت داخل باب الفتوح . وقد حدث عنه فتح الدين بن سيد الناس ، قال :

« كان الحكيم شمس الدين بن دانيال له دكان كحل داخل باب الفتوح . فاجتزت عليه أنا وجماعة من أصحابه فرأينا عليه زحمة ممن يكحله ، فقالوا : « تعالوا نخايل على الحكيم » . فقلت لهم : « لا تشاكلوه تخرجوا معه » . فلم يسمعوا . وقالوا « يا حكيم تحتاج إلى عصيات ؟ » ، فقال بسرعة : « إلا إن كان فيكم من يقود لله تعالى . فروا خجلين » .

(١) عن الجزء الثانى من المدخل ص ٢٥٥ .

قال ابن سيد الناس : « وله من هذا النوع غرائب تنقلها المصريون عنه » .
وقال عنه ابن حجر العسقلانى : « وكان كثير النوادر والرواية[1] .



٥ — التورية وما يتصل بها :

ليست التورية وليدة هذا العصر ، ولكنها ازدهرت فيه ازدهاراً واضحاً ، ولمعت حتى صارت إحدى سمات الأسلوب ودعائمه شعراً ونثراً ، لا يكاد ينهض كلام إلا على أساس منها . ولبروز التورية فى المجتمع المصرى وفى أدبه ، أسباب كثيرة عرضنا لبعضها فيما مضى ، ونعرض لها ولغيرها فى مناسبة قريبة .

والذى نريد تسجيله هنا هو أن بروز التورية فى أدب العصر ، كان صدى لما شاع منها فى المجتمع . واصطناعها فى الأساليب يعتبر تجاوبا منها مع البيئة الاجتماعية وذوقها وأدبها . ولنا تفصيل فى ذلك آخر .

٦ — العلاقات الشخصية :

ما من عصر مضى أو يمضى ، إلا وفيه علاقات شخصية تخلقها مصادفات الحياة بين فردين أو بين جماعتين مثلا . ومن هذه المصادفات الاتفاق فى مجاورة أو حرفة أو تعلم أو مصاهرة أو رحلة أو وظيفة أو نحو ذلك .

وتتولد العلاقة بالتعرف أولا ثم بالتودد مثلا ، والزيارة والإهداء والمعاونات والدفاع فى الغيبة . فتتولد حينذاك الصداقة والمحبة والألفة . وتسمو الصداقة بين الصديقين أحيانا إلى درجة أن يألم الصديق لألم صديقه ويفرح لفرحه ، ألما أو فرحا مصدره القلب لا الشفاه .

والصداقة ، على هذا النحو ، أجمل ما ينشأ فى الحياة بين رجلين ، وبها تهون متاعب الحياة وتخف أثقالها .

لكن الصداقة ليست دائماً المظهر الوحيد للعلاقة الشخصية ، بل ربما تكون

---

(١) الدرر الكامنة ج ٣ رقم ١١٦٦ ، وفوات الوفيات ج ٢ ص ٢٣٧ .

العلاقة مبنية على رياسة أو إشراف أو تلمذة لمؤدب ، بل ربما تكون المنافسة والعداء مظهرا لها أو سبباً من أسبابها .

والعلاقات الشخصية ، على اختلاف مظاهرها وأسبابها ، من أبرز عادات المجتمع وتقاليده . وتصبح ذات أثر كبير فى الأدب إن وقعت بين أديبين . وهما بما يتبادلانه من رسائل ونحوها يعبران عن ذوق مجتمعهما وهواجسه وعلاقاته ، ولو إلى حد ، ويضيفان إلى الأدب نتاجا جديدا .

والنتاج الأدبى المتولد من العلاقات الشخصية ، كثيراً ما تتراءى فيه شتى العواطف والروابط الإنسانية ، ويصلح أن يكون موضع دراسة نفسية شائقة ، تتجلى فيها عادات المجتمع وتقاليده ومشاعره ، أو بعضها .

والعلاقات الشخصية لعبت دورها بنشاط فى ميدان الأدب فى عصر المماليك . والمتصفح لما دوناه فى أبواب هذا البحث يشعر بصواب ما نقوله .

فالعلاقة بين السلطان جقمق والمؤرخ شهاب الدين بن عربشاه ، دفعته إلى تأليف كتابه فى تاريخ جقمق المذكور ، وسماه « التأليف الطاهر فى شيم الملك الظاهر » .

والعلاقة بين ابن أبى حجله المغربى والسلطان الناصر حسن حفيد قلاوون ، دفعته إلى أن يؤلف له كتابه « سكردان السلطان » .

والعلاقة بين ابن حجة الحموى وصديقه ناصر الدين البارزى رئيس ديوان الإنشاء فى عهد المؤيد شيخ ، دفعته إلى إنشاء قصيدته « البديعية » وشرحها فى كتابه « خزانة الأدب » .

وروى السيوطى أنه ألف لصديقه الخليفة العباسى المتوكل على الله أبى العز عبد العزيز كتابين هما « الأساس فى فضل بنى العباس » . و « رفع الباس عن بنى العباس[1] » .



(١) راجع مقدمات الكتب المذكورة على التتابع ، وحسن المحاضرة ج ٢ ص ٣٧ .

على أن الإخوانيات والإجازات الأدبية وما نوهنا عندها به من رسائل ، تصور لنا إلى حد كبير ، كيف كانت هذه العلاقات وكيف كان أثرها فى الأدب، وكيف كان هذا الأدب دليلا عليها ناطقا بها .

فالصداقات دفعت إلى تقارض الثناء وتبادل المدائح بين الصديقين ، ودفعت إلى الشكر على المعونة والهدية ونحوها ، ودفعت إلى التهانى والتعازى فى الأفراح والأتراح ، ودفعت إلى مكابدة الأشواق وشكواها ، وإلى الحنين وإلى المعاتبة ، وإلى الاعتذار ، وغير ذلك مما يكون بين الأصدقاء . والصداقات أحيانا تزين اللهو والمجون والتفكه والدعابة والتندر . وقد كان هذا طابعا لكثير من الأدباء إلى حد كبير . ومن هنا برزت مجونيات الصفدى وابن دانيال مثلا ، واستدعاءات فخر الدين بن مكانس وغيره .

وبمناسبة ذكر الإخوانيات نشير إلى كتاب لصلاح الدين الصفدى لايزال مخطوطا بدار الكتب ، وهو « ألحان السواجع » ، وقد ملأه الصفدى بإخوانياته المختلفة الموضوعات ، مما تبادله مع أصدقائه وخلصانه ، مسجلا فيه ما كتبه إليهم وما كتبوه إليه شعرا ونثرا . فالكتاب بهذا يعتبر مجموعة قيمة وسجلا حافلا للأدب الإخوانى فى عصر المماليك .

وقد تحدثنا فى باب الوصف عن كتاب « سجع المطوق » وهو لابن نباتة — ولا يزال مخطوطا — وقد جمع فيه تقاريظ الأدباء الذين قرظوا بها كتابه « مجمع الفرائد » ، وترجم لكل منهم ، وسجل شيئاً من مكاتباته إليهم . بهذا وذاك صار الكتاب مظهراً طريفا من مظاهر العلاقات الإخوانية ، يبدو فيه جمال الصداقة ووفاء الأخوة ، ومقارضات الأدباء .

وما دمنا نوهنا بالتقاريظ ، فلننوه بالأهاجى . وقد رأينا فى الفصل الذى تحدثنا فيه عنها ، ما كان — مثلا — بين ابن الوردى والقاضى الرباحى المالكى ، وبين ابن عبد الظاهر ومن تنقصه ، وهكذا .

ويضيق المقام هنا إذا ذهبنا نستوفى الحديث عن العلاقات الشخصية وأثرها

فى أدب عصر المماليك شعره ونثره . وهى فى الواقع تحتاج إلى بحث مستقل واسع المدى . فحسبناها هنا ما سجلناه .

* * *

البيئة السياسية :

نوهنا بهذه البيئة عند الحديث عن البيئة الاجتماعية ، وألمعنا إلى انقسام الأمة إلى طبقتين متميزتين الحاكمة والمحكومة : الأولى تركية الجنس واللغة والعادات ، أو جركسيتها . والثانية مصرية الجنس أو عربيتها ، وعربية اللغة والعادات . ولكن تجمعهما جامعة الإسلام .

استأثرت الأولى بالمجد والسلطان والحكم والثروة والأمر والنهى والتعيين والعزل وإعلان الحرب وغير ذلك من مظاهر القوة . وتوارت الثانية وراء الحرمان والإقطاع — ومنهم « الفلاحون » عبيد المالكين — وأنت تحت الضرائب الفادحة .

وفى الخارج كان — فى الجملة — أعداء للبلاد ثلاثة هم : التتار والفرنجة ثم العثمانيون . هذا إلى العربان المنتشرين فى داخل البلاد وخارجها من ممتلكاتها ، وكثيراً ما كانوا يشقون عصا الطاعة آناً بعد آن ، ويثورون ويحدثون الفتن ويسببون لسلاطين مصر الهم والقلق .

لم يجد الحاكمون صعوبة تذكر فى إخضاع الشعب وحكمه ، ولم يفكروا فيه كثيراً ، إلا بأنه شعب طائع وهم سادته وكبراؤه ، يتصدقون عليه بحكمه وحمايته من أعدائه ، وبما ينشئون له من مساجد ودور تعليم ، وبما يقدمونه أحياناً من ضروب الإحسان . . .

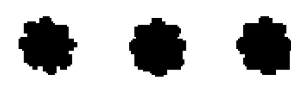
أما الأعداء الخارجون والعربان ، فقد شغل الحاكمون بمكافحتهم وقتالهم ورد عدوانهم عن مصر وعن ممتلكاتها . ولهم فى جهادهم صفحة بيضاء ناصعة يذكرها لهم التاريخ .

* * *

هذه هى عناصر البيئة السياسية داخلية وخارجية .

على أن مصر اكتسبت حينئذ منزلة سامية ممتازة بين الدول عامة والدول الإسلامية خاصة، فأرسلوا لها يخطبون ودها. وذلك بما كان لها من جيش عظيم كثير العدد والعدة، وبقيامها بمكافحة أعدائها وأعداء الإسلام مكافحة سجلت لها فى ميدان الفخر والمجد صفحات زاهية. وانضم إلى ذلك، العامل الثقافى، فتم لمصر بهما زعامة العالم الإسلامى فى ذلك العصر. وقد دعم لها هذه الزعامة إنشاء الخلافة العباسية الثانية بالقاهرة منذ عهد الظاهر بيبرس، فربحت بها – ولا ريب – ربحاً أدبياً، على الأقل، وأرسل بعض ملوك الهند يلتمسون من خليفتها إقرارهم فى سلطنتهم[1] وأرسل بعض المسلمين بالأندلس يستنجدون بملوكها، على أعدائهم من الفرنجة الممعنين فى إذلالهم[2].

تزعمت مصر إذن، فى عصر المماليك، دول الإسلام، وخلا لها فى ذلك الميدان. وكانت هناك دول تنازعها فى الزعامة من قبله، كدولة الخلافة ببغداد ودولة نور الدين بالشام مثلا. وكانت قد بلغت فى العصر الفاطمى مكانة مرموقة. غير أنها لم تبلغ فيه حد زعامة الأمم الإسلامية، هذه الزعامة التى قيضت لها فى عصر المماليك[3].



وقد شارك النثر الفنى بأكبر نصيب فى هذه الأوضاع، وقام بأداء دوره

---

(١) فى عام ٨٧٦ هـ أرسل ملك الهند غياث الدين رسولا إلى الخليفة المستنجد بالله يوسف يطلب منه تقليدا بولاية الهند — ابن إياس ج ٢ ص ١٣١ حوادث عام ٨٧٦ هـ.

(٢) استنجد بعض أمراء المسلمين الباقين فى بلاد الأندلس بالسلطان الغورى ليكف عنهم أذى الفرنجة هناك. فأرسل إلى ملوك الفرنجة يلفت نظرهم إلى ذلك ويهددهم بإساءة معاملة رعاياهم بمصر. — ابن إياس ج ٥.

(٣) يبدو أن سلاطين المماليك كانوا يعتقدون أنهم ملوك الإسلام والمسلمين. وقد ورد مايفيد ذلك فى كتاب ابن عربشاه فى تاريخ جقمق، على لسان هذا السلطان إذ قال: «إن الله حكمه فى رقاب الناس وولاه سلطنة الإسلام والمسلمين وجعله سلطانا على ملوك مشارق الأرض ومغاربها» ص ٧١.

وما يعزز ذلك ما ذكره الشهاب بن فضل الله فى كتابه «التعريف» يصف القاهرة، قال: «هى اليوم أم الممالك وحاضرة البلاد. وهى فى وقتنا دار الخلافة وكرسى الملك ومنبع العلماء ومحط الرحال. وتبعها كل شرق وغرب وبعد وقرب، خلا الهند فإنه نائى المكان بعيد المدى» ص ١٧٢.

كاملا ، فى هذا المضمار السياسى . بل ربما كان دوره فيه ألمع أدواره التى قام بها . وذلك لما كان لديوان الإنشاء من أهمية .

ولا نستطيع الجزم بأن استمرار ديوان الإنشاء وتعيين كتاب السر ، فى ذلك العصر ، كان خيرا للبلاد أو شرا عليها . ذلك لأن وظائفه السنية بهرت أنظار الأدباء والمنشئين ، فتنافسوا فيها وسعوا لبلوغها ، حتى يظفروا من ورائها بالجاه والسلطان والثروة الطائلة .

وقد نوهنا فى « باب الرسائل » بأهمية رؤساء الديوان وكتاب السر ، وبينا مقدار مابلغه كاتب السر لدى السلطان من منزلة . حيث كان بمثابة المستشار الخاص — أو وزير الخارجية فى عصرنا الحديث — لاستئثاره بتسلم المكاتبات السلطانية وعرضها على السلطان ثم توليه الرد عليها .

هذا الوضع جعل عددا من نابهى البلاد ونابغيها وذوى الرأى فى تدبير أمورها ، ينطوون تحت آباط السلاطين والأمراء ويمشون فى ركابهم ، بل ويتمسحون بهم . وحقا بلغ بعضهم من العزة والكرامة مبلغا عظيما كأبناء فضل الله العمرى . ولكن هذا لم يخرجهم فى الجملة عن أنهم كانوا خدما للسلطان فى دولته ، وتبعاً له فى صولته . إن شاء أبقاهم أو عزلهم . أو شاء أقرهم أو نقلهم . أو شاء قربهم أو أبعدهم ، أو شاء أشقاهم أو أسعدهم . لهذا كان تفكيرهم ورأيهم وحسن بيانهم رهنا بمشيئة السلطان وظروف الدولة .

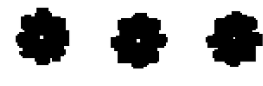
وقد نبغوا ونبغ معهم نثرهم الفنى فى هذه الناحية ، فكان صورة صادقة ومرآة ناطقة لكثير من مظاهر الدولة ، وسجلا حافلا لحوادث سياستها واتجاهاتها فى الداخل والخارج ، على وجه التقريب .

وكان منشئو الديوان رؤساء الأدباء فى البلاد ، وقدوتها — فى الجملة — ولهذا سار النثر الفنى الحر ، فى أذيال النثر الديوانى الرسمى — على وجه التقريب كذلك .

ورسائل الديوان على اختلاف أنواعها ، مما بسطناه فى « باب الرسائل » خير شاهد على ذلك وأفضل دليل . فقد وصف الكتاب فيها تنقلات السلطان

وحوادثه الهامة — وقد كانت هى حوادث الدولة — وكتبوا عنه بيعاته وتقاليده وتواقيعه ومراسيمه وأبدعوا فى وصف بشاراته وغزواته وتهديداته ومصالحاته وما إلى ذلك . وفيها رسم لسياسة الدولة فى الداخل والخارج — كما نوهنا — ويستغنى بها المؤرخ — ولو إلى حد — فى فهم هذه السياسة وفهم عناصرها .

وهذه خصوصية لا نجدها اليوم — أوقل أن نجدها — فى المكاتبات الديوانية فى عصرنا الحديث . وربما كان من أسباب ذلك ، قيام خطب الرؤساء ومنشوراتهم ، ومقالات الصحف ، بأداء هذه المهمة فاستغنت المكاتبات الديوانية اليوم بذلك عن القيام بمهمتها التقليدية ، وتخلت عن أدائها .



وفى « باب النقد» ولا سيما عند مناقشة ابن خلدون فى رأيه فى نثر معاصريه من المصريين ومن لف لفهم ، أسهبنا فى بيان العوامل البيئية المتعددة التى دعت الكتاب حينذاك إلى مخالفة قانون البلاغة الذى يرتئيه ابن خلدون، واصطناعهم الخيال الشعرى والمبالغات ، وما إلى ذلك فى أسلوب المكاتبات . لأن هذا هو المنهج التعبيرى الذى ترتئيه ظروف حياتهم وسياق عصرهم وملابسات معيشتهم.

وقصروا حقا فى الحديث عن الشعب ورأيه فى سياسة بلاده الداخلية والخارجية . ولكن لهم عذرا واضحا فى هذا التقصير ، وهو أن الشعب نفسه لم يكن له حينذاك رأى فى هذه السياسة غير رأى سلطانه وأمرائه وجيشه . يتضح لنا ذلك — على الأقل — من إقامة آيات الزينة ومعالم الأفراح عندما كان سلطانه يعود من حرب منتصراً ، ومن بلبلة خاطره وحزنه الشامل عند عودة سلطانه مهزوما . ويقع هذا وذاك فى كل مناسبة مماثلة . وهذه هى التبعية فى الرأى فى نظرنا — ولا ينبغى أن نعتبر ذلك « رأيا » إلا من باب حسن الظن والوطنية .

إن الشعب — ونعنى عامة الشعب — لم يكن قد نضجت فيه القومية وقوى فيه الوعى، نضج القومية وقوة الوعى فيه ، فى عصرنا الحديث ، وبخاصة جيلنا الذى يحلو

لنا دائما أن نقيس به وبمظاهره ، عصور مصر السالفة ومظاهرها . فالقومية والوعى مسائل اكتملت لهما عوامل النضج — أو كادت تكتمل — لما تيسر للشعوب عامة من ثقافة عالية ووسائل مواصلات وتحولات اقتصادية ونحوها.

وقد نبهنا إلى شيء من ذلك فى « باب الخطب والمناظرات » عند الكلام عن أسباب اختفاء الخطب السياسية .

* * *

وترى أثر البيئة ، كما بدا فى الموضوع ، باديا فى المعانى الجزئية وطرق التعبير عنها . انظر إلى هذه السطور ، وفيها تتمثل عزة الإسلام وقوة الدولة فى مخاطبة أعدائها من الفرنجة .

يقول محيي الدين بن عبد الظاهر ، فى رسالته التى كتبها عن الظاهر بيبرس إلى بيموند أحد أمراء الصليبيين بالشام — وقد هزمه بيبرس واحتاز منه طرابلس وأنطاكيه — يقول مخاطبا له واصفا :

« وأنت تنظر نظر المغشى عليه من الموت . وإذا سمعت صوتا قلت فزعا« على هذا الصوت» وكيف رحلنا رحيل من يعود . وأخرناك وما كان تأخيرك إلا لأجل معدود . وكيف فارقنا بلادك وما بقيت ماشية إلا وهى لدنيا ماشية. ولا جارية إلا وهى فى ملكنا جارية . » الخ

ويصف فتح أنطاكية وما عاناه جنود بيموند :

« فلو رأيت خيالتك وهم صرعى تحت أرجل الخيول . وديارك والنهابة فيها تصول . والكسابة فيها تجول . وأموالك وهى توزن بالقنطار . وداماتك[1] وكل أربع منهن تباع فتشترى من مالك بدينار . ولو رأيت كنائسك وصلبانها قد كسرت ونشرت . وصحفها من الأناجيل المزيفة قد نثرت . . » الخ[2] .

* * *

وكذلك ترى الدعوة إلى العدل والإحسان ، أو دعواها ، ماثلة فى كثير

---

(١) يبدو أن كلمة « دامات » جمع « دام » ، وهى اللفظ الفرنسى الذى عربيه « سيدة » وأمرأة « والمعنى » « نساؤك » .

(٢) راجع فصل الرسائل الملوكية فى باب الرسائل من هذا البحث .

من المبايعات والتقاليد . وهذه سطور من مبايعة الخليفة المستنصر بالله العباسى، للسلطان الظاهر بيبرس ، قال فيها يوصيه :

« فلاحظ أمور الأمة فقد أصبحت لها حاملا . وخلص نفسك من التبعات اليوم ، فى غد تكون مسئولا لا سائلا . ودع الاغترار بأمر الدنيا ، فما نال أحد منها طائلا . وما رآها أحد بعين الحق إلا رآها حائلا زائلا . والسعيد من قطع منها آماله الموصولة . وقدم لنفسه زاد التقوى ، فتقديمه غير التقوى مردودة لا مقبولة . وابسط يدك بالإحسان والعدل فقد أمر الله بالعدل والإحسان . وكرر ذكره فى مواضع من القرآن ... » الخ[1] .

ومن تقليد كتبه محيى الدين بن عبد الظاهر عن لسان الملك السعيد بن بيبرس : إلى بهاء الدين بن حنا يعهد إليه بالوزارة . قال يبين صفاته التى رشحته لهذا المنصب :

« سيد الوزراء والأصحاب فى العالمين . كهف العابدين . ملجأ الصالحين . شرف الأولياء المتقين . مدبر الدول . سداد الثغور . صلاح الملك . قدوة الملوك والسلاطين » الخ[2] .

ومن تقليد كتبه أيضا تقى الدين بن حجة — عن المؤيد شيخ — بتعيين جلال الدين البلقينى فى قضاء الشافعية . قال منوها بصفاته التى اختير من أجلها:

«علمنا أنه حجة للشافعى الذى منه الاستقصاء وإليه منتهى السؤال وما أبدر فى أفق درس إلا أزال ظلم الشك أنواره وأسفر بداره عن التتمة والإكمال . وهو أبو العلماء الذى ولد من الأم أفراحهم . وأبو المهمات الذى شهر من العدة الكاملة فى ميدان الفرسان سلاحهم . وإليه انتهت الغاية فإنه ما برح يأتينا فى وجيز تقريبه بالعجاب . ويغنينا عن موضح القشيرى فإنه يغذينا فى إبانته باللباب »[3] .

* * *

---

(١) راجع فصل المبايعات فى باب الرسائل .

(٢) راجع فصل التقاليد فى باب الرسائل .

(٣) راجع خزانة الأدب لابن حجة ص ٤٢٩ باب السجع .

على أن هذه الظاهرة بادية فى النصائح — بادية مثلا فى نصيحة ابن دقيق العيد لنائبه فى إخميم، بادية فى نصيحة النووى لبيبرس، بادية فى نصيحة السيوطى لملوك التكرور .

وهكذا نستطيع من الرسائل أن نفهم دعائم السياسة المصرية حينذاك فى الداخل والخارج ، وهى على وجه الإجمال : رعاية العدالة أو دعوى رعايتها — والعمل على نشر الدين واتخاذه أساساً للدولة واتباع أحكامه ، واختيار الأكفاء لمناصب الدولة ممن عرفوا بالإحسان والتقوى ، وبخاصة فى مناصب القضاء والوزارة ، والسهر على الرعية باعتبارها أمانة الله فى يد الحاكم ، والظهور بمظهر التقوى . ثم حماية الدين والمسلمين وبلادهما من أعدائهما فى الخارج ، وإظهار الدولة بمظهر من القوة والعظمة فيه إرهاب وإخافة لهؤلاء الأعداء .

وحسب النثر أن تتضح فيه هذه الظواهر .

* * *

البيئة الثقافية :

نعنى بالبيئة الثقافية الوسط التعليمى ، والظروف التهذيبية التى نشأ فيها الأدباء وتأثروا بها ، والنظم التى ساروا عليها وأخذوا بها فى دراساتهم ، ونوع الدروس التى تلقوها ، والتى ازدادوا بها علما ، وازدادت عقولهم بها نموا وتهذيباً ، والأساتذة الذين تلقوا عنهم والعلوم التى برع فيها هؤلاء الأساتذة ، وما يتصل بذلك من دور كتب ووسائل تشجيع للعلماء والطلاب على السواء .

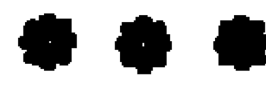
وهذه البيئة ذات أثر بالغ فى أدب الأدباء شعراً ونثراً . فإذا كانت البيئة الطبيعية أو الاجتماعية تزود الأديب بالغذاء الروحى والعاطفى ، فإن البيئة الثقافية تمده بالغذاء الفكرى . وخيال الأديب إنما يصرفه قائدان هما العاطفة والفكر . وكلما كان كل منهما على مقدار واسع من القوة والدقة والعمق ، قيضا للخيال مسرحا فسيحا يجول فى أرجائه ويطوف فى أنحائه . فتطفر إلى صفحته صور يبتكر فى إبداعها ما شاءت له قدرته وبراعته . ثم يتسلط الثلاثة على اللسان فيوحون إليه بألوان من الحكمة، وينفثون على أسلته ضروبا من البيان ، يترجمها جملا مطربة وعبارات معجبة .

والثقافة الواسعة الأفق تنتج أدباً واسع المدى. يبدو فيه العقل الحصيف والذوق اللطيف والنظر الثاقب والرأى الصائب، والذهن المتفتق المبتكر، والتصوير الدقيق.

غير أن الثقافة إذا أخذت بتلابيب الأديب،وتشبثت بتفكيره ،واستأثرت بعقله، استغرقت حواسه، وجعلته يتتبع الحقائق وحدها، يجمعها ويحللها، ويختبرها ويعللها. وبدا أدبه لذلك ذا قيمة خطيرة فى عالم الفكر، ولكن تزايله السماحة والظرف، والرقة واللطف، وتغيض عنه البشاشة أو تكاد

والبيئة الثقافية تزود اللسان باللغة وأدواتها، فتكسبه مقدرة على التعبير، وتوضح له ما خفى عليه وند عن خاطره من أسرار البيان. وهى أيضا تضع بين يديه حقائق الكون وحوادث التاريخ، فيجد فيها لأدبه مددا لا ينضب.

وكثيراً ما يدل الأدب، لا بما فيه من أفكار وآراء فحسب، بل بما فيه من معان جزئية وطرق تصويرية لما ارتسم فى خيال الأديب، على مقدار ما تعيه ذاكرته من هذه الحقائق والحوادث. حتى البديع وأنواعه — وهى ما بين زخارف معنوية ولفظية — ينطق بما لصاحب الأسلوب البديعى من فقه وعلم، ومن تلك الأنواع: الاقتباس والتضمين والتورية والتوجيه والتلميح.



وقد أشرنا فى مقدمة هذا البحث إلى شيء من أوصاف هذه البيئة ومظاهرها. ونحاول هنا أن نرسم صورة تقريبية تساعدنا على فهم هذه البيئة التى تلقى الأدباء فيها دروسهم وبها تخرجوا، فى عصر المماليك.

ولا حديث لنا عن ثقافة العنصر المملوكى،ذلك لأنها كانت ثقافة عسكرية، الغرض منها تنشئة الجنود وإعدادهم للحرب.فلم تكن ثقافة يتخرج بها الأدباء. وأما ما قيل من أن بعضهم كان يعرف العربية أو ينظم بها الشعر، أو يناظر العلماء فى فقه أو تاريخ مثلا، فتلك مسائل فردية لا يقاس عليها. فقد قيل مثلا: إن المؤيد شيخا المحمودى كان ينظم الشعر بالعربية، وإن الأشرف الغورى كان ينظم بها الشعر أيضاً ويناظر العلماء. وعرف بعض الأمراء بقرض الشعر أو التأليف — هذا والثقافة العسكرية لم يكن للشعب ولا لأدبائه صلة بها.

اما الثقافة التى تعنينا والتى نعرض لها هنا ، فهى ثقافة المساجد التى تخرج بها فقهاء الشعب وأدباء الأمة .

وقد كانت سياسة السلاطين والأمراء منصرفة إلى إنشاء المساجد واتخاذها معابد يتعبد فيها الناس لربهم ، ودوراً للتعليم يتلقى فيها الطلاب دروس العلم .

ولا ضرورة هنا إلى البحث فى الدوافع الحقيقية إلى اتباع هذه السياسة . فقد تكون إحدى الدعائم التى أرادوا بها تعزيز سلطتهم فى داخل البلاد وخداع الشعب من هذه الناحية الدينية ليتم لهم خضوعه . وقد تكون صادرة عن إيمان حق وإخلاص لله دعاهم إلى أن يعمروا مساجده . وقد تكون إحدى وسائلهم إلى استمرار انتفاع ذراريهم بما تدره عليهم أوقاف مساجدهم من أموال . وقد يكون غير هذا وذاك مما تكلم فيه كثير من المؤرخين وعللوه .

على أن هذه السياسة قد انتهجها من قبلهم ملوك الدولة الأيوبية ، إذ شيدوا بالقاهرة عدة من المساجد اتخذوها دوراً للتعليم .

وقد أوقف المماليك أوقافا واسعة على المساجد التى أنشئوها ، لينفق عليها من ريعها . وخصصوا فى أحيان كثيرة معاونات للطلاب المقيمين بها المنقطعين لطلب العلم . وعنوا عناية تامة باختيار الشيوخ الذين يتولون التدريس بها . وكادوا يجعلون فى كل مسجد مكتبة ملأى بنفائس كتب العلم والأدب .

وقرروا أنواع الدروس التى تلقى بها. وإذا تصفحنا أخبار هذه المدارس — وكانت تعد بالعشرات وكان بالقاهرة منها عدد كبير — وجدنا أن دروس الدين كانت الدروس المقدمة المفضلة على غيرها كالفقه على اختلاف مذاهبه،وخاصة فقه الشافعية فالحنفية ، والحديث والأصول والكلام ، ويأتى بعدها فى الأهمية علوم اللغة ، ثم المعقولات كالمنطق والهيئة والفلك ونحوها .

وبهذه المناسبة نذكر أيضاً أن مراحل التعلم حينذاك كانت ثلاثا : الأولى : يعلم الطفل فيها فى المكتب الخط والإملاء وشيئاً من الحساب ، ويحفظ القرآن الكريم . والثانية : يأخذ الشاب فيها نفسه بحفظ كثير من الكتب والفنون

المختلفة ، وهنا تبدو همة الطالب وذكاؤه ومبلغ شغفه بالعلم ، ويستطيع الطالب أن يتقدم كلما حفظ كتابا أو متنا ، إلى أحد الشيوخ ليعرضه عليه ، فإذا اطمأن الشيخ إلى حفظه كتب له « إجازة عراضة » يشهد له فيها أنه سمع منه الكتاب أو المتن . والثالثة : هي مرحلة التعليم الحقيق أو الدراسة العالية بلغة عصرنا ، وينتفع الطالب فيها بذخيرته المحفوظة فى المرحلة الثانية . وفيها يلازم الطالب شيخاً أو أكثر يطوف عليهم ويختارهم بمحض رغبته وبعد اختباره . ويظل يتلقى العلم عنهم حتى يجيزوه أو يجيزه أحدهم بالفتوى أو التدريس ، ومن ثم يصبح أهلا لتولى وظائف الدولة ، وهذان النوعان من الإجازات قد نوهنا بهما فى « باب الرسائل » .

* * *

هذا المنهج التعليمي تغلب عليه الروح الدينية . وقد كان استجابة لاتجاه العصر ومنطقه الذى هو — فى الواقع — امتداداً لما كان منه فى العصر الأيوبي . ذلك لأن الأيوبيين كانوا سنيين متعصبين لمذهب الشافعي فى الفقه ، ولمذهب الأشعرى فى العقيدة — كما نوهنا من قبل — وحكموا البلاد بعد أن عاش فيها المذهب الشيعي أكثر من قرنين ، غريباً أو كالغريب . ويعتبر تعصب هؤلاء رد فعل لوجود هذا المذهب الذى أريدت البلاد عليه .

فشت الروح الدينية إذن وبلونها هذا ، وزادت نشاطاً وانتعاشاً بتفاقم الحروب الصليبية وبما قام به أمراء المسلمين خلالها من بطولة .

ولما بدأ عصر المماليك ورث هذا كله . فضلا عن أمور ثلاثة عاونت على استمرار هذه الروح وعلى اتصال نشاطها . هذه العوامل هي : استمرار الحروب الصليبية ، وانقضاء دولة الخلافة البغدادية على يد التتار أعداء الدين حينذاك ، وإنشاء الخلافة العباسية الثانية فى القاهرة . وقد خشيت مصر حينذاك سطو التتار عليها وعلى ممتلكاتها فكان ذلك حافزاً لها للعمل على رد العدوان .

من هذه الروح الدينية استوحى السلاطين والأمراء أنواع المواد الدراسية ، لأنهم كانوا هم الذين يقررونها . والنتيجة الطبيعية لهذا اللون الثقافى اصطباغ المتعلمين بالصبغة الدينية ونزوعهم إلى الناحية الدينية فى تفكيرهم وإنتاجهم .

وقد لمعت فى هذا العصر أسماء كثيرين من أعلام الدين والفقه والكلاميات ، وقد نوهنا بعدد منهم فى مناسبات مختلفة . وازدهرت مؤلفاتهم الدينية أيما ازدهار ، وبدت عليها روح التجديد لا التقليد ، كما يرميها البعض بذلك ظلما . وكنا نود لو انفسح مجال بحثنا هذا واتسع صدره لبيان ذلك . ولعلنا نجد مناسبة أخرى للكتابة المستقلة فى هذا الموضوع .

على أننا شهدنا بعض آثار هؤلاء العلماء الفضلاء وجهادهم فى سبيل الدين والحق والعدالة . وقد شهدنا ذلك مما سجلناه لهم من رسائل ومقالات ونحوها ، فى « باب المناظرات والخطب والنصائح » .

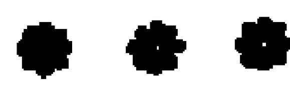
ومن هؤلاء العلماء من جنح نحو الأدب فاغترف من بحره وجمع من دره وجال فى ميدانه وخطر فى بستانه ، فنظم ونثر ، وكتب وسطر ، وأبدع واخترع .

ومن هنا سلك بعضهم سبيله إلى ديوان الإنشاء فلمع نجمه وأزهر قلمه ، وكتب الرسائل الحاذقة فى مختلف شئون الدولة . ولم تزايله الصبغة الدينية فيما يكتب . انظر إلى مفتتحات الرسائل وما فى الديباجة من الحمد لله والثناء عليه ودعائه والصلاة على نبيه ، حتى السطور الوسطى فى هذه الرسائل قلما تخلو من ذكر الله سبحانه وتعالى وذكر نعمه وآلائه ، واستزادته منها وشكره عليها ، واستمداد القوة منه والمعونة ، إلى آخر ما يتصل بهذه المعانى .

هذه المسالك نفسها تراها ماثلة لا فى المكاتبات الديوانية وحدها ، بل أيضاً فى غيرها من المكاتبات والمقالات حتى خطب الكتب ، ترى المنهج نفسه فيها . لم يكن ذلك أمراً مدّعىً ولا نهجاً متكلفا ، وإنما هو فطرة العصر ونتيجة ثقافته .

وكنت أود فى هذا المجال أن أقارن فى إيجاز بين ما كان متبعاً من ذلك النهج فى ذلك العصر الغابر ، وما هو متبع اليوم بين أكثر الكتاب والمنشئين فى الرسائل والمقالات وخطب الكتب ونحوها ، ممن يعدون الافتتاح بالحمد لله والصلاة على النبى عليه الصلاة والسلام نهجا « قديما » تنفر روح العصر الحديث منه .. هذا النهج القديم الذى لم يعدله من أثر تقريبا إلا فى الخطب المنبرية وبعض كتب أفاضل المؤلفين . أقول كنت أود أن أعقد هذه المقارنة ، لولا أن المجال لا يتسع لها .

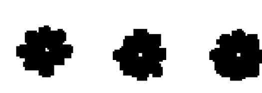
هذا . وهناك عامل ثقافى له أهميته حينما نتحدث عن النثر الفنى وأثر الثقافة فيه . ذلك العامل هو منهج القاضى الفاضل . وقد كان أكثر كتاب عصر المماليك يعشقونه عشقا ويمجدونه تمجيداً . ترى ذلك مثلا ، فى خزانة ابن حجة ، فما ينساق فى حديثه ، إلى ذكر القاضى الفاضل حتى يسبغ عليه ثوب الحمد ضافيا ، ويعلى من قدره ويشيد بذكره . وقد كان هذا المنهج ذا أثر بالغ فى مناهج الأدباء حينذاك . ولن نفيض فى هذا الموضوع الآن ، فله موضعه من فصل « البديع » الآتى عما قريب .



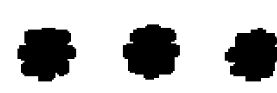
وهناك عامل آخر له أثره ، ولا ريب ، ذلك هو الفنون العملية المنتشرة حينذاك ونخص بالذكر هنا فن هندسة البناء . ذلك لأن الحكام أولعوا — كما رأينا — ببناء المساجد والقصور والقاعات والسبل والقلاع والحصون والقناطر ، وما إلى ذلك . وعنوا عناية كبرى بنقش مبانيهم الهامة وزخرفتها وطلائها وتزويدها بالقطع الخشبية أو الزجاجية أو الحجرية أو الخزفية الفنية الصناعية ، الملونة البديعة الألوان ، الزاهية الأصباغ . ولوحظ ميلهم إلى ضخامة البناء وسعة حجمه وأفنيته ، هذا فضلا عن العناية بإنشاء البساتين وغرس الأشجار وجلب أصناف الفاكهة لزرع أعوادها فى الأرض المصرية .

وتقرأ أنباء هذه المساجد والقصور والبساتين وكثير من المنشآت فى تاريخ بيبرس وقايتباى والغورى مثلا .

وهذه الفنون التى يتجلى فيها ذوق العصر ويترجم عن ميله ، كانت ماثلة أمام أنظار الأدباء ، فلا غرابة أن يكون لها أثر فى نفوسهم ودوى فى وجدانهم ، ينضح بهما أدبهم . ومن هنا زاد ميلهم إلى المبالغات والتهاويل والطنطنة فى الأسلوب ، والإقبال على صبغه بأصباغ البديع .



وبعد ، فهذه دراسات وجيزة لأنواع البيئات المصرية الهامة ، ومبلغ استجابة النثر الفنى لها ، ونعتقد أننا بها خطونا خطوة فى هذا الميدان .



ملحوظة :

قد شاهدنا أن البيئة — على تنوعها — كان لها أثر كبير فى إقليمية النثر ، إلا أن هذه « الإقليمية » برزت فى « الموضوع » أوضح مما برزت فى الأسلوب وطريقة التعبير . ويبدو أن الأسلوب وطريقة التعبير أكثر من « الموضوع » ارتباطاً بدراسة الأدب القديم وتلق أساليب الفصحى الموروثة . لهذا أبطأت إقليميتها . على أننا سنسجل فى مناسبة قريبة جملة من النصوص تبدو فيها هذه الإقليمية الأسلوبية .

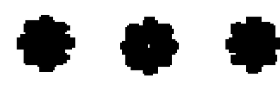
وعند حديثنا عن البيئة ومبلغ استجابة النثر الفنى لها ، نظرنا فى ذلك إلى مجموع النثر باعتباره نتاج العصر . فلم ننظر إلى نتاج كل منشىء على حدة . على أننا لم نهمل الإشارة إلى الفوارق الواضحة بين أسلوب أديب وأسلوب آخر ، وأرجعنا ذلك إلى المزاج الشخصى ، الذى — لاريب — أنه متأثر بضرب من ضروب البيئة .

الفصل الثاني

٢ - شيوع الوصف

أفردنا من أبواب هذا البحث بابا هو « باب الوصف » . وقد أفردناه باعتبار «الموضوع» . إذ رأينا طائفة ضخمة من الرسائل والمقالات والموازنات، موضوعها وصف شيء ما مما تحتويه بيئة الأدباء، وذلك مثل أداة أو منظر أو جماد أو حيوان أو طير، أو غزوة أو صيد أو رحلة، أو وصف النيل أو علم من العلوم، كالتاريخ والفقه، إلى غير ذلك.

فالغاية من هذه الرسائل والمقالات وصف شيء ما وبيان نعوته . وعللنا عناية الناثرين واهتمامهم بوصف هذه الأشياء التي تحف بهم وتتصل بحياتهم، بعمق شعورهم بها، وصدق إحساسهم بأهميتها في محيط حياتهم. ثم بامتزاجهم بها حتى صار لها في نفوسهم منزلة الصاحب والخليل، ومكانة الجزء الذي لا ينفصل من الحياة. ولهذا خلعوا عليها شتى الأحاسيس، وتحدثوا عنها أو ساجلوها أو أنطقوها بما ينم عن مشاعرهم. وما ذلك إلا لأنها أجزاء بيئتهم التي نشئوا فيها وتأثروا بها، ونمت مشاعرهم تلك في أحضانها، فطبعتهم بطابعها، وصقلتهم بصقالها، وكانت بعض مصادر إلهامهم. فلا غرابة أن تغنوا بها وأشادوا بمآثرها، وسجلوا أوصافها وخلدوا ذكرها لتبدو بين ثنايا التاريخ سافرة المعالم ظاهرة الأوضاح. وتاريخها جزء من تاريخهم لا ينفصل.



ولكن الذي نريد أن نسجله هنا في هذا الفصل، وننبه عليه، هو نزعة الوصف الذائعة بين سطور النثر الفني، على الرغم من تباين أبوابه واختلاف موضوعاته. هذه النزعة فاشية — على وجه التقريب — في سطور هذا النثر. فرسائل الديوان سواء منها ما كان مبايعة أو تقليداً أو توقيعا أو بشارة أو غيرها،

مبنية على الوصف، أو الوصف — على الأقل — فى مقدمة عناصرها. والرسائل الإخوانية، سواء منها ما كان فى المدح أو الشكر أو الشوق أو الشكوى أو العتاب أو غيره، مبنية على الوصف، وكذلك رسائل الاستدعاء بل الاستجازات والأجازات كلها أوصاف. وكذلك ترى هذه النزعة بادية بارزة فى الحكايات والقصص والمقامات، بل فى الخطب المنبرية والنصائح والعظات. بل إن كتب التاريخ والسير والخطوط والآثار مبنية على الوصف معتمدة إلى حد كبير عليه. هذا، إلى ما شهدناه فى باب الوصف، فكله فى هذا المعنى سائغ طريف.

وفشو النزعة الواصفة فى ألوان النثر يدل فيما يدل عليه، على أصالة النزعة الأدبية فى نفوس المنشئين.

ونقتبس عدة شواهد من أبواب مختلفة، لنرى فيها مبلغ عنايتهم بالوصف. الوصف الذى يتناول المعانى الجزئية لا الموضوعات العامة فحسب.

فمن رسالة هولاكو إلى المظفر قطز، يصف عُدده وعَدده، وينذر ويتوعد، قوله:

« فخيولنا سوابق. وسهامنا خوارق. وسيوفنا صواعق. وقلوبنا كالجبال. وعددنا كالرمال. فالحصون لدينا لا تمنع. والعساكر لقتالنا لا تنفع. ودعاؤكم علينا لا يسمع. فإنكم أكلتم الحرام. ولا تعفون عند كلام. وخنتم العهود والأيمان. وفشا فيكم العقوق والعصيان. » الخ[1]

ومن مبايعة السلطان المنصور أبى بكر بن محمد بن قلاوون للخليفة المستكفى بالله العباسى، قول الكاتب يصفه:

« إنه الحائز لما زرت عليه جيوب المشارق والمغارب. والفائز بملك ما بين المشارق والمغارب. الراعى فى صفيح السماء هذه الدرة المنيفة. الراقى بعد الأئمة الماضين ونعم الخليفة. المجتمع فيه شروط الإمامة. المتضع لله وهو ابن بيت لا يزال الملك فيهم إلى يوم القيامة. الذى يفضح السحاب نائله. والذى لا يغره عاذره ولا يغيره عاذله. » الخ[2]

(١) عن سلوك المقريزى ج ١ ص ٤٢٧.
(٢) عن حسن المحاضرة ج ٢ ص ٥٩.

ومن تقليد كتبه ابن حجة الحموى عن السلطان المؤيد ، بصحبة دواوين الإنشاء الشريف ، لكمال الدين بن البارزى بعد موت أبيه. قال يمدحه ويصفه:

« الكتابة دون كماله ومحاسنه تجل أن تقابل بمثال . وإن كان الكمال زها بحاشيته فحاشيتنا زهت بهذا الكمال . وكان والده عقدا فرط فيه الزمان ولكن استدرك فارطه . وقد نظمناه فى عقد سلكنا الشريف إلى أن صار به نعم الواسطة . وامتدت ألسن الأقلام إلى ثغور المحابر فقبلتها . وانشرحت صدور الأوراق وعلق فيها عنابر سطور فحملتها . وقالت حمر أقلامه أهلا بالعربيات التى ليس لها إلا الأيدى الجهينية غرر ، ومرحبا بعد النوبة بقهوة الإنشاء فإن شباب الزمان قد عاد ، وزهر المنثور قد زهر » الخ[1] .

ومن بشارة بوفاء النيل كتبها صلاح الدين الصفدى ، قال

« والنيل له الآيات الكبر — وفيه العجائب والعبر . منها وجود الوفا عند عدم الصفا . وبلوغ الهرم . إذا احتد واضطرم . وأمن كل فريق إذا قطع الطريق . وفرح قطان الأوطان . إذا كسر ، وهو — كما يقال — سلطان . وهو أكرم وأعذب مجتنى وأعظم مجتدى . . » الخ[2] .

وكتب برهان الدين القيراطى يمدح ابن نباتة ويثنى عليه ويصف بلاغته فقال من رسالة :

« فتبارك الذى جعل فى سماء دوحته لشمس بلاغته بروجا . وأعلى همه التى لا ترضى الشهب جيادا والأهلة سروجا . حتى أقام يراع قلمه لسوق الأدب قصبة . وشاد من قصائده كل بيت إذا مر الحاسد ببابه قبل العتبة . وسارت كالسبعة السيارة مصنفاته . وعلت من قصره المشيد بسينات سطوره شرفاته » الخ[3] .

ومن رسالة ابن نباتة المصرى التى كتبها إلى الشهاب محمود الحلبى يشكره فيها على أن رد غيبته ، قال يصف له أشواقه إليه :

---

(١) خزانة الأدب لابن حجة ص ٤٢٥ فى سياق باب السجع .

(٢) عن حسن المحاضرة ج ٢ ص ٢١٧ ، ٢١٨ .

(٣) خزانة الأدب باب الاقتباس ص ٤٤٨ .

« العبد يخدم بسلام . ماروضة نقطها الجو بدر سحائبه . وأفرغ عليها الأفق سفط كواكبه . وامتد نوء[1] الذراع لتدبيج سمائها . وتأريج أرجائها . وتخميش معاصم أنهارها المنشقة بأفنائها . وصقال نسماتها السحرية . ومغازلة عيونها السحرية . وهو أن الغالية بنفحاتها الشجرية . تصرف دنانير أزهارها الصروف . ويسل جدولها على الهموم السيوف . وتجذب القلوب بالأطواق . ويتشفع دوحها إلى النواظر بالأوراق . قد ترقرق فى وجناتها ماء الشباب . وغنى مطرب حمامها وعنتره فى حك من الذباب . وبحرها رونق السيف وفى قلب روضته الذباب .

فما كل أرض مثل أرض هى الحمى وما كل نبت مثل نبت هو البان

يوما بأبهج منه أشواقا . . وأطيب منه انتشاقا واتساقا . » الخ[2] .

وكتب الشهاب محمود الحلبي رسالة إلى مقدم سرية كشف . فقال فى مطلعها يدعو له . وهو دعاء ملؤه الوصف قال :

« لا زال أخف فى مقاصده من وطأة ضيف . وأخفى فى مطالبه من زورة طيف . وأسرع فى تنقله من سحابة صيف . وأروع للعدى فى تطلعه من سلة سيف . حتى يتعجب عدو الدين فى الاطلاع على عوراته من أين دهى وكيف » . الخ[3] .

ومن مقامة الشاب الظريف يصف محبوبه :

« وجه كالبدر فى سناه وسنه . وعطف لا يشفع العطف عنده إلا بأذنه . ومبسم كالبرق ضياء ولمعا . وأعين يخيل من سحرها أنها تسعى . قد نادت محاسن وجهه بكل من هام بحبها : لنأتينكم بجنود لا قبل لكم بها . » . الخ[4]

(١) قال فى مختار الصحاح : النوء سقوط نجم من المنازل فى المغرب مع الفجر ، وطلوع رقيبه من المشرق يقابله من ساعته ... الخ وقال : وكانت العرب تضيف الأمطار والرياح والحر والبرد إلى الساقط منها ، وقيل إلى الطالع منها . — هذا ويبدو أن قوله « نوء الذراع » يعنى نجمه الممطر على سبيل التشبيه .

(٢) صبح الأعشى ج ١٤ ص ٢٤٢ .

(٣) حسن التوسل ص ١٣٣ .

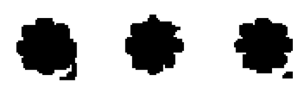
(٤) من مقامة للشاب الظريف بدار الكتب .

ومن مقامة الصفدى « دمعة الباكى ولوعة الشاكى » يصف الروضة وطيرها وزهرها قال :

« ولم يزل الطير يسعى بين النهر والغصن فى الاتفاق . ويكرر ألحانه ويراسل فى الأوراق . ويجتهد فى الصلح ويدعو إليه . ويحرص على الوفاء ويحرض عليه . وقام الشحرور بينهما واعظاً وخطيبا . فأجدت مواعظه ، وكان قلب النهر صافياً وقريبا . وقام النسرين من السرور على ساق . وجذب كل صدوح للغناء بالأطواق . وتبسمت من الأقحوان الثغور . وتنسمت نفحات المسك والكافور الخ[1] » .

ومن طيف الخيال لابن دانيال الموصلى ، ماجاء على لسان «حويش الحاوى» يصف ما معه من الأفاعى ، قال :

« إن فى هذه السلال . سُلال الآجال . وهلاك النساء والرجال . وهذا الناشر . بل الأسد الكاشر . الهجام الحجام . بلية مصر والشام . وهو الصل . والموت المطال » . الخ[2] .



هذه أمثلة متعددة للوصف من مواطن مختلفة يتبين منها مقدار اعتماد الإنشاء فى عصر المماليك على النزعة الواصفة . وقد اعتمد الوصف على جملة دعائم فنية أساسية نذكر منها :

الخيال الشعرى :

نقصد بالخيال إحدى القوى الذهنية التى عملها الانتفاع بالحقائق والمعلومات المختزنة فى خزانة الذهن لتوليد الجديد من الصور ، وتكوين المبتكر من الأشكال ، التى تصب فيها التصورات التى يسرح إليها الخيال أو تطفر على صفحته ، والتى ترتب فيها الحقائق ترتيباً جديداً لا عهد للذهن به من قبل .

---

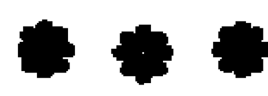
(١) راجع دمعة الباكى : للصفدى مطبوع .
(٢) راجع طيف الخيال «منه مطبوع» ومنه مخطوط بالمكتبة التيمورية .

ويقوم الخيال بعمله تحت تأثير الانفعالات العاطفية والسمو الفكرى .

والخيال الشعرى هو الذى يبرز صوره المولدة ، وأشكاله المبتكرة فى أثواب من الألفاظ جميلة خلابة لامعة ، وقوالب من التراكيب جذابة رائعة ، فيها للقارئين متعة ، ولها فى قلوبهم أثر ، وفى نفوسهم هزة وطرب .

هذا الخيال المبتكر المجدد ، هو الذى يكشف الخفى ، ويوضح الغامض ، ويفخم الضئيل . وهو الذى يضفى على الأدب جدة ، وينشر فيه روحا ، ويربط القارىء بالحياة ، ويصل ما بين نفسه ونفس الأديب . وهو الذى يخلق من الحياة العادية الهادئة ضروباً من الحياة متحركة صاخبة مدوية مليئة ، فيها قصص وروايات ، ووقائع وحوادث ، ومواقف تحدث الوجدان وتثير العاطفة ، وتنطق الجماد والحيوان ، وتنسب إليهما من صفات الإنسان ما هو مقصور عليه ، ومن ألوان المعانى والأفكار ما هو خاص به .

« وللخيال شأن فى تحويل المدركات ، فهو يخرج من الصامت صوراً تفيض بالحياة ، ويحول المحسوس إلى معنى ، والجماد إلى مدرك وجدانى ، تهتز له النفس ، فترى المحسوس المجسم وقد تحول إلى فكرة متموجة قائمة ، تنعم بجمالها الفنى وقوتها المعنوية[1] » .



وقد امتلأت سطور النثر الفنى فى عصر المماليك بهذا الخيال الشعرى : فكان للوصف أهم دعامة وأفضل وسيلة . وقد اتضح هذا الخيال مثلا فى المقامات . وهو وإن اعتمد فيها على شىء من الواقع كوصف مدينة أو منظر أو حادث ، لم يبق متعلقاً بهذا الواقع إلا ريثما سرح بين جوه الإبداعى ليأتى بكل ممتع ، ويصور كل مطرب معجب .

يقول ابن الوردى فى مقامته : « صفو الرحيق فى وصف الحريق » يصف سوق الكفت خلال حريق دمشق :

---

(١) عن « الأصول الفنية للأدب » تأليف الأستاذ عبد الحميد حسن . ص ٩٨ فى سياق فصل « الخيال » .

« ما كفت النار عنه لسانا . ولا ثنت عنه سوابقها عنانا ، ونعوذ بالله من نار علكت عليهم اللجم . وسبكت مهجته حتى أفصح التأسف له الألسن العجم » .

فترى الكاتب قد سبح بخياله فى وديان الخيل ، فربط بينها وبين وادى النار بروابط متلائمة متوافقة . فأصبح للنار ألسنة وسوابق ولجم وأعنة .

ويقول الصلاح الصفدى فى مقامته « رشف الرحيق فى وصف الحريق » :

« انظر إلى شبح الجو كيف انتشرت فيه عقائق اللهب اللامع ، فبادرت إلى صحته ، والناس فيه قطعة لحم . والقلوب ذائبة بتلك النار كما يذوب الشحم . ورأيت الناس وقد نشرت فى حداد الظلام معصفرات ذوائبها . وصعدت إلى السماء عذبات ذوائبها » .

فترى الكاتب قد جمع بين اللهب والعقائق لصلة اللون . ولمناسبة النار وضع قطع اللحم فى الصحون ، وقرب بين الشحم والقلوب .

على أن هذا الخيال ، وإن تعلق بأذيال الواقع فى بعض المقامات ، واتخذ منها سلما للعروج إلى سماء فيها طلاقة وحرية ، قد تخلص من هذا القيد فى بعض المقامات الأخرى .

وهذا هو الشاب الظريف وهو يحكى فى مقامته قصته مع محبوبه فيقول واصفاً روضتهما وما فيها من جداول وغدران وأزهار وأغصان :

« فمن جدول يميل كالأيم . شطآه بالزهر كقزح فى الغيم . فهو من صور الحباب كالحباب . ومن طرب الاضطراب فى عباب . تصفق غدرانها . وترقص أغصانها . وتفخر أزهارها . ويشدو هزارها » .

وترى فى هذه العبارات ألوانا من الأخيلة . وقد جمع فى العبارات الأخيرة جمع حافل متلائم الأجزاء ، فتكون منها ناد زاهر فيه سمر وطرب وصفق ورقص وشدو .

وكذلك كان الصلاح الصفدى فى مقامته « دمعة الباكى ولوعة الشاكى » فقال :

« ولم يزل الطير يسعى بين النهر والغصن فى الاتفاق . ويكرر ألحانه ويراسل فى الأوراق . ويجتهد فى الصلح ويدعو إليه . ويحرص على الوفاء ويحرص عليه . وقام الشحرور بينهما واعظا وخطيبا » .

فقد طفر خيال الكاتب من روضته التى يصفها ، إلى مجلس متباعدين متحابين هما « النهر والغصن » . وصور بينهما هجراً وصداً وحباً وودا ، ومراسلة ومكاتبة ، ومصالحة ومعاتبة . والفضل فى ذلك يرجع إلى سعاة الخير من الطير .

ولعل إنسانا يتوهم أن الكاتبين تعلقا بالواقع . وهنا نشير له إلى مقامات الجلال السيوطى ، فقد بدا فيها الخيال الاختراعى حراً طليقا . فقد عقد — مثلا — فى مقامته « الوردية » مناقشة عنيفة وجدلا حاداً بين ألوان الرياحين ، ومنها : الورد والنرجس والياسمين والبان والنسرين . . إلخ . والمناقشات بين الرياحين لا تقوم إلا فى عالم الخيال .. ؟؟

يقول النرجس للورد الذى فخر بنفسه :

« لقد تجاوزت الحد يا ورد ، وزعمت أنك جمع فى فرد » .

ثم يقول واصفاً نفسه :

« ولكن أنا القائم لله فى الدياجى على ساق . الساهر طول الليل فى عبادة ربى فلا تطرف أحداقى . وأنا مع ذلك المعد للحروب . المدعو عند تزاحم الكروب . ألا ترى وسطى لا يزال مشدوداً . وسيفى لا يزال مجروداً . وفى العبارات الأولى وثبة خيالية جردت من بيئة النرجس صومعة عبادة ورباط ذكر وزهادة .

وعلى هذا النمط من الخيال توثب قلم السيوطى فى مقاماته الكثيرة . التى عقد فيها الموازنات والمساجلات الطريفة بين شتى النباتات والازاهير والمعادن ، ومنها مقامته « المسكية » و « التفاحية » و « الزمردية » الخ .

ولعل هذا الخيال كان أطلق سراحا وأكثر رواحا فى ميدان الابتداع فيما

قرأناه فى تمثيلية ابن دانيال وهى « طيف الخيال » فماهى إلا سرحة بال وتلفيقة خيال . فقد اتسق فيها جمع من بنى الإنسان والحيوان ، لكل من أفراده حيل وضروب مكر ، فى ترقيق القلوب واستدرار الجيوب . . .

* * *

لم تكن القصة أو المقامة وحدها ، ميدان الخيال ومراحه . بل كانت الرسائل ، حتى الديوانية منها مسرحا له وملهى يجول بين سطورها ويصول .

وقد حمل ابن خلدون حملته الشعواء ، على كتاب الدواوين الإنشائية فى عصره لمزجهم المكاتبات بالخيال الشعرى . وعد ذلك إبعادا لإنشائهم عن إصابة البلاغة وبلوغ أهدافها . وقد عرضنا لهذا الرأى فى باب النقد .

والذى يهمنا هنا اعتراف ابن خلدون بوجود هذا الخيال الشعرى فى جو الرسائل . وما لجأ إليه الكتاب فيها إلا لأنها فى نظرهم كان لها هدف أدبى بجوار هدفها الرسمى . فانها مكاتبات قصد منها التأثير ، بجانب التبليغ وإيصال المعلومات أو تسجيل الحقائق . والتأثير له أدوات فى مقدمها الخيال الشعرى . ولوجوده فى المكاتبات الديوانية ونحوها ، بقى لها لونها الأدبى وصبغتها الأدبية . وبقيت فيها هذه الروحية التى تنم عن الحياة ، كما ينم الورق والزهر ؛ بل الماء فى عروق الأفنان ، على حياتها .

ومن الأساليب الشعرية والأخيلة الشعرية فى المراسلات ما يأتى :

من رسالة للشهاب الحلبي إلى مقدم سرية كشف ، يصف طليعتها قال :

« بطليعة أعجل من السيل . وأهول من الليل . وأيمن من نواصى الخيل . وأقدم من النمر . وأوقع على المقاصد من الغيث المنهمر . وأروع فى مخاتلة العدى من الذئب الحذر » .

ومنها يصف الخيل :

« على خيل تجرى ما وجدت فلاة . وتطيع راكبها مهما أراد منها سرعة

أو أناة . تتسنم الجبال الصم كالوعل . وإذا جارتها البروق عدت وراءها ، تمشى كما يمشي الوجى الوجل » .

ومنها يرسم له خطة السير :

« وليكن كالنجم فى سراه . وبعد ذراه . إن جرى فكسهم . وإن خطر فكوهم . وإن طلب فكالليل الذى هو مدرك . وإن طلب فكالجنة التى لايجد ريحها مشرك » .

وقد جمع خيال الكاتب فى هذه السطور بين شتى الصور معتمداً على المحسوس والمعنوى . ملائماً بين كل اثنين ملاءمة دقيقة ، طوراً على سبيل التفضيل وآنا على طريق التشبيه معتمداً على الاقتباس أو غيره .

ومن تقليد بالسلطنة للمنصور قلاوون على لسان الخليفة — وكتبه ابن عبد الظاهر — قال يوصيه برعاية العدل :

« والعدل فهو الغرس المثمر . والسحاب الممطر . والروض المزهر » .

وقال يوصيه بالحصون والثغور :

« والحصون والثغور . فهى ذخائر الشدة . وخزائن العديد والعدة . ومقاعد القتال . وكنائن الرجا والرجال » .



والخيال الشعرى ذائع فى الإخوانيات يكسبها حياة إلى حياتها . وينشر ألوية الفن فى طياتها .

ومما قاله القلقشندى فى رسالته التى كتبها للمقر الفتحى أبى المعالى فتح الله صاحب دواوين الإنشاء يمدحه ، هذه الفقرات :

« فرأيه السيف لاما صنع الهند . وعقله الصارم لاما استودع الغمد » .

« أقلامه تزرى بالصوارم وتهزأ بالأسل . وتجرى بصلة الأرزاق فتزيد على الأمانى وتربو على الأمل » .

« فمكارمه تغنى عن الإملاق . وبواكره بالإسعاد تبادر الغدو والإشراق . وعطاياه تسير سير السحاب فتمطر الغيث على الآفاق » .

وفى إزراء الأقلام وهزئها خيال ، وإسناد للصفات الإنسانية إلى مالا يعقل .

ووصف ابن الوردى صقرين أهداهما إليه أحد أصدقائه ، فقال من رسالة إليه :

« فوقع الصقران من المملوك بموقع يفوق النسر . وتأمل نحوهما فإذاهما منصوبان لبناء ما ارتفع وانخفض من الصيد على الكسر » .

وقوله بموقع يفوق النسر ، يتضمن التشبيه والتفضيل بين النسر والصقرين ، وفيه مزج بين الحسى والمكانة المعنوية اللذين وقعا فيها . وهذا مستفاد من كلمة « يفوق » فاحتملت المعنيين .

ومنها أيضا قوله :

« مقلهما حمر كسيوفه وأجنحتهما مسبلة كغمائم بره على رعاياه وضيوفه » .

وقد لاءم خيال الكاتب ملاءمة يدعو إليها المقام بين أوصاف الهدية ، وأوصاف مهديها . فوجد فى المقل الحمراء ما يحضر إلى بؤرة شعوره ، سيوف صديقه . وشاهد فى الأجنحة المسبلة ما يذكر بالبر . ثم انظر إلى تنقل خيال الكاتب بين عدة ميادين من ميادين التصور . فمن الأجنحة المسبلة . إلى الغمائم الهاطلة . وقد جمع بينهما المنظر والامتداد واللون المشترك . ثم من الغمائم الهاطلة إلى البر الكثير . وقد جمع بينهما الانتفاع والرعاية . — وبهذا كله استطاع الكاتب فى هذه العبارة الوجيزة أن يعقد مشابهة بين طرفى مشابهين وهما الأجنحة والبر ، مع وضوح المعنى وتسلسل الصور فى هوادة ورفق .

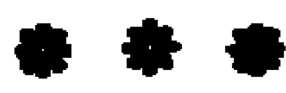
ومنها أيضاً قوله :

« ومخالبها كالمناجل لحصاد أعمار أعدائه وأعمار الطير . ومناقيرهما كالأهلة المبشرة له ولأوليائه بكل خير » الخ .

ومن استدعاء كتبه بدر الدين بن الصاحب وأرسله لفخر الدين بن مكانس يصف فى مطلعه الخمر فيقول :

« هل لك — بسط الله آمالك . وضاعف نعيمك ودلالك . فى عذراء مصونة . كالدرة المكنونة . كأن على خدها فوق وردة ياسمينة . مظلومة الريق فى تشبيهه بالضرب . وحاشا ثغرها الدرى أن يفوته شنب . لها من ذاتها طرب يغنى عن المزامير . بلقيسية الجمال لها صرح ممرد من قوارير . ليلها من حسنها نهار . وضوء وجهها للامسها سوار . عجوز الاسم صبية الاستمتاع . بكر تستخف الحليم بكشف القناع » الخ .

ويكاد الكاتب المبدع يلتزم بخياله هذا الجو المرح المحبوب ، وهذا الميدان المشوق المطلوب ، وهو فى هذا الالتزام متنقل ينساب من دائرة إلى دائرة كالطير فى بستانه يتنقل من فنن إلى فنن فالجو هنا كله جو نعمة ودلال ، وجو قرب ووصال ، فيه العذراء الحسناء تغرى بالخد والريق والثغر والشنب والنغم النفسى والضوء الحسى .. الخ .



ورأينا فى باب الوصف ، بين رسائله ومقالاته وموازناته وتقاريظه وأهاجيه وغيرها ، أخيلة متوثبة يدفعها أدب أصيل ، فلاءمت بين شتى الصور والأشكال بما يدعو إلى الدهشة والإعجاب ، وما يوثب الخاطر ويدفع النفس إلى السروح فى وديان واسعة المرامى فى دنياها الخافية ، وبين سريرتها المطوية . وما يشعرنا بأن من منشئ هذا العصر من كان يدبج إنتاجه ومن ورائه وجدان يقظ ، وعاطفة مشبوبة ، وشعور قوى مستمر ، وانفعال ثائر ، ونظر دقيق الملاحظة . فلم يركن إلى المحسوس فحسب يصوره ، وينقل إلى القارئ أوصافه الحسية وأوضاعه الملموسة ، مقتصرا عليها دون سواها ، لا ، وإنما صاحبته نفسه الممتزجة بموصوفه ، المتأثرة بأوضاعه ، فكان من وراء بصره بصيرته ،

ومن خلف ظاهره سريرته . وهذه ضروب فى المسالك الوصفية تشعرنا بما وهب المنشئون لأنفسهم من حرية وطلاقة ، وأن عقولهم أو نفوسهم لم تحبس خيالها فى أودية من التصور ضيقة ، ولم ترد جماحه إذا كان للظفر بصيد سمين . ولذا تعددت مخترعاتها ولم تقف أمامهم حوائل العصر من استعجام وضعف ثقافة فى الجملة بالنسبة لأسلافهم ، وندرة التشجيع — إلا فيما يتعلق بالأعمال الرسمية — إلى غير ذلك من عقبات كان من شأنها أن تكبت النفوس ، وترد الخيال ، وتعقل الألسنة ، وتحطم الأقلام .

وهذا ابن أبى حجلة المغربى يصف « جزيرة الطير » حينما غمرها فيضان النيل ، فإذا بخياله يصورها فتشعر معه برقدة الجزيرة بعد يقظتها ، وهدوئها غب حركتها ، وبليل سكونها الطويل بعد نهارها الضاحى الجميل . بعد أن تفرق عنها أحبابها من القطان والسكان ، قال :

« لم يبق بها هاتف يبشر بالصباح . ولا ساع يسعى برجل ولا طائر يطير بجناح . إلا اتخذ نفقا فى الأرض أو سلما فى السماء . أو أوى إلى جبل يعصمه من الماء . فأذاق بها الحمام الحمَام فى المروج ، وترك أرضها كسماء مالها من فروج » .

ولو أنك سايرت ابن أبى حجلة فى مقالته هذه كلها ، لوجدت هذا اللون القاتم من الإحساس ، وهذا الصبغ الواجم من الشعور ، يغشى مقالته ، ويمشى بين سطورها كلها ، وهذا دليل على أن الكاتب حينذاك كان تحت تجربة شعورية واحدة ، وهى تجربة صادقة لا كاذبة ، جديدة لا مقلدة . يسودها لونها هذا حتى نهايتها ، لا تتخللها خفقة فرح ، ولا صفقة تفاؤل ولا بسمة أمل . وللكاتب عذره ، فقد كان فيضان النيل الذى يصفه ، عاليا ألحق الضرر بأنحاء عدة .

وقد وصف الكاتب « المنشاة » فقال :

« أصبحت للبحر مقره . بعد أن كانت للعيون قرة . وقيل لمنشئها : « أنى يحيي هذه الله بعد موتها » . قال : « يحييها الذى أنشأها أول مرة » . قد مال

على ما فيها من شون الغلال كل الميل . وتركها تتلو بفمها — الذى شفتاه مصراعا بابها — : « يا أبانا منع منا الكيل[1] » .

ويقول الشهاب محمود الحلبي فى سياق رسالة يصف الشمس :

« برزنا وشمس الأصيل تجود بنفسها وتشير من الأفق الغربى إلى جانب رمسها . وتغازل عيون النور بمقلة أرمد . وتنظر إلى صفحات الورد نظر المريض إلى وجوه العود . فكأنها كئيب أضحى من الفراق على فرق . أو عليل يقضى بين صحبه بقايا عمر بالرمق » الخ .

وهذه تجربة شعورية أخرى . ولكنها كثيرة البروز بين تجارب الأدباء ، مما يدعو إلى الارتياب فى خيالها ، وأنه خيال مقلد لا مجدد . وقد استعار الكاتب فيه قول النابغة :

نظرت إليك بحاجة لم تقضها   نظر السقيم إلى وجوه العود

فأخرجه من الغزل إلى الوصف ، ومن وصف المحبوبة إلى وصف الشمس عند غروبها . وهذا الإخراج مما يضفى على خياله طرفا من الجدة .

على أننا لا نمنع أن تتشابه تجارب الأدباء ، فى جوهر شعورها ، ولكن مع هذا التشابه نلمح بين أعمالهم الأدبية الناتجة من هذه التجارب المتشابهة ، تغايرا ، ولو فى ناحية أو جزئية . كما بدا هذا فى سطور الشهاب الحلبي . غير أننا لم نرتح إلى كلمة « تغازل » فإنها لا تنسجم فى معناها ومناسبتها مع ذكر الجود بالنفس ، وجانب الرمس ، والمريض ، والعود ، فهذا مقام لا يحتمل المغازلة وإنما يتطلب الوداع . . .

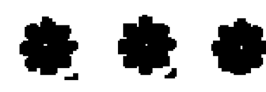
ومن رسالة تاج الدين البارنبارى التى وصف فيها عادة الناصر بن قلاوون فى الخروج كل عام إلى الصيد . قال يصف الأدهم :

« ومن أدهم : مدرك كالليل . منصب كالسيل . كريم الناصية . جواب قاصية . كأن غرته صبح تنفس فى الدجى الحالك . وكأنه من الليل باق ، بين

(١) عن صبح الأعشى ج ١٤ ص ٢٧٦ وما بعدها .

عينيه كوكب يضيء المسالك . وكأن حجوله بروق تفرقت فى جوانب الغسق لحسن منظرا لذلك ، الخ .

والأدهم الذى يصفه الكاتب ، فرس أسود قائم فى جبينه غرة ، وفويق حوافره حجول . وقد وصفه الكاتب فأبدع . وصوره جزءاً من الليل الحالك ، بقى فى أعقابه يضيء أمامه كوكب . والملاءمة هنا بين طرفى هذا التشبيه ، فى هذه الوجازة ، براعة خيالية بارزة عاونه عليها الاقتباس .



وبعد فيطول مجال القول إذا ذهبنا نستعرض صور الفن ووحى الخيال فى سطور النثر . غير أنه اتضح لنا أن هذا الخيال يعتمد على دعائم سمق عليها ، منها التشبيه والمجاز وإليك كلمات قصيرة عن كل منها :

التشبيه :

التشبيه جمع بين طرفين بينهما خصوصية مشتركة كاللون والحجم والطعم والشكل وغير ذلك . ويعتمد الخيال على هذه الخصوصية فيسرح بوساطتها من طرف إلى آخر . توضيحا وكشفا . وكلما تعددت جزئيات الطرف الواحد ، وكانت هذه الخصوصية مركبة ، كان عمل الخيال أبين وأظهر ، وأجمل وأفضل . وإذا أبرز صوره المركبة فى قالب من اللفظ والتركيب لا يعانى غموضا ولا نقصا ولا تناقضا ، دل ذلك على طبع قويم وذوق سليم ، واندماج نفسى بين المنشىء وأطراف تشبيهه ، وتجاوب روحى بينه وبين مركباته وتمثيلياته . والأديب الذى يرزق هذه الصفة ، وهى الاندماج والتجاوب ، أديب مطبوع يجود خاطره بالرائع البديع من التشبيه وصور البيان ، دون أن تعانى نفسه تكلفا ، أو تحمل روحه مشقة .

ومن هنا ، وبما نعرضه من صور التشبيه فى شتى فنون النثر ، نشعر بما كان للمنشئين من أصالة فى الأدب وعراقة فى الذوق .

والذى نحب أن نلفت النظر إليه أمور :

أولا : أن التشبيه فى جوهره ، إيضاح للمعنى وبيان لخصوصيات فى المشبه يصعب بروزها فى إيجاز دون اللجوء إلى عقد التشبيه . ولا ننكر أنه ربما يغلو أديب فى اصطناع التشبيه ويقصده لذاته ويكثر منه فيصبح بذلك عنده ضربا من الزينة التى يجب أن يظهر تفوقه فى اصطناعها ، وهنا يثقل التشبيه ويسفل .

ثانياً : أن التشبيه قد تعلق به أدباء عصر المماليك ، وكان دعامة من أهم دعائم الخيال عندهم ، كما بينا . ولا نكاد نستثنى منهم أحداً . وسواء فى ذلك شعراؤهم ومنشئوهم ولسنا فى مجال الحديث عن الشعر الآن ، ولكنها خصوصية مشتركة بينه وبين النثر أحببنا أن نسجلها ولا ننكر كذلك أن يكون التشبيه عند بعضهم قد عراه التكلف فسقط أوغث ولكنهم فى جملتهم قد أتوا فى مجاله بالعجب المطرب .

ثالثاً : أن أغلب أدباء العصر . شعراء ومنشئين ، كانوا ينهجون منهج القاضى الفاضل ويصعب التمييز بينهم إلا بخصائص فردية .

رابعاً : أن التشبيه كان إحدى دعائم الأسلوب الفاضلى ، ولم يقصد لذاته وإنما لزيادة إيضاح المعنى ولتفصيل شىء فى المشبه يصعب تفصيله فى وجازة دون عقد التشبيه . وسنعود إلى هذا الموضوع مره أخرى .

هذا وإليك منتخبات من التشبيه :

من كلام ابن حبيب الحلبى فى الحكم والمواعظ :

« التقوى أفضل حلة والمروءة أجل خلة . سيف الحق قاطع . والحلم درع مانع . الزم الحجا فهو ألطف سائس . ولا تعدل عن العدل فهو أحفظ حارس » (١)

ومن كلام ابن حجة الحموى من رسالته فى وصف « حمائم الرسائل » التى عارض بها رسالة القاضى الفاضل قوله فى أحدها .

---

(١) من نسيم الصبا (الفصل التاسع والعشرون) .

« كم علا فصار بريش القوادم كالأهداب لعين الشمس . وأمسى عند الهبوط لعين الهلال كالطمس » .

وقال أيضا فى وصفها . « وكم زاحمت النجوم بالمناكب حتى ظفرت بكف الخضيب . وانحدرت كأنها دمعة سقطت على خد الشفق لأمر مريب . وكم لمع فى أصيل الشمس خضاب كفها الوضاح . فصارت بسموها وفرط البهجة كمشكاة فيها مصباح[١] » .

ووصف جمال الدين بن نباتة الفرس الأشهب فقال :

« ومن أشهب كأنه طلعة نجم . أو قطعة صبح . او غرة قمر يضرب بأشعته أدبار جنح[٢] » .

ومن كلام الصلاح الصفدى يصف غلاماً تركيا :

« كأنه بدر سافر . أو غزال نافر » . وقال : « إن تبدى أنكرت البدر فى تمامه . أو تثنى لم تعرف الغصن من قوامه . أو رنا لم تدر أسحر بدا أو نصال . أو التفت لم تذكر بعدها جيد الغزال[٣] » .

وكتب الشهاب الحلبى من رسالة له فى وصف رمى البندق ، قال يصف الطيور :

« وكأن صواف الطير المبيضة بتلك الحلق خيام . أو ظباء بأعلى الرقمتين قيام . أو أباريق فضة رءوسها لها فدام . ومناقيرها المحمرة أوائل ما انكب من المدام » .

« وكأن رقائقها أرماح ، أسنتها من ذهب . أوشموع أسود رءوسها ما انطفأ ، وأحمره ما التهب » .

ومنها يصف القسى :

---

(١) رسالة ابن حجة فى وصف حمائم الرسائل بكتابه ثمرات الأوراق ص ٥١

(٢) عن مجرى السوابق بكتاب قهوة الإنشاء لابن حجة .

(٣) عن لوعة الشاكى للصفدى .

« ومعهم قسى كالغصون فى لطافتها ولينها . والأهلة فى نحافتها وتكوينها . والأزاهر فى ترافتها وتلوينها . بطونها مدبجة . ومتونها مدرجة . كأنها كواكب الشولة فى انعطافها . أو أرواق الظباء فى التفافها » .

ومنها يصف عيبة الكرات :

« تصونها عيبة كأنها جرج درر . أو درج غرر . أو كامة ثمر . أو كنانة نبل . أو غمامة وبل » .

ومنها يصف أحد الطيور ، وكان أبيض اللون :

« فاستقبل أولنا تمآ تم بدره . وعظم فى نوعه قدره . كأنه برق لمع فى غسق . أو صبح عطف على بقية الدجى عطف النسق . تحسبه فى أسداف المنى غرة نجح . وتخاله تحت أذيال الدجى طرة صبح[1] » .

وقال شهاب الدين بن فضل الله العمرى يصف « المنجنيق » :

« قد استلت كأنها عقاب . وامتدت كأنها سحاب . وهدرت كأنها رعود . واستترت كأنها خود . واضطرمت كأنها حريق . واضطربت كأنها طليق . وأطلت كأنها أجل . وولت كأنها وجل[2] » .

وقال يصف « القدور » :

« وقدور بذهب النيران حالية . كأنها جبال راسية . أو جمال سارية . من كل قدر كأنها على موقد النار زنجية متوركة . أو ليلة ظلماء بأطراف النهار من كل ناحية متمسكة[3] » .

* * *

المجاز :

والمجاز صنو التشبيه ، وهو أدل منه على قوة الخيال ، لأنه مبنى على إدماج المشبه فى المشبه به حتى كأنه هو أو أحد أفراده . ونبادر فنقول إن أهم أنواع المجاز فى باب الخيال ، الاستعارة .

---

(١) عن حسن التوسل ص ١٤٨ وما بعدها .

(٢ ، ٣) عن التعريف لابن فضل الله .

ونقول أيضا إن المجاز لا يجمل إلا إذا ساقه خيال بارع وذوق سليم ولسان طيع. فليس من السهولة بمكان، ولا بالأمر المستساغ فى يسر، أن ندمج شيئين فى قرن واحد حتى كأنهما توأمان، أو أن أحدهما فرد من أفراد الثانى. وإنما يستساغ ذلك بكياسة خيالية وبراعة تصورية تلائم بين الطرفين وتجمع بين الشتيتين، بما يوفق إليه ذوقها الدقيق ونظرها العميق وحساسيتها الممتازة، من تعرف الخصوصيات المشتركة بين الطرفين.

وقد أتى كتاب المماليك فى هذا الباب بالبديع الرائع، والمبتكر اللامع، الذى تستسلم له الأذواق وتطرب له الخواطر. وما من رسالة أو مقالة أو مكاتبة كيفما كانت وكان موضوعها إلا والمجاز أهم عناصر الأسلوب فيها. وربما شأى التشبيه كثرة وشيوعا.

ومنه قول ابن الوردى من رسالة يعزى بشرف الدين البارزى:

« ينهى أنه بلغه انهداد الطود الشامخ. وزوال الجبل الراسخ. الذى بكته السماء والأرض. وقابلت فيه المكروه بالندب وذلك فرض. فشرقت أجفان المملوك بالدموع. كما شرق صدر القناة من الدم، وأحرق قلبه بين الضلوع[1] ».

ومنها: « فالعلوم تبكيه. والمحاسن تعزى فيه. والأقلام تمشى على الرءوس لفقده. والمصنفات تلبس حداد المداد من بعده ».

وفى هذه العبارات كنايات عن عموم الحزن.

ومن كلام شهاب الدين بن فضل الله يصف السكين:

« وقد شرعت السكينة تنضنض لسانها. وتعطى على خشونة الحد ليانها. وقد كتب الفرند فيها سطورا. وضرب الشنبر عليها سورا. وأطلع ليل الغلف صبيحتها الغراء. وطبع حديدها الأزرق من الجوهر الأبيض ما يصير بالدعاء ياقوتة حمراء »[2].

---

(١) عن ديوان ابن الوردى.

(٢) عن التعريف لابن فضل الله.

وقال فى وصف الخمر :

« سعى الساقى بكأسها . وصب الذهب من أكياسها . وفض منها طينة ختام كانت طابعا لشمسها . ودواء مما يخامر العقول من مسها . وراضها بالمزاج ولولاه لجمحت . ولاينها بملاطفته حتى جنحت . وافتض منها بكرا لم تعنس . وقدح منها نارا لو رآها عابدها لزمزم ، والعيسوى لقدس[1] » .

وفى كلمات : الذهب والأكياس والشمس وراضها وجمحت مجازات واضحة .

ومن إجازة كتبها فخر الدين بن مكانس لصديقه بدر الدين البشتكى ، قال يمدحه :

« لقد أربى كلامه على زهر الخميلة . ورقت فكره الدقيقة على درج المعالى إلى المعانى الجليلة . ورجعت عين كل فكرة عن بلوغ قصور نظمه الأدبية كليلة[2] » .

وفى « رقت فكره ، ودرج المعالى ، وعين كل فكرة ، وقصور نظمه » ، استعارات .

هذا ، ونحيل القارئ الكريم على النماذج الكثيرة فى أبواب هذه الرسالة ، فقلما خلا أحدها من ألوان المجاز .

ولقد شاركت الاستعارة التمثيلية ؛ وهى أحد ضروب المجاز ، بنصيب وافر . وقد فاضت بها رسالة محيى الدين ابن عبد الظاهر التى كتبها إلى صديقه ناصر الدين ابن النقيب ، وعنوانها « فى التواضع » ، وحقيقتها « فى الهجاء » . فهى أحجية فريدة فى بابها وجهها كاتبها إلى من عابه وتنقصه ، وملأها بالسخرية والوعيد . وقد قال عنها صلاح الدين الصفدى : « إنها شبيهة برسالة ابن زيدون » . فمنها يتهكم ويتوعد ويمدح نفسه :

---

(١) عن التعريف لابن فضل الله .

(٢) ديوان فخر الدين بن تمام مخطوط بدار الكتب .

« ما كل الأفاعى تعبث بها الأنامل . ولا كل المراعى تنصب بها الحبائل . ولا كل زخار يخاض . ولا كل جناح يهاض . ولا كل جامح يراض . ولا كل سابغة تفاض . ولا كل نسر واقع . ولا كل نير راجع . ولا كل السموم يدخل فى درياق . ولا كل مطوق يجذب بالأطواق » .

ومنها أيضاً قوله فى المعنى نفسه :

« ومتى خافت الرعود من الوعود . أم متى أحجمت الأسود عن القرود . أم متى جزعت البحار من التيار . أم متى صارت النار كالأنوار » .

ومنها يفخر بنفسه :

« والبيت بأهله . والغمد بنصله . والثوب بلابسه . والجواد بفارسه . والقوس براميها . والصهوة براقيها . ومن أسافل البحور تترقى الدرر إلى أعالى النحور . وقد ينمى كبير من صغير[1] » .

* * *

إقليمية التعبير

هذا وقبل أن نترك الحديث فى التشبيه والمجاز ، نحب أن ننبه إلى مسألة أثر البيئة فيهما وفى غيرهما من دعائم الأسلوب التى يعتمد عليها لتصوير المعانى الجزئية ، ورسم التصورات الفردية . ومن هذه المعانى والتصورات يتألف « الموضوع » الرئيسى الذى يتصدى الكاتب لبيانه . وقد نوهنا بمدى إقليميته .

ولاريب أن للبيئة الطبيعية آثاراً واسعة النطاق فى تمصير التشابيه والمجازات وغيرهما من وسائل البيان وفى صبغها بصبغة المصر .

غير أن هذه القاعدة لا يمكن أن تنطبق فى كل حين ، ولا فى كل مصر . وربما كانت هذه القاعدة منطبقة تمام الانطباق على تشابيه الجاهلية ومجازاتها ، يوم أن كانت البيئة الطبيعية الحجازية هى المعين الأول والأخير الذى تستقى منه ، وتستمد جزئياتها من موارده ، ويوم كانت ألوان البيئات الأخرى فيها وليدة لها ومدينة لها بوجودها وحياتها إلى حد بعيد . ويوم كانت ألوان البيئات الأخرى

(١) الرسالة مخطوطة بدار الكتب ومنها مطبوعة فى نهاية تمام المتون للصفدى .

فى طور من أطوار السذاجة والبداءة لا يسمح لها بأن تكون ذات أثر يذكر فى طبع تشبيهات الأدباء ومجازاتهم بطابع خاص ، قد يكون فيه مغايرة أوتهذيب أو مزاحمة لطابع البيئة الطبيعية .

ولكن لما تطاولت الأيام وتنوعت بيئات الأدب العربى الطبيعية ، وتداولته فى أمصاره الجديدة ألوان من البيئات الأخرى ، سياسية واجتماعية وثقافية — على نحو ما بينا عند الحديث عن البيئات — وكل منها متأثر بعوامل لا حد لها ولا حصر ، من أفكار وفلسفات وحروب واقتصاديات ولغات ، إلى غير ذلك من العوامل ، التى اختلفت باختلاف العصور ، زاحمت مؤثرات هذه البيئات ، مؤثرات البيئة الطبيعية ، فلم تعد وحدها مصدر الوحى ولامبعث الإلهام للأدباء فى تشبيهاتهم ومجازاتهم وغيرها من مسالك التعبير .

لهذا نعد من الغلو ، ومن تكليف الأيام ما لا تطيق ، أن نطلب إقليمية الأدب فى تشبيهاته ومجازاته أو غيرها من وسائل تصوير المعانى ، وأداء التصورات الذهنية ، على أن تكون هذه الاقليمية إستجابة من الأدب لوحى البيئة الطبيعية وحدها . والثقافة — مثلا — فى كل عصر من عصور الأدب العربى مشتقة من أدب الجاهلية والإسلام ، أو مرتبطة بهما ارتباطاً وثيقا . وكان هذا الأدب المذكور من أهم مصادر الثقافة فى الأمصار الإسلامية على السواء ، حتى فى عصرنا الحديث ، على الرغم من تدفق الثقافات الأوربية علينا .

وهذا الارتباط هو السبب الأصيل فى طغيان التشبيهات والمجازات المألوفة فى أدب الجاهلية والإسلام ، يحسبه كثيرون « تقليداً » ، ويحملون بسببه على الأدباء — أو بعضهم — ويرمونهم بالجمود . والحق أنه استجابة لوحى البيئة الثقافية ، فإذا كانت استجابة نفوس الأدباء لوحى لون من ألوان بيئتهم يعد جمودا ، فهم إذن جامدون .

ونحن الآن لا ندافع عن تقليد أدباء عصر المماليك وجمودهم على الموروث من « تجارب » أسلافهم ، ولكننا نعلل هذه الظاهرة بعللها الحقيقية التى يتبين

منها براءتهم من تهمة الجمود ، ووصمة التقليد .

ومن هنا نرى أن البيئة الطبيعية فى مصر ، لم تكن وحدها ، ذات الأثر فى الأدب وتعبيراته ، بل زاحمتها ألوان أخرى من البيئة ، ينبغى لنا أن نحسب لها حسابا ، ونحن بصدد الحديث عن « إقليمية التعبير » . ولو خلصت البيئة الطبيعية وحدها للتأثير فى أساليب الأدب ، لشهدنا لذلك آثاراً بارزة كثيرة العدد .

لهذا ينبغى لنا ونحن نطالب « إقليمية التعبير » أن نتلمس «الروح المصرية» التى هى نتيجة لامتزاج جملة من العناصر المختلفة ، وتفاعل عدة من البيئات . والتى أصبحت تتمشى فى تعبيراتها — إلى جانب ما ننشده من تشبيهات ومجازات — ألوان بديعية فى مقدمتها التورية والتضمين مثلا ، فضلا عما طبعت عليه — غالبا — من السهولة والوضوح .

على أننا — مع هذا كله — رأينا عند الحديث عن البيئة الطبيعية نموذجاً لابن حجة الحموى ، وهو فقرات من « بشارة » كتبها بوفاء النيل ، وتذوقنا طعم المصرية فى عباراتها وتشبيهاتها ومجازاتها .

* * *

والآن نسجل نماذج أخرى نستشعر أيضاً طعم المصرية فى ضروب مختلفة من تعبيراتها .

إليك فقرات من رسالة الفخر بن مكانس فى وصف النيل ، قال :

« جمع فى صعوده إلى الجبال بين الحادى والملاح . ودخل الناس إلى أسواق مصر — وخصوصاً سوق الرقيق — على كل جارية ذات ألواح . وغدا التيار ينساب فى كل يم كالأيم . وأصبحت هضاب اللوح فى سماء البحر وكأنما هى قطع الغيم . واستحالت الأفلاك فكل برج مائى . وتغيرت الألوان فكل ما فى الأرض سمائى . وحكى ماؤه حكاكة الصندل لما مسه شيطان الريح فتخبط . وزاد فاستحال نفعه فتحقق ما ينسب إلى الصندل من الاستحالة إذا أفرط . فلقد كانت أمواجه ودوائره الأعكان والسرر . وغدا كل حى ميتا من زيادته

لا كما قال المعرى: «حيا من بنى مطر» . وتحالى إلى أن أقرف الليمون الأخضر . واحمرت عينه على الناس فأذاقهم الموت الأحمر » . الخ .

ونرى فى هذه السطور صوراً مصرية وتعبيرات مصرية صميمة . ففيها أسواق مصر وسوق الرقيق وذكر الجوارى ولون الماء . وتحالى وأقرف ، والليمون الأخضر ، واحمرت عينه على الناس ، كلها ألفاظ وتعبيرات مصرية . ومنها ما يتردد على ألسنة عامة مصر حتى الآن ، كلفظ «تحالى» و «الليمون الأخضر» و «أقرف الليمون الأخضر» و «احمرت عينه» الخ . والمجازات فى العبارة مشتقة كما رأينا من البيئة المصرية .

ومن كلامه أيضاً من الرسالة نفسها يصف بعض النبات وما أصابه من زيادة النيل ، قوله :

«والورد ، وقد قيل له : مالك من آس . وغصن البان وقد قيل له : «طوبى لمن عانقك ولا باس» . والأسماك وقد ألجمها العرق . والقلقاس وقد شكا شكوى ابن قلاقس وابنه من الغرق . والقصب بالجيزة وقد شرب ماء النز فهو بئس الشراب . والقصب ببولاق لم ينجه من مشاهدة الغرق إلا كونه غاب . والفارسى بالبساتين وقد ترجل ووقع فأرانا كيف تكسير الأقصاب . وقيل للآس : عالج جيرانك بالغيطان فالناس بالناس . وبادر إلى جبر ما كسر ، فالحاجة تدعو المكسور فى الحالين إلى الآس» ..

هذه فقرات مصرية ولا ريب . تحفها تورياتها الطريفة فى : آس ، ولا باس ، وغاب — وكذلك تعبيراتها مثل : عانق ولا باس . وألجمها . وكونه غاب . وتكسير الأقصاب . والناس بالناس . وهذا التعبير الأخير لا يزال فى ألسنة عوام مصر إلى اليوم . وكذلك مجازاتها فى : ألجمها العرق ، وجبر . الكسر هذا كله فضلا عن المفردات اللفظية التى هى من أجزاء البيئة المصرية نحو : القلقاس وقصب الجيزة وماء النز ، وجيرانك بالغيطان . والفارسى بالبساتين . والقصب ببولاق .

ومن رسالة تاج الدين البارنبارى فى وصف عادة الناصر بن قلاوون فى الخروج إلى الصيد كل عام قال :

« وسار فى زروع مخضرة . وثغور نبات مفترة . وقد طلعت للظفر شموسه وبدوره . وأعدت للصيد بزاته وصقوره . من كل متوقد اللحظ من الشهامة . محمول على الراحات من فرط الكرامة يتوسم فيه النجاح . قبل خفق الجناح »[1] إلخ

وترى فى هذه العبارة كذلك ريح المصرية فى قوله: « متوقد اللحظ » و « محمول على الراحات » فهاتان العبارتان ولا سيما ثانيتهما مما يستعمل لدى العامة حتى اليوم ، فى بلادنا .

وإليك نموذجا آخر ، وهو قول الشهاب الحلبى من رسالة فى وصف الخيل يصف الجواد الأشهب :

« فمن أشهب غطاه النهار بحلته . وأوطأه الليل على أهلته . يتموج أديمه ريا . ويتأرج ريا . ويقول من استقبله فى حلى لجامه : هذا الفجر قد طلع بالثريا . إن التفت المضايق انساب انسياب الأيم . وإن انفرجت المسالك مر مرور الغيم . كم أبصر فارسه يوما أبيض بطلعته . وكم عاين طرف السنان مقاتل العدى فى ظلام النقع بنور أشعته » .

ومنها : « يكاد يسبق ظله . ومتى جارى السهم إلى غرض بلغه قبله » .

وترى فى هذه التعبيرات أو بعضها ريح المصرية ورجع البيئة . مثل قوله : « غطاه بحلته » و« أبصر يوما أبيض » و « يسبق ظله » و بلغه قبله » . — هذه تعبيرات لا تزال تتردد ، هى أو ما يشبهها فى ألسنة العامة .

وبالسطور من طرائف البديع — عدا السجع — ما يضفى على المعنى جمالا وقوة وتأثيرا . وذلك كالتعليل فى قوله « غطاه النهار بحلته » وقوله « وأوطأه الليل على أهلته » وكالتشبيه فى قوله « يتموج أديمه » و « انسياب

---

(١) انظر وصف النيل فى باب الوصف من هذه الرسالة .

الأيم » و « مرور الغيم » و « طرف السنان » — والجناس والمطابقة فى « غطاه وأوطاه » .

على أننا نرى أن قوله « مر مرور الغيم » تعبير منتزع من البيئة الطبيعية المصرية . وذلك لأن غيمها سريع المرور . وليس كل غيم سريعا .

هذا إلى ما يتراءى على العبارات من وضوح وسهولة ، فلا تعقيد ولا تكلف . فهى خفيفة المئونة هينة الحمل .

* * *

ومن موازنة جمال الدين بن نباتة بين القلم والسيف ،يقول السيف للقلم .

« أولست الذى طالما أرعش السيف للهيبة عطفك . ونكس للخدمة رأسك وطرفك . وأمر بعض رعيته — وهو السكين — فقطع قفاك وشق أنفك » .

وترى فى العبارات « نكس للخدمة رأسك وطرفك . وقطع قفاك وشق أنفك » منزعا مصريا . ولا سيما فى العبارة الأولى . فتنكيس الرأس للخدمة ، ظاهرة منتشرة فى مجالس السلاطين والأمراء .

* * *

ومن استدعاء بدر الدين بن الصاحب الذى أرسله إلى الفخر بن مكانس ، يقول فى وصف الخمر :

« كأن على خدها فوق وردة ياسمينة » ويقول « كأنها خلقت نشوانة من الطينة » . وهذه تعبيرات مصرية ترددها العامة أحيانا

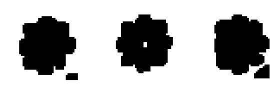
* * *

ويقول ابن الوردى فى تقريظه لقطعة من شعر بدر الدين بن حبيب الحلبى :

« فقبسها بدرى ، وكوكبها درى . هاجت لى ذكرى حبيب ، فهى زبدة من حلب ، لا بل قطعة من طيب . أعذب من الوصال ، وألذ من الماء الزلال . وألطف من الرياض عند الصباح ، وأرق من رحيق الطل فى ثغور الإقاح . فيالها من مقطعات نيل ، أضرمت فى روح كل كليم نار خليل . » ...

ومنها أيضاً : « وكيف به إذا تعلق بأفنان مواد هذا الفن وامتاز . ونزل بدر خده فى دارة دار الطراز » .

وفى قوله . « زبدة من حلب ، ومقطعات نيل ، ودارة دار الطراز » مقتبسات مصرية



وللشاعر البارع والكاتب برهان الدين إبراهيم القيراطى فى تقريظ رسائل ابن نباتة ومنظوماته قوله :

« طالما سرح الناظر فى بستانها منظرة ، ورام ابن سكرة فتح الأبواب لمعارضة قطرها النباتى فوجدها مسكرة » .

انظر إلى قوله « فى بستانها منظرة» و « مسكرة » تر أنها تعبيرات مصرية صميمة ، فضلا عما فى « مسكرة » من استخدام ، مهد له بكلمتى « ابن سكرة » و « فتح الأبواب » .

ووصف ابن نباتة الجواد الأشهب « راجع مجرى السوابق » . فقال :

« ما خفيت مصلحة إلا قيضها . ولا ادلهمت سحابة نقع إلا قام لها بنفسه وبيضها » .

وفى قوله : « إلا قام لها بنفسه وبيضها » تعبير مصرى .

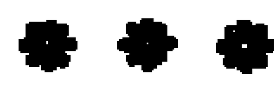


ويقول ابن حجة فى مقدمة « مجرى السوابق » يبين سبب معارضته فى وصف الخيل لكل من الشهاب الحلبي وابن نباتة ، وابن فضل الله العمرى ، وهو أنه رُسم له بمعارضتهم — ويبدو أن الراسم هو صديقه ناصر الدين بن البارزى صاحب ديوان الإنشاء : —

« إنه رسم له بالاستطراد إلى سوم المعانى الغالية فى وصف الخيول المسومة وقالوا : قهوة الإنشاء من جنس الكميت ، فعلة الضم فى دور كاساتها مقدمة . فقلت إذا كان المطلوب حسن الأدب فامتثال المراسيم من سلوكه . وتعين أن

أقيم لرقيق اللفظ سوقاً . وأسأل من رسم لى أن لا يناظر السادات فى سوق الرقيق بمملوكه » .

وشاهدنا فى قوله « أقيم لرقيق اللفظ سوقا . وأن لا يناظر السادات فى سوق الرقيق بمملوكه » . وأسواق « الرقيق » فى عصر « المماليك » كانت قائمة على قدم وساق . ويفد إليها « السادات » للشراء . . . فألفاظ الكاتب وعباراته ومجازاته وتشبيهاته هنا وتورياته ، منتزعة من البيئة الاجتماعية القاهرية.



هذا . وحسبنا ما أوردنا هنا من الأمثلة على « مصرية التعبير » ونرجو أن يكون فيه مقنع بأن « الموضوع » ليس وحده الذى اتسم بالإقليمية ، وإنما امتدت هذه الإقليمية إلى طرق التعبير أيضا ، ولو إلى حد .

وبهذه المناسبة نذكر أننا نعتقد أن الشعر المملوكى حظيت فيه « طرق التعبير » بنصيب من الإقليمية أكبر مما حظيت به فى النثر . ومن أظهر الأدلة على ذلك ، كثرة ما اصطنعه الشعراء من تعبيرات العامة وأمثالهم . ومن الشواهد على ذلك :

قول الشاعر على بن برد بك موريا متفكها يتندر على صديقه بدر الدين الدميرى « محمد بن يوسف » المتوفى عام ٨٨٧ هـ .

وكان معروفا بين الناس بكتوت ، فقال الشاعر :

إن الدميرى صديق فلا أسمع فيه قول واش ولاح
ولا أرى كالغير تقبيحه بل هو عندى من ملاح الملاح

والنكتة فى قوله « ملاح الملاح » كنى بها عن « الكتاكيت » ، ولا يزال باعتها تنادى عليها بهذا الوصف .

ويقول البوصيرى فى قصيدة يشكو بها حال أسرته إلى أحد الوزراء .

أحدث المولى الحديث الذى جرى لهم بالخيط والإبرة

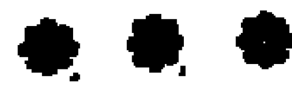
ويعنى بقوله « الخيط والإبرة » جميع الحديث . وهو تعبير مصرى لا تزال عوام المصريين يعبرون به .

ومن شعر الصلاح الصفدى يصف جرة خمر :

وجرة أظهروها والراح فيها كمينة
شممت طينة فيها فرحت سكران طينة

وقوله « فرحت سكران طينة » تعبير مصرى .

والأمثلة من هذا القبيل كثيرة[1] وهى شاهدة بإقليمية التعبير فى أساليب الشعر — ولو إلى حد أيضاً .



ونحب أن نعيد الإشارة فى ختام هذه الكلمة ، إلى أن « التجديد » يكون فى « الموضوعات » ، ويكون فى « المعانى والتصورات » ، ويكون فى طرق التعبير والأداء سواء بسواء .

وقد شهدنا مما مر علينا من دراسات ، أن كتاب عصر المماليك كانوا مجددين فى « الموضوعات » ، والتجديد فى الموضوعات ، يجر حتما إلى التجديد فى معانيها الجزئية وتصوراتها ، ولو إلى حد

والذى نعنيه بالتجديد فى الموضوعات ، أنهم كانوا فيما طرقوه من أبواب ومسائل ، مستجيبين لوحى بيئاتهم المختلفة — على نحو ما بيناه فى مكانه — وكان أدبهم مرجعاً لهذه البيئات ، ولم يقصروا فى هذا المضمار .

ومن المبالغة أو من المغالطة ، أو من الإرهاق ، أن يدعى مدع أن « الموضوعات » ليست محل تجديد أو تقليد ، وفى نظره أن من يصف « النيل » كمن يصف « دجلة » مثلا ، فكلاهما يصف « نهراً » ، وأن من يصف « رحلة صيد » فى ظواهر القاهرة ، كمن يصف « رحلة صيد » فى ظواهر بغداد ، مثلا ، فكلاهما يصف «رحلة صيد» ...

---

(١) كتبنا مقالة بعنوان « أساليب العامة فى الشعر الفصيح » نشرت فى مجلة الرسالة بالعدد رقم ٧٧٨ بتاريخ ٣١ مايو سنة ١٩٤٨ تتضمن أمثلة كثيرة من هذا النوع .

أما مقياس التجديد عندنا فاستجابة الأديب لوحى بيئاته . ولا يكلف الله نفسا إلا وسعها .

ومن هنا نرى أن تشابه « الموضوعات » هنا وهناك ، واشتراك مصر مع غيرها من أمصار الأدب فيها ، لا يمنع أن تكون محل تجديد ، وإن ظهر ذلك فيما توحى به من جزئيات المعانى والتصورات .

على أننا فى مقدمة كلامنا عن الخصائص ذهبنا إلى أن العبرة فى « شخصية » الأدب أو « إقليميته » إنما يكون بمجموع هـــذه الخصائص ، سواء أ كانت فى الموضوعات أم فى المعانى والتصورات وغيرها ، فإن هذا المجموع يصعب أن يتاح لأى أدب آخر .

* * *

إنسانية مالا يعقل أو تعقيد :

ونعنى بذلك إسناد مايختص بالإنسان من نطق أو عمل أو إحساس باطن أو ظاهر إلى غيره من الحيوان والطير والنبات والجماد .

وهذا ضرب من عمل الخيال ، ووسيلة من وسائله التى يبلغ بها رسم مايريد من المعانى ، ويصور بها مايبغى من الأفكار . وفيه دلالة على اليقظة الوجدانية لدى الأديب والامتزاج النفسى بمظاهر البيئة .

وهذا المسلك الأسلوبى ذائع الانتشار بين أساليب كتاب عصر المماليك . وقد تعددت فيه ضروب الخيال ولا سيما البصرى والسمعى ، والوجدانى ، وكلها أخيلة الأديب ، تخلع وجدانه وشعوره بالموصوف ، عليه ، حتى يتحدث الموصوف بما فى نفس الأديب .

ويبدو هذا الضرب حين التصدى لوصف مناظر الطبيعة أو الحيوان أو الطير أو الأدوات الأخرى كالسيف والقلم والسكين . وترى نماذج لا حصر لها من ذلك ، فى وصف النيل ووصف الخيل والحمائم والموازنات بين السيف والقلم. فيما كتبه ابن نباتة وابن حجة والصفدى والفخر بن مكانس والشهاب بن فضل الله وغيرهم .

والقصة معرض واسع لهذا الأسلوب الخيالى ، ولا سيما إذا رويت على ألسنة الحيوان أو الطير أو الجماد ، أو على ألسنة الجنة والشياطين . وترى ذلك ماثلا فى «فاكهة الخلفاء» لشهاب الدين بن عربشاه .

وإليك فقرات وجيزة توضح ما نقول :

من وصف ابن نباتة للنيل قوله :

« وأما النيل فقد استوى على الأرض فثبتت فيها قدمه . وامتد نصل تياره كالسيف الصقيل فقتل الإقليم ، وهذا الاحمرار إنما هو دمه .

حمرتها من دماء ما قتلت   والدم فى النصل شاهد عجب

فلم يترك وعداً بل وعيداً إلا وفاه · ولا وهداً بل جبلا إلا أخفاه . أقبل كالأسد الهصور إذا احتد واضطرم . وجاء من سن الجنادل فتحدر وعلا حتّى بلغ أقصى الهرم . وعامل البلاد بالخيلاء .. [1] » إلخ .

فانظر كيف نسب إليه القدم . وإلى تياره النصل ثم القتل . وهذه أخيلة بصرية .. ثم نسب إليه وفاء الوعد ، وتنفيذ الوعيد ، والخيلاء . وهذه أخيلة وجدانية . وكذلك نسب إليه الاحتداد والاضطرام وفيهما خيال مشترك بين البصرى والوجدانى ، وربما كان معه السمعى أيضا ، إذا صحب حركة الغضب صوت وزمجرة هى خرير النهر .

هذا إلى ما فى قوله « قتل الإقليم » من حسن تعليل .

ومن موازنة ابن الوردى بين السيف والقلم قوله على لسانهما :

« قال القلم :

« أومن ينشأ فى الحلية وهو فى الخصام غير مبين . يفاخر — وهو القائم عن الشمال — الجالس على اليمين . أنا المخصوص بالرى وأنت المخصوص بالصدى . أنا آلة الحياة وأنت آلة الردى . ما لنت إلا بعد دخول السعير

---

(١) انظر باب الوصف فى هذه الرسالة .

وما حددت إلا عن ذنب كبير . أنت تنفع فى العمر ساعة . وأنا أفنى العمر فى الطاعة . أنت للرهب وأنا للرغب . وإذا كان بصرك حديداً فبصرى ما ذهب . أين تقليدك من اجتهادى وأين نجاسة دمك من تطهير مدادى » .

قال السيف :

« أأنف فى الماء . واست فى السماء . أمثلك يعير مثلى بالدماء . فطالما أمرت بعض فراخى وهى السكين . فأصبحت من النفاثات فى عقدك يامسكين . فأخلت من الحياة جثمانك . وشقت أنفك وقطعت لسانك . ويك ! إن كنت للديوان فحاسب مهموم . أو للإنشاء فخادم لمخدوم . أو للبليغ فساحر مذموم . أو للفقيه فناقص فى المعلوم . أو للشاعر فسائل محروم . أو للشاهد فخائف مسموم . أو للمعلم فللحى القيوم . أما أنا فلى الوجه الأزهر . والحلية والجوهر . والهيبة إذا أشهر . والصعود على المنبر[1] » .

هذه فقرات من هذه الموازنة الطويلة التى تجادل فيها القلم والسيف وتشاحنا وتفاخرا وتهاجيا ونسب كل منهما إلى زميله ما شاء من العيوب . وفخر عليه بما نسب لنفسه من محامد ومآثر ، ثم تحاكما ، وكل هذا من خصائص الإنسان ولكنها وسيلة الخيال الشعرى إلى الوصف ، وهو خيال وجدانى تصويرى فى آن واحد . فبينما يصف الكاتب كلا من الأداتين على لسانها أو لسان مناظرتها وصفاً واقعياً إذ يخرجه بضروب من اعتباراته الوجدانية .

فتحديد مكان كل منهما من كف مالكه . ودخول السيف إلى النار . واستعماله للرهب وكونه من الحديد ، وأنه تسيل عليه الدماء . . . كل هذه تصويرات واقعية . ولكن التنشئة فى الحلية ، والجلوس على اليمين أو الشمال واقتراف الذنب ، والتقليد والاجتهاد . كل هذه تصويرات وجدانية ... وهكذا .

وقد استعان الكاتب على بلوغ تصويراته بأمور منها الاقتباس كما فى قوله « أو من ينشأ فى الحلية وهو فى الخصام غير مبين » . ومنها الطباق كما فى قوله :

---

(١) الموازنة فى ديوان ابن الوردى .

الرى والصدى . والحياة والردى . والرهب والرغب . والتقليد والاجتهاد . .
ومنها التورية كما فى قوله : « ماذهب » وقد أخرجها مجنسة . هذا إلى ضروب
من المجاز واضحة فى كلا الفصلين .

وإليك قطعة أخرى من كلام ابن عربشاه فى كتابه « فاكهة الخلفاء » . قال فى
الباب الخامس وهو فى «نوادر ملك السباع ونديمه أمير الثعالب وكبير الضباع» :

« أخذ الحكيم حسان يقص على الملك نوادر الوحوش والسباع فقال :

كان فى بعض الغياض . أسد رباض . عظيم الصورة . كريم السريرة
والسيرة ، وافى الحشمة . عالى الهمة . كثير الأسماء والألقاب · عزيز الأصحاب .
كبير بين الأمراء والحجاب والوزراء والنواب . يدعى فى جوانب مملكته .
وأطراف ولايته . بحيدرة وبهس وضيغم والدوكس . والغضب والضرغام
والعنبس . والطيثار والهندس . والغضنفر والهرماس . والغضبان وأبى العباس .
إلى سائر الأسماء والألقاب والكنى . وكثرة الأسماء . تدل على شرف المسمى .
وهو مطاع فى ممالكه وولاياته وأقاليمه . مترشف ثغور الامتثال بشفاه أمثلته
ومراسيمه . وكان له من خواص الندماء وكبراء الجلساء . نديمان كندمانى
جذيمة . يلازمان حضرته ويلجان حريمه . أحدهما ثعلب يدعى أبا نوفل .
والآخر ضبع يسمى أبا نهشل . طبعهما ظريف . وشكلهما لطيف . ومحاضرتهما
مرغوبة . وصحبتهما مطلوبة . وكان فى خدمته دب هو وزيره . ومعتمده ومشيره .
كافل أمور مملكته . ومدبر مصالح رعيته . والملك مفوض أمور الرعية إليه .
ومعتمد لما يعلم من كفايته عليه . ومشغول ليلا ونهارا بمعاشرة نديميه .

فاتسع خيال الوزير . وأخذ فى مجال التفكير . إلى النديمين . لكونهما ناصحين
قديمين . ربما يصدر منهما عند الملك ما يحط منزلته . ويفسدان — للحسد
الذى لم يخل منه جسم — صولته . واستحوذ عليه هذا الخيال . واتسع فى ميدانه
المجال . فكان خائفا على وظيفته ومنصبه . مترقبا منهما ما يكون عزله بسببه .
فنشأ من ذلك فى خاطره جساوة . أورثته قساوة . وجذبته إلى عداوة . ووقر
فى فيه ذلك وتأكد . وطال عليه من الدهر الأمد . فكان يترقب لهما الفرص

ليوقعهما من الغصص فى قفص . ويسابقهما قبل انتيابه . ويتغذى بهما قبل أن يتعشيا به . ويقول : لابد من تنظيف الطريق . قبل حصول التعويق . وقد أحسن من قال . وأتقن فى المقال :

ومن لم يزح عن دربه الشوك قبل أن يطاه فلا يعتب إذا شاك رجليه(١)

وغنى عن البيان ما يتراءى خلال هذه السطور من تعقيل الحيوان ونسبة لوازم الإنسان العاقل إليه . وحسبنا أن نشير إلى نسبة هذه الأمور إلى الأسد وهى : كرم السريرة والسيرة . وعلو الهمة . والملكية وكثرة الأصحاب والأمراء والحجاب ووجود الندمان واتخاذ الوزير . وطاعة الرعية له . وبما يصدر عنه من مثال ووسام على نمط الملوك . والشرف . هذا إلى ما نسبه الكاتب ، إلى الدب وزير الأسد من سعة الخيال ، والأخذ فى التفكير ، والخوف من انحطاط المنزلة ، وامتلاء قلبه بالغيرة والحسد وانشغال باله بوضع خطة يزيح بها النديمين من طريقه إلى غير ذلك ، مما هو ناطق بهذه الخصوصية التى ذهبنا إليها واصطنعها خيال الكاتب . ويبدو أن الكاتب قد تأثر بقصص كليلة ودمنة ، إلى جانب تأثره بكتاب المقامات .

---

(١) فاكهة الخلفاء — الباب الخامس .

الفصل الثالث

٣ ــ اصطناع البديع

البديع من أهم خصائص الأسلوب الفنية في هذا العصر ، سواء أكان في شعره أم نثره . وقد بلغ البديع في الشعر ، على يد أصحاب البديعيات ، الغاية التي بلغها في النثر على يد الحريري وأضرابه من متكلفي البديع .

أما في النثر فلم يكن طابع البديع جديداً عليه . وإنما هو امتداد ، في جملته لما كان في العصر الماضي . على أن كثيراً من ضروبه كالطباق والمقابلة والتضمين ومراعاة النظير ، حتى ألوان السجع والجناس — وهي حلي لفظية — ظواهر أسلوبية طبيعية تكاد تكون ملازمة لأساليب الناس على اختلاف طبقاتهم في جميع العصور العربية[1] . يشهد لذلك أساليب العامة ، التي هي في قديم العصور أساس تكوين اللغة .

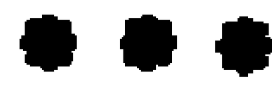
ويشهد لذلك أيضاً ما نراه في أساليب الجاهليين من توخي ألوان من البديع كثيرة . حتى الأسلوب القرآني ، لقد جرى على اصطناع ألوان منها عدة ، وقد ضربنا لذلك الأمثال .

فدعك من معاني المفردات اللغوية ، فإن الأدب أوسع نطاقاً من أن يعنى بالأداء اللغوي فحسب ، فإنه إلى جانب ذلك ، يؤدي أداء عاطفياً ونفسيا . وموسيقا العبارة ، وتوافق الجرس اللفظي فيها ، واتساق الإيقاع في المعنى بالطباق والمقابلة مثلا ، أو بالتورية المجسمة ، كل ذلك أجزاء من المعنى يقصد به

---

(١) راجع رسالة «الصبغ البديعي» للأستاذ أحمد موسى بكلية الدراسات العربية مخطوطة بمكتبة الكلية. انظر الباب الثالث وفيه ص ٢٢١ قد ذهب إلى أن كثيرا من ألوان البديع طبيعية في أساليب الناس، وإلى أنها ذات صلات بالمعاني — ومع هذا لذي ذهب إليه سفه كتاب البديع في عصر المماليك وحمل عليهم حملة شعواء — ونسب ذلك إلى تكلفهم البديع — وفي ذلك نظر ...

أن يبلغ المعنى — فضلا عن لغويته — هدفه من التأثير والإثارة . وبهذا يتم للعبارة تأديتها العاطفية والنفسية ، وربما كانت أهم من تأديتها اللغوية المجردة .



ومن هنا ينبغي ألا نتنكر للبديع كل هذا التنكر ، نحن أدباء العصر الحديث ونقاده — وإن كان بعض البديعيين قد غلوا فيه وتكلفوه — وأن نعيد إليه النظرة ، ونستأنى فى فحصه وتفهمه ، لنستجلى ما تخفى أنواعه من طرف معنوية فيها تأثير وإيحاء .

وأعتقد أنه قد مرت الفترة التى راعنا فيها تدفق المعانى الجديدة ، وغمرتنا فيها النشوة من اطلاعنا على آداب مختلفة قديمة وحديثة ، عربية وغربية . فدفعنا هذا إلى التنكر لألوان من الأدب القديم ، وفى جملتها أدب البديع ، ناسين فى خلال هذه الروعة أو النشوة ، أن هذا الأدب لم يبتدع ابتداعا ولم يرتجل ارتجالا ، وإنما كان دوراً من أدوار الأدب عامة ، تحدر من منطق العصور وسياقها ، وانبثق من تحول البيئات ونوعها .

وكان تنكرنا له سببا فى حملتنا عليه وتنقصه ، وسببا فى عدم دراسته دراسة مجدية مثمرة ، تفصح — مثلا — عن مدى مابلغته عقلية شعب ونفسيته فى مدى ثلاثة قرون تقريباً .

وكنت أعتقد أنى أول من وجه اللوم إلى نقاد الأدب فى العصر الحديث لتنكرهم لأدب البديع . ولكننى وجدت رجلا آخر يسبقنى إلى ذلك . وهو المرحوم الدكتور زكى مبارك . فقد كان يتكلم عن نثر القرن الرابع الهجرى فى كتابه النثر الفنى — وهو نثر غلبت عليه الصناعة — فقال :

« وإذا كان كتاب العصر الحاضر لا يستطيبون أكثر آثار ذلك العصر ، ويرون بلاغتها بلاغة لفظية ، فلأنهم أسرفوا فى مهاجمة النثر الفنى الذى غلبت عليه هذه الصنعة ، حتى صارت صدورهم تضيق كلما رأوا سجعاً أو جناساً

أو طباقا . أو أى محسن وقع عن قصد . مع أن المتأدب لا يقبل على آثار ذلك العصر إلا عجب لتلك القرائح القوية وتلك الطبائع السليمة ، التى سمحت لأولئك الناس بالتعمق فى وصف ما شهدته أعينهم ، وأحسته أنفسهم ، من غرائب العوالم المحسوسة والمعقولة بطريقة فنية هى وحدها تتطلب دقة فى الفهم ، وقوة فى العقل ، وسلامة فى الذوق »[1] .

والفارق بينى وبين الدكتور أنه يتحدث عن أدب القرن الرابع ، وأتحدث عن أدب عصر المماليك . وكلاهما من أدب البديع .

* * *

ولوع الأدباء بالبديع :

على أن الظاهرة التى نريد تسجيلها هى ولوع أكثر أدباء عصر المماليك بالبديع وتقديسه ، إلى حد أنهم سلكوا فى عقده كل ضروب البلاغة ، ومنهم أصحاب البديعيات . هذا عدا ما ابتكروه من ألوان جديدة . ويتضح لك ذلك مما ذكرناه عن ابن حجة الحموى وخزانته التى شرح فيها بديعيته وما تحتوى عليه من ألوان بديعية فى جملتها التشبيه والاستعارة مثلا .

ونحن لا نعجب لهذا الهيام البالغ . فالعصر عصر الحلية فى كثير من ضروب حياته ، فى الحفل ، فى الموكب ، فى الملبس ، فى السلاح ، فى غير ذلك ، حتى فى الأخلاق ... ولهذا كله رجع بعيد المدى فى أساليب الكلام .

وقد بلغت ألوان البديع فى بديعية ابن حجة مثلا ، نحو مائة وخمسين لونا تقريبا .

والنثر فى ذلك صنو الشعر . وإن كان للشعر أنواع بديعية مقصورة عليه كالإيداع والاكتفاء . غير أنه لمعت فى النثر ألوان من البديع لا عداد لها ، ولعل مرجع ذلك إلى أن الشعراء كانوا كتابا ، أو كان الكتاب شعراء . وكان زعماء الشعر هم زعماء الكتابة أو العكس . أو ربما كانت زعامتهم للكتابة

(١) النثر الفنى لزكى مبارك ج ١ ص ١٧٥ .

ورياسة بعضهم للديوان سببا من أسباب تعمد البديع فى الكتابة ، ومن ثم تعمدوه فى الشعر . وقد كانت الرسائل الديوانية فالإخوانية فرسائل الوصف على اختلاف أنواعها فالقصص والمقامات ، من أوسع الآفاق التى لمعت فيها نجوم البديع .

* * *

الدراسات القرآنية :

وأعتقد أن عناية النقاد والأدباء حينذاك بدراسة أساليب القرآن وطريقة نظمه كانت ذات أثر فى إقبالهم على اصطناع البديع . وذلك بدافع الإعجاب بنظمه الفريد . ولا يخلو هذا الإعجاب من نزوع دينى .

وقد كان القرآن وأساليبه موضعاً لدراسات كثيرة متنوعة ، منذ فجر الإسلام حتى يومنا هذا . ومنها دراسة نظمه وطرق أدائه . غير أن هذا الضرب من الدراسة لم يخلص مرة لفن نقد الأسلوب ، وحده . بل ظل ممتزجا بالرغبة فى بيان الإعجاز أو شرح الآيات وبيان الأحكام مثلا . أما النقدات الفنية الخالصة فكانت تعرض بين الآن والآن . غير أنها أخذت تنشط ويزيد خطرها ، وتنظر إلى نظم القرآن باعتباره أمثل نموذج للأساليب الفنية ، هذه النظرة التى صاحبتها منذ بدء أمرها .

واتضحت هذه النظرة فى كتب النقاد ، التى من متأخرها كتاب « المثل السائر » لابن الأثير [1] المتوفى قبيل العصر المملوكى بسنوات معدودة . وتأثر بآرائه — ولا ريب — نقاد العصر المذكور .

وكلما تحدث النقاد عن أحد ألوان البديع ، استشهدوا له أولا بأمثلة من القرآن الكريم . واتضحت هذه الظاهرة فى كتابى «حسن التوسل» و «خزانة الأدب» ، حتى إن ابن حجة استدرك على ابن المعتز ، عند حديثه عن «المذهب الكلامى»

---

(١) يقول ابن الأثير فى مقدمة كتابه وهو يتكلم عن علم البيان : « وكنت قد عثرت على ضروب كثيرة منه فى غضون القرآن الكريم لم أجد أحدا ممن تقدمنى تعرض لذكر شىء منها . وهى إذا عدت كانت فى هذا العلم بمقدار شطره » .

وقول ابن المعتز إنه لا يعلم ذلك فى القرآن ، فقال ابن حجة : « وليس عدم علمه مانعاً علم غيره . ولم يستشهد على المذهب الكلامى بأعظم من شواهد القرآن. وأوضح الأدلة فى شواهد هذا النوع وأبلغها قوله تعالى « لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا »(١) .

واعتبار النقاد والأدباء أن نظم القرآن الكريم يحتوى على كل الألوان البديعية ، وحرصهم على الاستشهاد عليها بأمثلة من القرآن ، وعثورهم فعلا على هذه الأمثلة ، دفعهم كل ذلك إلى تحرى أساليبه والاقتداء بها فى كتابتهم .

وقد تكلم القلقشندى فى كتابه صبح الأعشى ، عن السجع فعقد له فصلا طويلا ، سنعرض لشىء منه فيما بعد . وقد استوفى فيه الحديث عن السجع وأنواعه ونظم فقراته وعددها ، واستشهد لكل ما قال بآيات من القرآن الكريم ناقلا كثيراً مما يقوله عن ابن الأثير والشهاب الحلبى . وقد بين أن أكثر سجعتين فى القرآن ألفاظاً ، قوله تعالى: « إذ يريكهم الله فى منامك قليلا ولو أراكهم كثيراً لفشلتم ولتنازعتم فى الأمر ولكن الله سلم إنه عليم بذات الصدور. وإذ يريكموهم إذ التقيتم فى أعينكم قليلا ، ويقللكم فى أعينهم ليقضى الله أمراً كان مفعولا وإلى الله ترجع الأمور » . فالأولى عشرون لفظة ، والثانية تسع عشرة — وقد عقب القلقشندى على ذلك بقوله : « وهذا غاية ما انتهى إليه الطول فى القرآن الكريم . قال « وينبغى أن يكون ذلك نهاية الطول فى السجع وقوفا مع ما ورد به القرآن الكريم الذى هو أفصح كلام وأقوم نظام. وإن كان الوزير ضياء الدين بن الأثير والشيخ شهاب الدين محمود الحلبى وغيرهما قد صرحوا بأنه لا ضابط لأ كثره »(٢) .

هذا هو موطن شاهدنا . ورأينا أن فهم النظم القرآنى على هذا الوجه ، فيه مبالغة من هؤلاء النقاد .

غير أن هناك فارقا بين نظمهم ونظمه ، ذلك أنه لم يكرر أمثلة النوع الواحد

(١) خزانة الأدب ص ١٦٥ باب « المذهب الكلامى

(٢) صبح الأعشى ج ٢ ص ٢٧٩ .

إلا حيث يطلب الإيضاح والتأثير . أما هم فكرروها أحياناً حيث لا داعى إلى ذلك .

ولا ننسى أن للحديث النبوى أثراً آخر فى هذا الاتجاه ، بعد أثر القرآن .

* * *

تأثرهم بطريقة القاضى الفاضل :

وهذا الجو الفنى الذى عاشوا فيه ، والذى نشأ من ذوق العصر واتجاهه إلى الحلية ، ومن طريقة تذوقهم للنظم القرآنى ، أفسح السبيل أمام طريقة القاضى الفاضل فى الكتابة والشعر معاً ، أن تكون أهم المناهج التى يحتذونها وأن يتخذوا صاحبها لهم إماما فى مسالكهم الأسلوبية ، وذلك لأنها أمثل طريقة تتفق مع هذا الجو ، ويلتئم معها .

وتراهم عندما يعرضون لذكر الفاضل يضفون عليه آيات الثناء والإطراء ، ويعترفون له بالفضل والسبق والإمامة ، حتى إنهم كانوا يشبهون به ويضربون المثل بأدبه عند المناسبات فى الشعر أو النثر . وقد فرض الفاضل نفسه على الكتاب منذ عصره بما كان له من بسطة فى المال والجاه والسياسة والعلم والأدب .

وذكر ابن حجة القاضى الفاضل فقال عنه : « كان نظم القاضى الفاضل — رحمه الله — ونثره كفرسى رهان . ولكن نثر أكثر مما نظم . وأجمع الناس أنه أتى مع الإكثار بالعجائب . وذكر قاضى القضاة شمس الدين بن خلكان فى تاريخه أن مسودات رسائله إذا جمعت ما تقصر عن مائة مجلد . وهو يجيد أكثرها . ولعمرى إن الإنشاء الذى صدر فى الأيام الأموية والأيام العباسية نسى وألغى بإنشاء الفاضل وما اخترعه من النكت الأدبية والمعانى المخترعة والأنواع البديعية . والذى يؤيد قولى قول العماد الكاتب فى الخريدة أنه فى صناعة الإنشاء كالشريعة المحمدية نسخت الشرائع . »[1] .

هذا ، وقد مدح ابن قلاقس ، القاضى الفاضل وقلمه فقال من أبيات :

---

(١) عن ثمرات الأوراق .

فى كفه قلم إن شئت أو قدر   يصرف الخلق بين النفع والضرر(١) .

ونعتقد أن لنبوغ الفاضل فى استعمال التورية ، أثرا فى إعجاب كتاب المماليك به ، ومشيهم تحت رايته . وذلك لأن التورية — فى الحق — عنصر أصيل من عناصر التعبير المصرى ومظهر بارز من مظاهر الذوق المصرى . هذا فضلا عن نبوغه فى ألوان أخرى غيرها لها صلة بهذا الذوق ، كالاستخدام والتضمين مثلا . وقد أشاد ابن حجة فى خزانته بذكر الفاضل عند كلامه عن التورية . وعده أنه هو الذى عصر سلافتها .

وكذلك فعل من قبله صلاح الدين الصفدى فمجد الفاضل فى كتابه « فض الختام » .

وقد كان لافتتانهم وافتتان معاصريهم بأدب الفاضل ، أثر فى إقبالهم على معارضة شيء من رسائله . والمعارضة الأدبية فى الشعر أو النثر دليل ضمنى على الإعجاب والاقتداء .

وكان الفاضل قد كتب رسالة على لسان سلطانه « صلاح الدين الأيوبى » يرد بها على الإمام الناصر العباسى الذى أرسل إليه يأخذه بأشياء . وكانت رسالة الناصر بقلم كاتبه ابن زيادة . فكتب الفاضل الرد فى نحو ٢٤٠ سطراً ، وفيه يحاسن الإمام .

وقد اطلع المنشىء القدير محي الدين بن عبد الظاهر على رسالة الفاضل ، فاستشاط غضباً وحنقاً ، ورأى أنه كان ينبغى مخاشنة الإمام لامحاسنته . وأخذ فى معارضة الرسالة الفاضلية برسالة ضمنها هذه المخاشنة . . . وإن كان ذلك بعد فوات الحادث بعشرات السنين . . .

ومن كلام الفاضل فى رسالته ، قال فى مطلعها :

« يأيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوما بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين . أدام الله أيام المجلس السامى القوامى ، إدامة تؤذن بتشييد معاليه . وتشمل بيمنها وبركتها حاضر وقته وتاليه . و تؤيد من

---

(٤) الأبيات فى تاهل الغريب » مخطوط . انظر باب المديح فيه .

يواليه من مواليه . وتخلد معها ناضر وقته وحاليه . ويتكافأ بها ترادف النصر وتواليه . وتزينه بمحاسن الصفات وتحليه . » . الخ —

ومن عتبه فيها قوله :

« فى سالف الوقت قيل فيمن سارع للاثم إليه وأعجله . رب ملوم لا ذنب له . وإن كان — أعلى الله كلمته — قد أعنق فى النصيحة وأوضع . فقد أنهر الجروح وأوسع . وربما بالغ الطبيب فى إغراق المبضع فأوجع . واشتد الألم وإن لم يلم . لأنه غير خاف عن أحد من ملة الإسلام وذوى العقول والأحلام . أن الدين عقد سيدنا ومولانا ، أمير المؤمنين ، صلوات الله عليه ، واسطته . وعقد هو رابطته » . . الخ[1] .

* * *

ومن المعارضات أيضاً ما ذكره ابن حجة الحموى أن قطعة من إنشاء القاضى الفاضل بوفاء النيل قرئت على مسامع السلطان المؤيد شيخ عام ٨١٩ ﻫ وأحضرها صاحب ديوان إنشائه الناصر محمد بن البارزى . ثم طلب إليه أن يعارضها، وحذر من التعرض إلى شىء من ألفاظها ومعانيها . فأنشأ رسالة فى ذلك[2] .

وإليك سطوراً من رسالة الفاضل ، قال :

« نعم الله سبحانه وتعالى من أضوئها بزوغا . وأضفاها سبوغا . وأصفاها ينبوعا . وأسناها منفوعا . وأمدها بحر مواهب . وأضمنها حسن عواقب . النعمة بالنيل المصرى الذى يبسط الآمال ويقبضها مده وجزره . ويربى النبات حجره . ويجرى على سواد الأرض بفضته البيضا . ويهنأ بيده الخصيبة نقب الجرب من الجربى . ويحيي مطلعه أنواع الحيوان . ويجنى ثمرات الأرض صنوان وغير صنوان . وينشر مطوى حريرها وينشر مواتها . ويوضح معنى قوله تعالى : « وبارك فيها وقدر فيها أقواتها » . » الخ .

* * *

---

(١) الرسالة بتمامها فى تذكرة الصفدى الجزء الثالث عشر — مخطوط بدار الكتب. وكذلك رسالة ابن عبد الظاهر التى عارضها بها .

(٢) سجلنا سطورا من رسالة ابن حجة هذه فى باب الرسائل تحت فصل « البشارات » . والرسالتان فى خزانة الأدب ص ٤٣١ وهما في ثمرات الأوراق كذلك .

ولا بأس من أن نسجل مختارات أخرى من نثر الفاضل وشعره معا ، لنضع أمام القارىء ألوانا من فنونه الأدبية نستخلص منها خصائص طريقته .

قال الفاضل يمدح بنى أيوب :

« قد كان يقال إن الذهب الإبريز لا تدخل عليه آفة . وأن يد الدهر البخيلة به كافة . وأنتم يا بنى أيوب أيديكم آفة نفائس الأموال . كما أن سيوفكم آفة نفوس الأبطال . فلو ملكتم الدهر لامتطيتم لياليه أداهم . وقلدتم أيامه صوارم . ووهبتم شموسه وأقماره دنانير ودراهم . وأيام دولتكم أعراس ، وما تم فيها إلا على الأموال ما تم . والجود فى أيديكم خاتم ، ونفس حاتم فى نقش ذلك الخاتم . »[1] .

ووصف الفاضل حمائم الرسائل فقال من رسالته :

« سرحت لا تزال أجنحتها تحمل من البطائق أجنحة . وتجهز جيوش المقاصد والأقلام أسلحة . وتحمل من الأخبار ما تحمل الضمائر . وتطوى الأرض إذا نشرت الجناح الطائر . وتزوى لها الأرض حتى ترى ما سيبلغه ملك هذه الأمة . وتقرب من السماء حتى ترى ما لا يبلغه وهم ولا همة . وتكون مراكب الأغراض والأجنحة قلوعا . وتركب الجو بحرا يصطفق فيه هبوب الريح موجا مرفوعا . وتعلق الحاجات على أعجازها . ولا تعوق الإرادات عن إنجازها . ومن بلاغات البطائق استفادت ما هى مشهورة به من السجع . ومن رياض كتبها ألفت الرياض فهى إليها دائمة الرجع . » الخ[2] .

ومن شعر الفاضل قوله من قصيدة يمدح بها :

أهذه سير فى المجد أم سور وهذه أنجم فى السعد أم غرر
وأنمل أم بحار والسيوف لها موج وإفرندها فى لجها درر
وأنت فى الأرض أم فوق السماء وفى يمينك البحر أم فى وجهك القمر

ومنها :

وأنت فى جيش رأى لا غبار له ترمى العداة بقوس ماله وتر

---

١ ، ٢ — عن ثمرات الأوراق .

سقى بك الله دنيانا فأخصبها والعدل يفعل ما لا يفعل المطر
لما استقلت ستور الملك لاح لنا ملك به الجود عين والثنا أثر [(١)]

وقال يصف السيوف ويمدح :

ولرب هاتفة دعتهم للوغى جعلوا صرير المرهفات صداها
هى فى بحار يديه أمواج ترى ونفوس من قتلته من غرقاها [(٢)]

وقال يصف الدمع والجفن :

أشكو إليك جفونا عينها أبداً عين تترجم عن نيران أحشائى
كأن إنسانها وافى بمعجزة فصار من أدمعى يمشى على الماء [(٣)]

فى هذه المختارات غنية وكفاية . ونستطيع باستقرائها ولحصها أن نعرف خصائص الفاضل فى نثره وشعره . وهما كما قال ابن حجة فرسا رهان ، أى فى جودتهما وفى أنهما تباريا فى إظهار هذه الخصائص وتشابها فيها .

ومن هذه الخصائص : بروز الخيال الشعرى : الذى يعتمد عليه الوصف اعتمادا كبيرا . وقد تجلى هذا فى النثر كما تجلى فى الشعر . انظر مثلا إلى وصفه للنيل تر التشبيهات والمجازات الآتية : بحر مواهب . بسط الآمال وقبضها : تربية النبات . حجره . فضته . يهنأ . يده . ينشر المطوى . ينشر الموات .

وأما « إنسانية ما لا يعقل » أو « تعقيله » فأمر بارز كل البروز ، وذلك فى إسناد البسط والقبض والتربية والحجر والهن « الطلاء » واليد والنشر ، إلى النيل ، وهى من خصائص الانسان .

والذى نحب أن نلفت النظر إليه أن الكاتب يبدو وقت كتابة سطوره وقد استغرق الموضوع كل شعوره ، حتى تمشى فى عباراته كلها لون عاطفى واحد

(١) عن تأهيل الغريب « مخطوط » انظر باب المديح .
(٢) عن تأهيل الغريب باب وصف السيف .
(٣) عن تأهيل الغريب باب وصف الدمع .

متواصل الأجزاء . وكلها أمور تشعر بالإقرار بالنعمة وإكبارها وعمق الإحساس بفضلها وتعظيم مانحها سبحانه وتعالى ، ولذلك أبرز الكاتب آثارها وضخم هذا الإبراز بذكر البزوغ والإضاءة والإضفاء والسبوغ والصفاء والنبع ، والسناء والنفع ، والإمداد والبحر والمواهب والبسط والآمال والتربية والجرى . . . الخ الخ . وكلها — كما ترى — من واد واحد ومن صبغ عاطفى واحد ، وفى هذا الدلالة الكافية على وحدة الشعور وعمق التجربة وصدقها .

وقد استعان الكاتب على عمله الأدبى ، وتسجيل تجربته هذه بأمور ذات صلة وثيقة بإيضاح المعنى بل يكاد المعنى لا يتم — فى مثل هذه الوجازة — بدونها ومنها :

الطباق : وذلك واضح فى البسط والقبض . والمد والجزر . وصنوان وغير صنوان . وينشر المطوى . وينشر الموات .

الاقتباس : وذلك واضح فى : صنوان وغير صنوان . وفى : « وبارك فيها وقدر فيها أقواتها » .

الجناس : وعلى الرغم من أنه محسن لفظى — كما يقال — فهو هنا شديد الصلة بالمعنى . هذا فضلا عن توافق نغمه وانسجام جرسه ، حتى إن الباحث عن الألوان البديعية لا يفطن إليه لجاءة ، وذلك لشدة توافقه وقوة انسجامه . وهو باد فى قوله : أضفاها وأصفاها وينشر وينشر .

السجع : وهو الطابع الذى طبعت به القرائن . فالكاتب هنا لا يحيد عنه . وهذه إحدى خصائصه التى يفترق بها عن ابن العميد مثلا . ويتفق فيها مع ابن عباد مثلا من ملتزمى السجع . ولكن سجعه فى هذه السطور خفيف هين لا تكلف فيه ، ملتئم مع المعنى وتتطلبه القرائن . فإذا قلنا مثلا : من أضوئها ، كانت كلمة : « بزوغ » أقرب . وإذا قلنا : « أضفاها » كانت كلمة : « سبوغ » أقرب . وهلم جرا . وسجعه كما ترى مترجح بين قصر الفقرات وطولها وبين الموازنة وعدمها . وهو لا يلتزم إطالة الفقرات ، كما يصفه بعض النقاد .

التورية : وهذه إحدى خصوصيات طريقة الفاضل ، وقلما خلا منها مقال أو قصيدة له . ومنها قوله فى مدحه لبنى أيوب : « وماتم فيها إلا على الأموال ماتم » . ففى كلمة ماتم الثانية جناس التورية بمعنى « الذى تم » ، وبمعنى « مأتم » وهمزتها ، مسهلة وهو المعنى المراد وكذلك قوله : والجود فى أيديكم خاتم ، ونفس حاتم فى نقش ذلك الخاتم . ففى كلمة خاتم الأولى تورية بمعنى الحلية وبمعنى اسم الفاعل من ختم يختم بمعنى الذى انتهى إليكم فليس بعدكم مكرم . وهنا تبدو تورية أخرى فى كلمة « نقش » بمعنى المنقوش فى الخاتم ، أو بمعنى ما سطرته أيديكم فى تاريخ الكرم وهو المعنى المراد . ومرشح التورية الأولى فى قوله : « فى أيديكم » ، ومرشح الثانية قوله : « ذلك الخاتم » ، وقوله : « نفس حاتم » أيضا . ونستطيع فهم تورية أخرى فى قوله : « نفس حاتم » المعنى القريب هو « أمل حاتم » ، والبعيد « حاتم نفسه » . وهكذا .

حسن التعليل : وقد بدا فى قوله فى القطعة الثالثة فى وصف الحمائم : « ومن بلاغات البطائق استفادت ما هى مشهورة به من السجع . ومن رياض كتبها ألفت الرياض فهى إليها دائمة الرجع » . فقد علل سجع الحمائم باطلاعها على بلاغات البطائق . وعلل دوام رجعها بإلفها الرياض .

هذا وفى كلمة « الرجع » تورية . المعنى القريب الرجوع ومرشحه الإلف . والبعيد الغناء .

ولو أننا استقرأنا دقائق فن الفاضل فى بقية تلك المختارات لبدا لنا أسلوبه واضحاً بخصائصه فى كل موضوع يتحدث فيه .

ولا بأس من أن نوجه النظر إلى بيته فى وصف السيوف حيث يقول :

هى فى بحار يديه أمواج ترى   ونفوس من قتلته من غرقاها

فقد لاءم بحنكة ومقدرة وخيال مجمع بارع بين بيئة البحار وصورها ، وميدان القتال وصوره . ومازج بين الطرفين ممازجة دقيقة جمعت جملة من التشابيه مع وضوحها وحسن أدائها للمعانى ، ومع رسم تصور الشاعر — وهو تصور واسع النطاق — فى هذا البيت الواحد .

وأول مرحلة أو صورة رسمها هى « بحار اليدين » فصور يدى الممدوح بحارا ، وفى هذا معنى الكرم أو معنى السعة والبسط والقوة والعمق ، ومعنى الحلم والغضب أيضاً وهما مما يعترى البحار .. ثم أخذ الشاعر يزاوج بين ملائمات الطرفين ملاءمة بارعة قوية . فى صور متوالية . فالسيوف أمواج . والنفوس المقتولة غرقى . أما الصورة الأولى : فنى السيوف والأمواج لون وصقل وتموج وحركة وصعود وهبوط وبلل وقطرات . وفى الصورة الثانية فى القتلى والغرقى : هلاك واستقرار وبلل . إلى غير ذلك . هذه كلها جملة من المعانى والتصورات رسمتها ريشة الفاضل فى يسر ووضوح ووجازة . وقد عاونه على ذلك كله خياله البارع ودقته فى تخير التشبيهات والمجازات .

والذى نسجله بعد هـــذا أن طريقة الفاضل لم تتعمد التشبيه للتشبيه ، أو تتكلف المجاز للمجاز . وإنما هما أمران نزع إليهما الخيال الشعرى فاتخذ منهما أجنحة يطير بهما نحو تصوراته ، ويقع بهما على تصويراته .

ومن هنا نعلم أن الفاضل كان مدرسة المعانى ، كما كان مدرسة التشبيه والمجاز كما كان مدرسة البديع[1] .

ونستطيع بعد هذا أن نلخص خصائص طريقته فى النثر والشعر على السواء ، وهى التزام السجع فى غير تكلف ، وترجح فقراته بين القصر والطول وبين الازدواج وعدمه ، والطباق والمقابلة ، والتضمين والاقتباس على وجوهه وحل الشعر ، واصطناع التشبيه والمجاز ولا سيما الاستعارة أداء للمعانى . مع العناية بالتورية والاستخدام وبراعة الاستهلال ومراعاة النظير والتلميح إلى الحوادث ، والتوجيه بمصطلحات العلوم ، ونحوها ، وحسن التعليل والجناس المقبول .

---

(١) يذهب الدكتور الفاضل عبد اللطيف حمزة فى كتابه « الحركة الفكرية » ص ٢٨٢ ، إلى تقسيم مدارس الأدباء منذ عصر الفاطميين إلى نهاية الدولة البحرية إلى ثلاث : مدرسة البديع وزعيمها القاضى الفاضل ومن رجالها محي الدين بن عبد الظاهر وابن نباتة المصرى . ومدرسة المعانى ومن رجالها الجزار والوراق والحمامى . ومدرسة التشبيه ومن رجالها ابن حيدرة العقيلى فى زمن الفاطميين ولم يذكر أحدا من رجالها فى عصر المماليك . — ونحن نرى أن الفاضل أستاذ المدارس الثلاث ، وأن أدباء عصر المماليك شعراء ومنشئين نهجوا نهجه وجمعوا فى أدبهم بين البديع والمعانى والتشبيه .

وبعد فهذة وجازة فى المنهج الفاضلى الذى كان له أثر بعيد المدى فى المناهج الأدبية من بعده . ومنها ترى سر تعلق الأدباء الذين خلفوه بالبديع ، وبالإكثار من التشبيه والمجاز ، سواء منهم المنشئون أو الشعراء . فقد كان للجميع مذاهب أدبية مشتركة على وجه التقريب .



وفى السطور التالية نعرض بعض الألوان البديعية التى لمعت فى نثر المنشئين ونضرب لها الأمثلة .

ونقول : « التى لمعت » وفى ذلك تحديد للألوان التى نعرضها . إذ لم تكن كل ألوان البديع لامعة فى نثرهم الفنى .

على أن لكل لون أصولا ودرجة من اللمعان . ننبه عليها فى حديثنا التالى .

فمن القسم الأول :

السجع ونظم فقراته :

السجع هو توافق مفردات القرائن المتتالية فى الوزن أو الحرف الأخير ، أو فيهما معاً . والمفردات أى المتقابلة منها . والسجع إحدى سمات الأسلوب التى ظهرت فيه من أمد بعيد ، آنا يلتزم فى عصر أولدى طائفة ، وآنا لا يلتزم ، وذلك تبعاً لظروف الحياة وطبيعة الموضوع ومزاج الأديب .

وقد ظهر السجع فى عصر المماليك ، والتزم فى الأساليب الأدبية على اختلاف موضوعاتها ، سواء أكان فى الرسائل الديوانية أو الإخوانية أو المقالات الوصفية أو الموازنات أو الإجازات أو الألغاز أو خطب الكتب أو الأهاجى أو المقامات أو القصص أو غير ذلك مما شاهدنا نماذجه واضحة خلال أبواب هذا البحث . وقد تعدى أمر السجع إلى الكتب العلمية ونحوها فتراءى بين سطورها بين الفينة والفينة ، ولا سيما فى كتب التاريخ والسير والتراجم . وقد شهدنا من بينها كتاب « عجائب المقدور فى أخبار تيمور » لابن عربشاه ، وشاهدنا كيف التزم المؤلف السجع فى الكتاب من أوله إلى آخره .

على أن بعض الأدباء لم يلتزم السجع ، بل كان يسجع أحيانا ويسترسل أخرى . ولا سيما المناظرون وأصحاب المقالات الكلامية والناقدون . فقد كادت مقالاتهم تكون خالية من الأسجاع . وسبب هذا أن النزعة العلمية فيها كانت أكثر من غيرها .

* * *

والسجع محسن لفظى ، وهذا ما اتفق عليه الأدباء والبلاغيون . وهو بهذا لا يمت إلى تحسين المعنى بصلة . ولكننا نرى مثلا رجلا كابن الأثير يتعصب للسجع تعصبا شديدا ، ويرمى من يعيبون السجع من معاصريه بعجزهم عن إجادته[١] . وترى مثلا رجلا كالقلقشندى يقول : « السجع هو قوام الكلام المنثور وعلو رتبته »[٢] . واشترطوا أن يكون سمحا لا متكلفا ، وأن يجىء منقادا للمعنى .

ونرى أنه كثيراً ما يكون طبيعياً أتت به ضرورة المعنى ، فتجتمع له بذلك الحليتان اللفظية المعنوية ، وآية ذلك ما شهدناه فى نماذج القاضى الفاضل . ومن بين كتاب المماليك من خف سجعه فلذ وقعه . ومنهم الشهاب الحلبي الذى يقول فى وصف فرس كميت :

« ومن كميت نهد . كأن راكبه فى مهد . عندى الإهاب . شمالى الذهاب . يزل الغلام الخف عن صهواته . وكأن نغم الغريض ومعبد فى لهواته . قصير المطا . فسيح الخطا . إن ركب لصيد قيد الأوابد . وأعجل عن الوثوب الوحش الأوابد »[٣] .

* * *

على أننا نذهب فى السجع مذهبا نرجو أن يكون صائبا . وقد رددناه عند ما تحدثنا عن السجع القرآنى . فنحن نعتقد أن من أهم وظائف الأدب «التأثير

---

(١) راجع المثل السائر باب السجع ص ٧٤ .
(٢) راجع ج ٢ من صبح الأعشى فصل السجع ص ٢٧٩ .
(٣) حسن التوسل ص ١٤٢ — ويبدو أن الفقرتين الأوليين ضمنهما من كلام بديع الزمان — انظر ص ٧٤ من حسن التوسل .

والإثارة » ، فهما إذن جزء من المعنى الأدبى الذى يصوره الأديب . فهو يريد تصويره مؤثراً مثيراً . ووسائله إلى ذلك متعددة ، ومن بينها «السجع» وذلك لما فيه من موسيقا وحسن إيقاع وجمال اتساق . والسجع كان ولا يزال من أهم العوامل التى تعتمد عليها الأغانى فى بلوغ هدفها من السامعين .

وحقاً كلما كان السجع طبيعياً لا كلفة فيه ، منقاداً للمعنى ، كان أجمل وأفضل . وفى هذا يقول القلقشندى ما ملخصه : « إن حسنه أن يكون بريئاً من التكلف خالياً من التعسف ، محمولا على ما يأتى به الطبع وتبديه الغريزة . ويكون اللفظ فيه تابعاً للمعنى بأن يقتصر من اللفظ على ما يحتاج إليه المعنى ، دون زيادة أو نقص تدعو إليه ضرورة السجع . حتى لو حصلت زيادة أو نقص بسبب السجع دون المعنى ، خرج السجع عن حيز المدح إلى حيز الذم — وأن تكون الألفاظ المسجوعة حلوة حادة ، لا غثة ولا باردة ، مونقة المعنى حسنة التركيب ، غير قاصرة [1] على صورة السجع الذى هو تواطىء الفقر . — قال فى المثل السائر : « وهذا مقام تزل عنه الأقدام . ولا يستطيعه إلا الواحد من أرباب هذا الفن بعد الواحد » .[2]

ونحب أن نعقب بأن نقول بوضوح ، إن القلق والتعسف والتكلف ليست أموراً مقصورة على السجع ، وإنما تمتد إلى كل ضرب من ضروب القول ، وكل مسلك من مسالك الأسلوب ، يستوى فى ذلك الحقيقة والمجاز ، والبديع وغير البديع ، والسجع وغير السجع — والفهم القويم والذوق السليم وحدهما القديران على إزالة كل أسباب القلق والتكلف من كل طريقة من طرق الأداء .

انظر إلى محي الدين بن عبد الظاهر يقول من رسالة « التواضع » .

« والبيت بأهله . والغمد بنصله . والثوب بلابسه . والجواد بفارسه .

---

(١) قاصرة : هكذا وردت فى الأصل . وحقها : مقصورة .

(٢) ج ٢ من صبح الأعشى ص ٢٩٠ .

والقوس برامها . والصهوة براقيها . ومن أسافل البحور . تترقى الدرر إلى أعالى النحور » (١) .

تر سجعات رائقة . وفقرات متوافقة ، لا يئودها تكلف ، ولا يثقلها تعسف ، وكل قافية فيها تتطلبها معانيها . فلله دره ودر قلمه .

* * *

على أننا لا ننكر أن بعضهم وقع سجعه ثقيلا مرذولا ، وأطال فى فقراته إطالة مملة . ولعله يحسب نفسه بذلك ناهجاً نهج القرآن فى نظمه وسجعاته .

انظر قول فخر الدين بن مكانس ، وقد أرسل رسالة إلى بدر الدين بن الصاحب تاج الدين يصفه فى خبره عنه :

« الموسع من بدايته فى سائر العلوم . الرادف خلفه خواص العلماء على العموم . القائم بناسوته على كل أقوم » .

ومن رسالته هذه — وهى فى وصف الشتاء — قوله يصف المطر وماءه ورعده :

« ثم أفرط إلى أن بلغ سيله الزبا فعم الربا والوهاد . وأوجب الغلاء لفساد الثمار ، خلافا للنيل فإنه طالما نقص الأسعار لما زاد . فما كان أولاها بالوصف من حال اللسان . وما أعجب ما غيب عين الشمس عين الماء فأرانا قلب الأعيان . وما أسمع زجل رعده الذى أذكر المشارقة بكان وكان . فلقد عبس زهر اللوز بعد أن كان فى فم الدنيا ابتسام » (٢) .

انظر إلى ثقل « العموم » وقد قهرها على المجىء ليطابق بينها وبين الخواص وليورى كذلك . وانظر إلى كلمة « ابتسام » فإنها واجبة النصب لأنها خبر كان ومع ذلك سكن آخرها .

وبهذه المناسبة نذكر ما سبق التنويه به وهو أن السجع يعفى الساجعين من مراعاة إعراب الحرف الأخير ، ليتم بذلك ، توافق الحرفين — هكذا قالوا

---

(١) رسالة « التواضع » لابن عبد الظاهر مخطوطة بدار الكتب .

(٢) ابتسام هكذا لضرورة السجع والرسالة عن ديوان فخر الدين بن مكانس « مخطوط بدار الكتب المصرية » .

واستشهدوا لذلك بأمثلة . ونحن نرى أن تمحك الساجع فى هذا الإعفاء ضعف منه . وإن إخراج السجعة هذا المخرج ثقيل .

ومما ورد من ذلك قول ابن حجة مثلا فى مقدمة خزانته يتحدث عن طريقة نظمه لبديعيته وعرضها على صديقه ابن البارزى صاحب الديوان .

« فصرت أشيد البيت فيرسم لى بهدمه. وخراب البيوت فى هذا البناء صعب على الناس . ويقول : بيت الصفى أصفى مورداً وأنور اقتباس»[1]

وقف على « اقتباس » بالسكون ، وحقها النصب

ومن ذلك ماجاء فى رسالة كتبت على لسان الناصر بن قلاوون إلى غازان ملك التتار يقرعه ويذكره بانتصارات الجيوش المصرية على جيوش مملكته قال :

« وإن كنت نصرت مرة فقد كسرت آباؤك مرار . وإن كان جيشك قد داس أرضنا مرة فبلادكم لغارتنا مقام ، ولجيوشنا قرار » . الخ

فانظر إلى قوله « مرار » وقف عليها بالسكون وحقها النصب .

* * *

هذا ، والسجع أنواع كما أشرنا فى باب النقد . ويختلف النقاد أو البلاغيون فى تسمية كل نوع . على أن التسمية لا تهمنا بمقدار ما يهمنا وصف النوع نفسه .

فمنه : المطرَّف : وهو — كما قال الحلبى — أن يراعى الحرف الأخير فى كلتا قرينتيه من غير مراعاة الوزن . وهذا النوع أكثر أنواع السجع دورانا فى النثر فى العصر الذى نحن بصدده . وهو لا يكاد يتفق إذا اختلفت السجعات فى عدد مفرداتها .

ومنه قول ابن حجة فى رسالة كتبها عن المؤيد شيخ إلى قرا يوسف صاحب العراقين :

---

(١) مقدمة خزانة الأدب لابن حجة .

« لازالت زوراء العراق فى أيامه القويمة مستقيمة الجانبين . وحلتها الفيحاء عالية المنار وشمل الدين بها مجتمعا فى الجامعين . وعراق العرب والعجم بارزين من محاسنه اليوسفية فى حلتين »[١] .

ومنه قول شهاب الدين القلقشندى يصف تحرك الجيوش المصرية ، على لسان الناصر فرج بن برقوق :

« وتحركنا من الديار المصرية فى جيوش لا يأخذها حصر ، ولا يلحقها حصر ، ولا يظن بها على كثرة الأعداء كسر . ولم نزل نحث السير . ونسرع الحركة للقاء العدو إسراع الطير حتى وافينا دمشق المحروسة فنزلنا بظاهرها ، مستمطرين النصر فى أوائل حركتنا وآخرها »[٢] .

ومنه قول شهاب الدين بن فضل الله العمرى على لسان سلطانه إلى نائب الشام مهديا إليه طيور صيد جوارح :

« صدرت هذه المكاتبة إلى الجناب العالى بسلام جميل الافتتاح . وثناء يطير إليه وكيف لا تطير قادمة بجناح . ونعلمه أن مكاتبته المتقدمة الورود تضمنت التذكار من الجوارح بما بقى من رسمه . وجرت عادة صداقتنا الشريفة أن تحسب فى قسمه . وقد جهزنا له الآن منها ثلاثة طيور لا يبعد عليها مطار . ولا يوقد للقرى فى غير حماليقها جذوة نار . ولا تؤم طيراً إلا وترش الأرض بدمه فلا يلحق لها بغبار »[٣] الخ

ومنه قول النويرى صاحب نهاية الأرب فى مفتتح المجلد الثانى من كتابه المذكور ، يصف الفن الثانى وموضوعه الإنسان وما يتعلق به . قال :

« وهذا الفن قد اشتمل على معان مؤنسة للسامع . مشنفة للمسامع . مرصعة لصدور الطروس والدفاتر . جاذبة لنوافر القلوب والخواطر . واضحة البيان ، معربة عن وصف الإنسان . فمن تشبيهات فائقة ، وغزليات رائقة .

---

(١) خزانة الأدب باب السجع ص ٤٣٨ .

(٢ ، ٣) عن المفصل ج ٢ ص ٢٥٣ .

وأنساب ظاهره . ووقائع ظاهرة . وأمثال امتدت أطنابها . وتبينت أسبابها وأوابد جعلتها العرب لها عادة ودليلا . واتخذتها ضلالة وتبديلا . ونصبتها أحكاما ونسكا ، وصيرتها عبادة ومداواة ، فتبوأت بها من النار دركا . وشيء من أخبار الكهان ، وزجر عبدة الأوثان »[1] الخ .

* * *

ومن السجع : الترصيع وهو — كما قال الحلبي — أن تكون الألفاظ مستوية الأوزان متفقه الأعجاز : ومعنى ذلك أن تكون كل كلمة فى إحدى فقرتى السجع مساوية لنظيرتها فى الأخرى ، فى الوزن الصرفى ، ومتفقة معها فى الحرف الأخير . وهذا النوع أكثر ما يتفق فى الفقرتين المتساويتين . وهو نوع فريد فى السجع قليل الورود فى الشعر والنثر على السواء .

وقد ذكره الحلبي والقلقشندى بين أنواع السجع . أما ابن حجة فقد ذكره فى إيجاز سريع بين أقسام السجع كذلك ، ولكنه كان قد عقد له فصلا على حدة قبل فصل السجع ، ولم يذكر أنه نوع من أنواعه . واشترط للتبريز فيه عدم تكرار أى لفظ فى الفقرتين لا يكون داخلا فى الترصيع . ويبدو أن هذا التأرجح الذى بدا من ابن حجة ، نشأ من تأثره بكل من الأديبين الكبيرين ابن الأثير والشهاب الحلبي . فبينما أثبت الحلبي الترصيع صراحةً نوعاً من أنواع السجع ، إذ أفرده ابن الأثير فى فصل مستقل ، ولم يصرح فيه ولا فى فصل السجع ، بأنه نوع منه . ثم إن ابن الأثير أنكر أن يكون فى القرآن ترصيع ، وذلك لما هو عليه من زيادة التكلف . ولم يقبل الآية الكريمة : « إن الأبرار لفى نعيم وإن الفجار لفى جحيم » مثلا للترصيع لتكرار لفظ « لفى » وهو غير داخل فى الترصيع ، فنقض شرطه . وربما كان هذا سبباً فى أن ابن حجة اشترط للتبريز فيه عدم تكرار أى لفظ فى الفقرتين ليس من الترصيع ، وعد هذا اللفظ حشوا . هذا مع العلم بأنه أورد بين أمثلته تلك الآية الكريمة ، التى لم يرتضها ابن الأثير مثلا للترصيع .

---

(١) نهاية الأرب مفتتح ج ٢ .

وهذا النوع نادر الوقوع فى نثر المماليك وإن ورد فبعض التحريف :
ومنه قول الشهاب بن فضل الله فى وصف القوس :

« لا يشبع سغبها . ولا يدفع شغبها . معطية منوع . واهية تروع[1] » .

ومنه قوله فى وصف السهام والكنائن :

« بلاء منزل . وقضاء مرسل[2] » .

ومنه قوله فى وصف المجانيق :

« وقد استلت كأنها عقاب . وامتدت كأنها سحاب . وهدرت كأنها رعد . واستترت كأنها خود . واضطرمت كأنها حريق . واضطربت كأنها طليق . وأطلت كأنها أجل . وولت كأنها وجل[3] » .

وقال برهان الدين القيراطى فى وصف الربيع :

« يوم أنيق . وغيم رقيق . وروض إذا تسلسل ماؤه المطلق ، تهلل وجهه الطليق الخ[4] » .

ومنه قول ابن عبد الظاهر فى رسالة « التواضع » يصف نفسه :

« وقد لامست منى شيهما . ومارست ضيغما . وجالست أرقما . وزاحمت جندلا ، وهاوبت أجدلا[5] » .

ومنه قول ابن عربشاه فى مدح السلطان جقمق :

« وقد من الله سبحانه فى هذا العصر . وجبر هذه الأمة الضعيفة بعد الكسر . برحمة شاملة . ونعمة كاملة . ودولة عادلة » . ومنه أيضاً قوله :

« المؤيد بالنصر . المسدد بالفخر[6] » :

* * *

(١ ، ٢ ، ٣) عن التعريف بالمصطلح الشريف .
(٤) حلبة الكميت للنواجى ، الباب الثامن عشر فى وصف الربيع .
(٥) عن رسالته المخطوطة بدار الكتب .
(٦) راجع مقدمة تاريخ جقمق لابن عربشاه .

ومن السجع : المتوازى ، وهو — كما قال الحلبي — أن يراعى فى الكلمتين الأخيرتين من القرينتين ، الوزن مع اتفاق الحرف الآخر منهما . وسماه ابن حجة « الموازى » ويبدو أن القلقشندى يسميه « المتوازن » إذ أنه لما أشار إليه قال : « والمرتبة الثانية أن يختص التوازن بالكلمتين الأخيرتين من الفقرتين .. الخ . — غير أنه سمى النوع الآتى « المتوازن » كما سنوضحه . — هذا ، والموازى إذا اتفقت فيه الكلمتان فى الوزن وجميع الحروف خرج إلى الجناس إذا اختلف معناهما .

والمتوازى كثير الوقوع فى نثر كتاب المماليك . ومنه :

قول ابن حبيب الحلبي فى الوعظ والنصح :

« أيها الناس . ما الموت بساه ولاناس . فتأهبوا لحلوله . واستعدوا له قبل نزوله . وحصلوا الراحلة والزاد . وردوا العاصى إلى الطريق فقد زاد . ولا تعدلوا عن محجة الحجا . واتقوا دعوة المظلوم فى ظلام الدجا . وآمنوا بالقدر خيره وشره . وارضوا بالقضاء حلوه ومره[1] » .

والمتوازى واضح بين حلوله ونزوله . والحجا والدجا . وشره ومره . وخرج قوله : الناس وناس ، والزاد وزاد ، إلى الجناس .

ومنه أيضاً قول تقى الدين المقريزى فى مقدمة كتابه السلوك :

« سبحان الله من إله حكيم قادر . ومليك مقتدر قاهر . يعطى العاجز الحقير . ويمنع البطل الأيد الكبير . ويرفع الخامل الذليل . ويضع ذا العز المنيع والمجد الأثيل » الخ[2] .

وبين قادر وقاهر . وبين الحقير والكبير . وبين الذليل والأثيل . سجع متواز .

ومن السجع : المتوازن . وهو — كما عرفه الحلبي — أن يراعى فى الكلمتين الأخيرتين من القرينتين ، الوزن مع اختلاف الحرف الآخر منهما . ولم يذكره ابن حجة قسما من أقسام السجع . أما القلقشندى فقد فصل القول فيه وسماه الازدواج ، وقسم ما يقع منه فى النثر قسمين .

---

(١) نسيم الصبا : الفصل الثلاثون .

(٢) سلوك المقريزى — مقدمته : ج ١

الأول : ماروعى فيه اتفاق الكلمات المتقابلة فى القرينتين ، فى الوزن — كلها أو أكثرها — مع اختلاف حرف الروى فى آخر القرينتين .

الثانى : ماروعى فيه اتفاق الوزن فى الكلمتين الأخيرتين فقط من القرينتين ، مع اختلاف حرف الروى أيضاً . وكلا الضربين يسمى : « المتوازن » . فهو عنده مقابل لكلمة « الازدواج » . وذكر أنه يسمى عند الرمانى « السجع العاطل » ، وسماه هو « الحالى » .

ومن المناسب هنا أن نذكر أموراً منها :

١ — أن الحلبى ذكر أن المتوازن إذا ورد فى الشعر سمى « الموازنة » .

٢ — أن ابن حجه عقد فصلا خاصا ذكر فيه « المزاوجة » وهى عنده أو على ما نقله « الازدواج » . وكلاهما على حد تعبيره : « أن يزاوج المتكلم بين معنيين فى الشرط والجزاء . » وبهذا خرج عن السجع .

٣ — أن ابن الأثير لم يعتبر « المتوازن » قسما من أقسام السجع ، بل قال إنه « أخو السجع » ثم جعل بينهما صلة خصوص وعموم . وسماه « الموازنة » وعقد لها فصلا مستقلا . وتعريفها عنده لا يخرج عما عرّف به الحلبى والقلقشندى « المتوازن » .

٤ — أن ابن حجة عد من أقسام السجع «المشطر» ، وهو خاص بالشعر . وعرفه بأن يكون لكل نصف من البيت قافيتان مغايرتان لقافيتى النصف الأخير .

هذا وإليك أمثلة من هذا المتوازن أو المزدوج ، مع العلم بأنه لم يرد فى نثر المماليك إلا نادراً ، وإذا ورد فإنه لا يستوفى شروطه عند البلاغيين ، بل يرد مسجوعا أو لا تتزن جميع كلماته المتقابلة . وهكذا .

ومنه قول ابن حبيب الحلبى فى الحكم والمواعظ :

« العلم نعم السمير . والعقل بشير . بالخير يشير . اجتهد فى طلب العلوم تنفرد بما يرفعك إلى النجوم . المجد يبذل اللها ، والفضل بالأدب والنهى . من صادق العلماء زها بدره . ومن رافق السفهاء وهى قدره » . ومنه : « الحق سيف قاطع . والحلم درع مانع » . ومنه : « العقل أحسن المواهب . والجهل

أقبح المصائب » . ومنه « اليأس يعز الأصاغر . والطمع يذل الأكابر» ومنه : « أرفع الأعمال ما أوجب شكرا . وأنفع الأعمال ما أعقب أجراً » . ومنه : « من لزم شأنه دامت سلامته . ومن حفظ لسانه قلت ندامته » .

فأنت تراه التزم فيه السجع وجنح إلى الجناس . ولم تتزن معه المفردات المتقابلة كلها . . وعلى كل فنى عباراته ازدواجات جزئية ، ومنها قوله :

العلم والخير . وبشير ويشير . — والمجد والفضل . واللها والنهى . — وصادق ورافق ، وبينهما جناس — والعلماءوالسفهاء . وزها ووهى .— والحق سيف ، والحلم درع .

وقوله : العقل الخ . هاتان الفقرتان بينهما ازدواج أكثر من غيرهما — وبين يعز ويذل ، والأصاغر والأكابر . — أما قوله : أرفع الأعمال . . . الخ فنى الفقرتين ترصيع — وبين لزم وحفظ ، ودامت سلامته . وقلت ندامته .

وواضح جداً أن سبب هذا الاضطراب عندهم فى سوق المزدوج ، أنهم قيدوا أنفسهم بالسجع . ثم مالوا إلى الفقرات غير المتساوية — والملحوظ أن المتوازن أو المزدوج لا يتفق إلا إذا كانت الفقرتان متساويتين .

وحسبناهذا من التمثيل . ولنتحدث عن نظمهمفىصوغ الفقراتالمسجوعة :

* * *

نظم الفقرات :

تحدثنا عند ما بينا مذهبالحلبي وابن حجة ، فى باب النقدعن نظمالفقرات المسجوعة لديهما . وذكرنا أنهما متأثران فى ذلك برأى ابن الأثير ، وهو أقرب النقاد السابقين إليهما .

وقد قرأنا للقلقشندى — وهو معاصر لابن حجة — فصله الشائق عن السجع ونظام فقراته . وقد استوفى فيه عنها الحديث بما لا مزيد عليه لمستزيد . وملخص ما قاله — وهو لا يخرج فى جملته عن آرائهم .

١ — أن السجعات تارة تكون متساوية فى عددمفرداتها . وتارة تكون غير متساوية .

٢ — أن السجعات المتساوية فى عدد مفرداتها ، أقواها ما تألفت فيه الفقرة الواحدة من كلمتين فحسب . وهذا النمط بأنواعه كثير فى القرآن الكريم . وهو يدل على قوة تمكن الكاتب وإحكام صنعته .

٣ — أن السجعات غير المتساوية ، وردت فى القرآن بكثرة تزيد على سابقتها . وعللوا زيادة كلمات الفقرة الثانية عن الأولى . بتشوق الساجع إلى الزيارة ، بعد سماع الفقرة الأولى — وفى هذا التعليل تذوق موسيقى واضح . إذ أن سامع اللحن إذا سمع منه نغمة تطلعت نفسه حقا إلى زيادة تاليتها عنها مطاوعة لتموج النغمة وأثرها فيها .

٤ — أن أطول الفقرات القصيرة ، لا يزيد عدد مفرداتها على عشرة . وأن أقصر الفقرات الطويلة ماكان عدد مفرداتها أحد عشر . أما أطولها فلا ضابط له — هذا ما قاله الحلبي وابن الأثير . وقد ذكر القلقشندى أن أطول سجعتين فى القرآن الكريم قوله تعالى : « وإذ يريكموهم . . . » الخ . فالسجعة الأولى عشرون كلمة ، والثانية تسع عشرة ، وقال : « وينبغى أن يكون ذلك نهاية الطول فى السجع وقوفا مع ماورد به القرآن الكريم الذى هو أفصح كلام وأقوم نظام » .

٥ — أنه فى الفقرات غير المتساوية ، لا تزيد الثانية على الأولى أكثر من المثل . وعللوا ذلك بأن طولها أكثر من هذا يقلل من التذاذ السامع بسماعها .

٦ — فى الفقر غير المتساوية إذا وجدت سجعة ثالثة ، فلتكن زيادتها يسيرة عن الثانية . ولا يضر تساوى الأولى والثانية . والمرجع — على كل — هو الذوق .

٧ — فى الفقر غير المتساوية ، ينبغى ألا تنقص الثانية عن الأولى . وقد ذكر ابن الأثير أن هذا عنده قبيح وعيب فاحش ، وعلل ذلك بأن السامع يكون قد استوفى أمده فى الفصل الأول — أى الفقرة الأولى — بحكم طوله ثم يجىء الفصل الثانى قصيراً فيكون كالشىء المبتور فيبقى الإنسان عند سماعه كمن يريد الانتهاء إلى غاية فيعثر دونها .

وقد عقب القلقشندى على ذلك بقوله : « وفيما قاله نظر . فقد تقدم فى قوله تعالى « إذ يريكهم الله فى منامك قليلا . . . الآيتين » . أن الأولى عشرون

كلمة ، والثانية تسع عشرة » . قال : « وحسن ذلك أبو هلال العسكرى فى الصناعتين محتجا بكثرة وروده فى كلام النبوة »(١) .

٨ — فى الفقر غير المتساوية إذا زاد عددها على اثنتين ، تفصيل رأينا ألا داعى لعرضه ، اكتفاء بما مر .

* * *

هذا مجمل ما ذهبوا إليه فى نظم السجعات وعدد مفرداتها . وفى كل هذا التقنين مبالغة — كما سبقت إشارتنا إلى ذلك — وفى حسبانهم أن القرآن الكريم تعمدُ كل هذه النظم فى سجعاته ، غلو . وفى تقييدهم أنفسهم بهذا المنهاج القرآنى — على اعتبار أن سجعاته مقصودة الزينة والعدد واستيفاء أقسام الفقرات — إغراق .

وينبغى لنا — بعد أن عرضنا نصوصاً كثيرة العدد من نثرهم — أن نحكم بأن هذه النظم كانت نظرية أكثر مما كانت عملية . وأنها كانت تدور فى أدمغة الناقدين ، أكثر مما كانت تدور فى أقلام الكاتبين . وأن سجعات الكتّاب ترجحت بين الطول والقصر . وأن طولها أكثر من قصرها . وأن طول الثانية كان واضحاً ولكنه غير ملتزم . وكذلك طول الثالثة .

ونعرض هنا سطوراً نتبين منها شيئاً من ذلك :

قال المقريزى فى خطبة كتابه « السلوك » يصف العرب حين قام فيهم النبي عليه الصلاة والسلام :

« وجمع — أى الله سبحانه وتعالى — له أسود العرب وقد كانت فى جزيرتها متفرقة . ولم ببركته شعثها بعد ما غبرت زمانا وهى متمزقة . وألف قلوبها على موالاته وطاعته . وحبب إليها المبادرة إلى مبايعته على الموت ومتابعته . فتواصلوا بعد القطيعة والتدابر . وتحابوا فى الله كأن لم ينشئوا على البغضاء والتنافر . حتى صاروا باتباع ملته . والاقتداء بشريعته . من رعاية الشاء والبعير ،

(١) راجع صبح الأعشى ج ٢ ص ٢٧٩ الى ص ٢٩٠ .

إلى سياسة الجم الغفير . وبعد اقتعاد سنام الناقة والقعود وملازمة بيت الشعر والعمود . وأكل القيصوم والشيح . ونزول القفر الفسيح . إلى ارتقاء المنابر والسرير . وتوسد الأرائك على الحرير[1] » . الخ ، .

ترى فى هذه السجعات أن فقراتها لم تلتزم لونا معينا . فمنها الطويل والقصير . وأحيانا تتفق قرينتان فى عدد كلماتهما كقوله : وجمع له . . . إلخ . فكل فقرة تحتوى على ثمانى كلمات . وتارة تنقص السجعة الثانية عن الأولى ، كقوله : «والاقتداء بشريعته» فإنها أقل من سابقتها .

وقال شهاب الدين بن فضل الله العمرى ، يصف الصباح :

« وقد رفت تلك البكر . ووضحت تلك الغرر . وحسنت تلك الصبح المسفرة . وأصبحت بها الأيام ضاحكة مستبشرة . وقد أخذت مجامع الحسن تلك المبادى . وأولت بيض الأيادى . وحليت تلك السماء الفضية . وجليت تلك المرآة التى كانت من بقايا الليل صدية . ودبت حمرة الشفق فى وجه النهار . وتوقدت جمرة الصباح إلا أنها من نور لا من نار . وكان انفتاق الضوء فى أخريات الليل مثل شجر ياسمين ينفض . وأقبل النهار فى شبابه إلا أن شباب النهار أبيض وباكر الصباح بالصبوح . ودفن الهموم والزق لديه مذبوح . وشرب على على ورد الشفق مثلة من المدام . وجاهر النهار ولم يخش الملام[2] » .

وترى هنا فقرات مترجحة بين الطول والقصر أيضا . منها ما عدد كلماته ثلاث ، ومنها أربع ، وهكذا . كما ترى أن هناك مثلا سجعتين أولاهما أطول ، مثل قوله : « وقد أخذت مجامع ..» الخ . وأن هناك سجعتين ثانيتهما أطول مثل قوله . « وحليت تلك السماء ... » الخ .

وفى هذا القدر ما يكفى . وقد أطلنا فى الحديث عن « السجع » . لأنه أول الخصائص التى تبده القارىء فى النثر حتى لم يكد يخلو منه عنوان كتاب أو خطبته حتى كتاب العبر لابن خلدون وخطبته — على الرغم من مؤاخذته لكتاب عصره.

***

---

(١) مقدمة السلوك ج ١ .

(٢) التعريف ص ٢٣٧ — الفصل السادس .

الطباق والمقابلة :

الطباق هو الجمع بين معنيين متضادين ، والمقابلة هي ذكر شيئين أو أكثر ، ثم ذكر مايتصل بكل ، سواء أكان على طريق المخالفة أو الموافقة . ولهما أنواع .

وهما حليتان معنويتان لتحسين المعنى . وهما من ضروب البديع الطبيعية الكثيرة الدوران في الأساليب ، حتى في أساليب العامة ، وذلك لأن — في الطباق مثلا — الضد أقرب خطورا بالذهن وجريانا على اللسان وقت حضور ضده . والمقابلة فيها سمات من الطباق . وقد شهدناهما في النثر منذ جاهليته .

ولا تكاد تجد رسالة أو مقالة أو نحوهما إلا وبين سطورها تتراءى ضروب الطباق والمقابلة ، وذلك في عصر المماليك . ونورد لك أمثلة منه :

من رسالة للصفدي إلى صديق له يقول :

« فلما اتفق بعد ذلك للمملوك ما اتفق من المقادير التي لا محيد عنها . والأمور التي إن سخط أو رضي لابد منها . ما أمكنه إلا التسليم لحكم الله وأمره . ولعل ذلك أن لايكون لشر قضاه الله بل لخير قدره . ورزق يسره »[1] .

طابق بين سخط ورضي . وبين الشر والخير .

ويقول ابن الوردي من إجازة :

« امابعد حمد الله الذي زاد أهل العلم شرفا ورقيا . وجعلهم خلف السلف فحبذا سلفا وخلفا تقيا . والصلاة على نبيه محمد الذي جعل في حربه وسلمه الموت والحياة . وسجل لعترته المنيفة كتاب الطهارة وأنبع من أصابعه الشريفة باب المياه . وعلى آله الذين فتح لهم باب الولاء لإحياء الموات . وأغلق عنهم باب الرد بالعيب لما زكا معدنهم وطاب نباتهم فهذه زكاة المعدن والنبات . وعلى صحبه المعدودين من خيار المجلس . المقصودين للاستسقاء وصرف القبض عن المفلس . وعلى تابعيهم الذين عقلوا الوصايا فأدوا فرائض العبادات . وحسنت منهم السير فنزه تعديلهم عن الجرح في الشهادات . » الخ[2]

(١) ألحان السواجع — راجع ما كتبه الصفدي إلى إبراهيم بن محمود بن سليمان .
(٢) ديوان ابن الوردي ص ١٧١ .

فأنت تراه قد طابق بين الخلف والسلف . وبين الحرب والسلم ، وبين الموت والحياة . وبين إحياء وموات ، وبين فتح وأغلاق ، وبين الصرف والقبض ، وبين التعديل والجرح .

وفى بعض مفرداته توجيه بمصطلحات الفقه ، وهى واضحة ومنها : الطهارة والولاء والرد بالعيب والاستسقاء والفرائض وغير ذلك .

وقال ابن دانيال فى قصة « طيف الخيال » على لسان « نباتة العشاب » يقدم أعشابه للحاضرين : « سلكت فى اقتناء هذه الأعشاب ، مسالك الرى والماحل . حتى حصل لى فى هذه الأكياس والأجربة . ما شهد بصحته القياس والتجربة وأنتم أرشدكم الله ، تعلمون علم اليقين . ثم تحققون أقوال النقلة الصادقين . أن ما من حشيشة فى الأرض نابتة . إلا ولها فى الجسد علة ثابتة . فنهـا ما ينفع بأذن الله ويضر . ويحبس ويذر ويسهر وينوم . ويفش ويورم . » الخ[1]

فأنت تراه قد طابق بين الرى والماحل . والقياس والتجربة . وينفع ويضر ، ويحبس ويذر ، ويسهر وينوم ، ويفش ويورم .

هذا والطباق فى النثر أكثر ذيوعا من المقابلة .

***

الاقتباس والتضمين وحل الشعر والنثر :

الاقتباس هو أن يضمن المتكلم كلامه شيئا فى أى القرآن الكريم أو الحديث النبوى على أى صورة من صور التضمين ولا ينبه عليه .

والتضمين هو أن يضمن كلامه شيئا من منثور غيره أو منظومه ، على أى صورة من صور التضمين .

هذان التعريفان خلاصة لمذاهب البلاغيين والنقاد فى الاقتباس والتضمين . ولهم فيهما تفاصيل وخلافات لا نرى هنا داعيا إلى الحديث فيها فليست من

---

(١) انظر طيف الخيال ، مخطوط بالمكتبة التيمورية .

جوهر بحثنا . ونحب أن نقول إنهما من واد واحد حتى إن بعضهم غلط بينهما أو عكس .

ومن هذين التعريفين نرى أن « الحل » سواء أتناول الشعر أم النثر ، ضرب من ضروب الاقتباس أو التضمين . وقد تحدثنا عن رأى الحلبي فى « الحل » فى باب النقد وهو كلام مفصل دقيق التوجيه دال على ذوق أدبى أصيل . وخلاصته :

١ — أن الحل دليل على سعة اطلاع المنشىء وإحاطته بصنوف الأدب شعره ونثره .

٢ — واستخدام الحل بحاجة إلى لباقة وحنكة وذوق وقدرة على سبك المحلول مع إنشاء المنشىء . فهو يحل ألفاظه ويباعد بين متجمعها ويفصل بينها بألفاظه وعباراته ، وينتفع بمعانيها بإضافة معان أخرى إليها ليتألف منها شىء جديد له روعة وجلال .

٣ — ورأى الحلبي يتأثر — ولا ريب — برأى ابن الأثير فى طريقة حل الشعر . ولكن الحلبي كان أوسع مدى وأوضح توجيها وأدق حديثا وتعليلا .

وقد أشرنا هناك إلى أن « الحل » كان — ولا يزال حتى اليوم — مقبولا من الأذواق لجمعه الحسن من أطرافه ولأنه يخرج القديم مخرجا جديداً : وهو نوع من التوليد ، ولاريب : هذا فضلا عن جمال ملاءمته بين الألفاظ الجديدة والقديمة . وذلك فن معجب مطرب إذا بلغ الغاية من حسن الملاءمة وقوة الارتباط . هذا فضلا أيضاعما يتراءى خلال الأسلوب المضمن من معان خفية وظلال معنوية . لولا « الحل » ما تموجت عليه صفحة الذهن وقت مطالعتها .

وفى طرق الحل تفاصيل ، رأينا أن نضرب الذكر صفحا عنها لعدم ضرورتها فى هذا البحث ، ونحيل القارىء إلى حديثنا عن الحلبي ، وإلى كتابه « حسن التوسل » .

والآن نقول : إن النثر الفنى فى عصر المماليك امتلأ بألوان الاقتباس والتضمين والحل ، ويعتبر هذا عندهم دليل العلم وسعة الإحاطة والتمكن من

الإنشاء والقدرة على التوليد . على شريطة ألا يكلف الكاتب بالحل دون سواه ، فيصاب ذهنه بالضعف ، فلا يقوى بعد على الابتكار ، نتيجة لا تكاله عليه .

هذا ومما ورد من الاقتباسات والتضمينات والحل :

قول الشهاب الحلبي في توقيع لإمام :

« وليعلم أنه يكون في المحراب مناجيا لربه . واقفاً بين يدى من يحول بين المرء وقلبه (١) » .

وفى قوله « يحول بين المرء وقلبه » اقتباس من القرآن الكريم .

وقال فى وصف السيوف :

« كفى السيوف فخرا أنها للجنة ظلال . وإلى النصر مآل . وإذا كان من بيان الحديث سحر ، فإن بيان حديثها عمن كلمته هو السحر الحلال » .

وفيه حل لبيت ابن الرومى :

وحديثها السحر الحلال لو أنه ◦ لم يجز قتل المسلم المتحرز(٢)

وقال فى صدر رسالة إلى نواب ثغر عند حركة العدو :

« أصدرناها ومنادى النفير قد أعلن بياخيل الله اركبي . ويا ملائكة الرحمن اصحبي . ويا وفود التأييد والظفر اقربى » .

وفيه اقتباس من الحديث النبوى : ياخيل الله اركبى(٣) .

وقال من رسالة فى وصف الخيل — يصف الأدهم .

« يظن من نظر إلى سواد طرته . وبياض حجوله وغرته . أنه توهم النهار نهراً فخاصه . وألقى بين عينيه نقطة من رشاش تلك المخاضة . لين الأعطاف سريع الانعطاف . يقبل كالليل . ويمر كجلمود صخر حطه السيل » .

وفيه حل لشطر بيت امرىء القيس . « كجلمود صخر حطه السيل من

(١) حسن التوسل ص ١٣٠ .

(٢) حسن التوسل ص ١٣١ .

(٣) حسن التوسل ص ١٣٤ .

عل[1] ، فضلا عما فيه من تعليل بارع جميل وتشبيه مبتكر .

وقال فى وصف الكميت :

« وإن جنب إلى حرب لم يزور من واقع القنا بلبانه . ولم يشك لو علم الكلام بلسانه[2] »

وفيه حل لقول عنترة العبسى فى وصف فرسه :

فازور من وقع القنا بلبانه   وشكا إلى بعبرة وتحمحم

وقال الشهاب بن فضل الله فى وصف الشبابة :

« يود هفيف الدوح أنه منها يتعلم . ويقول لديها الحضور الصموت . ونحن سكوت والهوى يتكلم »[3] .

وقال فى وصف الكأس :

« والكأس هلال مالت شفته . وأفق محمر الشفق تمت صفته . شب فى الكهف والتهب . والكاس من فضته والراح من ذهب »[4] .

ولابن نباتة بيت فى وصف الخمر قال :

عوض بكأسك ما أتلفت من نشب   فالكأس من فضة والراح من ذهب[5]

ومن اقتباسات محي الدين بن عبدالظاهر قوله فى رسالة إلى أحد الأمراء ، على لسان سلطانه :

« لا برحت وطأته على الكفار مشتدة . وآمالها لهلاك الأعداء كرماحه ممتدة . ولا عدمت الدولة بيض سيوفه التى يرى بها الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة . صدرت هذه المكاتبة إلى المجلس تثنى على عزائمه التى دلت على كل أمر رشيد . وأتت على كل جبار عنيد . وحكمت بعدل السيف فى كل عبد

(١ ، ٢) حسن التوسل ص ١٤٢ .
(٣) التعريف ص ص ٢١٥ النوع السابع من القسم السابع .
(٤) التعريف ص ٢١٦ .
(٥) ديوان ابن نباتة .

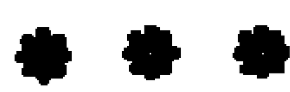
سوء وماربك بظلام للعبيد . »[1] واقباساته من القرآن الكريم واضحة .

وقال فى عهد يوصى بالشرع :

« والشرع الشريف هو قانون الحق المتبع . ومأمون الأمر المستمع . به يتمسك من يمتار ويمتاز . وهو جنة والباطل نار فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز[2] » .

ومن لطائف اقتباسات ابن الوردى قوله فى رسالة موصيا بنفسه وبأخيه يوسف :

« وإذا عنى مولانا الصاحب بالأخ رفقا وإحساناً . تلونا : هذه بضاعتنا ردت إلينا ونمير أهلنا ونحفظ أخانا . فالله يعلينا بعلوك . ويبلغ مرجونا ببلوغ مرجوك . حتى تقول أولادك عنا : ليوسف وأخوه أحب إلى أبينا منا . ونقر بك عينا ونقرأ : أنا يوسف وهذا أخى قد من الله علينا[3] » .



وهذا ولعل من المناسب أن نذكر أن هذه الألوان البديعية — أى أنواع التضمين — انتقلت كذلك فى الشعر وجنح إليها كثير من شعراء العصر جنوحاً واضحاً ، وأتوا فى بابها بالعجائب المطربة ، والمطربات المعجبة ، ومنهم من أخرج مضمناته مخرجا جديدا ، كنقلها مثلا من الغزل إلى الوصف ، أو العتاب أو الهجاء . .

ومن لطيف قول مجير الدين بن تميم أحد الشعراء حينذاك :

أطالع كل ديوان أراه ولم أزجر عن التضمين طيرى
أضمن كل بيت فيه معنى فشعرى نصفه من شعر غيرى

غير أن المضمن إذا أغرق انتقل إلى السرقة الشعرية . وقد راجت

(١ و ٢) الخزانة باب الاقتباس .

(٣) ديوان ابن الوردى ص ١٨١ .

السرقات الشعرية فى عصر المماليك ، ولها حديث طويل تناوله النقاد وليس هذا هذا مجال تفصيله . ولكننا بهذه المناسبة نذكر أن السرقات النثرية لم يعن النقاد بالحديث عنها ولا بجمعها . ونذكر فقط أن القلقشندى عند كلامه عن «حسن الاتباع » أو التقليد ربأ بالكاتب أن يسرق من غيره معناه ولفظه . ولم يمنع أن يأخذ بعض الفقرات ويحور فيها بما يناسب كلامه وما يشعر بذوقه[1] .

هذا ومن غريب ماذكر عن ديوان الفخر بن مكانس ، أن فيه نقداً لرسالة بدر الدين بن الصاحب إليه فى الاستدعاء ، فقد نقدها وبين مافيها من سرقات[2].

وقد قرأت ديوان الفخر المذكور محاولا أن أفهم هذا النقد وأنقل شيئا منه هنا لطرافة موضوعه . ولكن خطه ردىء جدا فحال ذلك دون بلوغ الأمنية .

التشبيه والمجاز ولاسيما الاستعارة

تحدثنا بإفاضة عن هذا المحسن ، وذلك فى الفصل السابق وأوردنا له نماذج عدة فلا داعى للعود إليه ، وحسبنا التنبيه إلى أنه ما من أديب سواء أكان شاعراً أم ناثراً إلا والتشبيه والمجاز دعامة هامة فى أساليبه .

التورية :

هذه الحلية المعنوية ، سبق لنا الحديث عنها بإفاضة وتفصيل عند كلامنا عن ابن حجة فى باب النقد . وعرفنا أنها لفظ له معنيان قريب لا يراد ، وبعيد وهو المراد . وأنه قد يقال لها الإيهام أو التوجيه أو التخيير .

وقد رأينا كيف أعلى ابن حجة من شأنها ورفع من مكانتها ، وتحدث عنها حديث المشغوف بها المتعصب لها المحب لأدبائها . ورأيناه كيف يجد هؤلاء الأدباء من لدن القاضى الفاضل الذى عصر سلافتها لأهل عصره، واتبعه

---

(١) صبح الأعشى ج ٢ ص٢٢٩ .

(٢) راجع تأهيل الغريب لابن حجة باب الاستدعاء — مخطوط .

من جاء بعده ، إلى جيل ابن حجة . وأورد أسماء من بينهما أدباء أجادوا التورية وحملوا رايتها ومنهم ابن عبد الظاهر والجمال بن نباتة الذى يعد فى هذا الباب ، الثانى بعد القاضى الفاضل .

وقد نحى ابن حجة عن ميدانها بعض الأدباء ومنهم الشهاب محمود الحلبى ، ورأى أن التورية لم تكن مذهبه . ومنهم الشهاب بن فضل الله الذى جرى فى ميدانها قليلا ، ومنهم الصفى الحلى الذى رضى من الشعر بالساذج المنسجم .

وقد عقبنا هناك على كلام ابن حجة بأنه يمثل عصره فى هذه النزعة تمام التمثيل ، ونحن إنما نقيس عصره على عصرنا ، ونقرن ذوق جيله بذوق جيلنا ، ونحس تماما أن شعبنا اليوم توطدت محبة التورية فى أسلوبه منذ ذلك الزمن البعيد ، وأصبحت أبرز دعائمه الفنية ، وهو يحملها ما شاء من المعانى الخفية ، والدعابات اللطيفة . ورأينا فيما رأينا قصور أدباء العصر الحديث عن السبق فى ميدانها ، وأنهم بذلك فارقوا سمة هامة يتصف بها أسلوب الشعب ، على الرغم من اصطناعهم لها فى حياتهم وجلساتهم الخاصة .

والحق أن التورية ذائعة الوجود منشورة البنود فى أدب عصر المماليك شعره ونثره . وقد وفاها ابن حجة حقها من الحديث فى كتابه . . . « خزانة الأدب » . وله فيها كتاب آخر هو « كشف اللثام عن وجه التورية والاستخدام » وإليك تعريفا وجيزا به :

كشف اللثام عن وجه التورية والاستخدام :

كتاب ثمين لابن حجة متوسط الحجم يقع فى نحو ١٦٨ صفحة . وقد دفعه إلى تأليفه أنه قرأ كتابى صلاح الصفدى وهما « فض الختام عن التورية والاستخدام » و « جنان الجناس » . والأول فى التورية والاستخدام . والثانى فى الجناس . وكان الصفدى مولعا بالجناس ولوعا شديداً . فلم يعجب ابن حجة بالكتابين ، ومن ثم ألف كتابه هذا ليبين أهمية التورية ووجاهتها . وكذلك الاستخدام . وقال فى مقدمته :

« إنى رأيت الشيخ صلاح الدين الصفدى — رحمه الله — قد وضع فى هذا الفن كتابا سماه « فض الختام عن التورية والاستخدام » . ولما طالعته ورأيت مسك ختامه لم يتضوع منه رائحة . بل أضاعه من غير تورية ، وترك آرام معانيه مع غير سربها سارحة . وأورد فيه نبذة من مقاطيعه وليس لها بالمراد صلة . فإنه ذكر التورية وما جسر أن يلحق مفردا من مقاطيعه بتلك الجملة » الخ .

ومذهب ابن حجة أن الجناس أحط من التورية ، والتورية فى الذروة من البلاغة . فألف كتابه نقداً لكتاب الصفدى ومبينا سوء رأيه لما فضل الجناس وتعصب له ، ومشيرا إلى ضعفه عن السمو فى سماء التورية .

ولا يخرج حديث ابن حجة فى هذا الكتاب عما ذكره عن التورية والاستخدام والجناس معا فى كتابه « خزانة الأدب » ، غير أنه هنا تكلم عن كثيرين من أدباء التورية وبخاصة الشعراء . وأورد مجاميع حسنة من شعر كل منهم فى التورية ، وهم عشرات من شعراء العصر الأيوبى والمملوكى إلى عهده ، طبقة أثر طبقة . وكذلك ضمنه كثيراً من شعره هو فى التورية . غير أنه قصر فى سوق شواهد النثر ، فلم يورد منها إلا قليلا .

فالكتاب كما ترى ، سجل حافل لعدد من شعراء العصرين ، وجمهرة فريدة من شعرهم وقليل من نثرهم .

وقد تحدث ابن حجة فيه عن التورية فعرفها وبين أقسامها ، وتحدث عن الاستخدام فى إيجاز . فالكتاب فى الواقع استأثرت به التورية أكثر من غيرها ، تفصيلا وتمثيلا .

فض الختام عن التورية والاستخدام [1] :

ولا بأس أن نعرف فى إيجاز أيضاً بكتاب الصفدى « فض الختام » ، وهو

---

(١) فض الختام مخطوط بدار الكتب .

أحد كتابيه اللذين نقدهما وحمل عليهما ابن حجة — وكتاب « فض الختام » متوسط الحجم يقع فى نحو ٨٣ ورقة مكتوبة من الصحفتين .

وقد بدأه بخطبة حمد الله فيها وأثنى عليه وصلى على نبيه عليه السلام . ثم تحدث عن البديع وبين أنه يرد فى النظم والنثر ، بل ويرد فى كلام العوام . قال:

« فمن البديع ما هو موجود فى الكلام .وارد فى أثناء النثار والنظام . حتى إنه ليختص بالعوام . ويرد فى ألفاظهم من غير قصد ، ورب رمية من غير رام . » . ثم قال :

« ومن البديع ما هو موجود ومفقود . ومقبول ومردود . وهو يوجد أحيانا ويعدم أخرى . ويعطى إنسانا جزعا وآخر درا . ومنه ما هو نادر الوقوع . ملحق بالمستحيل الممنوع . وهو نوع التورية والاستخدام . الذى تزل فيه أقدام الورود والإقدام . وتقف الأفهام حسرى دون غايته . عن مرامى المرام .

نوع يشق على الغبى وجوده　　من أى باب جاء يغدو مقفلا
مر الكلام وقد خلا من لفظه　　لما تخلل فى معانيه حلا

* * *

ثم تكلم الصفدى فى إيجاز عن البديع ووروده فى شعر القدامى والمولدين . ثم أشار إلى تنبه المتأخرين إلى محاسن التورية . وعرض لذكر القاضى الفاضل وأنه — فيما يظن — هو الذى ذلل صعابها ومهد شعابها وأنزل الناس رحابها . ثم اتبعه من جاء بعده كابن سناء الملك ثم أبى الحسين الجزار والسراج الوراق وابن النقيب والحمامى .. الخ من أدباء عصر المماليك .وكلما ذكر اسما أورد شيئاً من شعره فى التورية.

وقد قسم الكلام عن التورية إلى مقدمتين ونتيجة .

وفى المقدمة الأولى : وهى ذات أربعة فصول وتتمة — تكلم عن اشتقاق التورية ومادتها واختلاف البلغاء فى أصلها ، وفى حقيقتها ورسمها وما هيتها . .

ثم تحدث فى الاستخدام وما يتعلق به . ثم فى نوع من التضمين يجرى مجرى التورية . وهذان الموضوعان من طرائفه .

وفى المقدمة الثانية : وهى أيضا ذات أربعة فصول وتتمة — تحدث عن الاشتراك اللغوى ورسمه وتعدد وقوعه ، وأوهام الشعراء فى التورية . والغلط فى الاشتراك .

أما النتيجة : فقد سجل فيها أمثلة من شعره فى التورية مرتبة على حروف المعجم .

ولم يعن بذكر أمثلة نثرية ، ولو فعل لأجاد وأفاد ولكان لنا منه مدد عظيم فى بابه — هذا وإنما نوهنا به لما ساد النثر والشعر من مذاهب فنية مشتركة .



والآن نورد أمثلة من توريات الناثرين فى هذا العصر .

فمنه قول جمال الدين بن نباتة من رسالة له يصف :

« كتبها المملوك . ودمع الغيث قد رقا ووجه الأرض قد راق . وقدود الأغصان قد راسلت أهواء القلوب بالأوراق . وقيان حمائمها قد ترنمت وجذبت القلوب بالأطواق . والورد قد أحمر خده الوسيم . وفكت أزراره من أجياد القضب أنامل النسيم . وخرجت أكفه من أكمامه لأخذ البيعة على الأزهار بالتقديم[1] » .

فى الكلمات : رقاو الأوراق وجذبت والأطواق،توريات يمكن إجراؤها .
ومنه قوله فى مفتتح رسالته « حظيرة الانس » :

« الحمد لله حافظ سر الملك بأمينه . وحامى حماه بمن قسم الشكر والأجر بين دنياه ودينه . ومن إذا رفعت راية مجد تلقاها عن آية براعته بيمينه . وإذا امتدت إليه أجياد الممالك حلاها من عقد التدبير بثمينه . وإذا نوى فى السيادة

(١) خزانة الأدب ص ٥١ .

فعلا أمضى العزم السنى قبل دخول سينه . وإذا حمل بنانه القلم روينا عن ابن بحر كتاب بيانه فى الفضل وتبيينه » الخ[1] .

وفى قوله : أمينه . ويمينه . وابن بحر ، توريات .

ومنه قوله فى إجازته للصفدى :

« ولكن تقول الأكابر : والأتباع تبذل من الأجوبة جهدها . وتنفق مما عندها . وتجرد الأماثل سيوف النطق ولا تتعدى الأولياء من الطاعة حدها . ولما كنت أيها الراقم برود هذا السؤال ببيانه . والمنشىء روض هذا الاستدعاء بآثار السحب من بنانه . والسائل الذى هزت المعاطف فضائله . وسحرت أرباب العقول عقائله . وأقام المسئول مقاما ليس هو من أهله فليتق الله سائله . . . » الخ[2] .

وفى الكلمات : حدها وسائله ، توريتان . .

ومن كلام البرهان القيراطى فى رسالة له إلى ابن نباتة قوله :

« يقبل الأرض التى سقت السماء نباتها . وعمر الله بمعانى الحسن أبياتها . — فلا غرو أن فضح بديع الزمان بلفظه البديع . وأزهرت الأوراق بمنثور رسائله التى كل فصل منها ربيع . » الخ[3] .

وفى قوله : أبياتها ومنثور رسائله تورية .

ومن كلام ابن حجة فى وصف السكين من رسالة له فى ذلك :

« يقبل الأرض التى قامت حدود مكارمها وقطعت عنا مكروه الفقر بسنون عزائمها . وينهى وصول السكين التى قطع المملوك بها أوصال الجفاء . وأضافها إلى الأدوية لحصل بها البرد والشفاء . وتالله ما غابت إلا وصلت الأقلام من تعثرها إلى الحفاء . زرقاء كم ظهر للبيض منها ألوان . خرساء ومن العجائب أنها لسان كل عنوان ما شاهدها موسى إلا سجد فى محراب النصاب . وذل بعد أن خضعت له الرءوس والرقاب . كم أيقظت طرف القلم بعد ما خط . وعلى

---

(١) ثمرات الأوراق .

(٢) راجع إجازة ابن نباته للصفدى بباب الرسائل .

(٣) الخزانة ص ٤٤٨ .

الحقيقة ما رؤى مثلها قط وكم وجد بها الصاحب فى المضايق نفعا . وحكم بحسن صحبتها قطعا . ماضية العزم . قاطعة السن . فيها حدة الشباب من وجهين . لأنها بالناب والنصاب معلمة الطرفين الخ »[1] .

وترى توريات عدة فى قوله : الخفاء وموسى والرءوس والرقاب وطرف .

* * *

والاستخدام : لون طريف جداً من ألوان البديع وهو حلية معنوية جميلة لربطها بين معنيين وما يتصل بهما فى إيجاز ، مع ما تثيره فى النفس من تأملات ، وتدفع إليه من مقارنات .

وقد سبق لنا نقل تعريفه عن خزانة ابن حجة عند حديثنا عن هذا الناقد . وملخصه أن الاستخدام فيه رأيان : رأى يقول إنه استعمال لفظ بمعنى ، ثم إعادة ضمير عليه بمعنى آخر : أو إعادة ضميرين بمعنيين مختلفين . وهذا هو رأى القزوينى وآخرين .

ورأى يقول إنه استعمال لفظ له معنيان ، ثم استعمال قرينتين معه ، إحداهما يفهم منها أحد المعنيين ، والثانية يفهم منها المعنى الثانى . وهو رأى بدر الدين بن مالك .

والفارق بينه وبين التورية أن التورية يراد معناها البعيد ولا يراد القريب . والاستخدام يراد معنياه — على أى الرأيين .

ويبدو أن هذا التشابه أو التقارب البادى بين التورية والاستخدام ، هو الذى قرنه بها ، وقرنها به إذ أن الفرق بينهما دقيق لا يكاد يلحظ ، ولا يكاد يفطن إليه إلا ذوو الفطر السليمة . وقد قال فيهما الصلاح الصفدى : « ومن أنواع البديع ما هو نادر الوقوع ملحق بالمستحيل الممنوع ، وهو نوع التورية والاستخدام الذى تقف الأفهام حسرى دون غايته عند مرامى المرام .

نوع يشق على الغبي وجوده   من أى باب جاء يغدو مقفلا[2]

---

(١) الخزانة باب السجع ص ٤٣٢ .

(٢) الخزانة ص ٥٢ باب الاستخدام .

والذى أشعر به أن الاستخدام ذائع الاستعمال بنوعيه فى لغة عوام زماننا وفكاهيهم ، وهو أحد أدلة ذكاء هذا الشعب وحنكته على صوغ معانيه بلباقة تجمع بين الإيجاز والموازنة والدعابة وغيرها .

وهو فى أدب عصر المماليك ذائع فى الشعر ، قليل فى النثر بالنسبة إليه . ومنه قول ابن حجة فى رسالة السكين السابقة :

« كم أيقظت طرف القلم بعد ما خط ، وعلى الحقيقة ما رؤى مثلها قط . وكم وجد بها الصاحب فى المضايق نفعا . وحكم بحسن صحبتها قطعا . ماضية العزم . قاطعة السن . فيها جدة الشباب من وجهين . لأنها بالناب والنصاب معلمة الطرفين » .

والاستخدام واضح فى قوله : قط . فهى تحتمل معنى الفعل قط يقط . ومعنى مطلقا . وكذلك قوله : قطعا فهى تحتمل معنيين : معنى حكم حكما قاطعا . والقطع من قطعت السكين . وماضية بمعنى حادة وذاهبة . وقاطعة تحتمل معنى حادة ومعنى مقطوعة أى مشقوقة ، وذلك على المجاز . وقوله : وجهين بمعنى ناحيتيها أو بمعنى رأيين .

ومنه قول البرهان القيراطى فى رسالته إلى ابن نباتة يمدحه ويصف قصائده :

« وطالما سرح الناظر فى بستانها منظره . ورام ابن سكرة فتح الأبواب لمعارضة قطرها النباتى فوجدها مسكرة »(1) .

وشاهدنا فى قوله « مسكرة » تحتمل أنها من السكر أو السكر ، أى حلوة . وتحتمل أنها من سكر . أو سكر بمعنى غطى أو غشى أو خنق ، والمراد مقفلة . — واللفظ بهذا المعنى — أى مقفلة — مستعمل فى لغتنا العامية حتى اليوم .

* * *

براعة الاستهلال ومراعاة النظير :

يراد ببراعة الاستهلال أن يكون فى مفتتح الرسالة مثلا ألفاظ تنبىء

---

(1) انظر باب الرسائل الإخوانية .

بموضوعها . وينبغى أن تكون مصوغة بدقة ولباقة تفيض طرافة وحسنا .

وترى أن براعة الاستهلال ذات صلة بمراعاة النظير ، وهى استعمال ألفاظ من واد واحد بينهما جهة جامعة . غير أن مراعاة النظير لا تقتصر على مفتتح الرسائل أو الخطب مثلا . وإنما تمتد إلى غير ذلك من مواضع .

وقد شاع هذان المحسنان فى نثر المماليك شيوعا بارزاً . وعنوا عناية كبرى ببراعة الاستهلال ، عناية قدلا تظفر بها عند سواهم من كتاب العصور السابقة . وهى من العوامل المشوقة التى تشوق السامع إلى حديث محدثه . وتهيء نفسه لتفهم كلامه . فبراعة الاستهلال حينذاك إذا سيقت بلطف كانت من المشهيات إلى الحديث ومواصلته .

ومن براعة الاستهلال قول ابن نباتة — فى مفتتح رسالته فى الموازنة بين القلم والسيف — على لسان القلم : « ن . والقلم وما يسطرون . ما أنت بنعمة ربك بمجنون » . ثم قال : « الحمد لله الذى علم بالقلم وشرفه بالقسم » .

وقوله فى مفتتح خطبة السيف :

« وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس . وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب إن الله قوى عزيز » . ثم قال : « الحمد لله الذى جعل الجنة تحت ظلال السيوف . وشرع حدها فى ذوى العصيان فأغصتهم بماء الحتوف »[1] .

وترى فى قوله : شرع حدها استخداما ، بمعنى أشهر أطرافها ، أو سن القصاص بها .

ومن استهلالات ابن حجة قوله فى خطبة كتابه « تأهيل الغريب » :

« الحمد لله الذى هدانا لتأهيل الغريب فأكرمنا مثواه . وما كنا لنهتدى لو لا أن هدانا الله . فله الحمد على هذه النعمة التى هى عن كثير من الناس بمعزل . إذ غريب الأدب لم يتأهل بقفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل » الخ[2] .

---

(١) خزانة الأدب باب براعة الاستهلال .

(٢) مقدمة تأهيل الغريب « مخطوط » .

واستهل القلقشندى خطبة كتابه « صبح الأعشى » بقوله :

« الحمد لله جاعل المرء بأصغريه قلبه ولسانه . والمتكلم بأجملية فصاحته وبيانه . راقم حقائق المعانى بأقلام الإلهام على صفحات الأفكار . جامع اللسان والقلم على ترجمة ما فى الضمائر ، ذاك للأسماع وهذا للأبصار ، الذى حفظ برسوم الخطوط ما تكل الأذهان السليمة عن حفظه . وتبلغ بوسائطها على البعد ما يعسر على المتحمل تأديته بصورة معناه ولفظه» الخ[1] .

وحسبنا ما مر تمثيلا لمراعاة النظير . وإن كانت أعم .

* * *

الجناس :

الجناس وجود لفظين فى الكلام بينهما تشابه فى النطق وتباين فى المعنى . وهو أنواع كثيرة أشهرها الجناس التام والجناس الناقص . والتام ما كان بين اللفظين تشابه فى الحروف وعددها وترتيبها وشكلها . والناقص ما نقص فيه شيء من ذلك .

وقد تكلم ابن حجة على أنواع الجناس وأفاض فى تفصيلها والاستشهاد لها .

وقد ظهر الجناس فى الأساليب العربية مبكراً . إلا أن الأدباء قصدوا إليه وتعمدوه منذ مطالع العصر العباسى .

ومازال الجناس لامع الصفحة بين الأدب العربى شعره ونثره ، حتى أضحى إحدى دعائم الأسلوب فى عصر المماليك .

والجناس حلية لفظية وإذا أتت منقادة للمعنى كان لها وقع لطيف بما تحمله من موسيقى وتجانس وانسجام ، وهذه أمور لها وزنها فى التأثير والإثارة على نحو ما رأينا فى السجع .

وندر أن خلت رسالة أو نحوها مما كتب منشئو العصر المملوكى ، من جناس . غير أن ابن حجة صرح فى خزانة الأدب بأن الجناس نوع ردىء ، وبأنه ليس مذهبه أو مذهب من سبقوه من أدباء التورية كابن نباتة وأنه يفضل عليه التورية

(١) راجع خطبة صبح الأعشى ج ١ .

لمـا فيها من لطائف معنوية . إلا إذا أخرج الجناس مخرج التورية — وقد تحدثنا عن ذلك كله عند كلامنا عن ابن حجة فى باب النقد — ولأجل ذلك حمل ابن حجة على الصلاح الصفدى الذى أغرم بالجناس غراماً لا حدله ، انفرد به بين أدباء هذا العصر حتى ألف فيه كتابه . . « جنان الجناس » الذى تندر عليه ابن نباتة وسماه « جنان الخناس »...

ومجمل الرأى فى هذا :

١ — أن الجناس كان إحدى دعائم الأسلوب شعراً ونثراً لا يكاد يخلو منه مقال أو قصيدة لأحد أدباء هذا العصر بمـا فيهم ابن حجة وابن نباتة .

٢ — أن الصفدى تعصب للجناس وأكثر منه فى شعره ونثره . وأن هذا أداه إلى التـكلف فثقل ولم يلطف . ولا سيما فى شعره ، وهو فى نثره أخف منه فى شعره .

٣ — وأن الجناس تارة يلطف وتارة يسخف ، ولم يخل من هذه الظاهرة أديب ، أو لا نـكاد نستثنى منها أديباً .

* * *

جنان الجناس (١)

وقبل أن نسوق أمثلة على جناسهم ، نعرف فى إيجاز بكتاب الصفدى : « جنان الجناس » .

ونبادر إلى القول بأن هذا الـكتاب عنى بالأمثلة الشعرية دون النثرية . ولـكننا نرى أنه لا بأس بالحديث عنه نظراً إلى تأثر الشعر والنثر حينذاك بمذاهب مشتركة .

وقد بدأ الصفدى بخطبة لا بأس أيضاً من أن نقتبس منها هذه السطور التالية لما تشير إليه من عناية الأدباء بفن البديع ، قال — وفى عباراته مجانسات متعددة فضلا عما فيها من إصرار على السجع — :

---

(١) هذا كتاب مطبوع .

« فلما كان فن البديع فى الزمن المتأخر أحسن بدعة . وأوضح لمعة . وأملح طلعة . وأكثر رواية وسعة . ولا أقول رياء وسمعة . به تبنى بيوت الشعر فى أشرف بقعة . وتبرز أبكار الأفكار منه فى خلعة بعد خلعة . وإذا كان الشعر بحراً فهو منه أعذب جرعة ، والمكاتبات حلة مرموقة فهو طراز كل رقعة . خصوصاً نوع التجنيس الذى هو ركن شريعته وبيان شرعته . وديباجة صنعائه فى صنعته . وآية سجدته ، وغاية سمعته ، وغياث نجدته ، وغيث نجعته » . إلى أن قال : « أحببت أن أضع فيه ما يشفى الغلة وينفى العلة ، ويوضح سبله بالشواهد والأدلة » . الخ

وقد قسمه إلى مقدمتين ونتيجة :

المقدمة الأولى : تكلم فيها عن اشتقاق الجناس لغة . وما يستفاد من المعانى بتقديم بعض حروف « ج ن س » على بعض . وذكر تعاريفه وبين الفرق بين المجانسة والمشاكلة والمشابهة والمساواة والموازاة الخ .

المقدمة الثانية : تكلم فيها عن أنواع الجناس وأقسامها ، بطريقة غريبة تشبه الطرق الحسابية . وكلما تكلم عن نوع حدده ومثل له بعدة أمثلة شعرية من نظمه ونظم غيره ، شارحاً وجوه الملاحة فيما يحمل كل مثل من جناس .

أما النتيجة : فهى ثمرة ما تقدم . وقد ضمنها كثيراً مما وقع له من الجناس فى شعره . وتعتبر ديواناً لجناس الصفدى ، وما قاله فى أبواب شعرية عدة ، منها الغزل والوصف والشكوى والحنين والاعتذار والمدح والإهداء وغير ذلك .

وبين هذا الشعر أبيات رقيقة ، ولكن بينها أبيات كثيرة التكلف أيضاً .

ومن قوله فى الغزل :

عاد بعد البعاد عنى وفاء ورعى حرمة الوداد وفاء
بعد ما صدنى عن الوصل ظلماً وتناسى حق الهوى وتناءى

* * *

هذا وقد رأينا أمثلة للجناس فى السطور التى نقلناها عن مقدمة كتاب الصفدى . ومنه مابين لمعة وطلعة ، وبين سعة وسمعة ، وبين شريعته وشرعته وصنعائه وصنعته ، وآية وغاية ، وسجدته وسجعته ، وغياث وغيث ، ونجدته ونجعته ، والغلة والعلة . . الخ .

ومن جناس ابن حجة قوله من رسالة إلى الناصر صاحب اليمن ، عن لسان المؤيد شيخ :

« لازال جناس مجده سعيد الحركة بين اليمن واليمن ، وسيفه اليمانى لم يرض بمجانسة « سيف ذى يزن » والأمة بأحمدها تهنأ بجنات عدن فى عدن . ولا برحت صنائعه بصنعاء محبرة حتى فى سطور الطروس »[1] .

وترى جناساً بين اليمن واليمن . وعدن وعدن . والسطور والطروس .

ولا بأس من أن نذكر هنا ضرباً من الجناس غريباً ، وهو الجناس الخطى ، وفيه يراعى تشابه كل لفظين متجاورين فى رسم حروفهما . ومن أمثلته الرسالة التوءمية التى كتبها صفى الدين الحلبى على نمط مقامة الحريرى التى بدأها بقوله « زينت زينب بقد يقد » . ويفترق حروف كل لفظين بالإهمال أو الإعجام .

وقد كتب الصفى الحلى رسالته تلك عام ٧٠٠ هـ على إثر ذكر مقامة الحريرى فى مجلس المنصور الأرتقى وقيل إن المتأخرين عجزوا عن هذه الصناعة . فنظم صفى الدين مقامته تلك وأولها :

« قبل قبل براك ثراك . عبد عند رخاك رجاك . أبى أبى سؤال سواك : أمل أمك رجاء رخاء ، فألفى فألقى جدة جده ، بأعتابك باغياً بك شرفا سرفا لاذ بك لأدبك » الخ[2]

وفيها إسراف كبير فى الصياغة اللفظية طوت بهجة البلاغة وأغاضت ماء رونقها .

* * *

(١) خزانة الأدب ، باب السجع ص ٤٢٦ .

(٢) عن ديوان صفى الدين الحلى ص ٤٨١ .

التوجيه :

يطلقه بعضهم على الإبهام وهو احتمال الكلام معنيين يصح أن يراد أحدهما. ولكن المتأخرين يعرفونه بأن يوجه المتكلم بعض كلامه أو جملته إلى أسماء متلائمة اصطلاحا من أسماء الأعلام أو قواعد العلوم أو غير ذلك مما يتشعب من الفنون، توجيها مطابقا لمعنى اللفظ الثانى من غير اشتراك حقيق.

ويفترق التوجيه عن التورية بأن التورية تكون بلفظة مشتركة، والتوجيه بلفظ مصطلح عليها. وبأن التورية باللفظة الواحدة. والتوجيه لا يصح إلا بألفاظ متلائمه عدة[1].

وقد لمع هذا النوع فى أساليب الشعراء والكتاب على السواء. غير أن الملحوظ فى النثر أن التوجيه لم يلازم كل رسالة أو مقالة أو خطبة مثلا، كما لازمها السجع أو الجناس أو الطباق أو التورية أو الاستعارة مثلا، وإنما لمع فى كثير منها دون الباقى. وكذلك يلاحظ أن التوجيه فى الشعر أكثر وأخف منه فى النثر.

ويرجع سبب ولوع بعضهم به إلى أنهم كانوا علماء فقهاء فى الدين أو مبرزين فى النحو أو غيره. فكان لا بد أن ينضح هذا على إنشائهم. وشأن التوجيه شأن الجناس والسجع، من ناحية اصطناعه خفيفاً هينا لطيفا، واصطناعه ثقيلا غثاً متكلفاً.

وليس معنى ما تقدم أن هناك أدباء لم يصطنعوا هذا اللون البديعى، بل الكل فى ذلك سواء. ولهذا لا نستطيع أن نفرد منهم عددا ونجعل منهم مدرسة تسمى مدرسة «التوجيه». على أننا بالاستقراء وجدنا — مثلا — أن ابن الوردى والجلال السيوطى من أكثر الأدباء اصطناعا للتوجيه، وإجازات ابن الوردى ورشف الزلال للسيوطى شاهد على ذلك.

---

(١) راجع خزانة ابن حجة باب التوجيه ص ١٣٥.

والآن نورد لك أمثلة منه .

قال ابن الوردى — وفيه تكلف — مجيزا بعرض كافية النحو ، وموجها بحروف الهجاء وأسماء بعض الكتب .

« أما بعد حمد الله المقدمة رحمته . الكافية نعمته . حمداً يبلغ به المقرب خلاصة التسهيل . ويمسى به مفصل المجمل وهو بإيضاح العمدة كفيل . والصلاة على نبيه محمد الذى ألف التقوى ولام أهل العدوى . ودال على كل كاف من أهل العناد . وذال إذ قصر ثيابه فطمس عين أهل الشرك وفاء بعين المراد . وباء من إسرائه الشريف بما صاد الأضداد . وشين حاسده بما بان لكل راء فى يس وص صلى الله عليه وعلى آله وصحبه أفضل من جاهد وصبر ، ما نصب بأن الاسم ورفع الخبر » الخ[1] .

الإبهام :

الإبهام هو أن يقول المتكلم كلاما مبهما يحتمل معنيين متضادين يصح أن يراد أحدهما . وهو قريب الشبه بالتورية والاستخدام والتوجيه ، فكلها ألوان من واد واحد . ولكن بينها دقائق معنوية لطيفة .

والإبهام من أرق وأدق ألوان البديع ، بل من أليق المسالك التعبيرية التى لا يستطيع تصريفها كل كاتب وأديب . وهو أداة الناقد إلى نقده ، ووسيلة المتهكم إلى تهكمه ، والساخر إلى سخريته ، إذا أراد كل منهما أن ينال من خصمه دون أن يكون سافر الوجه بادى الحديث . أو معرضا للأذى أو المؤاخذة . فبه يبلغ ما يريد ويصل إلى ما يهدف ، مستتراً فى إبهامه . هذا كله فضلا عما فيه من طرافة معنوية ومن جمع بين ضدين ومن بعث للفكر على التأمل فى كل معنى على حدة ، وفى المعنيين مجتمعين . وفى المناسبة التى جمعت بينهما ، والظلال الممتدة من هذا الجمع ، ثم فى لباقة الكاتب وقدرته ولطف حسه الذى أداه إلى هذا الإبهام . هذا فضلا عما للإبهام من صلة بالجناس . فإنه يخرجه جناسا معنوياً تاماً .

---

(١) ديوان ابن الوردى ص ١٥٠ .

والإبهام يصلح لأساليب النقد والسياسة والإلغاز والتهكم وما إلى ذلك. ولا سيما إبان الطغيان وخوف البطش وقد شهدناه فيما مر علينا من النماذج ، بين التقاريظ الساخرة ، التي وضعت للمدح في ظاهر أمرها ، وهي تفيض هجوا وذما .

ومنها تقريظ بدر الدين الدماميني لسيرة ابن ناهض الفقاعي التي كتبها في تاريخ المؤيد شيخ ومدحه ، قال : « وأما منشئ السيرة ، فماذا أقول وقد رأيت الخطب جليلا ، وماذا أصف وقد حملني العجز عبئا ثقيلا . هو كبير أناس . مزمل من البلاغة بأنواع وأجناس . يأتم به الهداة كأنه علم ، وتروم الأدباء المقايسة به فيقاسون ولكن من شدة الألم . له في الأدب صريمة وشهامة . وفراهة تجريه إلى المقامات الرائقة فلا تعتريه سآمة . ما هم بتركيب معنى إلا وشرح الصدور بذلك الهم . ولا شن فارس فكره غارة إلا وتم منها على بيوت الشعراء ما تم طالما أظهر برغم أنوف الحسدة في المجالس فضله . وصعبت الآداب على غيره ولكنها أصبحت عليه سهلة . » الخ[1]

وإليك بعض الإبهامات في هذه السطور . فمثلا :

(أ) قوله : « وقد رأيت الخطب جليلا : يحتمل أنه رأى عملا عظيما . أو رأى بلوى كبرى .

(ب) قوله وماذا أصف وقد حملني العجز عبئاً ثقيلا . يحتمل أن العجز عجز كاتب السيرة . أو عجز المقرظ عن إيفائه حقه .

(ح) قوله . فيقاسون . يحتمل من القياس ، ويكون المعنى أنهم يقيسون أنفسهم به وأدبهم بأدبه . ويحتمل من المقاساة بدليل قوله : من شدة الألم . ويكون المعنى أنهم يتألمون جداً إذا قيسوا به . . ومن ظرف تعبيره بقوله « يقاسون » أن اللفظة فيها أيضاً استخدام . وكلمة « المقايسة » ترشحها لمعنى ؛ وكلمة « الألم » ترشحها للمعنى الثاني .

---

(١) خزانة الأدب باب الإبهام ص ٧٩ .

(د) وقوله : ماشٍ فكره غارة : يحتمل المدح بأنه غزا بيوت الشعراء فغلبها . والذم بأنه أغار عليها فسرقها — وفي قوله : ماتم . يحتمل معنيين : الأول الذي تم والثاني مأتم بالهمزة — ونظرا إلى جواز إرادة أحد المعنيين خرجت اللفظة عن التورية إلى الإيهام ، وفي الوقت ذاته ، في اللفظة جناس بين لفظي معنييها . ونعتبره جناسا تاما معنويا .

(هـ) وقوله : فضله : يحتمل معناها الفضل والعلم . ويحتمل الفضلة أي الزيادة التي يصح حذفها .

(و) وقوله . ولكن الآداب أصبحت عليه سهلة . يحتمل أنها سهلت عليه لقدرته وهمته وذكائه . أو سهلت عليه لجرأته وعدم خبرته فاقتحم بابها دون تروٍ ومبالاة . . . الخ .

التلميح :

هو أن يشير المتكلم في سياق كلامه بلفظ أو نحوه إلى حادثة سابقة أو قصة معلومة أو نكتة مشهورة أو مثل سائر أو رجل من الأعلام ونحو ذلك . وفي التلميح — ولا ريب — طرافة وإيقاظ للفكر وتنبيه له إلى ما سبق من قصص أو نكت أو حوادث مثلا ، وإمتاع له ، للربط بين القديم والحديث ، ولاستعمال المعاني السابقة لإيضاح المعاني الجديدة .

ومنه قول الفخر بن مكانس في وصف النيل وزيادته ، يخاطب البدر البشتكي :

« فلو رآه مولانا وقد هجم على مصر لجاس خلال الديار . ودخل إلى المعشوق فتركه كالعاشق المهجور لم ير منه غير الآثار لبكى بعين عروة » . وهو يشير بذلك إلى عروة بن حزام وهو أحد الشعراء العشاق من بني عذرة في عصر بني أمية وكان يهوى ابنة عمه عفراء .

ومنه قول ابن عبد الظاهر في وصف الحمائم : « كم أنسى مطارها عدو السلكة والسليك . » يلمح إلى السليك بن سلكة ، وهو ابن يثربي بن سنان بن سلكة وسلكة أمه . وقد كان السليك شاعرا لصاً فتاكا وهو أحد عدائي العرب .

ومنه قول ابن حبيب الحلبي في نسيم الصبا ، يصف الرياض وجداولها .

« حكت الخنساء لا فى الحزن بل فى الحسن والفخر . ولها عيون تجرى على الديباج لا على صخر » يلمح بذلك إلى قصة الخنساء وبكائها على أخيها صخر فضلا عما فى كلمة « صخر » هنا ، من تورية .

ومنه قول ابن حبيب الحلبى أيضا فى وصف جارية : « يسرح الطرف فى روض جمالها ويتنزه . ويمحو كثير محاسنها البديعة ذكر عزة . فى حليها وحللها تميد وتميل . وبالجملة فهى بثينة الحسن لأن وجهها جميل » . وفيه تلميح إلى كثير ومشوقته عزة وإلى جميل ومحبوبته بثينة .

ومنه قول ابن حجة فى ختام رسالته التى عارض بها القاضى الفاضل فى وصف حمائم الرسائل ، داعيا لصديقه البارزى . « والله تعالى يديم بأفنان أبوابه العالية ألحان السواجع . ولا برح تغريدها مطربا بين البادى والمراجع » وفيه تلميح إلى اسم كتاب للصلاح الصفدى اسمه : « ألحان السواجع بين البادى والمراجع »

العكس

العكس رد آخر الشىء على أوله — كما يقول ابن حجة — وهو لون بديعى زها ولمع فى هذا العصر لمعانا لا بأس به . غير أنه لم يكن دعامة أسلوبية أصيلة ، وإنما بدت كمظهر للترف البديعى .

ومنه قول ابن الوردى من رسالة .

فنسأل الله أجراً بلا بلاء ، ونعوذ بالله من بلاء بلا أجر[1] » .

وقوله : « ولا منعتهم قناطر الملوك إذ صرعتهم ملوك القناطر[2] » .

ويقول ابن دانيال فى خاتمة تمثيليته الثانية من « طيف الخيال » . « فلذلك أختصر من الاعتذار . وأعتذر من الاختصار » .

الإهمال :

ونعنى به استعمال الحروف غير المنقوطة . ولصفى الدين الحلى رسالة مهملة

(١ ، ٢) عن ديوان ابن الوردى ص ١٧٩ ، ١٨٠ .

أرسلها إلى السلطان الناصر يشكو إليه قطع راتبه الذى خصصه السلطان له حين ذهابه إلى الحج عام ٧٢٣ هـ ، قال منها يمدح السلطان :

« أدام الله دولة الملك العادل العامل الأوحد الكامل. مؤمل الآمل . ومآل الأرامل . مالك ملوك الدول . طامس أسماء الكرام الأول . أسد الآساد . ومكمد الحساد . ومورد الوراد . الهمام الأروع . والأسد الأدرع . أسد كل حاسر ومدرع . هادم الأموال وحامل الأهوال. حاطم الأسل الطوال . ملك همه إعمال الصوارم . وإسداء المكارم . واطراح المحارم . ما حلل محارم الله ولا عطل حدود الإله . حلمه مهد أحكام الإسلام . واسمه اسم رسول الملك العلام . ما آداه حمل ملك مصر . ولا حمل طود حلم الأصر . مدحه عطر المسامع ، وإمارة السامع . وعدله حسم المطامع . وإخماد الطامع حكاه الأسد لولا حراسة طعامه . والمطر لولا إمساك ركامه » الخ[1] .

وترى ما فى الفقرتين الأخيرتين من احتراس لطيف .

هذا ولم يكن الإهمال ذائع الاستعمال فى الرسائل ونحوها . حتى يكون خصوصية أصيلة ودعامة ذات شأن فى الأساليب الإنشائية . على أنه واضح التكلف خارج عن حدود الطبع ومألوف الذوق .

التعليل :

هو أن يدعى لوصف أو نحوه علة أدبية لطيفة تناسبه ، ليست هى علته الحقيقية . وقد فشا هذا التعليل فى نثرهم وازدهر به أسلوبهم ودل على ذوق لطيف وحس شفيف وخيال مبتكر وذهن مقتدر .

ومنه قول الشهاب الحلبي فى وصف الخيل :

« ومن أدهم حالك الأديم . حالى الشكيم . له مقلة غانية وسالفة ريم قد ألبسه الليل برده . وأطلع بين عينيه سعده . يظن من نظر إلى سواد طرته . وبياض حجوله وغرته . أنه توهم النهار نهراً نخاضه . وألقى بين عينيه نقطة من رشاش تلك المخاضة »[2] .

(١) ديوان صفى الدين ص ٤٧٩ .

(٢) حسن التوسل ص ١٤٢ .

وحسن التعليل باد فى قوله : « ألبسه الليل برده » فهو يعلل سواده بأن الليل أعاره ثيابه .

وكذلك فى قوله : « توهم النهار نهراً فخاضه . وألقى بين عينيه ... الخ » . وهنا تعليلان لا تعليل واحد ، وكلاهما غاية فى الإبداع ودقة الاختراع ، مع السهولة والوضوح . فهو يعلل وجود الحجول البيض فوق حوافر الأدهم ، ووجود الغرة فى جبهته بأن الأدهم توهم أن النهار نهر وهو تخيل أو توهم لطيف استطاع به الكاتب المتمكن من نقل خيال السامع من جريان الأدهم فى النهار ، إلى تيار النهر يخوضه بأقدامه . فأحاط بياض الماء بحوافره . وطارت رشاشة منه إلى جبهته فتركت به غرة . . .

ومنه قول الشهاب بن فضل الله فى وصف الخمر :

« سعى الساقى بكأسها . وصب الذهب من أكياسها . وفض عنها طينة ختام كانت طابعا لشمها . ودواء مما يخامر العقول من مسها وراضها بالمزاج ولولاه لجمحت . ولاينها بالملاطفة حتى جنحت . . » الخ[1] .

وشاهدنا فى قوله : « وراضها » الخ فإنه يعلل عدم جموح الخمر برياضتها بالمزاج . ويعلل جنوحها بملاينتها وملاطفتها .

وقد مرت علينا تعليلات كثيرة غير هذه .

حسن الختام :

هذه حلية تقابل براعة الاستهلال أو حسن الابتداء . وهو ذكر كلام فى آخر الرسالة أو نحوها يشعر بالانتهاء منها . وهذه ظاهرة لا تكاد تخلو منها رسالة أو مقالة أو نحوها .

وختم ابن الوردى رسالته التى شكر فيها أحد أصدقائه على إهدائه صقرين إليه ، فقال :

---

(١) التعريف ص ٢١٦ .

« ومن كرامات مولانا أنه أصبح جابراً بكاسرين . مرحبا برسوله الذى إن قدم رسول بأيمن طائر ، فقد قدم هو بأيمن طائرين » .

ومنه قول الصفدى فى نهاية رسالة يهنىء بها :

« وما تم غير صفح مولانا الجميل . والله يبلغه من الأمانى نهاية التأميل . بمنه وكرمه » .

وختم ابن حجة بشارته بوفاء النيل بقوله على لسان المؤيد إلى أحد الأمراء :

« والله تعالى يوصل بشائرنا الشريفة لسمعه الكريم ليصير بها فى كل وقت مشنفا . ولا برح فى نيلنا المبارك وإنعامنا الشريف على كلا الحالين فى وفا » .

ونظرة عجلى إلى ما سطرناه من نماذج مختلفة فى الأبواب السابقة تبين لك ضروبا من حسن الختام .

الفصل الرابع

٤ ـ خصائص أخرى

نتحدث فى هذا الفصل عن جملة من الخصائص الأخرى التى بدت فى النثر، رأينا أن نجمعها فيه، ونتحدث عن كل منها فى إيجاز شديد معتمدين غالباً على ماسبق لنا التمثيل به من الشواهد والنماذج. وفى الإيجاز هنا ـ كما نشعر ـ غنية عن التفصيل.

فمنها:

الأغراض الشعرية:

ونعنى بذلك أن النثر طرق جملة من الأغراض التى هى من صميم أغراض الشعر، وذلك كالمدح والغزل والوصف والمجون.

وطوراً تكون هذه الأغراض رئيسية تدبج لها المقالة أو الرسالة مثلا، وطوراً تكون تابعة تتراءى بين السطور.

فالمدح رأيناه فى الرسائل الإخوانية. كما رأيناه باديا فى بعض ألوان وفى الرسائل الديوانية الرسائل الإخوانية الأخرى التى كتبت فى الشكر والشوق والتهنئة وغيرها، ولا سيما التقاليد.

والوصف قد عقدنا له بابا مستقلا، فضلا عن بدوه فى خلال نماذج الأبواب الأخرى. وقد وصفوا مناظر الطبيعة والرياض والجداول والأشجار والنيل ووصفوا الغزوات والحروب، والأدوات والحيوانات المحيطة بهم، ومنها السيف والقلم والسكين والرمح والسيف ومنها الخيل والحمام والظبي والحمار الوحشى[1] كما وصفوا الحوادث العامة كالحريق والزلزال والأوبئة المنتشرة. ووصفوا الرحلات.. إلى غير ذلك.

---

(١) راجع التعريف بالمصطلح الشريف.

والغزل والمجون وقد شاهدناهما فى بعض الاستدعاءات وبعض المقامات والقصص كمقامة الصفدى وطيف الخيال .

الاستشهاد بالأبيات الشعرية :

ونعنى بذلك سوق الأبيات الشعرية المناسبة على سبيل الاستشهاد وإكمال النثر ، وإيصال بعضه بالبعض الآخر — وليس هذا على سبيل التضمين . بل كثيراً ما تكون الأبيات فى مفتتح الرسائل — ولاسيما الإخوانيات ورسائل الوصف — كما أنها تتخللها وتفصل بين سطورها ، كما أن الغالب أنها من نظم الكاتب نفسه ، وليست مستعارة من شعر سواه .

الميل إلى الإطالة :

هذه خصوصية لا تكاد تفارق مقالة أو رسالة أو غيرها . والرسائل الموجزة نادرة الوجود . وقد نوهنا فى سياق بحثنا عند الحديث عن بعض الرسائل مثلا ، بمقدار سطورها أو عدد صفحاتها ، ومن ذلك على سبيل التمثيل : رسالة محي الدين بن عبد الظاهر التى عارض بها القاضى الفاضل ، فقد بلغ عدد سطورها ٩٨٥ سطراً . وكذلك نصيحة ابن تيمية التى بعثها إلى ملك قبرص فإنها بلغت نحو ٢٢ صفحة ، وهكذا .

ولم يكن طول الرسائل معتمداً على التكرار والترادف دائماً وإنما هو فى كثير أمره مبنى على تجديد المعنى وطول الفكرة ، واستقصاء أجزائها .

الفكاهة :

وترى هذه الخصوصية ماثلة فيما كتبوه من المجونيات والاستدعاءات وبعض المقامات والقصص ومنها طيف الخيال ، وفى التقاريظ المبهمة . وليست الفكاهة عنصراً أو صفة أساسية بادية فى كل رسالة ومقالة مثلا ، ولكن ألواناً من الرسائل أو المقالات ، بطبيعة موضوعها ، تدفع إلى التفكه ، أو أن الرغبة فى التفكه تدفع إليه .

والتفكه إنما تدعو إليه الرغبة فى التسلية ودفع السآمة والملل ، ورفع كابوس الهم والحزن ، والخلو إلى النفس إبعاداً لها عن مشاغل الحياة الثقيلة . وإطلاقا لها من أسر الجد .

على أن كثيراً من أدباء العصر — على مانرى — كان كثير الفراغ ، وكثرة الفراغ تدفع إلى اللهو والفكاهة ، ولكن مع هذا نرى أن نتاجهم فى هذا الباب لا يناسب ما كان لديهم من الفراغ . ولعل سبب ذلك ارتباط كثيرين منهم بالكتابة فى الديوان ، فأخذوا أنفسهم بقيود الجد .

على أن الشعراء منهم كانوا أكثر إقداماً على الشعر الفكاهى فأتوا فى بابه بالسائغ الممتع واللذيذ الرائع ، ومنهم الجزار والوراق وابن مكانس فخر الدين وابن دانيال الموصلى ، وابن أبى حجلة المغربى .

وقد عاونهم فى هذا الباب اصطناع التورية والاستخدام والإبهام والاستعارة ، ونحو ذلك من كل لون يحتمل معنيين .

السهولة والوضوح :

على الرغم من هذه القيود التى رأيناها والقواعد الفنية والدعائم الأسلوبية التى شاهدناها فى أساليب كتاب هذا العصر ، نرى خصوصية بارزة للعيان يشهد بها الذوق السليم العادل . وتلك هى السهولة والوضوح الباديان على عباراتهم ، رغم هذه القيود التى من شأنها أن تئود الأسلوب أو تصيبه بشىء من التعقيد ، ولا سيما إذا اجتمع منها فى العبارة أكثر من قيد أو أكثر من خصوصية . بدت أساليبهم إذاً — فى أغلبها — سهلة اللفظ واضحة التركيب بارزة المعانى سافرة الفكرة ، مما يدل على ذوق سمح وفطرة مواتية وخاطر لطيف ونفس مطبوعة على الأدب .

ونحن لا ندعى ، ولا نزعم أن كل الكتاب سلموا من التعقيد والغموض ، ولا كل كاتب على حدة سلم كل ما كتبه من التعقيد والغموض والثقل . هذا لم يحدث فى أى عصر من عصور الكتابة . ولكن الصبغة الغالبة على كتابتهم فى

العصر الذى نحن بصدده ، هى السهولة والوضوح . وهما صفتان مكتسبتان من سهولة البيئة ووضوح أجزائها وقلة تعقيد تضاريسها وجوها، بل من اعتدال هذا الجو وتماثل هذه التضاريس فى جملتها . هذا فضلا عن لون الثقافة التى ثقفوا بها فإنها كانت بعيدة عن الغوص وراء المغيبات ، والبحث فيما وراء الطبيعة والنظر فى الفلسفات والتعلق بالمعقولات على نحو ما بينا فيما سلف عند الحديث عن البيئات .

ولعل مما عاونهم على بلوغ غايتهم فى السهولة والوضوح أن ألوانهم البديعية صرفوها — أكثر ما صرفوها — إلى خدمة المعانى وإيضاحها ومداعبة الأذهان بها ومعابثة النفوس فى ظلالها . . فلم تكن إذن صناعة لفظية ولم تكن عبثا بالألفاظ والحروف — كما يزعم الزاعمون .

ويضاف إلى ذلك أيضا أن الموضوعات التى كانوا يجولون فيها والحقائق التى كانوا يصورونها أو يعبرون عن خباياها لم تكن وعرة أو متعاصية أو مما يتطلب برهنة معقدة أو شرحاً علمياً تتضارب فيه الحجج أو تتزاحم الآراء .

ولم يكثروا من التقديم والتأخير إلا بمقدار يسير على طاقة ما تساق سجعة أو يتسق جناس مثلا ، ولم يغرموا بالكنايات ولا سيما الغريب البعيد منها ، الكثير اللوازم العسير خطورة فى الأذهان .

ويبدو أن الكناية تحتاج إلى خاطر عميق النظرة دقيق الربط له حيلة على استنباط اللوازم وحسن الانتقال بها فى حكمة وكياسة حتى يصوغ الكناية مستوفاة لامعة . وهذه طريقة فى التعبير تتجافى مع البيئات السهلة الواضحة ومع خواطر أدبائها .

وهم بلا ريب — فى ميدان السهولة والوضوح درجات وطبقات . فمثلا ترى الشهاب الحلبى وابن عبد الظاهر وابن فضل الله وابن نباتة ، أجزل عبارة وأجمل تراكيب وألطف ألفاظا وأوضح معانى — على الرغم من دقتها وقوتها — من أمثال ابن حجة والصفدى . وهكذا .

فمن رقيق قول الحلبى فى رسالة أنشأها عن سلطانه جوابا على مراسلة لابن الأحمر صاحب غرناطة ، قوله مثنيا على ابن الأحمر .

« ونهدى إليه ثناء تعبق بنشر الرياض خمائله وتنطق بمحض الوداد مخايله . ويشرق فى أفق مفاخره غدواته وأصائله . يشافه بجده بمصونه . ويطارح نحره بمكنونه . ويجلو على حضرته العلية عقائل الشرف من أبكار الهناء وعونه »(1) .

ومنه قوله فى وصف الرياضة والصيد ، من رسالة :

« الرياضة — أطال الله بقاء الجناب الفلانى ، وجعل حبه لقلب عدوه واجبا . وسعده كوصف عبده للمسار جالبا — تبعث النفس على مجانبة الدعة والسكون . وتصونها عن مشابهة الحائم فى الركون . وتحضها على أخذ حظها من كل فن حسن . وتحثها على إضافة الأدوات الكاملة اللسن . وتأخذ بها طورا فى الجد وطورا فى اللعب . وتصرفها فى ملاذ السمو فى المشاق التى يستروح إليها التعب . فتارة تحمل الأكابر والعظماء فى طلب الصيد ، على مواصلة السرى . ومقاطعة الكرى . ومهاجرة الأوطار . ومهاجمة الأخطار . ومكابدة الهواجر . ومبادرة الأوابد التى لا تدرك حتى تبلغ القلوب الحناجر » الخ (2)

ومن كلام محي الدين بن عبد الظاهر ورقيقه وواضحه ومؤثره ما كتبه على لسان الملك المنصور قلاوون يرد به على صاحب اليمن عندما عزاه عن موت ابنه ، ويظهر تجلده على فقده . وقوله :

ولنا — والشكر لله — صبر جميل لا نأسف معه على فائت ولا نأسى على مفقود . وإذا علم الله سبحانه حسن الاستنابة إلى قضائه . والاستكانة إلى عطائه . عوض كل يوم ما يقول المبشر به هذا مولى مولود . وليست الإبل بأغلظ أكباداً ممن له قلب لا يبالى بالصدمات كثرت أو قلت . ولا بالتباريح حقرت أو جلت ولا بالأزمات إن هى توالت أو تولت . » الخ(3) .

ومن كلام الشهاب بن فضل الله يصف البرق :

« البرق قد نبض عرقه . ووضح بين جمة الليل السوداء فرقه . وعلقت منه سلاسل من ذهب . وأوقدت مجامر من لهب . ولم يظن إلا أن أشهب الصباح قد ركض فى أدهم الليل . أو أن عمودا من فضة قد تحدر فى صبب السيل . » .(4)

(1 ، 2) حسن التوسل ص ١٣٦ ، ١٤٨ على الترتيب .

(3) المفصل .

(4) التعريف ص ٢٣٩ .

ومن قوله أيضاً يصف الكركى :

« انسل من خيطه . وأقبل يستن فى شوطه . كأنما جللته السماء بردائها . أوكسته لون الماء من تساقط أندائها . قد شف لوناً عن العنبر الورد . وزين الأفق لما علق فى شفتيه بذهب ولا زورد؛ فعاجله الرامى فى تعرضه . وعالجه ببندقة خر لديها ، وأزرق الصبح يبدو قبل أبيضه[1] » .

ائتلاف الأسلوب مع الموضوع :

لكل موضوع أسلوب يناسبه ، وطرق ، بل وألفاظ تستخدم للتعبير عنه وبيان مراميه . ويتسق جرسها ويلتئم وقعها مع معانيه . فما يناسب الغزل من الأساليب والألفاظ ، لا يناسب وصف الحروب مثلا . فهناك يطلب الرقيق العذب ، وهنا يساق الخشن الصلب . وما يناسب الفخر والحماسة ، لا يناسب الشكوى مثلا . فالاولى تتطلب الجزل الطنان ، والثانى تنشد اللين الأنان .

على أن القدماء قالوا : « لكل مقام مقال » ، فطوراً يستجاد الإيجاز ، وطوراً يروق الإطناب . وتارة يحلو التهويل والمبالغة ، وتارة يلذ هدوء اللفظ وسكينة التركيب . وهكذا .

وإنما يفطن الذوق إلى المناسب ، إذا لطف . ويقع الخاطر على اللائق إذا حصف . فيجيد الاختيار ، ويحسنه . ويهذب الأسلوب ويتقنه ، حتى يفى الكلام بالمرام . ويبلغ القول إلى الأهداف .

وهذه خصوصية أدبية يكتسبها الاديب بالدأب والمرانة . وأخذ النفس بألوان التدريب والتهذيب والتنبه الدائم إلى اللائق من اللفظ والمناسب من الكلم .

وإذا اكتملت للأديب هذه الخصوصية وانطبعت عليها ملكته . جرت منه

---

(١) التعريف ص ٢٢٩ ، ٢٣٩ على الترتيب . وقوله : « عالجه ببندقة » ، وهى فى الأصل : عاجله ، فرجحنا عالجه جريا مع أسلوب العصر ولئلا تتكرر اللفظة فى القرينتين المتتاليتين بمعنى واحد .

فى النهاية مجرى الغريزة ، وانطلق لسانه وقلمه يفيضان بالمعجب الرائع ، والمطرب السائغ ، من الأساليب والتراكيب التى توحى بموضوعاتها قبل سفور معانيها وظهور مراميها .

وهذه إحدى خصوصيات كتاب عصر المماليك .

* * *

ولعل من المناسب هنا أن نذكر أن هذه الخصوصية الأدبية أشار إليها بعض النقاد القدامى كقدامة والآمدى . غير أنهم لم يوفوها حقها من البحث والتفصيل والتدليل . ويبدو أن النقد الحديث أخذ يتجه — فيما يتجه إليه — إلى توفيتها حقها من البيان .

ونحب أن نذكر بهذه المناسبة بعض آراء الشهاب الحلبي أحد نقاد عصر المماليك ، التى بها يوصى الكتاب بأمور ينبغى أن يراعوها حين تصديهم للكتابة وتدبيج الرسائل ، ويضع لهم بذلك قواعد ذوقية تدل على الاتجاه الذوقى فى عصره ، وهى وإن دلت على ذوق أهل الديوان ، تدل تبعاً لهم على ذوق غيرهم أو ترسم لهم مناهج الكتابة . وكل هذه الأمور أو التعليمات تدور حول ائتلاف الأسلوب مع الموضوع . وقد سبق لنا أن لخصناها عند حديثنا عن الحلبي فى باب النقد ولا بأس من أن نشير إليها هنا إشارة عابرة فمنها بإيجاز :

١ — إذا كتب المنشىء عن السلطان إلى نوابه وقادته وقت الحرب فليتوخ الإيجاز والألفاظ البليغة الدالة على القصد . ولا يهول شأن العدو .

٢ — وإذا كتب عنه وقت حركات العدو ، إلى أهل الثغور ، فليبسط القول فى وصف العزائم ويثير الحمية للدين ويبسط الآمال . ويبرز ذلك فى أبين كلام وأجله وأقربه من القوة والبسالة ، وأبعده عن اللين والرأفة .

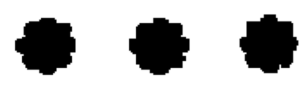
٣ — وإذا كتب فى الفتوح والتهانى بها فليبسط القول ويطنب فى شكر الله وتعظيم ما يسر من الفتح . وإذا اتسع المقام لوصف الواقعة ومناجزاتها كان ذلك أفضل .

٤ — وإذا كتب فى تقريع متهم بمالأة العدو ساق ألوان التوبيخ والتهكم والتهديد ، وذكر ذلك فى معرض الأخبار .

٥ — وإذا تصدى لوصف الخيل أو الجوارح والسلاح وآلات الحرب ووصف الحصون والجيوش الخ فليبسط الكلام .

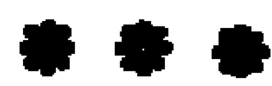
٦ — وإذا كتب التقاليد والتواقيع ونحوها بسط الكلام حسب أهمية المكتوب له .

٧ — ويتبع فى الكتب الإخوانية ما يتبع فى سواها .



هذا ولنا ملحوظتان عابرتان أولاهما أن الحلبي تكلم عن الإيجاز وأنه مستحسن إذا كتب الكاتب عن السلطان إلى نوابه وقادته وقت الحرب . . . ونقول إن الإيجاز لم يبد فى أية رسالة عثرنا عليها فى هذا العصر، على أننا نقول إن الإيجاز عندهم نادر . وسبقت لنا إلى ذلك إشارة .

ثانيتهما : أن الشهاب بن فضل الله قد أورد فى كتابه « التعريف » وجازات كثيرة العدد فى وصف أشياء لاعدد لها من ألوان الخيل والطير والجوارح وآلات الحرب والصيد والركوب والغناء ، وفى وصف الرياح والأنواء إلى غير ذلك . ويصف كلا منها فى سطور قليلة قد تبلغ أحيانا سطرين أو ثلاثة . وليس فى هذا دليل على رغبته أو رغبتهم فى الإيجاز . وإنما كتب الشهاب هذه الوجازات نماذج للمنشئين ينسجون على منوالها . ولم يكتبها فى مناسبة رسمية أو إخوانية . فليست حجة إذن .



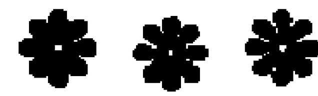
ولسنا فى حاجة إلى إيراد نماذج ندلل بها على رعايتهم ائتلاف الأسلوب مع الموضوع . فحسب القارئ أن يقلب صفحات الأبواب السابقة ليحكم معنا بما ذهبنا إليه . وليقارن مثلا بين رسالة فى وصف الغزو ، ومقامة فى وصف لقاء معشوق . أو رسالة فى وصف الخيل ، ونصيحة بذلت لسلطان . وهكذا

الفصل الخامس

٥ — اللوازم الديوانية وما يشبهها

نعني باللوازم الديوانية جملة من الألفاظ أو التراكيب التي اعتاد الكتاب الرسميون التزامها في مكاتباتهم الديوانية ، لا يكادون يفارقونها . ولكل منها في المكاتبة موضع خاص . ويغلب التزامها كذلك في المكاتبات غير الديوانية تشبها بالديوانية ، إذ كانت أساليبهما تجرى في الغالب على نمط واحد . على أن من الإخوانيات لم يلتزمها .

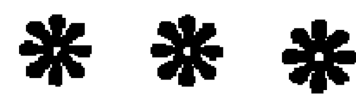
ولكل أمة في كل عصر ، على وجه الإجمال، مثل تلك اللوازم والشكليات التي يضعها الكتاب أو يقترحها الرؤساء أو يأمر بها الملوك والسلاطين ، وكأنما هي التي تسبغ على مكاتباتهم السمة الرسمية .



وما أحق عصر المماليك بأن يكون عصر اللوازم والشكليات . فسلاطينه أعاجم يعجبهم الإطراء والمدح، وتغريهم الألقاب والأدعية، وتروقهم الملتزمات الخطية والإنشائية ، كأنما يجدون في ذلك كله مكملا للفخامة والعظمة ، ومظهراً متسماً للرياسة والإمارة .

ولا نحاول هنا استقصاء هذه اللوازم ، فهي كثيرة متنوعة . وقد كفل بيانها كتابا « التعريف بالمصطلح الشريف » لابن فضل الله . و « صبح الأعشى » للقلقشندي . وقد أسهب الأخير في بيانها إسهاباً لا يكاد يترك زيادة لمستزيد .

ونحن نعتمد على هذين المصدرين - ومؤلفاهما من كتاب الدواوين في ذلك العصر — مضيفين إلى ذلك ما لاحظناه منها في الرسائل المتعددة . مكتفين بذكر البعض دون الكل. فلن نتتبع جزئياتها ، إذ غرضنا أن نذكر منها مارسم لنا صورة عامة مما كان متبعاً حينذاك .



صور البدء :

ونعنى بها ابتداءات الرسائل ونحوها من مقـالات وخطب كتب مثلا ، وموازنات . وتبدأ عادة بحمد الله والثناء عليه ، وذكر الشهادتين ، والصلاة والسلام على نبيه الكريم .

ويراعى فى العبارات المسوقة فى خلال ذلك ماسبقت إليه الإشارة من براعة الاستهلال ورعاية النظير. وذلك بأن تكون الألفاظ والمعانى متفقة مع الغرض من الرسالة ، مشيرة من طرف خفى إلى موضوعها .

ومن ذلك خطبة ابن حجة فى مفتتح رسالته «مجرى السوابق» وهى فى وصف الخيل ، قال :

« الحمد لله الذى يقف عند سوابق فضله كل جواد . ويقصر فى حلبة هذا الكرم الذى ليس له غاية فى بديع الاستطراد . فمن ألهمه الحزم وأرشده إلى حد المعرفة حاز قصبات السبق ولا نقول : كاد . نحمده على أن جعل لنا الخير معقوداً بنواصى الخيل . ونشكره شكرا نعلو به على أشهب الصبح ونمتطى أدهم الليل . » . . الخ[1] .

ومن ذلك أيضاً افتتاح عهد الخليفة الحـاكم بأمر الله العباسى إلى ولده المستكفى بولاية الخلافة من بعده ، قال :

« الحمد لله الذى رفع المستكفى به ، لما انتصب بشريف همته للمحل الأسمى . ومنح الأمة به ربيع خفض العيش وجزم أمرهم على الصلاح والتوفيق جزماً . وأدام الأئمة من قريش ونظم لآلىء حكم أحكامهم فى جيد الزمان نظماً . » الخ ...[2]

هذا وربما بدئت الرسالة قبل الحمد، بالبسملة . ثم يقال « من فلان إلى فلان » أو « إلى فلان من فلان » . ويذكران من الأدنى إلى الأعلى .

(١) راجع مجرى السوابق فى « كتاب » « قهوة الإنشاء » لابن حجة . مخطوط .

(٢) راجع باب الرسائل — العهود والمبايعات .

وربما افتتحت الرسائل — وبخاصة ما كان منها مرفوعاً إلى الخليفة أو السلطان — بالدعاء مباشرة . كقول ابن فضل الله .

« أدام الله أيام الديوان العزيز .ولازالت سيوف أوليائه فى رقاب أعدائه محكمة . وصنوف الكفار فى أيدى عسكره الجرار بالنهاب مقسمة »(١) .

وقوله : «أدام الله سلطان الديوان العزيز ولازالت الخلائق بكرمه .ضيفة. والكتائب فى هجير وطيسه مصيفة . والأيام فى نصر أنصاره مصنفة.والمواضى بأوامره فى قبضات عساكره مصرفة »(٢) .

وبعد الحمد أو الدعاء يقال مثلا : « يقبل المملوك الأرض » أو « يقبل العبد الأرض » . ويتلو ذلك عبارات المدح والإطراء على المرسل إليه . ثم يذكر الغرض مصدراً بكلمة « تنهى » أو « نبدى » أو « وبعد » .

ويقال بدلها فى «المراسيم» مثلا : « رسم بالأمرالشريف » . وفى « المناشير » صدر الأمر الشريف أو العالى . وقد يقال : « صدرت المكاتبة » . وقد تفتتح رسائل السلطان بقوله : « منالسلطان الأعظم الملك العالم.. الخ »—وقد تفتتح العهود بقوله : « هذا ما عهد به عبد الله ووليه « فلان » إلى « فلان » الخ .

وقد يتردد لفظ « المولى » أو « مولانا » خطاباً للمرسل إليه ، فى مفتتح الرسالةأو بين سطورها .

ولا يذكر اسمه فى غير المكاتبات السلطانية تعظيما له . ويكتفى بلقبه أو كنيته لأنهما من قبيل التعظيم .

هذا ومن رأى الشهاب الحلبى إطالة التحميدات . ومن رأى ابن فضل الله اختصارها ثم الإطالة فى الوصية أو المـــدح أو نحوهما من الأغراض غير الأساسية فى الرسالة(٣) .

والرسائل الإخوانية تسير وفق المراسلات الديوانية ونظمها . ويبدو أنها لما تتمتع به من حرية كانت أقل التزاما لهذه الرسوم .

(١ ، ٢) التعريف ص ٥ ، ٧ .   (٣) التعريف ص ٨٨ .

ومما يتصل بصور البدء : ألفاظ الخطاب . وقد قلنا إن المرسل إليه تعظيما له لا يذكر اسمه فى غير المكاتبات السلطانية .

وقد حل محل الاسم — فضلا عن اللقب والكنية — تراكيب أو ألفاظ اختص كل لون من الرجال بلون منها .

فمما يخاطب به الخليفة بدل اسمه : الأبواب الشريفة الخليفية : الديوان العزيز وتخاطب بلفظ « أدام الله أيام الديوان العزيز » أو « أدام الله سلطان الديوان العزيز » . أو « خلد الله سلطان الديوان العزيز »

ومما يخاطب به ولاة عهود الخلافة : الجانب الشريف. فيقال : « ضاعف الله جلال الجانب الشريف » و « أعز الله أنصار الجانب الشريف » .

ومما يخاطب به السلطان : المقام العالى . والمقام الشريف . والسلطان الأعظم وقسيم أمير المؤمنين[1] .

ومما يخاطب به ولى عهد السلطنة : أنصار المقام . فيقال : « أعز الله أنصار المقام العالى » .

ومما يخاطب به أمير مكة : « المجلس العالى » . فيقال : « أدام الله نعمة المجلس العالى » .

ومما يخاطب به نائب الشام : الجناب . فيقال : « أعز الله أنصار الجناب الكريم العالى » .

ومما يخاطب به نائب السلطنة : الحضرة وأنصار الجناب . فيقال : « أعز الله أنصار الجناب الكريم العالى[2] »

ومما يخاطب به أهل الصلاح كالقضاة : المجلس السامى الشيخى . أو المجلس السامى الشيخ . وحضرة الشيخ[3] » .

* * *

(١) لعل من الطريف أن نذكر ما رواه ابن إياس فى البدائع ج ٤ حوادث عام ٩٢١ هـ . وهو أن السلطان سليما أرسل مكاتبة إلى الغورى وخاطبه بالمقام العالى . وقال عن نفسه « المقام الشريف » فعد ذلك استخفافا .

(٢) التعريف ص ١٧ وما بعدها إلى ٦٦ .

(٣) التعريف ص ٧٦ .

الأدعية :

وهذه لازمة ندر أن خلت منها رسالة فى أى موضوع . وأكثر ما تظهر الأدعية للمرسل إليه فى مفتتح الرسالة وقبل بيان الغرض منها . وربما جاءت بعد مدح المرسل إليه .

والأدعية متنوعة كثيرة ، وتختلف باختلاف المقامات والمخاطبين وولاياتهم وأعمالهم .

فمما يقال للخليفة مثلا — عدا ما سبق :

« لا زالت آياته محفوظة . وراياته بالنصر محظوظة . وأعداؤه بمصارع بعضها بعضاً موعوظة ولابرح شعاره المرقوم أشرف مادارت عليه المحاجر . ورعبه المعلوم أفتك مما صالت به الخناجر » الخ[1] .

ومما يدعى به لإمام اليمن مثلا :

« لا زال زمانه مربعا ، وغيله مسبغاً ، وقراه مشبعاً ، وكرمه بفيض نداه منبعاً ، وهداه حيث أم بالصفوف متبعا ، وملكه المجتمع باليمن لو أدركه سيف ابن ذى يزن ، لم يكن إلا لديه منتضى ، وتبع لم يكن له إلا تبعاً » الخ[2]

ومما يدعى به لنائب الشام مثلا : « ضاعف الله نعمة الجناب العالى » ، و « لا زالت الدول برأيه مقبلة السعود ، مترقية فى الصعود ، مملوءة الرحاب تارة ببعث البعوث وتارة بوفادة الوفود »[3] .

ومما يدعى به لنائب السلطنة مثلا : « أعز الله أنصار الجناب الكريم العالى » و « لا زالت الممالك كلها فى كفالته . والمسالك على اختلاف طرقها آيلة إلى إيالته . والملائكة حومة على بنوده محتفة بهالته »[4].

ولم تقف الأدعية فى الرسائل عند هذا الحد ، بل كثيراً ما تعددت

---

(١) التعريف ص ٦

(٢) التعريف ص ١٤ .

(٣) التعريف ص ٦٨

(٤) التعريف ص ٦٦ .

سطورها وتكررت عباراتها . وقد أورد ابن فضل الله فى كتابه « التعريف » ألوانا من هذه الأدعية نصبها نماذج للكتاب ليحذوا حذوها .

وقد سجل الجلال السيوطى فى كتابه « الكنز المدفون » جملة من هذه الأدعية اخترعها وجعلها أيضاً قدوة لمن يقتدى . وقال عنها إنها نماذج من الأدعية التى تقال فى المراسلات عقب المدح بحسب حال الممدوح سواء أكان واليا أم أميرا أم قاضياً . . . الخ . ومنها :

« لازالت السعادة تضرب عليه خيامها ، والرياسة تسلم إليه زمامها . ثبت الله قواعد مجده ، وجدد أوقات سعده . أدام الله سعادته ، وضاعف نعمته وأعلى كلمته ، وكبت أعداءه وحسدته . أدام الله سعادته وجددها ، وثبت نعمته وخلدها ، وفرق جموع أعدائه وبددها — لازالت صدقاته مساعفة . ومكارمه تعود على أصحابه بكل عارفة . ولا زال يولى المعروف ، ويأخذ بيد الملهوف . لا زال يقلد الأعناق مننا ، ويدخر عند الله أجراً حسنا . »[1] .

* * *

المدح والألقاب والأوصاف :

ومن المعتاد إسباغ آيات الحمد والإطراء على المرسل إليه — ولا سيما إذا كان تابعاً أو صديقاً أو وليا أو حميا — أو إظهار مفاخر السلطان له وإبداء نعم الله الكثيرة التى تتابعت عليه .

فمن المدح ماجاء على لسان الظاهر بيبرس إلى بيموند أمير الصليبيين بالشام:

« قد علم القومص الجليل المبجل . المعزز الهمام ، الأسد الضرغام ، بيمند فخر الأمة المسيحية ، رئيس الطائفة الصليبية . كبير الأمة العيسوية . ألهمه الله رشده . وقرن بالخير قصده » الخ[2] .

ومن الفخر ما جاء على لسان السلطان ، بقلم الحلبى فى رسالة إلى متملك سيس يقره على ملكه .

---

(١) الكنز المدفون ص ١٣ .
(٢) انظر باب الرسائل ، فصل الرسائل الديوانية .

« فإنه لما آتانا الله ملك البسيطة ، وجعل دعوتنا بأعنة ممالك الأقطار محيطة . ومكن لنا فى الأرض ، وأنهضنا من الجهاد فى سبيله بالسنة والفرض ، وجعل كل يوم تعرض فيه جيوشنا من أمثلة يوم العرض . وأظلتنا بوادر الفتوح . وأطلت على الأعداء سيوفنا التى هى على من كفر بالله وكفر بالنعمة دعوة نوح » الخ [1].

ومن ألوان المدح : الألقاب والأوصاف .

أما الألقاب : فقد تنوعت وأصبح لكل مقام نوع منها . وقد نوهنا بشىء منها عند الحديث عن صور البدء والأدعية . فمنها : « الديوان العزيز » للخليفة و « الجانب الشريف » لولى عهده . و « المقام العالى » للسلطان . وولى عهده و « المجلس العالى » لأمير مكة . و « الجناب الكريم » لنائب الشام ، و « الحضرة ، والجناب الكريم العالى » لنائب السلطنة وهكذا[2] .

وبمناسبة الحديث عن الألقاب نذكر أنه ما من شخص حينذاك إلا اتخذ لنفسه لقباً وكنية بجوار اسمه . وصارت هذه التسميات لوازم لا محيد عنها . ترى ذلك ماثلا بوضوح فى كتب التراجم . ومثال ذلك : أبو اسحاق برهان الدين ابراهيم . وأبو الفضل شهاب الدين أحمد . وهلم جرا .

وكثيراً ما عرف الرجل بلقبه دون اسمه وكنيته ومثال ذلك : تقى الدين السبكى . وربما عرف بكنيته مثل : « أبو الفداء » . وربما عرف بأبيه وجده مثل : ابن خلكان وابن خلدون . وربما عرف بنسبته كالسيوطى والقسطلانى .

والذى نرمى إليه من تسجيل هذه الملاحظة أن الأسماء الأصيلة توارت خلف الكنى والألقاب والنسب .

والألقاب كانت على نوعين :

(١ و ٢) راجع التعريف ص ٧٣ ، ٧٤ أيضاً .

نوع مضاف إلى لفظ « الدين » مثل سراج الدين ، وتقى الدين ، ونور الدين ، وشهاب الدين ... الخ

وهذا الضرب من الألقاب هو الشائع المتبع فى التلقب . وقد كان ذلك مثاراً لتندر بعض الشعراء . . .

وهذا النوع كثيراً مايختصر فيقال على الترتيب : السراج ، والتقى ، والنور ، والشهاب .

النوع الثانى مصوغ على وزن اسم الفاعل مثل الظاهر . أو المفعول من الرباعى أو الثلاثى مثل المظفر ، والمنصور . أو أفعل التفضيل مثل الأشرف — وهذا الضرب اختص به السلاطين دون سواهم . وغلب لقب «سيف الدين» و « السيفى » على الأمراء .

أما الأوصاف ، فأقرب شبها بالألقاب . مثل العالم الزاهد الورع التقى الحليم العادل ... الخ وفى بعض المكاتبات ترى فيضا غامراً من هذه الأوصاف فيتتابع عددها دون وعى .

وعندما تراد المبالغة فى المدح ، يضاف إلى الوصف ياء النسب فيقال على الترتيب : العالمى الزاهدى الورعى التقوى الحليمى العادلى . . الخ .

أو تحول الأوصاف إلى صيغة أفعل فيقال : الأعلم الأزهدالأورع الأتقى الأحلم الأعدل . . الخ ، أو تضاف ياء النسب مع صيغة أفعل فيقال الأعلمى الأزهدى الأورعى الأتقوى الأعلمى الأعدلى . الخ

وهذا كله عبث ألفاظ لاغناء فيه ، ولكنها لوازمهم على كل حال . ومظهر مزاجهم .

وقد فرق القلقشندى[1] بين الألقاب والنعوت — بحسب اصطلاح كتاب زمانه — فاللقب عنده هو ما تكون من لفظ واحد . والنعت ما تكون

(١) صبح الأعشى ج ٦ ، ج ٤ .

من أكثر من كلمة . وعنده أن من الألقاب ماتضاف إليه ياء النسب عند قصد المبالغة ، ومنها ما لا تضاف إليه .

ومن الألقاب ماهو عربي الأصل مثل : الأثير والأمثل والأجل والأشرف والإمام والبارع والبليغ والعادل والعضد .. الخ . ومنها ماهو غير عربي الأصل مثل : « الأتابكى » أى أمير الجيوش ، وأصله « أطابكى » أو « أطابك » أى « أميراب » . والمراد «أبو الأمراء» ومثل الاسفهسلار فى أى « مقدم العسكر » ، وهو مركب من لفظين : « اسفه » وهو لفظ فارسى معناه « المقدم » . ثم « سلار » وهو لفظ تركى معناه « العسكر » — وذكر ابن فضل الله أنه يختص بأمراء الطبلخاناه « أمراء الأربعين » ، وهى إحدى مراتب الأمراء حينذاك . وروى القلقشندى أن هذا اللقب لم يعد يستعمل فى زمانه .

ونزيد على هذا أن هناك ألقاباً كثيرة غير عربية كانت تمنح للأمراء بحسب عملهم على مقدار مراتبهم ، ومنها على سبيل التمثيل : الأستادار « أى أستاذ الدار » ويوكل إليه الإشراف على بيوت السلطان : مطابخه ومشاربه وحاشيته وخدمه . ومنها « الدوادار » ويبلغ رسائل السلطان إليه ، ويقدم القصص والمظالم ونحوها إليه ، مع كاتب السر . و « الجاشنكير » وإليه النظر فى الموائد السلطانية مع الأستادار . ، — وغير ذلك من الألقاب .

وقد لحظنا أن هذه الألقاب غير العربية نادرة الوجود فى الرسائل والمكاتبات الديوانية ، ولم يكثر ذكرها إلا فى كتب التاريخ والتراجم ، كالخطط المقريزية ، وبدائع ابن إياس والضوء اللامع للسخاوى وهلم جرا . ومن هنا نرى أنها لم تكن بذات خطر على الكتابة الفنية .

* * *

الوصايا :

وقد أشرنا إلى الوصايا أكثر من مرة . وهى إحدى لوازم الرسائل لا تكاد تريم عنها . ويراد منها إزجاء النصيحة الخالصة إلى المرسل إليهم . وتنوع فى معانيها الجزئية بتنوعهم حسب مراكزهم واختصاصاتهم وأعمالهم .

وهى فى الجملة تدعوهم إلى القيام بهذه الأعمال بإخلاص مع مراقبة الله فيها ورعاية العدالة . وقد عنى ابن فضل الله العمرى عناية بارزة فى كتابه «التعريف» بتسجيل عدد كبير من الوصايا ، يناسب كل لون منها لونا من الرجال . فهى متنوعة تنوعهم فى أعمالهم واختصاصاتهم . وهى بين موجزة ومطولة . ومنها فى وصية توجه إلى وزير ، قال :

« يوصى بتقوى الله فإنه عليه رقيب ، وإليه أقرب من كل قريب . فيجعله أمامه . وليطلب لكل ماشرع فيه تمامه . وليجعل رأيه فى كل ما تشد به الدولة أزرها . وتسند إليه ظهرها . وليجعل العدل أصلا يبنى على أسه . والعمل فى أموره كلها لسلطانه لا لنفسه . » الخ[1] .

ومنها يوصى نائب قلعة :

« عليه بحفظ هذه القلعة . التى زفت إليه عقيلتها الممنعة . وجليت عليه سافرة دونها السماء بالسحب مقنعة . وسلمت إليه مفاتيحها وخواتيم الثريا أقفال . وأوقدت له مصابيحها وقناديل البروق لا تشب لقفال . فليبدأ بعمارة ما دعت الحاجة إليه من تجديد أبنيتها . وتشييد أفنيتها . وشد عقودها . وعد مالا يحصى فى الذخائر من نقودها . وتنبيه أعين رجالها ، والكواكب قد همت برقودها » .. الخ[2]

وقد مرت بنا نماذج أخرى فى مناسبات سابقة .

* * *

صور الختام .

تختم الرسائل أحيانا بمعاودة الدعاء ، وتارة بكلمة « أنهى » أو « طالع » ، وفى النهاية كلمة « بمنه وكرمه » أو بنحوها

* * *

ملحوظة

لعل من المناسب هنا أن نذكر أن من واضعى نظم الكتابة ورسومها ، فى ديوان الإنشاء ، شهاب الدين أحمد بن فضل العمرى . وأنه فى ذلك قد وضع

(١ ، ٢) التعريف ص ٩٣ ، ٩٤ .

دستوراً أيام شبابه بالديوان ، وظل دستوره مرعيا ونهجا متبعا يحتذيه كتاب الديوان . ثم طلب إليه فى أخريات حياته أن يعيد وضعه وتأليفه ، فوضع كتاب « التعريف بالمصطلح الشريف » وهو الذى ننوه به بعد .

ومن الطريف أيضا أن نذكر أنه بعد وفاة بدر الدين[1] بن فضل الله العمرى كاتب السر ، اختير مكانه « بدر الدين محمود الكلستانى » وذلك فى شوال سنة ٧٩٦ هـ وقد قال عنه شمس الدين السخاوى فى كتابه الضوء اللامع » ما نصه :

« وكان كثير الوقيعة فى كتاب السر لاقتصارهم على مارسمه لهم الشهاب بن فضل الله ، وتسميتهم ذلك « المصطلح » ، وغضهم ممن لا يعرفه . وحاول مرارا أن يغير « المصطلح » على طريقة أهل البلاغة ، ويعتنى بمراعاة المناسبة . فكان ممن قام بإنكار ذلك وشنع عليه فيه «ناصر الدين الفاقوسى» كبير الموقعين . فلما رأى ذلك منه غضب عليه وعزله . وقرر عوضه الصدر أحمد بن الجمال القيصرى بن العجمى . فلما مات الكلستانى ، عاد الفاقوسى . » — وقدمات الكلستانى عام ٨٠١ هـ[2]

هذا وإليك كلمة عن « تعريف » ابن فضل الله .



التعريف بالمصطلح الشريف .[3]

أما « صبح الأعشى » فقد تحدثنا عنه فى مناسبة سابقة . والآن نعرف تعريفا موجزاً بكتاب « التعريف بالمصطلح الشريف » ومؤلفه شهاب الدين بن فضل الله العمرى صاحب مسالك الأبصار . وقد سبق لنا التنويه بهما .

أما كتابه « التعريف » فهو كتاب فريد فى بابه . ولعله أول كتاب ألف

---

(١) بدر الدين بن فضل الله العمرى المتوفى عام ٧٩٦ هـ أحد كتاب السر بمصر ، وهو ابن علاء الدين بن فضل الله العمرى الذى ظل كاتبا للسر بمصر زهاء ثلاثين عاما وتوفى ٧٦٩ هـ ، وهو أخو شهاب الدين — راجع حسن المحاضرة ج ٢ ص ١٤٧

(٢) الضوء اللامع ج ١٠ رقم ٥٥٤ ترجمة الكلستانى وهو محمود بن عبد الله .

(٣) تعريف ابن فضل الله مطبوع متداول .

فى موضوعه . وقد صرح القلقشندى بأنه اعتمد عليه — بين ما اعتمد عليه — فى تأليف « صبح الأعشى » .

وتدل مقدمة الكتاب على أن المؤلف ألفه فى أخريات حياته . ولعله ألفه فى عهد الملك الصالح علاء الدين إسماعيل بن الناصر قلاوون ، إذ كان يقول أحياناً « هذا كان جارياً فى الأيام الناصرية ، أما الآن فى الدولة الصالحية فكذا . . » أو نحو ذلك .

وكان ابن فضل الله قد ألف به « دستوراً » أى قانوناً للآداب الديوانية ورسومها — كما سبق التنويه — . واتخذ منهجاً لكتاب الديوان . ولكنه نسى بمرور الزمان فطلب إليه بعضهم أن يجدده . فوضع « تعريفه » هذا . ليكون معلماً لمن يريد أن يتعلم ما يحتاج إليه العمل فى الديوان .

وقد قسمه سبعة أقسام :

وفى القسم الأول : تكلم عن رتب المكاتبات . أى أنواعها متحدثاً عن الرسوم المرعية فى افتتاحها وصدرها معللا أحياناً اختيارها . وأثبت نماذج لا تحصى مما يكتب فى صدور الرسائل ، وهى مختلفة باختلاف المرسل إليهم ، فمنهم الخليفة وولى عهد السلطنة ونائب السلطان ونائب الشام ونائب القلعة . . . الخ الخ وفى مقدمة هذه الصدور يبين طرق مخاطبة صاحب الرسالة - أى المرسل إليه - وبعض الألقاب أو الأوصاف التى خصص بها وخصصت به . وكاد لا يبقى رجلاذا اختصاص هام فى الدولة إلا بين نماذج مما يكتب إليه ، حتى الملوك والأمراء التابعون أو المحبون للدولة المصرية ، كملوك التكرور مثلا وصاحب دنقلة . والأولون أصدقاء والثانى من الأتباع . — وكذلك ملوك الفرنجة ممن بينهم وبين الدولة صلة ما . وهذا القسم من أهم أقسام الكتاب . وتكلم فى هذا القسم أيضا عن المكاتبات العامة التى تصدر لأنواع من الأمراء فى الدولة ومنهم المقدمون ، وغيرهم .

وفى القسم الثانى : تحدث عن العادات المتبعة فى كتابة العهود والتقاليد والتفاويض والتواقيع والمراسيم والمناشير . وقد بين استعمال كل لون من هذه

المكاتبات . وعرفها واحدا واحداً ، وفرق بين بعضها والبعض الآخر . وقد اعتمدنا عليه اعتمادا كبيرا فى فهم حقيقة هذه المكاتبات والفروق بينها ، وقد اتضح ذلك جليا فى باب الرسائل من بحثنا هذا .

ومن ممتع ما كتبه ابن فضل الله فى هذا القسم « جملة من الوصايا التى تذكر فى العهود والتقاليد والتفايض الخ ، ومنها : وصية نائب سلطنة . ووصية وزير ووصية نائب قلعة . ووصية أستاذ الدار . . . الخ . وترى فى كل وصية من النصائح مايناسب المكتوب إليه . على نحومابينا عند الكلام عن الوصايا . ومن بين وصاياه وصية جامعة « بارعة يوصى بها » قاضيا من أى مذهب كان » . وقد استغرقت نحو ثمانى صفحات . —

هذا وقد امتدت وصاياه من رجال الدولة إلى صناعها وعلمائها فوصى النحوى والمحدث والمتطبب الخ ووصى المنجم والموقت ، كما وصى رؤساء الأديان . الخ .

والقسم الثالث : سجل فيه صوراً للأيمان . وتختلف صورها باختلاف الحالفين ، ومنهم النواب والوزراء والأمراء واليهود والنصارى والمجوس وأشباههم .

والقسم الرابع : تكلم فيه عن المكاتبات التى تكتب بمناسبة الأمانات والدفن والمهادنة والمواصفة والمناسخة ، مبينا نوع كل منها ومناسبته ، وما تتطلبه هذه المناسبة من أقوال وعبارات . وكتب وصوراً من ذلك .

والقسم الخامس : تكلم فيه عن « نطاق كل مملكة وما هو مضاف إليها من المدن والقلاع والرساتق » . فتكلم عن مصر والقاهرة وما يتبعهما من مدن داخلية وما فيها من المنشآت المشار إليها . وكذلك تحدث عن الشام وإمارة حماة ونيابة طرابلس وصفد والكرك .

والقسم السادس : تحدث فيه عن « مراكز البريد والحمام وهجن الثلج ، والمراكب المسفرة به فى البحر والمناور . . . . » وفى هذا القسم معلومات طريفة عن مقاييس المسافات واستعمال البريد وتنظيم محاطه ومراكزه ، وإشارات إلى ما كان منها قبل عصر المؤلف ، بل ومن قديم الزمان . وبيان

الألوان من العادات المتبعة فى إرسال المكاتبات وتسهيل مسير قوافل البريد واستقبالها . إلى غير ذلك .

والقسم السابع : تكلم فيه عن « أوصاف ما تدعو الحاجة إلى وصفه مما يكثر ذكره فى المكاتبات. وقد قسمه سبعة فصول . وحسبك أن تعلم موضوعات هذه الفصول السبعة حتى تشعر بنباهة هذا الكاتب وعلو قدمه فى الكتابة والعناية بها وبأهلها . وهى على الترتيب : الآلات . الحيوان . الأمكنة . المياه وما يلزمها . الكواكب . الأزمنة . الأنواء .

ففى فصل الآلات : وصف السيف والرمح والطير والسكين والسهام والكنائن والأقواس وكل مايتصل بالحرب وآلات الحصار كالمنجنيق وآلات الركوب كالتخت والخاتم . وآلات السفر كالمحفة والمحمل . وآلات الصيد كالفخاخ والشباك والصنانير . وآلات المعاملة كالميزان والكيل . وآلات الطرب كالدف والشبابة والطنبور . وآلات اللعب كالنرد والشطرنج . وآلات السكر كالخمر والكأس والقدح .

وفى فصل الحيوان : وصف الخيول كل لون منها على حدة ، فمنها الأدهم والأشهب والكميت . . الخ . ووصف الأكاديش والحمير الصعيدية . كما وصف الأسد والنمر والفيل والزرافة والكركدن والحمار الوحشى . والمها . . . الخ . . كما وصف حيوان الصيد كالفهد والزغارى والكلاب . . الخ ، ووصف الطيور كالحمام والقطاة :

وفى فصل الأمكنة : وصف «مدينة » و« قلعة » و « مسجدا » و«منبرا ». الخ

وفى فصل المياه ومايلزمها : وصف : البحر والغدران والماء الآجن والسفن والسمك .. الخ .

وفى فصل الكواكب : وصف الشمس والهلال والقمر والنجوم والثريا والجوزاء .. الخ .

وفى فصل الأزمنة : وصف الصباح . وشدة الحر وشدة البرد . وظلمة الليل .. الخ .

وفى فصل الأنواء : وصف الرياح والسحاب والمطر والبرد والثلج .. الخ .

ومن هذه العجالات السريعة ترى مقدار ما اتسع له كتاب « التعريف » ولم تخل سطوره ولاسيما فى مطالع وصفه أو فصوله من لطائف تاريخية نادرة .

غير أنه ينبغى لنا أن ندكر أن أوصافه هذه لم تعد السطور القليلة ، فهو مثلا يصف « القمر » فى ثلاثة سطور أو يصف « الرياح » فى أربعة ، أو يصف « الشبابة » فى سطرين . وهكذا . — وكأنه بذلك يضع نماذج سريعة يقتدى بها من يريد أن ينسج على منواله .

ولا ننكر أن كثيراً من سطوره فى هذا القسم رائع ممتع فيه الجديد المبتكر من التشبيهات والتصورات والتعليلات مما يدل على ذوق اصيل وخيال واسع وملاحظة دقيقة .

وكان من حق هذا الكتاب علينا أن نوفيه حقه من حسن العرض ، لما له علينا من واسع الفضل فى مدنا بالفكرة والنموذج ، فى مناسبات شتى من هذا البحث . ونرجو أن تجزئ هذه العجالة فى هذا المقام.

الفصل السادس

٦ ـ النزعة الموسوعية

نعنى بالنزعة الموسوعية ، الميل إلى جمع المعلومات المختلفة والحقائق المشتتة والنصوص المبعثرة التي تجمعها جامعة ، وتربط بينها فكرة موحدة ، فينقب عليها المؤلف ويفتش عنها فى حنايا مظانها وينزعها من مكانها الذى ربما تكون غريبة فى إقامتها لديه . ثم تحشد هذه المعلومات أو النصوص تحت راية فكرتها المشتركة . ويعمل المؤلف جهده فى التأليف بينها ، وربط بعضها بالبعض الآخر ، وإحكام الصلة بينها حتى تتوثق عراها ، وتبدو بمجموعة ضخمة متراصة المفردات ، متماسكة الحلقات ، مسبوكة فى قالب تأليفى منظم متناسق فيه ربط وتقسيم وتقديم وتأخير حسب أهمية النص مثلا .

بذلك تلبس هذه المعلومات حلة قشيبة وتبدو زاهية مزدانة منطلقة ، لاجتماع الإلف فيها مع إلفه ، والترب إلى تربه . وهناك يجد القارئ فيها لذة ومتعة ونفعاً عظيما لا مثيل له .

ونحن نعتبر هذا العمل التأليفى من أهم الأعمال الأدبية التي ينبغى أن تسجل لصاحبها بالفخار والحمد .

ولا يستطيع تقدير هذا العمل حق قدره ، إلا من دفع بهم هواهم إلى مثله . فعالجوه وعانوه ، فعرفوا مشقته ، وطعموا مرارته ، وصرفوا الجهد والعقل والوقت فى تدبير أمره .

وكثيراً ما يبدو عملهم أمام الناس قليل الضنا والمشقة ، إذ أن الناس يبهرهم دائما المبتكر المجدد ، ولو كان ابتكاره وتجديده تافها لاغناء فيه . ويضفون عليه أثواب الحمد والثناء لجهوده القيمة وأفكاره العصماء .

وشعورنا أن الرجل المبتكر لا يضنى ضنى صاحب النزعة أو العقلية الموسوعية. إذا أنه يحصر ذهنه فى فكرة واحدة يؤمن بها ويعتقدها، وتتراءى لخياله فى كل مسارحه، وتتردد على لسانه فى كل مطارحه. فنى نفسه جملتها وتفاصيلها، وأدلتها وبراهينها. فإذا نضجت فى تفكيره انبعث يدبجها وفى نفسه حرارة، وفى لسانه تدفق، وفى قلبه سيل. أما الآخر فهو وإن كان صاحب فكرة، يرى عوائق تقف دون تدفقه، ذلك لأن « خاماته » لا تزال قابعة فى أضابيرها غافية فى أسرتها وهى لا تستقبل موقظها إلا بطرف فاتر وجفن سقيم ... وفى هذا الصد ما يكسر القلب ويقهر الفؤاد . . . ولكن الأمل وحده هو الذى يدفعه إلى المغامرة ويسلحه بالصبر حتى ينتصر . .

* * *

على أننا نعتقد اعتقادا راسخا أن « الدور الموسوعى » فى التأليف، دور طبيعى لا بد منه، ولا بد للتأليف أو للعقلية التأليفية من أن تمر فيه، تدفعها إلى ذلك ضرورات السياق ومنطق العصور.

ويكون من عوامل هذا الدور أو ممهداته إمعان العلماء فى التخصص العلمى، حتى يصبح كل منهم عالما بفن واحد أو مادة علمية واحدة. ويكون لذلك أثر فى المؤلفات. وهنا تشرئب النفوس وتتطلع الأذهان إلى « دوائر المعارف الجامعة التى تقطف للناس الأطايب، وتجمع لهم أحسن الجنى وتحشده فى طاقات منسقة جميلة.

وقد كانت الظروف مهيأة كل التهيؤ فى عصر المماليك لظهور هذه العقليات الموسوعية التى تجنح إلى التأليف الجامع. وتميل إلى وضع دوائر معارف دقيقة، تكون مراجع ومصادر سهلة المورد ميسرة المقصد تمتع المطالع وتبقى عليه جهده وزمنه لينفقهما فى كفاح جديد.

نقول « مهيأة » لأن العصر العباسى كان قد انتهى وطوى بساطه وانفض سامره، بعد أن ترك للناس تراثا خالدا من علم وأدب وفن. واتسعت فيه دائرة التخصص، ووفرت مؤلفاته فى شتى العلوم والآداب.

ثم جاء عصر المماليك على إثره ورأى الناس فيه بساط الخلافة العباسية وقد

طوى ومدنية بغداد قد أصابها التلف والبوار ، وذخائر العلم فيها قد عبثت بها الأيدى ، ونفائس الدين قد أبلاها أعداء الدين . فكان لذلك رجع بعيد المدى فى نفوس الناس والعلماء ، وكان ذلك ممكنا للنزعة الموسوعية من عقولهم ، فاتجهوا إليها بجمع نفوسهم ، وغرضهم منها أن يحيوا ذلك الموات البائد وأن يبعثوا هذه الحضارة الدفينة ، وأن يعيدوا ذخائر الدين إلى الحياة .

وربما قال بعضهم — أى بعض الناقدين — إن العصر كان عصر تقليد حتى فى الناحية العلمية . ولعل كلامنا هنا عن النزعة الموسوعية يؤيد ذلك . ولكننا نعتقد أنه عصر تجديد أيضا فى العلوم المختلفة بل نعتقد أن كثيرا من علمائه بلغ حد الاجتهاد ، وصرح بعضهم بذلك كتاج الدين السبكى وجلال الدين السيوطى ، ولهم مبتكرات جديدة فى مذاهبهم . — غير أن المجال هنا لا يسمح بالإفاضة فى بيان ذلك .

ونعود إلى نتائج « النزعة الموسوعية » فنقول إنها آية من آيات التجديد فى العلم والأدب .

* * *

وإذا كانت هذه النزعة[1] قد برزت قبل هذا العصر ، فلا يغض هذا من شأنها أو من بروزها فى عصر المماليك . والذى نعتقده أن هذه النزعة قد أخذت فى الظهور فى العصر العباسى . فظهر فى الأدب مثلا أبو الفرج الأصبهانى صاحب الأغانى ، والثعالبى صاحب اليتيمة . وظهر فى التاريخ مثلا الطبرى وابن الأثير . غير أن هذا كله كان كأنه حالات فردية وليست عامة ، أو نعتبره تمهيدا لاكتمال هذه النزعة بعد فى عصر المماليك .

ذلك لأنك لا تكاد تقرأ لأديب أو مؤرخ أو محدث أو مفسر أو فقيه أو غير هذا وذاك ، إلا وترى هذه النزعة بادية فى تفكيره ظاهرة فى عقليته بارزة فى أسلوبه .

---

(١) قد نوه جورجى زيدان فى كتابه « آداب اللغة العربية بذلك » .

ويعتبر الجلال السيوطى من أفضل الأمثلة على العقلية الموسوعية . بدا ذلك فى طرق تفكيره وفى أساليبه معا . وقد ألف نحو ستمائة مؤلف ورسالة ، بين مطول وموجز ، فى فنون شتى ، منها كتب فى التاريخ وأخرى فى الفقه ، وفى الحديث ، وتاريخ القرآن ، وفى التفسير ، وفى النحو ، وطبقات النحاة ، وطبقات المفسرين ، وفى اللغة وفقهها ، وغير ذلك من العلوم والفنون حتى الآداب والإنشاء ألف فيهما .

وفى كل مؤلف على حدة ، ترى هذه النزعة مسيطرة على قلمه ، فهو شديد العناية بحشد الروايات والأخبار والنصوص والأحاديث التى تجمعها جامعة ما فيحشدها فى صعيد واحد .

لهذا ترى أن كتبه دوائر معارف عظيمة القيمة ، كل منها فى بابه .

ونحب أن نخاطب أولئك الذين يحملون على السيوطى وعلمه وتأليفه ، أن يراجعوا حكمهم عليه وينظروا إليه نظرة أخرى ، على ضوء ماذكرنا من نضج النزعات الموسوعية فى هذا العصر .

* * *

والآن نقسم الموسوعات نوعين :

النوع الأول : وهو ماتناول علوما مختلفة وفنوناً متعددة كالتقويم والتاريخ والأدب والقصص والشعر والنثر وغير ذلك . وقد نوهنا بهذا النوع فى باب الوصف ؛ وتحدثنا عن أمثلة منه وهى : نهاية الأرب للنويرى . ومسالك الأبصار للشهاب بن فضل الله وصبح الأعشى للقلقشندى — وإن بنى كل منها على مادة معينة .

النوع الثانى : ما لم يتناول إلا علما واحداً فحسب . وهو كثير الأمثلة . غير أننا نحصر الحديث هنا فى قليل منها : وهى كتب التاريخ وكتب الأدب وكتب الحديث ، وكتب التفسير ، وكتب الفقه ، وكتب النحو ، وكتب اللغة .

كتب التاريخ :

وقد رأينا أن هذا العصر هو العصر الذهبي للتأليف فى التاريخ . فقد تعددت ألوانه ومؤلفات كل لون — على سبيل التمثيل لا الحصر :

ومنها كتب تراجم الأعلام مثل : وفيات ابن خلكان . والوافى بالوفيات للصفدى ، والدرر الكامنة لابن حجر ، والضوء اللامع للسخاوى والمنهل الصافى لأبى المحاسن ، وطبقات الشافعية للتاج السبكى :

وكتب تاريخ مصر والقاهرة مثل : سلوك المقريزى وبدائع ابن إياس ، وحسن المحاضرة للسيوطى ، والنجوم الزاهرة لأبى المحاسن .

وكتب التاريخ العام مثل : البداية والنهاية لابن كثير ، والمختصر لأبى الفداء وزبدة الفكرة لبيبرس المنصورى ودول الإسلام لشمس الدين الذهبى .

وكتب تاريخ الخطط مثل : خطط المقريزى ، والانتصار لابن دقماق .

ومن كتب الأدب :

المستطرف للأبشيهى ، وثمرات الأوراق وتأهيل الغريب لابن حجة الحموى ، وألحان السواجع والتذكرة الصفدية للصلاح الصفدى ، والكنز المدفون للسيوطى ، وحياة الحيوان للدميرى .

ومن كتب الحديث

كشف المغطى فى شرح الموطا ، والجامع الكبير ، كلاهما للسيوطى . وفتح البارى بشرح البخارى لابن حجر العسقلانى ، وعمدة القارى فى شرح البخارى للبدر العينى ، وإرشاد السارى إلى شرح البخارى للقسطلانى — وهذه الشروح الثلاثة من مفاخر مصر ومفاخر عصر المماليك .

ومن كتب التفسير :

الدر المنثور فى التفسير بالمأثور للسيوطى ، وهو كتاب جليل فى ثلاثة مجلدات ضخمة جداً مخطوطة بدار الكتب . والإتقان فى علوم القرآن للسيوطى أيضاً . والبحر المحيط لأبى حيان المغربى .

ومن كتب الفقه :

الكفاية لابن الرفعة فى عشرين مجلدا وهو فى فقه الشافعية . والمجموع وتكملته وهو فى شرح المهذب — والمجموع للنووى ، والتكملة للتقى السبكى — والفتاوى المصرية للتقى بن تيمية فى فقه الحنابلة .

ومن كتب النحو :

مغنى اللبيب لابن هشام ، والأشباه والنظائر للسيوطى .

ومن كتب اللغة :

لسان العرب لابن منظور .

* * *

وبعد فيطول بنا مقام القول إذا ذهبنا نعدد الأمثلة ثم نعرض كل مثل على حدة بما يحقق رأينا فى نضج النزعة الموسوعية فى التفكير والأسلوب معاً . فنكتفى هنا بهذا العرض اليسير إشعاراً بوجود هذه الخصوصية بين خصائص النثر الفنى فى عصر المماليك .

وفى الحق أن هذا الموضوع — وهو النزعة الموسوعية فى التأليف يستأهل دراسة مستقلة مفصلة ، فلعل الأيام تساعفنا بنجازها . والله سبحانه وتعالى الموفق .

* * *

ملحوظة .

أكثر الكتب المذكورة تغلب على أسلوبها نزعة السرد وعدم التأنق فى سوق المعلومات ، وبذلك زايلتها الصبغات الفنية ، أو زايلت كثيراً منها .

بل إن منها — ولا سيما كتب التاريخ — ما التاث بالدخيل من الألفاظ والتراكيب العامية ، فكان ذلك كلفا فى صفحتها ، وتشويها فى عبارتها . وامتد إليه استعمال الدخيل التركى ونحوه والعامى ، إلى غير ذلك .

وهذا وجه من أوجه النقص الذى شان النثر ، بل والشعر . وقد كان الشعر أكثر لوثة بالعامى والدخيل ، وإذا استثنينا نثر بعض المؤلفات ، ولا سيما التاريخية ، ونظرنا إلى نثر الرسائل الديوانية والإخوانية ، والمقالات — والموازنات والمقامات — باستثناء قصة طيف الخيال — وجدنا نثراً فصيحاً سليما بريئا من وصمة العامى والدخيل فى جملته . والكمال لله وحده.

خاتمة البحث

الآن نعتقد أنناوفينا البحث عن النثر الفنى فى عصر المماليك بمصر والشام ، توفية مناسبة للمقام . وأننا قد تناولناه من جميع أطرافه ، ورسمنا للقارىء منه صورة واضحة المحجة ، قوية الحجة ، لامعة الألوان تكشف عن معالمه وأوضاحه ، وتبين صفاته وسماته . وبلغنا من وراء ذلك إلى نتائج استراحت إليها النفس ، بعد ما رأت أن شعب مصر حينذاك لم يكن لتمر عليه قرابة ثلاثة قرون دون أن يكون له نثر فنى ذو قيمة ، فى الوقت الذى انتشرت فيه ثقافته ، وفرضها على غيره من الشعوب

نعتقد أننا بلغنا من فهم هذا النثر مبلغاً محمودا ، ووصلنا من وراء دراستنا له إلى نتائج ذات قيمة ، منها :

١ — أننا أثبتنا أنه كان فى مصر نثر فنى فى عصر المماليك . وشأن مصر فى ذلك شأن غيرها من أقطار العربية فلم تكن مصر بدعا بين هذه الأقطار ولا كانت خلوا من الآداب الحية .

٢ — وأن هذا النثر كانت له خصائص ومميزات ، كونتها بيئاته المختلفة وأمزجة أدبائه وأذواقهم ، فكان رجعا لهذه البيئات والأمزجة والأذواق . شأنه فى ذلك شأن غيره من نثر العصور السالفة . ولم يقل أدباؤه ثقافة ومعرفة بوظائف الأدب ، عن أسلافهم ، — فى جملتهم

٣ — وأن هذه الخصائص سمات فنية دقيقة أتاحت للنثر العربى فى مصر أن يبدو فيها بثوب مصرى لم يخل من جدة وطرافة . وأنه بذلك اكتسب إقليمية تميزه عن غيره من نثر العصور السالفة والأوطان المختلفة .

٤ — وأن هذا النثر قام بما فرض عليه من أداء رسالته فى حياة الشعب المصرى وتوجيهها فى كثير من نواحيها ، على الرغم مما وجد فى سبيله من عقبات ، من شأنها أن تعوقه عن أداء هذه الرسالة .

٥ — وأن الثقافة المصرية التى انتشرت فى آفاق مختلفة فى ذلك العصر الماضى ، كان النثر الفنى فى مقدمة أدواتها ووسائلها . وهذه أبرز نواحى رسالته التى أداها .

٦ — وأن هذا النثر وخصائصه ، بدراستهما درسنا جوانب ذات أهمية من الحياة الفكرية والأدبية للشعب المصرى فى عصر المماليك . ووقفنا على أنه كان شعباً حيا له مبادئ وأهداف .

٧ — وأن هـذا النثر وخصائصه جديران بأن يعيد النقاد ومؤرخو الأدب المحدثون ، نظرهم فيهما ويدرسوهما دراسة جديدة بعيدة عن التعصب ، وألا يزنوهما بموازين النقد فى العصر الحديث ، ويقيسوهما بمقاييس الذوق الجديد ، دون تقدير لظروف الحياة التى كانت تحيط بهما .

* * *

هذه هى النتائج — أو بعض النتائج — التى وصلنا إليها . والتى ما دفعنا إلى تحمل المشقة فى سبيل الوصول إليها . إلا رغبة ملحة فى النفس ، وأمل قوى فى الفؤاد ، أن يكون لنا شرف القيام بخدمة مصر وأدبها وأدب العربية . وأن يكون ذلك بعيداً عن كل نزعة ، إلا نزعة النظر العلمى البحت الذى لا يقيم وزنا إلا للحقائق الثابتة ، وما يوضع منها موضع المقدمات ، وما يستنتج منها استنتاجا منطقياً مدعوماً بالحجة والبرهان القاطع .

ونعتقد أننا بهذا النظر العلمى وحده ، قد استطعنا أن ننصف هـذا العصر المظلوم والمظلوم أدباؤه ، وأن نعيد إلى النفوس الثقة بهم وبأدبهم .

على أننا فى النهاية لا نزعم أننا قد بلغنا من هذا البحث كل مدى ، أو وصلنا منه إلى كل غاية . ولكننا نعتقد أننا فتحنا الطريق للنظر فى هذا الميدان ، أو وضعنا لبنة فى بناء يستطيع أن يبنى فوقها من يشاء . ولنا الأمل أن يعيد الباحثون النظر ، وسيجدون حقائق جديدة تسفر لهم ، ومعها حججها وبراهينها .

والله سبحانه وتعالى ، المسئول أن يهدى إلى الحق ، ويوفق إلى الصواب .

والله أعلم

انتهى

تم

المجلد السادس

من

عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمى والأدبى

ويليه

المجلد السابع

فى

الشعر والشعراء

فهرس الموضوعات

المجلد السادس

فهرس الأعلام

للمجلد السادس

(ب)

(ت)

(ث)

(ج)